

تاريخ الحضارات العالم

٥

القن الثامن عشر

منشورات عويدات
بيروت - لبنان

١	٢	٣	٤	٥	٦	٧	٨	٩	١٠	١١	١٢	١٣	١٤	١٥	١٦	١٧	١٨	١٩	٢٠	٢١	٢٢	٢٣	٢٤	٢٥	٢٦	٢٧	٢٨	٢٩	٣٠	٣١	٣٢	٣٣	٣٤	٣٥	٣٦	٣٧	٣٨	٣٩	٤٠	٤١	٤٢	٤٣	٤٤	٤٥	٤٦	٤٧	٤٨	٤٩	٥٠	٥١	٥٢	٥٣	٥٤	٥٥	٥٦	٥٧	٥٨	٥٩	٦٠	٦١	٦٢	٦٣	٦٤	٦٥	٦٦	٦٧	٦٨	٦٩	٧٠	٧١	٧٢	٧٣	٧٤	٧٥	٧٦	٧٧	٧٨	٧٩	٨٠	٨١	٨٢	٨٣	٨٤	٨٥	٨٦	٨٧	٨٨	٨٩	٩٠	٩١	٩٢	٩٣	٩٤	٩٥	٩٦	٩٧	٩٨	٩٩	١٠٠
---	---	---	---	---	---	---	---	---	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	-----

تاريخ الحضارات العام

تاريخ الحضارات العام

موسوعة في سبعة مجلدات بإشراف موريس كروزيه

١

الشرق واليونان القديمة

أندريه ايمار جانين أوبوايه
أستاذ في السربون أُمينة متحف غيمة

٢

روما وأمبراطوريتها

أندريه ايمار جانين أوبوايه
أستاذ في السربون أُمينة متحف غيمة

٣

القرون الوسطى

إدوار بروجي أستاذ في السربون

٤

القرنان السادس عشر والسابع عشر

رولان موسنيه أستاذ في السربون

٥

القرن الثامن عشر

رولان موسنيه و أرنست لابروس
أستاذ في السربون أستاذ في السربون

٦

القرن التاسع عشر

روبير شنييرب أستاذ فخري في الدراسات العليا

٧

العهد المعاصر

موريس كروزيه مفتش المعارف العام في فرنسا

تاريخ الحضارات العام

بإشراف

موريس كروزيه

مفتش المعارف العام في فرنسا

المجلد الخامس

تاريخ الحضارات العام

القرن الثامن عشر

عهد الأنوار

تأليف

رؤلان موسنييه و إرنست لأبروس
أستاذ فيت السريون أستاذ فيت السريون

بالاشتراك مع

مارك بولوازو
دكتور في الأدب

نقله الى العربية

يوسف أسعد داغر فريد م. داغر

منتورات عويدات

بيروت - لبنان

جميع حقوق الطبعة العربية في العالم محفوظة لدار
منشورات عويدات
بيروت - باريس
بموجب اتفاق خاص مع المطبوعات الجامعية الفرنسية
Presses Universitaires de France

الطبعة الثانية ١٩٨٧

مدخل

لقد درج « ميشليه » في معرض كلامه عن هذا القرن الثامن عشر ، على ان يدعو ، بلهجة النبوية : « القرن العظيم » . اما « رينان » فقد تصرف تصرفاً على بعض الاستخفاف حيال عصر « نعم الانسان فيه بحرية الفكر » ، ولكنه في الواقع لم يفكر كثيراً فكان الكسب ضئيلاً ، ان ميشليه قد نظر ، والحق يقال ، نظرة مغالاة الى قوة القرن الثامن عشر الخلاقة . ويرى « بول هازار » ان آراء هذا القرن قد اكتمل تكوينها في القرن السابع عشر ما بين السنة ١٦٧٠ والسنة ١٧٠٠ ، وكان يمكنه ان يرقى الى ما قبل هذه السنوات . فان ما حققه القرن الثامن عشر هو في الدرجة الاولى نقل بعض التحصيلات والتوسع فيها ، وهذا ما رآه رينان بكل وضوح .

بيد ان القرن الثامن عشر يحضر العالم المعاصر وينبئ به ، بمواصلة اعمال شرع بها في القرن السالف ، وفاقاً لمبادئ سبق اقرارها ، وفي اتجاهات معينة سبق تحديدها . ان خطوطاً كثيرة من خطوط الازمنة اللاحقة ترسم فيه . المعلوم تتطور تطوراً مدهشاً وتؤلف صرحاً كاملاً تتوجه العلوم الاجتماعية . الانسان يتعلم كل يوم ، ويعمق النظر ، ويرى ، ويبدو له ان الظلمات تتقهقر : انه : « قرن الانوار » . تقدم المعارف ينمي الايمان بتقدم الانسانية تقدماً مستمراً شطر حالة عليا . ويشجع الكثيرين على ازدهار بالماضي يدفعهم الى نبذ المعتقدات القديمة والنصوص القديمة ، وبالفعل نفسه الى نبذ الحقائق التي تنطوي عليها وتعتبر عنها ببساطة ، بلغة وبيان مختلفين . فنجم عن ذلك بعض الازدهار بالمصور القديمة وعناء للكاتوليكية ، وقد نظر اليها معاً كما الى خرافات مضرة يجب نبذها . وفقدت الكنيسة الكاثوليكية الى حين بعض نفوذها وتقهقرت الكاثوليكية في كافة المحاء العالم . وهذا ما يفسر قيام مفاهيم جديدة للعالم ، مفاهيم العقلانيين ، ومفاهيم القائلين بالدين الطبيعي ، ومفاهيم الماديين ، وقد ذهب بعضهم الى ابعاد من ذلك ، فرأوا ما يلاقيه الانسان من صعوبة في ادراك كنه الكون ، وتادوا بمحجز العقل البشري اذا ما اراد تخطين حدود الاختبار وعلم الحساب ، وحدود معرفة الطواهر ، ولم يكونوا اقل عداء للتفسيرات القديمة حول نواميس العالم العامة ، فانباوا بالعنادية والفلسفة الوضعية المعاصرتين ، بينا بردت هم غيهم جفاف العلم والعقل ، فانساقوا وراء نزوات قلوبهم ، وعدوا رومنطيقيين من قبل ان توجد الرومنطيقية .

وبلغ من تكامل التقنيات ان حدثت ثورة عسكرية ، وشبه ثورة ملاحية ، وحدثت في انكلترا ثورة صناعية ثانية ما لبثت ان تركت اثرها في البر الاوروي . ان اوروبا تتقدم الى الامام في عصر التقنية هذا مع ما انطوى عليه من نتائج اجتماعية .

في اوروبا ، ولا سيما في فرنسا ، تتحقق الاكتشافات والنجاحات . ان اوروبا ، بقيادة فرنسا ، تتقدم العالم بأسره . ففرنسا التي تقوم بينها وبين انكلترا منافسة سياسية واقتصادية ، تسيطر بالروح ، وقد بلغ من تفوقها الفكري ان اخذ مثقفو ذلك العصر يتكلمون عن « اوروبا الفرنسية » . وقد احرز الاوروبيون هذا التفوق ليس بفضل هذه القوى التي نقصد بها المعارف العقلية والمعارف العملية ، اي العلم والتقنية فحسب ، بل بتكامل تنظيم الممالك الهامة (الذي هو تقنية ايضا من جهة ثانية) حيث نرى على العموم نزعة الى تطور مطرد مستمر في الدولة القوية التي تستخدم لمصلحتها ، استخداماً متزايداً ، وبواسطة ادارة حصرية متعاطلة ، قوى مواطنين لا تباعد بينهم فوارق اجتماعية كبرى في اغلب الاحيان . ولكن هذه الدول ، على الرغم من اوجه الشبه بينها ، الديانة المسيحية ، وانتشار مذهب العقلين ، وجاليات واحدة ، ولغة فرنسية مشتركة ، لم تتحد قط بل تنافست وامتشتت السلاح ؛ فليس هنالك من اوروبا سياسية .

بيد ان اوروبا تركز من التقدم العلمي والتقني ما يحملها تتخطى تحطياً بعيداً ، بقدرتها على العمل ، الحضارات الآسيوية القديمة نفسها التي لم تركز عليها ، لمدة طويلة ، تفوقاً حاسماً . تواصل اوروبا فتح العالم واحتلاله وتطويره . الا ان الدول الاوروبية المنقسمة تتنازع العالم . الدول الاوروبية الهامة تتعارب في كافة الاوقيانوسات وكافة القارات ؛ فهناك منذئذ سياسة عالمية . لا بل هنالك ، منذئذ ، جامعات اوروبية تنمو خارج اوروبا ، وينجز بعضها نموه ، حتى ان احداها ، وهي التي ستعرف مستقبلاً عظيماً ، تعي شخصيتها وتنفصل عن الوطن الام وتؤلف امة جديدة منافسة لاوروبا القديمة : الولايات المتحدة الاميركية .

انتهى تطور القرن الى ثورة . ففي كافة الحما اوروبا نرى تزايد تداول الذهب والفضة ، وازدياد عدد السكان ، ونمو حجم المبادلات مع بلدان ما وراء البحر ، تفضي الى رفع الاسعار الحقيقية وتفتح اسواقاً جديدة وتضاعف المكاسب . في كل مكان تتوسع المدن وتكتظ بالسكان ، وتنمو البورجوازية عدداً وقوة ، الا انها تصطدم بالارستوقراطيات والسلطة المطلقة الا في انكلترا الاوليفارشية حيث يحسن البورجوازيون وضعهم المدني والسياسي تحسيناً منتظماً .

وانما يبرز هذا التطور في فرنسا بصورة خاصة . البورجوازية تغدو فيها الطبقة الاولى . الفلاحون والعمال يخضعون لها . تثيرهم على طبقة النبلاء والاكليروس ، المستفيدين العكبرين من النظام القديم ، اللذين يدافعان عن وضعها بإقصاء البورجوازيين عن الوظائف والمراتب الرفيعة ، وعلى الملكية التي تقتصر الى الحزم الضروري لتحقيق التغييرات اللازمة .

في السنة ١٧٨٩ ، انضمت الى هذه الازمة السياسية ازمة اقتصادية وازمة مالية القى الجميع

مسؤوليتها على الحكومة والمؤسسات . تسلمت البورجوازية زمام الحركة الثورية . ألغيت الجماهير جنود الاصطدام . قضت البورجوازية على « الاقطاعية » وحررت الفرد البورجوازي . واستطاعت بفضل المساواة المدنية والملكية المصونة والمقدسة وسيادة الامة ان تضمن لنفسها ادارة المجتمع الجديد ومكاسبه والتصرف باموره .

منذ السنة ١٧٩٢ حتى السنة ١٧٩٥ ، أبرزت الحرب الاجتماعية بين المجتمع الجديد والمجتمع التقليدي ، استحداثات مشددة : الوحدات الحسابية الجديدة للعالم المعاصر ، مليون البشر ومليار الفرنكات ؛ النظم السياسية والاجتماعية الجديدة : الدكتاتورية ، الديموقراطية ، الارهاب ، الاقتراع العام ، الجمهورية ، وهي « اشتراكية » دام ذكرها كأسطورة ونبوءة .

استولى الرعب على البورجوازية ، فلبجأت الى الجيش . جاء نابليون بونابرت ، القائم بأعمالها ، يثبت الثورة ويؤمن للبورجوازية خير احرازاتها .

في عالم الحضارة الاوروبية ، غدا الاعلان البورجوازي لحقوق الانسان والمواطن الجميل جديداً . تململت الشعوب واندلعت الثورات . ولكن ردة فعل الملوك والارستقراطيات كانت إرهاباً ايضاً . منذ السنة ١٧٩٢ حتى السنة ١٨١٥ قامت بين فرنسا واوروبا حرب اجتماعية اممية ، حرب دعاوة وتوسع ثوريين ، حرب دفاع عن « الحضارة » . فافضى دمج البلدان المحتلة وخلق الدول التابعة الى نشر النظم الاجتماعية والمؤسسات الفرنسية في كل مكان . وللتغلب على فرنسا ، اضطر الملوك لأن يقتبسوا طرائقها واساليبها . وعلى الرغم من هزيمة فرنسا وردة فعل السنة ١٨١٥ ، فان وجه العالم قد بقي متغيراً . « فانما نحن حفدة القرن الثامن عشر المباثرون » .

القسم الأول

القرن الأخير للنظام القديم

الكتاب الأول

الأنوار

الفصل الأول

روح القرن

١. - الأسلوب

لقد درج القول بأن ملكية ديكارت الفكرية انتهت في القرن الثامن عشر
ديكارت، نوك
نيوتون
وانها افسحت المجال للملكية لوك ونيوتون. هنالك لمعري نصوص تبرز وجهة
النظر هذه. فان «فلاسفة» كثيرين يستخفون بديكارت بسبب تركيباته العقلية
حول الآلية ومذاهبه في الزوابع التي زعم الفيلسوف بأن يفسر بها الكون. وقد رأى فيها معارضوه
مجرد نسج خيال، اذ ان نتيجة واحدة قد تفضي اليها آليات مختلفة جداً . فنظروا الى ديكارت
كما الى قائم عقل وغائص في أضغاث الاحلام . وعزا «دالمبير» اكتشاف علم ما وراء الطبيعة
الى «لوك» وعلم الطبيعة الى نيوتون . وتكلم فولتير بإزدراء عن «الروايات» الكروتزيانية
وحدد التاريخ الذي يجب ان يعتبر تاريخ هزيمة ديكارت حتى في وطنه فرنسا : ١٧٣٠ .

الا ان نصوصاً اخرى تنظر الى ديكارت كما الى سيد الفكر الاعظم في القرن الثامن عشر .
لنقص فونتنيل المعجب جداً بالمعلم . فقد كتب فولتير في السنة ١٧٣٣ : « ان من ارشدها الى
طريق الحقيقة قد لا يكون اقل قدراً من ذاك الذي بلغ نهاية هذه الطريق منذ ذاك الحين »
(الرسالة الانكليزية الرابعة عشرة) . و اضاف دالمبير الى ذلك ، في السنة ١٧٥١ ، في خطبته
التمهيدية لدائرة المعارف :

« بيد ان ديكارت قد تجاسر على إرشاد العقول السليمة الى خلع نير الطاعة للفلسفة المدرسية
والرأي والسلطة ، وبكلمة موجزة للآراء المقبولة قبل التحقيق واللمجية ؛ ولعله ادى للفلسفة .
بهذا التمرد الذي نجني ثماره اليوم خدمة اجل من كل ما تدين به لمشاهير خلفائه ... واذا ما
انتهى الى الاعتقاد بتفسير كل شيء ، فهو قد ابتدأ بالشك في كل شيء ؛ والاسلحة التي نستخدمها
لحاربه لا تفقد شيئاً من نسبتها اليه لاننا نوجهها اليه ... » .

وكتب « تورغو » في دائرة المعارف : « ان نيوتون قد وصف البلاد التي اكتشفها ديكارت »
وان « لوك » و « بركلي » و « كونديلاك » و « جميعهم ابناء ديكارت » . وفي السنة ١٧٦٥

فاز توما ميجائزة الاكاديمية الفرنسية بسبب ثنائه على ديكارت : فهو قد اشار الى اننا اذا كنا قد تخطينا عن آراء كثيرة طلع بها ، وليس هذا ما حدث ، فاننا قد سرنا بأمانة على طريقة تفكيره . كما ان « كوندورسيه » نفسه ، المشايخ للوك ونيوتون ، قد عنون الزمان التاسع ، في « اللوحة الاليجازية لنجاحات الفكر البشري » منذ اوائل البشرية ، التي انجزها في السنة ١٧٩٤ ، بما لا يخلو من مغزى : « منذ ديكارت حتى الجمهورية الفرنسية » . فهو معجب بالفترة التي تبتدىء « منذ ان احدثت عبقرية ديكارت ، في العقول ، هذه الانطلاقة العامة » مبدأ الثورة الاول في مصائر المجلس البشري » . وأكرم ديكارت وُجد وُرجع اليه كذلك في لندن وبرلين وليبنغ . ان ديكارت ، في نظر « الفلاسفة » يفتح عهداً من عهود البشرية يضم القرن الثامن عشر .

قد يستنتج بالتالي من هذه النصوص ان القرن الثامن عشر قد رفض علم ما وراء الطبيعة وعلم الطبيعة اللذين طلع بهما ديكارت واحتفظ بأسلوبه . فما هي حقيقة الامر يا ترى ؟

كان ضرورياً في نظر ديكارت ، لإرساخ حقيقة العلوم الطبيعية الرياضية ،
بين ديكارت والالين ^{الزجاج} ربط هذه الاخيرة بمبادئ ميتافيزيقية ثابتة . وقف موقفاً حذراً من كل ما هو حسي وفعلي ، فادعى بتفسير الكون بمبادئ أكيدة لانها واضحة وجلية . تأكد من وجود الله ، وتأكد بواسطته من وجود العالم الخارجي ، وحد بين المادة والامتاع ، واقعد على البساطة والقرار الالهي بمبادئ ثبوت الاجرام ، ودوام الحركة ، والصلابة ، والمبدأ العام لتصادم الاجسام ، واستخلص من ذلك سبع سنن للصدمة ، كما استخلص البعد ذلك ، بانتقالات المادة الرقيقة والزوابع ، كافة الآليات التي تفسر الظواهر . فعند الكون من ثم استخلاصاً ضخماً ، انطلاقة من بعض الافكار الواضحة والجلية . لقد آمن ديكارت بحقيقة هذا الاستخلاص . وكان مقتنعاً بان تحليل الافكار هذا قد اوقفه على حقيقة تركيب الكون الرياضي المستتر تحت الظواهر . وكان مقتنعاً كذلك بانه بلغ وجود الاشياء وبأن هذا الوجود رياضي . فكان تعليمه قياساً رياضياً في علم الكائنات .

ولكن رفاق نضاله ضد تعليم ارسطو ، الالين ، « مرسين » ، « روبرفال » ، « باسكال » ، « هوبس » ، لم يبرهنوا اذ ذاك عن اقتناعهم . لم يسلّموا بضرورة ربط العلوم الطبيعية بمبادئ ميتافيزيقية . فان « غسندي » في اعتراضاته على « تأملات » ديكارت ، قد لفت نظر الفيلسوف الى ان حقائق الهندسة وحقائق العلوم الطبيعية الرياضية لا ترتبط بوجود الله : فهناك اشخاص عديدون يزعمون بالله ، ولكن واحداً لا يرتاب ببراهين الهندسة . ورفض الالين أسلوب ديكارت الاستنتاجي ، فن المستحيل الحكم بحقيقة فكرة استناداً الى وضوحها . وليس تفسير تكون الظواهر بتقلبات الزوابع والمادة الرقيقة سوى مجرد اسطورة . يجب التمييز ، في الافكار الواضحة ، بين الافكار الحقيقية والافكار الوهمية ، وهذا يستحيل معرفته الا بالاختبار ،

قاعدة العلوم الطبيعية . سلموا بذهب ديكارت العقلي الكمي ، ولكنهم أكملوه بمذهب عقلي اختياري . يضاف الى ذلك من جهة ثانية انهم لم يؤمنوا بإمكان معرفة كل شيء ولا ببلوغ كنه الاشياء . فالواقع في نظرهم يتعدى مفاهيمنا تعددا لامتناهيا . وكان رأيهم ان العلوم الطبيعية الرياضية تتبع لتحقيق تراكيب سهلة الاستعمال ومفيدة ، ولكن هذه التراكيب لا ترفع النقاب عن الحقيقة في ما وراء واقع الظواهر . الصوت حركة في نظر عالم الطبيعة ؛ وهذه الحركة قابلة القياس ، فهم بذلك اسبأدها ؛ ولكن المعرفة الكمية لا تعطيهم سوى مظهر من مظاهر الواقع ، وليست من ثم سوى تجزئة وتقطيع . كان الآليون سائرین بالجهااتهم شطر مذهب العملية الذي يدعي معرفة الحقيقة بقيمة نتائجها العملية .

كان نيوتون قد بنى أسلوب الآلين وحارب « افراضات »
انتصار الآلية النيوتونية
ديكارت في علم الطبيعة . وكان التحالف السياسي بين انكلترا
في هولندا والائر الهولندي
وهولندا البروتستانتيتين ضد فرنسا قد يسر العلاقات بين
المعلماء الهولنديين والمعلماء الانكليز . لذلك ، وعلى الرغم من ان هولندا كانت مهد الكرتزيانية ،
وان علم الطبيعة الكرتزياني قد وجد فيها خير تعبيره المنسق في « قاموس » « شوفين » ، الذي
احيد طبعه في السنة ١٧١٣ ، كانت الفلبة لنفوذ نيوتون في اوائل القرن الثامن عشر . فعدا
« غرافساند » صديقا لنيوتون خلال رحلة قيام بها الى لندن في السنة ١٧١٥ . وفي السنة
١٧١٧ حمل « موشنبروك » في لندن تحت إشراف العالم الانكليزي . وبين السنة ١٧١٥ والسنة
١٧٣٦ ، وفي خطب استخدمت مقدمات لابحاثهم في علم الطبيعة والكيمياء ، اطرى الطبيب
والكيميائي « بورهاف » والعالمان بالفلك والطبيعات غرافساند وموشنبروك ، في العلوم
الطبيعية ، أسلوب الآلين الاختياري : ولكنهم قلما استشهدوا بديكارت وتناشوا
الآلين الفرنسيين تناسيا كليا ، وربما كان ذلك بداعي عداثهم لفرنسا التي حاربوها منذ امد
قصير والتي ما زالت ظئينة اوربوا الكبرى . اما الذين اتوا على ذكرهم وغالوا في مدحهم فهم
« بيكون » ، « وغاليليو » ، « ونيوتون » في الدرجة الاولى . ويؤكد موشنبروك الذي ترجم في
السنة ١٧٣١ الاختبارات التي اجرتها ، ما بين السنة ١٦٥٧ والسنة ١٦٦٧ ، « اكاديمية الابحاث »
الفاروسية ، انه لا يجوز فصل هؤلاء الثلاثة ، كما يطيب لبورهاف ، منذ السنة ١٧١٥ ، ان
يناقض الصواب وينسب الى بيكون كافة النجاحات المحقة في العلوم . واتوا كذلك على
ذكر « توريشلي » ، و « هوفلس » ، و « بويل » ، و « ليبليز » ، واغفلوا كافة الفرنسيين باستثناء
« ماربوت » ، والبروتستانت « ديزاغوليه » . فيتضح من ثم ان مسؤولية الطلوع بفكرة علم
عصري ، ايطالي وانكليزي في جهره ، ولا سيما انكليزي ، تقع على كاهل الهولنديين وقد
احرزت هذه الفكرة نجاحا عظيما .

ولا عجب في ذلك ، اذ ان « علماء الطبيعيات » هؤلاء قد احتلوا في حق العلم مركزا
متمبرا زاد من رفعة مركز الاقاليم المتحدة التجاري . تهافت عليهم الطلاب من كافة انحاء

اوروبا لتحصيل العلم تحت إشرافهم . وغدت لايدن مركزاً علمياً أوروبياً . ومنذ السنة ١٧٢٤ نشر تلامذة بورهاف الفرنسيون في باريس ما القاء عليهم من دروس قبل ان اصدرها المؤلف في هولندا بثمانى سنوات . وقام « لامتري » و « دي فاي » والاب « نوليه » وفولثير برحلة الى هولندا وأوثقوا عرى الصداقة بالعلماء الهولنديين . فانتشرت الآراء الهولندية بفضل تراجهم ومؤلفاتهم في علم الطبيعيات . وليست « خطبة » « ديلاند » الشهيرة في خير طريقة لاجراء الاختبارات (١٧٣٦) سوى اقتباس عن موشنبروك . وفي رأيهم جينفاً ان السنن التي تسير الكون « تخضع لارادة الكائن الاسمي الذي لم يوح بها الينا ؛ لذلك كان علينا ان نفتهل معرفتها من الظواهر » . فيجب من ثم « ان نلاحظ بعين ساهرة كافة حركات الطبيعة » ، ونسير على خطى نيوتون « الذي كان اول من اقصى عن علم الطبيعيات كافة الافتراضات ولم يسلم الا بما يمكن التثبت رياضياً من انه سلسلة من الظواهر » (سغرافساند) .

كان هذا الاسلوب من ثم متناقضاً في نقاط جوهرية واسلوب ديكارت .
 الاختلاط
 بين الكرتزيالية والآلية
 فكيف استطاع الفلاسفة ، والحالة هذه ، الاعتقاد بانهم ساروا بأمانة على خطى الفكر الكرتزياني ؟ في البدء قارم الكرتزيانيون في فرنسا مقاومة طويلة . « فعين ظهر كتاب « عناصر فلسفة نيوتون » (١٧٤٥) كانت الكرتزيانية ما زالت مسيطرة حتى في اكاديمية العلوم في باريس » (كوندورسيه) . مشتركاً بين التفسيرين ، الكرتزيانية والنيتونية ، كان الجهد المبذول بغية ايجاد تفسير كمي وآلي لكل شيء ، ومشاركاً ايضاً بين علماء المدرستين كان الاسلوب ، اسلوب الآلين . منذ ظهور « خطبة في الاسلوب » لم يدرك علماء الطبيعة الذين افتخروا بالكرتزيانية بمجل فكر ديكارت ولم يروا منه سوى المظهر الآلي . فات « ريجيوس » ، منذ السنة ١٦٤٦ ، « وكوردموه » ، منذ السنة ١٦٦٦ ، « وروهو » ، في السنة ١٦٧٥ ، و « ريجيس » ، في السنة ١٦٩٠ ، و « فونتنيل » اخيراً ، المدافع الاكبر عن ديكارت منذ كتابه « احاديث حول تعدد العوالم المأهولة » (١٦٨٦) حتى كتابه « نظام الزوابع » (١٧٥٢) ، يجاهرون كلهم بأسلوب الآلين العلمي ، مع انهم يقولون كلهم بنظرية الملء والزوابع . اختلطت الكرتزيانية بالآلية البحتة . لم يكن ديكارت كرتزيانياً . وحين يتكلم « الفلاسفة » عن دور ديكارت كسيد الفكر ، فانهم انما يفكرون بالآلية وباساليب العلم الاختباري وروحه . واذا ما بقي لديكارت أثره الكبير في القرن الثامن عشر ، فبرد ذلك جزئياً الى الاختلاط والتجزئة العقلية في مؤلفاته . بيد ان هذا الاختلاط كان نتيجة حدث تاريخي : لم تقتصر الآلية الا مع ديكارت وديكارت وفي ديكارت . ولعل هذا الاختلاط عكس واقعاً آخر ايضاً : اعترف العلماء بالضعف البشري فقبلوا مكرهين بمذهب العقلين الاختباري ، ولكن اليس مثل الآلية الاستنتاج الكرتزياني ، المعتقد من المحسوس والكمي ، انطلاقة من افكار واضحة وجلية ، والكون ممثلاً بهندسة مترامية الاطراف ؟

٢ - ظروف العمل

ان الكرتزيانية والنتائج المحققة حولت الرغبة الحارة في المعرفة نحو العلوم في شغل الجماهير الدرجة الاولى . فاستثير شغف حقيقي بكافة علوم الطبيعة ، اي « بعلم الطبيعيات » . وقفرغ لها اناس من كل الطبقات ، لا سيما في فرنسا ، وفي بعض البلدان الاخرى ايضاً . فتعددت وسائل التعلم . وازدادت مجموعات الحيوانات والنباتات والحجارة ، كما ازدادت « دور » علم الطبيعيات ازدياداً مطّرداً : فتكون او تأسس منها لدى الدوقية والقضاة ورؤساء الاديرة والاطباء والسيدات والمجموعات الدينية . وكان للويس الخامس عشر مجموعاته و « دوره » الخاصة ، بالاضافة الى « دار » الملك وحديقة الملك اللتين أسسها لويس الثالث عشر ووسعها « بوفون » بمضاعفة مساحة الحدائق ، وبناء المدافئ الزجاجية ومسرح للتعليم ، وتقديم المجموعات التي ارسلتها اليه كاترين الثانية ، واستنارة حماس الجيسع : فقدمت السيدات الهبات كي ترد اسماءهن في « التاريخ الطبيعي » ؛ وكوفىء الوكلاء والموظفون الذين جمعوا له النماذج في المستعمرات بشهادات رسمية تعينهم « مراسلي غرفة الملك » . واثبتت رؤية هذه المجموعات العامة والخاصة بسهولة للهواة . وألقيت محاضرات علنية بغية حل الجماهير على تذوق العلم . ومنذ السنة ١٧٣٤ التقى الاب لوليه في باريس محاضرات حصرها في علم الطبيعيات الاختباري : لم يتعرض فيها للنظريات ولم يستخدم الرياضيات ، بل اكتفى باحضار آلاته وإثبات ما لوحظ مباشرة . فأعطى بذلك عن العلم فكرة ناقصة ، لان العلم هو ، قبل اي شيء آخر ، سلسلة براهين يتوصل اليها الحساب ويثبتها الاختبار ، ولكن مستمعيه لم يجدوا اية صعوبة في فهم ما يلقيه عليهم ، فأحرز نجاحاً عظيماً واستمال الكثيرين الى العلم . وازدحمت في الشارع الذي اقام فيه عربات الدوقات اللواتي كن راغبات في اضطرار نشاطهن وحماسن . وحين اسند اليه الملك ، في السنة ١٧٥٣ ، القاء دروس علم الطبيعيات الاختباري في كلية « نافار » ، اضطرت هذه الاخيرة لان تفتح ابوابها امام الهواة : فقد بلغ مستمعو لوليه السجاية . وفي حديقة الملك ، كان الكيميائي « رويل » يشرح في القاء درسه ممتراً جمة مستعارة ومرتدياً اكماماً مطرزة . ولكنه كان يتنشط فينزع اكمامه وجمته ثم يخلع ثوبه ويلتقي بنضو صداره عنه ويكمل درسه مرتدياً القميص فقط ، فتلتقل حياه الى مستمعيه . والقيت مثل هذه الدروس في كليات الولايات وفي مدن كثيرة من فرنسا وهولندا والمانيا . وامن اناس كثيرون سبل معيشتهم بانتقالهم من مكان الى آخر لاجراء اختبارات في علم الطبيعيات : وكانت الكهرياء ما استهوى الجماهير واستأطها . ونشرت كتب كثيرة ، ينطوي بعضها على قيمة كبرى ، لجعل العلوم في متناول الجميع ، ك « مشهد الطبيعة » للأب « بلوش » ، و « دروس علم الطبيعيات الاختباري » للأب لوليه (١٧٤٨) ، و « التاريخ الطبيعي » لبوفون و « تاريخ الكهرياء » لبريستلي (١٧٧٥) ، بالاضافة الى العديد من الموجزات والقواميس والكتب المدرسية التي اصدت تباعاً واعيد

طبعها تكراراً . وكُرسَت الصحف اعمدة طويلة للمؤلفات العلمية ؛ وقد تخصص بعضها في المنشورات العلمية .

عمت البلاد « فورة تعلم » و « حى فهم » لم يكونا جديدين ولكنها غدتا اقل ندرة . فان « جنيف دي مالبواسير » مثلاً ، التي تنتمي الى اسرة ثرية من رجال المال ، وتعرف اللاتينية واليونانية والانكليزية والاطالية والاسبانية ، وتؤلف المآسي والمهازل ، قد طلبت من يلقيها دروساً خاصة في الرياضيات وتعلمت لـ « فالون دي بومار » في علم الطبيعيات والتاريخ الطبيعي وقرأت بوفون . كما ان ابنة احد النقاشين ، وهي التي ستصبح السيدة « رولاند » ، قد درست الرياضيات وعلم الطبيعيات ، وقرأت الاب نولتيه ، وعالم الطبيعيات والتاريخ الطبيعي « ريومور » والرياضي والفلكي « كليرو » . ودرس فولتير الرياضيات وجعل منجزات نيوتون في متناول الجميع . وقابـ « ديدرو » دروس التشريح وعلم الوظائف والكيمياء باشراف « رويل » طيلة ثلاث سنوات ، وخلف اصولاً هامة في علم الوظائف . ودرس « جانـ جاك روسو » الرياضيات وعلم الفلك والطب وحرر « انظمه كيميائية » مسهبة جداً . وقام فرانكلين باختبارات كهربائية . وواصل « غوته » بحاثته في البصريات وعلم النبات . وتلقى ولي عهد فرنسا دروساً في علم الطبيعيات ، وكان جورج الثالث ملك انكلترا عالماً بالنبات ، واعاد « فكتور ـ اميداي » الثالث امير « سافوا » اختبارات الاب نولتيه .

لا ريب في ان الاكثريه خلال القرن السابق كانت قد كُرسَت مزيداً من الوقت لتمييز ادق فروق الشواعر البشرية ، والبحث طويلاً عن خير المفردات والصيغ للتعبير عنها باقتان وقوة وطلاوة وملاحة . ولا ريب كذلك في انها كانت تناولت الاقدمين بمزيد من التأمل لتكتشف في ما خلفوه بعض الايحاءات بصدد شواعر مجبولة او شواعر أسيء فهمها او مناويل تلسع عليها . وكانت قد استعانت بممارسة فحص الضمير والاختلاف الى كرسي الاعتراف ، ومحاولة بلوغ الكمال المسيحي بمراقبة الشواعر والاهواء مراقبه يقطى بغية توجيهها وجعلها تسام في الخلاص . ولكن الديانة ، في القرن الثامن عشر ، ما عادت لتقدم مثل هذا العون : فاذا استمر الكثيرون في الذهاب الى القداديس وكرسي الاعتراف ، فالقلب ، على العموم ، اقل اشتراكاً داخلياً ، وم اقل ايماناً منهم في السابق ، ولا يشعرون في الغالب بدينهم ولا يعيشونه . واذا ما زالوا يهونون الادب ، فان اتساع الرغبة في المعرفة لا يترك لهم متسعاً من الوقت للتدوق والتبهر . الذوق سائر في طريق الفساد . ففولتير ومونتسكيو ينحدران الى دون مستوى بوالو انحذاراً محزناً احياناً . وليس فولتير بعيداً احياناً عن تفضيل « سطوع » له ناس « الخادع على ذهب فرجيل » . اصف الى ذلك من جهة ثانية انهم يبادرون كلهم الى الارتقاء من الظواهر الى الاصول ، وربطها بفلسفة العصر العمامة ، وممارسة « ميتافيزيقية القلب » كما قد يقول دالمبير . يهلون فحص الواقع ؛ وغالباً ما تغدو السيكلوجية بدائية والتعبير جافاً ومجرداً . فاذا تقدمت العلوم ، فان الآداب قد تدهورت ، واذا نظرنا الى القرن الثامن عشر من هذه الزاوية فاننا نراه اقل

بروزاً بين القرنين السابع عشر والتاسع عشر .

ولكن الشغف بالعلوم يساعد اعمال العلماء الذين اصبحوا موضوع اعتبار
الرأي والحكومات مساندة مشجع روجدوا الظروف والوسائل المادية لمواصلة اعمالهم . فاراضي
بروفون أعلن كونيية بأمر يصدره ملك فرنسا . عشرة شعراء يتغنون
بمظمته . يقام له تمثال وهو في قيد الحياة . مسكنه في «مونبار» يندو مزاراً . حين يموت ، تقام
كنيسة على المرتفع المقابل لقصره وتضاء شعوعها طيلة سنة كاملة . لا يدلو احد من مكتبه
«الاكا» من مسجد حارسه بخادمه الشيخ وحبره ابنه . جورج الاول ملك انكلترا وبطرس
الاكبر عاهل روسيا يزوران مختبرات «علماء الطبيعيات» . فردريك الثاني يستقبل العلماء
والفلاسفة حول مائدته ، وكاثرين الثانية في مكتبها لمجالستهم ومبادلتهم الاحاديث .

لم يقتصر المسال على العلماء الذين كان باستطاعتهم ، في اوائل عهد علوم كثيرة ، التوصل الى
نتائج حسنة بأدوات محدودة . فقد استخدم الكيميائي «شيل» ككروس الشراپ عوضاً عن
«الاجراس» . وجميع الغازات كان يربط بعنق قنينة نفيسة جلدية يشدها بخيط حين قتله ،
وبدأ فرانكلين اعماله في حقل الكهرباء بانبوب زجاجي وجدده . ولكن علم الفلك
والجغرافية ما كانا ليكتفيا بأدوات بدائية . وما لبثت الكيمياء ان فرضت المتطلبات نفسها :
فان مختبر «لاوازييه» قد ضم اجهزة دقيقة كبيرة الحجم شاقة الصنع . واستلزمات اختبارات
كمية ضخمة من المحروقات . ومن حسن الحظ ان الملوك قد اسعوا الاكاديميات التي وفرت
لاعضائها المرتبات ومكافآت الحضور واستثارت التنافس وكافأت الجهود بالجوائز ونظمت بمشاة
علمية تقدمها الدولة بالاعانات المالية . اعطى المثل لويس الرابع عشر ملك فرنسا وحذا حذره
خليفته لويس الخامس عشر ولويس السادس عشر ، ثم اقتفى الزهم في كل مكان . استمر لويس
الخامس عشر في إسناد ادارة اعمال كبرى تتعلق بعلم هيئة الارض الى اعضاء اكاديمية العلوم في
باريس : قياس خط الطول ، قياس المسافة بين «برست» و«ستراسبورغ» ، خريطة فرنسا العامة
لكسيفي . واوز بايفاد بعثات علمية كبرى الى البيرو ولاونيا ورأس الرجاء الصالح بغية
قياس درجات خط الطول وتحديد المسافة من الارض الى القمر ، والقيام بهام اخرى . فسارت
الحكومات الاخرى على هذه الخطى . اسس بطرس الاكبر «اكاديمية سان بطرسبورغ»
(١٧٢٤) . وارسل «هرنغ» لاستكشاف المضيق الذي يفصل آسيا عن امريكا ، والذي
حمل اسمه من بعده . وامرت القيصرية آنا وكاثرين الثانية بالقيام برحلات علمية الى سيبيريا .
واستحضرت كاثرين الثانية الى «سان بطرسبورغ» الرياضي السويسري «اولر» والفيلسوف
الفرنسي «ديدرو» . والحقيقة ان «اولر» هو من حوّر «الرسائل الى اميرة المانية» في
الفلسفة والعلوم للاميرة «دانهالت ديسو» . وتأسست اكاديمية استوكهولم الملكية في السنة
١٧٣٩ ، وجمعة كوبنهاغن الملكية في السنة ١٧٤٥ . واستدعى فردريك الثاني ملك بروسيا

الى اكااديمية العلوم في برلين بعض الرياضيين : الفرنسيين « مورتوي » و«المبير » و« لاغرانج » والسويسري برنولي . اما جورج الثالث ، ملك انكلترا المشهور بتقديره ، فقد انفق بسخاء على العالم الفلكي « وليم هرشل » وعين له مرقباً شهرياً قدره ثلاثون جنيه وقدم له مسكناً مجاوراً لقصر « سلو » الملكي انشأ فيه مرصداً حقق فيه اكتشافاته . لا بل توأطأت الحكومات الاوروبية للايعاز بمراقبة مرور الزهرة امام الشمس في السلتين ١٧٦١ و ١٧٦٩ بغية تحديد المسافة بين الشمس والارض . وكان انتهاز الفرصة امراً واجباً اذ ان مرور الزهرة ، اللذين تفصلهما فترة ثماني سنوات ، لا يتكرران الا كل مائة وعشرين سنة تقريباً . فقام الانكليز بالرصد في تاهيتي وجون « هدسون » و«مادراس » والدانمركيون قرب رأس الشمال ، والاسويجيون في فنلندا ، والروس في لاونيا وسيبيريا ، والفرنسيون في كاليفورنيا وبونديشيري . التحدت اوروبا اذن لزيادة معرفة البشرية . ولم تكن النجاحات المحرزة بالحقاتل الكبيرى والجميلة والمفيدة لتجر على الحكومات سوى نفقات ضئيلة اذا ما قورنت هذه النفقات بما تتطلبه الدبلوماسية والحروب : فان « لاكاي » ، الذي اوفدته الحكومة الفرنسية الى رأس الرجاء الصالح في السنة ١٧٥١ لرصد القمر بغية تحديد المسافة بينه وبين الارض ، لم ينفق بعد اقامة اربع سنوات فقد خلالها المهمة المسندة اليه وحده بدقة مدهشة مكان اكثر من ١٠٠٠٠ كوكب في سماء نصف الكرة الجنوبي سوى ٩١٤٤١٥ فلماً بما في ذلك نفقات صنع الآلات .

يود تقدم العلوم ونفوذ العلماء جزئياً الى ان التخصص ، على الرغم من ازدياده ،
 سهل علم
 العلماء
 ما زال متأخراً جداً عما هو عليه اليوم . ما زالت معرفة الطبيعة في القرن الثامن عشر تدعى فلسفة ؛ وما زال أولئك الذين يدرسون سنها يطلقون على انفسهم اسم « الفلاسفة » . اضيف الى ذلك من جهة ثانية انهم كلهم يعرفون مؤلفات الفلاسفة بحصر المعنى الذين يستخلصون من الاكتشافات العلمية مبادئ وروحاً ويثبتون نتائجها على الكون والانسان . بواسطة مثل هذه المؤلفات كان للعلوم مزيد من النفوذ . ان بوفون مدين بمبادئه الموجبة الى لينيوس ، ومونتسكيو مدين بمبادئه للمبرانش ، وكلهم مدينون لأرسطو وديكارت . زد على ذلك انهم يمارسون علوماً عدة . فالعالم الرياضي والفلكي لا يلبس يسهم في اختبارات افوازييه التي تناولت الحرارة الحيوانية والتنفس . والعالم الرياضي اولر يخوض في نظرية القياس كما يخوض في النظريات الطبيعية حول حدوث الموجات والتموج . والطبيب لامتري ينقل المذهب الآلي الى عالم الاخلاق . وان في ذلك لفائدة ، اذ غالباً ما ينتج النجاح عن تطبيق اسلوب احد العلوم ونتائجه على علم آخر . يضاف الى ذلك من جهة ثانية ان اكثرية العلماء يحققون او يكملون تحصيلهم العلمي بروجوعهم الى الابحاث الاصلية ، وذلك بفضل ثقافتهم الكلاسيكية . فان رياضيين كثيرين كانوا قادرين على ان يترجوا من اليونانية « العناصر » ل« اوكليد » ومن اللاتينية « الهندسة » ل« ديكارت » و« المبادئ » ل« نيتوتون » . وبذلك اضافوا الى تميزهم في ادراك فكر المعلم ادراكاً مباشراً تميزهم في رؤية توسع علمهم توسعاً حقيقياً

وتاريخياً وكيفية تكون المسائل حقاً وكيفية وجود الحلول التي أثارت مسائل أخرى . فصحان لديهم من ثم اوضح فكرة صائبة عن علمهم وروحهم وأسلوبهم وسيره ومستقبله .

الا انهم بدأوا يواجهون صعوبة جديدة : فعلى غرار الفرنسيين اخذ العلماء يكتبون ، لا باللغة اللاتينية ، بل بلغتهم الام ، مع ان مؤلفات علمية كثيرة ما زالت توضع باللاتينية . فأشار دالمبير منذ منتصف القرن الى مساوئ الطريقة الجديدة : « ان الفيلسوف الذي يريد التعمق في درس مكتشفات سابقه سيضطر الى تحميل ذاكرته سبع او ثمان لغات مختلفة ؛ وبعد ان يكسرها لتعلمها اثنان وقت من حياته ، سيموت قبل ان يشرع في الدرس والتثقف » . وقد حار لافوازييه في امره حين اراد الرجوع الى مذكرات الكيميائي الانكليزي بريستي : ولكن من حسن حظه ان امرأته تمكنت من ان تترجمها له . الا ان سواد العلماء ، حين لا يكتبون باللاتينية ، يستخدمون الفرنسية ، لغة اوروبا الشاملة . هذا ما فعله العلماء الآتون من بال ، علماء الرياضيات من عائلة برنولي ، واولر الشهير ؛ وهذا ما فعله كذلك علماء اكااديمية برلين واكاديمية سان بطرسبورغ .

وجملة القول ان العلماء وجدوا ظروف عمل مرضية جداً نسبياً .

الفصل الثاني

الرياضيات

صدرت مؤلفات جميلة كثيرة ، ولكن مبدأ جديداً وجوهرياً واحداً لم
يُكشف . توسع علماء الرياضيات في تحليل الكمية الصغرى التي اكتشفها
في القرن السابع عشر نيوتون وليبنيز اللذان استخدمتا أعمال ديكرات
« وفرما » . ان الحساب الجديد الذي يظهر حالة قدر معين في برهة معينة ويبين في آن واحد
كيف يتبدل في هذه البرهة قوة واتجاهاً ، قد اتاح لعلماء الفلك والطبيعيات درس الحركات
الدائمة . وقد اقبل الناس على قراءة الطبعة الثالثة لـ « المبادئ الرياضية للفلسفة الطبيعية »
لنيوتون التي ظهرت في السنة ١٧٢٦ ، و « اسلوب المدود » لنيوتون ايضاً الذي وُضع في السنة
١٦٧١ ، وترجمه تلميذه كولسون وظهر في السنة ١٧٣٦ . ولكن نيوتون وليبنيز قد تركا
حساب الكمية الصغرى ناقصاً جداً خلفين فيه قضايا دونما برهان ، ومسائل عديدة دونما حل ،
وعدهداً من الایحاءات والمقترحات . فجاء خلفاؤهما يكتفون ، ويوضحون ، ويثبتون .

انجز علماء الرياضيات في القرن الثامن عشر اعمالاً عملية في جوهرها : فان ما اتوه هو
طرائق لحل المسائل التي طرحها علماء الآليات والفلك ، ولتفسير الوقائع التي ترفع النقاب
عنها ملاحظة الفلك او الاجسام الارضية . وان المسائل التي عالجوها هي شكل شرع
مستطيل فمرته الرياح ، و « وخط اسرع المحدار » بين خطين عموديين متعاقبين ، ورسم
شعاع ضوئي يمتاز « طبقات مختلفة الثقل النوعي » ، وسبب الرياح ، وحركات السوائل ،
والاوتار المترجحة ، واشكال الارض ، وحركات القمر ، والترجيح والتأكيدات . فحسنوا
من ثم الاداة الحسابية تحسيناً مدهشاً . في السنة ١٧٣٥ حل اولر ، في ثلاثة ايام ، بوسائله
الخاصة ، مسألة فلكية كان عدد من مشاهير علماء الرياضيات قد طلبوا عدة اشهر لحلها
بوسائل قديمة . وفي القرن التاسع عشر ، استطاع « غوس » حلها ، بطرائق افضل اكمالاً ،
في ساعة واحدة . فصل علماء الرياضيات فصلاً تاماً بين التحليل والهندسة .
في الحقبة السابقة ، درجوا على حل المسائل المطروحة بشكل هندسي وعلى تحويل نتائج
الحساب الى شكل هندسي . اما في القرن الثامن عشر فقد جعلوا من التحليل علماً مستقلاً ،

وبلغ من تدلل « لاغرانج » ، في النهاية ، انه لم يورد في كتابه « علم الآليات التحليلي » اي شكل واي رسم بياني .

في الثلث الاخير من القرن السابع عشر ، كان كبار علماء الرياضيات تفوق البر الاوروي انكليزا كنيوتون او ألماناً كليبنيوز . وفي القرن الثامن عشر ، كانوا سويسريين وفرنسيين . اما السويسريون ، عائلة برنولي واولر (١٧٠٧ - ١٧٨٣) ، من بال ، فقد استهوهم ، بالتفضيل ، المسائل الخاصة والاكتشافات الكبرى للحقائق الجزئية ، وكان اولر مخترعاً لا يعرف الكلل اوحى بأكثر الآراء الكبرى التي توسع فيها خلفاؤه . واما الفرنسيون ، كليرو (١٧١٣ - ١٧٦٥) ، ودالمبير ، ولاغرانج (١٧٣٦ - ١٨١٣) ، ولابلاس (١٧٤٩ - ١٨٢٧) ، فكانوا بالتفضيل عقولاً تأليفية تكتشف الطرائق المجردة وتوزج في نتائج عامة تنوع الحالات الخاصة الكثيرة جداً . وقد شرحوا ونشروا ، بالإضافة الى ذلك ، مذهب نيوتون في نظام العالم وطبقوا الحساب الجديد على علمي الآليات والفلك وبنوا علم الآليات الفلكي . لقد مارست فرنسا نوعاً من الملكية الرياضية .

لعل المخطاط الانكليزي النسبي يزد من جهة الى ان نيوتون قد خلف طريقته الحسابية اقل اكتمالاً من الطريقة التي خلفها ليبنيوز ؛ ومن جهة ثانية الى المشادة التي قامت بين الانكليزي والالمان والسويسريين حول هذا السؤال الهام والقديم الفائدة : من هو المكتشف الحقيقي لحساب الكمية الصغرى ، ليبنيوز ام نيوتون ؟ فقد حدثت المجادلة من تبادل الآراء بين علماء الرياضيات في البر الاوروي وعلماء الرياضيات في انكلترا . اكتفى الانكليزي باساليب نيوتون ، وحتى السنة ١٨٣٠ جهلوا الاكتشافات الهامة التي تحققت في البر الاوروي . لا بل انهم تراجعوا الى الوراء . فبينما طبق « بروك تايلور » ، في السنة ١٧١٧ ، حساب الزيادات المتناهية في الكم ، واوضح نظريته الشهيرة ، استخدم « ماك لورين » في السنة ١٧٣١ ، في كتابه « بحث في المدود ، او الكميات التي تتزايد بمد متواصل ، البراهين الهندسية لاضفاء صبغة الضبط والتدقيق على ما يقدم ، واوضح بعد ذلك بشكل هندسي النظرية القائلة بان حجبا سائلاً يدور حول محور يتخذ تحت تأثير الجاذبية شكل مجسم ناقص بفعل الدوران . فأعاد بذلك انتباه مواطنيه الى الهندسة وجعلهم يهتمون التحليل . وهكذا عمل الانكليزي في حجرة مقفلة إذا صح التعبير ، فخدم نشاطهم شيئاً فشيئاً .

اما في البر الاوروي فكان وضع الفرنسيين ملائماً لتقبل الحساب الليبنيزي والحساب النيوتوني معاً . وكان من ازدهار الرياضيات ، بفضل اعمال ديكارت ، في اكااديمية العلوم في باريس وفي كلية فرنسا ، ان برزت هنالك عقول معدة خبير إعداد لاستاغتها واستخلاص ما تنطوي عليه .

«الهندسة الوصفية» على الرغم من المكانة الرفيعة التي احتلتها التحليل ، اكتشف فرع جديد للهندسة هو الهندسة الوصفية . ويعود الفضل في ذلك الى الفرنسي «غاسبار مونج» (١٧٤٦ - ١٨١٨) . كان ابن حانوتي في بون (Beaune) ، لفت الانتباه اليه رسم وضعه للمدينة التي نشأ فيها ، وعين مساعداً فنياً في مدرسة الهندسة الملكية في «ميزير» ، فاستغرب تعقد الوسائل المستخدمة لوضع مخططات التحصينات ورسمها الداخلية ، وطول الحسابات الضرورية. منذ السنة ١٧٦٦ ، حول الطرائق البيانية المختلفة التي يستخدمها المهندسون العسكريون والبنائون ومهندسو العمارة والتجارون والفنانون الى تقنية عامة ذات نسق واحد مرتكزة الى البراهين الهندسية البسيطة والمدققة . فكان عمله هذا مولد الهندسة الوصفية . اعتمد قائد المدرسة الطريقة الجديدة بجرص كلي ، وفي السنة ١٧٦٨ عينه استاذاً للرياضيات ولكنه لم يسمح له بإشهار اكتشافه بسبب المنافسة القائمة بين المدارس العسكرية . الا انه انتشر بعض الانتشار بواسطة الضباط المتخرجين من المدرسة ، ولكنه لم ينشر مطبوعاً للمرة الاولى الا في السنة ١٧٩٥ .

علم الآليات العقلية
لقد دفع علماء التحليل بعلم الآليات العقلي الى الامام. كان جوهره قد اكتشف في اواخر القرن السابع عشر في اعقاب اعمال هويغلس الذي وضع اسس هذا العلم ، واعمال نيوتون الذي صاغ في «مبادئه» مجموعة كاملة من القضايا وحدد الشكل الذي بني عليه علم الآليات العقلي . ومنذ عهدهما حتى السنة ١٩٠٠ لم يوضع اي مبدأ جديد حقاً . وما العمل الذي انجز بعدهما سوى توسع استنتاجي وصوري وحسابي في المبادئ النيوتونية . وقد لعب الفرنسيون الدور الاول في ذلك . فان دالمبير قد اوجز ونسّق ، في كتابه «بحث في علم القوى» ، الاكتشافات المحققة وردّها الى بعض الطرائق البسيطة ، ومنها النظرية المعروفة باسمه التي اعطت الوسائل العملية لاستخدام الاختبارات المعروفة والمدرسة . فكفى العلماء مؤونة التفكير بصدد كل حالة خاصة جديدة . وصاغ موبرتوي ، منذ السنة ١٧٤٤ ، مبدأ اقل كمية عمل . لاحظ ان النور «حين يجتاز اوساطاً مختلفة لا يسلك اقصر طريق ولا طريق اقصر وقت» ، فاقترح ان تعتبر الطريق التي يسلكها النور في انكسار اشعته وكأنها الطريق التي تكون كمية العمل فيها اقل كمية ممكنة . «ان كمية العمل هي حاصل ضرب حجم الاجسام بسرعتها وبالمسافة التي تجتازها» . ولكن عالم الطبيعة هذا كان منهمكاً باعتباريات ميتافيزيقية . فهو قد كان راغباً في ان يجعل من هذا المبدأ فاموساً عاماً من نواميس الطبيعة ، يجوز تطبيقه على حركة الحيوانات ونمو النبات ودوران الكواكب . وقد ظن انه اذا ما اظهر كيف ان الكون يخضع لناموس واحد ، فهو انما يعطي فكرة سامية عن حكمة وعظمة الله تعالى ويقدم برهاناً جديداً على وجود الله .

قام علماء الطبيعيات من بعده بتجريد مبدأه من كل صبغة ميتافيزيقية واعادته الى الحالة الموضوعية . فصاغه اولر في السنة ١٧٥١ على الشكل التالي : «حين يحدث تغيير ما في الطبيعة ،

تكون كمية العمل الضرورية لهذا التغير اصغر كمية ممكنة . ووضحه واستخلص منه طريقة « الكبريات والصغريات » وطبقه على الحركة الهندسية الشكل التي تخضع لها الاجسام الوازنة . وعلى الحركات التي تحدثها قوة مركزية ، الخ . ولكنه ما زال ينظر الى اجسام منعزلة لا الى مجموع اجسام تخضع لنظام واحد ، وما زال يرى في المبدأ ناموساً شاملاً من نواميس الطبيعة . اما لاغرانج فقد ترك جانباً ، في « علم الآليات التحليلي » ، كل اعتبار ميتافيزيقي وحصر المبدأ في علم الآليات ، ولكنه طبقه على مجموع الاجسام الخاضعة لنظام واحد بفضل اداة رياضية جديدة ، هي حساب التغيرات . وقد نظر الى المبدأ لا كما الى مبدأ ميتافيزيقي بل كما الى « نتيجة بسيطة وعامة لنواميس علم الآليات » . فسيطرت على « علم الآليات » الروح الموضوعية . كما ان لاغرانج قد نشر « علم الآليات التحليلي » ، في السنة ١٧٨٨ ، خلواً من كل شكل هندسي . « لن يجد القارئ اي شكل في هذا المؤلف » (مقدمة) . استنتج كل علم الآليات من مبدأ السرعات الافتراضية بضبط ولباقة كاملين . فجاء عمله بناءً تماماً لعلم الطبيعيات انطلاقاً من مبدأ مجرد واحد مع ما يستلزمه هذا العلم من صيغ تتوالى « وكأنها ابيات قصيدة علمية » . انه لعمل بطولي متقن ينطوي على أهمية نظرية عظمى يلسق ويوجز عمل قرن كامل ، ولكن خلوه من الاشكال لا يجعله سهل الاستخدام مهما كان رأي لاغرانج في ذلك .

وهكذا فان علم الرياضيات ، العلم الكامل في نوعه ، هو نموذج كافة العلوم ، « المهندس » والرياضيون ، او « المهندسون » كما دعوا آنذاك ، مثال العالم بالذات . وفيما يلي وصف الصورة التي كونها القرن عن المهندس كما يراها عالم الفلك « بآبي » :

المهندس رجل يتولى اكتشاف الحقيقة ، وان بحثه هذا لبحث شاق ابدأ في حقل العلوم كما في حقل الاخلاق على السواء . عمق نظر ، وسلامة حكم وخيال حاد ، تلك هي صفات المهندس : عمق نظر لرؤية كافة النتائج لمبدأ ما ؟ ... سلامة حكم ... للارتقاء من هذه النتائج المنفردة الى المبدأ الذي ترتبط به . ولكن ما يعطي هذا العمق ويصدر هذا الحكم هو الخيال الذي يفعل فعله داخل الاجسام . يرسم صورة كيائها الباطني ؟ ... يشرح الشيء اذا صح التعبير ... وبعد ان يظهر الخيال كل شيء ، الصعوبات والوسائل ، يصبح بمكنة المهندس ان يسير الى الاسام ؛ واذا هو انطلق من مبدأ لا مراة فيه يجعل الحل المقترح اكيداً ، اعترف له الناس بالعقل الرشيد ؛ واذا ما أرشد هذا المبدأ البسيط جداً الى اقصر الطرق ، كان المهندس لبقاً في فنه ؛ ويكون عبقرياً اخيراً اذا ما توصل الى حقيقة كبرى ومفيدة وغير داخلية في الحقائق المعروفة ...

كانت « الهندسة » الاعداد العقلي لكل من يرغب في ان يصبح « فيلسوفاً » . اما الروح الهندسية فهي روح كل هذا القرن الذي اشتهر بالاستنتاج والتعميم .

الفصل الثالث

علم الفلك

في حق علم الفلك ، اكمل الفرنسيون اعمال نيوتون . وبنوا علم الآليات الفلكي وجعلوا من علم الفلك علماً كاملاً ، مثال علوم الطبيعة . وظهر تقدم علم الفلك الطريق التي يجب ان يسلكها كل علم . واعطى علماء الفلك خير امثلة عن البرهنة الاختبارية . وغدا علم الفلك كمدرسة في كافة الحالات التي تنطوي على الملاحظة والاختبار والبرهنة الاختبارية . فيجب من ثم ان لا نغربه مرور الكرام .

مر علم الفلك قبل القرن السادس عشر ، على غرار كل العلوم الاخرى ، في مرحلة طويلة من ملاحظة الظواهر وابتداع الافتراضات بغية تفسيرها واخضاعها للحساب . ثم جاء في القرنين السادس عشر والسابع عشر عهد اكتشاف النواميس التي تخضع لها الظواهر . كان كوبرنيك قد استدل بالظواهر على حركات الارض على نفسها وحول الشمس ؛ وكان كبلر قد اكتشف نواميس حركة السيارات . وكانت اخيراً ، في النصف الثاني من القرن السابع عشر ، المرحلة الثالثة : الارتفاع من هذه النواميس الى المبدأ الذي يفسرها كلها ، وهذا ما كان نيوتون قد فعله بمبدأ الجاذبية الشاملة .

مسألة الجاذبية ما زالت آراء نيوتون في اوائل القرن الثامن عشر بحاجة الى إثبات . في البدء حل نيوتون المسألة التالية : ما هي القوة المحركة المفترض تسليطها على السيارات اذا كانت هذه السيارات خاضعة لنواميس نيوتون ؟ وكان قد اجاب عن السؤال بان هذه القوة يجب ان تكون ، لكل سيارة ، موجهة نحو الشمس ونسبية لحجم السيارة ، وان تتغير بتناسب عكسي لمربع المسافة . ثم واصل تأملاته ، فتبادر لذهنه ان هذه الجاذبية ليست محصورة في تأثير الشمس في السيارات ، وان القوة نفسها تدير القمر حول الارض ، وتسقط الاجسام الوازنة على سطح كرتنا الارضية ، لا بل ان هذه القوة تجعل كل ذرة مادية تؤثر في كل ذرة مادية اخرى وانها متبادلة في كافة أنحاء الكون . هذا هو مبدأ الجاذبية الشاملة .

لكننا نوجب إثبات النظرية ورؤية ما اذا كانت الوقائع المعروفة تدخل حقاً في هذا المبدأ ،

واذا ما كانت المعارف الجديدة الممكنة حول النظام الشمسي تدخل فيه . لقد اصطدم مبدأ نيوتون في الواقع باعتراضات نظرية كبرى . فقد بدا وكأن الجاذبية تفرض تأثيراً عبر المسافات لم يتوصل احد الى تصويره بوضوح . واتهم الكهرومغناطيسيون نيوتون ببعث الخصائص الخفية . اما نيوتون فكان يصرح انه يرى الظواهر رأي العين ويحسبها ويضع نواميسها ولا يريد ان يؤكد شيئاً بصدد طبيعة الجاذبية واسبابها . ولكن تلاميذه كانوا يؤكدون بأن الجاذبية مردها تأثير حقيقي عبر المسافات وبأنها خاصية جوهرية من خاصيات المادة . فبدوا وكأنهم يرجعون القهقري نحو الفلسفة المدرسية . وقد كتب لينين في السنة ١٧١٥ ما يلي :

« ... الجسم لا يتحرك طبيعياً الا يحسن آخر يدفعه بالتصاقه به ؛ ويستمر في الحركة بعد ذلك الى ان يعيقه جسم آخر يتصل به . كل حركة أخرى في الجسم اما عجابية واما خيالية .. بهذا تنهار الجاذبيات بالمعنى الحصري والتأثيرات الاخرى التي لا تفسرها طبائع المخلوقات والتي يجب اللجوء في تفسير حدوثها الى المعجزة او الى المحالات ، اي الى الخاصيات الخفية التي تقول بها الفلسفة المدرسية والتي اخذ البعض يظلمون علينا بها تحت اسم القوة الموه ، ولكنهم يعيدوننا بذلك الى مملكة الظلمات » ...

يضاف الى ذلك من جهة ثانية ان وقائع كثيرة لم يحسن تفسيرها عملياً ؛ كمد البحر وجزره مثلاً ؛ اجل لقد عزاها نيوتون الى جاذبية الارض والشمس ولكنه لم يضبط حساب قوتها ولم يتتبع بالتفصيل نتائج الشمس والقمر ؛ افترض كوكباً دون حركة يرفع ويخفض المياه على كرة غير متحركة . فتعرض بذلك لتهمة التحكم ، وتهمة الاعتماد عن الوقائع وسد فراغ المعرفة بالالفاظ . وما زال على الجاذبية ان تفرض نفسها .

ان عمل امتحان النظرية قد تم بطريقتين : البحث عن وقائع جديدة قد تؤيد براهين الجاذبية او تبطل الافتراض ، لا سيما قبل السنة ١٧٥٠ ؛ تفسير الوقائع بالتفصيل بحساب اجري وفقاً للافتراض ، لا سيما في النصف الثاني من القرن .

سبق لنيوتون وهوفنس أن أعلننا قدرة كافة الكواكب على الجاذبية . فهل تسلسل الارض ايضاً ، على كافة الاجسام ، جاذبية نسبية لحجم هذه الاجسام هي ثقل الاجسام في نظر البشر ؟ كان مفروضاً ان يتغير هذا الثقل وفقاً لمكان وجود الجسم على سطح الارض ؛ لما كانت الارض تدور حول محور وهمي يمر بالقطبين ، كانت القوة المبعدة عن المركز كبيرة عند خط الاستواء خصوصاً ومتناقصة باتجاه القطب ؛ وكان مفروضاً ان تكون الاشياء اقل المجذبا عند خط الاستواء ؛ كما كان مفروضاً ان تكون الارض قد ارتفعت عند خط الاستواء اكثر منها عند القطب ؛ فوجب من ثم أن لا تكون كرة كاملة بل مسطحة بعض التسطح عند القطب . كان نيوتون وهوفنس متفقي الرأي على هذه النقطة . ولكنها اختلفا بعد ذلك ؛ فقد عزا نيوتون هذه الجاذبية الى كافة اجزاء المادة ؛ وكانت ، في نظره ؛ شاملة حقاً ؛ وقد حسب ان التسطح

يجب ان يكون بنسبة ١ الى ٢٣٠ من محيط الدائرة . اما هويغنس فقد اعتبر ان الثقل قوة ترد الى الكرة ككل واحد ؛ وأنكر الصفة الشاملة للجاذبية ؛ فوجب من ثم ، في نظره ، ان يكون السطح أقل بكثير مما توصل اليه نيوتون ، أي بنسبة ١ الى ٥٧٨ من محيط الدائرة فقط . ولمعرفة ما اذا كانت هذه القوة الجاذبة ، التي عزاها نيوتون الى الكواكب ، موجودة حقاً ، كان لازماً معرفة ما اذا كانت الارض مسطحة عند القطبين ؛ ولتقديم الدليل على أن هذه القوة الجاذبة هي خاصية من خاصيات كافة الذرات المادية ، كان لازماً تحديد النسبة .

بات ضرورياً ، لتحقيق هذه الغاية ، قياس درجة من درجات خط
مقاييس
المبروتوي ولاكوندامين
الطول ، بواسطة مسح الارض ، في أقرب مكان ممكن من القطب ومن
خط الاستواء : فاذا لم يكن محيط الدائرة كاملاً ، أي اذا كان مسطحاً
عند القطب ، يكون قوس الدرجة عند خط الاستواء أقصر منه عند القطب فبادرت أكاديمية
العلوم في باريس الى البحث . أوفدت بعثتان في السنة ١٧٣٥ : احدهما الى البيرو ، مع
لاكوندامين وبوغر ؛ والثانية الى أقصى خليج بوتنيسا في لايبونيا ، مع موبروتي وكليرو . قاس
هذان الاخيران الدرجة ٧٦ من العرض الشمالي ، ووجدوا في السنة ١٧٣٦ ان طولها يبلغ
٥٧٤٣٨ « تواز » [التواز يساوي ٦ اقدام] ، أي انها زادت ٣٧٨ « تواز » عن الدرجة التي
حددها بيكار بين باريس واميان عند الدرجة ٥٠ من العرض الشمالي . فكانت الارض من ثم
مسطحة عند القطب كما سبق لنيوتون وهويغنس ان اعلنا ذلك . ولكن بضع مئات من
« التوازيات » ، بالنسبة لبضع عشرات الوف ، فرق زهيد جداً ؛ أو ليس هنالك تعرض للخطأ ؟
كان موبروتي قد تنبه للامر ؛ فافترض أنه اخطأ أبداً في مثلثاته بعشرين ثانية عند قياس
الزاويتين الاوليين ، وبأربعين ثانية عند قياس الزاوية الثالثة ؛ وان هذه الأخطاء تسير ابداً في
اتجاه واحد وتؤول طبعاً الى انقاص القوس : فلا يكون الخطأ ، في هذه الحالات القصوى سوى
٥٤ « تواز » ونصفا . وهكذا لم يبق مجال لأي ريب . وقد تأيدت حسابات موبروتي وكليرو ،
بعد مرور ثمان سنوات ، بحسابات لاكوندامين وبوغر في كيتو . صرف هذان الاخيران وقتاً
أطول لأن نواحي المنطقة الاستوائية أخرت عملها . قاسا الدرجة ٣ من العرض الشمالي متخذين
كل الاحتياطات الممكنة بغية تحاشي الأخطاء الاتفاقية الناجمة عن تعيب الملاحظ وشرود فكره ،
أو عن الظروف الجوية السيئة . قيدت قاعدة المثلث الأول ، التي تتوقف عليها كافة الحسابات
اللاحقة ، بواسطة فريقين مختلفين قاما بهذا العمل كل على حدة . هذا « أحد أصح البراهين التي
يمكن أن تخلف للأجيال الآتية » . وجدوا أن قياس الدرجة هو ٥٦٧٧٥ « تواز » . ولكنها قاما
بالقياس في أرض مرتفعة فحدث كل شيء كما لو قاسا محيط دائرة أكبر . توجب من ثم رد
القياس الى مستوى البحر فحصلوا نهائياً على ٥٦٧٧٣ « تواز » للدرجة . كان نيوتون وهويغنس على
حق بصدد النقطة الأولى ؛ الأرض مسطحة عند القطبين ، والقوة المبعدة عن المركز تنقص الثقل
عند خط الاستواء ؛ والنقل ليس احدى خاصيات الأجسام بل احدى ظواهر الجاذبية الارضية .

ولكن القياسات المجرأة قد أثبتت ان التسطح يبلغ $1/178$ من محيط الدائرة في القطب ، وهذا ما أيدته في فرنسا منذ السنة ١٧٤٠ قياسات خط الطول بين دنكرق وبرينيان باطالة الدرجات تدريجياً نحو الشمال . وما كانت القوة اللازمة لحدوث مثل هذا التسطح لتتأتى الا من جاذبية كافة اجزاء الارض : اذن الجاذبية شاملة : وقد أصاب نيوتون في رأيه ضد هويغنس .

اثبت الفلكي بوغر ذلك باختبارات غاية في المبالغة على جاذبية الجبال . وقد ملاحظت بوغر ومسككين
سُجر الى درس هذه الاخيرة على حدة بينا كان يبحث عن حقيقة ما اذا كانت الجاذبية تتسلط بنسبة عكسية لمربع المسافات . سبق لبعضهم ان لاحظوا ان الساعات ذات الرقاص تتأخر تحت خط الاستواء : الثقل اقل ، والرقاص « يجتذب » بقوة أقل ، فحركته من ثم اقل سرعة . ولضبط الساعة ، وجب تقصير الرقاص ، وهذا ما يزيد سرعة ذبذباته . وقد وجد بوغر في كيتو على ارتفاع ١٤٦٦ تواز فوق مستوى البحر ، بالإضافة الى ذلك ، انه يجب تقصير الرقاص $33/100$ من الخط الذي كان يرسمه عند مستوى البحر . وطن ان هذا الواقع مرده اقترابه من الشمس التي تزداد جاذبيتها . وكى يكون على بينة من الأمر نقل الرقاص الى قمة جبل « بيشنشا » على ارتفاع ٩٦٨ تواز فوق كيتو . وهنا ايضا وجب تقصير الرقاص $19/100$. وكاد يكون هذا النقصان متناسبا عكسياً لمربع المسافات بحسب ثاموس نيوتون . ولكن لماذا كاد يكون فقط ؟ تبادر الى ذهن بوغر ان الثقل ، اذا كان ينقص بفعل الارتفاع ، اي بالاقتراب من الشمس ، انما يزداد بفعل الجبل ، اي بزيادة حجم الارض الذي يزيد جاذبيتها : فكان الانسان ، في أعلى الجبال ، موجود على كرة كبرى ذات شعاع اكبر . والجبال بالتالي سبب من اسباب ازدياد الجاذبية .

ولكن ما تبادر الى ذهن بوغر لم يكن في هذه الحال سوى افتراض ، لا تعبيراً عن واقع . فبات اجراء الاختبارات امراً ضرورياً . ولكن كيف اجرائها في علم الفلك حيث لا نستطيع في أغلب الاحيان ملامسة مواضيع المعرفة ، وحيث نعجز ابدأ عن تحريكها ؟ يجب اذن عزل الظواهر بالفكر ، وهم علماء الفلك من حققوا اكمل نماذج البرهنة الاختبارية . فكر بوغر بمنزل تأثير الجبل . وقد استخدم لهذه الغاية فادام اربع الدائرة المستعملة لقياس علو الكواكب فوق الأفق . يبين الفادام الخط العمودي بين مركز الارض وسمت الراس . وهو عمودي لامت الكرة الممدنية الصغيرة « يجتذب نحو مركز الارض . اذا ما وضعت هذه الاداة بجانب جبل متسع وعال ، كان واجباً ان يجذب الجبل الفادام اليه ويحيدته عن الخط العمودي . ولكن ما هو السبيل الى رؤية ذلك ؟

اذا ما نظرنا الى كوكب بالمنظار المثبت في رهنج الدائرة ، حدثت الزاوية المتكونة من اتجاه المنظار والخط العمودي ، المسافة بالدرجات بين الكوكب وحياء الجبال
وسمت الرأس . ولكن اذا اجتذب الجبل الفادام ، فان سمت الراس سيتحرك من مكانه بالمسبة للمراقب . فالمراقبات التي تتناول كوكباً واحداً ، على خط عرض واحد ،

وبعيداً عن الجبل ، ستعطي من ثم زوايا مختلفة . اختار بوغر جبل « شمبرازو » : لاحظ انتقال سمت الراس من مكانه ، ومن ثم حياد الفادم ، وانتهى الى القول بجاذبية الجبال . ولكنه بقي في لبس من الأمر : فالانتقال كان ضئيلاً جداً ، وربما كانت الريح العاصفة التي هبت اثناء المراقبتين سبباً لحياد الفادم . الا ان الاسكتلندي مسككين قد اجلى كل ريب حول جاذبية الجبال بنتيجة ٣٣٧ مراقبة اجراها في اسكتلندا . وبما ان الجبال ، وهي صغيرة جداً اذا ما قورنت بالكرة الارضية ، قادرة على الاجتذاب ، فليس ما يحول دون قدرة اصغر اجزاء المادة على هذا الاجتذاب . فاعتبر حسنو النوايا ان نيوتون كان على صواب . وارتأوا ان الجاذبية لا تدرك مع ان حقيقتها لا ريب فيها : يجب الاعتراف بواقعها دون فهمها . وقد استخدم كليرو كل هذه الاعمال ليبرهن ان شكل الارض شكل قطع اهليلجي تقريباً .

تأيدت الجاذبية الشاملة بمراقبات « له مونييه » (١٧٤٦) . لقد سبق مراقبات « له مونييه » للعلماء ولاحظوا ان هنالك بعض التباين في حركة زحل حين يقترب من المشتري كل عشرين سنة . فاذا كانت نظرية نيوتون صحيحة ، كان مرد التباين جاذبية المشتري . ولكن ما هو السبيل الى عزل هذه الجاذبية عن جاذبية الشمس ؟ توصل « له مونييه » الى ذلك بان درس ، بين المراقبات القديمة فقط ، تلك التي كان مفروضاً ان يتلقى زحل اثناءها التأثير نفسه من الشمس حين يكون موجوداً في النقطة نفسها من مداره ، وعلى المسافة عينها من الشمس ، فتبين له ان المشتري وحده ، في هذه الحالات ، كان موجوداً في امكنة مختلفة وعلى مسافات مختلفة . ثم قام له مونييه نفسه بالمراقبة في الظروف نفسها . فوجد اختلافات مطابقة في حركة زحل المبطن ، وهو تأثير لا يمكن ان يتأتى إلا من حجم المشتري . اما حركة المشتري فكانت على نقيض ذلك تزداد سرعة . فبرز واقع الجاذبية جلياً في جزء آخر من النظام الشمسي ، وانكشف المكان المتروك للشك . واكتشف العلماء اخيراً ان اقمار المشتري ترسم حوله قطعاً اهليلجياً وفاقاً لنواميس كبلر . فكان ذلك دليلاً على امكان تطبيق هذه النواميس على النظام الشمسي كله ، ولما كانت الجاذبية مبدأ هذه النواميس ، فقد تأيدت بها تأيداً غير مباشر .

اذا لم نستطع القول ان اختباراً بحصر المعنى قد اجري في جميع هذه الاعمال ، اذا ان المراقب لا يحول ولا يغير بنفسه الظواهر الطبيعية ، فهذا لا يعني ان الطريقة الاختبارية لم تطبق تطبيقاً كاملاً : فعلى غرار ما يجري في الاختبار ، أثبتت النتائج المستخلصة من المراقبات بمراقبات تناولت وقائع عزل بعضها عن البعض الآخر بالحيلة .

وهكذا فان وقائع خاصة جديدة قد ايدت نظرية نيوتون . وقدم علماء الرياضيات نوعاً آخر من البراهين باستخدام تحليل الكمية الصغرى . انطلقوا من المبدأ المشروح ، فامتدوا بالاستنتاج الى كل نتائجها ، وكل المراقبات المجرىة ، واظهروا تسلسل الوقائع وتنبأوا تنبؤات تحققت .

إثبات الجاذبية
بالحساب

باستطاعتنا شرح طرائقهم على الوجه التالي : لنفترض جرماً قذفته في الفضاء قوة دفعها متساو ودائم ؛ سرعته معروفة واتجاهه محدد ؛ ما هي الطريق التي سيسلكها ، وما هو الخط المنحني الذي سيرسمه اذا كان ، كما يقول نيوتون ، يجتذباً حقاً وباستمرار الى مركز جرم آخر موجود على مسافة معينة بقوة متناسبة عكساً لمربع المسافات ؟ هذه هي مسألة الجسمين . في وقت قصير جداً ، تميل « قوة الدفع » الى جعله يرسم خطاً مستقيماً صغيراً ؛ وتميل قوة الجاذبية الى جعله يرسم خطاً مستقيماً صغيراً آخر في اتجاه مختلف . يؤلف هذان الخطان الصغيران زاوية ويشكلان ضلعين من مسطح متوازي الاضلاع : ان الجرم يتتبع خط زاويتها في خضوعه للقوتين معاً ، وخط الزاوية هذا هو طريقه في هذا الوقت ، وجزء من المنحني الذي سيرسمه . وباستطاعتنا ان نرى كذلك طريقه في النهاية التالية ، وهكذا دواليك . خط الزاوية تفاضلي ، وبمقدورنا الارتقاء بواسطة حساب التكامل الى كنهيتها الكاملة المحدودة التي هي معادلة المنحني . ولا يمكن ان يكون هذا الاخير سوى قطع اهليلجي او دائرة او قطع زائد او قطع مكافئ .

اما مسألة الاجسام الثلاثة فأكثر تعقداً . لنفترض ثلاثة اجسام معينة بمواقعها واحجامها وسرعاتها ؛ ما هي الخطوط المنحنية التي سترسمها يجاذبيتها المناسبة طرداً للاجسام وعكساً لمربعات المسافات ؟ يقدم لنا نموذج هذه المسائل القمر الذي تجتذبه الارض وتجيده الشمس ، والذي يفادر في كل هنية القطع الاهليلجي الذي يرسمه . اقتضى اجراء سلسلة من المقاربات : حساب قطع القمر الاهليلجي كما لو كانت الشمس دون اي تأثير ، ثم حساب تأثير الشمس بحسب مكانها في كل هنية ؛ وهكذا توصل العلماء بحسابات طويلة وشاقة الى تحديد موقع القمر في كل هنية في الفلك .

ان كل ما اجري قد أيد نظرية نيوتون تأييداً كاملاً . اتفق الحساب والمراقبة ؛ اجري الحساب وحده فوضع الاجرام حيث وجدتها المراقبة بحسب الاوقات ، وعين المكان الذي وجدتها فيه المراقبة ؛ ودل على كافة الحركات ، حتى اصغرها ، واظهر كيف انها تنجم عن موقع الاجسام في الهنية السابقة ؛ وفسر بالنتيجة كل شيء . وهكذا فان اولر وماك لورين ودانيال برنولي قد فسروا بمبدأ الجاذبية حركة مد البحر وجزره ، وهو الموضوع الذي اقترحته اكااديمية العلوم في باريس ؛ وقد اخذوا بعين الاعتبار سير القمر والشمس ، والارض التي تدور حول نفسها ، وهذا ما يبعد الذرات المائية ، كما اخذوا بعين الاعتبار التأثير الذي يرفعها واحتكاك الماء بالقمر والشواطئ ، ففسر كل شيء .

احرز كليرو ، في السنة ١٧٥٢ ، جائزة اكااديمية سان بطرس
برج ببيان حول « نظرية القمر » ، المسألة التي اهلها نيوتون
والتي وجدوها جلاً يكاد يكون كاملاً . وفي السنة ١٧٦٤

نظرية السيارات والاقمار
ثبات النظام الشمسي

فسر لاغرانج السبب الذي من اجله يدير القمر ابدا الوجه نفسه نحو الارض ، ثم طلع بنظرية

اقيار المشتري فعل مسألة الاجسام الستة . وفي السنة ١٧٤٨ والسنة ١٧٥٢ احرز اولر جائزة اكاديمية العلوم في باريس باثباته اعمال له مونييه حسابيا ويتقدمه الدليل على ان التباين في حركة زحل والمشتري مرده جاذبيتها المتبادلة ؛ وبرهن حقيقة ظنّ طلع به جاك كاسيني يُرد بموجبه التباين الى مكان المدارات الخاص ، وتكون الظواهر متناقضة في سنوات عدة ، وهكذا فانه سار في طريق اثبات دوام النظام الشمسي ، ولكنه ترك هذا المجد للابلاس . لقد ارتاب نيوتون واولر نفسه ، ان تستطيع قوى النظام الشمسي الكثيرة عدا والمتغيرة اوضاعاً والمختلفة قوّة المحافظة باستمرار على اتزان ثابت . وقد ظن نيوتون بأن يداً قوية انما تتدخل بين وقت وآخر لاعادة الاجسام الحادثة بفعل تأثيرها المتبادل الى مواقعها الخاصة . وكان ذلك في نظره اثباتاً لضرورة وجود الله . ولكن المراقبة اظهرت ان معدل سرعة كل من القمر والمشتري يزداد وان معدل سرعة زحل يتدنى . وبدا وكأن زحل سيخرج من النظام الشمسي والمشتري سيهبط على الشمس والقمر على الارض . فبرهن لابلاس في السنة ١٧٧٣ ان حركات السيارات ومعدل المسافات بينها ثابتة او عرضة لتغيرات دورية صغرى فقط . ثم برهن ، بين السنة ١٧٨٤ والسنة ١٧٨٧ ، ان التغيرات انما هي اختلالات دورية تخضع لناموس الجاذبية . فكان النظام الشمسي من ثم ثابتاً وخاضعاً بكلّيته لمبدأ الجاذبية الشاملة . ولا فائدة من ثم من وجود الله : فلم يعد لابلاس بحاجة الى هذا الافتراض .

المذنبات بيد ان اوضح إثبات للمبدأ ولقيمة الحساب ، قدمه كلير و في السنة ١٧٥٩ في موضوع مذنب « هالي » الكبير الحجم . فعلى الرغم من اعمال هالي ونيوتون ، ما زال الشك مخيماً حول ما اذا كانت المذنبات تظهر حقاً بعد فترات متساوية ، وما اذا كانت حركتها دورية حول الشمس ، وما اذا كانت هذه الحركة ثابتة ومنظمة ثبوت وانتظام حركة السيارات . ظهرت بعض المذنبات في السنة ١٧٢٩ ، والسنة ١٧٤٢ ، والسنة ١٧٤٤ ، والسنة ١٧٤٧ ، والسنة ١٧٤٨ . بالاستناد الى سرعتها واتجاهها ، حين كانت مائلة للعميان ، توصل علماء الرياضيات الى حساب مداراتها ووجدوا انها قطع مكافئ . فاذا كانت المذنبات تعود ثانية ، فمعنى ذلك ان هذا القطع المكافئ هو جزء من قطع اهليلجي كبير جداً . ولكن هالي كان قد انبأ بعودة مذنب السنة ١٦٨٢ بعد مرور ست وسبعين سنة . وكان قد عاد من قبل بعد فترات ٧٦ سنة و ٦٢ يوماً و ٧٦ سنة و ٤٢ يوماً . بالاستناد الى المراقبات التي تناولت هذا المذنب في السنة ١٥٣١ والسنة ١٦٠٧ والسنة ١٦٨٢ ، حسب كلير وعودته آخذاً بعين الاعتبار تأثير المشتري وزحل على سيره وانبأ بأنه سيبلغ هذه المرة اقرب مسافة الى الشمس بعد مرور ٧٦ سنة و ٢١١ يوماً اي في ١٣ نيسان من السنة ١٧٥٩ . الا انه اضاف انه قد يكون اخطأ بشهر . وفي الواقع كان المذنب منظوراً منذ اواخر كانون الاول من السنة ١٧٥٨ ، وقد شوهد في باريس منذ ٢١ كانون الثاني من السنة ١٧٥٩ .

وبلغ اقرب مسافة الى الشمس في ١٣ آذار من السنة ١٧٥٩ . فأثارت دقة الحساب اعجاب العالم وثقته . وراقب المذنب كافة علماء الفلك وحسبوا عناصره ووجدوها متشابهة كل التشابه بعناصره في ظهوراته السابقة . فكان ذلك برهاناً على ان المذنبات ، على غرار السيارات ، ترسم قطعاً اهليلجياً تحتل الشمس احد محترقيه ، وذلك وفقاً لنواميس كبلر . كما كان برهاناً على ان المذنبات ايضاً تخضع لمبدأ الجاذبية الشاملة . وقد احرز كليرو جائزة سان بطرسبورغ الامبراطورية في السنة ١٧٦٢ بعرضه نظرية المذنبات .

الا ان المذنبات ما فتئت تثير مخاوف الرأي العام . ففي السنة ١٧٧٣ تكلم «لaland» في اكااديمية العلوم عن امكان حدوث مدمّة عظيم بسبب مرور مذنب على مقربة من الارض قد يكون من شأنه غمر اليابسة . انتشر افتراس لالاند في باريس ، وما لبث ان تشوّه بانتقاله من شخص الى آخر فامسى نبوءة بوقوع الارض في المذنب : لا بل حُدد يوم هذا الوقوع بالذات . غير ان «ديسيجور» قد بين ان احتمال هذا الوقوع ضئيل جداً اذ ان المذنب الذي بلغ اقرب نقطة الى الارض قد بقي على مسافة ٧٥٠٠٠٠ فرسخ ؛ وان المدممستحيل حدوثه اذ ان المذنب الذي يقترب حتى مسافة ١٣٠٠٠ فرسخ من الارض لن يبقى على مقربة كافية من الارض تمكنه التأثير في البحار سوى ساعتين ونصف الساعة بينما يقتضي للمذنب عشر ساعات و ٥٢ دقيقة حتى يحدث المدم وتغمر المياه الارض . كانت البرهان قاطعاً ؛ لا تنطوي المذنبات على اي خطر .

وهكذا فقد قدم الحساب ، او « الهندسة » كما درج القول حينذاك ، اثباتات ساطعة لآراء نيوتون . اجل لقد كان بالامكان الاستغناء عن التحليل : فلو اجريت الوف المراقبات لانتهت كلها الى تقديم الدليل على ان نواميس نيوتون تتحقق ابداً . ولكن علم الفلك كان في طريقه لان يمسى علماً استنتاجياً ؛ لقد بلغ كماله ، وفي اواخر القرن ، استطاع الفلكي بايتي كتابة مايلي : « ان هذين المعلمين [الهندسة وعلم الفلك] يتناسان اليوم تماساً يحطهما بيدوان وكأنهما مختلطتين » .

بينما كان المختبرون و « المهندسون » يستنبثون الافتراضات ، واصل وسائل جديدة للمراقبة المراقبون عمل الوصف وتوسع الكون توسعاً مدهشاً . وقد سهلت المراقبات سلسلة من النجاحات التقنية التي ولدتها حاجات المراقبين . حدد بوغر ولاكلي المحراف الهواء في حالات الارتفاع والضغط والحرارة المختلفة ، فبات ممكناً والحالة هذه ان يؤخذ بعين الاعتبار حياد الاشعة الضوئية ، الصادرة عن الكواكب ، اثناء مرورها عبر الجو ، الذي يربنا الكواكب في مواقع غير مواقعها الحقيقية . وفي السنة ١٧٤٩ ، أضاف « كلود باسمان » الى المناظير حركة أشبه بحركة الساعات اثحت منذئذ تتبع الكواكب بدقة في انتقالاتها . ولكن اهم التحسينات هي تلك التي ادخلت على المناظير والمراقب نفسها . ففي المناظير حيث تحتاز الاشعة الضوئية العدسات الزجاجية لتصل الى عين المراقب ، يعطي الزجاج نتائج

الموشور ، وتتلون الصور وتصبح غير واضحة ، ولذلك اخترع غريغوري ونيوتون المرقب حيث
 تعكس مرآة كروية الأشعة الضوئية . وفي السنة ١٧٤٧ خطر لأول ان يصنع مكبرات المراقب
 من عدستين زجاجيتين يوضع بعض الماء بينهما : فكان على الأشعة الضوئية والحالة هذه ان تمر في
 مواد مختلفة الخصائص في كسر الأشعة لتحلل الأشعة وتفصل بين الألوان تحليلًا وفصلًا مختلفين ؛
 وقد استطاع العلماء ان يظهروا المضادة بين هذه النتائج وينقضوا نتيجة باخري ويعيدوا الى
 الشعاع الملون هذا المزيج المضبوط الذي يكون بياض النور. ولكن استخدام الماء لم يكن سهلاً .
 في السنة ١٧٥٨ توفق عالم البصريات الانكليزي « دولوند » الى ان يكتشف ، بعد تردد ،
 زجاجات مختلفة الخصائص في كسر الأشعة ايضاً ، واستطاع ان يصنع مناظير تنفذ النور
 الابيض دون تحليله وتبلغ خمس اقدام طولاً وتعطي النتيجة نفسها التي تعطيها المناظير العادية
 البالغة اثني عشرة قدماً طولاً . وصنع ابنه مناظير تبلغ ثلاث اقدام طولاً وتعطي نتيجة منظار
 مصنوع بحسب المبادئ القديمة يبلغ ١٥ قدماً . فضلت المناظير المراقب فترة من الزمن. ولكنها
 استلزمت زجاجاً يدخل الرصاص في تركيبه ولم يرافق النجاح الكامل صنعه الاتفاقياً . لذلك
 عاد الانكليزي « وليم هرشل » وروج المراقب . كانت هذه الاخيرة تعطي صوراً غير واضحة
 بسبب التفاوت في الانحناء ؛ وهذا ما يعرف بزيغان الكروية . حاول هرشل اعطاء المرايا
 العاكسة اشكال قطع مكافئ وقطع زائد ؛ فأقصى بذلك زيغان الكروية . في السنة ١٧٨٩
 كان لديه مرقب يبلغ ١٢ متراً طولاً و ١,٤٧ قطراً حقق بواسطته اكتشافات روجت المراقب
 مرة أخرى .

ساعدت تحسينات الأجهزة على مواصلة استكشاف الفلك . ففي السنة
 الاكتشافات ١٧٥١ ، حدد لأكاي ، في رأس الرجاء الصالح ، مواقع كافة النجوم المنظورة
 بين القطب الجنوبي وخط الجدي ووضع جدولاً بعشرة آلاف نجم . وفي السنة ١٧٨١ اكتشف
 هرشل السيارة اورانوس ؛ كما اكتشف في السنة ١٧٨٩ قمر زحل السادس والسابع ؛ ولاحظ
 أن نجومًا ضعيفة الضوء كثيرة تحتوي على نواة لامعة وان بعضها يؤلف مجموعات تضم عدداً كبيراً
 جداً من النجوم .

اخذت تبرز امكانية وجود غوالم أخرى مأهولة . واعتقد مرصدا لندن وباريس باكتشاف
 جو يحيط بالقمر . فان كسوف الشمس في اول نيسان من السنة ١٧٦٤ قد بدا وكأنه يظهر
 انحرافاً في الأشعة الشمسية لا يمكن ان يرد الا الى جو ، لان الشعاع يأتي من الشمس بسرعة
 فائقة تجعله ينحرف من « جاذبية » (كذا) القمر . وكان الحياء ضعيفاً : اذن الجو ليس كثيفاً .
 وحملت مراقبات أخرى على الاعتقاد بوجود جو حول المريخ والزهرة وعطارد .
 ارتدت السيارات والنجوم ارتداداً مدوماً الى الوراء في كون كان يتسع اتساعاً مطرداً . في السنة
 ١٧٥١ حدد لأكاي بعد القمر بـ ٨٥٤٦٤ فرسخاً . وأتاحت مراقبات دولية مشتركة أجريت في

السنة ١٧٦١ والسنة ١٧٦٩ لتحديد بعد الشمس عن الأرض بـ ٣٥ مليون فرسخ تقريباً وتحديد أبعادها بـ ١٤٠٠٠٠٠ ضعف أبعاد الأرض . ولاحظ « برادلي » ان الزاوية المتكونة من الخط المستقيم الذي يصل عين المراقب بأحد النجوم والخط المستقيم الذي يصل مركز الأرض بهذا النجم لا تعادل ثانية واحدة من القوس . ولا يلزم للقمر ثانية واحدة لكشف النجوم التي يصادفها . لذلك فان قطر هذه النجوم لا يحتل مسافة نصف ثانية في الفلك . وهذا يفرض ان النجوم أبعد من الشمس في الفلك بـ ٢٠٦٠٠٠ مرة ؛ ولكن اذا ما ابتعدت الشمس الى مسافة توازي ٢٠٦٠٠٠ ضعف مسافتها لفدا اتساعها ٢٠٦٠٠٠ مرة اقل بما يبدو ولفدا قطرها مساوياً لـ ١/١٠٧ من الثانية . اذن النجوم أكبر من الشمس وتحتل مكاناً بعيداً خارج النظام الشمسي .

وهكذا ، على الرغم مما تبقى من جهالات واخطاء ، توفرت الظروف تأليف لابلاس الضرورية لكي يستطيع الانسان محاولة تصور نظام الكون ، وهذا ما حاوله لابلاس في كتابه « عرض نظام العالم » الذي تعود طبعته الاولى الى السنة ١٧٩٦ ، والذي هو كتاب حجة جمع وأوجز ورتب ونسق ، بتدقيق كلي ، كافة المعارف المحققة وتخطاها باندفاع خيالية إله خالق ، وقصيدة تثير الإعجاب وتشترك في مثل كبار الأنبياء المقدس ، وان اوعست كونت مدين له بالكثير مما كتب : فان قسماً كبيراً من « الفلسفة الموضوعية » موجود في لابلاس .

يبحث على التوالي ، في خمسة كتب ، في الحركات الظاهرة للأجرام السماوية ، والحركات الحقيقية للأجرام السماوية ، والنواميس الحركية ، ونظرية الجاذبية الشاملة ، وتاريخ علم الفلك . فهدفه فلسفي ويتخطى مجرد بيان المعارف . يرغب في اظهار سير علم الفلك ، « ... الطريق التي سلكها هذا العلم في تجارحاته والتي يجب ان تسلكها العلوم الطبيعية الاخرى على غرار ... » ؛ وصف الظواهر أولاً ، ثم استعادة ما يحدث في الواقع ، ثم اكتشاف العلاقات الشاملة واللازمة بين الظواهر ، اي النواميس ، واخيراً ادراك المبدأ العام الذي يستطيع العقل أن يرد اليه كافة النواميس ويحمل منه نقطة انطلاق للبناء ثانية بواسطة الاستدلال . وهو يشدد الكلام على ركائز النتائج :

« لقد اصبح علم الفلك والحالة هذه حلاً لمسألة كبرى في علم الآليات ... ان لديه اليقين الذي يستند الى عدد وتنوع الظواهر المشروحة بكل تدقيق ، والى بساطة المبدأ الذي يكفي وحده هذه الشروح . فلا خوف من أن يناقض كوكب جديد هذا المبدأ ، بل يمكن بمكس ذلك الجزم سلفاً بأن حركته ستكون مطابقة له . »
وبين واقع الحال :

« هذا هو ، بدون ريب ، تكوين النظام الشمسي . ان كرة الشمس الضخمة ، المركز الرئيسي لحركات هذا النظام المختلفة ، تدور حول نفسها في خمسة وعشرين يوماً ونصف اليوم ؛

مساحتها مغطاة بخضم من مادة مضيئة ؛ وفي ما وراءها تتحرك السيارات وأقمارها في مدارات تكاد تكون مستديرة وعلى مستويات قليلة الانحدار بالنسبة لخط الاستواء الشمسي . وهناك مذنبات لا يحصى لها عد تقترب من الشمس ثم تبتعد عنها الى مسافات تقدم الدليل على أن سلطانها يمتد الى أبعد من الحدود المعروفة لنظام السيارات . لا يؤثر هذا الكوكب بجاذبيته في كافة هذه الاجرام بإرغامها على الدوران حوله فحسب ، بل يوزع عليها نوره وحرارته . تأثيره الخبير يساعد على ولادة الحيوانات ونمو النباتات التي تغطي وجه الأرض ، وتحملنا المائلة على الاعتقاد بأنه يعطي نتائج مشابهة في السيارات ، قطيعي لعمرى أن ن فكر بأن المادة ، التي نرى إخصابها يتكاثر تكاثراً كبيراً متنوعاً ، ليست عقيمة في سيارة بضخامة المشتري لها ، على غرار الأرض ، لياليها ونهاراتها وسنواتها ، وتحدث فيها ، كما تشير الى ذلك المراقبات ، تغيرات تفرض قوى ناشطة جداً . ان الانسان ، وهو من توافق تكوينه الحرارة التي ينعم بها على الأرض ، قد لا يستطيع ، في الأرجح ، العيش على السيارات الأخرى ؛ ولكن ليس مفروضاً أن يكون هنالك بعضيات كثيرة جداً توافق تكوينها الحرارة المختلفة في أجرام هذا الكون ؟ اذا كان اختلاف العناصر والاقاليم يكفي وحده لاجداث مثل هذا التنوع في المحاصيل الأرضية ، فكما بالاحرى يفرض ان تختلف محاصيل السيارات الكثيرة وأقمارها ؟ ان المخيلة لأعجز من أن تكون أية فكرة عنها ، ولكن وجودها ، في أقل تقدير ، قريب الى المعلوم ... »

ثم يبين رحابة الكون ووحدة تركيبه ويرتفع الى فكرة التطور . في ما وراء الشمس ، توجد شمس لا يحصى لها عدد هي النجوم ؛ يخضع بعضها ، في لونها ونورها ، لتغيرات دورية تشير ، على سطحها ، كما على سطح الشمس ، الى بقاء كبرى تظهرها وتخفيها حركات الدوران . وهناك نجوم أخرى ظهرت واختفت ، بعد ان لمعت لمعناً ساطعاً اناح رؤيتها في وضع النهار . بعد ان كان لونها ابيض ناصعاً ، في البدء ، على غرار المشتري ، غدا اصفر ضارباً الى الحمرة ، ثم ابيض رصاصياً ، على غرار زحل ، ثم اختفت عن الانظار ، ولكنها لا تزال موجودة .

تؤلف هذه النجوم فئات عدة . تبدو شمسنا واكثر النجوم لمعناً مجتمعة في احدى هذه الفئات التي تظهر وكأنها تحيط بالفلك وتكون المجرة . ولكن المجرة قد تظهر لمراقب يبتعد عنها الى ما لا نهاية له وكأنها نور ابيض متصل ذو قطر صغير ، اذا ان انتشار الاشعة الذي لا يضمحل في احسن المراقب ، سيملاً المسافات التي تفصل بين النجوم . فمن المحتمل جداً والحالة هذه ان يكون بعض النجوم الضعيفة الضوء مجموعات تضم عدداً كبيراً جداً من النجوم قد تبدو ، اذا ما نظر اليها من داخلها ، شبيهة بالمجرة .

«فاذا ما فكرنا الآن بهذا العدد الضخم من النجوم والنجوم الضعيفة الضوء المنتشرة في الفضاء السباوي ، وبالمسافات الشاسعة التي تفصل بينها ، فان المخيلة التي ستدهشها عظمة الكون ، ستجد صعوبة في ان تتصور له حدوداً » .

تبدو النجوم الضعيفة الضوء وكأنها تكاثف . راقب هرشل الشهير التكاثف في نجوم

ضعيفة الضوء كثيرة « كما يراقب المرء ، في حرج واسع الاطراف ، نمو الاشجار في كل نوع من الانواع يشتمل عليها » . بعضها مجرد مادة غائمة ضعيفة الضوء ، وبعضها على شيء من التكاثف حول نواة باهتة اللعان ؛ وبعضها الآخر ذو نواة اكثر لمعانا ؛ وهنالك نجوم ضعيفة الضوء كثيرة الاجزاء مؤلفة من نويات لامعة متقاربة جداً ، يحيط بكل منها جو من مادة غائمة ضعيفة الضوء ؛ وهنالك اخيراً مجموعات النجوم . وهكذا ينتهي المرء ، بواسطة تزايد تكاثف المادة الغائمة الى الشمس التي كان يحيط بها من قبل جو مترامي الاطراف ، « وهذا اعتبار توصلت اليه بدرس ظواهر النظام الشمسي ... ان التوصل الى مثل هذه النتيجة التي تلفت الانتباه ، بسلوك طرق مختلفة ، يحمل من مرور الشمس في هذه الحالة امراً محتملاً جداً » .

وفي احد بياناته ، عرض لابلاس « بالتحفظ الذي يجب ان يوحى به كل ما ليس نتيجة المراقبة والحساب » افتراضه الشهير حول اصل وتطور النظام الشمسي الناشئ عن نجم غائم ضعيف الضوء قديم العهد تكاثف شيئاً فشيئاً . يغلب على الظن ان المادة الغائمة الضعيفة الضوء تكاثفت في مركزها بحيث كوَّنت نواة . كلما تزايد التكاثف تزايدت سرعة الدوران . ويغلب على الظن كذلك ان التفاوت بين التكاثف والسرعة قد عزل عن النواة المركزية عدة حلقات مشتركة المركز ، وان التكاثف قد تزايد تزايداً متفاوتاً في كل من هذه الحلقات ، التي تقسمت في الارجح اجراماً هي السيارات . فجاءت هذه النظرية تحل ، محل الرأي القائل بحالة الكواكب المستقرة الدائمة ، الرأي القائل بمحدوث تغير في الزمان ، وتحول كائن الى آخر ، وتدخل نوعاً من النشوء والارتقاء الى علم الفلك .

وينتهي لابلاس بهذا الشئد :

« ان علم الفلك ، بمظمة موضوعه وكال نظرياته ، اجل بدائع العقل البشري وأشرف عناوين إدراكه . تضلل الانسان زمناً طويلاً بأوهام الحواس والأناية فنظر الى نفسه كما الى مركز حركة الكواكب ، وقد ثال عقاب صلفه الباطل بالخوف التي اوحى اليه . واخيراً انتهت اعمال قرون طويلة الى اسقاط الستار الذي كان يحجب نظام العالم عن عينيه . فكتشف حينذاك انه على سيارة صغيرة جداً في النظام الشمسي الذي ليست رحابته الواسعة الارحاء سوى نقطة لا تذكر في اتساع الفضاء غير المحدود . الا ان النتائج السامية التي حمله اليها هذا الاكتشاف من شأنها ان تعزیه عن المرتبة التي يعينها للارض باظـهـاره عظمته الشخصية في صفر القاعدة التي استخدمها لقياس السماوات . فلنحفظ بعناية ولننم وديعة هذه المعارف السامية التي هي نعيم الكائنات المفكرة . لقد أدت خدمات هامة للملاحة والجغرافية ؛ ولكن خدمتها الجلـى انها بددت المخاوف الناجمة عن الظواهر السهاوية وقضت على الاخطاء الناجمة عن جهلنا حقيقة علائقنا بالطبيعة ، وهي اخطاء ومخاوف قد تتجدد بسرعة اذا ما انطفأ مشعل العلوم » .

الفصل الرابع علم الطبيعة

كانت لمجاهدات علم الطبيعة صاعقة في السنوات الثمانين الأولى من القرن السابع عشر . اما في القرن الثامن عشر فكانت النتائج أقل لمعانا، ومع ذلك فقد تحققت اكتشافات جميلة في حقلي الحرارة والكهرباء . ولكن الوقت اضيع في النظريات حول طبيعة الظواهر .

حاول ديكارت معرفة طبيعة النور ، فتبنى طريقة التبعثر : افترض ان الاجسام المضيئة تشرك في موجات اجزائها الصغرى سائلا متمططا غاية في الرقة منتشرا في الفضاء ؛ يأخذ هذا السائل بالارتجاج فينبج النور عن ارتجاجه كما ينبج الصوت عن ارتجاجات الهواء . فكان النور من ثم انطباعا تحدثه في حواسنا احدى حركات المادة ، أي حالة خاصة من حالات الحركة . أما نيوتون فقد اعتبر ، بعد تردد طويل ، ان الوقائع توحى بالتفضيل طريقة البث : النور مركب من ذرات مضيئة تقذف بها اجسام ترسل النور حتى اعيننا : فليس النور حالة من حالات الحركة بل جسما خاصا . فرضت هذه النظرية نفسها على القرن الثامن عشر بأسره ، باستثناء اولر الذي استمر في تفسير اختلاف الالوان باختلاف ديمومة الارتجاجات . وقد حلت المعاصرين على النظر بالمماثلة الى الحرارة والكهرباء نظرهم الى اجسام ، لا الى حركات مختلفة لمادة منتشرة واحدة . فكان ذلك تقهقرا بالنسبة الى القرن السابع عشر .

استطاع درس الحرارة احراز التقدم بفضل أداة قياس دقيقة ثابتة حساسة لم تتوفر
المحرر من قبل : هي المحر الذي جاء نتيجة جهود بذلها علماء ينتمون الى بلدان مختلفة
أدخلوا عليه تحسينات متوالية .

اهتدى الى مبدأ المحر « فاهرنهيت » الدانتيغي ، صانع الادوات المختصة بالحوادث الجوية . في السنة ١٧٢٤ ، اكتشف أن لكل سائل نقطة بخار ثابتة تتغير بتأثير الضغط الجوي . فاستطاع من ثم ان يستخدم للقياسات سائلا تبلغ نقطة بخاره حرارة أعلى من حرارة الماء : وان يتخذ كحرارة أصلية حرارة بخار الماء العالي تحت ضغط جوي طبيعي عند مستوى البحر ، أي ٧٦ سم من الزئبق . بقي عليه تعيين الجسم الذي يعطي ابدا الحرارة الدنيا نفسها والتثبت من أن الجسم المختار يتمدد أو يتقلص ، بين النقطتين المقابلتين للحرارتين القصويتين ، تمدد أو تقلصا

مستمرين ومثناسبين تقريبا لتبدلات الحرارة . وبعد تردد اعتمد الزئبق أو الكحول سائلا ، وعين الصفر بجمرة مزيج من النشادر والجليد والماء ، والدرجة ٢١٢ في بخار الماء العالي . ولكن المزيج وتعيين الدرجات كانا صعبا التحقيق ، كما ان استخدام الدرجات لم يكن بالأمر السهل .

اما عالم الطبيعة الفرنسي رومور فقد استخدم لتعيين الصفر ، في السنة ١٧٣٠ ، الجليد الذائب ، واعتمد سائلا كحولا ممزوجا بثلاث مقداره ماء يتمطط تقططا أكثر ويعطي دلالات أوضح ، وقسم الدرجات الى ثمانين لأن السائل الذي اعتمده يتمطط من ١٠٠٠ الى ١٠٨٠ بين حرارة الجليد الذائب وحرارة بخار الماء العالي ، وهي درجات أسهل تعيينا على أنبوب . ولكن صنع الحر ما زال معقدا . ولم يتوصل رومور قط الى صنع أدوات متشابهة للدلالات .

وارتأى « دي كرسى » الجنيفي ، في السنة ١٧٤٠ ، اعتماد الدرجات المئوية ، ولكنه اخطأ بتعيين الصفر بجمرة اقبية مرصد باريس ، اذ ان ذلك جعل صنع الحر مستحيلا في غير مكان او ارغم على اجراء حسابات للمقارنة بين الملاحظات .

وفي السنة ١٧٤٢ ، جمع سلسيوس استاذ علم الفلك في اوبسالا من اعمال اسوج بين اكثر الطرائق سهولة ، اي الجليد الذائب والتقسيم الى ١٠٠ درجة . ولكنه عين الصفر بجمرة بخار الماء العالي والدرجة ١٠٠ بجمرة الجليد الذائب . فكان ذلك مزعجا للقراءة . في السنة ١٧٥٠ ، عكس زميله « سترومر » سلم الدرجات واعطى الحر شكله الحالي .

ان محر سلسيوس هذا ، الذي نعرفه باسم الحر المئوي ، اسهل استعمالا من غيره . ولذلك لم يلبث ان اعتمد في فرنسا . ولكن ما زال هناك ١٩ سلم درجات في السنة ١٧٨٠ ؛ سلم فاهرنهيت في هولندا وانكلترا وامريكا بوجه خاص ؛ وسلم رومور في المانيا ؛ وكان مقدرا لها ان تعرف ديمومة طويلة .

قياس كمية الحرارة بفضل الحر استطاع الاسكتلندي « جوزف بلاك » الكيميائي والطبيب ، والاستاذ في غلاسكو وادنبرا استنبات الافكار التي اوجت اليه بها مراقباته والتوصل الى قياس كمية الحرارة . منذ السنة ١٧٥٦ ، اطال التأمل ببطء ذوبان الجليد واستمرار بقاء كميات من الثلج المتحول جليدا على الجبال في قلب الصيف ، والوقت المديد الضروري للماء العالي كي يتبدد بخارا . ففكر بان كمية كبرى من الحرارة انها تستهلك في الارجيع لاحداث تحول الجليد الى ماء والماء الى بخار دون ان يطرأ اي تبدل على حرارة الاجسام . فافترض من ثم ان كمية كبرى من سائل رقيق ، يدعى الحرارة ، تلتصق بجزئيات المادة ؛ تضمحل دون ان تزول من الوجود ؛ يفرض ان تصبح كامنة ؛ هذه هي الحرارة الكامنة . اراد حينذاك استنبات هذه الفكرة وايضاها بالارقام . بحث عن كمية الحرارة اللازمة

لتحويل الماء الى بخار ، اي عن الحرارة الكامنة في عملية التحويل الى بخار . فوجد اولاً انه يقتضي كمية ثابتة من الحرارة لرفع حرارة كمية معينة من الماء درجة واحدة : هذه هي قابلية الماء للحرارة ، او حرارته النوعية . وهكذا توفرت لديه وحدة لقياس الحرارة ، واستطاع اذ ذاك تحديد كمية الحرارة التي يتخلى عنها البخار للعودة الى حالة سائل ذي حرارة ماثلة ، ومن ثم تحديد كمية الحرارة الضرورية لتحويل ماء حرارته ١٠٠ درجة مئوية الى بخار . واكتشف كذلك كمية الحرارة الضرورية لتحويل الجليد الذائب الى ماء تكون درجة حرارته صفراً في سلم الدرجات المئوية فوجد لحرارة التحويل الى بخار وحرارة الذوبان ارقاماً لا تختلف اختلافاً كبيراً عن الارقام الحالية . وقد توصل اثناء اعماله الى تقديم الدليل على ان زيادات متساوية في الحرارة تحدث تغيرات متساوية في مستوى سائل حرارته ، والى اثبات قيمة دلالاتها . ولاحظ ان الاجسام تختلف بقابليتها للحرارة ، وانه لا يقتضي كمية الحرارة نفسها لرفع كميات متساوية من هذه الاجسام الى درجة حرارة واحدة . عرض اكتشافاته في محاضراته منذ السنة ١٧٦١ ، وقد صنع اثنان من تلامذته الفرنسيين ، الكيميائي «لافوازييه» والمهندس «لابلاس» ، مسعراً جليدياً ، وحدداً ، حوالي السنة ١٧٨٣ ، الحرارة النوعية لعدد كبير من الاجسام .

وهكذا بات بمكنة الانسان قياس الحرارة وأثرها في انتقال الاجسام من حال الى حال : وبات الانسان بالفعل نفسه سيد ذوبان الاجسام وتكوين البخار . وكان مقدراً له ان يعرف ، عند الحاجة ، ما يقتضي له من محروقات ووقت للحصول على قوة معينة او تحويل معين ، وأتاحت اعمال بلاك الجايمس وات ان يحسن الآلة البخارية ويجعل منها الأداة القوية والطبعة التي كان مقدراً لها ان تحدث ثورة في العالم .

إلا أن هذه النتائج لم تبدل الآراء في الحرارة . نظر الجميع الى هذه الأخيرة كما الى سائل رقيق ، او مادة متمططة جداً تتنافر اجزاؤها وتتوزع هي على الاجسام بكمية متناسبة للجاذبية الاتفاقية التي تتبادلها هذه الاجسام وهذا السائل ، اي لقابلية الحرارة .

الكهرباء . كانت الكهرباء الفرع الذي أكب عليه بمزيد من النجاس ، او أقله الفرع الذي كان لنتائجه ، الجديدة كلها ، أكبر تأثير في الخيلة . انحصرت الابحاث في الكهرباء الساكنة حتى السنة ١٧٩٠ حين بدأ درس التيار الكهربائي .

كانت المعارف الكهربائية محدودة جداً في اوائل القرن الثامن عشر . وما زال الناس يعتقدون بان قابلية نقل الكهرباء مرتبطة بلون الأشياء . إلا انهم كانوا قد عرفوا اظهار الكهرباء اما بواسطة انبوب زجاجي يحك ، اما بواسطة آلة قوامها كرة زجاجية تحرك بمقبض وتحك باليد العارية . ثم تحسنت هذه الآلة شيئاً فشيئاً : فحلت الاسطوانة الزجاجية ثم القرص الزجاجي محل الكرة ، واستبدلت اليد بالوسادات ، وفي السنة ١٧٦٢ ، اعتمدت نهائياً الوسادة الجلدية

المنطقة بلغم القصدير . الا ان الاب نوليه ، الذي تمز يد صجيرة وجافة جداً ، قد ثابر على الحلك باليد العارية .

الاكتشافات الاولى
احرزت نجاحات مريعة في حقلم يكتشف فيه شيء بعد . في السنة ١٧٢٩ ، اكتشف الانكليزي « غراي » ، بواسطة انبوب زجاجي بسيط ، ان قابلية نقل الكهرباء مرتبطة بالمواد التي تتركب منها الاجسام وقام بأول تصنيف للاجسام الحسنة النقل (المعادن) والسينة النقل (الحرير) . وكان الاول في تقديم الدليل على ان جسم الانسان يتكهرب وينقل الكهرباء ، كما كان أول من اجتذب اجساماً خفيفة (عدة قصاصات من الورق) برأس وقدمي شخص مكهرب ومعزول ، فأتى بذلك اختباراً كان له وقعه العظيم وكان مقدراً له ان يعرف نجاحاً كبيراً جداً . وكان كذلك أول من اكتشف النقل الى مسافات بعيدة وجعل الكهرباء تجتاز ٧٦٥ قدماً .

واصل الفرنسي « دي فاي » اختباره حتى السنة ١٧٣٩ . اثبت ان كافة الاجسام قابلة للتكهرب فقتض بذلك تصنيف جليبر للاجسام بتقسيمها الى كهربائية وغير كهربائية . اظهر أوجه التشابه بين الكهرباء والصاعقة : فحين كان هو نفسه متكهرباً ، معلقاً بحبال حريرية تمزله عزلاً تاماً ، ويمر شخص آخر على مقربة منه ، بدا وكأن بروقاً تخرج من جسمه وتسمع حسيساً جامداً . فكانت هذه البروق في الظلمة وكأنها شرارات نارية وكان نوراً ينبعث من جسمه . ويروي ان الاب نوليه استصدر منه شرارات تبلغ ستممترات عدة . وكان رأي نوليه ان البرق والشرارة الكهربائية شيء واحد . واكتشف « دي فاي » ، الكهربائية بالمماسه ووجد ان الاجسام الكهربائية تجتذب كافة الاجسام غير الكهربائية وقدفعها حال تكهرب هذه الاخيرة بها . واكتشف نوعين من الكهرباء : الكهرباء الزجاجية (الايجابية) والكهرباء الصمغية (السلبية) ، وجاذبيتها لعكسها ودفعها لنظيرها . فحاول ان يفسر هذه الظواهر ، ولكنه لم يجد ما يتخيله سوى سائلين .

كان لهذه الاكتشافات وقع عظيم جداً . راح أناس كثيرون يكسبون معيشتهم قنينة لايدن بإجراء الاختبارات في مكان تلو الآخر . وكان الجميع راغبين في أن يتكهربوا ، ويحتذبوا الرياض برأسهم أو يشعلوا الكحول بالشرارة المتدلعة من سن سيف يسك به الانسان المكهرب . وأكثر أساتذة الجامعات من الاختبارات العلنية . وفي لايدن ، حاول الأستاذ موشنبروك ، في السنة ١٧٤٥ ، كهربية الماء في قنينة . فحدث أن أحد أصدقائه ، الذي كان ممسكاً بالقنينة بأحدى يديه ، حاول باليد الاخرى سحب الشريط الواصل الماء بالنقل . تلقى ضربة قوية في ذراعيه وصدره . كتب موشنبروك بذلك على الفور الى رومور . فرغب الناس كلهم في تلقي التفريغ الكهربائي . وزادت قنينة لايدن من سلطة المختبرين . وقد أمر الأب نوليه التفريغ الكهربائي بسرية تضم ١٨٠ رجلاً من الحرس الفرنسي ، ثم بـ ٣٠٠ راهب ألفوا

صفاء واحداً وجمعت بينهم قضبان حديدية . عند التفريغ كان الأشخاص الذين تمر بهم الكهرباء يقفزون في الهواء . بالقنينة قتلوا الطيور وأمرّوا الكهرباء بالأنهر والبحيرات ومغنطوا الإبر . ولوحظ سريان السائل سريانا فواتياً .

كانت الكهرباء حتى ذاك التاريخ موضوع فضول في الدرجة الأولى ،
لكنها سينغدو بمكنة الانسان في وقت قريب أن يظهر وجودها الشامل
ومناعة الصواعق والكهرباء الجوية
ويفسر بها بعض أكثر الظواهر الطبيعية جلاء .

في السنة ١٧٤٧ ، ارسل الانكليزي « كولنسون » ، عضو جمعية لندن الملكية ، الى صديقه الاميري « بنجامين فرانكلن » ، انبويًا زجاجيًا وتعليقات لإجراء بعض الاختبارات . اكب فرانكلن عليها بشغف ولاحظ قدرة الاسنان على « اجتذاب وقذف النار الكهربائية » . وكان لا يزال يعتقد ان ذلك ان الصاعقة مردها « نفث كبريتور الحديد القابل للتهاب » ، الذي هو كبريتور كبروني يشتمل تلقائياً » . ولكنه لاحظ في السنة ١٧٤٩ ان البرق والشرارة الكهربائية مضيئان كلاهما ولونها واحد ويلشرا رائحة كبريتية واحدة ويرسمان خطوطاً معوجة متماثلة ويتميزان بالسرعة نفسها ، والصوت نفسه ، وقابلية المعادن لنقلها ، والقدرة نفسها على تذيب هذه المعادن وقتل الحيوانات واشعال المواد الهلوية . وتساءل عما اذا لم يكن ممكناً اجتذاب البرق بالاسنان على غرار الكهرباء . واقترح ان توضع ، على مرتفع ، مرقبة مزودة بقضيب حديدي مقرر جداً يبلغ طوله ١٠ امتار ، وان يوضع في المرقبة رجل معزول بقرص من الصمغ يجوز ان يكهرب اذا ما مر الغمام منخفضاً . وأشار بأنه قد يمكن ، بهذه الطريقة ، « استراق الكهرباء من الغمام » وحماية المساكن والكنائس والمراكب من الصاعقة . فعرض آراءه في رسالة الى كولنسون في شهر تموز من السنة ١٧٥٠ . اطلع كولنسون عليها جمعية لندن الملكية التي اكتفت بالاستهزاء والازدراء برؤي فرانكلن . فنشر كولنسون حينذاك رسائل صديقه في مجلد ترجم الى كافة اللغات .

في فرنسا ، لفتت هذه المسائل الانتباه . فان « روماس » مستشار محكمة « نيراك » وعضو اكاديمية بوردو ، قد اشار ايضاً ، بعد الأب لوليه ، في السنة ١٧٥٠ ، الى وجه التشابه بين الصاعقة والكهرباء . وكان الفرنسيون على علم باختبارات « جالابر » الذي اكتشف هو ايضاً ، في السنة ١٧٤٨ ، في جنيف ، طاقة الاسنان . وترجم « داليبار » احد اصدقاء بوفون ، مؤلف فرانكلن ، فبادر بوفون الى رفع قضيب حديدي فوق قصره في مونبار وشجع داليبار على إعادة اختبار فرانكلن . اجري الاختبار في « مارلي » في اليوم العاشر من نوار من السنة ١٧٥٢ ، بنجاح تام ، برعاية ملك فرنسا ، واعيد ، بعد مرور اسبوع ، في باريس ، بواسطة قضيب يبلغ ٣٢ متراً طولاً .

الا ان فرانكلن لم يكن موقناً تماماً بان المختبرين قد « استرقوا » الكهرباء من الغمام

العاصفة لأن الغضب لم تبلغها . فصمم على ان يرسل الى الغائم « طيارة » وينقل الكهرباء بواسطة الحبل . فعل ذلك في ايلول من السنة ١٧٥٢ وتمكن من « استراق » كهرباء احدى الغائم ، وتلقي شرارة ، وشحن قنينة بالكهرباء ، وبلغ خبر اختباره باريس في شهر كانون الثاني من السنة ١٧٥٣ . قام روماس في « نيراك » بعمل مماثل في شهر حزيران وتمكن بذلك من اجهاض عاصفة هوجاء . ونصب فرانكلن قضيباً حديدياً فوق مسكنه . ثم حدث حادث افاح تحسين الجهاز : اعتقد فرانكلن بضرورة عزل اسفل القضيب ؛ ولكن « ريتشم » الذي وجد في السنة ١٧٥٣ على مقربة من اسفل قضيب احكم عزله في سان بطرسبورغ قتل بالصاعقة التي ضربت منه الرأس ، حين لم تستطع التغير . فلمس العلماء الحاجة الى تسهيل تغوير الكهرباء ، ومنذ السنة ١٧٥٤ انتشرت مانعة الصواعق .

وهكذا وجد الانسان التفسير الطبيعي لظاهرة اعتبرت وكأنها مظهر من مظاهر الغضب الإلهي : فان بوالوكان لا يزال يعتقد بان الله هو الذي يرعد ويحجل . فكان الانسان في طريق النجاة من المخاوف وإدراك الطبيعة واتقاء الاخطار .

تأيد وجود الكهرباء الشامل . في السنة ١٧٧٣ ، اثبت « وولش » ، في الكهرباء المضوية
الناجمة الكهربائية
لاروشيل ، ان الصدمات التي تحدثها بعض الاسماك كهربائية ؛ فقد وصل ظهر وبطن رعّاد بناقل كهرباء وحصل على قفريغ كهربائي . كما ان الايطالي « غالفاني » ، الطبيب واستاذ التشريح في بولونيا ، قد أجرى اختبارات في افخاذ الضفادع واثبت ، بين السنة ١٧٨٠ والسنة ١٧٩١ ، وجود الكهرباء في عضلات الحيوانات ووضع الصيغة المشهورة : « ان جسم الحيوانات قنينة لايدن عضوية » وواصل اختبارات مواطنه فولتا استاذ الطبيعيات في « كوما » ثم في بافيا ، فوجد ان الكهرباء تؤثر في اعصاب البصر والذوق . تابع ابحاثه في هذه الطريق ، وفي ٢٠ آذار من السنة ١٨٠٠ ، وصف ، في رسالة الى رئيس جمعية لندن الملكية ، نابته التي هي « عضو كهربائي صناعي » : تنضيد طبقات من ثلاث حلقات : حلقة نحاسية وحلقة زنكية متلاصقتان تغلفها حلقة ورقية رطبة . في ٢ نوار من السنة ١٨٠٠ حلل الماء بفضل النابمة الكهربائية : فاكتشفت بذلك اداة جوهريه للبحث والتطبيق العملي .

اما « فرنسوا كولون » ، الذي كان مهندساً في باريس ، والذي اكتشف ، في السنة ١٧٨٤ ، ميزان القوى الصغيرة بواسطة شريط مفتل ، فقد أوضح ، بين السنة ١٧٨٥ والسنة ١٧٨٩ ، ان ناموس نيوتون الذي تكون الجاذبية بموجبه متناسبة طردياً للاحجام وعكساً لمربع المسافات صحيح في الجاذبية او الدفع الكهربائيين والمغناطيسيين . فادعى من ثم بالفكرة القائلة بان كافة الظواهر الطبيعية قد تفسر يوماً ببدء الجاذبية دون غيره .

وقام اللندني « كافنديش » بأبحاث كاملة في الكهرباء الساكنة منذ السنة ١٧٧٣ ، ولكن مؤلفاته لم تشر الا في السنة ١٨٧٩ .

بقيت الآراء في طبيعة الكهرباء متأثرة تأثراً بينا بمادة ديكارت الرقيقة وطبيعة الكهرباء وبذرات نيوتون. فان « دي فاي » ، في « مذكرته الرابعة حول الكهرباء » قد فسر بالكهرتريانية الدفع الذي يحدثه الانبوب الكهربائي في ورقة ذهبية بعد ان تكون الجاذبية الاولى قد جرت الورقة والصقتها بالانبوب : « تجدر الملاحظة ، استناداً الى المسافة التي تقف الورقة عندها بعيداً عن الانبوب ، ان بمقدورنا الحكم على مدى الزوبعة الكهربائية ، وان بمقدورنا كذلك ، اذا ما سیرنا الورقة فوق اجزاء الانبوب المختلفة ، اما بادارتها حول محورها واما بجعلها في وضع عمودي ، ان نكوّن صورة لحدود الزوبعة ، او بالأحرى صورة لطبقة الزوبعة التي لها من القوة ما يكفي لمقاومة وزن الورقة ، لأننا اذا ما اخذنا قصاصات صغيرة جداً ، رأيناها تقف على مسافة ابعد جداً » . وفي السنة ١٧٣٧ ، توسع « دي فاي » في تفسيره الظاهرة بالزوايا الكهرتريانية . وفي السنة نفسها ، فرض « بريفا دي مولير » في المجلد الثالث من « دروسه في علم الطبيعة » ، رغبة منه في تفسير ملاحظاته ، ضرورة التسليم بتكون ما هو اشبه بالجو حول الجسم الكهربائي . ولما كان هذا الجو مضيئاً في الظلمة وقابل الاشتعال حين ندني الاصبع منه ، « لا يبقى مجال للشك بان اجزاء هذا الجو الصغرى ليست ذرات زيت حقيقية » . وليست هذه الذرات ، طالما هي في مسام الجسم الكهربائي ، سوى زوايا صغيرة جداً توازن ذرات اصغر منها هي ذرات الاثير ، الوسط المتمطط . بفعل الاحتكاك تخرج زوايا الزيت الصغيرة هذه وتكبر . وحين تلامس انتضاح الاصبع غير المنظور ، تختمر وتلتهب . وكان « بريفا » قد تبنى في السنة ١٧٢٩ زوايا المادة الرقيقة الصغرى ، ذات السرعة الكبرى في الابعاد عن المركز التي سدّها مالبرانش في السنة ١٧١٢ ، في الطبعة الرابعة من « البحث عن الحقيقة » ، مسدّد الاجزاء الصغرى التي قال بها ديكارت . وبفضلها استطاع « بريفا » الاهتداء في الزوايا السايوية الى ناموس كبلر الثالث وملاشاة احد اعتراضات نيوتون الاساسية على ديكارت . ولكنه بواسطة تأملاته في طبيعة الكهرباء اتاح بالاضافة الى ذلك لفوتنتيل الخلوص الى جواز وجود الكهرباء في الزوايا السايوية وجواز تجاذب هذه الزوايا وتدافعها تجاذباً وتدافعاً مستمرين (١٧٣٧) . وهكذا تزول كافة الاعتراضات على الكهرتريانية . إلا أن أعمال الفلكيين افضت الى غلبة نيوتون . كما ان المفهوم النيوتوني للثقل قد اوحى لفرانكلن بنظريته : الكهرباء « عنصر مشترك » موجود في كافة الاجسام ؛ اذا ما توفر منها لجسم فوق نصيبه الطبيعي ، فالكهرباء ايجابية ؛ واذا حدث عكس ذلك ، فالكهرباء سلبية . وقد سلم بهذه النظرية حتى « فاراداي » .

القصص الخرافية الكيمياء

سارت الكيمياء في طريق صيرورتها علماً . انتقل الكيميائيون من وصف الظواهر الى اكتشاف الواقع بتنجية أجسام عديدة اعتبرت من قبل بسيطة ، ثم انتهت عبقرية لافوازييه ، الذي كمل طريقة العمل واكتشف نواميس الظواهر الرئيسية ، الى تكوين العلم .

لم تعد عناصر ارسطو الأولية ، النار ، الهواء ، التراب ، الماء ، كافية لتفسير
العنصر اللهي الظواهر الكيميائية المكتشفة حديثاً . فكان من الألماني « ستاهل » ، أستاذ
الطب في « هال » ، أن ابتدع لتفسيرها ، في السنة ١٦٩٧ ، نظرية السائل اللهي التي نشرها في
السنة ١٧١٧ .

ان شيئاً ما يخرج من الجسم المشتعل أثناء احتراقه . وهو وجود هذا العنصر في الجسم ما
يجعل هذا الجسم قابلاً للاحتراق . ان هذا العنصر ، أو « فلوجستون » (لهيب) ، الذي لا
يشعر بوجوده في حالة التركيب الكيميائي ، لا يصبح حسياً الا حين ينبعث من الجسم .
وحينذاك يؤلف قوام النار . الاحتراق هو انتقال النار المركبة مع الجسم (العنصر اللهي) الى
حالة النار الطليقة ، وقد تخيل ستاهل هذا العنصر ، ولعله تأثر في ذلك بديكارت ، كجامد
مركب من اجزاء غاية في الصغر قليلة التلاحم فيما بينها ، أكثر قدرة من اية مادة أخرى على
التحرك تحركاً سريعاً هو كنه كافة نتائج النار كما ساد الاعتقاد . فكل مادة مركبة من العنصر
اللهي من جهة ومن عنصر آخر يختلف باختلاف الاجسام من جهة ثانية . المعدن مركب من عنصر
لهي ومن « كلس » يختلف باختلاف طبيعة المعدن . حين يكلّس المعدن ، ينبعث العنصر اللهي
ويبقى « الكلس » .

قامت هنالك صعوبة : فقد لوحظ ان القصدير والراسص يرتفع وزنها حين يكلّسان .
فكيف التوفيق بين هذا الواقع وفقدان أحد عناصرهما . ولكن ستاهل استدل من ذلك على ان
العنصر اللهي أخف وزناً من الهواء وانه يميل طبعاً الى رفع الجسم المركب معه وافقاده
بعض وزنه .

ادخلت النظرية تبسيطاً عظيماً على مفاهيم الكيميائيين . فهي قد سهلت تفسير الظواهر المعروفة خير تفسير . وقد احرزت نجاحاً حقيقياً .

كان اذن اهم الكيميائيين « لبيبين » ، واذا ما استثنينا لافوازييه ، فانهم جعلوا العلم يتقدم بواسطة التحليل النوعي في النصف الثاني من القرن ، بعد أن أتاح لهم إحكام الطريقة الاختبارية السير قدماً . كان دور الوقائع والاختبارات والاقتراضات في العلم معروفاً حينذاك خير معرفة بفضل بيكون ونيوتون وبفضل أعمال علماء الفلك وعلماء الطبيعة . وفي السنة ١٧٣٦ ، استشهد « ديلاند » باحدى خطب الهولندي موشنبروك في بحثه حول «خير طريقة لاجراء الاختبارات» ، فاقترح قواعد تضاهي بشدها القواعد الكلاسيكية التي اقترحها « ستوارت مل » بعد ذلك . ولكنها باتت شبه مبتذلة في السنة ١٧٥٠ .

ان الاسكتلندي جوزف بلاك قد مهد لأعمال شيل وبريستلي ولافوازييه بشق الطريق لنمط جديد في الكيمياء ، كيمياء الغازات أو « الكيمياء الغازية » ، وباقتراح طريقة لافوازييه ، طريقة الوزن ، مرتكز الكيمياء المعاصرة . قبل بلاك نظير الكيميائيون الى الجو كما الى خواه توجد فيه أجزاء صغرى مختلفة الأنواع لم يتوصل أحد الى التفريق بينها . بحث بلاك عن دواء أقل قوة من ماء الكلس لمداداة النقرس والحصاة في الكلى او المثانة ، فدرس المغنيزية البيضاء ، عالج سلفات المغنيزيوم بكميات البوطاس ، فحصل على ضالته المنشودة ، كربونات المغنيزيوم . ولكنه فحص خصائص المركب الجديد ، فوجد أنه يفقد « هواء » بالفوران حين يعالج بالحوامض أو بالنار ، وهو « هواء » ليس سوى جزء من الهواء الجوي . اطلق عليه اسم « الهواء الثابت » الذي ليس سوى غاز الكربون (١٧٥٤ - ١٧٥٦) . ولكنه تحول بعد ذلك الى مسائل « الحرارة الكامنة » .

شيل
انت الصيدلي الاسوجي شيل ، الذي ولد في « سترالسوند » في السنة ١٧٤٢ ، وكان مجهولاً في وطنه ، وأثار الاعجاب في كافة المحماء اوروبا ، بفضل صديقه « برغمان » استاذ الكيمياء في اوبسالا ، بذكراته التي ترجمت الى الالمانية والفرنسية ، وتوفي في السنة ١٧٨٦ عن عمر ٤٤ سنة ، قد كرس حياته للبحث في كل اوقات فراغه . امتاز بارادة ومثابرة نادرتين ، فكان سيد التحليل النوعي بواسطة الماء . لم يضاهه احد في استكشاف جسم جديد في تفاعل كيميائي ، كما لم يضاهه أحد في عزل جسم جديد . اكتشف عدداً كبيراً من الاجسام البسيطة : كلور ، اوكسيجين ، باريت ، منغنايز ، وجعل وجود عدة اجسام أخرى مرجحاً بدرسه مركباتها : فان اختبارات على فلورور الكلسيوم وحامض الفلور الصواني قد أفضت الى التسليم بجسم أساسي خاص يعرف باسم الفلور ؛ وانما بوجود الموليبدن والتونغستن . واكتشف عدداً كبيراً من الحوامض العضوية والمعدنية ، حامض دردي الحجر ، وحامض الزرنيخ ، وحامض اللبن ، والحامض البروسي ، وحامض الليمون ، وحامض العفص ، وغيرها . .

ووصف عملية تحضير الفليسرين وخصائصه . وحدد كيفية تركيب الهواء الحقيقية من عنصرين أحدهما « هواء النار » (او كسيجين) القابل الامتصاص بالكبريتورات القلوية وعدد من الاجسام الأخرى ، والثاني « الهواء الفاسد » (ازوت) الذي يبقى هو هو كاسلا . وحصل على الاوكسيجين بتحليله النطرون وبيروكسيد المنغنيز واوكسيد الزئبق واوكسيد الفضة ، وعين كل خصائصه خير تمين .

وهكذا فلانه قد أدى خدمات جلتي بوصفه المدقق لوقائع خاصة عديدة . ولكنه حين أراد اكتشاف علائق هذه الوقائع فيما بينها وردت العلائق الى مبدأ عام ، بقية جعل اللسان سيد الظواهر ، ضل الطريق وهام على وجهه . في رأيه ان الحرارة والنور مركبان من العنصر اللهبى وهواء النار . العنصر اللهبى وهواء النار وازتان ، ولكن اجتماعهما مآ قد يعطي جسمًا لا وزن له . ويبلغ هذا الأخير من الرقة ما يتيح له اجتياز الزجاج والتبدد بشكل بحرارة اولا وبجالة نور ثانياً . وجلي ان هذا الكلام حشو وهذر لم يترك لشيء ما ياخذ على آخر الفلاسفة الكلاميين .

ما هو مرد عجز العالم عن اتمام عمله يا ترى ؟ ان مرده هو ان شيل ليس في الحقيقة سوى عامل افتقر الى ثقافة عامة ، فلم يلبث ان اغتر بالكلمات . املت تربيته في صفوه ، فتمسك بالممارسة العملية ، ولكنه امتاز بعبقرية طبيعية حركها شغف المعرفة ، فأتى عملاً مفيداً . الا انه افتقر ابدأ ، للإفادة كل الإفادة من صفاته النادرة ، الى فلسفة الطبيعة والاداة الرياضية .

ولد الانكليزي بريستلي في ٣٠ اذار ١٧٣٣ ، على مقربة من « ليدس » في بريستلي « يوركشاير » ، من اب جواخ . وغدا راعياً واستاذاً . لفت انتباهه الشهرة التي عرفتها الكهرباء ، فكتب اول تاريخ للكهرباء في السنة ١٧٧٥ ، واجرى بعض الاختبارات ، وأصبح عضواً في جمعية لندن الملكية . كان مقيماً في جوار معمل جعة ، فأخذ منذ السنة ١٧٦٧ يجري بعض الاختبارات على غاز الكربون . واصل في اوقات فراغه اختباره على الغازات وابتكر عدة اجهزة لانتاج الغازات ومعالجتها ودرسها . فأدرك وحده في عهده مدى تكون الغازات وتنوع طبيعتها . وتضلع خير تضلع من فن ايجاد الصلة بين الغاز وكافة المواد الأخرى ؟ وخلف للقرن التاسع عشر معظم الطرائق المعتمدة في معالجة الغازات .

حين باشر بممارسة عمله ، كانت الغازات المعروفة اثنين فقط : حامض الكربون او الهواء الثابت ، والهيدروجين او الهواء القابل الاحتراق . اكتشف بريستلي الازوت ، وثاني اوكسيد الازوت ، وغاز الكلور ، وغاز النشادر ، واول اوكسيد الازوت ، وحامض الكبريت ، والاوكسيجين الذي اخرجته من اوكسيد الزئبق في اول آب ١٧٧٤ واسماه الهواء الحامض من العنصر اللهبى واكتشف دوره في دوام التنفس والثر في الدم الوريدي ، ثم اكتشف غاز فلور الصوان واوكسيد الكربون . فتم له بذلك اكتشاف الغازات التسعة الأهم شأنًا ، تلك التي

تفسر الهواء ، والتنفس والاحتراق ، والتكلس ، أي العمليات الرئيسية التي تجري في الكرة الأرضية .

ولكنه لم يتوصل هو أيضاً الى وضع أسس علم الكيمياء ولم يعرف السمو الى ما فوق تحديد الاحداث الخاصة . لا بل درج على قول ما جوهره : كلما اكتشفت ، تدنى ادراكي وتدنت معرفتي ، وكلما تأملت زاد ارتياي . ولا يرد ذلك ، فيما يعنيه ، إلى افتقاره إلى ثقافة عامة : فقد تعلم اليونانية والعبرية واللاتينية في مدرسة داخلية ، وتعلم الرياضيات والفرنسية والألمانية والابطالية للتسليية ، وتعلم الكلدانية والسريانية والعربية للتعلم في الكتاب المقدس ، ومارس الفلسفة واللاهوت ممارسة تخصص ووضع فيها ثمانين مجلداً .

إلا إنه أرتكب خطأ في الاسلوب ؛ فقد قام بما قام به دون تبصر ولا قصد ، ولم يستبره « فكر سابق البحث والتحقيق » ، ولا افتراض يحجب استبشاته ، ولا تخطط بحث . استخدم يديه أكثر من دماغه . امتحن اختبارات سابقه التي انطوت على فوران واستقطار وحرارة وافتحت لافتراض بتكون جسم غازي ، وبما ان معظم الاجسام الغازية كانت مجهولة ، فقد توفى إلى اكتشاف بعضها . أجرى « اختبارات للملاحظة » : اوكسيد الزئبق الأحمر أعطاه غازاً ؛ لم يميز بينه وبين بيرواوكسيد الازوت ؛ امتعنه بثاني اوكسيد الازوت فكانت دهشته كبيرة حين رأى الخلط يصطبغ بلون أحمر ؛ فلم يميز اذ ذاك بينه وبين الهواء ؛ وحدث اتفاقاً أن أدخل شمعة في الدردي ، فأخذ العجب منه كل مأخذ حين رأها تشتعل . « ... لو لم أر أمامي شمعة مضاءة ، لما أجريت هذا الامتحان ، ولبقيت كافة اختباراتي اللاحقة على هذا النوع من الهواء في عالم المجهول ... » . انتقل من دهشة إلى دهشة ومن اتفاق إلى اتفاق إلى ان بين ان هذا الغاز هو جديد ومتجانس وهو الجزء الملهب والممكن نشقه في الهواء ، أي الاوكسيجين . ولكن ثن فقدان الاسلوب هذا هو أن النتائج لم تتجمع قط في ذهنه وأنه لم يستطع الحكم فيها مجمعة . لاحظ عدداً كبيراً من الاحداث المتنافية والعنصر اللهي ، ولكنه بقي « عنصراً لهيباً » ، وحين توفي في السنة ١٨٠٤ لم يكن من عنصري لهبي سواء في العالم . ولعل هذا الراعي انشغل أيضاً بالمجادلات اللاهوتية : فلم تكن اختباره سوى طلب للراحة في حال أن العلم يتطلب الاستئثار بكل الانسان . ولعل هذا المؤمن كان شديد الميل كذلك الى الاسترشاد بوحى الروح . ولعل هذا الانكليزي ، اخيراً ، كان ضحية نزعة غير فادرة عند ابنساء وطنه الى جمع الاحداث دون محاولة استيضاح علائقها ولا تسلسلها ، تفضي احياناً الى عجز كلي عن اصلاح الآراء العلمية أو السياسية التي أثبت الاختبار بطلانها التام أو قدمها العقيم .

وأخيراً جاء لافوازييه . ولد في ١٦ آب ١٧٤٣ ، منمحدراً من عائلة بورجوازية لافوازييه ميسورة . تلقى دروسه بامتياز في كلية « مازارين » حيث تلقن اللاتينية والبيان والمنطق . بعد ذلك أطلق له والده الحرية ، فدرس الرياضيات وعلم الفلك على « لافي » ،

وعلم النبات على « جوسيو » ، والكيمياء على « رويل » . توفر له من ثم ما لم يتوفر لشيل : التهذيب الأدبي والرياضي ، أي الآداب التي تموت التمييز بين أدق الفوارق والعلاقي في الأفكار وتقدير معنى الكلمات الصحيح واستعمال أدوات الفكر هذه ، والرياضيات التي هي أداة الافتراض الواضح والسير الأمين والنتيجة الأكيدة . وتوفر له ما لم يتوفر لشيل وبريستلي معاً : فكرة اجمالية عن العلم وسيره وأساليبه وطرائقه ، وفكرة عامة جلية واضعة عن العالم أثارَت سبيله طيلة حياته . غدا عضواً في أكاديمية العلوم في السنة ١٧٦٨ « فتييسر له الاتصال بالعلماء والاطلاع على كافة الاكتشافات المفيدة لأعماله ؛ وكان بالإضافة الى ذلك يلتزم جمع الضرائب ويدير احتكار ملح البارود ، والتحق بصندوق القطع في السنة ١٧٨٨ ، فتوفرت له الثروة وبات قادراً على تكريس ١٠٠٠٠ ليرة سنوياً لمختبره ، وتوفرت له من ثم كافة أسباب إخضاع عقريته .

اعتدى منذ البدء بوحى هذا الافتراض : كل ظواهر الكيمياء مردها انتقالات المادة ؛ ولكن المادة تبقى أبداً هي في الكون اذا ما نظرنا اليه ككل ؛ قد تتغير شكلاً ، ولكنها لا تزيد ولا تنقص : لا شيء يفقد ولا شيء يستحدث . فاذا صح ذلك ، فان الشكل الخارجي قد يتبدل في اثناء مغلق ، ولكن الوزن لن يتغير ؛ في كل تفاعل كيميائي يجب أن يكون وزن المواد المتكونة مساوياً لوزن المواد المستعملة . أداة البحث هي الميزان الذي يفيدنا عما اذا كان هنالك مادة جديدة يجب اكتشافها ، أو جسم جديد يجب تحقيق هويته والبحث عن مصدره ؛ الطريقة هي طريقة الوزن . كانت الكيمياء نوعية ، فأصبحت كمية ، أي علماً حقيقياً .

أبين اللرق بيلاء باختيار السنة ١٧٧٠ الذي ساعده على تقديم الدليل على أن الماء لا يتحول راباً . أزعز لافوازييه بصنع ميزان صحيح ، ثم امتحنه واعترف بضرورة الوزن المزدوج . وزن إناه في حالات جوية مختلفة واستثبت أنه يفقد بعض وزنه حين يكون ساخناً بتبخير الرطوبة التي تلتصق به بارداً ، واستنتج من ذلك ضرورة اجراء الوزن الذي كان يريد مقارنته في الحالات الجوية نفسها . استخدم إناه يتصاعد فيه البخار إلى أعلاه حيث يتبخر ثم يتساقط ويأخذ بالفلين مرة أخرى . أخذ كمية من المساء ، ووزنها ، وأفرغها في الاناء الذي سبق له ووزنه ، ووزن الماء والاناء معاً رغبة منه في تحاشي كل خطأ ، وأقل الاناء إقفالاً محكماً ، وكرر الماء طوال مائة يوم ويوم . بعد انقضاء هذا الوقت لم يطرأ أي تغيير على وزن الاناء والماء معاً ؛ إلا أن الاناء قد فقد ١٧ حبة من وزنه ؛ والماء بات عكراً وازداد كثافة . وبعد تبخيره خلف درديا بلغ وزنه ٢٠ حبة . كان الاناء مصدر ١٧ حبة . أما الحبات الثلاث فكانت مجهولة المصدر ، ولكن لافوازييه استنتج بحق أن سبباً على هذا الصغر مصدره طارئ من طوارئ الاختبار ، وان الماء لا يتحول راباً . أجرى شيل الاختبار نفسه ، ولكن شيل لجأ إلى التحليل حيث لجأ لافوازييه إلى الوزن . اكتشف أن الدردي أو كسيد سيليسيموم ؛ فالماء الذي أصبح قلوياً قد ضم اليه عناصر قابلة الذوبان ؛ وكان استنتاج شيل من ثم مماثلاً . ولكن شيل استند

إلى بصره وذوقه ولمسه ، إلى حدة حواسه ، إلى سلامة ذاكرته ، إلى أحكام صغيرة شخصية ضمنية كثيرة ، بينما استند لافوازييه إلى الميزان الذي استخدمه بنطق ودقة ، إلى أرقام يقبل بها الجميع . لم يكن شيل أميناً من أنه رأى كل شيء ومن أنه لم يهمل ناحية من لواحي الطواهر ، بينما كان لافوازييه أميناً من أنه لم يهمل أي جسم وأي تفاعل . ولم يكن معنى ذلك أن التحليل النوعي يجب الاستغناء عنه ، فذلك غير ممكن ؛ بل إن عليه لإفساح المركز الأول لطريقة الوزن .

ما لبث الميزان أن أوحى لافوازييه بأفكاره الموجهة التي كانت والعنصر اللهي على طرفي نقيض . فقد قال في مذكرة قدمها إلى أكاديمية العلوم بتاريخ ١ تشرين الثاني ١٧٧٢ ما يلي :
« منذ أيام خلت اكتشفت أن الكبريت يولد باحترقه حامضاً ويزداد وزناً ؛ وهذا يصح في الفسفور أيضاً . إن هذا الزيادة في الوزن مصدره اتحادها بكية كبيرة جداً من الهواء .. » .

منذ ذاك الحين صدر الحكم على العنصر اللهي في عقله ، ولكن الواجب كان يقضي بتقديم الدليل على زيف نظرية ستاهل واستبدالها بنظرية أخرى تكون أكثر انطباقاً على الوقائع . اختط لافوازييه لنفسه طريقة بحث منظمة اتبعها طيلة أكثر من عشر سنوات بطول أناة وعزم لا يعرفان الكلل . كان يقصد مختبره منذ الساعة السادسة صباحاً ويكرس للكيمياء ساعات عديدة ، ثم يعود إليه في المساء بعد انصرافه في النهار إلى أعماله المالية . وفي أيام الأسرار كان يجمع ، حول أكواريه ، العلماء والعمال الذين يعدون له الأجهزة ، وبعض الشبان . ومنذ السنة ١٧٧٢ حتى السنة ١٧٨٦ ، رفع على التوالي ٤٠ بياناً نشرت في مجلدات أكاديمية العلوم ، وبلغ بما أرسله منها في السنتين ١٧٨١ و ١٧٨٢ أن استحال نشرها كلها . ترابطت هذه البيانات وتكاملت ؛ أفضت الوقائع إلى أفكار جديدة ، وأدت الأفكار الجديدة إلى درس وقائع مهمة أو إلى اكتشاف وقائع مبهولة . لم يترك شيء للمصادفة والاتفاق ؛ فالتفكير هو ما وجه البحث أبداً .

يستحيل علينا الدخول في تفاصيل هذه الاختبارات التي كان أشهرها ، في السنة ١٧٧٧ ، تحليل الهواء الذي قاده إلى اكتشاف الآزوت والأكسجين ونسبها الصحيحة وخصائصهما ودورهما في التنفس والاحتراق ، ثم إلى إعادة تركيب الهواء من اجزائه المختلفة ؛ وفي السنة ١٧٨٣ ، تحليل الماء وإعادة تركيبه من مقوماته . وفي النهاية أثبت أن العنصر اللهي لا وجود له ، وأن الهواء الخالي من العنصر اللهي جسم بسيط ، هو الأكسجين ؛ وأن الأكسجين يتحد بالمعادن لإبان تكليسها ، وأنه يحول الكبريت والفسفور والفحم إلى حوامض ؛ وأنه يؤلف الجزء الفاعل في الهواء ويفذي اللهب والموقد ؛ وأنه يحول ، في تنفس الحيوانات ، دمها الوريدي إلى دم شرياني ، ويفذي الحرارة الخاصة بها ؛ وأنه يشكل الجزء الأساسي في قشرة الكرة الأرضية وفي الماء والنباتات والحيوانات ؛ وأنه كائن أزلي لا يفنى ، ينتقل من مكان إلى

آخر دون ان يكسب أو يفقد شيئاً ، على مثال المادة بصورة عامة . وفي السنة ١٧٨٣ ، وبعد بيان اجهز على العنصر اللهي الذي قال به ستاهل ، وضع كتابه « بحث في الكيمياء » في مجلدين صغيرين كان من حسن سبكهما وضبطها الهندسي ووضوح فصولها وكال تسلسلها المنطقي أن أثار إعجاب أوروبا فعاقت الكتب الأخرى .

تأخر الكيميائيون أكثر من غيرهم في الانضمام الى لافوازييه . ولكن « برتوليه » و« غوتون دي مورفو » تبنيأ أخيراً نظريته في السنة ١٧٨٥ ، وما لبث « شابتال » ان حذا حذوها ، وفي السنة ١٧٨٧ علم « فوركروا » النظريتين وقارن بينهما في محاضراته .

أدى لافوازييه خدمة أخيرة للكيمياء بإسهامه في وضع لغة خاصة بها . الاصطلاحات كانت الكيمياء ملأى بالاسماء الغريبة : الفاروث ، ملح الالمبروث ، الماء الكيميائية الفاجيديني ، زيت الدردي الناقص ، زبدة الزرنخ ، زهور الزنك . وقد شاطر رأي لافوازييه كافة كيميائيي أوروبا ، كما عبر عنه في الخطبة التمهيدية لكتابته « بحث أولي في الكيمياء » : « ... يقتضي تمود طويل وذاكرة حادة لاستذكار المواد التي تعبر عنها [اسمائها] وبصورة خاصة للاهتمام الى نوع التركيب الذي تعود اليه ... انها تولد افكاراً خاطئة جداً » . وبين لافوازييه بعد ذلك ، متصرفاً تصرف تلميذ كونديلاك ولا سيما تصرف العالم ، استحالة فصل المصطلحات عن العلم وفصل العلم عن المصطلحات ، لأن كل علم قوامه سلسلة الوقائع التي تكونه والافكار التي تذكرها والكلمات التي تعبر عنها . على الكلمة ان تولد الفكر ، وعلى الفكر ان يصور الوقائع :

« انها رسوم ثلاثة لحاتم واحد ... وبما ان الكلمات هي ما يحفظ الافكار وينقلها ، يستنتج من ذلك اننا لا نستطيع اتقان الكلام دون اتقان العلم ، ولا اتقان العلم دون اتقان الكلام ، وان الوقائع ، مهما بلغ من ثبوتها ومن صحة الافكار التي قد تولدها ، لن تفضي الا الى تعابير خاطئة اذا لم تكن لدينا المفردات الصائبة للتعبير عنها » .

طلب الكيميائيون المصطلحات من غوتون دي مورفو الذي باشر العمل في السنة ١٧٨٧ مع لافوازييه وفوركروا وبرتوليه . فقرروا الدلالة على المواد البسيطة بكلمات بسيطة تعبر عن أكثر خصائص المادة شمولاً وتميزاً : اوكسيجين (مولد الحموضة) بسبب دوره في تكوين الحوامض . اما الاجسام المتكونة من اتحاد عدة مواد بسيطة ، فقد قسموها الى طوائف واجناس وانواع . فالمواد المعدنية المعرضة لتأثير الهواء والنار معاً تفقد لمعانها المعدني ويرتفع وزنها وتتخذ ظاهراً ترابياً : انها مركبة من عنصر مشترك بينها ومن عنصر خاص بكل منها ؛ اشتق اسم الجنس من العنصر المشترك : اوكسيد ؛ واضيف اليه اسم الممدن الخاص . والحوامض مركبة من مادتين ، « من صنف تلك التي نعتبرها بسيطة » ، احدهما مشاركة بينها كلها ، قوامها الحموضة ، اشتق منها اسم الجنس ؛ والثانية خاصة بكل

حامض ، اشتق منها الاسم النوعي . وفي العدد الأكبر من الحوامض قد يوجد العنصران
المرکبان ، العنصر المحمض والعنصر المحمض ، بنسب مختلفة تؤلف كلتها نقاط توازن: يُعبر عن
هاتين الحالتين للحامض الواحد بتغيير آخر الاسم النوعي (*eux, ique*) .

وهكذا كان للكيمياء ، بفضل لافوازييه ، نهجها ، ولفتها ، ومجموع وقائع ترتبط بنواميس.
لقد ولد علم فتي ؛ وسيعرف غواً عجيباً .

القسم السادس

العلوم الطبيعية

تقدمت معرفة الطبيعة بخطى حثيثة ، على أنها ما زالت ، في اغلب الاحيان ، وصفاً ، او تاريخياً طبيعياً ، ، وهذه خطوة اولى ضرورية على كل حال .
ولكن مقارنة الوقائع أثارت مسائل كبرى ، فوضعت نظريات كثيرة ، واستعين كثيراً بالطريقة الاختبارية التي طبقت تطبيقاً مطرداً على تعقد الظواهر الحيوية ، وارتسمت فكرة عامة جديدة : ويمكن اعتبار كل عمل القرن اعداداً لمذهب التطور المعاصر .

كان بوفون (١٧٠٧ - ١٧٨١) احد اوسع عوامل التقدم نشاطاً . كان لكثير بوفون الذي 'قلد لقب' الكونت دي بوفون ، ، ابن مستشار في مجلس قضاء ديجون ، ودرس في سن مبكرة علم الرياضيات وعلم الطبيعة ، وارسطو ، وديكارت ، ولينيئز ، ووضع بيانات علمية ونشر ترحمات كتب علمية . عين بعد ذلك امين حدائق الملك (حديقة النباتات الحالية) فتمنح عقله بفكرة 'تاريخ طبيعي' واسع جداً كرس له حياته منذ ذاك التاريخ . منذ السنة ١٧٤٩ حتى السنة ١٧٨٩ ظهر منه ٣٢ مجلداً بقطع ١/٤ في الارض والانسان ورباعيات القوائم والطيور والمعادن . ثم انجز 'لاسييد' ، بالاستناد الى ملاحظات بوفون ، 'تاريخ الافاعي' (١٧٨٩) ، وطبيعي ان بوفون قد استعان بعدد كبير من المساعدين لخص بالذكر منهم 'دوبنتون' الذي عاونه في موضوع رباعيات القوائم . ولكن بوفون تولى شخصياً تحرير الاقسام التي استهواه استهواء خاصاً : 'نظرية الارض' ، 'تاريخ الانسان الطبيعي' (١٧٤٩) ، 'تواريخ الطبيعة' (١٧٧٨) ، 'علم المعادن' . كان عالماً بطبقات الارض وعالماً بطبائع الانسان في الدرجة الاولى .

تناول النقد بوفون كما تناول كافة واضعي المؤلفات الجامعة والنظريات الكبرى والنظريات الجريئة والعلماء الذين هم علماء وادباء معاً . اخذ عليه تصنعه وتفخيمه . ولكن الاقسام التي يستشهد بها لاصدار هذا الحكم هي من وضع بعض معاونيه . فهو حين يكتب يفرغ ما يكتبه في قالب بسيط ينبض بمظنة حقيقية . '... ان حركة اللوحات الهائلة والقوية وتبسطها المستفيض والجميل يبعثان من هذا الكتاب العلمي في بعض اجزائه ، كـ 'تواريخ الطبيعة' مثلاً ،

قصيدة تثصف بالروعة والجلال . يروى انه حدث له ان صرف صبيحة كاملة في تركيب جملة واحدة ، وانه كان قادراً على تبرير استعمال كل كلمة . فجدد بنا من ثم ان نهش هذه المقدرة . واذا كانت لغة بوفون متصفة بالعظمة والاسهاب والتبل ، فرد ذلك الى انه طرق مواضيع عظيمة وشعر شعوراً عميقاً بعظمتها . واخذ عليه ، وذلك امر مهم صدر احياناً عن رجال علم من مصف ريومور ، انه عالم مزيف ، وباني مذهب جمع به الخيال ، وانه يكاد يكون مجرماً بحق الفكر . اما الواقع فهو انه قد لاحظ واختبر طوال حياته ، واحترم الوقائع خير ما يكون الاحترام ، واجلى برهان على ذلك انه غير على الدوام نهجه ونمط حكمه ، وانه حين ثبت له ، من تقدم دروسه ، ما تنطوي عليه « نظرية الارض » من نقص واخطاء ، اعاد كتابتها ، بعد مرور ٢٩ سنة ، باسم « تواريخ الارض » . ولكنه لم يكتف ، على غرار العقول الضعيفة والافتدة الخابية ، بالحقائق الجزئية : بل حاول ان يدرك ويرى مجموع الوقائع ويمسك بالروابط التي تصل بينها . لقد كان قوة من قوى الطبيعة . اولع بالملذات والمآكل الفاخرة وجمع المال ولعه بالحقيقة ، وقضى اوقاته بين « مونبار » وباريس ، واختلف الى الصالونات وعاشر الممثلات ، وضارب في تجارة العقارات ، واستثمر المهاجر والغابات ، وادار معمل الحديد ، واستطاع على الرغم من كل ذلك ان يكرس اكثر اوقاته للعمل العلمي . ازدرى بالمجادلات ، وواصل درس الوقائع همة لا تعرف الكلل ، وقال ، مغفلاً صفة نادرة من صفات الفكر ، ان العبقرية ليست سوى قدرة كبرى على الصبر وان فخره في انه سلخ خمسين سنة في مكتبته . شغفه بالعلم ادخل الحياة الى مكتبته بتلك الحرارة وتلك البلاغة اللتين جعلتا منها احد اكثر المؤلفات قراءة واوسعها انتشاراً في دور الكتب ، ومؤلفاً ربما كان له اكبر دور في بعث الميل الى العلوم الطبيعية والروح العلمية ، كما انه اتاح ، بفضل الطريقة التي نادى بها والوقائع التي جمعها والآراء التي اقترحها والنظريات التي بسطها ، قيام عدد كبير من الاعمال ونشوء فروع علمية جديدة ! الجغرافية الحيوانية ، علم طبائع الانسان ، علم خصوصيات الشعوب ، علم الاحاث .

واسهم بوفون في تحرير التاريخ الطبيعي من كل تأثير عقلي فرضي وردّه الى درس انتقالات المادة . كان خصماً عنيداً للعلل الغائبية التي كان يطيب للأب « بلوش » ، مؤلف « مشهد الطبيعة » (١٧٣٢ - ١٧٤٠) الذي عرف شهرة كبرى ، الاسترسال فيها : « ملتح الله البحر لأنه يصبح مضرراً بدون ملح .

... وخلق المد والجزر حتى تدخل السفن بسهولة الى المرافئ ... وكان من شأن اللون الاحمر واللون الابيض ان يعيى البصر ، ومن شأن اللون الاسود ان يثير الحزن ، لذلك وجد اللون الاخضر في الارياض لمساعدة الرؤية ، كما وجدت درجات مختلفة من اللون الاخضر ليهجتها . « أليس القول ان هنالك نوراً لأن لنا أعيناً ، وان هنالك اصواتاً لأن لنا آذاناً ، او القول

ان لنا آذاناً وأعيناً لأن هنالك نورا واصواتاً ، تردد لقول واحد، او بالحري ما معنى هذا القول ؟ » وقد لاحظ من جهة ثانية في اكثر الحيوانات « اجزاء لا طائل تحتها ولا فائدة منها او اجزاء زائدة » تهدم فكرة نظام للحيوانات المخلوقة بفعل عقل كلتي الكمال وكلتي القدرة .

ناهض الرغبة المستهجنة في نسبة كل شيء الى هدف معين ، وعدم الاكتفاء « بمعرفة كيفية الاشياء والطريقة التي تسلكها الطبيعة في عملها » ، واستبدال « هذا الشيء الواقعي بفكرة لا طائل تحتها بمحاولة التمكن بسبب الوقائع والغاية التي تتوخاها من عملها » . وانتهى الى هذه النتيجة :

« ليست العلل الغائية ما يمكننا من الحكم في اعمال الطبيعة ؛ يجب الا ننسب لها مثل هذه المقاصد الصغيرة واخضاعها في عملها الى لياقات أدبية ، بل ان نبحث عن كيفية عملها فعلاً وان نستخدم ، بغية معرفتها ، كافة « العلائق الطبيعية » التي يوفرها لنا التنوع الكبير في نتائج عملها » .

ان رد كل شيء الى معرفة « العلائق الطبيعية » ، دون اي تساؤل آخر، كان بالنتيجة تفرجاً عن الفكر وتأسيساً لعلم موضوعي . ولكن بوفون لم يتملص الا ببطء من الآراء القديمة : فهو قد استعاض عن الله واللاهوت بمفهوم « الطبيعة » الميتافيزيقي . حين نذكر الطبيعة نجمل منها نوعاً من كائن مثالي درجنا على ان ننسب اليه ، كلمة ، كافة المخلوقات الثابتة ، كافة ظواهر الكون . افترض ان لها مقاصد ومشاريع واخطاء ورغائب فجائية ؛ وانها تجرب وترسم وتحاول . الا أن مفهومه قد الجلى شيئاً فشيئاً . لاحظ أن الطبيعة لا يمكن أن تكون شيئاً لأنها قد تصبح كل شيء ، ولا كائناً لأنها قد تصبح الها . « الطبيعة هي « مجموع النواميس » التي وضعها الخالق . » ومجموع النواميس ، أي مجموع العلائق الشاملة والضرورية بين الوقائع ، يعني نظرة موضوعية كلها .

قبل بوفون ، سبق لريومور ، في « تاريخ الحشرات » (١٧٣٤ - ١٧٤٢) ، وفي بياناته ومراسلاته ، ان نصيح بدرس الطبيعة نفسها درساً مباشراً واستثبات كل ما يرويهِ المؤلفون ، حتى أرسطو وبلين . أما بوفون فلم يرد سوى معرفة الوقائع وأوحى احترام الواقع :

ان تخيل نظام أسهل من وضع نظرية ... المؤرخ مخلوق ليصف لا ليتبدع ... يجب الا يخيّن لنفسه أي افتراض ... ولا يجوز أن يستخدم تخيلته الا للتوفيق بين الملاحظات وتعميم الوقائع وتأليف مجموع منها يوفر للعقل ترتيباً منسقاً للأفكار الواضحة والعلائق المتسلسلة .

وهكذا فانه قد جُر في الجيولوجية الى نبذ كل التفسيرات التي لا تفرضها الجيولوجية
الوقائع فرضاً : غياب القمر ، وجود سيارة اختفت ، طوفان شامل ؛ « انها افتراضات يسهل اطلاق العنان للمخيلة في موضوعها ، اذ أن مثل هذه العلل تسبب كل ما نريد

ان تسبب . لم يرد سوى « معلومات تحدث كل يوم وحركات تتعاقب وتنبه بدور انقطاع ، وعمليات دائمة تتكرر أبداً » . هذه هي نظرية « الملل الراحنة » التي تغلبت على نظرية الكوارث .

حين بدأ دروسه الجيولوجية ، كانت الفكرة العامة ، على الرغم مما المجزء بعض علماء الطبيعة المتنازين من أعمال جزئية مفيدة ، هي هي الفكرة الواردة في حرف سفر التكوين : صنع الله العالم في ستة ايام ، وخلق القارات والحيوانات بمرة واحدة ، كما رآها الناس في القرن الثامن عشر . وكما كانت منذ القديم ، باستثناء تغييرات جزئية طفيفة يرد حدوث معظمها الى الانسان . هذه كانت النظرية التي اطلق عليها فيما بعد اسم نظرية الثبوت . عرفت آثار عضوية متحجرة كثيرة ، ولكنهم تخلصوا منها بنسبتها الى خلق الطبيعة اللعوب التي تلهت بإعطاء الحصباء البسيطة أشكالاً أشبه بالأصداف والأوراق النباتية والأسمالك ، أو باعتبارها أثراً من آثار الطوفان . اما الذين لم يقتنعوا فلم يتجاسروا على مناقضة حرف التوراة وآثروا الاعتصام بالصمت . أراد يوفون ألا يخشى سوى الخطأ ، والا يبتغي سوى الحقيقة ، والا يعرف سوى الوقائع . منذ السنة ١٧٤٩ ، عين للآثار العضوية المتحجرة ، في « نظرية الأرض » ، أصلها الحقيقي ، ولكرتنا الأرضية عمراً حددته بـ ٧٤٠٠٠ سنة بدلاً من الـ ٦٠٠٠ التي حددته بها اللاهوتيون ، وأظهر تطوراً . واستند في السنة ١٧٧٨ ، في « تواريخ الطبيعة » ، الى خمسة « وقائع » وخمس « آيات » .

يبين الوقائع :

« الأرض ترتفع عند خط الاستواء وتنخفض عند القطبين بالنسبة التي تفرضها نوااميس الجاذبية والقوة المبعدة عن المركز .

الكرة الأرضية تتميز بحرارة داخلية خاصة بها مستقلة عن الحرارة التي قد تصلها من أشعة الشمس . الحرارة التي ترسلها الشمس الى الأرض خفيفة نسبياً اذا ما قوزنت بحرارة الكرة الأرضية الخاصة ... وقد لا تكون الحرارة المرسله من الشمس كافية لابقاء الطبيعة حية . المواد التي تؤلف الكرة الأرضية هي على العموم من طبيعة الزجاج ويمكن أن تحوّل كلها الى زجاج .

يوجد على كل سطح الأرض ، وعلى الجبال نفسها حتى ارتفاع ١٥٠٠ و ٢٥٠٠ « تواز » كمية ضخمة من الأصداف وبقايا أخرى من نباتات البحر وأسمالكه .

ووصف آيات الماضي :

« اذا ما قمصنا الأصداف والآثار العضوية البحرية التي تستخرج من الأرض في فرنسا وانكلترا وألمانيا وبلدان أوروبا الأخرى ، تبين لنا أن قسماً كبيراً من الانواع الحيوانية التي تعود اليها هذه البقايا لا يوجد الا في البحار المتاخمة ، أو لا وجود له في أيامنا هذه ، أو لا يوجد الا في البحار الجنوبية .

لنجد في سيبيريا وفي الأصقاع الشمالية الأخرى من أوروبا وآسيا من الهياكل العظمية والانياب وعظام الفيلة وأفراس الماء والمراميس ما يؤكد لنا أن أنواع هذه الحيوانات التي لا يمكن أن تتكاثر بالتناسل إلا في المناطق الجنوبية قد وجدت فيما مضى وتكاثرت في المناطق الشمالية .

نجد انياب وعظام فيلة ، كما نجد أنياب أفراس ماء ليس في مناطق قارتنا الشمالية فحسب ، بل في مناطق شالي اميركا ايضاً ، مع أن أنواع الفيل وفرس الماء لا توجد في قارة العالم الجديد هذه .

وقد خيل اليه ان هذه الوقائع الراهنة وبقياء الماضي هذه تفرض عليه فكرة تطور في الزمان رسم خطوطه الكبرى . يقسم تاريخ الأرض الى سبعة عهود . العهد الأول هو عهد الميع والانتقاد : « حين اتخذت الأرض والسيارات شكلها » ؛ والثاني هو عهد الابراد : « حين جمدت المادة وكونت خوالد الكرة الداخلية » ، كما كوّنت الكتل الكبرى القابلة للتحويل الى زجاج والموجودة على سطحها » ؛ والثالث : « حين غمرت المياه قاراتنا » ؛ والرابع : « حين تراجعت المياه وأخذت البراكين تثور وتنفذ الحمم » ؛ والخامس : « حين قطنت الفيلة وحيوانات الجنوب الأخرى مناطق الشمال » ؛ والسادس : « حين تم انفصال القارات » ؛ والسابع : « حين غدت قدرة الانسان عوناً للطبيعة » .

وهكذا فقد غدا النهج 'درس' انتقالات المادة ؛ والمبدأ الاساسي المسلم به دون برهان ديمومة النواميس الطبيعية التي كانت ظواهر الماضي بموجبها ماثلة لظواهر الحاضر ؛ والفكرة 'العاممة' التطور الدائم ، التحول البطيء في الزمان ؛ فتأسست بذلك الجيولوجية الحديثة .

إن فكرة التطور هذه ، التي نحن الفناها ، قد قلبت طرائق التفكير وصادفت مقومات كثيرة . قلقفت الكنيسة : بوفون قد دافع عن رأي معاكس لرأي سفر التكوين . في ١٥ كانون الثاني ١٧٥١ ، زيفت كلية اللاهوت ١٦ رأياً جديداً وأوجبت استدراك القول . أعلن بوفون أنه يؤمن « إيماناً ثابتاً بكل ما يرويه التاريخ عن الخلق » ، وأنه يتخلى عن كل ما قد يخالف رواية موسى . وتابع طريقه . ولكن اناساً من امثال فولتير نفسه لم يستطيعوا فهم بوفون : فهم قد تصور عللاً دائمة أحدثت المخلوقات نفسها في كافة الأزمنة ، دون ان يكون هنالك تأثير لحالة الاشياء في عهد سابق عليها في عهد لاحق ، وعنده في ان يرى في الآثار العضوية المتحجرة اصدافاً احضرها حجاج الحملات الصليبية من سوريا او اسماكا نبذهها الرومان من موانئهم لأنها غير طازجة ، دون أن يتمكن من ان يفسر ، في هذه الحال ، كيف أن الآثار المتحجرة تكتشف أصدافاً قد تتجاوز ١٠٠ فرسخ طولاً .

لقد انجز خلال هذا القرن عمل عظيم جداً هو تصنيف الكائنات الحية اجناساً والتصنيفات النباتية والحيوانية . وكان التصنيف ضرورياً للاسراع في تشخيص النباتات التي عرف منها ١٨٠٠٠ في اواخر القرن السابق ، والحيوانات التي كان عددها يرتفع ارتفاعاً مطرداً . ولكن علماء الطبيعة قد عجزوا في اجراء هذا التصنيف لانهم ابتغوا من وراء

ذلك اكتشاف مخطط الله أيضاً .

في اوائل القرن استخدم علماء الطبيعة التصنيف النباتي للفرنسي « تورنفور » والتصنيف الحيواني للعالم اليوناني أرسطو . أدخل عليها السويدي « لينيه » (١٧٠٧ - ١٧٨٠) ، وهو ابن راجر بروستانتني ، تحسيناً كبيراً . فان كتابه « انظمة الطبيعة » الذي نشر في السنة ١٧٣٥ قد اعيد نشره منقحاً ١٣ مرة حتى السنة ١٧٨٨ ونشر معه عدة مؤلفات اخرى . في علم النبات وزع ٧٠٠٠ نبات على ٢٤ طائفة وفاقاً لعدد ابرها وترتيبها ونسبتها واجتماعها ؛ وبسط المصطلحات النباتية تبسيطاً كبيراً . كان علماء الطبيعة قد درجوا على تصنيفين اسم النوع خطوط الوصف الاساسية . فكان يقتضي ذاكرة اعجوبية لحفظ هذه الاسماء الطويلة ، وبات التصنيف يرهق العقل بدلاً من ان يفرّج عنه . اما لينيه فقد اعتمد المصطلحات الثنائية المنصر : اسم للجنس وآخر للنوع ؛ فقدت الطريقة سهلة ؛ وهي لا تزال حتى ايامنا هذه اساساً للمصطلحات النباتية ؛ فكان بذلك خلفاءه من القيام بعملهم الوصفي العظيم . وادخل في علم الحيوانات بعض التحسين على تصنيف ارسطو دون ان يقلب رأساً على عقب ، فأخذ بعين الاعتبار الاعضاء الداخلية ، وكان اول من ميز بين الحيوانات الولودة بواسطة الاثداء وصنف ، بين الضرعيات ، الحوتيات التي صنفته حتى ذلك التاريخ بين الاسماك .

وعى اهمية عمله وقدره واكبره . فقد نظر الى الانواع كما الى كيانات حقيقية متميزة بفوارق متباينة ودائمة هي الصفات النوعية . كل نوع يطابق عملاً من اعمال الخالق الذي عين له كافة الخصائص الضرورية وجعله ثابتاً ودائماً . فهمة عالم الطبيعة الاولى تقوم في جرد الانواع لأنه بذلك يصف عمل الله العجيب : علم التنظيم هو العلم الاسمي . ان لينيه لعمري هو فيلسوف مذهب الثبوت .

بيد ان عمله بقي ناقصاً ، فهو قد اختار ما يختص بالابر مبدءاً للتصنيف لأنه اعتقد بأن تحديد الصفات على هذا الشكل يضفي عليها قيمة كبرى ؛ كما فكر بالتوصل الى تصنيف طبيعي . اما في الواقع فكان اختياره تحكيمياً ، وبقيت ابواب تصنيفه صعبة : صنف اشجار الورد ثلاثة ابواب مختلفة وادخل شجرة التين في باب نبات النار . وفي علم الحيوان ، جمع في باب الحيوانات الضارية النمر والاسد وثعلب الماء والفقمة والكلب والقنفذ والخلد والخفاش ؛ وادخل في باب الافراس الحصان والفيل وفرس الماء وفارس السم والخنزير ؛ لم يبعث نظامه ارتياحاً في النفس ولم يصادف قبولاً وقناعة : فظهر عشرون نظاماً غيره ، افضت كلها الى تعمق في درس الصفات المميزة وتقدم عظيم في الوصف والطرائق ، واتاحت الاقتراب شيئاً فشيئاً من الطريقة الطبيعية . اصف الى ذلك من جهة ثانية ان بعض الاكتشافات بدت وكأنها تزيد الفروق بين العوالم . لقد ساد الاعتقاد ابداً بان المرجان نبات بحري . فأثبت احد اطباء مرسيليا ، « بيسونيل » ، في السنة ١٧٢٧ ، ان هذه النباتات « حشرات تكون المرجان » . ودرس الانكليزي « ترمبلي » ،

في السنة ١٧٤٠ ، نباتاً مائياً اتضح له شيئاً فشيئاً انه حيوان هو الهدرية الخضراء التي توفّق في اختباراتهِ عليها الى الحصول على التولدات الحيوانية المعروفة الاولى : قُطعت الهدرية فكُوتَ كل قسم منها هدرية كاملة ؛ لا بل انه توفّق الى اجراء اللقح الحيواني والحصول على هدريات ذات رأسين او عدة رؤوس . كان صدى عمله عظيماً واتجه الانتباه الى هذه الحيوانات التي كان تصنيفها من الصعوبة بمكان . واخذت تبرز فكرة دوام الطبيعة .

رأى يوفسون بوضوح ، وربما كان اول من رأى ، طابع التصنيفات الصنعي وما نجم لينتبه بعنف . واذا ما هو انتهى الى التصنيف ايضاً ، تفريخاً عن العقل ، فانه لم يكن قط مغروراً :

يرون ان الاوس نوع من الهر ، والثعلب والذئب نوع من الكلب وقط الزباد نوع من الغرير ، والحنزير الهندي نوع من الأرنب البري ، والجرد نوع من القندس ، ووحيد القرن نوع من الفيل ، والحمار نوع من الحصان ، وكل ذلك لأن هنالك بعض النسب الصغرى في عدد ائداه هذه الحيوانات واسنانها او بعض التشابه في قرونها ... افليس القول ان الحمار حمار والهر هر اسهل واصح واقرب الى الطبيعة من ان نريد ... الحمار حصاناً والهر أوساً ؟

بيد أن الفرنسي « آدنسون » (١٧٢٧ - ١٨٠٦) هو من اهتمدى الى طريقة التصنيف الطبيعي وقوّم أسس الايمان بواقع النوع . ففي كتابه « تاريخ السنغال الطبيعي » (١٧٥٧) ، وفي مؤلفه الهام « فصائل النباتات » (١٧٣٦) ، شدّد الكلام على الاشكال المنظمة . لم يستطع أحد « اثبات وجود الطوائف والأجناس والأنواع في الطبيعة » ، لأن « ليس هنالك سوى كائنات فردية تتعاقب ، منصرفاً بعضها في البعض الآخر ، اذا صح التعبير ، بواسطة الفروق المميزة » . واذا ما فحصنا الفروق بدقة ، توصلنا في النهاية الى تمييز « الخطوط الفاصلة » . وربما لم يكن همضها ، بما هو بارز ويكون « فراغاً » بين الكائنات ، دلالة اختلاف في النوع ، بل ان سببها الوحيد « هو جهلنا للكائنات الوسيطة التي تصل بينها ، أي فقدان هذه الكائنات بالذات في تماقب الأزمنة وبفعل تقلبات وجه الارض » . ولكن لما كانت الضرورة العملية توجب التصنيف ، بات لزاماً ، على الأقل ، احترام « الترتيب الذي تبقي عليه هذه الخطوط الفاصلة فيما بينها » ، واتباع « طريقة الطبيعة او ... الطريقة الطبيعية ... وحتى اذا لم يكن من وجود للطوائف والأجناس والأنواع في الطبيعة ، بالمفهوم الذي يعنيه المنهجيون المعاصرون ، فقد يمكن استناداً الى مدى الفراغات ، اكتشاف تقسيمات متشابهة يجوز ان تحمل اسمها في طريقة طبيعية » . تخلى آدنسون عن كافة العادات وانكب على فحص المجموعات : فالجموعة هي الواقع . « وصفت في البدء كل نبات وصفاً كاملاً مخصصاً لكل من أجزائه ، بكل تفاصيله ، مقالاً خاصاً ؛ وكلما مررت بأنواع جديدة تقوم بعض الصلات بينها وبين ما سبق وصفه ، وصفتها الى جانب الاولى ضارباً صفحاً عن أوجه التشابه ومدوناً الفوارق فقط . تبين لي من

مجموع هذه الأوصاف المقارنة ان النباتات تنسق من ذاتها في طوائف أو فصائل لا يمكن أن تكون قياسية أو تحكمية من حيث أنها غير مبنية على جزء واحد أو عدة أجزاء ... بل على كافة الأجزاء معا . فكانت هذه الملاحظات حول انتقال غير محسوس من فئة الى أخرى طريقاً سهلاً نحو مذهب التحول ؛ كما ان تحقيق واقع مستمر يقطعه عقلنا أجزاء لأجل راحته الشخصية ، وكما لو كان ذلك بفعل ضرورة يستلزمها تركيبه ، لم يكن منطقياً على نتائج فلسفية ضئيلة .

حاول القرن الثامن عشر ان يتغلغل في أسرار هذه الأجهزة العضوية التي التناسل الذاتي توفر له وصف ظاهرها . فما هو أولاً مصدرها يا ترى ؟ كان القرن السابق قد هدم الاعتقاد بالتناسلات الذاتية فيما خص الديدان والذباب وكافة الحشرات . فقد اثبتت بعض الاختبارات انها تولد جميعها من تزاوج ذكر وأنثى . كما كان قد اكتشف الجراثيم بواسطة المجهز . الا أن بوفون رجع في السنة ١٧٤٨ ، بغية تفسير مصدرها ، الى نظرية التناسل الذاتي الموافقة لرأيه في التطور . طلب الى الاب « نيدهام » القيام بالاختبار . أعد الاب نيدهام بعض مرق اللحم المشوي « الساخن جداً » في قناني سكب فيها ماء غالياً وسدّها سدّاً محكمًا ثم وضعها في رماد « ساخن جداً » . بعد مرور أربعة أيام ظهرت على التوالي خيوط عفن ، و«غيرات» وخائثر ، وجراثيم ، ونقاعيات . فتكلم نيدهام عن « قوة انمائية » في المادة لجعلها تلتقل الى حالة النبات ثم الى حالة الحيوان .

حينذاك أجرى عالم الطبيعة الايطالي « سبالزاني » (١٧٢٩ - ١٧٩٩) سلسلة من الاختبارات الخليقة بباستور . اشبهه في أن نيدهام لم « يعرض » الأنثى لدرجة من الحرارة كافية لافناء الجراثيم الموجودة فيها . يضاف الى ذلك انه لم يسد قنانيه الا بالقرق « الذي هو مسامي جداً » ، فلم يتمكن من الحيولة دون دخول الجراثيم الى منقوعاته . في السنة ١٧٦٥ ، سكب سبالزاني منقوعات في قناني ختمت اعناقها باذابة الزجاج ثم وضعت في الماء الغالي طيلة ساعة كاملة . فلم يظهر أي « حيوان صغير » . أما اذا أقيمت القناني مفتوحة أو سخنت لفترة قصيرة ، فتتكاثر الحيوانات الصغيرة بسرعة .

اعترض نيدهام على ذلك : اضعف سبالزاني القوة الانمائية بمغالاته في التسخين . فسخن سبالزاني قنانيه حينذاك طيلة ساعتين في الماء الغالي ، ولكنه لم يحكم سدّها : ظهرت الحيوانات الصغيرة ، وما كانت الحرارة من ثم لتضعف أية قوة ، وبالتالي كان الاختبار الاول صحيحاً ومقبولاً .

زعم نيدهام آنذاك ان سبالزاني قلل في المرة الأولى كثافة هواء القناني بسدّها باذابة الزجاج ؛ وهذا هو سبب عدم ظهور الحيوانات الصغيرة . استخدم سبالزاني قناني تلتهمي بانبوب شعري . اقلعها باذابة الزجاج وبقطع الانبوب سريعاً : لم يطرأ من ثم أي تغيير على

ضغط الهواء . أعاد اختباره الأول في هذه الغناني : فجاءت النتيجة مماثلة . استطاع سبالزاني أن يؤكد ما يلي : « القوة الانغاثية ليست سوى نتاج الخيلة » . « الحيوانات الصغيرة » تتولد من « بذور » تقاوم قوة النار بعض الوقت ولا تلبث في النهاية أن تموت . إلا أن فكرة التطور والمادية سبغت الاعتقاد بالتناسلات الذاتية . وكان مقدراً لباستور « وبوشيه » أن يحدد الجدال الذي قام بين نيدهام وسبالزاني .

التغذية كيف تعمل هذه الأجهزة العضوية عملها يا ترى ؟ فصل الانكليزي « هايز » في كتابه « علم سكون النباتات » (١٧٢٧) الاختبارات التي سمحت له بالتأكيد أن انتقال اللسغ صعوداً يجري بسبب الانتضاح ؛ وأن الأوراق هي مركز هذا الانتضاح تحت تأثير نور الشمس . وفي أواخر القرن أتاح تقدم الكيمياء اكتشاف كيفية تكوين النباتات لمادتها بذاتها . وفي السنة ١٧٧١ لاحظ بريستلي أن ساق النعناع الموضوع تحت اناه زجاجي مغفل إقفالاً يحكمها ينقي الهواء . وبعد أعمال لافوازييه ، أدرك العلماء ان النباتات تستولي على غاز الكربون في النهار وتحفظ بالكربون وتنخل عن الأوكسجين : الكربون يبقى متحداً بالنبات .

أما فيما يخص الحيوانات فقد قال القرن الثامن عشر ، مدة طويلة ، بآراء ديكارت : الجسم آلة ، أو اجتماع أنابيب ، وغول ، ومنافخ ، ومضخات ، ومناخل . لم يكن هنالك أية فكرة عن الظواهر الكيميائية . الصفراء ، والبول ، والحليب كل ذلك يتكون في الدم . الدم يمر في الغدد التي ليست سوى مصاف لإفراز هذه الاخلاط . ولما كان كل شيء آلياً ، فمن الممكن اخضاع كل شيء للحساب . برهن الانكليزي « كيل » بطريقة الاستنتاج ان جسم انسان يزن ١٦٠ لبرة يشتمل على ١٠٠ لبرة دما و ١٠ لبرات عظما و ١٧ لبرة شحما . وكان ذلك خطأ غير نادر يقوم بالاستنتاج ، باعتماد طرائق علم أكثر بساطة وتقديماً ، في علم أحدث عهداً وأكثر تعقيداً ، غير آخذ بعين الاعتبار الا ما هو مشترك بين العليين ومهملاً ما هو خاص بالعلم الأكثر تعقيداً . وهذا ما كان سيحدث ، بعد ذلك بزمان ، بتطبيق علم الحياة على درس المجتمعات البشرية ، والحصول بهذا التطبيق على نتائج غريبة .

تقدم « بارتيز » ، في السنة ١٧٧٨ ، بنظرية « الحيوية » : ان مجرد حركة القوى الطبيعية لا يمكن ان يفسر ظواهر الحياة . هذه الاخيرة تنجم عن فعل مبدأ حيوي لا تكتشف نواميسه الا بدرس خصائص الاعضاء ، بحسب الروح النيوتونية . فكانت ذلك وعياً لنوعية ظواهر الحياة ونبدأ لكافة النظريات الميتافيزيقية في الحياة . وقد غدت مونبلييه مركز مذهب الحيوية .

تحققت النتائج على ايدي المختبرين . فقد برهن رومور ، في السنة ١٧٥٢ ، وسبالزاني في السنة ١٧٨٠ ، ان الهضم كيميائي عند الحيوانات الغشائية المعدة ، بينما زعم سابقوها انه يرد الى عملية السحق التي تتولاها عضلات المعدة . فأمننا الاطعمة ضد عملية السحق هذه بواسطة

انبوب صغير من التلك احداث فيه ثقوباً كثيرة ، ووجدوا ان الاطعمة قد هضمت ، ثم وضعوا اسفنجة في الانبوب . وجمعا العصارة الممدية . وضع سبالنزي هذه العصارة في انابيب مملوءة باللحم سدها سداً محكماً وتأبطها طيلة ثلاثة ايام ، فوجد بعدها ان اللحم كان قد هضم هضمًا تاماً : فكان ذلك اول هضم اصطناعي .

ساد الاعتقاد حتى السنة ١٧٧٥ ان الهواء يدخل الى الدم لتبريده أو لتزويده بمبدأ حي . في تلك السنة برهن بريستلي ان التنفس ينجم عن تبادل غازي . ثم جاء لافوازييه فعمل في السنة ١٧٧٧ ، باختبارات معدودة ، المسألة التي عطف عليها الاطباء وعلماء الطبيعة منذ قرون عديدة : فبرهن ان الدم ، في الرئتين ، يمتص الاوكسجين ويتخلى عن حامض الكربون . ومنذ السنة ١٧٨٠ حتى السنة ١٧٩٠ ، طبق لافوازييه ، مع لابلان ثم مع سيفين ، مقياس كمية الحرارة على درس الحرارة الحيوانية؛ وأثبت ان التنفس هو السبب الرئيسي للمحافظة على حرارة الجسم ، وان العرق يبرد الجسم حين يكون بحاجة الى ذلك ، وان الهضم يعيد الى الدم ما يفقده بالتنفس والعرق .

كيف تتناسل الكائنات الحية ؟ أدت اختبارات عديدة الى اكتشاف توازج الاخصاب النباتات: يتم الاخصاب بسقوط غبار طلع ذكور الازهار على اناث الازهار . تحققت هذه النتيجة منذ السنة ١٧٥٠ . ولكن العلماء فشلوا فشلاً ذريعاً في التغلغل في اسرار تناسل الحيوانات . لوحظت وقائع غريبة من أمثال تناسل الارق الذاتي ، التناسل بواسطة العذارى المخصبة ، الذي لفت ريو مور الانتباه اليه . اجريت بعض الاختبارات . ولكنها لم تسفر عن نتيجة حاسمة واحدة .

« ان جاذبية متساوية وعمياء موزعة على المادة كلها قد لا تفيد في تفسير كيفية تركيب هذه الاجزاء بغية تكوين جسم غاية في البساطة . إذا توفرت لها جميعها النزعة نفسها أو القوة عينها ليتحد بعضها ببعض الآخر ، فلماذا يكون هذا البعض عينا وذاك البعض اذناً ؟ لماذا هذا الاحكام المعجيب ؟ ولماذا لا تتحد كلها اتحاداً مختلطاً ؟ » .

وبسبب جهلهم كل شيء من ذلك ، تعلق العلماء بنظرية التكون السابق وتداخل الجراثيم التي لا تتعرض للمسائل المطروحة : اشتمل الانسان الاول في ذاته والحيوانات الاولى في ذاتها على كافة الاجيال اللاحقة متكونة ومتداخلة كلها . وقد حسب أحد العلماء ان ٢٠٠ جيل تمثل ٢٠٠ مليار من الكائنات البشرية المتداخلة على هذه الصورة ! انتقد بوفون هذا الرأي وهذا المفهوم انتقاداً لاذعاً ، ولكن العلماء انحسروا امام « حكمة العلي التي لا تدرك » .

على الرغم من هذا الاخفاق اخذت فكرة استمرار الطبيعة تتقدم رويداً رويداً . فكان طرائق الملاحظة والاختبار التي نجحت ذاك النجاح الكبير في درس الاجسام الحام ، قد نجحت

وسحدها ايضا في درس الاجسام العضوية ! وقد آل عدد كبير من الظواهر الحيوية الى ظواهر طبيعية وكيميائية ، الى حركات من حركات المادة . واعتقد بعضهم بأنه سيأتي يوم يؤول فيه اليها كل ما لم يفسر بعد : فكانوا ماديين تماما .

استخدم القرن الثامن عشر مفهوم الحركة الانعكاسية الذي طلع به الانكليزي الاصحاب « ويليس » في القرن السابع عشر . فان « استروك » من مونبلييه « قد درس في بيانیه المائدين الى السنة ١٧٢٣ والسنة ١٧٣٦ » ، « القابليات » أي ردود الفعل التي تؤدي ، هند تبيج احمد الاعضاء ، الى تقلص أو تشنج في عضو آخر : اغلاق الجفون ، السعال ، العطاس ، الهواع ، المعص ، البلع . فترها بحركة مزدوجة من « التأخير » التي تصعد من المناخر باتجاه الدماغ ، فتصطدم بليفته وتسلط طريق غضب الحجاب الحاجز . يتحرك هذا الاخير بعنف فيحدث العطاس .

ولكن ما زال كل شيء خاضعاً للدماغ . في الثلث الأخير من القرن حدثت ثورة كوبرنيكية : اكتشاف مراكز « حسية حركية » تعمل بدون الدماغ . فإن « هويت » ، من « ادبرا » ، قد حصل على حركة انعكاسية ، اثناء اختباره على ضفادع مقطوعة رؤوسها ، على الرغم من عدم وجود الدماغ ، وبرهن على أن التخاع الشوكي هو ما يسبب هذه الحركات : فهي لا تحدث بعد تعطيل هذا الدماغ (١٧٦٦) . ورأى « اولز » ، الأستاذ في « هال » ، أن الجسم مركب من عدة « آلات حيوانية » تنبض بقوة نوعية خاصة بها وتحدث مباشرة وفجأة حركات حيوانية تعي جسم الحيوان بدون أي تدخل من الدماغ ، وبدون وعي وبدون ادراك . تؤمن الاتصال بين هذه « الآلات الحيوانية » عقد وضاغائر عصبية تمكس الانطباعات الخارجية وتحدث الحركات الانعكاسية (١٧٧١) .

ورأى « بروشاسكا » ، الأستاذ في براغ ، ان « المركز الحسي المشترك » (الالتفاح الفقاري والنخاع الشوكي) ، يؤمن ، بمعزل عن الدماغ ، بقاء الجهاز العضوي ودفاعه ضد اسباب الفناء على انواعها . تسبب الأعصاب الحسية ، بفعل اتصالها بهذا « المركز الحسي المشترك » ، تحول الانطباع الى حركة . ويتم الانطباع الحسي عند مستوى عقد الاصول الخلفية للأعصاب الفقارية . تخاض هؤلاء العلماء الثلاثة التعرض لطبيعة الخلط العصبي والقوة العصبية – وتبنوا الطريقة النيوتونية فاكتفوا بدرس خصائص الاعصاب لمحاولة تحديد نوايس حيوانية دونما اكثراث للآلية الكرونيانية والنظريات الطبيعية : إلا أن الأدنى لا يفسر الأعلى . ولعلم الحياة نسقه النوعي ونواميسه الخاصة .

بيد أن فكرة تطور الكائنات وتبدلاتها البطيئة والتدرجية والمستمرة وقابليتها مذهب التحول الكبرى للتغير كانت سائرة قدماً ومؤيدة شيئاً فشيئاً إلى مذهب التحول . وقد أوحى وقائع كثيرة بهذه الفكرة : الحيوانات المتحجرة المجهولة في أيامنا هذه ، الطابع

الصنعي الذي يرتديه النوع والوسائط الكثيرة بين الانواع المتقاربة ؛ نجاحات علم التشريح المقارن على يد الفرنسيين « دوينتون » الذي شرح لبوفون ، بين السنة ١٧٤٩ والسنة ١٧٦٧ ، نوعاً من الضرعيات ، و « فيك دازير » ، طبيب ماري - انطوانيت ، للذي قارن بين الهياكل العظمية والقلوب والمعد عند الطيور والاسماك ، فاكشفنا وحدة تخطيط التركيب ؛ ان التخطيط العام لتركيب هذه الحيوانات مماثل ، والاعضاء نفسها موجودة عند جميعها في الوضع النسبي نفسه ومركبة من الاجزاء نفسها وفاقاً للترتيب عينه ، كما لو كانت كلها منحدرة من جد مشترك ؛ ورأيا تشابه الخلق ونوع الحياة الذي حمل على الاعتقاد بالمطابقة للبيئة . واتجهت الاتجاه نفسه جغرافية بوفون الحيوانية ؛ لما كانت الفوارق بين الحيوانات نفسها تتبع المناخ والنباتات وارتفاع سطح الارض ، فلا يمكن أن ترد الا الى تغيرات تحدث بتأثير العوامل الطبيعية ؛ واطهر علم الوظائف أهمية العوامل الطبيعية والكيميائية في حياة الأجهزة العضوية ؛ وبدأت بعض الوقائع الغريبة وكأنها تشير في الطبيعة الى قوى مجهولة غير اعتيادية ؛ فقد رأى « ترمبلي » الهدريات المقطعة إرباً إرباً تستعيد تكوينها مرة أخرى ؛ وابر الهدريات برؤوس في اوضاع غريبة بعيدة التصديق جداً . وابر « دوهاميل - ومونسو » ، في السنة ١٧٤٦ ، رأس الحيوان بصيغة الديك . وشاهد ريومور ، في السنة ١٧١٢ ، تجدد تكون رجل السرطان المقطوعة ؛ كما شاهد سبالزان في السنة ١٧٦٨ تجدد تكون رأس حازون مقطوع الرأس ؛ ورأى بونيه في السنة ١٧٨٠ تجدد تكون عين سمندر ماء .

وهكذا فقد نشأت نظرية التحول باكراً في ذهن الفرنسيين . فعالم الرياضيات والفلكي « موبرتوي » ، الذي استنار باختبارات تهجين عديدة ، قد عبر عن فكره تعبيراً تحولياً في « الزهرة الطبيعية » (١٧٤٥) و « نظام الطبيعة » (١٧٥١) و « علم نواميس العالم العامة » (١٧٥٦) . بين تبدلات حاصلة بتأثير المناخ والاعذية وقابلة الانتقال منذ التوالد الأول ؛ « ألا نستطيع أن نفسر بذلك كيف أمكن حصول تعدد أكثر الانواع تبانياً انطلاقاً من فردين فقط؟ » لقد تصورت في ذهنه منذ ذاك التاريخ فكرة المطابقة للطبيعة والانتقاء الطبيعي ؛ ولقد اتفق هذه التأثيرات الطبيعية عدداً غفيراً من الأفراد ؛ فما كان منها سيء التركيب ولم يستطع سد عوزة قد انتهى الى الاضمحلال ، أما ما تبقى فقد عرف البقاء بفضل « بعض علائق الانتفاع » .

اما آدنسون فقد اقتنع بقابلية التبدل لدى الانواع . تحقق ظهور انواع نباتات جديدة ، اما باخصاص نباتين مختلفين من نوع واحد ، واما بالزراعة والتربة والمناخ والجفاف والرطوبة والظل والشمس . قد تزول هذه التبدلات في التوالد اللاحق ، ولكنها قد تنتقل بالوراثة ايضاً ؛ فيتكون من ثم نوع جديد .

خلص بوفون الى القول ان الحمار ليس سوى حصان فسد نوعه بتأثير المناخ والغذاء ؛ وان الانسان والقرود ينحدران من اصل واحد على غرار الحصان والحمار ؛ وان « كل فصيلة » سواء

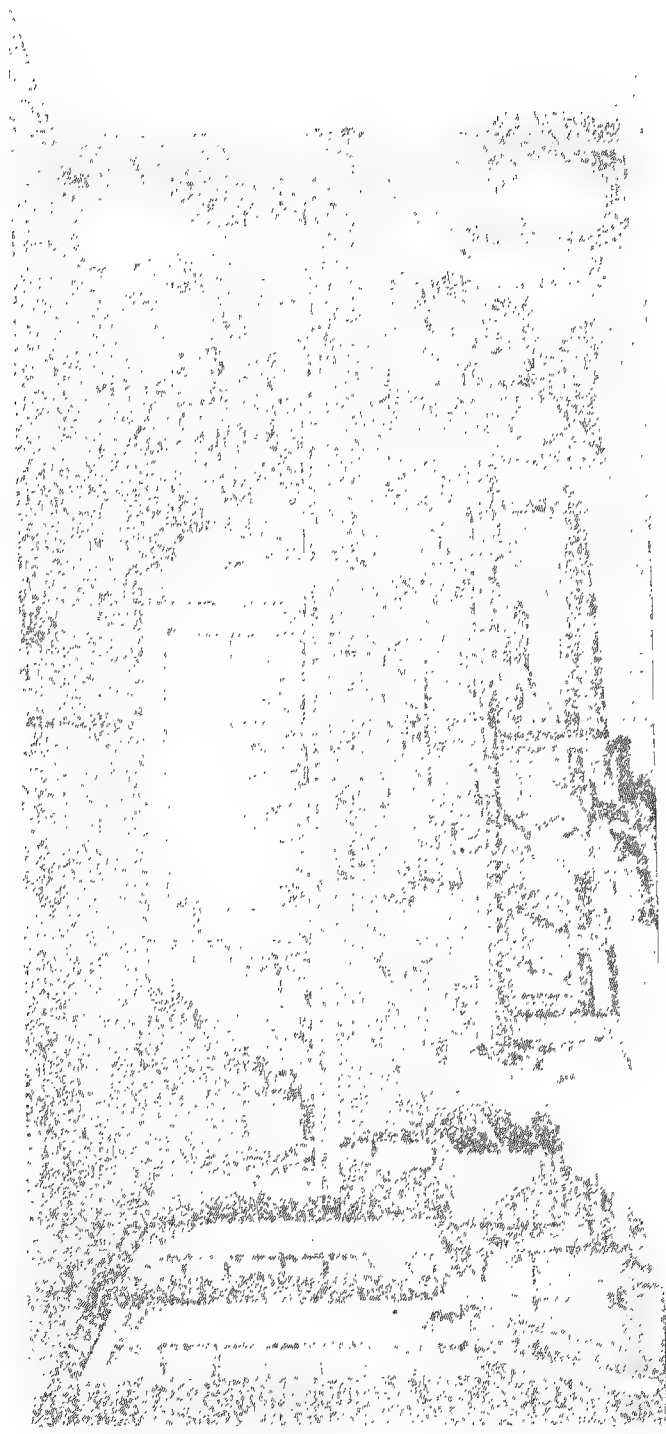


نسخه با کیفیت

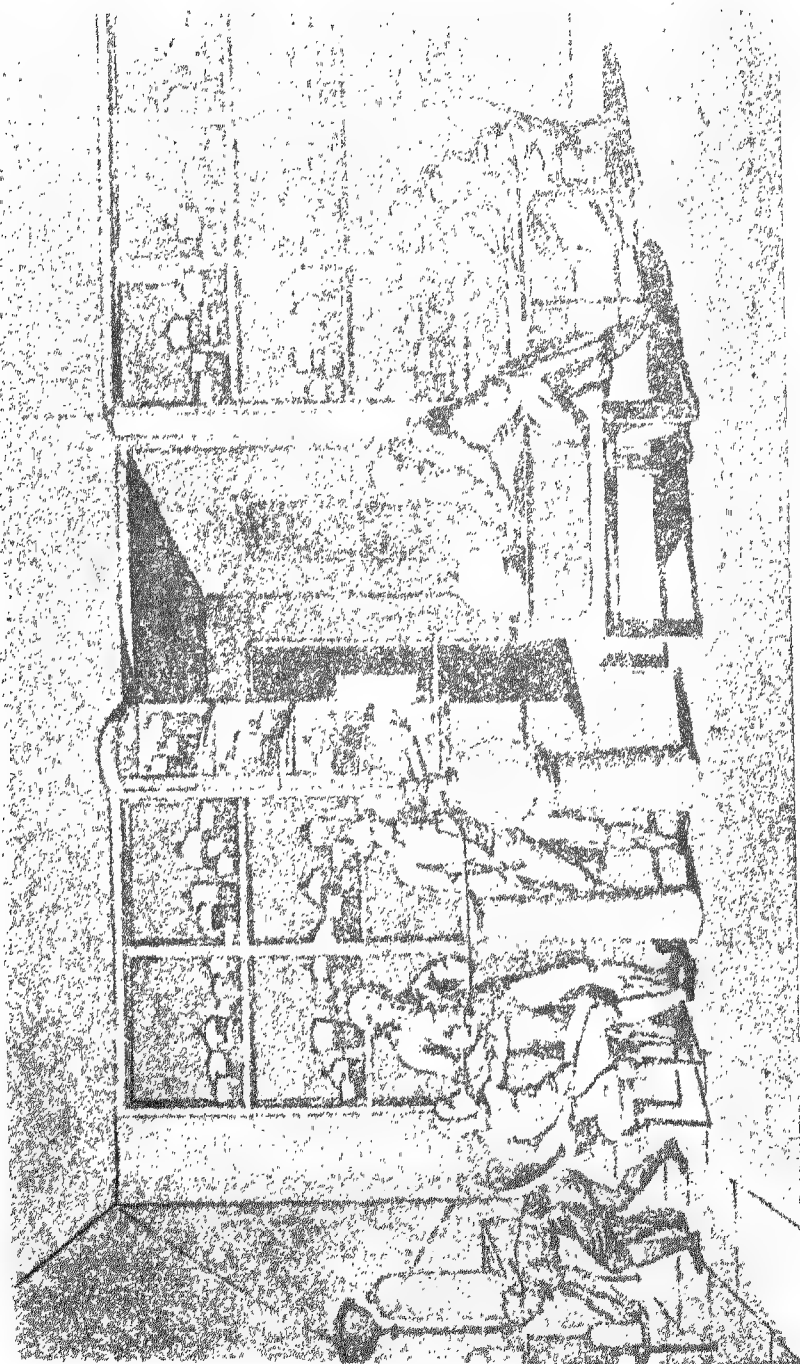


2012.05.14. 11:11

۳- اختیار معنای طبیعی



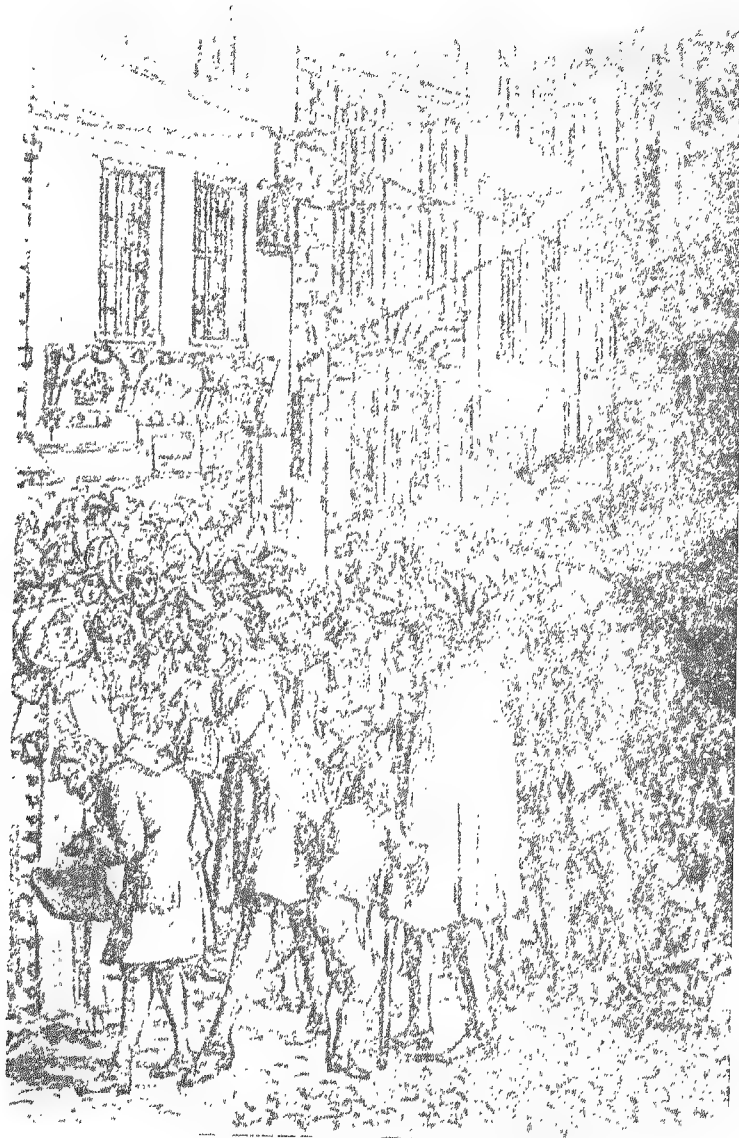
مختبر كيميائي



٥- لافواريه في مختبره



المتاحف في القاهرة



۷- شارع کینکامبواغام ۱۷۲



٨- إنشاء طريق عام



٩- في الاحواض غونينيس، يرفون منظر ادا هبط في قريةهم



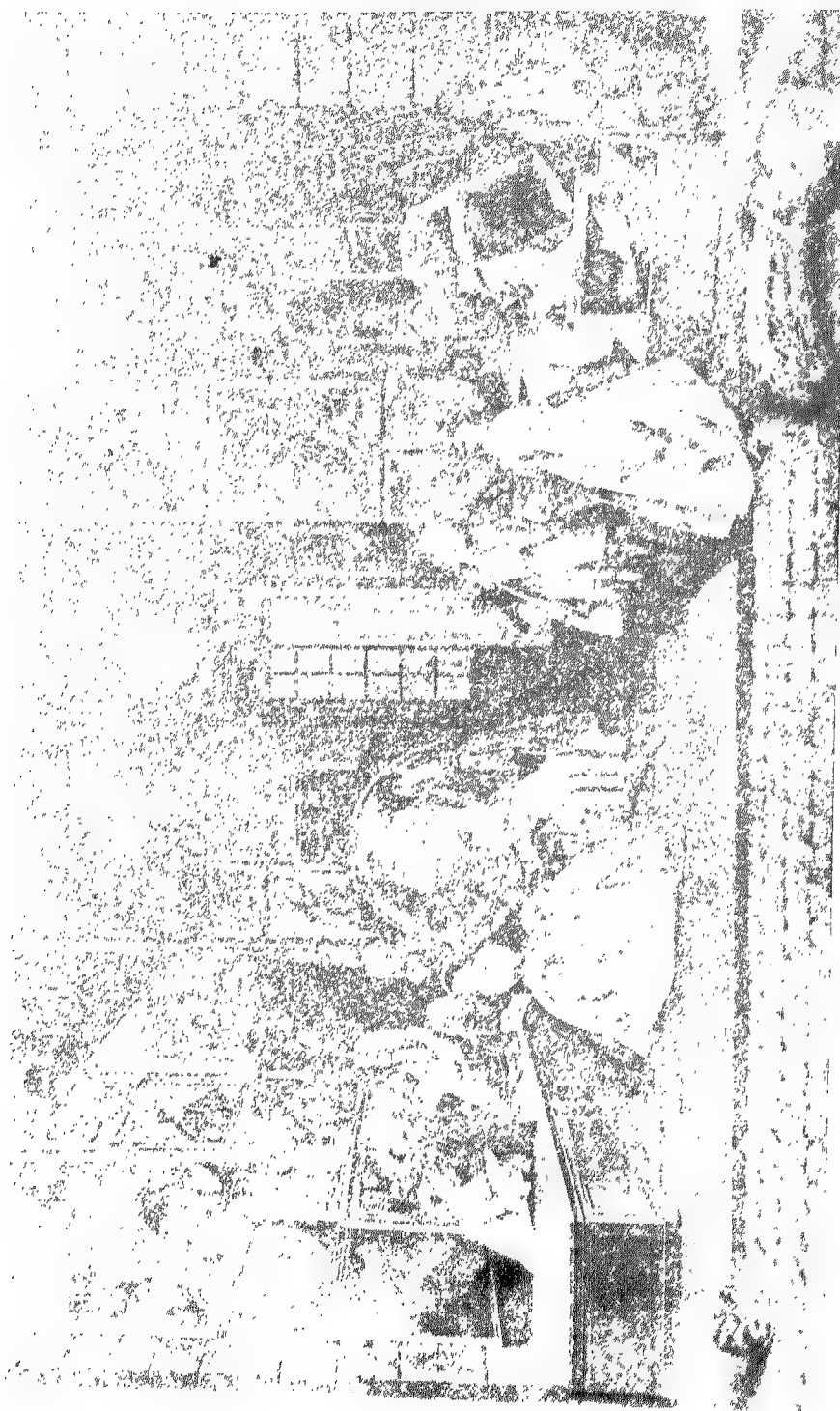
١٠- منشأ الفلاح



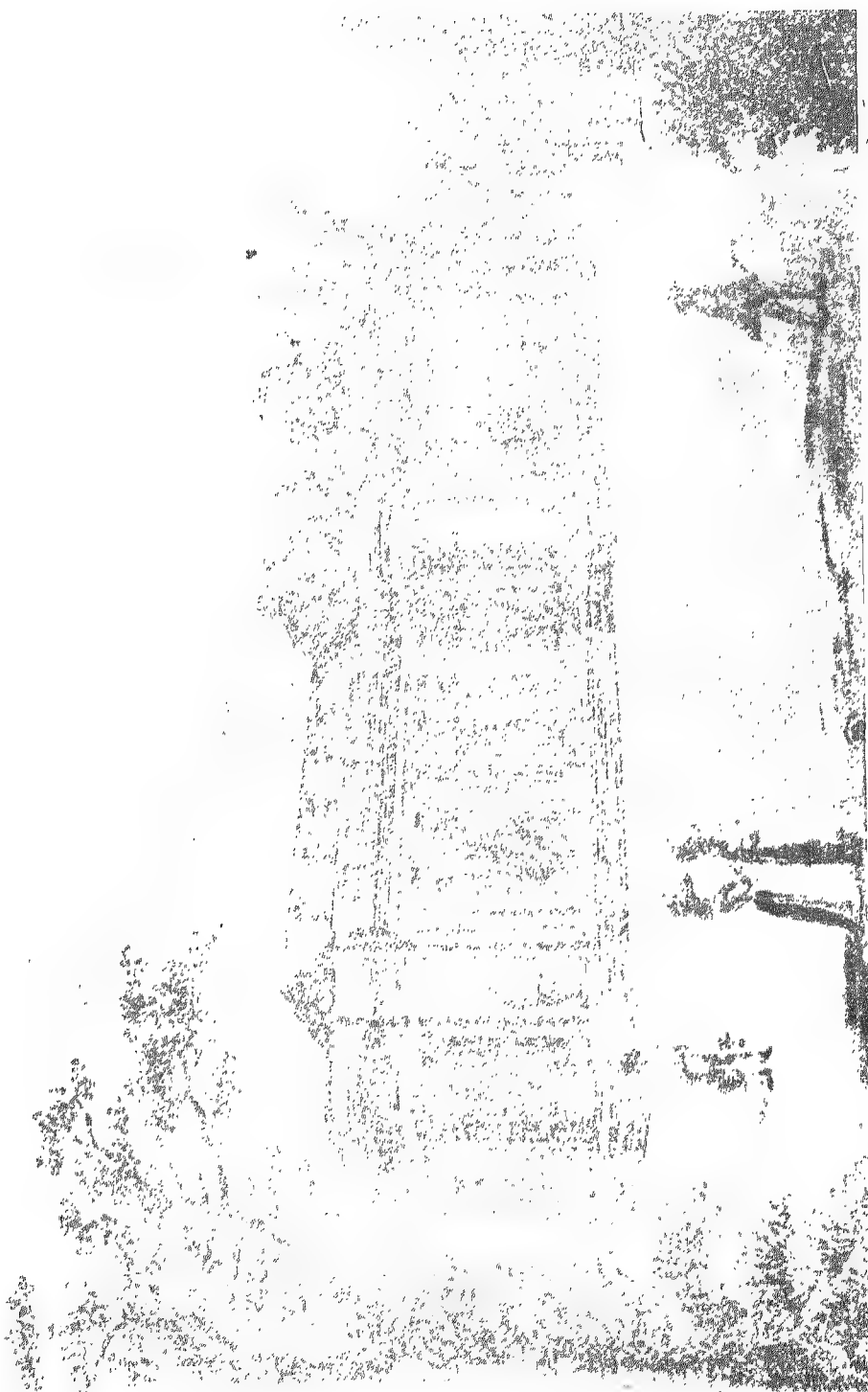
١١ - منظر دار "سوبيز" من جهة الشارع



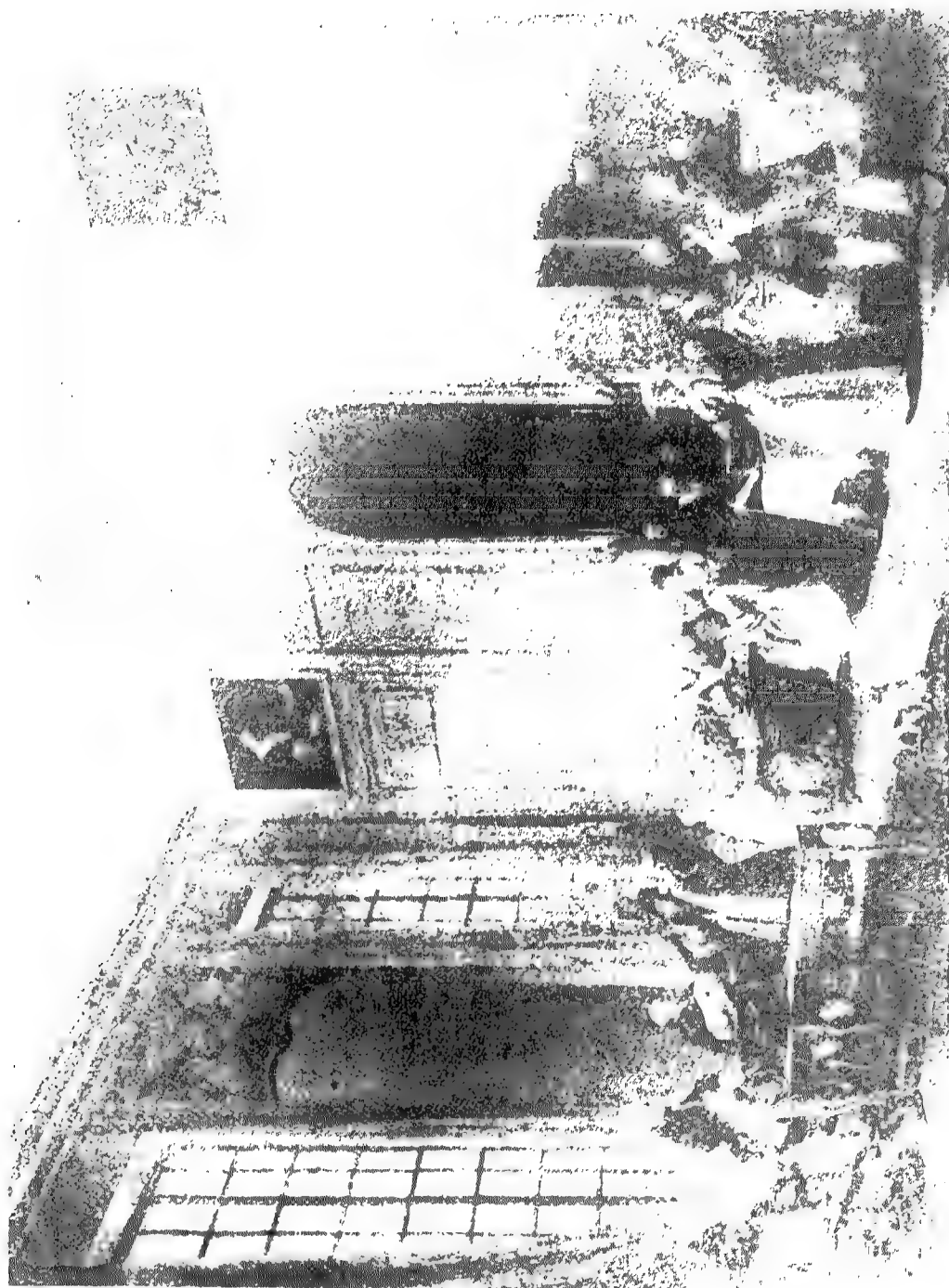
١٢- قاعة الاستقبال في المرفأ عام ١٧٥٣



۱۳- رومزجریسین



١٤- قصص "سان سوي" في بوتنام



١٥- الشاي على الطريقة الانكليزية في صالون اميرة كويتي



١٦-رقصة روسية

عند الحيوانات او النباتات ، تنحدر من ارومة واحدة ؛ « لا بل ان كافة الحيوانات انحدرت من حيوان واحد ولدت ، في تعاقب الازمنة ، بتحسن او فساد نوعه ، كافة اجناس الحيوانات الاخرى ... » بتأثير الظروف الخارجية التي تسبب تبدلات تدريجية تنتقل الى الذراري .

بيد ان كل ما ذكرنا ما زال متشككاً في المؤلفات ، فانويا ، عارضاً ، اي انه ما زال نظرة سريعة الزوال . الا ان الفكرة قد رأت النور . وكان مقدراً لـ «لامارك» مؤدب ابن بوفون ، ان يجعل منها نظرية كاملة في اوائل القرن التالي .

الفصل السابع

علوم الانسان

احرزت علوم الانسان تقدماً كبيراً وان بقيت ناقصة جداً . نرى فيها روح « علم الطبيعة » وسياقه . الروح : العلل الغائية الغيت ، والعناية الالهية أقصيت ، ومبدأ الحتمية سلم به ؛ الانسان لا يريد ان يأخذ بعين الاعتبار بعد اليوم سوى العلل الفاعلة الطبيعية : البيئة الطبيعية ، الحاجات البشرية ، المواطن ، الاهواء ، الأفكار ، الطرائق المعتمدة هي ملاحظة الوقائع ملاحظة مباشرة أو بواسطة الشهود ، والبرهنة الاختبارية . السياق : وصف الظواهر وصفاً دقيقاً ، بذل الجهد بغية التوصل في هذا المجموع الى معيات او ترادفات دائمة ، تميز التلاحم والارتقاء الى النواميس ، والنزوع الى رد النواميس الى أقل عدد ممكن من المبادئ العامة . ولكن صعوبة تطبيق الاداة الرياضية على أكثر الوقائع تعقداً وتحركاً وتشابكاً ، التي غالباً ما لا يدرك العالم منها سوى رسوم غير كافية ، أخرت اكتمال هذه العلوم ، فبقيت وقتاً أطول في المرحلة الوصفية ، مرحلة التاريخ .

علم طبائع الانسان
أسس بوفون علم طبائع الانسان والجغرافية البشرية . درس الانسان نوعاً بعد أن درس من قبله فرداً . في السنة ١٧٤٩ ، اثبت في كتابه « تاريخ الانسان الطبيعي » وحدة الجنس البشري . ان نوعين مختلفين يولدان فروعا عقيمة ؛ والحال كل الفروع البشرية مخصبة . اذن الانسان يؤلف نوعاً يضم تنوعات هي الاجناس التي تختلف بفعل المناخ والغذاء وطريقة الحياة . « ليس الانسان الابيض في اوروبا والاسود في افريقيا والاصفر في آسيا والاحمر في اميركا سوى الانسان نفسه متخضبا بلون المناخ » . ولكن البشرية واحدة تتميز أبدأ بتميزاً متزايداً عن الحيوانية بالذهن والعقل . الذهن هدف الانسان وهو في الوقت نفسه سعادته . وهكذا فقد انتهى العالم المعادي للدين الى استلئاج روحاني .

العلم الواسع
ان علم المجتمعات البشرية المتكونة في نطاق النوع ، الذي سيدعوه « اوغست كونت » علم الاجتماع ، كان في طريق التكون . وان طريقة التاريخ النقدية ، التي سيستخدمها هذا العلم بالنظر الى ان الملاحظات المباشرة غير كافية ابدأ الى انه يجب اللجوء

الى الشهادات في الماضي البعيد او في الماضي القريب القريب الذي ندعوه حاضراً ، كانت معروفة تمام المعرفة بفضل جهود قرنين ونيف . فالفرنسي « لويس دي بوفور » يعطي عنها ، في كتابه « بحث في الشكوك التي تحوم حول القرون الخمسة الاولى من التاريخ الروماني » (١٧٣٨) ، امثلة جميلة يمكن ان يستخلص منها بسهولة دراسة منسقة قانونية . بوفور في حالة الشك الكروتزياني ، الذي هو ثمرة محبة شديدة للحقيقة . فهو يتفحص تأكيدات المؤرخين الاقدمين . يجد منها ما ينطوي على تناقض . يريد استثنائها . يجب لذلك جمع المستندات الأكيدة لأن قيمة عمل المؤرخ تركز الى قيمة مصادره . ولكن يجب التيقن من ان المستندات صحيحة ومن انها لا تزال في حالتها الاولى ، فيجب من ثم الفحص عن كيفية واسطة انتقالها وتلبع سيرها حتى ايماننا هذه . بعد جمع المستندات يتوجب فهمها . يجب قراءتها دون « انشغال » ، والحرص على ان لا يطلب من النص ما يتوخاه المؤرخ ، وفهم التعابير بالمعنى الذي تتضمنه طبيعياً ، واستخلاص النتائج التي تتولد منها تلقائياً . يجب الانتباه كل الانتباه الى الكلمات ، واذا انطوت على اقل غموض ، يجب البحث عن المقاطع الأخرى التي استعملت فيها لتعيين معناها الصحيح في سياق الكلام .

نعرف الآن ما تقوله النصوص . فهل تقول الحقيقة يا ترى ؟ يجب هنا التمسك بمبدأ عدم التناقض الذي هو القوم الاساسي في البرهان . كل ما ينطوي على تناقض يجب رفضه : كل ما يناقض نوااميس الطبيعة او الاحتمال العقلي باطل مهما كان من عدد وشهرة المؤلفين . اذا كان هنالك تناقض بين نصوص قد يقبل بها العقل ، يجب اذ ذاك التمييز . يجب ابدأ تفضيل تأكيد مستند صحيح على تأكيد المؤرخ ؛ وتأكيد مؤرخ من بين مؤرخين يتفق ووقائع تاريخ بلدان اخرى يرتبط بتاريخ البلاد المعنية ؛ وتأكيد من يكتب ضد مصلحته الخاصة بعد التعمق في درس الموضوع ؛ وتأكيد من لا يتوخى التجميل او التعيب ؛ يجب الوقوف موقف الحذر من الاكثار من التفاصيل التي تستلزم شاهد عيان مدقق : ان هذا الاكثار ينطوي على التناقض لأن الفرصة نادرة ما تسنح للملاحظة الدقيقة الواضحة . يجب البحث عن غاية المؤلف واصوله وخلقه وعاداته في العمل وظروف كتابته .

يجب اخيراً ، بواسطة الاستشهادات والاسنادات ، تمكين القارئ ، الذي يفرض عليه الشك والتفحص والتقرير بالاستناد الى مبدأ عدم التناقض ، اصدار حكمه على النتائج بذاته . ان هذه الطريقة احدى اجمل ثمار مذهب العقلين .

مارسها بوفور خير ممارسة . ولكنها كانت ملكاً مشتركاً . فقد مارسها كذلك كافة العلماء الواسمي الاطلاع ، كما مارسها المؤرخون ، اقله في احسن اوقاتهم . تسرعوا احياناً في الاعتقاد بوجود التناقض ، وبالفوا في الاركان الى معرفتهم الناقصة للنوااميس الطبيعية ، وغالوا في احترام الاحتمال العقلي : « ان ما هو حقيقي قد يكون احياناً غير محتمل عقلياً » ؛ وقد يبدو

لنا غير محتمل عقلياً ما هو غير مألوف . فانزلقوا من ثم ، على غرار فولتير ، الى النقد المفرط الذي هو مصدر اخطاء خطيرة . ولكنهم الجزوا على العموم عملاً كبيراً جداً .

واصل القرن الثامن عشر جهود القرن السابق في حقل العلم الواسع . اكتشفت كمية ضخمة من النصوص واستنسخت ونشرت . ووضعت جداول مسببة بالمؤلفات . وجمعت المعلومات حول انتقال المستندات ، ومؤلفيها ، ووجه استخدامها ، والجغرافية وكيفية التاريخ في عهدها ، اي كل ما قد يفيد في التمييز بين ما هو صحيح وما هو غير صحيح . انجز عمل جبار في كل مكان ، ولا سيما في فرنسا على يد البندكتيين وداكاديمية الكتابات والآداب الجميلة . وولمنا هنا الا نستطيع ذكر ذلك العدد الغفير من العمال المهرة المتفانين حتى التضحية ، ومن المؤلفات الكبرى والبالغة الأهمية . بات بالامكان تجديد التاريخ القديم واكتشاف القرون الوسطى واكتشاف حضارات آسيا ، سيدخل كل ذلك في اجماع القرن اللاحق . فتح «بريمار» النحوي « وغوبيل » مترجم « شو-كنغ » ابواب تاريخ الصين القديمة . وفي السنة ١٧٦٢ جاء الفرنسي « انكتيل - دوبرون » الى باريس بـ ١٨٠ مخطوطاً زنديا وبهلوي وفارسي وسلسكريتياً . وفي السنة ١٧٧١ نشر ترجمة «زند - افستا» . وفي السنة ١٧٩٣ استند «سيلفستر دي ساسي» الى قاموسه البهلوي وحل ألفاظ كتابات الملوك الساسانيين . كما ان الانكليزي « جونز » ، رئيس جمعية كلكتوتا الآسيوية ، التي تأسست في ١٥ كانون الثاني من السنة ١٧٨٤ ، قد نشر في السنة ١٧٨٩ ترجمة للمأسة الهندية « شاكونتالا » ، وبأثر في السنة ١٧٩٤ نشر شرائع « مانو » . فبدأ الشرق يخرج من الاساطير . الا ان مصر وبلاد ما بين النهرين بقيتا مجهولتين .

جمعت النصوص ونقذت وادركت واثبتت الوقائع ووضعت في إطارها الزماني علم الاجتماع والمكاني ، فمست الحاجة الى الأعمال الضرورية التالية : تصنيفها وفاقاً لتشابهها ، تحديد علائقها وترباطها ، واستخلاص النواميس منها ، ورد هذه الأخيرة الى بعض المبادئ العامة الخاضعة لمبدأ أصلي . ليس هذا النهج المنطقي المثالي ، في الواقع ، نهج القرن الثامن عشر ، اذ ان عمل العلماء الواسعي الاطلاع والمؤرخين السابقين قد افاح ، منذ النصف الاول من القرن ، لبعض ذوي العقول النيرة ، محاولة العمليات الأخيرة .

فان الايطالي « فيكو » (١٦٦٨ - ١٧٤٤) قد نشر كتابه « مبادئ علم جديد » في السنة ١٧٢٥ . انه احد مؤسسي علم الاجتماع بعد « ماكيافي » و « جان بودين » . في رأيه ان الله يوجد التاريخ نحو انتصار كنيسه . ولكن اذا كان هناك الله ، العلة الاولى ، فان هناك العلل الثانوية ، الطبيعية . يكتفي فيكو بدرس نواميس التاريخ الطبيعية بمزول عن كل تدخل عجائبي . يوجد نظام ازلي يسير الأمور ، وفاموس مثالي يخضع له نحو كل أمة ، وهذا لعمرى رأي افلاطوني ، ولكنه رأي نيوتوني ايضاً ؛ ان ظواهر مختلفة كثيرة تحدث وفاقاً لفاموس واحد . يكتشف العالم هذا الفاموس بملاحظة الدلائل التي خلفتها البشرية : لغات الامم القديمة ومؤلفاتها ،

الاساطير والحرافات ، القصائد القديمة ، الشرائع الاولى ، التي هي انمكاسات احوالنا السيكولوجية السابقة واحوالنا الاجتماعية الاولى . فليس والحالة هذه من حاجة الى القراءة لرؤية حركة الاهواء البشرية المشتركة ، ومتابعة رواية مؤثرة ، وقذوق تعابير متناسقة او لاذعة ، بل الى التوقف عند الكلمات والتراكيب التي تدل على شكل خاص من اشكال التفكير والشعور ، او عرف ، او تنظيم نوعي ، والاستمانة بذلك لاستعادة حالة البشرية الاولى . هذا هو « العلم الجديد » . فيكون يثبت وحدة المجلس البشري . ان في البشر بصيرة عامة ، وقوة تمييز دون تفكير تشمل المجلس البشري كله ، وامة بكاملها ، وطبقة بكليتها ، و « افكاراً متائلة نشأت في آن واحد عند شعوب كاملة يجهل بعضها البعض الآخر » . وهكذا فاننا نجد عند كل الأمم نظاماً مشتركاً وتطوراً متشابهاً . في امة معينة يخضع كل شيء لحالة الافكار : الدين ، والطبقات الاجتماعية ، والحق ، والحكم ، ونوع الحياة ، تنجم عنها وتصل بينها علائق انتفاع . اذا وجد احدها ، وجدت كلها . هكذا يصف فيكون ظروف وجود مجتمع في وقت معين ، او التوازن الاجتماعي . ولكن الفكر البشري يتحول ، يتطور ويمر في سلسلة احوال تتجدد ابداءً ، ويسبب تحولاً في المجتمعات التي تمر في سلسلة احوال مقابلة تتجدد ابداءً ايضاً . الافكار تسير العالم . هكذا يثبت فيكون سنة تطور المجتمعات ، يدرس علم القوى الاجتماعية : حالة طبيعية بربرية ، ثم حالة ثيوقراطية عائلية ، وحالة اربستوقراطية في المدن تسيطر الهيلة عليها كلها سيطرة تخف وطأتها تدريجياً ، وحالة ملحمية يتغلب فيها العقل ، ثم تفقر والحلال وعود على بدء . ليس التطور غير محدد بل دورياً ، يؤلف كلاً يتجدد مع كل امة . انه تكرر دائم .

كان فيكون مشوش التفكير غامض التعبير ، فلم يعرف الشهرة في زمانه ، ومع ذلك كان له بعض التأثير . فان مونتسكيو قد قرأ مؤلفاته ، وعبر في ملاحظاته الشخصية عن مقدار الأثر الذي تركته فيه نظريات فيكون ، وعن طريق مونتسكيو انتقل رأياً فيكون الرئيسيان ، التوازن ، والتطور ، الى القرن كله . وكان مقدراً لفيكون ان يترك أثراً أهم وأعق في القرن التاسع عشر ، ولا سيما في « فوستيل دي كولانج » . كانت آراؤه الموجبة الهامة صحيحة . اخطأ هدفه بسبب افتقاره الى المواد الكافية . أما اليوم ، أي بعد قرنين من العمل التاريخي المستمر ، فتجدد العودة الى محايته .

اصاب الفرنسي مونتسكيو (١٦٨٩ - ١٧٥٥) في كتابته حول علم القوى الاجتماعية في مؤلفه « اعتبارات حول اسباب عظمة الرومان والمحطاتهم » (١٧٣٤) ، وحاول توضيح التوازن الاجتماعي في كتابه « روح الشرائع » (١٧٤٨) . كان رجل شرع ثرياً ، وتولى ردهاً من الزمن رئاسة محكمة بورديو ، ثم ما لبث ان تكرر بكليته لعمله الذي انكب عليه طيلة ثلاثين حولا . كان كروتانياً يكثر من الاستنتاجات ، ولكنه كان عالماً بالطبيعية والتاريخ الطبيعي ايضاً ، وحالة بصيراً ومطالماً لا يعرف الكلل ، فكانت طريقته الرئيسية الملاحظة والاستدلال : الوصف ، التحقق ، الارتقاء من الوقائع الى نواحيها ومن النواحي الى المبادئ ،

وهو نهج يحجبه بعض الشيء في مؤلفاته نسق العرض الذي يختلف طبعاً عن نسق الاكتشاف . وقد صرح بذلك بوضوح في مقدمة « روح الشرائع » . بدأ يلاحظ رغبة منه في المعرفة والملاحظة : « تفحصت البشر أولاً » ؛ تصورت امامه فكرة كتابه الاولى : « واعتقدت انهم ليسوا مسيرين في هذه الشرائع والاخلاق المختلفة الكثيرة ، بشهواتهم واهدافهم دون غيرها » . واصل حينذاك ابجائه ومحاولاته : « مراراً كثيرة شرعت في هذا المؤلف ومراراً كثيرة اعرضت عنه ... سرت في موضوعي دونما قصد ؛ كنت جاهلاً بالقواعد والاستثناءات ، ولا اكتشف الحقيقة إلا لاضاعتها » . واخيراً توضحت فكرته العامة ، واستطاع صياغة نظرياته : « ولكن حين اكتشفت مبادئي ، جاء إلي كل ما كنت ابحث عنه ... وضعت المبادئ » ، ومنذ ذاك الحين اخذ يستثبت نظرياته ويجوّلها نواميس : « رأيت الحالات الخاصة تخضع لها كما من ذاتها وقوارخ الامم كلها كما لو كانت ذبولا لها ، وكل ناموس خاص ، مرتبط بناموس آخر ، مرتبط بناموس اوسع شمولاً » .

الطبيعة كلها تدار بنواميس طبيعية ، على غرار « آلة » مدهشة : ان النواميس ، في اوسع مفاهيمها ، هي العلائق اللازمة التي تنجم عن طبيعة الاشياء ، ولكل الكائنات نواميسها في هذا المعنى . ولكن المجتمعات البشرية هي أيضاً كائنات طبيعية وتخضع لنواميس طبيعية . يجب ان تكون الشرائع التي يسنها البشر ، أي الشرائع الموضوعية ، مرتبطة ارتباطاً بغيرها بالنواميس الطبيعية وفيما بينها . الانسان حر ، وقد يحدث ان تخالف شريعته « العلائق اللازمة » : فلا ينجم عن ذلك سوى السوء . يتوجب من ثم على الانسان ان يعرف هذه العلائق كي يحترمها ويستخدمها . ويفرض ان تكون « الشرائع البشرية من الموافقة للشعب الذي سنت من اجله بحيث يصبح اتفاقاً نادراً ان تكون شرائع امة مناسبة لامة اخرى . يجب ان تطابق طبيعة الحكم القائم أو المراد اقامته ... يجب ان تكون مختصة بطبيعة البلاد ، بالمناخ البارد أو الحار أو المعتدل ، وبنوع البقعة وموقعها واتساعها ونوع حياة السكان الفلاحين أو القناصين أو الرعاة ، وبدرجة الحرية التي يمكن ان يقبل بها الدستور ، وبدن السكان وميولهم وثرواتهم وعددهم وتجارتهم واخلاقهم وطرائقهم . ولها اخيراً ارتباطات فيما بينها ؛ لها ارتباطات بمصدرها ، بالنظام العام الذي استند اليه في وضعها ، بمقصد المشروع . يجب مراعاة كل هذه الاعتبارات عند النظر اليها » . بحسب هذه الاسئلة ، حدد هذه العلائق اللازمة في كل مؤلفه ، وهو تعاقبها ما يؤلف مخطوطه الذي تحجبه بعض الشيء تجزئة مفرطة معدة لتسهيل القراءة تضييع سياق الافكار .

حتمية ونسبية ، هذان هما المبدأان الاساسيان . المعطية المعينة تستلزم شريعة معينة وتستبعد شريعة اخرى معينة . هذه الحتمية تؤمن حرية الانسان الذي قد يكون اعزل من السلاح في عالم قد يؤدي كل عمل فيه الى نتائج متقلبة جداً ، فيستحيل التبصر والتنظيم والعمل ، وقد يكون فيه الانسان مستعبداً لقوى عمياء . كما هو يستخدم نواميس العالم الطبيعي ، كذلك يستطيع

استخدام شرائع العالم الاجتماعي ، خصوصاً في سبيل التوصل الى هذا الخير الاسمي ، المناسب لطبيعته البشرية ، الحرية . ويتحول مونتسكيو في كل برهة الى مهندس اجتماعي ، فيظهر السلوك الواجب للتوصل في كل حالة الى اقصى حد ممكن من الحرية والانسانية . فالسلطات الثلاث مثلاً هي في الدولة السلطة التشريعية والسلطة التنفيذية والسلطة القضائية . في اوروبا الغربية يجب ان يفصل بينها وتسند الى افاض مختلفين حتى تحدد من كل منها السلطان الاخرى وتراقبها ، وبغية الحيولة دون الاستبداد الذي قد يفضي اليه تركها إما في ملك وإما في عدد من النبلاء وإما في أيدي الشعب .

أفرغ الكتاب في لغة متينة ، عادية السهولة ، مؤثرة ، صافية وكثيفة كالبلور حيناً ، أو زاهرة وقاطعة كحد الفولاذ حيناً آخر ، فعرف نجاحاً عظيماً جداً ، وترجم الى كل اللغات ، وألهم الملوك والسياسيين ورجال الشرع والمؤرخين في كافة البلدان ، وأوحى بالدستور الأميركي في السنة ١٧٨٧ ، وبالدستورين الفرنسيين في السنة ١٧٩١ وفي السنة الثالثة ، وبالدستور البروسي في السنة ١٧٩٢ ، ومعظم دساتير القرن التاسع عشر . وان « كارل ماركس » نفسه مدين لمونتسكيو ايضاً . ولكن مقاصد مونتسكيو لم تكن سهلة الادراك ، فلم يفهمه الناس كثيراً : وراح أكثرهم يبحثون عنده عن مقتطفات انطوت ، بفصلها عن النص ، معنى وقع من أنفسهم موقع الرضى .

لم يخلف أحد مونتسكيو مباشرة . الا أن روح كتابه وكثرة المسائل الاقتصادية السياسي التي طرحها تأكيداته على بساط البحث قد أوحى بعدد كبير من الأعمال الجزئية . أما الذين اقتربوا منه في الواقع أكثر من سوام ، بإعارة النواميس الطبيعية اهتمامهم دون تبني مبدأ النسبية الذي قال به ، فهم الاقتصاديون الذين اعتبروا الزراعة مصدر الثروة الوحيد .

كان « كيناي » (١٦٩٤ - ١٧٧٤) طبيب لويس الرابع عشر ، وعالمًا أحيائيًا ، وملاكاً كبيراً . فاستفاد من ملاحظات كثيرة وعبر عن آرائه في فصلي « المزارعون » و « الحبوب » من « دائرة المعارف » (١٧٥٦ - ١٧٥٧) ، في « الجدول الاقتصادي » (١٧٥٨) ، وفي « الحق الطبيعي » (١٧٦٥) . ثم جاء تلاميذه فرسموا شكل « العلم الجديد » الذي بلغ منذ نشأته « أقصى درجات الوضوح » ، وأطلق عليه « ديون دي نور » ، اسم « فيزيوقراطية » ، أو حكم الطبيعة .

تؤلف الظواهر الطبيعية وقائع تخضع لبعض النواميس النابعة من طبيعة الأشياء ، وتشكل هذه النواميس مجموع آقيسة ، أو علما . انها من وضع الله تعالى ؛ وهي جزء من نواميس الطبيعة بل هي أفضلها اطلاقاً .

ليس المال شيئاً يذكر ، انه مجرد واسطة عقيمة . الثروة الحقيقية نتاج قابل الاستهلاك دون

أن تؤدي الى انقاص المادة التي ساعدت على ايجاده . الزراعة وحدها تعطي مثل هذا النتاج ، « النتاج الصافي » . الصناعة لا تعطي نتاجاً صافياً ؛ انها تحول شكل المواد الراهنة ، وتحدث بعملها هذا أشكالاً مفيدة ، ولكنها تنقص المادة دون الاعاضة منها . وينحصر عمل التجارة في نقل ومقايضة هذه المصنوعات . الفلاح وحده يخلق مادة جديدة ويكوّنها ثانية ويضاعفها . لذلك فان الطبقة الاساسية هي طبقة الملاكين العقاريين التي استصلحت الارض ، وتليها طبقة الفلاحين ، ثم جميع الآخرين ، « الطبقة العقيمة » . يجب ان يخضع كل شيء للنتاج الزراعي . ويجب من ثم الاكثار من الملكية الفردية بالغاء المشاعات وتحرير الزراعة من حقوق الارتفاق الجماعية والحقوق الاقطاعية ، وتشجيع الاملاك الكبرى القادرة وحدها على توفير التسليف والزراعة العلمية ، وتأمين البيع الوافر بسياسة الاجور المرتفعة ، والفلاء او « السعر الجيد » بحرية التجارة ، وزيادة الثروة قبل السكان .

الملك حق ناجم عن مشيئة الله ، وهو من ثم حق طبيعي . وكذلك الحرية التي تسمح وحدها بممارسة حق التملك ، والامن ، وعدم المساواة ، والاستبداد ، لان دور الحكم محصور في أن يعبر بلغة بشرية ، في الشرائع الموضوعية ، عن النواميس الطبيعية التي لا تقبل جدلاً . المستبد يبيح الضرائب الضرورية من الملاكين دون غيرهم ، لانهم دون غيرهم يحصلون على نتاج صاف ، لمصلحته ومصالحهم واحدة ، ويجب ان يكون حقه في السلطة وراثياً على غرار حقهم في التملك ، وان لا يؤدي حساباً الا لهم أو لمندوبيهم ولضميرهم وفقاً للنواميس الطبيعية .

جاء النجاح عظيماً . وقد صرح ميرابو ان « الجدول الاقتصادي » يشكل ، بعد ابتكار الكتابة والنقد ، ثالث الابتكارات الرئيسية التي حققها العقل البشري . فبات مذهب حكم الطبقة دينا في فرنسا . وتأثرت به جمعية السنة ١٧٨٩ التأسيسية تأثراً عميقاً . وبلغ من اعجاب كارل ماركس بـ « كيناي » ان رأى فيه مؤسس الاقتصاد المعاصر .

بين تلاميذ كيناي المستقلين عن فكرة المعلم ، « تورغو » ، الذي سيصبح وزيراً في عهد لويس الرابع عشر ، والذي شدّد الكلام على أن العامل لا يتقاضى في النتيجة سوى اللازم في اللازم لتأمين معيشته ، وهذه هي « شريعة الأجور النحاسية » التي تسمح بتخفيض أسعار الكلفة وتحرم العامل من أمله في الخروج من طبقته وتخلق طبقة من الأثرياء . فرأى تورغو مع وكيل التجارة وجوب اطلاق الحرية للفرد لأنه يدرك مصلحته أكثر من كل شخص آخر : « اتركه يعمل ، واطركه يمر » .

بيد أن المؤسس الحقيقي لمذهب الاحرار في القرن التاسع عشر كان تلميذ كيناي الاسكتلندي « آدم سميث » (١٧٢٣ - ١٧٩٠) . في كتابه « محاولة في ثروة الامم » (١٧٧٦) ، يصف نظاماً طبيعياً يتحقق حينما تترك الطبيعة وشأنها ، هو في نظره خير نظام . يميل الانسان طبيعياً الى تحسين حاله ، وهو يخير من يدين مصلحته الشخصية : فيجب من ثم ان تطلق له

الحرية. يجب ان لا تتدخل الدولة الا عندما يعجز الافراد عن ايجاد المؤسسات المفيدة للمجتمع .
ان هذا العالم جمهورية كبرى مواطنوها منتشجون ومستهلكون يرتبط بعضهم البعض الآخر ،
ويجب ان يلتجئ السلام من الشعور بهذا الارتباط المتبادل .

يضاف الى ذلك من جهة ثانية ان تحليله للقيمة يجعل منه سلف الاشتراكيين والشيوعيين .
العمل هو المقياس الحقيقي لقيمة البضائع وهو ما يحدد سعرها . في البدء عاد كل هذا السعر
للعامل . ولكن حين جمع أحد الافراد رأس مال ، أي أرضاً أو مادة خاماً أو أداة ، واستثمره
بواسطة العامل ، احتفظ الرأسمالي بحظه من السعر وأعطى العامل ما تبقى أي الأجر . كل منها
يريد أكبر نصيب ممكن من السعر . فتعديده الأجر هو من ثم نتيجة أخذ ورد بين الرأسمالي
والعامل يتحولان الى « صراع بين الطبقات » المتنافسة . « أبواب الاعمال يؤلفون » في كل مكان
وزمان ، ما هو أشبه بتكتل ضمني دائم متائل للحيولة دون ارتفاع الأجور . « وقد تعبّس
سميث حبال أولئك الذين لا يلتجئون : « الملك ... وكافة وزراء العدل وكافة العسكريين عمال
غير منتجين ... وبالإمكان إلحاق الكهنة والهامين والأطباء والادباء ... بالطبقة نفسها » .
وقمّيس كذلك حبال التجار الذين تناقض مصالحهم المصلحة الاجتماعية . فكانت كل هذه
التحاليل مصدر وحي لكارل ماركس .

تفرغ مؤلفون آخرون الى الأعمال التاريخية الوسيطة التمهيدية ، بالنسبة الى بلاد
التاريخ أو عهد معين ، أو بالنسبة الى البشرية جمعاء : ترتيب الاحداث وتسلسلها ، وهذا
ما يعتبر في أغلب الأحيان تاريخاً بحدس المعنى .

ظهرت سلسلة من كتب التاريخ الخاصة : « قرن لويس الرابع عشر » لفولتير (١٧٥١) ،
« تاريخ بريطانيا العظمى » لدافيد هيوم (١٧٥٤) ، « تاريخ اسكتلندا » لـ روبرتسون
(١٧٥٩) ، « تاريخ اوسنابروك » لجوستوس موزر (١٧٦٨) . لقد تبدلت روح هذا التاريخ
منذ مونتكسكيو . اعتبر بوفور والمؤرخون السابقون أن لا طائل تحت المعلومات المتعلقة
بالحكومات والمعادات ، يجب الاكتفاء « بترتيب الاحداث وتحديد تواريخها » وهذا هو جوهر
التاريخ . أما في نظر المؤرخين الجدد ، فالجوهر هو تاريخ الحضارة . وكان الفرنسي فولتير
أول من قال بذلك :

« يجب أن لا يتوقع القارئ الوقوف هنا على أدق تفاصيل الحروب والهجمات على المدن
المحتلة والمساعدة بقوة السلاح أو المساوغة والمستعانة بالمعاهدات . فلن نتوقف في هذا التاريخ إلا
عند ما يستوقف انتباه كل الازمنة وما يمكن أن يرسم صورة لعبقرية البشر واخلاقهم » وما
يمكن أن يلقي درساً ويحمل على محبة الفضيلة والفنون والوطن » .

الاخلاق ، المعادات ، الاعراف ، المعتقدات ، الحرافات ، المعادات المستهجنة ، الاكتشافات ،

هذا هو الجوهر^(١). الانسان هو موضوع هذا التاريخ ، وان وجهة النظر هذه تقضي الى إلقاء نظرة شاملة على تاريخ البشرية . وهذا ما فعله فولتير في كتابه « محاولة في اخلاق الأمم وروحياتها » (١٧٥٦) . وكعادته ناقض نفسه مراراً ، وانتهى بصورة خاصة ، هنا كما في كتبه الأخرى ، الى « خواء من الافكار الواضحة » ، ربما لأنه كان يتحاشى التأثير بظهور واحد من مظاهر الاشياء بفضل ذكائه المتفوق . التاريخ محال ، يخضع لاتفاق ، لكوب ماء على فستان ، لأنف غاية في القصر ، ولكنه يخضع كذلك لامراء عظام يصنعونه وفاقاً لمخططات مدروسة ، هم عنايات صغرى حلت محل العناية الكبرى . يشمل التاريخ ، في جملة ما يشمل ، اربعة قرون عظيمة : قرن بريكيليس ، قرن اوغسطس ، قرن آل مديسيس ، قرن لويس الرابع عشر . وانما يجب ألا يدرس الفتيان الا التاريخ المعاصر ، المفيد وحده . التاريخ يخضع للأهواء البشرية التي هي لا تتبدل ، وكل عهد يشكل كلابكاد يكون مستقلاً عن الماضي وغير ذي أثر في المستقبل ، ومع ذلك تتقدم البشرية كما لو كان تقدمها خاضعاً لسنة معينة . ومهما يكن من الأمر ، فقد استهوت مؤلفاته القراء ، فأوحى بفكرة التاريخ الحقيقي وتذوقه ، وألقى ضوءاً على احداث كثيرة ، وأثار العديد من المسائل ، وجعل كل المؤرخين مدينين له .

انتهى هؤلاء تدريجياً الى التخلي عن مجرد الاحداث المتعاقبة في الزمان ، وتوصلوا ، بفضل تقدم دراساتهم وبتأثير العلوم الطبيعية ، الى مفهوم التحولات ، أي مفهوم التطور . فقد أظهر « ونكلن » ، بكتابه « تاريخ الفن في العصور القديمة » (١٧٦٤) ، ان الفن يخضع لتطور المخلوقات العام ، يولد ويتفتح ويشيخ ويموت . انه ظاهرة حية . وتصور آخرون تقدماً محرزاً للبشرية انطلاقاً من الهمجية نحو كمال العقل . فبعد تورغو و « دائرة المعارف » اللذين طلعا بالفكرة^(٢) ، ألف الالماني « لسنغ » كتابه « تربية الجنس البشري » (١٧٨٠) ، كما ألف مواطنه « هردر » كتابه « آراء في فلسفة تاريخ البشرية » (١٧٨٤ - ١٧٩١) . ولكنها استنجدوا بإله مبهم أو بحياة الكون السرية . فجاء ما كتبناه بحثاً فلسفياً في المعقولات اكثر منه علماً بمحصر المعنى . أما الفرنسي كوندورسيه فكان أبعد موضوعية منها في كتابه « تخطيط لوحة تاريخية لنجاحات العقل البشري » (١٧٩٤) ، فكل عمل بوفون في « تواريخ الطبيعة » وصاغ سنة التقدم : « ان قابلية الانسان للتكامل تتجاوز في الواقع كل حد » ، وليس لها « من أجل سوى ديمومة الكرة التي ألقت بنا الطبيعة فيها » ؛ « ولن تسير ابداً الى الوراء » ما دامت ظروف الكرة الطبيعية هي هي دون تبدل . التطور متواصل : « ان نتيجة كل هنية حاضرة تتوقف على نتيجة الهنيمات السابقة ، وتؤثر في نتيجة الهنيمات اللاحقة » . التطور يصدر عن

(١) بولنبروك ، (١٧٥٢) : « التاريخ والفلسفة يعلماننا بالامثال كيف يجب ان نسلك في كافة ظروف الحياة العامة والخاصة » .

(٢) اوضح تورغو في «خطبة في نجاحات العقل البشري» سنة الحالات الثلاث الشهيرة، الحالة اللاهوتية، والحالة الميتافيزيقية ، والحالة الموضوعية ، لارغست كونت .

اسباب واضحة ومتميزة : يكون الانسان باستمرار افكاراً جديدة ، بالجمع بين ما توفره له منها حواسه ، وباتصاله بسواه من البشر ، وبوسائل صناعية ، كالكلام والكتابة والجبر ، ببتكرها ابدأ ودائماً . ترتسم اللوحة بملاحظة مترادفة تتناول المجتمعات البشرية في مختلف العهود التي مرت بها ، وتستفضي بالانسان الى تأمين واستعمال النجاحات الجديدة التي تسمح له طبيعته بارتجائها . عشرة « عهود » تعاقبت : ١ . تجمع البشر عشائر وقبائل ؛ ٢ . الشعوب الرعاة ، والانتقال من هذه الحال الى الشعوب الفلاحين ؛ ٣ . تقدم الشعوب الفلاحين حتى اكتشاف الكتابة الايجدية ؛ ٤ . تقدم العقل البشري في اليونان حتى زمن تقسيم العلوم حوالي قرن الاسكندر ؛ ٥ . تقدم العلوم منذ تقسيمها حتى الحطاطها الناجم عن المسيحية ؛ ٦ . الحطاط الانوار حتى تجديدها حوالي عهد الحملات الصليبية ؛ ٧ . منذ نجاحات العلوم الاولى ، حين تجدها في الغرب ، حتى اكتشاف الطباعة ؛ ٨ . منذ اكتشاف الطباعة حتى اليوم الذي تردت فيه العلوم والفلسفة على السلطة ؛ ٩ . منذ ديكارت حتى قيام الجمهورية الفرنسية ؛ ١٠ . النجاحات المقبلة للعقل البشري ، على ضوء هذا التاريخ ، سنعرف كيف نتجنب « آراء سبق الوهم » قبل بها اجدادنا ونضمن انتصار العقل والحقيقة والبشرية ؛ « صيحة الحرب : عقل ، تساهل ، بشرية » . وقد أفاد اوغست كونت في القرن التاسع عشر افادة كبرى ، في مؤلفه حول علم الاجتماع ، من آراء كوندورسيه الذي بدا له ناهجاً نهجاً علمياً مدققاً .

أما في الواقع فان كوندورسيه لم يواصل بذلك عمله العلمي بل بشر بالجهل . كان فولتير قد حاول وصف الماضي وتفسيره ، دون نظرية يجب إثباتها ، ودون فلسفة التاريخ . وأراد كوندورسيه ان يظهر البشرية سائرة ابدأ نحو مزيد من العقل ، شرط تجنب المسيحية ، وعبر عن مفهوم تفاؤلي للتطور كان فعل ايمان عظيماً عند انسان يؤلف كتابه منفياً ومطارداً . وكان يرى تاريخ البشرية معداً لان ينتج ما يحبه حبا تفضيلياً . فكان ذلك انتقاماً من العاطفة . ان كوندورسيه ، في ما يعنيه ، قد شق الطريق امام مخيلة واختلاجات قلب المؤرخين الرومنطيين من امثال اوغستين تيرتي ، والشعراء من امثال فيكتور هوغو في « اسطورة الاجيال » . فكانت فكرة التاريخ العلمي آخذة بالتدلل .

القرن الثامن عشر هو عدو المذاهب الميتافيزيقية الكبرى التي نادى بها القرن « علم المعولات » السابق . تمثل بلوك ودعى « علم المعولات » دراسة الادراك البشري . والمقصود هو تحليل العقل للتفكير في كل شيء بسداد وجلاء كبيرين ، ولمعرفة النهج الذي يجب أن يسلكه العقل البشري والمدى الذي يمكنه بلوغه . كان هذا الدرس مبني على الملاحظة والاستدلال منذ ان أثبت ديكارت أن فعلاً واحداً يجوز نسبته نسبة معقولة الى النفس ، هو فعل التفكير : الشعور ، الارادة ، الادراك ، التصور . أقصى بذلك عن النفس الوظائف الانشائية والمغذية والمطاوعة والدوائية التي قال بها الفلاسفة المدرسيون . لم يعد من حاجة لمعرفة النفس الا الى ملاحظة حالات الفكر ، ملاحظة ، استدلال ، انتقال من الاحداث الخاصة الى نواميسها ،

ومن النواميس الى مبادئها، ان هذا الدرس هو علم طبيعي، مستوحى هو ايضا من علم الطبيعيات الذي وضعه نيوتون. هذا العلم يتيح اصدار حكم في ما يُدرك عادة بعلم المعقولات: الافكار حول الله والكون وخلود النفس والحرية والمصير البشري .

كانت السيطرة في القرن الثامن عشر لتعاليم لوك . كل افكارنا تصدر عن الحواس ، ومن ثم عن الاختبار الذي يعطينا الافكار البسيطة : البرد ، الحرارة ، المرارة ، الاتساع ، الشكل ، الحركة . ان افكار الاتساع والشكل والصلابة والحركة والوجود والديمومة والمعددي هي ، بين هذه الافكار البسيطة ، « الصفات الأولية » وتثمل الاشياء كما هي ؛ انها تمثيلية ، انها صور الاشياء . أما الافكار الاخرى ، الالوان ، والاصوات ، والمذاقات ، فهي « صفات ثانوية » تلتج عن الانطباع الذي تحدثه في حواسنا حركات غير محسوسة تصدر عن الاجسام . النظرية حاسية وآلية . انها تثبت قيمة « علم الطبيعة » اذ اننا نعرف عناصره ، وتثبت « الصفات الأولية » كما هي في الواقع . لقد تردد لوك حول هذه النقطة الاخيرة : أما تلاميذه فلم يترددوا .

والحال ، هاجم الاسقف الانفليكاني « بركلي » (١٦٨٥ - ١٧٥٣) مרכזات مذهب الآلية هذه . نشرت مؤلفاته الهامة قبل السنة ١٧١٥ ، ولكنه ، حتى موته ، أعاد طبعها تكراراً متبعا إياها بملاحق متممة . فكر في ترددات لوك بصدد القيمة التمثيلية لـ « الصفات الأولية » وبصدد مسألة طرحها « مولينو » على لوك : هل بإمكان انسان ولد ضريراً ثم أبصر النور بعد عملية جراحية ان يميز فوراً ، بواسطة حاسة النظر ، بين كرة ومكعب كان يميز بينها بواسطة حاسة اللمس ؟ أجاب لوك في حينه سلباً . سيضطرب الأعى في هذه الحال الى القيام بالاختبارات والمقارنة حتى يتعلم ان هذا التأثير البصري المعين يقابله ذاك الحجم المعين وتلك المسافة المعينة اللذان عيتهما له حاسة اللمس . اثبت بركلي ان ذلك يصح فينا جميعاً : نحن لا نرى المسافات ولا نرى الأحجام ، بل نركبها تركيباً ؛ نتعلم بالاختبار ان هذا التغير في امتزاج الألوان والضوء وهذا الحس بمطابقة المعين يقابلان تلك المسافة وذاك الحجم . ثم نستخدم هذا الاختبار بحكم صامت لاشعوري . ان هنالك عملاً خاصاً بالعقل وحركة لاواعية . في السنة ١٧٢٨ ، نشر الطبيب « شيزلدن » ملاحظة فتى أجرى له عملية السادة (الماء الأزرق) : قال هذا الفتى ان الأشياء « تلامس » عينيهِ ؛ وان شيئاً بحجم الإبهام وضع على مقربة من عينيهِ قد بدا له وكأنه بحجم الغرفة كلها . ودرست بعد ذلك حالات مماثلة . فكان بركلي من ثم مصيباً : ان ادراك الأحجام والمسافات بواسطة النظر نتيجة الاختبار . الاحجام والمسافات « صفات ثانوية » بالنسبة لحاسة النظر . واعتقد بأن حاسة اللمس وحدها تدركها مباشرة كـ « صفات أولية » .

استخلص بركلي من تحقيقات نهائية نتائج تلسم بمنطق جريء: انما الأشكال البصرية دلائل، أو لغة . ولكنها ليست دليل وقائع خارجية ، بل دليل صفات مختصة بحاسة اللمس . تصورات اللون هي دلائل تصورات الشكل والحجم والصلابة التي تعطىها حاسة اللمس . والحال ليست

هذه التصورات مخصصة بالجسم اذ ان الحجب يتغير بحسب المسافة وتركيب الأجبن، واذ ان الصلابة والرخاوة مرتبطتان بالقوة التي نبديها . التصورات وحدها موضوع معرفة مباشرة . الطبيعة هي التصورات المستقلة عن الارادة التي تتكون تكوناً متعاقباً محدداً ؛ والأجسام هي تركيبات منظمة للتصورات . العقل هو الواقع الوحيد .

ولكن العقل حر ؛ نحن نعرف أنفسنا بوصفنا عوامل احراراً . التصورات المتعاقبة المستقلة عن الارادة تصدر عن عقل متفوق . يضاف الى ذلك ، من جهة ثانية ، ان الأشكال البصرية هي دلائل ، أو لغة ؛ والحال ، كل لغة هي عمل العقل . الأشكال البصرية هي لغة شاملة ، اذن هي عمل عقل شامل ، الله .

باستطاعتنا التأكيد من ثم ان وجود العقول والله ، واللغة الشاملة التي يكلمنا الله بواسطتها ، والامكانية العقلية لوشي آخر بشكل كلام ، امور ثابتة جداً . اما علم الطبيعة الاالي فوهم وخداع ، وحساب الكمية الصغرى محال ، لأن التسليم بقابلية التجزئة الى ما لا نهاية له تسليم بأن الاتساع موجود دون أن يقع تحت الحواس ، في حال أن لا وجود الا للتصور الذهني . علم الطبيعيات هو معرفة بعض التصورات المتعاقبة تعاقباً منتظماً .

ناقض بركلي بذلك كل روح القرن . فأراد الفرنسي « كونديلاك » (١٧١٥ - ١٧٨٠) ، وهو من أسرة برلمانين تلقى علومه في اكليزيكية سان - سوليس ، انقاذ مذهب الآلية . كان كروتزانيا مقتنعا ، فلم يستطع القبول بنظرية بركلي الذي افترض احكاما لاشعورية ، هي مفهوم غامض غير متميز . « يكفيني ان يعترف الذين يريدون فتح أعينهم بأنهم يشاهدون نوراً ولوناً واتساعاً وأحجاماً الخ . انا لا ارتقي الى ما فوق ذلك لأنني هنا ابدأ بتحقيق معرفة واضحة بديهية » . الحواس تنقل البنا تصورات بسيطة نعين لها دليلاً ؛ فنقارن ونجمع ونبدل هذه الدلائل ، التي هي اللغة ، ونستخلص منها تصورات مركبة . كل تصوراتنا ، حتى الخيلة والذاكرة والحكم والبرهان منها ، ليست سوى « التأثير الحسي المتحول » ، وكل القوى تنشأ عن تأثيرات حسية ، لا بل قد تنشأ عن أدها أي تأثير حاسة الشم . ثم حاول ان يعرف كيف ان الكائن البشري ، الممتلك كافة قواه ، سيعرف العالم الخارجي ، فوصل الى مسألة بركلي : ميز بين الادراك البصري الاولي ، الفامض ، حيث ليس للاشياء حدود واضحة ، وبين الادراك البصري الحالي للاشياء المتميزة الموجودة في مكان معين . نحدد النتيجة الى تحليل يجري باللس . حاسة اللمس تعرف الاشكال ، وحاسة البصر تدرجها ، ولكن دون أي شيء يضاف الى التأثير الحسي الاولي ، دون ايحاء من تأثيرات حاسة اللمس التي استعانت بها . منذ البدء ، يرى الكائن البشري الاشياء ، ولكنه لا يميزها لانه لم يحللها . الا ان الاشياء موجودة كما يراها بعد التحليل . يعرفها كخارجية بفضل حركة جسمه التي توقفها مقاومة الاجسام الجامدة . اذ كان الجسم الجامد خارجاً عن جسمه ، لا يكون هناك سوى تلامس ؛ واذا لامس جسمه بالذات ، يكون هناك

تلامس في الجزء الملامس والجزء الملامس معاً . هكذا يعرف الانسان جسماً من الاجسام ويفرق بينه وبين الاجسام الأخرى . يستثبت واقع العالم الخارجي والاتساع والحركة والقيمة التمثيلية لتصوراته الذهنية الناشئة عن التأثيرات الحسية ؛ بذلك كان « علم الطبيعة » الآلي مضموناً .

اتضحت بالفعل نفسه طريقة العلم . بما اننا نستخلص تصوراتنا المركبة من مقارنة علامات اللغة ، يجب ان يكون هناك توافق تام بين التصورات والعلامات ، وان لا نستعمل أية كلمة لا يكون مدلولها موضعاً ولا يختص بواقع واضح متميز . العلم « لغة مهذبة » . يجب من جهة ثانية أن لا نستنتج بل أن نحلل : الحواس تعطينا كلاً ندركه ادراكاً آتياً غامضاً ؛ ندرك اجزائه تدريجياً وانفراداً ؛ ونوصل إلى إدراك الكل نفسه إدراكاً آتياً ومتميزاً . إن في إدراكنا تجزئة وإعادة تركيب ، تحليلاً وتأليفاً . ليست أرفع الطرائق العلمية سوى أشكال لطريقة العقل البشري البسيطة والشاملة . فباستطاعة كل عقل من ثم الانتقال من التأليف إلى التحليل . العلم في متناول الجميع . يجب أن تؤلف المعارف المحصلة طرائق غير استدلالية : « تركيب الاجزاء المختلفة لفن أو لعلم وفقاً لترتيب تتعاضد فيه كلها وتُفسر الأخيرة منها بالاولى التي هي المبادئ » . يجب ان تكون هذه المبادئ ظواهر معروفة جيداً كالجاذبية الشاملة . إن علم الطبيعة الذي وضعه نيوتون خير مثال للعلم والطريقة .

كان لكونديلاك ، مؤلفاته الكثيرة^(١) ، أكبر أثر في علماء زمانه ، وفي جماعة الباحثين في التصورات والافكار ، وفي عدد من المؤلفين من أمثال « ستندال » .

ان ما حاول كونديلاك تأمينه ، أي قيمة معرفتنا العلمية وبراهين وجود الله ، الساعاتي « الاسمي » في علم الآليات الشامل ، قد قوضه الاسكتلندي هيوم بحجة زاد منها انه أركن في حياته العملية لإركاناً تاماً الى الاعتقادات الطبيعية والبدئية . احم مؤلفاته هي « بحث في الطبيعة البشرية » ، محاولة في ادخال طريقة البرهنة الاختبارية الى العلوم الادبية ، (١٧٤٠) و « المحاولات الفلسفية حول الإدراك البشري » (١٧٤٨) . « أراد على غرار كونديلاك استخدام طرائق نيوتون : الانطلاق من تقديرات واعتقادات الانسان بغية البحث بالتحليل والاستدلال عن مبادئها ، التي يجب ان تعين في كل علم حدود كل رغبة بشرية حارة في المعرفة » .

قال هيوم ايضاً بمذهب الحاسيين . ان انطباعات الحواس هي الاصول التي تشكل الافكار نسخها . الفكرة الصحيحة هي تلك التي تقابل أو يمكن ان تقابل انطباعاً . ولكن هذا التحليلي الذي لم يعتمد طريقة خاصة قد لاحظ ان هنالك تصورات ذهنية بسيطة دون انطباع مقابل ؛ اذا عرضنا على العين سلم ألوان كاملاً باستثناء لون واحد ، فان العين سترى الدرجة الناقصة كما لو

(١) ومن بينها « محاولة في أصل المعارف البشرية » (١٧٤٦) ، و « بحث في المسامح » (١٧٤٩) ،

و « بحث في تأثيرات الحواس » (١٧٥٤) ، و « المنطق » (١٧٨٠) .

كانت هنالك حركة عقلية خاصة نحو التأثير الحسي وفقاً لبعض النواميس ، وكما لو كان العقل يسبق المعرفة بواسطة الحواس ، او كما لو كان في العقل شيء سابق للاختبار .

الانطباعات تولد الافكار البسيطة . العقل ينتقل من الافكار البسيطة الى الافكار المركبة بتوارد يتم وفقاً لمبادئ المخيلة الشاملة ؛ الافكار تتجمع بتشابهها ، باتصال الانطباعات ، لأن احدها يمثل علة يكون الثاني لها معلولاً . ان هذه النواميس هي بالنسبة للافكار ما هو تاموس الجاذبية النيوتوني بالنسبة للاجسام ؛ انها اصلية وأولية . ليس من حاجة للارتقاء الى ابعد من ذلك . إلا أن الانسان يبقى حراً ؛ باستطاعته الحيلة دون تجاذب الافكار ، باستطاعته الجمع تحكماً بين فكرين ؛ يضاف الى ذلك ان الافكار قد تتجاذب دوناً مبرر ، كما بالتشابه مثلاً . هنالك خطأ في الحالتين الاخيرتين .

ان هذه التجاذبات تعطينا تصورات مركبة قد لا يكون لها وجود في الواقع . لنأخذ الصلة بين العلة والمعلول مثلاً ؛ فان مراقبة علة معينة (انخفاض حرارة الماء) لن تثبت البتة ان هذه العلة يجب ان تؤدي بالضرورة الى معلول معين (التجمد) . ان احد ملوك سيام لم يصدق يوماً ان هنالك بلداناً يبلغ من تجمد الماء فيها انه يصبح قادراً على حمل الفيل . الاختبار وحده هو ما يعلمنا ، الاختبار ، أي تعاقب بعض الأحداث الثابتة ، أو تكرر بعض الاعادات بشكل معين ، قد يتغير يوماً .

لسنا ندرك ابدأ سوى تعاقب الانطباعات والتصورات . ان مجموعة تصورات بسيطة تجمعها المخيلة بحسب تواردها بالاتصال وتلبس اسماً غريباً تعطينا فكرة المادة وقد يكون ذلك خدعة العادة والكلام . فما الاجسام يا ترى ؟ انها اكاداس انطباعات متواترة تجمعها بحسب تشابهها ونعتقد انها وقائع دائمة . والنفس ؟ اهي لامادية ، اهي مادة روحية ؟ لعلها ليست سوى سلسلة انطباعات وتصورات متعاقبة تتوارد في الذاكرة ، فتخلق المخيلة وهم ديمومتنا . إلا ان هيوم يعترف بأنه لا يعلم كيف « تتحد احساساتنا المتعاقبة في فكرة أو في ضميرنا » . ومن هو الله ؟ ان نقد فكري المادة والعلة يؤدي الى العلة الاولى والمادة اللامتناهية . التشابه بين جهاز صناعي وبين الكون برهان احتمالي من براهين العلوم الاختبارية ، ولكن التشابه بين جزء محدود وبين كل غير محدود قابل للنزاع والجدال .

ان هيوم المخيف قد ايقظ « كانت » من « سباته العقائدي » . كما ان « جان - جاك روسو » قد ترك فيه اثرأ كبيراً ايضاً بتشديده على الحكم ، على هذه الكلمة الصغيرة « هو موجود » ، التي هي دليل نشاط الانسان . ان « كانت » (١٧٢٤ - ١٨٠٤) الذي كان استاذاً في جامعة كوفنسبرغ وعالم فلكياً وعالم طبيعيات وفيلسوفاً ، قد نشر في السنة ١٧٨١ « نقد العقل الصريح » ، وفي السنة ١٧٨٨ « نقد العقل العملي » ، وعدداً من المؤلفات الاخرى في الفلسفة والاخلاقيات والتاريخ والدين . طمح في أن يحدث في علم العقل البشري الثورة التي احدثها كوبرنيك

في علم الفلك وفي ان يغير وجهة النظر تغييراً تاماً. اراد ان يثبت ان عقلنا لا يتقبل صورة الاشياء بل يستخدم واقعا لجهله ليكون به الاشياء . وهو ايضا يتخذ علم الطبيعة النيوتوني مثالا للمعرفة : سلسلة من الاختبارات المختلفة ، نواميس تربط بين هذه الاختبارات ، مبدأ تربط به هذه النواميس . لقد لازمه وتسلط عليه مثل العلوم الطبيعية .

ينطلق « كانت » من تحليل الحكم . هنالك القضايا « الاولى » السابقة للاختبار التي لا يحتاج تحقيقها الى الاختبار ، والقضايا « الاستدلالية » المبنية على الاختبار . ان القضايا « الاولى » كلها اعتبرت من قبله تحليلية : الخبر فيها موجود وجوداً ضمنياً في المبتدأ أو الاسم ويستخلصه العقل منها بالتحليل . هذه هي حال القضايا الرياضية والـميتافيزيقية والاخلاقية . واعتبرت القضايا « الاستدلالية » كلها تأليفية : الخبر ليس جزءاً من المبتدأ أو الاسم بل يؤدي اليه الاختبار ويوازي العقل بينه وبينها بالتأليف ، كما في هذه القضية مثلا : الذهب قابل الذوبان بتأثير حرارة تبلغ ١٠٠٠ درجة ، التي هي تأليفية « واستدلالية » .

والحال ، القضية التحليلية « الاولى » لا تريد المعرفة : انها توضحها . القضية التأليفية وحدها هي ما يمنيها . ولكن الرياضيات تنمي معرفتنا . اعتقد كانت ، على نقيض دالمبير ، ان « $2+2=4$ » تأتينا بمعرفة جديدة تختلف عن مجرد التأمل في ٢ و ٢ . الرياضيات « أولية » . اذن هنالك قضايا تأليفية « أولية » : الخط المستقيم ، مبدأ السببية ، وغيرهما . اذن هنالك ، قبل اي اختبار ، معطية عقلية وحركة عقلية وفاقا لبعض النواميس ، وهذا عمل غير شعوري بالنسبة لنا . وتوصل « كانت » هنا الى بدايته بركلي وهيوم : ان افكارنا كلها وقوانا كلها لا تأتينا من التأثيرات الحسية . العقل واقع حي سابق للتأثيرات الحسية . فبرزت مرة اخرى الافكار المطبوعة .

بعد بلوغ هذه النتيجة ، بات لازماً التوصل الى واقع العقل هذا . درس « كانت » انطباعاتنا الحسية . ليس باستطاعة حسنا ان يتأثر الا في المكان والزمان . المكان والزمان « اوليان » ، وهما شرطان للانطباع الحسي ، وشكلان من اشكال الحس الحاصل قبل الاختبار . الحس لا يعطينا سوى انطباعات حسية . وحق نجعل من هذه الانطباعات ثأثراً حسياً بما هو جامد ، ورغو ، وبارد ، وحر ، يجب ان يقيم الادراك ، او النشاط البديهي للعقل ، علائق بين الانطباعات الحسية بواسطة « مفاهيم » ينطوي عليها « اوليا » قبل اي اختبار : السببية ، الكمية ، النوعية ، وغيرها . وجود الادراك يستلزم وجود الـ « انا » ، « انا » المتكلم ، الذي هو معطية « اولية » ، قبل اي اختبار ، وشرط الاختبار . وهكذا حلت المسألة التي تركها هيوم : كيف يمكن ان تعرف مجموعة الطباعات وكأنها « انا » المتكلم .

ان واقعا خارجياً يحدث الانطباعات الحسية هو شرط التفكير . ولكن التفكير لا يبلغ هذا الواقع او « نومين » (noumène) بحد ذاته . والعقل لا يعرف منه الا ما يصله مركباً بواسطة الادراك ، وفاقاً لمفاهيمه « الاولى » ، بحسب ما اعطاه الحس في اشكاله « الاولى » ، او

« الظواهر » . ان ما نعيه شعوريا هو تركيب يحققه عقلنا انطلاقاً من واقع مجهول . وهكذا ليس لتصوراتنا الذهنية من قيمة تمثيلية ، فليست هي صورة للأشياء ؛ فانهار مذهب الحاسيين الاختباري القائل بان الحس اصل المعرفة .

ينتج عن ذلك اننا لا نعرف انفسنا كما نحن . « انا » كل منا ظاهرة تتوصل اليها بالاختبار ، من خلال شكل الزمان « الاول » ، بحسب مفاهيم الادراك .

لا نستطيع معرفة العالم كما هو ، كـ (noumène) ، بل كما يبدو لنا فقط ، اي كظاهرة . ولذلك نرانا فصل ابداً ، حيال العالم ، الى معارضات او مناقضات . اذا قيل ان العالم متناه لانه يجب ايجاد حد للفضاء الزمان ، فبالامكان الاجابة بانه لامتناه لان مكان شيء ما هو نسي لمكان شيء اخر ، واذا قيل انه متناه لأننا لا نستطيع الانطلاق من معلول للانتقال من علة الى علة الى ما لا نهاية له ، ولانه يجب بالنتيجة ايجاد علة اولى حرة ، امكن الاجابة بانه لامتناه لان علة حرة تقطع التسلسل السببي اذا لم تكن هي نفسها معلولا لعلة اخرى ، ولان علة حرة تناقض مبدأ السببية ، وهكذا دواليك .

لا نستطيع اثبات قيمة الحتمية المطلقة . انها ناموس من نواميس معرفتنا ؛ وليس اختبارنا ممكن الا في الزمان الذي تتعاقب فيه العلل والمعلولات تعاقبا لازماً . واكبتها ليست ناموسا من نواميس الكيان : فقد يكون هنالك علة حرة ، خارج الزمان .

لا نستطيع اثبات الله . انه احد تأليف العقل اللازمة . لا نستطيع تصور كل شيء الا بالنسبة لكائن يستوعب كل واقع ممكن ، يكون بمثابة مثال كامل للأشياء الناقصة . ولكن ، هل ان هذا الكائن اللازم لنا هو موجود حقا ؟ الكون يسير بموجب نظام يشير الاعجاب ويفرض كائنا كلي الذكاء وكلي القدرة ؟ لنسلم بكائن كلي الذكاء وكلي القدرة ، الا انه قد يكون محدوداً ، متناهياً . ولكن كل الكائنات غير لازمة الوجود ؛ قد يكون ممكن ان لا توجد ، ليس لها علة وجود في ذاتها ، انها مرتبطة بكائنات اخرى . يقتضي كائن لازم ، لا يمكن ان لا يكون ، يفسر كافة الكائنات الاخرى ولا يحتاج ان يفسر . لنسلم بذلك ؛ ولكن لا يُثبت على هذا الشكل وجود اله ذاتي وخالق ؛ قد يكون الكائن اللازم المادة او الهام مختلفاً بالأشياء ويظهر فيها . ولكن اكمل كائن يمكن تصوره موجود حتماً : اذا انتزع منه الوجود ، فلن يكون الاكمل ؛ تصوره كاملاً هو فرض وجوده . غير ان الوجود لا يزيد شيئاً في نظر « كانت » ؛ فان ١٠٠ « تال » حقيقة ليست اعظم كلاً من ١٠٠ تال ممكنة .

وهكذا فان علم المعقولات ليس ثابتاً ، وليس علماً . ان ما نعرفه واقعي لا حقيقي . ان علماً ، المبني انطلاقاً من الوقائع الحسية ، علم مشروع اذا اننا لا نستطيع عمل شيء آخر ؛ اضع الى ذلك من جهة ثانية انه علم ناجح ، وهذا يظهر بعض التوافق بين مفاهيمنا والعالم

الخارجي . ولكنه علم ليس له سوى قيمة عملية . لا نستطيع في الحقيقة ان نعرف شيئاً من جوهر الأشياء .

كان مقدراً لتفكير « كانت » ان يصبح منطلق كافة فلاسفة القرن التاسع عشر تقريباً . اعتبر « نقده » زمناً طويلاً وكأنه اكتشاف نهائي يمين الشروط الدائمة لكل معرفة فعلية ويؤلف حد حقل المعرفة بالنسبة للعقل البشري .

توسع العلم اذن قام رجال ذاك العهد بمجهود علمي جبار . حاولوا تنظيم كافة المعارف على غرار « علم الطبيعة » : الحقوق ، الاخلاق ، كل شيء ، وحتى الجمال . فان الكاهن الفرنسي « دي بوس » قد اسس علم الجمال الجديد بكتابه « افكار نقدية في الشعر والرسم » (١٧١٩) . وفي السنة ١٧٣٥ اطلق الألماني « بومغارتن » على هذا العلم اسم « علم سنن الجمال » .

مهما بلغ من انتشار العلم والروح العلمية ، فانها ما زالت ، على الرغم من ذلك ، وقفا على اقلية ، وكما في هذه الاقلية بالذات من عزائم تراخت بفعل الانسياق وراء الاهواء . كان هناك علماء زائفون اعتقدوا برجال البحر وبنات البحر والعنقاء المغربية والتنين والوحش البشري والفرس الوحيدة القرن ونشروا اعتقادهم ، وزعموا انهم وجدوا ورسموا بشراً وحيوانات تعيش في الحصباء ، وشاهدوا اصداًفاً تولد في الأرض وتنمو فيها . وقد اكد فولتير نفسه انه شاهد ولادة اصداًف في ريفه . وكان هناك اساتذة من امثال ذاك الذي فسّر ، في السنة ١٧٦٨ ، في باريس ، في كلية مونتيفو ، تناسل الحيوانات كما يلي : « ان روح الحيوان الفحل (الكلب مثلاً) تبعث من ذاتها بشمعاً روحي مغلف بخلاصة من جذره الخضل : هذا هو زرع الكلب ا » وكان هناك جمهور الطفيليين الذين ازدحموا حول وعاء « مسّمر » ، يائع الأدوية ، المزود بالقضببان والسلاسل السرية ، واعتقدوا بالشفاء من كافة الأمراض وبالوضع دون الم بفضل قوى مجهولة في المغنطيسية الحيوانية . وكان هناك الفلاحون الذين انقضوا على الكرات الهوائية الاولى ومزقوها شر ممزق ، والصناعيون اليدويون الذين ثاروا على مانعات الصواعق الاولى ، وجميع من اعتقد بالسحر والسحرة والعفاريت والوهية والسحرة المتنكرين بهيئة الذئب ، اي المحيط البشري الذي طفت فوقه قبضة من الفلاسفة والعلماء .

لم يجمع العلم وقائع جديدة الا باستسلام العقل البشري الذي قبل ، لتفسير الملاحظات ، بمبادئ لم يدركها . ماذا كانت كل هذه العوامل الخفية ، السائل الحراري ، والسائل الكهربائي ، والسوائل العادمة الثقيل التي تنطوي على قوة فاعلة ملازمة لها ياترى ؟ حاول ديكارت ان يقضي في كل مكان على هذه الملازمة ، كما حاول ان يثبت بالرهان في كل مكان ما هو خاص ونوعي ، أي ما هو غامض ومغشّى وضمني بغية ردّه الى بعض عناصر مشتركة ، الاتساع والحركة ، أي الى ما هو جلي ومتميز وصريح . فقد بدت السوائل وكأنها تعود بالحالة الفكرية الى ما قبل ديكارت .

ولكن العلم ملك ضمن حدوده . انه يصبح دنيا . فقد برزت الثقة العمياء في المعلوم . وان
الانسان ، الذي بات بواسطة العلم سيد امرار الطبيعة وقادراً ، كما اعتقدوا ، على شفاء الامراض
المستعصية بواسطة جهاز الدكتور « ناسم » الكهربائي (١٧٧٤) ، وتمديد حياة الانسان الى ما
حد له بواسطة الاوكسيجين ، وتنظيم خير مجتمع بواسطة العلم الاجتماعي ، كان في طريقه الى
العصر الذهبي .

الفصل الثاني

النظريات الشاملة

« فلسفة الأنوار » حوالي السنة ١٧٦٠ بدا النجاح وكأنه يحالف « فلسفة الأنوار » التي بناها أولئك الذين أطلقوا على أنفسهم اسم « الفلاسفة » . أوضحوا أفكارهم في مآس ، وقصائد ملحمية وتعليمية وهجائية وروايات ومقالات انتقادية عنيفة وحوارات وشروح جل فلسفية وقواميس . أما مؤلفهم الشامل الاول ، « اجمال فلسفة القرن الثامن عشر » المعد لأن يحل محل « الاجمال اللاهوتي » للقدس توما الاقويني ، فقد كان قاموساً هو « دائرة المعارف الفرنسية » لدالمبير وديدرو ، التي ظهر الجزء الأول منها في أول تموز ١٧٥١ مع خطبة تمهيدية من وضع دالمبير ، والتي انجزت في السنة ١٧٦٤ على الرغم مما وضعته السلطة في سبيلها من عراقيل وعقبات . تألف نصها من ١٧ مجلداً ولوحاتها من ١١ مجلداً . وأكمل الاجمال هذا بكتاب موجز هو « القاموس الفلسفي » السهل نقله لفولتير (١٧٦٤) . أما دائرة المعارف التي أسهم في إنجازها ١٣٠ شخصاً من محامين وأطباء وأساتذة وكهنة وأعضاء في الأكاديمية وصناعيين وأصحاب معامل جلهم من أهل اليسار ومن حملة الألقاب الرسمية ، والتي كان ثمنها في متناول البورجوازية الكبرى المستنيرة وحدها ، فكانت مؤلفاً بورجوازياً . وكان أهم « الفلاسفة » ، الكتبة المتضلعون من جميع العلوم من أمثال فولتير وديدرو ، ورجال القانون من أمثال مونتسكيو ، وعلماء الرياضيات من أمثال دالمبير ، رجالاً منحدرين من مختلف درجات البورجوازية أو نبلاء رجال قضاء أو شرع هم أقرب اليها من أهل الجندية . كان تفكير العصر بورجوازياً أكثر منه في القرون السابقة .

ان تفكير هؤلاء البورجوازيين عقلي وموضوعي ونفعي . يريدون في كل شيء البدهة والوضوح والمطابقة للعقل واحترام مبادئه : الذاتية ، عدم التناقض ، السببية ، الشرعية . للعقل قيمة سامية . انه قادر على كل شيء ، ويدرك كل شيء ، ويصدر حكمه في كل شيء . هو الاله الأخير . اما الذين وجدوا له حدوداً ، كفولتير مثلاً ، فقد اعتقدوا ، على الأقل ، ان ليس خارج العقل سوى ليل وخواء ، وانه سبيلنا الوحيد المقبول الى المعرفة . العقل يستدل انطلاقاً من حقائق بسيطة وجلية ، إلا أنه فوق كل شيء ، يراقب الوقائع ويستخلص منها النواميس . يجب أن يقتصر العقل على المعارف المفيدة للسان : كل ما لا يفيد باطل . اف

من الرغبة في المعرفة لمجرد الرغبة ! قد يكون هذا التفكير معقماً . ولكنهم لحسن الحظ قد بقوا له أوفياء .

قال معظم « الفلاسفة » بالدين الطبيعي مع إنكار الوحي . اثبت لهم عقلهم وجوب وجود علة أولى لأنه يستحيل الارتقاء الى ما لا نهاية له من علة الى علة ؛ فهناك من ثم كائن أزلي يرتبط به كل شيء ويكون بالتالي كلي القدرة . ولكن هذا الكائن الأسمى كلي الذكاء أيضاً ، لأن الكون آلة ميكانيكية تثير الدهشة بتركيبتها وتنظيمها : النظام يستلزم ذكاء منظماً . ان هذا الكائن الأسمى ، الكلي القدرة والكلي الذكاء ، اله هو . لا نستطيع معرفة هذا الاله ومعرفة ما هو بالضبط ، بيد اننا نعرف انه موجود : هذا هو المعتقد المشترك بين كافة الأديان ، هذا هو الدين الشامل .

إن الله خلف بالضرورة عمله فأقاصاً : فقد لا يميز بين الله وعالم كامل قد يكون هو نفسه الله ؛ الله وحده كامل . ولكن الله الكلي القدرة والكلي الذكاء ، وخالق عالم على مثل هذا التناسق ، قد خلق بالضرورة خير عالم ممكن . اذا كانت هنالك شرور ، ففي سبيل خير أكبر لا ندركه . أطلق على هذا المذهب اسمه ، « التفاؤل » ، في السنة ١٧٣٧ . كان فولتير في البدء من تبعته المقتنعين ، ثم بات عدوه العنيد بعد كارثة الزلزال التي حلت بلسبونة (١٧٥٥) وألف كتابه اللاذع « كنديد » (١٧٥٩) : قال « كاكبو » : ما هو التفاؤل ؟ - أجاب كنديد : إنه الكلف بالتأكد أن كل شيء جيد في حال أن كل شيء سيء . منذ هذا التاريخ أخذ التفاؤل بالانكفاء إلى الوراء .

نظم الله العالم بنواميس أزلية لا يدخل عليها أي تغيير . فلا فائدة إذن من الابتهاال اليه ، ولا من حاجة إلى الطقوس والاسرار . إن ما يجب عمله هو درس الطبيعة لمعرفة نواميسها والعمل بموجبها .

كان بعض الفلاسفة ماديين وملحدين : « موبرتوي » ، الطبيب « لامتري » ، ملتزم جمع الضرائب « هلفيتيوس » ، البارون « دولباك » الذي كان يجمع حول مائدته الملحدين الباريسيين الرئيسيين ويدير منشورات تتميز بالدعابة الالحادية ، وديدرو أخيراً بين الفينة والفينة . كل شيء في نظرهم يفسر بالمادة . المادة أزلية ؛ من طبيعتها تتولد الحركة ونواميسها والنظام الكوني ؛ ومن الحركة يتولد كل شيء ، حتى الفكر . الله افتراض باطل . نظر الناس الى الملحدين بحلم وتسامح : ففي أشهر روايات القرن « هيلويز الجديدة » لجان جاك روسو ، يظهر السيد « دي قوطار » ملحداً خفيف الظل . ولكن هؤلاء الفلاسفة لم يتجاوزوا عسده أصابع اليد ولم يترك تعليمهم أثراً يذكر .

رأى « معظم الفلاسفة » ان الطبيعة التي خلقها الله ونظمها تجعل البشر يعيشون حياة اجتماعية . على العقل البشري أن يكتشف النواميس الطبيعية التي تنظم المجتمعات بغية العمل

بموجبها . هنالك حق طبيعي مبني على النواميس الطبيعية . على الانسان ان يعبر عن هذا الحق الطبيعي بشرائع موضوعية . وهنالك اخلاق طبيعية مطابقة للنوانميس الطبيعية . على أن على الانسان أن يعبر عن هذه الأخلاق بمبادئ ويجمعها في تعليم طبيعي .

حواسنا توحى لنا اننا موجودون على الأرض لأجل السعادة ، أي لأجل التمتع باللذة : « يجب أن نبدأ بالتفكير في أنفسنا أن لا عمل لنا في هذا العالم سوى أن نوفر لنا فيه احساسات وشواعر مستطابة . التمتع باللذة حق . » ان محبة النعمى ، التي هي أقوى من محبة الوجود ، يجب أن تكون بالنسبة للأخلاق كما هي الجاذبية بالنسبة لعلم الآليات . الأثانية مرتكز علم الأخلاق . ولكن يجب أن تفهم الأثانية جيداً . العقل يرشدها ويظهر لها « حقيقة عملية واحدة لا جدال فيها هي حاجة البشر المتبادلة بعضهم الى بعض ... والواجبات المتبادلة التي تفرضها هذه الحاجة عليهم . اذا ما افترضت هذه الحقيقة ، اشتقت منها كافة قواعد الاخلاق بتسلسل لازب ... » لعل علم الأخلاق أكمل كافة العلوم اطلاقاً . « هذا هو أساس القواعد الأولية : لا تعمل لسواك ما لا تريد أن يُعمل لك ؛ واعمل لسواك ما تريد أن يعمل لك . ومن هنا تشتق قواعد التساهل والاحسان والانسانية ، المتفقة من جهة ثانية واريحية الانسان الطبيعية ، ولكنها تخضع لتدابير حكيمة حتى يحدد كل شخص في آخر يومه ان لذته اكبر من المه وان حساب الاخلاق يثبت له ، اذا رجعت كفة اللذة ، انه سعيد حقاً . وينجم عن ذلك حلم عام معين : الانسان الذي يتصرف تصرفاً سيئاً لا يمكن ان يكون سوى انسان ارتكب خطأ . وينجم عن ذلك ايضا الاعتقاد بخلود النفس والجزاء بعد الموت : يخطئ البعض ويعذبونني على غير حق ؛ فمن المخالفة لكمال الكائن الاسمى ان لا يعيىض من هذا الضرر في العالم الثاني بنظام مكافآت وعقوبات .

يجب ان تنظم المجتمعات في سبيل سعادة البشر . ولأجل تأمينها عقد البشر فيما بينهم في البدء اتفاقاً ووجدوا قوام ضد الكوارث الطبيعية وضد اعدائهم . لا يمكن ان تنجم هذه السعادة الا عن التقيد بالحقوق الطبيعية الناتجة عن النواميس الطبيعية . فالبشر من ثم يختارون حكومتهم حتى تضمن لهم حقوقهم ، وهنالك عقد اتفاق حقيقي بين الحاكم والمحكومين ؛ ويمكنه هؤلاء استبدال الرئيس الذي قد لا يحترم العقد ويتعدى على حقوقهم او يتفاضى عن التعدي عليها . اذن الثورة حق ايضاً . ولكن على الحكومة ان تتولى كل السلطات للتمكن من القيام بمهمتها . يجب ان تكون استبدادية وملكية في الدول التي تتجاوز مساحة معينة . « قد تقوم بالضرورة ، في الجمهورية ، احزاب من شأنها ان تغرقها وتقضي عليها . » الحكم الملكي « وحده اهتدى الى الوسائل الحقيقية الكفيلة يحملنا نتمتع بكل سعادة ممكنة وبكل حرية ممكنة وبكل الفوائد التي يستطيع عضو المجتمع ان يتمتع بها على وجه الارض . » على المتبد ان يتلقى تعاليم « الفلاسفة » دون غيرهم . هذه هي نظرية « الاستبداد المستنير » ، التي نشرها ، في المانيا ايضاً ، « وولف » وكتبة آخرون كثيرون ضمنوا لها نجاحاً كبيراً .

على الامير ان يؤمن حقوق الانسان . حرية الشخص اولاً : بالغاء الرق والغداية . يمنع حرية الانتقال والتجارة والصناعة والملاحة والحرية المدنية ، لا الحرية السياسية ، او حرية سياسية محدودة ؛ فالحرية السياسية « خير لم يوجد لأجل الشعب » . لن يكون هنالك حرية فكر ولا حرية دين بل تساهل الى ان يستنير كافة البشر . ويكون هنالك حرية الكلام حتى يستطيع الفلاسفة الاعراب عن آرائهم . اما حيال الآخرين فيجب التصرف بفطنة وبصيرة : لا يمكن لحرية التهجم على الحرية ان تكون سحرية . وقد رأينا ديدرو الذي عينه وكيل الشرطة ، « سارتين » ، رقيباً على المؤلفات ، يدرس مهزلة « الهجاء » لـ « باليسو » ويطلب حظرها لأنها تستهزئ بالفلاسفة . وكثيراً ما وشى هؤلاء كتابة بمعارضهم الى الحكومة .

على الامير ان يؤمن المساواة امام القانون ويبطل امتيازات النسب ، فيدفع الاكليروسبون والاشراف جميعهم الضريبة اللسبية ، ويحاكمون امام المحاكم نفسها وينالون العقوبة نفسها للمخالفات عينها . وتفتح ابواب المهن كلها لكافة الكفاءات لان المساواة في الحقوق طبيعية ولان من المصلحة العامة ان يعين خيار الرعية في اعلى الوظائف . ولكن الطبيعة حبت البشر بارادة وذكاه وكفاءات متفاوتة . فينبج عن تفاوت المواهب هذا تفاوت في الثروات هو من ثم طبيعي . والتملك الذي ينشأ من استخدام الحرية هو طبيعي ايضاً ، وهو مقدس . على الامير ان يبغي بعناد على حرمة التملك وتفاوت الثروات . وباستطاعته ان يسند الى كبار الاثرياء والملاكين العقاريين سلطة تشريعية . فيكون هنالك ارستوقراطية الثروة والمواهب . « نجاحات الانوار محدودة » بحسب ما جاء في « دائرة المعارف » ، فهي لا تبلغ الضواحي قط لان الشعب هنا متأخر جداً . عدد اسافل الناس يكاد لا يتغير ... الجماهير جاهلة وبلاء . وقال فولتير قولاً اشد قساسة من ذلك : « يقتضي للشعب الاحق والهمجي نير وفخس وعلف » .

يجب ان تكون العدالة اكثر حلماً . حريتنا الخارجية محدودة . فنحن نريد من ثم آراء فرضت علينا ، وهذه الآراء نخضع لتأرائنا الحسية التي نخضع لبيتنا وورائتنا : فسؤوليتنا من ثم مخلفة بمحض التخفيف . العدالة تستهدف الحث على القيام باعمال مفيدة للمجتمع والحيولة دون الاعمال الاخرى . يجب إلغاء كل ما هو خطر او غير مفيد فقط : الاستنطاق بواسطة التعذيب الذي يتيح للمجرم القوي ان يفوز بالبراءة ويرغم البريء الضعيف على الاعتراف بجرائم لم يقاترها ؛ العقوبات المتركة لتحكم القاضي او العادة التناسب والجريمة ؛ العقوبات التي تتناول الجنائية على العزة الالهية ، وهي خطيئة بكنة الله ان يقتص من مرتكبها بعزل عن القاضي . يجب ان لا يسلم بعبودية الموت الا اذا كانت السبيل الوحيد لانقاذ حياة اكبر عدد ممكن من البشر . للمتهم الحق في ان يعامل معاملة البريء لا معاملة المجرم ، وللمجرم في ان يعامل بمثل ورحمة ، والاوى للدولة ان تمنع الجرائم بالتربية من ان تقتص من المجرمين . وقد توسع الميلاني « بكاريا » في كتابه « الجرائم والعقوبات » (١٧٦٤) في هذه الآراء التي استوحاها من مونتسكيو و « دائرة المعارف » .

لا يمكن التسليم بالحرب ، وهي آفة البشرية ووصمة عار في جبينها ، الا اذا دعت الحاجة القصوى الى امتشاق السلاح في سبيل الدفاع المشروع عن النفس . ولا يكون حينذاك كل شيء جائزاً للجندي ، الذي عليه ان لا يفعل شيئاً يناقض « نواميس البشرية الأزلية » وان يبحث عن مجده في « سخائه » . على الأمم ، المؤلفة من بشر احرار ، ان تعتبر نفسها كاشخاص احرار تترتب عليهم واجبات الافراد . وقد واصل الأب « دي سان - بيير » حتى السنة ١٧٤٣ الدعوة التي باشر بشها في عهد لويس الرابع عشر في سبيل سلم دائم بواسطة اتحاد دائم بين كافة ملوك اوربا : الاتحاد سيحول دون اندلاع الحرب فيما بينهم ؛ وسيجد من التسليح ، ولن تقسم اية بلاد ، وسيكون للاتحاد جيش مؤلف من مجندي الأمم المختلفة لفرض احترام مقرراته ، وسيكون مركز الاتحاد في مدينة السلام ، الحرة والحيادية ، كجنيف مثلاً .

تتقدم الانسانية تقدماً مستمراً بانتشار الانوار . التربية ابعد وسائل التقدم اقرباً . يجب ان توجهها الدولة لمصلحة الدولة التي يجب ان توفر لها مواطنين تجمعهم روح واحدة ويكونون اهلاً للقيام بوظائف الدولة المختلفة بغيرة بلاغ مثل اعلى مشترك . يجب ان يتولى شؤونها مكتب خاص خاضع لسلطة الوزير المكلف امر الاشراف على امن عام الدولة . يجب ان تكون التربية طبيعية حسية ، وان تبدأ بالمحسوس ، بالوصف ، حتى تلتقل الى ما هو عقلي ، ان تنطلق بما هو بسيط حتى تبلغ ما هو مركب : استثبات الوقائع قبل البحث عن العلل . يجب ان تكون طبيعية : اي ان تكون اجساماً قوية بالمعيشة المحشوشنة والتأمرين ؛ وعملية : اي ان تستلزم درس لغة البلاد التي نعيش فيها ، والتاريخ المعاصر ، والجغرافية ، والعلوم الطبيعية ، والرياضيات ، وعلم الطبيعة ، والتدريب على العمل اليدوي . وقد شدد الكلام في هذه النقاط مؤلفون كثيرون لخص بالذكر منهم القاضي الفرنسي « لاشالوتيه » الذي وضع في السنة ١٧٦٣ كتابه « محاولة في التربية الوطنية » . اصف الى ذلك من جهة ثانية ان المعرفة في متناول الجميع : « الحقيقة بسيطة ، وبلاستطاعة ابدأ وضمها في متناول الجميع » . هذا ما قاله دالمبير في سياق كلامه عن « التفاضل » في « دائرة المعارف » .

وقعت هذه الآراء موقع الرضى من نفوس الملوك الذين كانوا قد اعلنوا الحرب على امتيازات الكنائس والاشراف والجمعيات . راسلوا الفلاسفة واستقبلوهم . فقد تبادل فولتير وديدرو ودالمبير الرسائل وملك بروسيا فردريك الثاني وقبيرة روسيا كاترين الثانية . كما اقام فولتير في برلين وديدرو في سان بطرسبورغ .

الأن ناشر هذه الآراء الرئيسي هو الماسونية . وقد تساءل « بول هازار » عما الماسونية إذا لم تكن دائرة المعارف مشروعاً ماسونياً . انتمى الماسونيون إلى نقابات البنائين في القرون الوسطى الذين كانوا يحرصون على الاحتفاظ بأسرارهم المهنية وقبلوا بأن ينضوي الى جمعيتهم بعض عظماء الأسياد المولعين بمعرفة الأشياء . استمرت معارفهم في انكسار حتى أوائل القرن الثامن عشر واستمرت معها تقاليدهم وصكوكهم واحتفالاتهم وكتاب رتبهم؛

أما الأعضاء فخليط من مهندسي العمارة المتهنئين ، ورجال الفكر ، والإشراف . في السنة ١٧١٧ ، انصهرت أربعة محافل من محافل لندن في محفل انكلترا الكبير واستبدلت الماسونية المهنية القديمة بماسونية فلسفية . في السنة ١٧٢٣ ، وبناء على أمر المعلم - الأكبر ، وضع الراعي الماسوني اندرسون « دساتير الماسونيين » التي تعتبر الجبل هذه الكنيسة الفكرية والنفعية وقانونها وكتاب فرضها .

تحتفظ الماسونية ، من أصولها في القرون الوسطى ، بالرموز والطقوس التي أقتنتها من الشرق على ما يقال ؛ تعلم الأوليات ، الأعمدة ، الأقمشة الكتانية المصورة التي تمثل هيكل سليمان ، النجم الساطع ، الزاوية المثلثة ، البركار ، ميزان التسوية (رمز المساواة) ، السر المطلق ، تحت طائلة قطع العنق واقتلاع اللسان وتمزيق القلب ؛ وكل ذلك حتى أودفن في أعماق أعماق البحر ويحرق جسمي ويحول الى رماد ينثر في الهواء .

يؤلف الماسونيون من ثم شيعة صوفية ، مما أسهم في نجاحهم . يريدون اصلاح النظام الأخلاقي والاجتماعي بنظام فكري جديد . يقولون بمذهب العقلين ويحاربون الديانة المسيحية ، ولكنهم يدينون بالدين الطبيعي وينكرون الوحي ويمبدون مهندس الكون العظيم ؛ يجب على الماسوني أن لا يكون لا « زنديقاً ملحداً » ولا « دهرياً بليداً » ، بل ان ينضوي الى « هذه الديانة العامة التي يجمع عليها كل البشر » . يتعلقون بالحرية والمساواة ويقولون بمذهب التمتع باللذة .

« في طريق تكسوها الأزهار

الماسوني يجتاز الحياة

باحثاً عن التمتع باللذة ...

هتاف الطبيعة ، أيها الصديق ، هو الحرية ...

نحن متساوون دون فوضى وأحرار دون فساد

والخضوع لشرائطنا مرتكز استقلالنا .

الماسونيون جمعية دولية خاضعة لنظام متسلسل السلطات ، وقانونها هو تقاني الأعضاء بعضهم في سبيل البعض الآخر وتبادل المساعدة .

على الرغم من أن البابا اكليمنضوس الثاني عشر قد أصدر حكمه ، في السنة ١٧٣٨ ، بمنع الماسونية في العالم المسيحي ، ومن أن البابا بندكتوس الرابع عشر قد جدد المنع في السنة ١٧٥١ ، فإن انتشارها كان سريعاً وواسعاً . لها لبثت المحافل ، بفضل الأعضاء من تجار ودبلوماسيين ، وبحارة وجنود وأسرى حرب وممثلين هزليين متنقلين ، ان تأسست في كل أنحاء العالم ، في « مونس » في بلجيكا (١٧٢١) ، وباريس (١٧٢٦) ، وروسيا (١٧٣١) ، وفلورنسا

(١٧٣٣) ، وروما ولشبونة (١٧٣٥) ، وبولونيا وكوبنهاغن (١٧٤٣) ، وجبل طارق وأمريكا منذ السنة ١٧٣١ ، والهند والبنغال . استهوت الماسونية الأعيان والبورجوازيين المسيوريين وأعضاء المهن الحرة والفلاسفة مونتيكيو ، وهلفتيوس ، وبنيامين فرانكلن ، « ولاندس » ، وفولتير الذي قبلت عضويته في ٧ نيسان ١٧٧٨ في محفل الاخوات التسع في باريس . وانضوى اليها الاشراف باعداد كبرى واحتل بعضهم مركز المعلم الأكبر : دوقية وكونتية انكليز ، والدوق « دانتين » ، والأمير « بوربون - كوندية » ، والكونت « دي كرمون » ، والدوق « دي شارتر » في فرنسا ، والمركيز « دي بلغارد » ، ياور الملك « شارل - عمانوئيل الثالث دي سافوا » ، ومؤسس محفل « شميري » الأول ، وهو المحفل الأم لسافوا والبييمون ؛ والأمير دي « سان سيفيرو » ، المعلم الأكبر لمحفل نابولي ؛ « وفرنسوا دي لورين » زوج ماري - تيريز النمساوية وامبراطور الامبراطورية الرومانية الجرمانية المقدسة ؛ ومملك بروسيا فردريك الثاني الذي أصبح منذ السنة ١٧٤٤ المعلم الأكبر لمحفل الكرات الثلاث في برلين . وكان هذا الانضواء خير وسيلة لمراقبة هذه الجمعيات السرية وضمان دعاوتها ومساندتها لهم . الماسونية قوة تنشر آراء الفلاسفة وتوحد الطبقات والأمم وتسهم في خلق ذهنية مشتركة تكون منطلقاً لأعمال متماثلة .

المسيحية والكنائس قام في وجه الفلاسفة خصوم أقوياء . وفي طليعة هؤلاء المسيحية عدوم الأزرق . أخذوا عليها انها تطلب من العقل فوق ما يتحمل . فكيف استطاع آدم ، الكائن المحدود ، أن يهين الله اهانة غير محدودة ؟ كيف يمكن التصديق أن الجنس البشري بكليته أصبح مذنباً بفعل خطيئة الانسان الأولى ؟ كيف يمكن للطفل الذي يخلق اليوم أن يكون مسؤولاً عن خطيئة ارتكبت قبله بآلاف السنين ؟ كيف يمكن قصور اله واحد في ثلاثة أقانيم ؟ واله يتجسد ؟ وانسان يقوم من بين الأموات ؟ سخروا بالكتب المقدسة وبرواياتها الغريبة ، الجارحة ، البعيدة الفهم والتصديق ! أليس جلياً أن ليس هناك من كتب موحى بها من الله ، بل مؤلفات من وضع بشر نقلوا آراء عصرهم السائدة ، نفتحت وشوهت وأفستت تكراراً ، وفاقاً لمقتضيات الزمان أو لدرجة فطنة وانتباه المستلسخين .

وأخذوا على المسيحية انها تعارض الطبيعة وتنصح بالفقر والعمل الجاهد ، والتضحية والتواضع والألم والخضوع . لا بل نسبوا إليها أبوة شوارع غير انسانية : المسيحي يبتهج بوفاة ولده الذي يربح السعادة الأزلية ؛ ويترك قريبه يموت بدون أية مساعدة حتى لا يتغيب عن حضور القداس .

وانتهموها بالحاق الضرر بالمجتمع . الأديرة ملاجئ كسالى تحرم الدولة من الفلاحين والصناعيين والتجار . البتولية الكنسية تمنع تكاثر البشر وتحرم الجسم الاجتماعي من المنتجين والمستهلكين

والجنود . لإرسال المال إلى البابا يفقر الأمة . الكنسيون يعفون من الضرائب في حال أنهم يمتلكون أراضي واسعة الأطراف ، ويحرمون الدولة من موارد وفيرة . الآراء الدينية تقسم المواطنين : وليس تاريخ الكنيسة سوى سلسلة طويلة من الاضطرابات والحروب . الكنيسة توحى بروح مقاومة وعدم انقياد : على المسيحيين أن يطيعوا الله قبل البشر ، وأن يتقيدوا بوصايا الله لا أن ينصاعوا لأوامر الحكومة . ليس المواطنون والحالة هذه بكنيتهم للدولة ، وما هو العمل ضدهم ما داموا يتصورون أن ساعة وفاتهم ستكون ساعة سعادتهم الأزلية ؟

ان في مثل هذه النتائج لدليلا على أن رجال الكنيسة جميعهم مكارون ومراؤون . لا يبحثون سوى عن مصلحتهم الشخصية ، الثروة ، والسيطرة . يتجرون بحبل البشر وخوفهم وضعفهم ويخدعونهم بالأساطير والحرافات ويعيشون على حسابهم ويسخرون منهم .

ثم يطفح جام الغضب . فيتولى فولتير الحملة على الكنيسة : « لنسحق الشائنة » . تلك كانت نزعة طويلة حياته ، ولكنها غدت ، منذ السنة ١٧٦٠ ، شغل هذا المعجوز الشاغل . لا شيء يصعب عليه : تبسيط استخفا في ، حذف ، تشويه . فقد صدرت بدون انقطاع ، عن « مصنع فراني » ، الاهاجي الازدرائية اللاذعة التي كتبت من أجل أولئك الذين يؤثر فيهم المزاج والجناس المستقبح أكثر من البرهان . « كان هدفه تخليف هذه السخرية لشعب اخرق وغلظ قد يالف الضحك أمام ما لا يدركه » . بواسطته خصوصاً « ولدت في القرن الثامن عشر ... ودامت بعد ذلك فئة من الناس لم تعتمد غذاء روحيا سوى محاربة الاكليروس ... واعتقدت أن محاربة الاكليروس قد تكفي لتقويم الحكومات ولجعل المجتمعات كاملة وللإيصال الى السعادة » . انتشر الكفران في كل مكان . وقام الباعة الجوالون يزودون النبلاء والبورجوازيين والكنسيين بمخطوطات وكتب تناهض الاكليروس . في المقاهي والحداثي العامة ، سمع جواسيس الأمن الأراجيف الموجهة ضد الكنيسة والدين ، والصادرة عن الكهنة أنفسهم أحيانا .

ضعفت الكنيسة الكاثوليكية . وكانت آنذاك أقل قدرة على المقاومة بسبب تدخل الدولة في شؤونها ، وتسرب روح العصر اليها ، وانقساماتها الداخلية . كان الملوك والأمراء والنبلاء قد أخذوا على عاتقهم ، في كل الدول ، وعلى مر الأيام ، تعيين رؤساء الأساقفة والأساقفة ورؤساء الأديرة وخدمة الرعايا في المراكز الهامة . وغالبا ما اسندوا هذه الوظائف الى غير الابكار من أبناء الاشراف ، أو الى خلائق البطائن دونما نظر جدي الى الدعوة والمؤهلات . فماش العديد من الأقباط عيشة كبار الأسياد العلمانيين وأحيوا الأعياد والحفلات وشيدوا الأبنية وزاولوا القنص ولجأوا الى الدسائس والدبلوماسية وانشغلوا بالزراعة والمعامل والطرق والجسور ، ولكنهم اهلوا واجباتهم الرئيسية : نشر الكلام الالهي واعداد كهنتهم وترقيتهم الى الدرجات الكهنوتية . اما الكهنة ، الذين غالبا ما ينتمون الى عامة الشعب ، وتسند اليهم

خدمة أسوأ الخورنيات حالاً ، أو ممارسة الوظائف الهامة ، لقاء أجر زهيد ، بالوكالة عن الأسقف أو خدام الرعية الغائبين ، فكانوا في أغلب الأحيان سريعي الغضب ، خامدي النشاط ، قصيري الباع في أمور الدين . فقدت الدروس الكنسية ، في الواقع ، كثيراً من قيمتها . وقد أصاب أسقف « سواسون » ، « فيتز - جيمس » ، حين كتب الى مونتسكيو ، في ٢٩ ايلول ١٧٥٠ ، ما يلي : « يحذر التفكير جدياً بإعادة الحياة الى دروس اللاهوت التي هبطت هبوطاً كلياً ، ومحاولة اعداد خدام دين يعرفونه ويستطيعون الدفاع عنه » . وقد أضاف الى ذلك : « الدين المسيحي من الجمال بحيث أنني لا اعتقد بإمكان معرفته دون محبته ؛ وإذا ما وجد من يهدف عليه ، فهذا دليل على جهله له . » ولذلك استسلم العديد من الكنسيين الى الآراء الجديدة وابتوا بمعتقدون ، بقليل أو كثير من الصراحة ، بالدين الطبيعي وينكرون الوحي ، وينادون بالألحاد أحياناً . وفتر ايمان الآخرين ؛ وكف الوعاط ، بسبب عدم اطمئنانهم وعدم قناعتهم ، عن التكلم في موضوع العقيدة ، واقتصروا على الكلام عن عموميات اخلاقية مستبهمة . وكان بعض المدافعين عن العقائد المسيحية يملن ، وعادمي الحداقة ومثيرين للسخرية أحياناً . ونظم الأب « بلغرين » حقائق العقيدة المسيحية بحيث تشد وفاقاً للحن مألوفة رائجة . واخيراً كانت الكنيسة قد فقدت اعتبارها بفعل الجدل الكبير الذي قام بين الجهنسيين واليسوعيين . فهؤلاء وأولئك قد تجاهلوا المحبة المتوجبة عليهم . وقد اضعفت اتهاماتهم المتبادلة كلا الطرفين . عاجلوا أدق عقائد الايمان في الساحات العامة ؛ فعمل ذلك أعمق الناس جهلاً على اصدار حكمه فيها . وقد طلب من السلطة المدنية أن تتدخل في الدين .

في كل مكان تقريباً ، دافعت الدولة مبدئياً عن الكنيسة . كان عمل مجلس التفتيش مستمراً في اسبانيا والبرتغال ، ولم ينقطع حبس احراق المراطقة . وفي كل مكان ، كانت هنالك رقابة ، واضطار التعرض لأحكام الأساقفة وجمعيات الأكليروس والعقوبات الحكومية . واتخذت تدابير شديدة أحياناً : فان ماري تيريز قد حظرت فهرس الكتب المحرمة لأن مجرد قراءة العناوين قد يثير الرغبة في قراءة الكتب التي كان الاولى ان لا يعرف بوجودها نفسه . وفي أوساط البروتستانت طرد غليوم الاول الأستاذ « وولف » من منبره التعليمي في « هال » . وحصلت اعتقالات واضطهادات وابعادات .

ولكن الملوك ما كانوا يحبوا في الكنيسة إلا ما كان من شأنه أن يخدم صوالحهم . فهم ويطائهم وسرايهم ووزراؤهم قد انساقوا وراء الآراء الجديدة أيضاً . وغدت تصرفاتهم متناقضة . فان لويس الخامس عشر ، في فرنسا ، قد عين أميناً للكتابة « ماليزرب » العاطف على حرية أهل الادب . كما أن « داميلافيل » المفوض الاول في إدارة الضرائب ، كان يهر طرود مؤلفات فولتير المعادية للدين بخاتم المراقب العام ، وكان لماري - تيريز المشهورة بتقواها مستشار جلسيني وزوج ماسوني . وكانت مقاومة الدعاية المعادية للدين ضعيفة . فهبط تأثير الكنيسة . والدليل على ذلك الانفاء على مراحل الذي استهدف جيش البابا ، أعني به جمعية اليسوعيين

المرتبطة بالبابا بندر طاعة خاص . فقد ألغيت الجمعية في البرتغال (١٧٥٩) ، وفرنسا (١٧٦٤) واسبانيا (١٧٦٧) ، وناپولي ، وبارم ، وأقصى اليسوعيون إلا عن فرنسا . وأرغم الملوك الكاثوليك البابا على حل جمعية يسوع ، في ٢١ تموز ١٧٧٣ . فهتف فولتير : « لن يكون هنالك كنيسة بعد مرور عشرين سنة » .

بيد أن الكنيسة استمرت . وقد استمرت ، في الدرجة الاولى ، بفضل هذه الجلوة من الكهنة والراهبات الذين لم تستوقفهم الصعوبات الفكرية ، بل جاشت قلوبهم بتلك المحبة العظيمة للقريب التي هي محبة الله فبدلوا أنفسهم بصمت في سبيل المرضى والمعزة والفقراء والاطفال . واستمرت بفضل هؤلاء المرسلين الذين ذهبوا ، كما في الماضي ، يضحون بحياتهم لتخليص اخوتهم . واستمرت بفضل تلك الالوف من العلمانيين الوريثين الذين بدلوا وسعهم ، دونما ضجة ، صكي يحبوا دينهم ويكولوا كل يوم أعظم صدقاً وضميراً وفضيلة وفتاناً ومحبة . فكان لها معترفوها وشهادؤها وقديسوها .

واستمرت كذلك بفضل العلمانيين أو الكليسيين الذين ردوا على الهجوم بهجوم معاكس . أروضوا أن الايمان بيسوع المسيح ليس مرتبطاً بأية فلسفة : فالقديس اغسطينوس قد جاهر بالافلاطونية ، والقديس توما الاقويني فضل ارسطو ، وبوسويه كان كرتزيانيسا . وان العقيدة المسيحية لا تتنافى والفلسفة الجديدة . وأن كهنة اقبية كثيرين يقولون بفلسفة ديكارت ولوك ويمجبون بها . انهم مسيحيون « مستنبطون » جمعوا بين حقائق العلم والحقائق المسيحية . فاليسوعي « بوفيه » ، الاستاذ في كلية لويس الكبير ، قد علم مذهب لوك . وحاول الفرنسيون ورجال القديس فيلبس النيري أن يدخلوا إلى البرتغال مذهب بيكون ونيوتون ويعودوا تلامذتهم النقد والحكم الشخصي . وأعاد الأب « كونايسي » النظر في برامج الجامعة البولونية : فأوصى بدراسة بيكون وغسندي وديكارت ولوك . وحارب المدافعون عن العقائد المسيحية بأسلحة الفلاسفة نفسها . العقل ؟ أحبته الكنيسة ابداً ودائماً ؛ لا يجوز اقسام اليمين استناداً إلى قول المعلمين ؛ يجب أن ينبثق الايمان من الفحص العقلي ، ولا يجوز أن يكون نتيجة الاكراه ؛ لا دين حقيقي سوى الدين الحر والاختياري . يقتضي من ثم التساهل واللين والاقناع . العقل خير ادواتنا ولكنه محدود ؛ هنالك نطساق يعجز عن بلوغه باعتارف الفلاسفة انفسهم . لذلك أوحى الله لنا ببعض حقائق ما كنا لنتوصل اليها بطريقة أخرى . فالايان بالاسرار ليس من ثم متعارضاً والعقل ؛ لا بل هو العقل ما يستحث على ذلك . النقصد التاريخي ؟ انه يثبت صدق الكتاب المقدس ، فان المعجزات ، التي يخبرها شهود عيان او شهود معاصرون يدل كل شيء على صدقهم وسلامة طويتهم ، وتتناول وقائع مرتبطة بوقائع لاحقة ، ويسلم بها حتى اولئك الذين تقضي مصلحتهم بنكرانها ، ترددي طابعاً لا يقبل الجدل أو الاعتراض . لا ريب في انها تناقض لوايس الطبيعية ، ولكن ليس من تناقض إلا بالنسبة لعقولنا الضعيفة ، لا بالنسبة للادراك الالهي القادر على أن يرى الصلة بين كل الاشياء وان يصهر في وحدة واحدة ما هو

بالنسبة لنا تباعد واختلاف . المساواة في الحقوق ؟ المنفعة الاجتماعية ؟ هذا هو تعليم المسيح بالذات . إن بين البشر ، أبناء الله ، وإخوة المسيح ، مساواة طبيعية : وظائفهم غير متساوية ، أما هم فمتساوون . على أمرائهم أن لا يجعلوا نصب أعينهم سوى خير الدولة ، وأن يعملوا في كل شيء بمقتضى الشريعة الإلهية التي تنهى عن ارتكاب المنكر وتأمّر بالإسهام في خير الجميع ، وحتى الإعدام ، كما تأمر بأن تعمل لسوانا من البشر ما نتمنى أن يعملوه لنا . خير علاج للآلام الاجتماعية عبة البشر المتأججة المتبادلة . الدين محبة ، لا تطرف في التقوى . ويخلص الأب جينوفيزي ، الأستاذ في جامعة نابولي ، إلى القول : « أنا أعبد الإنجيل الذي جوهره المحبة . آه ما أعذبها هذه الكلمة ، المحبة . وكما تكون حياتنا سعيدة لو أنها تسود وحدها » . المحبة ربطت بين ملايين البشر في الكنيسة بروابط لم تقو أية محاولة على تحطيمها .

نزلت بالكنائس البروتستانتية المختلفة ، لا سيما الكنيسة الانغليكانية والكنائس اللوثرية (المانيا الشمالية واسوج مثلاً) ، مصائب مماثلة لمصائب الكنيسة الكاثوليكية : العبودية للدولة ، نقص في عدد الكليروس وتدن في مستوى تربيتهم (في بعض البلدان الكلفيلية كاسكتلندا وجنيف) ، وفتور في الأيمان ، ونزعة عامة إلى المذهب العقلي والدين الطبيعي والاخلاق « الطبيعية » . ولكن حدثت عند البروتستانت حركات تجديد أشد عنفاً ، أو أقله أكثر بروزاً منها عند الكاثوليك ، بسبب الاستقلال المتأصل في البروتستانتية : الكتاب هو المصدر الوحيد لكل حقيقة ؛ كل من يقرأه ، مستنيراً بالروح القدس ، يدركه إدراكاً تاماً ويحكم بالصواب فيما إذا كانت الكنيسة والدولة متفقتين وأياه ؛ وليس باستطاعة الكنيسة والدولة أن تفرض شيئاً يعارض الكتاب . هذا ما يفسر عدد ونشاط المنشقين الذين يريدون « تجديد » الحياة الدينية والعودة إلى جوهر البروتستانتية : عقيدة « الخلاص بالإيمان » . ان الإنسان ، الملتصق بالخطيئة الأصلية ، لا يخلص إلا بالإيمان بالمسيح الذي يستتب الحياة الداخلية بمحبة الإله الحي ، والصلاة والتأمل ، ومطابقة الأعمال للإنجيل . هذا ما قال به بروتستانت المانيا واسوج والداغمارك ؛ والأخوة المورافيون الذين انطلقت شيعتهم من بوهيميا وانتشرت في كافة أنحاء أوروبا الوسطى ، وحتى في البلدان الأنكلو - ساكسونية ؛ والإنجيليون الذين حصروا عملهم داخل الكنيسة الانغليكانية ؛ والميثوديون الأنكليز الذين أسسهم « ويلي » في السنة ١٧٣٨ ، وانفصلوا نهائياً عن الكنيسة الانغليكانية في السنة ١٧٩١ ليؤلفوا كنيسة مستقلة تستميل مريديها بنفسها غير آخذة بعين الاعتبار سوى الدعوة الفردية ؛ والبريتانيون في انكلترا وأمريكا الذين انتهوا إلى القول بالاختيار منذ الإزل للمجد السماوي . في البلدان الأنكلو - ساكسونية الآخذة في التصنيع ، بشر هؤلاء المسيحيون الفياثري المعال ببهجة الحياة الداخلية وإسلام الأمر لله ، وأرباب المصانع بالآخوة المسيحية . فأوجدوا حركة إنسانية طالبت ، على لسان « شارب » و « وليم فورس » ، بحل المسألة المعالية والغاء النخاسة والرق .

الرومنطيقون أقامت أشكال أخرى من أشكال الحس اعداء أقوياء في وجهه فلسفة الانوار . انطوت هذه الفلسفة ، بفعل منطقها المتصلب ، ونقدتها الهدام ، وعلم اخلاقها الحذر والمتبصر والمركز ابدأ ، في النتيجة ، الى اذنية واعية ، على شيء من الحصر والانكماش والجفاف ، انتهى عند كوندريك وهلفتيوس ودولباك الى ما هو اشبه بهيكل عظمي معرى من اللحم . ما كانت لتشبع حاجات القلب والحس والخيالة مع انها ، في الوقت نفسه ، كانت تحركها وتطلق لها العنان . نادى الفلاسفة بأن الأهواء جيدة كلها وانها مثار كل نشاط ، كما نادوا بشرعية اشباع الحس ، وحرية الفرد المطلقة في ان يحكم بنفسه ويسلك بموجب أحكامه . زد على ذلك ان فقدان السياق في تفكيرهم كان تشجيعاً للفرد على رفض تعاليمهم وعلى سلوك الطريق الخاصة التي يطيّب له سلوكها . تكلّموا عن الطبيعة كما عن امرأة ، ولكنهم لم يتفقوا فيما بينهم بصدها ؛ فتارة رأوا فيها امّا جامدة في سدّ حاجات ابنائها ، وأخرى اميرة بعيدة تحتقر الافراد احتقاراً عميقاً ولا تهتم الا للنوع ؛ وأخرى ابا هول لغزياً لا يهتم لشيء ويعيش في الصمت حياته العادمة الرحمة . يضاف الى هذا من جهة ثانية ان كل ذلك لم يكن سوى مجازات واستعارات اعتبرت تفسيرات اولية ، بينما هي فلسفة مدرسية في طور الالمطاط . أرادوا العمل بنواميس الطبيعة ، ولكن كل واحد منهم وجد لنفسه نوااميسه الخاصة . اذا جمعت بين جميع هؤلاء الفلاسفة خطوط مشاركة كبرى تؤلف « فلسفة الأنوار » ، فهذا لا يعني انهم لا يناقضون بعضهم بعضاً في الكثير من النقاط ، وانهم لا يناقضون انفسهم : فهم متقاربون ولكنهم متغايزون . لذلك نشأت حركة تستهدف نبذ كل هذه الاقوال وسلوك طرق أخرى يرشد كلا من العالمين بها وحي فؤاده .

جان جاك روسو بين العديد من الكتبة الفرديين ، الخياليين والعاطفيين ، المنساقين وراء حسهم ، على شغفهم بالمعقل في الوقت نفسه ، المنطلقين من شواعرهم ليستلّجوا منها ، بمنطق صارم ، مذهباً فلسفياً كاملاً ، ويفرضوا على العالم هذا النتاج من صنع ذاتهم الذي هو اعظم هؤلاء الرومنطيقين طراً ، ومعلم الرومنطيقين الذين جاؤوا من بعدهم ، يبرز جان جاك روسو (١٧١٢ - ١٧٧٨) . ابصر النور في جنيف ، وكان ابناً لساعاتي ، هام ابداً على وجهه وتطفل في أغلب الاحيان على العظماء ، وتميّز بخجله ، ومن ثم بكبريائه ، وبجس مسقام جعله يجيش بالبكاء عند كل انطباع على بعض القوة ، وبمخيلة سمري ، فبلغ من تألمه ابداً من علائقه بالبشر ولا سيما بالعظماء ، ومن انظمة المجتمع ومصطلحاته وموجباته ، انه سرّ وحده ، بالمقابلة ، وفي وسط الطبيعة ، بالتمتع بذاته وتأثراته الحسية والروايات التي ما انفك عن بنائها في مخيلته حيث خلق على هواء عوالم مصنوعة لاجله . في السنة ١٧٥٠ ، امتدى الى طريقه ، حين علم بموضوع المباراة الذي طرحته اكااديمية ديجون : « هل أسهم احياء العلوم والفنون في تنقية الاخلاق » . تشجع روسو بموافقة ديدرو وايحاءاته ، فعالج الموضوع وقاز بالجائزة في ٢٣ آب ١٧٥٠ . دافع عن رأي معاكس لرأي الفلاسفة : « لقد فسدت نفوسنا بمقدار

تقدم فنوننا وعلومنا نحو الكمال . « وناقض نفسه : « العلوم والفنون مدينة بنشأتها الى نقائصنا . »
على العلماء الحقيقيين ان يديروا الدولة . ولكن لا شأن لذلك : فالعلوم والفنون تضيق الوقت ،
وتختل بالبذخ ، وتفسد الذوق ، وتقتل الفضائل العسكرية ؛ والطباعة آفة ؛ والفلاسفة
مخترقون على الجماهير الساذجة . نشر هذا الهجوم على المعابد « نوعاً من الرعب » . تحدث عنه
فولتير ودالمبير وملك بولونيا ستانسلاس لكزنسكي . ولا غرو في ذلك اذ ان معالج هذه الآراء
المبتدلة رجلاً متشبع من التوراة وملتزم على كبار منطقيي القرن السابع عشر ، ديكارت
ويور - رويال ومالبرانش ، تحركه كافة الآلام التي تعرض لها وكافة الاحقاد المتكدسة في
نفسه . وهذا ما جعل جلته عادمة السهولة ، خطابية ، مؤثرة في القلوب ، قوية ، ايقاعية ،
تعارض اسلوب العصر الموزن الظريف ، وتؤثر وتفرغ نفسها . كرس روسو كتاباً . ومنذ ذاك
الحين انفصل تدريجياً عن الفلاسفة .

في السنة ١٧٥٤ نشر كتابه « خطبة في منشأ وأسس التفاوت بين البشر » . رسم فيها
بدوره ، على غرار الكثيرين من اهل زمانه ، لوحة الهمجي الصالح في حالة الطبيعة ، حالة
النعمة : عضلي ورشيقي ، متوحد ، فطري ، سعيد كل السعادة . « حالة التفكير حالة تناقض
الطبيعة ... الانسان الذي يتأمل حيوات مفسد » . ولكن للانسان قدرة مشؤومة على
التحسن والتكامل . زد على ذلك ان سنوات المحول وفصول الامطار الطويلة ، وفصول
الصيف الحارقة ، والفيضانات والزلازل ترغمه على مشاركة بشر آخرين ليؤلف معهم فرق قنص
ثم قبائل رعاة . في الجمعيات يتولد الحسد والشقاق والصلف والاحنار . يؤدي الاتفاق الى
اكتشاف النار ، شرط الزراعة . توجب على البشر ، بعد ان اصبحوا فلاحين ، ان يتقاسموا
الاراضي ويقولوا التملك الفردي ، ومنذ ذلك الحين ، فقد كل شيء ، وارتكبت الخطيئة
الأصلية ، وسلك البشر طريق « قبحول النوع » . عن التملك نشأ عدم المساواة ، والمنافسة ،
والخصومة ، والكبرياء ، والبخل ، والحسد ، والرداءة ، وصراع الطبقات ، والحروب . بات
لزماً اختيار رئيس ؛ فقد الرئيس طاغية . نزلت بال بشرية كافة المصائب . وهكذا يتضح ان
الخطبة حل لمسألة الشر . « البشر سيئو الخلق ... الا ان الانسان صالح بطبيعته ... فماذا
الذي دفع به الى هذا الدرك من الفساد ان لم يكن التبدلات التي طرأت على بليته والنجاحات
التي حققها والمعارف التي حصلها ؟ » عرفت « الخطبة » اوسع انتشار عرفته مؤلفات روسو
باستثناء « هيلويز الجديدة » . عرضت في المكتبات اكثر من « العقد الاجتماعي » . واسهمت
اكثر من اي مؤلف آخر في نشر عبادة المساواة .

حاول روسو آنذاك الاهتداء الى « حالة براءة وطهارة في الفساد الاجتماعي » .

لا يستطيع الانسان من ثم الاستغناء عن عضد الانسان ؛ لا يستطيع العودة الى
الوراء . والحال ، الحالة الاجتماعية ليست طبيعية ، وهي تركز الى اصطلاحات .
فيجب والحالة هذه تعيين شكل اصطلاحي يكون من شأنه الجمع بين فوائد الحالة الاجتماعية
وفوائد حالة الطبيعة . هذا هو موضوع « العقد الاجتماعي » (١٧٦٢) : ايجاد شكل شراكة

يحفظ للأفراد المساواة والحرية اللتين كانتا لهم بالطبيعة ؛ وموضوع « اميل » (١٧٦٢) :
ايجاد طريقة تربوية تجعل الانسان يحافظ في المجتمع على جودته المطبوعة وعلى براءة الحالة
الطبيعية وفضائلها .

سيمعدهم مذهب اميل الى عزله عن المجتمع لتربيته تربية فضلى ، ولجعله يعيش بحسب الطبيعة ،
ولاستخدام استعداداته للبحث عما هو مستطاب وتجنب كل شيء آخر . ستكون التربية من ثم
تربية سلبية . يجب الانعلم التلميذ شيئاً ، بل ان نسله مباشرة الى درس الاشياء كي يتعلم على
حسابه ما يجب السعي لئيله وما يجب تجنبه . اذا كسر لوح زجاج النافذة في غرفته ، فليتألم من
البزد . لا يريد ان يفعل شيئاً ؟ دعه وشأنه ، اذ انه سيمل البطالة . لا ريب في ان الاشياء قد
تعمله ما قد لا نريده ، او لا توفر له الدروس المتوخاة . علينا ان نثيرها او نبتكرها :
كالظواهر باننا ضلنا الطريق حتى يدرك اميل فائدة علم الفلك ؛ او تدبير مؤامرة بالاتفاق مع
سكان القرية المجاورة حتى تكرر الكلمة المخذشة الاذان الخروج منفرداً . اذا كان سريع
الغضب ، يقال له « كلا » دون اي تفسير . وهكذا اذا ما تربى اميل في جو من الصدق
والحرية يختلف كل الاختلاف عن جو التربية المألوفة ، فانه سيحافظ على الفضائل المطبوعة
في الانساب .

حين يبلغ اميل سن العشرين ، يكشف له القناع عن حقائق الدين . هذه هي « المجاهرة
بحقائق الدين » التي يولي روسو ، البروتستانتي المرتد الى الكاثوليكية ، والساقط ثانية في
الهرطقة ، امرها الى كاهن كاثوليكي من مقاطعة سافوا . يتردد بين آراء الفلاسفة المتناقضة فيقرر
الاسترشاد بـ « النور الداخلي » ، مصمماً على التسليم بكل الحقائق « التي لن استطيع » في
صدق قلبي ، رفض الموافقة عليها . القلب الصادق والعواطف الطاهرة هي شرط الحقيقة قبل
العقل . يرى نفسه يفكر ، بتصورات ذهنية يولدها عقله بمناسبة التأثيرات الحسية ؛ دون ان
تصدر عن التأثيرات الحسية ؛ له قدرة على الحكم سابقة للتأثيرات الحسية ، ليس هو « كائننا
حسياً وسلبياً » بل كائننا فاعلاً وعاقلاً ، على نقض فوك ومدرسته . كل ما حوله مادة جامدة
مع انها خاضعة لحركة منتظمة . ولكن « اذا كانت المادة المتحركة تثبت لي وجود ارادة »
فان المادة المتحركة وفقاً لبعض النواميس تثبت لي وجود عقل . يتوصل من ثم الى العقل
الاسمى ، الله ، الانسان ، العاقل ، المختلف اختلافاً عميقاً عن الحيوانات ، هو ملك الارض ، مهما
قال الفلاسفة في ذلك . ولكن الشر موجود . الله براء منه . اعطى الانسان سمو الكمال ،
الحرية . الانسان الحر يوجد التشويش في الطبيعة ويخلق الشر . ليكون عادلاً فيغدو سعيداً .
الحاجة الى التكفير عن الظلمات دليل على خلود النفس وعلى العقوبات والمكافآت بعد الموت .
قواعد الاخلاق مدونة في اعماق القلب : « كل ما اشعر به خيراً يكون خيراً ، وكل ما اشعر
به شراً يكون شراً » الضمير خير حلال للمشاكل ... العقل يمددنا غالباً ... ولكن الضمير
لا يندفع ابداً ... فهو من ثم ، في اعماق نفوسنا ، مبدأ « مطبوع » للعدل والفضيلة .

ميزة الانسان الفريدة في الطبيعة ، والتصورات الذهنية المطبوعة ، والانكماش على النفس لاكتشاف الحقيقة في ذاتنا ، في صمت الاهواء ، بعيداً عن العالم ، هذا هو الرأي المعاكس لفلسفة الادوار ، وكان من شأنه ان يصبح انتقام ديكارت الكامل على لوك لو ارتكز كل شيء الى العقل لا الى العاطفة .

سيعمد البشر المحسّنون والصالحون الى التشارك ، الى وضع « عقد اجتماعي » فيما بينهم ، بحيث يحافظون على حريتهم . « الانسان مولود سحراً وهو في كل مكان موثق بالقيود ... التخلي عن الحرية هو التخلي عن صفة الانسان ، عن حقوق الانسانية ، وحتى عن واجباتها ... ان مثل هذا التخلي يتعارض وطبيعة الانسان » . السبيل الى التوفيق بين السلطة والحرية هو تنازل كل شريك عن كافة حقوقه للجماعة . فلما كان كل انسان يهب نفسه الى المجموع ، فهو لا يهب نفسه لأحد ، ولما كان ليس من شريك تتمتع حياله بالحقوق نفسها التي نتخلي له عنها ، فإننا نكسب ما يعادل كل ما نخسره ، لا بل نكسب مزيداً من القوة للمحافظة على ما لنا . « الارادة العامة تصنع القانون ، والارادة العامة ليست ارادة السان ، ولا ارادة جمعية من الممثلين ؛ ليست مجموع الارادات الخاصة ولا قرار الاكثريه . في كل فرد ارادة خاصة تحركها الغرائز والاهواء الظرفية ؛ و ارادة عميقة هي « عمل بحث من اعمال الادراك الذي يرشد في صمت الاهواء الى ما يستطيع الانسان فرضه على نظيره والى ما يحق لنظيره ان يفرضه عليه » . هذه الارادة متاثلة عند كل البشر ، مزهة عن الضلال ؛ انها الارادة العامة المنبثقة عن الضمير الفردي ، المستخلصة بالهدوء والتفكير في العزلة بعيداً عن الاحزاب والتكتلات والهيئات . لا حاجة لاية جمعية ، أو نقابة ، أو حزب ، بل لهاباء من الافراد ، « وإلا لاستطعنا القول ان ليس هناك من يمد مقترعون بعدد البشر ، بل بعدد الجمعيات فقط » .

ان القانون ، وهو التعبير عن الارادة العامة ، كلي القدرة . الدولة ، حيال اعضائها ، سيدة بملكاتهم بفعل العقد الاجتماعي ... الملاكون يعتبرون مؤمنين على الممتلكات العامة . الدولة تحكم في ما يجب ان تتركه من حرية لكل فرد ؛ باستطاعتها فرض دين مدني ، ضروري للمجتمع ، وابعاد من لا يمتنقه ، والحكم بالموت على من يعتنقه « ويسلك كمن لا يدين به » . وهذا يعني فتح الباب على مصراعيه امام الاستبداد .

ولما كان يقتضي عملياً ، وعلى الرغم من كل شيء ، اصدار قرار بأكثرية الاصوات ، فمن شأن العقد الاجتماعي ان يفضي الى طغيان الاكثريه على الاقليه .

حكم روسو بنفسه على الاهمية العملية التي انطوى عليها عمله في كتبه ومراسلاته . فنصح بصراحة الى احدى السيدات بأن ترسل الى مدرسة داخلية ابناً لها غير قابل للتأديب . وكتب الى احد الكهنة : « اذا كان صحيحاً انك تبليت المخطط الذي حاولت رسمه في « اميل » ، فاني معجب بشجاعتك » . وكتب عن العقد الاجتماعي « انه لا يمكن ان يوافق سوى دول صغيرة

جداً ، كجنيف ، وبرن ، وكورسكا . وكتب في مكان آخر : « ان حكماً على مثل هذا الكمال لا يلائم البشر » . وفي رسالة الى ميرابو ، شبه المسألة التي حاول حلها « بمسألة تريسيح الدائرة في الهندسة » .

إلا أن الجمهور لم يعر اهتمامه التحفظات التي جهل معظمها على كل حال . ففدا روسو لها . وبدل العادات والاخلاق . فاستحضرت السيدات الجميلات اطفالهن إلى مقصوراتهن في الاوبرا لإرضاعهم على مرأى الجماهير وفي وسط عاصفة من التصفيق ، لان روسو أوصى بارضاع الامهات لأطفالهن . وجمعت الفتيات نباتات الحقول لدرسها لان روسو كان يهوى علم النبات .

استوحى «موراني» الحالة الفكرية نفسها، وطلب في « دستور الطبيعة » (١٧٥٥) الرجوع إلى الطبيعة التي تعلم الانسان مشاعية الممتلكات . التملك مصدر كل الجرائم . والشيوعية ستكون عودة إلى العصر الذهبي . وكتب الاب « مابلي » ، تلميذ روسو ، في كتابه « التشريع » ، ما يلي : « اتملمون ما هو مصدر كافة المصائب التي تنزل بال بشرية ؟ انه التملك » . ونصح « بهذه المشاعية المباركة في الممتلكات » ، اي بشيوعية زراعية من شأنها القضاء على الالهواء الانانية وإشعاع الفرائز الاجتماعية . وحاول « مرسيه » ، في روايته التي تتناول المستقبل ، « باريس في السنة ٢٤٤٠ » ، الحد من التفاوت بالزواجات الاكراهية بين الاغنياء والفقراء ، وروج « بريسودي وارفيل » ، الذي سيصبح عضواً في « الجمعية التشريعية » و « جمعية الميثاق » ، الصيغة التي طلع بها « برودون » : « التملك هو السرقة » .

بيد ان أم تلامذة روسو شأنها هو « كانت » . فان « مجاهرة نائب السافوا « كانت » بحقائق الدين ، قد أوسحت له ، بنسبة وحي « هيوم » تقريباً ، ب « نقد العقل البهت » . كما أوسحت له ايضاً بكتابه « نقد العقل العملي » ، واخلاقه ، ودينه ، وسياسته .

حلل كانت الاخلاق للارتقاء إلى مبدئها ، بحسب طريقة نيوتون ، فوجد أنها تسلم كلها بقيمة مطلقة لـ « حسن النية » . « النية الحسنة » هي تصميم على القيام بالواجب فابعد من أعمق اعماق ذاتنا ، شبه بنزعة من طبيعتنا الداخلية الخفية ، او ببداً مطبوع ، كما قال بذلك روسو . يكون الواجب متمماً حين يؤتى العمل بتصميم على القيام بالواجب وحين نحكم في ضميرنا اننا قننا به بحكم الواجب . لا شأن لطبيعة العمل ، وقد نخطيء بالقيام به ، فقيمة العمل لا تتولد من المعرفة بل من الشعور المتكون فينا بقيمته ، ومن الحكم الذي نصدره عليه : فقتل والد عجوز ، بحكم الواجب ، في الألم والقلق الشديد ؛ للاستغناء عن شخص لا يجدي نفعاً إلا بان مجاعة ، حل خاطيء ، ولكنه عمل جيد ادبياً ؛ ومساعدة انسان بالس لضمان جميله نتيجة للأفانية : ان العمل ، المتفق وعلم الاخلاق ، ليس جيداً ادبياً .

الواجب شيء مطلق لا يرتبط بالظروف : « اعمل بحسب مبدأ يمكنك معه ان تبرد في الوقت نفسه ان يصبح سنة شاملة » . هذا هو الامر الجازم ، الناموس الاخلاقي . يكتشف الناموس

الاخلاقي الذي يستخلص المطلق والشامل من كل بواعث الحس . الشعور يبعث التحريك ، يولد « النية الحسنة » ؛ ولكن العقل هو ما يرشد الى الطريق . العقل هو القوة التي تجعل الانسان انساناً . على هذا الاخير من ثم ان يحترم العقل والحرية ، في نفسه وعند الآخرين : « اعمل بحيث تستخدم الانسانية ابدأ في شخصك كما في شخص الغير ، كفاية لا كوسيلة فقط » .

ولكن الانسان متجمل بحس يجب إشباعه ، حتى يصبح هو سعيداً . ولكنه غالباً ما يصبح تعسفاً بخضوعه للقانون الاخلاقي . فمن المرجح من ثم ان له نفساً خالدة وان هنالك الهاً يمنحه السمادة بحسب استحقاقاته . الله هو المشرع الواجب احترامه ؛ العمل الاخلاقي هو في النتيجة العمل الذي يرضي الله ؛ الدين هو التصميم الثابت على تكميل واجباتنا ارضاءً لله . الله هو المبدأ الاساسي الذي يسلم به العقل العملي بدون برهان . الكنيسة هي مجموع الناس الحسني النية . الكنائس هي محاولات مقارنة هذه الكنيسة الشاملة .

على القانون ان يسمى جهده لإرضاء حاجات الانسان وميزتي الحرية والعقل فيه . وعليه ان يحترم المبادئ : « اعمل بحيث تتخذ الانسانية هدفاً لا وسيلة » ؛ و « اعمل خارجياً بحيث يتاح لاستخدام ارادتك الحر ان لا يتنافى ووجود حرية كل فرد بحسب سنة عامة » . هذه المبادئ تضمن للدولة ، التي هي لسان حال القانون ، السلطة القسرية على الفرد ، وحق الفرد في مقاومة الدولة ، وحق التملك الذي يعطي كل فرد نطاق ممارسة حريته . كما انها تستلزم النظام الجمهوري . عندما تتبنى كافة البلدان الدستور الجمهوري ، يصبح باستطاعتها تأسيس جمعية أمم ، وإقرار حق دولي ، وتأمين السلم الدائم .

عارض « كانت » من ثم مونتسكيو والفلاسفة بفكرة المبادئ المطلقة ، المستقلة عن الزمان والامكنة والظروف ، كما عارض الفلاسفة بعلمه الاخلاقي النابع من القلب المستنير بالعقل ، لا من الحواس المرشدة بالعقل .

كان شارحو الكتاب المقدس من الالمان قد عادوا مرة اخرى الى درس سينوزا . كانت ألوهية الكون التي طلع بها ، اي قوله بلاله يتميز بصيرورة دائمة ويظهر في كل الطبيعة ، مصدر وحي لـ « لسنغ » و « هرر » . ارتأى لسنغ ان ما يدعوه البشر حقيقة ليس سوى تعاقب اشكال عابرة لحقيقة تكتشف اثناء تقدمها . وارتأى هرر ان حياتنا نبض في حياة الكل الاعظم ؛ وان تاريخ البشرية هو تعاقب الرسوم الاليجازية التي تقترب بها الطبيعة اقتراباً مستمراً ، بتحول تدريجي ، من المثال الاكمل . لسنا ندرك هذا العمل بواسطة العقل ، بل بحدس ذاتي مباشر . وهكذا فان الفلاسفة الذين اعتقدوا بانهم توصلوا بواسطة العقل الى حقيقة نهائية قد تعرضوا هنا ايضاً لهجمات رأي سيكون له اعظم أثر في العهد اللاحق .

تأسست في هذه الاثناء ماسونية من المهتمين والصوفيين ، معادية للفلسفة الانسيكلوبيدية التي رجتها بالسباب والشتائم . انطلقت موجة صوفية من المانيا وسويسرا واسوج وبلغت شرقي فرنسا وباريس . استوحى هؤلاء الماسونيون العقيدة المسيحية وبحوثاً بمعزل عن كل كنيسة ، عن

اصلاح نفوسهم بالانصال بما هو الهى كي يحبوا بحسب الانجيل . ولكنهم انهمكوا في مناجاة الارواح ، والتدويم المغناطيسي ، والكيمياء ، والسحر ، وهي كلها ممارسات انفت منها الكنائس المسيحية . انبيائهم هم الاسوجي « سويدنبورغ » الذي ناجى الموتى واكتشف « الاسرار السبابة » و « عجائب السقاء وجهم » ، والسويسري « لافاير » الذي اعتقد بإمكان حصوله بالايان على قدرة فائقة الطبيعة ، واتصاله بالله بواسطة التنويم المغناطيسي ، والذي غدا مسكنه في زوربخ ، في السنة ١٧٨٩ ، مزاراً اوروبياً ، والفرنسي « سان مسارتين » ، والفيلسوف المجهول ، « المعادي للملم لان الانسان لا يستطيع اكتشاف شيء ، بل الاستذكار فقط ، وعليه ان يستعمل بحىء ملك المسيح بالتأمل والصلاة (الاضطواء والحقيقة ، ١٧٧٥) . تأسست جمعيات صوفية في المانيا ، جمعية « التقيد التام » التي استألت الامراء والاميرات وحكبار الاسياد ، وجمعية « وردة الصليب » التي كان ملك بروسيا الجديد ، « فردريك - غليوم الثاني » عضواً من اعضائها ، والتي اراد أحد مشايخها ، وهو طبيب عام في الجيش البروسي ، التقاط النيكار بكيفية تكرر بلسم هذه المادة الالوية . وتأسست محافل صوفية في « ليون » ، « وشمبير » ، و « ستراسبورغ » وغرينوبل . وكان كل هؤلاء الصوفيين على اتصال فيما بينهم .

كان هناك إلى جانب الرسل الممخرفون الذين احرزوا النجاحا بباريسيا مدهشا . فخص بالذكر منهم « كالبوستور » الذي استدعى الارواح واسس في ليون محفل « الحكمة الطسافرة » حيث كان التساح ينخطفون امام موسى وابليا اللذين يظهران لهم ، والطبيب الفيني « مسمر » الذي ادعى شفاء كافة الامراض « برعائه الخشي السحري » . انتشر الذومون المغناطيسيون ، والخطون النائمون ، والملممون ، بأعداد كبيرة في كل مكان . وفي الضباب الفكري استسلم بعض الافراد الى نزعات غامضة . فظن كثيرون بانهم اسام ثورة تشق الطريق التي تؤدي الى العالم الثاني ، ولن تلبث ان تقوم بتجديد البشرية .

تحت سائر محاولة في علم الاجتماع ، هي « روح الشرائع » ، « حارب مونتسكيو الرجسبون محاولات الاصلاح . حاول ان يثبت ان الدساتير السياسية ترتبط ، وفاقا لنواميس طبيعية حقيقية ، بظروف الاقليم ، والتربة ، ونوع الحياة ، وطبع الشعوب ، واخلاقها ، ودينها ، الخ . فانخذ من ذلك حجة للتمريض بانه لا يجوز مس الدستور الفرنسي ، وبأن هذا الدستور يعمل من المجالس التمثيلية لياصل شرائع المملكة ومعاوني الملك . عظمم دستوراً يستوحى من دستور الانكليز تقام بموجبه ، بين السلطة التنفيذية التي يتولاها الملك والسلطة التشريعية التي يارسها ممثلو الأمة ، سلطة قضائية يتولاها القضاة وتكون حكماً كحارس للدستور . ودافع عن المذهب الذي عاد اليه ، في السنة ١٧٣٢ ، الكونت « دي بولنفيليه » في كتابه « محاولة في طاعة الاشراف » : الطبقات الاجتماعية الفرنسية اجنساس بشرية ، الاشراف ينحدرون من الناجين الفرنجة ، وعامة الشعب من الغالين المستعبدين ، الاشراف يمتلكون فرنسا بموجب حق الفتح ، في البدء كانت الملكية انتخابية ومحدودة ، وكان على الملوك ان يطلبوا رأي فدائبيهم ،

ثم اغتصبوا امتيازات الاسياد . وطالب مونتسكيو بأن يكون لطبقة الاشراف مزيد من الشأن والأهمية لأنها من صميم الملكية . فكان كتابه ، حتى السنة ١٧٨٩ ، انجيل المعارضة الارستوقراطية الرجعية .

فيتضح من ثم أن فلسفة الانوار ، التي حوربت في كل مكان ، تفهمرت تفهراً تدريجياً في اواخر القرن . كان العالم على مشارف عصر جديد .

الكتاب الثاني

الأنوار والتقنية

بلغ تقدم التقنية في أوروبا ما يميز لنا الكلام عن ثورة حقيقية ، تفوقت أوروبا بالمعدات والتنظيم على كافة أنحاء العالم الأخرى . وتحققت الاكتشافات في أغلب الأحيان على يد حرفيين متهنيين أو هواة استحدثهم الحاجات الاجتماعية ، أو فقدان التوازن الاقتصادي ، أو الأزمات على اختلاف أنواعها . لم تستخدم متطلبات العلم ولم يدرس العلماء المسائل التطبيقية إلا تدريجياً ؛ فالمسحرة ثم الجيوش في النصف الأول من القرن ، والصناعة ، في النصف الثاني منه ، استفادت من الخبرة العلمية ، وفي أواخر القرن بدأ يمكن أن تصبح التقنية بمجوع تطبيقات العلم على الحياة العملية .

إلا أن العلم والروح العلمية لم ينبا قط عن الاكتشافات : فأقل مخترعي الآلات ثقافة قد استخدم بعض الحساب والهندسة ، والمبادئ الأولية لعلوم الميكانيكيات ، واعتمد في عمله ، على علم أو غير علم منه ، طرائق الحكم الشخصي والملاحظة والاختبار ، كما اعتمد مذهب الآلية الكونية . ويمكن القول بصورة خاصة ، نظراً إلى الأزمات التي حدثت في جميع أنحاء العالم ، أن مصدر معظم الاختراعات هو روح القرن بأكملها التي تولف الروح العلمية جزءاً منها : إيمان بالسعادة الواجب بلوغها على الأرض بامضاء الحواس ، بالتقدم المادي ، الذي نرى عقولاً خيرة كثيرة عن النظريات اللاهوتية والتأملات الدينية ووجهها شطر ما هو عملي ومفيد ؛ ويقين كرتزياني ، انتشر واستحدث الجسمود الفردية ، بأن كل شخص يستطيع ، بمجرد العقل الرشيد ، اكتشاف ما فات «الجدود الفلاطونية» ، وأن من لم يتعلم في الكليات والجامعات يحتفظ بعقل سليم لأن هذا العقل لا يكون معوجاً ، «أراء المدرسة» ، ولأن باستطاعة الإنسان تحقيق اكتشافات فضل بقراء الخاصة وحدها ، وحسب من الكتب ، ولا سيما القديمة منها ، وميل إلى التفحص عن الأشياء نفسها ، وزهة أمتها الكرتزيانية والدروس الكلاسيكية إلى الارتقاء في كل شيء عن الرقائع إلى المبادئ البدئية واستخلاص النتائج الواجبة منها وفقاً لترتيب صارم يتحقق في الواقع . وقد لمبت الحاجة إلى الوضوح والترتيب دوراً هاماً في بعض النجاحات التقنية . فباشمتراز ، وأي اشتراز ، فضع المنطقي «ديكودراي» الفوضى القديمة في معدات المدفعية ، وذلك الخرق المرط الذي لم يمكن النظر إليه إلا كما أن نتيجة همجية أبائنا القديمة ؛ وباحتقار ، وأي احتقار

مستشزىء ، وصف «سورلافيل» الفوضى القديمة في كئائب الفرسان : « ان مثل هذه البلبلة اشبه بفوضى البرابرة » . فتحقق معظم النجاحات التقنية بفضل انتشار الروح الجديدة .

بيد ان الانطلاقة الاقتصادية ، على نقىض العلم ، قد تركت اعظم اثر في التقنية . وان لنا في انكلترا ، حيث تحققت اهم الاكتشافات التقنية ، خير مثل على ذلك . توسعت التجارة الانكليزية في ما وراء البحار توسعاً كبيراً بعد الانتصارات الانكليزية ، اي بعد معاهدي او ترخت (١٧١٣) ومعاهدة باريس (١٧٦٣) . قفزت الاستيرادات الانكليزية من ٦ ملايين جنيه ستيرليني في السنة ١٧١٥ الى ١٩ مليوناً في السنة ١٧٩٠ ، كما قفزت التصديرات من ٧ ملايين جنيه ستيرليني ونصف المليون في السنة ١٧١٥ الى ٢٠ مليوناً في السنة ١٧٩٠ . والحال ان ارباح هذه التجارة هي ما يوفر رؤوس الاموال للصناعة . فصناعات الحديد الاولى في جنوبي ولاية «وايلز» هي عمل تجار الشاي وتجار آخريين من بريستول ولندن . ومعظم التجهيز الصناعي في وادي «كلايد» عمل تجار التبغ في «غلاسكو» . وانطلقت التجارة الداخلية بدورها انطلاقة كبرى ، بفضل انشاء طرقا ت حدثت عليها ثورة صامتة ، هي الاستعاضة عن حيوانات النقل بعربات تزيد من حجم النقلات وسرعتها . وافادت التجارة كذلك من فتح الاقنية الذي خفض سعر الفحم المسلم في «منشستر» الى نصفه في السنة ١٧٦١ . هي الاقنية ما اتاح استثمار المناجم والمهاجر والاحراج . وعلى ضفافها قامت الصناعات وتحققت اعظم التطورات في التقنية الصناعية الانكليزية ، عند «ماثيو بولتون» صانع آلات «وات» البخارية ، وعند «صموئيل ووكر» ، متعاطي صناعة استخراج المعادن وتقليمتها ومعالجتها ومجهز الجنود بالعتدة ، وعند «ودجود» الخزاف المبقرى . ولكن ما ترك اثرأ مباركاً في التقنية هو كذلك توظيف الصناعيين لارباحهم في مشاريعهم ، وانخفاض معدل الفائدة الذي هبط من ٥ ٪ في السنة ١٧١٤ الى ٢.٥ ٪ في السنة ١٧٥٧ ، فادى ذلك بالنتيجة الى مضاعفة قيمة رؤوس الاموال المستقرة ، وتزايد عدد السكان الذي ارتفع ، في انكلترا وولاية وايلز ، من ٥ ملايين ونصف المليون في السنة ١٧٠٠ الى ٩ ملايين في السنة ١٨٠١ ، وضآلة عدد العمال الكفاء التي دفعت الى اختراع الآلات .

الفصل الأول

التقنية العسكرية

يجب ان تأتي التقنية العسكرية في الدرجة الاولى لان المعاصرين أعاروها اهتمامهم قبل كافة التقنيات الاخرى . اجل كان هنالك ، في كافة الحماة اوروبا ، اشراف يتصلون بأشراف القرون الوسطى من العسكريين وينظرون الى الجندي كما الى الحرفة النبيلة بالذات . ولكن هذا الالتفات كان تعبيراً عن حاجة دائمة أيضاً : اذ ان الدولة ، بدون جيش قوي ، لا تلبث ان تزول من الوجود . الفن العسكري يستطیع وحده ان يؤمن للشعوب كيانها واستقلالها وأمنها ، اي المصالح التي لا مسافع بدونها . الحرب الاولى هي حرية الدولة ، اذا تعرضت هذه الاخيرة للاخطار ، لا تكون حريات المواطنين سوى وهم باطل .

ان تاريخ التقنية العسكرية في القرن الثامن عشر هو تاريخ « التقديمات المتتالية »
الحقيقة في حقل فن الحرب في سبيل استخدام البندقية والمدفعية الصغيلة خير استخدام . اخترعت البندقية في القرن السابق . استخدمت في المانيا منذ السنة ١٦٨٩ وفرض استخدامها في فرنسا منذ السنة ١٦٩٩ ، فحلت نهائياً محل البندقية القديمة ذات الفتيلة في السنة ١٧١٥ ، واغتت عن فرق حاملي الخراب بفضل الحربية ذات « ماسورة الوصل » المتبعة لها . لم تكن ابعاد رمي من البندقية القديمة : ٣٠٠ خطوة كحد اقصى و ١٨٠ خطوة لتأتي بلقادة . ولكنها كانت اخف واسهل استعمالاً . وبفضل طريقة اشعال النار فيها بواسطة زناد مزود بمسواة ، لم تشكل خطراً على الجارين بل اتاحت للجنود اطلاق النار مقربين بعضهم من بعض ، يضاف الى ذلك انها كانت اسرع حشواً . فمنذ السنة ١٧١٥ ، بات باستطاعة الجندي اطلاق النار مرة كل دقيقة . وفي السنة ١٧٤٠ اتاح اعتماد القضيبي الحديدي ، وهو اصلب من القضيبي الخشبي القديم ، حشو البندقية بالبارود والرصاص وما يفصل بينها دون احتياطات كبرى ، كما اتاح توفيراً في الوقت ، فانتقلت سرعة اطلاق النار الى طلعتين او ثلاث في الدقيقة . وفي السنة ١٧٤١ ، تمكن الجندي ، بواسطة الخرطوشة ، من ان يطلق ثلاث طلقات كل دقيقة في اي وقت من الاوقات تقريباً .

كانت المدفعية مؤلفة من مدافع برونزية ، صقيلة من الداخل ، تحشى المدفع الصقيل من فوهتها بعبارات ٤ و ٨ و ١٢ و ١٦ و ٢٤ و ٣٣ لبرة لاطلاق القذائف بخط مستقيم ، ومن مدافع قصيرة للاطلاق المنحني ، الضروري ضد الجيوش المتمركزة وراء المتاريس او في الخنادق . وكانت تقذف بمعدل ثلاث مرات في الدقيقة للمدافع من عيار ٤ لبرات ، او مرة او اثنتين للمدافع الاخرى ، قذائف حديدية كروية او مستطيلة ، ملأى او فارغة ، وعلباً من التنك تتمزق في الهواء وتقطر على العدو القطع الحديدية المحشوة بها . تراوح مرمى القذيفة بين ٦٠٠ و ١٨٠٠ متر ، والقطع الحديدية بين ١٥٠ و ٦٠٠ متر . كانت القذيفة من عيار ٤ لبرات تخترق بين ٦ و ٨ اشخاص على مسافة ٣٠٠ خطوة . وزاد المدفعيون من فعالية القذيفة يجعلها تثب بعد اصطدامها بالارض بفضل احناء المدافع احناء معيناً ؛ وكان من شأن القذيفة ان تثب خمس او ست وثبات بين صفوف المشاة وتحدث خسائر فادحة . ولكن هذه المدفعية كانت عادمة الضبط جداً ؛ فالانحراف عن الهدف كان يبلغ سدس المسافة . وكان ممكناً ، بحسب العيارات والمسافات ، ان تسقط القذيفة بين ٥٠ و ١٥٠ متراً امام او وراء الهدف . وكانت المدفعية بصورة خاصة ثقيلة جداً ؛ فالمدفع من عيار ٤ لبرات كان يزن ٦٥٠ كيلوغراماً ؛ والمدفع من عيار ٣٣ لبرة ٣٠٨٥ كيلوغراماً . وكان يقتضي لجرها حيوانات مقرونة قوية . وبعد ان توزع المدفعية على مراكزها ، المدافع الخفيفة والمتوسطة صفاً واحداً في الجبهة ، والمدفعية الثقيلة مجموعة في كلا الجانبين لتشبيك نيرانها امام الجبهة ، لا تتحرك الا في ظروف استثنائية نادرة . لم يكن باستطاعتها مرافقة المشاة في حركتهم الاندفاعية الى الامام ، وكانت تتوقف عن مساندتهم حين تصبح الحاجة الى نيرانها ماسة جداً ؛ كما لم يكن باستطاعتها اللحاق بهم في حال تراجعهم ، فيستولي عليها العدو دونما صعوبة .

اصبح الجندي الراجل ، منذ ذاك التاريخ ، سيد ساحة المعركة : الحرب
رصاصته تخترق آلات الوقاية المعدنية وترغم الفارس على البقاء بعيداً في السنة ١٧١٥
ريثاً يتاح للجيش مواجهة هجوم جانبي مفاجيء ؛ يتمتع بسرعة الحركة التي لا تتوفر لمدفعية يجمدها ثقل وزنها في الارض ؛ الخيالة والمدفعيون لا يعملون الا لأجل المشاة : انهم معاونوهم . فرق المشاة سيدة المعارك . كان من شأن البندقية ، منذ السنة ١٧١٥ ، وحتى قبل هذا التاريخ ، ان تقلب فن الحرب رأساً على عقب . وانما توجب مرور قرن كامل تقريباً للاستفادة من نتائج الاختراع الجديد ، وهو نابليون بونابرت فقط من اوصل التطور البادى الى كماله .

في السنة ١٧١٥ ، كان الجيش ينظم صفوفاً في ساحة الوعى لمعاركة الاعداء بالاسلحة النارية . لفت انتباه القادة العسكريين سرعة اطلاق النار بالبندقية . فوضعوا نصب اعينهم اقامة ما يشبه سمطاً من الرصاص ، امام المشاة ، لايقاف العدو في حالة الدفاع ، ولايقاع الاختلال في نيرانه وإتاحة التقدم ، في حالة الهجوم . كان على المشاة ، عند تلقي الامر بذلك ، ان يطلقوا نيرانهم

في آن واحد دونما تسديد تقريباً ؛ فالجواهر لم يكن الضبط ، بل السرعة ، لاقامة سور من نار .
نظم القادة من ثم فرق المشاة ، في ساحة الوعى ، صفوفاً طويلة متوازية في وجه العدو . إلا أنهم
ابقوا على تنظيمات لم توجد إلا لاسلحة أخرى . فكما فعل اسلافهم ، في زمن البندقية القديمة ذات
القتيلة ، نظموا الجنود ستة صفوف على اربع أو خمس خطوات بين الجندي والجندي وبين الصف
والصف حتى يستطيع كل صف إعادة حشو . للاحه بينما تطلق الصفوف الاخرى نيرانها الواحد
بعد الآخر ؛ ولم يكن من حاجة لكل ذلك بعد أن تأمنت سلامة الاطلاق وسرعته بواسطة
البندقية . وأرادوا جيشاً منظم الصفوف ، فمسا في زمن السلاح الابيض عندما كانت فعالية
الصدام تستلزم ان يواجه الصف كله الصف العدو في آن واحد . واستمروا في تحريم عكس
نظام الصفوف : لم يسمح قط بأن يوضع الى الشال جنود تعودوا البقاء الى اليمين ، وأن يوضع في
الصف الاول جنود كانوا عادة في الصف الثاني ، وهو تقليد يعود الى زمن لوجب فيه وضغ
الرجال الأقوياء في المقدمة لاختراف صفوف الاعداء . فتجيم عن ذلك بطء عظيم في اصطفاف
الجيش للقتال ، وتظم صفوف الجنود وفقاً للمسافات المطلوبة ؛ وحاجة الى الانتظام بعيداً عن
العدو ، الانتقال الى ساحة الوعى عبر الارياف في مسيرة لا يفوت العدو سرها ؛ واستحالة إرغام
العدو على الاقتتال اذا مسا هو أراد الانسحاب ، لان المحافظة على تنظيم الجنود وفقاً للمسافات
المعروفة توجب السير ببطء والتوقف مراراً ، فيتمكن العدو ، في هذه الاثناء ، من الاعتماد
صفوفاً طويلة ضيقة بسرعة المشاة العادية ؛ واستحالة المناورة في ساحة المعركة ، واستحالة
مطاردة جيش الاعداء وسحقه ، وبالتالي الاضطرار الى اعتماد « استراتيجية اللواحق » أي الى
مهاجمة مستودعات العدو ومصادره الحربية وطرق مواصلاته وكافة المدن الحصنة ، الى أن
يعجز جيش الاعداء عن التمويه والانتقال ؛ وحرب بطيئة جديدة ، لا نهاية لها . وكانت النتيجة
الاولى لتحصين المتاد لتجسيم نواقص الجيوش القديمة . فان الصفوف الطويلة في اوائل القرن الثامن
عشر كانت أقل مقدرة على المناورة منها في جيوش نورين وكوننبره .

ثم البروسيون من ادخلوا التحسينات الاولى . كانت الحرب صناعة بروسيا
الجيش البروسي الوطنية ، وكانت نخبة البروسيين تقف ذاتها على الفن العسكري . تحقق
معظم التقدمات الرئيسية في عهد « فردريك - غليوم الاول » ، « الملك الرقيب » (١٧١٣ -
١٧٤٠) ، على يد احد خبراء الحروب لوبس الرابع عشر ، الامير « دانهايت - دشو » . منذ
السنة ١٧٢٠ ، اعتمد الجيش البروسي رسمياً بعض التدابير العسكرية التلقائية التي اعتمدها
الضباط والجنود في ساحة المعركة في السنوات الاخيرة من حرب وراثية عرش اسبانيا ؛
والاصطفاف الدقيق ، والاصطفاف المرموض ، ، نظم الجنود ثلاثة صفوف فقط ، جنود
الصف الاول جاثين ، وجنود الصف الثاني واقفين متجهين ، وجنود الصف الثالث واقفين مستقيمين ،
يطلقون نيرانهم ثنائياً . وقد سبق لهذا التنظيم ، الذي فرضه عدد الجنود المحدود في اعقاب
الحاسائر الفادحة ، ان تمت كفافه ، على الرغم من الاصطفاف والدقيق ، بفضل البندقية .

فأتاح ، بعدد أقل من الجنود ، حماية جبهة طويلة والحؤول دون اندفاع العدو بأعداد كبيرة . ورصد الصفوف بحيث تماس المرافق مسافة ، وتماس الركبة حربة الجندي في الصف الامامي ، رغبة في مضاعفة كثافة النيران . فسهلت بالفعل نفسه عمليات الاصطفاف والانتقال من الصف سلفة سلفة الى نظام خط الجبهة .

كان المشاة البروسيون يملفون ساحة المعركة صفوفاً طويلة ضيقة ويحاربون الخط الذي سيلتشدون عليه صفوفاً متوازية في وجه العدو . وفي الصف الطويل ، تفصل بين الفرق ، المنظمة مسبقاً وفاقاً لمراكزها ومراكز افرادها في الجبهة ، عن الفرق السابقة مسافة تعادل المسافة التي ستحتلها في الجبهة : وهذا ما يعرف بالصف الطويل ذي المسافة الكاملة . ثم يتوقف الصف الطويل هذا . فتصبح كل فرقة امام العدو ويحتل افرادها مراكزهم في الصفوف بحركة تحويلية ذات مدار ثابت يدور فيها أحد الجناحين بينما يبقى طرف الجناح الآخر في مكانه . وقد سهلت هذه الحركة الخطوة الموزونة . وبعد الاصطفاف للمعركة يتسلم كل زعيم (كولوونيل) « وجهة نظر » يوجه إليها علمه ، براقبة بمباشي (ماجور) ، فتحتفظ الاعلام ، وبالتالي الفرق ، بصف مستقيم دقيق . وكان الهجوم يشن مشياً لا ركضاً ، رغبة في المحافظة على ضبط الصفوف ، تطلق فيه النيران على دفعات منتظمة ، بأسناد مؤخرة البندقية الى الخاصرة رغبة في كسب الوقت والحيلولة دون حدوث الكتف (اطلاق المرشة) . وعلى بعد ٢٠ خطوة يطلق المشاة نيرانهم مرة اخيرة على العدو ويهجمون عليه بالحرا ب ، إذا هو لم يتقدم بعد ، ويزيد من أثر نيران المشاة استخدام المدافع الخفيفة أو المدافع الاسرجية التي كان باستطاعة المشاة اطلاق نيرانها باليد ، والتي كانت تحتل المسافات الفاصلة بين الفرق . وأهملت المدافع الثقيلة من عيار ٣٣ لبنة . واستعملت المدفعية البروسية المنهضة ، والفشكة ، أو خرطوشة المدفع ، واشتملت على نسبة كبيرة من المدافع القصيرة . أما الفرسان البروسيون ، الذين توزعوا كواكب كبيرة على صفين ، فكانوا أول من اعتمد الكرة قاصداً رغبة في التخلص من نيران العدو في اقصر وقت وفي مضاعفة قوة الاصطدام . يندفعون لمحو جاني العدو بعد ان يكون قد اضعف بنيران البنادق والمدافع . دفاعهم نيران ثابتة ، وهجومهم نيران متحركة الى الامام .

اما فردريك الثاني (١٧٤٠ - ١٧٨٦) ، الذي استخدم جيش ابيه ، فقد اخطأ باعتياده السلاح الابيض دون غيره ، وبإصدار الاوامر للجيش بالهجوم دون اطلاق النار ، رغبة منه في سرعة تقدمها . ولكن جيوشه أوقفت ابدأ بنيران العدو بعد تكبد خسائر فادحة بالارواح لا سيما بين الضباط . لذلك لم يلبث ان تخلى عن خطة الهجوم بهذا السلاح . وقد كتب في السنة ١٧٦٨ ، في « وصيته العسكرية » ، « هذه الجملة الفصل : « إنما تكسب المارك بتفوق النيران » . وبلغ من اقتناعه بذلك انه سير مع طلائع الجيوش مجموعات كاملة من المدفعية تضم مدافع ثقيلة من عيار ١٦ و ٢٤ لبنة . فكانت النتيجة ان هذه الطلائع لم تتوقف أمام القرى المحصنة التي كان باستطاعتها قهرها بالمدفع ، بينما كان مشاة الامم الاخرى يوقفون اندفاعهم ويمنون بالخسائر امام

الحنادق والمتاريس . وكان أهم ما أدخله على فن الحرب الاستماعة عن « الاصطفاغ المتوازي » « بالاصطفاغ الأزور » . فحاول ، في كل المعارك تقريباً ، تسير فرقه على طريقة الادراج ، أي انه ، إذا ما كان مصمماً على التوصل الى نتيجة لجهة الشمال مثلاً ، يحمل الفيلق الشمالي الاول متقدماً بعض التقدم على الثاني ، والثاني على الثالث ، وهكذا دواليك ، بحيث يكون كل فيلق منحرفاً بعض الانحراف عن الفيلق السابق من الشمال الى اليمين . ويعجز العدو ، بسبب الصفوف المروصعة ، عن تمييز التباين في الابعاد ، ويلتظر الجيش البروسي ، كالمعتاد ، على جبهة موازية لجبهته . فيتوقف البروسيون فجأة ويصطفون بسرعة في جبهة « زوراء » بالنسبة لجبهة العدو ، بينما يضع فردريك فرقه الاحتياطية وراء الجناح المتقدم فيصبح اعظم قوة من العدو في هذه النقطة ويستطيع مهاجمته بأعداد كبيرة والالتفاف حواليه والتغلب عليه ، فلا يستطيع العدو القيام بأية حركة باتجاه الجناح البروسي الضعيف ، وليس له متسع من الوقت لاعادة تنظيم صفوفه ومواجهة الهجوم الجانبي .

كان اثر البروسيين كبيراً في جيوش الاعداء بفعل انتظام انطلاقات نيرانهم وسرعة حركاتهم . فلم يكن نادراً ان تحتل صفوفهم الطويلة مراكزها في الجبهة في عشر دقائق . وترد هذه السرعة المدهشة الى الدقة في اعداد كافة الحركات مسبقاً وإلى طول الاناة في تلقينها الجنود . فيصبح الجنود أشبه بالآلات متحركة قادرة على القيام بحركاتها المعتادة بكل سرعة وفي اية حال من الاحوال . وقد درج فردريك الثاني على مقارنة حركات الجيش البروسي بحركة مجموع دواليب ساعة متقنة الصنع . وهكذا تمكن البروسيون من التغلب على اعدائهم بسرعة حركاتهم والمحافظة على نظام تام في اشد الظروف حرجية . فاستفاد فردريك الثاني ، القائد المبصري ، خير استفادة من هذه الاداة .

لم يلبث النمساويون ، والامراء الالمان ، والهانوفريون ، والهولنديون ، والانتكيز الذين كان ملوكهم امراء هانوفريين ، ان اقتبسوا عن البروسيين الصفوف الدقيقة والصفوف المروصعة واطلاق النيران دفعة واحدة . اما الفرنسيون فقد استخدموا الصفوف المروصعة في وقت مبكر نسبياً ، ولكنهم لم يمتدوها رسمياً الا في السنة ١٧٥٠ .

وجملة القول ان البروسيين لم يستحدثوا جديداً يذكر . قاموا خير قيام بحركاتهم ولكن حركاتهم لم تكن خير حركات . لم يحنوا من البندقية الفوائد التي كان بالإمكان جنيها منها . فنادرأ ما يأتي اطلاق النيران دفعة واحدة بالنتيجة المتوخاة ، الا على مسافة قريبة جداً ، لأن الجندي يهتم لاطلاق النار في آن واحد مع رفاقه ، لا لقتل العدو ، مع ان قتل العدو هو الممول عليه . « يستحيل على الجندي ان يحسن التسديد إذا ما اضطر الى إغارة انتباهه امر القائد » (موريس دي ساكس) . وكان الصف الثالث دون فائدة . والاصطفاغ الدقيق المستقيم كذلك ، بالإضافة الى صعوبة المحافظة عليه ، لان دخان المدفع كان يحجب الاعلام . ويكون

الاصطفاف الدقيق ذا فائدة في الارض المنبسطة بصورة خاصة . ولم يدخل البروسيون تحسينات تذكر على المدفعية . وقد اصر فردريك الثاني ، على الرغم من سيدلitz ، على ان يكرر الفرسان « بشكل سور » ، متراصين عند الانطلاق ، السوقاء بمحاذاة السوقاء . ولكن حركة تمايل الحصان القامص تستلزم للفراس مكاناً ارحب منه في سير الحصان العادي . وكم من مرة اضطر بعض الفرسان المتراصين ، الذين القوا ارضاً عن سروجهم ، الى الخروج من الصف وتقدم الآخرين ، او ايقاف مطاياهم ، ففقد الصف قدرته على الاصطدام .

تحققت اهم التقدمات على يد النمساويين ولا سيما على يد الفرنسيين . وهي النقائص التقدمات السابقة وسيئاتها ما حركت عبقرية هؤلاء الآخرين النمساوية والفرنسية الابتكارية . قنط الفرنسيون من بلوغ كال رماية الجيش البروسي وحركاته . ورأوا ان هذه التمارين الدائمة الدقيقة ، وهذا الاعداد لكل حركة ، وهذا الصبر ، وهذه الآلية تتنافى كلها « وعبقرية الامة » . سلموا بانهم لن يتفوقوا في هذا الميدان ، فبحثوا عن الاعاضة من دوليتهم بتحسينات وتجديدات تكتيكية وخلقوا جيش نابوليون .

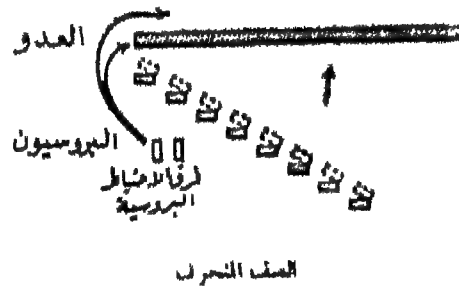
العدو البروسيون

الانتقال من صف السير الى صف الحكومة

كانت لهم حرب وراثة عرش النمسا (١٧٤٠ - ١٧٤٨) وحرب السنوات السبع (١٧٥٦ - ١٧٦٣) مدرستي ملاحظة وتفكير افضتا الى صدور ابحاث عديدة ، وكتب ، وقوانين ملكية تنظم تعليم الرماية والمناورات والقتال . ولكن القوانين تأخرت في تسجيل الاكتشافات لأن الوزراء ، البعيدين جداً عن ساحات المعارك ، لم يعرفوا دائماً تمييز الآراء المنطبقة على الوقائع في غمرة المشاريع المقدمة . اما اهم المبتكرين فهم : موريس دي ساكس بطل معركة «فونتنوا» الظافر الذي اوجز خبرته في كتابه «تأملات» ، والمارشال «دي برويل» ، الأول بين قادة حرب السنوات السبع الذي خلف للفرنسيين ذكريات سيئة جداً ، مع ان القادة الفرنسيين برهنوا فيها عن موهبة ابتكارية وقدرة على التجديد كانت سبباً من اسباب الاخفاقات ، لانهم ، مع رؤوسهم ، طالما تلمسوا طريقهم في استخدام طرائق جديدة هي عنوان مجد وفخار ، والكونت « دي غيبير » ، الذي كان ابن معاون المارشال « دي برويل » ، وشهد بنفسه الفصول الأخيرة من حرب السنوات السبع ، والف « محاولة عامة في فن الحرب » نشرت في السنة ١٧٧٢ وتأثر بها بوناپرت ، واخيراً المدفعيان « فالير » و « غريوفال » ، والغارس « دي تيل » . كانت الملاحظة والاختبار خير الاساليب التي انتهجها كافة هؤلاء الرجال العظام . « يجب الرجوع ابدأ الى الاختبار ... حتى إذا أدت البرهنة ظاهراً الى نتائج ثابتة جداً » . ان ما لم تعلمه الحرب قد روقب بعناية في مناورات شهيرة قام بها المشاة في معسكر

« فوسيو » (١٧٧٨) ، وفي معنقي ستراشبورغ (١٧٦٤) و « مويوج » (١٧٦٦) اللتين
نزلتا بالمدفعية ، وفي تمارين الفرسان في ماز (١٧٨٨) ، وكان غيبير أول من عين بدقة
الوقت الذي يستغرقه إطلاق النيران ، ومن فسكر بدرس الحركات وتماقها كي يختار منها
ما يعطي خير نتيجة .

من هنا لبث الظهور ان لاسطوا صعوبة انتشار الجيوش والمهاجمة بصفوف
الاصطفاء العميق . منظمة . لتبادرت الى الذهن فكرة مفاجأة العدو بكثرة قوية قبل ان
ينظم صفوفه للمركة ، او بين تارين كثيفتين ، اي صدرأ وفي صفوف طويلة ، بغية تجنب
الانتشار والسير بمزيد من السرعة . كان مفروضاً ان تتقدم الحركة على النار . اوصى الفارس
« فولار » بالصف الطويل ، اي « بالاصطفاء العميق » في كتابه « مكتشفات جديدة في فن
الحرب » (١٧٢٤) . وانما حدثت في ذهن هذا الجندي الممتاز ، على الرغم من انسه شاهد
الحرب ، ظاهرة قد يسمح تكررها الدائم بعد النزاعات المسلحة بان يجعل منها قانوناً : اعني
احمال النار . اراد اصطفاً طويلاً يضم بين ٣٠ و ١٨٠ صفاً من الجنود المرازسين يكون بعضهم



مسلحين بالحرب لثق صفوف المدور بالاصطدام . و ان قوة الوحدة الحقيقية تكن في سماكتها
واحاط صفوفها ووحدها وراسها . تتلخص عليه تلامذة متحمسون على الرغم من خشية
الحروب . فقام المركيز « دي سيلفا » بحساب طويل جداً استلزم ست صفحات لتقدير القوة
الحية التي ينطوي عليه صدام الصف الطويل . وعلى الرغم من خشية الحروب ، عاد « مسنيل -
ديران » ، في السنة ١٧٥٥ ، الى رأي فولار في كتابه « مشروع تنظيم فرنسي في فن الحرب » ،
وعاد اليه مرة اخرى في السنة ١٧٧٧ . وقد عني ذلك القائلون برأي فولار في اعتبار الكثرة
بالسلاح الابيض تنطبق وحدها على المزاج الفرنسي ، واهتموا غيبير باحتذاء مشال الاجنبي ،
والتخليق باختلاف للبروسيين . وكان مقدراً للجمهورية الثالثة ان تشاهد تجدد هذه المنازعات
قبل السنة ١٩١٤ .

اما في الواقع فاذا كانت فكرة مجموع الصفوف العميقة بالحرب فكرة صائبة ، فان هذا
المجموع - كما كان ليصبح ممكناً بشكل الصفوف العميقة الذي نادى به كل من فولار ومسنيل -
ديران . الصفوف الكثيرة لا تجدي نفعا : اذ ان الصف الاول هو وحده ما يحمل عبء الصدام .

جنود الصفوف الأخرى لا يضيفون أية قوة ولا عمل لهم في المعركة بالسلاح الأبيض سوى الحلول محل الجنود القتلى أو الجرحى . ان مثل هذا المجموع معرض للفناء بنيران العدو . ولا يستطيع الضباط ، في مثل هذا التنظيم ، قيادة وحداتهم كما تجدر القيادة . ولن تلبث الصفوف ان تختلط ، والجيش ان يصبح قطعياً . زد على ذلك اخيراً ان مثل هذا الاصطفاف العميق لا يصلح لاية حركة باستثناء السير الى الامام . فكل مناورة مستحيلة وكل تراجع مستحيل . وقد تناوله غيبير بنقد حاسم :

« كل النواميس الطبيعية المتعلقة بحركة الاجسام واصطدامها تصبح اضغاث احلام حين يراى تطبيقها على فن الحرب ؛ فليس بالامكان اولا تشبيه الوحدة العسكرية بكتلة جامدة لانها ليست جسماً مترافقاً خلوها من الفجوات ؛ وثانياً ، ليس في الوحدة التي تهاجم العدو سوى جنود الصف الذي يتصل بالعدو من تتوفر فيهم قوة الصدام ؛ فكل من وراءهم يعجزون عن التراص والاتحاد اللذين تتميز بهما الاجسام الطبيعية ، ويفقدون بدون فائدة ولا يصدر عنهم سوى الفوضى والوضواء . ولو فرضنا ، ثالثاً ، امكانية حدوث هذا الصدام المزعوم بمساهمة كافة الصفوف ، فان وحدة مؤلفة من افراد يقدررون الخطر ويشعرون به ، اقله تقديرأ وشعوراً آليين ، لا تخلو من بعض الارتخاء والانقسام في ارادات الافراد ، مما يؤدي بالضرورة الى البطء في تقرير السير وقياس الخطوة ، فليس هناك من ثم من كمية حركة كاملة ، وليس من حاصل حجم وسرعة ، وليس من اصطدام ، لان الاصطدام يفرض ان تستمر السرعة ، بعد احداثها في الجسم المتحرك بالعة المحركة ، حتى اللحاق بالجسم المصدوم ... »

« يندر ، او بالأحرى ، لا يحدث البتة ان تنتظر [وحدات المشاة] بعضها بعضاً بحيث تتصادم وتتشابك بالحراب » . اذا لم يتوقف المهاجم بفعل النيران ، فان المهاجم يتراجع في الوقت اللازم قبل ان يقارب منه العدو .

النيران الاختيارية
نُبّه الجميع بقساوة الى فاعلية النيران في معركة « دنتجن » التي قاتل الفرنسيين فيها ملك انكلترا جورج الثاني على رأس مجندين ألمان وانكليز (١٧٤٣) . فقد روى احد الضباط الفرنسيين ما يلي : « كان مشاتهم مترافقين يبدوون وكأنهم سور من قلز تنطلق منه نيران من الحدة والتواصل ما جعل قدامى الضباط يعترفون بأنهم لم يشاهدوا مثلاً في يوم من الايام » . كانت الحسائر الفرنسية فادحة جداً ، وزوال الوم شديد المرارة على انصار السلاح الأبيض . وجاءت معركة « فونتنوا » (١٧٤٥) تؤيد الواقع : فان وحدة الحرس الفرنسية التي كادت نيران الانكليز على مسافة ٣٠ خطوة قد لاذت بالفرار ؛ اما شرذمة « اوبثير » التي استبسلت في صمودها فقد خسرت نصف جنودها . فكانت النتيجة حاسمة : النيران هي الجوهر ، وهي تتفوق على الحركة . وبرهنت النيران المطلقة دفعة واحدة ، من مسافة قصيرة ، عن انها فعالة جداً ايضاً . ولكن هذه الممارك اوحى بما اثبتته غيرها فيما

بعد : حين كان المشاة الانكليزي والهانوفر يون ، وحتى البروسيون ، يرون العدو وقد بات قريباً جداً منهم ، كان يستحيل على الضباط إرغام رجالهم على انتظار الامر لاطلاق النار . ففقدت النيران ما في تعاقبها من جمال واصبح اطلاق النار اختيارياً . ولكن هذا الانطلاق برهن عن انه اقل وأقل من الاطلاق الموحد لان الجنود يحصرون مهم حينذاك في ضبط التسديد بغية منع العدو من ادراكهم . فهم لا يطلقون نيرانهم للكس كما في النيران الموحدة ، بل للقتل . فأخذ الفرنسيون يعتمدون تلقائياً النيران الاختيارية وقد اوصى بها غيبير بالحاح . واخيراً أقر قانون السنة ١٧٧٦ رسمياً النيران الاختيارية بعد النار الموحدة الاولى .

جنود الطليعة
اثناء هذه الحروب ، لاحظ المحاربون فاعلية نيران الجنود المسلحين سلاح خفيف والمتناثرين امام جبهة الجيوش ، اعني بهم جنود الطليعة . كان السباقون الى استخدامهم النمساويين الذين غرروا ساحات المعارك بجنود الطليعة من الكرواتييين . كان هؤلاء الرجال الموزعين هنا وهناك ، وراء الاسيجة ، والسواقي ، والاشجار المنفردة ، والادغال ، والمرتفعات ، يطلقون النار على صفوف المشاة ، ويشددون الضربات ، ويحندلون الضحايا ، ويلشرون الفوضى في الصفوف ، ويزعزعون معنويات المهاجم ، بينما هم يستخدمون طبيعة الارض فلا تلتحق بهم نيران صفوف المشاة كبير اذى ، ثم يلسحبون وراء صفوف مشاتهم ، حين يبلغ العدو مرمى بنادق هؤلاء . وكانوا يطلقون النيران على المدفعيين الاعداء ويشوشون نيران المدفعية . كما كانوا يفتكون جانبياً بفرسان العدو المهاجمين على الفرسان من مواطنيهم . ولم يلبث موريس دي ساكس ان رأى ان باستطاعتهم ، بفضل تسديد نيرانهم ، الشبيهة « بنيران القناصين » ، شل حركة وحدة محاربة ، الشيء الذي ساد الاعتقاد حينذاك باستحالته على غير وحدة محاربة بفضل النيران الموحدة . ففي قوتنتوا تمكن افراد سرية « غراسين » الـ ١٢٠٠ الموزعين جنود طليعة في غابة « باري » ، من ايقاف سيل فرقة « انغولدسبي » . اجل لقد جرى ذلك في ارض ذات كسور . ولكن في روكو (١٧٤٦) وزع موريس دي ساكس سريتي « غراسين » و « لامورليير » جنود طليعة في ارض مكشوفة لجهة جناحه الايمن ، فتجاوزوا قرية « آنس » وأثاحوا الاستيلاء عليها . فأكثر الجيش الفرنسي منذ ذلك الحين من استخدام جنود الطليعة هؤلاء ، « القناصين » ، وكان استخدامهم متفصلاً و « اندفاع وتزق » الفرنسيين . وخلال حرب السنوات السبع ، استخدمهم « ديرويل » باستمرار بغية اعداد الهجوم بالسلاح الابيض ، وتجنب طغيان العدو على جناحيه ، وتغطية انتشار الجيش ، والدفاع عن الغابات ، والقرى ، والرياض ، والبيوت المنفردة . وتوفق اخيراً الى التغلب على مقاومات الوزراء ، واستحصل في السنة ١٧٦٦ على نص رسمي باحداث فوج قناصين في كل سرية ، واستخدام قرابة ٦٠ جندي طليعة في كل فوج ، وعلى نص آخر في السنة ١٧٨٤ باحداث افواج من القناصين المشاة بلغ عددهما ١٢ في السنة ١٧٨٨ . في هذا التاريخ جاءت حرب اميركا ، وقضاء المزارعين الاميركيين على فصيحة انكليزية في لكسنتون ، واستسلام صف

طويل من الجنود الانكليزي في « ساراتوغا » ، تثبت قيمة قتال جنود الطليعة . فاكشف بالفعل نفسه خير استخدام للبندقية .

الا ان فعالية النيران كانت قد ارغمت على اللجوء الى صف الهجوم . ففي صف الهجوم مهاجمة اهداف جبهة محدودة ، كمدخل قرية ، او مدخل طريق حرجية ، او مجاز ، او ثلثة او زاوية في متراس ، وجب تفضيل الصف الطويل لأنه لا يعرض العديد من الجنود ، في آن واحد ، لنيران المدافعين ، ولأنه أكثر موافقة للتقدم نحو الهدف وداخله . استخدم موريس دي ساكس صفوفاً طويلة لمهاجمة المواقع في « روكو » و« لوفلد » ؛ كما استخدمها برويل لمهاجمة الغابات والمتراس . زد على ذلك ، من جهة ثانية ، انه بدلاً من ان يؤلف صفوفاً أخرى من فرقته الاحتياطية ، غالباً ما تركها صفوفاً طويلة ، لان الصف الطويل اسرع انتقالاً من الصفوف المتوازية ولان ذلك يسهل عليه نقل فرق الاحتياط بسرعة الى مكان استخدامها . ولكن القادة واجهوا حينذاك مسائل شكل الصف الطويل والتقدم نحو الهدف وانتشار الجيوش ، مع المحافظة على الصفوف المتوازية ، في اطراف الغابات او في السهول بعد الاستيلاء على الهدف ، للحيولة دون هجوم معاكس يقوم به العدو ، لان الصفوف المتوازية أكثر موافقة للدفاع من الصف الطويل .

بيد ان الصف الطويل المعتمد لم يكن ذاك الذي قال به فولار ، والذي لم يتجاسر أي ضابط على المجازفة باعتماده بعد الكارثة التي حلت بالصف الانكليزي في فونتينوا ، والذي اثبتت التجارب المجراة في معسكر «فوسيو» عدم اهليته للمناورة ؛ بل صف السير البسيط ؛ وهو يؤلف من صفوف متوازية لا يتجاوز الواحد منها الاربعة جنود ؛ وتفضل بين الفرق مسافة عدة خطوات لتجنب الوقوف الفجائي بفعل عدم انتظام سير المقدمة الذي تسببه طبيعة الارض أو نيران العدو . كان مثل هذا الصف الطويل سهل القيادة ، والاضعاع للنظام ، والقيام بالمناورات . يسير بخطى حثيثة ، لا بل عدواً اذا مست الحاجة . يتقدمه جنود الطليعة الذين لا يتوارون إلا في ساعة متأخرة من الليل ، ويحيط به حتى مرمى بنادق العدو مشاة مصطفون صفوفاً متوازية يصوبون بنادقهم إلى الفرجات والنوافذ والأدغال وكل مكان آخر تنطلق منه النيران لإبعاد نيران العدو ومنعه من ضرب الصف الطويل . النيران تعد الحركة وتراقبها . وبعد الاستيلاء على الهدف ، ينتقل جنود الطليعة الى المقدمة ويؤلفون ستاراً . ينتشر الصف الطويل صفوفاً متوازية على طول الجبهة التي يتوجب عليه الدفاع عنها بمجرد دوران كل جندي الى اليمين (أو اليسار) ، دونما حركة محولية . واذا كان على الصفوف المتوازية السير مجدداً في صف طويل ، يدور الجنود الى اليسار (او اليمين) ، وتسير الفصيلة التي تحتل المقدمة وتبدل اتجاهها نحو العدو ؛ وتسير كل من الفصائل الأخرى بدورها ، وتحتل مركزها وراء الفصيلة السابقة ، على مسافة خطوات معدودة ، بعد أن تكون قد سلكت أقصر الطرق في انتقالها . لا شأن بعد اليوم لعكس المراكز . يحتل الجنود والوحدات المراكز التي تليها الظروف . وهكذا بات

الانتقال من الصف الطويل الى الصفوف المتوازية ومن الصفوف المتوازية الى الصفوف الطويلة عملية بسيطة وسريعة جداً .

اعتمد المارشال « دي برويل » ومعاونوه « غيبير » هذه الطرائق تكراراً خلال حرب السنوات السبع . وقد عرفت هذه الصفوف ، منذ السنة ١٧٦٦ ، باسم « الصفوف على طريقة غيبير » . ثم وضع فيها ابن المعاون نظرية كاملة في السنة ١٧٧٢ . وأوصى بالإضافة الى ذلك ، في الارض المكشوفة ، بالهجوم عدواً ، وبصفوف متوازية ، دونما اهتمام لاستقامة الصفوف التي لا تجدي قتيلاً ؛ وبتحول على مدار متحرك يستمر فيه الجنود الذين يشكلون مدار الحركة الدائرة في السير ببطء بغية كسب الوقت . وصدر قانون السنة ١٧٦٩ باعتماد « الصفوف على طريقة » غيبير . وبعد طويل « جدال حول الاصطفاط الدقيق والاصطفاط العميق » اعتمدت آراء غيبير بالتعليمات المؤقتة الصادرة في ٢٠ ايار ١٧٨٨ .

كان مقدراً للطرائق « الغيبيرية » إتاحة تطورات سريعة وسهلة . إلا ان القادة الفرقة فكروا ، في الوقت نفسه ، بوسائل أخرى للتوصل الى توزيع الجيش المقاتل بسرعة في وجه العدو . حقق البروسيون ذلك بفضل تدريبهم المدهش . لذلك سارت جيوشهم صفاً طويلاً واحداً أو صفين ، أو ثلاثة على الأكثر . وسعى القادة الفرنسيون إلى تنظيم صفوف طويلة أكثر عدداً تسير في طرق متوازية وبسرعة متماثلة : فكان الصف أقل طولاً والانتقال الى الصفوف المتوازية ، الذي تفرضه البندقية ، اسرع تحقيقاً . وقد توصلوا الى ذلك بتقسيم الجيش فرقاً . فقد سبق لموريس دي ساكس أن شكل فرقاً ، بعد معركة فوكتنوا ، للزحف على روكو ثم على لوفلد . واعتمد برويل الطريقة نفسها في حملة السنة ١٧٦٠ . تُقسم صفاً المشاة أربعة اجزاء أو « فرق » ؛ وضمت كل فرقة قسماً من الصف الأول وآخر من الصف الثاني ، فجاء المجموع ١٦ فوجاً من المشاة . ووافق كل فوج من المشاة قسم من فرقة الفرسان وآخر من المدفعية اللتين قسمتا أربعة اقسام ايضاً . وعند الاقتراب من العدو ، كانت الفرقة تنقسم صفين طويلين . وهكذا اصبحت الفرقة جيشاً مصغراً كاملاً يضم المشاة والمدفعية والفرسان ، أي كل الوسائل الكفيلة بقمع العدو أو إيقافه . أحدثت لتسهيل انتشار الجيوش في الجبهة فقط ، ولكنها لن تلبث أن تبدل ظروف الحرب وتتيح مناورات جديدة تستهدف جانبي العدو أو مؤخرته . ولكن القادة الفرنسيين ، في القرن الثامن عشر ، لم يعرفوا بعد كيف يستخدمونها خير استخدام .

وهكذا برز قسم هام من نتائج استخدام البندقية . وليست كافة الطرائق التي يعزى اكتشافها احياناً الى جنود الثورة والتي ربما استهدفت جزئياً اخفاء نقص تدريب المتطوعين ، من استخدام جنود الطليعة ، والهجوم بالحرايب عدواً وفي صفوف طويلة ، وتقسيم الجيش فرقاً ، سوى وسائل قتال وتنظيمات أحدثتها الجيش الملكي خلال القرن الثامن عشر ، بسبب اداة جديدة ، هي البندقية .

الفرسان
حقق الفرسان الفرنسيون تقدمات عظيمة ، ولكنهم حذوا في ذلك حذو البروسيين والنمساويين . فقد اقرت قوانين السنتين ١٧٧٦ و ١٧٧٧ كواكب الحنيالة الكبرى ، والقيام قاصداً بهجوم قصير وعنيف ، على ان لا تؤلف الكواكب سوراً واحداً بل تتخللها المسافات ؛ واعتماد الصف الطويل في مهاجمة المشاة لاختراق صفوفهم .

مدفعية فالير
قام بعض الفرنسيين بثورة في حقل المدفعية . فان قانون ٧ تشرين الاول ١٧٣٢ فرض في فرنسا مذهب فالير الذي عمل به حتى السنة ١٧٦٥ . ويقوم فضل فالير الاكبر في انه قام بعمل تنظيمي . أراد مدفعية واحدة تتوزع مدافعها على خمسة عيارات ، من ٤ الى ٢٤ لبرة ، « تكون كلها موافقة لمهاجمة المواقع والدفاع عنها ، وتشترك الفئات الثلاث الاولى منها بحسب الظروف بحيث تصبح موافقة للحرب في الارياف ؛ فيصبح ممكناً ، اذا قضت الحاجة ، ان تقدم المواقع العون للجيش ، والجيش للمواقع » . ان هذه الكلمات يقولها ابن فالير لتحدد عمل الاب خير تحديد وتتضمن نقده . أراد فالير ، رغبة في التبسيط ، صنع عتاد مزدوج الهدف . ولكنه لم يستجب تماماً لاية حاجة . فان مدافعه ، على الرغم من تخفيف وزنها ، قد بقيت ثقيلة جداً لاساحة المعركة (المدفع من عيار ٤ ، ٥٧٥ كيلوغراماً ؛ والمدفع من عيار ٢٤ ، ٢٧٠٠ كيلوغرام) . يضاف الى ذلك من جهة ثانية ان تنظيمه قد برهن عن اكثر العمليات رجعية : فهو قد صرف النظر عن المدفع القصير ؛ وأمر بأن يحشى المدفع بملقعة عميقة طويلة المقبض ، المصباح ، يستغني بها عن الفشكة ، رغبة منه في التمهّل وتوفير الذخائر ؛ وألغى المنهضة بحيث توجب في معظم الأوقات اطلاق النار اطلاقاً تقديرياً ؛ وترك الفوارق في صنع الذخائر بحيث استحال استخدام القذائف المصبوبة لمدفع معين في مدفع آخر من العيار نفسه ؛ زد على ذلك ان قطع المدافع المختلفة والاسناد لم تكن قابلة للتبديل والتغيير .

« بيليدور »
حاول فالير تلافي الزيادة في الوزن بأن اعتمد في السنة ١٧٤٠ ، على غرار معظم دول أوروبا الوسطى ، المدفع الخفيف على الطريقة الاسوجية ، وهو مدفع قصير جداً من عيار ٤ لبرات ، يبلغ وزنه ٣٠٠ كيلوغرام ، يمكن جره بالأيدي ، ويستطيع المشاة استخدامه . إلا انه رفض تخفيف المدافع الأخرى . فبرهن بيليدور ، العالم بالطبيعيات ، والاستاذ في مدرسة « لا فير » للمدفعية ، في السنة ١٧٣٩ ، ان المرمى ليس نسبياً لحشوة البارود ، وان حشوة توازي ثلث وزن القذيفة تميز من حشوة توازي ثلثي وزنها . فما لبث كافة المدفعيين ان خفضوا وزن حشوة البارود . فبات ممكناً والحالة هذه انقاص سماكة القطع ووزنها . ولكن فالير قاوم هذا الانقاص بعناد . لا بل عزل بيليدور عن منصبه .

إلا ان الحروب اظهرت ضرورة تخفيف المدفعية . فخلال حرب السنوات السبع استخدم النمساويون قطعة خفيفة من عيار ٣ لبرات لمواكبة المشاة . وفي السنة ١٧٥٦ ، أمر « برويل » باعادة خرت المدافع من عيار ٨ و ١٢ لبرة وتحويلها الى مدافع من عيار ١٢ و ١٦ لبرة بانقاص

سماكة جوانبها ، فجعلها أخف وزناً واسهل تحريكاً .

مدفعية « غريبوفال » أجريت التطويرات الحاسمة على يد « غريبوفال » . كان ضابط مدفعية في الجيش الفرنسي ، فجمع بهذه الصفة ثروة ملاحظات خلال حرب السنوات السبع ، وأثناء خدمته في الجيش النمساوي ، وأثناء امرة في بروسيا في السنة ١٧٦٢ . وحسين استدعاء الوزير « شوازل » الى فرنسا عرف كيف يستخلص النتائج مما شاهده وزود الجيش الفرنسي بخير عتاد في العالم ، العتاد الذي استخدم في كافة حروب الثورة والامبراطورية .

ادرك غريبوفال الحاجة الماسة الى تخصيص المدافع ، الى ادخال تقسيم العمل الى المدفعية . ميز بين مدافع الحصار (عيار ٢٤ و ١٦) ومدافع القتال في الارياض (عيار ١٢ و ٨ و ٤) . خفف مدافع القتال في الارياض بانقاص طولها وسماكتها . فانخفض وزن المدفع عيار ٤ من ٥٧٥ كيلو غراما الى ٣٠٠ كيلو غرام ، والمدفع عيار ٨ من ١٠٥٠ كيلو غراما الى ٦٠٠ كيلو غرام ، والمدفع عيار ١٢ من ١٦٠٠ كيلو غرام الى ٩٠٠ كيلو غرام . وقصر وخفف الاسناد ايضاً وأمر باعتماد المجر الواحد الذي يتيح استخدام الاحصنة اثنان اثنان معاً بدلاً من المجرين اللذين لا يسمحان باستخدام الاحصنة إلا واحداً وراء الآخر . فبات الجتر اكثر فعالية ، واستطاعت الاحصنة الجارة السير خفيفاً ، لا بل قاصداً . وبات بمكنة مدفعية اخيراً ان تنقل من أي مكان الى أي مكان آخر بفضل الحبل الطويل وقدة الجلد . فالحبل الطويل هو في جوهره حبل يصل بين السند ومقدم العربة . فقد غدا ممكناً بواسطته اجتياز الخنادق ، والحافة التي تعترض المنحدرات ، واطلاق النار اثناء الانسحاب ايضاً ، إذ يكفي في هذه الحال إيقاف الاحصنة ، فيصبح المدفع من نفسه في وضع الاطلاق . اما قدة الجلد فأشبه بحباله تسمح للجنود بحمل المدافع في ساحة المعركة . ويكفي ثمانية جنود لجر المدافع من عيار ٤ و ٨ لبرات ؛ و ١٥ جندياً لجر المدافع من عيار ١٢ لبرة . فغداً بمكنة المدفعية ، التي أصبحت سهلة التحريك ، ان تواكب المشاة منذ الآن ، وتساند هجماتهم وتسير وراءهم اثناء الانسحاب وتحمي مؤخرتهم .

وزاد غريبوفال من فعالية هذه المدفعية باعتماد المدفع القصير ، وبعده المدافع ؛ لكل الف جندي بدلاً من واحد ؛ فخصص كل فوج بمدفعين عيار ٤ أو مدفعي مشاة . وحسن غريبوفال مرمى القذيفة وقوة اختراقها . فوفقاً بدقة بين القذيفة وقطر المدفع الداخلي لانقاص هواء القذيفة وضياح الغاز . وفي سبيل ذلك أمر بأن لا تصب المدافع حول نواة يتشوه شكلها بتأثير الحرارة وتسبب خشونة في داخل المدفع ، بل أن تصب مليئة وتحررت بعد ذلك . وأتاحت بعض المقاييس النحاسية المحقق عيارها ، كالتنظارات والاسطوانات ، مراقبة قياسات القذيفة ودخل المدفع التي كانت مستحيلة حتى ذلك التاريخ . وجلبت المدافع من الخارج بالحرطة . فزالت الاضافات التزيينية . وتمكن الضباط من رؤية تقائص المعدن واستلام مدافع محدودة

السماكة ومن نوع جيد لا تنفجر في وجه من يستخدمها . وغدت المدفعية أدق تسديداً باستخدام خط الاحكام والمنهضة اللذين اطلالا مرمى المدفع ووسما مجال عمل المدفعية . وبات إطلاق النار اسرع تنفيذاً باستخدام الفشكة .

وجعل غريبوفال الاصلاحات عملية سهلة . فرض على العمال طاوله متقنة الصنع محدودة القياسات ، واقطعة ، ومثاقب ، ومساطر حديدية ، وقوالب ، وعيارات . فباتت صناعة العربات والاسناد ومقدم العربات متماثلة متساوية . وأمكن تبديل القطع ، منها كان مصدرها ، حتى على مقربة من ساحة المعركة .

في السنة ١٧٧٦ ، وبعد منازعات طويلة ، عين غريبوفال مفتشاً عاماً للمدفعية ، واعتمدت طريقته نهائياً .

سبق للمدفعي الانكليزي « روبنز » ، في كتاب لم يترجم إلا في السنة ١٧٧١ المدفع المفرض (« رياضيات تتضمن المبادئ الجديدة في المدفعية ») ، أن اقترح تفريص المدافع من الداخل لزيادة التدقيق ، ولكنه اصطدم ، لاسباب نظرية ، بـ « اولر » الذي حال ما له من نفوذ دون العمل باقتراح روبنز على الرغم من اختبارات هذا الأخير المنعنة . وهكذا تأخرت ثورة أخرى اعظم نتائج من الثورة السابقة .

الحرب الجديدة
بفعل تطورات الاسلحة المختلفة هذه ، تبدلت كل ظروف الحرب . فقد باتت
بمكنة القائد ، الآن ، إرغام العدو على القتال : عدد كبير من جنود الطليعة
المتشنتين سيكرهه على ابطاء انسحابه ، ثم على التوقف للجأبة على النار بالنار ، وربما استطاع
أن يقطع عليه الطريق ؛ وسرعة تحول صف طويل إلى صفوف متوازية ، وإمكان قيام الصف
الطويل بهجوم بالحرب ؛ فلن يستطيع العدو الحرب بعد اليوم ، بينما يعد القائد صفوف جيشه
للمعركة . وسيتمكن القائد من محاولة الالتفاف حول العدو وتهديد مؤخرته : أن فعالية نيران
جنود الطليعة ، وجمع الاسلحة المختلفة في الفرقة الواحدة ، سيتيحان ، لشطر من الجيش معتم
في أرض ذات شجون أو في مواقع محصنة ، أن يوقف لمدة طويلة هجمات العدو متفوق عدداً
ويوفر للقائد وما تبقى من الجيش تحت أمرته الوقت الكافي للقيام بحركة التفافية^(١) . وسيتمكن
القائد أخيراً من اختراق جبهة العدو ، اما بصف طويل من الحيلة ، واما بمجموعة كبرى من
المدافع تؤمن الاختراق ، كما أوصى بذلك غيبير ؛ وما ان تحدث الثلة حتى يتدفق عليها المشاة
للانتشار في المؤخرة والارتداد إلى الجناح العدو الأكثر تصدعاً والقضاء عليه قضاء تاماً .
وسيتمكن القائد ، بفضل صفوف غيبير الطويلة ، من تبديل مراكز جيشه بسرعة في قلب

(١) وهذا ما سبق لفرديريك الثاني ان فعله في « زورندورف » حيث أوقفت فرقة « زيتن » جيش العدو في مكانه ، بينما كان فرديريك ، مع القسم الأكبر من الجيش البروسي ، يلتف حوله .

المعركة ، ومفاجأة العدو مفاجآت كثيرة مختلفة . فأناحت كل هذه التطويرات إمكانات التخلي عن « ستراتيحية الواحق » في سبيل الحرب الحقيقية ، تلك التي تستهدف تدمير جيوش العدو ، حرب الافناء القصيرة السريعة .

إلا أن القادة لم يبلغوا بعد هذه المرحلة . ففي عهد الهيئة التشريعية « نفسها ، قاموا بالحرب على الطريقة القديمة » ، واقتضى نزاع استغرق سنوات عدة لاقرار نقل النظرية الى ميدان العمل . أما غيبير فكان قد أدرك كل شيء وشعر مسبقاً بكل شيء وانبا بكل شيء ، وخلص الى هذه النتيجة :

« إن جيشاً حسن التنظيم والقيادة لن يصادف البتة موقعاً يوقف تقدمه ... كما أن قائداً يتمرد ، في هذا الصدد ، على الآراء الموروثة ، سوف يحير عدوه ويذهله ولا يترك له مجالاً للتنفس ويرغمه على القتال أو على التراجع ابدأ امامه . وأني التجاسر وأعتقد بأن هنالك طريقة لقيادة الجيوش اجدى ، واضمن نتيجة حاسمة ونجاحات كبرى ، من تلك التي اعتمدها حتى اليوم ... سيبرز انسان ، ربما كان قبل ذلك مغموراً بين الجماهير وفي الظلمة ، انسان لم يعرف الشهرة لا بكلامه ولا بمؤلفاته ، انسان ربما جهل موهبته ولم يشعر بها إلا بمبارستها ... إن هذا الانسان سيسيطر على الآراء ، وظروف الحظ ، ويقول عن كبار واضعي النظريات ما قاله مهندس العمارة المتهن ، امام الاثينيين ، عن مهندس العمارة الخطيب : سأنفذ ما قاله لكم منافسي . وكان نابوليون بوناپرت من سيحقق حلم غيبير .

« ان اله الحرب قريب الظهور ، لانتنا سمعنا نبيه (١) » .

التوسع الادروبي
احرز الاوروبيون ، آنذاك ، تفوقاً عظيماً على كافة الشعوب ، ليس بالاعتدة والمناورات فحسب ، بل بالنظام والاعداد اللذين جعلوا من الاوروبيين ، كما بدا ذلك ، مثلاً انسانياً خاصاً يتميز برباطة جأش ، وعزيمة وعناد ، وبسالة لا نظير لها ايضاً . ففي بلاد الهند ، حيث كان اكثر المحاربين شجاعة ، بسبب فقدان النظام والانضباط اللازمين ، عرضة لخوف محزن ليس ما يبرره ، قال المهرات « سنديا » للانكليزي في السنة ١٧٧٩ :

« أي جنود جنودكم : اصطفا فمهم اشبه يجدار من الحجر اذا سقط احدهم ، سد الثلمة جندي آخر : هذه هي الجيوش التي اتنى ان اقودها » .

ان هذا التفوق لم يوفر للأوروبيين النصر والرايا فحسب بل الحلفاء والاصدقاء ايضاً . فقد كان احدي أهم وسائل دخولهم شتى انحاء العالم وسيروهم نحو السيطرة الشاملة .

(١) ج . كرلين .

الفصل الثاني

الثورة الملاحية

المهندسون
تحددت المبادئ الكبرى للسفن الشراعية منذ أعمال « دانيال برلوي » في
السنة ١٧٣٨ ، وأعمال أولر في السنة ١٧٤٩ . استمرت اكايميئات العلوم
والبحرية ، طيلة القرن ، في تقديم المعطيات العلمية لتصاميم بناء السفن الحربية . كما أن بعض
السفّانين المهرة ، الضليعين في العلوم الرياضية والآلية والطبيعية ، برعوا في تطبيقها . « انتهت
منذئذ المرحلة الاختبارية ، مرحلة « أرباب الفأس » كما عرفوا في عهد لويس الرابع عشر ، الذين
طبّقوا أساليب شخصية وقوالب موروثية ابناً عن أب وأباً عن جد . وحل المهندس محل
الممتحن ... فبين ما انتجه القرن السابق وما انتجه عهد لويس الخامس عشر تقوم كل المسافة
التي تفصل بين عمل عامل بسيط ، مهما بلغ من مهارته ، وبين النتيجة المحققة بتعاون الرياضيين
والعلماء المهندسين المتخصصين » . وقد تكلم هذا الواقع بالتكريس الرسمي . ففي فرنسا اطلق
قانون السنة ١٧٦٥ على السفّانين اسم « مهندسي البحرية » . وقد تلقوا علومهم في معهد بناء
السفن في باريس ، سلف المعهد الحالي للهندسة البحرية . وشجع الحركه العلمية الفارس « دي
بوردا » ، مفتش بناء السفن الحربية منذ السنة ١٧٨٤ ، ومستحدث الاساليب الجديدة .

السفن
ازدادت سرعة السفن وقدرتها على المناورة . حافظت السفن على طول ٤٠ متراً
للسفن التجارية الكبرى ، حتى ٦٠ متراً لأكبر السفن الحربية ، وعلى عرض
يوازي ثلث الطول أو رבעه . انثنت جوانب السفينة الحربية نحو الداخل ، بين مجموعة المدافع
السفلى والشرعة العليا . اما الاتساع في القسم الأدنى فقد زاد من استقرارها . اكتسبت مزيداً
من الدقة . وزالت تدريجياً الزخارف والنقوش . ارتفع المقدم بينما انخفض الكوئل : استعوض
عن الطبقة التي كانت تبني فوق شرعة المؤخر ، بطبقة صغرى بنيت فوق مؤخر هذه الشرعة ،
ثم الغيت هذه الطبقة الصغرى في عهد لويس السادس عشر . وهكذا خفت مقاومة الهواء .
وكانت هياكل السفن مزودة تحت خط العوم بمسامير وصل فطحاء ثقيلة لا تلبث الاشنه
والاصداغ ان تضيف اليها ثقلاً فوق ثقل . فاستعاض الانكليزي عن المسامير بوريقات نحاسية
دقيقة اخف وزناً تسهل الانسياب . واحتذى الفرنسيون مثال سفينة انكليزية استولوا عليها .

وفي السنة ١٧٧٨ كانت البارجة « ايفيجي » اول السفن الفرنسية المبطنة بالنحاس . ولكن البطانة كانت مرتقعة الكلفة ويجب تبديلها مرة بعد مرة .

قويت أجهزة السفينة ، وثبتت الصواري والدواقل وزيدت مساحة الاشرعة . غدت الاشرعة اكثر عدداً وبات ممكناً مراعاة النسبة الصائبة بين مساحتها وقوة الريح . وأتاحت شبكة من الحبال مناورات سهلة ودقيقة . دارت السفن على ذاتها وسارت كيفها طاب لبقاظنتها بكل امان . وتمكنت من بلوغ أقرب نقطة ممكنة من الريح المعاكسة .

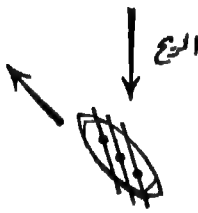
« لقد اصبح شكل هذه السفن عصرياً ، وهي من هذا القبيل اكثر تشابهاً بالسفن الشراعية خلال القرن التاسع عشر منها بالسفن الشراعية في عهد لويس الرابع عشر » .

استطاع الملاحون التوجه شيئاً فشيئاً الى المكان المقصود بمزيد من
مسألة تحديد موضع السفينة
الامان . احدثت الحكومات مستودعات خرائط ورسوم وصحف
وبيانات في موضوع الملاحة في فرنسا (١٧٢٠) وفي انكلترا وهولندا
(١٧٤٠) . حسن مقياس سرعة السفن بأن اضيف اليه ثقل يجنبه جزئياً تأثير التيارات البحرية .
وأفادت بعض الاجهزة الانعكاسية ، كالثنائي ، المؤلف من ثمن محيط الدائرة ، اي من ٤٥ درجة ،
والذي أحكمه الانكليزي « هادلي » منذ السنة ١٧٣١ ، ثم السداسي ، المؤلف من سدس محيط
الدائرة ، اي من ٦٠ درجة ، حوالي السنة ١٧٥٠ ، تتبع كافة حركات البحر ، وتقدير ارتفاع
الشمس ظهراً بفارق دقيقة او دقيقتين من القوس تقريباً ، وحساب خط العرض حساباً أكثر
تدقيقاً . ولكن ملاحين كثيرين استمروا في استخدام القوس الفولاذي الذي بلغت فوارق
دلالة ثلاثين دقيقة من القوس تقريباً .

كانت اهم مسألة تمكنوا من حلها مسألة خطوط الطول . كان باستطاعة الملاحين تحديدها
بمراقبة آن حدوث ظاهرة فلكية وحساب آن مراقبتها في مكان معروف . وكان باستطاعتهم
الاستناد الى كسوف الشمس وخسوف القمر النادرين ؛ وفحص اقمار المشتري ، على الرغم من
صعوبته ؛ ومسافة النجوم الى القمر التي تتطلب معرفتها حسابات كثيرة . الا ان كل ذلك لم
يكن عملياً ، وقد فاق في الوقت نفسه معارف معظم القباطنة . فكان أسهل السبل ، والحالة
هذه ، الاستناد الى فارق الزمان : اي تحديد الوقت المنصرم منذ مغادرة السفينة لمكان معين
حتى مرور الشمس في أعلى نقطة فوق مكان وجود السفينة ظهراً . من السهل اذ ذاك معرفة خط
الطول لان كل أربع دقائق زمنية تقابلها درجة قوسية .

ولكن الصعوبة نجمت عن ان الساعات لا تحافظ على ساعة نقطة الانطلاق . فهي كانت
تتعطل اثناء مسير السفينة بسبب الانتقال من خط عرض الى خط عرض آخر وبسبب حركات
البحر . وهكذا فان الملاحين الذين نادراً ما أتوا أخطاء كبرى في تحديد خطوط العرض ، قد
ارتكبوا أخطاء جسيمة في تحديد خطوط الطول . ففي السنة ١٧٥٠ عينت الخرائط الانكليزية

والهولندية مكان الشاطئ الشرقي لـ « الأرض الجديدة » على مسافة ٩ درجات من مكانه الحقيقي . وفي السنة ١٧٦٥ بلغت الأخطاء عدة درجات في تحديد مكان رأس الرجاء الصالح ورأس « هورن » الواقعين على طرق بحرية مسلوكة جداً . فكان هنالك ثلاثة أرباعيات باسم « غالاباغوس » وعدة جزر باسم « القديسة هيلانة » . وكان الملاحون يتجهون نحو يابسات لا قرار لها في مكانها . فاضطروا أخيراً إلى بلوغ خط عرض المكان المقصود والسير شرقاً أو غرباً إلى أن تترامى لهم اليابسة . ولكن ما أكثر الأخطاء والطوارئ ! ففي السنة ١٧٤١ ضل القبطان الانكليزي « أنسون » خط الطول المقصود وناه طيلة شهر في المحيط الهادي الجنوبي أثناء بحثه عن جزيرة « جوان - فرنانديز » : فتوفي ٨٠ شخصاً من الملاحين بداء الحفر . وفي السنة ١٧٦٣ ، توجهت السفينة الفرنسية « له غلوريو » إلى رأس الرجاء الصالح ؛ فاعتقد القبطان في طريقه انه بلغ نقطة تقع شرقي جزر الرأس الأخضر بينما هو كان غربي هذه الجزر وسار باتجاه الغرب حتى بلغ البرازيل . وفي السنة ١٧٧٥ ، اتجهت السفينة الانكليزية نحو جبل طارق : دل حساب تحديد مكان السفينة انها على مسافة أربعين ميلاً غربي رأس « فيليستير » الاسباني ، عندما جنحت إلى شاطئ رملي امام جزيرة « ريه » .



سبق للبرلمان الانكليزي ، في السنة ١٧١٤ ، ان خصص ٢٠٠٠٠ جنيه استرليني لمن يحدد طريقة لاكتشاف خط الطول في البحر بفارق نصف درجة قوسية تقريباً . بعد عمل استغرق اربعين سنة ، صنع النجار الانكليزي « هارسون » مقياساً للزمان . في السنة ١٧٦١ ، شحن هذا المقياس في سفينة متجهة نحو جزيرة جامايكا ، واعيد إلى انكلترا بعد مرور ١٤٧ يوماً ، فوجد بعد الفحص ان الفارق الزمني فيه لم يبلغ سوى دقيقة واربع وخمسين ثانية . كانت المسألة محلولة ما دام نصف الدرجة القوسية يقابله دقيقتان في الزمان . ولكن تركيب جهاز هارسون كان على كثير من التعقيد . امر البرلمان بإعطائه ١٠٠٠٠ جنيه استرليني وارجأ المبلغ المتبقي إلى اليوم الذي يتوفق فيه هارسون إلى جعل تطبيق جهازه من البساطة بحيث يمكن النسيج على منواله بسهولة . تكامل هذا المقياس بفضل الفرنسيين ، « لاروا » الذي ابتكر ، في السنة ١٧٦٦ ، الزنبرك اللولبي المتساوي الدوام ، والمنفذ ، والرقاص المعدل ، و « برتو » الذي صنع ، بين السنة ١٧٦٧ والسنة ١٧٧١ ، مقاييس زمان كثيرة . وبين السنة ١٧٦٧ والسنة ١٧٧٢ ، زودت عدة سفن فرنسية بمقاييس اعطت نتائج مرضية . وهو مقياس هارسون ما اتاح لـ « كوك » القيام برحلته الثانية . ولكن الاختراع الجديد لم يعم استعماله الا رويداً رويداً . فخلال الحرب الاميركية نفسها ، ارتكب قادة الاساطيل اخطاء جسيمة في تحديد خط الطول . زادت الاساطيل الحربية شيئاً فشيئاً من قوتها وخفضت في الوقت نفسه عدد نماذج السفن بالغاء النماذج الضعيفة . فلن تتجاوز السفن الشراعية بعد اليوم القياسات التي بلغت السفن الحربية الكبرى .

كانت هنالك البوارج ، المعدة للقتال ؛ والمراكب الحربية المعدة للاستكشاف وحرب المطاردة ؛ والحراقات المعدة لنقل الأوامر . كانت البوارج ذات شرعة واحدة او شرعتين او ثلاث . وزودت البارجة ذات الشرعة الواحدة بـ ٥٠ مدفعاً من عيار ١٢ و ٨ ، وبـ ٣٠٠ بحار . والسفينة ذات الشرعتين بـ ٦٤ مدفعاً من عيار ٢٤ و ١٢ ، و ٨٠٠ مدفعاً من عيار ٣٦ و ١٨ ، تؤلف كلها مجموعتين ، سفلى وعليا ، وبعدد من البحارة يتراوح بين ٥٠٠ و ٨٠٠ . والسفينة ذات الشرعات الثلاث بـ ٩٠ الى ١٢٠ مدفعاً وبـ ٩٠٠ الى ١٢٠٠ بحار ؛ ضمت المجموعة السفلى مدافع من عيار ٦ ؛ والمجموعة الثانية مدافع من عيار ١٨ ؛ والمجموعة الثالثة مدافع من عيار ١٢ ؛ وثبتت في مقدمة ومؤخرة الشرعة العليا مدافع من عيار ٦ ؛ وفي الطبقة الصغرى مدافع من عيار ٤ . وزودت مراكب الاستكشاف والمطاردة بـ ٢٠ مدفعاً من عيار ٦ او ٣٠ مدفعاً من عيار ٨ او ٤٠ مدفعاً من عيار ١٢ . وكانت هذه المراكب الأخيرة توازي سفن الدرجة الرابعة في عهد لويس الرابع عشر التي زالت من الوجود . اما الحراقات فقد ضمت بين ٧٠ و ٨٠ بحاراً وسلحت للمرة الاولى بـ ١٢ مدفعاً من عيار ٤ ، فاستطاعت منذئذ الاشتراك في القتال .

في الثلث الأخير من القرن ، الغيت السفينة ذات الشرعة الواحدة بسبب عدم قدرتها ، منذ ذاك التاريخ ، على الاشتراك في القتال . ولم تعتبر السفينة ذات الشرعتين ، المسلحة بـ ٦٤ مدفعاً ، كبارجة بعد ذاك التاريخ ، وهي لن تلبث ان تزول . اما السفن المقاتلة الحقيقية فكانت السفن ذات الشرعتين المسلحة بـ ٧٤ و ٨٠٠ مدفعاً ، والسفن ذات الشرعات الثلاث المسلحة بـ ١١٠ مدافع و ١٢٠ مدفعاً . زودت كلها بمدافع من عيار ٣٦ في المجموعة السفلى ؛ وزودت السفينة ذات الشرعات الثلاث بمدافع من عيار ٢٤ في المجموعة الثانية ؛ والسفينة ذات الشرعات الثلاث ، المسلحة بـ ٧٤ مدفعاً ، بمدافع من عيار ١٨ .

كانت السفينة « دول بورغونيا » ، التي شرع في بنائها في السنة ١٧٨٥ ، مزودة بـ ١١٨ مدفعاً وضمت ١٠٩٢ بحاراً ، وكان طولها ٦٣ متراً عند خط العوم ، وعرضها ١٦،٩٦ متراً ، وعقها ٨٠٠٨ امتار من الحيزوم حتى الشرعة العليا ، وبلغت اشروعها ٣١٦٢ متراً مربعاً . وكانت قادرة على التمون بأغذية تكفي لـ ١٨٠ يوماً وماء يكفي لـ ١٢٠ يوماً .

كان بالإمكان اطلاق نيران المدافع مرة كل خمس دقائق اذا كان البحارة متمرنين تمريناً جيداً . كما كانت بالإمكان ، اذا احق المدفع احناء معيناً ، ان يبلغ مرمى القذيفة ٤٠٠٠ متر ، ولكن المرمى الفعّال تراوح بين ٥٠٠ و ٦٠٠ متر . في السنة ١٧٧٤ ، صبت مصانع « كارون » في سكوثلندا مدفعاً جديداً ، هو المدفع الكاروني ، القصير ، المركب على سند ثابت ، الذي لم يتجاوز ثلث وزن مدفع من العيار نفسه ولم يستلزم للعديد عينه من المدفعيين . كانت نيرانه اقل تسديداً ومرمها اقرب مسافة ، ولكنه اتاح تسليح السفن الصغرى ومقدمات الشرعات ومؤخراتها بمدافع يفوق عيارها ما سمحت به المدافع الاخرى . استخدمه الانكليز بسرعة على

نطاق واسع . ولكن استعماله لم يعم في الاسطول الفرنسي الا في عهد الثورة .

كان المدفعيون يستفيدون من تحريك السفينة بفعل حركة الماء لاطلاق
الفرن الحربى البحرى
والستراتيجية البحرية
نيرانهم . فقضت الطريقة الفرنسية بالاطلاق حين ترتفع فوهة المدفع
بغية اسقاط الصواري . اما الطريقة الانكليزية فقضت بالاطلاق حين
تنخفض الفوهة لاصابة السفن العدو في جسمها . لم يكن القصد اغراق سفن الأعداء اذ ان
الحشب كان بالغ السماكة فوق خط العوم وكثرة الألياف كفيلة بسد الثقب الذي ما كان
ليتجاوز ١٧ سنتيمتراً قطراً اذا ما احدثته قذيفة من عيار ٣٦ لبرة . ولكن القذائف كانت
تطير شظايا خشبية شديدة الخطر على البحارة الأعداء الذين حاولوا اتقاءها بشباك مشدودة
بين كوة مدفع واخرى وبلغ اقشعة كثيرة حول الرأس . وجلي ان الطريقة الانكليزية كانت
خيراً من الطريقة الفرنسية ؛ فالبحارة الانكليز كانوا يصلحون بسرعة الاضرار التي تلحقها
بصواري سفنهم القذائف الفرنسية التي كثيراً ما لا تصيب الهدف على كل حال ؛ اما القذائف
الانكليزية فقلما تذهب سدى ، اذ ان الهدف اوسع مساحة ووثبة القذيفة على وجه الماء امراً
ممكناً ؛ لذلك كانت الخسائر الفادحة في الأرواح ، التي يبنى بها العدو ، ترغمه على التوقف عن
القتال . وكان تفوق الانكليز هذا السبب الأكبر لانتصاراتهم .

طراً على الفن الحربى بعض الانحطاط منذ اواسط القرن السابع عشر . لفتت قوة المدفعية
الانتباه الى استخدام المدافع خير استخدام . فقدرة السفن على المناورة أتاححت الحركات العلمية
المنظمة . وربما انتقلت الى الاساطيل عدوى الآراء السائدة في الجيوش البرية ايضاً . فان
الانكليز ، وسواهم من بعدهم ، قد نظموا سفنهم صفاً مستقيماً تفصل فيه بين مقدم سفينة ومؤخر
سابقتهما مسافة قصيرة جداً ، « الصاري الامامي المائل على الكوئل » . وكان الصف شيئاً
مقدساً . فكان الاخرى بكل سفينة ، اذا اقتضى الامر ، ان تترك العدو يقترب منها ويهاجمها
من ان تتركه يخترق الصف . ولم يحز لاية سفينة ان تغادر مركزها في الصف حتى ولو اعطيت
او حطمت صواربها . كما لم يحز لاية سفينة ان تخرج من الصف لمطاردة سفينة عدوة الا بأمر من
قائد الاسطول . وكان واجب القبطان الوحيد الحرس على انتظام الصف واكتماله . فاستحال
من ثم كل مناورة . وغالباً ما اقتضت المعركة على اطلاق نيران المدافع دون نتيجة حاسمة .
وقد قال امين سر الدولة للبحرية الفرنسية ، « موروا » ما يلي : « هل تعلمون ما هي المعركة
البحرية ؟ مناورة » وتبادل اطلاق نيران المدافع ، ثم انسحاب كل من الاسطولين ... وهذا
لا يمنع البحر من ان يبقى مالحاً .

كان من ثم القضاء على الاساطيل العدو امراً مستحيلاً . يضاف الى ذلك من جهة ثانية
ان السفن كانت باهظة الكلاف والقباطنة يتحاشون بالتالي ان تغرق او تصاب بأذى . لذلك
تحايدت الاساطيل المتعادية بعضها البعض جهد المستطاع واعتمد البحارة استراتيجية هي اشبه

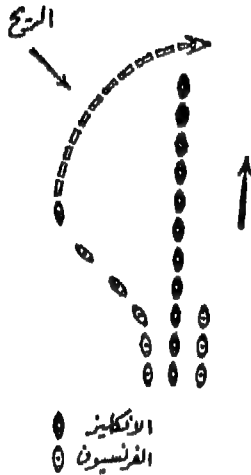
« بـستـراتـيجـية اللـواحـق » : مـهاجـمة تـجـارة العـدو بـسـفـن المـطـارـدة ، الـاسـتـيـلاء عـلى المـسـتـعـمـرات ، غـارـات مـفـاجـئة عـلى شـواطـئ العـدو لـتـدمـير تـجـهـيزـاته فـيـها . وقـد بـلـغـت هـذه الحـرب الخـاصـة ذـروة ضـراوتـها حـين تـحـارب الفـرنـسيـون والـانـكـلـيـز من اـجـل جـزـيـرة « سـانت - لـوسـي » فـي الـانـتـيـل « اذ رآى الناس مشهداً غريباً لاسطولين راسيين على مقربة من جزيرة بينهما كانت جيوش الازال فيها تتنازع السيطرة عليها » ، وفي السنة ١٧٨١ ، حين غادرت بحر المانش اربعة اساطيل معا ، اسطولان انكليزيان مهمتهما نقل المؤن الى جبل طارق ومهاجمة مدينة « الرأس » ، وآخـران فـرنـسيـان مـهـمـتـها نـقل المـؤن الى الـانـتـيـل والدفاع عـن مـديـنة « الرأـس » ، دـون ان يـفـكر احـد بان المـهـمة قـد تـنـفـذ خـير تـنـفـيـذ ، او بالـاحـرى قـد تـصـبـح نـافـلة ، بـتـدمـير الـاسـطـولـين العـدوـين عـند خـروـجـها الى المـحـيط حـيـث لـم يـبـحـث كـل مـنـها الا عـن تـجـنـب الآخـر .

وكان قد سبق للكونت دي برويل ، اخي المارشال ، في اوائل الحرب الاميركية ، ان نادى بحرب قـدمـيرـية بـغـية لـزـال الجـيـوش فـي انـكـلتـرا نـفـسـها والقـضـاء عـليـها مـرة وـاحـدة . وـلـكـنـه لـم يـلـتـق آذـاناً صـاغـية .

ان الذين قاموا بانقلاب ثوري في حقل الحرب البحرية هم « رودني » و « سوفرين » الاميرال الانكليزي رودني ، بطل معركة « سانت » ، الظافر ، والفارس « دي سوفرين » الفرنسي . لتأخذ مثل سوفرين . كان بروفنسيا ورث تقليد قتال التصارع الذي استموى ضباط السفن الحربية القديمة وحركته روح هجومية فادرة . اسند اليه في السنة ١٧٨١ امر الدفاع عن مدينة « الرأس » ، فقام بهذه المهمة قياماً اثار الاعجاب ، ثم طلب اليه تعزيز اسطول « جزيرة فرنسا » في المحيط الهندي ، ففدا قائداً لهذا الاسطول بعد وفاة اميراله ، وتولى في السنة ١٧٨٢ والسنة ١٧٨٣ قيادة حملة الهند الشهيرة التي هزم فيها الاساطيل الانكليزية خمس مرات ومهد لانتصار الجيوش البرية ، فاطلق عليه الهنود لقب « الاميرال - الشيطان » ونظر اليه العديد منهم كما الى اله . وقد طبق في هذه الحملة المبادئ التي اوسحت بها اليه حياة سلخها في الممارك .

تدمير اسطول الاعداء هو تنفيذ لكافة المهمات . لذلك كان سوفرين يبحث عن الاسطول العدو وينقض عليه حينما يجده ، حتى في المرافئ الكبرى دونما اكتراث لمدافع الساحل التي لا يمكن ان تطلق نيراناً فعالة في اشتباك قد يصاب فيه الاصدقاء والاعداء على السواء . انتظام الاسطول صفاً مستقيماً ينطوي على اضرار كبيرة لانه يشل الحركة : لذلك امر سوفرين « بان تصطف السفن للقتال اصطفاً طبيعياً » ؛ انه في نطاق عمله « لفيلسوف » حقاً ، وحتى يكون الهجوم مجدياً ، يجب الا يقتصر على اطلاق نيران المدافع من مسافة بعيدة ؛ يجب الاقترب الى مسافة لا تتجاوز مرمى المسدس (٣٠ خطوة تقريباً) ، وقد اعطى سوفرين المثل بنفسه على الرغم من القذائف التي طيرت من حوله شظايا خشب طبقتة العليا ، والتي نجت منها

كما بمعجزة . ويجب بصورة خاصة الاحاطة بكبر عدد ممكن من السفن العدو وتدميرها تدميراً كلياً . نقطة الضعف في الاسطول المصطف للمركبة هي المؤخرة او الذنب . لذلك هاجم سوفرين المؤخرة مجدداً في الوقت نفسه مقدمة الاسطول العدو بخطرات الالتفاف . وهكذا استطاع ، بسفن اقل عدداً من سفن العدو ، إثبات تفوقه في النقطة الهامة واحراز نصر حاسم .



رسم إيجازي لمناورة « سوفرين »

ان هذه المبادئ ، التي تبدو وكأنها في منتهى البساطة ، كانت بمثابة انقلاب في آراء اهل زمانه جعل من المتعذر على مرؤوسيه ان يفهموه جيداً ، فكانت النتيجة ان اوامره لم تنفذ بمخافة في يوم من الايام . ان سوفرين « قد جدد الفن الحربي البحري والستراتيجية البحرية وقام في البحر بثورة شبيهة بتلك التي سيقوم بها نابليون ، بعد سنوات معدودات ، في قيادة الجيوش . وبعمله هذا يحتل سوفرين مركزه بين كبار عباقرة الحرب » .

بعد تحقيق كل هذه التقنيات ، كانت اساطيل اوربا الاساطيل الوحيدة التي غرقت كل البحار ، وكان الاوروبيون البشريين الوحيدين الذين قصدوا كل انحاء العالم .

وظهرت السفينة التجارية اخيراً . في السنة ١٧٥٣ ، خصصت اكااديمية السفينة التجارية العلوم في باريس جائزة لمن يتوفق الى توفير وسائل تسد مسد فعل الرياح . بحث المركز الفرنسي « دي جوفروا - دابان » عن الحل . فخطر له في السنة ١٧٧٥ ، بعد ان شاهد « مطفاة » « شايو » في باريس ، ان يطبق على السفن الآلة ذات المفعول البسيط التي ابتكرها « جايس وات » . وتوفق الى حساب المقاومة الواجب التغلب عليها والى إيجاد طريقة نقل الحركة . فالف جمعية صغيرة مع بعض الاشراف واتزل الى نهر « دو » زورقاً بخارياً مزوداً بمخاديف ذات مفاصل سافر بواسطته في النهر خلال شهري حزيران وتموز من السنة ١٧٧٦ . الا ان المخاديف لم تعمل عملها كما ينبغي . فابتكر المخاديف ذات اللوحات ، التي اعتمدت من بعده ، وفي ١٥ تموز من السنة ١٧٨٣ صعد نهر السون الى ليون امام ١٠٠٠٠ مشاهد . حينذاك اراد جوفروا - دابان استثمار اختراعه ، ولكن المتمولين طالبوا ، كضمان لاموالهم ، امتيازاً لمدة ثلاثين سنة . وقبل الموافقة على هذا الامتياز ، اوعز الوزير كالون الى اكااديمية العلوم بتأليف لجنة لم تسلم بالامر بسبب عدم قناعتها : ان الآلة ذات المفعول البسيط لا تفي بالحاجة لتأمين حركة الدوران المتواصل المطلوب . وقرضت اللجنة على جوفروا اعادة اختباره على نهر السين في باريس . ولكن جوفروا كان قد انفق كل ثروته ، فاحتقره الاشراف واستهزأت به

الجماهير ، فاقطع عن كل شيء ، مع ان الآلة ذات المفعول المزدوج لن تلبث ان تتغلب على كفاة الصعوبات .

ان الآلة ذات المفعول المزدوج التي ابتكرها « وات » والتي نقلت حركة دوران منتظمة جداً قد ادخلت اميركا منذ السنة ١٧٨١ . ان ضفاف الانهر المستنقعة او الكثيرة الاشجار جعلت عملية جر الزوارق امراً مستحيلاً ؛ كما ان المراكب التي تنزل مجاري هذه الانهر كانت اعجز من ان تصعد لها مرة ثانية ، فتتلف او تفكك . لذلك مست الحاجة الى المركب البخاري فعرض الاميركي « فيتش » ، منذ السنة ١٧٨٤ ، مركباً بخارياً اختبره في السنة ١٧٨٧ على نهر « ديلاوار » بحضور « واشنطن » وفرانكلن فيه . فثار الحماس ، وتأسست في فيلادلفيا شركة برئاسة فرانكلن ، وتدفقت الاكتتابات ، ومنحت الحكومة امتيازاً . واصل فيتش تجاربه . ولكن جهاز الدفع الذي ابتكره ، وهو في جوهره عوارض خشبية افقية يحركها البخار اثبتت فيها مجاذيف عادية ، كان مضية لكثير من القوة وعرضة للتعطل . والسبب في ذلك انه استعان في صنع آلهه بمجداين عاديين : فتميزت بالكثير من العيوب والنواقص . فاعتقدت الجماهير بانها ستتطلب صيانة دائمة واصلاحات كثيرة وانها ستكون باهظة الكلفة . فحدث تحول في الرأي . اما فيتش الذي تخلى عنه الجميع ونعت بالجنون ، فقد انتحر في السنة ١٧٩٣ . الا ان الحل سيهتدي اليه في اوائل القرن التاسع عشر مواطنه « فولتون » الذي سيقلب ظروف الملاحة والنقل وكل الاقتصاد رأساً على عقب .

الفصل الثالث

الثورة المالية والصناعية

الروح التقنية في أوروبا القرن الثامن عشر اتسعت الثورة المالية التي بدأت في القرنين السابقين ، وحدثت ، لا سيما بعد السنة ١٧٦٠ ، ثورة صناعية حقيقية استهلكت عهد فن اختراع الآلات واستعمالها . اتجه الاهتمام شطر الفنون الميكانيكية . فان اعظم قاموس حققه القرن هو « دائرة المعارف » ، القاموس الملعل للعلوم والفنون والحرف ، الذي اعطت مجلدات نضه السبعة عشر ومجلدات لوحاته الاحد عشر معلومات جزيلة الفائدة حول اجهزة ميكانيكية كثيرة وطرائق صناعية لا حصر لها . مجد المؤلفون التقنية . ودش دالمبير في « الخطبة التمهيدية لدائرة المعارف » من « الاحتقار الذي ينظر به الى الفنون الميكانيكية » ، ومخترعها انفسهم ، « ومن أن « اسماء هؤلاء المفضلين على المجلس البشري مجهولة كلها تقريباً ، في حال أن تاريخ مخريه ، واعني بهم الفاتحين ، لا يحمله احد . ومع ذلك ، ربما توجب البحث لدى الصناعيين اليدويين عن اشد البراهين إثارة للمعجب على بصيرة العقل وطول اناته وامكاناته ... » ، وطرح على نفسه هذا السؤال : « ... وكى لا نخرج من نطاق صناعة الساعات ، لماذا لا يحظى اولئك الذين ندين لهم بزنبك الساعة والمنظمة والدقاق بالاعتبار نفسه الذي حظي به اولئك الذين عملوا على التوالى على تكيل الجبر ؟ » . وذهب فولتير في استغرابه الى أبعد من ذلك :

« من يستطيع تصديق ذلك يا ترى ؟ المجنون الذي يكرر سفاسف الفلسفة المدرسية طوال سنتين يتلقى جلاله وصولجانه في احتفال رسمي ، فيتبختر ويقرر ؛ وهي مدرسة « بدلام » هذه التي تمهد الطريق لبلوغ المراتب السنية والثروات . وما وبونا فنتورا يتألقان فوق المذابح ، واولئك الذين اخترعوا المحراث والمكوك والمنجرة والمنشار لا يعرفهم احد » .

ما كانت تقدمات الصناعات لتصبح ممكنة بدون رؤوس اموال وبدون قوافر رؤوس الاموال وسائل دفع خاصة . والحال ما انفكت رؤوس الاموال خلال القرن تتجمع وتتكسد ، ووسائل الدفع تتكاثر ، والاسعار والارباح والأجور الاسمية ترتفع . ازداد حجب المعادن الثمينة من جهة وتكاملت وانتشرت التقنيات المالية من جهة اخرى .

ان التجارة ، ولا سيما التجارة البحرية والاستعمارية الكبرى قد جمعت رؤوس
 الاموال في اوروبا الغربية حيث تكدس ، طوال القرن ، معظم انتاج الذهب
 والفضة في العالم ، تكدساً مستمراً متزايداً . وكان المنتج الأكبر مستعمرة
 المكسيك الاسبانية حيث استثمرت مناجم جديدة ؛ ولكن هنالك مستعمرات اخرى كثيرة
 انتجتها أيضاً^(١) . افاد تدفق المعادن الثمينة دول اوروبا الغربية في الدرجة الاولى . فقد دخل
 على انكلترا ذهب وفير من البرازيل بعد معاهدة « ميتون » (١٧٠٣) بينها وبين البرتغال ؛
 ومنذ معاهدة باريس (١٧٦٣) وضعت يدها على تجارة هندوستان ، باب الشرق الأقصى ،
 واستأثرت بمعادنها الثمينة . وتلقت فرنسا معدناً ثميناً وافراً من الامبراطورية الاسبانية بفضل
 التجارة الكبرى التي نشطت بينها وبين اسبانيا وحتى بينها وبين الامبراطورية مباشرة بالاتفاق
 مع بعض تجار قádiz الاسبانيين . واستفادت هولندا من هذا التيار ، ولكن بنسبة دنيا ، لأن
 صناعتها تأخرت وانخفض حجم صادراتها تدريجياً . أما دول اوروبا الاخرى فلم تستفد منه الا
 استفادة محدودة ، لأن بعضها ، كاسبانيا والبرتغال ، كان شبه خال من المعادن الثمينة بفعل
 اضطرابه الى استيراد الكثير من البضائع ، والبعض الآخر ، كالنمسا وبروسيا وروسيا ، كان
 بعيداً عن البحار دون مستعمرات ودون تجارة كبرى على بعض الأهمية .

ولكن المعادن ما كانت لتكفي للمدفوعات . فان سرعة تداولها المحدودة قد جعلت الناس
 يشعرون شعوراً اعظم بنقص حجمها . يضاف الى ذلك ان نقلها كان باهظ الاكلاف ومحفوفاً
 بأخطار السرقة . فكان باستطاعة الفرنسيين ، حتى في السنة ١٧٨٢ ، أن يروا ، في المدن
 التجارية الكبرى ، في العاشر والعشرين والثلاثين من كل شهر ، بين الساعة العاشرة والساعة
 الثانية عشرة ، حاملين يسرون بسرعة في كل الاتجاهات ناقلين اكباساً مملوءة بالفضة تنوء عليهم
 بثقلها . وكانت وكالات الشحن تنقل بين مدينته وأخرى اكباساً تتسع لـ ٢٠٠ دينار يساوي
 الواحد منها ٦ ليرات ، وتصر في صناديق مسطحة مغطاة بالتبن ومشدودة بالحبال ، لقاء ليرتين
 لكل الف ليرة حتى مسافة ٢٠ فرسخاً ، وليرة لكل ١٠٠٠ ليرة عن كل ١٠ فراسخ فوق
 الا ٢٠ فرسخاً . فكان هناك ، كما هو جلي ، ما يحمل المشتري على التردد والتراجع .

(١) قدر سونبر الانتاج العالمي ، بالكيلوغرامات ، كما يلي :

نسبة الزيادة	ذهب	فضة	
% ١٠٠٨	١٢٨٢٠	٣٣٥ ٠٠٠	١٧٢٠ - ١٧٠١
% ٢١٠٢٦	١٠٠٨٠	٤٣١ ٢٠٠	١٧٤٠ - ١٧٢١
% ٢٣٠٦٤		٥٣٣ ١٤٥	١٧٦٠ - ١٧٤١
% ٢٢٠٣٤		٦٥٢ ٧٤٠	١٧٨٠ - ١٧٦١
% ٣٤٠٦٧		٨٧٩ ٠٦٠	١٨٠٠ - ١٧٨١

ولا عجب والحالة هذه ، اذا ما اتقن القرن الثامن عشر كل التقنية المصرفية .
التعد الورقي
احدثت هذه الاخيرة شيئاً فشيئاً منذ القرون الوسطى في كبريات مدن
التجارة الدولية ، البندقية ، جنوى ، جنيف ، انفرس ، اوغسبورغ ، وحسنت تحسيناً عظيماً في
القرن السابع عشر على يد الهولنديين الذين صدروها الى انكلترا ، وتقدمت تقدماً كبيراً بفعل
معاملات البيع والشراء بالدين التي فرضتها حرب وراثة عرش اسبانيا ، فتكاملت في القرن
الثامن عشر وانتشرت في دول البر الاوروي الكبرى عن طريق فرنسا وبلغت شرقي اوروبا .

تعاطى العمليات المصرفية على أنواعها مصارف دولة (لندن ، امستردام)
الاوراق النقدية
ومصارف خاصة ، وكتاب عدل ، وسماسرة تجارة . فكان هناك الإيداع ،
والتحويل ، والورق النقدي ، والسفتجة ، والحسم ، وشركة التوصية ، والقروض لقاء رهونات
عقارية أو اوراق مالية أو قروض لأجل قصير ، والدخول الدائمة ومدى الحياة ، والاسهم ،
والسندات . ومورست في المصافق ، بواسطة الدلائل ، تجارة الاوراق المالية ، والصفقة المؤجلة ،
والتسليف على الاوراق المالية ، والبيع لأجل قصيرة .

وارتبطت التأمينات على الحياة بهذه المضاربات . وقامت منذ ذاك الحين منازعات ضارية بين
المساومين على الارتفاع والمساومين على التذني ، فحاول هؤلاء بحجم المبيعات ،
واولئك بحجم المشتريات ، لأجل قصير ، تحويل الاسعار لمصلحتهم . واستغلت
الاخبار السياسية : الانتصار ، الهزيمة ، المعاهدة ، المفاوضة ، ارتقاب تغيير وزير أو عشيق ،
والنجاح السياسي جديد ، التي كانت تنبئ بأن سوقاً استثمارية أو صفقة كبرى ستنتقل من يد الى
يد اخرى فتؤثر تأثيراً عظيماً جداً في اسعار اسهم الشركات التجارية . ومنذ ذاك الحين لم تكن
الاشاعة الكاذبة والدسيسة السياسية امراً مجهولاً . جرى النقد مجرى السياسة وغالباً ما أثر فيها .
استخدمت من ثم كافة الاساليب الهامة ولكنها لم تستخدم استخداماً سوياً في كل مكان .

دانت هولندا منذ زمن بعيد لتجارها العالمية بالعمولة ولدورها كـ « جواله
النقد الورقي
البحار » بكونها الدولة الاوروبية التي استخدمت فيها كل هذه الاساليب
في هولندا
استخداماً ماهراً جداً في مصرف امستردام ومصنفها . في امستردام التجر
بسفتجات اوروبا جمعاء ، وفي مصنفها حددت اسعار كافة الاوراق المالية . وابنكر الهولنديون
في القرن الثامن عشر القرض لقاء رهونات لفلاحي « سورينان » : فكان دين المدينين مؤمناً عليه
بالمغارس . ولم تنح قروض هولندا استثماراً لملكاتها زراعياً فحسب ، بل استثماراً الهند الغربية
(انطيل) الفرنسية والانكليزية والمستعمرات الدانمركية ايضا . وقد قدمت هولندا اكثر من
ثلث رؤوس الاموال الموظفة في المشاريع الصناعية المؤسسة في مختلف الدول الالمانية . ففي
السنة ١٧٨٧ بلغت دخول هولندا في الخارج ١٢٣ مليوناً ، أي ما يعادل ٦٢ فلورين لكل
هولندي ، وهو مبلغ ضخم لعمره . إلا ان اهمية الهولنديين النسبية قد اخذت في التذني منذ

السنة ١٧٥٠ بتوسع مستعمرات البلدان الاخرى وتجارتها وصناعاتها . وبصورة خاصة تأخرت الصناعة الهولندية لأن الدول التجارية قد حدثت من تصدير الخامات التي يفتقر إليها الهولنديون . فأرغم الهولنديون من ثم على شراء قسم كبير من المصنوعات التي سيقايضونها ، فباعوها بأسعار تفوق اسعار منتجها ، وتقهقرت بالتالي تجارتهم وتأخر تدفق رؤوس الاموال على امستردام .

في انكلترا تفوقت انكلترا تفوقاً متزايداً الاهمية بفضل ازدهار تجارتها البحرية الكبرى
وصناعاتها . بعد معاهدة اورخت (١٧١٣) التي حدثت من المزاخمة الفرنسية ، ولا سيما بعد معاهدة باريس (١٧٦٣) التي فتحت ابواب الهند للانكليز ، تدفقت رؤوس الاموال . وزع مصرف سكتلندا ارباحاً تصاد ٢٠٪ . وبفضل مصرف انكلترا ومصنفها ، سارت لندن قدما في طريق التفوق على امستردام . لجأت الدولة الانكليزية ، التي ثقلت عليها الديون بسبب حرب وراثة عرش اسبانيا ، الى قروض كثيرة ، ولكنها اعتمدت في عقدها اساليب حكيمة . فلم تقترض إلا في حالات استثنائية ، لا لتغطية العجز ولا لتأمين الانفاق العادي . سددت المتأخرات تسديداً شديداً بالدقة باحداث ضرائب مقابلة . وفرت كافة التسهيلات للأفراد لبيع الدخول : الملاك يقصد سمساراً يتصل بالشاري ؛ الملاك يوقع تحليلة مؤلفة من سطرين على قصاصة ورق ؛ يذهب والشاري الى المكتب حيث توجد سجلات الاملاك العامة ؛ فيتم الانتقال دون نفقة من حساب البائع الى حساب الشاري ؛ ولا تستلزم هذه العملية كلها سوى ١/٨٪ يشكل عمولة السمسار . اما في هولندا وفرنسا فكان متوجهاً على الملاك الاخير ان يحتفظ بوثائق تسلسل انتقال المالك إليه . وكانت هنالك في فرنسا صعوبات اخرى كثيرة ايضاً .

ارتفع عدد الشركات المساهمة ارتفاعاً كبيراً : شركات التأمين ضد الحريق ، على الحياة ، على الزواج ، الخ . فقد بلغ هذا العدد في انكلترا ، منذ اوائل القرن ، ١٤٠ شركة مساهمة . في ٢٦ آذار ١٧١٤ اصدر « جونت فريك » في لندن اول بيان اسبوعي بالاسعار . وفي حمى المضاربة ، التي حدثت في السنة ١٧٢٠ ، بتأثير مثل « لو » في فرنسا ، تأسست شركات غريبة جداً : شركة رأسمالها مليون جنيه استرليني من اجل عجلة دائمة الدوران ، وأخرى لأجل تكرير مياه البحر . وعلى غرار « لو » في فرنسا تقدم مصرف انكلترا وشركة البحر الجنوبي باقتراح الحلول محل الدولة تجاه دائئها مقابل فائدة تناقصية يستوفيانها من الدولة . وأدت المضاربة الجاهحة في السنة ١٧٢٠ ، كما حدثت في فرنسا ، الى تضخم مفرط في الاسهم ، ثم الى اختلال وانهار ، ولكن فقدان الثقة في الشركات المساهمة لم يدم طويلاً ، كما في فرنسا ، إذ لم تقض سنوات معدودات حتى استعادت هذه الشركات ازدهارها .

وكانت جنيف مركزاً مالياً عظيم الأهمية . وقد بلغ من مهارة تجارها المالبين ان قال عنهم الدوق « دي شوازلو » ما يلي : « ان اتقائهم للحساب قد بلغ مبلغاً يوجب علينا ، إذا ما رأينا

جنيهاً يلقي بنفسه من نافذة الدور الثالث ، ان نخذو حذو بكل طمأنينة ، اقتناعاً منا بأننا سنكسب ٢٠٪ بالسير على خطاه .

في فرنسا تأخرت فرنسا عن ركب كل هذه الدول لان التجارة فيها أقل نمواً وتقدماً ، ولأن الكاثوليكية فيها دين الدولة . الحق القانوني والحق المدني يحزمان الفائدة التي تؤمن كسباً دون مشقة ودون مسؤولية . ولا يميزانها الا عندما يتعرض المال لطفر أكيد كما في الشركات البحرية مثلاً . في السنة ١٧٤٥ تقدم بعض صيارفة « انغوليم » ، الذين عجزوا عن استرداد ما لهم من مدينيهم المتمنعين ، بدعوى الى القضاء ، ولكنهم فوجئوا بالحكم عليهم لعدم صحة الدعوى : خالفوا القانون بالادانة بالفائدة ؛ فخسارته من ثم قصاص عادل .

الا ان الدين بالفائدة انتشر بحكم الضرورة . لا بل ان فرنسا عرفت ، قبل « لو » ، الشركات المساهمة ، والسند لأمر حامله ، والصيغة الموجلة ، اقله بأشكالها الاولى . وخلال القرن الثامن عشر ادخل بعض السكتلنديين ، من امثال « لو » ، والسويسريين من امثال « نكر » و « بنشو » و « كلافيير » ، الى فرنسا ، كل التقنيات المعروفة في البلدان الأخرى ، وقد تمت في فرنسا آنذاك ام الاختبارات وابعدها اثرأ دولياً .

ان ما جعل الناس يعملون بأراء جون لو ليس حاجات التجارة الكبرى ، على الرغم من نموها مع اسبانيا وهولندا وانكلترا وألمانيا والهند حتى السنة ١٧٦٠ ، ومع الانتيل طوال القرن كله ، بل حاجات دولة اصبحت على قاب قوسين من الافلاس في اعقاب حروب لويس الرابع عشر . النقصد في نظر لو وسيلة مقايضة . فالمسألة الكبرى هي من ثم الاسراع في ترويج النقد لمضاعفة الشراء والبيع باطراد ومضاعفة الانتاج بالمقابلة . وجلي بالتالي ان «لو» من مشايبي النقد الورقي المتحمسين . افلح في اقتراحه على الحكومة الحلول لخلها تجاه دائنيها ووفاء الدين تدريجياً . استحصل من الوصي على العرش ، في السنة ١٧١٦ ، على اجازة بتأسيس مصرف خاص كانت ثلاثة ارباع رأسماله ديوناً على الدولة . وفي السنة ١٧١٧ ، أسس شركة الغرب التي كان مفروضاً ان تستخدم اوراقاً نقدية يصدرها المصرف والتي قبضت ثمن أسهمها سندات ملكية . ثم اشرك في جمعية جبارة اطلق عليها اسم « النظام » ، مصرفه الذي اعطي صفة المصرف الملكي في السنة ١٧١٨ ، وشركة الغرب التي تحولت في السنة ١٧١٩ الى شركة الهند ، بغية استثمار الميسيسي وكندا والانتيل وغيانيا والمحيط الهندي والشرق الأقصى ؛ وضم اليها التزام التبغ وسك النقود وجباية الضرائب . فكان ان الآمال في ارباح طائلة ، التي قوتها دعاوة ماهرة ، رفعت سعر الأسهم من ٥٠٠ ليرة الى اكثر من ١٨٠٠٠ ليرة . الا ان ربحية الـ ٤٠٪ التي بُشر بها في كانون الاول ١٧١٩ ما كانت لتمثل ، بالنسبة لهذا السعر ، الا ١٪ أو أكثر بقليل . اخذ المضاربون بالبيع . وانخفضت قيمة الأسهم . وتضعفت الثقة حتى

في اوراق المصرف النقدية ؛ فتزاحمت الجماهير مطالبة بأن تدفع لها حقوقها نقوداً معدنية . ولكن ما كان اصدره لو من النقد الورقي قد فاق موجودات صناديقه من هذه النقود ، فاضطر المصرف الى اقفال ابوابه . وفي كانون الاول ١٧٢٠ انخفضت قيمة سهم الشركة الى ليرة ذهبية ، فأفلس « لو » وتوارى عن الانظار . ان لو قد خفف وطأة دين الحكومة وانهض المشاريع التجارية والصناعية وأحدث انقلاباً اجتماعياً وولد في الناس كراهية النقد الورقي والبسع والشراء بالدين . « منذ « لو » ، بات [النقد الورقي] موضوع اشمئزاز لا بسل موضوع رعدة وفزع » . أنف الفرنسيون من المصرف وذكره . فتأخرت انطلاقة الثقة في المعاملة ، وتأخرت معها الانطلاقة الصناعية والتجارية .

في السنة ١٧٢٤ فتح مصنفق باريس ابوابه . ولكن تسليم الاوراق المالية حدد بأربع وعشرين ساعة ؛ وحُرمت الصفقة المؤجلة . وقد ووفق على فتحه في السنة ١٧٨٠ . استفاد الوزير « كالون » منه لمحاولة رفع سعر أسهم شركة الهند بوسائل الاب « دسبانياك » . ولكن القضية انتهت الى غير ما يشتهي ذوها وحلت امام القضاء في عهد الثورة .

في السنة ١٧٧٦ أسس سويسري وسكتلندي « صندوق الحسم » متجتمين بحكمة كامة مصرف . حسم الصندوق السندات التجارية وتقبل الودائع وأصدر سندات لم تعرف قط رواجاً خارج باريس . ومنذ السنة ١٧٧٦ تأسس يانصيب فرنسا الملكي الذي اصدر في السنة ١٧٨٣ سندات تعين فائدة لحاملها وتسدد خلال ثماني سنوات ، كانت بمثابة للسندات الطويلة الأجل على الخزانة . وفي السنة ١٧٧٧ تأسس « مصرف المحبة » لمحاربة الربى فأقرض التجار ، أمم زبنه آنذاك ، أموالاً لقاء رهونات .

منذ السنة ١٧٥٠ ، ولا سيما منذ السنة ١٧٨٠ ، انتشرت الشركات المساهمة انتشاراً واسعاً : شركات معادن الفحم الحجري ، مؤسسات التعدين ، مصانع الغزل ، المصارف ، التأمينات البحرية . تولت « صحيفة باريس » وصحيفة فرنسا نشر لائحة الأسعار . وتأسست بشكل شركات مساهمة شركة « الزين » (١٧٥٧) وشركة « انيش » (١٧٧٣) لاستخراج الفحم المعدني ؛ وشركة القطن ، في « نوفيل - لارشفيك » على مقربة من ليون (١٧٨٢) ، التي وزع رأسمالها على ٢٤ سهماً قيمة كل منها ٢٥٠٠٠ ليرة ، فساعد على تزويد المصنع بأحدث الآلات ؛ ومصانع الفولاذ في أمبوي (١٧٨٤) التي حدد رأسمالها بمليونين ؛ وأول شركة فرنسية للتأمين ضد الحريق اسسها السويسري كلايفير (١٧٨٨) ؛ وعدد كبير آخر من الشركات ، لتبطين السفن مثلاً ، او تقنية الفحم الحجري ، او صناعة التراب العضوي القابل الاحتراق . واستخدم السند لحامله لتأسيس مصنع « له كروزو » في السنة ١٧٨٢ كي ينصهر فيه ، في السنة ١٧٨٥ ، معمل الملكة للبلور ومعمل صب المعادن الملكي في « اندريه » و « مونليس » ، برأسمال قدره عشرة ملايين موزعة على ٤٠٠٠ سهم ، فبات الملك مساهماً .

وهذا دليل على ان الصناعة الكبرى واستخدام الآلات قد ارتكزا الى الدين .
 في البلدان الأخرى ، عرفت المحلات التجارية الكبرى الدين منذ زمن بعيد . فمئذ السنة ١٧٢٠ قامت في ممبروغ شركات تأمين بحري .
 ولكن الدول الكبرى كانت جسد متأخرة . ففي الدول النمساوية ، أراد شارل السادس ، متأثراً بمثل « لو » ، تأسيس « شركة أوستند » ممولاً على المؤسسات التجارية والمصارف في أوستند وانغرس . ومئذ السنة ١٧٥٠ أصدرت النمسا نقداً ورقياً ، وحدت حدودها كل من اسوج وروسيا واسبانيا . ولم يكن هناك مصفق رسمي بل مصافق « سوداء » في برلين وفيينا . وأسس فردريك الثاني مصرف بروسيا في السنة ١٧٦٣ حين عجز عن مواجهة واجباته في أعقاب حرب السنوات السبع .

الثورة الصناعية
 في انكلترا
 اننا نشاهد في انكلترا المرحلة الأخيرة لانتقال اقتصاد مبني على الماء والخشب الى اقتصاد مبني على الفحم والحديد . في السنة ١٧١٤ ، ما زال الخشب يستخدم لكل شيء . لاشك في انه استخدم وقوداً ، ولكنه هو ما وفر الاشنان لصناعات المنسوجات والزجاج ، والقار للسفن . واستخدم كذلك في دباغة الجلود . ولكن انكلترا عانت « مجاعة » خشب عرضت كل نموها للخطر . لذلك فنحن نشاهد الانتقال من اقتصاد مبني على استثمار المحاصيل النباتية والحيوانية الى اقتصاد مبني على استثمار المصنوعات المعدنية . ففي تبييض المنسوجات مثلاً ، استخدم اللبن الحازر . ولكن الزراعة ما كانت لتوفر المنظفات الكافية لصناعة المنسوجات التي ادى ذلك الى عرقلة انطلاقتها . فبات لزاماً استخراج المنظفات من المواد المعدنية ، وهذه هي مسألة الانتقال من الملح الى الاشنان التي لعبت دوراً كبيراً .

الصناعة المنزلية
 في السنة ١٧١٤ ، لم تكن الصناعة ، في انكلترا كما في اي بلد آخر ، المورد الأهم ، مع انها نمت فيها اكثر من غيرها . كان اكثر اشكال الصناعة انتشاراً الصناعة المنزلية التي ازدهرت في صناعة الصوف الهامة بنوع خاص . فان عمالاً يدويين كثيرين ممن وزعوا حياتهم بين الصناعة والفلاحة قد امتلكوا ادواتهم . كانوا يشتررون المادة الخام ويحولونها في منازلهم بمساعدة زوجاتهم واولادهم ، وبعض العمال احياناً . وكانوا ينقلون مصنوعاتهم على عربتهم التي يجرها حصانهم بغية بيعها في سوق البلدة . وكانوا يزرعون بضعة هكتارات من الاراضي ، ويربون بعض الماشية بغية تأمين كفافهم من الموارد . فهم من كانوا ينتجون اقشة وسكاكين شفيدل واسلحة برمنغهام وادواتها المعدنية ولعبها ، ودبابيس بريستول ، اي قسماً كبيراً مما كان يصدر الى موانئ الشرق الأدنى وحتى الى اميركا .

التركيز التجاري
 تقسيم العمل والانتاج بالجملة
 الا ان الملائق ببلدان ما وراء البحار ، والمقايضات المتزايدة ، والطلب المتعاظم ، وحاجات الزين الجدد او ادواقيهم الخاصة ، والوقوف في وجه المزاحين ، قدادت الى تركيز الصناعة تركراً تجارياً . اراد بعض التجار الجواخين وبائعي الادوات المعدنية ولعب الاولاد نوعية فضلى ، وسعراً

ادنى ايضاً ، فارادوا في سبيل هذه الغاية فرض طرائقهم الصناعية على المنتجين وفرض كسب محدود . وتوصلوا الى ما ارادوا بما يتزويد فلاحى المناطق الخلوة من الصناعة بالانوال ، واما بالاستفادة من جذب الحصائد وحاجات العمال المتزولين ليستولوا على ادواتهم تسديدا لاموال يسلفونهم اياها ، واما بتوفيرهم على العامل مالك الأدوات انتقالاته للبحث عن المادة الخام ولبيع مصنوعاته . اخذوا على انفسهم ايجاد الموائين والشارين . كان ذلك اول تقسيم للعمل جعلهم اسياذ السوق ، ومن ثم اسياذ المصنوعات وصناعتها . فالتاجر الذي عرف باسم الصناعي او صاحب المصنع ، يقدم المواد الخام ، اى الصوف والقطن والقنب والحديد ، والأدوات والنماذج . اما العامل فينفذ العمل . ثم يعود الصناعي فيطلب الأشياء المصنوعة ويبيعها . وهكذا اصبح العامل اليدوي عاملاً مأجوراً بعد ان كان صناعياً مستقلاً . هذه هي مرحلة المصنع ، التعبير الذي لا يعنى مؤسسة كبرى بل مجموع المصانع الفردية التي تعمل لأجل تاجر هو متعهد رأسمالي . وضم المصنع احياناً ، بالإضافة الى ذلك ، مشغلاً كبيراً تجمع فيه المصنوعات لأعمال الصقل النهائية . ومنذ هذه المرحلة ادخلت تحسينات كبرى على تقنية الصناعة : « توزيع العمل » و « الصناعة بالجملة » ، قبل اختراع الآلات واستعمالها . بدأ توزيع العمل بصناعة الصوف حيث مهد له السبيل نوع التقنية : الغسل ، التقهير ، الطرق ، الحلاجة ، الندافة ، الغزل ، الحياكة ، الجز ، الكشط . فان المهارة التي يحققها العامل الاختصاصي في احدى العمليات زادت من انتاجه كما ونوعاً في الوقت نفسه وخفضت سعر الكلفة لانتاج افضل . ولا عجب من ثم اذا ما تكاملت هذه المهارة على مر الايام . فاقضت حيث امكن ذلك الى الصناعة بالجملة ، كما في مصنع الدبابيس الصغير ، الذي وصفه « آدم سميث » في السنة ١٧٧٦ ، وحيث قام كل عامل اما بوحدة ، واما باثنين او ثلاث من العمليات الثمانية عشر التي تطلبها صناعة الدبوس الواحد ، وتوصلوا بعمل يدهم الى انتاج ٤٨٠٠٠ دبوس يومياً .

وكان هنالك اخيراً ، في الصناعات التي استلزمت آلات معقدة التركيب المعامل وباهظة الاكلاف ، بعض « معامل » تجمع فيها الأجهزة والعمال ، كما في صناعة الحرير مثلاً . فقد جهزت بعض الشركات المساهمة بعض مناجم النحاس ، كما امتلك بعض ارباب معامل الحديد من النبلاء ، مصهراً او مصهرين ، ومعمل حدادة وانجوا خمسة وستة اطنان اسبوعياً .

وتحققت تحسينات جديدة بفضل نمو التجارة . ان هذه الأخيرة خلقت الآلات الحاجة : زبن جدد في بلدان ما وراء البحار ، اذراق جديدة عند الزبن اسباب اختراعها الانكليز ، منافسون جدد . استوردت ليفربول من الشرق منسوجات قطنية ادى النجاح الذي عرفته الى قيام صناعة مماثلة في منشستر ، وغدت ليفربول تستورد المادة الاولى ، القطن الخام . الا ان ذلك اوجب حينذاك مجاراة عمال آسيا القانعين بمستوى حياة

متدن ، والمتجملين بخفة يدوية لا نظير لها عند الأوروبيين . فكان ذلك أحد الأسباب الرئيسية لاختراع آلات جديدة . وقد سبق أن لفت أحد الباحثين المغفلة الانتباه « الى ان تجارة الهند الشرقية ، بتوفيرها مصنوعات ادنى سعراً من مصنوعاتنا ، سترغمنا في الأرجح على اختراع طرائق وآلات تتيح لنا ان ننتج بيد عاملة قليلة وبكلفة متدنية ، ومن ثم ان نخفض سعر المصنوعات » . ان الآلات كلها ، والاختراعات كلها بصورة عامة ، ولدت من فقدان التوازن الاقتصادي ومن الحاجة الى تخفيض اسعار الكلفة ، ولكنها ولدت كذلك من امكان الحصول على رؤوس اموال بفائدة ضئيلة وتحقيق ارباح كبرى . وقد كثرت في البدء ، كما هو طبيعي ، في الصناعات التي لم تكن خاضعة لأنظمة التعاونيات ، كصناعة القطن مثلاً ، وهي احدث عهداً من ان يأخذها المشرع بعين الاعتبار . ففي الصناعة القطنية حدد عرض الأثواب بعرض ذراعي العامل ، بسبب مرور المكوك . وإذا ما طلب ثوب اوسع عرضاً توجب استخدام عاملين وفاق ارتفاع سعر الكلفة ارتفاع الأرباح . وهذا ما حدا بـ «جون كاي» الى البحث عن مكوكه المتحرك ، والى ابتكاره في السنة ١٧٣٣ ، فأفاد هذا المكوك انتاج اثواب بالعرض المطلوب . ثم عم استعماله حوالى السنة ١٧٦٠ . وفي صناعة استخراج المعادن وتنقيتها ، حدث نقص المحروقات من انتاج الحديد وحديد الصب ، اذ ان اشجار الغابات كانت تقطع لتوسيع المراعي . فتوجب استيراد الحديد من السويد لصناعات برمنغهام وشيفيلد ، ولكنه كان باهظ الثمن ورفع سعر الكلفة رقماً مفرطاً ، بينما تعرض ارباب المصاهر من الانكليز للافلاس . فدفع ذلك بعض آل «داربي» ، في السنة ١٧٣٥ ، الى ابتكار الحديد المصبوب بالفحم الحجري المقطر ، لأن الفحم الحجري غير المقطر يلشز مركبات كبريتية تجعل حديد الصب قصصاً . اما الآلة البخارية فقد ولدت من عجز الانهار عن تحريك عجلات الآلات ، وعن صعوبة احداث الخزانات ، الباهظة الاكلاف على كل حال . واستخدمت الآلة التي سيرها «نيوكومن» (١٧٠٥) بالبخار الجوي لرفع الماء الذي يسقط بعد ذلك على العجلات ذات اللوحات ، ولتحريك المضخات بغية تفرغ ماء المناجم .

لم تكن كل هذه الاكتشافات ، في البدء ، عمل العلماء ، بل عمل محترفين مهرة المخترعون متمكنين من الطرائق التقنية المستعملة وواقفين بالممارسة على موضوع ابحاثهم . فان جون كاي قد كان حائكاً في البدء ثم صانع منافس للانوال . ومن بين مخترعي آلات الغزل ، كانت « هارغريفز » ، الذي ابتكر في السنة ١٧٦٥ ، آلة لغزل عدة خيوط دفعة واحدة ، حائكاً ثم نجاراً ؛ وكان «توماس هايز» ، الذي ابتكر « المغزل المائي » (١٧٦٧) عاملاً نفاشاً بسيطاً ؛ وكان كرومبتون ، الذي ابتكر آلة تجمع بين الآلتين (١٧٧٩) ، غزلاً وحائكاً . وكان كارتريت ، مبتكر آلة الحياة ، راعياً محباً للبشر ، ومجرد هاوٍ في علم الآليات . وكان آل داربي ارباب مصاهر ؛ وتحقق تحويل حديد الصب الى حديد ، في السنة ١٧٨٣ ، على يد «بيتر أونيويز» ، رئيس العمال في احد المصاهر ، « وهنري كورت» ، احد ارباب المصاهر . وان الآلة البخارية ، التي اكتشفت في القرن السابع عشر وجعلت صالحة للعمل على يد نيوكومن ،

الحديد والفضة ، أصبحت عملية حقا على يد « جايمس وات » ، صانع الآلات المخترية . ولكن هذا الأخير أفاد من قياس الحرارة الذي حققه « بلاك » . وهكذا انضم العلم الى التقنية . وبعد تحقيق هذه الطرائق كلها ، درسها العلماء واكتشفوا نواميسها ، وتوقفوا بواسطتها ، في القرن اللاحق ، الى اكتشافات علمية وتقنية جديدة .

لقد سبق هذه الاختراعات كلها مرحلة طويلة من السعي والبحث
لنجاح الاختراعات
والاخفاق . فقبل هارغريفز وهانز ، اكتشف « جون ويات » و « ولويس بول » آلة غازلة جيدة (١٧٣٣ - ١٧٣٩) . وقبل آل دربي ، يبدو ان « دادلي » قد توصل ، منذ أواخر عهد جاك الاول ، الى اكتشاف مبدأ الحديد المصبوب بالفحم الحجري المقطر ، وهنالك حالات اخرى كثيرة . ولكن المخترعين الاول قد اخفقوا في البدء بسبب عدم كفاءتهم العملية واقتنارهم الى الروح التجارية . اتقنوا التفكير والادراك والاكتشاف دون النقاش والحساب والبيع والشراء . وغالبا ما كانوا وجلين وجزعين ومتريبين دون طموح حقيقي اقتناع بالاكتشاف ، شأن هانز ووات . وقد اصطدموا على الاخص بمقاومات الصناعيين الحذرين ابدأ بسبب خوفهم من خسارة المال ، ومقاومات العمال المعادين للآلة الذين يخشون فقدان مرتزقهم فيمحطمون ويحرقون الآلات . وقد توجب ، حتى تفرض هذه الأخيرة نفسها ، ان تصبح الازمات الاقتصادية ، التي دفعت الى البحث عنها ، من الشدة بحيث تبدو الآلات يوضوح وكأنها السبيل الوحيد الى التغلب عليها . مات معظم المخترعين مغمورين وفقراء . ولكن سرهم سرقه واستخدمه الصناعيون الذين رفضوا مكافأته . فان « آر كرايت » قد انتحل آلة هانز الغازلة واكتشافات ثلثية عديدة حققها كثيرون غيره . كان تاجرا ماهرا ، فنجح وجمع ثروة طائلة وغدا « سير » ، عظيمما بين العظماء . وقد عزا اليه مواطنوه إثراء انكلترا ونجاح الصراع الطويل ضد فرنسا ، مغفلين عدم استقامته . وجعل « كارليل » من آر كرايت احدا يبطاله وقارنه بنابوليون . وحالف جايمس وات الحظ بموافقة بولتون البوريتاني الذي شجعه وسانده وبني الآلة وجعلها تفرض نفسها بعد سنوات طويلة من الصراع .

حدث كل اختراع تخلصا اقتصاديا جديدا أوجب البحث عن آلات
رابط الاختراعات
جديدة . فقد توالدت الاختراعات . ارتفعت نسبة انتاج المنسوجات في صناعة النسيج
ارتفاعا كبيرا بفضل المكوك المتحرك بينها بقي الخيط يغزل بالدولاب . انتقر الخاكة الى الخيط لاسيما في فصل الصيف حين ينصرف الغزالون والغزالات الى اعمال الحصاد . وقد نجم عن ذلك ان التجار الذين تمهدوا بتلبية طلبات البضائع ، معللين على طاقة الانوال ، لم يستطيعوا التنفيذ بسبب افتقارهم الى الخيط . فاضطروا الى تسريع عملهم وخسروا بعض زبائنهم . اشتدت الازمة حوالي السنة ١٧٦٠ بسبب الانتصارات الانكليزية في الهند التي افضت الى ازدياد الطلب . وهذا ما اوحى الى هارغريفز باختراع آله الغازلة (١٧٦٧) التي

اتاحت لمعامل واحد في منزله ان يغزل بين ٨ و ٨٠ خيطا معا . انتجت هذه الآلة خيطا دقيقا ولكن هذا الخيط كان واهيا وقصما . اما آلة هايز الغازلة (١٧٦٨) ، وقوامها اساطين وسفاقد عمودية ، فقد انتجت خيطا متينا ، على بعض الثخانة ، لم يتح بلوغ دقة الاقمشة الشرقية . واما آلة كرومبتون (١٧٧٩) فقد انتجت خيطا متينا جدا غاية في الدقة صالحا جدا لصناعة الاقمشة الموصلة . ولكن الغزال تقدم آنذاك الحائك الذي ما زال يعمل بيديه . ولم يعرف الغزالون كيف يصرفون بضائعهم . فأخذوا يصدرون بعضها الى السبر الاوروي . ولاح من ثم خطر المنافسة للاقمشة الانكليزية . فكان ذلك منطلقا لمساعي كارترت ، في السنة ١٧٨٥ ، في سبيل ابتكار نوله الآلي الذي نجح نجاحا تاما منذ السنة ١٨٠٠ . والدليل على ذلك ان نولين بخاريين ، يراقبها فتى في سن الخامسة عشرة ، كانا ينسجان ثلاثة اقواب ونصف الثوب ، في حين ان عاملا ماهرا يستخدم المكوك المتحرك لم ينسج في الوقت نفسه سوى ثوب واحد . فتيسر استهلاك الخيط المغزول ؛ وانخفض سعر الاقمشة ؛ وارتفع عدد الزبائن .

إن الحديد المصبوب بالفحم الحجري المقطر ، الذي ابتكره آل « داربي » ، قد زاد من كمية الحديد المصبوب . ولكن معالجي المادن ومعالجتها لم يعرفوا كيف يحولونه الى حديد . فتجمعت منه كمية كبرى عجزوا عن بيعها في حين مست الحاجة الى الحديد الذي ما زال يصنع بواسطة الفحم . فقام « اونيونز » و « كورت » بتجارب كثيرة وتوقفوا الى تحويل حديد الصب الى حديد (١٧٨٣ - ١٧٨٤) : يحص حديد الصب بنار الفحم المعدني المقطر ، فيفقد جزءا من كربونه ؛ ثم يذاب مع خبث غني بأوكسيد الحديد ؛ فيتحد ما تبقى فيه من كربون بالأكسجين ، ويتجمع المعدن النقي كثلة شبيهة بالاسفنج ، تطرق لتتقى من الخبث ، وتصفع بين الاساطين . وقد اكتشفت هذه الطريقة دون ان يعلم المكتشفان أن حديد الصب يحوي الكربون المطلوب ابعاده . فكان أن الخبرة سبقت النظرية .

في السنة ١٧٥٠ ، اكتشف « هنتسمن » الفولاذ المائع باذابة الحديد في بوتقة من الحزف العادم الذوبان مع نزر يسير من الفحم والزجاج المسحوق بمثابة كاشف كيميائي . ومنذ السنة ١٧٧٠ انتج فولاذ لا نظير له اتاحت عملية تحويل الحديد المصبوب الى حديد انتاجه بكميات كبرى .

استلزمت آلة « نيوكومن » الجوية محروقات لا تتناسب كلفتها والنتائج المحققة . الآلة البخارية حين يرفع البخار المكبس ، يدخل بعض الماء البارد في وعاء المضخة : فيخثر البخار ويحدث فراغ تحت المكبس الذي ينزل ثانية بفعل الضغط الجوي . ولكن الماء المدخل في وعاء المضخة المرتفع الحرارة يسخن بدوره ؛ ويتحول جزء منه الى بخار . لذلك لم يكن الفراغ كاملا . فيقاوم هذا البخار نزول المكبس نزولا كاملا ، ويضيع بعض القوة . أضف الى ذلك ان

وعاء المضخة كان يبرد بالماء المدخل اليه ويعودة الهواء الداخلي حين ينزل المكبس . فحين يوجه البخار ثانية لرفع المكبس ، يفقد هذا البخار ، الذي يدخل الى اسطوانة باردة ، بعض قوته الامتدادية ، فيقتضي تسخين وعاء المضخة اولا وتوجيه كمية من البخار توازي اضعاف ما يتطلبه رفع المكبس طبيعياً .

تسلح « وات » بنظريات « بلاك » فساخترع ، في السنة ١٧٦٥ ، المحرر المنعزل . وضع الى جانب وعاء المضخة حيث يتحرك المكبس اسطوانة تحافظ على حرارة منخفضة بفعل جريان ماء بارد وتتصل بوعاء المضخة بانبوب مزود بصمام . يفتح صمام وعاء المضخة المليء بالبخار . فيندفع هذا الاخير ، بفعل قابليته الكبرى للامتداد ، في الاسطوانة الباردة ، ويحدث التبخير فراغاً يجتذب اليه كل البخار . ويكون التبخير كلياً دون ان يبرد وعاء المضخة الا بالهواء الذي يدخل حين ينزل المكبس . في السنة ١٧٦٩ استحصل على شهادة اختراع لآلته ذات المفعول الواحد : اسطوانة مقفلة مزودة في اعلاها بنافذة صغرى يتحرك فيها جندع المكبس . يصل البخار الى وجه المكبس العلوي ، ويدفعه نزولاً ، اذ ان البخار السفلي قد وجه نحو المحرر . ثم تستخدم الاصمة بحيث يصل البخار الى وجهي المكبس اللذين يخضعان حينذاك لقوى متساوية : فيرتفع المكبس من ثم بفعل الضغط الموازن . ويحد من ضياع الحرارة غلاف خشبي يحاط به وعاء المضخة . فأنقصت « المضخة النارية » الجديدة استهلاك المحروقات بنسبة ٣ الى ٤ . وكان الصناعي « بولتون » ، صانع آلات « وات » ، « يعطي » الآلات ويستعيد آلات « نيوكومن » ولا يطالب الا بثلاث المبلغ الذي يوفر سنوياً من ثمن المحروقات . ففي « شايزوتر » ، دفع الملاكون سنوياً لبولتون ووات ، مقابل ثلاث مضخات نارية ، ٦٠٠٠٠ فرنك ذهباً ، ولكنهم دفعوا هذا المبلغ كاسفي الوجه في حين انهم كانوا يرجون بدورهم ١٢٠٠٠٠ فرنك .

إن الآلة ذات المفعول الواحد لم توفر القوة الا اثناء نزول المكبس . فكانت القوة متقطعة . وان الآلة ، الموافقة جداً لتحريك المضخات ، كانت أقل موافقة لعمل المصانع المتساوي والدائم . أدرك وات ذلك وابتكر محركاً شاملاً هو « آلته ذات المفعول المزدوج » . جعل البخار يؤثر بالتناوب في وجهي المكبس وأحدث بذلك حركة ذهابية وإيابية متساوية القوة ابدأ . وبالإضافة الى ذلك حول حركة المكبس المستقيمة الى حركة دائرية بواسطة ذراع الدافعة ومقبض الادارة (١٧٨٤) . فأمكن منذئذ استخدام قوة البخار في الآلات على انواعها : انوال غزل القطن ونسجه ، الاكيار ، آلات تصفيح المعادن ، المطارق ، مطاحن الحبوب والمُنْتِشَة ، والصوان ، وقصب السكر . لقد دخل تاريخ العالم عهداً جديداً .

تعاونت كل هذه الاختراعات تعاوناً متبادلاً . فقد اقتضى اسطوانات هندسية المتبادل
الإطار ومكابس محكمة الالتصاق دونما احتكاك ودواليب متشابكة بمثل دقة
تشابك دواليب الساعة ، لآلات التصفيح ، ومخارط المعادن ، والمطارق
البخارية ، والمثاقب ، والانوال ، وحل الحديد أكثر فأكثر محل الخشب لأنه أشد صلابة ويتيح

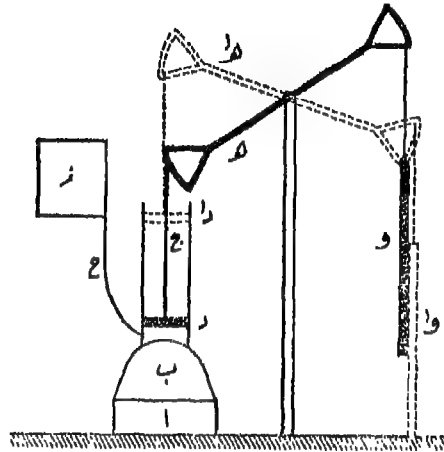
مزيماً من الدقة . فلا اختراع آلات حيث لا حديد . وأتاحت تحسينات صناعة المعادن الحصول على الكميات الكبرى والاصناف الجيدة . فقد وفرت الآلة البخارية اكبر قوة وأسهلها استعمالاً دونما خسارة واعظمها مرونة وأسلسها انقياداً . بيد أن الآلة البخارية لم يعم استخدامها إلا في السنة ١٨٠٢ ، مع أن الآلات الغازلة البخارية الاولى ترقى الى السنة ١٧٨٥ . وأوجدت النوال الصناعات النسيجية والمعدنية وآلاتها ، بدورها ، اسواقاً للحديد ولاآلات وات .

التجمعات الصناعية
لقد حدث تجمع اول قبل اختراع الآلات والبخار . فقد وجد بعض التجار الصناعيين موافقاً أن يجمعوا في الأبلية نفسها عمالاً يسهمون في انتاج الصنف نفسه رغبة منهم في أن يحسنوا مراقبتهم ويكتفوا انفسهم مؤونة نقل المادة من عامل الى عامل في مراحل الصناعة المختلفة . ثم قامت مصانع جديدة . ولكن اختراع الآلات اوجب بعض التجمع . فان اجهزة « اركرايت » كانت باهظة الثمن وتستلزم مكاناً واسعاً ، كما ان اجزائها كانت مترابطة في العمل : آلة الخليج الاولى ، آلة الخليج الثانية ، آلة الغزل ، القوة المحركة المركزية . استخدم الصناعيون من ثم مكاناً واحداً وعمالاً يتقيدون بالنظام . وأصبحت مصانع الغزل أبلية قرميديّة تألفت من أربع أو خمس طبقات وضمت بين ١٥٠ و ٦٠٠ عامل . وتألف مصنع بولتون ، منذ السنة ١٧٦٥ ، من خمسة ابنية ، وضم ٦٠٠ عامل ، وسير آلاتها كلها دولاب محرك قوي . فكان أرباب هذه المعامل صناعيين حقاً . وفي صناعة المعادن ، منذ أن استخدم الفحم الحجري المقطر ، لم تتحدد ضخامة المشروع باتساع الاحراج . فقد جاز أن يضم كل مشروع عدة مصاهر ومعامل . لا بل شاهد الناس ظهور التجمع العمودي : ففي السنة ١٧٨٧ ، كان « ولكنتسون » يمتلك مناجم حديد ، ومناجم فحم معدني ، ومصاهر ، وأرصعة في التنايز .

ورافق التجمع الداخلي تجمع جغرافي . فلما كانت شلالات الماء ضرورية لتحريك الآلات تجتمعت الصناعة في البدء في المناطق الرطبة وذات الكسور ، بعد ان كانت متشتتة هنا وهناك : في انكلترا ، على منحدرات جبال بنين الثلاثة ؛ القطن في جنوبي كولتية لانكستر (ملشستر) بنوع خاص ، وشمال كولتية دربي (دربي) ، منذ السنة ١٧٧٥ ؛ والصوف في مقاطعة يوركشاير ، في ليدس وبرادفورد ؛ وفي اسكتلندا ، في وادي « كلايد » . ثم حين عم استخدام البخار ، بعد السنة ١٧٨٥ ، تبدل تجمع الصناعات بعض الشيء . فان المناطق الشمالية ، التي كانت مناطق استخراج الفحم الكبرى ايضاً ، بقيت مناطق صناعية ، ولكن نظراً الى ان طرق المواصلات المائية الكثيرة اتاحت نقل الفحم الحجري بسهولة ، قامت المعامل اما على مقربة من اسواق الخامات واما على مقربة من اسواق بيع المصنوعات ، وأما على مقربة من المراكز السكنية التي توفر العمال . فبرز من ثم تخصص المناطق .

وربط التجمع المالي بين المشاريع ، فكان ذلك ارتسماً « لتجمع أفقي » احياناً . فقد

امتلك اركرايت بين ثمانية وعشرة معامل مثل كل منها رأسمال يقدر بعدة آلاف من الجنيهات السترلينية . ولكن لدينا كذلك امثلة تجمع جماعي ، هي الشركات ، التي غالباً ما اقتصرت ، من جهة ثانية ، على تشارك اشخاص معدودين .



رسم إيجازي لآلة نيوكومن

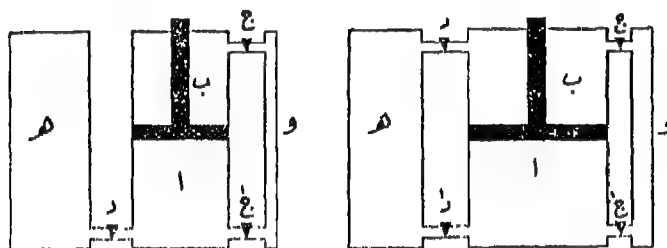
١ - الموقد ؛ ب - مسخن البخار ؛ ج - وعاء المضخة ؛ د ؛ دا - المكبس ؛ هـ ، هـ - الرقاص ؛ و ، و - ثقل موازن متصل بمضخة ؛ ز - خزان ماء بارد ؛ ح - انبوب .

ان اختراع الآلات والطرائق التقنية الأخرى اعطت المملكة المتحدة تفوقاً عظيماً على الأمم الأخرى في أواخر القرن الثامن عشر . فقد زادت الكميات المصنوعة أولاً . في السنة ١٧٨٠ صدرت المملكة المتحدة

تحسن النوعيات
وتزايدت الكميات

أقمشة قطنية بما قيمته ٣٦٠٠٠٠ جنيه سترليني ؛ وفي السنة ١٧٩٢ صدرت بما قيمته مليونان . في السنة ١٧١٧ ، انتج آل داربي بين ٥٠٠ و ٦٠٠ طن من الحديد المصبوب سنوياً ، بينما انتجوا بين ١٣٠٠٠ و ١٤٠٠٠ طن في السنة ١٧٩٠ . ثم حسنت الكمية والقيمة التجارية . فقد أتاحت آلة « هاز » الغازلة انتاج الأنسجة القطنية . وأتاحت آلة كرومبتون انتاج أنسجة موصلية أخف وزناً من تلك التي كان ينتجها الهنود ؛ فارتفعت قيمة المادة الخام بنسبة ٥٠٠٠٪ اثناء مراحل الصناعة . ومنذ السنة ١٧٨٣ ، توصل الانكليز الى توشية الأقمشة بواسطة اسطوانات نحاسية . وفي السنة ١٧٨٦ طبق « تايلور » سر « الاحمر التركي » وانتج اقمشة « ادرينية » ما لبثت ان اكتسبت شهرة الأقمشة الهندية . وأعطت عملية تحويل الحديد المصبوب الى حديد قضباناً حديدية أفضل من افضل حديد سويدي أو روسي . وكثير الطلب على الفولاذ الذائب الذي انتجه هننسمن ، في كافة أنحاء أوروبا . واخيراً تدنت الأسعار ؛ فقد قامت الاسطوانة النحاسية بعمل ١٠٠ عامل ؛ وكانت المطرقة البخارية تضرب ١٥٠ ضربة في الدقيقة .

ان التحقيقات الانكليزية اذهلت الأجانب . فان ولكنسون ، « ابا صناعة الحديد » ، قد بنى في السنة ١٧٧٩ ، فوق الد « سفن » ، اول جسر من الحديد المصبوب قوامه حنية واحدة . وسيتوفى في السنة ١٧٩٧ الى ان يبني في سندرلند ، فوق الد « وير » ، جسرأ من الحديد المصبوب تمر تحت سفينة بحرية بكل صوارها . ودون ان يتوقف عند الاتهامات الموجهة اليه بتعدي المعقول العام ، انزل الى البحر في السنة ١٧٨٧ اول سفينة حديدية . وفي السنة ١٧٨٨ سلم مصلحة مياه مدينة باريس ٦٤ كيلو متراً من الأنابيب المصنوعة من الحديد المصبوب .



رسم ايجازي لآلة رات

١ - رعاء المضخة ؛ ب - مكبس ؛ ج ، د - صمامات لدخول البخار ؛ د ، هـ - صمامات لخروج البخار ؛ هـ - مخار ؛ و - انبوب يتصل بمسخن البخار

منذ ذاك الحين برزت نتائج الصناعة الكبرى المألوفة لدينا ؛ أزمت الصراع الطبقي تحمة الانتاج ، مع ما رافقها من ارتفاع مفاجيء في أسعار المصنوعات وانهيار مالي في السنة ١٧٩٣ ؛ وارتفاع عدد السكان ونمو المدن ؛ وقيام طبقة من الرأسماليين الصناعيين لا حلم لها ، من جهة ثانية ، الا ان تنصر في طبقة النبلاء ؛ توسع طبقة من عمال المصانع الذين لا يمتلكون اية وسيلة من وسائل الانتاج وليس لهم سوى سواعدهم وأولادهم ، اي طبقة من الكادحين . لقد ارتفعت اجور بعضهم الحقيقية ، وتحسن الغذاء والصحة ، وطال امد الحياة مع الانتاج . ولكن الكثيرين من عمال الصناعة ، كعمال المصانع المتدربين ، وصانعي المسامير ، والحائك ، ما زالوا يتقاضون اجراً ضئيلاً ويتغذون تغذية سيئة ويقيمون في مساكن حقيرة ، فتفتك بهم حتى المصانع رداء السل ؛ منذ السنة ١٧٨٥ ، تجمع هؤلاء العمال وقاموا باضرابات وباعمال عنف استهدفت الآلات والأشخاص وطالبوا البرلمان بتشريع يحميهم ؛ فكان ذلك منطلق الصراع الطبقي .

على الرغم من هذه التطورات ، بقيت الصناعة الصغرى اوسع استثمار الصناعة المنزلية . فارت آلة هارغريفز الغازلة ، التي يصلح استخدامها في المنزل ، قد انتشرت في كل مكان بين السنة ١٧٧٥ والسنة ١٧٨٥ ، وارتفع من ثم عدد المنتجين الفرديين . وقد استمروا في عملهم هذا ، حتى بعد استخدام

النول الآلي ، مرتضين بتخفيضات كبرى على أجورهم ، وبالبؤس . وفي صناعة الصوف ، وصناعة الآلات المعدنية ، وصناعة السكاكين ، دافع الصناعيون اليدويون عن انفسهم دفاعاً طويلاً . ففي أوائل القرن التاسع عشر ، ما زال مجموع انتاجهم يفوق مجموع انتاج المصانع .

ان القماش الذي ينتجه النول يحتاج الى تنظيف وتخصيب قبل تسليمه للصناعة الكيميائية الى التجارة . والتبييض ضروري جداً لتقصير القماش ، لأن من شأن الشمع أن يلعب دور مثبت الألوان ، اي أن من شأنه أن يؤلف مع الصباغ مركبات كيميائية قد تلون القماش ، حيث يوجد الشمع ، بألوان داكنة أو أكثر لمعاناً . فأخضع القماش من ثم الى عملية اولى هي اغلاؤه في الماء مع رماد الحطب ، الغني بالاشنان ، ينشر بعدها طيلة ايام فوق العشب ، ثم ينقع في مصالة حامضة ، ثم تنتهي عملية التبييض بغسله بالصابون . الا ان هذه العمليات أثارت مشاكل خطيرة : الافتقار الى خشب الوقود ، حرمان الزراعة من مساحات كبرى ، تربية مواش كثيرة للحصول على المصالة فقط ، الافتقار الى الصابون . فقامت العقبات في طريق صناعة التبييض .

مست الحاجة الى الحامض الكبريتي والاشنان . اجل لقد انتج الحامض الكبريتي وعرف الناس كيف يعالجون الاملاح بهذا الحامض لانتاج الاشنان . ولكن المشكلة كانت في انتاج كميات كبرى بأسعار منخفضة . استخرج الملح بوفرة من ماء البحر بواسطة التبخير . اما بصندد الحامض الكبريتي فقد احرز نجاح اول بفعل حاجات الصناعات المختلفة : القبعات ، الجلود ، الازرار ، القصدير ، النحاس . وبدلاً من أن يحصل على الحامض باكسدة كبريتور الحديد اكسدة جوية بطيئة ، أحرق الفرنسي « ليفير » الكبريت وعالجه بملح البارود فحصل من ثم ، في مدى زمني أقصر ، على حامض كبريتي أقل كلفة . وقد أدخل هذه الطريقة الى انكلترا الانكليزي « يشوع وورد » منذ السنة ١٧٣٦ . ولكن كميات الحامض الكبريتي المنتج ما زالت ضئيلة ومرفوعة الثمن .

إن الحامض الكبريتي الغير المجرد من مائه تماماً لا يفعل في الرصاص . فاستعاض « روبروك » و « جريت » عن الزجاج بالرصاص في معالجة الحامض ونقله . وهكذا استطاعوا زيادة حجم سفن أكثر متانة ، وتخفيض سعر النقل ، وانتاج كميات كبرى ، والبيع بأسعار متدنية ، وتصدير الحامض ، منذ السنة ١٧٥٠ ، الى كافة انحاء اوروبا الشمالية الغربية . فأخذ الحامض الكبريتي يحل محل المصالة في عملية التبييض . وقد أعطى في خمس ساعات نتيجة لا تعطيه المصالة إلا في خمسة ايام .

في السنة ١٧٨٤ خطر للكيميائي الفرنسي « برتوليه » أن يستخدم في التبييض خصائص إزالة الألوان التي ينطوي عليها الكلور . ونزولاً عند رأيه طبق « جايس وات » هذه الطريقة ، في السنة ١٧٨٨ ، في تبييض انتاج مصنع حميه . ثم ما لبث اختراع ماء « سافيل » ، وهو كلور

مضاف الى محلول اشنان ، ان زاد بصورة غريبة سرعة التبييض .

كان « كير » و « كوليسون » قد حلّا ، كل من جهته ، منذ السنة ١٧٦٩ ، مسألة الانتقال من الملح الى الاشنان . فاستطاع « موسبرات » ، بفضل تجاربها ، أن يؤسس ، في السنة ١٨٢٣ ، معمل الشهير الذي يعتبر منطلق صناعة الاشنان الكبرى في بريطانيا العظمى . وهكذا حلت نهائياً مسألة التبييض ، فازدهرت صناعة اللسيج .

اتجهت الرغبة العامة الى الاقمشة الزاهية . ولكن كل الصباغات المعروفة لم تكن لتفي بالمطلوب بسبب عدم ثباتها . ففي الألوان الزرقاء مثلاً لم يصبغ النيلج والعظم القماش بكليته بل كانا يلوانان وجه القماش فقط ويزولان بالاستعمال . اكتشف الصبّاغ البرليني في السنة ١٧٠٤ « الازرق البروسي » ونشر صيفته في السنة ١٧٢٤ . فجعلها الكيميائي « مارك » صناعية في السنة ١٧٥٠ . وهكذا تحقق لون ازرق « يضاوي بشفوفه ولعانه شفوف ولعان اجل يا قوت ازرق » ، ويصبغ القماش في جميع اجزائه ، ويحافظ على زهوه ، وحصل « جورج غوردن » في السنة ١٧٥٨ على احمر بنفسجي جميل جداً بنقع اشنة الصباغين في محلول النشادر . وأخذ الفرنسيان « بويل » و « بابيون » تجارة الاقمشة الانكليزية في افريقيا باهتمامهما ، في السنة ١٧٨٦ ، الى « الاحمر التركي » ، وهو احمر زاه ، باستخدام القوة .

وقد تمت كل هذه الاكتشافات بالتمس وبدون معارف كيميائية تقريباً .

الزراعة الصناعية
جُددت الزراعة قبل الصناعة نفسها . تنازعت الخطوة لدى الانكليز طريقتان : طريقة « نورفولك » التي اعتمدت منذ أواخر القرن السابع عشر ، وطريقة « جترو تول » . اعلن هذا الأخير ، في كتاب نشر في السنة ١٧٣١ ، ان الاسمدة نافلة ، لا بل مضرّة ، اي انها سُموم . وفي رأيه أن النباتات تتغذى بأشياء صغيرة ملتصقة بمساحة تجاوب التربة الداخلية . فيجب من ثم ، تسهيلات لتغذية النباتات ، تقسيم الارض جهد المستطاع حتى تتمكن الجذور من اختراق التراب بسهولة . اذن يجب الاكثار من الحراثة ، وقداًبتكر « تول » طرائق عدة للحراثة حتى اثناء طلوع الخنطة ، وهكذا تصبح الاسمدة والدورات الزراعية غير ذات جدوى . اما اشياح طريقة « نورفولك » ، الذين اكثروا من الحراثة ايضاً ، فقد استخدموا الاسمدة ، السجيل والكلس ، استخداماً واسعاً ، كما استخدموا بصورة منتظمة الزراعات الدورية ، ونباتات الكلا ، كالحندقوقه والايدوصرن والفصفصة واللفت والسلمج . ثم اثبتت اختبارات « هوم » و « دوكون » ان تول كان على خطأ ، فكانت الغلبة لطريقة نورفولك التي اتاحت توفير كميات كبرى من الغذاء الضروري لسكان متزايدين عدداً وتحفيض نسبة الوفيات ، وسهلت التصنيع .

في سبيل تطبيق التقنيات الجديدة ، عزل كبار الملاكين مزارعهم وضموا اراضيهم وصونوها بمساعدة البرلمان الذي كان تحت سيطرتهم . ولكنهم لم يفعلوا ذلك بداعي التقنية بل بغية

الاستثمار بكاسب الطريقة الجديدة. وقد ناسبت طريقة نورفولك كل المناسبة «الارض المكشوفة» والزراعة الجماعية ، بتصوين المراعي ، وقد أقدمت على ذلك قرى كثيرة .

كانت النجاحات في البر الاوروي اكثر بطئاً ، ويرد ذلك بصورة عامة الى عدم توفر رؤوس الاموال التي لم يكن ما يوفرها سوى التجارة البحرية الكبرى . اجل توفر المال هولندا ، ولكن صناعتها مالت الى التأخر ، ربما بسبب عدم توفر الخامات في ارضها ، وفي اعقاب القيود التي فرضتها الدول الاخرى ، الساعية وراء التصنيع ، على خروج الخامات من اراضيها . وظف الهولنديون أموالهم في انكلترا وفرنسا والدول الالمانية المختلفة واسهموا في تصنيع هذه البلدان . وخارج انكلترا والاقاليم المتحدة ، نمت الصناعة بفضل تدخل الدولة الذي أملتة دوافع عسكرية: التحرر من الأجنبي ، انتاج الأقمشة للملابس العسكرية ، والاسلحة ، والبارود ، والتصدير لأجل تأمين النقد الضروري للسياسة الكبرى ولاضعاف العدو بالمنافسة . وقد تدخلت الدولة بالاككتابات ، والمكافآت ، والاحتكارات ، والتعريفات الجركية ، والمشاريع الرسمية، ولكن ببعض الصعوبة ، لتوسيع صناعة صناعية ، لا أسواق لها ، تدفع ثمناً لنموها سلسلة من الافلاسات وعوداً على بدء .

كانت فرنسا قد اجتازت هذه المرحلة آنذاك ، وكانت صناعتها قد اتسمت في فرنسا منذ ذاك الحين ببعض التلقائية . كان للبلاد تجارة بحرية واستعمارية كبرى ورؤوس اموال كثيرة ، ولكن دون القوتين البحريتين درجة ، وكانت تقنياتها المالية دون تقنياتها تقدماً . يضاف الى ذلك ، من جهة أخرى ، ان الدولة قد استنزفت ، بسبب سوء تنظيم ماليتها ، قسماً كبيراً من رؤوس الأموال المتوفرة . لذلك لم تتمكن الصناعة الفرنسية من الاستغناء عن إسهام الدولة المباشر ، فكانت النجاحات ابطاً منها في انكلترا . كما في انكلترا، احتلت الصناعة المنزلية المركز الأول . وتزايد التجمع التجاري في مراكز معينة تزايداً مطرداً . ففي صناعة الجوارب في ليون مثلاً ، استخدم ٤٨ تاجراً ٨١٩ عاملاً اختصاصياً . واذا كان لال « فان روبيه » ، في « ابفيل » ، ١٨٠٠ عامل ، موزعين على عدة معامل على كل حال ، فان حوالي عشرة آلاف عامل قد اشتغلوا لأجلهم كل في منزله . وكانت « المصانع الملكية » الاثنا عشر تنجز الأعمال التحضيرية (الجز واعادة الحياكة) بواسطة العمال الموزعين على المعامل ، ولكن الغزل ومعظم الحياكة كانا ينجزان بواسطة عمال الجوارب وفي منازلهم .

ونشاهد من جهة ثانية تجمعا في المصنع ، قبل استخدام الآلات ، في الصناعات التي استلزمت اجهزة معقدة التركيب وباهظة الأثمان ، وانماطاً كثيرة مختلفة للصنف الواحد . في « رمس » تجمع أكثر من نصف الوال الصوف . وفي « لوفيه » ، جمع ١٥ متعهداً ألوف العمال . اما في صناعة القطن ، فلأقمشة الهندية ، التي تستلزم أرضاً واسعة للتبييض وأبنية فسيحة للمعامل وغرفاً كبرى للتنشيف وأدوات كثيرة وغزونات هامة من الأقمشة والمواد الملوّنة وتوزيع

عمل بين العمال المشتغلين تحت سقف واحد ، كان هنالك ، حوالي السنة ١٧٨٩ ، مائة صناعي ينتجون ١٢ مليون ليرة من الأقمشة المصبوغة . وكانت هنالك شركات مساهمة عدة على جانب كبير من الثروة . فقد أسس « اوبركامف » ، في السنة ١٧٨٩ ، شركة يناهز رأسمالها الاجتماعي ٩ ملايين . واما في المناجم فمنذ السنة ١٧٤٤ احتفظت الدولة لنفسها بما تحت سطح الارض وأعطت امتياز استثماره لشركات كبرى . فكان لدى شركة « انزين » ، التي تأسست في السنة ١٧٥٦ ، أربعة آلاف عامل قبل السنة ١٧٨٩ . وتأسست شركات أخرى في « آليه » ، و « كارمو » ، وفي أمكنة أخرى أيضاً . فكان ان الاستثمار ، الذي تم حتى ذلك التاريخ ، في حفائر صغيرة كثيرة قليلة العمق ، على ايدي ملاكين هم غالباً من الفلاحين ، قد تحسن تحسناً سريعاً . لقد حلت الاستبارات محل التنقيبات الاتفاقية . وعوضاً عن النزول بواسطة دركات مفروضة في جدران الآبار استخدم عمال المناجم السلالم الحديدية ، كما استخدموا في « انزين » ، بعد السنة ١٧٦٠ ، سلات يجرها ملفاف تديره الجياد . وتأمنت تهوية الأروقة بآبار خاصة . ولمكافحة المياه بنيت جدران الأروقة بالقرميد في « انزين » ، وأحدثت خزانات ، واستعاض عن المضخات اليدوية الصغيرة التي يجرها عامل واحد بمضخات كبرى يجرها عمال وأحصنة . فبلغ عمق الآبار قرابة ٣٠٠ متر بعد ان كان لا يتجاوز الخمسين متراً ؛ لا بل بلغ عمق إحدى الآبار ١٢٠٠ متر . وقد انتجت شركة انزين ، في السنة ١٧٨٩ ، ٣٧٥ ٠٠٠ طن من الفحم الحجري .

وأخيراً استخدمت الآلات . فمنذ السنة ١٧٣٢ استخدمت آلة نيوكومن في المناجم أحياناً . وفي حقل غزل الحرير ميكانيكياً أتاحت اكتشافات « فوكنسون » قيام مؤسسات كبرى . ففي « اوبنا » جمع فوكنسون ١٢٠ قدراً لحل الغزل في بناء واحد . اما الغزل فقد بقي صناعة منزلية وريفية . وفي صناعة القطن استحضروا الفرنسيون عمالاً وآلات من انكلترا . وفي السنة ١٧٨٩ كانت هنالك معامل في « بريف » و « اميان » و « اورليان » و « مونتارجيس » و « لوفيه » . وظهر الحديد المصبوب بالفحم المعدني المقطر ، فأفضى الى تأسيس مصانع كبرى كصنع الـ « كروزو » مثلاً . وغدت آلة وات البخارية الاولى مضخة « شاو » النارية ، المعدة لرفع المياه لباريس ، في السنة ١٧٧٩ . ولكن استعمال الآلة لم يمتد بسرعة . ففي السنة ١٧٨٩ لم يكن عدد المضخات النارية مرتفعاً في فرنسا . وان اقتناء شركة انزين لاثني عشرة مضخة منها كان مثاراً للدهشة . ولن يعم استعمال الآلات الا في عهد الامبراطورية .

في البلدان الاخرى على الرغم من جهود الأمراء كانت النجاحات التقنية في دول أوروبا الأخرى ابطاً منها في فرنسا أيضاً . كانت هذه الدول ، مع حفظ النسبة ، في الوضع الذي وجدت فيه فرنسا في عهد ككلوير . مست الحاجة في أوروبا الوسطى والشرقية الى رؤوس الأموال لأن الدول لم تسهم اسهاماً يذكر في التجارة العالمية ولأنها افتقرت

الى المستعمرات . لذلك نجسد في كل مكان ، في « بافاريا » و « روتنبرغ » و « هس » والنمسا وبروسيا وروسيا ، مميزات مشتركة مختلفة الدرجات . الدولة تتدخل في كل مكان . الأمير يحدث المشاريع ، ويتدخل عنها للأفراد ، او يفرض تأسيسها على النبلاء ، والأديرة ، والمدن ، والتجار ، واليهود . تستفيد هذه المشاريع من مساعدات مالية ، واعفاءات من الضرائب والرسوم ، واحتكارات ، كما تستفيد في أغلب الأحيان من مدربين أجانب ويد عاملة مسخرة (متسولين ، متشردين ، بنات داعرات ، إيتام ، جنود) . تنظم العمل بمائل له في المصانع : معمل مركزي يستكمل فيه العمل ، ولكن معظم العمليات ينجزها في منازلهم اجراء قد يحصون بالآلاف . ففي « فريدو » من اعمال يوهيميا ، ضم مصنع « جوهان فريس » للسليج ٥٥ عاملاً في مشاغله ووزع عمالاً على ٢٠٠٠ آخرين في منازلهم . وباع مصنع برلين ، « كونيغليشس لأجرهوس » ، في السنة ١٧٤٠ ، اجواخاً من الصنف الممتاز انتجها لحسابه ١٤٠٠ عامل في منازلهم . ووزع « سولنجن » المادة الخام على عمال يعملون في منازلهم ويسلونه السكاكين بأسعار محددة . وفي روسيا استخدمت مصانع الاجواخ والحريز خمس عاملاً في مشاغلهما بينما عمل الباقون لحسابها في منازلهم . في السنة ١٧٨٠ ، وفي مصنع « ميدينغ » لاشرة المراكب ، تجاوز عدد العمال العاملين في منازلهم ، الى حد بعيد ، عدد عمال المشاغل . ويصح هذا القول في مصانع الخمرات والساعات والزجاجيات والمرايا . المصانع المجموعة كلياً نادرة جداً ، وليس لدينا أمثلة عنها الا في صناعة الاواني الصيلية ، والتبغ ، والآثاث الفاخر ، وتحضير الجمعة ، والتقطير ، ونشر الاخشاب ، او حين يتوجب استخدام يد عاملة مجموعة بحكم الهدف ، كجنود افواج حامية برسلو الخمسة الذين كانوا يغزلون القطن في ثكناتهم في أوقات فراغهم ، أو يد عاملة مجموعة بحكم واجب المراقبة ، كساجين « سباندو » (غزل الحريز والصوف) وأيتام « بوتسدام » (الخمرات البرابانية) ونزلاء « ارفورت » ، وغيرهم ايضاً . اما الآلات فكان استعمالها اكثر تأخراً واكثر ببطئاً ايضاً : فان آلة رات الاولى ظهرت في ألمانيا في السنة ١٧٨٥ . ان القرن الثامن عشر الذي ابتكر الآلات المختلفة وانتجها بكثرة ، قد انصرف كذلك الى تحقيق اختراعات معدة لمستقبل باهر : مانعة الصواعق ، السيارة والقطار الحديدي ، المركب البخاري ، التلغراف والهاتف ، الملاحة الجوية .

مانعة الصواعق نتيجة ابحاث فرانكلن الذي اوقف المانعة الاولى فوق بيته
مانعة الصواعق في شهر ايلول من السنة ١٧٥٢ . منذ السنة ١٧٥٤ انتشر استعمالها . ففي السنة ١٧٨٢ ، كان منها ٤٠٠ في فيلادلفيا . في السنة ١٧٦٢ انتصبت أول مانعة للصواعق في لندن . انتقلت بعد ذلك الى البر الاوروي ، الى ايطاليا منذ السنة ١٧٧٦ ، والى جنوبي فرنسا ثم الى باريس في السنة ١٧٨٢ . اعترض بعض اللاهوتيين على استعمالها : الرعد والبروق دلائل الغضب الالهي ؛ فن الكفر مقاومة طاقتها التدميرية . أجاب لاهوتيون آخرون والفلاسفة أن على البشر اتقاء الصاعقة ، كما عليهم اتقاء المطر والثلج والريح ، بالوسائل التي وضعها الله بين

أيديهم . وغالباً ما أثارت هذه الآلة الخوف في قلوب الجماهير . في السنة ١٧٨٣ ، أوقف أحد اشراف « سانتومير » الريفيين فوق بيته مانعة للصواعق لتلهي بحربة تتحدى السماء . هاجت الجماهير . اصدرت البلدية اليه امرأ بانزال المانعة . تقدم بدعوى الى محكمة « آراس » التي ابطلت القرار البلدي تحت تأثير مرافعة محام شاب ، سيعرف الشهرة فيما بعد ، هو « مكسيميليان دي رويسبيير » . ثم فرضت مانعة الصواعق نفسها بخدماتها الباهرة . فان الابنية التي كثيراً ما تعرضت للصواعق ، ككنيسة القديس مرقس في البندقية وكاتدرائية سينت ، لم تصب يوماً بأذى الصواعق منذ تزويدها بمانعات الصواعق . وعرفت السفن مزيداً من الأمان : فان سفينة كوك قد بقيت سليمة ، بفضل مانعة الصواعق المرفوعة فوقها ، الى جانب سفينة هولندية اصيبت بالصاعقة .

حاول المهندس الفرنسي ، « جوزف كونيو » ، استخدام طاقة البخار للسيارة لتحريك المدفعية . بنى عجلة بخارية لنقل الاثقال ، وعرضها على محك امتحان والقطار الحديدي غريبوفال ، وأمر الوزير « شوازل » بتجربتها تكراراً في السنتين ١٧٦٩ و ١٧٧٠ . في هذه السنة الأخيرة ، جربت آلة كونيو ، وهي السيارة الاولى ، في « دار الصناعة » ، فجرت مدفعاً ثقيلاً من عيار ٤٨ ، مع سنده الثقيل ، مسافة ٥ كيلومترات في ساعة واحدة . تسلفت اشد المرتفعات وعورة ونحطت بسهولة خشونات الارض . ولكن حركاتها كانت من العنف بحيث صعبت ادارتها فجعلت باتجاه جدار وهدمته . ومن حيث هي آلة يلعب فيها التخثير دوراً أولياً ، احتاجت الى كمية كبرى من الماء ، ولم يهتد كونيو الى أية طريقة إحصائية لآلته استعاضة عن الماء . كان توقيفها ضرورياً كل ربع ساعة . فلم يكن استعمالها عملياً . في السنة ١٧٨٦ ، تقدم الاميركي « اولفر ايفانز » من مجلس ولاية بنسلفانيا بطلب امتياز لسيارة بخارية تتحرك بآلة ذات ضغط عال لا تحتاج الى كمية كبرى من الماء . ولكنه لم يحصل على امتيازه الا في السنة ١٧٩٧ ، وفي النهاية كان الفشل حليفه . إلا أن الانكليز استخدموا في مناجم الفحم المعدني خطوطاً حديدية لتسهيل جرّ عجلات نقل الفحم بواسطة الاحصنة ، وهو استخدام هذه الخطوط التي أضعفت تأثير الاحتكاك ، واستخدام الآلة ذات الضغط العالي ، التي جعلها كونيو ، ما أتاح الاهتمام إلى حل بواسطة القاطرة والخط الحديدي .

وَجرت تجربة جهاز هاقي . في أول حزيران من السنة ١٧٨٢ ، اوضح « دون الهاتف غوتاي » ، أحد رهبان دير « سيتو » ، أمام اكاديمية العلوم ، وسيلة تتيح الاتصال بالاماكن البعيدة : وهي أن تقام ، بين مراكز متعاقبة ، أنابيب معدنية يسري فيها الصوت دون أن يفقد قوته فقداناً محسوساً . وكان يعتقد أن باستطاعته أن ينقل امرأ ، خلال ساعة ، الى مسافة ٢٠٠ فرسخ . التمس المركيز « دي كوندورسيه » اجراء اختبار فأذن الملك لويس السادس عشر بذلك . استخدمت في الاختبار الانابيب التي تنقل السائل الى مضخة « شاير » على مسافة

٨٠٠ متر ، فجاء النجاح كاملاً . التمس « غوتاي » حينذاك امتحاناً يتناول ١٥٠ فرسخاً : ولكن الادارة الملكية اعتبرته باهظ الاكلاف . حاول غوتاي فتح اكتتاب في باريس ، ثم في فيلادلفيا ، ولكن النتائج لم تكن مشجعة .

بذلت جهود كبرى في الثلث الأخير من القرن الثامن عشر ، لا سيما تلك التي التلغراف قام بها الكاهن الفرنسي « كلود شاب » ، بغية الاهتمام الى التلغراف الكهربائي . إلا أنها انتهت كلها إلى الفشل لأن الذين بذلوا لم يعرفوا سوى الكهرباء الساكنة التي تذبذب من الاحتكاك أو قذبتها الآلات الكهربائية . إن هذه الكهرباء لا توجد إلا على سطح الاجسام وتبيل باستمرار إلى الابتعاد عنها ؛ فالهواء الرطب وحده كاف لأن تتلاشى . لذلك فإن ثلاثين سنة من المحاولات لم تعط أية ثمرة . عاد الباحثون الى العلائم التي تكون في الفضاء فترى أو تسمع الى مسافات بعيدة . فابتكر الألماني برغستراسر ، من هانو ، لغة شكلية لم تكن عملية ، اذ ان جملة مؤلفة من ٢٠ كلمة استازمت اطلاق ٢٠٠٠٠ طلقة مدفع أو قذف ٢٠٠٠٠ سهم ناري . وكان مقدراً لـ « كلود شاب » أن يهتدي الى الحل في عهد الثورة .

رأت الملاحة الجوية النور في فرنسا . ان الاخوين « اتيان وجوزف مونتغولفييه » ، الملاحة الجوية وهما إبنان لأحد صناعيي الورق في « انواني » اشتهر في كافة انحاء اوروبا بكمال مصنوعات ، وقفا على المؤلف الذي وصف فيه بريستلي عدة غازات جديدة . فكرا بالارتقاء الى الجو بأن يحصرا في غلاف خفيف الوزن غازاً أخف وزناً من الهواء : فارتفع الجهاز الى أن يصادف ، على علو معين ، طبقات يبقية ثقلها النوعي في حالة توازن . قاما باختبارهما الكبير الاول في « انواني » ، في ٤ حزيران من السنة ١٧٨٣ ، أمام مندوبي ولاية « نيفاربه » : ان المنطاد المعروف باسميها ، والبالغ قطره اثني عشر متراً ، والمصنوع غلافه من نسيج مبطن بالورق ، والذي سخن هواؤه بالدرين المشتعل ، قد ارتفع حتى ٥٠٠ متر علواً .

طلبت اكااديمية العلوم إعادة الاختبار ، في ساحة مارس ، في ٢٧ آب من السنة ١٧٨٣ . ملأ البروفسور « شارل » المنطاد بالهيدروجين الذي يزن ١٤ مرة أقل من الهواء ، والذي حصل عليه للمرة الاولى بكميات كبرى بعد أن كان يحصل عليه في المختبرات فقط . أمام ٣٠٠٠٠ شخص يبكون ويتعانقون ، لان أحد أقدم أحلام الانسانية كان في طريق التحقيق ، ارتفع المنطاد حتى علو ١٠٠٠ متر . ولكنه كان قد ملأ تماماً عند الانطلاق ، فتمزق وسقط على مسافة ٢٠ كيلو متراً من باريس . فذعر الفلاحون أولاً اعتقاداً منهم أن القمر قد سقط من السماء ، وانتقموا من خوفهم بتقطيع المنطاد ارباً ارباً . اضطرت الادارة الملكية إلى اشعار الفلاحين رسمياً بأن ليس هناك ما يثير مخاوفهم وبأن لا يمزقوا شيئاً من الآن فصاعداً . وبعد اختبار شرّفه الملك بحضوره ، في ١٩ ايلول من السنة ١٧٨٣ ، كان « بيلاتر دي روزيه » والمركيز « دارلند » الانسانين الاولين اللذين طارا في الجو ؛ حلقا فوق باريس في ١٩ تشرين

الثاني من السنة ١٧٨٣ . اما البروفسور شارل ، الذي ابتكر « السلة » والشبكة والصمام ، فقد اصطحب روبيير وبلغ معه ٤٠٠٠ متر علوا في اول كانون الاول من السنة ١٧٨٣ ، ثم نزل الى الارض على مسافة ٣٦ كيلومتراً من باريس ، مسجلاً مع رفيقه الارقام القياسية الأولى في المسافة والارتفاع . وانطلق « بلانشار » والدكتور « جفرى » من شاطئ « دوفر » في ٧ كانون الأول من السنة ١٧٨٣ وكافا اول من اجتاز المانش عن طريق الجو . وكان « بيلتر دي روزييه » الذي لاقى حتفه في ١٥ حزيران على اثر تمزق غلاف منطاده اول شهيد من شهداء الجو . وابتكر « بلانشار » و « غويتون دي مورفو » المنطاد الميسر ولكن مجاذيفها لم تصلح الا لاثبات استحالة الاكتفاء بقوة الانسان . تأسست في كل مكان من فرنسا جمعيات من الهواة ، وفي كل يوم ارتفع منطاد في الجو . استوحيت أزياء القبعات والوشحة والملابس والمجلات « مونفولفيه » والمنطاد « وشارل » و « وروبير » . ثم عم هذا التيار اوروبا . ففي انكلترا ، ارتفع منطاد هيدروجيني في ٢٢ شباط من السنة ١٧٨٤ . وفي ايطاليا ارتفع المنطاد الاول في ميلانو في الخامس والعشرين من الشهر نفسه والسنة عينها . منذ السنة ١٧٨٤ ، وفي رسالة من أكاديمية ليون ، فكر « غودين » باستخدام المناطيد في الحقل العسكري ولفت الانتباه الى ان « سوبيز » ما كان ليخسر معركة روسباخ لو كان لديه منطاد . وكان مقدراً للمنطاد ان يستخدم في الجيش الفرنسي منذ السنة ١٧٩٤ ويؤمن لفرنسا السيطرة الجوية الاولى .

وهكذا فإن الثورة التقنية الكبرى ، التي وفرت لاروبا تفوقاً مادياً عظيماً اوروبا والعالم على كافة شعوب العالم ، والتي اتاحت لها ثلب شهرة حضارات آسيا نفسها ، قبل ان يتزود العالم بهذه التقنيات ويرتد اليها ، ترد لعمري الى الروح الاوروبية البهتة ، ولكن هذه الروح غالباً ما استثارتها الحاجات التي خلقها الاتصال بشعوب ما وراء البحار ، وغالباً ما وجدت في علائقها بهذه الشعوب وسائل عملها . وربما كان باستطاعتنا القول ان الثورة المالية والصناعية مظهر من مظاهر اتصال اوروبا بالعالم .

الفصل الرابع

تقنيات التحسين الانساني

١ - الطب والجراحة

حقق الفن الطبي تقدماً كبيراً بفضل تأثير الحركة العلمية . فان طرائق الملاحظة والاختبار أخذت تعتمد اعتماداً متزايداً يوماً بعد يوم .

بقيت تنشئة اطباء خاضعة للكتب والنظريات كما هو محتوم . ولكن الاساتذة
الدرس والطلاب أخذوا يمتحنون النظرية بالواقع . كان على الطلاب المسجلين في كلية
باريس الطبية ، بعد انتهاء دروسهم الكلاسيكية ، ان يتلقوا الدروس طيلة سنتين للفوز بدرجة
حامل البكالوريا في الطب : وكان التشريح ، والطب ، والكيمياء ، وعلم النبات ، والصيدلة ،
والجراحة ، والتوليد مادة هذه الدروس . وكان عليهم بعد ذلك تلقي الدروس طيلة سنتين
اخرين للفوز بالاجازة : وكان لزاماً عليهم حضور المناقشات العامة التي تعتمد فيها الاقيسة
المنطقية للمجادلة . وكان عليهم اخيراً ، لنيل الدكتوراه ، مرافقة اطباء الكلية في زياراتهم
لمرضى المستشفى البلدي ومستشفى « المحبة » . وكان هذا الجزء العملي اخذاً بالنمو والتوسع .
تأسست العيادة الجامعية الاولى في فينسا في السنة ١٧٥٤ ، ثم تأسست عيادة أخرى في باريس
في السنة ١٧٧٠ . في درس التوليد ، وهو الفن الذي تفوق فيه الفرنسيون ، درب الطلاب
تدريباً عملياً على دمي من شمع ، وهذه الوسائل البدائية تمت تنشئة مولدين ممتازين . وكانت
العديد من الاطباء ، في الوقت نفسه ، علماء طبيعة من الطراز الاول كـ « هالر » و « سبالزوني »
و « فيك دازير » . ونشأ الى جانب تعليم الكليات تعليم حديث الطابع : في السنة ١٧٧١ ،
اعتلى « بورغال » اول منبر لتلقي علم الوظائف في كلية فرنسا . اجتذبت باريس ومولبييه
الطلاب من كافة أنحاء أوروبا . وكانت لـ « بادوا » و « بافيا » و « بودا » و « فينا » اهميتها الكبرى أيضاً .
وأناحت بعض المنشورات الدورية الخاصة للاطباء مقارنة ملاحظاتهم : « المكتبة الطبية » في
ارفورث ، منذ السنة ١٧٥١ ؛ « صحيفة الطب والجراحة » في باريس ، منذ السنة ١٧٥٤ حتى
السنة ١٧٩٢ ؛ « صحيفة الطب » في البندقية ، منذ السنة ١٧٦٣ حتى السنة ١٧٧٧ .

كان للجراحين أثرهم الكبير . ثوجب عليهم ، حتى ذاك التاريخ ، اجراء العمليات وفاقاً لأوامر رؤسائهم من الاطباء . ولكنهم كانوا مهرة في عملهم . مارس معظمهم العمل اولاً في حوانيت الحجامين الذين كانت الجراحة الصغرى وطب الاسنان وفقاً عليهم . واصلوا التعليم بالممارسة . فرفعوا فنههم ، بفضل الاختبار المستمر ، الى درجة عليا من الكمال وأمنوا له الاستقلال . وتوفقوا الى اقرار تعليم جراحى خاص . وفي السنة ١٧٣١ ، تأسست في فرنسا الاكاديمية الملكية للجراحة . وفي انكلترا ، اقر البرلمان ، في السنة ١٧٤٥ ، منح الجراحين امتيازاً فبنوا مدرسة ومسرحةً مدرجاً . وفي السنة ١٧٨٢ ، أسس « جبوزف الثاني » في فينّا مدرسة للجراحة ، وحذا حذوه « كريستيان الرابع » في كوبنهاغن في السنة ١٧٨٥ . انطوى التعليم قبل كل شيء آخر ، في هذه المدارس ، على دروس عملية تدوم ثلاث سنوات تخضع لامتحانات عملية في الدرجة الاولى: تشريح ، عمليات ، تضييد . وجدير بالانتباه ان كثيراً من النجاحات الطبية احرزها جراحون ألفوا الملاحظة والاختبار .

ان اعراضاً معروفة كثيرة وصفت بمزيد من الدقة ونظمت جداول التشخيص والتقدير
بالاعراض التي تساعد على كشفها وتتبع سيرها . فقد اعطى الفرنسي « جان سيناك » مثلاً دلائل امراض القلب : خفقان القلب ، تورم الارجل ، الربو ، صعوبة التنفس لا سيما في حالة الضجوع ، تمدد الاهر ، نفث الدم . ووصف الاطباء الايطاليون حميات المستنقعات . ودرس كذلك درساً افضل الزحار ، والمفص الاسري ، وتضخم العين ، والذئبة والحصى القرمزية (التي لم تغز عن الحصبة) ، والنكاف ، والامراض الجنسية . واكتشفت امراض مجهولة ايضاً . فان « رولو » ، الجراح العام للدفعبة الانكليزية ، قد اكتشف في احد ضباط المدفعية الداء السكري مع مميزاته : شهوة اكل وظماً مفراطاً ، هزال ، بول غزير ، حلو المذاق ، التهاب اللثا ، تخلخل الاسنان . واكتشفت الحمى التيفية ، التي اطلق عليها اسم الحمى المخاطية ، والحمى الخفيف ، وسئل العظم الذي اطلق على اسم ظواهره اسم الجراح الانكليزي الذي اكتشفه « داء بوت » .

اخذ الاطباء بعين الاعتبار الحرارة وعدد الانباض لتقدير حالة المريض . وهم الانكليز من استعملوا المعر بصورة خاصة . وتبنى الطب وجهة النظر السكية ، فاصبح بذلك اكثر طابعاً علمياً . وفي السنة ١٧٦٠ ، اكتشف الطبيب « اونبروجر » ، في فينا ، القرع كوسيلة لتشخيص امراض الصدر ، ولكن اكتشافه لم يلفت الانتباه تقريباً .

كانت المذاهب الطبية ، بحكم الاشياء ، كثيرة جداً ، اذ كان على الطبيب الطب الدوائي ان ينظر الى مجموع ، هو الكائن البشري ، ومن ثم ان يقوم بعملية تأليفية . نال مذهب « ستاهل » (١٦٦٠ - ١٧٣٤) القائل بوجود الروح في كل الاجسام الحية ، ومذهب « بورهاف » (١٦٦١ - ١٧٣٨) الاختياري ، ومذهب « هوفن » الآلي ، ومذهب

بارتزو (١٧٣٤ - ١٨٠٩) القائل بوجود مبدأ حيوي متميز عن الروح والجسم معاً ، حظوة على التوالي عند الجماهير . اختلف هؤلاء المؤلفون واتباعهم كل الاختلاف عن بعضهم وانما جمعت بينهم صفة مشتركة هي وقوفهم موقف الانتظار والارتقاب . ان للطبيعة قوة علاجية ، ولداء فائدة في انه يزبل من الجسم عناصر مضرّة ، وان الحمى ، بنوع خاص ، احدى وسائل التطهير والتنقية . فعذار من ثم مقاومة الاعراض ، وملاشاة الحمى والبواسير مثلاً ، لنتنظر ونسهل عمل الطبيعة بتنقية الجسم من اخلاطه واجزائه النتنة . الى هذا التفكير يرد استعمال الوسائل السهلة : التليين ، الحقن ، الحمية (بالحمية شفى رولو مريضه المصاب بداء السكري) ، والطرائق المزيّلة الاحتقان : الفصد والحرقاة ، والتأارين الخفيفة ، والدلك ، والمياه المعدنية . فزالت باطراد الادوية المستهجنة كعين السرطان ، واللاّلىء ، ولحم الثعبان .

ولكن برزت اكثر فأكثر ايضاً ضرورة مواجهة المرض نفسه مباشرة ، في وقت واحد . فاختلطت بالروح التأليفية روح تحليلية لن تلبث أن تحل محلّها . أما أهم واضعي النظريات في هذا الحقل فهو عالم الأمراض العقلية الفرنسي « بينيل » (١٧٣٥ - ١٨٢٦) الذي بطري الطريقة التحليلية ويؤكد بان كل داء يرد الى خلل عضوي يجب اكتشافه ومعالجته . وقد رأى القرن انتصار الكيما التي اشار بها الايطاليون بنوع خاص لمعالجة الحميات . واستخدمت القمعية لتقوية القلب في حال الاستسقاء . ولمعالجة فقر الدم اشار « فولر » بالتفضيل بالزرنينخ السائل (سائل فولر) . وخطر للانكليزي « برنغل » ، في السنة ١٧٥٠ ، ان يضع الحرقاة على مركز الألم الشديد في الصدر لمعالجة البرسام والتهاب الرئة . وحاول « فولتا » شفاء امراض الاذن بالصدمة الكهربائية . وعالج « كراتونستين » الدانماركي بالكهرباء أمراض الشلل والنقرس والرثية المزمنة . وفي السنة ١٧٩٠ لم يحصل « فوركروا » على نتائج تذكر بتنشيق الاوكسيجين مرضى السل ، ولكنه احرز نجاحاً في حالات الربو واليرقان وداء الحنازير والكسح .

اهتم الاطباء اهتماماً كبيراً لاتقاء الامراض ولا سيما الامراض الوبائية التي تفتك الوقاية
بسكان العالم فتكأ . عاث الطاعون فساداً في اوكرانيا في السنة ١٧٣٧ ، وفي مسينا في السنة ١٧٤٣ ، وفي موسكو منذ السنة ١٧٨٩ . واقتنت الحمى التيفية آثار الجيوش . فكانت موضعية في اسبانيا منذ السنة ١٧٥٠ . وفي السنة ١٧٦١ اجتاح اوروبا واميركا وباء صدام فتك . كما اجتاح اوروبا السعال الديكي : فأفنى في السويد وحدها ٤٠٠٠٠ طفل بين السنة ١٧٤٩ والسنة ١٧٦٤ . وكان وباء الجدري كارثة حقيقية سببت موت ١٤٠٠٠ شخص في باريس وحدها ، في السنة ١٧١٩ . وفي السنة ١٧٧٠ انتشر في العالم وباء جدري عام : فتك بسكان كافة المدن الكبرى ؛ وبقدر ضحاياه في الهند بثلاثة ملايين شخص .

المحصرت التدابير المتخذة ، لمدة طويلة ، في تدابير الأمن تقريبا . فكانت المناطق المصابة تحاط بجنود يؤلفون حولها نطاقاً صحياً يحظر الخروج منه . وكان يحظر السفر على المسافرين ما

لم يبرزوا شهادة صحية . وكانوا يخضعون ، عند وصولهم ، للحجر الصحي ، اي يوضعون تحت المراقبة على حدة طيلة اربعين يوماً . وكان كل مريض يشير الشبهة يوضع حالاً في الانفرداد في محجر صحي . بدأ « فرانك » النمساوي ، في السنة ١٧٧٩ ، ينشر « قواعد السياسة الطبية » . اكد بأن مراقبة الصحة العامة احد واجبات الدولة وطالب بتشريع خاص . وفي البندقية كان الاعلان عن حالات السل وتطهير أمتعة المسولين امرين إلزاميين ، وجرت محاولات مماثلة في بلدان اخرى .

ألف الأطباء من جهة ثانية كتباً صحية من شأنها أن تتيح لكل انسان تحسين صحته ومقاومة الامراض مقاومة أجدى . نخص بالذكر ، بين هذه المؤلفات ، « آراء للشعب حول صحته » (١٧٦١) و « صحة أهل القلم » (١٧٧٢) الذي لا تزال له أهميته في أيامنا هذه ، وكلاماً للسويسري « تيسو » .

واحرز تقدم حاسم في اتقاء الجدري بالتلقيح . علمت السيدة « مونتيس » حرم سفير انكلترا في الاستانة بان الجرسيات يخزن انفسهن بابر مغمسة في قيق الجدري ، فيصبن من ثم يجدي خفيف ثم لا يلبثن ان يحصلن على مناعة ضد المرض ، كما لو كانت اجسامهن قد ترنت على مقاومة المرض الخفيف واستمدت قوى لاتقاء المرض الحقيقي . اطلمت السيدة مونتيس الغرب على الطريقة ، فكان أن تبناها الطبيب السويسري « ترونشين » (١٧٠٩ - ١٧٨١) وجعل من نفسه بطل التلقيح .

ولاحظ الجراح الانكليزي « جيز » (١٧٤٩ - ١٨٢٣) ، المكلف تلقيح سكان احدى الكونتيات الانكليزية ، ان الذين اصابوا فيما سبق بجدري البقر (Vaccine) لا يتأفرون باللقاح ولا يصابون بالجدري البشري . وبعد ملاحظات واختبارات استغرقت عشرين سنة ، طعم في ١٤ ايار ١٧٩٦ اول ولد ، « جايس فيلبس » ، بقيق جدري البقر ، ونشر في السنة ١٧٩٨ « تحقيقه حول اسباب ونتائج جدري البقر » الذي احدث تأثيراً عظيماً . فقد انقذت البشرية من الجدري . ثم اكتشف بعد ذلك ان التطعيم يمارس في اماكن عديدة من الهند ، وفي بلاد فارس ، وبلاد البيرو . ولكن ما كان يجري ليس سوى اتفاقات محلية . اما جيز فهو وحده من توصل الى اكتشاف معلل وشامل .

فن التوليد
في منتصف الطريق بين الطب والجراحة ، احرز فن التوليد تقدماً عظيماً جداً ، لان كل ما فيه قد رد الى مبادئ آلية وطبيعية ، « باعتبار ان التوليد ليس سوى عملية آلية ، خاضعة لنواميس الحركة » (« بودلوك » ، ١٧٤٥ - ١٨١٠) . فان بوزوس (١٦٨٦ - ١٧٥٣) و « لغريه » (١٧٠٣ - ١٧٨٠) ، مولد ولية عهد فرنسا ، احكاما ملقط الجنين الذي كان مستقيماً حتى ذاك العهد : ادخلا عليه الانحناء اللازم ، فبات استعماله رائجاً . وان « بلنك » (١٧٣٨ - ١٨٠٧) ، الاستاذ في بودا وفيينا ، قاس الحوض قياسات دقيقة ،

وحدد لكل قياس العمليات الخاصة . فوصل فن التوليد الى « يقين هندسي » ، وبلغ كماله التقني . وتنحصر النجاحات المحرزة بعد ذلك الوقت في التطهير والتبنيج .

وبلغت عمليات جراحية كثيرة درجة الكمال ايضا . فان الفرنسي « بتي » الجراحة (١٦٧٤ - ١٧٥٠) قد ادخل الاطمئنان الى نفوس الجراحين بالملوى الضاغط ذي الوصائل الذي ابتكره والذي اتاح تجنب نزيف الدم . كان بالاضافة الى ذلك اختصاصيا في معالجة انفكك العظم ، وكان اول من استخرج الحصى من المرارة . وبلغ من البتر كماله التقني : فقد اجريت بنجاح عمليات استئصال الاعضاء الممرضة والقروح وقورمات المفاصل البيضاء والتورمات العظمية ، والغدد وامهات الدم والسرطانات ، مع علم الجراحين بان هذه الاخيرة تعود الى الظهور . وان « شوبار » (١٧٤٣ - ١٧٩٥) ، مكتشف احدى طرائق بتر الرجل ، قد احرز نجاحات كبرى في جراحة المسالك البولية . واشتهر « دافيل » (١٦٩٦ - ١٧٦٢) بمهارته في إزالة سادة العين (الماء الازرق) باستئصال البلورية ، فاستدعي الى كافة بلاطات اوروبا واجرى في السنة ١٧٥٢ ، عمليات لـ ٢٠٦ مريض اقترن ١٨٢ منها بنجاح تام . واحرز تقدم كبير في شق المثانة لاستخراج الحصى منها ، ولا سيما على يد ممتن باريسى هو الاخ « كوم » الذي ابتكر جهازاً لتفتيت الحصى الكبيرة ، وطريقة للشق بواسطة جهاز منحن يدخل الى المثانة . كانت العمليات مؤلمة جداً لان الجراح لم تتوفر لديه اية وسيلة للتخدير او التبنيج ، ولكنها كانت تتم بنجاح بفضل المهارة التقنية والنظافة والتطهير المؤلم ، حتى بواسطة الحديد المحمى بالنار اذا اقتضت الحاجة . عرفت بعد ذلك اوائل القرن اللاحق مرحلة قهقرى الى ان استؤنف السير قدماً بواسطة الاكتشافات حول الجرائم ومواد التخدير والتبنيج .

٢ - التعليم

هو جرم التعليم التقليدي هجرماً أكثر اعلاناً وأكثر شمولا ، وأكثر بلاغة أحيانا روح القرن منه في القرن السابق ، دون ان يقال في هذا الهجوم شيء جديد حقاً . ليس رأي القرن الثامن عشر في موضوع التعليم سوى تكملة لرأي القرن السابع عشر واضعاف له احيانا . ولكن هنالك ، بدون شك ، مزيداً من التحقيقات .

نجد ثلاثة انواع من المهاجمين . فهناك من جهة العلميون الذين يعتبرون ان التدريس لا يفسح مجالاً كافياً للاكتشافات الحديثة ولفروع العلوم الجديدة . وهنالك من جهة ثانية النفعيون الذين يريدون ان تنطوي البرامج على مزيد من الفنون والمعارف التي يمكن الاستفادة منها فوراً في الحياة اليومية . وهنالك اخيراً الحاسيون ، مستوحو « لوك » ، من امثال كوندريك وروسو ، المقتنعون اقتناعاً تاماً بأن كل افكارنا مصدرها الحواس والراغبون في تعليم بواسطة الكائنات والاشياء ، وبواسطة

ملاحظة الوقائع والاختبار ، لا بواسطة الكتاب والكلمة . وغالباً ما يسير الانسان نفسه في هذه الاتجاهات الثلاثة . كان الجدال حاداً ، وغالباً ما انطوى على سوء النية . غالى المصلحون في مساوئ التعليم وعاملوا خصومهم بازدراء . وأخذ المحافظون عليهم اهمال الاختبار والواقع . نجح المصلحون ، بصورة اجمالية ، ولكن دون ان يحققوا كل ما رغبوا فيه : فقد ادخلت مواد جديدة على البرامج ، واعتمدت طرائق جديدة احياناً ، فكان ان التعليم النفعي ، الذي ندعوه تقنياً ، قد نما وتقدم . جرت الاصلاحات في فرنسا بنوع خاص ، وفي البلدان الخاضعة للملك جرمانيين وفي روسيا . أما في الدول الأخرى فقد كانت الاستحداثات محدودة جداً . فقد بقيت انكلترا نفسها وفيه للتعليم الكلاسيكي القديم ولتعليم المهنة بالممارسة تعليماً مباشراً .

التعليم الابتدائي
ان التعليم الابتدائي الذي يجب ان يزود الاولاد بين سن السادسة وسن الحادية عشرة بالمعارف الاولى التي يمكن الافادة منها فوراً ، كان متباين الانتشار . فقد وزع في العائلات على الاثرياء والميسورين . أما عامة الشعب فكان تعليمها خاصاً في البلدان الكاثوليكية : تولته جمعيات رهبانية ، كـ « اخوة العقيدة المسيحية » ، بمساهمة الرعايا والاهالي أو بدونها . ولم يكن هناك في انكلترا الانكليكانية سوى مدارس راعوية تتعهد بها الاحسانات الخاصة على قدر الامكان ، وفي البلدان الكلفيلية واللوثرية أدى واجب قراءة الكتاب المقدس الى قيام تعليم ابتدائي علني غالباً ما اعطى نتائج جيدة . وفي النصف الثاني من القرن سعى « المستبدون المستنيرون » جهدهم لايجاد تعليم رسمي يستهدف تربية أفراد الرعية الامناء والمطيعين والاكفاء . وفي بروسيا جعل فردريك الثاني التعليم الزامياً في السنة ١٧٦٣ . وفي النمسا اعادت ماري - تريز تنظيم التعليم الابتدائي في السنة ١٧٧٤ . وفي روسيا اصدرت كاترين الثانية ، في السنة ١٧٨٦ ، قانوناً للمدارس الخاصة قضى بأن يكون التعليم وفقاً على الدولة . شمل التعليم الدين والاخلاق أولاً ، أي تلقين الجميع مفهوماً للكون ولمصير الانسان ، ولما كان هذا الأخير ودوره في المجتمع ، ثم عتاد المعرفة الأولية : قراءة ، وصحافة ، وحساب . وكانت النتائج حسنة في معظم الاحيان . وفي فرنسا امتاز لعلمي تعليم عامة الشعب عنه في النصف الاول من القرن التاسع عشر .

اعتبر هذا التعليم ، منذ عهد مبكر ، غير كاف لأولئك الذين توجب عليهم كسب معيشتهم حال انتهاء سني دراستهم . فلذلك ، وبسبب أهمية العمل اليدوي لاحكام النظر واتقان العمل واصابة الرأي ، اُضيف اليه اخوة العقيدة المسيحية في فرنسا منذ زمن طويل التدريب على الحرف . وفي ألمانيا اُدار «فرانك» و «سمار» في « هال » منذ السنة ١٧٠٠ مدارس وفق فيها بين التعليم والتدريب التقني في المشغل ، ونحا هذا النحو فردريك الثاني الذي اُضيف الى برامج المدارس الابتدائية زراعة شجرة التوت وتربية دودة القز .

الى جانب المؤسسات التي افسحت مجالاً للتعليم التقني ، تأسست مدارس تقنية بحتة ، في

ألمانيا وفرنسا بصورة خاصة . ففي باريس تأسست مدرسة الرسم الملكية في السنة ١٧٦٧ لـ ١٥٠٠ ولد فوق الثامنة تلقوا دروسهم فيها مجاناً . وأسس بعض الافراد ، والبلديات ، والولايات ، حيث قامت المصانع ، مدارس لقرن فيها الرسم والرياضيات . وفتح احد الفلاسفة ، الدوق دي لاروشفوكو - لنكور ، لايتام فرقته ، مدرسة مهنية مشهورة أقرها صك ملكي في السنة ١٧٨٦ كانت نموذجاً لمدرسة الفنون والحرف في عهد الثورة الفرنسية . وانما أخذ على هذه المدارس انها لم تهتم الا لتربية العامل مهمة فيه الانسان والمواطن .

يجب ان نضيف الى هذه المؤسسات ، بسبب الطابع الاولي لتعليمها ، معاهد تعليم أخوة الابكار من الاشراف الفرنسيين ، التي تولت اعداد الضباط ، والتي نسج على منوالها في بروسيا وروسيا (١٧٣٢) .

وأراد بعض ذوي النظريات ، المستوحين روسو ، ان يلقنوا العلم بالشكل ، بالتأثيرات الحسية . فان الألماني « باسو » (١٧٢٣ - ١٧٩٠) قد ألقى « دروس اشياء » في داسو . كان يضع امام أعين الاولاد لوحة تمثل امرأة مضناة طريحة الفراش وبعل جالساً الى جانبها وقبعتين صغيرتين على طاولة . وكان على الاولاد ان « يجهدوا » وضع المرأة ، ومعنى القبعتين والاختطار التي تتعرض لها المرأة الحامل وواجبات الاولاد نحو أمهاتهم اللواتي ذفن الامرين قبل وضعهم . وقولف دروس الاشياء كذلك جوهر طريقة « بستالوزي » (١٧٤٦ - ١٨٢٧) الذي باشر رسالة تربية في « نوهوف » في السنة ١٧٧٥ ، ولكن نشاطه الاول ، الذي لم ينحصر في التعليم الابتدائي ، لاحق للمعهد الذي يعيننا . وقد أخذ على هذه الطرائق ، الحصرية جداً ، انها لا تصلح للاولاد المتخلفين وانها مضیعة لوقت الولد الطبيعي الذي لم يقدر حدسه وخیاله وحتى تفكيره حق التقدير .

كان التعليم الثانوي خاصاً في كل مكان تقريباً تحت رقابة الكنيسة والدولة . التعليم الثانوي وأدارت الكليات تعاونيات تعليمية أو جامعات ، كجامعة او كسفورد أو جامعة باريس ، أو جمعيات رهبانية ، كجمعية اليسوعيين الذين أداروا العدد الأكبر منها ، وجمعية البندكتيين ورهبان القديس فيلبس النيري ، أو الافراد ايضاً في حالات كثيرة . في كليات اليسوعيين وجامعة باريس كان التعليم مجانياً للخارجيين ، وكان الداخلون يستفيدون من منح كثيرة . طالب « المستنيرون » اكثر فأكثر ، لاسيما في فرنسا ، بـ « تربية وطنية » وباساتذة علمانيين يختارون بين الناجحين في « مباراة لنيل شهادة التدريس » . ثم اصبحت هذه النزعة عامة بعد طرد اليسوعيين . ففي فرنسا مثلاً بات لزاماً ، بعد السنة ١٧٦٣ ، أن يدير كل كلية « مكتب إدارة » يضم أبرز القضاة . ولكن حل هيئة من الاساتذة الممتازين تسبب في تهمير تعليمي أفادت منه بروسيا وروسيا اللتين احسنتا وفادة اليسوعيين .

ارتكز تعليم الكليات الى درس الآداب القديمة كما درست في ايام النهضة . وكان تعليمها علمياً .

وزع على رجال الغد من قضاة ومديرين ومحامين وأطباء وكهنة ورعاة واساتذة وضباط عامين، فكان طبيعياً أن يجعلهم يتقنون اللغة ، خير أداة لأدق عمليات الفكر وأكثرها تعقيداً ، لا بل الشرط الذي لا بد منه لكل تفكير . استخدمت الكليات لهذه الغاية اللغة اللاتينية ، اللغة الأم للحضارة الأوروبية ، وقبلما استخدمت اللغة اليونانية ، وهي أكثر صعوبة وبعداً ؛ ولم تستخدم اللغات الحية قط ، وهي لم تول ، باستثناء الفرنسية ، لغات مترددة لن تستقر إلا خلال القرن ، وكانت استعمال المفردات كأدوات للفكر من الصعوبة بمكان بسبب افتقار المفردات الهامة بصورة خاصة الى مداليل ثابتة محددة . يضاف الى ذلك ، على حد ما قيل ، أن المؤلفين اللاتين من شعراء ومؤرخين وخطباء ائرياء بالاختبار العاطفي والاخلاقي والسياسي الذي لم يفقد شيئاً من أهميته . فمحالات ومشاكل الازمنة كلها متوفرة في مؤلفاتهم . وكان الدين ، الذي ينطوي على فلسفة كاملة وعلى علم كامل يتناول الطبيعة البشرية والمجتمعات ، متداخلاً كل شيء . فلم يكن للدين كتبه وواجباته فحسب بل ان كتب الصغار الابتدائية تألفت من مختارات للمؤلفين القدماء حول الله والاخلاق ايضاً ؛ وكان يحكم على آراء العصور القديمة ورجالها من زاوية مسيحية . فكان من ثم ، كما ساد الاعتقاد ، تعليماً غنياً جداً .

قسمت الدروس الى مرحلتين . وقد شملت المرحلة الاولى ثلاثة دروس في الصرف والنحو ودرساً في الادب القديم خصص جلته للشعر ، ودرساً في البيان . البيان علم طبيعي . يستخلص من درس كبار المؤلفين قواعد الاقناع . ثم يصيغها احكاماً ويتصل بالتالي ، ككل علم ، بفن أو بتقنية اذا صح التعبير .

كان اكثر التلامذة يهجرون الكلية بعد المرحلة الاولى . وكان الآخرون يتلقون بالاضافة الى ذلك دروس الفلسفة طيلة سنتين . يدرسون المنطق الصوري وعلم ما وراء الطبيعة والاخلاق . المنطق الصوري علم طبيعي يستخلص من درس امهات مؤلفات الفكر البشري قواعد الحكم والبرهان ويستنتج منها فن التفكير . وكانوا يدرسون مبادئ الرياضيات وعلم الطبيعة ، على أن هذا الاخير كان محصوراً في البراهين حول طبيعة المادة وخصائصها . فكان كل شيء ينتهي الى عرض بالاقيسة لمذهب ارسطو يتداخله احياناً شيء من تعاليم ديكارت ولوك .

تميزت الدروس بالنشاط في المرحلة الاولى بنوع خاص . غالباً ما درست اللغة اللاتينية بحسب الطريقة المباشرة ، بدون كلمة فرنسية واحدة ، سوى النصوص المطلوبة ترجمتها . وهكذا فان التلميذ ، الذي لا يلبث ان يمتلك ناصية اللغة ، كان يؤلف باستمرار ، باللغة اللاتينية ، الروايات نثراً ، والامثال نثراً وشعراً ، والمراثي ، والانشيد ، والتآبين ، والمرافعات ، والخطب . وكان طبيعياً أن تلقى الدروس في المرحلة الثانية ، وكان لدى التلامذة دفاتر يدونون فيها ما يلقي عليهم . ولكن مجرد فهم المسألة المطروحة وتلعب الاقيسة المتعاقبة كانت مجهوداً صعباً للشبان ، وقد درجت العادة على المجادلة بواسطة الاقيسة . وكان التدريب يكتمل بتأريين علمية ، مهازل ، وتلاوات عن ظهر قلب ، ومجادلات ، امام الاعيان والاقارب .

، تعرض هذا التعليم للمهاجمة . فقد استهزأ بعضهم بمواضيع البيان من أمثال « ندامة نيرون بعد اعدامه على قتل أمه » ، « لان التلامذة » الذين لم يقتروا جرم قتل قط ، ما كانوا يستطيعوا انتاج شيء شخصي . اما انصار هذه التارين فارتأوا ان المهاجمة لا تعطي وزناً لحس الشبان ومخيلتهم وحدهم ، وان الاساتذة على حق في اللجوء اليها لتنميتها ، اذ اننا لا ندرك حق الادراك الا المواظف التي قد نشعر بها بعض الشيء . وان اهمية المخيلة تفوق اهمية البرهان : ان ما نستطيع رؤيته ولمسه وقياسه قليل جداً ؛ فمن « رأى » فرنسا ، وألمانيا ، والدولة ، وطبقة الاشراف ، وطبقة الكادحين ، والعدالة ، والقساوة ، والحق ؟ وانتقد بعض الخصوم مواضيع الفلسفة : « هل الكيان مشترك بين الجوهر والعرض ؟ » اما الانصار فكانوا يجيبون بأن هذه المواضيع ، المختارة ، تطرح ، كما يجب ان تطرح ، بتعابير تقنية هي في منتهى الضبط والدقة .

الا ان بعض فئات رجال الاعمال قد اعتبرت ان ليس هنالك ما يفيد تجار وصناعيين ومزارعي الغد ، وربما تصور ابناء الصناعيين اليدويين والفلاحين ، الذين جاؤوا لقضاء بعض سنوات في الكلية ، دوغماً رغبة في متابعة دروسهم العليا ، انهم انما يضيعون وقتهم . وارتأوا ، أقله في فرنسا ، ان ما بلغته اللغة من الاستقرار ، والادب من الثروة ، يغني عن اللغة اللاتينية التي لم يعد لها من حاجة الا لترجمة النصوص ؛ وان ما حققته العلوم من تقدم وما وفرته من براهين ودلائل رائعة يسمح بالاستغناء عن كثير من حيل البيان والمنطق . وفي ذلك دليل على ان محاولات جرت لتجديد التعليم الكلاسيكي وتنمية التعليم التقني .

في كل مكان تقريباً ادخلت مواد جديدة على برامج الكليات . في بروسيا ، ادخل فردريك الثاني في السنة ١٧٦٣ تعليم اللغة الفرنسية ، وأحل منطق « وولف » محل منطق ارسطو . في النمسا ، اوجب برنامج الدروس لسنة ١٧٧٣ اعتماد الطريقة الاختبارية في علم الطبيعة والفلسفة والاخلاق . في فرنسا اقدمت بعض كليات رهبان القديس فيلبوس النيري ، ثم الجامعة بعد السنة ١٧٦٣ ، على تعليم اللغة الفرنسية بواسطة الصرف والنحو ، وعلى تدريس البيان بواسطة المؤلفين الفرنسيين . ادخل التاريخ الحديث ، وبعد أن كان سرداً زمنياً للحوادث ، لم يلبث ان اصبح درس الحضارات والحكومات والسياسة الخارجية . تأسست منابر لتلقين علم الطبيعة الاختباري ومختبرات لعلم الطبيعة في كليات عدة بعد السنة ١٧٦٠ . ظهرت اللغات الاجنبية . في الفلسفة ، دحض الاساتذة نيوتون ولوك وديكارت ، ويعني ذلك انهم تكلموا عنهم وأوجدوا الشغف بمعرفتهم . استصوب البعض آراءهم ، وتحلى واحد او اثنان عن البرهنة بالاقيسة . وكان أهم تطویر لفت الانتباه ما أقدم عليه بندكتيو « سان - مور » في كلية « سوري » : بمكنة التلامذة ، الذين يرغبون في ذلك ، تلقي دروسهم بدون اللغة اللاتينية ووضع برنامجهم الخاص بفضل حقوق اختيار اعطيت لهم . الا أن معظم الكليات حافظت على تقليد اثبت مزاياه وأفضليته .

وإذا عارض اساتذة الكليات ادخال العلوم العملية الى المؤسسات ، ظهرت مدارس خاصة بالتعليم التقني . في المانيا أسس « هكر » ، حوالى السنة ١٧٤٧ ، « المدرسة الواقعية » الاولى . وبعد السنة ١٧٦٣ ، اكثر فردريك الثاني من هذه المدارس في بروسيا . وتعددت مدارس التجارة في المانيا . ودخلت فرنسا عن طريق « الازاس » حيث أسس تجار « ميلوز » ، في السنة ١٧٨١ ، المدرسة الاولى . وظهرت بعض المدارس الزراعية . وعلمت المدارس كلتها الدين واللغات الحية والتاريخ والجغرافية والرياضيات وعلم الطبيعة والرسم ، كما علمت بالإضافة الى ذلك ، بحسب الاختصاص ، الكيمياء والعلوم الطبيعية والمراسلة التجارية ومسك الدفاتر وحساب الاوزان والمقاييس في الدول الهامة والعمليات التجارية والزراعة واعمال المشغل . فانجبه التعليم كله شطر الحياة العملية اليومية .

أحدثت مدارس عسكرية وبحرية خاصة . فكان لآل هسبورغ مدارس عسكرية في بروكسل منذ السنة ١٧١٧ ، وفي فيينا منذ السنة ١٧١٨ . وحدث الفرنسيون خير المدارس لإعداد ضباط الغد لدروسهم العليا . فتحت المدرسة العسكرية الملكية ابوابها في السنة ١٧٥١ لتلامذة تتراوح اعمارهم بين ١٣ و ٢٠ سنة . ثم احدث الكونت « دي سان جرمين » في السنة ١٧٧٦ اثني عشرة مدرسة عسكرية اقليمية ، اسندت ادارتها الى رجال كنيسة يعاونهم بعض الضباط ، لقبول تلامذة حتى سن الرابعة عشرة . كان هؤلاء التلامذة يتعلمون اللغة اللاتينية واللغات الحية والتاريخ والجغرافيا والرياضيات والرسم وعلم الطبيعة الاختباري والرقص والمسايقة والموسيقى . وقد ضمت هذه المدارس تلامذة يدفعون رسوماً مدرسية واخرين يستفيدون من منح تتحملها الدولة . وكان نابليون واحداً من هؤلاء الاخيرين في مدرسة « بريين » .

استقبلت فرقنا حراس البحرية في برست وتولون ، لبحرية الدولة ، ابناء نبلاء تتراوح اعمارهم بين ١٤ و ١٧ سنة . سرح افراد هاتين الفرقتين في السنة ١٧٨٦ ، فاستعيع عنهما بكليتين احدهما في « فان » والاخرى في « اليه » . تناول التعليم الرياضيات والرسم وبناء السفن والملاحة وقيادة السفن والاستعداد بواسطة الخرائط . وفي فصل الصيف كانت تنظم اسفار بحرية على ظهر سفن التدريس .

وكان هنالك ، للبحرية التجارية ، ٢٤ مدرسة خاصة لتلقين علم المياه السطحية في المرافئ الهامة ، وفي السنة ١٧٤٦ أحدثت مدارس رسمية في « برست » و « روشفور » و « تولون » .

أمّا في التعليم العالي ، الذي يوزع على شبان اكبر سناً اعد ذهنهم لتحصيل التعليم العالي أعلى درجات المعارف الخاصة ، فقد بقيت الجامعات ، لسوء الحظ ، بعيدة على العموم عن العلوم الجديدة والعلوم العملية . احدثت الجامعات الالمانية دروساً في الاستمرار الزراعي للشبان المعدين لإدارة الاملاك الملكية ، أو مشاريع زراعية اخرى . وحدثت

جامعات « هال » و « هيدلبرغ » و « غوتنجن » دروساً في الكيمياء العملية وعلم الآليات ، ولكن معارضة اساتذة اللاهوت والآداب القديمة كانت سبباً في التخلي عنها بعد سنوات معدودة . وادخل آل هيسبورغ العلوم الاختبارية والتعاليم المفيدة الى الجامعات القائمة في بلدانهم ، ولا سيما جامعة بافيا في ايطاليا الشمالية . إلا ان الدروس الجديدة نظمت على العموم الى جانب الجامعات على يد الاكاديميات والجمعيات الادبية والعلمية وبعض المؤسسات الخاصة . وكان لبعض العلماء واثرياء الهواة ، في فرنسا ، مجموعات عديدة من النماذج والآلات ، كـ « فوكنسون » مثلاً الذي عرض ، في السنة ١٧٧٥ ، مجموعات من آلات الغزل والحياكة في احد فنادق ضاحية « سانت انطوان » وسمح للجمهور بمشاهدتها . ثم أوصى بها في السنة ١٧٨٢ الى الملك لويس السادس عشر الذي اضاف إليها ٥٠٠ نموذج بغية تحسين المصنوعات . وان هذه المجموعة التي ضمت بعد ذلك الى مجموعة اكاديمية العلوم ، غدت ما نعرفه اليوم بالمعرض الوطني للفنون والحرف . وغدت حديقة الملك ، التي ادارها يوفون ، مركزاً للنشر العلمية والتعليم . واجتذبت الدروس في علم النبات والكيمياء والتشريح والصيدلة ، التي ألقاها بعض العلماء ، طلاباً كثيرين جداً ، واستت مدارس لتعليم اعمال المناجم في المانيا ، في « برونسويك » (١٧٤٥) و « فريبورغ » (١٧٦٥) و « كلوستال » (١٧٧٥) ، وفي فرنسا ، في باريس (١٧٧٨) . وغدت المدرسة الفرنسية للجسور والسدود (١٧٤٧) نموذج المدارس العصرية العليا للهندسة المدنية .

واكتسبت الاكاديمية العسكرية النمساوية في « فينتر-نوستات » (١٧٥٢) شهرة حلالاً . وأعيد فتح المدرسة العسكرية في باريس ، في السنة ١٧٧٧ ، لتستقبل نخبة طلاب المدارس العسكرية الاقليمية . وقد تلقى نابليون بونابرت فيها دروسه بعد تخرجه من بريين .

وقامت في فرنسا آنذاك افضل مدارس المدفعية . أما أهمها لمدرسة « لافير » حيث درست شؤون المدفعية ، للمرة الاولى ، تدريساً قياسياً مبنياً على العقل . وقد اشتهرت كذلك مدرسة « هانوفر » (١٧٨٢) حيث درس « شارنهورست » مجدّد الجيش البروسي بعد معركة « ايينا » .

وقد لقن خير تعليم تقني عرفته أوروبا في المدرسة الهندسية الفرنسية في « ميزيير » ، التي تأسست في السنة ١٧٤٨ ، على غرار أكاديمية المهندسين السكسونية للهندسة في الأرجح . فان الطلاب ، الآتين من مدرسة المدفعية في « لافير » ، ما كانوا ليقبلوا فيها الا بعد امتحان عسير . وقد اعتبر مهندسو الجيش الفرنسي خير المهندسين في أوروبا . وخرجت المدرسة رجالاً معروفين كثيرين : « لازار كارنو » ، منظم النصر ؛ والرياضي « بونسليه » ، وكونيو ، مخترع السيارة ؛ وكولومب ، العالم بالطبيعيات ؛ والوطني « روجيه دي ليل » ، مؤلف المرسلات .

منذ السنة ١٧٢٠ تلقى واضعو الخرائط البحرية من الفرنسيين علومهم في دار الخرائط والتصاميم الخاصة بالبحرية في باريس . وتخرج سنوياً من مدرسة البحرية في الافر ١٢ مصمماً

السفن . وكانت مدرسة المدفعيين المتمرنين ، المؤسسة في السنة ١٧٦٦ ، تستقبل شباناً بين الثامنة عشرة والخامسة والعشرين وتجعل منهم ضباط مدفعية في البحرية .

وجّه التعليم في كافة هذه المدارس شطر الناحية العملية . وتناولت الدروس ، المتميزة كلها بقيمة عملية كبرى ، مواد خاصة مختارة . ونذكر على سبيل المثال أن طلاب هندسة المناجم كانوا يدرسون المواد التالية : الكيمياء ، وعلم المعادن ، وعلم سير المياه ورفعها ، والتهوية ، واستثمار المناجم . وكانوا يحلون في قاعة التدريس مسائل عملية عديدة ويرسمون التصاميم . ويعملون في المختبر . وقد كرس نصف الوقت ، ثلاثة أيام من أصل ستة على العموم ، للأعمال المختلفة : بناء الجسور والحصون ، صنع البارود ، مناورات ، ورماية . ومن جهة ثانية كانوا يقضون شطراً من الصيف يمارسون خلاله أعمالاً تدريبية في المصانع وورش الأشغال العامة ومراكز بناء السفن وإصلاحها . فكانت نتيجة الاتحاد الوثيق بين العلم والتطبيق العملي وبين عمل الفكر وعمل الأيدي تعليمياً مهنياً ذا قيمة عظيمة . ويعتبر المؤرخ الأميركي « ف . ب . ارتز » أن التعليم التقني الفرنسي العالي كان على العموم خير تعليم تقني في كافة أنحاء أوروبا ، أي في العالم ، خلال القرن الثامن عشر .

٣ - الصحافة

إن الصحافة الدورية ، التي نشأت في مستهل القرن السابع عشر ، قد نمت نمواً كبيراً خلال القرن الثامن عشر ، في هولندا ولا سيما في إنكلترا ، بفضل مزيد من الحرية ونشاط الحياة السياسية ، وفي البلدان الأخرى ، على غرار هذين البلدين ، كلما نمت الحياة الفكرية وبرزت وسائل العمل السياسي التي توفرها الصحافة . فالصحافة تعكس في كل مكان حالة البلاد عكساً يكاد يكون صحيحاً .

حافظت الصحيفتان الهولنديتان ، « صحيفة أوترخت » و « صحيفة ليدن » ، الصحف الهولندية على الشهرة الأوروبية التي اكتسبتها خلال القرن السابق . ملأت صفحاتها أخبار هامة في أغلب الأحيان ، كالاعلام بمشاريع المعاهدات ، أو معثرة ومعيبة بسبب الحرية التي يتمتع بها أصحاب المطابع في هذه البلاد الجمهورية ، وبسبب تجارتها العالمية الكبرى ، وموقعها كمفتوح طرق على بحار ضيقة هي أكثر البحار الأوروبية نشاطاً ، عند مصب الرين . حررت في معظم أيام السنة باللغة الفرنسية فوجدت قراءً في كل مكان ، وقد سمح الملوك بدخولها دونما صعوبة لأن هذه اللغة تجهلها الطبقات المتوسطة والشعبية . تميزت بالاستقلال وغالباً ما شكت مجالس الوزراء لحكومة الأقاليم المتحدة قسحة الصحفيين ومذاهبها . فكانت الحكومة توجه اليهم التهديد تلو التهديد دون أن تعقب ذلك بعمل جدّي في غالب الأحيان . لذلك كان ملك بروسيا ، فردريك الثاني ، يتدخل شخصياً : هاجمته يوماً جريدة تصدر في « غروننغ » قنبه أحد أمناء سر المندوبية البروسية الصحافي إلى أنه ، إذا استمر في مهاجمته ، « سيُخذ بحقك قرار سيجعلك

تندم على فمלתك طيلة الايام المتبقية من حياتك » . وقد زاحت الصحف الهولندية صحف أخرى تصدر باللغة الفرنسية ، تأسست في بلدان صغرى تتمتع بحرية لم تعرفها الدول الكبرى ، وضمنت لها النجاح بالصدق والصراحة : « صحيفة هرف » في أقليم « لياج » ، « روح الصحف » في لياج ، و « صحيفة برن » و « صحيفة كولونيا » . إلا أن بعض هذه الصحف لم ير ضيراً في تقبل مساعدات الملوك الماليلة .

ازدهرت في انكلترا صحافة عصرية الطابع . تميزت بمحبتها الكبرى الصحافة الانكليزية نسبياً . لا حاجة الى ترخيص مسبق : باستطاعة اي كان ان يؤسس ساعة يشاء الصحيفة التي يطيب له تأسيسها . ولا رقابة احتياطية : فالمقالات لا يقرأها ولا يقطع منها ولا يحذفها رقيب رسمي قبل ظهورها . وهذا شيء ضروري في بلاد خاضعة لنظام تمثيلي وبرلماني الى حد بعيد ، حيث بعض المواطنين ينتخبون ومن حقهم ابداء رأيهم . ولكن الصحافة ليست حاجة سياسية فحسب ؛ فهي نتيجة تفتح كافة اشكال الحياة الاجتماعية ، ولذلك فتبادل الآراء والاخبار ينمو مع كل ما سواه .

بلغت هذه الصحافة بعض الكمال نسبياً . فان المنشورات الدورية ، التي كانت اسبوعية في البدء ، صدرت ثلاث مرات في الاسبوع منذ ان سیرت ثلاث عربات بريد على الطرق الرئيسية المتفرعة من لندن . غدت الـ « دايلي كورانت » ، ابتداء من السنة ١٧٠٢ ، اول صحيفة يومية . كانت هناك اربعة انواع رئيسية من المنشورات الدورية : الجريدة السياسية ؛ والجريدة الاخلاقية ، وابعدها شهرة جريدة الـ « سبكتاتور » لاديسون الذي عرف نجاحاً عظيماً حتى السنة ١٧١٢ واقتفى اثره اكثر من مائة صحافي في انكلترا وخلفه صحافيون كثيرون في السبر الاوروي ؛ والجريدة الاعلانية ؛ واخيراً « المجلة » ، « مخزن » كل جديد مهم في العالم : وكانت المجلة الاولى « مجلة الجنتمن » الشهرية التي تأسست في السنة ١٧٣١ وتألفت من ٤٢ صفحة مطبوعة على عمودين . ولكن هذا التقسيم ليس مطلقاً . فان الجرائد السياسية قد نشرت محاولات اخلاقية واعلانات ، والجرائد الاعلانية نشرت مقالات سياسية ، ونشرت المجلات خلاصات المناقشات البرلمانية . في هذه البلاد التي كانت موطن التجارة الكبرى ، عاشت الصحافة من الاعلانات ، وقد كُتب احد الصحافيين في السنة ١٧٥٩ : « ان صناعة الاعلان هي الآن على قباب قوسين من الكمال ، وليس سهلاً ادخال اي تحسين عليها » .

الصحافة الانكليزية صحافة طبقة من الميسورين . فهؤلاء قد اقصوا الفقراء بضرورة الطابع البريدي التي فرضت في السنة ١٧١٢ ، وزيدت نسبتها تدريجياً ، فازالت من الوجود الجرائد الصغيرة المعديدة التي كانت تباع بفلس وتنتشر الشعب من الجهل من حيث هو يعلم اولاده فيها القراءة . الا ان الجرائد كانت ، بفضل المقاهي ، في متناول الصناعيين اليدويين انفسهم . وكما كانت دهشة مونتسكيو كبيرة حين رأى عاملاً مسقماً يطلب ان يؤتى له بحريضة .

وهي صحافة نضال ايضاً حاولت الاحزاب والحكومة الافادة منها. فرؤساء الاحزاب أسسوا الجرائد وتنازعوا الصحفيين اللامعين الذين يحصى بعضهم بين كبار الكتبة الانكليز : « ديفو » ، « سويفت » ، « فيلدنغ » . لا بل ان أحد الاسياد العظام ، « بولنبروك » ، قد احترف الصحافة منذ السنة ١٧٢٨ حتى السنة ١٧٣١ تقانياً منه في سبيل حزبه . وقد استخدم رئيس مجلس الوزراء « مالبول » (١٧٢١ - ١٧٤٢) عدداً من المستكتبين واعطى تصاميم المقالات واوحى بما يجب أن يُنشر لعدد كبير من الجرائد وقدم المساعدات المالية للمستقلين أو المعادين. فجر ذلك على الدولة ٥٠٠٠ الف جنيه استرليني في السنة . اتفقت كلمة كافة السياسيين على أن لا يعرف الصحفيون عن البرلمانات إلا ما يرونه مفيداً . لم تكن الجلسات عامة وقد حظر نشر وقائعها . فكان خيراً أن لا يعرف الجمهور معرفة أكيدة أن رئيس مجلس الوزراء كان يمر بين مقاعد النواب موزعاً عليهم الاوراق النقدية . ووجدت الصحافة نفسها ، من ثم ، معاقة ومستعبدة بعض الاستعباد .

حاول بعض الصحفيين ، الحريصين على تأدية واجبهم المهني قبل كل شيء ، أن يؤمنوا استقلالهم . وقد بلغوا ما سعوا اليه ، فيما خص الاحزاب ، بفضل الاعلانات وحتى بفضل ضريبة الطابع البريدي التي ازلت المنافسين من طريقهم . نشر مديرو المجلات وقائع جلسات مجلس العموم بالاشارة الى النواب بحرفين من اسمهم اولاً (١٧٣١ - ١٧٣٨) ، ثم بتظاهرهم ، بعد صدور رواية « سويفت » ، بسرد مناقشات مجلس شيوخ « ليليبوت » (١٧٣٨ - ١٧٥٢) ، واخيراً بنقلهم تفاصيل المناقشات بصراحة ، فسارت الجرائد على خطاهم . وكان أن الأزيمة الكبرى التي نشبت بمحاولة جورج الثالث ممارسة الحكم الشخصي ، وقد برزت فيها قضية « ويلكس » بصورة خاصة ، أفضت الى انتصار الصحفيين . ففي السنة ١٧٧١ ، أوقف بعض الصحفيين لنشرهم تفاصيل المناقشات البرلمانية ، فأخلى سبيلهم قضاة لندن ، وكان من قوة تيار الرأي العام أن تخلى البرلمان عن المنع . وبعد محاولات كثيرة بذلت بغية تكليف القضاة الملكيين تقرير ما اذا كانت المقالات تنطوي على طابع القدح والذم ، تركت هذه المهمة اخيراً ، في السنة ١٧٩٢ ، للمحلفين والصحفيين الذين اصبحوا ، بمثل هذه الحماية ، يتمتعون بحرية تامة .

في المستعمرات الانكليزية الاميركية تقدمت الصحافة تقدماً عسيراً . الصحافة الاميركية فالحبر والورق وأحرف المطابع المستوردة من اوروبا كانت مرتفعة الاسعار . وكان عدد المشتركين ضئيلاً لأن الأخبار كانت نادرة ومتأخرة . وكان اجتياز الاطلسي يستغرق بين خمسة وثمانية اسابيع ، ولم تكن المواصلات أقل بطناً بين المستعمرات الشبالية والمستعمرات الجنوبية . ومع ذلك فقد كان هنالك ، في السنة ١٧٧٥ ، ٣٤ جريدة اسبوعية تصدر بانتظام تقريباً ، أمها جريدة « فرانكلن » ، « جريدة بلسلفانيا » ، في فيلادلفيا . خلال حرب الاستقلال ، أدير النضال الفكري بواسطة الكتب الصغيرة بصورة خاصة : إلا أن

« جريدة بوسطن » لصاحبها « سام ادامز » و « جرائد » « توماس باين » قد لعبت دورها ايضا . ثم تعاطف ميل الاميركيين الى المنشورات الدورية . فتأسست مصانع ورق وجبر وأحرف مطابع للاستغناء عن انكلترا . وفي السنة ١٧٨٢ ، كان هنالك ٤٣ نشرة دورية ، وفي السنة ١٧٨٤ ، ظهرت الجريدة اليومية الاولى ، « بنسلفانيا باكت » .

كانت الصحافة في البر الاوروبي ، حينما قامت ملكية مطلقة ، خاضعة للترخيص المسبق ، والاحتكار ، والرقابة المسبقة . وكان الصحفيون ، من جهة ثانية ، محترفين في كل البلدان كجبهة وسطحيين . فكان للوفاءات الكبرى والكتب الصغرى مركز الصدارة . ولذلك فان فولتير ، وهو اول صحفي عرفته العصور المتعاقبة ، لم يكتب في الجرائد . فكثرت من ثم الجرائد المخطوطة التي بيعت في الخفاء ، وهي الشكل الدوني من اشكال الصحافة .

بيد ان استرخاء عاماً قد شجع الصحافة في فرنسا . دفعت بعض الجرائد الجديدة تعويضاً للجريدة الدورية الممتازة ، « جريدة فرنسا » ، للأخبار السياسية ، و « مركور فرنسا » للأخبار الادبية والعلمية ، و « جريدة العلماء » . وحرر غيرها خارج فرنسا وسمح لها بالدخول مقابل رسم تستوفيه وزارة الشؤون الخارجية . الا ان فقدان الوحدة في الحكومة غالباً ما اتاح الاهتداء الى وزير يحمي الجريدة من الرقابة . فصدرت منشورات دورية كثيرة اشتهرت الأب « بريفو » ، والأب « ديفوتتين » ، وفريرون . لا بل ان المكتبي « بنكوك » قد نظم منذ السنة ١٧٧٢ شركة احتكارية حقيقية للجرائد وتوصل في السنة ١٧٨٧ الى الحصول على امتياز « جريدة فرنسا » و « مركور فرنسا » ، وأدخل في خدمته المحررين النضاليين ، المشهورين بمعنهم وحميهم ، الذين ينادون الحرية . ولكن التأخر كبير بالنسبة للصحافة الانكليزية : فلن « جريدة باريس » ، وهي أول جريدة يومية ، لم تصدر الا في السنة ١٧٧٧ .

حاولت الحكومة ان تضمن لها خدمات الصحفيين الفرنسيين والصحافيين الذين يكتبون باللغة الفرنسية في كافة انحاء اوروبا . وقد انققت في محاولتها مبالغ ضخمة من المال . ثم فكرت بأن تكون لها جرائدها ايضا . ففي السنة ١٧٦١ ألحق « شوازل » « جريدة فرنسا » بوزارة الشؤون الخارجية واوعز الى المشرفين عليها باعتماد « اللهجة الجمهورية » . وبواسطة الصحافة أعد « فرجين » الرأي العام للحرب الاميركية . ومنذ السنة ١٧٧٥ أخذت « جريدة فرنسا » وال « مركور » تعظم « الثائرين » . ومنذ السنة ١٧٧٦ ، ادارت وزارة الشؤون الخارجية سرّاً جريدة « شؤون انكلترا واميركا » التي ما فتئت تهاجم الانكليز وانتهت الى امتداح مبادئ اعلان الاستقلال ونشر مقتطفات طويلة من « العقول العام » ، « مقالة توماس باين الانتقادية الديمقراطية العنيفة » . فكان ذلك بمثابة لعب بالنار .

أما الدول الأوروبية الأخرى ، فكانت كلها دون فرنسا بمرأول. الترخيص البلدان الأخرى يمنح بكل تقدير ، والرقابة تمارس بكل صرامة . تمت النشرات الدورية على العموم في المدن الحرة ، المزهرة تجارها ، « فرنكفورت » ، « هامبورغ » ، كولونيا ، أوغسبورغ ، ولكنها لم تنج من ازعاج الرقابة الدائمة . بيد ان الاولوية كانت للنشرات الأدبية الدورية في كل مكان . وفردريك الثاني هو الوحيد ، بين كافة الملوك ، من افاد من الصحافة خير افادة بمرآعاته مصلحته الشخصية دون كل مصلحة أخرى . استحدثت الجرائد في مدنه الكبرى . وكتب مقالات واوحى بغيرها ونقح سواها . مارس البطل بكل مهارة ، فلإثارة الرأي العام الألماني والبروتستانت على النمسا الكاثوليكية ، لم يأنف من ان ينشر في كل مكان رسالة مزعومة من البابا الى القائد النمساوي « دون » وكتاب تهنية مزورة من القائد الفرنسي « سوبيز » الى هذا الأخير (١٧٥٩) . في السنة ١٧٦٧ هزت برلين شائعة حرب جديدة . فاعطت الجريدتان البرلينيتان شق التفاصيل حول عاصفة برّدية شديدة اجتاحت ، بزعمها ، منطقة « بوستدام » . نسي البرلينيون الحرب في استزادتهم من التفاصيل حول هذه الكارثة الخيالية . في سيليزيا المحتلة ارغمت « جريدة سيليزيا » على اطراء الانتصارات البروسية والنظام البروسي ، ومهاجمة النمسا . وأوعز فردريك الثاني بأن تؤسس في « كليف » جريدة باللغة الفرنسية بغية التأثير على أوروبا ، هي « بريد الرين الأسفل » . وقدم المساعدات المالية ، شأن غيره ، للجرائد الصادرة باللغة الفرنسية ، كـ « جريدة برن » مثلاً . وحارب خصومه بكافة الوسائل . فأمر مثلاً بأن يوسع مدير « جريدة كولونيا » المعادية ضرباً بالعصا . اضطّر النمساويون ، بدورهم ، الى اثاره جرائد المدن الكبرى على فردريك الثاني . وفي اقصى أوروبا ، أي في روسيا الآخذة في التنبه الى حياة الغرب الفكرية ، ادارت كاترين الثانية مجلة « شيء من كل شيء » واعتمدت فيها الاسلوب الجدلي . بذلت بعض المحاولات في سبيل تحقيق حرية الصحافة ، كمحاولة « جوزف الثاني » مثلاً ، ولكنها لم تدم طويلاً .

يتضح من ثم ان الصحافة برزت كأداة تربية قوية . وهناك جرائد دورية إنكليزية وفرنسية عديدة أثبتت قيمتها الكبرى . ولكنها توجهت بصورة خاصة الى الميسورين والمتقنين من النبلاء والبورجوازيين . ان زمن الصحافة الشعبية لم يحن بعد . وعلى الرغم من ذلك ، فقد كانت الصحافة ، منذ ذاك التاريخ ، أداة كذب واداة تضليل للرأي العام .

ان مجموع الطرائق التقنية التي بحثناها في هذه العجالة ، سواء كانت جديدة كل الجدة ، ام اتخذ استخدامها آفاقاً جديدة واشكالاً جديدة ، لجدير لعمرى بأن يحمل اسم الثورة . توفرت للاروبيين وسائل فاقت كل ما عرف منها قبل ذاك التاريخ . وكان بإمكانهم تولى امر تحسينهم الخاص وتحسين كافة البشر ومحاولة ايصالهم الى مستوى الانسانية الاسمى . ولكنهم لم يسعوا في اغلب الاحيان الا وراء الفتح والاستئثار بغية اشباع رغائبهم . وعلى الرغم من النوايا الكريمة ، فقد حال الاتجاه التجاري للحضارة الأوروبية خلال القرن الثامن عشر دون قيام الأوروبيين بهداية الاعراق الملونة في ما وراء المحيط الى خير ما امتلكته أوروبا .

الكتاب الثالث

الأنوار وتعذر تحقيق الأمة الأوروبية

الفصل الأول

وحدة أوروبا

افتتحت أوروبا بحلم ساحر، هو حلم الأمة الأوروبية. وعى المثقفون ما يقرب بينهم من أحياء آداب قديمة، ومسيحية، أو مثل موروثه عنها، تداخلت كل أفكار العصر، حتى المعادية المعادية منها، وفردية النهضة، وروح علمية عصرية، وأشكال فنية، وحياة مجتمع، وتقنيات، ولاحظوا وجود هذا الكائن، أوروبا. وصفها فولتير كـ «... نوع من جمهورية كبرى مقسمة بين عدة دول، بعضها ملكي وبعضها الآخر مختلط، هذه استوقراطية، وتلك شعبية، ولكنها متطابقة كلها، من حيث هي ترتكز إلى أساس ديني واحد، وتؤمن بمبادئ حقوقية وسياسية واحدة، مجهولة في الحياء العالم الأخرى...» والحق الميلانيون في التأكيد: «إن البشر، الذين كانوا في ما مضى رومانين أو فلورنسيين أو جنوئين أو لومبارديين قد أصبحوا كلهم أوروبيين تقريباً»؛ وذهب الجيني في روسو في تأكيده إلى حد قوله «إن ليس هنالك اليوم من فرنسيين والمسلمين وإسبانيين وحتى من إنكليز، ليس هنالك سوى أوروبيين. ميول الجميع واحدة هو أواؤهم واحدة وأخلاقيهم واحدة لأن واحداً من كل هذه لم يتخذ شكلاً قومياً بموجب نظام خاص». ودرج المثقفون على الكلام عن «عادات أوروبا المشتركة». أما المستقبل المرتقب فكان نهاية الحروب وتقارب كافة الدول في اتحاد كبير للدول المتحدة الأوروبية.

أوروبا الفرنسية هي فرنسا آنذاك ما وحدت أوروبا فكرياً وأخلاقياً. على الرغم من هزيمتها في حرب وراثة عرش إسبانيا ومن اعترافها بالهزيمة في معاهدتي «أوتريخت» و«راستات»، وعلى الرغم من أن إنكلترا أصبحت الدولة الأولى تجارياً

وسياسياً ، فإن فرنسا ما زالت تثير وتفقود أوروبا ، وتثير وتفقود بواسطتها عالماً بكامله . فلان
المركز « كاراشيولي » ، سفير نابولي ، قد صدر كتاباً صغيراً وضعه في السنة ١٧٧٦ بهذا العنوان :
« باريس ، مثال الأمم الأجنبية » او « أوروبا الفرنسية » . وقد جاء فيه : « من اليسير إبدأ
التعرف الى أمة مهيمنة تحاول اقتفاء آثارها . بالامس كل شيء كان رومانيا ، أما اليوم فكل
شيء أصبح فرنسياً . وفي أواخر القرن ، قال « ريفارول » في احتفال تتويجه في أكاديمية
برلين : « يبدو ان الزمان قد حان للكلام عن العالم الفرنسي » ، كما سبق الكلام في ما مضى
عن العالم الروماني . والمقصود بكل ذلك هيمنة فرنسية مرتكزة : لا الى القوة ، بل الى
رضى الافكار الحرة .

لأوروبا لغتها المشتركة ، اللغة الفرنسية ، التي كانت قيمتها احد اسباب رفعة
المقام الفرنسية . منذ السنة ١٧١٤ ، اذ سلم صاحب الجلالة الامبراطورية
وصاحب الجلالة المسيحية جدا ، في راستات ، بتوقيع اتفاق باللغة الفرنسية ،
حولت اللغة الفرنسية محل اللغة اللاتينية ، حتى حدود آسيا ، كلغة دبلوماسية : ففي السنة ١٧٧٤
حسرت الاتراك والروس معاهدتهم باللغة الفرنسية .

وتكلم امراء أوروبا جمعاء اللغة الفرنسية وكتبوا باللغة الفرنسية ، ونحنا نحوم افراد بطائهم .
وراسلت ماري-تيريز النمساوية ابنها جوزف الثاني وابنتها ماري - انطوانيت باللغة الفرنسية .
ونظر فردريك الثاني ، ملك بروسيا ، الى اللغة الالمانية كما الى طمطمانية بربرية ولم يستعمل
سوى اللغة الفرنسية . باللغة الفرنسية راسلت الفلاسفة كاترين الثانية امبراطورة روسيا .
واستخدم اهل الأدب كذلك اللغة الفرنسية . لابل ان الجرمني « لسنغ » كاد يؤلف
ال « لاوكون » بالفرنسية ، وان « غوته » ، الذي سيتكلم فيما بعد عن « لغته الالمانية العزيزة » ،
قد تردد بين اللغتين . واجاد العديد من الاوروبيين التأليف باللغة الفرنسية ، وانه لجدير بسبعة
منهم ان يحتلوا مركزاً في أدبنا : البريطاني « هاملتون » ، الامير البلجيكي « دي لينيه » ،
الكاهن الايطالي « غالباتي » ، الصحافي الالمانى « غريم » ، ملك بروسيا « فردريك الثاني » ،
الامبراطورة كاترين الثانية ، الجنيفي جان جاك روسو . وتكلم اللغة الفرنسية كافة « اهل
الفضيلة والامانة » . فكانت اللغة الفرنسية لغة المجتمع الرفيع . ولم ينتقل الادب الانكليزي الى
أوروبا الا في ترجمات او مقتبسات فرنسية . وحتى يستطيع الهنغارون استخدام مجموعة
ايطالية ، كان ضروريا ان تكون مترجمة الى الفرنسية . ولعل النخبة الالمانية عرفت مؤلفات
كبار الكتاب الالمان ، من امثال « كلوبستوك » و « لسنغ » ، من خلال ترجمة فرنسية .
وخير القول ما قاله فردريك الثاني حين امر ان تنشر باللغة الفرنسية « اجاث أكاديمية برلين » :
« على الاكاديميات ، كي تكون مفيدة ، ان تبليغ اكتشافاتها باللغة الشاملة ، وهذه اللغة هي
الفرنسية » ، وفي كتابه « التاريخ المصري » جاء عن اللغة الفرنسية ما يلي : « تدخل الى كافة

المنازل وكافة المدن. سافر من لشبونة الى بترسبورغ ومن ستراسبورغ الى نابولي ، وتكلم الفرنسية ، فتصادف في كل مكان من يفهم ما تقول .

ان اللغة الفرنسية مدينة بهذه الملكية الخارقة لوضوحها . فهي اكثر اللغات وضوحاً لان عمل الكلاسيكيين قد اقصمها على اعم المفردات بالاستغناء عن معظم الكلمات التي تستخدم في العلم الواسع الخاص وفي الاختبار التقني ، وعن الكلمات الاقليمية والمحلية والشخصية والمؤثرة ؛ ولأن كل كلمة أو تعبير احتفظ بها قد كانا موضوع بحث وتدقيق ، وكل معنى قد حدد ، والقوة والمدلول قد قيسا ، والتجانسات والاستعمال والموافقات قد عينت ، وأخيراً لأن ليس من لغة في أوروبا بلغت هذا القدر من الضبط والصحة والوضوح وقرب المأخذ بالنسبة لكل من ليس منتسباً للبلاد أو للهنة .

انتصرت لانها استخدمت في اكمل المؤلفات ، تلك التي انتظمت فيها الافكار انتظاماً خالياً من كل عيب ينقلنا قدر يمحياً من الفكر البسيط الى الافكار المطردة التركيب بحسب تسلسل منطقي ؛ ولأن كل فكر قليل الفائدة أو غريب عما يريد المؤلف ابضاحه أو اثباته يقصى اقصاه تاماً ؛ ولأنها استخدمت كذلك في المؤلفات التي تحققت فيها خير تحقيق صفات النظام والسيان والتدرج والاتصال واستمرار البيان ، وفي تلك التي تطرق جوهر الموضوع بدون مداورة وتفسير وتبرهن وتفنن وتقرّب الى الادراك ، بشكل لا نظير له .

ان هذه المؤلفات ، وهي اجلى ما انتجته أوروبا ، لكافية بمجرد صناعتهما لأن تؤلف مدرسة فكرية ، ولكنها بالإضافة الى ذلك تنطوي على كنز قل نظيره من الملاحظات والآراء . غزا الادب الفرنسي كل شيء . قرأ الناس كبار كلاسيكيي القرن السابع عشر ومؤلفي القرن الثامن عشر واعادوا قراءتهم تكراراً وتأملوا فيهم واستساغواهم وقلدوهم واقتبسوهم . لقد هتف الميلاني « بكاريا » قائلاً : « أنا مدين بكل شيء للكتب الفرنسية . ايه دالمبير وديدرو وهلفتيوس وبوفون ، ايتها الاسماء الذائعة الشهرة التي لا يمكن ان نسمع بها دون اهتزاز وتأثر ، ان مؤلفاتكم الخالدة هي كتب مطالعتي الدائمة وموضوع انشغالي في النهار وتأملاتي في الليل » . وكان باستطاعة الوف مؤلفة ان تقول ما قاله بكاريا . وتشرب فردريك الثاني « بابل » ، وفونتنيل ، ومونتسكيو الذي دعاه « توراة المشرع المصري » ، ولا سيا فولتير . وتغذى جوزف الثاني بمؤلفات واضعي دائرة المعارف والاقتصاديين و « الملك » فولتير . وتشبع الكتاب الالمان من الادب الفرنسي . لا بل ان صحافياً اشتهر بالمانيته كـ « لسنغ » قد حاول افراغ جلته في قالب جملة فولتير ، واشهر بمسرحياته نظريات ديدرو ، واستوحى الاب « دي بوس » في نقده الفني . وجاء غوته الى جامعة ستراسبورغ بغية اتقان اللغة الفرنسية وافتتن بالفرنسيين . لا بل بلغ من تأثر الانكليز بالادب الفرنسي ان مقالات انتقادية سياسية قد صيغت صياغة فرنسية . لقد سيطر على أوروبا انحاء عقلي مشترك وطريقة تفكير مشتركة وآراء كثيرة مشتركة .

وكان فرنسياً كذلك الفن الأوروبي، وهو مصدر آخر لميول ومشاعر مشتركة .
الفن الفرنسي اراد المجتمع الفرنسي آنذاك ان يحمل حياته بملأ الحواس اللطيفة التي تستلزم
فن اوروبي حكماً محصاً ، وقد خرج الفن الفرنسي من هذه النزعة التي قواها .

انه متجانس وتطوره متواصل . بشق النفس نستطيع ان نميز مزيداً من الشهوانية والهورى
في عهد الوصاية ، اثناء المرحلة التي عقيت الحرب ؛ وحالة توازن حوالي السنة ١٧٥٠ ، حين
عرف النمط المعروف بنمط لويس الخامس عشر اوج ازدهاره ؛ ونزعة متزايدة الى البساطة
وعدم التصنع ، ابتداء من السنة ١٧٦٠ ، تحت تأثير العصور القديمة المكتشفة في اتروريا ،
وبومبيي ، ومصر ، ونظريات « ونكلن » ، في ما اطلق عليه اسم نمط لويس السادس عشر .
ولكن هنالك ما هو اشد بتمصيم على متابعة المهمة المشروع بها وادخال الجدة في التقليد .
فكان « دافيد » اول من ظهر بمظهر الناصر . وان هذه الوحدة وهذا الاستمرار يردان الى
هيكل اداري « لا يزجج الاقوياء ... » ويساند الضعفاء ، ويتيح للمتوسطين انفسهم ان لا
يكونوا البتة ارباء كلياً ؛ سلطة وكيل الابنية ومهندس الملك ورسامه الاولين ، واثر
الاكاديميات النشيطة جداً التي تعلم وترشد وتكافئ . وترد الوحدة والاستمرار كذلك الى
الذين يحتل البورجوازيون ولا سيما البورجوازيات المركز الاول بينهم : المرأة هي مصدر
الوحي الاول . اما الملك ، الذي واجه صعوبات مالية جمة ، فلم تعد نصرة الفن وقفاً عليه ، بينما
كانت البلاد آخذة يجمع الثروات بواسطة التجارة والمصانع . واذا استمرت الملكتان « ماري
لكزنسكا » و « ماري انطوانيت » والعائلات النبيلة الكبرى في تشييد الابنية وطلب البضائع ،
فان حديثي النعمة وحديثي العهد بالغنى قد لعبوا دوراً ربما كان اكبر من دور الملكتين
والعائلات النبيلة : التحليلات الملكية المنحدرات من اصل وضيع ، كالسيدة « دي بومبادور »
والسيدة « دي باري » ، ورجال المال كـ « كروزا » و « باري - دوفرنى » ؛ وممثلات الاوبرا
كـ « غيهار » . لم يعد الفن فرسالياً فحسب ، انه باريسي في الدرجة الاولى ، والولايات تقتفي
اثر باريس . الفنان يحلم بجمهور اكبر عدداً . فمنذ السنة ١٧٣٧ ، لا تسمح الاجتماعات في
قاعات الاستقبال ، التي يسرد تفاصيلها الصحفيون ، كديدرو مثلاً ، بالاتصال بمزيد من الناس
فحسب ، بل ان إعادة نشر المؤلفات بنقوش متقنة يرغم على ارضاء هواة من صغار البورجوازيين
انفسهم ايضاً . من هذه التأثيرات المختلفة انبثق الفن الذي تميز بتنوعه وسحره .

ازدهر في أعقاب حروب لويس الرابع عشر الطويلة والعصيبة ، في عصر أبعد استقراراً
كادت المملكة لم تشعر فيه بقتال ملوكها في الخارج ، واستوحى السمي وراء السعادة على هذه
الارض ، فجاء فناً علمانياً بحثاً ليس من روح الكنيسة لا بقليل ولا بكثير . هندسة عمارة
كان ام تريينا ، رسماً أم نقاشاً ، زياً أم موسيقى ، فانه يطفح بالطلاوة أبداً . اناقة ، وخفة ،
حتى في القوة ، وانطلاق ، ونسق رشيق ، واعتدال ، وتحفظاً ، انه لمن الصعب التعبير عن هذه

الطلاوة بالكلام ، ولكن ليس من يشاهد تحقيقات هذا الفن دون أن يتأثر بها . انه فن فني ؛
فني باختيار نماذج أولاً : فمع ان الرسامين والنقاشين لم يرفضوا الكهول والشيوخ في رسم
الاشخاص ، وحتى المشاهد ، فانهم قد فضلوا الاطفال والفتيان والشبان ولا سيما الشابات ، لأن
العصر كان « عصر المرأة » ، وفي ذلك ميل الى الحركة ، ونزوة العنف في التأثيل المختلجة ،
ومسيرة الجماعات الراقصة على اللوحات ، ونسق وجه الابنية الذي يشعر المشاهد امامه وكأنه
مأخوذ ومحول كما في موسيقى راقصة سحرية . انه فن بهيج أيضاً : فاخشاب الاثاث الزاهية
الالوان ، ومرايا المداخل المتألقة ، والوان الرسوم اللامعة والمتنوعة ، وجمال العربي ، والبساتم ،
كل ما فيه سحر للعيون ، وعيد دائم ، وكل ما فيه يعبق بهجة الحياة . وانه فن مريح اخيراً
لا يغفل رغد العيش البتة . ان هذه المميزات المسيطرة ، التي قد تراقفها مميزات أخرى ، موجودة
في كافة تحقيقات هذا الفن .

هندسة العمارة الفرنسية عفي القرن الثامن عشر عناية خاصة بتجميل المدن الذي سبق للقرن
السالف ان عاد إليه . نظر الى المدينة ككل لتجميلها وتحسين حياة
سكانها المادية . سمى وراء الجمال والمنفعة في آن واحد . كوّن لنفسه مفهوماً كلاسيكياً واراد
إخضاع الطبيعة لمشيئة الانسان وعقله ، ولكنه لم يهمل الطبيعة قط ، ولا التاريخ ، لأن الصواب
يقضي بالاستفادة من معطياتها . فبرزت في كل مكان الارصفة الجميلة والجسور المتينة في « رين »
و « اورليان » و « بلوا » و « تور » و « نانت » ، والمنزهات العامة وحدائق المدن ، كالدائرة
الكبرى في « تولوز » مع نجمتها المخضوضبة (١٧٥٢) ، وحديقة « الينبوع » في « نيم » ،
و « د بروجي » في « مونبلييه » مع اطلالته على أفق جبال « سيفين » العابس والاجرد ، وبرزت
في كل مكان الساحات الملكية الممتدة لأن تكون اطاراً لتمثال الملك ، في « ليون » و « مونبلييه »
و « ديجون » و « رمس » ، و « فالنسيان » ، و « نانسي » ، و « بورجو » ، و « رين » ،
ولا سيما ساحة لويس الخامس عشر (ساحة الاتفاق) في باريس . ولكن الساحة ، التي كانت
مقفلة في القرن السابع عشر ، انفتحت في القرن الثامن عشر واسهمت في السير العام . لم يشيد
في جوار ساحة لويس الخامس عشر سوى صف من الابنية الى الراء ، وامتدت الحدائق الى يمينها
ويسارها وانساب نهر السين امامها . وتجاورت الساحات ، كما نرى ، في نانسي مثلاً ، ساحة
« دوكال » مع حواجزها الحديدية المشبكة الشهيرة التي حققها « لامور » ، وساحتي « المحجر »
و « نصف الدائرة » اللتين « تتقابلان » كأنهما مقطعان من نغم واحد . وظهرت فكرة تجميل
عصرية جداً في التصاميم التي وضعها « لدو » لمدينة نموذجية تقرر بناؤها في « شو » ، من اعمال
« فرانش - كوتيه » ، حيث تبدو الابنية المكعبة والكروية ، الخلو من كل تزيين ، تسبقاً لما
سيحققه « له كوربوزيه » .

احتفظت هندسة العمارة بطابعها الكلاسيكي ، وعلى الرغم من اننا نلصق فيها تطور القرن
العام ، فلعل الفن هو أقل ما تبدل فيها . لم يحدث الملك أشياء جديدة كثيرة في فرسايل ، وان

ارفع هنا « تريانون الصغير » الذي حققه « غابرييل » (١٧٦٨) والذي هو تحفة القرن الثامن عشر . فباريس هي التي استأثرت بالحدثات الهامة . لم تقم هناك أبنية دينية كثيرة (القديسة جنيفيف التي حققها « سوفلو » ، و « سان سوليس » التي حققها « سرفندوني ») . ولكن الابنية الدينية تجددت بالاستعاضة عن الركائز الضخمة الثقيلة بالاعمدة الرشيقة وباعتاد الاروقة . اكثر الابنية الجديدة أبنية منقمة عامة : المدرسة العسكرية ، وهي من تحقيق غابرييل (١٧٥١) ، ومدرسة الجراحة ، من تحقيق « غندوان » (١٧٨٠) ، ودار السمكة (١٧٧١) ، والمسارح ، كـ « الاوديون » ، من تحقيق « انطوان » و « بير » ، ومسرح « فكتور لويس » في بوردو الذي كان سلمه الابهى الكبير ، المستوحى من القصور الملكية ، مثالا نسج « شارل غارنيه » على منواله عندما حقق دار الاوبرا في باريس . وقامت كذلك دور ارستوقراطية كثيرة شيدت بحسب تصميم خاص : المسكن منفرد تحيط به ابنية الخدمة القائمة الزوايا ويفصله عن الشارع فناء الشرف ، ووجه البناء مع بناء آخر امامي في الوسط ، والحدائق في المؤخرة . اما امثلة ذلك فدار « سوبيز » ، من تحقيق « ديلاير » و « بوفران » ، ودار « بيرون » (متحف « رودين ») من تحقيق غابرييل ، ودار « ماتينيون » (رئاسة مجلس الوزراء) من تحقيق « كورتون » ، ودار « سالم » (قصر جوقة الشرف) من تحقيق « روسو » ، وقد شيدت كلها تقريباً في ضاحية (سان جرمان) عند منطلق طريق فرسايل ؛ وقصور آل « روهان » في « ستراسبورغ » و « سافرن » من اعمال الازراس .

هذه الهندسة كلاسيكية بما اقتبسته عن العصور القديمة وعصر النهضة : الاعمدة ، الاروقة ، تيجان الاعمدة الدورية والايونية والكورنثية ، العتبات فوق الاعمدة مع الساكف ، الافاريز والاطناف ، المثلثات في اعلى مقدم البناء ، الدرابزونات والقباب . وهي كلاسيكية بنظامها الصارم . تتألف الابنية كما تتألف عظام « بوسويه » و « ماسي » « راسين » . التوازن والانسجام والتناسق ، تلك هي صفات هذه الهندسة التي تكملها هندسة اخضيشاب الحدائق على الطريقة الفرنسية : ان نظر المشاهد يمتدي بحواشي الحدائق الطويلة وصفوف الاشجار المشدبة الوارفة الظلال ، ينتقل من ارض مخضوضرة الى مرآة مائية ، ثم يضيع في أفق سمنجوني وتستقر العين في التهايل البيضاء .

ان هذه الهندسة معتدلة جداً . لا تعتمد التزيين الا بكل ترزنت . الجمال يقوم في كمال نحت الحجر ، وتناسق الخطوط ، وضبط النسب ، والمطابقة الصحيحة بين كافة الاجزاء والغاية التي وجدت من اجلها ، والدوق الصائب في وضع العرض حيث يرتاح اليه النظر . وقد برزت صفة الاعتدال هذه بعد السنة ١٧٥٠ بصورة خاصة . ولكن لا برودة ولا تعبس ، اذا استثنينا اواخر القرن . ان حياة رقيقة تسري في اوجه البناء هذه ، وايقاعاً خفياً يهز عضلات المشاهد وموسيقى شجية تجتذبه . على الرغم من عظمتها الحقيقية ، وحتى من جلالها احياناً ، فان ما يشبه الحقة والاندفاع ، والطلاوة الراقصة ، يجعل المشاهد يتعرف فيها الى عصرها . اما بعد

السنة ١٧٧٠ ، فقد أصبح المعبد اليوناني ، بتأثير من علماء العاديات ، النموذج المألوف للمسارح (اوديون) ، والاسواق (المصفق) ، والكنائس («سان فيليب - دي - رول» ، من تحقيق شالغرين) ، واتجه الذوق الفاتر شطر الجفاف والتكشف قبل ان ينتقل ، في عهد نابوليون الاول ، الى الضخامة والعظمة .

وعلى نقيض ذلك ، تبدل تزيين هذه الابنية وتأثيرها تبداً قاماً . فان الراحة والصفاء والظرافة قد تقدمت العظمة والقوة . ظهرت «مساكن صغيرة» حتى في فرسايل . وبغية افارتها وتكبيرها ، وضعت المرايا فوق المداخل . ثم احدث التزيين بالملاط الكلاسي والرخامي والمعاجين على انواعها والواح تحشيب الجدران والحديد المشغول ما يشبه الخطوط المنحنية التي تكونها الألعاب النارية . ان مشاهد الرعيان ، والحظائر ، والقرود الصاعرة ، والطيور ، والازهار ، والثمار ، واكليل الازهار ، وكنانة اله الحب وقده هي المشاهد التي زالت عاداتها ولم يستخدمها الفرنسيون الا داخل دورهم ، والتي تفتحت في دار سوييز ، في قاعة بوفران الاهليجية المشهورة ، او في رواق دار تولوز (مصرف فرنسا) المذهب . غدا الاثاث اخف وزناً واسهل نقلاً والبس بالنسيج المحشو واتخذ اشكالا تتفق ومنعطفات القوام، حل محل الكرسي المستقيم المسند ، المعد للتصدر ، والمشهور بطراز لويس الرابع عشر ، الكرسي المشهور بطراز لويس الخامس عشر والذي حشي مقعده ومساندته وغلفت بالمديجات . ظهرت الكراسي الواسعة ذات الاذنين ، والكراسي الطويلة او «الخطيئة المميتة» ، والارائك ، والتخوت والكراسي الخفيفة . ونثرت الطاولات المستديرة والطاولات الصغيرة والمكاتب والخزائن ذات الادراج وعلب ايداع محتويات الجيوب ، في كل مكان تقريباً . اما مادة هذه المفروشات فبهجة وساطمة بالوان متقلبة : اخشاب الجزر ، البلاذر ، خشب الورد ، وخشب البنفسج ، والللك الاحمر والذهبي والللك المتعدد الالوان ، وبرنيق «مارتين» . واذا عرف الميل الى الرفاهية الاستمرار ، فان اعمال التنقيب في بومبي قد روتت تدريجياً ، ابتداء من السنة ١٧٦٥ ، اشكالا مستقيمة وهندسية لاتزال تتميز بالخفة والطلاوة ، والالوان غدت اقل ابداء للنظر ، وظهرت الخلفيات السوداء الاولى مزدانة بفسيفساء او رسوم قديمة المواضيع ، ولاسيما بالراقصات الساحرة . ان الطراز المعروف بطراز لويس السادس عشر قد بدأ قبل لويس السادس عشر بزمان بعيد .

الرسم الفرنسي التاريخي والميثولوجية الكبرى ، بل للوحات الصغرى الكثيرة ، فوق المداخل والابواب مثلاً ، التي يحلو النظر اليها . لذلك تنوعت مواضيع الرسم التزييني وكثرت اللوحات الصغرى التي يسهل تركيزها ونقلها من مكان الى اخر .

اعدت الرسم للارضاء والاعجاب قبل التربية والتهذيب ، لذلك نراه يتغلى عن المثل العقلي

الاعلى الذي سعى وراءه في لوحة « رعاة اركاديا » . توجه الى الحس بواسطة اللون . الرسامون حلونون كلفوا بالبندقين ، والفلمنكيين كـ « روبنس » ، والهولنديين كـ « رمبراندت » . فهم والمعجبون بهم يتلذذون باللون كلون ، ويتمتعون باهتزازاته كما بالموسيقى . اما الصناعة فمعاصرة في اغلب الاحيان وتبشر بالتأثيرين . يفصل « شاردين » بين الالوان التي يحاورها ويربط بينها بتقاطع الانعكاسات . وينهج « فراغونار » النهج نفسه ، ويعتمد تبادل الاشعاع بين السدوف والخلفيات ، ويلون الظلال . فقد الرسم ، اكثر فاكثرا ، تأليفا يتلف الايجاز الحاسم .

يقظ الرسم الخيال . انه شعر العصر ، ذلك الشعر الذي افتقر اليه الادب ايما افتقار . فها هي « الاعياد الانيسة » لـ « فاتتو » (١٦٨٤ - ١٧٢١) التي هي حوار مستلذ بين اسبياد شبان وسيدات شابات ، وخرافات حقيقية ، ونخص بالذكر منها لوحة « الابجار الى ستيير » (١٧١٧) الشهيرة ؛ وها هما لوحتا « دور فينوس » و « الراعويات » لـ « بوشيه » (١٧١٣ - ١٧٧٠) اللتان تمثلان حلم انسانية جميلة ، شوانية ، مخصبة ، في طبيعة منظمة ؛ وها هي انشودة الحب ، لـ « فراغونار » (١٧٣٢ - ١٨٠٦) ، التي تمبق منذ ذلك التاريخ بكل الشعر الغنائي الرومنطقي ؛ وها هي لوحات غرق السفن والواصف في ضوء القمر ، لـ « فرنيه » (١٧١٤ - ١٧٨٩) ، والاطلال لـ « هوبير روبير » (١٧٣٣ - ١٨٠٨) .

ولكن الرسامين ابناء زمن كانت محبته للحياة اليومية اقوى من ان يكثرثوا للعالم المحيط بهم . فان « فاقو » نفسه قد رسم مشاهد عسكرية ، كما رسم « فرنيه » مرافق فرنسا . ونجد في ما خلفه « هوبير روبير » تاريخاً مصوراً لفرنسا تحت ظل النظام القديم . اما الاختصاصي شاردين (١٦٩٩ - ١٧٧٩) ، فكان رسام صغار البورجوازيين (« الام المنهمكة » و « صلاة تناول الطعام ») . وبرع كلهم في رسم صور الاشخاص ، فكانوا سيكولوجيين يتقصون اعق اعماق الشخص الذي يرسمونه . ويجب ان نضيف الى من ذكرنا « ناتييه » (١٦٨٥ - ١٧٦٦) الذي رسم ماري لكزنسكا و « سيدات » فرنسا ، والسيدة « فيجيه لبران » التي رسمت ماري انطوانيت ، وامهرم اطلاقاً ، المصور بالقلم ، « لاتور » (١٧٠٤ - ١٧٨٩) ، اللوذعي حق الفظاظه ، الذي رسم « مدام دي بومبادور » ولويس الخامس عشر .

الا ان في هذا القرن ، الذي بلغ هذا القدر من الثروة والتنوع ، نواحي اقل جمالا : الرسم الخلاعي الذي لا تجرؤ على اصدار حكنا عليه في ما انتجه « فراغونار » ، الصادق والضاحك (الارجوحة ، القميص المخلوعة) ، والذي تقز منه النفس امام ما خلفه « غروز » المرائي (الابريق المكسور) ، وما هو شر من ذلك ، رسم « غروز » الاخلاقي ، البهريج والمفخم ، الذي له اسوأ وقع على المشاهد .

أما النقاشه بقاء الفضة التي برع فيها « كولين الابن » ، وسانتويين و « ومورو الابن » ، فقد عرقت فرسايل وباريس . وقد اكتشفت النقاشه بالالوان في السنة ١٧٢٥ .

وأما التدييج الذي وفتر له الرسوم الایجازية اشهر رسامي العصر فقد اعطى نتائجاً جلیلاً جداً نقل او نسج على منواله في كل مكان .

في أواخر القرن ثائر «دافید» (١٧٤٨ - ١٨٢٥) باستاذ «فیان» وبالساکسولي «ونکلن» . على الفن ان يستخلص من الطبيعة الجمال المثالي ؛ قام القدمات بذلك خير قيام ؛ يجب التلذذ عليهم ؛ الا ان الرسم القديم ، اذا ما استلینا الآنية اليونانية والرسوم الجدرانیه في بومبئی ، قد اضمحل وزالت آثاره ، فيجب من ثم النسج على منوال النقاشة وانتاج نقوش مصورة . ان «مین الموراس» ، التي عرضت في روما في السنة ١٧٨٤ وضمت ، على قبسها وطابعها المسرحي ، اجزاء جمیلة جداً ، قد عرفت نجاحاً عظیماً جداً وكانت بمثابة بیان المدرسة الجدیدة . فأوقف دافید بذلك ، لسنوات طويلة ، تیاراً لن يظهر ثانية الا مع مدرسة السنة ١٨٣٠ .

تطورت النقاشة من الحركة الوثابة في «جیاد الشمس» ل«دوریه اللورینی»
النقاشة الفرنسية
الى الاتزان في «بلوغ غرنیل» ل«بوشاردون» (١٧٣٩) والى الكلاسیکیة الزاهدة وربما العابسة في «سان برور» و«دیانا» ل«هودون» .

حافظت اکثر من الرسم على المواضيع الکبری : التماثيل الملكية للساحات (لویس الخامس عشر) ل«بشاردون» ، في ساحة لویس الخامس عشر ، ١٧٥٠ ؛ و «لویس الخامس عشر» ل«بیغال» ، في «رمس» (١٧٥٦) ، وقد حطمت کلها على يد الثورة ؛ الأبنیه المدفنیة ، كضريح المارشال «دی ساکس» في ستراسبورغ ل«بیغال» (١٧٧٧) . ولكنها ، في الدرجة الأولى ، نقاشة مساکن تتميز بالخطوط المرنة وبضاهي فيها الأجور الرخام وتكثر من النساء والاولاد والفتیان : ك«مركور» رابطاً جناحیه ، و«الولد والقفص» ، و«الولد والهفور» ل«بیغال» ، و«المستحمة» ل«فالکونی» . وكان النقاشون اخيراً مصوري اشخاص سیسولوجیین ایضاً یظهرون لنا مجتمع عصرهم كاملاً : بیغال «فولتیر عار» (١٧٧١) ، «لموان» ، «باجو» ، «کافییری» ، وخصوصاً «هودون» ، الذي یعتبر «لاتور» النقاشة (فولتیر) في بنساء الکومیدیا الفرنسية ، و«اشنطون» في کابیتول «ریتشموند» ، و«فرانکلان» .

هل كانت الموسيقى الفرنسية ، في هذا القرن ، دون الذنون الاخری ؟
الموسیقی الفرنسية
یبدو ان فرنسا لم تنجب عباقرة من امثال اولئك الذین المجهتسم النما وتورنچ . ولكن اثر الموسيقى الفرنسية ، على الرغم من ذلك ، كان کبیراً . فالفرنسیون كانوا في الدرجة الأولى اساتذة معتبرین عرفوا ، هنا ایضاً ، الاهتمام الى النظام المبتق المحتجب تحت الظواهر واكتشاف النوامیس وردما کلها الى مبدأ مشترك . وهذا ما فعله «رامو» ، المراقب البصیر ، والعقل القیاسي والمنطقي ، في مؤلفین هما بمثابة «مراحل الاجر ومبة الموسیقیة» : «بحث في الايقاع» (١٧٢٢) و«اثبات مبدأ الايقاع» (١٧٥٠) . فرد نهائياً مقامات الألحان الاثني عشر القدیمة الى المقامین الأكبر والاصغر ، والمقام الاصغر الى المقام الأكبر ،

والمقام الاكبر الى توافق الاصوات الاساسيين ، التام والسباعي ، وهذين الآخرين الى اللحن الخاص ، اي « النقطة الايقاعية » . وقد خضع التلحين كله ، حتى العهد المعاصر ، لأعمال رامو . عرف الفرنسيون اذن كيف يستخلصون من ممارستهم الموسيقية ، بمجهود تحليل وتجريد ، قواعد عامة وتمارين منسقة لتعلم العزف على الآلات الموسيقية . فقد نشر « فرنسوا كوبرين » ، الكبير ، في السنة ١٧١٧ ، « فن العزف على البيانو (القديم) » ، ونشر « رامو » ، في السنة ١٧٢٤ ، مجموعة معزوفات للبيانو ، تحت اسم « اسلوب لآلية الأصابع » . واعطى الفرنسيون خير أمثلة عن موسيقى البلاط وموسيقى قاعات الاستقبال . وجلبوا في البيانو القديم ، الذي هو جد « البيانو الحالي » ، ولكنه يبض الوتر بدلا من ان يطرقه طرقا ، فلا يستطيع من ثم صيانة الصوت ؛ والى هذا يرد ضعف رنينه ، « حزمة مفاتيح تحرك » ، والحاجة الى المدبجات والزين المختلفة ، وتخصيصه للموسيقى الخفيفة والرقيقة : البيانو القديم « مشط دقيق لامرأة شغراء مجمدة الشعر جداً » . ان رامو و « وداكين » (١٦٩٤ - ١٧٧٢) ، ولا سيما فرنسوا كوبرين الكبير (١٦٦٨ - ١٧٣٣) قد اکتروا في الموسيقى من « الاعياد الانيسة » و « التسليكات الريفية » و « الراعويات » التي حققها الرسم ، فجاءت نغما لطيفا ومرنا على غرار اثار من طراز لويس الخامس عشر ، على بعض التصنع في الطلابة وتلاطف في الاناقة ، تسلط عليها المرأة تسلطاً كلياً كما تدل على ذلك اسمائها : « الساحرة » ، « العفيفة » ، « الشوانسية » ، « الساذجة » ، الخ . وقد جلى رامو بالاضافة الى ذلك في الاوبرا . واشهر مؤلفاته الكثيرة « كاستور وپولوكس » (١٧٣٧) . اعطى فيها مثال الموسيقى النبيلة ، المتحفظة ، المعدة لمساعدة الشعر في التعبير عن المشاعر وأحوال النفس دونما زخارف نافلة ، الكلاسيكية ، لغة الفؤاد . وهم الفرنسيون اخيراً من خلقوا الاوبرا الهزلية التي أشهرها اسم « غريري » ، وعندهم اکتشفت اصول الايقاع الذي احدثته منذ السنة ١٧٤٣ مدرسة «مانهايم» الألمانية .

اتجه الزي كذلك شطر المستحب والمستحسن . منذ السنة ١٧١٨ ، انتشر الزي الفرنسي استعمال القضببان الخفيفة والطوية التي تنفخ «التنانير» : وكانت البهجة كبيرة بالخلاص من فساتين الزي القديم الضيقة . ارتدت النساء « مبادل » ، أي فساتين واسعة ومتسدة ، تكشف العنق والكتفين وأعلى الصدر ، ومزودة بإكام على شكل القمع والهيكل الصيني . الاقمشة خفيفة : منسوجات قطنية من الهند ، ومنسوجات موصلية ، وشفوف دقيقة جداً ، وحرائر . السيدات يقصرن شعرهن الذي يجمدنه قصاباً كبيرى ويضطررن في سبيل ذلك الى الذهاب الى المزينين . ويبرزن جملهن بقسيات من النسيج الحريري الدقيق الاسود يلبصقنها بالوجه ، « الاذية » : « المولعة » ، الى جانب العين ، « الماجنة » ، فوق الانف ، « المفناجة » ، في أعلى الخد .

وتخل الرجال عن الجعم المستعارة الضخمة والملابس المثقلة بالالوشة والمخرمات واعتمدوا الملابس البسيطة ، الضيقة ، المراويل من نوع « غسد المسدس » ، والثوب المنحدر الى

الركبتين ، والجسم المفلطح .

منذ السنة ١٧٥٠ ، زادت كسوة رأس النساء ارتفاعاً ، وفي عهد لويس السادس عشر باتت مرتفعة جداً ، حتى بات وجه النساء على ارتفاع ثلثي طولهن . وابتكر « ليونار » القبعات المعبرة « على طريقة مونوليفيه » ، و « طريقة المتمردين » ، و « طريقة الدجاجة الحسنة » مع مركب حربي مبسوط الأشرطة . أما الملابس فقد تكلفت ، أكثر فأكثر ، البساطة وطابع الازياء الانكليزية للرجال .

ابتكر الزبي فنانون حقيقيون . هم الخياطون وحدهم من صنعوا ألبسة الجلوسين في القرن السابق ، أما اليوم فقد ظهر طراز جديد هو طراز الخياطة وصناعة القبعات النسائية . إن الأتية « برتين » ، « وزيرة الزبي » ، المقيمة في شارع « سانتو لوريه » ، تشاهد الملكة « ماري - انطوانيت » يومياً . الزينون الاختصاصيون يحلون محل الفراش والفراشة . « داجيه » زين السيدة « دي بومبادور » ، و « ليونار » زين « ماري - انطوانيت » ، و « له غرو » يؤسس أكاديمية التزين . و تقوم جرائد الازياء بنقد الفن الجديد .

ان بعض متذوقي المأكّل ساعدوا الطهاة على تحسين فن الطباخة . يفرض الطهاة الفرنسية تذوق المأكّل حصصاً مرهفاً في اللسان والمذاق ، وابتهاهاً كلياً دائماً ، وحكماً سليماً للتمييز بين الطعم والروائح الزكية في ادق فوارقها ومطابقتها وتداخلاتها . النهم فن من الفنون الجميلة ، وهو جدير بان تكون له ربة شعره . الطهاة في دور « اورليان » و « كوني » و « سوين » ، والطهاة في دور الاحبار ورجال المال يتبارون في وضع خير جداول الاطعمة تنظيمياً ، وتركيب اكثر المتبلات اتقاناً وتخليد اسماء اسياهم باطلاقها على فريدة من التراث ، او على حساء جديد . انتظمت الوجبات الفرنسية انتظام المسرحيات الكلاسيكية . المحور والاجبان الفرنسية ارسخت شهرتها . ابتكرت السيدة « دي بومبادور » صنف القدد من لحم ظهور الدجاج في « المنظر الجميل » ، وابتكرت سيدات غيرها صنف السانبات على طريقة « ميربوا » وصنف الفراريج على طريقة « فيلروا » . وخلدت مآثر الدوق « دي ريشليو » في « بور - ماهون » بالحساء المركب من زيت وخل وملح وفلفل ومعة البيض . وكان القرن الثامن عشر بالاضافة الى ذلك قرن النبيذ الشمباني المزبد ، والفطائر المحشوة بقطع الاكباد المشهورة باسم فطائر ستراسبورخ ، وحلوى « Praline » الدوق « دي برالين » . كما كان قرن الطاهي « كاريم » المشهور الذي كانت محبته للمطبخ اقوى من ان يتأخر في تناول الطعام ، والمقصف « بريا - سافارين » الذي ولد في السنة ١٧٦٥ .

غزا الفن الفرنسي اوربا . تراحم الامراء والنبيلاء على الطهاة الفرنسيين . غزت فرنسا صدرات المفروشات الفرنسية من فرنسا شحنات كبرى . عند الامراء في رده صانعي الاثاث والفروش الفرنسيين بغية احداث المعامل في بلدانهم . وقد بلغ من شهرة مصنع الـ (غوبلين) الملكي الفرنسي ان هذا الاسم اصبح اسم جنس لتعيين المفروشات

المصرية على اختلاف مصدرها . زودت حوانيت الصاغة في باريس كافة البلاطات الاجنبية . وانتشرت منتجات مصنع « سيفر » الملكي من آنية صينية وآنية شبيهة بالمرمر في كل مكان . واستوردت النساء من باريس الفساتين والجوارب الحريرية والمراوح والقفايز المعطرة واحمر الشفاء وكافة « سلح الهبة الصغيرة الحجم » . وتزين وارتدين الملابس على الطريقة الفرنسية . وكن يرتقبن بفارغ الصبر دمية شارع « سانتولوريه » ، المزينة الشعر والمجمل بالملابس ، التي تأتين كل شهر باحدث زي في باريس . وكن في ساعات دواهن يستسجنن الى السحر احيانا . فقد عادت كنة كاترين الثانية يوما من باريس بـ ٢٠٠ صندوق من فساتين شارع « سانتولوريه » وخرقه ، وما ان رأها كاترين حتى طاش صوابها واصدرت قانونا يقيد النفقات المفرطة . وقد شقت باقات خيوط الحرير الزينية والبهارج والمحرمات الحريرية طريقا امام الملحنين والكتاب والرسامين .

ان الموسيقى الفرنسية ، التي احتقرها جان جاك روسو ، كانت موضوع تقدير الالمان . وشقت القطع الموسيقية الفرنسية ، ولا سيما موسيقى البيانو ، طريقها الى كافة البلاطات الالمانية حيث عزفت وقلدت ونقلت . واقتبس الايطاليون والالمان الكثير من موسيقى رامو الاصلية . وفي كلامه عن فرنسوا كوبرين الكبير ، صرح « براهمز » ، بأن « سكارلاتي » و « هايندل » و « باخ » من عداد تلاميذه ، (مدخل طبعة المؤلفات الموسيقية المعدة للبيانو) . واعجب « باخ » بكوبرين وأشار على تلامذته بالافادة منه . وان باخ هذا ، الذي هو عبقرية متميزة ، لمدين الى الفرنسيين بفنه في التسلسل وطريقته الكلاسيكية ، الراسيكية والفرسائية ، في حصر أهمية القطعة الموسيقية بفكرة واحدة تسيطر عليها من أولها الى آخرها . وليست « ثورة » غلوك المزعومة في الاوبرا سوى تطبيق لمبادئ رامو على يد رجل عبقرى ، والى باريس جاء غلوك ، الذي لم تفهمه فيينا المتعودة محسنات الاوبرا الايطالية ، ليرى انتصار كلاسيكيته القائمة . وتأثر « موزار » تأثرا قويا بمؤلفات رامو للاوبرا وبالاوبرا الفرنسية الهزلية . وانك لترى ، في كل ما خلفه هايدن وموزار ، اثر الموسيقى الارستوقراطية العالمية ، العظيمة والخفيفة ، التي جلى فيها الفرنسيون . وقد ذاع صيت باريس في كافة أنحاء اوروبا بسبب امتياز طبعاتها الموسيقية . فان والد موزار قد طلب الى الباريسيين نقش مؤلفات ابنه ، كما ان غلوك قد ارسل الى باريس من فيينا تركيب معزوفة « اورفيه » كي ينقش فيها نقشا فخيمًا .

ولكن اعنى اثر تركته فرنسا هو أثرها في هندسة العمارة والنقاشة والرسم . وكان من حق المهندس « بات » ، أن يكتب في السنة ١٧٦٥ « تجول » في روسيا وروسيا والدانمارك وروتمبرغ ، والبالاتينا ، وبافاريا ، واسبانيا ، والبرتغال ، وإيطاليا ، تر في كل مكان مهندسين فرنسيين يحتلون المراكز الاولى . وينتشر نقاشونا كذلك في كل مكان ايضا ... باريس هي بالنسبة لاروبا ما كانته أثينا بالنسبة لليونان حين ازدهرت فيها الفنون : انها تقدم الفنانين لكافة اقطار العالم . في كل مكان نشاهد فرنسيين يحتلون مركز الرسام الاول والمهندس

الاول والنقاش الاول لدى الامراء والملوك . وم لا يكتفون بالابداع والخلق ، بل يدبرون أكاديمية الفنون الجميلة الأجنبية ويدرسون فيها أيضاً . واذا لم ينتقلوا من مكان الى آخر ، أرسلوا التصميم والرسوم التي يراقبون تنفيذها . يؤثرون بنشوراتهم المجموعات المنقوشة المطبوعة في فرنسا التي تضمها كل مكتبة من مكتبات الفنانين الأجانب ، والتي هي ، بالنسبة لهؤلاء ، مرجع يستوحون منه الافكار والاشكال الهندسية : كتب الهندسة لـ « دافيل » ، وبلونديل ، ومجموعة كبريات جوائز هندسة العمارة ، وكتاب فن تنظيم الحدائق لـ « لبلون » ، ومجموعة غماثيل ... قصر فرساي ، ومجموعة « جوليان » لصور « فاتو » ورسومه . الامراء يرسلون المشاريع التي يضمها مهندسو بلدانهم الى الأكاديميات الفرنسية طالبين ابداء الرأي واجراء التحويرات اللازمة . وبأقي عدد غير من الفنانين الأجانب لتلقي دروسهم في فرنسا فيمشرون فيها الذوق الفرنسي .

اقتبست اوربا عن فرنسا فنها البلاطي . ان مدينة فرساي الملكية ، مع تصميمها الموضوع بشكل مروحة ، واتجاه شوارعها الى القصر الذي يسيطر على المدينة ، وفي ذلك ما فيه من تعبير عن نظام الحكم المطلق ، قد نسج على منوالها في « كارلسروه » مقر حكام « باد » ، وفي « سان بطرسبورغ » حيث نصّد « لبلون » ، مهندس القصر العام ، بين السنة ١٧١٦ والسنة ١٧١٩ ، فوق الاقنية المشتركة المركز ، مروحة مؤلفة من ثلاثة ابعاد نظرية كبرى تتجه كلها الى اعلى برج « الاميرالية » ، فجعل من عاصمة القيصرية فرساي جديدة .

حاول كافة الامراء تقليد قصر فرساي مع افنائه الامامية التي تضيق تدريجياً باتجاه فناء الشرف ، وحديقته المنظمة ، وبناء « مارلي » و « تريانون » الملحقين به ، ورواق المرايا الكبير ، وسلم السفراء ، والسقف الرمزي تخليداً لمجد الملك ، وصورة الملك حاملاً اسلحته او مرتدياً بزة التكريس . كلهم رغبوا في ساحة ملكية تكون اطاراً لتمثال الملك فارساً أو راجلاً ، على غرار لويس الرابع عشر الراحل لـ « ديجاردين » ، ولويس الرابع عشر الفارس لـ « جيراردون » ، أو لويس الخامس عشر لـ « بوشاردون » ، وقد حُطم هذان الأخيران في عهد الثورة .

ان القصر المنتخب في بون الذي حققه « روبير دي كوت » وتلامذته وزينه « اودران » و « اوبنورت » و « فاسيه » ، ومقر « بوبلدورف » الريفي ، وقصر « بروهل » ، قد شيدت في المانيا الرينانية لمنتخب « كولونيا » . وشيّد منتخب تريف ، في « كوبلانس » ، على يسد « اكسنار » ثم « بير » الابن ، ومراقبة اكاديمية باريس للهندسة ، بناء على الطراز المعروف بطراز لويس الرابع عشر . واقتبس منتخب « مايلس » قصر مارلي ، وأسند وضع تصميم البناء الى الألمان وطلب الى الفرنسيين اعادة النظر فيها . وفي البلاطينا ، انجز « بيفاج » قصر منتخب مانهايم وانشأ حديقة « شترنجن » ، على غرار فرساي . وفي روتنبورغ انجز « لاغيير » بعد السنة ١٧٥١ القصر الدوقي في « شتوتغارت » . وفي يافاريا طلب الأمير المنتخب من « روبير

دي كوت، تصاميم لقصره في شلسهايم واستخدم مهندسين تتلمذوا على الفرنسيين. وفي «كاسل» شيد الأخوان «دي ري» «للاندغراف» قصوراً ومتحفاً وأوبرا. وفي برلين شيد «جان دي بودت» «دار الصناعة»، وتمهد فردريك الثاني عدداً كبيراً من المهندسين الفرنسيين الذين شيدوا له قصر «بوستدام» و«سان - سوسي». وأعد له النقاشون الفرنسيون عدداً كبيراً من القطع الرخامية المنقوشة للسطوح والحدائق. يضاف الى ذلك أن تمثال المنتخب الأكبر لا يفتقر بشيء عن التماثيل الفرنسية، كما أن ساحة فردريك مقبسة عن ساحة لويس الخامس عشر. ثم إن الرسام «بين» قد خلف صوراً لفردريك الثاني في كافة مراحل حياته. وفي «درسد» تزخر «الحديقة الكبرى»، التي دمرتها القذائف البروسية، بالتماثيل المستوحاة من تماثيل فرساي. وقد رسم الفنانان الفرنسيان «سيلفستر» و«هوتين» الصورة الملكية وأعادا الى الذاكرة بلاط درسد وملاذه.

في النمسا شيد «جودو» جامعة فيينيتا. واستعان النمساوي «دوتر» بالنقوش الفرنسية لنقش تمثال «شارل السادس» على غرار تمثال لويس الرابع عشر، وزين يلبوع «السوق الجديدة» بتماثيل شبيهة بتماثيل فرساي، وليست ساحة جوزف الثاني سوى ساحة لويس الخامس عشر بالذات. وقد تولى أحد تلامذة «لارجيلير» رئاسة أكاديمية الرسم العليا. وأراد الأمير «أوجين» أن يكون له فرساته الصغرى في قصر «المنظر الجميل» وحديقته.

في روسيا جعل «لبون» قصرأ وحديقة فرنسيين من «بيترهوف» والحديقة الصيفية التي جعلها «بينو» بالمديد من الينابيع الضخمة. وحقق «فالين دي لاموت» بعد السنة ١٧٥٦ قصر أكاديمية الفنون الجميلة ثم «صومعة» كاترين الثانية، المستوحاة من «تريانون». ونسج على منوال فرساي في المقرات الامبراطورية في «قيصر كويه - سيلو» و«بافلوسك» وحق في المقرات السيدية، كقصر الأمير «غالياتزين» في «اركنجلسكويه» ومقر الكونت شرميتاف في «كوتوفو». وفي السنة ١٧٦٦ استدعت كاترين الثانية «فالكونيه» الذي نقش تمثالاً ضخماً لبطرس الأكبر فارساً، وهو المصلح ومشيد المدن، مستوحياً مشروع تمثال للويس الرابع عشر، فحقق اجمل التماثيل الملكية في القرن الثامن عشر.

في بولونيا يشاهد الأثر الفرنسي في قصر لازينكي الصيفي وقد زينه النقاش «لبرون»، نقاش الملك الأول، الذي اسهم ايضا في أعمال قصر فرسوفيا الملكي.

وان ساحتي «كونجفس - تورف» و«امالينبورغ» في الدانمارك لساحتان ملكيتان، كما أن «سالي» قد صنع تمثال الملك فردريك الخامس فارساً من البرونز على غرار تمثال لويس الخامس عشر لـ «بوشاردون».

في السويد انجز قصر وحديقة «دروننجهولم» والتجميل الداخلي في قصر ستوكهولم الملكي على غرار فرساي. وقد عمل هنا وهناك فرق عديدة من النقاشين الفرنسيين. وأقام «لارشفيك»

بين السنة ١٧٥٥ والسنة ١٧٧٨ في ستوكهولم مثالا لـ «عوسطاف فازا» راجلا وأخر لـ «عوسطاف - ادولف» فارسا . وتولى ديبيري ، بين السنة ١٧٨٤ والسنة ١٨٠٩ كافة الأعمال التزيينية التي تطلبها المسرح وأعياد البلاط . وزين رسامو مدرسة « بوشيه » القصر الملكي .

في اسبانيا ، أراد فيليب الخامس أن يجعل من الـ « غرانجا » قصر فرساي جديداً . فصنع النقاشون الفرنسيون العديد من التماثيل والنيابيع ، وهكذا حولوا شكل حديقة « ارانجوز » . وشيد مهندسون فرنسيون منتزه « بوين رتيرو » في مدريد ، ودار « كوريوس » ، وقصر « المنظر الجميل » . وفي البرتغال جاء قصر « كلوز » قصر فرساي جديداً أيضاً ، كما جاءت ساحة التجارة في لشبونة ، التي انشئت تخليداً لمجد جوزف الاول ، بمثابة لساحة لويس الخامس عشر . وفي ايطاليا اقتبس « كازرتو » في « نابولي » و « سكولورنو » في « بارما » عن قصر فرساي ، كما اقتبس عنه « هت لو » في هولندا و « هامبتون كورت » وحديقة شاتسوورث في انكلترا .

ونقلت أوروبا عن فرنسا فنها المجتمعي ، الفن الباريسي ، ففي كل مكان يشاهد في الدور الخاصة بتصميم الدار الباريسية المميز ، كدار البارون « دي بزنفال » في سولور (سويسرا) ودار « تور » و « تاكسي » في فرنكفورت ، وهي من تحقيق « روبير دي كوت » ، والدور الارستوقراطية في حي « ولستراس » في برلين .

وقد استعاد التزيين فيها كلها موضوع « الاعياد الانيسة » لـ « فاقو » . فشغفت به أوروبا ، لذلك نرى اجمال مجموعات « الاعياد الانيسة » للرسامين الفرنسيين في لندن وبرلين وستوكهولم ولندنغراد . وهي رسوم الاشخاص التي حققها الرسامون والنقاشون الفرنسيون ما يؤلف خير مراجع صورية لكافة بلاطات أوروبا .

لا يتسع المجال هنا لاحصاء المنجزات الاوروبية التي حققها الفرنسيون او اقتبست عن الفرنسيين . بيد ان الامثلة التي قدمنا لكافية للدلالة على هيمنة فرنسا الفنية .

ترد هذه الهيمنة في الدرجة الأولى الى تفوق الفن والادب في حشد اسباب التوسع الفرنسي ذاتها . ولكن ظروفها خارجة عن ذلك سهلت انتشار المنجزات والفنانين وانتشار الحس والمشاعر والآراء المشتركة .

فهناك اولاً سحر العظمة الفرنسية الكبير . القرن الثامن عشر هو في نظرنا العظمة الفرنسية الفترة التي افتقرت فيها فرنسا الى الهيمنة البحرية والتجارية والسياسية . اما في نظر المعاصرين ، فان فرنسا ، التي كانت اكثر بلدان أوروبا سكاناً وخيرها تنظيمياً ، ما زالت ، على الرغم من هزائنها ، التي تخطتها انتصارات كبرى على كل حال ، ارهب قوة عسكرية في البر الاوروبي اطلاقاً ، وان في القوة لجاذبا .

جشم ملك فرنسا ابداً ، في نظر ملوك أوروبا ، مثال الملك بالذات ، كما كان
بلاط فرنسا
بلاط فرنسا نموذج البلاطات كلها . لذلك حرص اصغر صغار الامراء الالمان
على ان يقلدوا ، في اماراتهم ، لويس الرابع عشر وفرساي ، وبلاط فرنسا . ولذلك قصد
الامراء والعظماء فرنسا طيلة القرن لاستكمال تهذيبهم فيها . نذكر من بينهم بطرس الأكبر في
السنة ١٧١٧ وكريستيان السابع ملك الدانمارك في السنة ١٧٦٨ وولي عهد السويد غوستاف ،
باسم الكونت « دي غوتسلاند » ، في السنة ١٧٧١ ، وجوزف الثاني امبراطور النمسا ، باسم
الكونت « دي فالكنستين » ، في السنة ١٧٧٧ ، والفراندوق « بول » الروسي ، باسم كونت
« الشمال » ، في السنة ١٧٨٢ ، والامير هنري البروسي ، باسم كونت « اولز » ، في
السنة ١٧٨٤ .

يضاف الى ذلك ان عظماء اسيا كافة الأمم ، وفنانها وكتابها ، قد
قاعات الاستقبال
استهوا قاعات الاستقبال الباريسية ، قاعات الدوقة « دي مين » ،
والمركيزة « دي لمبير » ، والدوق « دي سولتي » ، والامير والاميرة « دي ليون » في عهد
الوصاية ثم قاعات المركيزة « دي دفتان » والسيدة « دي تنسين » والسيدة « جوفرين » ؛
وفي النصف الثاني من القرن ، قاعات الاستقبال الفلسفية في دور البارون « دولباك » والآنسة
« كينو » والآنسة « دي لسبيناس » ؛ والقاعة الموسيقية في دار « لابويلينيير » ؛ وبعد وفاة
الآنسة دي لسبيناس في السنة ١٧٧٦ والسيدة جوفرين في السنة ١٧٧٧ ، قاعة السيدة « نكتر » ؛
وقاعات اخرى كثيرة في دور عظماء الاسياد ، والامراء الملكيين ، ورجال المال ، وأهل
العلم . لم يتقن في أي مكان آخر ما اتقن في هذه القاعات من تطرق بعيد الى كافة المواضيع
دون اطالة ، واطلاق الكلمات كالسهام ، وتقاذف الأفكار في مبارزة حادة يدافع فيها كل
من الأطراف عن موقفه بالنبرة والحركة والنظرة ، في « نوع من الكهرباء يطير الشرار »
(السيدة « دي ستال ») . وبرعت السيدة جوفرين بصورة خاصة في حل ضيقها على الكلام :
« مقاعدها اثافي » ابولون ؛ انها توشي باشيء سامية (الاب غالاني) . واجتذبت اليها اكبر
عدد من مشاهير الاجانب :

« لا أزال أذكر انني رأيت أوروبا جمعا »
تؤلف حول مقعدها حلقات ثلاثا
(دي ليل)
وقد درج ملك بولونيا ، « ستانيسلاس - اوغست بونياوفسكي » ، على مناداتها بكلمة
« امي » . استقبلها في فرسوفيا ، كما استقبلتها في فيينا بأبهة ماري - تريز وجوزف الثاني .

احيط الأجانب في كل مكان في باريس بحسن الالتفات والملاطفة
الاستقبال الفرنسي
وأعطوا مركز الصدارة . « يلاقي الأجنبي هنا المراعاة نفسها السقي
تلاقيها سيدة في انكلترا » (بليامين فرانكلن) . درجت أكاديميات الفنون الجميلة في المواسم

الأوروبية ، وهي شبيهة بها في فرنسا ، وعلى اتصال دائم بها ، على إيفاد الطلاب الداخلين الى باريس . وكان باستطاعة الفنانين الأجانب ، حتى البروتستانتين منهم ، الدخول الى الاكاديمية والاستحصال على الحقوق الوطنية . لذلك فان معظم الاجانب لا يغادرون باريس ، « التي لم يتركها احد مسروراً » ، الا بانكسار قلب مؤلم ، وهم يصابون بملحة الحنين اليها ، فيشعرون وكأنهم « منفيون في وطنهم نفسه » . « لا حياة الا في باريس ، اما في الاماكن الاخرى فالحياة حياة ضيق » ، كما قال كازانوفا ؛ وقال الامير هنري البروسي : « سلخت نصف حياتي ثاقفاً الى رؤية باريس ؛ وسأسلخ النصف الآخر متعسراً عليها » .

الهجرة الفرنسية
وغزا الفرنسيون أوروبا من جهتهم ايضاً . عددهم جعل من هجرتهم امراً يكاد يكون الزامياً ، اذ ان عدد سكان فرنسا الذي تجاوز عدد سكان روسيا نفسها ، قد بلغ ١٦ مليوناً في السنة ١٧١٥ و ٢٦ مليوناً في السنة ١٧٨٩ ، وكان يتزايد تزايداً سريعاً ومطرذاً بفضل ارتفاع نسبة الولادات . زد على ذلك ان انهيار نظام « لو » ، والأضرار التي نجمت عنه ، وتدني الطلب ، قد تسببت في هجرة فرنسيين كثيرين ؛ فتوثقت عرى الصداقات وعرفت الديومة . وقد ساعد على اكرام وفادة الفرنسيين اثره أوروبا العام عن طريق تجارة ما وراء البحار والنشاط الاقتصادي الذي ابداه ملوك اصبحوا « مستبدين مستنيرين » . وكانت هنالك اخيراً العلاقات العائلية . فقد جمعت بين اكثر العائلات الملكية والاميرية في أوروبا روابط الوراثة والمصاهرة والصداقة او الخدمات بسلالة البوربون في فرنسا : سلالة البوربون في اسبانيا وايطاليا ، فيليب الخامس ، حفيد لويس الرابع عشر ، وذريته : سلالة هابسبورغ في النمسا ، بزواج ماري - انطوانات من ولي عهد فرنسا ، وقد سبق قبل ذلك ان ازداد اثر فرنسا في فيينا بزواج « ماري - تريز » من « فرانسوا دي لورين » . وما كانت مشاريع زواج لويس الرابع عشر من ابنة بطرس الاكبر ، اليصابات ، لتبقى دون اثر على حسن العلاقات الذي ابدته هذه الاخيرة للفرنسيين بعد اعتلائها عرش القيصرية . وكان الامراء المنتخبون الكنتسيون في كولونيا وتريف وماينس زبناً سياسيين أو نسياء ملوك فرنسا . فان منتخب كولونيا ، « جوزف كليمان » ، كان اخاً لزوجة ولي العهد الكبير ؛ وحين اقصى عن ولايته ابان حرب وراثة عرش اسبانيا ، التجأ الى فرساي . كما ان « ماكس - عمانويل » ، منتخب بافاريا ، ونسيب لويس الرابع عشر ، قد التجأ هو ايضاً ، فترة من الزمن ، الى فرنسا . وكان منتخب تريف « كليمان ونسلس دي ساكس » عملاً للويس الرابع عشر . وأسهمت علائق آل « روهان » ، الذين شغلوا مركز ستراسبورغ الاسقفي اباً عن جد ، بالامراء اساقفة ماينس وسبير ، اسهاماً كبيراً في انتشار الفن الفرنسي . فان دار ستراسبورغ الاسقفية ، وهي الرائعة التي حققها « روبير دي كوت » ، غالباً ما كانت نموذجاً للصور الالمانية . وعن طريق الازراس اتصلت رينانيا الالمانية بالفن الفرنسي . فيتضح من ثم ان الفرنسيين كانوا في كل مكان ، لا رسامين ونقاشين ومهندسين وضباطاً ومهذبين وصحافيين وممثلين وفراشات وطهاة فحسب ،

بل بنشائين وردامين وبستائين وحذاثين وصناعيين يدويين منسجين الى كل المهن ايضا في
البلدين الجنوبيين المقتقرين الى اليد العاملة ، اسبانيا وايطاليا .

الروح الاقطاعية وقد سهل المبادلات بين الدول المختلفة رواسب الروح الاقطاعية التي ما
زالت قوية عند الاشراف الريفين . فما كان مسلما به آنذاك ان من
حق الضابط اختيار سيده والبحث عن عمل عند ملك غير ملكه وامتناسق السلاح إذا اقتضى الأمر ،
بضرب بلاده ، شرط أن لا يكون ملكه ، الذي يعتبر الاقطاعي الاول ، أو الاقطاعي السيد ،
في وجه هذا الضابط ، يقود جيشه شخصياً ، لذلك كان الأجانب من الضباط والجنود كثيراً ،
في كل جيش . فالامير « دانهالت - داستو » كان في خدمة ملك فرنسا قبل أن يساعد فردريك
غليوم الاول على اعادة تنظيم الجيش البروسي . وكان الأمير « اوجين دي سافوا » قد عرض
خدماته على لويس الرابع عشر ، وحين استخف به هذا الأخير ، دخل في خدمة الامبراطور ،
ولكنه أسهم بعد ذلك في إدخال الفنون والروح الفرنسية الى النمسا . وان المارشال
« دي ساكس » ، الذي كان ابن زنى للملك بولونيا اوغست الثاني ، قد دخل في خدمة لويس
الرابع عشر .

الوطنية الشائنة ولكن نزعة جديدة عرفت بالوطنية الشائنة كانت أكثر فعالية ايضاً .
جاءت هذه النزعة نتيجة لنظريات الفلاسفة الفرنسيين . نظر هؤلاء الى
الجنس البشري كما الى وحدة . ان للبشر كلهم حقوقاً واحدة وطاقة على السير في مدارج الرقي
نفسها . ليس هنالك من شعب مختار ومن عنصر متفوق ، لا بل ان الاختلافات العنصرية
والقومية ليست ذات شأن . « الطبيعة اعطت كل انسان العالم موطناً وكافة البشر مواطنين » .
نظر القائلون بالوطنية الشائنة الى حب الوطن كما الى رأي مقبول قبل التحقيق . لذلك هزل
فيهم الشعور القومي . فقد كتب فولتير : « كان من الواجب ان يكون ملك بروسيا سيدي
والشعب الانكليزي مواطني » ، وقد هنا فردريك الثاني بانتصاره على الفرنسيين في روسباخ .
وترصل الفلاسفة فترة من الزمن الى اقناع كافة مثقفي اوروبا بهذه النظرية . فجاهر فردريك
الثاني باحتقاره اللغة والأدب الالمانيين ، ونعت رعاياه بالايروكوا . وأعلن الالمان شيلا :
« اكتب كموطن عالمي . فقدت وطني منذ زمن بعيد لاستبداله بالعالم الفسيح » . وأسدى هذه
النصيحة الى أحد مواطنيه : « لا تسمعوا وراء تكوين امة بل اكتفوا بأن تكونوا بشراً » .
وايد غوته هذه الآراء . وصرح لسنغ بأنه لا يفقه معنى لحب الوطن . ومن جهة اخرى ، إذا
كان اختلاف الاخلاق والعادات والالسن ابعد منه اليوم الى حد بعيد ، فإن الانتقال من بلاد
الى اخرى لم يخضع لما يخضع له اليوم في الدول العصرية القوية التي كيفت الأفراد وبرزت
الفوارق بين الالمان والفرنسيين ، والاسبان والايطاليين . فنجم عن ذلك سهولة كبرى في
الاغتراب وتبني اخلاق الأمة المسيطرة وآرائها وميولها ، ترسخ الوطنية الشائنة ، التي
كانت مصدراً لها ، وتنمي الروح الاوروبية .

وبما زاد في اظهار أوروبا وكأنها اقتربت من الاتحاد ، ما قام في كل
 الاستبداد المستنير مكان من نظم متماثلة ، اوحسها ، كما بدا ذلك ، مؤلفات الفلاسفة ،
 وتزايد عددها تزايداً مطرداً بحيث أصبحت في النصف الثاني من القرن ، بعد « دائرة المعارف » ،
 حركة عامة تعرف بالاستبداد المستنير . ان الملوك ، او « المستبدن المستنيرين » ، اعتدوا بـ
 انفسهم خدام دولهم الاولين وارادوا تجديدها تجديداً جذرياً باسم العقل . « عرضوا على رعاياهم
 اصلاحات « معقولة » : بعض المساواة في الضرائب بغية زيادة مواردهم ، والتماسي المطرود في
 ادارة الولايات والمدن بغية ضمان طاعة الرعايا بسهولة ، وبعض اللامسوية السياسية والاجتماعية
 للحد من توسع الارستقراطيات ، والتساهل الديني بغية استخدام كافة رعاياهم بحسب كفاءاتهم ،
 وادارة اقتصادية تميزت بالحب المفرط للربح ، تخفف من وطأتها الحريات التي تبدو ضرورية
 للانتاج . ورافق كل ذلك قاموس فلسفي . أطلق الملوك على انفسهم « مفلسات الفضلاء »
 و « الكرماء » و « المواطنين » و « الوطنيين » و « الشفوقين » ، وتكلموا عن سعادة الجنس
 البشري ، واحبوا الطبيعة ، وذرفوا الدموع ، ونبذوا خصومهم بالمستبدن : هذا هو ، منذ
 ذاك التاريخ ، التصنع البياني الذي اشتهر به العهد الجمهوري ، ولكنهم لم يستندوا من وراء
 علمهم هذا سوى ارضاء الفلاسفة محركي الرأي العام الاوروبي الأقوياء . وقد شجع المستبدون
 المستنيرون في ما سعوا اليه ، اذ ان الفلاسفة قد اتخذوا بالطواهر أسماء التماثل والملاطفة ،
 فقام فولتير بالدعوة لفرديريك الثاني وديدرو لكارترين . لم يروا أن الملوك لم يختاروا في برنامج
 « دائرة المعارف » سوى النقاط التي تعود عليهم بالفائدة ، او بالأحرى ان في ما أقدم عليه
 « المستبدون المستنيرون » ، وهو خلو من كل جديد جديد ، تدابير اتفقت وبعض نقاط برنامج
 دائرة المعارف ؛ لم يروا أن هدف الملوك انحصر في تحقيق عظمة دولتهم بنية السيطر
 والغزو والتقسيم ، وان كل هذه « الفلسفة » ليست سوى فتنة خادعة ، وان رعية أوروبا
 سرابٌ خلّط .

الفصل الثاني

تنوع أوروبا

الدول المختلفة

ان العادات والنظم المماثلة والمتشابهة قد حُجبت في الواقع فوارق عميقة. فالطوائف البشرية الممدودة ، التي انتشرت هنا وهناك وكونت بفضل اتحادها « جمهورية عظيمة من العقول المستنيرة » (فولتير ، ١٧٦٧) ، قد برزت فوق جماهير مختلفة اختلافاً كلياً. ويرد ذلك إلى أن دول أوروبا الكبيرة كانت آنذاك في مراحل تطور تباعد بينها فروق كبيرة جداً . فمن الشرق إلى الغرب ، كان المراقب يعود قرونًا إلى الوراء ويمتاز الزمن كما يمتاز المسافات .

احتفظت أوروبا بمميزات القرون الوسطى التي لن تزول إلا في القرن التاسع عشر . ولكن هذا الاحتفاظ تباينت درجاته . فأوروبا كانت زراعية قبل أي شيء آخر ، يسيطر عليها النظام السيدي وبعض الأرستقراطيات العقارية القوية التي كانت تحد من السلطة الملكية حداثاً متفاوتاً. في كل مكان تقريباً ، كانت الأرض مقسمة أملاكاً كبرى هي الممتلكات الوراثية لأرستقراطية اسياذ يؤلفون هرمًا منظمًا من الفدادين والاقطاعيين ينتهي في القمة بالملك ، الاقطاعي الأكبر . وكان هؤلاء الاسياذ يحتفظون لأنفسهم بقسم من الاملاك يستثمرونه بواسطة الملتزمين أو كما حدث ذلك غالباً في الشرق أيضاً ، بتسخير فلاحهم الآخرين ، وكانوا يسمون ما تبقى من أراضيهم انصبه صغيرة إلى مزارعين غالباً ما يكونون احراراً في الغرب ، وفدادين إلى الشرق من نهر الإلب . كان هؤلاء الاخيريون يزرعون انصبتهم لأنفسهم ، بينما كان باستطاعة الاحرار ، شرط شراء موافقة السيد بالمال ، توريث وحتى بيع حقهم في زرعها . وكانوا ملزمين أمام السيد بالعمل في قصره والأراضي التي احتفظ بها ، وهو عمل دعي « التسخير » ، غالباً ما استمض عنه في الغرب مبالغ من المال ، وبأثارات مختلفة عينية ونقدية ، اسهاماً منهم في تأمين حاجات السيد واعترافاً بحقوقه السامية. هذه كانت الحقوق الاقطاعية . وكانت الغابات والمياه والبراحات بممتلكات مشاعية سمح السيد للفلاحين أن يأخذوا منها ، بشروط معينة ، الاخشاب والقشور والعسل البري والكلأ وفراش الدواجن ويسوموا فيها مواشيهم . واحتفظ السيد لنفسه بالقضاء على الحيوانات المضرة ، أي بالقنص . ومارس حيال الفلاحين ، بأشكال مختلفة ، سلطات قضائية

وبوليسية مع مراعاة سلطات الملك مراعاة لثختلف باختلاف الدول . واذا ما توسعت بعض القرى والمدن في املك السيد ، ألزم سكانها ايضا بواجبات إقطاعية وخضعوا لسلطته القضائية . ولكن الاتحاد والائراء وحق تشييد الاسوار أتاح للمدن أن تتحرر كليا أو جزئيا .

إن هذه الارستوقراطيات ، التي جمعتها من جهة ثانية الروابط العائلية والروابط الوثيقة بين الحامي والحامي وبين صاحب الاخذة والسيد ، كانت مستأثرة من ثم بسلطة كبرى ، أقله محلية . فالواقع هو أن الملك ، وان اعترف له بسلطة مطلقة ، لم يمارس السلطة الفعلية التي تمارسها حكوماتنا الحالية ، حتى في فرنسا مثال الملكيات . فهو لم يصطدم بحقوق الارستوقراطية العقارية فحسب ، بل كان عليه أن يأخذ بعين الاعتبار حريات وامتيازات وحقوقا فازت بها بقوة الاتحاد وضمنتها بامضاء الملك هيئات منظمة عديدة ، أعني بها الجمعيات المعدة لحماية الأفراد : البلديات ، التعاونيات المهنية ، الجامعات ، الكنيسة ، و أحيانا ، كما في فرنسا واسبانيا مثلا ، هيئات الموظفين الذين يمتلكون وظائفهم . أجل غالبا ما نافست هذه الهيئات الارستوقراطيات العقارية ، ولكنها اتحدت معها أحيانا للدفاع عن « الحريات » المشتركة ضد قوة الملوك المتعظمة .

وتوجب على هؤلاء كذلك احترام حريات وامتيازات ولايات دولهم المختلفة . الوحدة مفقودة في كل مكان ، بدرجات مختلفة . لم يتحرر الناس في أي مكان من مفاهيم الفرون الوسطى التي كان الملك بموجبها مالك المملكة سيداً أعلى يمتلك أراضي ملكية . وسع الملوك ممتلكاتهم بالزواج والارث ، وباختيار السكان أحيانا ، وبالقوة ايضا . ولكنهم غالبا ما تركوا للولايات المحتلة اخلاقها وعاداتها ونظمها الخاصة . واذا الفت بعض الدول ، ولا سيما فرنسا ، أمما حقيقية ، فان الامة لم تكن كاملة في أي مكان : لقد أدى واجب الخضوع الى رئيس واحد ، كما هو طبيعي ، الى قيام بعض النظم المشتركة ، ولكن التنوع ما زال كبيرا في كل دولة ، كما أن عمل الملك اعاقته هذه الفوارق وحد منه الاستقلال الذاتي الممنوح بتفاوت لكل ولاية من الولايات .

وتباين مدى السلطة الملكية والنظم المشتركة تباينا كبيرا بحسب الدول . وانما يبدو ، على العموم ، انه كان كبيرا في البلدان التي تمكن الملوك فيها من أن يوقفوا في وجهه الاسياد طبقة جديدة هي طبقة البورجوازيين ، من تجار وصناعيين . ان هذه الطبقة ، التي لم تنزل من الوجود قط ، والتي تزايدت تزايداً كبيراً منذ زمن بعيد ، قد نمت نمواً سريعاً وهاماً جديداً منذ الاكتشافات الكبرى في اواخر القرن الخامس عشر وتوسع التجارة الاوقيانوسية الكبرى . كان هؤلاء البورجوازيون ، الذين اكتسبوا ثروة وعلماً ، قوة اجتماعية كبرى ، وقد لعبوا ، بفضل الاموال الطائلة التي استطاعوا وضعها بتصرف الدولة والمصنوعات التي تمكنوا من توفيرها للملك ، دوراً لا يتناسب وعددهم ، لابل لا يتناسب ، في الإرجح ، واهمية ثروتهم الحقيقية اذا ما قيست بثروة البلاد كلها . حمام الملوك ، لابل حمام بعضهم بتدخل الدولة النظم في الحياة الاقتصادية الذي أطلق عليه اسم الروح التجارية . فان هنري السابع وهنري الثامن و « اليزابت تودور » في

انكلترا القرن السادس عشر ، وهنري الرابع ولويس الثالث عشر ولويس الرابع عشر في فرنسا القرن السابع عشر، كانوا مستبدين مستبدين حقيقيين قبل أن يحدد المعنى اللفظي لهذه الكلمات. ولكن البورجوازيين ما ان اصبحوا اقوياء حتى حاولوا بدورهم الحد من السلطة الملكية بالاتفاق مع ارستوقراطية مستضعفة باتت أقل خطراً عليهم .

يبدو التفاوت في نمو البورجوازية بحسب الدول اهم واقع في تاريخ هذه الدول خلال القرن الثامن عشر . ففي الشمال الغربي من اوروبا الذي يحتل موقعاً مركزياً بالنسبة لتيارات التجارة العالمية الكبرى ، رأت انكلترا ، البورجوازية المنتصرة في ثورة السنة ١٦٨٨ ، توسع سلطتها وتأثيرها ، ورأت دول تجارية كهولندا ، ومدن المانيا الشمالية ، قيام جمهوريات بورجوازية قديمة جداً . وفي فرنسا ، التي كانت أقل تطوراً ، هزت القرن كله الصراعات بين الارستوقراطية والبورجوازية والملوك . وفي اوروبا الوسطى والجنوبية التي لم تتأثر تأثراً يذكر بالتجارة الاوقيانوسية الكبرى ، حاول « المستبدون المستبدون » انهاء بورجوازية رأسمالية لمضاعفة قوة دولهم . أما في اوروبا الشرقية التي ما زالت في قرونها الوسطى ، فاما كانت السيطرة للارستوقراطية كما حدث في بولونيا ، واما استهدفت جهود الملك ، الملاك الاول في الدولة ، ضمان قيادته الفعلية لأرستوقراطية تخلى لها عن كافة الفوائد الاجتماعية ، كما حدث في روسيا .

اوروبا الغربية

سيطرت التجارة البحرية على حياة انكلترا كلها، منذ ان وضعت الاكتشافات الملكية المتعددة الاوقيانوسية الكبرى انكلترا في طريق التيارات التجارية الرئيسية ، ومنذ ان استطاعت الاستفادة من الرياح الجنوبية الشرقية التي وجهت إليها السفن الشراعية الكبرى ، تعاضلت تجارتها تعاضلاً عجيبياً حتى غدت منذ مطلع القرن الثامن عشر التجارة الاولى في العالم . كانت تجارة ابداع وتخزين : ينزل الانكليز في موانئهم منتوجات ما وراء البحار لاعادة توزيعها في اوروبا ، ومنتوجات البحر المتوسط لمقاومتها بمنتوجات البليطيك وبالعكس . وكانت تجارة نقل ايضاً : حل الانكليز باطراد محل الهولنديين وأمنوا نقل البضائع لحساب تجار الدول الاخرى . وكانت تجارة تصدير اخيراً لتناول ، بالإضافة الى المصنوعات ، الحنطة ، ولكن اقل فأقل ، والفحم المعدني ، « الهند السوداء » ، اللذين صدرا الى اوروبا الشمالية الغربية . وقد قدر بعضهم ان الانكليز استأثروا في أواخر القرن بتسعة اعشار المحمول الاوروبي .

اعتمدت الدولة التعاليم الاقتصادية التوجيهية : وجهت الاقتصاد خدمة لصولح الجميع . على البلاد ان تكفي نفسها بنفسها ، وتبتاع القليل وتشتري الكثير ما استطاعت الى ذلك سبيلاً ؛ ان الميزان التجاري ، الذي ترجح فيه كفة الصادرات على كفة الواردات ، ووفرة المعادن الثمينة ، هما دليلان لازدهار الدولة تعمل بقوانينها وانظمتها وسياستها . فوثيقة الملاحه (١٦٥١) تحتفظ للسفن الانكليزية بتجارة ما وراء الاوقيانوسات ، وتحظر على السفن الاوروبية ان تنقل

الى انكلترا بضائع غير بضائع البلدان التي تنسب هي إليها ، وتحمي رسوم جمركية مرتفعة الصناعة الانكليزية التي نظمت . الدولة تعلن الحرب وتمعد الصلح وفاقاً لحاجات التجارة : الانتصارات على فرنسا إنما هي انتصارات تجارية بواسطة المدفع . زد على ذلك ان معاهدي أو ترخت في السنة ١٧١٣ ومعاهدة باريس في السنة ١٧٦٣ قد كرس هيمنة انكلترا البحرية والتجارية .

بدلت هذه التجارة كل شيء . ارتفع عدد السكان ، الذي أصبح في اسكتلندا وبريطانيا العظمى بين ٥ و ٦ ملايين نسمة في السنة ١٧٠٠ ، و ٩ ملايين نسمة حوالي السنة ١٧٨٩ . ونمت بورجوازية غنية من رجال المال والتجار ومجهزي المراكب . لم تتكون فيهم روح الطبقة بعد : فعلمهم هو ان يكتسبوا الاملاك الكبرى وينظر إليهم كما الى اعضاء الارستوقراطية العقارية . ولكن صوالهم دفعتهم اخيراً الى القيام بعمل مشترك في الساعات الحاسمة . وبعد السنة ١٧٦٣ ، احدثت التجارة ثورة صناعية ضمت « قباطنة الصناعة » الى بورجوازية التجار وافضت الى نشأة طبقة من الكادحين .

أدت الانطلاقة التجارية والثورة الصناعية الى تطوير الاملاك الانكليزية الكبرى . افتقرت الصناعة الى المزيد من الصوف ، والمدن النامية الى مزيد من الحنطة واللحوم . زاد طلب المنتجات الزراعية وارتفعت قيمتها ، فرغب البورجوازيون ، اصحاب الاملاك السيدية ، بحسب عاداتهم ، في الافادة منها اكبر افادة . لم ينظر النبلاء من جهتهم الى النشاطات المفيدة نظراً الارستوقراطية الفرنسية . فهو احد كبار اعضاء طبقة النبلاء العقاريين ، اللورد « تونشند » ، من استوى الزراعة ، فكان ان معظم الاشراف الريفيين اخذوا ، حوالي السنة ١٧٦٠ ، يستثمرون اراضيهم بأنفسهم . ولكن نظام الزراعة ، نظام « الحقول المكشوفة والمستطيلة » (Openfield) ، لم يكن موافقاً للزراعة المنتجة والعملية . فالحقول لم تكن مقفلة . وكان كل مزارع وراثي (Freeholder) يعتبر كمالك للارض ويتصرف بعدة عقارات موزعة هنا وهناك محافظاً على حقوق السيد السامية . ويقتضي الزرع في الوقت نفسه ، وبالطريقة نفسها ، وهذا يتنافى والتقدم . أراد الاسياد صيانة اراضيهم كي يستطيعوا تغيير موعد الزرع ، وأرادوا استبدال طريقة الزرع كي يستطيعوا تأصيل المواشي . حولوا اراضيهم الى آراض مقفلة . استحصلوا من البرلمان على اجازة بتصوين الاراضي وجمعها كي يجعلوا منها انصبه يستلم كلاً منها مزارع واحد ، وصولوا الاراضي المشاعية نفسها . ولكن ذلك أدى بالمزارع الحر الى الافتقار احياناً ، إذ أنه يستلم اراضي اقل جودة ويضطر الى تحمل نفقات التصوين ، ويحرم حق رعاية مواشيه في الحقول بعد الحصاد وحق الاستفادة من الاراضي المشاعية ، ويعجز عن مزاحمة كبار الملاكين بمنتوجاته بسبب افتقاره الى المال والمعرفة لاعتماد الطرائق الجديدة . فيضطر الى بيع ارضه من السيد والانحدار الى منزلة العامل الزراعي ، أو الذهاب في أغلب الاحيان الى المدينة حيث يصبح

عاملاً ، أو صناعياً أحياناً إذا حالفه الحظ . فما كانت الصناعة لتنمو لولا اليد العاملة التي وفرتها الحقول المغفلة . وهكذا غدا الغني أكثر غنى والفقير أكثر فقراً . والارستوقراطية اخذت تنسج على منوال البورجوارية . انشغلت بالانتاج والبيع واستثمرت المتاجم كما استثمرت الارض . فقد انصرف الدوق « دي بردجوتر » بعد السنة ١٧٦٠ الى تشييد الاقنية لنقل الفحم المعدني ، ولكن اخوة الابكار في العائلة الكبرى قد انصرفوا من جهة ثانية ، بسبب البكورية الصارمة ، اكثر فأكثر الى التجارة والمال . وهكذا خفت تدريجياً حدة التضاد بين الاشراف والبورجوازية .

هاجت التجارة المجتمع هياجاً شديداً . فان الاثراء السريع الذي حققه اناس ، حتى من كبار الاسياد ، ما زالوا ريفيين افطاطاً ، والذي جاء في اعقاب حرب وراثية عرش اسبانيا الطويلة القاسية ، قد اسهم في فساد الاخلاق : ادمان الفقراء والاغنياء على المسكر ؛ فجور ؛ ميل الى المشاهد الشرسة وحتى الاليمة (ملاكمة ، معارك الديكة) ؛ اعتماد الكذب والنميمة والرشوة ، والعنف والشغب عند الحاجة في الحياة السياسية ؛ لا بل فقدان الشعور القومي في وقت من الاوقات « اني مستعد للدفع ، اذا وصل الفرنسيون ، اما اذا توجهت علي القتال ، فخير لي ان يربحني الشيطان من الحياة ! » . وبصورة غير مباشرة ، سببت التجارة ، كردة فعل امام بؤس الطبقة السكادحة ، وفتور الكنيسة الانفليكانيّة ، التي كانت مناصبها محط انظار ابناء النبلاء من غير الابكار ، حركات فكرية واخلاقية كثيرة : الميثودية ، الانجيلية ، الميل الى محبة البشر . وانما القى (وسلي) غظة لأول مرة في الهواء الطلق امام المعدنين الغاليين . فكان ان هذه الحركات الكريمة كلها قد جددت انكلاترا تدريجياً منذ السنة ١٧٤٠ ، وبعثت القوى الادبية ، كاهتمام بالقومية والعدالة والانسانية ، ولكنها ادت للبورجوازية خدمة بينة هي حمل الكادحين على الصبر والانتظار . وكان للتجارة اثرها حتى في العلوم والفنون . فهم البورجوازيون المثقفون والمتفرغون بعض التفرغ من قادوا الحركة العلمية . ويفسر الاثراء من جهته اقبال المجتمع الانكليزي على شراء منتجات الرسامين والنقاشين الفرنسيين ، كما يفسر اخيراً ، بعد انقضاء فترة تدريجية ، قيام مدرسة اصيلة للرسم الانكليزي .

وهيمنت التجارة كذلك ، بواسطة المجتمع الذي خلقتة ، على الحياة الادارية والسياسية . كانت الادارة المحلية في ايدي الاغنياء . الملك يعين الموظفين المحليين من بين كبار الملاكين . فكان في كل كونتية قائمقام يقود مجندي الملاكين ، ومأمور احكام مدينة ينفذ احكام القضاء وقضاة صلح يختارون من لائحة ملاكين ينظمها القائمقام ، وتسند اليهم امور القضاء والامن والاسعاف العام والرسوم المحلية . ولكن « الامن » في ذاك العهد كان يشتمل على كل ما نطلق عليه اليوم اسم الادارة . لذلك كانت الحياة المحلية كلها خاضعة للأثرياء ، وما انفك البورجوازيون ، من بين هؤلاء ، يزدادون عدداً كلما اكتسبوا املاكاً جديدة ، ومنذ السنة ١٧٦٠ ، انضم اليهم الـ « نواب » ، اي موظفو شركة الهند الذين جمعوا ثروات طائلة .

الفت انكلاترا ، سياسياً ، ملكية دستورية ، مع ملك ومجلسين . ولكن هذين المجلسين

لا يزالان سوى الاغنياء . يتألف مجلس اللوردات من اسيااد عظماء ، لوردات بالوراثه ، ومن اساقفة ورؤساء اساقفة ينحدر جلهم من الارستوقراطية ، ومن لوردات يحق للملك ان يعينهم على هواه من بين الانكليز الذين ادوا خدمات جليلة للبلاد ويختارهم من بين الاغنياء . ويتألف مجلس العموم من مندوبين ينتخبهم المسندون او القرى الكبرى ، والارياق او الكونتيات ، بحسب دخلها او انعاماتها ؛ يجب ان يتكون المقارع من اهل اليسار . بيد ان الاغنياء وحدهم هم من ينتخبون عملياً . وكيف يجوز ، في ظل الانتخاب العلني ، ان لا يصوت الناخب لمرشح السيد الكبير ، مالكا كافة بيوت القرية الصغرى والقادر من ثم على الانتقام ؟ كيف يجوز عدم ارضاء السيد الكبير ، مالكا معظم اراضي القرية ، الذي يجمع بين النفوذ السياسي وممارسة الوظائف المحلية التي تتيح له تضيق سبل الحياة على المنتخبين المعصاة ؟ اصف الى ذلك من جهة اخرى ان اثار الحياة الاقتصادية لم تدرس كلها . فهناك عائلات كثيرة من المزارعين الاحرار ما زالت مغلصة في قفانها في سبيل سيدهم واهلها . ثم ان الرشوة ممكنة اخيراً . فعدد المنتخبين ليس مرتفعاً ، وقد تدنى في بعض الامكنة بفعل ضائقة المزارعين الاحرار ، كما حدث لعدد سكان بعض القرى الى دونه في القرون الوسطى . ليس هنالك بعد سوى ٧ فاضحين او ٢٠ او ٣٠ . ولكن هؤلاء ينتخبون العدد نفسه من المندوبين . وجلي انه من السهل جداً شراء هذه القرى الفاسدة . وجلي كذلك ان باستطاعة البورجوازيين الاغنياء ان يصبحوا مندوبين . فينتزع من ثم ان انكلترا الارستوقراطية هي اوليفارشية .

لا ينتخب مندوبو مجلس العموم لحل المسائل السياسية ، بل لتأمين صوالح الفئات المحلية ، والصوالح المادية ونفوذ العائلات . وغالباً ما يقوم الابتكار بنشاط سياسي بغية الحصول لاصوتهم على الاسقيات ، او قيادات السفن ، او مراتب في الجيش ، او مراكز حكام في المستعمرات . وغالباً ما يقومون بهذا النشاط كذلك سعياً منهم وراء المجد والشهرة . الأحزاب المختلفة غريب يجمع فئات غير واضحة الاهداف . في السنة ١٧١٤ ، رغب الـ « طوري » في ان يتمكن الملك من ان يحكم فعلياً ، وان يختار ويمزل الوزراء كما يطيب له . ورغبوا خصوصاً في أن يترفع على العرش احد اُنسال سلالة ستوارت : فهم أشبه بالـ « جاكوبين » . اما الـ « وونغ » ، هم ينسبون الى ذريات عائلات عهد الثورة ، فقد رغبوا في رجحان نفوذ مجلس العموم ، السيد في اقالة الوزراء واختيارهم على السواء . ثم ما لبثت هذه الفوارق ان زالت بين الـ « وونغ » والطوري ، ولم يباعد بينهم سوى المسألة الجاكووية وحدها تقريباً . وحدير بالذكر ان هذين الحزبين ما كانا يشكلا أكثر من ثلث المجلس . فإن ثلث المندوبين تقريباً لم ينسبوا الى اي حزب . وانتخب الثلث الأخير اهدأ الى جانب الحكومة . كانت الأحزاب في الواقع تجمعات مؤقتة من المندوبين الطامعين في المراكز حول رئيس يعتبرونه قادراً على ايصالهم الى ما يتوقون اليه . ولذا كانت كافة الميزان الدستوري قيساً الى جهة مجلس العموم او الى جهة الملك وفقاً للطروفا والاشخاص .

كانت الغلبة للويغ حتى السنة ١٧٦٠. فقد اقصى آل ستيوارت عن العرش لأن الويغ اخذوا عليهم السمي وراء السلطة المطلقة ، وقد ساند الطوري هؤلاء ، وان بتردد ورجوع متكرر الى الوراء ، حقداً منهم على الكاثوليكية . اختار الانكليز ملكاً عليهم منتخب هانوفر ، ابن حفيد جاك الاول ، جورج الاول (١٧١٤ - ١٧٢٧) . استند هذا الاخير ، وابنه جورج الثاني (١٧٢٧ - ١٧٦٠) ، الى الويغ لآل الطوري كانوا متهمين بتعلقهم بآل ستيوارت . زد على ذلك من جهة ثانية ان هذين الملكين بقيا المانيين ، ملشغلين بمنشغيتهما في الدرجة الاولى ، وبجاهلين الانكليزية ، ومتغيبين عن انكلترا في اكثر الاحيان ، فاقدين كل سلطة بسبب ادمانها على المسكر وبسبب دسائس عشيقاتها . اضطرا الى اختيار وزرائها من بين الأكثرية ، اي الويغ ، وافساح المجال واسعاً أمامهم لممارسة الحكم : فما كانا ليحضرا حتى مجلس الوزراء . ولكنها حافظا على بعض النفوذ . كان على رئيس مجلس الوزراء ، إذا اراد الابقاء على أكثريته ، لا ان يدفع اموالاً للممثلين اثناء الاقتراعات الحاسمة فحسب ، بل ان يستحصل على مراكز لهم ولعائلاتهم ولأصدقائهم ولعملائهم الانتخابيين . فالملك كان يعين ويمزل ضباطاً كثيرين في وظائف المالية والجيش والاسطول . لذلك بات لزاماً على رئيس مجلس الوزراء ان يوثق علاقته بالملك وأكثريه البرلمان على السواء . وقد لجأ رئيس مجلس الوزراء الى رشو الملك عند الاقتضاء بحمل الاكثريه على اقرار زيادة المخصصات الملكية واقرار الرواقب والمهور لعائلته وللمقربين اليه . كان كل شيء مرتكزاً الى المصلحة الشخصية . وقد عرف « والبول » (١٧٢١ - ١٧٤٢) خير معرفة كيف يعتمد هذه الطريقة ويمارس الحكم بارضاء عدد من كبار اعضاء البرلمان وزينهم الكثيرين . وهي هذه الرشوة ما حاربها « وليام بيت » . كان راغباً في وزارة قومية تتألف من رجال يمثلون كافة النزعات ولا يهتمون الا بالمصلحة العامة . احدثت الحرب ضد فرنسا تياراً فكرياً عاماً اعطاه ، منذ السنة ١٧٥٦ حتى السنة ١٧٦١ ، دور رئيس مجلس الوزراء وشبه دور الدكتاتور المفروض على احزاب الأمة . ولكن ما أن تحقق النصر حتى أقاله جورج الثالث . كان هذا الاخير ، وهو حفيد جورج الثاني ، انكليزياً عاش حياة لا لومة عليها ونظر الى مسؤولياته بمجد واقدام واراد ضمان الحقوق الملكية . فتوصل ، بإعتماده الرشوة بدوره ، الى فرض وزارة اختارها هو وجعل على رأسها اللورد « نورث » منذ السنة ١٧٧٠ حتى السنة ١٧٨٢ ، وحاول ان يحكم حكماً ملكياً مطلقاً . اضطر لقبول استقالة اللورد « نورث » في السنة ١٧٨٢ ، ولكنه توصل بالرشوة الى تأمين أكثرية من الطوري وفرض في السنة ١٧٨٤ وزيره « بيت » الثاني ، ابن وليام بيت .

يتضح من ثم ان التجارة سيطرت على الحياة السياسية كلها . فالمسائل الكبرى التي نوقشت في مجلس العموم ومجلس اللوردات مسائل قروض وضرائب ورسوم جمركية . امن « والبول » ، الازدهار التجاري . وإذا ما بدت سياسته السلمية وكانها تعرضه للخطر ، ارغبه مجلس العموم على محاربة اسبانيا وفرنسا ثم على الاستقالة . وهم رجال المال ، والتجار ، وسكان مرفأ لندن ،

مركز الحكومة ، العائشين من حركة المرفأ والمتاهين ابدأ للشغب ، من فرضوا « بيت » الاول لاعلان الحرب على فرنسا منافسة الانكليز في المستعمرات . اعطى « بيت » الاول صيغة السياسة الخارجية الانكليزية : « السياسة البريطانية هي التجارة الانكليزية » . فاخفاق السياسة الجبركية في اميركا وفقدان المستعمرات وبعض اسواقها مما تسببا في رحيل اللورد « نورث » . وهي خبرة « بيت » الثاني في حقلي المال والاقتصاد ما فرضه على مجلس غير واضح الاتجاهات . واذا بقي مجلس العموم قوة ادبية تقف في وجه غيرهما دون ان تسيطر على السلطة التنفيذية ، واذا بقي الوزراء خداماً للملك ، فمرد ذلك الى ان النظام السائد قد عمل لمصلحة الاوليفرشين .

تؤلف الاقاليم المتحدة جمهورية اتحادية تضم سبعة اقاليم لعبت البورجوازية الاقاليم المتحدة فيها دوراً كبيراً بسبب تجارة التخزين والنقل البحرية . وهي في دور المخطط كلي لان مزاحمة الانكليز والفرنسيين تقضي على تجارتها التي لا تحافظ على نشاطها الا في الهند الشرقية . ويبرز المخطط التجارة انقساماتها الداخلية . ينحصر النشاط كله في امستردام . اما المدن البحرية الاخرى واقاليم الداخل الزراعية ، المتحاسدة ، فتعارب سياستها التجارية وتطالب باقصاء اوليفرشتيتها البورجوازية والعودة الى القيادة العسكرية لصالح اسرة اورانج ، حليفة ملوك انكلترا . وفي الخارج اصبحت الاقاليم المتحدة اعجز من ان تعد للمعارك اساطيل كبرى وجيوشاً قوية . زد على ذلك ان هزال القوة وورود شطر كبير من الدخول الهولندية من الاموال الموظفة في انكلترا والخوف ايضاً من اقدام الفرنسيين على احتلال المناطق المنخفضة قد ابقتها في تحالف انكليزي اشبه بالاقطاعية . في السنة ١٧٨٧ ، اسقط الانكليز ، بالاتفاق مع البروسيين ، الحزب الجمهوري البورجوازي ، صديق فرنسا ، واعادوا نظام القيادة العسكرية .

فرنسا حافظت فرنسا على طابعها الزراعي اكثر من انكلترا . فالارض فيها توفر ، اكثر منها في انكلترا ، معظم الموارد ، والاملاك المقارية ، ولا سيما املاك النبلاء ، تفرض مركز المراء في المجتمع . تضم الارستوقراطية المقارية الامراء الملكيين وكبار الاشراف من دوقه ومراكين يعيشون في البلاط وباريس اجمالاً ، واحياناً في املاكهم حيث ينفردون ، ورؤساء الاساقفة ، والاساقفة ، ورؤساء الاديرة المرموقين ، ومتوسطي وصغار النبلاء في الاقاليم ، والضباط الملكيين . الامراء والمعلماء مستأوون ابدأ . يأخذون على الملك المطلق انه لا يترك لهم اي دور سياسي ، وعلى الملك الذي يجمع السلطات بنظام المركزية انه يحرمهم بواسطة وكلائه من كل ادارة اقليمية ومحلية ولا يترك لهم سوى صلاحيات عقارية . يقضون اوقاتهم في المطالبة بالحرية ، اي بتولي الارستوقراطية حكم فرنسا . ويشاطروهم صفار النبلاء آراءهم في ادارة الاقاليم ، وينضمون اليهم للاعتراض على كافة محاولات الملك لاختضاع طبقة الاشراف هذه لأعباء اميرية ؛ ولكنهم يقاومون استئثار كبار النبلاء ، انساب الملك ، بالوظائف الشرفية والسلطات .

سواد النبلاء في نزاع دائم مع الطبقات الاخرى. فهم يدافعون عن انفسهم ضد البورجوازيين. كلما ازداد شأن هؤلاء ، نادى النبلاء بامتياز نسبهم . الاسقفيات وقف على ابناء العائلات النبيلة من غير الابكار : ومن المحال البحث عن بوسويه آخر . بذلك بعض الجهود منذ السنة ١٧٥٧ للاحتفاظ للنبلاء بمراكز الضباط ، وفي السنة ١٧٨١ ، حددت درجات النبيل المفروضة لشغل هذه المراكز بأربع درجات . ويقاوم النبلاء الفلاحين ايضاً . صغار النبلاء ، من جهة ثانية ، فقراء لا يلبثون ان يفقدوا اموالهم في الجيش حيث يحاربون ببسالة . يحتفظ هؤلاء النبلاء حتى النهاية باحترام دورهم العسكري . فان الاسعار التي ترتفع باطراد ، لا سيما منذ السنة ١٧٦٠ ، في حال ان الواجبات الاقطاعية قد حادت منذ زمن بعيد بمبالغ نقدية ثابتة ، ترغهم على البحث عن مداخيل اخرى ، فيخالفون الاعراف بتعاطيهم التجارة والصناعة وحتى زراعة ارض تستلزم اكثر من اربعة محارث . لذلك نراهم يحاولون ، لا سيما في الثلث الاخير من القرن ، استثمار حقوقهم الاقطاعية جهد المستطاع . ويبحث لهم بعض خبراء النظام الاقطاعي ، في سجلات قيد حقوق هذا النظام ، عن الحقوق المنسية . فتشغل من ثم وطأة النظام الاقطاعي . ويقوم بعمل مماثل متوسطو النبلاء وكبارهم ، ولكنهم يحاولون بالاضافة الى ذلك حرمان الفلاحين من الحقوق المكتسبة والاستثمار بالغابات التي غدت دائرة الوجود كبيرة القيمة ، وبالبراحات ، ليجعلوا منها اراضي زراعية ومراعي . وقد دفعهم الى ذلك ، بعد السنة ١٧٦٠ ، نفوذ القائلين بان الزراعة هي المصدر الوحيد للثروة . وعقد بعضهم مع الجماعات القروية اتفاقات ملازمة او استقرار تسمح لها بتسييج ثلثي الاملاك العامة ، او اتفاقات اختيار تؤمن لها ثلث هذه الاملاك . بيد ان حركة التسييج كانت محدودة . فبقيت فرنسا بلاد استثمار لصغار الفلاحين . وهكذا تمرض النبلاء ، في اواخر القرن ، لحقد الفلاحين المتعاطم .

ولكن النبلاء ، في نضالهم ضد الملك الذي كانوا يريدون استعادة السلطة منه ، اهتموا في مؤلفات الفلاسفة : نظرية العقد ، ونظرية الحقوق الطبيعية ، ونظرية القائلين بان الزراعة هي مصدر الثروة ، الى البراهين التي كانوا يفتقرون اليها ؛ فوعى النبلاء حينئذ واقتنعوا بانهم على حق .

وقد ساند نبلاء الجندية ، في هذا النضال ، نبلاء القانون والشرع ، مالكو الخدمات او الوظائف العامة الرئيسية التي ما زال الملك يبيعها ، ولا سيما ضباط المحاكم العليا او المجالس التي غالباً ما كانت وظائف اعضائها وراثية او بيعت من عدد محدود من العائلات نفسها . الف اعضاء هذه المجالس عالماء مقلد ، او طبقة خاصة . احتقروا نبلاء الجندية الذين احتقروهم بدورهم ايضاً . ولكنهم لم يكونوا دون نبلاء القانون والشرع تمسكاً بامتيازاتهم ، ولا سيما الاميرية منها ، فكانوا على غرارهم اسياداً عقاريين ، وارتبطوا بهم بالمصاهرات واحترف بعضهم الجندية ، فقامت بينهم مصالح مشتركة كثيرة . ادعوا لنفسهم الحق بدور موجه في الدولة وبرقابة القرارات الملكية ، فعارضوا بعناد كل محاولة لاصلاح الملكية .

من هاتين الطبقتين انطلقت ضد شخص الملك اعنف الانتقادات ، وأقذر الافتراءات ، بوحى من الدوق « دورليان » والامير « دي كونتي » والدوق « دانغين » .

وفي وجه هذه الطبقات نمت البورجوازية التجارية ، افادت من جهود كبار « المستبدين المستنيرين » في القرن السابع عشر : هنري الرابع ، لويس الثالث عشر ، لويس الرابع عشر . في أوائل العهد دفعت محاولة « لو » الأعمال التجارية الى الامام . انتقل مجموع التجارة الخارجية من ٢١٥ مليون ليرة في السنة ١٧١٦ (١٧٢ مع أوروبا ، و ٤٣ مع الدول الأخرى) ، الى ٤٣٠ مليون ليرة في السنة ١٧٤٠ (٣٠٦ و ١٢٤) والى ٦١٦ مليوناً في السنة ١٧٥٦ (٤١٢ و ٢٠٤) . ثم دبّ النشاط مرة أخرى بعد انكسارات حرب السنوات السبع . ففي السنة ١٧٧٧ بلغت الصادرات ٢٥٩ مليون ليرة والواردات ٢٠٧ ملايين ؛ وفي السنة ١٧٨٩ ، بلغت الصادرات ٣٥٤ مليون ليرة والواردات ٣٠١ . وكانت اعظم التجارات كسبا التجارة البحرية التي استخدمت اكثر من ٣٥٠٠ سفينة ، بينما لم يبق منها سفينة واحدة تقريباً في السنة ١٧١٣ . بلغت مرافىء « سان مالو » و « لوريان » و « روان » و « له هافر » و « نانت » و « لاروشيل » و « بوردو » و « مرسيليا » اوج ازدهارها . وكانت خير عناصر هذه التجارة المحاصيل الاستعمارية ، ولا سيما سكر « سان - دومنغ » وعرق سكرها ، والنخاسة . وقد أتاحت رؤوس الأموال المكسدة تجمع الصناعات التجاري حول المرافىء ، الصناعات القطنية حول روان ، والصناعات الكتانية حول المرافىء البريطانية ، والصناعات الصوفية حول مرسيليا « وسيت » . وأنشأ مجهزو المراكب والتجار ، في بوردو ونانت ، معامل التقطير والتصفية ، كما أنشأوا في كافة أنحاء المملكة مصانع الفولاذ والورق واستثمروا مناجم الفحم الحجري : فكانوا في اواخر القرن منطلق المحاولات الاولى لاختراع الآلات واستخدامها وتجميع الصناعات . ولكن بعض النبلاء ساروا على خطاهم ووظفوا رؤوس الأموال في أعمالهم التجارية وتقاضوا الفوائد من مناجم الحديد والفحم الحجري ومصانع الفولاذ . فملك الماركيز « دي سولاج » مثلاً اسهماً كثيرة من مناجم « كارمو » . اخذ المجتمع يتخلق بأخلاق البورجوازية . وتسربت الروح البورجوازية الى الادب والفن وشر من النبلاء . منذ السنة ١٧٥٠ ، غدا اللباس اسود اللون ، فأخذ الناس لا يميزون بين النبيل والبورجوازي . وفي عهد لويس السادس عشر استلمح النبلاء الاقلاص عن حمل السيف واستبداله بمصا بورجوازية وتحلى بعض النبلاء عن الجعة المستعارة واكتفوا بشعورهم . وتظاهر بعضهم بعبادات بسيطة ، و « بأخلاق رقيقة » : فحرص الامير على أن يقدم الاميرة ، زوجته ، الى فرقته بقوله : « يا بَنِيَّ ، هذه هي امرأتي » .

اراد البورجوازيون الحرية لآعمالهم التجارية ، والفناء امتيازات النسب ، والاشراك في سن القوانين ، ورقابة الميزانية والسياسة الملكية ، ولكنهم أرادوا الابقاء على كثير من الحقوق السيادية والاراضي المسيجة لان العديد منهم قد اشتروا الاقطاعات . وقد أدت الحكومة الملكية خدمات جلي البورجوازيين . فان دائرة التجارة ، التي تأسست في السنة ١٧٢٢ ، قد وضعت

البيانات الاحصائية ووفرت للتجار المعلومات والتوجيهات وساعدت المشاريع ، وتولى مجلس التجارة الارشاد والتوجيه ، فخفضت شيئاً فشيئاً ، بالاقتراحات والتراجعات ، حدة العراقيل وقساوة الانظمة . وتسهلت المواصلات ؛ فانشئت دائرة الجسور والطرق في عهد الوصاية ، ونظمت اعمال التسخير الملكي لأجل الطرقات في السنة ١٧٣٨ وشقت طرقات كثيرة وخفضت رسوم المرور ؛ واطلقت تكراراً ، في السنوات ١٧٦٣ و ١٧٧٠ و ١٧٧٤ و ١٧٨٧ ، حرية تجارة الحبوب التي كان مقدراً لها ان تزيد الانتاج بفعل يقين التاجر من البيع بسعر مفر ، فجاءت كذلك تدبيراً مشجعاً للفلاحين الملاكين . وبعد السنة ١٧٥٠ ، اقدمت الادارة الملكية ، تحت تأثير القائلين بأن الزراعة مصدر الثروة ، على تلطيف انظمة الصناعة . فأجازت انتاج الكتانيات المصورة والملونة (١٧٥٩) ، وألغت منها بعض البنود ، ولم تطبق البنود الاخرى الا ببصرة وفطنة . لا بل ان « تورغو » قد استصدر قانوناً في السنة ١٧٧٦ بالغاء تعاوانيات الحرف ومحاكمها الخاصة التي كانت تعمق تأسيس مشاريع جديدة واعتماد طرائق جديدة . ومنذ السنة ١٧٧٩ استمرت التجارب لاشراك الأعيان في الادارة بواسطة الجمعيات الاقليمية .

ولكن الحكومة لم تذهب الى ابعد من ذلك . فما لبثت التعاوانيات ان اعيدت . وفي السنة ١٧٨٦ عقدت مع الانكليز معاهدة تجارية مضرّة بالصالح البلاد اذ انها أقرت تخفيض الرسوم الجركية على المصنوعات الانكليزية ، وهي دور المصنوعات الفرنسية كلفة الى حد بعيد ، الى ١٢ ٪ ، فنجح عنها غزو المصنوعات الانكليزية لفرنسا ، وأزمة خطيرة . ولم يمنع البورجوازيون سوى القليل من الاسهام في الشؤون المحلية والاقليمية والوطنية ، فاستمروا مستائين من وضعهم .

ان الحكومة الملكية لم تتكيف التكيف اللازم بسبب افتقارها الى القادة . ففي السنة ١٧١٥ ، مست الحاجة الى وصاية ، اذ ان الملك لويس الخامس عشر (١٧١٥ - ١٧٢٤) كان في سن الخامسة . ترك الحكم للدوق « دورليان » ، الوصي ، حتى بلوغه الشرعي في السنة ١٧٢٢ ، ثم حتى وفاة الدوق في السنة ١٧٢٣ ، ثم للدوق « دي بوربون » ، احد الامراء الملكيين ، حتى السنة ١٧٢٦ ، وأخيراً لمهذب الكردينال « دي فلوري » منذ السنة ١٧٢٦ حتى السنة ١٧٤٣ . فأعلن حينذاك ، وقد بلغ الثالثة والثلاثين ، عن تصميمه على تولي الحكم بنفسه . ولكنه لم يقو على ذلك . فان هذا الملك ، الجميل ، الذكي ، المثقف ، الكريم ، البعيد كل البعد عن المسخ الذي ارتكب « ميشليه » خطأ جسيماً برسمه ، تميز بالوجل والخشية خلقاً وتربية . افتقر طيلة حياته الى الحزم والثبات اللازمين . فسيطرت عليه عائلته وخليلاته (السيدة « دي فنتيميل » ، والدوقة « دي شاتورو » منذ السنة ١٧٤١ حتى السنة ١٧٤٤ ، والمركيزة « دي بومبادور » منذ السنة ١٧٤٤ ، والكونتية « دي باري » منذ السنة ١٧٦٩) ووزراؤه وزمر دستاسهم . كما ان حفيده لويس السادس عشر (١٧٧٤ - ١٧٩٢) ، السليم القلب ، القفال الماهر ، الأب الصالح ، محب الشعب ، البورجوازي المتربع على العرش ، قد اشتهر كذلك

بضعف ارادته . فقد رأى كلاهما الخير ولكنها لم يفعلوا .

كان بمقدور الملكية أن تبقى ملكية مطلقة بأقدامها على الإصلاحات : إلغاء امتيازات الارستوقراطية الاميرية ، وصول الجميع الى جميع الوظائف ، إقرار حرية اقتصادية معتدلة حتى لا يقع العمال وفقراء الفلاحين في قبضة الاثرياء ، توحيد مملكة اقامت فيها الجمارك الداخلية ، والمقاييس والنهود المتباينة ، والعادات والاعراف المتعددة في الولايات ، المراقيل في طريق الحياة القومية ولا سيما في طريق الحياة الاقتصادية . ولكنها لم تفعل . واذا هي وسعت رقعة الوطن بضم « اللورين » (١٧٦٦) والحصول على « كورسكا » (١٧٦٨) ، فقد حافظت اللورين على جماركها من جهة المملكة واستمرت في الاتجار بحرية مع الامبراطورية المقدسة .

كان من الواجب تحطيم الارستوقراطيات . ولكن الملكين اعوزتهما الارادة ابداً للنهوض بهذا العمل . برهنت ارستوقراطية الامراء والدوقية عن عجزها في الحكم . استبدل الدوق « دورليان » ، الوصي ، وزراء لويس الرابع عشر البورجوازيين بمجالس تضم كبار النبلاء ، رغبة منه في ارضائها . ولكن سرعان ما اتضح عجزهم . ومنذ السنة ١٧١٨ مست الحاجة الى إعادة الوزراء . ولكن كبار النبلاء شكلوا خطراً دائماً بواسطة دسائسهم في البلاط ، وبواسطة زبنهم ، وبواسطة اتفاقهم مع المجالس .

كانت هذه المجالس سبباً في اخفاق كافة محاولات الإصلاحات . في السنة ١٧١٥ أعاد الدوق « دورليان » لها حق النصح والانداز مقابل قرار يجعل منه سيد مجلس الوصاية ، على الرغم من وصية لويس الرابع عشر . منذ ذلك التاريخ بات بمكنة مجلس باريس مرة أخرى تأجيل تسجيل المراسم الملكية الى ما لاحد له . وقد بلغ من ازعاجه أن حدث الوصي من حقه في الانذار والنصح في السنة ١٧١٨ . ولكن هذا الحق أعيد بكامله في عهد لاحق ، فأتاح بصورة عامة على الرغم من تعطيله أو الحد منه احياناً ، معارضة المجالس معارضة دائمة للإصلاحات المالية . كم من مرة حاولت الحكومة الملكية التوصل إلى اسهام كافة رعاياها بنسبة دخلهم . وكانت محاولتها الوسيلة الوحيدة لتنغطية النفقات المتزايدة في دولة تتسع ادارتها يوماً بعد يوم ، في حال أن ارتفاع الاسعار قد انقص الموارد بزيادة النفقات إذ أنه يحذر من الاستهلاك ، وبالتالي من مدخول الضرائب غير المباشرة التي تتناول الشعب كله . ولكن المجالس ، يساندها الامراء والاساقفة ونبلاء الولايات ، وكلهم من ذوي الامتيازات ، قد قاومت ، بكل قواها ، الارادة الملكية . كانت تستثير السكان برفض التسجيل ، والنصح والانداز ، وتأثيرها المباشر على الفلاحين ، وتثير الشعب في صفوف الطبقات الدنيا التي ما كانت لتدرك ما تفعل . سببت فشل ضريبة الجزء من خمسين على دخول الممتلكات المقارية (١٧٢٥ - ١٧٢٧) ، وضريبة العشر (١٧٣٣ - ١٧٣٦) ، (١٧٤٠ - ١٧٤٩) التي جبيت اثناء الحروب ولكنها افسدت فلم تجب إلا من الفقراء ، وضريبة الجزء من عشرين المرتبطة باسم « ماكو دارنوفيل » (١٧٤٩ - ١٧٥٤) ، والاعانة العامة التي اقترحها « سيلويت » (١٧٥٩) والاعانة المقارية التي اقترحها « كالون » (١٧٨٧) . وحالت بمقاومتها

المتوقعة دون تقديم «ثورغو» مشروعه الخاص بإعانة العقارية. وكان الرأي العام الى جانبها لأنها اتقنت الادلاء بالبيانات الاخاذة : ان رعايا الملك « اناس احرار وليسوا عبيدا » ؛ وحاربت « طوفان الضرائب » ؛ وساندت كل مقاومة للسياسة الملكية ، فساندت الجنسينيين مثلاً على اليسوعيين الذين ألغيت جمعيتهم في السنة ١٧٦٤ . ولكنها لم تفكر الا بامتيازات النبلاء ، امتيازاتها ، وبالامتيازات التي ترفعها فوق الجماهير ، وبصوالها الخاصة ، لابل طالبت بتأليف هيئة مع كافة المجالس في المملكة ، وبحق الاشتراك في السلطة التشريعية ومقاومة الارادة الملكية . فقد ساند مجلس بريطانيا الجمعية الاقليمية المعروفة باسم « مجلس طبقات بريطانيا » على الحاكم الراغب في شق الطرق لأن الطرق تدخل في صلاحية المجلس ، الذي لا يقوم بأي عمل .

نفى الملك دوريا مجلس باريس ثم استدعاه ثانية . وأخيراً ألغى المستشار « موبو » ، في السنة ١٧٧١ ، وظائف القاضي واستبدل اعضاء مجلس القضاء بقضاة مأجورين . ولكن لويس السادس عشر ، لسوء الحظ ، أعاد المجالس في اواخر السنة ١٧٧٤ محاولاً بذلك تهدئة الخواطر . إلا أن مجلس باريس تمسك بالشرائح الاساسية للملكية ، وحقوق المجالس والاتفاقات المعقودة مع الولايات ، وضرورة اقتراح مجلس الطبقات على الضرائب ، فعطل الملك المجلس وفككه ونقل تسجيل المراسيم الى محكمة عليا تضم خدام الملك الخلف .

بدأت الثورة حينذاك بثورة ذوي الامتيازات . فقام اعضاء المجالس ، حلفاء النبلاء ، بأثارة السكان في كافة المدن التي قامت فيها المجالس ، في « غرينوبل » و « رين » . وكان من مجلس الطبقات الاقليمي في مقاطعة «دوفينه» ، المجتمع في «فيزيل» ، أن رفض دفع الضرائب . فاضطر الملك الى دعوة مجلس الطبقات للاجتماع في اول ايار من السنة ١٧٨٩ .

ولكن الأمة انقسمت آنذاك شطرين . فطالب الامراء الملكيون والأعيان بدعوة تجري بحسب النظام القديمة واقتراح يجري وفقاً للترتيب التالي : الاكليروس ، النبلاء ، ممثلو الشعب ، الذي يضمن الاكثرية لذوي الامتيازات . وطالب البورجوازيون ، الذين أسسوا « حزباً قومياً » وجمعوا كلمتهم في كل مدينة ، بجمعية وطنية ، وبمضاعفة عدد ممثلي الشعب والاقتراح الشخصي الذي يضمن لهم الاكثرية . فلم يوافق الملك إلا على مضاعفة العدد في شهر كانون الأول من السنة ١٧٨٨ .

وقد برز نشاط طبقات اخرى . لقد حدث ما يشبه ثورة الطبقة الكادحة . فان معاهدة السنة ١٧٨٦ ، سبب البطالة ، وبحول حصائد السنة ١٧٨٧ والسنة ١٧٨٨ قد زاد في ارتفاع الاسعار ؛ فبات الحبز الذي كان يمتص ٥٠٪ من موازنة العامل ، يمتص منها ٨٠٪ . ارتفع عدد المتسولين والمتشردين . انفجر فجأة حقد عارم على السيد ، والغني ، والموظف . فحدثت اعمال شغب ، وهوجمت القصور ، وهوجم البورجوازيون والاشراف الريفيون واضعوا اليد على الجيوب .

في ٢٧ نيسان من السنة ١٧٨٩ ، نهب مصنع « ريفيون » للورث الملون القائم في ضاحية « سانت انطون » ، إحدى ضواحي باريس . كانت ردة فعل الحكومة ضعيفة : فالوكلام فقدوا الاعتبار والجيش فقد الانتظام .

جرت انتخابات مجلس الطبقات في السنة ١٧٨٩ باقتراع شبه عام ، وبالترتيب . وضع المنتخبون « دفاتر شكاوى » ضمنوها امانتهم : دستور ، الحرية الفردية ، التساهل ، مساواة الحقوق ، اجتماع مجلس الطبقات دورياً للتصويت على الضريبة ، اللامركزية ، جمعيات اقليمية وبلدية ينتخبها الملاكون في الدرجة الاولى ، احترام الاعفاءات والحريات في الاقاليم ، السلطة التنفيذية للملك ، السلطة التشريعية للملك والامة . وهكذا ارتضى البورجوازيون بقسم كبير من برنامج ذوي الامتيازات بسبب عجز الملك عن تسلم دفة الاصلاحات .

اوربا الجنوبية

إسبانيا ، التي ما زال الالحطاط مخيماً عليها في السنة ١٧١٥ ، ما زالت دولة إسبانيا حطيم الملوك فيها سلطة الاسياد السياسية دون أن يفعلوا في اخراج البلاد من القرون الوسطى . انتهى النظام الى التحجر في قوانين واعراف وانظمة لا يحصى لها عد . كان دور إسبانيا في اوربا دور بلاد حديثة اقتصادياً تصدر الى انكلترا وفرنسا ودول الشمال الغربي صوف اغنامها ومعادنها وذهب وفضة مستعمراتها ، وتستورد منها بالمبادلة المصنوعات التي قفتقر إليها .

لم يكن ممكناً ان تصدر الاصلاحات إلا عن الملك ، المطلق مبدئياً ، الاقوى من الشرائع . وقد تم ذلك على يد الملوك البوربونيين ، الفرنسي فيليب الخامس ، حفيد لويس الرابع عشر ، وابنيه فردينان السادس (١٧٣٥ - ١٧٥٩) ، ولا سيما شارل الثالث الذي اعتلى العرش منذ السنة ١٧٥٩ ، بعد ان تربع على عرش نابولي طيلة عشرين سنة ، أجرى خلالها إصلاحات عديدة ، وقد تميز بذهنه الثاقب والعمل . فأدخلوا افكار الفرنسيين وطرائق كبار المستبدين المستنيرين من الفرنسيين في القرن السابع عشر .

اقام الملوك ملكية ادارية على غرار الملكية الفرنسية . اخضعوا مجالسهم لسلطة مجلسين رئيسيين : مجلس الهند ، ومجلس قشتالة حيث فرضوا سلطتهم بواسطة وزراء كانوا احياناً من النبلاء المتشبعين بالافكار الفرنسية ، كالكونت « دارندا » مثلاً (١٧٦٦ - ١٧٧٣) ، ولا سيما من البورجوازيين ، كالإيطالي « البروني » ، و« باتينيو » (١٧٢٦ - ٣٦) ، و« خوسيه مونينو » ، الذي اصبح كونت « فلوريدا بلانكا » وتزايد نفوذه منذ السنة ١٧٦٢ ، و« كيمو مانيس » . تولى تنفيذ أوامره في كل ولاية وكيل اسندت إليه ، كما في فرنسا ، شؤون الاموال والادارة العامة ، وضابط عام يقود الجيش ، ومحكمة تؤمن العدل ، يعجز الواحد منهم عن العمل دون الآخرين ، ويراقب بعضهم بعضاً .

أخضعت الهيئات المنظمة القليلة التي كان بمقدورها ان تقاوم الارادة الملكية . فمحكمة التفتيش التي ابقى عليها قد اكرهت على الخضوع للحكومة . وضمن الملك لنفسه تعيين الاساقفة طيلة ثمانية اشهر في السنة (١٧٥٣) ثم طيلة السنة . ألغيت جمعية اليسوعيين في السنة ١٧٦٧ بتهمة انتواها قتل الملك ، وخصوصاً بتهمة نشر المبادئ المضادة للحق الملكي ، وهو شارل الثالث الذي استحصل من البابا على الغائها في كافة البلدان (١٧٧٣) .

حاول الملوك جاهدين تنمية التجارة والصناعة باعتماد كوليرية حقيقية : مصانع ملكية ، استدعاء اختصاصيين اجانب ، مساندة المصانع الخاصة بمساعدات مالية وحماية جمركية ، احداث شركات تجارية ، ومنذ السنة ١٧٦٥ تأسيس جمعيات اقتصادية ووطنية لاعادة العمل الى سابق عزته ، شق الطرق وإنشاء الاقنية ، حماية المزارعين الذين ما عاد الملاكون ليرفعوا يدهم عن الاملاك دون اسباب جوهرية (١٧٦٨) وحماية صغار الملاكين الذين استحصلوا ، ضد مالكي الاغنام المتنقلة ، على حق تصوين اراضيهم . وكان من سرعة النجاحات المحرزة ان استفاقت مباداه الاسبانين من سباتها وان طالبت الجمعيات الاقتصادية منذ السنة ١٧٧٠ بمزيد من الحرية : ألغت الحكومة ، بعد السنة ١٧٧٥ ، الجمارك الداخلية واحتكار « قادس » للتجارة وفتحت باب تجارة المستعمرات لـ ١٣ مرفأ اسبانياً . وعلى الرغم من أن اسبانيا ما زالت محتاجة اقتصادياً للدول الاخرى ، فقد قامت فيها مصانع جوخ وحرير وقطن في كل مكان . ومنذ السنة ١٧٧٩ توقف طلب الاجواخ والحرائر والقمبسات من فرنسا . وفي السنة ١٧٨٨ ارسلت اسبانيا الى الهند بضائع اسبانية تجاوز حجمها ما ارسلته من المصنوعات الاجنبية . ارتفع سكانها من ٥ الى ١٠ ملايين . اعيد انشاء الاسطول والجيش على انها افترقا الى التدريب .

تطلب كل ذلك اموالاً ضخمة . اختلت الميزانية . ألغى شارل الثالث كثيراً من التزامات الضرائب وزاد من دخل الضريبة باسناد جبائيتها الى الموظفين . ولكنه لم يتمكن من اخضاع النبلاء والاكليريكيين للضريبة . اكثر من الضرائب ، واختبر امكافات مصرف « سان - شارل » الذي اخفق كما اخفق مصرف « لو » . في السنة ١٧٨٩ تحبظت اسبانيا في ازمة بلغت ذروتها ، قبل ان يكتمل تطورها .

ان البرتغال التي لعبت دور الوسيط بين مستعمرات اوروبا كادت تفقد هذا الدور
البرتغال بفعل مزاحمة الدول الاخرى . وكادت صادراتها الخفيفة (خور ، واخشاب البرازيل) تنحصر في أسواق انكلترا . لم تستفد فيما مضى من تجارتها لتنشئ صناعة في اراضيها ولتجدد زراعتها . بقي نظامها الاقتصادي والاجتماعي شبيهاً به في القرون الوسطى . في عهد الملك الحازم ، خوسيه الاول (١٧٥٠ - ١٧٧٠) ، تمكن مصلح قوي الشكيمة ، هو « كافالهو » ، الذي لقب بالمركيز « دي بومبال » منذ السنة ١٧٦٩ ، من تحطيم سلطة محكمة التفتيش التي ما عادت لتقدر على احراق المراطقة دون موافقة الحكومة ، ومن تحرير المهددين (١٧٥١) ،

وطرد اليسوعيين الذين يقاومون سياسته ، بثمة تدبير المؤامرات (١٧٥٩) ، وفتح ابواب الوظائف العامة لكافة البرتغاليين دون استثناء ، وتأسيس المدارس وادخال العلوم الى الجامعات ، وانشاء المصانع ، واناء التجارة ، وبناء اسطول ، واعادة تنظيم الجيش ، وتشديد الحصون . اجل لم تواصل الملكة « ماريا » الاولى عمله ، ولكنها لم تهدمه .

في هاتين البلادين يذكرنا جهد الحكومة بالجهد الفرنسي في القرن السابق . واذا كانت فرنسا متخلفة قرناً عن الانكلترا ، فان اسبانيا والبرتغال كانتا متخلفتين ما يناهز القرن عن فرنسا .

اطاليا اما ايطاليا ، « العبارة الجغرافية » المقسمة الى عدة دول ، فما زالت تعاني من الاكتشافات الكبرى ومن توسع التجارة الاوقيانوسية الكبرى . تضائل شأن المدن البحرية النسبي تضائلاً كبيراً . واذا ما استثنينا مرفأ ليفورنو الحر في توسكانا ، نرى كافة هذه المدن تتأخر بفعل منافسة الانكليز والفرنسيين والنمساويين الاقتصادية ، واقتدار البلاد الى المناطق الصناعية ، وعادات البطالة والانفاق المألوفة ابان ازدهارها العظيم . جنوى والبندقية ، التجاريتان ، كانتا جمهوريتين . ولكن الارستوقراطية البندقية ، التي كانت من قبل بورجوازية العادات ، قد هجرت التجارة ، وغدت البندقية في الدرجة الاولى مكان اجل اعياد أوروبا . فتكررت على لسان ملوك فولتير هذه الجملة : « رقصت البندقية لأقضي فيها ايام المرفح » .

كانت الدول الأخرى بلداناً ريفية ، ملكيات يترك فيها الامراء للارستوقراطيين لا سلطة اجتماعية كبرى فحسب ، كما في فرنسا ، بل قسطاً كبيراً من الحكم الاقليمي والمحلي ايضاً . كان هؤلاء النبلاء على جانب كبير من الكسل وغالباً ما انغمسوا في المذات . تأخر نمو المدن وتدنى عدد البورجوازيين الذين كانوا فقراء وعديمي التأثير . وفي كل مكان كان الفلاحون متخلفين وبؤساء . نزح الامراء الى السلطة المطلقة ، وغالباً ما كانوا « مستبدين مستهزين » . وانما يجب هنا ان نلفت الانتباه الى بعض الفروق .

فحكومة الدول البابوية الشيوقراطية لم تكترث بالمسائل المادية . فتميزت دول البابا بأسوأ ادارة وكانت اشد دول شبه الجزيرة بؤساً .

وفي مملكة نابولي ، حاول البوربونيتان ، شارل (١٧٣٩ - ١٧٥٩) ، ثم فرديناند ، القيام ببعض الاصلاحات مع الوزير « نانوتشي » ، ومهدا السبيل لالغاء جمعية اليسوعيين (١٧٧٣) ، وحارباً نفوذ « فدائبي » « ألفونس دي ليفوري » (« اللاهوت الادبي » ، ١٧٥٣) الذين فاضوا العلم والمكتبات ، والنفيا الفدادية والارواق ، ووفرنا المساعدات المالية للمصانع ، وفرضوا الضريبة على ممتلكات الكنيسة ، ولكنهما عجزا عن فرض الضريبة على النبلاء فبقيت البلاد منقطعة باملاك واسعة يسيء العناية بها شركاء ثقلت عليهم وطأة اعمال التسخير والحقوق السيدية الأخرى .

وفي توسكانا ، أفاحت سياسة اكثر حرية ، والغاء التعاريفات ، والاجازات المؤقتة بتصدير

الجبوب ، وتجهيف بعض المستنقعات ، تكديس الثروات وتأسيس المشاريع التجارية وارتقاء النهوض من السبات .

وفي لومبارديا النى النمساويون تلزم الضرائب الثقيل الرطاة على المكلف واعتمدوا الجلباية المباشرة ، ومسحوا الأراضي ، وخففوا الرسوم الجمركية وجعلوا من ميلانو سوق مقايضة ، مشجعين بذلك نخبة بورجوازية صفوى يتزعمها « بيترى فرى » .
وفي هاتين البلادين خفف من وطأة الحقوق السيديية وخفضت للضريبة كافة الاراضي تقريباً بما فيها اراضي النبلاء وأراضي الكنيسة .

اما المملكة الساردية فكانت أعظم الدول الإيطالية قوة وتقدماً . فالفلاحون كانوا فيها احراراً . ونظم الملك فيها استرجاع الحقوق الاقطاعية بأثمانها (١٧٧١) . أقام النبلاء في ممتلكاتهم وحسنوا الزراعة ، فتقهرت المزارعة لصالح المسافة . تجمعت الاراضي في أيدي الرأسمالين الزراعيين من الملاكين أو كبار المساقين . اننى الملك شبكة الطرق ، وحاول ان يجعل من مملكته الوسيط التجاري بين فرنسا وإيطاليا ، وبين إيطاليا وسويسرا . اعتمدت هذه المملكة الاقتصاد ، فكان لديها جيش مؤلف من ٣٠٠٠٠ رجل ، وكان ينتظرها مستقبل عظيم . فنرى على العموم ان ملوكاً يتمتعون بمزيد من السلطة المطلقة يدفعون بإيطاليا الى الامام ، ولكن البورجوازية ما زالت مفعودة .

أوروبا الوسطى

كان « الجسم الهلتيقي » المحاداً غير متجاك يضم ١٣ ولاية ذات سيادة تدار على سويسرا استقلالها ، وقد تقسمت عن طريق المعتقد الى ولايات كاتوليكية وولايات بروتستانتية . كان التنظيم جمهورياً . في المدن النامية عند نقاط المرور المؤدية الى مجازات جبال الألب ، عاشت بورجوازية على بعض الفقر ، ولكنها كانت أعظم قوة الى حد بعيد من سكان المناطق المنبسطة ، فكانت بمثابة اشراف احتفظوا لأنفسهم بالحقوق السياسية والفوائد الاجتماعية . كانت الخلافات مستمرة بين الولايات ، وبين المدن والارياف في داخل الولايات .

البلدان الجرمانية والدانوبية
كلما توغلنا في داخل أوروبا الوسطى ، انطبع في نفوسنا انسا نمود بالتاريخ الى الوراء وندخل ابعاد فابعد في القرون الوسطى . كانت هذه الدول في معظمها بلدانا ريفية ، ضئيلة الانتاج ، خاضعة لنظام سيدي ثقيل الرطاة جداً . الى الغرب من نهر الألب ، كانت الفدادية قد زالت من بعض الاماكن أو تلطفت بعض الشيء ، ولكنها ما زالت على مرارتها الى الشرق من النهر حيث ندر ان تجد فلاحاً حراً . استمرت الارستوقراطية في فرض اعمال التسخير التي لم تترك للمطوبين لها الوقت اللازم لزراعة حقولهم ، وجباية الضرائب الخولة حق الانتخاب والافادات الباهظة ، واستئجار الاستكارات الرابحة ، كالافران ، والمطاحن ، والمماصر ، واحقاق الحق والحفاظة على الامن . فهي لم تمارس هذه

الصلاحيات اكثر منها في فرنسا فحسب ، ولم تستأثر عملياً بكل الادارة الاقليمية فحسب ، كما حدث ذلك غالباً في اسبانيا واطاليا ، بل احتفظ الملوك للنبلء بكافة مراكز الجيش وكافة مراكز الادارة ايضاً . اجل لقد انتمى بعض الوزراء الى الطبقات الدنيا ، لا سيما في اواخر القرن ، ولكن الارستوقراطية احتفظت بكل شيء بصورة عامة .

بقيت الطبقات الاجتماعية متميزة جداً ، ومتباعدة جداً . فعلى نقيض انكلترا حيث اختلطت الطبقات اكثر فاكثرت على الرغم من كل شيء ، وعلى نقيض فرنسا حيث حدثت الظاهرة نفسها في النصف الثاني من القرن ، نرى النبلاء والبورجوازيين والصناعيين اليبديين والفلاحين يعيشون بعيدين بعضهم عن بعض ونرى كل طبقة تحتقر من دونها ؛ فالمراتب حفوظ عليها والمسافات ابقي عليها .

ارتضى الملوك بالحصول على طاعة النبلاء والاستئثار بخدماتهم . استخدموا التقنيات الاقتصادية والسياسية التي توصلت اليها الدول الغربية المتطورة (انكلترا وفرنسا) رغبة منهم في ارساخ سلطتهم ، فاحدثوا بذلك ، كما باستخدام تعابير الفلاسفة ، انطباعاً بان دولهم دول عصرية تتقدم دول الغرب نفسها ، بينما لم يقطعوا في الواقع ، آنذاك ، سوى مراحل ما زالت بعيدة كل البعد عما بلغه الغرب .

ما نزال هنا امام تفتت اقطاعي واسع النطاق . فالامبراطورية المقدسة الامبراطورية المقدسة الرومانية الجرمانية ، التي لا تطابق حدودها حدود المانيا ، « العبارة الجغرافية » ، ليست سوى ظاهر فحسب . ان الامبراطور ، رئيس سلالة هابسبورغ ، هو مبدئياً خليفة شارلمان واوغستوس . ولكنه انتخب ، في السنة ١٧٦٣ ، على يد تسعة منتخبين : منتخبي بوهيميا وساكس وبراندبورغ وهانوفر وبافاريا والبالاينا وثلاثة كنسيين هم رؤساء اساقفة ماينس وتريف وكولونيا . اكرهه الانتخاب على اعطاء الامراء ضمانات ، وتكفل التدخل الاجنبي بعمل ما تبقى : فمجزر الامبراطور عن ان يحمل من الامبراطورية دولة . كرسر معاهدات وستفاليا ، كبداً من مبادئ الحق الدولي ، سيادة امراء الامبراطورية التي آلت الى الاتحاد على بعض الاسترخاء . وحدث من سلطة الامبراطورية جمعية مركزها « راتسبون » تتولى امور الادارة وتعلن الحرب او تعقد الصلح وتوقع المعاهدات . اصف الى ذلك من جهة اخرى انها كانت مؤلفة من ثلاث هيئات تضم ممثلي المنتخبين والامراء والمدن المتضاربي المصالح والعاممي الثقة بالامبراطور ، فلم تأت عملاً مجدياً حقاً . اصف الى ذلك ايضاً ان المانيا ، وهي الشطر الاهم من الامبراطورية المقدسة ، كانت تضم ٣٤٣ تقسيماً اقليمياً يدخل في عدادها ٣٠ دولة ، وامارات ، ومدن امبراطورية حرة ، واملاك واسعة لفرسان الامبراطورية الخاضعين مباشرة للامبراطور . وضمت ضفة الرين اليسرى وحدها ١١٧ دولة صفوي تتأثر كلها تأثراً قوياً بالنفوذ الفرنسي .

حاول كافة الملوك اغتفاء اثر « اليزابت » في انكلترا خلال القرن السادس عشر ،
 الامراء واثر لويس الرابع عشر في فرنسا خلال القرن السابع عشر . سموا لان يجعلوا
 من امارتهم دولة مطلقة ، مركزية ، بيروقراطية ؛ وان ينموا طاقاتها بالقضاء على الامتيازات
 والمساواة الضريبية والروح التجارية كما قال بها « وليم سيسيل » و « كولبير » . فخلقت الدولة
 الصناعة خلقاً وساعدت بذلك على قيام طبقة بورجوازية . في المدن الامبراطورية الاحدى
 والخمسين ، نهضت البورجوازية واثرت واحداثت تيارات تجارية جديدة ، وكلفت بالمعرفة
 والجمال فبعثت نشاطاً فكرياً عظيماً ، ولعلها فعلت كل ذلك بتأثير مما كان يجري في الدول
 المجاورة . وغدت فرانكفورت ومانهم وليپزيغ ومبورغ مراكز فن وابحاث ، على غرار
 عواصم الملوك الصغرى التي كانت اضعف من ان يلعب نجمها الانصرة الآداب والفن ، كـ « فيار »
 و « غوتا » و « اينا » .

آل هبسبورغ لقب الامبراطور مجرد رتبة ، ولم يكن بعض آل هبسبورغ اقوياء
 بممتلكاتهم كشارل السادس حتى السنة ١٧٤٠ ، وماري - ثيريز ابنته
 (١٧٤٠ - ١٧٨٠) ، وجوزف الثاني حفيده ، الذي اعتلى عرش الامبراطورية منذ السنة
 ١٧٦٤ ، واشر كته امه في الحكم ، وكان سيد املاك آل هبسبورغ منذ السنة ١٧٨٠ حتى
 السنة ١٧٩٠ . سليل هبسبورغ ارشيدوق النمسا وملك بوهيميا وملك هنغاريا . اراضيه تضاهي
 اراضي ملك فرنسا ، ولعلها تعادلها سكاناً ، ولكن موارده دون موارد ملك فرنسا بخمس مرات ،
 ولم يكن مطاعاً . ما زالت اراضي آل هبسبورغ وكأنها في القرون الوسطى ، مقسمة الى قطع
 كبرى وصغرى ، وموزعة بين بحر الشمال والسهل الروسي وبين المانيا الوسطى من جهة ،
 وسهل البو والادرياتيك من جهة ثانية . العلاقات بين الاجزاء المختلفة بطيئة وصعبة ، والشعوب
 من نمساويين وهنغارين ورومانيين وايطاليين وتشيكين وسلوفينيين ، وقلنك و«فالون» ،
 متباينة اخلاقاً ولغة ومعتقداً ويجهل بعضها البعض . يرتبط كل منها بآل هبسبورغ بعقد مختلف
 خاص ، تتمتع كلها بالاستقلال الاداري ، ومجالس طبقاتها الاقليمية ، اي جمعيات النبلاء
 ورجال الكنيسة ، تدافع عن حريات البلدان وامتيازاتها ولا تهتم في الدرجة الاولى الا بدفع
 حد ادنى من الضرائب . تتولى هذه الشعوب بنفسها تعيين رجال ادارتها من بين النبلاء الذين
 يقبضون على زمام السلطة ، الا في المدن التي تعين البورجوازيات لادارتها قضاء منتخبين .
 هنالك مؤسسات هبسبورغية كثيرة : ثلاثة مجالس في فيينا للسياسة العامة والمالية والتجارة
 والحرب ؛ وثلاث مستشاريات لبوهيميا وهنغاريا والدول الوراثية (النمسا وملحقاتها) ؛
 ومجلسان للفلاندر وايطاليا . ولكنها كلها شبه مقيدة امام التقاليد والعادات المحلية الخاصة .

ان شارل السادس ، الذي لم يقدر حق قدره ، قد أمن لآل هبسبورغ ، في الدرجة
 الاولى ، امتناع تجزؤ اراضيهم . لم يرزق واخوه البكر اولاداً ذكوراً . فاقر الامر الصادر عن
 الامبراطور والمجلس (١٧١٣) ، في حال عدم وجود وريث ذكر ، حق الوراثة لأنسالة من

الاثاث ذون انسال اخيه البكر . وقد اثبت في مستهل هذه الوثيقة امتناع تجزؤ دوله . وتوصل الى اعتراف بملكات آل هبسبورغ المختلفة بها كقانون دولة ، بينما لم يعترف بوراثه الاثاث في بوهيميا ودوقية ميلانو ، وربما في النمسا نفسها . فكانت عقداً جديداً يبعد غماظر التفكك ، استمر العمل به حتى السنة ١٩١٩ .

في سبيل ايجاد موارد جديدة للملكية ، لجأ الى طريقة شركات الاحتكار : شركة « اوستند » للتجار مع الهند والصين التي اخفقت بفعل عداء الانكليز والهولنديين ، وشركة موانئ الشرق الادنى في تريستا .

الا انه لم يتمكن من ان يفعل اكثر من ذلك بسبب نزق الهنغارين وفقدان النفوذ الذي مني به في اعقاب حروب خابرة .

اما ماري - ثيريز فقد حاولت مجدداً بعمارة المستشار « كونيتر » وابنه جوزف ، تحقيق مشاريع الاصلاح ، لا سيما بعد حربي وراثه عرش النمسا (١٧٤٠ - ١٧٤٨) وحرب السنوات السبع اذ توقت ، بتخليها عن سيليزيا ، الى الحؤول دون تفكك ممتلكاتها وفقدان لقبها الامبراطوري . كانت سمينة وقصيرة ، لطيفة وتقيّة ، يحبها رعاياها ويحترمونها ويلقبونها بـ « ام الوطن » ، وكانت ذكية وواقعية تقدر المقارمات المحتملة حق قدرها ، فارادت اجراء التغييرات ببطء وصمت . قوت المركزية . فاوجدت فوق المؤسسات القائمة مجلس شورى يتخذ كافة المقررات . وقد نفذ هذه المقررات مباشرة ، في بعض الولايات ، موظفون تابعون للتاج . نادراً ما دعت للاجتماع مجلس ممثلي هنغاريا ومجلس الطبقات . عملت بالروح التجارية . وحظرت استيراد المصنوعات وتصدير الخامات وهجرة اليد العاملة ، رغبة منها في خلق صناعة بالقوة . واقامت في املاكها نفسها ملاكين صغاراً انكبوا على عمل الزراعة بمزيد من النشاط والعناية ، ولكن الاسياد لم يحدوا حدودها . واقرت الخدمة العسكرية ، الا انها اقصرتها على الفلاحين وفي الدول الوراثية . لم تستطع اصلاح الادارة المالية . حققت بعض الشيء في حقل التساهل الديني : فمنذ السنة ١٧٧٤ ، لم يعد سكان هنغاريا من غير الكاثوليك مجبرين على السير في التطوافات ، او على استدعاء كاهن كاثوليكي للرضى . ولكنها هددت لان تقيم كنيسة نمساوية اكثر منها رومانية : فمنذ السنة ١٧٦٧ ، ما كان اي منشور بابوي ليدخل الدول النمساوية بدون اجازة ملكية . اصلحت التعليم . بيد ان كل ما حققته ما زال جزئياً .

كان ابنها جوزف الثاني ، الزاهد المتوج ، مبرهنناً منسقاً منطقياً لا يقيم وزناً لمشاعر الشعوب . اوجد تسلسلاً في التقسيمات الادارية تداخلت فيه وحدات تاريخية مختلفة ، رغبة منه في صهر الشعوب : الولايات المقسمة الى دوائر . كان حكام الولايات ووكلاؤها وضباط الدوائر يتولون اعمال الادارة على حساب موظفي الدولة . وجب أن يكتولوا خريجي جامعات (١٧٨٧) : فدخل صغار النبلاء والبورجوازيون مكاتب الادارة ، ولكن المراكز العليا بقيت وقفاً على

كبار النبلاء فرضت الألمانية على كافة الشعوب لغة رسمية للإدارة والمدارس الثانوية والاكليزيكيات (١٧٨٤ - ١٧٨٦) .

في السنة ١٧٨١ اصدر براءة تساهل اقامت المساواة بين الكاثوليك واللوثريين والكلفينيين والأرثوذكس . بقي اليهود خاضعين لنظام خاص . ولكنه واصل تحقيق حلم كنيسة قومية مستقلة عن روما ، فانقلب تساهله تصلياً ضد الكاثوليك الذين نغص ضائهم بتأسيس اكليزيكيات رسمية يهمل فيها اللاهوت ، ومنع كتب اللاهوت (١٧٨٤) ، وحظر زيارة الأماكن المقدسة والتطوافات ، وإقفال أديرة كثيرة باعتبارها غير مفيدة ، بينما يرى الكاثوليكي أن الرهبان التأمليين أنفع البشر طراً بصلواتهم ، علمن نصف الأديرة واستولى على ممتلكاتها (١٧٨٦ - ١٧٨٨) .

أبقى على كثير من النظام التجاري والروح التجارية ، ولكنه ألغى شطر الحرية التجارية : معاهدة تجارية مع روسيا ، إلغاء الاحتكارات التجارية ، حرية تجارة الحبوب في الداخل ، حرية تأسيس مصنع أو حانوت (١٧٨٢) . حرر الفلاحين وجعل منهم ملاكين وراثيين لاراضيهم مقابل ضريبة تحول حق الانتخاب . ألغى الاحتكارات السيديّة ، وأبدل أعمال التسخير بأقوات نقدية (١٧٨٣ - ١٧٨٨) . وزع أملاكه وممتلكات الأديرة مزارع كبرى لزمها تزيماً .

مسح الأراضي رغبة منه في تحقيق المساواة أمام الضريبة (١٧٨٩) ، وعمّ هنفارياً بالخدمة العسكرية ، وأجرى تبادلاً جزئياً في السكان بين الألمان والهنغارين رغبة منه في صهر الشعوب . ولكنه تعجل في إنجاز عمله ، فساء كافة رعاياه بالخدمة العسكرية ، والكاثوليك بسياسة الديلية ، والنبلاء بتدبيره الاجتماعية ، والفلاحين المحررين الذين ثاروا واستباحوا السلب والنهب . فنذ السنة ١٧٨٨ هبت عاصفة من الاعتراضات والثورات التي كان أخطرها في المناطق المنخفضة حيث اتحد ضد الامبراطور كاثوليك « فان - دير - نوت » التقليديون وبروتستانت « فونك » الأحرار . فتوجب التخلي عن معظم الإصلاحات ، باستثناء حرية الفلاحين .

على نقيض ذلك ، أحرز آل هومزولرن في بروسيا نجاحاً تاماً . ولا غرو ، آل « هومزولرن » فإن ممتلكاتهم ، وإن كانت قطعاً متناثرة بين بولونيا والرين ، كانت كلها تقريباً في سهول المانيا الشمالية المأهولة بالجرمانيين في الغرب ، وبالجرمانيين وبعض السلافيين في الشرق ، ولكن هؤلاء السلافيين المتأخرين حضارياً وصناعياً طبعوا دونما صعوبة بطابع الملوك . أضف إلى ذلك أن فردريك الثاني قد تمتع بسلطة الإبطال الطاقير التي أعوزت النمساويين .

ان فردريك غليوم الأول ، « الملك الرقيب » (١٧١٣ - ١٧٤٠) الجبار ذا القامة الفاتكة الطول ، الممرض للسكتة ، وذا الأعصاب المهيبة ابدأً بالافراط من التبغ والمشروبات الكحولية والأطعمة الأزوتية ، مثار رعدة عائلته ورعاياه ، قد أعد آلة حرب الفتوحات ، صناعة بروسيا القومية . ازدرى بالأدب والفلسفة ، « الهواء » ، فأحب الواقع وأراد « تحقيق جديده » كل

سنة . قام بعمل مرهق ، إذ اطلع بنفسه على كل شيء ، باعتباره الخادم الأول لـ « جلالة الدولة » . وفرض على الجميع الطاعة السلبية دونما براهين . دفع لموظفيه رواتب محترمة وأوجب عليهم العمل والنظام ، واستخدمهم في تأسيس دوله ، ووطن البروسيين في كليف والكليفيين في بروسيا . رفع عدد السكان بتأسيس المستعمرات ، فاجتذب الأجانب من هولنديين وفرنسيين ، ووفر لهم الأدوات والحيوانات والبذار ، فانشأ مئات القرى . بلغ عدد سكان المملكة ٢٤٠٠٠٠٠ نسمة . حاول تنمية الصناعة بالروح التجارية فحظر تصدير الصوف كي يحتفظ به للناويل . واعتمد اقتصاداً مدروساً اتاح له تنمية الجيش . أقر مبدأ الخدمة العسكرية الشاملة . وفر الأشراف الريفيون ، وخريجو الأكاديمية العسكرية المؤسسة في برلين في السنة ١٧٧٢ ، ضباطاً للجيش تميزوا بشجاعة لا تقزعزع . كان لكل فرقة معسكرها ، وكانت تضم جنودها من قضاء واحد ، فتقوي الرابطة الاقطاعية النظام العسكري . كانت بروسيا معسكراً واسع الاطراف يعمل فيه الجميع لخدمة الجيش : الفلاحون ينضمون اليه ، أو يؤمنون له الغذاء ، والصناعيون اليدويون يكسونه ويسلعونه ، والأشراف يقودونه .

أما فردريك الثاني ، ابنه ، القصير القامة ، والنحيف البنية ، ذو الأنف الحنّاد والشفتين الغاطعتين ، المكار والقاسي ، والكلف بالمجد ، فقد أحب الادب والفلسفة وكان كاتباً موهوباً . ساءت العلاقة زمناً طويلاً بينه وبين والده الذي خشي أن يسمي ابنه « مركزاً صغيراً » ، ولكنه رأى آراء ابنه الاساسية نفسها . يجب أن تستهدف الادارة الداخلية قوة الجيش المتزايدة ، ويجب على الجيش أن يحقق الفتح ، والفتح يتيح إنماء قوة الدولة لتحقيق فتوحات جديدة . منذ السنة ١٧٤٠ حتى السنة ١٧٦٣ ، انشغل فردريك في الدرجة الاولى بالحرب ضد النمسا والاستيلاء على سيليزيا . في السنة ١٧٦٣ ، تدنى عدد السكان ، بعد الحروب الى أربعة اخماسه ، وعم الخراب ، وارتفعت الاسعار ، وساد البؤس والفجور والفساد والفوضى .

أرسل فردريك الى المناطق المكثسة ، ثم الى البلدان البولونية المفتوحة فلاحين آتين من الدول الالمانية الاخرى ، ولا سيما من مكلنبورغ والبلدان الصوابية ، ومالا وبذاراً وأغذية وجياداً ، ونظم القروض مقابل رهونات عقارية . في السنة ١٧٧٤ صدرت بروسيا قمحاً بقيمة مليوني « تالر » سنوياً .

حظر تصدير الصوف واستيراد عدد كبير من المواد البذخية ، وفرض رسوماً جركسية مرتفعة ، وأعطى مساعدات مالية للمشاريع ومنح احتكارات ، ولكنه ما أن استطاع الى ذلك سبيلاً حتى أقر منح الحرية رغبة منه في تشجيع الانتاج عن طريق المنافسة . تقدمت الصناعات كلها : فادخلت مصانع صفائح الحديد والأجواخ والقيشاني والمحمل ٣٠ مليون تالر في السنة . وصلت أفضية بين القستول والإيلب ، ونقلت ١٣٠٠ سفينة بروسية الاقمشة والاجواخ والاشخاب والحنطة . وفي السنة ١٧٨٥ ، وقع فردريك معاهدة تجارية مع الولايات المتحدة .

أما الفرنسي « دي لوتاي » فقد نظم الجمارك ، والضرائب غير المباشرة على الخبز والقمح والجملة والنفور والمشروبات الروحية والبضائع الأجنبية والمصنوعات البديعية ، التي يدفعها الجميع دون أن يشعروا بها : وأوجد « دي لوتاي » احتكارات رسمية . فكانت خزائن الحرب مملوءة بالأموال .

اعتمد فردريك التساهل واستقبل اليسوعيين انفسهم لتولي أمر التعليم . نظم المدرسة الابتدائية والتعليم الثانوي العملي والأكاديمية برلين .

تعاظم جيشه بالتجنيد ، الاجباري غالباً ، وقباده نبلاء يتخرجون من المدارس العسكرية ويتدربون في مناورات الربيع والخريف ، وُزود بمدفعية كافية ، واحتسب بخطوط من التحصينات على غرار فرنسا .

أعد توحيد القوانين في الدولة البروسية ، ولكن مجموعة القوانين العامة لم تظهر إلا في عهد خلفه .

أما النتائج فتوجز برقم بلينغ : في السنة ١٧٨٦ بلغ عدد سكان المملكة ستة ملايين نسمة . ولكن الوحدة لم تكن جمالا كلها . فقد حدث تقهر اخلاقي . وقد قال العالم « جورج فورستر » عن البريليين : « ان حب اللفة والذوق الرقيق في الملاذ يستحيلان عندهم شوانية وفجوراً ، لا بل نها ، اذا صح التعبير ؛ كما أن حرية الفكر ومحبة الانوار تستحيلان اباحية وقحة ... النساء عواهر بصورة عامة » . وكان هذا الرأي رأي العديد من المسافرين . كانت بمكنة المال أن يصنع كل شيء . وقد حدد ميرابو بروسيا بقوله : « ثنائية قبل بلوغ كمال النمو » .

بيد أن المملكة كلها خضعت للملك ودفعت له كل ما سمحت به طاقتها ، وكان الجيش أقوى جيوش أوروبا ، ولم يستطع رد فعل فردريك - غليوم الثاني ، المتطرف في التقوى ، زعزعة العمل المحقق زعزعة تذكر .

أوروبا الشمالية

كانت الدانمارك مؤلفة من اجزاء متشتتة ايضاً : « جتلند » ، الجزر ، نروج ، الدانمارك و « اولدنبورغ » في الجنوب التي قبضت في السنة ١٧٦٧ بدوقتي « شلسفيغ » و « هولشتاين » . مركز الدولة هو المضائق . المرافىء عديدة ومزدهرة ، والتجارة البحرية ناشطة . قامت في وجه النبلاء الريفيين بورجوازية تجارية توصلت الى تحقيق نفوذ كبير . وأدت علائق البلاد العديدة الى نشر الآراء الألمانية والانكليزية والفرنسية فيها .

كان الملك فردريك الرابع (١٦٩٩ - ١٧٣٠) وكريستيان السادس (١٧٣٠ - ١٧٤٦) وفردريك الخامس (١٧٤٦ - ١٧٦٦) مع وزيره « برنستورف » منذ السنة ١٧٥١ ،

وكريستيان السابع (١٧٦٦ - ١٨٠٨) الذي احتفظ ببرنستورف وأخذ الطبيب «سترونسي» مستبدين مستنيرين حقيقيين ، ولا سيما الأخيران منهم . لا شك في أنهم نجحوا في أن ينتزعوا كل سلطة سياسية من الارستوقراطية باقامة طبقة في وجه أخرى . ولكنهم لم يتوقفوا الى الغاء الفدائية وإعلان حرية الفلاحين مع ابقائهم خاضعين للحقوق الاقطاعية ، إلا في السنة ١٧٨٧ وبعد محاولات فاشلة كثيرة . إلا أن بعض كبار الملاكين رفعوا عن كاهل فلاحهم أعمال التسخير منذ السنة ١٧٥٠ وجعلوا منهم مزارعين . ونهج الملوك سياسة تجارية . ائتمت الحماية الصناعة ، وتأسست بعض الشركات ، كالشركة الآسيوية في السنة ١٧٣٢ ، وشركة الهند الغربية وغينيا في السنة ١٧٣٣ ، وفتح مصرف كوبنهاغن ابوابه في السنة ١٧٣٦ . وأحدث كريستيان السادس وفردريك الخامس مدارس واكاديميات ومؤسسات علمية . إلا أن النبلاء لم يفقدوا قوتهم . ففي السنة ١٧٧٢ قاموا بعمل مفاجيء وأكروهوا الملك على إدانة « سترونسي » وتخريب الاصلاحات مخرباً مؤقتاً . فتجانبت بلادان مختلفتان ، وجه بحري فاشط بوجوازي ، وداخل ارستوقراطي ريفي ، ولم تبرز نتائج نمو البلاد الاولى في البلاد الثانية الا بكل بطء .

السويد
ان السويد التي جعلت في فترة من الزمن بحيرة سويدية من البلطيك ، والتي ما زالت لها بمتلكاتها الهامة من جهة البلطيك الاخرى قد عرفت تطوراً أوسع وأعمق بفعل التجارة البحرية الكبرى . وفرت مناجم الحديد الممتاز ، والغابات الكبرى ، وأراضي سكانها الفنية بالقمح ، المواد اللازمة للتصدير . وقد استثمر هذه المناجم والغابات والاراضي النبلاء وطبقة من البورجوازيين الاثرياء ، فأدى ذلك الى تقريب المسافات بين هؤلاء وأولئك . وكان الفلاحون احراراً وميسورين .

الا ان النبلاء والبورجوازيين والاكليروس اللوثري المنتسب الى البورجوازية ، قد استاءوا من تضخم النقد وتقهقر التجارة والاقتصاد من الثروات لتخفيف ديون الحرب ، فأرادوا تحديد السلطة الملكية التي باتت مطلقة في عهد شارل الثاني عشر . كان الفلاحون راضين عن السلطة المطلقة ، ولكن الحروب الطويلة وعمليات التجنيد المستمرة جعلت البلاد تقفر شيئاً فشيئاً من السكان وافتقرت الحقول الى من يعنى بها؛ وكانت هذه الطبقة مستضعفة، وما كان مستواها الثقافي المتدني ليسمح لها بلعب دور سياسي . استفادت الطبقات الثلاث الاخرى من تأرجح حق ورائة العرش . بعد وفاة شارل الثاني عشر في السنة ١٧١٨ التأمّت الجمعية ، المؤلفة من ممثلي الطبقات الاربع ، وانتخبت ملكة على العرش شقيقة شارل الثانية ، « اولريك - اليونور » دون أن تقيم وزناً لحقوق ابناء شقيقته البكر ، ولكن الملكة اضطرت بالمقابلة الى القبول بدستور السنة ١٧١٩ . غدت السويد جمهورية وملكها رئيساً . قررت الجمعية القوانين بأكثرية ثلاث طبقات من اصل اربع ، وعينت لجنة سرية تضم ٥٠ نبيلاً : ٢٥ اكليريكيًا و ٢٥ بورجوازيًا ، وتمارس السلطة التنفيذية ؛ وتقدم المرشح لمجلس يعينه الملك يتولى السلطة التنفيذية بين دورة

واخرى ؛ وكان على الملك ان يرضخ للاكثرية وكان صوته بمثابة صوتين فحسب .

برهنت هذه الحكومة عن عجزها بسبب تصارع الاحزاب . فالنبلاء ، متوسطوم وصغارم ، اضطروا ، بعد ان افقرتهم الحروب ، الى طلب الوظائف العامة التي ارتفع عددها في « عصر الحرية » ، لا سيما وان نبلاء السويد بيروقراطيون . وفي سبيل الحصول على الوظائف والتدرج في سلمها استزلم النبلاء لبعض كبار الاسياد الذين يتنازعون النفوذ والسلطة . وكى يتمكن هؤلاء من نقد زبنهم المتزايدين ، دخلوا في خدمة الاجانب من روس وانكليز وفرنسيين . فلتشيع حزب « القلانس » ، لانكلترا ، ثم لروسيا منذ السنة ١٧٦٣ . وتشيع حزب « القبعات » لفرنسا . وكان من ملاءمة هذا الوضع ان وقعت كاترين الثانية وفردريك الثاني ، في السنة ١٧٦٣ ، اتفاقا سرىا للابقاء على الدستور السويدي الذي يلاقي السلطة الملكية ويخلد المفوضى ، وضمنا الدستور « للقلانس » .

بلغ الوضع درجة من الخطورة مكنت الملك غوستاف الثالث ، عند توليه العرش في السنة ١٧٧٢ ، من القيام بانقلاب سائده الشعب والجنود وفرض دستور جديد . استعاد حق اختيار وزرائه ، واقصر مجلس الشيوخ على دور استشاري والمجلس على دور الاشتراك في اقرار الضرائب واعلان الحروب . تصرف غوستاف الثالث ، الذي سلخ سنوات طويلة من حياته في فرنسا ، تصرف المستبد المستنير . الفى الاعذبة ، واطلق حرية المعتقد للمهاجرين الاجانب ، واعلن حرية تجارة الجبوب ، ووسع التعليم الابتدائي ، وشجع الكتاب والفنانين ، وأسس الاكاديمية السويدية ، وبنى اسطولا حرييا ، ونظم الجيش تنظيما جديدا . بات النفوذ الفرنسي مسيطرا . ولكن ثقل وطأة ضرائبه هيج الشعب ، كما هيجته الاحسانات التي اغدقها على النبلاء دون ان يفوز بانضمامهم اليه . فالنبلاء ، الذين حركهم ذهب كاترين الثانية ، قد اوقفوا الجيش السويدي ، في ضراوة الحرب الروسية ، بثورة تستهدف استعادة دستور السنة ١٧١٩ . استنجد غوستاف الثالث بوطنية الطبقات الاخرى الثلاث واستخدم القوة وبقي السيد المطاع . الا ان بعض النبلاء طعنوه بخنجر في السنة ١٧٩٢ خلال حفلة راقصة كان المدعوون اليها متنكرين بلباس مستعارة .

أوروبا الشرقية

كانت بولونيا ، وهي جزء من سهل واسع الاطراف ، لاحدود طبيعية له ، بولونيا مشرع الابواب امام الغزوات ، دولة مهددة بالزوال . فكانت بمثابة خطأ تاريخي واستمراراً لعهود ولتى زمانها ، ودولة تذكر ، بنواح كثيرة ، بفرنسا الكابيتيين الاولين ، لا تجمعها وحدة وطنية . من اصل ١١ مليوناً من السكان ، يؤلف البولونيون النصف ، والروس الثلث في المناطق الشرقية ؛ اما السدس الباقي فيتألف من ألمان وليتوانيين ويهود وأرمن . ولا تجمعها وحدة ديلية ؛ فنصف السكان كاثوليك ، والثلث ارثوذكس ، والباقي

بروتستانت ويهود. وهي بلاد تكاد تكون ريفية كلها . فالمدن ، وهي صغيرة جداً (٦ الى ٧ ٪ من السكان) لا تضم سوى بعض التجار اليهود وعدد قليل من البورجوازيين . ٧٢ ٪ من السكان فلاحون فداديون تسيطر عليهم ٢٠ الى ٣٠ الف عائلة من صغار النبلاء الفقراء جداً في اغلب الاحيان والتابعين لحوالي عشرين عائلة من كبار الملاكين النبلاء .

تحكم الدولة جمعية مؤلفة من مجلس شيوخ يعينه الملك ، ومجلس قصّاد يلتخبه النبلاء . غدت المملكة انتخابية . لذلك لم يتمتع الملك بأية سلطة . ولم تتمتع الجمعية كذلك بأية سلطة ، لان الاجماع ضروري حتى تصبح قراراتها نافذة. تتمتع كل نبيل بحق النقض الحر ، اي بحق الاعتراض بفردته على تنفيذ قرار او قانون ، وهو اعظم حرية يمكن ان يحلم بها الانسان . ولكن هذه « الحرية المذهبة » وضعت البلاد في الفوضى وجعلت منها العوبة الأجنبي . حين يتعذر اتخاذ أي قرار ، « تحطم » الجمعية او « تمزق » . يلتف كل حزب حول زعمائه من كبار النبلاء الملاكين ويؤلف « اتحاداً » لا سلطة شرعية له . هي القوة وحدها ما يحسم الخلافات بين الاتحادات المتخاصمة ، وذلك بالاستنجااد بالأجنبي .

استفاد كبار النبلاء الملاكين من المخطاط الملكية لاثقال اعمال التسخير والموجبات الاقطاعية . ورغبة منهم في شراء المحاصيل بأسعار منخفضة ، افقروا المدن والبورجوازيين بفتح ابواب البلاد على مصراعها أمام البضائع الاجنبية ، وبتحديد الاسعار .

قارم النبلاء ، كبارهم وصغارهم ، كل اصلاح . انتخبوا ملوكاً من بين الاجانب . الساكسونيان اوغست الثاني (١٦٩٧ - ١٧٣٣) واوغست الثالث (١٧٣٣ - ١٧٦٥) دحرا ستانسلاس لكزنسكي ، مرشح الحزب القومي ، وافقروا الملوك ، وخفضا الجيش الى ١٠٠٠٠ رجل ، وصغّروا خزائن الاسلحة ، ولاشيا المدفعية ، وفاوضا الدول الاجنبية ، ففاوض الـ « قيصر توريكي » الروس ، والـ « بوتوكي » الفرنسيين والنمساويين . الأرثوذكس استدعوا الروس ، والبروتستانت استدعوا البروسيين . اتفق الروس والبروسيون والنمساويون والفرنسيون على ابقاء الفوضى و « تمزيق » الجمعيات بمقتضى صوالهم . وانتهى الامر بالروس اخيراً الى ابداء رأيهم في كافة القضايا وممارسة شبه حماية .

الا ان الدروس الجديدة ، التي بثها اليسوعيون ، ايقظت بعض النبلاء وبعض بورجوازيي المدن من سباتهم . في السنة ١٧٦٤ ، اقلح الـ « قيصر توريكي » ، بمساندة جيش روسي ، في إجماع مرشح كاترين الثانية ، ستانسلاس بونيا توفسكي . ولكنها خدعة ، لان ستانسلاس كانت وطنياً بولونياً ، والقيصر توريكي الغوا حق « النقض الحر » وعينوا لجاناً تنفيذية لمعاونة الوزراء الممينين مدى الحياة . عند ذاك ، اي في السنة ١٧٦٧ ، تدخلت الجيوش الروسية بحجة حماية الأرثوذكس . اعاد « رنين » ، السفير الروسي ، حق « النقض الحر » ، تلك « الجوهرة » ، ووضع الدستور تحت الضمانة الروسية . عبثاً قاوم اتحاد « بار » طيلة اربع سنوات . في السنة

١٧٧٢ اتفقت روسيا وبروسيا والنمسا على تقسيم بولونيا الاول، فاقطعت كل منها اجزاء كبرى، واحتلت جيوش الدول الثلاث البلاد التي حكمها في الواقع السفير الرومي، «ستا كلبرغ».

حاول البولونيون حينذاك ان ينهضوا ويثبتوا وجودهم. اعدوا تأليف الجيش ونظموا ادارة الاموال تنظيمًا جديدًا، واستبدلوا اعمال التسخير والاتوات العينية بضرائب تخول حتى الانتخاب وبأقوات نقدية، واقرروا نظامًا تعليميًا قوميًا. واراد عدد من المصلحين الوطنيين إلغاء حق «النقض الحر»، والملكية الوراثية، والبعض تحرير الفداديين، والجميع جيشًا مؤلفًا من ١٠٠.٠٠٠ رجل. كان هذا برنامج جمعية السنة ١٧٨٨ الكبرى. تحالفت مع بروسيا التي فازت بحلّ الروس عن بولونيا، لاسيما وقد انشغلوا آنذاك بمعاربة الاتراك والسويديين. ولكن ما حصل لم يكن سوى استراحة.

ضمت الامبراطورية العثمانية الواسعة الاطراف، آنذاك، افريقيا الشمالية وآسيا
تركييا الصغرى، فلا يجوز من ثم اعتبارها دولة اوربية الا لانها ضمت كذلك شبه جزيرة البلقان وشواطئ البحر الأسود الشمالية. كانت امبراطورية ثيوقراطية اسلامية ينحدر فيها السلطان من سلالة النبي^(١) محمد ويجمع في شخصه كافة السلطات. ويفوض بسلطته العليا الى باشاوات في الولايات. يرأس هؤلاء ضباط اترك يمتلكون اراضي واسعة تأمينًا لمعيشتهم ومكافأة على الخدمات التي ادها فيها مضى للجيش. فكان النظام نظامًا اقطاعيًا لجيش يعسكر في المناطق الزراعية بصورة خاصة. ويأتي بعد الباشاوات والضباط المسلمون العرب او الاوروبيون الذين يزاولون الزراعة او التجارة. اما المسيحيون من فلاشين وصر بولغاريين، فقطيع يخضع للجزية؛ وهم وحدهم من يدفع الضريبة مبدئيًا.

في هذا النظام، كان كل شيء متوقفًا على قيمة الرئيس. والحال كان السلاطين يعيشون مختلين في حرمهم، جهلة ومتخفين، ومنقطعين الى المسكر والفجور. وكان رؤساء وزاراتهم مدنيين يركزهم للدسائس فحسب، ولا يلبثون ان يثوروا قبل ان يتمكنوا من انجاز عمل حاسم. اما جمعية الانكشارية الدينية العسكرية، المغمورة بالاحسانات والمرتبات السنية، فلم تعد سوى مجموعة مناصب يتقاضى اصحابها الرواتب دون خدمة، تشتري بالمال وتنتقل من الاب الى الابن، ويدافع عنها بالثورة ضد كل اصلاح. لذلك كان الباشاوات يستقلون، ويلزمون الضرائب ويجمعون ثروات طائلة. وكان الضباط يتصرفون كذلك تصرف الاسياد المستقلين. وكان ملتزموا بالضرائب والجنود يسلبون المسيحيين والمسلمين على السواء بعلم وموافقة الباشاوات. فكانت الجزيرة العربية وسوريا ومصر وتونس والجزائر والمغرب خارجة عمليًا عن سلطة السلطان. ولم يحافظ السلاطين في اوروبا نفسها على سلطتهم الا باسلام البلاد الليونانيين الذين كانوا موجودين في كل مكان وقد اثروا بالتجارة والحرف وتمتعوا بالنفوذ الديني عن طريق

(١) كذا في النص. والحقيقة التاريخية هي انتقال الخلافة من العباسيين في مصر الى السلطان العثماني سليم الاول بعد فتحه للقاهرة ١٥١٧.

بطريك القسطنطينية ، وحركتهم فكرة إعادة الامبراطورية البيزنطية . جعل السلطان منهم حكام الامارات فتصرفوا فيها تصرف المستبدن . وكان البطريرك يعين الكهنه اليونانيين في كل مكان . تفككت الامبراطورية العثمانية إذ باتت دون وحدة اقليمية ودون وحدة وطنية ودون ادارة منتظمة ، اي دون اي من مقومات الدولة ، فتعرضت لشتم الضربات .

ما زالت روسيا ، في السنة ١٧٥١ ، مجتمعاً أشبه بمجتمعات القرون الوسطى .
روسيا كانت متسمة بطوايح شرقية دانت بها لموقعها الجغرافي ، ولكنها كانت خاضعة لتنظيم وادارة حققها الغرب منذ قرون ، وتتم براحل سبق للدول الاخرى ان عرفتها . بلغ سكانها ١٣ مليون نسمة منهم ٩٠٪ من الفلاحين ، و ٧٪ من النبلاء ، و ٣٪ من اهل المدن . ما زالت البلاد في مرحلة الاقتصاد العقاري « المقل » . اجل هنالك فلاحون احرار كثيرون ، ولا سيما في الشمال حيث الاراضي اقل خصباً . ولكن العدد الاكبر فداديون في الاملاك السيدية . يتبع معظم الاسياد بين ١٠٠ و ٥٠٠ فدادي ؛ ويتبع بعض كبار الاسياد اكثر من ١٠٠٠ فدادي ؛ ويتبع بعض صغار النبلاء اقل من ١٠٠ فدادي . كل ملك سيدي ينتج كل ما هو ضروري للسيد والفداديين ، بما في ذلك المصنوعات الكثيرة . المدن قرى كبيرة تبيع من الاملاك السيدية المصنوعات المدنية والبذخية . التجارة الداخلية تمارس على نطاق ضيق في الاسواق الدورية بنوع خاص وتعيقها الجمارك الاقليمية . اما التجارة الخارجية ، المتوسطة الحجم ، فتجارة نقل بضائع بين اوروبا وآسيا ، تجارة تصدير الخامات ، القنب والكتان والحديد والخشب ، واستيراد المصنوعات ، الحرائر والاقمشة الهندية والاصواف ، وكلها في يد الاجانب على كل حال .

القيصر هو مالك روسيا السامي (المالك الرئيسي في الواقع) ، وصورة الاله الآب ، وخليفة الاباطرة البيزنطيين ، والقائد الاعلى في الحروب ، وحامي البلاد . وهو يتمتع بالاضافة الى هذه الالقاب بسلطة مطلقة ، انه حاكم مطلق . سمي القيصر بطرس الاكبر (١٦٨٢ - ١٧٢٥) ، الجبار العنيف ، وراء المجد عن طريق الفتوحات . اقتضى له من ثم جيش واسطول وموارد مالية وادارة . اصطلح الدولة شيئاً فشيئاً بأن اقتبس عن الدول الغربية افكاراً وأنظمة طبقها على روسيا فأضفى بذلك ظاهراً عصرياً على وقائع اكثر قدماً . ولكن الحالة الاجتماعية فرضت عليه استخدام الارستوقراطية وارضاءها . افتتح قسمة السلطة والفوائد الاجتماعية هذه بين الملك المطلق والارستوقراطيين ، التي تميز روسيا خلال القرن الثامن عشر . النبلاء ملازمون جميعهم بالخدمة العامة الاجبارية في الادارة والجيش ، وكل أولئك الذين خدموا بطرس قد رفقوا الى طبقة النبلاء واعتبروا كما لو كانوا نبلاء قدامى . في السنة ١٧٢٢ منح كل منهم بمرتبة وفاقاً لخدماتهم . وهكذا صهر بطرس في بوتقة واحدة طبقة النبلاء القديمة وطبقة النبلاء الجديدة . الرجال الثقة يختارون من بين النبلاء الذين يخدمون في الحرس الامبراطوري هؤلاء هم « الأوفياء » ، « المتفانون » ، أدوات القيصر . منح القيصر هؤلاء النبلاء كل سلطة على الفلاحين . فأحراراً كان

هؤلاء أم فداديين، فهم لا يستطيعون الابتعاد عن النبيل بدون اذنه (١٧١٨) . وأسند القيصر الى النبلاء الادارة المحلية: النبيل يجمع الضريبة المفروضة على الفلاحين، والنبلاء المحليون ينتخبون مفوضي المناطق الاقليميين (١٧١٨) .

تمكن بطرس بفضل ذلك من تنظيم حكم مركزي ، على غرار الحكم السويدي ، مع مجلس شيوخ يضم ٩ اداريين اختصاصيين يصدر الاوامر في غياب القيصر؛ وهيئات من النبلاء المتوسطين المرتبطين بمجلس الشيوخ بمثابة وزراء ؛ و ٨ حكومات يرأس كلا منها حاكم خاص ؛ وقسمت الحكومات الى ولايات يقوم في كل منها مفوض اقليمي ، كما قسمت الولايات الى اقضيه والاقضيه الى نواح . وتمكن من اخضاع الكنيسة الارثوذكسية باستبدال البطريرك بسينودوس مقدس يراقبه وكيل عام ثقة ، ومن استيفاء بعض مداخيل الاديرة . كما تمكن من بناء اسطول وتنظيم جيش عصري دائم واقرار الضريبة الشخصية في السنة ١٧٢٠ على غرار ضريبة الاعناق الفرنسية، واعتماد الروح التجارية ، وتوزيع الاحتكارات والاعانات المالية وتسليف القروض دون فائدة وفرض أنظمة على الصناعة، وحماية الصناعة برسوم جركية مرتفعة، وإيجاد صناعة معدنية لحاجات الحرب لا سيما في جبال الـ « اورال » ، ورؤية ٩٨ مصنعاً تعمل بانتظام ، قبيل موته ، وتوسع روسيا بتصدير الحديد الى انكلترا .

اصطدم عمله بمقاومة عنيفة : فقد بدت كل هذه الجدة متنافية والمعتقد الارثوذكسي وصادرة عن المسيح الدجال . ولكن عيب النظام انقذ عمله : فلم يكن هنالك حق وراثي . كان القيصر يعين خليفته (١٧٢٢) . أما في الواقع فالعرش لم يكن « لا وراثياً ولا انتخابياً » بل تملكياً . فهم جنود الحرس وضباطه من أجلسوا على العرش المدعي الذي يختارونه . بيد أنهم كانوا يلتسبون جلهم الى طبقة النبلاء الجديدة ، ويرتجون كل شيء من سلطة القيصر العليا ، ففرضوا من ثم احترام السلطة المطلقة على أنسال طبقة نبلاء « البويار » القديمة الراغبين في الحد من السلطة الامبراطورية . وهذا ما فعلوه حبال كاترين الأولى (١٧٢٥ - ١٧٢٧) ، وبطرس الثاني (١٧٢٧ - ١٧٣٠) ، وآننا ايفانوفنا (١٧٣٠ - ١٧٤٠) ، وايفان السادس (١٧٤٠ - ١٧٤١) ، واليزابيت بتروفنا (١٧٤١ - ١٧٦٢) ، وبطرس الثالث (١٧٦٢) ، وكاترين الثانية (١٧٦٢ - ١٧٩٦) الحادة المزاج على غير تسرع ، الالمانية « الروسية اكثر من كل امبراطورة اخرى » ، الخليفة الحقيقية لبطرس الاكبر .

لم تخل روسيا من النفوذ الاجني ، النفوذ الجرمانى في عهد آنا ايفانوفنا التي قربت إليها الالمان ، والنفوذ الفرنسي ، في عهد اليزابيت التي نسجت على منوال فرساي وارغمت بطانتها على التشبه بنبلاء الفرنسيين ، وفي عهد كاترين الثانية التي شغقت بقراءة فولتير ومونتسكيو وواضمي دائرة المعارف ، وراست السيدة « جوفرين » وفولتير وديدرو ، وأضافت هذا الاخير « مرسيه دي لا ريفيير » و« فالكونيه » ، ونحلت مونتسكيو في تعليماتها الى جمعية

النواب في السنة ١٧٦٧ ، وان طبعت ما نقلته عنه بطابع روسي ، وثقلت من الفلاسفة ، دعائها عن غير قصد ، السذج جداً عندما يقتضي ذلك صالحهم ، لقبني « سميراميس الشبال » و « مينرفا الروسية » . وإنما اذا برهنت اليزابيت المغناجة وكاترين الكاتبة عن ذوق حقيقي ، فان الرغبة في اللحاق بالدول المتقدمة الاخرى واثبات ما تستطيعه روسيا واحتلال المركز الاول بين الملوك الاوروبيين ، لم تكن غريبة عن تحقيق ما تحقق ، على ان سلوك هذه الطريق لم يلس قط الواقع الروسي . فالجميع واصلوا السير في الاتجاهات التي عينها بطرس الاكبر .

فضل النبلاء تفضيلاً مطرداً على حساب الفلاحين . في السنة ١٧٨٥ ، كان التطور قد اكتمل . ايد قانون النبلاء اعفاءهم من الخدمة الاجبارية ، والضريبة ؛ منحهم حرية التصرف بأموالهم وأولام حق تأسيس المصانع والمشاغل ، والاتجار بالمجمل بمحاصيل املاكهم الزراعية وتصدير كافة منتوجاتهم الى الخارج .

تسلموا من القيصرية والقيصرات ، مكافأة لهم على خدماتهم ، اراضي واسعة جداً امسى فلاحوها الاحرار عبيداً وفدادين تابعين لهم ؛ وكان امتلاك هؤلاء وفقاً عليهم ، باستثناء الفترة الفاصلة بين السنة ١٧٢١ والسنة ١٧٨٢ ، اذ استفاد من حق الامتلاك هذا التجار المتعاطون صناعة استخراج المعادن ، رغبة في تنشيط هذه الصناعة ؛ تولوا بأنفسهم تدوين اسمائهم في لوائح خاصة ، ولجورد التسجيل في اللائحة قيمة شرعية ؛ يضاف إلى ذلك ان كل فلاح حر ملزم باختيار سيده . كان من حق النبلاء ابعاد فداديهم المذنبين الى سيبيريا . خفض معدل الضرائب التي يدفعها فداديهم كي يتاح لهم زيادة اقاواتهم السيدية . وضعت ايام اعمال التسخير ، فأصبحت ستة عوضاً عن ثلاثة ؛ ولم يبق للفلاح سوى يوم الاحد لحراثة حقله . حظر على الفدادين التزوج بدون اذن السيد . عائلاتهم عرضة ابدأ للتشيت ، الرجال بيعوا قطعاناً . فلا عجب من ثم إذا كانت ثوراتهم مستمرة وإذا ما انضم فداديو املاك الفولغا وفداديو المصانع وفلاحو الدولة المسجونون في المصانع ، باعداد كبرى ، الى قوزاق « بوغاتشيف » (١٧٧٣ - ١٧٧٤) .

توقفت عن تجار المدن ، وهم اقل ثروة منهم في الغرب ، مساعدات الحكومة المالية ، فصادفوا الصعوبات في تأمين اليد العاملة اللازمة . استحصال عليهم مقاومة مزاحمة الملاكين العقاريين الذين اسسوا المعامل (٩٨٤ في السنة ١٧٦٢) واستحصلوا على احتكارات تجارية . سلفت النبلاء رؤوس الاموال مصارف تأسست لخدمتهم منذ السنة ١٧٥٤ . وكان من سرعة النجاحات المحرزة ان تمكنت كاترين ، بعد السنة ١٧٦٠ ، من اطلاق حرية المنافسة ، ومن إلغاء كافة القوانين الصناعية . كان هنالك ٣١٦١ معمل في السنة ١٧٩٦ ، ولكن اعظمها اهمية عاد للنبلاء ، فتدمر التجار .

أدت جهود الدولة الى انشاء منطقة صناعية عظيمة في الاورال (مناجم الحديد والنحاس ومصانع تنقيتها ومعالجتها) . منذ السنة ١٧٥٠ ، تخلت الدولة عن بعض مشاريعها ، ولا سيما للنبلاء . واسس بعض النبلاء والتجار المثرين ، في بشكيريا ، مشاريع خاصة رأسمالية ضخمة .

كانت المشاريع رابحة على الرغم من المسافات ومن تقنية متأخرة ، بفضل الفدائية وعمل فلاحى الدولة الالزامى . وفرت معامل الاورال مصنوعات نصف جاهزة لكافة الحما روسيا واسهمت بنسبة الثلثين في صادرات الحديد الروسية الضخمة ، مستفيدة من الحروب الاوروبية والاشرية الانكليزية . استمر التقدم بعد السنة ١٧٦٢ ، ولكنه كان تقدماً بطيئاً : فالسوق الداخلية قد سدت حاجتها ، والاسعار ارتفعت ، والاضطرابات الاجتماعية برزت هنا وهناك ، وثورة بوغانشيف خلقت وراءها الخراب ، وانكلترا حسنت تقنياتها وتخلصت شيئاً فشيئاً من حاجتها الى الحديد السويدي والروسي .

على الرغم من تقدم هذه الصناعات المعدنية والحياكية في جوار سان - بطرسبورغ وفي منطقة موسكو ، ومن سداً حاجبة السوق الداخلية وتصديرها الاقشة الى جانب الحديد ، بقيت روسيا ، في الدرجة الاولى ، مصدرة للخامات ومستوردة للمصنوعات . وقد اضافت كميات ضخمة من الحنطة الى صادراتها منذ فتوحاتها على حساب الاتراك .

اكمل العمل الاداري بارساخ المركزية وتقسيم العمل . اسندت السياسة الى مجلس وزراء . وبعد تجارب وترددات كثيرة اصبحت هذه المؤسسة نهائية في السنة ١٧٦٨ اذ استبدلت الهيئات بالوزارات . احتفظ مجلس الشيوخ بالادارة العليا . 'حدد' من سلطة الحكومات وجمعت عدة حكومات في نيابة . تمتع النائب الامبراطوري بسلطة مطلقة ولم يخضع الالمجلس الشيوخ الذي هو احد اعضائه . وأقر تقسيم العمل في الحكومات ايضاً : ففصل بين القضاء والمالية والادارة واسند كل منها الى مجالس وغرف . فكان الحكم في روسيا استبداداً لتحقيق بتضحية الطبقات الاخرى على مذبح الارستوقراطية .

بلغ عدد السكان ١٩ مليوناً في السنة ١٧٦٢ ، و ٢٩ مليوناً في السنة ١٧٩٦ ، فتجاوز سكان فرنسا ، للمرة الاولى ، في أواخر القرن . تعاظم نفوذ الامبراطور تعاظماً كبيراً ، وتمكنت كاترين الثانية من مواصلة عمل بطرس الاكبر ، والنهوض بمحروب فتح مثمرة ، والدخول الى حرم السياسة الاوروبية الكبرى .

ويتضح من ثم ان هذه الدول الاوروبية كلها بلغت مراحل تطور اشدّ اختلافاً من ان يمكن قيام اتحاد فدرالى على قدم مساواة . وما كانت وحدة اوروبا لتصبح ممكنة الا على يد دولة تلتصر على الدول الاخرى فتضمها اليها او تجعلها تابعة لها . ولكن عهد محاولات التنظيم الاوروبي هذه يبدو وكأنه عهد ولى الى غير رجعة .

الفصل الثالث

تنوع أوروبا المنافسات بين الدول

في السنة ١٧١٥ ، أي في اعقاب « حرب المائة سنة الثانية » بين الانكليز والفرنسيين ، التي دامت في الواقع منذ السنة ١٦٨٨ حتى السنة ١٧١٥ ، كانت انكلترا قد توفقت الى احراز النصر . خضعت السياسة الاوروبية لداعي المصلحة العليا الذي لا ينظر الى الاخلاق بل الى صالح الدول ، فاستندت الى التوازن الذي تحقق لمصلحة انكلترا في معاهدات أوترخت (١٧١٣) ورامسات (١٧١٤) . اقتضى التوازن الاوروبي ان لا تصبح اية دولة من القوة بحيث تهدد استقلال الدول الاخرى . وليس هذا المذهب بالمذهب الجديد . فقد قال به الفرنسيون والانكليز . وهو يفسر السياسة الانكليزية في البر الاوروبي منذ نهاية حرب المائة سنة ، والصراع الطويل بين العائلة المالكة الفرنسية والعائلة المالكة النمساوية منذ السنة ١٥١٥ . حوالي السنة ١٦٨٨ طرأ عليه بعض التبدل . فقد برزت إذ ذاك نجاحات الرأسمالية التجارية . وباتت التجارة البحرية الكبرى ، التي توفر الوسائل المالية ، مرتكز القوة قبل الأرض والسكان ، حين لم يكن نظام المجتمعات ليتيح لاية دولة تعبئة كافة مواردها وكافة رعاياها . كانت الدول قد تحاربت من اجل طرق التجارة ، والمستعمرات ، والعلائق بالامبراطوريات المستقلة الكبرى في ما وراء البحار . بات السعي وراء التوازن الاوروبي محاولة تستهدف منح أية دولة من ان تضمن لنفسها ، باقتنصارها في اوروبا ، المستعمرات الهامة والنقاط الاستراتيجية الرئيسية . دخلت فرنسا والنمسا في نزاع رهيب كانت آخر احداثه حرب وراثة عرش اسبانيا ، ولكن انكلترا هي من وجهت هذا النزاع وافسادت منه . حاربت لويس الرابع عشر باسم حرية الشعوب وسيادتها ، وحين بدا لها ان لويس الرابع عشر قد زال خطره ، تخلت عن حلفائها وارغمتهم على المفاوضة . وفي السنة ١٧١٣ ابقت على التوازن في البر الاوروبي وضمنت لنفسها من ثم الهيمنة البحرية والتجارية ، أي التفوق الشامل .

قسمت المعاهدات البر الاوروبي دولاً لتوازن توازن كافي لمنع تفوق احداها على الدول الاخرى ، ولا رغما جميعاً ، في حساب الانكليز ، على طلب تحكيم انكلترا . فان فرنسا التي

الوضع الدبلوماسي
في السنة ١٧١٥

حصرت داخل الحدود التي عينتها لها معاهدة « ريسويك » ، قد فقدت الامل في أن تضم إليها اسبانيا في يوم من الايام ، إذ أن ملك اسبانيا ، فيليب الخامس ، حفيد لويس الرابع عشر ، قد تحلى نهائياً عن تاج فرنسا . وفقدت فرنسا بالفعل نفسه الامل في أن تتمكن يوماً من ان تستثمر بجزيرة الامبراطورية الاستعمارية الاسبانية الواسعة الاطراف التي كانت تجارتها ، شأت كافة الامبراطوريات التجارية حينذاك ، وفقاً على الدولة المستعمرة . ولكن فرنسا قد فقدت في الحال ايضاً الشركة الفرنسية الاسبانية التي اسسها لويس الرابع عشر في قادس بموافقة فيليب الخامس ، للتجارة مع الامبراطورية الاسبانية واستيراد اليد العاملة السوداء .

تقسمت وراثة عرش اسبانيا بين فيليب الخامس الذي احتفظ باسبانيا والامبراطورية الاستعمارية ، وبين شارل السادس امبراطور النمسا الذي تسلم المناطق المنخفضة (بلجيكا الحالية تقريباً) ، بالإضافة الى منطقة ميلانو ، والمواقع التوسكانية المحصنة ، وناپولي ، وسردينيا ، في ايطاليا . وهكذا تجزأت امبراطورية شارل الخامس نهائياً ، وتقسم شاطئ البحر الشالي ، على بعض المسافة من « بادي كاليه » ، بين عاهلين عدوين ، لويس الرابع عشر وشارل السادس ، كما تقسمت مسالك البحر المتوسط بين خصمين ، شارل السادس وفيليب الخامس .

ورغبة في تأخير تحرك الجيوش في حال نشوب نزاع بين آل بوربون وآل هابسبورغ ، وفي افساح المجال لتدخل الانكليز ، اقامت المعاهدات بينهم « حواجز » أي خطوطاً من المدن المحصنة اسند الدفاع عنها الى حاميات من دولة ثالثة ، ودولاً قطائل تفصل بينهم : حاجز الفلاندر في المناطق المنخفضة الذي يحتله الهولنديون ، حاجز نوشاتيل وفالنجنين الذي يحتله البروسيون ، وقطائل مملكة سافوا وببيمون وسارديليا ، والبالاتينا (التابعة لدوق بافاريا) ، ومنتخبة كولونيا . وكانت الدول القطائل والدول المولجة بحماية الحواجز اضعف من أن لا يحتاج الى عضد الانكليز ، لا بل من ان لا يحتاج معظمها الى مساعداتهم المالية . فتوفرت لانكلترا من ثم وسيلة للتدخل الدائم باسم حماية الضعفاء .

وضمن الانكليز لانفسهم رقابة الطرق البحرية الرئيسية والتفوق التجاري . راقبوا في المتوسط منفذ جبل طارق باحتلالهم جبل طارق ، ومسلكت صقلية باحتلالهم مينورك وتباين صوالح العائلة المالكة في سافوا والعائلة المالكة في النمسا . وحصلت شركتهم التركية ، في ايطاليا وموانئ الشرق الأدنى ، على فوائد حرم منها الفرنسيون . وفي البلطيك هزمت السويد شر هزيمة أمام تحالف الروس والبروسيين والدانماركيين ، وتعرضت البحيرة السويدية لان تغدو ببحيرة روسية ، وهدد الروس المضائق الدانماركية . ولكن ملك انكلترا هو منتخبة هانوفر ايضاً ، وهانوفر تعمل لحساب انكلترا وحسابها على التسواء . قاوم بطرس الاكبر ، وارسل جيوشاً الى الدانمارك المحاربة ضد السويد وحملها على المطالبة بانسحاب الجيوش الروسية الحليفة الخطرة من كوبنهاغن ، وساند الدانماركيين في هولستين على الدوق « دي غوتورب » خطيب ابنة القيصر ، ونبله مكلنبورغ على دوقهم ، ابن شقيق القيصر ، وفاوض فردريك غليوم ملك

بروسيا وابعده عن التحالف الروسي ، وأعفى البضائع الانكليزية من الرسوم الجمركية ، واستحصل من الدانمارك على تخفيض الرسوم المستوفاة من السفن الانكليزية التي تجتاز مضيق «الدون» . فحقق الانكليز التفوق التجاري في البطليك .

وحققوا الغلبة في الأوقيانوسات . منذ السنة ١٧٠٣ ، الفت معاهدة « ميتون » المعقودة مع البرتغال ، مقابل تخفيض الرسوم الجمركية على الحبوب البرتغالية على حساب الحبوب الفرنسية ، الرسوم المفروضة على الاصواف الانكليزية وأعطت الانكليز حقاً مائماً في قعاطي التجارة في البرازيل . ففدت لشبونة عملياً مستودعاً ، وميناء تون ، وقاعدة عمليات للانكليز . اضطر الفرنسيون لأن يتخلوا لهم ، في اميركا ، عن خليج هودسون ، وبالتالي عن تفوقهم في تجارة الفراء ، وعن اكاديا والأرض الجديدة ومياهها الغنية بالأسماك ، وفي جزر الانتيل ، عن سان كريستوف ونتاجها من السكر .

لا بل اسدف الانكليز ابواب الامبراطورية الاسبانية نفسها . في اسبانيا خففت الرسوم الجمركية على ملسوجاتهم الصوفية ، وأتاح لهم شرط الدولة المفضلة المطالبة بكل فائدة جمركية يعطيها ملك اسبانيا البوربوني نسيبه ملك فرنسا . وفي الامبراطورية الاسبانية استحصل الانكليز على احتكار استيراد العبيد السود اللازمين للعقار والمناجم وحق ارسال سفينة محملة بالمنتجات مرة في السنة ، الى بعض المرافئ الاسبانية في اميركا الجنوبية .

وقد بلغ من مهارة صيغة هذه المساهمات لضمان تفوق الانكليز الاقتصادي والسياسي ، ان استوحيت انكلترا مبادئها في السنة ١٨١٥ والسنة ١٩١٩ . ولكنها لم تضمن السلم . فقد ارتكزت الى الحسد والارتياب المتبادلين بين حكومات يراقب بعضها البعض ، مستعدة ابداً لامتشاق السلاح . كانت هذه المبادئ تطبيقاً لمبدأ « فرق تسد » ، فلم ترض احداً .

لم ترض الانكليز انفسهم . فقد أخذ تجارهم على الحكومة ، ببيع المرارة ، انها لم تذل فرنسا ، العدو الدائم ، اذلاً تماماً ، ولم تستول على كافة ممتلكاتها في اميركا ، وفي الانتيل بنوع خاص ، ولم تفتح ابواب الامبراطورية الاسبانية على مصراعها أمام تجارتهم . وهي هذه الاهداف التي اقتربوا منها تدريجياً في السنوات ١٧٦٣ ، و ١٨١٥ ، و ١٨٢٤ . وخشي جورج الاول ابدأ أن يساند ملوك اوربا آل ستوارت المخلوعين من العرش عليه .

لم يعترف فيليب الخامس ملك اسبانيا ، في قرارة نفسه ، بصحة التوقيع الذي ذيل به ، مكرها ، تنازله عن عرش فرنسا . ولم يرض كذلك بضياح الاقاليم الايطالية ، والتخلي عن السيطرة الاسبانية على حوض البحر المتوسط الغربي ، وقد حملته على وقوف هذا الموقف زوجته الثانية ، « اليزابت فارنيز » ، التي كانت تريد امارات لابنائها في ايطاليا ، والتي عينت ، في رئاسة مجلس الوزراء ، « البروني » ، الايطالي المحب وطنه ، الراغب رغبة صادقة في طرد النمساويين وتحقيق الوحدة الايطالية .

ولم يقتنع شارل السادس اقتناعاً تاماً بالتنازل عن عرش اسبانيا . فقد كان راغباً ، للتعويض عن هذه الخسارة ، في الحصول على اراض واسعة حول حوض المتوسط الغربي على الأقل : أي على صقلية ، ودوقية مانتو ، بالإضافة الى اراضيه ، والحماية على كاتالونيا الاسبانية بعد تقسيمها . كما كان راغباً في احياء القوة النمساوية بتنمية صناعتها ، وفتح منفذ لها الى البحر ، وانهاض تريستا والموانئ الايطالية ، وتأسيس شركات تجارية . أقلق بذلك هولندا وانكلترا ، كما أقلقها بمشاريع توسعية في البلقان ، على حساب الامبراطورية التركية ، وفي الامبراطورية على حساب بافاريا والدول الجنوبية التي كان آخذاً في استعادة نفوذه عليها . فجاء اندفاعه في هذه الاتجاهات الثلاثة تهديداً للتوازن الاوروبي .

كان ممكناً جداً لروسيا التي اندفعت ، مع بطرس الاكبر ، نحو كافة طرق التجارة ، في اوروبا كما في آسيا ، ان تصطدم بالنمساويين ، بصدد الامبراطورية التركية والبلقان ، وبالانكليز والسويديين والدانماركيين والهانوفرين والبروسيين بصدد البلطيك والمضائق الدانماركية .

قام الانقسام من ثم بين الدول الكبرى الهامة ، وهو هذا الانقسام ما كرس قوة الانكليز . كان هؤلاء اسطول قوي ، ولكن جيشهم البري اقتصر الى القوة اللازمة ، بسبب موقفهم الحذر من الملك . اعتمدوا اضعاف السلطة التنفيذية ما استطاعوا الى ذلك سبيلاً ، وهي سياسة ممكنة في جزيرة تحيط بها بحار كأداء تسمح برؤية من يقصدها ويقرب منها . ولكنهم كانوا بأمرس الحاجة ، في البر الاوروبي ، الى الجيوش التي افتقروا اليها (كان جيش هانوفر صغيراً جداً) ، والى حلفاء يهتدون اليهم بتقسيم الاوروبيين . الى هذا ترد السياسة الفرنسية التي أوصى بها لويس الرابع عشر سفراءه بين السنة ١٧١٣ والسنة ١٧١٥ : ازالة حذر الدول الاوروبية من فرنسا ؛ اقناعها بأن فرنسا لا تهدف الى اية هيمنة ، وكانت هذه المهمة ضرورية جداً اذ ان السياسيين كانوا يخشون من اجتياح الجيوش الفرنسية لاوروبا ويعتبرون ان ايقاف الفتوحات عند الرين خطط املتته الحكمة على ملك فرنسا ؛ لعب دور المستشار والوسيط ؛ اقناع كافة الحكومات بأن الانقسام فيما بينها وخوفها من فرنسا يحعلان منها ضحايا الانكليز ؛ حملها على القبول بتنازلات متبادلة واتفاقات تعمق بحرية ؛ ومن ثم اصلاح ذات البين بين دول اوروبا الكبرى وحرمان الانكليز من كل سانحة للتدخل وإثارة الخلافات بين الدول البرية ؛ وبذلك تحقيق توازن حقيقي وحرية حقيقية .

الا ان خلفاء الملك العظيم لم يقدرُوا هذه السياسة حتى قدرها . فكان القرن الثامن عشر عهد اضطرابات وزعاعات ، اقصر امداً واقل خطورة منها في العهد السابق ، وانما اكثر وقوعاً .

مميزات السياسة الخارجية
في القرن الثامن عشر

ارتدى الصراع بين الدول طابع « السياسة العائلية » . فهي العائلات في الواقع من كونت الدول وأوجدت سياسات الامم الراهنة . الامم والدول تتجسد في شخص الملك . وافضت

الاعراف الاقطاعية، واواصر النسب، والمصاهرات، والوراثات، الى ايلاء عائلات الملوك حقوقاً على اراض لا حصر لها. هذه الحقوق ممتنعة الابطال والتنازلات عنها باطلة. والملك الذي يرغب في التوسع، لمصلحته او مصلحة رعاياه، او في الحؤول دون توسع ملك آخر، لا يعدم وسيلة في اثبات حقه على الارض المطموع بها او المتنازع عليها. وغالباً ما تتخذ الصراعات بين الدول شكل نزاعات على وراثة عرش.

النزاعات تستوحي المصلحة العليا او مذهب « السلامة العامة » : العواطف والتفضيلات والصداقات والاحقاد، يجب ان تنحني كلها امام مصلحة الدولة العليا القاضية بالتوسع والاستيلاء على اقاليم غنية بالسكان والموارد، والحؤول دون توسع الآخرين الذي يشكل تهديداً لازدهارها ووجودها. الاخلاق هي مصلحة الدولة. روح السياسة موضوعية كلها. السياسة علم مستخلص من احداث التاريخ، جوبوس وقاس، وقاطع كالاداة الفولاذية.

الصراع مستمر. يتخذ الشكل الدبلوماسي أولاً. الدبلوماسيون فئة من الرجال الطيبين المهرة، ولكنهم قادرون على كل شيء. يتميزون بسهر دائم، كل شيء قد ينقلب خطراً، وكل فرصة يجب ان تنتهز، المصادفة لا تضر الا بالضعفاء ولا تقيّد سوى الاقوياء. على الدولة ان تكون في حالة تأهب دائم، على غرار ابن المجتمع الذين يعيش بين السايفين وذوي الاخلاق الشرسة. هذه هي حال دول أوروبا اليوم اكثر من اي يوم مضى اذ ان المفاوضات ليست سوى مشادة دائمة بين أناس لا أخلاق لهم، مجترئين في الاخذ وطلّاعين ابدأ (الماركيز دارجنسون).

المكر عادة متعارفة والطرائق معوجة. يحاول الدبلوماسيون إفساد حكم الخصم بانقاط اهوائه، اهواء الجسد او هوى المال. اعطاء الملك خليعة واعطاء الامبراطورة او الملكة عشيقة عادتاً رائجتان. فان سفير فرنسا، لاشيتاردى، قد اصبح، لمصالح الخدمة، عشيقة للقيصرة اليزابت؛ وقد أوفدت الحكومة الفرنسية البارون « دي بروتوي » مكلفة اياه مهمة اشباع شهوات امبراطورة المستقبل كاترين الثانية. وطلبت ماري - تيريز من ابنتها ماري انطوانيت، زوجة ولي عهد فرنسا البالغة من العمر ١٧ سنة ملاطفة السيدة « دي باري » حتى تحمل هذه الاخيرة لويس الخامس عشر على الاعتراف بتقسيم بولونيا. وقبض الوزير الفرنسي « ديبوا » ٦٠٠.٠٠٠ جنيه سترليني من الحكومة الانكليزية. وعينت فرنسا راتباً شهرياً للوزير النمساوي « توغوت » منذ السنة ١٧٦٨. وكانت مجامع السويد وبولونيا والامبراطورية المقدسة تبيع انفسها بمن يدفع لها افضل سعر. في السنة ١٧٦٣ كلف مجمع السويد فرنسا ١.٤٠٠.٠٠٠ جنيه سترليني، وفي السنة ١٧٦٦، كلفها مجمع بولونيا ١.٨٣٠.٠٠٠ جنيه سترليني.

الدبلوماسيون يسكون بالرسائل. يبتاعونها من البُرد. يختار بردهات : فيخطفون وتنتزع الرسائل منهم ثم يفتك بهم قطاعو طرق مصنّعون. الرسائل تكتب بأرقام اصطلاحية

ولكن هنالك اختصاصين يفكون رموزها. توصل بلاط فيينا الى فك رموز السفارة الفرنسية ورموز رسائل لويس الخامس عشر السرية. وكانت فردريك الثاني فخوراً جداً بأرقامه الاصطلاحية: ولكن عملاء لويس الخامس عشر في باريس كشفوا سرّها.

للتدخل، بالدسيمة والمال في سياسة الجار الداخلية عادة متعارفة ايضاً. وقد توفرت في الدول الجمهورية النزعات، كالسويد وبولونيا، فوائدها خاصة بفعل نشاط الاحزاب. أمد الملوك بالمال، في الدولة المجاورة، احزاب الحرية التي تضعف الدولة. حرصت الدول جماعات العصاة واثارت الحروب الاهلية وحمت الثائرين. كانت السويد وبولونيا والامبراطورية المقدسة والمستعمرات الانكليزية في اميركا، قبل فرنسا، مناطق مباركة لمثل هذه المناورات. كان الملوك المخلوعون من العرش، والتائهون، والمعدمون، اكثر من ان يحصوا. فافوض الملوك الآخرون مقتصبيهم وجلاذيتهم. المصالح تتقدم تضامن الملوك، ويحول احترام الملوك.

المعاهدات تنقض وفقاً لمصلحة الدول. « في السياسة والمصالح، لاشأن للاعتراف والمعاهدات، هي القوة او المصلحة ما يعمل المعاهدات، وهي القوة او المصلحة ما يلاشيها. » ويضيف الالماني في كتابه (النظم السياسية: « في السياسة يجب نقض الآراء النظرية التي يكونها عامة الشعب حول العدالة والانصاف والاعتدال وسلامة النية والفضائل الأخرى المعزوة للامم الأخرى ولقاداتها. كل شيء يؤول في النهاية الى القوة. »

ان اخلاق الذئاب هذه تقود الى الحرب بمعناها الحصري، الحرب بالاسلحة. كل حرب تعتبر عادلة منذ ان تجعلها مصلحة الدولة العليا ضرورية. ولا عجب من ثم ان تلجأ الدول الى الحرب الوقائية. فالانكليز الذين حكمت سيادة البحار في صدرهم قبل اي شيء آخر، اعطوا المثل على ذلك بهجمات، دون اعلان حرب، على سفن الاعداء؛ وبالاستيلاء على السفن التجارية وملاحيقها، دون سابق انذار، في ايام السلم. وقام البروسيون في البر بنجس الهجمات المفاجئة لاتقاء ضربات محتملة يكيلها لهم اعداء محتملون، كان اشهرها هجوم السنة ١٧٥٦ الذي ضرب به المثل وبات اجتهاداً قانونياً.

في الحملات العسكرية تسود المجاملة القسوى الملائق بين اركان الجيوش المؤلفة من الاشراف، ولكن الحرب فظيعة وقاسية. تميمش الجيوش في البلاد وتسحق المقاومات بالارهاب. تصدر كل شيء، حتى ما غلا ثمنه في الكنائس، لتفذية خزانة الحرب. تقرر الرسوم على السكان وتدمر مساكن من لا يدفعون المفروض عليهم، وتحرق المدن والقرى التي ترفض الضرائب المفروضة عليها. يرافق الجيوش حشد طفيلي من التجار والبغايا الذين يشتركون مع الجنود في السلب والاغتصاب واشغال النيران. النساء والاطفال يقتلون اذا ما قاوموا اجتياح منازلهم. وقد دون الكونت (دي سان - جرمان) عند وصوله الى المانيا هذه الملاحظة: « البلاد يعمها الخراب والدمار في دائرة يبلغ شعاعها ٣٠ فرسخاً، كما لو ان النار قد اجتاحتها. »

السكان المشتبه بهم يطردون ، وسكان القرى التي اطلقت منها النيران على الجيوش يشنقون .
الرهائن تكون مسؤولة عن وفاء الحاميات . في السنة ١٧٤٤ ، انذر النمساويون سكان اللورين
بالسليم : المقاومون سوف يشنقون « بعد إكراههم على قطع انوفهم وآذانهم بأيديهم » . ودرج
فردريك الثاني على تقتيل الاسرى أو تجنيدهم بالقوة . في السنة ١٧٥٧ ، كان الروس في «ميسل» :
لم يشاهد الناس ما شاهدوا منذ غزوة الهون ؛ السكان يشنقون بعد قطع انوفهم وآذانهم ، وتنتزع
سيقانهم ، وتبقر بطونهم وتشق قلوبهم » . في السنة ١٧٨٨ ، وبعد الاستيلاء على « اوتشاكوف »
« بلغ من ضراوة الجنود الروس ، بعد انقضاء يومين على هجومهم ، انهم اذا ما وجدوا اطفالا
أتركا محتبئين في مكان مظلم ما ... اخذوهم وقذفوا بهم في الهواء وتلقوهم على رؤوس حراهم » .
تنتهي الحرب بمعاهدات يقرر فيها انتقال المالك والامارات والدوقيات من سلالة الى اخرى
دون استطلاع رأي السكان ودون اكترات بما يكون رأيهم في هذا الانتقال . هذا ما يعرف
بـ « تقايض البشر » . ويجب القول من جهة ثانية ان المشاعر القومية ، في معظم الحالات ،
كانت اضعف منها في ايامنا . وكان السكان ، في عهد اسيادهم الجدد ، يحتفظون بمعاداتهم
وامتيازاتهم وبعض حرياتهم . ولكن هذا لا يصح في كافة الحالات . ففي السنة ١٧٧٢
صادر فردريك الثاني من الاقاليم البولونية التي استولى عليها قطعاناً من البولونيات بغية
اعمار بومرانيا المفتقرة الى النساء . اما البولونيون فقد منعوا الهجرة في قطاعهم وبلصوا
السكان دون رحمة .
« القوة هي القانون الاعلى » .

في السنة ١٧١٥ ، لم ينتهز الوصي ، الدوق « دورليان » ،
الظروف المؤاتية لمواصلة السياسة التي عينها لويس الرابع
عشر . جعلته اطعمه الشخصية يهمل مصالح المملكة ، بدافع
من مربيه القديم « ديبوا » الذي عينه وزيراً . كان لويس الخامس عشر ضعيف البنية . إذا توفاه
الله ، فان عمه فيليب الخامس سيطالب بالتاج على الرغم من تنازله ، كما سيطالب به الدوق
دورليان ايضاً . اراد الوصي ان يضمن لنفسه مساندة الرأي العام الفرنسي على فيليب الخامس .
والحال كان الرأي العام الفرنسي معادياً جداً للنمسا وعاجزاً عن ادراك مقاصد لويس الرابع
عشر التي لم يكن بالامكان التداول بها علناً . قبل الوصي من ثم بالعون الذي عرضه عليه
الانكليز في حال نشوب نزاع بينه وبين فيليب الخامس . وبالقابلة تحالف معهم ؛ وساند
جهودهم التقسيمية ؛ ووفر لهم ذاك الجيش البري الذي كانوا مفتقرين اليه . وحين حدثت
ازمة « لو » المالية في فرنسا برهن خليفته « ديبوا » ، « بوربون » و « فلوري » ، عن عجزهما
الطويل الامد عن انتهاز سياسة مستقلة . وقد ساعدت الدبلوماسية والجيوش الفرنسية
الدبلوماسيين والبحارة الانكليز ، خلال سلسلة من الازمات والحروب حتى السنة ١٧٣١ ، على
الابقاء على معادتي اوترخت . لم تتقدم اية دولة تقدماً يمكنها من تهديد الهيمنة الانكليزية ،

فبقي البر الاوروبي في حالة انقسام مرضية .

في الشمال قسم إرث السويد ، حليفة فرنسا القديمة ، بين دول كانت ثلاث منها صديقات لبريطانيا . بموجب معاهدتي ستوكهولم (١٧١٩-١٧٢١) تخلت السويد عن «برين» و «فردن» لهانوفر التي غدت قوة بحرية ، وعن ستتين وبومرانيا الامامية لبروسيا ، وعن نصيبها من رسوم المرور في السوند وعن شلسفيغ للدانمارك ، بينما تخلت الدانمارك عن سترالسوت و «روغن» و «ويسمار» . فكان ذلك نهاية «البحيرة السويدية» واقامة حدود اكثر اتفاقا والجغرافية ، والمحطاطا نهائيا للسويد الآخذة بالانظمة الجمهورية . اما روسيا عدوة انكلترا ، فقد استحصلت من السويد ، في معاهدة «نيستات» (١٧٢١) ، على ليفونيا ، واستونيا ، وانغريا ، وجزء من كاريليا ، ومقاطعة من فنلندا مع «فيبورغ» . فاستحصلت بذلك على اراض واسعة على ساحل البلطيك ، المحور التجاري الهام ، واصبحت دولة بحرية بمحض الشيء . ولكن عداء الدول السابقة ، التي كان يساندها الانكليز ، قد حرمها امكانية الاندفاع نحو المضائق الدانماركية والبحر البلتيق ، فاضطرت لان تصرف النظر عن ذلك تدريجيا .

في الجنوب استحصل شارل السادس على صقلية مقابل تنازله عن سردينيا ، وانتزع من الاتراك سهول «تسفار» وجزءا من فالاشيا ، وبوسنيا ، وصربيا مع بلغراد (معاهدة باساروفيتز ١٧١٨) ، والاعتراف بوثيقة وراثة العرش التي ترسخ وحدة دولة . ولكنه انتهى الى التنازل نهائيا عن اسبانيا والهند ، وحل شركة اوستند التي كانت تشكل تهديدا للتجارة البريطانية والتجارة الهولندية ، والاعتراف بمذيعات آل فارنيز في ايطاليا التي منعت من أن يجعل من ممتلكاته الايطالية كلا ذا توسع اقتصادي غير محدود (معاهدة فيينا الثانية ١٧٣١) . أما فيليب الخامس ، الذي اضطر الى إقصاء «البروني» منذ السنة ١٧١٩ ، فقد انتهى الى التنازل جديا عن عرش فرنسا وعن الأقاليم التي استولى عليها شارل السادس ، والتسليم للانكليز بحبل طارق والامتيازات التجارية التي منحوها في اوترخت مقابل تخصيص «دون كارلوس» ، الابن البكر لزوجته الثانية ، بدوقية «بارم» .

ولكن الانكليز فقدوا بعد السنة ١٧٣١ مركزهم الأول في اوروبا . اطمأؤا نهوض فرنسا الى قوتهم وانشغلوا بمنازعاتهم الداخلية ضد «البول» ، فلم يبالوا بالبر ١٧٤٠ - ١٧٣١ . الاوروبي في الوقت الذي حرر فيه تقويم الوضع المالي الكريديتال «فلوري» من سياسة لم تخف عليه مساوئها .

حاول فلوري سلوك الطريق التي عينها لويس الرابع عشر . اعترض سبيله حزب «شوفلين» أمين سر الدولة للشؤون الخارجية الذي كان يقول بسياسة العداء التقليدية للنمسا ، التي لم يعد لها ما يبررها آنذاك ، بعد أن زال خطر آل هابسبورغ عن فرنسا ، والتي باتت سياسة مضررة إذ ان انقسامات البر الاوروبي توفر للانكليز الحلفاء وظروف التدخل . بيد ان الغلبة كانت

لأنصار السياسة التقليدية عند انفجار أزمة وراثة عرش بولونيا . في السنة ١٧٣٣ توفي أوغست الثاني ، وكان التاج انتخابياً . تقدم مرشحان ، منتخب ساكس « أوغست الثالث » ، ابن شقيق الامبراطور ومحميه ، وستانسلاس لكزنسكي حيي لويس الخامس عشر وملك بولونيا السابق المخلوع من العرش . انتخب ستانسلاس في ايلول بفضل المال الفرنسي . ولكنه كان رئيساً للحزب الوطني الراغب في اصلاح بولونيا وجعلها دولة . لم تقبل به روسيا والنمسا بأي ثمن ، دخلت الجيوش النمساوية الروسية بولونيا وطردت ستانسلاس وحملت الناخبين على انتخاب أوغست الثالث .

كان ذلك إهانة لـلويس الخامس عشر . ومن جهة ثانية كان الناس في فرساي راغبين في أن تكون ملكة فرنسا ابنة ملك . اُضيف الى ذلك أن الواجب كان يقضي بمحاولة انهاء بولونيا التي كانت تؤلف مع السويد وتركيا كتلة الدول الشرقية التي تضرب دول الوسط من وراء ، لا سيما وأن الحكومة الفرنسية قد رفضت التحالف مع روسيا . اقنع شوفلين الملك بضرورة اعلان الحرب ، ولم يحرر فلوري على الاعتراض . ولكنه خاض حرباً قصيرة الأمد .

لم يغز المناطق المنخفضة النمساوية حتى لا يقلق الانكليز والهولنديين . لم يرض هؤلاء يوماً بأن يروا فرنسا ، المنافسة البحرية ، تتوسع على شواطئ بحر الشمال وتستقر خصوصاً في « انفرس » التي قد تتخلص ، اذا ما آلت الى ايدي دولة كبرى ، من عبوديات معاهدة وستفاليا وتصبح مستودع تجارة أوروبا الوسطى وشمالى فرنسا ومزاحة لندن وامستردام . وكان وجود الفرنسيين في بلجيكا يعني قيام الحرب بينهم وبين الانكليز . اكتفى فلوري بضرب النمساويين في ممتلكاتهم الإيطالية . تحالف مع دوق سافوا ، ملك سردينيا ، الذي تخلى لفرنسا عن « سافوا » ، الفرنسية اللسان والعادات ، التي يفصلها حاجز الالب عن البييمون ، مقابل حصوله على منطقة ميلانو (وهي سياسة سيعتمدها كافرور وناپليون الثالث) . اما الحليف الآخر فكان ملك اسبانيا الذي كان يريد لابنه « دون كارلوس » منطقة ايطالية اعظم شأناً من بارم . انتصر الفرنسيون وحلفاؤهم دوناً صعبة (١٧٣٤) وتم الاستيلاء على منطقة ميلانو .

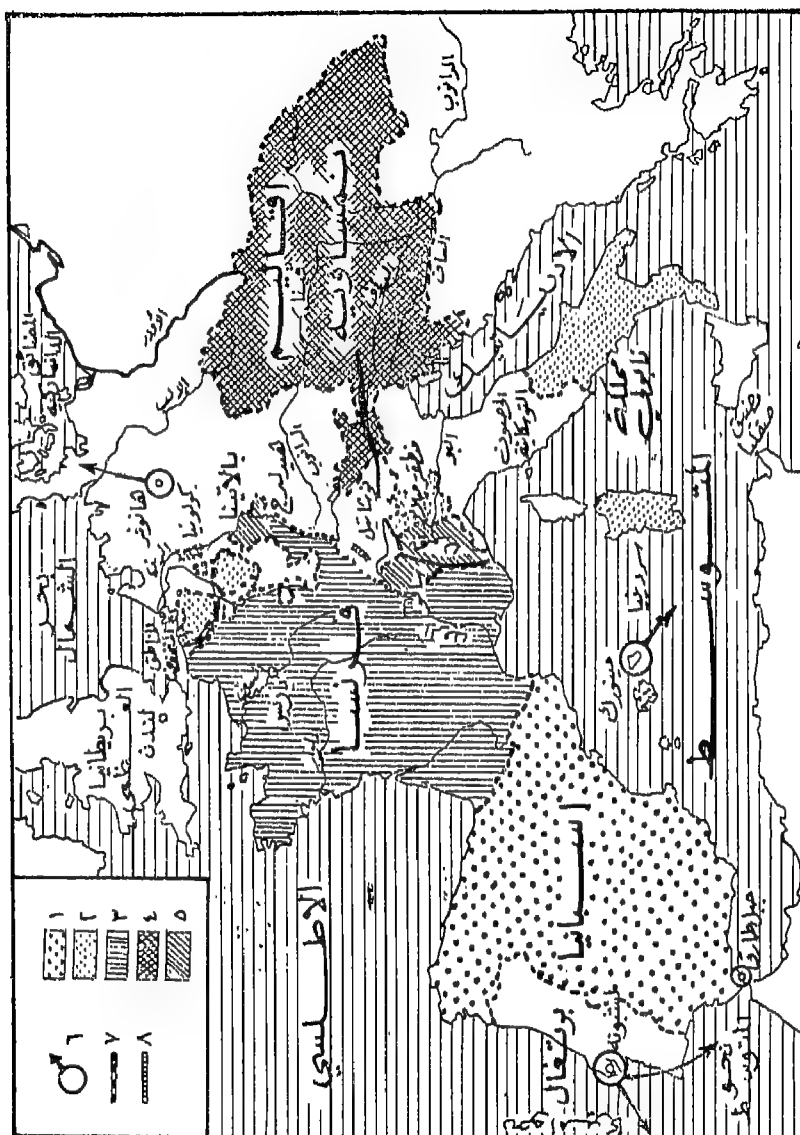
ولكن فلوري يادر اذ ذاك الى التفاوض للحيلولة دون اي تدخل انكليزي . وقعت معاهدة صلح تمهيدية في ايلول من السنة ١٧٣٥ ما لبثت ان تحولت الى معاهدة صلح نهائية في السنة ١٧٣٨ . ثم فقد شوفلين الخطوة في السنة ١٧٣٧ . وتنازل ستانسلاس لكزنسكي عن بولونيا ولكنه احتفظ بلقب الملك واعطي دوقية اللورين وكوتية بار . كان طبيعياً عند مماته ان تعود الدوقية والكونتية الى ورثته ، اي الى ملك فرنسا ، فلقد التمس المفتوحة في الحدود الشمالية الشرقية وتؤمن المواصلات مع الازراس وتعود مقاطعة فرنسية اللسان والعادات الى الوحدة الفرنسية . امسى الضم فعليا في السنة ١٧٦٦ . تخلى شارل السادس عن « نوفاري » لملك سردينيا الذي احتفظ بالسافوا حين لم يحصل على مقاطعة ميلانو . وتخلى الامبراطور عن

نابولي وصقلية (مملكة الصقليتين) لدون كارلوس . واعطى هذا الاخير بارم وتوسكانا اللتين كان متوقعا ان تؤولا اليه للدوق « فرنسوا دي لورين » ، زوج ماري - تيريز ، ابنة شارل السادس ، المرفوعة يده عن دوقيته . وفي ذلك خير مثل على مقايضة البشر .

في السنة التالية ، انقضت فرنسا صديقتها التقليدية ، تركيا ، وانزلت بالنمساويين والروس هزيمة ابقت على التوازن الأوروبي . منذ السنة ١٧٣٦ ، كان الروس ، الذين ما فتشوا يبعثون عن منفذ الى البحر الاسود ، في حرب ضد تركيا . كانوا قد استولوا على « ازوف » والقرم . ومنذ السنة ١٧٣٧ ، كان النمساويون ، حلفاء الروس ، قد غزوا البلقان . شجذ السفير الفرنسي ، « فيلتوف » ، عزائم الاتراك ، وزودهم بنصائحه . بفضل كسر الاتراك النمساويين . ففرض فيلتوف حينذاك وساطته ، وفي معاهدة بلغراد (١٧٣٩) اعاد الامبراطور للاتراك صربيا وفالاشيا . اضطر الروس الى التراجع . فأظهر السلطان امتنانه لفيلتوف بتجديده امتيازات فرنسا الدبلوماسية والتجارية في الامبراطورية التركية (١٧٤٠) .

في السنة ١٧٤٠ كانت فرنسا قد استعادت سبيرا الى الامام . فقد احزرت حديثا نجاحا اقليميا كبيرا ، هو الاول منذ ريسويك . ووطدت تحالفها مع اسبانيا وتركيا والسويد ، واخذت توجه السياسة الأوروبية . وتقدمت صناعتها وتجارتها كل صناعة وتجارة في العالم وغزت مصنوعات انكلترا نفسها . وتفوق تجارها على الانكليز في الانتيل والهند وموانئ الشرق الادنى حيث اوقع الجواخون الفرنسيون ، حتى قبل تجديد الامتيازات ، هزيمة تجارية نكراء بالانكليز وكادوا يقضون هناك على تجارة الاجواخ الانكليزية . تقدم الفرنسيون في والدي الميسيسي واقفلوا داخل البلاد في وجه المستعمرين البريطانيين . وأسست شركة الهند الفرنسية باطراد اسواقا جديدة كثيرة . وأعاد الاسبانيون من جهتهم تنظيم اساطيلهم وطعموا في منع الانكليز من الاستمرار ، دون خجل ، في مخالفة بنود معاهدة اوترخت بتلاعهم بالسفن المسموح بدخولها الى مستعمراتهم حتى تنقل فوق ما هو متفق عليه ، ويشتى الاساليب الملتوية المعتمدة في عمليات التهريب المطلق العنان . استيقظ الانكليز وانتبهوا فجأة لان كل شيء يحدث كما لو لم يكونوا منتصرين ، او كما لو لم يكن هنالك معاهدة اوترخت . فهم لم يفقدوا هيمنتهم البرية فحسب بل كانوا سائرين في طريق فقدان هيمنتهم البحرية والتجارية . فقرروا اللجوء الى الحرب .

في تشرين الاول من السنة ١٧٣٩ قاموا باعمالهم العدوانية
الحروب البرية والبحرية الكبرى
الاولى ضد اسبانيا . ولم يفتحهم ان فرنسا ستجبر الى الحرب
(١٧٤٠ - ١٧٦٣)
رغبة منها في الثأر لنفسها من معاهدي اوترخت . وبالفعل
انطلق اسطولان فرنسيان ، في شهر آب من السنة ١٧٤٠ ، لمساعدة الاسطول الاسباني .
فبدأ بذلك الصراع الحامس من اجل التفوق البحري والاستعماري ، اي من اجل الهيمنة السياسية .



الشكل ١. مظاهرات ١٧١٣-١٧١٤
 ١- نصيب ملك إسبانيا البوربونيه ، ٢- نصيب ملك النمسا - ٣- مملكة فرنسا ، ٤- مملكت
 نمساوية قبل المظاهرات ، ٥- دول سطلان ، ٦- قواعد كورتيه ورقاب مسور الكاثوليكيه ، ٧- الخارج الهولندي ،
 ٨- الخارج الروسي .

كانت قوة الاسطول الفرنسي كافية لان ترتقب النتيجة بثقة واطمئنان . وكان مقدراً لفرنسا ان تصبح في طليعة الدول ولمدة طويلة . وانما كان لزاماً ان تستطيع تكريس قواها للحرب في البحر والمستعمرات ، اي ان لا تكره على خوض الحرب في البر الاوروي .

ولكن الامبراطور شارل السادس توفي في ٢٠ تشرين الاول من السنة ١٧٤٠ ، فافتتحت وراثة عرش النمسا . ترك الامبراطور خلفاً له ابنة في الثالثة والعشرين من سنها ، ماري-تيريز ، مع جيش غير منظم وخزانة فارغة . رأى كافة ملوك اوربا الفرصة سانحة لكي يقطعوا لهم بعض المناطق من اراضي آل هابسبورغ . نسوا كلهم انهم ضمنوا وثيقة وراثة العرش النمساوي واعدوا بمساعدة ماري-تيريز على اعتلائه . ونظروا كلهم الى المعاهدات الحاملة توقيعهم نظرتهم الى اوراق رثة حقيرة ، طالب منتخب بافاريا شارل - البير بالارث كاملاً . وطالب كل من ملك اسبانيا ، وملك سردينيا ، وملك بروسيا فردريك الثاني بنصيب من الارث . كان فردريك الثاني قد ورث عن والده جيشاً مختاراً ، والحكمة القائلة بان لا قيمة للامير في العالم الا بسيفه ، ورسالة توسيع الاراضي البروسية ما استطاع الى ذلك سبيلاً ، وجمع الاقسام الثلاثة التي تتألف منها ممتلكات آل هوهنزولرن . وكان طامعاً في حينه بسيليزيا ، الولاية الغنية التي سيؤمن له امتلاكها تجارة الاودر الاعلى ، ويحمي براندنبورغ من التمديات النمساوية ويتيح له اتقاء كل تهديد ممكن بهجوم مفاجئ على بوهيميا . كان لآل هوهنزولرن حقوق على سيليزيا تخلوا عنها بموجب معاهدات ، ولكن فردريك الثاني ما كان ليقم وزناً للمهد ، فاحتل الولاية (كانون الاول ١٧٤٠ - نيسان ١٧٤١) .

لم تكن فرنسا مهددة ، وكان باستطاعتها البقاء بعيدة عن النزاع . اجل كان الملك قد وقع وثيقة وراثة العرش وكان عليه ان يحترم توقيعها . ولكن الحزب المحافظ ، وعلى رأسه المارشال « دي بيل إيل » ، اعتقد بان الوقت قد آن للتخلص نهائياً من النمسا ، ولم يعر المسائل البحرية والاستعمارية أهمية تذكر . وما كان كبار الاسباد الفرنسيين آنذاك ، على نقيض الانكليز ، ليعنوا عناية كبرى بالمشاريع التجارية . ولم تكن العاصمة الفرنسية ، فرساي ، والمدينة الرئيسية المجاورة ، باريس ، مدينتين يعول سكانها في معيشتهم على التجارة البحرية ؛ فكان من الصعوبة بكان تهيج الرأي العام وإثارة الفتن فيها من اجل الانتيل او السنغال . ولم يبرهن التجار الفرنسيون أنفسهم عن مثل ما برهن عنه الانكليز من عناد عنيف ، ولم يرغبوا ، على غرارهم ، في حرب ضروس تنتهي بظفر طرف وهزيمة آخر ؛ عندما اعلنت القطيعة بين فرنسا وانكلترا في السنة ١٧٤٣ ، اقترحت شركة الهند الفرنسية على الشركة الانكليزية البقاء خارج نزاعات الحكومات ومواصلة الاعمال التجارية ، ولم تقرر الاشتراك في الحرب الا بعد أن رفض الانكليز اقتراحها . كان فلوري آنذاك قد طعن في السن ؛ فاضطر للموافقة على تولي « بيل إيل » انتزاع التاج الامبراطوري من آل هابسبورغ . حين هزم هؤلاء أمام فردريك ، مهد بيل إيل السبيل لقيام معاهدة تحالف بين ملك اسبانيا ومنتخب بافاريا (ايار ١٧٤١) ،

وعقد تحالفاً مع بروسيا (حزيران) وفاز بانضمام منتخب الساكس . وقد تم الاتفاق بين المتحالفين على ان يستولي منتخب بافاريا على التاج الامبراطوري وبوهيميا ؛ وابن ملك اسبانيا الثاني ، دون فيليب ، على بعض الاقاليم الايطالية ؛ وفردريك على سيليزيا ؛ بينما تكتفي فرنسا باذلال النمسا . احتلت الجيوش الفرنسية بوهيميا ، فاعلن منتخب بافاريا ملكاً عليها ، ثم انتخب امبراطوراً باسم شارل السابع (تشرين الثاني ١٧٤١ - كانون الاول ١٧٤٢) .

بيد ان « بيل ليل » اخطأ في انه لم يحاول الاجهاز على فيينا ، فطالت الحرب وتمكن الانكليز من التدخل وفتح جبهة ثانية . في شهر شباط من السنة ١٧٤٢ نزل جورج الثاني الى البر الاوروبي وتسلم قيادة جيش من المرتزقة . عقد الانكليز والنمساويون والساكسونيون حلف « وورمز » واتفقوا على انتزاع الالزاس واللورين من الفرنسيين وقدموا لماري - تيريز المال الذي كانت مفتقرة اليه . وتوقفت ماري - تيريز ، بوعدها ملك اسبانيا بشطر من مقاطعة ميلانو ، وبتخليها عن سيليزيا لفردريك الثاني الذي ادار ظهره لحلفائه على الرغم من تمهيداته الصريحة (معاهدة برسلو ، تموز ١٧٤٢) ، الى تفكيك التحالف وتليب تحالف آخر على فرنسا التي ما لبثت ان واجهت تهديد حدودها (١٧٤٣) . واخيراً ، في السنة ١٧٤٥ ، بعد وفاة شارل السابع ، تنازل ابنه عن الامبراطورية لمصلحة زوج ماري - تيريز الذي انتخب امبراطوراً باسم فرنسوا الأول . باتت القضية أشبه بمبارزة بين العائلة المالكة النمساوية والعائلة المالكة الفرنسية التي تحالف معها فردريك الثاني المضطرب البال مرة أخرى في السنة ١٧٤٤ ، ولكنه تخلى عنها مرة أخرى ايضاً في السنة ١٧٤٥ حين ابدت ماري - تيريز تنازلاً له عن سيليزيا في معاهدة « درسدن » . تحولت الجيوش الفرنسية ، في اعقاب ذلك ، عن الحرب الاستعمارية التي لم يلمع نجمها فيها حتى ذلك الحين . في السنة ١٧٤٥ استولت على لويسبورغ في كندا ، ولكنها فقدت مدراس في الهند في السنة التالية . ولا ريب في ان الفرنسيين كانوا احرزوا نجاحاً حاسماً لو ان كافة القوى الفرنسية تحولت شطر البحر . في البر الأوروبي صمدت فرنسا امام التحالف صموداً مشرفاً . في السنة ١٧٤٨ توفقت الى صون أكثر حدودها هشاشة ، اي الحدود الشمالية الحالية من الحواجز الطبيعية ، والمفتوحة عند ممر « الموز » و « السامبر » و « الواز » ؛ كانت قد استولت على المناطق المنخفضة النمساوية (التنصار « فونتنوا » ، ١٧٤٥) والسافوا وكونتية نيس . قبات من ثم بمكنتها ان تفرض على اعدائها المنهوكين صلحاً مجدياً . ولكن لويس الخامس عشر تخلى في معاهدة « اكس - لا - شابيل » (تشرين الاول ١٧٤٨) عن كل شي ، « المناطق المنخفضة » ، وسافوا ، ونيس . ووافق لويس الخامس عشر بتخليه هذا على ضمان سيليزيا لفردريك الثاني واعطاء ملك سربيليا قسماً من مقاطعة ميلانو حتى نهر « تسينو » ، واعطاء دون فيليب بارم وبلينزاندس .

انذهلت اوروبا بجمعها من هذا الاعتدال الذي سخرت منه واعتبرته ناجماً عن ضعف عقل وضعف جنان . واغتاط الفرنسيون من الملك . إلا ان هذا الصلح لم يكن شراً كله بالنسبة

لفرنسا اذ انها انقصت اراضي النمسا ، وأوثقت الروابط باسبانيا ، ووسعت دولا ثانوية . كانت متفقة وإحدى السياسات الفرنسية التي تؤثر التوارن وتجميع الدول الصغرى حول فرنسا ضد العظماء على السعي وراء التوسعات الشخصية . ولكنها انطوت على عيب جوهري . فان لويس الخامس عشر الصادق في مسالمته ، واخلى في محبته المسيحية وشعوره الانساني ، والتعب بالاضافة الى ذلك من الحرب ، قد تغافل عن مقاصد الانكليز والنمساويين . تعامى عن أن شيئاً لم يسو في البحر والمستعمرات ، وأن شيئاً لم يسو بين النمسا وبروسيا ، وان الصلح ليس سوى مهادنة ، وأن حرباً أخرى لن تلبث أن تندلع ، وانه من الأهمية بكان بالنسبة لفرنسا ، ما دامت الحرب محتومة ، أن تكون موجودة على قمم جبال الألب في سافوا وفي سواحل بحر الشمال حتى انفرس .

كانت الحرب الجديدة، المعروفة بحرب السبع سنوات (١٧٥٦-١٧٦٣)، نتيجة المنازعات بين المستعمرين الفرنسيين والمستعمرين الانكليز في اميركا من اجل الاستيلاء على وادي « اوهايو » . استمد لها الانكليز باهتمام . في شهر حزيران من السنة ١٧٥٥ ، وبدون اشرار حرب ، بدأوا عدوانهم بعمل قرصنة . فان السفن الحربية البريطانية قد استولت في الموانئ الانكليزية أو في عرض البحر على ثلاث ناقلات جيوش في طريقها الى كندا واكثر من ٣٠٠ باخرة تجارية و ٨٠٠٠ بحار . فحرم الفرنسيون بذلك ، منذ البدء خيرة ملاحهم المدربين .

كان الانكليز بحاجة الى حليف وجيش لاجل حماية هانوفر، المملوكة الشخصية للملك انكلترا ورقبة الجسر للتجارة البريطانية في الشمال، ولاجل تحويل القوات الفرنسية شطر البر الاوروي . لم يعد بإمكانهم الاعتماد على النمسا التي عرضت المناطق المنخفضة على فرنسا في حربيها الانتقامية ضد بروسيا ، فرفضت فرنسا العرض كي لا تتخلى عن فردريك الثاني ، ولكنهم وجدوا هذا الاخير قلقاً ، ومرتاباً من تحالف انكليزي روسي ، وراغباً في المساعدات المالية الانكليزية ، فنكث التحالف الفرنسي وعقد مع انكلترا اتفاق وستمنستر (كانون الثاني ١٧٥٦) . فاستفزع الفرنسيون هذا ووقعوا مع النمسا معاهدة فرساي (أول أيار ١٧٥٦) . تقربت النمسا في الوقت نفسه من الامراء الالمان ومن الساكس وروسيا . شعر فردريك الثاني بالخطر المدام : فصمم على القيام بعمل يشل جيوش اعدائه قبل ان ينهوا استعداداتهم ، وانقض على الساكس (آب ١ٷ٥٦) . احرز النصر ، ولكن صمود الساكسونيين اتاح للنمساويين جمع قواهم . ولما كانت ابنة منتخب الساكس متزوجة من وريث عرش فرنسا ، استشاط لويس الخامس عشر غيظاً وعقد مع النمسا معاهدة فرساي الثانية (ايار ١٧٥٧) التي تمهد فيها بتقديم ١٤٠٠٠٠ رجل ومبلغ ٣٠ مليوناً اسهاماً منه في حرب المانيا . وهكذا انقلبت المحالفات واشتركت فرنسا في حروب بريّة حولتها عن مصالحها الحقيقية ، أي عن حرب المستعمرات التي كانت هي الحرب الحقيقية .

اعتقدت الحكومة الفرنسية بأن العمليات البرية لن تطول ، وبأنها ستستطيع بعد انتهائها

من الارتداد بقواها على الانكليز وحدهم . في السنة ١٧٥٧ احتل الفرنسيون فعلاً هانوفر ثم طوقوا الجيش الانكليزي الهانوفري وارغوه في ايلول على الاستسلام في « كلوسترسغن » وحصلوا منه على تعهد بأن لا يحمل السلاح حتى نهاية الحرب . وتحرك جيش فرنسي الماني لمهاجمة فردريك الثاني الذي كان يواجه خطر النمساويين في الجنوب ، والروس في الشرق ، والسويديين في الشمال . ولكن فردريك تمكن من المناورة بين اعدائه ، فسحق الجيش الفرنسي الالماني في « روسباخ » (٥ تشرين الثاني ١٧٥٧) ، والجيش النمساوي في « لون » (٥ كانون الاول) . ونكت الجيش الانكليزي الهانوفري عهده ، فاشترك في الحرب مرة اخرى ضد الفرنسيين . ومنذ ذلك التاريخ طالت الحرب وتمادت . فالجيوش الفرنسية التي قادها ضباط حذاق على غير سداد في الرأي قسم التحاسد بينهم ، قد اوقفت ، على الرغم من بعض الانتصارات الجزئية ، بين الرين والفيزير بفعل مقاومة الجيش الانكليزي الهانوفري ، ولم تتمكن من مهاجمة فردريك الثاني من الغرب . خف العبء بذلك عن هذا الاخير ، فواجه الروس والنمساويين . انزلت به هزائم نكراء ، وفي السنة ١٧٥٩ ، بلغ كشافه اعدائه مشارف برلين . ولكنه برهن عن عناد فائق ، وحال احتراز الروس والنمساويين وعجزهم عن توحيد جهودهم دون اقدامهم على كيل الضربة القاضية . وفي السنة ١٧٦٢ توفيت القيصرية اليزابيت وتولى العرش بطرس الثالث المخلص للملك بروسيا ، فبقي النمساويون وحدهم .

منعت هذه الحرب الفرنسيين من التفرغ لاساطيلهم ومستعمراتهم . أمداً الهند بـ ١٧ رجلاً وكندا بـ ٣٢٨ رجلاً بينما كان الانكليز ، بتحريض من « وليم بيت » ، يواصلون تعزيز اساطيلهم ويرسلون الى اميركا حتى ٦٠.٠٠٠ رجل . استولوا على كندا باستيلائهم على « كيبك » (١٧٥٩) « ومونريال » (١٧٦٠) ، وعلى الهند باستيلائهم على بونديشيري (١٧٦١) . وجاء دخول اسبانيا الحرب الى جانب فرنسا متأخراً جداً ولم يسفر سوى عن نتيجة واحدة هي ائاحة فرصة احتلال فلوريدا للانكليز . اضطر الفرنسيون لتوقيع معاهدة باريس مع الانكليز في ١٠ شباط من السنة ١٧٦٣ . تخلوا لهم عن كندا ووادي « اوهايو » وضة الميسيسيبي اليسرى وعدد من جزر الانتيل . تنازلوا من كل مدعى سياسي بالهند حيث احتفظوا بخمس مدن دكت اسوارها وسحبت حامياتها . تخلوا عن اسواقهم التجارية في السنغال باستثناء جزيرة « غوريا » . وتنازل لويس الخامس عشر ، بالاضافة الى ذلك ، عن ضفة الميسيسيبي اليمنى أو لوزيانا للاسبانيين بغية إعاضتهم من فقدان فلوريدا . ولكن فرنسا احتفظت ، على الرغم من مقاومة العديد من الانكليز ، بمصائد الاسماك في الارض الجديدة ، التي كانت بمثابة مدرسة جلد وتدريب لبحارتها ، وميزريتي « سان بيير وميكلون » و « جزر السكر » ، « مارتينيك » و « غوادولوب » و « سانت لوسي » و « سان دومنغ » وذلك بفضل الملك جورج الثالث المتسرع في استهلاك سياسته الشخصية والتخلص من استبداد « بيت » الذي كان يفضل انتظار محق فرنسا لتوقيع معاهدة الصلح . استاء الانكليز واعتقدوا بوجوب القيام بمجهود جديد ، ولكنهم على الرغم من كل ذلك

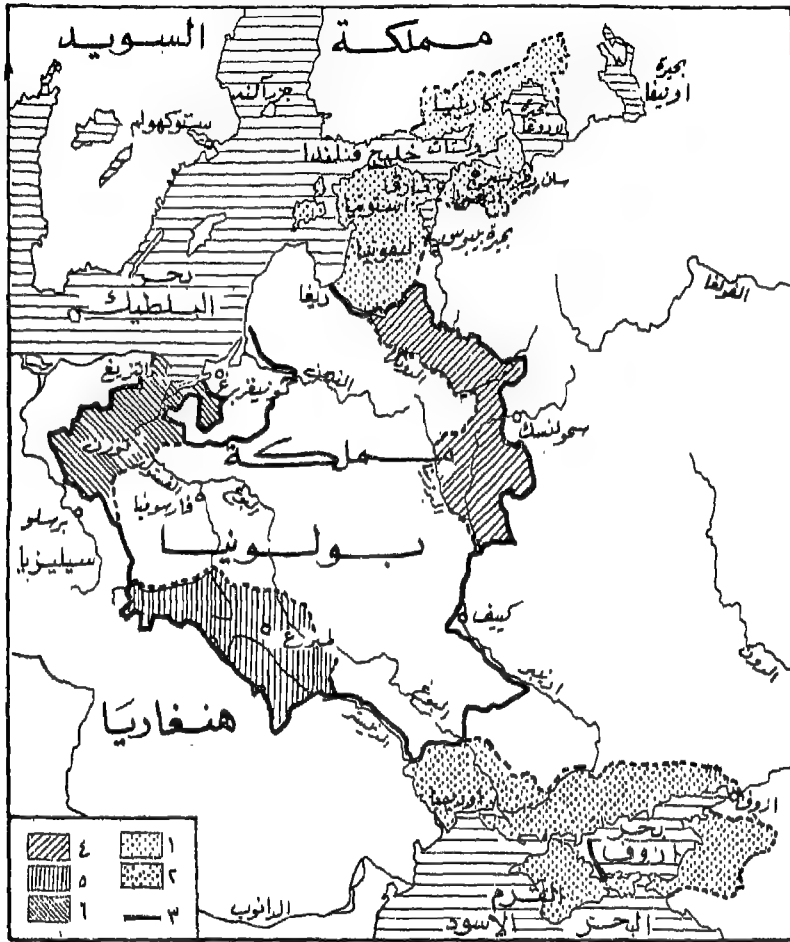
حققوا امكانات تقدم غير محدودة بتحقيقهم الهيمنة البحرية والتجارية والاستعمارية .
أما ماري - تيريز ، التي امست وحدها في الميدان ، فقد وقعت مع فردريك الثاني صلح
« هوبرتسبورغ » (١٥ شباط ١٧٦٣) . احتفظ هذا الاخير بسيليزيا وتمتع بنفوذ عظيم في
المانيا وفي اوروبا . غير انه ، على الرغم من كل ذلك ، لم يكن سوى ملك دولة صغرى يخيم
عليها الخراب . وخرجت النمسا ضعيفة وخاسرة اقليمياً من هذه الهزيمة الجديدة . أما المسيطر
الحقيقي على اوروبا الشرقية والوسطى فهو روسيا ذات الموارد المتزايدة ، التي اهتمت الى
رجل هو القيصر كاترين الثانية .

ارتقاء الروس والبروسيين
ادت معاهدة باريس الى تخلخل التوازن في اوروبا. انشئ الفرنسيون
والانكليز عن البر الاوروي . انشغل الانكليز بشؤون تنظيم
(١٧٦٣ - ١٧٨٩)
امبراطوريتهم . صادفوا صعوبات كبرى في مستعمراتهم الاميركية
بنوع خاص . وأدرك الفرنسيون خطأهم . كرسوا قواهم لمحاربة انكلترا ، واخذ الوزير
شوازل يعد العدة للانتقام . وكان الانتقام ممكناً في بلاد غنية جدا تقوق دول اوروبا الاخرى
سكانا ولم تتأثر تأثراً جدياً بحروب خيضت كلها خارج ارض الوطن . اعاد شوازل انشاء
الاسطول والجيش وابتاع من الجنوبيين جزيرة كورسيكا التي كانت مطمع الانكليز لانها تتيح
السيطرة على الساحل الفرنسي المتوسطي (١٧٦٨) .

في هذه الظروف خلا الجو في اوروبا الشرقية لروسيا التي تخلت نهائياً عن مشاريع بطرس
الأكبر في آسيا . فكان من ثم باستطاعتها استعادة سيرها شطر الغرب . عند وفاة ملك بولونيا
اوغست الثالث (١٧٦٣) ، اتفقت كاترين وفردريك الثاني على منح كل اصلاح في بولونيا ،
وضمان العرش لمشيقتها ستانسلاس بونيا توفسكي (ايلول ١٧٦٤) بتهديد من الجيوش الروسية ،
وفرض حماية روسية على البولنديين بحجة تأمين حريات الجمهورية البولونية (١٧٦٧) . ثار
الوطنيون البولونيون ، وتوق شوازل ، املا منه في انقاذهم ، الى اقناع الاتراك بدخول الحرب
ضد روسيا . ولكن الانحطاط التركي كان آخذاً في التعاضم . خسر الاتراك آزوف والقرم
والولايات الرومانية ودمر اسطولهم في « تشسنيه » (١٧٧٠) . خشي فردريك الثاني اذ ذاك
من رؤية الروس والنمساويين يعززون قواهم في البلقان أو يتقابلون في حرب قد ينجر هو اليها .
فاقترح على كاترين وماري - تيريز تقسيم بولونيا الذي أقر في سان بطرسبورغ في ٢٥ تموز من السنة
١٧٧٢ . « باسم الثالث الأقدس » ... وخوفاً من تفكك الدولة البولونية تفككاً كلياً ...
استولت ماري - تيريز ، التي « ما انفكت تبكي وتأخذ » ، على غاليسيا وسكانها البالغين
٢٦٠٠٠٠٠ نسمة واستولى فردريك على بروسيا البولونية وسكانها البالغين ٧٠٠٠٠٠ نسمة
فقط ، باستثناء داننزيغ ، ولكنه حقق الاتصال بذلك بين بروسيا وبراندبورغ واستولت
كاترين على جزء من ليتوانيا يبلغ سكانه ١٦٠٠٠٠٠ نسمة . فاضطرت الجمعية البولونية ، التي
حاصرتها الجيوش الحليفة ، الى التسليم بالمعاهدة والتعهد بعدم تعديل الدستور . وقد ألف
الشركاء المتواطئون الثلاثة ، بغية الحفاظ على مكاسبهم ، حلفاً ثلاثياً ناصب فرنسا العداء في

عهدي الثورة والامبراطورية ، وكان نواة الحلف المقدس بعد السنة ١٨١٥ ، ودام حتى اواخر القرن التاسع عشر .

بوساطة النمسا ، وقع الروس مع الاتراك معاهدة « قينارجي » (١٧٧٤) . لم تحتفظ



الشكل ٢ . الفتوحات الروسية وتقسيم بولونيا الدول .
(١ - فتوحات بطرس الكبير ، ٢ - فتوحات كاترين الثانية ، ٣ - حدود مملكة بولونيا في السنة ١٧٧٢
تقسيم بولونيا الأولى في السنة ١٧٧٢ - ٤ الفتوحات الروسية ، ٥ الفتوحات النمساوية ، ٦ الفتوحات الروسية

روسيا الاب « آزوف » ، ولكن استقلال « القرم » قد أعلن رسمياً ، وحسب للروس ، بصورة خاصة ، توجيه الانذارات الى السلطان خدمة للكنيسة اليونانية أو للسكان الارثوذكس في الولايات الرومانية . فظهروا من ثم بمظهر حماة الشعوب المسيحية الارثوذكسية في البلقان وتوفر لهم امكان التدخل الدائم في الشؤون البلقانية ، مما سيدسّبل مشاريعهم باتجاه القسطنطينية والمضائق . إن اعمال الدول الثلاث في بولونيا حولت نظام التوازن الى « نظام تقاسم » . فهي لم تقض

لعمرى على نظام التوازن ، اذ كان على الدول الكبرى أن تتساوى فيما بينها ما استطاعت الى ذلك سبيلا. ولكنها سلّمت بحقها في تقاسم الدول الصغرى والدول الضعيفة اذا قضت مصلحتها بذلك . فتكرس بذلك مبدأ الاستخفاف بحقوق الدول ، الذي سيؤدي الى تقسيم اوروبا بين بعض الدول الكبرى المتجاورة ، المتباينة المصالح تباينا مباشراً ، التي ستمسي خلافاتها اكثر تكرراً وأشد خطورة منها في أي عهد مضى . فلاحث في الافق بوادر الحرب الدائمة وخراب اوروبا .

دب الذعر في هذه الاثناء الى السويد وتركيا والبندقية وكافة دول اوروبا الضعيفة التي ارتعدت هلعاً بانتظار الموضع يوجه اليها . ولكن فرنسا عملت على استبقاء نظام التوازن القديم . فبمساعدة الملك لويس السادس عشر ، حاول «فرجين» الذي اشترك في الحكم منذ السنة ١٧٧٤ حتى ١٧٨٧ ، منع توسع الدول ، وضبطها في نطاق النظام بالتوفيق بينها أو بإثارة الخلافات بينها عند الاقتضاء ، والمحافظة على الدول الصغرى يجمعها حول فرنسا . فكان ذلك تمثيلاً على سياسة لويس الرابع عشر الاخيرة التي سينتهجها تاليران ولويس - فيليب بدورها ايضاً . رفض فرجين عروض النمسا المغرية في المناطق المنخفضة ومصر . فأفلح باستخدام منافس النمسا الجديد ، فردريك الثاني ، في منع جوزف الثاني اولاً وثانياً من احتلال بافاريا (١٧٧٩ و ١٧٨٤) ، ووضع حداً سريعاً لمشروع نساوي روسي يستهدف تجزئة الامبراطورية العثمانية (١٧٨١ - ٨٣) واقصر المكاسب الروسية على القرم دون أن يحصل الامبراطور على شيء . حقق بذلك السلم في البر الاوروبي الذي اتاح له محاربة الانكليز في البحر (١٧٧٨ - ١٧٨٣) ، والاسهام في تحرير المستعمرات الانكليزية الاميركية ، والانتقام جزئياً في معاهدة فرساي (٣ ايلول ١٧٨٣) ، من معاهدة باريس المذلة ، بتجريد انكلترا من أهم مستعمراتها . اضطر الانكليز الى الاعتراف باستقلال الولايات المتحدة الاميركية ، والتخلي لها عن داخل البلاد حتى الميسيسيبي ، واعادة مينورك وفلوريدا لاسبانيا والسنغال و «تاباكو» لفرنسا مع اطلاق الحرية لها بتحسين دنكرك .

استعادت فرنسا بذلك اعتبارها ونفوذها وامن اوروبا . ولكن هذه النجاحات لم تدم طويلاً . فقد شلتها في السنة ١٧٨٧ الازمة المالية وثورة الارستوقراطية . اضطرت فرنسا لترك ملك بروسيا الجديد ، فردريك غليوم الأول ، يعيد سلطة القوائد العسكري وينظم حلفاً ثلاثياً بروسيا وهولندياً وانكليزياً (١٧٨٧) . اعتبرت كاترين وجوزف الثاني الفرصة سانحة لمهاجمة الاتراك (١٧٨٨) . ولكن الانكليز والبروسيين حملوا ملك السويد غوستاف الثالث على مهاجمة الروس . وحمل فردريك غليوم الأول البولونيين على اصلاح دستورهم ورفض الحماية الروسية . وحرض الهنغاريين والبلجيكيين على الثورة على جوزف الثاني . ولا عجب في ذلك فقد أدى توارى فرنسا الى انفلات الاطماع . في السنة ١٧٨٩ ، كانت اوروبا متخبطة في ازمة شاملة . وكان اتحاد الدول أبعد منه في أي وقت مضى .

الفصل الرابع

تنوع أوروبا

انطلاق أو يقظة العصيان القومية

لم تكن وحدة أوروبا الفكرية سوى صنيع طوائف يسيرة من البشر ، الكتاب ، والعلماء ، وبطائن الملوك . ولكن الروح القومية رأت النور منذ زمن بعيد عند كافة الشعوب . على أنها تفاوتت نوعاً : ولعل الانكليز والفرنسيين وحدهم الفوا قوميات ، بمعنى هذا التعبير الحقيقي ، أي جماعات بشر مرتبطين بأرض كنفوها وكيفتهم وعالمين بتضامن ، ومصالح مشتركة ، وعادات خصوصاً ، وأخلاق ، وأساليب حياة وتفكير ، ومثل أعلى ، أكثر تشابهاً فيما بينهم ، على الرغم مما لا يزال بينهم من اختلافات ، منها بين أية جماعة من البشر المجاورين . إلا أن شعوباً أخرى توصلت هي أيضاً إلى الوعي القومي توصلاً متباين الجلاء والقوة ، وغتلتاً وضعيفاً أحياناً . كانت هنالك وطنية إسبانية حققها الصراع الطويل ضد المسلمين ، وطنية إيطالية حققتها الغزوات الكثيرة التي عرفتها البلاد وعززتها ذكريات روما ، ووطنية بولونية تأيدت بمقاومة البولونيين للروس والجرمانيين ، ووطنية روسيا ائمتها المسيحية الأرثوذكسية التي جعلت الروس ينظرون إلى كافة الشعوب نظراً إلى هراطقة وبرابرة ، وإلى روسيا نظراً إلى البلاد المقدسة ، الصادقة ، المعادلة ، المحبوبة من الله بالذات ، وحتى وطنية المانية أيضاً . واتضح أكثر فأكثر ووعي الاختلافات الجماعية ، واقعية كانت أم خاطئة : « يقال إن الفرنسيين مهذبون وحذائق وكرماء ، ولكنهم متسرعون ومتقلبون ؛ وإن الألمان صادقون ومجتهدون ، ولكنهم ثقلاء وسكيريون ؛ وإن الإيطاليين لطفاء ونبيهاء وعذاب الكلام ، ولكنهم حساد وخونة ؛ وإن الإسبانين متكتمون وفطن ، ولكنهم متعذلقون ومتمسكون تمسكاً مفرطاً بالشكليات ؛ وإن الانكليز شجعان حتى التهور ، ولكنهم متكبرون ومستخفون ومتعجرفون حتى القساوة » .

نمت الروح القومية نوعاً كبيراً خلال القرن بفعل سياسة الملوك الذين اخضعوا ولاياتهم المختلفة لعادات مطردة التماثل ، وتنازعوا سياسياً واقتصادياً فأوجدوا بذلك في شعوبهم شعور التضامن والحقد على مصدر الأذى من الجيران ، سواء كانت هذه الأذى مزاحمة أم جيشاً .

ونمت كذلك بفعل التقدم الفكري واتخذت هنا شكل ردة الفعل ضد النفوذ الفرنسي ، موحد أوروبا . كل المثقفين في كل البلدان تتلمذوا على فرنسا . وفرت الروح الكلاسيكية لهذه الأخيرة تقدماً كبيراً وتفوقاً عظيماً . امتست فرنسا استاذ أوروبا في المنطق والبيان والجدل . منها تعلم الأوروبيون التفكير وتكوين الأفكار وترتيبها والتوسع فيها والربط بينها واستخلاص النتائج المقبولة منها . تزود جميعهم بهذه الكلاسيكية التي يقتصر نتاج أعظم العبقريات بدونها على المقاصد والتخطيطات والوعود والتأليف المرتجلة ، التي تفتقر كلها الى التفتح الكامل . الا ان هذه السيطرة الفرنسية التي رضي بها الكتاب الفرنسيون في البدء بإعجاب وامتنان قد ثقلت عليهم ، بعد مرحلة التقليد الطويلة التي يجب ان يمر بها كل تلميذ ، اي بعد السنة ١٧٦٠ ، حين اعتبروا انهم امسوا اسياذ تفكيرهم وتعبيرهم . وعوا قوتهم الخاصة وذكاهم الخاص ، ونفرت اثرتهم القومية من السيطرة الفرنسية . ألهمهم كبرياؤهم المكثوم ، فانصرفوا ، رغبة منهم في التحرر ، الى نقد الآراء الفرنسية نقداً قاسياً ولاذعاً ، وجائراً في اغلب الاحيان . وقد زاد في عنف هذا النقد انه صدر على العموم في كل بلاد عن اناس منحدرين من تلك البورجوازيات النامية التي كانت اقل تأثراً من الاسباد بالعادات المجتمعية المستوردة من فرنسا وبجياة « الصالونات » التي سمعت كافة الارستوقراطيات وراء تقليدها والتي باتت اسلوباً اوروبياً مشتركاً . انبثق نقدهم عن شعور تعاضل اثناء ردة الفعل المعوسة ضد جفاف واضعي دائرة المعارف واثناء ذيوخ شهرة روسو فاتخذ طابع الهجوم على مذهب العقليين الفرنسي والكلاسيكية الفرنسية وشيوعية الوطنية الفرنسية . وقد تكلم كل منهم باسم مشاعر قوميته الخاصة ، فتزعزعت الوحدة الأوروبية الطالعة .

فاجأ الهجوم الفرنسيين في حالة مقاومة ضعيفة . فالروح الكلاسيكية كانت سائرة في طريق الانحطاط . رأيناها في القرن السابع عشر تصميماً على الكمال وجهاداً يستهدف التوصل بوضوح وجلاء اما الى ادراك الأفكار المتداخلة المتشابكة واما الى ادراك عالم مبهم وصاحب من المشاعر المضطربة ، وجهداً للتعبير عن هذا الادراك اصدق وأشجى تعبير ، وهذا لا ينقص ثروات الحياة الداخلية ، بل يظهرها علانية تخضع للانسان الذي يستفيد منها . اما في النصف الثاني من القرن الثامن عشر فقد باتت هذه الروح متمسكة اكثر فأكثر بالشكليات ، وأصبحت مجموع انظمة صارمة تقيّد ، وضوابط تشل ، لا بل افتقرت اللغة نفسها وأصبحت ضيقة ووجلة ومقتصرة على تعابير عامة او صيغ جاهزة في اغلب الاحيان ، اي انها اصبحت اشبه بعلم جبر يلزم الشاعر بالتمريض في الكلام ، لا جهداً جباراً في سبيل التوصل الى انبجاس الحياة . والواقع ان انحطاط الكلاسيكية هذا هو نقيض الروح الكلاسيكية . هو ما هوجم بعنف ، ويحق في اغلب الاحيان ، ولكنه اختلط بالكلاسيكية التي لم يكن سوى صورتها الهزلية . وقد امله العديد من الفرنسيين انفسهم . ان عهد الرومنطيقية ابتدأ منذ روسو .

زد على ذلك من جهة أخرى ان روح شيوعية الوطنية ، والاقتناع بأن البشر متساوون

كلهم ، والاعتقاد بوحدة الجنس البشري ، وهي تفرض كلها الوطنية ، اذا احسن فهمها ، بدلاً من التذكر لها ، كما اثبت ذلك الفلاسفة الوضعيون ، قد اضعفت الشعور القومي عند أرفع الفرنسيين ثقافة . الا انها لم تقض عليه في احد منهم ، وقد افادت الروح الوطنية من غفلتها عند الكثيرين في الملمات الجسام . خلال حرب السنوات السبع ، تبرع مجهزو المراكب وتجار المرافئ بسفن قدموها للملك مساهمة منهم في الحرب ضد الانكليز . وتأثر الفرنسيون تأثراً عميقاً بالانكسارات الخارجية . في السنة ١٧٦٥ مثلث مسرحية « حصار كاليه » مؤلفها « دي بلوا » ، فبكت الجماهير وصحبت ، وامتدحت هذه الرواية البطولية من روايات الصراع القديم ضد انكلترا . ولكن الفلاسفة انحزوا بناء نظرياتهم في حب السلم وشيوعية الوطنية في احلك مراحل حرب السنوات السبع ، وانجزوها بسرعة كلية ودون استطلاع كاف (اذ توجب عليهم ، في سبيل النجاح ، الاعاضة من التعليم القديم بتعليم جديد مبني على العاطفة والميل والادعاء في الوقت نفسه بأنه صادر عن العقل دون سواء) . لم يدافع الفرنسيون المستضعفون بقوة عن مراكزهم ، كما لم يصمدوا صموداً قوياً امام غزوة الآداب الاجنبية ، الانكليزية منها ولا سيما الالمانية . منذ السنة ١٧٥٠ ، نشر « غريم » في « ماركور فرنسا » ، بمساعدة ديدور ، رسائل في الأدب الألماني ، وفي السنة ١٧٦٦ ، نشر « هرذر » قصائد ألمانية مختارة ، كما نشر في السنة ١٧٦٨ ترجمة « الأغاني البلدية » للسويسري « جسنر » ، وبين السنة ١٧٨١ والسنة ١٧٨٤ ، « تاريخ الفن عند الأقدمين » لـ « ونكلن » . اخذت « النفوس السريعة التأثر » بالطابع البلدي والبطوريكي الذي يتميز به الشعر الألماني . استوحى « الأغاني البلدية » « دليل » ومؤلف الامثال « فلوريان » ، و « برنارد دي سان - بيير » في كتابه « بول وفرجين » . وأحدثت ترجمة « فرتر » لغوته في السنة ١٧٧٧ تغييراً عميقاً في الحس . فاستوحيت منها « دلفين » لمدام « دي ستال » و « ادولف » لـ « بنجامين كونستان » ، و « رنيه » لـ « شاتوبريان » ، و « جوسلين » لـ « لامارتين » . وجاء التأثير الانكليزي ابعداً عمقاً ايضاً . فعلى الرغم من استمرار شطر من الفرنسيين في كراهيتهم للانكليز بدافع من وطنيتهم ، استسلمت فرنسا لانكلترا والمجرفت في تيار استهواء كل ما هو انكليزي . وقد سلك هذه الطريق امراء العائلة المالكة انفسهم ، من امثال الكونت « دارتوا » والدوق « دي شارتر » . وغزت فرنسا حوالي السنة ١٧٧٠ حفلات الشاي ولعبة « وست » وسباقات الخيل وفرسان السباق والسترة الطويلة المشقوقة الذيل . واستعبدت عن الصالونات شيئاً فشيئاً بنواد تدنت فيها آداب الجمالة مفسحة المجال للهجة الاجتماعات العامة : كل يتكلم بصوت عال ، ويصفي قليلاً ، ويعبر عن مزاجه في صوته ونظراته . وتسربت الى اللغة كلمات انكليزية كثيرة . وانتشرت الحداثق الرومنطيقية على الطريقة الانكليزية في « ارمونفيل » و « باغاتيل » (١٧٧٧) و « بارك مونسو » و « بتي - تريانون » (١٧٧٨) . وقام الفرنسيون بالدعوة للكتب الانكليزية بتراجمهم . واستقبل الاجانب النتاج الانكليزي خير استقبال لانه يساعد على خلق نير فرنسا الفكري .

والواقع هو ان الانكليز كانوا السباقين الى الحقن بآزدراف على الفرنسيين والتشكر للطرائق الفرنسية والذوق الفرنسي . وقد درجوا على القول : « ان تجارتنا ومصانعنا توجب علينا وقوف هذا الموقف » . اخذوا على الفرنسيين تهذيبهم الذي يفقدهم كل شخصية ويسيء الى اخلاصهم . انتقدوا اطعمتهم غير المغذية . اخذوا على اللغة الفرنسية انها لغة بطانة بيناروا في اللغة الانكليزية لغة اناس احرار تتميز بمزيد من القوة والرجولية . ازدروا بالشعر الفرنسي ، والمسرح الفرنسي اسير النظم الصناعية والاستبدادية . فهم قالوا بأدب روماني في الدرجة الاولى . رجعوا الى التقليد والاثارة القومية ، الى لغة اكثر تحيزاً ، واكثر اصالة انكليزية ساكسونية ، وأقرب الى اللغة الشعبية ؛ الى الشعر الغنائي الفردي ، الى الايقاعات الشعرية الشبيهة بايقاع الاغاني القديمة والقصائد الاسطورية الشعبية . ادخلوا عناصر جديدة : العبادة الكلفة بالطبيعة ، والمشاهد الليلية ، والمقضة ، والجبلية ، هوى الحس والخيال ، القلق الكوني والديني وحتى القول بالوهية الكون . مهدت « ليالي » « يانغ » المتوفي في السنة ١٧٦٥ ، و « مراثي » « توماس غراي » ، المتوفي في السنة ١٧٧١ ، السبيل أمام هذا التيار الذي برز في مؤلفات « كوبر » ، اول منسدي بحيرات « كمبرلند » ، وقصائد « بيرنز » (١٧٥٩ - ١٧٩٦) السكتلندية ، ومكر السكتلندي « ماكفرسون » ، الذي زعم انه اكتشف اناشيد الشاعر القديم « أوسيان » ، والذي تميز بمواطف بسيطة وعنيفة وعرف شهرة فائقة . وعرفت انكلترا هندسة عمارة الحدائق التي تميزت بشلالات الماء والمسالك المتعرجة والاطلال الصناعية ، التي تتعارض كلها والحدائق الفرنسية ؛ كما عرفت المفروشات البلاذرية . وكان لها مدرستها في الرسم التي رأت النور في السنة ١٧٥٠ مع اكاديميتها الملكية التي تأسست في السنة ١٧٦٨ ، وهي تعكس روح تجارها العملية ؛ نجح الرسامون اما في نقد المجتمع واللوحات الاخلاقية والنفعية ، كـ « هوغارث » (١٦٩٧ - ١٧٦٤) ، واما في رسم صور اشخاص المجتمع الارستوقراطي كـ « رينولدز » (١٧٢٣ - ١٧٩٢) ، و « غينسبور » (١٧٢٧ - ١٨٨٨) ، و « رومني » (١٧٣٤ - ١٨٠٢) ، و « لورنس » (١٧١٩ - ١٨١٣) ، الذي استهل عمله الفني في السنة ١٧٩٠ بصورة الآنسة « فارن » . وأما النقاش الانكليزية باللون الاسود أو بالتنقيط ، وهي مختلفة عن التقنية الباريسية ، فقد اسهمت في امتداد أثر هذه الفنون الى النمسا والسويد وروسيا .

أما في المانيا ، فما زال هنالك شعور غامض تقديسه ذكريات مجيدة وغير واضحة تركتها الغزوات الجرمانية والامبراطورية المقدسة . وتمكن هذا الشعور بالغيرة من الفرنسيين وعدم الثقة بهم والحقدهم عليهم . استعانت ماري - تيريز وفرديريك الثاني كل بدوره ، على الفرنسيين به الوطن الالمانى العزيز . ايقظت « روسباخ » الروح القومية وألبت الانصار في كل مكان حول فرديريك الثاني ، وغالباً ما دفعت المصلحة الآنية بالامراء الالمانيين الى التحالف مع الفرنسيين ، ولكنهم كانوا يضمرون في عملهم هذا حقداً خفياً ، ورغبة دفينية في ابعاد فرنسا عن الرين ، وامل اكمال بهزيمة فرنسية وبتجزئة فرنسا . والحال ، تمززت مشاعر العداء لفرنسا ، في الثلث الاخير من

القرن ، يمشو ادب الماني ارسخ آراء مشتركة مناهضة لفرنسا وكوئت الامة الالمانية . اعلن « هرر » واصدقاؤه ان اللغة الفرنسية منافية للاخلاق ، ولغة صالونات ، مرنة ، مغرية ، تساعد على المداهة باسم التهذيب واللباقات ؛ وانها لغة الخيانة والقطيعة بين المتحابين . أما اللغة الالمانية فلا تصلح إلا للتعبير عن الحقيقة . أدى كل ذلك الى تأخر اللغة الفرنسية . فعند وفاة فردريك الثاني (١٧٨٦) ، ساوت اكاديمية برلين في تقاريرها ومحاضر جلساتها بين اللغة الالمانية واللغة الفرنسية ، ونقش غوته « وصف رحلته الى ايطاليا » بإبدال كافة المفردات الاجنبية المصدر بما يعادلها في اللغة الالمانية . وجعل الكتاب اللغة بالكلمات والتعابير الشعبية . وهاجم الالمان « لسنغ » في « فن وضع مسرحيات هيبورغ » ، و « هرر » في بعض مؤلفاته ، الادب الفرنسي ، المجرى والصنعي البساطة ، ولا سيما المسرح الذي تقيد قواعده تناقض الطبيعة ، والذي تعتمد فيه لغة صناعية ، ليست لغة البشر . وأبان لسنغ المضادة بين راسين ، الذي لم يدرك صدقه ولم يعر فيه الحياة ، وبين « شكسبير » و « سوفوكل » . وأعلن هرر نهاية عهد الادب الفرنسي وصرح بأن المستقبل للادب الالمني . وهاجم الالمان الفن الفرنسي . فلم يميز ونكلمن و « منغر » ، لغاية في النفس ، بين الفن الفرنسي والفن التزييني المبثذل ، واعتراضا على الاكثار من النقوش العادمة الاهمية في هندسة العمارة ، وانتقدا الحديقة الفرنسية بسبب انتظامها الذي نعتاه بالممل ، ومخالفة الطبيعة باخضاعها لفكرة ، ونقما على الرسم الفرنسي الذي اتهماء بأنه خلو من الفكر والعاطفة ، وأطرى الرجوع الى فن العصور القديمة . ولكنها جعلوا الفن الفرنسي مسؤولاً عن افراط الفن التزييني الايطالي أو الالمني المبثذل رغبة منهما في افقاده حالة الاعتبار التي تحيط به ، مهما كان الثمن . وأطرى المان آخرون الفن القوطي الذي اعتقدوا بهويته الالمانية . فقد هتف غوته بسذاجة امام كاتدرائية ستراسبورغ : « هذا فن الماني لا نرى له نظيراً في فرنسا » . وكان عليه قبل التصريح بذلك ان يقوم بنزهة في المنطقة الباريسية ، مهد هذا الفن الذي دعى بالقوطي اصطلاحاً . وحارب الالمان الفكر الفرنسي . اعتبروا الفرنسيين اكثر سطحية والانكليز اكثر شهوانية وسعياً وراء الرخاء من أن يصبحوا فلاسفة . وقد ارتأوا ان الالمان وحدهم قادرون على استنباط الفكر بما يتوفر لهم من عقل واتزان وميل الى البحث وبذل الجهد . وفي رأيهم ان واضعي دائرة المعارف قد طلعوا بالحماقات احياناً . فالمرء مشدود الى وطنه بكافة مصالحه ، يسعد بسعادته ويشقى بشقائه ، ولكنه اكثر شداً إليه بأجداده وتربيته ومنافعه وممتلكاته وكل كيانه : انه مدين له بكل شيء . على الالمان ان يرفضوا تقليد الفرنسيين ويكونوا الماناً فقط .

وتباهى الاسبانيون ، بلسان الأب « فيخو » ، بأن لغتهم رنانة وموسيقية ومرنة اكثر من اللغة الفرنسية . ودافع اليسوعيون الاسبانيون المطرودون انفسهم دفاعاً حاراً عن الشرف القومي . وفي السنة ١٧٨٣ ، نشر الأب « فرنسيسكو دي ماسدن » تاريخاً نقدياً لاسبانيا احصى فيه اجداد بلاده وجهد في تقديم الدليل على انها مدينة بها لفضائلها الخاصة لا الاجنبى . وتميز

سواد الاسبانين باحتقار الأجانب وبالأمانة الراسخة للملك والمعتمد القديم والوطن .
وكانت للايطاليين لغتهم ومؤرخوهم وشعراؤهم القوميون وشعورهم بوحدة المنشأ ووحدة
الطباع ووحدة الشرائع المدنية . وكانوا تواقين الى قيام اتحاد ايطالي . اخذوا يعارضون على
تلقب الايطالي غير الميلاني بالغريب في ميلانو : اذ ان الايطالي في وطنه حينما وجد في ايطاليا .
اخذوا على اللغة الفرنسية قلة مفرداتها وافتقارها الى الايقاع والموسيقى والروح الشعرية . حلم
« فيكو » بايطاليا متجددة . وحاول « موراتوري » و « دنينا » انهاء الوعي القومي بالتاريخ .
وفي قصائد ومسرحيات تستوحي الوطنية الرومانية القديمة ، دعا « ألفيري » ايطاليا الى النهضة
في ساحات الوعى . كتبت كاترين الثانية في السنة ١٧٨٠ : « ان ايطاليا تلتظر وترجي » . لم
تعد اليقظة حلماً .

أما اشراف روسيا فقد تلهوا بتلاوة جمل بالفرنسية دون أن يتكلموا اللغة الفرنسية .
واعتبروا الآراء الفرنسية مُلْسَحاً ونكاثاً ، فلم تؤثر فيهم تأثيراً يذكر . وبقي الروس روساً
يحتقرون الاجني .

فاذا ما حافظت اللغة والفكر الفرنسيان على تفوقها في السنة ١٧٨٩ ، فإن هذا التفوق قد
تجاوز القمة وانحدر في طريق الهبوط . ولكن هذا الفكر وهذه اللغة هما ما اعطى أوروبا
وحدتها الوحيدة . فكانت الغلبة للتنوع في النتيجة . وفقد الأمل تدريجياً بقيام وحدة اوروبية .
وضعف بهذا الفقدان ، حتى قبل أن تحقق دول أوروبا اقصى توسعها في العالم ، الامل بسيطرة
اوروبية دائمة على العالم اجمع ، وربما الامل بلشر لواء الحضارة الاوروبية في كافة انحاء العالم .



١٧- منظر حدائق "باغ تیل"



١٨- الملكة أويريا تختام عند تاهيتي للضابط واليس



١٩- تَرَايِرَةُ يُحَدِّثُونَ طَعَامَهُمْ



٢٠- منظر جزيرة "إلياسيا".



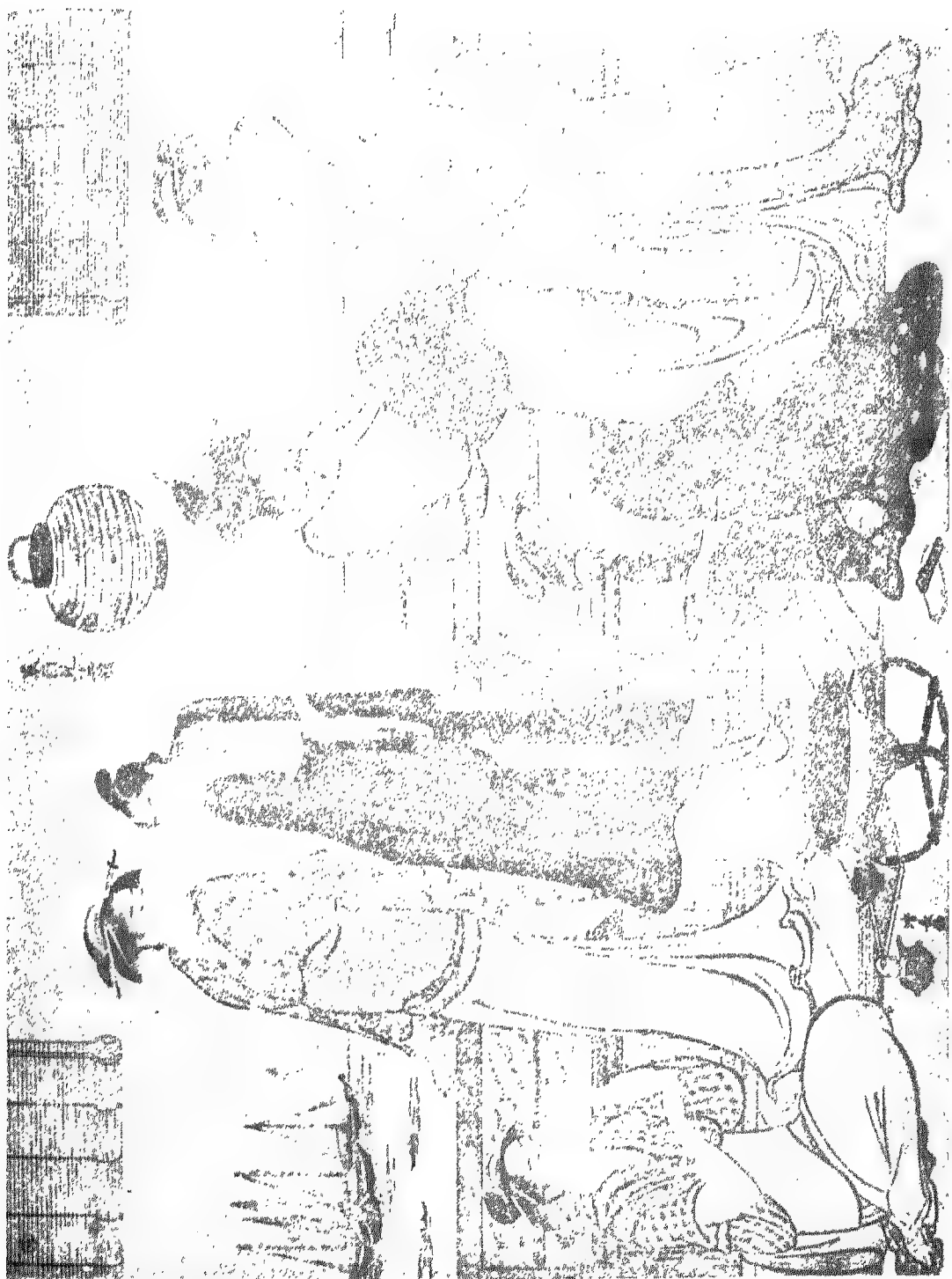
٢١- موكب المهراجا

٢٢- الأمير بطور "كياد لونغ" يتنقل الحزبية





٢٢- متراكب صينية



٢٤- منظر على شاطئ البحر في اليابان



٢٥- وصول طليقة علماء الآثار إلى مصر



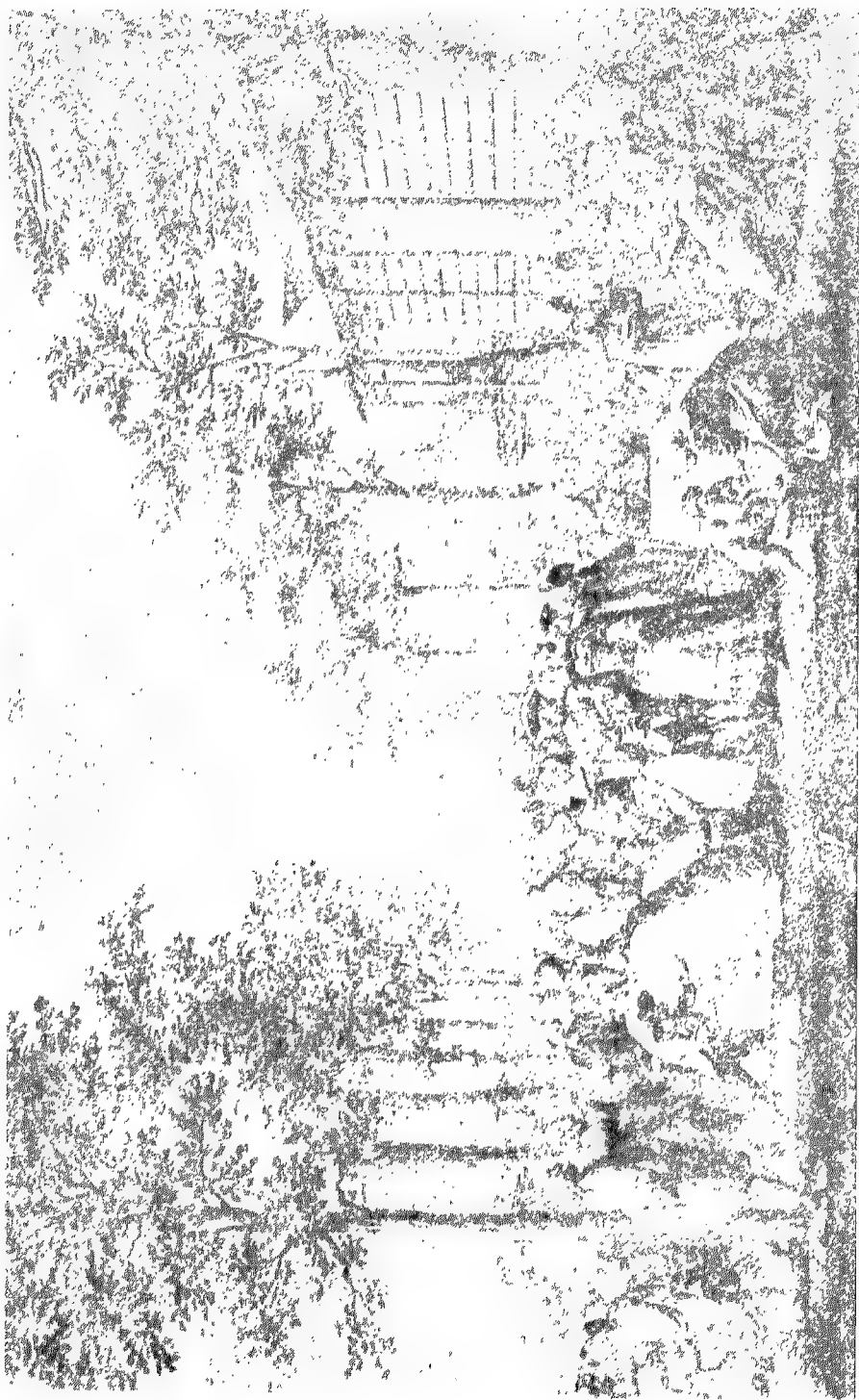
٢٦- النخاسة في المرتينيك



٢٧- فساء ايدنتون في كارولينا الشمالية يأتلين في الامم متابع
عن استفساء الشاي، حتى انقاذ بلا دهن !



٢٨- جمعية الكونغرس الاميريكي الاول



٢٩- نزهة عند أسوار باريس



۲۰- عید الحیثه مدینه تارمیس غلی نهرا نسین عام ۱۷۳۹



٢١- مخطط التوسيع لمدينة بغداد ومدينة الموصل



٣٢- مشهد احد الشوارع : منشء الاناشيد

الكتاب الرابع

حضارة الأنوار وحضارات ما وراء المحيطات

بعد ان تم للاوروبيين الاستبحار بامسور الفلسفة الطبيعية ، انتشار الحضارة الاوروبية وتوفرت لهم خير الوسائل العملية ^(١) ، انصرفوا لاستكشاف عوالم جديدة وراحو يرغلون عميقاً في المعروف منها لديهم : وقاموا بفتوحات واتصلوا بشعوب جديدة وزادوا كثيراً من معارفهم ، فانتشرت الحضارة الاوروبية في هذه البلدان والاقطار التي شغلها الاوروبيون ، وراح جانب محترم من ابناء هذه البلدان ما زال مع ذلك ضعيفاً جداً اذا ما قارناه بالسواد الاعظم من سكان تلك الاصقاع ، يقتبس ، ما وسعته الحيلة ، الافكار الاوروبية .

لا بد من ان نلاحظ ، بدء ذي بدم ، هذا الفارق الكبير بين حضارة الشعوب والاقوام القاطنين ما وراء المحيطات ، وبين حضارة الاوروبيين . فقد وجد هؤلاء امامهم اجناساً بشرية من مستويات حضارية مختلفة : هؤلاء من العصر الحجري ، وأولئك من يعملون في رعي الماشية ، جميعهم من العقلية القيسية او على النظام اللاهوتي ، اي انهم كانوا يعملون ، على تفاوت بينهم في مستوى النضج العقلي الذي بلغوه ، الظواهر الطبيعية التي وقعوا تحت تأثيرها ويردونها الى ارادات شبيهة بارادة الانسان ، انما من عيار اقوى وادهم ، ومن قدرات اقل ، كالارواح والأبالسة والآلهة . وكان من المتوجب على هؤلاء الاقوام ان ينتقلوا سريعاً من المذهب الحيوي الذي يقول بوجود الارواح في الحيوان ، ومن الشرك الذي يهيمن في ضلالاته ليصلوا تدريجياً الى عقيدة التوحيد ، اي الى طور التجريد والميتافيزيقا . وهو طور يحاول فيه الانسان تفسير كل شيء برده الى هذه الكائنات الجبارة ، كالطبيعة مثلاً ، لينتقلوا منه الى الدور الوضعي او العلمي ، وهو ما يميز فلسفات الاوروبيين او بطبع تفكيرهم ، في القرن الثامن عشر ، هذه الافكار التي تأرجحت بين هذه الادوار الثلاثة التي بلغ اليها الانسان ، اذ ذاك ، مع تغليب العنصر الميتافيزيقي او الوضعي .

(١) راجع الكتاب الاول والثاني

ومن جهة اخرى ، فالسواد الاكبر من الاوروبيين الذين خرجوا من اوروبا للعمل في البلدان الواقعة عبر المحيطات والعيش فيها طلباً للرزق ، انما هدفوا في الدرجة الاولى ، للعمل في مجالات التجارة . فالفكرة الرئيسية التي سيطرت على هذه الجماعات وعلى الحكومات والهيئات الرسمية انما كانت الحصول على المال والاثراء السريع . ويرى البعض ان العصر سبجل شيئاً من التأخر في هذا المضمار بالنسبة للمصور السابقة . فمُنذ القرن السادس عشر ، قام الاسبان فعلاً بمحاولات ملحوظة ، وجهود مبهورة رموا منها الى رفع الهنود الحمر في مراتب السلم الاجتماعي . وفي القرن السابع عشر ، تجنّس الوزير ريشليو وتلميذه كوليبر ، لعملية تمدين ابناء البلاد الاصليين ، واسعة النطاق ، ولانشاء فرنسا الجديدة في العالم الجديد . اما في القرن الثامن عشر ، فقد شالت الروح البورجوازية ، واستبدت في النفوس ، روح الكسب والاثراء على غيرها من المشاعر الإنسانية الرفيعة . فلنُصنع لما يقوله الكتاب الفلاسفة الذين عبروا احسن تعبير عن احساس الطبقة البورجوازية ومشاعرها ، أمثال مونتسكيو وفولتير والكتاب الموسوعيين خصوم سياسة الاستثمار واعداء الداعين اليه ، هذا الاستثمار ، مولّد الحروب ، والباعث على الاغتراب والهجرة ، والمضني للمعمرين ، مع انهم كانوا ، من جهة اخرى ، من أشد الداعين الى المزدروعات الاستثمارية ولا سيما الاستوائية منها لانها تمد المستثمرين بالمواد والمحاصيل الزراعية التي هم بأمرس الحاجة لها والتي في سبيلها اجازوا الرق واباحوا الاسترقاق ، كما اباحوا طرد العروق والاجناس الوطنية الواقعة حجرة عثرة في طريق المستعمرين والحد من حرية العمل عندها ، والقول ببدا « الحكر » هذا المبدأ الذي يحصر حق التجارة في المستعمرات بالدولة الأم . ولهذا الاعتبار ، أثرت الدول والحكومات ان تترك حرية العمل والتصرف في هذا المجال للشركات التجارية ذات الامتياز التي تعرف كيف تستثمر ، على الوجه الاكمل ، المرافق التجارية ممثلة بهذه الوكالات التي نثروها على السواحل البحرية ، عبر البحار او في هذه الجزر المعروفة بخصبها ووفرة انتاجها وتنوع محاصيلها ، بدلاً من استثمار التاج نفسه لها ، وبدلاً من تدوين مساحات شاسعة عبر البحار في حروب لا نهاية لها ولا حد . فالأوروبيون الذين يقبلون على الاغتراب هم على الغالب بحارة وقدامى المحاربين وتجّار يفتقرون ، اصلاً ، لثقافة مُعرّقة ، عرفوا بنشاط عارم وجاشت نفوسهم بالاحاسيس العنيفة ، وحب الكسب والرغبة الشديدة في الاثراء السريع بجميع الوسائل الممكنة . ولذا نظر اليهم سكان البلاد الأصليون نظرة ملؤها الرعب والكره وربت فيهم سوء الظن وحملتهم على التحرز من كل أوروبي . اما اقوام آسيا ، ولا سيما من قام منهم في أرجاء آسيا الموسمية والذين عُرف عنهم تمسكهم الشديد بآبائهم وارض آلهتهم واجدادهم ، فقد عاشوا ضمن اُطر ثابتة قوامها هذه الاسر الكبيرة التي تشربت روح النظام وتشبعت من روح الاعتدال واستقرت عندها نُظُم داخلية ثابتة ، اصيلة ، فقد نظروا الى الاوروبيين نظرتهم الى برابرة اخشوشنت طباعهم على استعداد للتخلي عن اسمى المثل والمبت باقدس المحرمات في سبيل إشباع جشعهم وتحقيق

اطماعهم الاشعية . وقد رأى فيهم الصينيون ... « ان هؤلاء البرابرة هم بالاحرى وحوش ضارية ، لا تحسن معاملتهم معاملة اناس متمدينين . فمعاملتهم وفقاً لنا موس العقل ولتقتضيات الحمى مجلبة للخزي والعار . وقد ادرك الملوك قديماً هذه الحقيقة ولم يستعملوا في وجه هؤلاء البرابرة سوى العنف والحيلة . فليس من اسلوب آخر يعتمد عليه في التعامل معهم » .

والاوروبيون الوحيدون الذين تقدموا من ابناء البلاد الاصليين بفكرة تزويدهم بخير ما لديهم واعطائهم فكرة عن العالم والكون اساسها المحبة التي تستطيع وحدها ان تؤمن للناس ، في هذا العالم ، السعادة ، وفي تلك الحياة الابدية ... كانوا المرسلين الكاثوليك . فقد تولى البابا ادارة هذه الرساليات بواسطة مجتمع انتشر الايمان الذي كان بمثابة وزارة الرساليات الكاثوليكية . فكان هذا الجمع ، يرسل الى البلدان التي يركز فيها بالانجيل ، قصداً رسوليين وابناء الرهبانيات الدينية ، ولا سيما من بين اليسوعيين والدومنيكيين والفرنسيسكان والكركمليين والاغوستونيين ، وجمعية المرسلين في الخارج ، والاباء العازرين . الا ان عددهم كان قليلاً جداً . فلم يتجاوز عدد المرسلين اليسوعيين العاملين في الرساليات الدينية ٣٥٠٠ راهب في العالم كله ، واقل من هذا العدد ، عدد المرسلين الآخرين . وجمعية المرسلين في الخارج لم يتم لها اكثر من ٥٠ مرسل عملوا معاً في بلدان الشرق الاقصى . وقد خسرت هذه الرساليات من فعاليتها وقوة تأثيرها بالنظر لما قام بين المرسلين من اختلاف حاد حول منهجية العمل وطريقة الاسلوب ومن جدل ونقاش ضار حول طريقة الابهاء اليسوعيين في حمل الرسالة الدينية (معركة الطقوس) ، وهذه المنافسات الحادة التي شجرت بعنف بين هؤلاء الرهبان والمرسلين على اختلاف رهبانياتهم وجنسياتهم ، ولا سيما من جراء تكالب الملوك على مناهضة اليسوعيين ومحاربتهم بكل الوسائل لديهم ، منذ عام ١٧٥٨ ، مما ادى الى الغاء هذه الرهبانية عام ١٧٧٣ ، فادى بالتالي الى القضاء تقريباً على كل النشاط الرسولي في العالم . وفي سنة ١٧٨٩ ، كان عدد المرسلين العاملين في حقول الرسالات قد هبط الى ٣٠٠ مرسل لا غير وقد خلخل عملهم الديني ، تدخل التجار والحكومات التي تدعي المسيحية ، ومن جهة اخرى ، سوء ظن اسباب البلاد هؤلاء المرسلين ، اذ نظروا اليهم نظرتهم الى جواسيس يعملون عيوناً على البلاد واهلها ، بل اعتبروهم طابوراً خامساً يعد العدة ويهيء الاسباب للغزو والفتح مسلح . لهذه الاسباب ولغيرها مما لا مجال لذكره هنا ، كان عمل المرسلين في البلاد التي عملوا فيها ، اشبه ما يكون مساً سطحياً اكثر منه توغلاً او تغلغلاً . والاغرب من هذا كله وادهم ما في الامر هو ان تكون هذه الرسالات سجلت اكثر من ارتدادات فردية ، فقد توصلت الى تأسيس مجتمعات مسيحية لها حياتها ونشاطها الزاخر وعوامل بقائها وديمومتها .

الفصل الأول

الاكتشافات الأوروبية في القرن الثامن عشر

في مطلع القرن الثامن عشر كانت مساحات شاسعة في جميع اطراف العالم لا تزال بعد مجهولة مغلقة، منها مثلاً المحيط الهادي والاصقاع القطبية ومجاهل افريقيا والقسم الشمالي والشرقي الشمالي من القسارة الآسيوية ، والشمال الغربي من القارة الاميركية واجزاء واسعة في اميركا الجنوبية . هنالك شعوب وأقوام وطنيون تعرفوا إلى مساحات واسعة ولوصلوا احياناً الى وضع خرائط ومصورات جغرافية . إلا أن معلوماتهم هذه لم تكن من الذبوع والشمول بحيث تصبح في متناول كل شخص في كل زمان وفي كل مكان ، لافتقارها أساساً لعلامات هادية ومعالم واضحة الحدود ولحاجتها إلى وسائل حسابية ذائعة ، ولافتقارها لعلم الفلك والرياضيات الفلكية . فقد كانت بالأحرى، مسائل روتينية تحفظ بالمزاولة والمراس في هذه الاسفار والرحلات تحت اشراق مرشد مجرب ودليل محنتك . فالأوروبيون وحدهم كان في مقدورهم ، بفضل ما توفر لهم من علماء الفلك وبفضل ما تم لهم من عدة وأدوات ، أن يحددوا ، بالدقة المطلوبة، الاكتشافات الجغرافية التي حققوها وأن يشيروا إليها بواسطة الاحداثيات الجغرافية وغيرهما من وسائل التعمين والتحديد .

كانت الاكتشافات البحرية ، حتى عام ١٧٦٣ قليلة العدد ، إذ كان الأوروبيون في الغرب منهمكين عنها بالأعمال التجارية . وهذه الحركة الاستكشافية التي لم تتميز على العموم بالنشاط ، تناولت الكشف عن مناطق تقع في اليابسة أو في البحر ، فالرحلات الرئيسية هي التي قام بها الروس فحملتهم الى أقصى أطراف سيبيريا . فقد بلغ القوزاق ، في القرن السابع عشر ، مشارف المحيط الهادي ولكن كان عليهم أن يأتوا بالدليل القاطع على ان آسيا لم تكن لتتصل فعلاً بأميركا . وقد اخذ القيصر بطرس الأكبر عام ١٧٢٠ ، بهذه المغامرات الجغرافية وهذه الحركة الاستكشافية ، رغبة منه في السيطرة على هذه الاصقاع النائية ، ومجاراة للغرب في ميدان الكشف العلمي . فقد حالف الحظ البحار الدانماركي بهرينغ ، في الكشف عن المضيق الذي يحمل اسمه ، منذ عام ١٧٢٠ ، ثم راح يستكشف تباعاً سواحل اميركا الغربية انطلاقاً من قبة جبل سانت ايلي فمار على الجزر الألوشيانية المنتثرة حباتها كمحبات سبعة طويلة ، وتوفي في إحدى

جزر بحر بهرينغ الواقعة بين الجزر الالوشانية وشبه جزيرة كمتشكا ، سنة ١٧٤١. ويمكن أحد نوابه ومساعديه النشيطين من الكشف عن بحر او كوتسك ، عام ١٧٣٣ ، كما استكشف أرخبيل الكوريل ، وبلغ مشارف اليابان . أما على اليابسة ، فقد بلغت بعض فرق الجيش حوض مجرى نهر «الإيانا» عام ١٧٣٣ ، كما استكشفوا بواسطة زلاجات تجرها الكلاب ، شطآن المتجمد الشمالي ، كما قام «لابتيف» بين (١٧٣٦ - ١٧٤٠) وبرتشيتشف ، عام (١٧٣٥ - ١٧٣٦) بمغامرات بهذا الصدد . واخيراً بلغ تشيليووسكين عام ١٧٤٢ ، الطرف الشمالي لآسيا إذ أدرك الرأس الذي يحمل اليوم اسمه . وقد أثبتت هذه الاكتشافات الجغرافية المهمة ان القارتين منفصلتان تماماً الواحدة عن الاخرى وأن كل واحدة منهما تخفي ضمن حدودها مناطق شاسعة يتحتم الكشف عنها . وقد بقيت تقارير بهرينغ مدفونة بين المحفوظات الامبراطورية ليس من يفيد منها ولا من يلتفت بما فيها من المعلومات المفصلة حتى اواخر القرن الثامن عشر بعد ان كشف العالم الجغرافي «كوكس» والعالم الطبيعى بلاس عن اهميتها العلمية .

في اميركا الشمالية ، استمر أفراد اسرة «لافيراندري» الفرنسية تحت رعاية بوهارنيه حاكم كندا العام وحمايته ، في بحثهم عن الفراء ، ورغبة منهم في الوصول الى «بحر الغرب» ، رأوا أن يكرسوا كل نشاطهم باحثين منقبين محددين المسالك باتجاه الشمال الغربي ، فاستكشفوا في خلال ٢٠ سنة السباسب والسهول الكندية كما ان بيير وفرنسوا لافيراندري بلغا ، في غرة كانون الثاني ١٧٤٣ ، السلسلة المعروفة بالجبال الصخرية .

ورضع الكاهنان الفرنسيان فوييه وفريزييه كشوفاً وخرائط لاميركا الجنوبية مفيدة للغاية . وقام بالعمل ذاته المستكشف الاسباني كيروغا في ما يتعلق بالاصقاع النائية الى اقصى الجنوب المعروفة باراضي ماجيلان .

اما المحيط الهادي ، فقد شاهد رحلات استكشافية عديدة ، منها الرحلات البحرية التي قام بها بين ١٧١٤ - ١٧١٨ ، البحار الفرنسي لابارينه لوجنتيل والبحار الالماني الاصل «روغجيفن» من مدينة مكلنبورغ اذ قام في هذا المحيط ، برحلات لحساب البلاد الواطئة ، عام ١٧٢٢ ، استكشف معها جزيرة الفصح ، وجزر يوموتو وساموا ، والرحالة الانكليزي أنسون (١٧٣٩ - ١٧٤٣) الذي احتجز ، في المياه الاسبانية سفينة عليها مجموعة من الخرائط والمصورات الجغرافية ، فكانت لقطة موفقة للغاية إذ اعتاد الاسبان والبرتغاليون من قبل ، أن يبقوا سرا ويخفوا عن اعين الناس ، سر الاكتشافات البحرية التي وفقوا إليها محافظة منهم على طرق مواصلاتهم التجارية . وقد سهل نشر هذه الوثائق الهامة وإذاعتها على الملأ ، مهمة الاستكشافات الجغرافية في النصف الثاني من القرن الثامن عشر .

لم تلبث حركة الاستكشافات الجغرافية التي توقف نشاطها اثناء الحروب التي وقعت في منتصف القرن - ان استأنفت اعمالها العلمية بعد عام ١٧٦٣ . فقد جاب هيرن وماكنزي ،

بطائح شمال كندا . فبلغ الأخير منها ، عام ١٧٨٩ ، دلتا النهر الذي يحمل اسمه في هذه المنطقة . اما الاكتشافات الداوية فهي تلك التي قام بتنظيمها واعداد اسبابها الحكومتان الفرنسية والانكليزية ، في سبيل الوصول الى القارة الاسترالية (او الجنوبية) التي صافى عنها العلماء ، منذ بطليموس ، يفترضون وجودها مقابل هذه الكشوف القائمة في الشمال . وقد زاد الفضول العلمي بين الناس وحسب الاطلاع ، كما ينوء بذلك السكاكيب والمؤرخ الفرنسي شارل دي بروس ، في كتابه الموسوم : « تاريخ الاسفار البحرية الى الاراضي الاسترالية » (١٧٥٦) ، اذ يقول : « يجب الا نغفل اهمية كبرى على الفوائد التي تنجم عن هذه المغامرات ، فهي ستظهر ، ولا شك ، فيما بعد . علينا ان نفكر الان بالناحية الجغرافية ، وبهذا الفضول العلمي الناجم عن الكشف وما سيضيفه الى العالم المعروف من اراض جديدة ، كانت بالامس مجهولة لدينا ، كما ستتمكننا من التعرف على اقوام جديدة » . وقد عمل جون كالندر (J. Callender) من جهته على نشر مثل هذه الأفكار ، في انكلترا ، ممبراً عن امانيه واماني الجيسع بان يقول هذا النشاط كله فيساعد على نشر المسيحية بين سكان البلاد الأصليين . وقد وضع الملك ، في هذه القرارات التي اتخذوها ، نصب أعينهم ، شغف الناس بالعلم واقبالهم على حياته . فقد اوصى الملك لويس السادس عشر ، امراء البحر الفرنسيين ، اذا ما اتفق لهم والتفوا بالبحار الانكليزية كوك الذي يحاول مد العالم المعروف ، خلال حرب اميركا ، ان يماثلوه معاملة النند للند ، كصديق ورفيق لهم . ولما كان الهيام بالعلم من الامور التي استعجكت بالقبول واستبدت بالقلوب ، وتحدثت الامال المربضة على اكتشاف اصقاع جديدة ، حصر من الحكام على ان يحافظوا كرامتهم ويصرون عندم ماء الوجه . واخيراً ، كما يجب ان تكون والمرة التي هذه القارة الجنوبية في نظر الفرنسيين ، فيموضوا بمشورهم عليها ، عن الحيف الذي زل بهم من جراء خسارتهم الهند ، كما هم الانكليز ان يحافظوا ، من جهتهم ، على السبق الذي حققوه في الميدان التجاري .

وقد اشدوا يُبعدون الحملات الاستكشافية بمنتهى الدقة ويحيثوا لها الابواب الكلية بالبجاء . فبدلاً من التعويل على الاقاييل والروايات المتواترة ، راج قادة الحملات وربابتهما يترددون بمعلومات دقيقة وضما ليقف من العلماء المدققين بعد ان لفتوا انظارهم الى المراقيل والصموبات التي تملأ من سبلهم ، وطريقة مواجهتها بالتي هي أحسن ، والاهداف التي يجب ان يضمروها نصب أعينهم من هذه المغامرات العلمية . وقد اصطحبوا معهم فريقاً مجرباً ، حنكته التجارب من هؤلاء العلماء ، بينهم علماء الفلك والاطباء وعلماء التاريخ الطبيعي وأمدتهم بادهن ما استلبطه العلم من هذه الأدوات ودقائق هي غاية في الدقة والضيطة . وعند رجوعهم الى اوطانهم كانوا يحرصون على اذاعة ما تم لهم من معلومات جديدة ليبيد منها من يرغب فيها .

اعتمد قباطنة البحار بالبحري ، سفناً صغيرة الحجم سعتها بين ٣٠٠ - ٤٠٠ برميل وذلك تعادياً منهم لأخطار اللثوب في الرمل أو الخنوخ الى الشواطئ أو الفرق . وحرصوا على ان

تكون سفنهم هذه متينة قوية ، أردفوها بعدد من قوارب النجدة ، كما حرصوا من جهة أخرى ، على تأمين أسباب الصحة واختزان مبيدات الحفر ، وموتونها بالجملة والشوكروت ، وهكذا حاولوا خفض نسبة الوفيات . ففي حملته الثانية التي استمرت ثلاث سنوات ، لم يخسر كوك سوى بجار واحد ، وبسبب المرض .

واتخذت احتياطات شديدة أثناء الرحلة . فقد كانت البعثة تتألف جهد المستطاع ، من سفينتين تسيران على بعد مدى الصوت ، الواحدة من الأخرى . وكانت تكثر فيها اعمال الرصد الجوي ، كما تكثر عمليات تحديد المواقع وسبر الأغوار على اعماق مختلفة . فعندما تلوح في الأفق معالم ارض ما ، مهما دقت او رقت ، كانت السفن تسير الهويناء متمثلة في سيرها الوئيد فتقوم بعض القوارب بعملية استكشاف سواحل الجزيرة البادية للعيان . وكان التحفظ والحيطة القاعدة المتبعة مع أبناء البلاد ، اذ العرف المتبع هو ان تسير السفينة الهويناء الى ان يحين الظرف المناسب لمبادرة السكان الوطنيين واستئلتهم عن طريق هدايا صغيرة والتكسب عن كل عنف او شدة في علاقاتهم معهم .

وبفضل هذه التدابير الحكيمة واجراءات اللين لم تقع سوى كارثة واحدة هي التي راح ضحيتها الرحالة الفرنسي لايبورز الذي قتل عام ١٧٨٥ على يد بدائيي جزيرة فانيكورو .

وفي عام ١٧٦٦ ، ابحرت بعثتان على فارق بسيط الواحدة من الأخرى ، تألفت الأولى وهي انكليزية ، من البحار والتيس وكارتريت ، كما تألفت الثانية من البحار الفرنسي بوغانفيل . فلم يعم البحاران الانكليزيان ان افترقا فانفصلا إثر إعصار أھوج عبث بهما إثر اجتيازهما مضيق ماجلان بقليل . فقد اتجه واليس صوب جزيرة بوموتو ، واكتشف عام ١٧٦٧ ، جزيرة تاهيتي التي فتلته بسحرها وغادرها والدموع ملء عينيه ، ومنها بلغ جزيرة ساموا وارخبيل الاصدقاء ، كما اكتشف جزر الماريان . اما كارتريت ، فقد امر بمعاذاة جزيرة بتكيرن الصغيرة ومنها افضى الى جزيرة سانت كروي ، وعرج على جزر سلون واستكشف جزيرة إرلندا الجديدة . واتضح من هذه الرحلات ان جزيرة بريطانيا الجديدة انما تتألف من جزيرتين : اما نتائج هاتين الرحلتين فلم يحد من التوفيق الذي صادفها سوى عدم كفاءة الإعداد الذي رافقها . وقد اضيفت بواسطتها اسماء جديدة على خريطة المحيط الهادي . اما بوغانفيل ، فقد انطلق وبصحبه احد علماء الفلك ، وآخر من علماء الطبيعة وتحته تصرفه عدد من الساعات الدقيقة التي تقيس الثواني . ففي عام ١٧٦٨ ، حدد موقع جزيرة بوموتو ، واستكشف ، هو الآخر ، جزيرة تاهيتي التي فتنته بسحرها وسها سيتر الجديدة . واستكشف جزر ساموا وجزر السيكلاد الكبرى التي اطلق عليها كوك ، فيما بعد اسم هبريد الجديدة ، وجزيرة لوزياد وغينيه الجديدة ، وعاد عن طريق جاوا وجزيرة فرنسا . فكانت رحلته هذه اول رحلة جاءت غاية في الدقة العلمية جرى فيها تحديد خطوط الطول . وفي سنة ١٧٧١ ،

نشر بوغانفيل رحلته بعنوان : « رحلة حول العالم » لقيت عند ظهورها رواجاً جنوبياً أوحث اموراً لديدرو ولهردر .

ولكن هؤلاء البحارة الذين سيطرت عليهم فحيرة المستعمرات الحارة التي تؤولف بجبالاً تجارياً هاماً ، التجهوا ، بعد ان داروا حول اميركا الجنوبية نحو الشمال الغربي ، الى ما وراء خط الجدي ، ثم داروا فجأة باتجاه الغرب ، محتفظين بحل نشاطهم للشمال . وقد جاءت رحلاتهم هذه بفوائد جمة الا انها تركت دون حل ، مشكلة كبيرة استأثرت بافتكار الناس ووساوسهم . هل يوجد يابى قارة اوسترالية جنوبية ؟ وهذه الارض التي اكتشفها تسهان ، في القرن السابع عشر (زيلاندا الجديدة) لم تكن هي نفسها هولندا الجديدة ؟ (ساحل اوستراليا الغربي) وهذه الاخيرة هل هي سلباً ام ايجاباً ، غيلية الجديدة . كل هذه الأسئلة كان على الرحالة الانكليزي كوك ان يجيب عليها بما لا يدع مجالاً للشك .

قررت الاميرالية البريطانية ان توفد الى جزيرة تاهيتي ، بعض علماء الفلك ليقوموا عليها ، عام ١٧٦٩ ، بأرصاد جوية ترمي الى درس وقوع اقتران الزهرة والشمس ، بغية لتحديد المسافة بين الزهرة والارض . واختارت الاميرالية قائداً للحملة جيمس كوك ، وهو اختيسار في محله صائد فريسي حاراً . فقد كان كوك بحساراً بدمه . ولد عام ١٧٢٩ من أب كان يعمل خادماً على الممرات ومن أم هي ابنة احد المزارعين . عمل في صباه صانعاً متمرناً في مدينة صغيرة تقع على الساحل . مال للحياة البحرية منذ صغره فتطوع بحاراً متمرناً على احدى السفن العاملة في شحن اللحم ، وفي سنة ١٧٥٥ ، عمل لوتياً في البحرية الملكية . ولحق اسمه في حملة استكشاف لمصب نهر سان لوران ، أطاحت للأسطول البريطاني التصعيد في النهر . المذكور واحتلال مدينة كوبيك . ولذا عهدت اليه في السنوات الأربع التالية مهمة استكشاف سواحل كاديا (ايكوسيا الجديدة) وجزيرة الارض الجديدة ، وشبه جزيرة لابرادور . ووضع لهذه الأماكن والمواقع خريطة امتازت بالدقة بقيت عماد الخرائط التي وضعت فيما بعد لهذه المناطق . وهكذا فقد كانت تمت له الدربة الكافية لرسم الخرائط الجغرافية والمائية ، كما تفرس بالأرصاد الفلكية واجادها . وقد عرف بانظرائه على نفسه وبفلة بحالته للبحارة ، كما انه امتار بمناف عديدة جعلت منه بحاراً ممتازاً وأولته قدرة ظاهرة على التنظيم ، كما تعرف بروحه الإنسانية السمحاء وبمحبته على البحارة والاهتمام بذريعتهم وتأمين أسباب الصحة والرفاهية لهم . ولذا فقد كان في مكنته ان يعمل عليهم وان يطلب منهم الكثير .

عهدت اليه عام ١٧٦٨ ، مهمة البحث عن القارة الاوسترالية حتى الدرجة ٤٠ من خط العرض الشمالي ، وان يقوم ببحث دقيق بهذا الصدد ، فان لم ينبجج ، عليه الاستيثاق من المنطقة الواقعة الى الشرق من زيلاندا الجديدة ، فراح يستعد لرحلته هذه ويهيئ لها أسباب النجاح ، وفي هذا السبيل اخذ يجمع المعلومات التي توفرها له الرحلات البحرية السالفة . فقد كان يعرف تماماً خريطة المحيط الهادي العامة التي تم رسمها عام ١٧٥٦ والتي اشار فيها روبرت دي فوغوندي

الى موقع مضيق ثوريس الذي اُهمل امره منذ عام ١٦٠٧ وهو موقع جغرافي اشارت إليه ونوهت به الخرائط السرية الاسبانية . ولم يكن ليجهل بالطبع في هذا المضيق التخطيط المقترض وجوده في الخريطة المنسوبة وضعا الى دال الربل ، والذي عرف بوجوده عند استيلائه عام ١٧٦٢ على مدينة مانيل هذه الخريطة التي لم يشأ ان يلشبرها كاملة . فقد رفض سفينة حربية واختار له مركباً من ناقلات الفحم هو الاندفر ، وهو مركب بطيء الحركة ، إنما قوي متين يتسع لوسق وافر ويتحمل رحلة طويلة شاقة . واصطحب معه العالم الفلكي غرين والعالم النباتي ، الاسوجي الاصل سولاندر ، والعالم الطبيعي بنكس . انطلق عام ١٧٦٨ وقام بمهمة العلمية الفلكية في تاهيتي (نيسان حزيران ١٧٦٩) ثم اتجه غرباً صوب خط العرض ٤٠ دون ان يعثر على القارة الاسترالية لاسباب لها ما يبررها . ودخل في السابع من تشرين الاول ١٧٦٩ الى ساحل زيلاندا الجديدة الشمالي ، ثم قام بحركة التفاف كاملة ولاحظ ان هذه الارض تتألف من جزيرتين يفصل بينهما مضيق يعرف بهذا الاسم ، ووضع خريطة مفصلة لهذه السواحل . ثم اتجه فيما بعد ، الى جزيرة هولندا الجديدة ، ووصل الى الساحل الشرقي وقام بعملية استكشاف دقيقة امتدت من رأس إيفرارد إلى رأس يورك ، اتسعت ١٦٠ ميلاً ، دعاها مقاطعة غال الجديدة الجنوبية ، ونزل الى البر في ٢٨ نيسان ١٧٧٠ على صعيد مرتفع ملتف الاشجار كثير المشب ، شجع بنكس على تسميته : خليج بوثي . وهكذا تمت له احسن صورة للمكان الذي ارتفعت فيه ، فيما بعد مدينة سدني ، ثم جاء باتافيا عن طريق مضيق ثوريس ، فاستكشفه من جديد بصورة ادق . وفي عام ١٧٧١ عاد الى اوروبا حيث كان لرحلته وقع كبير .

وقد سلم بأن القارة الاسترالية قد تقع الى الشمال او الى الجنوب من الطريق التي سلكها . وعاد اللورد سندويتش ، لورد الاميرالية ، فأرسل كوك في رحلة ثانية فانطلق يوم ١٣ تموز ١٧٧٢ ، قبل جوف الملكة شارلوت في زيلاندا الجديدة . ومن هذه النقطة كان بإمكانه ان يقوم بحركات استكشافية الى الشمال او الى الجنوب ، ليعود اليها عندما يشاء ، ليتيح لبحارته بعض الراحة والاستجمام من وعناء الاسفار والرحلات التي يقومون بها متعرضين تارة لزمهرير البرد القارس في المياه القطبية ، وطوراً لحجارة القبط اللاهب في المناطق الاستوائية . فتحرى كل زاوية من المحيط وقطع في ٢٨ شهراً ٨٠ ألف كيلومتر في المحيط الهادي ، واعترضت سيره جبال الجليد الطافية عند الدرجة ٧٠ والدقيقة ١٠ من خط العرض الجنوبي ، في كانون الثاني ١٧٧٤ ، وبلغ في الشمال ، جزيرة تاهيتي وجزر الماركيز وجزر الهيريد الجديدة ، واستكشف كاليدونيا الجديدة وجزيرة نورفولك ، واثبت ، بقوة احتمال غربية والدليل القاطع انه ليس من قارة جنوبية .

عهد اليه بمهمة ثالثة للبحث عن ممر مائي يصل المحيط الاطلسي بالمحيط الهادي عبر الدائرة القطبية وهو الممر المعروف بالممر الشمالي الغربي . فشرع عن ساعده ليقوم برحلة ثالثة عام ١٧٧٦ ، فاكشف عام ١٧٧٨ ، ارخبيل سندويتش (هاواي) واستكشف بحر هيرينغ والمضيق المعروف

بهذا الاسم ، وصرف النظر عن المر الشمالي الغربي الذي لم يصبح تحقيقه ممكناً ، انما بصعوبة كلية ، بعد ظاهرة ارتفاع درجة الحرارة فيه في السنوات الاخيرة . وهذا البحار الذي كان دوماً مثلاً يحتذى من اللطف والايناس ولين الجانب مع ابناى البلاد الاصليين وجد حتفه وميتته المفجعة في اصطدام دام مع سكان جزيرة سندويتش عام ١٧٧٩ .

فقد خلف كوك خرائط تثير الاعجاب لما اتصفت به من دقة لا تختلف عنها الخرائط الفرنسية ولم تكن بحاجة قط الا لبعض إضافات طفيفة .

فقد كان من نصيب الرحالة الفرنسي لايروز ان يقوم بهذه المهمة . سافر بأمر الملك لويس السادس عشر ، فقاد مرفأ بريست عام ١٧٨٥ وبصحبه كوكبة من العلماء البارزين . فأثبت عام ١٧٨٦ انه ليس من ارض مهمة تقع الى الشرق من ارخبيل يوموتو وجزر الماركيز وصحح موقع ارخبيل سندويتش لجهة خطوط الطول . ثم وضع رسماً دقيقاً لسواحل اميركا بين الدرجة ٦٠ والدرجة ٣٧ من خط العرض الشمالي ابتداء من جبل سانت ايلى حتى مونتيريز في الجنوب ، وراساً الخرائط ودارساً النباتات البحرية والقارية . وفي تشرين الثاني اخذ له بعض الراحة في هاكاو ، ثم اتجه عام ١٧٨٧ ليستكشف سواحل المحيط الهادي الشمالية الغربية ، التي فات كوك استكشافها ، ووضع خريطة لسواحل منشوريا وأثبت ان سغالين هي جزيرة (آب ١٧٨٨) ومن هناك اخذ باجتياز المحيط من الشمال الى الجنوب بين ابعدين نقطتين بلفها وليس الى الغرب ، وكوك الى الشرق ، ووصل الى اوستراليا ، وصادف في كانون الثاني ١٧٨٩ ، في خليج بوتني عمارة انكليزية . ومنذ ذلك الحين انقطعت اخباره . فقد عُثر على بعض حطام سفنه ، عام ١٨٣٧ ، على مقربة من جزيرة فانيكورو .

وهكذا وُضعت الخطوط الكبرى لخريطة المحيط الهادي ، كما قضي تماماً على اسطورة القارة الجنوبية الكبرى ، وظهر ان القسم الجنوبي من كرتنا الارضية يتكون من مياه المحيطات واتضح ان مياه البحر تقطعي ثلثي مساحة كرتنا الارضية ، كما ان الأرض التي اكتشفت في الاوقيانوس الهادي وسعت بصورة مدهشة معلوماتنا عن الجلس البشري في مختلف مستويات الحضارية .

الفصل الثاني

اوقيانيا

آمن الاوروبيون بوحدة الجنس البشري الروحية وبسمو الحالة الطبيعية التي توجد فيها ، فازدادوا اهتماماً باقوام اوقيانيا البدائيين. وراح بوغانفيل وكوك يدرسانهم عن كثب ويراقبان سلوكهم وتصرفاتهم بكل عناية . فالأخوان نوستر اللذان ساهما في الرحلة الثالثة التي قام بها كوك ، وضعا مع العالم الفرنسي بوفون اصول علم الانواع البشرية وتصنيفها ، اي علم الاثنولوجيا أو علم السلالات البشرية .

ظن الاوروبيون لأول وهلة انهم أمام عروق بدائية تعود طبائعها الى بدء البشرية بعد أن وجدوا ان كل هؤلاء الاقوام لا يزالون بعد عند طبائع العصر الحجري ، وان ما لديهم من عدة وادوات هو اقرب الى ما عرفه الانسان منها في عصور ما قبل التاريخ . ولم يكن الامر يتعلق فعلاً بالبدائيين أكثر منه باقوام خضعت طويلاً لعوامل التطور والارتقاء هرب بعضها نوعاً من الحضارات العليا ، فكانوا في مرحلة التقهر والارتكاس عند وصول الاوروبيين اليهم .

والظاهر ان كل هذه الاقوام تعود اصولها الاولى الى العروق البشرية في آسيا الجنوبية ، علبت على أمرها فجعلت عن اوطانها مترسمة سير قواطع الطير في هجراتها الموسمية حتى اذا ما حطت رحالها في بعض الاصقاع المحدودة الانتاج والضيقة المحاصيل لانعزالها باكرأ عن الاقطار المأهولة في القارات الاخرى ، افتقرت في حياتها المعاشية ونظام غذائها للخضروات والتدييات^(١) ، كما ان ضيق الرقعة التي هبطوا فيها جعلتهم وجهاً لوجه أمام صعوبات كآداء نجم معظمها عن تضخم عدد السكان ونُدرة المواد الغذائية . فاشتبكت هذه الاقوام فيما بينها في حروب موصولة بمحاولة ايجاد حل لمشكلاتها الحادة : في الإجهاض ووأد الاولاد أو قتلهم ، وفي أكل بعضهم البعض بعد أن عضهم الجوع . والى مثل هذا الوضع كانوا انتهوا عندما أطل عليهم الاوروبيون من بعيد . وقد ارتعدت فرائص المستعمرين من احتمال ازدياد عدد السكان وتضخمه ، قراحوا بجلء اختيارهم يعملون على الحد من المواليد عندهم . فليس بغريب الا تتطور حضارتهم عكسياً وأن

(١) - لم يعرفوا في مواطنهم الجديدة هذه غير الحلد والايوسوم والخناثيش

ثعود القهقري . فاذا ما اخذنا بعين الاعتبار هذا النكوص والتقهر والعوامل المؤثرة الاخرى كالتجهين ، صح القول ان اوقيانيا انما هي « متحف للمروق البشرية » .

والاقوام الوحيدة التي يمكن وصفها بحق بانها اقوام بدائية هي اقوام التسمانيين والاولستراليين الذين كانوا في اسفل دركات الجلس البشري وأحطها على الاطلاق .

كان التسمانيون في الدرك الاسفل بين الجلس البشري . فبعد أن استقر هؤلاء القوم في جزيرتهم في عهد كان اجتياز مضيق باس ، يهون على اصغر بحار وأقلهم خبرة أو دربة بالاسفار ، اي ما يزالون في الطور الاوسط من الدور البليستوسيني ، قبل ذوبان الجليد الذي أدى الى الارتفاع منسوب مياه المحيطات وجعل عرض المضيق المذكور خمسة اضعافه ، فقد عاشوا في شبه عزلة تامة جعلت حضارتهم تأسن فتضمير فتجف فتموت . فقد عثر العلماء فيها على نحو ٥٠٠٠ من العرق شبه الزنجي شعرهم مفلقل والحنك ضخيم نافر والمجمعة مفلطحة هاربة والحواجب شديدة التقوس ، ألقوا اقرب حلقات الانسان السفلى الى القردة . وقد اتحد القويحف شكل اسفل السفينة فاصبح هذا الشكل من أهم الخصائص القردية المميزة . اما الادوات التي كانت تحت تصرفهم فقد جعلتهم في مصاف أدنى دركات انسان العصر الحجري القديم في غربي اوروبا . فقد جهلوا اللباس وأنكروا الاقامة والسكنى في المنازل ، وتغيا الشجر العريض الورق واعتاشوا من بعض النباتات وعلى ما تصل اليه ايديهم . من قنص وصيد دون الاستعانة بكلب صيد . اما نظامهم الاجتماعي فبدائي للغاية يوالون زعماء آيين يختارونهم لامد معين . قالوا ببقاء النفس بعد الموت ورهبوا جانب الموتى ، وبدت عليهم معالم ديانة عرفت بعض التسماني يشتم منها القول بالتوحيد ، وعبدوا الها أعلى غاصت علاقاته بالسماء والظواهر الطبيعية وهُتت . فزال كل اثر لهم ، في القرن الماضي .

وعلى دركة أعلى قليلا نجد بين الاولستراليين اقواما كانوا بمستوى الطور المعروف بطور *Moustier* في العصر الحجري القديم في اوروبا ، وهم عرق مزيج من عناصر على شيء من المحاكاة بشبه الاوروبى وشبه الزنجي ، من بشرة سمراء يكسوها شعر كثيف وحواجب مقوسة ، وجبين هارب الى الوراء ، ونبوء الحنكين ، والشفا الغليظة ، والانف الافطس الضخم . لهم دماغ ادنى وزنا بكثير وأقل تلافيف من دماغ رجل العرق الابيض .

ومع ان لباسهم مختصر فقد عرفوا كيف يبنون لهم اكواخا من الاغصان والحشائش كما توصلوا الى استلباط النار بالاحتكاك السريع الشديد بواسطة مثقب في لوح خشب ، اسلحتهم من الحجارة المشظاة ، بينا البونياني حجار المرؤ بشكل بُجاع الكف المضنومة . وبينها الرمح من العصر الحجري الحديث ، والمزراق وال *Boomerang* المشهور الا انهم جهلوا تماما استعمال القوس واللتشاب كما جهلوا صناعة الفخار . اما غذاؤهم فقد تكوّن من الخضروات وبعض الصيد والبيزاك والحزون الذي يعيش في المياه الحلوة ، والديدان والحردون والطير والكنفور وغيره من ذوات الاكياس مثل *Oppossum* وبعض انواع النعامة ، وقدرة على اللحاق بالكنفور والنفور ، يعدون

وراءه بالسرعة التي يعدونها . وكانت لهم حساسة شم شديدة بحيث يتبينون معالم الطريدة من استرواح رائحة الراب .

أما وضعهم الاجتماعي فكان على بدائية من التنظيم ، اذ كان للقبيلة زعمائها الدائمون هم الشيوخ فيها ، وقد اعتمدوا التزاوج من الاباعد ، لكل قبيلة مجالها الحيوي وهويتهم عن مجال القبائل الاخرى . وهكذا يكاد المرء يرى بينهم شيئاً من معالم الحق الدولي .

أما عقائدهم الدينية فقد كانت على شيء من التطور . فالاعتقاد ببقاء الارواح كان عاماً . واعتقدوا بأن في ممكنة نفوس الموتى ان تتجسد من جديد . وقد أثار مرأى هؤلاء الاوروبيين الحارجين اليهم من عرض البحار اجسامهم البضة وعيونهم البراقة بفضل ما هم عليه من تطور جهازهم العصبي ، الملح في نفوسهم فنظروا اليهم نظرهم الى اشباح أو خيالات . وقد ألفوا اكرام الموتى باقامة سلسلة من الطقوس الدينية تخليداً لذكراهم ، حتى ان بعض هذه القبائل كانت تحرص على أكل اجسام الموتى احتفاظاً منها لما فيها من مبدأ الحياة . وكانت لهم محرماتهم الطوطمية التي تمثل الخير المشترك يحتفلون بتكريمها بطقوس فيها الكثير من مظاهر التعظيم والسحر . وقد قال بعضهم بوجود إله خالد استحق الخلود في السماء بعد ان عاش على الأرض ، وباستطاعة المطلعين منهم على الاسرار ، الالتحاق به والانضمام اليه بعد الوفاة . وكانت هذه الاقوام متمكنة من أمور السحر ، ضالمة بأسرارها . ولكي يرقى الفتيان الى درجة الرجال ويصبحوا بالتالي صالحين للزواج ولممارسة بعض الوظائف الاجتماعية العليا ، عليهم ان يخضعوا لفترة من التلقين المعقد يضم في جملة ما يضمنه من امتحان ، قلع احد الاسنان القواطع من الفك الاعلى ، واقتبال الختان وتقديم بعض الرسوم وبعض الاقاصيص الخرافية التي لم تكن المرأة لتخضع لها .

اما الاقوام الأخرى فكانت على مستويات ارفع قليلاً كما يظهر . فباستثناء اقوام البابوس الذين تميزوا بأنثى أفتى ، محدودب كالمقار يجعل منهم بحق عرقاً اصيلاً لوحدهم ، يبدو . من دراسة اللهجات التي كانوا يتكلمونها ومن بعض العادات والاعراف الحسية التي كانوا عليها ، كهذه الزوارق المتخذة من جذوع الشجر المحوفة المجهزة بهزاز ان هؤلاء الاقوام ، شاركوا ، بالرغم مما بينهم من مفارقات جسيمة ملحوظة ، بحضارة اوقبالية واحدة كما انهم يعودون جميعاً الى محتد واحد . والراجح انهم خرجوا كلهم من ماليزيا وانساحوا الى الشرق ، في ارجاء المحيط الهادي ، وقد يكون بعضها بلغ مشارف اميركا ، كما ان بعضهم مطارح الى الغرب من كمبوديا ، والى سيلان ومدغشقر (كالهوفاس) على سواحل افريقيا الشرقية . فقد تكون هجرتهم وقمت بين القرنين الثاني والخامس للميلاد ، حتى بلغت موجة الاغتراب هذه مداها الاكبر بين ٩٠٠ - ١٣٥٠ للميلاد ، ثم خفت بينهم النزعة وضعف عندهم الميل الى الارتحال عبر البحار .

اما الميلانيزيون^(١) فقد كانوا على وضع حضاري يذكرنا باوضاع العصر الحجري الحديث

(١) - في جزر بيسارك وسلون ولوزياد وسنت كروز ، وهيريد الجديدة وكاليفورنيا الجديدة ولوياتي وفيجي وغينيا الجديدة .

المتطور . فقد كانوا أكثر تطوراً جسدياً : قليلي الشعر في الوجه ، مستقيمي الأنف ، قداماً
تقوست حواجبهم ، وكانوا أكثر تقنناً في حلبيهم وزينتهم . نساؤهم مكثرات من الوشم ، على شواء
في الرأس وفي البنية ، تلوين الشعر أو صبغه بالمقر ، وعقود واساور من الاسنان أو من الاصداق ،
وريش وزهور في الشعر .

كانت ادواتهم المنزلية على شيء من العناية والاتقان : فؤوسهم من الحجر المعقول ،
وسكاكينهم من الصدف ، ومبارد من خراشف السمك ومخارز من الذهب وغير ذلك من الاسلحة
المختلفة ، بينها القوس والمقلاع . فقد كانوا رجال بحر مجريين ، حذقوا صنع القوارب الكبيرة
وفن قيادتها كما كانوا مزارعين ماهرين ، يمزقون التربة بمصاً واحدة ويزرعون البطاطا الصينية
والتارو . عرفوا ضرباً من العملة أو النقد المتخذ من الارياش والاسنان يشكالبون على الربح كما
عرف بعضهم ان يجمع لروات عن طريق الذين بفائدة مائة بالمائة .

اما مجتمهم لمجتمع اساسه الأم . فالخمسال هو القيم على ابن الاخت . والرجال يأسعون
وينامون في باحة البلدة ، يعيش الجلسان الرجل والمرأة في شبه انفصال ، والزواج يتم بالشراء ،
كما ان الأغنياء منهم مارسوا تعدد الزوجات .

اما وضعهم السياسي فكان على شيء من الديمقراطية ، تلعب فيه الجماعات السرية دوراً
بارزاً ، وللأغنياء بينهم شأن بارز لقدرتهم على البذل بسخاء واقامة الحفلات وبلوغ المراكز
العليا . فكانت هذه الجماعات السرية تزرع الملع في قلوب من لم يدخل في عضويتها ، فيزرع تحت
الضرب والغرامات الفادحة حتى الموت .

اما اعتقاداتهم الدينية فقد كانت متأصلة إلا انها في مستوى ادنى مما كان عليه الاقوام الذين
اتينا على درهم والتي كانت ادنى مستوى حضارياً . فقد اعتقدوا بالمنا ، هذه الفضيلة او السجية
الفائقة الطبيعية ، المتوارثة . فالصيد لا يكون ماهراً إلا اذا تمت له المنا . وشرط النجاح في
الحياة ان تتم للمرء المنا . وباستطاعة السحر والسحر ان يؤمنوها لمن يرغب فيها . وبعض
مظاهر هذه المنا لا تخلو من الخطر على صاحبها ، واذ ذلك يتدخل التابو المحرم ، يستنزلونه على
الاشخاص والاشياء والاماكن التي يسكنها المنا او يقيم فيها . فقد آمنوا بوجود الارواح في
الحيوانات والحجارة والاشجار والافاعي ، انما لم يشركوا بالله الأعلى ، كما لم يقولوا بتعدد
الآلهة ، وآمنوا بحياة النفوس بعد الموت . يقومون بصلوات طقسية ويقدمون القرابين والذبائح
وينشدون الاناشيد المسجعة الملقاة وينقشون في الخشب صورة الجدد الأول الذي يحى في شخص
بنيه وذراويه .

اما الميكرونيزيون^(١) فقد كانوا شديدي الشبه بالميلانيزيين ، انما على شيء ارفع فقد كانوا
بمعارة ماهرين . وقام التجار منهم باسفار طويلة على قوارب مجهزة بهزاز ، مستخدمين في هذا

(١) - جزر الماريان وبالاو والكارولين ومارشال وجلبوت .

السبيل خرائط صنعت من قضبان البمبو أو الخيزران . قام بينهم طبقة من الاشراف واخرى من الارقاء . وكان زعمائهم يجزلون العطاء للبحارة الذين يتميزون بالخبرة وطول البساع . وكان بعض سكان هذه الجزر عرفوا خلال ادوار التطور التي مروا بها الشرك . وقالوا بعدة آلهة على رأسهم كبير الآلهة .

وفي قمة السلم الاجتماعي قام البولينيزيون^(١) هذا الفرع الثاني من اشباه الاوروبيين ، بينهم عناصر من اشباه الزنوج واشباه المنغل ، فارعي القامة ، مع ملامح اوروبية وأنف مستدق ، شعر أملس ناعم واللون حنطي . اما السمع فأرق مما عليه الاوروبيون ، بينما حاستا الشم والذوق عندهم مختلفان .

وهم بحارة لا يجارون يستطيعون ان يحويروا مساحات شاسعة يبلغ مداها ٢٥٠٠ كيلومتر دون ان يرسوا في مكان . وكان في مقدورهم ان يحددوا مواقعهم او نقطة وجودهم في عرض المحيط بواسطة القرع المثقوب . وعرف سكان ساموا وتنغا قوارب مزدوجة بلغ طولها ٣٠ متراً تستطيع نقل ١٤٠ راكباً . ولكل جزيرة عمارتها الخاصة من القوارب . وقد احصى كوك ٢٣٠ قارباً في تاهيتي وحدها بعد ان قدر سكانها بـ ٢٠٠٠٠٠ نسمة .

اما ادواتهم فكانت من ادوات العصر الحجري المصقول وبعض هذه الادوات قيد الاستعمال لدى اقوام الماوريس في زيلاندا الجديدة ، بدت وكأنها من المعدن . والذين يبدو لنا ان جدودهم عرفوا المعدن وصناعة الفخار . ومهما يكن ، فقد أصبحت هذه الفنون نسياً منسياً لدى البولينيزيين عند قدوم الاوروبيين اليهم . ومن الثابت ان ادواتهم هذه انما كانت من جنس ارفع واحسن مما كانت عليه في القرن الثامن عشر .

اما ملابسهم فقد اتخذوها من الكتان في زيلاندا الجديدة . وانقطع السكان في الجزر الحارة عن صناعة اللسيخ التي عرفها اسلافهم ليتخذوا بديلاً عنها صناعة لحاء الشجر يصنعون منه الفساتين المزركشة والكشاكش والمثلثات والمربعات . تزينوا بالريش اللامع والاوراق الرمحية الشكل ، كما اتقنوا ، الى حد بعيد ، صناعة الوشم .

اما منازلهم فقد قامت ، في الغالب على مصاطب من الحجر فُرشت أرضيتها بالحصر وتناوح طول بعضها ، في جزر الماركيز ، بين ٢٠ و ١٠٠ متر ، ووجدوا بين مفروشاتها كتلة لصد الثاموس وابعاده . وشيد الماوريس قلاعاً اتسع بعضها لبضعة آلاف أحاطوها بالحننادق والدرايزونات والشرفات المرتفعة الصالحة للدفاع .

وقد بلغ من تطور هؤلاء الأقوام ان قام فيما بينهم ، اسرات ضمت الواحدة بضعة مئات بين افرادها ، كانت تشبه الى حد بعيد ما عرفه الرومان من امر « الربيع » (Gens) او

(١) - موطنهم جزر ساموا والماركيز وتواموتو وتنغا وتوبواي وفيجي وزيلاندا الجديدة وماواي .

الـ (xenos) عند الإغريق ، وقد انقسم المجتمع عندهم الى طبقات سلسلة: الملك والنبلاء والاحرار والارقاء . وكان الملوك عندهم يتوارثون الحكم ابا عن جد وخلفا لسلف ، علا بسنة البكورة ، والملك عندهم يمثل الالهية ، وكان بالتالي مكرسا ومقدساً لا يمسه . اما النبلاء فكانوا اصحاب اخاذات وإقطاعات ، يسيطرون على المجالس والندرات ومناقشاتهما ، فهم يملكون كل الاراضي . فكانت عظامهم بعد الوفاة توضع في اماكن مكرسة ، اذ كانوا يتمتعون وحدهم بالحياة بعد الموت . وكانوا يختارون لهم زعماء محليين او إقليميين يتخذون القرارات المشتركة وهي قرارات كثيرة ما كانت عرضة للاستبدال والتحويل ، اذا ما جاءت جائرة او منافية للاصواب والرجال الاحرار بينهم كانوا يخضعون للرسوم المفروضة كما كانوا عرضة للسخرة .

اما عقائدهم الدينية فقد سوت عناصر براهمانية وربما ايضا فارسية وبابلية فقد آمن الماريس مثلاً ، باله سام ، خالد ، كلي القدرة ، عادل ، مسكنه السماء الثانية عشرة . وكانت هذه العقيدة على درجة عالية من السرية والتعديس بحيث ان سواد الماريس كانوا يفارقون هذه الحياة دون ان يدروا او يشعروا بوجود مثل هذا الايمان فيما بينهم . كذلك قام بينهم مجموعة من آلهة السماء ، وأخرى آلهة محليين ماواها ومبسطها الغابات وتتمثل في الحصاد والحرب والبحر والشر ، حولها حالة من الأساطير الميثولوجية تفسر هذا الكون . كذلك عدوا طائفة من الارواح تنفذت في المظاهر الطبيعية كما عرفوا عادة تكريم الآباء والجدود . والطبقة الكهنوتية ، التي كان اعضاؤها ينتفون من بين النبلاء ، كانت تحرص جداً على احترام أساطيرهم الدينية وصيانتها ، كما كانوا يقومون بالطقوس الدينية التي كان من بينها الذبائح البشرية . وقد كانت جزيرة خباطا المركز الرئيسي الذي كانت تجري فيه التقادير المشتركة بين سكان بولينزيا . وكذلك شاع السحر بينهم والمجوسية . وافسحت العقائد الدينية المجال لظهور شعر ديني طريف جزل - وفن النقش الذي بلغ منزلة محترمة ، وان لم يهتئ له ، في الغالب ، سوى قيمة ترفيهية .

اما الحروب فلم ينقطع حملها بين هذه الأقوام ، فكثيراً ما ادت الى اسراق الزرع والضرع ، وبقوم الغالبون باقتباس المغلوبين على امرهم فيما كانوا على ان يحتفظوا بقلب الأضاحي للزعماء .

ان اعتقاد جانب كبير من هؤلاء الأقوام باله اعلى ، سام ، يختلف كثيراً عن كبير آلهة المشر كين يميز لنا ان يتساءل ما اذا كنا هنا ، امام الر من آثار الوحي المدائني الذي صار الى هذا التحول او الانحطاط الديني الذي تروي لنا التوراة قصته ، او اننا امام ما تلقى من وضع سام توسلوا اليه بعد تطور طبيعي ، طويل النفس ، انطلاقاً من القول بوجود الارواح في الطبيعة ، قبل ان يعتري هذه الاقوام موجة من الركون والتقهقر .

فقد ساقط الاروروبيون على علاقاتهم السلبية في القرن الثامن عشر تجاه هذه الاقطار المثيرة

التي لم يحدوا فيها ما كانوا يتوقعونه عند هبوطهم اليها . ففي سنة ١٧٧٢ ، استولى القبطان كروزيه ، على زيلاندا الجديدة ، بعد ان دعاها باسم « فرنسا الاسترالية » . الا انه لم يقيم فيها اي مشروع استعماري . ولعل اول مشروع من هذا النوع هو المشروع الذي نهض به الانكليز في استراليا . ومنذ سنة ١٧٧٦ ، حالت حرب الاستقلال الاميركية دون استمرار الانكليز ارسال المجرمين المحكوم عليهم بالسجن الى فرجيليا . وفي سنة ١٧٨٦ ، قرر الحاكم الانكليزي ، إنشاء مستعمرة إصلاحية في خليج بُتني . وعلى الاثر وصل القبطان فيليب بناريخ ١٨ كانون الثاني ١٧٨٨ ، ينقل في عمارته ٧١٧ من المساجين ، بينهم ١٨٨ امرأة بحراسة ١٩١ من جنود البحرية و ١٨ ضابطاً ، ومعهم ثور و ٥ بقرات وكبش و ٢٩ نعجة ، فكانوا اول من رحل من الاوروبيين الى هذه المنطقة ، فالفوا بذلك النواة المتواضعة للشعب الاسترالي .

وراح الاوقيانيون القهري واخذوا سريعاً بالاضمحلال تدريجياً في القرن التالي ، إثر اتصالهم بالاوروبيين .

فهل كان من المقدر المحتوم ان يكون لهم مثل هذا المصير ؟ فالجواب على هذا السؤال ليس من اليسير . فقد رأينا اقوام الصيادين والقناصين والقطافين هنا ، كما في اميركا ، وفي اي محل آخر اتصلوا معه بمحضارات اسمى وأرقى تقنيا من التي عرفوها ، اخذ عددهم بالتناقص تدريجياً ، كما تخلخلت اعرافهم وعاداتهم دون ان يقتبسوا لهم حضارة أرفع . ووقع لهم ذات الشيء عند اتصالهم بالصينيين والاوروبيين ومع ذلك فقد دل هؤلاء الاقوام عن قوة ملاحظة غريبة وقوة تفكير بارزين حتى في هذه الموضوعات والافكار التي تبدو لهم غريبة . فقد ظنوا مثلاً ان العلاقات الجنسية لم تكن لتسبب وحدها الحمل ، بل ان مجرد مرور الزوجة بالقرب من كهف معين او من شجرة موصوفة تسكنها ارواح الجدود ينتقل في الحال اليها احد هذه الارواح وتتجسد فيها . وهذا الاعتقاد المخلوط نتج عن تفكير سليم . لا تكاد الفتاة الاسترالية تبلغ حتى تتزوج . وكان للرجال عادة عدة زوجات ونساء . وقد رأوا على ضوء اختباراتهم الحسية الطويلة ان العلاقات الجنسية التي كانوا يقيمونها مع نساءهم لم تكن لتعطي دوماً نتائجها وثمارها مع الجميع اذ تبقى المعاشرة الجنسية عند بعضهم بلا نتيجة او ثمرة . فما الذي يعنيه يا ترى مثل هذا الوضع ؟ فهو يعني ان العلاقات الجنسية في الزواج ، كانت تمهد او توطئ للعجل على ان تقارن العملية بشيء آخر يتم الحمل معها . فالعلاقات الجنسية كانت شرطاً اساسياً ولكنه شرط غير واف بالعرض حتماً ، وهو تفكير صحيح من وجهة نظرهم .

فهل يا ترى ، عدم وجود مهرب لدى هؤلاء الاقوام ، او عدم وجود ما يرتاحون اليه لدى الاوروبيين ، منهم من الاتصال بالحضارة الاوروبية والامتزاج بها ؟ فالحياة اليومية لدى الاوروبيين قامت على جملة من ضرورات العيش ولزومياته الضاغطة بينها حياة الاستراليين اليومية كانت حياة حرة ، هينة ، ناعمة ، لا أسر فيها ولا ضغط . الا ان يحدث مثلاً شيء

طارىء ، مفاجىء يكدر عليهم صفاء الميـش الحـمـي كـا لو وقـعت ، مثـلا سـنة جـفـاف او مـواسـم عـجـفـاء . وأدهى ما كانوا يخشونه السحر وأفعال السحرة . فطبيعة الحياة لدى الاوروبيين لم تكن تسبب لهم سوى الملل والسأم والاشمئزاز . فاذا ما ارادوا ان يحافظوا على امراتهم ، ويستمرروا عليها في عشرة موصولة مع الاوروبيين ، لامتنع عليهم ذلك وتمذر ، لأن الاوروبي اينما حل ، أينما هبط في بيئة غريبة ، ألحق فيها البلبلة وزرع التشويش وقضى على ما فيها من سائمة وحيوانات تؤلف غذاء مستساغاً هند هؤلاء الاقوام ، كما ان وجوده يجلب لهم امراضاً وهلاکاً لم يكونوا ليعرفوها من قبل .

الفصل الثالث

آسيا

كانت آسيا تعاني فترة صعبة من الانحطاط . فقد تواقع تاريخها آنذاك - وسيبقى هذا الوضع قائماً بعض الوقت - مع هذا المراك الذي قام سجالاً ، بين اهل المدر واهل الحضرة ، او بين البادية والمدينة . فقد تألفت رقعتها الشاسعة من سهول وواحات ذات مناخ محرق لاهب ، كبلاء ما بين النهرين ، وسهول الهندوس والغانج وسهول نهري اليانغ - تسي والهوانغ - هو ، هذه السهول التي كانت مهداً لحضارات زراعية مشرقة ، حفت بها سباسب ومجاري آخذة بالجذب والجفاف تدريجياً ، تمور باقوام من الشعوب الرحلة ، يذرعون في ظعنهم يئنة او يسرة ، جيئة وزهاباً ، بلاد فارس والتركستان والتبت ومنغوليا ، شهدت من حين الى آخر ، غزوات دورية ماحقة ، قوامها اقوام من الرعاة اعتادوا ان يمشوا فساداً في المقاطعات الدائرية . وكان هؤلاء البدو في وضع زري ، ابدأ عرضة للجوع يقومون في سبيل العيش وسد حاجاتهم ، ببعض الاعمال التجارية يتبادلون مع سكان المقاطعات الدائرية ، في ايران والهند والصين ، بعض نتائجهم الزراعي ، ويقفون مشدوهين لما تقع عليهم عيونهم من غنى وثناء ، يتسقطون ما فيها من شوائب وعورات ومن مكامن الضعف والوهن : فتقع ابصارهم على شعوب ارضيتها الحارة الشديدة الرطوبة ، كما تقع عيونهم على امراء وملوك ترهلوا وماعوا لما هم عليه من عيش رخى وبذخ سخى او رقة مخلخل - قفشا بينهم التسري والقصف واقذع الرذائل . واذ ذاك ينهض زعيم مفتول المضل من بين زعماء هذه القبائل البدوية الضاربة في قلب الصحراء ، ويفرض سيطرته على القبائل الاخرى التي تشدها وشائج القرى او صلات الرحم ، ويخضعها لسلطانه ويقودها للفتح بعد ان تكون تفتحت شهوتها الجائعة واحتاجت ، وجاشت فيها الرغائب والاثرة ويستولي على السهول الدائرية الخصبة ، ويكفي ان يحالفه النصر مرة واحدة حتى تهوى الامبراطورية المتداعية للسقوط ويعلن نفسه « ملك الملوك » في بلاد فارس ، او امبراطوراً في الهند او في الصين . ثم يأخذ ، والنشاط ملء برديه ، والحماس يتمطى بين الضلوع ، ينفخ روحاً جديداً في الامبراطورية المهلهلة ويبعث فيها نهضة صادقة . ولن يلبث ابنه الذي لا يزال الدم البدوي يجري حاراً في عروقه ، والذي عرف ان يجمع في شخصه الشجاعة والحكمة بفضل ما تم له من تربية سياسية محكمة ، ان ينهض بالدولة الى الاوج .

الا ان اثر الاقاليم ، وحياء البلاط المرفهة ، وقتل الوقت وإضاعته في اللهو والعبث وعشرة نسائية في الحريم لا تلبث ان تترك فعلها المحلل واثرها المخلخل . ولن يمضي القليل حتى يسي حفدة الملك الفاتح.ملوكاً قعدة لا يأتون شيئاً. فاذا بالسلطة تنتهى من حيث لا يدرون ، الى ايدي من يترصدها باشتهاء ، من هؤلاء البرابرة الطارئين الطامعين .

فالى مثل هذه الصورة التي رسمنا للواقع المؤسف انتهت آسيا في القرن الثامن عشر . ففي ايران اخذت الدولة الصفوية بالانحدار والتدهور بعد ان استحكمت فيها الفوضى وأصلحت منها الجنود . اما في الهند ، فامبراطورية المغول تتداعى للسقوط تحت عنف الصدمات الصاعدة تنهال عليها من الخارج ، وردة الفعل الهندوسية من الداخل ، مما مهد السبيل لتدخل الاوروبيين الذين كانوا يتربصون لها ويرنون اليها باشتهاء . اما الصين فقد استطاعت ان تحافظ على مستوى رفيع تحت حكم اباطرة السلالة المدشوكية . هي السلالة التي تجاوزت شمسها السميت وبدأت تميل نحو المغيب . اما اليابان فنراها ماضية في عزلتها و منطوية على نفسها لا تنثني ولا تلتين ، وهي عزلة تسببت في انحلال المجتمع الياباني وتفسخه . فقد اخذ الاوروبيون يوسعون من علاقاتهم مع آسيا ، كما اخذوا بضمها تباعاً : الروس برأ ، من الشمال ، والانكليز والفرنسيون وغيرهم ، بحراً من الجنوب والشرق .

بلاد فارس والهند

في مطلع القرن الثامن عشر ، أخذت إيران ، في عهد الدولة الصفوية ، يساورها شكٌ ممضٌ ، في ذهاب هيبتها وانتقاص سلطتها . لقد عرفت هذه الدولة كيف تجعل من إيران ، في القرن السابع عشر دولة زاهية مزدهرة ، إذ استطاعت ان تعيد الى البلاد المجد الذي عرفته في عهد الدولة الساسانية . كذلك أخذت الدولة باسباب التجدد تقتبس من الاختراعات الأوروبية . الا ان الدولة لم تلبث ان أخذت تفقد قواها تدريجياً بانغماس ملوكها بالفساد . وكان آخر ملك من ملوكها هو الشاه ثاماسب الثاني ، ملك البلاد في مطلع القرن الثامن عشر ، فكان ملكاً مستبداً فاسد الاخلاق فظ الطباع قضى على الكثيرين من أمراء الاسرة المالكة وأغضب أعضاء قبيلته الخاصة التي كانت عماد جيشه وتمد البلاد بالمازعين . فليس من عجب والحالة هذه ان ينظر البدو في فلواتهم ، والبرابرة في معاقبهم الجبلية ، في الخارج ، الى هذه الدولة نظرة اشتهاا يتربصون بها الشدائد والمصاعب ، بعد أن رأوا عوامل الانحلال تزداد فيها قتلاً ، فانقضوا عليها واستباحوا باحتها .

وكان الأفغان أول من بادر بينهم الى شق عصا الطاعة ، بعد ان كانوا غلبوا على امرهم على يد مؤسس الدولة الصفوية ، ودخلوا في طاعته . فالافغان والفرس من محتد واحد . فقد عرفوا ان يحافظوا في جبالهم على فرديتهم المميزة بفضل هذه الوديان العميقة التي عصمتهم وهذه

المجازات والمعايير التي سهّلت لهم الاتصال ببعضهم البعض. وهم مسلمون سنّيون جاشت حفيظتهم بالكره والبغض للفرس، وهم على التشيع. والافغان من سكان الجبال ومن انصاف البدو، اخشوشنت طبائعهم وتعاطوا تربية الماشية يطعمون بها وفقاً لفصول السنة. احتقروا في الايرانيين حياة الحضر، وهؤلاء المزارعين المترفين الذين تفسخت أخلاقهم بالدنيا من الاعمال التي يأتونها كما ازدروا فيهم هؤلاء التجار الخطفة الجشعين. وفي سنة ١٧١٠، أعلنت قبيلة غلجيس احدى هذه القبائل الضاربة في قندهار، العصيان وراحت تزيل من طريقها الحاميات الفارسية المرابطة في البلاد الواحدة بعد الاخرى، داعية الافغان الى الانتفاض وعلان الثورة والتحرر من ربة الفرس. وراح أمير غلجيس هو الامير محمود يهاجم بلاد فارس الى ان قهر الفرس ودخل اصفهان منتصراً في ٢٢ تشرين الاول ١٧٢٢، وأعلن نفسه ملكاً. فما كان من الشاه ثاماسب الثاني ان فر ونجا بنفسه والتجأ الى مقاطعة مازندران، وهي ولاية معروفة بغاباتها الكثيفة وبما فيها من بطائح وغياض ومستنقعات.

وإذ ذاك أخذت قبائل البدو والدول المجاورة لبلاد فارس تنقض عليها من كل صوب. فراح التركان بقيادة أمير بُخاري يفزون خراسان. والروس الذين كانوا يرون بأنظارهم من معاقلمهم في استراخان الى الطرق التجارية بين الهند واوربا، عبر كابول وهراة، ومشهد وطهران وتبريز، لتتجه منها شمالاً، الى ارضروم وطرابزون، وجنوباً الى ديار بكر وحلب والاسكندرون، لم يعموا ان احتلوا تبعاً داربنت عام ١٧٢٢، وباكو عام ١٧٢٣، واطلقت معاهدة بطرسبورغ التي عقدوها مع إيران، يدم باحتلال ضفة بحر قزوين الجنوبية وداغستان وشروان وغيلان ومازندران واستراباد. واغتم الاتراك العثمانيون من جهتهم هذه الفرصة السانحة ليثاروا لأنفسهم مما لحق بهم في الماضي من خسف، فاحتلوا أرمينيا والعراق واذريجان، وراح الامير اشرف، وريث الامير محمود وخليفته الذي ربطته بالعثمانيين وحدة الايمان المشترك يتقرب من العثمانيين فاعترف بالفتوحات التركية وأعلن ولاءه للسلطان في القسطنطينية رغبة منه حمل اللقب الملكي الذي اعترف له به السلطان (خريطة ٣) وتمهد له باستئصال شافة الشيعة من البلاد، هذه الطائفة التي أعطت بلاد فارس فرديتها المميزة، بحيث ان كل شيء كان يدل على ان هذه الامبراطورية القديمة العهد اشرفت على نهايتها.

الا انها وجدت خلاصها على يد زعيم بدوي، تركي العرق والمتمد. كان يعيش عند أطراف خراسان، يدعى نادر شاه الذي أصبح بعد سلسلة متصلة الحلفات من اعمال اللصوصية والقتل والتشنيع والمخاتلات، زعيماً لقبيلة أفشر التركانية واستطاع كملوف العادة، ان يتغلب على إحدى القبائل ويفرض عليها سلطته، كما عرف ان يكتسب بموارفه السخية الانصار والمريدين، وقبل في خدمته كل رجال الحرب الذين يرغبون في المغامرات، وتمكن من اخضاع البطون والافخاذ التي تمت الى قبيلته افشر التركية بوشائج النسب. اغتم بين ١٧٢٢ - ١٧٢٦ مناسبة انهيار دولة فارس فبسط سيطرته على ولاية خراسان وبرهن عن مقدرة وحسن تدبير

عندما أعلن ولاءه للشاه تاماسب ، وبذلك أصبح محط آمال الفرس ومناط رجائهم . وإذ كان على جانب عظيم من الحزم والنشاط في بلاد عصفت بها الاهواء والمطامع وأصبح معها العرش متأرجحاً ، فقد أخذ بتنظيم الجيش وفرض النظام واحترام هيبة القانون ، وتمكن من التغلب على الافغان وأعاد الشاه تاماسب الى عاصمته مكرماً ، عام ١٧٣٠ .

غير ان الشاه والفرس كانوا يتوقعون منه ان يعيد الامبراطورية الفارسية الى سابق مجدها وسالف عزها . فالشاه يجب ان يكون غازياً فاتحاً . وكان الفرس متشبعين منذ نعومة اظفارهم ، من نصوص كتاب الملوك او الشاهنامه للفردوسي ، هذا الكتاب الذي له عند الفرس ما للابادة والاذنية من منزلة عند الاغريق . فاستقر في خلدن ان امتهن هي من اعرق أمم الأرض طراً ومن أقدمها على الاطلاق وبانها تملو الأمم الاخرى قدراً وسمواً وشأناً ، وان الله كتب لها السيطرة وقدر لها السلطان على سائر أمم الارض . ولذا كان من الواجب لشباب هذه الامالي الوطنية وتحقيق الاهداف القومية التي جاشت في صدورهم . ومن جهة ثانية ، فالتجار الذين كانوا يؤدون خدمات 'جلسى للملك بما يسلفونه من الدرام ، كانوا يتوقعون منه ان يعيد الى البلاد امنها الضائع لتصبح طرق المواصلات آمنة والاسواق سليمة ، حرة ، وبذلك تعود البلاد الى ما كانت عليه ، الطريق السلطاني الذي يربط شعوب آسيا بدول أوروبا ، كما تربط الشرق بالغرب . ثم كان على الشاه ان ينهض بالحرب بحيث يؤمن للمملكة الموارد اللازمة التي كانت الضرائب المفروضة على البلاد تقصر عن تأمينها ، فلا يلبث ان يرتفع فيها صوت التاجر منادياً بالويل والثبور وعظائم الامور اذا ما تأذت مصالحه قليلاً ، وحيث يسهل على البدوي التواري والتخفي كما يسهل على الفلاح مبارحة ارضه بيسر اذا ما تعرض للضنط . ثم كان لا بد لهذا الملك ولقيم قصره ان يشبع عن طريق الغزو مطامع اشياعه واتباعه ويحقق ما يرغب فيه افراد اسرته وعشيرته وبحاربه . ولذا بادر نادر شاه للجهاد ، فاسترجع خراسان من الافغان كما استعاد منهم ولاية هراة . واجبر الاتراك على التخلي عن العراق والانسحاب من اذربيجان وأريوان وقرص وما استولوا عليه من قلاع في القفقاس . وبموجب معاهدة القسطنطينية الموقعة عام ١٧٣٧ ، عادت الى البلاد الولايات التي كانت لها من قبل ، كما ان المعاهدة المذكورة ضمنت لها الاشراف على ارمينيا الشرقية . وبسط حمايتها على بلاد الكرج . وفي عام ١٧٣٤ ، اضطر الروس ، لقلة حامياتهم ، لاخلاء الاراضي الشاسعة التي وقعت بايديهم في شمالي ايران ، عام ١٧٣٣ . وفي غرة شباط ١٧٣٦ ، تمكن نادر شاه من خلع آخر ملوك الدولة الصفوية ونودي به ملكاً ، في احتفال مهيب في سهل موغان ، اشترك فيه زعماء الشعب وممثلوه بحضور قواد الجيش وعدد كبير من الضباط . فجاء اعتلاؤه العرش تنويحاً لهذا العمل المجيد الذي قام به بمد ان اعاد الى البلاد اجماعها الغابرة وانقذها من قبضة الافغان والاتراك والروس .

واذ كان آخر ملك الملوك عند الايرانيين فقد استطاع ان يوسع سيادة ايران في كل الاتجاهات ونشر الأمن على الطرق التجارية الكبرى التي تمر عبر بلاد فارس . فنقل عاصمة ملكه الى مدينة

خريطة - ٣ المراكز التجارية الكبرى في العجم

مشهد بحيث يتمكن من مراقبة حدود الامبراطورية ويصونها من عبث البدو الرحل في التركستان . وشيد على رأس إحدى قمم علاء - داغ ، قلعة نادرشاه المشهورة تحيط بها الوديان العميقة ، لا يُرقى إليها الا من معبرين ضيقين لا يزيد عرض الواحد منها على بضعة امتار ، واتجه عام ١٧٣٧ على رأس جيشه وهاجم الافغانستان التي تضم خير المعابر والمجازات الموصلة الى الهند ضيق خيبر ، والتركستان ، وفيها مضيق حاجي كاك ومضيق تدجن ، فاستولى على قندهار وغزنة وكابل واخضع لسلطانه كل القبائل ، فانفتحت امامه مداخل الهند . فاقتنع من حملته هذه على الهند بعملية نهب وسلب على نطاق واسع . وفي سنة ١٧٣٧ اجتاز نهر الهندوس ودخل مدينة لاهور على رأس جيش ضم اكثر من ٤٠ الف محارب ، وكسر شر انكسار ، في كرنال ، جيش المغول الذي تألف من ٢٠٠,٠٠٠ محارب بقيادة السلطان محمود ، ودخل مدينة دلهي واستولى فيها على ٧٥٠ مليوناً وبذلك اتيح له ان يُسقط عن الايرانيين الرسوم المترتبة عليهم لمدة ثلاث سنوات . ثم اعاد الحكم في الهند الى السلطان محمود . وباتجاه الصين ، هاجم التركستان ، عام ١٧٤٠ ، ولقن القبائل درساً بليغاً ، واجبر خان بخارى على دفع جزية فادحة واستبدل خان خيفاً بآخر ممن اعترفوا بالولاء له .

ثم فكر بادخال الحضارة الاوروبية الى ايران بعد ان خيم السلام على ربوعها . وجاءت حركته الاصلاحية شبيهة الى حد بعيد بالعمل التنظيمي الذي قام به القيصر بطرس الاكبر في روسيا ، بعد ان تهيأت له اسباب النجاح . افلم تكن ايران آرية الاصل والعرق وتمثل في القارة الآسيوية التي تسحق الانسان بضعفاتها واتساعها ، شيئاً من الانضباطية والاعتدال ؟ فالحضارة الايرانية ، مع كونها آسيوية في صميمها ، تعارض ، من حيث طبيعتها ، المسرحية الآسيوية بما تمتاز به من اعتدال في الحكمة واتزان في الانسانية وبما لها من قابلية تكاد تكون فرنسية ساعدتها على صهر العناصر المختلفة وصبها وافرغها في قالب اصيل . الا ان الزمن لم يهل نادرشاه اذ وجد حلفه مقتولاً ، عام ١٧٤٧ .

فما كاد يتوارى عن مسرح السياسة في بلاد فارس حتى دب الفساد في الامبراطورية الفارسية . صحيح ان ليس بين خلفائه من يصح مقارنته به ، كما ان اختلاف السكان وتباين العناصر في تلك البلاد لم يكن من شأنه ان يسهل مهمة هؤلاء الملوك . فإيران بلاد صحراوية الطابع تحيط بها الجبال من جميع الجهات . فمقاطعاتها الجنوبية والغربية ، امثال كرمان وفارس ولورستان وكردستان ، يقطنها اقوام ايرانيون في الصميم ويتحسون عميقاً اجماع الحضارة الفارسية القديمة ، مع العلم ان بعض هذه الولايات اندمجت فيها وانضمت اليها عروق جديدة كالعرب في اللورستان ، وبعض عناصر العرق الاصفر في الكردستان . اما الشمال فتألف سواده من العرق الاصفر المغولي والتتار والترك ، اذ ان جانباً كبيراً من الطارئ والغزاة الفاتحين والاقوام الرحالة استقر في هذا المجال الضيق الذي تحف به الصحارى الممتدة رقعتها المتأسكة من السنغال غرباً حتى نهر العامور شرقاً ، فتحل قلب قارات ثلاث ، على نصف الطريق من

اوروبا الغربية ومن شطآن اوروبا الشرقية ، وهي مناطق تصلح كثيراً بسباسبها الشاسعة ، للكر والفر والحركات الفرسان الخيالة وتنقلاتهم .

وهكذا بدت ايران خليطاً او مزيجاً من القبائل والاقوام . فقد اقتصر حكم نادرشاه على خراسان وعرفوا ان يحتفظوا بها متخذين من مدينة مشهد عاصمة لهم . وتمكن الافغان من استعادة استقلالهم ، والأتراك القرغز معظمهم قبائل بدوية من رعاة وقوافل ، والذين منهم خرج معظم قواد الدولة الصفوية ، ألفوا جماعات عسكرية سيطروا بها على الولايات الواقعة الى الشمال او الممتدة من ارمينيا الى افغانستان ، من حواضرهم الكبرى اصفهان واستراباد وقندهار ثاروا على السلطة وتمكنوا بالفعل من اعلان استقلالهم . واخيراً في الجنوب ، والى الغرب قليلاً ، حاول زعماء قبائل البختيار والزنده إقامة سلطة الايرانيين على الامبراطورية الفارسية . فقامت في البلاد دولة وطنية ، قومية هي دولة الزند ، استطاع رئيسها كريم خان (١٧٥٠ - ١٧٧٩) ان ينتزع من يد القرغز الأتراك ، مدينة اصفهان واذريجان والمازندران . وهكذا حقق وحدة ايران الغربية الممتدة من شواطئ بحر قزوين ، حتى مشارف الخليج الفارسي وجعل من مدينة شيراز عاصمة ملكه ، وعمل على تجميلها وشيد فيها مبنى تخليداً لذكري حافظ وسعدي ، اكبر واشهر شعراء الفرس طراً .

وعند وفاته ، راح آغا محمود وهو من قاجار الترك ، يعيد بين صحبه واتباعه ، قصة نادر شاه ، فأخضع لسيطرته الأتراك القاجار ، وهم بفتح بلاد فارس . فانتزع ، عام ١٧٩٥ ، من يد الزند ، مدينتي اصفهان وشيراز ، واستطاع عام ١٧٨١ ، ان يحمل الروس على الانسحاب من مازندران بعد أن كانوا احتلوا . ومنذ سنة ١٧٨٥ ، بلغ قوزاق الامبراطورة كاترين الثانية ، مقاطعة القوقاز حيث راح امير الكرج يقدم خضوعه للامبراطورة ، كما قدم لها املاكه الواسعة الممتدة حتى نهر الاراكس ، من ضمنها ثلاث قلاع هي تبليس وأريوان وكوتاي . وفي سنة ١٧٩٥ ، انقض عليه الشاه محمود فجأة وكسره شر كسرة ، وقام بمقتلة بين المسيحيين ، ثم اتجه شطر الجانب الآخر من الامبراطورية ، ينتزع من ابن نادر شاه ، ولاية خراسان فاستطاع بعد هذه الفتوحات الضخمة ان يعلن نفسه ملكاً ويتوج ذاك « ملك الملوك » ولم يلبث ان جاءت جيوش الروس لتنتقم لنفسها من المذابح الهائلة التي جعل من تبليس مسرحاً لها ، ودخلت بلاد الكرج والداغستان وشيروان . واجتازت نهر الاراكس ، وضربت خيامها في سهل موخان . وامر السطان آغا محمود يدافع عن مداخل البلاد وثغورها ، فلاقى حتفه مقتولاً ، عام ١٧٩٧ ، فكان موته إيذاناً بحروب طويلة مع الروس ، انتهت باستقرار الروس نهائياً الى الجنوب من بحر قزوين .

آل امر ايران في هذه الفوضون الى ايدي قبيلة تركية امنت لنفسها السيطرة على البلاد بسلسلة من الفطائع والمذابح سمحت الخوف في قلوب الاهلين ثم راحت تستقل البلاد وتستثمر

مرافقها على ايشع صورة . الا انها كانت اعجز من ان تعيد الى البلاد وحدتها . وفي سنة ١٧٩٥ ، انفصلت عنها افغانستان وبلوشستان وغربي العراق . كذلك عجزت عن ان تثنى لها وحدة قومية اذ استقبلها سكان العراق وفارس وكرمان بالازدراء ، والاستخفاف . كذلك كانت اعجز من ان توطد دعائم الحضارة من البلاد بعد ان زعزعت منها الاركان حرب جرت على البلاد ، خلال قرن من الزمن ، الحراب والدمار . فمنذ عهد نادر شاه نفسه ، بدت اعراض المخطاط ادبي قوية . فالآثار الفكرية والادبية التي تعود لهذه العهد ، تتسم ، على الاجمال ، بالغلو والاطناب والثروة . فقد عرفت بعض الفنون ان تحافظ ، الى حد ما ، على شيء من الازدهار الذي سجلته من قبل . فصناعة السجاد بقيت مزدهرة ناشطة حتى اواخر القرن . وفنون التحلية والوشى ، بقيت ضمن حدود المعقول والاتزان ، محافظة على ما عرف عنها من بساطة ومن منهجية روعيت فيها بدقة ، اسس النظام ، ومبادئ الإيقاع والانسجام التي ميزت الفنون الاوروبية كما امتازت بوفرة نماذجها الشرقية ، وبهذه الرشاقة التي تطبع الطراز المعروف بطراز لويس الخامس عشر ، كما امتازت بزركشة الالوان في اتساق وانسجام ، على انساب مقدورة ، تتناوح فيها الالوان بين الفاتح والناصع والفاقد انسجاماً من جانب هؤلاء الفنانين مع التقاليد والاعراف الآرية التي اعتمدت طويلاً في هذه البلاد . ولكن ما ان يطل القرن التاسع عشر بفرقه حتى تطل معه بوادر الانحطاط ، في كل مرافق البلاد . وهو المخطاط « يطالعك في الطرقات والمباني ، وسير العلوم والجيش والادارة ، ليشمل كل ما طلعت به بلاد فارس ، في عهد الدولة الصفوية - بلاد فارس هذه الغنية والصناعية بمثلة بشيراز واصفهان التي اثارت الاعجاب في نفوس الاوروبيين . كل ذلك المنحدر وهو الى الحضيض في عهد اترك طهران » .

تكون الهند عالماً بذاته ، تعزله عن باقي اجزاء القارة الآسيوية ، سلاسل ضخمة من الجبال الشاهقة ، عالم له خصائص حضارية مميزة ، استمدتها بما تناوح عليه من الارياح الموسمية الفصلية ، والديانة البراهمانية والنظام الطبقي الذي ساد تلك البلاد ، كما استمدتها من الاسلام الذي بسط سرادقه على سهول نهري الهندوس والغانج . فاذا ما ضربنا صفحاً عما بين الهندوس والمسلمين من نفرة وشحناء ، وضغينة وبغضاء ، فقد نشأ عن اختلاف المناطق الطبيعية وتباين الأحداث التاريخية ، عدد من التقاليد والاعراف والعادات والاخلاق المتباينة .

كذلك نشأ فيها مجتمعات بشرية متباينة كانت عماداً لدول وتكاثر لدويلات عديدة . وهذا السور الجبلي المحيط بالهند ، يقف مارداً لا يلين ولا يثنى الا في الشمال الغربي عند « ابواب افغانستان » التي تتكون من مجازات خبير ويغير وخوجاك وغفاجا ، هذه المنافذ بالذات التي تدافعت عبرها ، هادرة مزججة ، هذه الموجات الغازية من البدو الرحل التي استباححت الهند دون ان تبدل منها او تغيّر من ساهلها .

ففي مطلع القرن الثامن عشر ، كان المغول تحت حكم المغول الأكبر اورنكزيب ، يسيطرون على الجانب الأكبر من شمالي الهند ، والشرط الشمالي من الدكن ، كما ان القسم الجنوبي منه اعترف بالولاء لهم . فقد كانوا في تنظيمهم ونظامهم اشبه بمجيش اقام مضاربه وسط بلد ثم فتحه عنوة . وتألف الجزء الذي خضع مباشرة للمغول من إيلات *Soubabtes* ، وتقسم كل إيلة الى عدد من المقاطعات *Nahabies* يتولى الادارة في الاولى : سوباب ، وفي الثانية : ناباب ، يتخذون من بين كبار الموظفين . بيدهم السلطة الادارية والعسكرية يختارهم السلطان من بين عملائه المخلصين . ومن بين من اخلصوا له الخدمة والطاعة ، تحت إمرتهم قوة عسكرية للمحافظة على الأمن والنظام في الولايات ، ولتأمين جباية الضرائب وايصالها سالمة مضمونة الى خزائن السلطان . ولكل واحد من هؤلاء الحكام ، وكلاء عهد اليهم السهر على استتباب الأمن ، كما لكل واحد منهم عدد من الجند توزعوا بين القرى والحشود الكبرى في المنطقة . وقام في هذه الولايات بالذات ، امرام هنود اعترفوا بالولاء للسلطان ، كأمرام راجبوت مثلاً ، لم يكونوا ليرجعوا في شؤونهم وأموارهم ، للحكام المحليين او الاقليميين ، بل ارتبطوا في علاقتهم العامة ، بالسلطان مباشرة ، يدفعون له رأساً ، العوائد والرسوم المتوجبة عليهم كما ربطوا انفسهم تجاهه بحق الولاء والطاعة . وعلى مثل هذا الوضع كان الأمر التوابع في الجنوب . شد الأمرام بعضاً الى بعض ، وشائج وثيقة من الولاء ، بينما غامت فكرة الدولة عندهم واستدق مفهومها . فاذا ما فشا التراخي في السلطة وفي صاحبها ، واذا ما استمر السوباب والناباب في وظائفهم طويلاً ، قد يستحيل نظام الحكم عندهم الى شيء اشبه ما يكون بنظام الفدانة أو النظام الاقطاعي ، فيفضي الأمر الى سلسلة متعددة الحلقات من الرؤساء والاتباع ، فيحولون مقاطعاتهم الى إقطاعات خاصة . وهذا ما حصل خلال القرن الثامن عشر . وهكذا نرى ان كل الطبقة العسكرية هي عيال على الضرائب المترتبة على الفلاحين والمزارعين والتجار .

ان ضالة عدد المغول لدى وصولهم الى الهند ، وطبيعة الحضارة التي كانوا عليها دعتهم للاعتصام بالتساهل ولأخذ الناس باللين . فقد راحوا يستمعون بكل من أنسوا فيهم الرغبة بالتعاون معهم ، دون ان يبالوا كثيراً بفوارق العرف والدين . وهكذا عمل في الادارة ، تحت اشرافهم ، فرس واقفان وهندوس وراجبوت ، كما استخدموا ، في الجيش ، إقطاعيين مشهوداً لهم بفنون الحرب ، وفرساناً ماهرين . كذلك اقتبسوا الكثير من مختلف الحضارات التي قامت في الهند ، كما جعلوا من اللغة الهندستانية لغة الادارة ، وسادت اللغة الفارسية في البلاط الامبراطوري الذي اصبح مركزاً مرموقاً للاشعاع الثقافي الايراني في الهند . تميزت سياستهم باللين ، وحكمهم بالعدل والنصفة تجاه الفلاحين والهنود . وقد حاولوا جاهدين ان يتعاونوا باخلاص مع ابناء البلاد الوطنيين ، فحافظوا بذلك ، على استمرار الحضارة الهندية ، كما ابقوا المجتمعات الهندية على وضعها الطبقي الاجتماعي . وهكذا بدا وضع الفاتحين اشبه ما يكون كالزبد يطفو على سطح البحر .

فاذا ما استطاع اورنكزيب ان يوسع من مدى فتوحاته ، فقد عرّض للخطر سيادة المغول على البلاد . عُرف عنه تسكّه الشديد باهذاب الدين وبتعصبه المقيت ، وباحتراره وازدراؤه لكل ما هو غير مسلم . ولذا راح يكثر من اعمال المطاردة والسخرة يرزح تحتها رعاياه . وابتعد عن وظائف الدولة ، كلما استطاع الى ذلك سبيلا ، الحكام الهندوس ، والشيعية من الموظفين وأحسّلّ محليهم موظفين سُنة . وحدثته نفسه بحمل الهندوس على الاسلام بالقوة ، كما اصلى الهندوكيين اضطهاداً عنيفاً يفرض عليهم ضرائب خاصة هي الجزية . وحول معابدهم الى مساجد وأخذ بتعذيب رؤسائهم الدينيين . فلم تلبث سياسته هذه ان اثارت بين الهندوس ردة فعل اهاجتهم ضد المغول . كذلك كفّر بسياسته الهوجاء ، اشد الاتباع ولاء له حتى الراجبوت انفسهم الذين عرفوا بشدة بأسهم ، كما ان المراكز التي كانوا يحتلونها في هذه المقاطعات الخاضعة للاسلام والتي كانت تقضي بسالكيتها الى « ابواب افغانستان » جعلت منهم عناصر لا يُستغنى عنهم . فقد انتقض عليه الشيخ والمهرات . وبعد موته ، عام ١٧٠٧ ، تراخت قبضة سلاطين المغول على الهند واصبحت سيطرتهم عليها رخوة هشة ، وبقيت امبراطوريتهم قائمة بالاسم فقط . وقد استمر كبار الموظفين يحملون عندهم الالقاب التي حملوها من قبل معلنين ولاهم للمغول الكبير ، اما في الواقع فقد كانوا مستقلين . وكان من جراء الحروب التي نشبت فيما بينهم بغية الاستئثار بالسلطة ان جعلت ادارتهم خواء ، جوفاً ، وحكهم سلسلة من الاجراءات لا طائل تحتها . فلم يلبث ان أطل البدو من وراء الحدود ، لينقضوا كالشهاب الخاطف على الامارات الهندية يعملون فيها نهياً وسلباً قبل ان تقوم بردة فعل . فلا عجب ان تعود هذه الانقسامات الداخلية بالخير على الاوروبيين الذين كانوا يتربصون بها الدوائر ، فساعدتهم على فتح الهند واستعمارها .

ولم تلبث شدة المنافسة بين المطالبين بالعرش ان أدت الى المحال للسلطة في البلاد . وقام اولاد اورنكزيب الثلاثة يتنازعون فيما بينهم اطراف العرش ، ويقتتلون في سبيل تأمين صيرورته الى كل واحد منهم . وقد تم الامر نهائياً لابنه البكر بهادر ، واحتفظ بالسلطة حتى عام ١٧١٢ . وقام ابناؤه الاربعة ، من بعده ، بتجاذبون خلافة ابيهم فيما بينهم ، مما أدى الى قتل ثلاثة منهم ، فعاد الأمر لاصغرهم سناً ، المدعو ياهندر الذي اصبح المغول الاكبر فحكم البلاد سنة ١٧١٢ - ١٧١٣ ، الا ان ابن اخيه المدعو فاروق شير ، شق عصا الطاعة على عمه وتمكن من هزيمته وأمر بخنقه . ثم اعتلى العرش ، وتولى الحكم من سنة ١٧١٣ الى ١٧١٩ ، وانتهى الامر معه الى المصير ذاته ، على يد الهندوس الثائرين الذين نادوا بتابعاً ، ببعض ذراري اورنكزيب ، سلاطين على الهند ، فحصد الموت وراحوا فريسة للدسائس والثورات والمؤامرات الى ان انتهى الامر الى واحد منهم يدعى السلطان محمود ، الذي كان حكمه بين ١٧١٩ - ١٧٤٨ ، اشبه ما يكون بحكم الظل . وخلفه في الحكم ، في الظروف ذاتها ، السلطان احمد (١٧٤٨ - ١٧٥٤) ، وعلمجير الثاني (١٧٥٤ - ١٧٥٩) وعلم الثاني (١٧٥٩ - ١٨٠٦) فقد كانوا جميعاً ، باستثناء علمجير الذي سقط وهو يماهد ، باطرة ظل ، والعبوة بيد الاحزاب المتخاصمة ، يوزعون

الألقاب والفرامانات ، ذات اليمين وذات الشمال ، مهم الوحيد لباس الامر الواقع لباس الشرعية ، والتاج ينتقل من هامة الى اخرى ، وفقاً لميزان القوى والمزايدة في الثمن .

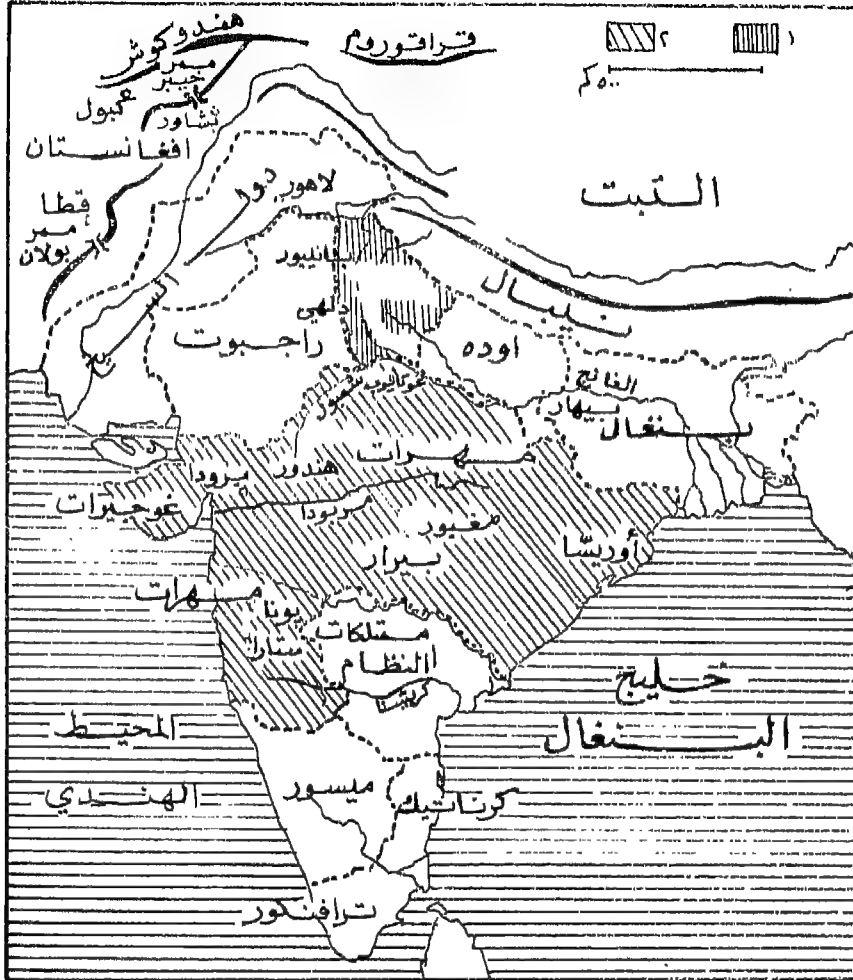
ولما كان هؤلاء المتنازعون على العرش ، والمطالبون بحق الخلافة بحاجة لمن يشد من أزرهم . فقد راحوا يستنجدون نصرته الجماعات الهندية ، ولا سيما الراجبوت منهم والسيخ والمهرات ، الذين تمكنوا من تأسيس ممالك وطنية ، جاء طلوها تعبيراً بليغاً لهذه الحركة الرجعية التي قام بها الهندوس ضد حكم المغول .

وقد ألف الراجبوت ، باكرأ ، من الامارات التي تمتعت بشبه استقلال ، اتحاداً عاماً واطل عهد تحررهم الفعلي عندما راح الراجا عجيت - ينغ ، نائب ملك احمد آباد - يسترجع عام ١٧٢٠ ابنته التي كانت تحت السلطان فاروق شير ، وحملها على انتزاع لباسها الاسلامي ، وطرده وصيفاتها المسلمات . فكان بذلك اول راجا في الهند يسترجع ابنته بعد زواجها من ملك مسلم . الا ان الامراء الراجبوت كانوا على اختلاف عظيم وانشقاق بالغ فيما بينهم بحيث قصفوا عن القيام بالدور الحاسم الذي اهلته لهم بسالة فرسانهم وموقعهم الجغرافي .

فبعد ان اصلى اورنكزيب السيخ اضطهاداً حامياً ، حسن وضعهم بعد ان آل الامر الى بهادر الذي اتسم حكمه بالتساهل الديني ، وادخل في خدمته مرشدهم وزعيمهم الديني غويند . الا انه اقتضى لهم اكثر من نصف قرن من الجهاد المرير والحروب الموصولة ، لتأمين سلامة مؤسساتهم في حوض نهر الهندوس . وقد تم لهم ذلك بواسطة عقيدتهم الدينية التي غدت فيهم مكارم الاخلاق وبعثت فيهم الحماسة والنشاط . فقد كوّنوا طائفة ظهرت بوادرها في القرن الخامس عشر ، تألفت من عناصر هندية متعددة الجذور والفروع . فقد عزفوا عن الشرك وعن عبادة الاصنام ، كما ضربوا عرض الحائط ، بالطقوس الدينية والفروق الطبقية ، فتألبت حولهم جماهير كثيفة من الهندوس ، من كل الطبقات الاجتماعية ولا سيما من طبقة المنبوذين ، فقالوا بوحداية الله ، كما قالوا بالقدرية ، مما زادهم حماسة ونشاطاً اثناء المعارك التي خاضوها ، وفرضوا ، في الحين ذاته ، بذل الجهد الشخصي ، وعمل البر ، ومحبة الله والقريب كشرط اساسي للخلاص . ومن وصاياهم الا يديروا ظهورهم للعدو وان يمتنعوا عن تماطي المسكرات والمخدرات ، وايبح لهم اكل اللحوم مما امن لهم قوة بدنية لم يتوفر مثلها في غيرهم من الهنود الذين يعيشون على البقول والخضراوات . وهكذا فقد جعل الايمان من هذا اللميم من الهنود الذين لا يعترفون بنظام الطبقات امة أعطت البلاد خير ما لديها من جنود . . . وانتهى بهم الامر الى استرجاع البنجاب ، كما تمكنوا ، عام ١٧٦٤ من احتلال مدينة لاهور .

أما المهرات ، فقد ألقوا ، في الاصل عرقاً جبلياً من قبيلة الغات الغربيين فشكّلوا فرقة من الخيالة ، اشتهرت ببسالته وبسرعة حركتها بحيث كانت تنقض على العدو على حين غرة منه فتزرع الخوف والرعب في النفوس . فقد أعلنوا الثورة في القرن السابع عشر وانضم الى

صفوفهم عدد كبير من فجّاج الآفاق والمغامرين الأشداء قدموا من كل فجّ وصوب ، فيغيرون على المقاطعات الاسلامية ويعيثون فيها نهبا وسلبا يستولون على كل ما يؤمن لهم أود العيش . وفي سنة ١٧٠٨ ، حمل زعيمهم المدعو سهوجي سلطان المغول ، على الاعتراف باستقلالهم ، ولم يلبث



خريطة - ٤ - الممالك المتصلة عن الامبراطورية المغولية والممالك الاطرى القائمة الى الجنوب من الهند
١ - المنطقة الخاضعة فعلا لسلطين المغول - ٢ - المناطق التي تسرق عليها المهراث .

ان نودي به ملكا على المهراث ، وجعل مدينة ستارا عاصمة ملكه . وقد قبل خليفته على العرش ، الراجا شاو ان يعلن ، عام ١٧٠٩ ، تابعيته لأحد المطالبين بعرش سلاطين المغول ، فعهد اليه هذا باستيفاء الضرائب في ولايات الدكن السبع ، على ان يحتفظ المهراث لأنفسهم ، بالإضافة الى ريع الرسوم الجبابة ، عشرة بالمائة (اي ما مجموعه ٣٥ ٪ من الرسوم) . فتوفرت

بذلك لهم الوسائل المالية اللازمة لانشاء جيش قوي ، كما تمت لهم سلطة شرعية كانت ستاراً لهم ومبرراً للقيام بهذه الاستباحات واعمال السلب والنهب التي قاموا بها في هذا القسم الشمالي من الدكن . وبعد ان اصيب الراجا شاو بالcholera ، من جراء وقوعه في *Zenana* اورنكزيب ، أثر رسوفه في الاسر أصبح هو وخلفاؤه من بعده ، خاملاً ، كسولاً ، قعدة . فقد صار الامر الى سدنة البلاط : البايشوى الذين تولوا زعامة المهرات وتوجيههم ، واستمروا في مناصبهم مشرفين على إقطاعاتهم في بوتا حيث أسسوا سلالة ملكية . فأقطعوا ضباط جيش المهرات المناطق والاقاليم ومجموعة القرى والداكر ، وفوضوا اليهم جباية الضرائب والرسوم . وهكذا تحول حكم المهرات تدريجياً الى نظام إقطاعي . فقد نال اول امراء البايشوى ، من سلاطين المغول عام ١٧٢٧ ، حق جباية الضرائب في هذه الدول والامارات الواقعة الى الجنوب من الدكن (ميسور ، وترافنكور ، والكراثيك) ، وفي الولايات الست الاخرى الواقعة في الشمال . وقد بسط ثاني امراء البايشوى هواجي الراجي - داو (١٧٢٠) سلطانه حتى حدود الانهر : تشامبول والجوما والغانج ، ووزع هذه الاراضي الجديدة التي دوخها ، إقطاعات بين بيوتات المهرات الاربعة الكبيرة : فنال الهلكار ، مالوى الجنوبية وجعلوا من اندور عاصمة لهم ؛ ونال الندهيار مالوى الشمالية وعاصمتها غوالبور . ونال البهوسلا بيرار مع نغبور عاصمة لها ، كما نال الغويكوار قسماً من التوجيرات وعاصمتها بارودا . وهكذا امتد حلف المهرات حتى مشارف دلهي ، وفي عهد الثالث من امراء البايشوى ، المدعو بالاجى داو (١٧٤٠ - ١٧٦١) ، استمر المهرات في هجومهم وغزواتهم في جميع الجهات . ولم يفشلوا الا مع الفرنسيين ، فاضطروا للاعتراف لهم بالتبعية والولاء (١٧٥١) . غير ان الانشقاقات التي شجرت بين امراء المهرات وبينهم وبين امراء البايشوى ، ألحقت الوهن بالحلف الذي كانوا توصلوا الى انشائه . فلم يكونوا ليوحدها فيما بينهم ويستجمعوا قواهم الا عندما يرون انفسهم اتمام خطر مداهم يتهددهم من جانب المغول .

والهندوس مدينون بالنجاحات التي حققوها ، لهذه الانقسامات التي اقامت المسلمين في الهند بعضهم على بعض وفرقتهم . فقد تمت الغلبة لفاروقشير ، بفضل مناصرة شقيقين من السياد (من سلاله النبي العربي) ، سليبي اسرة شيعية استوطنت منذ بضعة قرون مقاطعة دواب *Doab* ، كانت تفخر باصلها الهندستاني : احدهما حسين علي ، نائب حاكم بُتينا ، الذي آلت اليه رئاسة الوزارة ، والثاني عبدالله خان ، نائب حاكم الله اباد القائد العام فيها . كان تحت امرتهم عدد من الانصار ورجال الحرب . فقد نهجا سياسة قومية هندستانية ، وعينا في المراكز الحساسة الهامة بعض العسكريين من انصارهما . وإذ رأى فاروقشير انهم على جانب من القوة راح يناصر المغول . واذ ذاك جمعوا صفوفهم ولما انصارهم وتادوا باسقاط فاروقشير وخلصوه وعينوا مكانه محمداً واخذوا بتوجيهه .

ضاق نبلام المغول وأشراقهم صدرأ بما لحقهم من خسف وأصاهيم من اهانة ومذلة ، فاهتاجوا

وأعلنوا الثورة. وتمكن نظام الملك سوبادار مالوى من التغلب على الشقيين وتمكن من انفاذ الامبراطور عام ١٧٢٠. وكان من نتائج هذه الردة المغولية ان افضت الى تفسخ جديد في الامبراطورية المغولية وتخلخلها. واذ اتضح لنظام الملك ان الامر خرج من يد الامبراطور الذي اصبحت سلطته راهية ، اقتطع لنفسه (١٧٢٢ - ١٧٢٤) اماره في الدكن وأسس فيها دولة وراثية ، اقامت سوريا ، الولاء للمغول الكبير . وسار على هذا النهج ايضاً ، في نيابة أوده الملكية ، سودوت خان ، هذه النيابة التي وقفها عليه السلطان محمود ، مكافأة له على خدماته . وعلى هذا النحو قس ايضاً نيابة البنغال وبيهار وأوريسا التي انفصلت عن الامبراطورية وأعلنت استقلالها . ولم يبق للمغول الكبير من سلطة فعالية الا في مدينة دلهي وضواحيها .

اما المهرات الذين كانوا في سبيل بسط سيطرتهم على الهند اجمع ، فقد اصطدموا في تقدمهم وتوسعهم بالدول الاسلامية ، ولا سيما بالنظام ، واخذوا يطالبون بفرض الرسوم والضرائب على ممتلكاتهم . ومع ان النظام فشل في حروبه ضد المهرات (١٧٢٩ - ١٧٣٦) فقد نال مع ذلك ، وعداً بالآي دخل المهرات الى ممتلكاته . وقد تعهد من جهته بالآي يسبب لهم اي ازعاج ، ولا أية مضايقة في متابعتهم فتوحاتهم باتجاه الشمال وباستثناء غزواتهم في هذه الناحية . وقام المهرات بعدة غزوات امتدت الى مشارف البنغال ، واجبرت بهار وأوريسا على دفع جزية لهم ، وكذلك كان شأن راجا ميسور . ووجه بلاجي راو غزواته باتجاه الراجبوت والبنجاب والارده واستولى على مدينة باسن بعد ان طرد البرتغاليين منها ، وهدد غوا بالمصير ذاته ، وقام بغزوة على الممتلكات الفرنسية الا انها باءت بالفشل . وقد بدا ان مغازي المهرات ستتناول الهند في جميع اطرافها فركب الهم والغم نبلاء المغول ، كما ان القلق دب بين التجار والفلاحين الهنود . وهكذا تعطل في البلاد النظام الاجتماعي المعمول به وبارت التجارة وأرهمق الفلاحون . وقام خليفة نظام الملك ، هو النظام سلبات - يونغ بمجهود طيبة في هذا المجال واستعان بفرقة السيبياتي التي كانت تعمل تحت إمرة الضابط الفرنسي بوسي الموفد من قبل المعتمد الفرنسي دويليكس . وقد انكسر بلاجي - راو ، عام ١٧٥١ ، الا ان الفرنسيين اضطروا للانسحاب عندما اشتدت منافسة الانكليز لهم ، وغلب سلبات يونغ على أمره واضطر للدخول في مفاوضات مع الانكليز انتهت بالتخلي عن بعض ممتلكاته . واستأنف خليفته نظام علي الجهاد ، الا ان الفرنسيين تخلوا عنه عند نشوب حرب السبع سنوات. بعد ان عرف المهرات كيف يستفيدون من تفوق جنود فرقة دي بوسي ، فأعادوا تنظيم جيشهم ، وقوّوا من شأن فرقة المشاة والمدفعية عندهم بتزويدها بمدافع شبيهة بما كان لدى الفرنسيين . وهكذا غلب نظام علي أمره وتوزعت ممتلكاته بدءاً .

هذه الحروب المتصلة الحلقات بين الهندوس والمغول وما اتاحت من نهب وسلب واستباحات عرضت الامبراطورية المغولية لغزوات جديدة بعد ان طمع بها الطامعون . فبعد ان عامل امبراطور المغول ، شاه المعجم نادر شاه ، بازدراء وعجرفة ، راح هذا الاخير يهاجمه عام ١٧٣٩ .

فوجد الشاه في منطقة كابل ويشاور نواب ملك عاجزين دانوا بوظائفهم المحسوبة ، كما وجد الحاميات في غاية الاهمال ، والقبائل التي عهد اليها الانذار بالخطر والاستنفار والحد من تقدم الغزاة ، تتذمر وتتأفف غير راضية لعدم قبضها مرتباتها . فدخل الهند وكسر السلطان محمود واستولى على دلهي وقام بنهب البلاد بصورة منتظمة ، وحل معه عرش المغول الكبير ، ثم غادر البلاد وقفل راجعاً فجأة بعد ان اوصى السكان بطاعة الامبراطور والامثال لاوامره بعد ان اوسعه نهبا وسلبا . وقد قام الافغان بقيادة احمد عبادي يغزون الهند مراراً ، بعد ذلك ، سنة ١٧٤٨ ، الا انه تمكن من إيقافهم واخراجهم من البلاد ، ومن غزوها سنة ١٧٥٢ فتمكنوا من احتلال البنجاب وتعيين نائب ملك مغولي فيه ليس له من السلطة سوى الاسم ، وفي سنة ١٧٥٦ استولوا على دلهي ، واخيراً سنة ١٧٥٩ . وقام الهنود هذه المرة بكثرة عامة اشترك فيها المهرات والسيخ ، الا ان الانشقاقات الحادة نشبت بينهم وهم يواجهون عدواً مشتركاً . فقد تخلف عن القدوم البهوسلا من بيرار ، ونائب ملك بوده التزم موقفاً معادياً من المهرات . كما انسحبت جماعات اخرى من المواقع المخصصة لها في تعبئة الجيش . ولم يعرف المهرات ان يستفيدوا كما يجب ، من مدفيعتهم ومن الفرق العاملة لديهم والمعبئة على نظام التعبئة الفرنسي ، عدا عن الفرق التي لم تأت شيئاً يذكر والتي لم تعرف ان تنسق حركاتها وتنقلاتها في اثناء المعركة لتأتي منسجمة مع حركات الفسرق المختلفة . وفي معركة بانبيوت التي وقعت في ٧ كانون الثاني ١٧٦١ ، انهزم المهرات شر هزيمة امام مناورات الخيالة الافغان الضخمة ومجباتها العنيفة المتكررة .

ومعركة بانبيوت والهزيمة النكراء التي الحقها بالمهرات ، وضعت حداً في القرن الثامن عشر للحلم المعسول الذي راودهم بان يروا الهند حرة مستقلة . فقد فُتت في عضد المهرات بعد معركة بانبيوت الطاحنة التي خسروا فيها ٢٠٠,٠٠٠ جندي من خيرة رجالهم ومعظم قوادم وزعمائهم بقطع النظر عن النساء والاطفال . ومنذ ذلك الحين اصبحوا اعجز من إخضاع الهند وتوحيدها في دولة متماسكة الاطراف لتقف بنجاح ضد هجمات البدو ، هذا اذ سلمنا جداراً انه جال في خاطرهم مثل هذا الحلم ، وأوتوا مثل هذه القدرة . اما الدول الهندية الأخرى فقد كانت ضعيفة الجانب ، مهيضة الجناح . وكذلك قس الدول الاجنبية كالافغان الذين لم يبرهنوا الا عن مقدرة فائقة على الغزو والنهب والسلب ؛ ايران التي راحت فريسة حروب اهلية ، داخلية ؛ وقبائل التركستان والمغول التي لم تلبث ان راحت فريسة هجوم الصينيين بعد ان تمت لهم مدفعية من الطراز الاوروي . ومن جهة أخرى ، فالتطور الذي عرفه حلف السيخ وتمركزه في مدينة لاهور ألفت حاجزاً قوياً في وجه الغزوات التي كان يقوم بها الافغان ، كما وقف حاجزاً دون تعديات شذاذ الافاق في التركستان والعجم الذين كانوا يمدون الامبراطورية المغولية بحاجاتها من قواد الحرب ورجال السياسة . وهكذا سار الامبراطور والامبراطورية المغولية على طريق الانحلال والانهيار ، ولم يعد في مكنة أحد ان يعيد الى الهند وحدتها بعد ان اصبح تاريخها سلسلة

متصلة الحلقات من الفوضى والاشتباكات الدامية . فعم البؤس البلاد وخيم عليها الضيق ، وقامت سلامة الأفراد وأمنهم ، قبل كل شيء على سواعدهم والاعتصام بالحيلة . اذ لم يعد المرء يتم قبل كل شيء الا بما يؤمن له أود العيش وما فيه أمنه وسلامته ، لا يلوي على شيء وفقد كل ثقة بالناس . وبارت الارض وما عليها من زرع وضرع ، لفقدان الطمانينة ولاشتداد المجاعة في البلاد . وتعرضت المواصلات لمخاطر كثيرة واصبح المسافرون عرضة لفتك النمرة والفيلة ، وشلت حركة التجارة في البلاد . فالقرى اقفر من ساكنيها ، والمدن غادرها اهليها ، وتداعت للخراب الهياكل والمساجد في مقاطعات كثيرة . فتدخلت الاوروبيين وحدهم في القرن الثامن عشر ، سيساعد على إعادة النظام واستقرار الأمن تدريجياً في البلاد ويفتح امامها ابواب التطور .

بذل الاكليروس مجهوداً طيباً في حقن التبشير بالمسيحية في الهند ، ولا سيما في ممتلكات البرتغاليين ومراكزهم الرئيسية امثال غوا وديو ودامان ، كما عمل في هذا المجال ، مجال الرسالة بعض ابناء الرهبانيات الكبرى . قام في وجه الرسالة عقبات كأداء كثيرة . فالمسيحية قالت وعلمت مبدأ المساواة ، وهو مبدأ يتعارض كلياً ونظام الطبقات المعمول به في الهند . فالروح يهب حينئذ يشاء والله لا يأخذ قط بالوجوه . فكيف يألف البراهمان او يقبلون فكرة تناول القرى من يد كاهن هو من طبقة المنبوذين ؟ فمجرد تصور الاحتمال تدنيس له وتلطيع لطهارته ، ومجرد التفكير به يجعل فرائضه ترتعد فرقا وجزعاً ، كما ان مجرد اعتناقه للمسيحية يخلف فيه عوجاً او شوهاً لكيانه ويسبب له عذابات مبرحة . فالهندي الذي اعتنق المسيحية وارتضاها له عقيدة ودستوراً ، لم يعد يجوز له الخضوع للراسم والامتثال للطقوس الدينية التي كان عليه ان يأخذ بها ويخضع لها وهو على الهندوكية ، وكذلك قل عن الخرافات والطقوس العنصرية . وافراد الطبقة الذين انفصل عنهم وانقطع عن شراكتهم لا يستطيعون بعد ان يحافظوا على هذه الروشائج والروابط التي شدتهم بعضاً الى بعض من قبل ، بعد ان اصبح المتنصر ، في نظرهم ، رجساً ، نجساً ، كما امتنع على هذا المتنصر الدخول في أية طبقة اجتماعية اخرى . ولذا فهو يجد نفسه مفصولاً او مقطوعاً عن كل طبقة ، معزولاً عن جميع الناس ، مشرداً ، مردولاً ، ضائعاً في متاهة الحياة .

ومن جهة ثانية ، فالمسيحية هي نفي من الاساس ، لهذه الصورة التي رسمتها كتب الهندوس القديمة للكون ، والتي قالت بها الهندوكية وعلمت ، والتي تور بها وتلهج افاشيد الهندوس وزبورهم . فالصعوبة الكبرى لم تقم في القول بتعدد الآلهة ولا بالقول بالمذهب الروحي في الحيوانات . فهي تكن في هذه الفكرة الاساسية التي تقوم عليها الفلسفة الهندوكية بعد أرث تلقت البراهمانية بالمؤثرات البانية والبوذية ، كالمطلق والكائن غير المتناهي ، والخالد ، وكلها افكار آخذة ابدأ في تطور دائم . وهذا الكائن المطلق يبدو للناس انبثاقاً متصلًا من الاشكال والكائنات المتغيرة ، بمثابة هذه الكواكب والاشياء والنباتات والحيوانات والناس والآلهة انفسهم ، وهي صور واشكال ليست في الواقع سوى خيالات ومظاهر غرارة لهذا الكائن

المطلق لا وجود ولا حقيقة لها في غير ذاتها . هذا القول يفضي بصاحبه الى الحلولية . فالاشياء كلها اجزاء من المطلق ، من الكائن الأسمى . وهذا القول بالذات يصدم المسيحية في الصميم ويبطل العقيدة المسيحية ويملاً نفس المسيحي رعباً وظلاماً . وبالفعل ، فمع ان الايمان بيسوع المسيح هو بمعزل عن كل فلسفة او مذهب فلسفي ، فقد راح علماء اللاهوت يستمعون ببعض المسلمات التاريخية ليفسروا كلام الله ، ابي الكتاب المقدس لتقريب مفهومه من مدارك الناس ، مستعينين على ذلك ببعض الاصطلاحات والتعابير والتراكيب التي وردت على ألسنة فلاسفة الأغريق كإفلاطون ، ولا سيما أرسطاطاليس ، ثم توسعوا فيها واكملوها . فالعقيدة المسيحية اقتضت وتبلورت وتركزت على اساس من هذه المصطلحات الفلسفية التي تقول اساساً بأن الاشياء المحسوسة جوهرها الفرد ، هذه الصورة المتعددة التي تعطي المادة شكلها وكيانها وصيغتها وطبيعتها المميزة . فالكون وجود واقعي . فالعالم الخارجي ، قائم موجود . وهذا القول يجعل العقيدة المسيحية بوجود الله شخصي ، جوهر روحي ، حقيقي متميز اصلاً وجوهرأ عن العالم ، الاساس الركين للإيمان بالسيد المسيح . ففي نظر هندي مثقف كما يجب ، فالمسيح ليس سوى مظهر من مظاهر الكائن الأكبر التي لا عد لها ولا حصر . فاعتناقه المسيحية والقول بمقاتلتها ، يكون عنده بالفعل ، انقلاباً جذرياً ، كلياً ، لافكاره ومكنوناته ويقلبها رأساً على عقب وظهراً لبطن .

هذه الصعوبات وغيرها كثير لم تحل دون حصول ارتدادات بين الهندوس واعتناقهم النصرانية ، انما هي ارتدادات اقل بكثير مما تمتته محبة المرسلين وسعت غيرتهم الملتبة الى تحقيقه ، وقد اتقوا لو يستطيعون ارتداد كل الهندوس . فقد قام الآباء اليسوعيون ، في القرن السابع عشر بمجهود جبار ليؤقّفوا بين المسيحية وبين فكرة الهندوس ونظامهم الاجتماعي . فقد حافظوا على مظاهر طقوس هندية كثيرة ، ووضعوا اناشيد وأما دبح دينية تحاكي من حيث شكلها ومحتواها ، الاناشيد والتراويل الهندوكية القديمة بحيث لا يستطيع التمييز بينها الا من أوتي بعد النظر وصدق الخبر ودقة البصر . وقد اقتبسوا كثيراً من حكمة الهندود وادخلوها حكم المسيحية ، وراعوا ، ما امكن ، مفارقات الطبقات الهندية . فاليسوعي الذي تلبس بمظاهر البراهمان ازدري بأخيه اليسوعي المتدثر باسمال المنبوذين وضرب كشعاً عنه . فاذا ما تحتم على يسوعي مثلاً ان يحمل القربان الاقدس لمسيحيين من طبقة ادنى ، كان عليه ان ينازلهم القربان على رأس قضيب او ان يتركه على عتبة منزل المسيحي . وهذه الطقوس الملبارية ، سببت الشكوك لعدد كبير من المرسلين وحركت فيهم الغضب والحقد . فقد اصدر البابا ، منذ عام ١٧٠٤ براءة رسولية يشجبها باعتبارها مغايرة للروح والآداب المسيحية . وفي عام ١٧٤٥ جاءت البراءة البابوية *Sollicitudo omnium* تؤيد الحكم السابق وتثبته . فلا عجب ان تخف من جراء ذلك حركة الارتدادات . ومع ذلك ، فقد بلغ عدد المسيحيين في الهند ، عام ١٧٥٦ ، نحواً من المليون . الا ان الملوك اخذوا بمحاربة اليسوعيين . ففي سنة ١٧٥٧ ، أمر بمبال باعتقال

١٥٧٠ مرسلاً يسوعياً في الهند وإبعادهم إلى لشبونة . وفي سنة ١٧٥٨ ، صدر امر بمنع الآباء اليسوعيين من القيام برسالتهم في المستعمرات البرتغالية ، فاضطر بضع مئات من الرهبان والمرسلين إلى مفادرة تلك المقاطعات ، والعودة من حيث أتوا . وفي سنة ١٧٦٤ ، جاء دور المستعمرات الفرنسية . وفي نهاية المطاف اصدر البابا عام ١٧٧٣ ، مرسوماً بالغاء الرهبنة اليسوعية ، مع العلم ان الحروب المتصلة وفساد الاخلاق والآداب الآخذ بالانتشار لم يكن ليساعد كثيراً على نشر ديانة تقوم على البذل بالنفس والتجرد والمحبة ، والتي تجعل من طهارة القلب الشرط الاساسي لاقتبال كلمة الله ، وإلى هذا ، راح المسلمون والهندوس انفسهم يضطهدون المسيحيين . ففي خلال حروب ميسور (١٧٦٦ - ١٧٩٩) قتل تيبو - صاحب ، اكثر من ١٠٠,٠٠٠ مسيحي او جعلهم يرسفون أرقاء في العبودية . والهولنديون الذين كانوا على البروتستانتيّة ، اخذوا ، هم ايضاً ، يضطهدون الكاثوليك ، في جزيرة سيلان ، ويطردون المرسلين العاملين فيها او يأمرؤن بقتلهم . ففي سنة ١٨٠٠ ، لم يكن عدد المسيحيين في الهند ليزيد على ٥٠٠ الف . ثلثاهم قام في المستعمرات البرتغالية القديمة ، يقوم على خدمتهم الروحية الكيروس واطني ، بينما الباقيون منهم هم مشتتون في جميع ارجاء الهند وسيلان ، على خدمتهم مرسلون كبوشيون وكرمليون ومرسلون تابعون للاراساليات الاجنبية . وهكذا فشلت حركة الارتدادات كلها فشلت تماماً حركة فرنيجة الهند وتمثلها الحركة العلمية الاوربية .

وقد نجح الاوروبيون في مجال آخر ، خارجي المظهر ، سطحي المنظر ، هو بدء استعبادهم الهنود واستثمارهم لمراقى الهند . ففي ، مطلع القرن الثامن عشر نشط للعمل في الهند شركتان تجاريتان احدهما فرنسية والاخرى انكليزية . لكل واحدة منها مجلس ادارة اعضاؤه من بين كبار حملة الاسم فيها . فالشركة الانكليزية تتولى هي نفسها ، ادارة اعمالها ، بينما كان يتولى ادارة الشركة الفرنسية مدير يعينه الملك نفسه وتخضع اعمالها لمراقبة مفتشين ماليين . وعلى المدير ان يتقيد بتعليمات الحكومة الفرنسية وتوجيهاتها . وكان مجلس الادارة يتمثل في الهند بحاكم عام يتولى مهام الادارة ويقوم بتوجيه وكلاء الشركة وممثلها في المقاطعات . وقد نالت كلتا الشركتين من المغول الكبير ، إمتيازات تخولها تأسيس وكالات تجارية لها . فأنشأ الانكليز لهم وكالات هامة في مدراس وكلكتوتا وبمباي وصورات ، كما أنشأ الفرنسيون وكالات لهم في بنديشري وشندرناغور . واشتدت المنافسة بين الشركتين اشتداداً قوياً اذ ان تصدير البضائع الهندية الى أوروبا (منسوجات القطن والموسلين والحرائر والشاي والبن والفلفل الخ) كان يعود على التجار بأرباح طائلة تصل احياناً الى ١٠٠٪ الا انه منذ ١٧٣٠ ، كان معظم حملة الاسهم في الشركة الفرنسية من ذوي الايراد المحدود الدخل . كما ان مديري الشركة هم موظفون لا يهمهم كثيراً نجحت اعمال الشركة التجارية الموضوعه تحت اشرافهم او ازدهرت مشاريعها او لم تنجح .

تمكنت الشركة الفرنسية من النهوض بأمورها التجارية بين ١٧٢٠ - ١٧٤٠ ، بشكل يثير

الاعجاب . فبينما اعمال الشركة الانكليزية كانت تعاني الركود والجود ، فقد اعتمد الحاكم الفرنسي العام «له نوار» ، مبدأ الاتجار في الهند ومع الهند ، بالنظر لهذه الفوارق العظيمة التي باعدت بين مختلف اجزاء البلاد والعباد فيها ، اي ان الشركة استخدمت كوسيط في اشباع مطالب شعوب الهند وقلبية حاجاتها . فاستطاعت الحصول على امتيازات جديدة من المغول الكبير ، منها مدينة ماهيه (١٧٢١) و ياناون (١٧٢٣) . فقد بسدا واضحا للحاكم الفرنسي العام دوماس (١٧٣٥ - ١٧٤١) ، وهو يشاهد عن كثب تفسخ امبراطورية المغول وتناثرها ، ان الاستمرار في الاعمال التجارية بنجاح يقتضى له قوة مسلحة تفرض حولها الهيبة والاحترام وتدعم المفاوضات التي تقيمها الشركة مع مختلف الامراء الذين يحققون استقلالهم الناجز . فلم يفل في تقديره ما للعرف من اهمية (كما انه لم يلتقص بوصفه مستعمرا مطلما جيدا على ما للأوضاع المتحكمة) من قيمته ، وادرك جيدا ان الهنود سيكونون غيرهم بعد ان يتعرفوا الى النظام الأوروبي المدهش ويستمرئوا مميزات وحسناته . فشكل طوابير وطنية اتخذ افرادها من بين فرقة السيبي المعروفين ببرودة دمهم ورباطة جأشهم ، حتى اذا ما تسلحوا بالبنادق الجديدة والمدفعية الخفيفة ، قاموا بالمعجزات المدهشات اذا ما قيسوا بغيرهم من الهنود الذين يتألف سلاحهم من بنادق قديمة ومدافع ثقيلة والدروع المزودة وغير ذلك من الاسلحة . وأنشأ له علاقات مع بعض الامراء كنائب كرناتيك ، ولم يتردد قط عن الاعتراف لهم بالتابعة والولاء . وتمهد له ، لقاء إبلاثة امتيازاً جديداً للاتجار ، بدفع بعض الرسوم كما قدم له مراسم الطاعة مع فرقته السيبي . وهكذا قال من احد الراجات امتياز كاريكال عام ١٧٣٩ . وبرهن عن مشاعر انسانية كريمة في علاقته مع ابناء البلاد ، وأظهر احتراماً لعبادتهم وعاداتهم وطقوسهم الوطنية . ولم يهمل قط امر مفاوضة المغول الكبير الذي انعم عليه بلقب ناباب ، وهو لقب ينتقل الى الابناء بالوراثة . وهكذا اصبح من توابع الامبراطور مباشرة ، وأصبح له في الممتلكات الفرنسية سلطة أكبر على ابناء البلاد ، كما علا شأنه وارتفعت منزلته في نظر جميع الهنود ولا سيما في نظر الملوك والرؤساء وأصبح يتعامل معهم كالند للند .

وسار على نهجه وسننه خليفته في الحاكمية دويليكس (١٧٤٦ - ١٧٥٤) الذي كان يعرف الهند معرفة عميقة وتزوج من إحدى الخلاسيات احسنت التكلم بعدة لهجات هندية . إلا ان حرب خلافة النمسا^(١) اضطرته للتوقف في نهجه والصمود في وجه الشركة الانكليزية . واستطاع بمساعدة عمارة لابوردوني الذي كان حاكماً على جزيرة فرنسا ، ان يتحكم بطرق المواصلات بين الهند والصين ، واستولى على مدينة مدراس (١٧٤٦) وقد تردد قليلاً بين ان يسلم المدينة من الاساس وبين الاحتفاظ بها . الا انه رضي باعادتها الى الانكليز لقاء فدية عالية دُفعت له . الا ان هذا النبيل الفخور الذي ارهقته المفاوضات مع جلف عنيد تنازل عن الهند . ودويليكس نفسه

(١) - انظر المجلد الثالث ، الفصل الثالث .

انشئ عن متابعة فتح المراكز التجارية الانكليزية . ومع انه لم تصل أية امدادات جديدة من الحكومة الفرنسية الغارقة في حروبها في القارة ، فقد احتفظ بمدراس وتمكن عام ١٧٤٨ من صد هجوم بحري قامت به عمارة حربية انكليزية اوفدتها حكومة الانكليز لتعزيز مركز الشركة الانكليزية التي لم تغفل قط عن حروبها الاساسية ضد 'بنديشري' . وجاءت معاهدة أكس لا شابل تعيد الأمور في الهند الى وضعها السابق : فعادت مدراس الى ايدي الانكليز . وقد تمتع دوبليكس بنفوذ عظيم وشهرة واسعة في الهند حتى ان المغول الكبير بعث يهنئه على البسالة والشجاعة التي ابداهما .

وخطر لدوبليكس ، آنذاك ، ان يجعل من الشركة الفرنسية سلطنة هندية ، وذلك محافظة منه على ما له من امتيازات تجارية عريضة وتأميناً لموارد ورسوم ثابتة . فقد اراد ان ينحو نحو التوابع الآخرين الذين يعترفون بالولاء للامبراطور ، ويلشئء للشركة مملكة مستقلة مع الاستمرار على ولائه للامبراطور والاعتراف بسلطته الاسمية . فتدخل في المشكلات والنزاعات التي لم يكن لخلافة الامبراطور بد من إثارتها وبعتها ورجح النصر والفوز النهائي للمطالب بالخلافة من انصاره . وهكذا اصبح ناباب كرناتيك من توابع الشركة الفرنسية ، كما ان نائب باب الدكن قبيل 'بجمايته وتنزل له عن مقاطعة السركار (١٧٤٩ - ١٧٥١) . وقد استنفر المهرات جيوشهم وقوام لتأييد مطالبهم للسيطرة على الدكن كاملاً وتوافدوا باعداد كبيرة ، إلا انهم 'كسروا شر انكسار ، وهي نتائج أمكن له الوصول اليها بقبضة من الجند ، بينهم ٣٠٠ من الفرنسيين ، و ١٨٠٠ من السيبي مع كتيبة من المدفعية بقيادة المركز دي بوسي ، هذا الزعيم المدهش الذي يعرف كيف يبعث الحماسة والنشاط في قلوب رجاله ، والذي ارسله دوبليكس فعرف كيف يستولي على جميع اطراف الدكن وألحق الهزيمة بجيش المهرات الذي تجاوز ١٠٠،٠٠٠ محارب ، معظمهم من الفرسان .

ادرك احد الموظفين الانكليز في الشركة الهندية الشرقية الانكليزية ، يدعى روبرت كليف ، بعد فترة من الزمن ، ان السبيل الوحيد للصمود تجارياً ، في وجه الفرنسيين ، هو انتهاز السياسة التي ينتهجونها ، فقرر السير على خطتهم والفسج على منوالهم . فتاريخ الهند في هذه الحقبة ، يرى في الشركتين المذكورتين المتنافستين ، تابعين من توابع المغول الكبير الآخذ بالانحطاط والانحلال ، يحاول كل منها الاستئثار بأكبر قسم من تركته . فبعد ان تلقى كليف إمدادات قوية من لندن ، تشكلت من جنود انكليز ومن مدفعية ، تمكن من دحر ناباب كرناتيك (١٧٥١) ، وغلب في معركة تريشينا بالي ، على الضابط الفرنسي لو Law ابن شقيق الاقتصادي المشهور بهذا الاسم ، الذي كان يتولى قيادة فرقة من فرق دوبليكس (١٧٥٢) . اضطر دوبليكس لطلب امدادات جديدة من الشركة . غير ان الشركة الفرنسية تفتقر للمال ، منذ عهد لو ، لتنهض باعمالها وتحقق مشاريعها ، وهي مشاريع لم تكن ثمارها دوماً دانية القطوف . وكانت الحكومة الفرنسية راغبة في السلام وتسمى صادقة اليه . فاستبدلت

دوبليكس ، بجاكم آخر يدعى غودهو الذي سارع فوقع ، عام ١٧٥٤ ، معاهدة مع الانكليز ، من شروطها ان تتخلى الشركتان عما تنعم به من القاب وطنية ، والتنازل عما لها من حيايات والتخلي عن كل الامتيازات التي اعترف لها بها خارج مراكزها التجارية . فكانت صفقة المغبون في اقدس حقوقه واعزها ، اذ لم يكن للانكليز غير مراكز تجارية في البلاد بينما الامتيازات التي نالتها الشركة الفرنسية ، والسلطة الواسعة التي تمتعت بها ، امتدت فوق رقعة من ارض الهند تبلغ مساحتها ضعفي مساحة فرنسا ، وكانت تعد من السكان ١٣٠ مليون نسمة . ومع ذلك ، وبالرغم من هذه التنازلات لم يكن مندوحة من الحرب بين الشركتين والبلدين .

فبينما اخذ الفرنسيون بشن هجوم على المانيا ، راح كليف يهاجم البنغال ، المعروف فاباها بعدائه للانكليز ، وباستبلاته على مدينة كلكتا ، وحشره ١٤٥ انكليزيا في سجن ضيق لا يدخله الهواء ، يعرف بالتاريخ باسم : «الوكر الاسود» حيث قضى ١٢٦ منهم اختناقاً بعد ان عاوا آلاماً مبرحة . استرجع كليف مدينة كلكتا واستولى على شندرناغور ، وهزم سوباب بلاس شر هزيمة (١٧٧٥) ورفع الى العرش سوباباً اختاره هو ، رضي بحماية الشركة الانكليزية . واذ ذاك ، حدثته نفسه بمهاجمة الفرنسيين مباشرة . وقد ارسلت الحكومة الفرنسية ، عام ١٧٥٨ ، حاكماً عاماً ومديراً للشركة هو لالي - تولندال ، ومعه ٣٠٠٠ جندي فرنسي . غير ان الحاكم الجديد الذي كان يجهل جهلاً مطبقاً امور الهند وشؤونها ، اظهر احتقاراً كبيراً لهذه البلاد والهنود ، اذ راح يلقيهم : «بالصعاليك السود» ، وكان سلوكه في الهند سلسلة من الاغلاط والمساوىء . واستدعى بوسي اليه بحجة ان فرنسا لا يهمها كثيراً ان ينازع الابن الاصغر اخاه الاكبر السيادة على الدكن ، كما انها لا تهتم قط بهذه المنازعات التي تقوم بين راجاوات الهند وناياباتها . ولما ايقن سوباب الدكن ان الفرنسيين سيتخلون عنه طلب حماية الانكليز الذين انصرفوا لمشاغلكم في اماكن اخرى . فقلّب على امره امام المهرات ، وهكذا فقدت فرنسا اهم انصارها . وراح لالي - تولندال يثير بسوء تصرفه وبعنفه سكان البلاد . وانقطع عنه المدد لانشغال فرنسا بحرب المانيا . وبعد ان حوصر في مدينة بونديشري هو و ٧٠٠ من رجاله على يد الجيش الانكليزي الذي تألف من ٢٢ الف محارب يشد ازهم اسطول بريطاني ضم ١٤ سفينة حربية بقي يقاوم عبثاً خمسة اشهر واضطر للاستسلام في كانون الثاني ١٧٦١ . وقد اعادت معاهدة باريس للشركة الفرنسية مراكزها التجارية الخمسة في الهند على شرط ان تزيل من الاساس ما قام عليها من حصون وقلاع ، وان تبقى عزلاء من كل حامية وان تتخلى عن كل نزعة سياسية وبعبارة اوضح عن اهداف تجارية عليا . وهكذا هبطت موارد الشركة بسرعة والمحلت عام ١٧٧٠ .

وهكذا لم تعد الشركة الفرنسية لتثير اي قلق او اي ازعاج للانكليز في الوقت الذي اخذ الضعف يدب الى المهرات ، اقوى سلطة هندية ، اذ ذاك ، بعد انكسارهم المييت في معركة بانيبوت ، فحال الخسف الذي اصيبوا به دون قيامهم بأي مجهود يذكر في البنغال . وبالرغم من

هذا كله ، لم يتمكن الانكليز من احتلال الهند كلها بعد ان ادرك كليف جيداً انه من الاوفى للمصلحة الانكليزية ان يوطد نفوذه ويرسخ سلطته في هذه الممتلكات التي تقع تحت اشرافه بدلاً من السعي للتوسع باضافة مقاطعات جديدة الى ممتلكات الشركة . واوصى بان يقتصر عمل الفتح والحرب على ما لا مندوحة عنه او ما لا بد منه . وهكذا بقيت قائمة 'مطيلة' على الوجود دويلات هندية جديدة كانت على شيء من القوة والشأن في المجالين السياسي والحربي ، وجذت في بعض الضباط الفرنسيين خير معاون لها . هؤلاء الضباط قد سبق لهم وعملوا من قبل في خدمة الشركة الفرنسية في الهند ، بينهم الضابط لو ، والكونت موادافر والفارس دي كريسبي وميدوك ودرينباك ، والاماني رينهارد سمير ، ثم انضم اليهم بعد ان وضعت حرب السنوات السبع اوزارها ، مغامرون شباب اكثرهم من الفرنسيين ، وغيرهم ايطاليون وفلمنكيون وهولنديون وكونت دي بواني من مقاطعة الساقوى . وراح امراء الهندي يتخاطفون الضباط الفرنسيين ، فاستخدمهم فاباب اوده عام ١٧٦١ ، الا ان جيشه انكسر امام قواد كليف قبل ان يتمكن هؤلاء الضباط من اعادة تنظيم صفوفهم . وراح بعض هؤلاء الضباط يعمل في خدمة الامبراطور المغولي علم الثاني فكلوا عوناً له في كثير من المعارك التي انتصر فيها . كما راح البعض الاخر يعمل في خدمة المهرات مادافا سندھيا (١٧٣٠ - ١٧٩٤) وهو واحد الراجاوات الذين نجوا من معركة بانيبوت ، الذي استطاع ، بفضل مساندة هؤلاء الضباط ولا سيما بفضل موازنة الكونت دي بواني ، ان يقتطع له في الشمال الغربي من الهند امانة توازي مساحتها مساحة فرنسا والمانيا مجتمعتين ، واعاد سلطة الامبراطور عام ١٧٨٩ ، وحطم غزوة قام بها الافغان ، عام ١٧٩٠ . واخيراً نرى عدداً من هؤلاء الضباط في خدمة سلطان 'ميسور' ، تحت حكم حيدر علي وتيبو - صاحب ، من اشد خصوم الانكليز ومن اعدائهم اللداء في الهند . وكان هؤلاء الضباط موضوع تقدير الجميع لما امتازوا به من روح الانضباط الذي عرفوا ان يفرضوه على الهنود . فبعد ان حذقوا التغلب على مشاعرهم الاولى بفضل التدريب الذي خضعوا له ، والتحكم بأحاسيسهم ، اخذوا يقومون بصورة آلية ، وبانضباط كلي ، تحت وابل من القذائف النارية بمحركات ومناورات يكررونها الوف المرات في مأمن من المؤثرات العارضة متحررين تماماً من القوضى والهلع الذي تستسلم له الجماهير المتناعة التي لم يتيسر لها التدريب على التحكم بعنان النفس في الاوقات العصيبة . وهكذا ارتدت الفرق الوطنية قوة تأثير شديدة ، كما ارتدت صلابة لم تكن لها من قبل ، دون ان تبلغ مع ذلك القوة والصلابة التي تميزت بها الفرق الأوروبية . وقد حمل هؤلاء الضباط معهم معرفة استخدام الاسلحة الجديدة وهي معرفة زادت كثيراً من فعاليتها . كذلك قاموا بتشكيلات وتعبئات ومناورات جعلها الهنود من قبل . وقد دشّن الكونت دي بواني ، ضد الافغان في الهند نوعاً من التعبئة الجديدة تعرف : « بالربعات الجوفاء » ، تبناها بونابرت وولنتن فيما بعد . فالافغان ، هؤلاء الفرسان الذين كانوا يحاربون بروح القرن الثالث عشر مدججين بالاسلحة ، والذين كانوا يقضون

طوال الليل في معاقرة الخمر ، وكانوا في النهاية يدورون ويدورون عبثاً حول هذه المربعات التي كانت تغذفهم حمم النار والموت ، ثم تنتهي المعركة بالفوز المرتجى بهجوم السلاح الأبيض ، بعد ان يكون قائدهم ألزهم تناول العشاء وتجديد نشاطهم بالنوم ليلاً . وقد اتقن هؤلاء الضباط روح الانضباط وفن التعبئة ، فوضعوا المبادئ الأساسية لكل تعبئة منهجية وحددوا قواعدها الثابتة ، وهي اساس وقواعد عمل الانكليز فيما بعد ، على تطويرها . وقد اتصف عدد كبير من هؤلاء الضباط بطيب القلب ، مما جعل افراد الفرق الوطنية ، على الامثال لهم والتفاني في خدمتهم ، بخلاف الزعماء الوطنيين الذين كان الفساد اخذ منهم كل مأخذ وغلبت عليهم اطماعهم الاشعبية . وكان الجنود يفضلون السقوط في مراكزهم ، في ساحة الوغى بعد ان يروا ضباطهم يحنلون في الصفوف الامامية ، وهم يقودونهم للحرب . وقد كان قبر احد هؤلاء الضباط البواسل ، الضابط الفرنسي ميشال ريمون ، موضوع تكريم جميع الجنود الشباب يحجون اليه كرمز للبطولة والفروسية حتى مطلع القرن العشرين . وبقي رعايا الراجا مادهايا سندهيا يذكرون بأسف ، وهم تحت حكم الانكليز وسلطانهم ، الروح الانسانية التي تميز بها الضباط الفرنسيون في ادارتهم الفرق الحربية التي أمروا عليها . وهكذا عملت التقنية الأوروبية والروح الأوروبية كثيراً على تجديد القوى الهندية ، كما فعلت فعلها في تأخير نجاح تطور الانكليز في الهند .

ومع ذلك فقد حقق الانكليز نجاحات كبيرة . فقد نال كليف ، بين ١٧٦٥ - ١٧٦٧ من المغول الكبير ، مهمة السهر على الأمن وجباية الرسوم والضرائب في البنغال والبيار على ان يرسل قسماً منها الى دلهي . وهكذا اصبحت الشركة الانكليزية قانوناً وشرعاً ، الموظف الامبراطوري الاول في هذه المقاطعات . اما في الواقع فقد كانت بالفعل صاحبة السلطة فيها . ولم يلبث كليف ان فرض حمايته على ثاباب اوده ، وعلى راجا بيناريس .

الا ان ما نال الهنود من العنف والصنط والعنت من قبل عملاء الشركة الانكليزية والارتكابات الكثيرة التي استهدفوا لها من قبل الانكليز الذين عرفوا بنطرسيتهم وعنجهيتهم ، حفزهم الى اعلان الثورة . ان البذخ الشرقي والاممية الانتخابية التي تمتع بها هؤلاء «الناياب» الانكليز ، عند رجوعهم الى بلادهم ، زرعت الشكوك في قلوب الانكليز . وبعد ان ثبتت جريمة الارتكابات على كليف وضع حداً لحياته بالانتحار . ان سيطرة شركة خاصة على مساحات شاسعة شكلت بحد ذاتها حادثاً هاماً للغاية . ولذا راح البرلمان الانكليزي يضع ، عام ١٧٧٣ ، قانون التنظيم الذي اوجب المزيد من الاشراف من قبل الحكومة ، على الشركة . وبذلك ابتداء مشروع اخضاع الامبراطورية البريطانية لتفتيش أدق من قبل التاج . وهكذا وضعت كل ممتلكات الشركة تحت مراقبة حاكم عام هو الجنرال وورن هاستنغز الذي جاء تعيينه من قبل البرلمان ، الا انه لم يكن في مقدوره ان يقرر شيئاً بدون الرجوع الى مجلس اعلى ، اعضاؤه معينون من قبل البرلمان . وكان على مدراء الشركة في لندن ، ان يطلعوا الوزراء على جميع مراسلاتهم .

وقامت في كلوكوتا محكمة عدل ، من صلاحياتها حق الرفض لكل قرارات الشركة .

غير ان الحاكم وورن هاستنغز (١٧٧٤ - ١٧٨٥) الذي كان طاغية ، شديد البأس ، لا ضمير له ولا وجدان ، راح يستثمر ، دونما خجل او وجل ، امراء الهند ويعتصرم اعتصاراً . كان الناس في الهند يحملون حقداً عميقاً على الانكليز ، كما انهم سخطوا على ادارتهم وسلطتهم فيها . وعمل وورن على خلع راجا بيناريس وضم ممتلكاته . الا انه باء بالفشل امام سلاطين ميسور : حيدر علي وابنه تيبو - صاحب ، اذ وضع الانكليز امام اكبر خطر واجههم ، بين ١٧٨٠ - ١٧٨٣ ، ابان حرب استقلال اميركا . فقد كان سبق لحيدر علي ان عقد حلفاً مع فرنسا ، فأسعفته ببعض الامدادات . فهاجم جيش ميسور بقيادة ضباط فرنسيين مقاطعة كرناتيك ، في حزيران ١٧٨٠ ، ودحر الانكليز ، وأسر عدداً كبيراً من ضباطهم الذين دانوا بخلاصهم من موت محتم لتدخل الضباط الفرنسيين . وفي البحر تغلب النيبيل الفرنسي دي سوفرين ، خمس مرات على الانكليز (١٧٨٢ - ١٧٨٣) في خمسة انتصارات متتالية ، اهما وادعاهما للفخر النصر البحري في معركة غوندلور (حزيران ١٧٨٣) . وكان الانكليز يفكرون جدياً باخلاء مقاطعة كرناتيك والانسحاب منها ، عندما تم عقد معاهدة فرساي التي اعادت السلام الى ربوع الهند ، واضطر تيبو - صاحب الذي خلف أباه ، عام ١٧٨٢ ، الى توقيع معاهدة منفالور مع الانكليز (٧ آذار ١٧٨٤) ، بعد ان رأى نفسه منزلاً ، فأعادت المعاهدة الامور الى ما كانت عليه من وضع سابق .

فقد بلغ من تجاوزات هاستنغز لواجباته وكثرة مخالفاته المتكررة للقانون وارتفاع صوت الهند بالشكوى المريعة عالياً والتبذر بما لحق بها من حيف ، ان اضطرت الحكومة البريطانية لاستدعائه وإحالاته على المحاكمة . فقانون الهند الصادر ، عام ١٧٨٤ ، ترك للشركة حق تعيين الحاكم العام ، مع الحق للملك بعزله ، والنشاء مجلس تفتيش ترك للملك أمر تعيينه ، مركزه لندن ، كما أوجب هذا القانون ، على الشركة ، توجيه نسخة الى المجلس المذكور من جميع مراسلاتها .

وهكذا نرى الانكليز ، عام ١٧٨٩ يقيمون في الهند بشكل غريب تحت ستار شركة تجارية خاصة ، تابعة ، من جهة ، للقول الكبير ، فاعتبرت عنده بمثابة موظف كبير ، كما كانت من جهة أخرى ، تابعة لرعية ملك انكلترا ، يشرف عليها عن كثب ، يناصرها ويشد من ازرها في ما رمت اليه من تهديم الامبراطورية المغولية وانهاكها تدريجياً . وكان فتح البلاد أبعد من ان يتم ، اذ كان لا يزال في الهند ممالك مستقلة ، مهيبة الجانب ، منها مملكة السيخ في مادهايا سندھيا ، ومملكة ميسور . وكان الانكليز ، لما ابدوه من العجرفة والجشع ، وبما اظهروه من ضروب العنف والمنع والقسوة ، موضوع كره الجميع ، في كل مكان ، بحيث كان الكل يتوقع انفجاراً عاماً في البلاد .

الشرق الاقصى

سكن جبالها المخرجة اقوام يعتاشون من القنص والصيد والقطاف وشهدت الهند الصيلية احواض الانهر الخصبة التي تجري فيها ماجريات الاحداث. فقد اقتبس شعب المونز الذين جاؤوا البلاد من الشمال ، الحضارة الهندية وأسسو على مجاري نهرى الايراوادي والسيتانغ مملكة بيغو . ترك المناخ وغنى التربة وخصبها اثره المخلخل في هذه الاقوام ، فاستسلموا للدعة والكسل واصبحوا ، بالتالى عرضة لهجمات البورمانيين الذين هبطوا من اعالي جبال همالايا واستوطنوا البقاع المحيطة بأعالي نهر الايراوادي وأخذوا يستمرئون الحضارة الهندية . وحوالى عام ١٧٥٠ ، تمت السيطرة نهائياً للبورمانيين . وفي سكرة النصر الذي حققوه خرجوا من حدودهم الطبيعية وفتحوا بلاد سيام واستولوا عنوة على العاصمة أيوتيا (١٧٦٧) وحلوا معهم كاسرى حرب ، جانباً كبيراً من الشعب السيامي ، وشتتوا المسيحيين أيدي سبا أو أبعدهم خارج البلاد .

وقد تمكن شعب من اقوام «الثاني» جاء من مقاطعة يو - نان من ان ينشئ له دولة في سيام احتلت في توسعها ، حوض نهر مي - نام . وكان خط مقسم المياه السفلي نحو الشرق والسهول المعشوشبة ، يتيح لهم القيام من وقت الى آخر ، بغزوات على الكمبودجيين المسترهلين وعلى الامارات فاي في مقاطعة اللاس المنعزلة في بعض الاحواض النهرية الخصبة ، بعد ان ايدت دولة السيام من الوجود ، عام ١٧٦٩ ، ثم عادت وتطلعت فيها الحياة من جديد اثر ثورة الفاجاتاك عام ١٧٦٩ التي جعلت من مدينة بنكوك ، عاصمة لها واستطاعت ان تعيد البورمانيين من حيث أقوا وردتهم ضمن حدودهم الطبيعية وابتعدت من البلاد ، المرسلين النصارى ، واستأنفت سلسلة من الغزوات المدوخة باتجاه الشرق ، فتأخذ من الارقاء ما تحتاج اليه الارض من يد عاملة لاهياء موات الاراضي البور .

اما في الشرق ، فكانت دلتا نهر سنغ - كوي او التونكين ، والسهول الساحلية الصغيرة ، ودلتا نهر الميكونغ والكوشنصين ، منذ بضعة قرون ، عرضة لموجات من الغزاة هم الاناميون مستهدفين النيل من الحضارة الصيلية . فقد تمكن هؤلاء الفلاحون الاشداء من طرد الكمبودجيين الذين ألقوا طبقة ارستوقراطية ، كسولة سيطرت على شعب من أسرى الحرب صار امرهم الى العبودية والرق . فبلغوا ، عام ١٧٥٣ مدينة ميتو . وكانت مملكة الاناميين تقيم ، ولو اسمياً ، الولاء للملك «لاي» هؤلاء الملوك الكسالى المترفون في مدينة هانوي ، كما اعترفوا بالتابعية للصين . واذ كانت مملكتهم محصورة في رقعة ضيقة من الارض ، فقد انقسموا ، في الواقع ، بين اسرتين من سدنة البلاط هما : «الرينه» في هانوي «والنفوين» في مدينة هويه . وقامت بين سدنة البلاط وبين الامراء الاناميين حروب متصلة ، كثيراً ما كان المسيحيون فيها عرضة للاعتصار والسخرة كما استهدف المرسلون انفسهم للمذابات والاضطهادات والطرد . «غلب نفوين - انه على امرء»

فالتجأ الى احد المرسلين ، هو المطران أدران : بينو دي بيهان الذي غادر البلاد وجاء فرنسا لائتداً بالملك لويس السادس عشر (١٧٨٧) . وللحال ارسل الملك بعض الضباط ، ومدفعية وبعض المهندسين ، مقابل التنازل له عن خليج توران وارخبيل بولو - كوندور . واذ ذاك استطاع نغوين-انه ان يستولي ، عام (١٧٨٨) ، على مدينة سايفوت وشرع بفتح مقاطعة الانام .

وقعت الانسولاند تحت سيطرة سلاطين الملايو الذين كانوا على الاسلام . الا ان الشركة الهولندية للهند الشرقية كانت لها الأولوية في هذه الاصقاع النائية وتحرص حرصاً شديداً على ابعاد الاوروبيين منها . وعثلت اهم ممتلكات هذه الشركة في جاوا المشهورة بانتاجها الضخم للبهارات والنيلة والحرير . كذلك سيطرت الشركة على مدينة بتافيا (٥٠ الف نسمة) وما حولها من الضواحي والارياض (٢٠٠ الف نسمة) وعلى السواحل الشرقية الشمالية بما فيها سمارانغ وجزيرة مادورا (مليون و ٦٠٠ الف نسمة) . أما ما تبقى من هذه البلاد ، فقد شكل ممالك اعلنت ولائها للشركة ، وقام بينها سلسلة من الحروب ادت الى ايهانها فالحملها . اما المناطق الأخرى ، فقد حاولت الشركة ان تسيطر عليها لتجعل في حوز حريز ، مضيق مالقا ، وابعاد كل من يمكن ان ترى فيه مزاجاً لها او منافساً لتجارتها والاقتصاد من القراصنة الذين كانوا يعيشون فساداً في جزر ريو وسليس . واقامت لها حامية في مدينة مالقا ووضعت تحت ادارتها مدينتا بندا وامبون ، وحمت سواحل صومطرة الغربية ، وسلطان بالمبانغ ، وضربت نطاقاً محكماً حول بورنيو من الامتيازات التجارية التي نالها في هذه الجزيرة ، واحتلت في جزيرة سليبس ، ماكسار ، وحرقت ، بعضاً على بعض ، الامراء المحليين .

ولم يكن للشركة الهولندية سوى عدد ضئيل من الجنود ، كما لم تملك عمارة حربية ، تأخذ على عاتقها الدفاع عن هذه الممتلكات الشاسعة . وفي سنة ١٧٧٢ ، انتزعت منها الشركة الانكليزية للهند الشرقية بضعة مراكز في صومطرة . وفي سنة ١٧٨٠ ، كان القرصان الهولنديون سبباً مباشراً لنشوب الحرب بين هولندا وانكلترا ، فانهم الهولنديون واضطروا للتخلي عن ناغاباتام للانكليز واعترفوا لهم بحق الاتجار بحرية مطلقة ، في مياه الارخبيلات العديدة (معاهدة باريس ، ٢٠ مايو ١٧٨٤) .

خرجت الشركة الهولندية في الحرب ترزح تحت وطأة الديون ، لا هيبة لها ولا شأن . وقد تنمر عليها الامراء المحليون ، كما راح المعمرون يتحررون من محسوبيتهم للشركة ومن ولائهم لها ، مظهرين دوماً الاستعداد لاعلان الثورة . وما ان اطلت سنة ١٧٨٩ ، حتى كانت الشركة على وشك فقدان كل ممتلكاتها .

عاشت الصين ، في القرن الثامن عشر ، في ظل الاسرة الامبراطورية المنشوكية ،
الصين فكان عهدا من ازهر عصور الصين وازهاها ، عبر التاريخ . المحرر اباطرة
هذه السلالة من ذراري امراء القبائل الرحل التي تمكنت من ان تنتزع الصين من اسرة المنغ ،
وذلك خلال هذه الحقبة الواقعة بين ١٦٤٠ - ١٦٥١ ، وقد برهنوا عن رأي حر ورعاية
صدر كما حافظوا بكل احترام ، على عادات البلاد واعرافها القومية ، حيث تنعم التقاليد بكل
رعاية ومنزلة ، مع الاحتراز الا تقف هذه الاعراف حائلا دون تطوّرهم فاقبلوا ، ما وسعهم
الحيلة ، على الاخذ بأسباب الاختراعات الاوروبية . فلا يزال الامبراطور كانغ - هي نصف
بدوي ، جنديا لا يكل ولا يمل ، وصيادا ماهرا مال بكليته للصيد والقنص ، لا يستقر في مكان ،
متنقلا بين اطراف الامبراطورية النائية ، مواجهها بروح واقعية احداث الدهر وصروفه ،
ذو تفكير نير ، وقضاء اتصف بالسرعة وصدق العزيمة . وفي كانون الاول ١٧٢٢ ، خلفه على
اركة الحكم ابنه الرابع ، الامبراطور لونغ - تشانغ . فقد كان جنديا له من العمر ٤٥ سنة ،
كثير الظنون ، شديد القسوة ، رصين ، مجتهد ، متفان في القيام بواجباته . وفي سنة ١٧٣٥ ،
ارتقى العرش كيان - لونغ ابن الامبراطور يونغ - تشانغ ، وهو شاب له من العمر ٢٤ سنة .
وقد راح هذا الصيغ ، البدوي الاصل يملأ البلاط حياة ونشاطا ومرحا ، قلما غادر عاصمته
الامبراطورية ، يفرغ ايامه بين نساءه وخصيانه ، ثقيف ، ذواقة ، وعالم طلمة . قرض الشعر
ووضع عددا من المعاجم والفهارس . ومع ذلك عرف ان يحافظ على قواه البدنية وعلى نشاطه الزاخر .
فاذا لم يقدّم هو نفسه بحروب ، فقد كان سياسيا عنكنا واداريا لبقا قديرا ، شابسه جده بنظره
الثاقب ونظرياته السياسية الجريئة ، واستطاع بفضل ما تم له من صلابة في الرأي من ان يملك
حتى سنة ١٧٩٦ .

تابع هؤلاء الاباطرة اعمالهم الحربية وفتوحاتهم ، الى الجنوب من نهر اليانغ - تسي ،
وتوفق الى احتلال الثماني عشرة ولاية التي تتألف منها الصين الحقيقية . ففي سنة ١٧٧٤ ، تم له
إخضاع قبائل مياو - تسي الوطنية التي كانت تقطن المناطق الجبلية في تسو - تشوان
وكواي - تشاو . وغزو الصين الذي شرع به الصينيون منذ عهد اور الكلدانيين وبابل ،
أوفى على نهايته . ولم يبق هؤلاء الرعاة الا ان يعمّروا السهول بالسكان وان يستثمروا البلاد
الجبلية ، واستغلال ما فيها من خيرات الارض .

تابع كيان - لونغ سياسته المعادية لكبار الملاكين واصحاب الاراضي والاطيان العريضة .
وهي اراض اعطيت للامراء ولرجال البلاط ول كبار الموظفين مكافأة لهم ، كانت مغاة
من الضرائب والسخرة . وقد صادر الامبراطور جانباً كبيراً من هذه الاملاك وزعها بين
فلاحين استحالوا بذلك من صغار الملاكين . والمزارعون الذين يستغلون ، ابا عن جد ، اراضيهم ،
منذ بضعة اجيال ، بلا انقطاع ، اعتبروا مالكيين شرعا لوجه الارض او اديعها ، بينما بطن
الارض او داخلها يبقى من حق المالك الاصلي . وهكذا حق للمزارع ان يشتري او ان يبيع

ما يملك من وجه الارض، له الملكية العينية بينما تبقى للمالك الاصلي ، الملكية الذاتية . وهكذا طلع في الصين نظام ديمقراطي ، زراعي رسخت اصوله . وبذلك يكون تصرف الاباطرة المشوكين اقرب الى تصرف طغاة دكتاتوريين اخذوا جانب الشعب ، واعتمدوا في حكمهم وادارتهم على تأييد الجماهير الشعبية عندما راحوا يقيمون اظافر الارستوقراطية وكبار الاغنياء في عهد المنغ . وتجلي تحسين وضع الفلاحين ، في ازدياد الثراء وتكاثر عدد الاثرياء . وبلغ عدد سكان الصين ، عام ١٦٦١ ، حوالي ١٠٥ ملايين نسمة ، قاذوا به يرتفع ، عام ١٧٦٦ ، الى ١٨٢ مليوناً . وهكذا قويت يد الدولة واشتد منها الساعد .

في هذه الصين العامرة المزدهرة ، ازدهرت الفنون ولا سيما ما مالا منها ذوق سكان البلاط والنوادي الادبية ، كالشعر الخفيف الرشيق ، والخزفيات ، وهندسة المنازل والحداث ، وهي فنون تدخل البهجة والبشر الى النفوس ولا سيما نفوس الغزاة بعد ان يتذوقوها ويهيما بها . اما فنون الرسم والنقش والتحلية فقد اخذت ، بعكس ذلك ، بالانحطاط .

نظم شعراء الصين في مواضيع ورموز اتخذوا منها ستاراً يستترون وراءها ، جاءت آية في الروعة كما جاءت منظوماتهم روائع قلأ القلب هزة والنفوس بشراً . وقد بلغ فن الخزفيات ، وهو اهم فنون الصين اذ ذاك ، أوجه ووصل الى الذروة من الاتقان في عهد الامبراطور كنج - هي . فبعد ان يُمرث الصلصال جيداً ويعجن عجناً مسبقاً يلين معها ويستجيب توضع المعينة في القالب وتدار بعناية كلية ، فترقدي ، اذ ذاك ، اشكالاً وصوراً تشع نعومة واناقة ، ثم تصقل بعناية كبيرة وتطلى بالميناء النقي اللامع ذي الالوان القوية الصارخة . والآنية من كل حلي وزينة ، تبدو وكأنها قشرة الدراق او احمر الحديد او دم الثور ، والقرمز المرجاني والبنفسجي الباذلجاني والاسود الفاحم المشع ، او زرقاء ، خضراء ، صفراء . اما الآنية المصعدة للتحلية والتطرية فتبدو زرقتها على ارضية بيضاء ، او على الوان متنوعة فوق ارضية خضراء شفافه . وفي عهد الامبراطور يونغ - تشانغ ، حل محل الارضية الخضراء ، ارضية قرنفلية متلألئة بالوان زاهية من القرمزي ، الى الابيض ، الى السمنجوني ، الى الاصفر الليموني ، او الازرق الفاقع والاصفر الكبريتي ، والاصفر الخردلي ، والاحمر الارجواني ، تتناوح فيها الألوان بين الناعم والمهف ، في اتساق وانسجام يأخذ بمجامع القلب . والصور المرسومة كثيراً ما استوحاها الفنان من منظومات قدامى الشعراء ، فجاءت على شكل رسائع وانواط او رسوم المشجرات المتشابكة ، والخيزران المتعاهد وهفاف الفيوم ، وعود الصليب ، والفراش وذقاق الطير والمصافير والسيدة الهيفاء ذات الوجه المشرق الصبوح . ولم يلبث كيان - يونغ ان اضاف الى هذا كله التحلية المعروفة عندهم : « بذات الالف زهرة » . وهذه الآنية ذات المظهر الأثري والالوان المهففة والانوار المتلألئة الشفافة ، والاشخاص ذوي القدود الهيفاء كسارية العلم ، تتثنى رقة ونعومة وقذوب غنجاً ودلالاً تذكركنا ، ولو من بعيد ، بفن الرسام الفرنسي واطو . « هذا هو طراز لويس الخامس عشر الصيني » . ولكن بعد عام ١٧٥٠ ، يشكو القوام

والهندام قلة العناية ويسأخذ بالتحول والالمحطاط ليسارع في ترديه اثناء القرن التاسع عشر ، بينهما يشتد الطلب عليه في اوروبا ، كما ان الصناعة اخذت تشكو ، هي الأخرى ، السرعة والتعجل .

وسعمل الاباطرة الثلاثة على ترميم ما عُرف في بكين « بالمدينة الحمراء الممنوعة » وهو الاسم الذي اطلق على المقر الامبراطوري . كانت النيران التهمت ، عند سقوط سلالة منغ ، عام ١٦٤٤ . فراحوا يبنون ، في ضاحية المدينة ، الى الشمال الغربي من بكين ، عن طريق الآباء اليسوعيين « فرساي الصين » ، وهو صرح منيف ، ضم عدداً كبيراً من القصور الفخمة الجميلة تحيط بها الجنان الخضراء والحدائق الغناء ، في تناغم موصول من الفنون الأوروبية والصينية ، على اتم ما يكون الانسجام والمناغة . والظاهر يدل على ان الروح تختلف عن روح فرساي ، اذ ان التنوع وحرية الطبيعة هما على نطاق ضيق ، وبذوق رفيف واثق من نفسه . اختار الآباء اليسوعيين من بين هذه النواشز الجميلة الحلوة ما ينسجم تماماً مع مطلب الروح الانسانية . فقد خلقوا مناظر ومشاهد رائعة بعد عمليات حسابية ومعادلات وتطبيقات غاية في الدقة والتعقيد ، من هذه الاشياء البارعة الجمال التي تنطق عالياً بانتصار العقل وتذيع التجلي والتسامي .

ومع هذا ، فالفن الصيني العظيم كان ولتى عهده ، وانقضى في القرن الثامن عشر ، فلم يبق سوى فنون تخيلية ترفهية . فلم لا يجب ان نرد هذا التغير والتبدل يا ترى ؟ إلى حوادث الغلبة والفتح ودخول روح جديدة على البلاد بدخول الملمشو الى الصين ، وكلها تغييرات وتحولات تمت بالرغم من الجهود الصادقة التي بذلها الاباطرة الملمشو في سبيل تمثلهم الحضارة الصينية ؟

واستأنف الاباطرة الملمشو ، في القرن الثامن عشر الأخذ بسياسة صيلية قديمة طالما اعتمدها اباطرة الصين ، الا وهي بسط سيطرتهم على آسيا الوسطى . يحف بالصين سباسب وصحارى شاسعة كانت طرقاً موصلة الى الصين اكثر منها عوائق وحواجز تحول دونها ، تمور فيها اقوام من البدو ، في حركة دائمة هم دوماً على استعداد للغزو والنهب والسلب والاستباحة عند أقل بادرة ضعف أو وهن لدى الجيران . وكان يخترق هذه الصحارى الطرق البرية التي ربطت الصين بآسيا الوسطى والغرب والتي ما زالت تدرج عليها قوافل التجار والرحالة بالرغم من سهولة الاعتماد على المواصلات البحرية ، حاملة بضائع واصنافاً خفيفة الحمل غالية الثمن . من هذه الطرقات ، طريق موسكو - بكين ، عبر بحيرة بيكال واورغا ، او بالأحرى ، عبر نهر ارتكش وبحيرة زيسان الواقعة بين جبال ألتي وطربفاتاي ، منها كذلك الطريق التي تمر الى الشمال من الجبال السهاوية (تيان - شان) بين طربفاتاي وبين آلا - تاو ، عبر دزونفاري وبحيرة بلغاش ، باتجاه مدينة استراكان في روسيا ، وهي افضل هذه الطرق واعرضها وتأتي على ارتفاع ٤٠٠ متر من سطح البحر ، كثيرة العشب والكلأ يردفها وادي نهر الإيلي الواقع بين آلا - تاو وبين تيان - شان ، انما تقع تحت رحمة قبائل بدوية نهابة سلاية ؛ ومنها الطريق التي تمر الى الجنوب من الجبال السهاوية وهي اكثرها طروقاً واعتماداً لدى المسافرين عبر

التركستان الشرقي وكشغار وواحات التركستان الغربي : فوكان وبخارى تم تتجه منها : اما شمالاً الى خيوى واستراكنخان ، واما ، وهو الغالب ، الى مشهد وبلاد فارس والبحر المتوسط . فحسن التدبير ، والاهتمام بالتجارة وتأمين وسائلها ، جعلت الاباطرة يهتمون دوماً بهذه الشبكة من الطرقات الدولية .

وقد حالفهم النجاح في مهمتهم هذه . فقد كان الجفاف الطابع المميز لهذه الاقطار كما كانت سكانها قليلي العدد . فالقبائل البدوية انقسمت على بعضها البعض . فلم يكن باستطاعتها ان تعمل على اهل الحضرة من سكان الواحات المتناثرة عند اقدام سفوح سلاسل الجبال . ولم يستفد البدو من الحروب الاهلية التي نشبت في الصين ، بعد ان كانت سبيلهم الوحيد للفوز كانهصار ببعض الغنم . ومن ناحية اخرى ، فقد كانت للاباطرة المنشو مدفعية حديثة صبا لهم اليسوعيون في بكين .

وقد كان بالامكان ان ينهض مزاحون لهم من بين اقوام الروس القاطنين ارجاء سيبيريا والذين كانوا يتحكمون ، في الجنوب ، بالطرق التجارية والوسائل التي تمكنهم من الوصول الى المياه الدافئة . فقد كانوا يتضرسون ، كل يوم ، بمساوىء مرفأ أوخوتسك ، لصعوبة الوصول اليه بعد ان غمره الجليد والثلج بضعة اشهر في السنة ، والذي كان يربطه بمدينة ياكوتسك Yakoutsks طريق برية طويلة للغاية ، صعبة المسلك ، قل من طرقها . فقد كانوا بحاجة الى طريق نهر العامور . الا ان قوام ، في القرن الثامن عشر كانت متركزة في الغرب ، وليس تحت تصرفهم في آسيا الوسطى سوى بعض الفرق الضعيفة التي تألفت من بعض المعمرين ومن بعض الجنود . فلم يقوموا ، في عهد بطرس الاكبر ، بأي مجهود مسلح واكتفوا من حيث اتصلهم بالصين ، بتحسين علاقاتهم معها عن طريق البعثات والسفارات الدبلوماسية . وكانت العلاقات بين البلدين تنظمها شروط معاهدة نرتشنسك (١٦٨٩) اذ احتفظ الصينيون بموجبها ، بكل حوض نهر العامور وحالوا بذلك دون وصول الروس الى منشوريا ، هذا الممر المنبسط الذي يتألف من سهول خصبة تمتد من النهر المذكور حتى مشارف الصين ، في الشمال . وقال الروس ، في المقابل ، حرية الاتجار مع الصين الامر الذي مكن لقوافل التجار الروس الوصول الى بكين . وفي سنة ١٧٢٩ ، قال الروس بموجب معاهدة كياخطا Kiakhta تصحيحاً جزئياً في الحدود ، والسماح لهم بانشاء كنيسة ارثوذكسية في بكين حيث اقامت جالية روسية صغيرة . غير ان سفريات القوافل وتنقلاتها خضعت لبعض الاجراءات ، والمبادلات التجارية اشترط فيها ان تتم عند اطراف منغوليا ، في كياخطا وميمتشين . وكان من جراء هذه التضييق ان ادت منافستهم هذه الى شل حركة القوافل الى بكين ، وهي قوافل توقفت الحكومة الروسية عن متابعة إرسالها . وهكذا امّن الصينيون على حدودهم من الشمال .

وقام الى الغرب من نهر العامور حاجز بين الروس والصينيين قوامه اقوام رعاة . وكان الصيادون القادمون من اورغنخاي Ourgangkhay والعاملون بين نهري الشلكا والإنانسي ،

يدفعون رسوما عن صيدهم السمور لكل من الصين ولروسيا . ومنذ انكسارهم الصارخ عند بحيرة زيسان *Zaisan* ، عام ١٧٢٠ ، انقطع الروس عن اعتماد ممرات دزونغارى وكشغاري . وآخر حصن لهم على نهر إرتكش ، كان حصن أوستكا مينوغورسك . ومنذ ذبح البعثة الروسية التي خرجت من استر كخان لاحتلال خيوى عام ١٧١٧ ، باتجاه التركستان الغربي ، لم يتجاوز الروس ، شمالاً شواطئ بحيرة بلخش ، وبالنادر جداً منطقة الفولغا . فكان يكفيهم ان يشجعوا القوافل التجارية بتخفيضهم الرسوم المفروضة على الصفقات التجارية ٥ ٪ وباعفاءات يعطونها للقوافل المرسله من قبل كبار رؤساء القبائل . ولم يلق الصينيون ، من جهتهم اية صعوبة تحدد من حركتهم التجارية .

وكان الامبراطور هانغ - هي ، في مطلع القرن الثامن عشر فرض الامن وسط السلام على الحدود الغربية . فهزم غول الغرب عام ١٦٩٧ . اما مغول الشرق او الكلخاز ، فقد اعترفوا بالولاء لخان الملشو وهو تشاري مثلهم . اما في التبت الواقع تحت حكم لاهوتي رهباني ، فقد كان سبق لكانغ - هي ونصب عليه الدالاي - لاما الذي كان موالياً له .

غير ان هذه النتائج التي توصل اليها كانت واهية ، وبقيت ممرات آسيا الوسطى بعيدة عن إشراف الصينيين وسيطرتهم . فمن جبال سايينسك *Suiansk* حتى جبال كوان - لن شكستل المغول الغربيون او الإيلوث *Eileuthes* امبراطورية لهم سيطرت على الطرق التي تسلكها القوافل الضاربة في تلك الارزاء ، وبعد ان سيطروا على الحركة التجارية في آسيا الوسطى ، شرهت نفوسهم للسيطرة على التبت وعلى منغوليا الشرقية . وقد يكون خطَر لهم ان يستخلصوا الصين نفسها من قبضة ابناء عمومته الملشو .

ولذا قاموا في القرن الثامن عشر ، بعدة هجمات احدث كل واحدة منها ردة عند الصينيين . وكانوا في كل هجوم يقومون به يتقهقرون الى ان زالت امبراطوريتهم . فقد امتنع الروس عن شد ازرهم . واستخدم الصينيون ضدهم وحدات من فرسان الكلخاس ، وحياناً اخوة لهم منشقين عنهم من الإيلوث لا يقولون عنهم سرعة في حركة تنقلاتهم ، وقوة صبر واحتمال وطول معاناة . واستعملوا الاسلوب التقليدي الابدي الذي طالما ركنوا اليه الا وهو استعمال الحضر ضد البدو . فأنشأوا عند بعض النقاط الحساسة الواقعة على طريقهم مدناً حصنها بالقللاع ، واقاموا فيها جوالي عسكرية صينية . وقام الجنود يعمرن الارض ويحيون اراض مواتا ضيقة الرقعة ، يسهل الدفاع عنها . وانشأوا مراكز تزوين فاضت بالمواد الغذائية والاعلاف للدواب ، يستطيعون معها القيام بغزوات طويلة . وراحوا يعيشون فساداً وينهبون الموارد الطبيعية القليلة المبعثرة التي كان الإيلوث يعولون عليها . فما لبث الإيلوث ان اشتدت بهم الحاجة الى المواد الغذائية وعلف الدواب والخيل والجمال ، فاضطروا ، والحالة هذه ، للمهادنة والتزام جادة السلام . وعندما كانوا يعودون لحمل السلاح ويستأنفون اعمالهم الحربية ، كانت قوى الحاميات تحول دون استعادتهم الاراضي التي خسروها .

وفي سنة ١٧١٧ ، قام قبدان ، احد زعماء الايلوث ، بهجوم على التيبب لم يلبث ان اتسع بحيث راح يهدد يونان وسوتشوين . فانتزها هانغ - هي سالحة مؤاتية ليقوم بطرد الايلوث خارج التركستان الغربي ، وبذلك يؤمن للصينيين ، السيطرة على الطرق الرئيسية باتجاه الغرب . ثم راح ينشئ له جوالي عسكرية عند المر الذي يؤدي من تيان - شان الى بر كول وخامي وطرغان واورومتشي . كذلك اعاد النفوذ الصيني الى التيبب .

وقامت قبائل الايلوث بغزوات متكررة ، بعد عام ١٧٣١ ، حملت الامبراطور يونغ - تشانغ الى طردهم ودفعهم الى الشمال من جبال الالتي ، ليؤمن للصينيين ممرات دزونغاري ومعابرها . وفي سنة ١٧٣٤ ، نرى الصينيين ، في أولياسوتاي وكيدو على ضفاف نهر إرتلش . وأجبر الامبراطور كيانغ - لونغ ، الايلوث ، عام ١٧٤٠ ، الايتجاوزوا جبال الالتي ، الى الجنوب .

ولم يمض وقت طويل حتى تم له اخضاعهم واعترفوا له بالتابعة ، على اثر الخصومات والانشقاقات التي ثارت بين النازعين للاستئثار بالسلطة ، مما حل عدداً من امراء الايلوث الذين باءت محاولتهم بالفشل ، على الالتجاء الى الصين ، ومعهم الكثيرون من اتباعهم وانصارهم ، فقدموا طاعتهم وولاهم للامبراطور كيان - لونغ ، مقابل المراعي التي وضعها تحت تصرفهم والحماية التي نعموا بها خلال حكمه . وقد بدت فرصة سالحة للامبراطور ، فجهز فرقة انضمت اليها وحدات من الإيلوث ، قامت بفتح وتدوين المنطقة الواقعة الى الشمال من جبال الالتي . وهكذا انفصلت عرى الوحدة بين اقوام الايلوث فانقسموا الى اربع قبائل لكل منها خاناتها المتميزة يجري تعيينهم من قبل حاكم صيني عام يمثل الامبراطور ، استقر بعد ذلك ، الى الجنوب في مدينة خولدجا الواقعة على نهر «إيلي» ، في نقطة مركزية ، بحيث يتاح له مراقبة كل الممرات والمداخل (١٧٥٥) .

الا ان القضاء قضاء تاماً على الايلوث لم يتأخر أجله . فقد قام احد زعمائهم وهو امير من أمراء العائلة المالكة ، يدعى اموريانا ، ان حل اثر الفشل الذي مني به ، البدو المستقلين على الانتفاض والثورة ضد الصينيين ومحاربتهم . ولما طُلب اليه القدوم الى بكين ليؤدي حساباً عما زرعت يده ، فرّ ولجأ بنفسه ، نحو بحيرة إرتلش ، وجمع حوله ٤٠٠٠ من الانصار ، وفنك بأفراد الحماية المرافقة للمقيم الصيني ، التي تألفت من ٥٠٠ صيني . فكان ذلك اطلاق العنان لثورة لاهبة ضد الصينيين . الا ان الايلوث انهزموا شر هزيمة عند نهر الاميل ، سنة ١٧٥٧ ، وقعت فيهم مذابح دامية . ففر امورسانا مع ٢٠ ألفاً من رجاله وأنصاره والتجأ الى الروس . اما الباقيون فقد جرى ابعادهم الى حدود كان - سو ، وضمت الاراضي التي كانت تابعة من قبل للايلوث الى الامبراطورية الصينية . فامتدت حدود الصين حتى بحيرة بلخاش . وعين على الاراضي الجديدة حاكمين صينيين ، قام احدهما في كبدو كما قام الثاني في خولدجا . واعيد إعمار

البلاد وتأهيلها بالسكان بأقوام الكازاك هم مزارعون مسلمون من الكشغار، ومعمرون عسكرون من الملشو، ثم جاء عام ١٧٧١، بأقوام جدد من التورغوت. وهكذا أصبح التركستان الشرقي ولاية صينية، تشكلت منها ولاية سنكيانغ العسكرية.

ان القضاء التام على الامبراطورية الايلوث سجل الذروة في نفوذ الامبراطور كيات - لونغ في آسيا الوسطى. فقبائل البدو في التركستان الغربي: كالكرغس في القبيلة الذهبية الكبرى (١٧٥٨) والقبيلة الذهبية الصغرى (١٧٦٢) وخانات بخارى وخوكان وطشقند واندجان، قدموا ولاءهم للامبراطور، وبذلك بلغت سلطته مشارف بحر قزوين. وقد كان من بعد شهرته، وشدة بأسه وقوة سطوته ان خرجت قبائل تورغوت المنسول عن طاعتها وولائها للروس. فهاثة الف اسيرة من هذه القبائل، كانت تقيم مضاربها على ضفة الفولغا اليمنى، كانت القيصر نفسه يقوم بتعيين خاناتها ويقدم للروس قوات اضافية مساعدة اشتهرت بشجاعتها في الحرب. فبعد ان تبينوا الخطر الذي تعرضوا له من قبل الحاميات والمستعمرين الذين اخذوا بمطاردتهم، وبعد الاهانات التي كالمها الروس لهم ومظاهر الاحتقار والسخرية التي الحقوها بهم، نفر السواد الاكبر من هذه الاسر التي تجاوز عددها ٧٠ الف اسيرة، وفرّوا نحو الشرق، بعد ان فرشوا قارعة الطريق يبحث الموتى. الا انهم وصلوا نهر ايلي والتمسوا من الامبراطور حق اللجوء (١٧٧١) وقبولهم في الامبراطورية. فسارع الامبراطور وأمدّم بما يلزم من اللفة وأغذية واقامهم في المراعي التي كانت من قبل للإيلوث، وانعم على عدد من كبار زعمائهم باللقاب شرفية صينية. وهكذا جاء شعب جديد، يقدم طوعاً واختياراً، ولاءه للامبراطور. وعيد الامبراطورية الصينية بقوة اضافية جديدة، وأخذ على نفسه الدفاع عن حدودها الشرقية.

اما في الجنوب الغربي، وفي الجنوب، فالحدود الصينية كانت في حزرز حريز. وفي سنة ١٧٩١، جاء الغوركاس وهم اقوام هنود يسكنون التيبال يحاولون السطو على اديار التيب، طمعاً بما فيها من خيرات، واجتازوا جبال همالايا فتصدّى لهم جيش صيني الحق بهم الخسف وهزمهم مراراً، ودفعهم الى الوراء حتى بلغ عاصمتهم كتمندو واضطروهم لاعلان ولائهم للصين (١٧٩٢). واحتل الصينيون، بالتجاء بومانيا، عام ١٧٦٥، المع الرئيسي واتجهوا نحو عاصمة البلاد، عام ١٧٦٧، الا ان محاولتهم هذه اصبحت بالفشل. ومع ذلك قدم ملك بومانيا، عام ١٧٩٠، ولاءه للصين وأصبح منذ ذلك الحين من اتباع الامبراطور.

وازداد امبراطور الصين نفوذاً على نفوذ بوضعه البوذية تحت رعايته وجعلها الديانة الرئيسية لهذه الرقعة من الارض الممتدة من سور الصين الى بحر قزوين. وأخذ على نفسه الدفاع عن سلطة الدالاي لاما الدينية في التيب ضد تعديلات الزعماء الالمانيين وضد الثورات التي قام بها التيبتيون الوطنيون وضد اطماع الدول المجاورة، بينما وضع تحت اشرافه المباشرة عملية انتخاب الدالاي لاما، وراح يراقب سياسته عن كثب.

وفي سنة ١٧٢٠، أتاح استرداد التيب من يد الإيلوث، للامبراطور هانغ - هي ان يجعل

منها حماية صينية . فعين عليها مندوبين ساميين اقاموا مع حامية صينية في مدينة لاهسا
و لتقديم النصح ، للدالاي لاما .

وراح الوزير الاول التيبتي يقوم في منتصف القرن الثامن عشر بدسائس تهدف لطرد
الصينيين من البلاد ، مما حمل المفوضين الامبراطوريين على تصفيته والتخلص منه . وعلى الاثر
ثار الشعب في العاصمة لاهسا من جديد ، عام ١٧٧١ ، مما ادى الى التشدد في امور الحماية واعطي
المفوضان الصينيان الحق بمراقبة كل اعمال الدالاي لاما ، كما اعترف لها بحق الاشراف على عملية
انتخابه ، كما كان صوتها مرجحاً في الهيئة الانتخابية . وكان على المنتخب ان ينال من
الامبراطور فرماناً بانتخابه يعده مجلس الطقوس في بكين ويحظى بمصادقة الامبراطور ليصبح
الانتخاب قانونياً . ان اخضاع الدالاي لاما ، للامبراطور وضع تحت تصرف هذا الاخير ،
ما للاكليروس البوذي من نفوذ قوي . كما ان مراسم التكريم والتبجيل التي احاطت بالامبراطور
كيان - لونغ الدالاي لاما بها ، امنت للاميرة المنشوية ولاء كل الاقوام الذين اعتنقوا البوذية
في آسيا الوسطى .

وهكذا نرى سلطة الامبراطور تمتد ، في اواخر القرن الثامن عشر ، على كل آسيا الوسطى
وتنتهي عند حدود السيادة الروسية والانكليزية ، كما انها تحكمت بطرق المواصلات التجارية
فا سيطرت على منافذ الصين وابوابها . وهكذا حققت الاسرة المنشوية الاحلام التي طالما راودت
خواطر الصين الوطنية .

اما علاقات الصين مع الاوروبيين ، من ناحية الغرب فلم تكن شيئاً يذكر على الاجمال ،
بينما علاقاتها معهم في الشرق كانت انشط بكثير ، وكان لها نتائج اكبر واهم وهي علاقات
سلبية تجارية ودينية ، اذ كانت الصين هدف جميع الاوروبيين العاملين في آسيا . والاشياء
المدهشة التي قام بها اليسويون واثارت دهشة الاباطرة المنشو واعجابهم اعطت هؤلاء الاباطرة
فكرة صحيحة عن القوة التي توليها العلوم والتكنولوجيا ، كما جعلتهم يوجسون شراً من احتمال
قيام هؤلاء الاوروبيين بمحاولة ازالة جيوش في الصين واخذهم لها على حين غرة من وراء ،
فيحاولون بذلك دون الاعمال الحربية التي قام بها الصينيون في آسيا الوسطى ، وربما افضت الى
خلخلة سلطاناتهم وقضت على سيطرتهم . وقد ازدادت هواجسهم ، وزادت خواطرهم قلقاً
للاخبار التي سبقتهم من الهند عن الانتصارات الاسطورية التي حققها في الهند ، كل من دي يوسي
وكليف . والخوف الذي اعترى الصينيين من احتمال غزو الاوروبيين للصين ، يفسر لنا الى حد
بميد ، حذر الاباطرة المتزايد من المرسلين والمبشرين الذين كانوا ينالون من الصينيين المرتدين ،
كل ما يرغبون في الحصول عليه . الا ان بُعد الصين ، كان يوجب على الاوروبيين انشاء عدد
كبير من الاسكفة ، ومستودعات على طول الطرق البحرية الموصلة اليها . فالعمليات التي
كانت الهند مسرحاً لها ، في البدء ، اتبعت مثل هذه الحطة وسارت على مثل هذا النهج .
وقد رأى الاوروبيون انفسهم غارقين في عدد كبير من المشروعات والاعمال يناقسون بعضهم

بعضاً . فقد قام فيما بينهم نقاط احتكاك وتصادم في كل مكان من العالم . وهكذا وجدت الدول الأوروبية نفسها في شغل شاغل من امورها لتفكر جدياً بمهاجمة امبراطورية متحدة ، هي في ابان ازدهارها حرص الابطاء اليسوعيون على احاطتها بهالة من العظمة في ما وضعوا عنها من رسائل وابحاث وتقارير . وهكذا تقدم الاوروبيون من الصين كأصحاب التماس واستطاع الاباطرة المنشو ان يحافظوا على ملء حرياتهم ، في جميع اعمالهم العسكرية ، في آسيا الوسطى بينما لم يفتحوا ثغورهم البحرية في الشرق للاوروبيين الا بالقدر الذي رأوه مناسباً .

واستقطبت الحركة التجارية في الصين عدداً كبيراً من الاوروبيين . فالبلاد بما لها من غنى ، وبما فيها من كثرة السكان ألّفت ، في نظرهم زبوناً مرغوباً فيه جداً ، وكانت منتوجاتها العديدة : كالحرير واللاك ، والخزف والشاي مواداً اشتد الطلب عليها في اوروبا ، كما ألّفت تسويقها عملية تجارية رابحة . فقد ساعد النقد وسهولة السيولة على القيام بمضاربات مالية رابحة اذ ان نسبة الفضة الى الذهب كانت بنسبة ١ - ١٠ في الصين ، بينما هي بنسبة ١ - ١٥ في اوروبا . وهكذا وفد عليها الانكليز والهولنديون والفرنسيون ناقلين معهم عملات من الفضة حصلوا عليها من اميركا الاسبانية ، عن طريق التهريب ، فيبدلوها في الصين بعملة ذهبية ، ثم يبادلون هذا الذهب ، لدى عودتهم الى اوروبا ، ضد البضائع والسلع (او ضد عملات من الفضة) فيحققون ارباحاً كبيرة .

والثغور الصينية التي 'سمح للاوروبيين الاقامة فيها كانت قليلة جداً ، كما لم يكن يُسمح للتجار الاوروبيين مغادرة هذه المدن والتغلغل الى داخل البلاد . واذا كانوا يرون فيهم خطراً على سلامة البلاد ، فكانوا يحصرونهم في احياء او حارات خاصة ويضعونهم تحت المراقبة . فقد كان للبرتغاليين امتياز مكاو الذين جعلوا منه مرفأً دولياً . وكانوا دوماً يدعون مجاناً ، ان لهم الحق بإرغام السفن الاوروبية على الرسو فيها . ونال الاسبانيون امتيازات في بعض المرافئ الساحلية ، في فوكيان وأموي وفو - تشيو ، واحتلوا لفترة قصيرة فورموزا ، الا ان الصينيين عادوا واسترجعوها عام ١٧٤٢ . وعيناً طلب الانكليز الاقامة في أنوي او في نانغ - بو . وقد وجدت الحكومة الصينية انه من الافضل لها بكثير جعل مدينة كنتون قاعدة للتجار مع العالم الخارجي ، ومن سنة ١٧٠٢ - ١٧٢٠ ، اعطى الامبراطور هانغ - هي ، تاجراً صينياً من تجار كنتون ، احتكار المعاملات التجارية مع التجار الاجانب . وكان بهذا التدبير لم يكن كافياً ، فراح الامبراطور المذكور ينشئ عام ١٧٢٠ الـ Hong او نقابة التجار الصينيين اصحاب الامتيازات ، وهي مؤسسة تجارية ضمت التجار الهانين ، وعددهم عشرة ، هم من كبار التجار في البلاد ، برئاسة رئيس الجمارك البحرية . وفي سنة ١٧٧١ ، ألغى الامبراطور كيان - لونغ هذه النقابة (Hong) وراح التجار الذين كانوا اعضاء فيها يتابعون اعمالهم التجارية ، بصورة فردية وبذلك حافظوا على الاحتكار . وكانت هذه الطريقة مؤاتية جداً للامبراطور اذ تزيد كثيراً من دخله . ولكي يكون التاجر تاجراً هانياً ، كان عليه ان يدفع للامبراطور

مبلغاً ضخماً، كما راحوا بدورهم يفرضون على السفن الأجنبية أن تدفع للامبراطور رسماً اميرياً يتناسب وحجم السفينة . كل ذلك كان من شأنه ان يضاعف اعتماد المالى ، اذ كثيراً ما استهدف التجار الهانيون ، من قبل الامبراطور ، لعملية تسليف واسعة اجبارية، يضطرون معها الى استلاف مبالغ طائلة من التجار الاجانب . كذلك سهل هذا التدبير مراقبة الاجانب المقيمين في مدينة صكنتون ، حيث كان لكل امة حي او حارة خاصة (Loge) ، وهو كناية عن خان كبير يجري تأجيرها من قبل التجار الهانيين . وكان التجار الهانيون الذين يتمتعون بالاحتكار ، في المقابل ، يحددون الاسعار حسب ما يرغبون ، فينظمون بذلك حركة دخول البضائع الاجنبية الى الصين ، فيثيرون بالتالي المنافسة الحادة بين التجار الاجانب ، ويؤمنون لانفسهم ارباحاً ضخمة جداً . ولم يكن للروس الحق بالاقامة في كنتون . بينما اعطي هذا الحق لنمساويين وبروسيين ودانماركيين واسوجيين واسبان . والجانب الاكبر من هذه الحركة التجارية كان بيد الانكليز والهولنديين والفرنسيين . ففي ٢٩ ايلول ١٧٦٥ ، في وقت كانت فيه تجارة الفرنسيين قد اخذت بالانحطاط ، وجد في مرفأ كنتون ٣٤ سفينة منها ٢١ انكليزية و٤ هولندية و٤ فرنسية و٣ اسوجية و٣ دانماركية . وفي سنة ١٧٨٤ ، دخل الحلبة التجارية منافس جديد خطير في شخص الولايات المتحدة الاميركية . وفي هذه السنة بالذات ، قامت السفينة « امبراطورة الصين » بأول رحلة لها بين فيلادلفيا وكنتون وعادت بريح يبلغ ٢٥٪ . وفي سنة ١٧٨٦ ، قام في كنتون لجنة تجارية اميركية . واحتكر الاميركيون الاتجار بالفراء في جنوب الصين . وفي سنة ١٧٩٠ ، دخل مرفأ كنتون ٤٠ سفينة اميركية قدمت من نيويورك وبوسطن وفيلادلفيا .

وقد اجيز للكهننة الكاثوليك وجدهم تقريباً الدخول الى الصين . وشهد القرن الثامن عشر نهاية عملية بديعة تمت على نطاق واسع : فالكنيسة التي حملت ، في القرن الماضي بان تكسب الصين وتدخلها في النصرانية ، رأت آمالها واحلامها تذهب هباء . وبذلك ، 'فقد كل امل بادخال الحضارة الاوروبية الى الصين .

ففي عام ١٧١٥ ، كانت الكنيسة في الصين تتألف من اساقفة برتغاليين في كل من بكين وننكين ومكاو ، يعودون في امورهم الهامة الى مرجعهم الاعلى رئيس اساقفة غوا . وكانت البابا اعترف للبرتغال بحق رعاية الكنيسة في الصين . ومن بين الامتيازات التي تمتع بها ، تبليغ القرارات والمراسم الكنسية الخاصة بالشرق الاقصى . وهكذا برز الاساقفة البرتغاليون كممثلين لرئيس الكنيسة كما برزوا رؤساء لجميع رجال الكليروس . ولذا لم يقبل البرتغال ، في الصين ، سوى مبشرين برتغاليين او خاضعين للسلطات البرتغالية .

على المرسلين الا يعترفوا بغير سلطة الخبر الاعظم ممثلة بجميع انتشار الايمان ، يمثله نواب رسولون لهم سلطات الاساقفة . والتف اليسوعيون العدد الاكبر من المرسلين قام لهم في بكين نفسها رسالتان : رسالة برتغالية ورسالة فرنسية ارسلها الملك لويس الرابع عشر وتميش على

مساعدات فرنسية . كذلك نشط اليسوعيون للتبشير في عدد كبير من الولايات الصينية . ويليه من حيث العدد : الآباء الدومنيكيون والفرنسيسكان الاسبان الذين جعلوا من القيليين قاعدتهم الكبرى ، وحملوا باعداد كبيرة ، في عدد من الولايات الصينية ، ولا سيما في فو-كيان . وكان مرسلو جمعية المرسلين في الخارج التي يقوم مركزها في باريس ، وجمعية الآباء اللعازريين ، اقل عدداً من غيرهم من الرهبانيات التبشيرية . وقد استطاعوا ان يكسبوا للمسيحية ٣٠.٠٠٠ صيني ، بينهم عدد محترم من كبار الموظفين ، يعمل افراد منهم بعية الامبراطور . والفوا مجتمعات وطنية مسيحية يقوم على خدمتهم الروحية رهبان صينيون . كانت هذه النتائج ضئيلة جداً اذا ما قيسَت بضخامة سكان الصين ، الا انها كانت بالفعل عظيمة اذا ما قيسَت بعدد المبشرين والمرسلين المحدود ، وبالصعوبات التي اكتنفت علمهم التبشيري . وبالرغم من العراقيل والمصاعب التي اعترضتهم ، فقد بعثوا في النفوس آمالاً واسعة .

كان اليسوعيون هم أول من حمل امبراطور الصين على الوقوف موقفاً متساهلاً تجاه الديانة المسيحية . وبفضل ما تمتعوا به من نفوذ عريض في البلاط ، استطاع المبشرون متابعة عملهم الرسولي في الولايات . وبفضل ما تم لهم من العلم الاوروبي والتكنولوجيا . فقد امسوا ، لا غنى عنهم كرياضيين وعلماء فلك ، فكانوا اعضاء في الديوان الفلكي الامبراطوري ورسامي خرائط ، وميكانيكيين ، ومهندسين واطباء ، وبرزوا في أعين الناس كترجمين ودبلوماسيين . وسيطروا بمالهم من مقدرة فائقة كفلاسفة وادباء من حملة الثقافة العليا ، واصبح لهم كلمة مسموعة لدى الموظفين الذين ينزلون المعرفة وحملة العلم منزلة رفيعة ، وعرفوا ان يكسبوا لهم ، الكثير من الاصدقاء ومن قادري فضلهم بفضل ما ظهر من طيب احاديثهم وبفضل ما جادوا به من هدايا وخرائط جغرافية وساعات وادوات رياضية وكتب علمية . وعرفوا ان يشيعوا الفضول العلمي في الاباطرة . وكان يحلو للامبراطور هانغ - هي ان يقتل الوقت بالتحدث اليهم فاستطاع بذلك ان يحصل على مبادئ العلوم الغربية ، كما تم له الاطلاع على المعادلات الاجتماعية والسياسية المرعية لدى الغربيين . وقد هبط نفوذ اليسوعيين وتأثيرهم في عهد الاباطرة يونغ تشانغ - وكيان - لونغ بسبب الجدل العنيف الذي أثارته الطقوس وفتح الهند . الا انهم حافظوا على مكانتهم العالية كفننيين وتقنيين . فالآليات كانت معبود كيان - لونغ ، وقد صنع له الاخ تبول ، عام ١٧٥٤ ، اسداً يتحرك من تلقاء ذاته ، كما ان الاب سيجسموند زاده اعجاباً على اعجاب بصنعه إنساناً يتحرك مع حركات الساعة . وفي سنة ١٧٥٢ ، صنعوا بمناسبة العيد التذكاري الستين لولادة الامبراطور ، تمثالاً يتحرك ويلقي خطبة تقريظ بينا تماثيل اخرى تفرح الصنوج ، وتعين اوزة بمنقودها الساعة على حافة الجوض . وهكذا ، فالعلوم والتكنولوجيا مهدت السبيل امام انتشار الدين المسيحي .

وقد ساهم الآباء اليسوعيون كثيراً في تيسير سبل الأخذ بالمعتقدات المسيحية والعمل بها عن طريق تفسيرهم للمعتقدات و « الطقوس الصينية » . آمن الصينيون بخلود نفوس الجودود وادوا

لهم عبادات من التكريم ، في ولائم جنازية وفي ادمية خاصة . واعتقدوا ان بفضل هذه العبادة كانت هذه النفوس تعيش سعيدة وتغدق النعم على ذرارها ، وبدونها كانت بائسة ، تعيسة وإذ ذاك تنتقم لذاتها بمساوىء لا حد لها ولا حصر . وكان المثقفون منهم يؤدون عبادة لروح كونفوشيوس . وكانت الصينيون يعبدون قوى الطبيعة التي رأوا فيها ارواحاً لها قوة هائلة . انما امر البت بعبادتها ترك للحكام في الولايات . والفرد لم يكن له من تأثير عليها الا بالسحر . واخيراً هنالك اله سامر ، اعلى ، هو السماء او السيد المطلق ، ها تشانغ - تي ، عبادته متروكة للامبراطور وحده ، الرئيس الاعلى للدين الذي يستمطر على البلاد اجمع بركات الله في الاعالي .

وعملية تنصير الصيني يشترط فيها عدم تحميل الصيني تغييرات قاسية تبدل جذرياً من عاداته واعرافه ، بحيث لا تسبب عملية تنصيره تنقيصاً له يجعل عيشه في المحيط الوثني الذي يجد نفسه فيه ممتنعاً لا بل مستحيلاً . هذه كانت مشكلة الهند ايضاً . ففي سبيل تخفيف الصدمة في نفس الصيني ، راح الآباء اليسوعيون يرون في الـ *Le Tien* او الشانغ - تي ، اله المسيحيين الشخصي . فالنصوص الصينية ، والحق يقال كانت غامضة في ذاتها اذ انها تصور لنا *Le Tien* تارة كإله شخصي ، كلي القدرة ، كلي المعرفة ، مثير ، مجازي الكلال على اعمالهم ، ويصورونه طوراً الها غير متميز عن الهبولي او المادة العامة . وقد عرف اليسوعيون ان يستفيدوا من هذا الغموض بحيث يساعدهم على تقديم الايضاحات اللازمة للتحديد والتعيين . وقد استعملوا هذا اللفظ بالذات للدلالة على الله الآب وعلى السيد المسيح . اما عبادة الجودود فقد ألقت مشكلة اساسية . فالمتنصر الجديد لم يكن له بد من المشاركة بهذه العبادة ، والا تعرض للطرد من الجماعة واصبح بالتالي منبوذاً منها او مقطوعاً من المجتمع الصيني ، وبذلك يستهدف لاحكام القانون . فقد شجب الآباء اليسوعيون هذه العبادة ذاتها . الا انهم سمحوا للمتنصر ان يشارك بها على اعتبار منه بانها مجرد فعل احترام للجودود ، على ان يحمل تحت ثيابه او يضع على الطاولة صليباً او صورة تقوية يرتفع بعقله وقلبه من صلواته اليه . ومنذ ١٧٠٠ ، ظنوا انهم يستطيعون ان يروا بفضل تصريح من الامبراطور هانغ - هي في هذه العبادة ، احتفالاً مدنياً لا غير . فلا غبار بالتالي على المؤمنين من حضورها والمشاركة بها دون ان يחדش ذلك ضمائرهم او وجدانهم .

وقد لقيت هذه الشروح والتفسيرات شجباً عنيفاً من قبل الكهنة بقيادة الدومنيكيين والفرنسيسكان . فقد قام بين المرسلين مناقشات وجدل هي بعض ما قام منها بين الرهبانيات والجنسيات . اما الدوافع فقد كانت دينية قبل كل شيء . فقد رأى خصوم اليسوعيين في الاله *Le Tien* عنصراً شاملاً غير متناه هو والهبولي سواء . فالصينيون ، والحالة هذه هم حلوليون ، وثنيون ، مشركون ، كما راح الدومنيكيون يعلون . فتسمية الله بـ *Le Tien* او *Chang-ti* تكون تجديفاً على الله كما فيه حمل للصينيين على ارتكاب خطيئة مميتة . اما الطقوس فهي في نظرهم عبادة ارواح الجودود ، وبالتالي شيء من الصنمية او عبادة الاصنام ، وهو شيء فظيع

في نظر المسيحيين . فالوقف الذي اجازهُ اليسوعيون للمتصّرين كان من شأنه ان يجعل باقي الصينيين يعتقدون ان الكنيسة الكاثوليكية تجيز هذه العبادة ، مع ان جوازها يعرض النفوس للهلاك الابدّي . كان لا بد من ملاحظة هذه المفارقات والإعراض عن هذه الاساليب البشرية والجهر بالحقيقة مهاقست وآلمت ، والتمويل على الصلاة وعلى الصلاة وحدها ، وعلى التقوى والمحبة ، والنعمة الالهية ، وعلى شفاعة السيد المسيح واستحقاقاته غير المتناهية في فتح الصين امام المسيحية .

فبعد ان درس الكرسي الرسولي القضية من جميع وجوها ، شجب البابا الآباء اليسوعيين ، واصدر عام ١٧١٥ براءة بابوية *Ex illa die* التي حظرت استعمال الكلمات *Tien* و *Chant-ti* مرادفتين لكلمة الله ، كما حظرت مراسم العبادة والتكريم التي تقام لكنفوشيوس وللمجدود، واجاز الاشتراك بالحفلات المدنية العرفية ، ان مثل هذا الحكم حمل في ثناياه القضاء المبرم على الارساليات التبشيرية في الصين . وامام تحذيرات اليسوعيين والامور التي اثاروها ، ارسل البابا القاصد الرسولي ميزاباربا (١٧٢٠ - ١٧٢١) ليحصل من الامبراطور هانغ - هي على السماح للصينيين المسيحيين باعتماد التشريع الكنسي . واذا كان الامبراطور برماً جداً من هذا الجدل الديني والمناقشات الحادة التي استمرت ردهاً طويلاً ، رفض رفضاً باتاً النزول عند طلب القاصد الرسولي ولو تعرض لثورة عامة ، مردداً ما كان سبق له وعلن ، عام ١٧٠٠ ، بأنه لا فرق قط بين الفكرة التي يقيمها الصينيون والمسيحيون لله ، وبان الطقوس ليست سوى مراسم تذكارية لا غير . فاذا كان ذلك تفكير هانغ - هي ، فمعظم الصينيين لم يكونوا من هذا الرأي ، ولا من هذا التفكير ، وما للامبراطور من سلطة على آرائهم الشخصية . وقفل ميزاباربا راجعاً بعد ان ترك ثنائي « جوازات » ، كانت في ذاتها بالفعل نقضاً لاحكام البراءة البابوية . فالبابا لم يعر هذا التدبير الذي اتخذهُ مثله الاهتمام الكافي ، وفي سنة ١٧٤٢ ، اصدر البابا بندكتوس الرابع عشر ، البراءة *Ex quo Singulari* التي حرمت الجوازات المذكورة واقرت احكام البراءة .

لم يأمر هانغ - هي باضطهاد المسيحيين . اما الامبراطور يونغ - تشانغ فقد اخذ يحتقر الهازئين بعبادة الجدود كما راح يسخر من العاملين على نشر عقيدة الثالوث الاقدس ، هذه العقيدة التي تصدم العقل في الصميم . ولم يطل الامر على كبار الموظفين في البلاط حق ادركوا ان الامبراطور لم يعد يأخذ تحت حمايته المسيحيين . وفي سنة ١٧٢٣ ، شجب مون - آن - بان الذي كان نائباً للامبراطور في فو - كيان ، المسيحية واصدر امره لجميع المرسلين العاملين في الولاية المذكورة بالانسحاب منها واللجوء الى مدينة مكاو . فكان ذلك إيذاً بابتداء الاضطهاد وامتداده الى الولايات الاخرى . فهُدمت الكنائس ، او جرت مصادرتها من قبل الحكومة وحولت الى مستشفيات ومستودعات او مدارس ، وتعرض الكهنة في الشوارع للمهانة والتعقير ،

وزج بالمسيحيين في السجون ووسعوا تعذيباً . وراح مكتب الطقوس يشجب المسيحية في كل أنحاء الصين . وافر الامبراطور يونغ - تشانغ هذه الاجراءات كما اقر هذا الشجب وصادق عليه عام ١٧٢٤ ، وامر باخراج المرسلين من جميع اطراف البلاد وسوقهم الى كتون ليجري تسفيرهم الى اوروبا . واجيز لعشرين يسوعياً بالبقاء في بكين ، باعتبارهم فنيين اوروبيين . وقد خطر ليونغ - تشانغ طردهم منها عام ١٧٣٣ . لم يُعرف الامبراطور كيان - لونج بعدائه للمسيحية ، الا انه كان يخشى مشاعر الجماهير ، كما انه كان يتوقع هجوماً من الاجانب على البلاد . وفي سنة ١٧٧١ ، شجب المسيحية من جديد ليس باعتبارها ديانة باطلة او رديئة ، بل باعتبارها مخالفة لقوانين البلاد .

وعاد المرسلون سرّاً وخفية الى الصين متنكرين بلباس الصينيين ، يقودهم مرتدّون مسيحيون ، معرضين حياتهم لخطر الموت . فكانوا عرضة للتوقيف والسجن ، ويوتقون بشكل لا يستطيعون معه الوقوف او الجلوس ، ويجري خنقهم في السجن ثم تجتز رؤوسهم . وقد تعرضوا لاتهامات مشينة واتهمهم بفعل المنكر مع عذارى مسيحيات ، كما اتهموا بقتل الاولاد ، وفساد مواد سامة مؤذية للشعب . واستهدف كثيرون من المعمدين للجلد والضرب والتعذيب ، وبيعوا في اسواق النخاسة عبيداً أرقاء . فلا عجب ان يحدد عدد منهم دينهم الجديد ، كما ان بعضهم تصرف تصرف الابطال والشهداء الابرار .

الا ان الضربة القاصمة للرساليات في الصين جاءت بالآخرى ، من اضطهاد الحكومات للرهبنة اليسوعية منذ عام ١٧٥٨ . وعلى الاخص من الغاء الرهبنة اليسوعية ، عام ١٧٧٣ : وفي سنة ١٧٨٤ ، حل الآباء اللعازاريون رسمياً محل الآباء اليسوعيين ، في بكين . ولم يبق سوى بعض رهبان لم يلبثوا ان توفوا الواحد بعد الآخر . ومن اصل ٣٠٠٠٠٠ مسيحي كانوا في الصين ، عام ١٧٨٩ ، لم يبق سوى ١٨٧٠٠٠ استمروا على ايمانهم بفضل الرهبان الوطنيين وبعض المرسلين المتخفين .

وراح البعض يتساءلون ما اذا لم يكن من الافضل للباباوات ان يجيزوا « الطقوس الصينية » باعتبار ان التفسير الذي اعطاه اليسوعيون للاله الاسمي ولعبادة الجدد ، قد يكون غزاً ، مع الوقت ، عقول الصينيين ، مما كان من شأنه ان يؤدي مثل هذا التدبير الى تنصير الصين برمتها مع اقطار آسيا الوسطى . وهذا الاحتمال كان يقابله ، في الوقت ذاته احتمال آخر هو ان يجعل المسيحيون الصينيون من الله بحسب المفهوم المسيحي له ، الهّاً حلوياً . كما كان جعلهم يعبدون ، بالفعل ، ارواح الجدد . وهكذا تختلط المسيحية لتذوب في هذه الطقوس مع مذاهب التفكير الصيني ، لا سيما اذا ما أخذنا بعين الاعتبار وأدركنا جيداً الجهود البائسة التي بذلها الآباء اليسوعيون الذين كانوا يؤلفون ، الفرقة الأممية للمرسلين المناضلين ، وهم يعملون على صعيد مارجرج ، بخطر ، بذلوا الى اقصى حد ممكن الجهود الكريمة التي قاموا بها . فبقي من هذا كله ان الـ Tien ليس هو الله الذي يملأ التوراة وان عبادة الجدد هي من صميم الصينية والشرك .

وبما لا شك فيه قط ان فشل المسيحية في الصين يكون فشلاً في محاولة « فرنيجة » تلك البلاد واخذها باسباب الحضارة الاوروبية . كانت الصين متحجرة في عاداتها واعرافها وعقائدها التي سارت عليها منذ بضعة آلاف من السنين ولا سيما عبادتها للجدود ، واقصار احترامها على الماضي وعلى طقوسها الدينية . وكان على الصيني ان يحترم ، طوال حياته ، اصغر الحركات والسكنات ويتقيد باقفة العبادات والحركات الطقسية ، بدقة كلية ، والا تعرض لمساوىء عديدة . فكل جديد ياتي او يقوم به ، في هذا المجال ، يكون مخالفة منه للطقوس المرعية ، كما يكون انتقاصاً لحكمة الجدود ، وخروجاً على تعاليمهم . وهكذا لم يكن من الممكن قط ادخال أي اصلاح او القيام بأي تجديد . فالخروج بالصين من نطاق هذه الطقوس او إلحاق أي تفسير او تبديل او تفسير يغير من معناها انها يعني التسليم بحدوث تغييرات جديدة وفتح الباب على مصراعيه امام التطور . وهكذا قضي على الصين أن تأسن عاداتها ، وان تبقى عند هذا المستوى الذي بلغت اليه الحضارة الرومانية . ولم يكن هذا الوضع ليتعارض مع ظهور اخلاقية عالية ومع اكبر الفضائل واروعها . الا انه كان يتعارض ، في الصميم ، مع طاقتها الكبرى على التحكم كقوة كبرى بقوى الطبيعة . وهكذا اخذ ميزان القوى ونسبة الفوارق يتسع بين الصين واوروبا او بين الشرق والغرب .

فلم يستفد الصينيون بالفعل كثيراً من اتصالاتهم مع الاوروبيين في القرن الثامن عشر . فقد حمل اليهم الآباء اليسوعيون نتائج محققة ، مكتسبة نزلت عند اباطرة الصين منزلة عالية ، انما جهل رعاياهم كيف يطبقونها ويفيدون منها ، وبالتالي لم يفقهوا ، ما تحمله بين ثناياها من طاقات وما تخفيه في طياتها من امكانات . فعلى قيد خطوات من اليسوعيين الذين كانوا يعملون ، في ارسادهم العلمية ، على المجهر وعلم المثلثات وفرضيات كوبرنيكوس ونيوتن ، استمر علماء الفلك الصينيون يستعملون المزاويل الشمسية ويعتمدون نظرية الساء الجامدة او الصلبة . وعبثاً عليهم الرسامون اليسوعيون وجوب ، مراعاة الابعاد وجوب الاعتماد على الانوار والظلال . فقد استمر الفنانون الصينيون على جهلهم لهذه المبادئ والضرب بها عرض الحائط ، كما استمروا على إضفاء النور على رسومهم الفنية من كلا الجانبين . اخذ الفنانون الصينيون بتقليد الحزف الاوروبي ونسخ الرسوم والنقوش البادية على مصنوعات سان كلو وخزفيات لويس الخامس عشر ، كما قلدوا تقليداً حرفياً موضوعات وصور اوروبية ، وذلك تلبية منهم لطلبات تقدم بها بعض الغربيين ، اذ راح احد العلماء الصينيين يرى في علم الجبر بحثاً او تطوراً لطريقة علمية صينية قديمة . وموجز الكلام بقيت الصين مجالاً مغلقاً وحقلًا موصداً في وجه الفكر الاوروبي .

اما الاوروبيون فقد اظهروا شديد اعجابهم بكل ما هو صيني . وقد استطاع المرسلون ولا سيما الآباء اليسوعيون من بينهم ان يضعوا بالابحاث العلمية التي عقدوها حول الصين اساس علم الصينيات Sinologie فرسموا لنا صورة شاملة عن الحضارة الصينية بهذه الرسائل التقوية الغريبة التي

وضعتها الرسائلات الاجنبية ، خلال هذا القرن . وكتاب « وصف الصين » الذي وضعه الأب دي هالد مزداناً بأول خريطة عامة للصين (١٧٣٥) والذي تمت ترجمته الى الانكليزية والالمانية فور صدوره بالفرنسية ، كان موضوع وحي وإلهام لعدد كبير من فلاسفة العصر . وفي اواخر القرن ، طلع علينا كتاب « مذكرات حول الصينيين لمرسلين في بكين » وهو كتاب عظيم الشأن مليء بالعلم والفوائد الجمة ، « يؤلف معيناً لا ينضب . وكثيراً ما جاء مونتسكيو على بحث امور الصين في كتابه المعروف : « روح الشرائع » . وفولتير نفسه كثيراً ما استشهد بحكمة الصينيين في « قاموس الفلسفة » ووضع لنا : « يقيم الصين » وهي مسرحية ناجحة . وعقد ديدرو بحثاً مستفيضاً عن « فلسفة الصينيين » في موسوعته المشهورة . وروسو نفسه استمد من الصين الدليل الرئيسي الذي أيتد فيه خطابه الاول .

وكان استشهد الفلاسفة بالصين واتخاذهم بعض تعاليمها تأييداً لنظرياتهم اكثر منه سعياً لتفهم الصين . فقد اتخذوا من هذه الادلة التي استمدوها من ادب الصين وفلسفتها براهين لتأييد تعاليمهم ونظرياتهم واقوالهم بما يتعلق بالديانة الطبيعية ، لا اهتماماً منهم بتوضيح جوهر الله وصفاته او تقريب العناية الالهية للافهام ؛ بل تأييداً منهم « لاستبدادهم النير » ، اذ راحوا يتوهمون انهم امام بلاد يحكمها حكماً استبدادياً امبراطور فيلسوف وعصبة من العلماء الحكماء . وقد تخيل لعماء الاقتصاد ، اذ ذاك ، ان يتخذوا من وضع الصين ، تأييداً لنظرياتهم الاقتصادية ، اذ تصوروا الصين او بالأحرى صوروا امبراطورية زراعية قائمة وفقاً للبداءى التي يقولون بها ، وانها تحكم وفقاً للنواميس الطبيعية ، وهذا الكمال الامثل والاسمى الذي رآوه في الصين كان له تأثير بعيد على نشر فكرة الشعوبية في العالم .

وبفضل الهدايا التي قدمها اليسوعيون للموظفين الصينيين ونقل المصنوعات الصينية الى اوروبا ، أطلّ إقبال مهووس على كل مظاهر الفن الصيني ، وهذا الهوس للصنائع الصينية رسخ في الناس ذوق المستهجن ، وراح امراء العائلة المالكة يسعون لتكوين مجموعات لهم من الخزفيات الصينية ، منهم الفنان « كويل » وجولين نصير الرسام واطو . وقد اوصى الاوروبيون على خزفيات صينية ، وقلقت مدام بومبادور من كيانغ - سي طاقاً كاملاً من الخزف الصيني يحمل شاراتها المعلمة . وهناك نفوس تقية حرصت ان تحمل خزفياتها صور القديس اغناطيوس دي لويولا ، وفرنسوا كسافيه وحماد السيد المسيح ، والصليب ورسم قيامة السيد المسيح تاهضاً بجهد من القبر . ورغب آخرون الى فنانين مشهورين امثال دلفت في هولندا ، وشانتلي في فرنسا ، بتقليد الخزف الصيني .

واستوحى الفنانون من الخزف الصيني ومن هذه الألواح الفنية المنشورة في الكتاب الموسوم : « وضع الصين الحالي » الذي نشره الاب بوفيه ، عام ١٧٩٧ ، موضوعات عديدة لوشيمهم وتحليتهم . كما استوحوا منها تحفاً فنية صغيرة (Chinoiserie) ودمى هزلية (Stingeries) لنحنا الرسام واطو نحوها في زركشته وتحليته ديوان الملك الخاص في قصر الـ Muette ، كما ان الرسام هويه رسم عجلات

ومحفقات وحلى كثيرة للصالونات ، وغرفاً للطعام على هذا النحو ، وغرفة زينة قصر دي روها (١٧٤٥ - ١٧٥٠) . وإلى هذا المنشأ أو الينبوع القوي يجب ان نرد الدمى الهزلية التي تزين قصر شانتلي . كذلك عالج بوشيه وناثيه موضوعات صينية نحاسية في المرح والدعابة . كذلك ظهرت أقمشة تحمل رسوماً صينية . فزيه الاطلس الصيني اخذ في الظهور ، عام ١٧٣٢ ، والنسيج القطني الاصفر من طراز النسيج المعروف بننكين ، والنسيج الحريري الموشى من طراز بكين ، عرفت رواجاً عظيماً .

وقد طبع أوبركمف في مدينة 'جوي' ، عام ١٦٧٠ ، أول نسيج يحمل رسوماً صينية هزلية .

والمقاعد والطاولات طلي كثير منها بالطلاء الصيني ، كمكتب لويس الخامس عشر ، هذا المكتب بالذات الذي كتب عليه الملك لويس السادس عشر وصيته ، وهو مسجون في سجن التمل . كذلك ، 'صنعت السكاكين وفقاً للطراز الصيني' ، كما تحلت مقابضها برسوم قردة صينية .

وكان الانكليز أول من قلد الحداثتي الصينية في كيو . ومن تصميم الحديقة الصينية انبثقت الحديقة الرومنطيقية . كذلك ظهر في كيو وشانتلو أول ما ظهر ، طراز المعابد الصينية ذات القباب . وكل حديقة كان يقيمها أمير كبير أو مالي ثري أمام قصره ، ارتفعت فيها سرادقات صينية ، منها في بلدة باغاتيل للكونت أرتوى ، وفي شانتلي وسانت جيمس ، على الطريق الممتد بين غابة بولوني ولويي ، وفي أماكن أخرى .

وبعد عام ١٧٦٠ ، اخذت أذواق الناس تتوق للماذج من الفن القديم ، كما استبدت بأذواقهم النظريات الفنية التي طلع بها جان جاك روسو ، وكلها تعارض إلى حد بعيد ، التنظيم الاجتماعي الشديد ، في الصين ، حيث لا قيمة للفرد ولا شأن له فجاء رواج هذا الذوق وانتشاره بين الناس يخفف تدريجياً من تأثير الفن الصيني الذي تأصل عميقاً في نفوس القوم ، إذ ذاك .

ففي أواخر القرن الثامن عشر ، بدت الصين وأوروبا غريبتين تماماً الواحدة عن الأخرى . فالأخوة الإنسانية التي راودت النفوس ودغدغت المشاعر برهة من الزمن ترى حلمها يتطاير هباءً منثوراً ويتوارى عن الأنظار . وهذه الصين التي أصبحت عزلاء من السلاح لاقتنارها للتكنولوجيا الأوروبية ، دانت باستقلالها وبالنجاحات التي حققتها ، لهذه الانقسامات والمشاحنات والمنافسات التي اقامت الدول الأوروبية بعضاً على بعض فذهبت جهودهم سدى . وعندما توارى الامبراطور كيان - لونغ عن العرش ، عام ١٧٩٦ ، تاركاً الحكم بيد خليفة خشن أخلاقه وماعت بعد معاشرته النساء في الحرم ، بدا مستقبل الصين قائماً مظلماً .

بقيت اليابان في عزلة شبه تامة في جزرها المتناثرة ، ونحسباً منها لغزو محتمل تقوم اليابان به أوروبا يحافظ من المرسلين والمبشرين ، حظرت اليابان الكرازة بالمسيحية والتبشير بها ، منذ سنة ١٦١٦ ، ولم يعرف ان يابانياً واحداً غادر اليابان إلى الخارج ، منذ سنة

١٦٣٧ . فكل محاولة من هذا النوع كانت تعرض صاحبها للموت الاكيد ، كما انه اشترط في بناء السفن ألا يتعدى حجمها الأقصى ٢٥ طناً . فلم يكن يسمح لغير الهولنديين من بين الاوروبيين باستيراد البضائع الأوروبية الى وكالتهم التجارية في جزيرة دشيا الواقعة عند مدخل خليج تاغازاكي ، بعد ان يتعرضوا للكثير من ألوان الازعاجات والمضايقات التعسفية . وكانت بعض القوارب اليابانية تستورد من الصين ، بعض المواد والاصناف التي تقتضيها حياة البدخ . فاليابان كانت موصدة الابواب ، مغلقة النوافذ .

وقد وجد سدنة البلاط من آل توكوغاؤوا في هذه العزلة وفي هذا الاغلاق مدعاة للطمأنينة ، اذ كان يفوت على كبار الاقطاعيين الذين غلبوا على امرهم امكانية الاعتماد على عوث او نصرة من الخارج . فالليكادو او الامبراطور كان يقبع في قصره في كيوتو ، لا يأتي عملاً . وكان يحيط بسدنة البلاط من آل توكوغاؤوا او الشوغون ، في عاصمتهم يادو (توكيو) ، حاشية ألقت بلاطاً زاهياً ، حكموا البلاد باسم الامبراطور وجمعوا في قبضة ايديهم ملء السلطة الفعلية ، يتصرفون بالجانب الاكبر من التوابع المرتبطين بهم بالولاء : من اشراف وبارونات ومساموراي وفرسان . هنالك ١٥٠ اسرة من النبلاء الفوداي *Fudai* اصحاب الامتيازات تتوارث ، أباً عن جد الوظائف العامة في البلاد ، مكافأة لها ، في شخص جدودها ، لمنصرتهم توكوغاؤوا والوقوف الى جانبهم ، واخلاصهم لهم الخدمة . وكان في وسع التوكوغاؤوا ان يعتمدوا الى حد بعيد ، على ولاء ٥٠٠٠ فارس من الفرسان *Bannaret* ، وعلى ١٥٠٠٠ من رجال الحرب المدججين بالسلاح . وقد أبعد عن الحكم هؤلاء النبلاء من بطون توزاما الذين سبق لاجدادهم ان وقفوا موقفاً معادياً من توكوغاؤوا ، الا انهم كانوا ينعمون باستقلالهم الاداري في اقطاعاتهم الواسعة ، هذه الاقطاعات التي لم يكن للشوغون ان يتدخل بأمورها مباشرة طالما ان الامن مستتب وليس ما يعكر الطمأنينة والاستقرار . وكان لبعض هذه الأسر كالشيادزو والداكا والمابدا اطيان طائفة يعمل في تابعيتهم عدد كبير من النبلاء والساموراي بحيث تؤلف الواحدة قوة مهيبة الجانب .

وكان النبلاء والساموراي يؤلفون طبقة عسكرية . الا ان معظم افراد هذه الطبقة لم يكتفوا ليعملوا شيئاً يذكر ، اذ كان محظوراً عليهم ، باسم الشوغون ، ان يقوموا بأي نشاط غير النشاط العسكري والدرس . وكان يؤمن أود معيشتهم طبقة بائسة من المزارعين والفلاحين ، تزرع تحت عوائد ورسوم من الارز تفرضها عليهم طبقة النبلاء ، لا يبقى لهم بعد تأدية ما يترتب عليهم تقديمه ، ما يسد رمقهم او يكاد . وقد قامت في المدن نقابات من اصحاب الحرف والتجار (*Chentns*) تؤمن للبلاط وللسكان الريف المصنوعات التي هم بحاجة اليها في معاشهم .

وقد أخذ هذا النظام الاجتماعي بالتفسخ والانحلال للعزلة التي كانت فيها اليابان . وكانت عدد السكان قد ارتفع كثيراً في أيام السلم ، اذ تراوح سنة ١٧٣٦ ، بين ٢٨ - ٣٠ مليون نسمة

وهو رقم وقف عند هذا الحد دون ان يتعداه حتى سنة ١٨٥٠ ، بعد ان ادرك الانتاج ، في البلاد ، حد الكفاية . فاليابان بلاد جبلية الطابع ، لا يستثمر المزارعون منها سوى سبع مساحتها ، واليابانيون كالصينيين لم يكونوا يحسنون سوى استغلال السهول واستثمارها . وكان يخشى ان يتجاوز السكان بعيداً طاقة البلاد الانتاجية ، اذ ان الجفاف والجفاف المطر طويلا او وفرة احيانا ، من شأنه ان يسبب المجاعة في البلاد التي كثيراً ما قاست من هول المجاعة بين ١٧٠٢ - ١٧٩١ ، فقضت باثني عشرة سنة من السنين العجاف ، زادها إيلاسا وشدة ، الرسوم الجمركية في الداخل التي كانت تحول دون انتقال الارز من الاقضية التي ترتفع ببجوة الى تلك التي تعاني من الجوع ويتضور اهلها منه . وكثيراً ما كانت هذه المجاعات تجر وراءها الوبئة والثورات وتسبب في حرب الفلاحين وفي خراب رجال الحرب ولذا راحوا يهبطون المدن طلباً للرزق . وكان لا بد من شراء الارز من الخارج فيقايضون به المواد المصنوعة في البلاد . ولكن أنى ذلك والقوانين المرعية تحول دونه ؟

والسبب الآخر هو سلوك طائفة الشونين وتصرفاتهم . فقد قام هؤلاء التجار وسيطاً بين النبلاء والتجار الهولنديين في دسياء وبين الفلاحين والصناعيين . فكانوا يحددون اسعار الحاجيات على هوام : يشترون رخيصاً ويبيعون غالياً ، وبذلك يتسببون بخراب هؤلاء واولئك على السواء . وهكذا راحوا يؤلفون ، شيئاً فشيئاً ، طبقة جديدة من البورجوازيين الرأسماليين ، يشترون من النبلاء أقطانهم كما يشترون ألقاب الساموراي . فالشيء الوحيد الذي يحدد من مضارباتهم ويضع حداً لتعسفاتهم وتحكمهم هو سياسة تبيح الاستيراد الحر وتطلق المنافسة بين التجار .

والفلاحون الذين ارزحتهم الضرائب والرسوم المفروضة وارتفاع اسعار الحاجيات المصنوعة ، وبخس ثمن الارز الذي يبيعونه ، اخذوا يهجرون الريف للمدن ويدخلون في خدمة المنازل ، او يهيمنون على وجوههم . وبعد ان تقفر مقاطعات برمتها من السكان تمجز عن دفع ما يترتب عليها من رسوم . والفلاحون الذين يبقون في منازلهم يمجزون عن تربية اولادهم ، ولذا راحوا يقتلون اطفالهم او تعمل النساء على الاجهاض بالرغم من القانون . ولكي يؤمن اصحاب الارض الايدي العاملة الاخذة بالتناقص ، راحوا يشترون اولاداً ناشئين بعد ان يجري خطفهم من المدن على يد اناس مختصين مدربين على ذلك . وهؤلاء النبلاء الذين كانوا يعمشون في البلاط او يملكون اخاذات صغيرة لا تقي بأودهم لم يلبثوا ان اصبحوا مدينين لدى التجار . وكانوا يستمرون على هذا النهج من الحياة بعد ان ينشئوا في املاكهم صناعات للحياكة ، وبتخفيض كمية الارز المخصصة لرجال الحرب التابعين لهم . وكان بعضهم يضطر ، بعد ان يفرقوا في الدين ، لبيع املاكهم من هؤلاء التجار .

وكان عدد كبير من رجال الحرب يذهبون فريسة الفاقة والموز ، فيفقدون كل شعور

بالكرامة التي يحملون ، كما يفقدون كل حس نبيل المحتد الذي يشعرون منه فيتخففون من عبء بعض بنسبهم بالتخلص منهم . وكانوا يعفون من خدمتهم لهم الاتباع الذين توارثوهم اباً عن جد ، لقاء بعض المال يدفعونه لهم نقداً . وكثيراً ما تبنوا أبناء بورجوازيين اغنياء يعطونهم اسماهم وينقلون اليهم الامتيازات التي ينعمون بها ، مقابل مبلغ محترم من المال ، ثم يهجرون اسياهم ويهبطون الى المدينة ويصبحون ساموراي مشردين بعضهم ينصرف للتجارة بينما يصبح معظمهم من شذاذ الآفاق ، او ممثلين مسرحيين او مغنين او قطاععي طرق .

وكانت الطبقات الاجتماعية تتداخل فيما بينها وتتشابك بصورة يصعب حلها . ففي مجتمع يبدو مستقبلياً غامضاً ويسارع كل افراده للتمتع ببهاج الحياة ولذاذاتها ، فالضاريون الذين حالفهم الحظ وبسم لهم القدر ، والمشردون المغمورون بين الجماهير الذين يسمون للكسب من كل جوارحهم : هؤلاء عن طريق ثروة هبطت عليهم من حيث لا يدرون ، واولئك عن طريق غنيمة باردة او صيدة من غير صائد ، او لينعموا بساحة بسمت لهم بين الاشواك ، كل ذلك التّف مادة استفادات منها باثعات اللذة في هذه الاحياء الخاصة القائمة في المدن الكبرى المكتظة بالسكان . فدور البغاء اصبحت مؤسسات رسمية معترف بها . والفن الوطني او القومي نفسه تنزى بهذا « الزبد الطافي فوق المجتمع » . فالنو *No* ، هذا الفن الغنائي الذي يور بالرمزية والذي تكفيه اللحمة الشاردة دون الايماء المغرية ، قد انحط امام الدراما الشعبية الصاخبة العاتية . فالصورة الخشبية ، *Estanpe* اكبر فنون اليابان وبرزها طراً ، تبرز لنا ، حتى درجة الارهاق ، مشاهد حياة البغايا ، وما هن عليه من بلذخ صارخ ، ومواقفهن المصطنعة التي توحى لنا هذا الاحتشام الكاذب والحقير الحيي ، وهذه العاطفة المشبوبة المنكوشة او المتحفظة . فهارونوبو (١٧١٨ - ١٧٨٠) الذي كان اول من اخترع الطباعة المتعددة الألوان الكاملة ، واوتومارو (١٧٥٣ - ١٨٠٦) لم يصورا لنا غير البغايا . وتسيونوبو (١٧١١ - ١٧٨٥) وكيومتسو (١٧٣٥ - ١٧٨٥) وكيولورا (١٧٣٨ - ١٧٦٥) وكوريوساي ، وكيونوغا (١٧٤٢ - ١٨١٥) الذي بلغ فن الاستامب على يدهم الذروة ، صوّروا بالأكثر بغايا . وهكذا أخذ الفن يروج لتذوق هذه اللذائذ التي تحرك الشهوات وتهيج الاعصاب ، وتسهم في افساد الاخلاق والآداب ، فتزبد من آلام المجتمع واوصابه .

وقد أسقط في ايدي الشوغون يانوبو (١٧٠٩ - ١٧١٣) ويوشيمون ، وجيناري ، ولم يستطيعوا شيئاً امام هذا الوضع المستحكم الحلقات . فقد حاولوا معالجة الاعراض والظواهر دون البحث عن اسباب المرض الحقيقية ، وحاولوا ان يزيدوا من نفوذ الكونفوشية ، سياج الاخلاق الحميدة والمدافعة الأولى في البلاد عن الانضباط وحسن النظام . واتخذوا مستشارين لهم فلاسفة وحكماء متعمقين في الكونفوشية امثال هاراي هاكوسيكى (١٦٥٦ - ١٧٢٦) ومورو كيوسو (١٦٥٨ - ١٧٣٤) ، ومتسودايرا سادانوبو (منذ عام ١٧٨٦) . بذل هؤلاء المستشارون جهوداً طيبة لاصدار القرارات الرادعة ، ضد حب المال وسطوته ، وضد المخطاط

الاخلاق بين طبقة الساموراي (١٧١٠) وضد المزارعين الذين هجروا الارض ووجبوا عليهم الرجوع اليها والعمل فيها ، ومنع الفلاحين من هجر اراضيهم (عددهم وافر جداً) ، والحد من البذخ والاسراف وتحديد الايام التي يسمح لهم فيها بتناول الارز ، واجبار النساء على ترتيب زينتهن بأنفسهن ، وانشاء جوائز ومكافآت لمن يحافظن على طهارتهن او تقواهن ، والالفاء الدوري لديون الساموراي . كل هذه الاجراءات والتدابير الاحترازية لم تحدث اية تحسين ، وبقيت دونما اثر . وكان الوضع يزداد سوءاً يوماً بعد يوم . واستبدت المجاعة بالبلاد على اثر الجفاف والفيضانات التي نزلت بالبلاد بين ١٧٨٣-١٧٨٨ . فالهر والفار قنص طيب يرغب فيه جيداً . وراح اليابانيون يأكلون جيف الموتي ، ويجهزون على المحتضرين ، ويكبسون لحم الادميين ليحتفظوا به اطول مدة ممكنة . وقد امتنعت السلطات عن ملاحقة السرقة والمتسبين بالحرائق .

كل هذه الامور نفصت عيش النبلاء والساموراي وابناء التجار المثقفين ، بعد ان هالهم ما رأوه من قدرة الاوروبيين وسطوهم وبعد قاتلهم . وقد اخذ الهولنديون يستوردون الساعات والمجاهر والفانوس السحري ، وقنينة ليدن ، وميزان الحرارة وميزان ثقل الجو وقد سمح الشوغون مورو كيوسو ، باستيراد الكتب الاجنبية باستثناء الكتب التي تبحث في الدين المسيحي . ووضع احد الكونفوشيين يعمل موظفاً رسمياً اسمه او كي يوزو عام ١٧٤٥ ، لحساب الحكومة ، معجماً هولندياً يابانياً . وقام بعض الخاصة امثال ريو تاكو وسوجيتا يتعلمان اللغة الهولندية ، واشتروا عام ١٧٧١ ، كتاباً في علم التشريح يضم الواحاً علمية واقتنعوا عن طريق علم التشريح بأن الحق الى جانب الاوروبيين ضد الصينيين . وعملوا عام ١٧٧٤ ، على نشر الكتاب الآنف الذكر مترجماً الى اليابانية . وقد ادخل سوجيتا ، بعد ذلك ، طريقة العالم النبائي « لينيه » . وقد بقي روتاكو يبحث حتى اجله الاخير (١٧٨١) ليكون له فكرة عن وضع اوروبا . وقام هيروغا جناني (١٧٣٢ - ١٧٧٩) بابحاث حول النباتات الطبية ، وصنع اجهزة كهربائية وأصبح تاريخ اوروبا وجغرافيتها ، موضوع اهتمام الجميع . واستقر في خلد الجميع ان ليس باستطاعة اليابان قط الصمود في وجه هجوم يقوم به الاوروبيون ضدها . وراح سيهاي هاباشي ينبه الناس الى الخطر الكائن على اليابان من تقدم الروس ، ومن مجاورتهم لهم ، وبراظه بأنه الخطر الذي يهدد القومية اليابانية بأسوأ مصير . وراح الشباب يلتف حول هؤلاء الرجال بعد ان قلقت خواطرم وثاقوا جداً الى ان تستورد بلادهم العلوم والادارة وسياسة الغرب ، كذلك اخذ الجميع يكره حكم توكوغاؤوا وادارتهم . فالشك الذي قوبل به نظام حكم الشوغون والكونفوشية الرسمية حمل بعض الفلاسفة اليابانيين على نبش مدونات تاريخ اليابان القديم ودرسها . واخذوا يعمون ، اكثر فأكثر ، مدى القول بأن الامبراطور هو ابن الشمس الاله الاسمى والاعلى . وراحوا يعلنون على رؤوس الاشهاد بأن الشوغون هو مرسل بسيط من قبل العرش وان الولاء للعرش هو اسمى بكثير ، وفوق الولاء لسيد إقطاعي . وفي الوقت ذاته كشف اليابانيون

عن قوة جديدة في نظريات الفيلسوف الصيني القديم وانغ - يانغ - منغ وتعاليمه (او - يوماي) وهذا الفيلسوف الكونفوشي المنشق يوحى بتهديب الشخصية عن طريق التمتع بالحقائق الداخلية ، فحصها وترويض النفس عليها . ويشجب الاعتماد على ظاهر الكلمات المكتوبة . فساعد بذلك اليابانيين على تحرير ذواتهم من نير تقاليد التوكوغاؤوا . وطلع من بين تلاميذه عدد كبير من دعاة الاصلاح في القرن التاسع عشر .

راحت انظار المستائين من ادارة التوكوغاؤوا وحكمهم ، والواقفين الى جانب الميكادو تتجه ، اكثر فأكثر الى بعض كبار النبلاء من امثال توزاما ومساتسوما والموري والتوزا والهيزن الذين عرفوا ان يبقوا بعيداً عن مؤثرات البلاط ، ان يقتصدوا وان يستثمروا إقطاعاتهم على الوجه الامثل وينظموها وحدات مستقلة اقتصادياً . فأوجدوا بعض الصناعات لهم وللمزارعين العاملين في خدمتهم ، وأولوا التجارة اهتمامهم الاكبر وراحوا يدافعون عن رجالهم ويحمونهم من جشع التجار المرابين ، ويحافظون على هذه المناقب الاجتماعية القديمة ويعتصمون بها . واذا كانوا حذقوا فن القيادة باعتبارهم زعماء القوم ، وبرهنوا عن كفاءة ادارية عظيمة راحوا ينتظرون يهدوء الوقت المناسب والفرصة المؤاتية .

فمنذ اواخر القرن الثامن عشر اخذت تنهياً في اليابان ، هذه الحركة الكبرى التي ادت الى ثورة ١٨٦٨ ، كما ادت الى بعث اليابان وطلوع نهضتها الحديثة .

الفصل الرابع

افريقيا

كانت افريقيا تعيش في عزلة شبه مغلقة . فقد قام في الشمال من هذه القارة مجتمعات اسلامية ، امتدت حلقاتها من البحر الاحمر حتى شواطئ المحيط الاطلسي ، اولت ولاءها السلطنة العثمانية . وانعزلت مثلها عن آسيا محاولة دفع الكثرة عنها . وفي ما عدا ذلك ، حواجز تألفت من شواطئ قليلة التقاطيع بيئتها واطية ، منخفضة ، رملية هنا ، او تغشاها المستنقعات والفياض ، هنالك ، ولوائى طبيعية تبرز على الخط الدائري . ومساحات شاسعة تفرشها الاحراج والغابات والغدران والرمال المحرقة ، واقوام من الزنج فزعة ، ألف بعضها القسوة والفظاظة ، والبعض الآخر حربي الطابع من أكسلة لحم البشر تعمل فيه فكرة الاستعمار التجاري والاستغلال ، بحيث ان كل شيء كان يحول ، في هذه القارة المترامية الاطراف ، دون التوغل والانسياب في ارجائها . قلما ابتعد الاوروبيون في القرن الثامن عشر عن بعض المراكز التجارية التي نثروا حباتها على الساحل الافريقي . اذ ان البرتغاليين الذين كالوا تسربوا الى بعض المناطق الداخلية ، واوغلوا فيها ، خلال القرون الماضية ، والذين احتفظوا لانفسهم بسرية الاكتشافات الجغرافية والبشرية التي توصلوا اليها عبر الاجيال ، قطعاً منهم لاثارة الشهوات واهاجة الرغائب بين المنافسين ، والذين لم يكن يهمهم غير التجارة وتأمين الارباح الطائلة ، كانوا قد تناسوا بعض ما تم لهم من علم ومعرفة عن هذه البلدان . وكان يشار الى داخل هذه القارة ، في أدق المصورات الجغرافية التي تعود لتلك الحقب التاريخية ، بلون ابيض او بخطوط تشير الى حدود اعتباطية فيبدو منها وكأن نهر النيجر مثلاً ، يخرج من بحيرة تشاد ليتصل سيره فيما بعد بالسنگال ، كما تبدو بحيرة تشاد وكأنها احدى منابع النيل ، وكان عدة انهر قوية تجتاز الصحراء الكبرى في اتجاهات عديدة ، كما يبرز حينئذ فيل شارد يهيم على وجهه فوق الرى والتلال . والحضارات القائمة في هذه الاقطار ، الجاهلة لاصول الكتابة في ادى صورها ، والعاجزة عن الاحتفاظ بمدونات البدائية ، تكون السواد الاكبر مما تقع عليه العين من انماط متقاربة ، باستثناء بعض المعلومات التي توفرت على جمعها المراكز الاوربية القائمة على الشواطئ الافريقية . فالمستندات الوحيدة المتوفرة ، تتألف من هذه الابحاث والكتب التي وضعها الكتاب العرب ، حول افريقيا الشمالية ، وحول بلاد الزنج التي قامت بينها وبين العرب والبربر ، بعض الملائق عبر التاريخ .

هذه الحضارات الافريقية نراها كلها أخذة بالانحطاط في القرن الثامن عشر .
 مصر فالبلدان الافريقية الواقعة الى الشمال تشارك السلطنة العثمانية ، انحطاطها
 وانهيارها . وعند النقطة التي تلتقي فيها آسيا بأفريقيا ، في هذه الزاوية التي يتلاقى عندها العالم
 الشرقي بعالم البحر الابيض المتوسط ، تقوم مصر ، التي نظرت اليها القسطنطينية نظرتها الى
 ولاية من ولاياتها . وكان السلطان العثماني يعين عليها والياً او باشا يستبدله بغيره مع انتهاء
 العام . ويأتمر بامر الوالى ٢٤ نائباً يحمل كل واحد منهم لقب بك ، لهم ٣٧ وكيلا ، وتحت امرة
 الوالى خمسة طوابير من الحياالة ، بينهم ثلاثة من الصباحيين واثنان من المشاة ، وواحد من
 الانكشارية ، وواحد من العُزب ، يقوم على امرتها آغاوات او زعماء ، ولكل آغا نائب .
 على الباشا ان يؤمن النظام في البلاد ، وان يقيم العدل بالسواء بين الرعية ، كما يترتب عليه جباية
 الرسوم والضرائب ، على اشكالها : كضريبة الاملاك ، وضريبة الاعناق المفروضة على الذميين
 من نصارى ويهود . فاذا كانت الرسوم المفروضة عيناً على الاطيان والاراضي التي يردفها النيل
 بالخصب والثراء تؤمن دخلاً طيباً ، فالجارك من جهتها ، امنته هي الاخرى ، مردوداً عالياً .
 فقد كانت السفن العربية ترد السويس ومرقاً القصير قادمة من صوراء ، في الهند بحملة بالموسلين
 والاقمشة الهندية والقهوة العربية ، كما كانت تصل اسبوط قادمة من دارفور ، ناقلة العاج وقرن
 وحيد القرن ، وخشب الابنوس وريش النعام ، بينما كانت الاسكندرية تستقبل الاجواخ
 والخرداوات المختلفة تصدرها الى مرسيليا وليغورنو . فاينما وقع منك النظر في هذه المدن
 والموانئ ، رأيت سوقاً للرق والعبيد يؤتى بهم من السودان ، او سوقاً آخر للارقاء البيض
 يؤتى بهم من القوقاس وكان من مألوف العادة ان يرسل الوالى الى الاستانة ، كل سنة ٥٠٠ ٦٠٠
 قرش من الخراج ، وعدداً من الجنود .

اخذت هذه الولاية تعيش في شبه عزلة بعد ان راحت فريسة المحلل النظام الاقطاعي ،
 حيث غامت كل سلطة للسلطان فيها . وراح البيكوات المماليك فيها يعملون على شراء ارقاء
 من البيض ، يعملون لهم منهم فرسانا عرفوا بالمماليك الذين شدتهم الى اسياهم ، رابطة الولاء
 والاخلاص أو ما يشبه رابطة البنوة . وقد جرت العادة في البلاد على ان ينعم اقوى البيكوات
 بلقب بك ، على احد مماليكه المصطفى فلا يعتم هذا الاخير حتى يسارع بدوره الى شراء ارقاء له من
 بلاد الكرج او من بلاد الشركس يقيم له منهم مماليك يقومون على خدمته . يختار من بينهم كالمعتاد
 بيكوات . وهكذا نرى ان جبهة من العبيد والارقاء يتولون اكبر الوظائف الادارية وامها في البلاد .

واخذ الجند بدورهم يختارون هم انفسهم ، آخواتهم لمدة سنة ، حتى اذا ما انقضت انضم
 الاغا الخارج الى مجلس الآغاوات الذي يقوم على ادارة الفرقة ويختار اعضاها .

ولم يلبث هؤلاء الجند ان استقلوا عن سلطة الباشا لا يعرفون رئيساً لهم غير زعيمهم ،
 فيأخذون بابتزاز الفلاحين وامتصاص التجار . وكان الباشا يبيعهم او يضع تحت تصرفهم ضياعاً
 بكاملها يستغلونها حتى ان بعض البيكوات تم له من ٢٠٠ الى ٤٠٠ عزية او مزرعة ، اذا كان

يحتفظ في كل ضيعة من هذه الضياع بعزية يكل امر العناية بها لفلأخين ومزارعين يسخرهم لهذا العمل . وكان يفرض عليهم الرسوم ، والضرائب على الاراضي والاملاك ، يعهد بمجبايتها الى مأمورين يختارهم من بين موظفين نصارى من الاقباط ، حذقوا اسرار مسح الاراضي كما حذقوا القضايا المالية . وكان يحتفظ بقسم من هذه الرسوم ويرسل الباقي للوالي . وكان باستطاعة هؤلاء الاغوات والممالك ان يوصوا ، شرعاً باملاكهم لاولادهم . فبعد ان الف الممالك جيشاً مرابطاً في البلاد يستغلها كما يشاء ، راحوا بوصفهم ورثة هذ القبائل البدوية التي تم الفتح على يدما ، يردون عن البلاد هجمات البدو في عهدهم .

وكان الباشوات والاعوات يتجاذبون اطراف السلطة فيما بينهم ، يستخدمون في سبيل الاستئثار بها الدسائس والمؤامرات والاشتبكات الدامية ولا يتورعون قط عن القتل طعناً بالخناجر او السم المدسوس . وقد يشره طاغية جبار من بينهم للسلطة ويحاول فرض سطوته على الجميع . من اشهر هؤلاء البيكوات علي بك (١٧٥٥ - ١٧٧٢) احد هؤلاء الممالك الذين سبقوا محمد علي الى الاستئثار بالحكم ، والذي ادرك ما عليه الاوروبيون من قوة البأس والشكينة ، فحاول ان يحصل من فرنسا ما هو بحاجة اليه من المدافع ، كما حاول ان يفرض سيطرته على السودان الى الجنوب من مصر ، وعلى سوريا والحجاز ويؤمن لمصر استقلالها التاجز ، كما انقطع منذ عام ١٧٦٨ ، عن استقبال اي باشا ترسله الاستانة ، وامتنع عن ارسال الخراج اليها ، وضرب العملة باسمه . وبعد ان اخذ يدس لرفاقه ويعاملهم بكل قسوة مات مكروهاً من الجميع الا من افراد الشعب الذي امن له ، بالحديد والدم والنار ، النظام والعدل . وقد كانت البلاد في معظم الاحوال ترسف في الفوضى الخزية ، بالرغم من محاولة فاشلة قام بها الاتراك لاعادة سيطرة السلطان على البلاد من جديد (١٨٨٧ - ١٧٨٩) .

والعدد الضئيل من الاوروبيين الذين سكنوا مصر ، اذ ذاك ، كان يمثل بعض البيوتات التجارية معظمهم من الفرنسيين الذين لم يكن عددهم يتجاوز الثلاثين ، يأتون مصر باذن خاص من غرفة تجارة مرسيليا ، قالوا من بينهم «أمة» لها منظماتها وهيئاتها الرسمية يرأسها قنصل . وكان القنصل موظفاً يجرى تعيينه من قبل الملك ، يساعده ترجمان خاص تخرجهم مدرسة اللغات الشرقية التي تأسست في باريس ، عام ١٧٢١ ، وقامت ضمن كلية لويس الكبير ، فيها . وقد كانت بعضهم امثال «له غران» الذي كان استاذاً لسلفستردى سياسي ، وكاردون وديجون من كبار علماء المشرقيات الذين ساهموا باغناء المكتبة الملكية بما اهدوها من كتب ومخطوطات شرقية ، تركية وعربية . وقد نال الفرنسيون تخفيضاً لرسوم الجمر عن بعض السلع التي يستوردونها بمعدل تراوح بين ٣٠٪ و٣٢٪ على الاجنواخ الجيدة ، منافسة منهم للاجواخ الانكليزية . وفي سنة ١٧٥٢ ، مات آخر تاجر انكليزي في مصر ، كما ألغيت القنصلية الانكليزية فيها .

ولم يكن يسمح للاوروبيين بالاقامة . وكان عليهم ان ينزلوا ارضاً عن صهوة جيادهم

عند مصادقتهم مرور الآغا او الوالي في الطريق ، وكثيراً ما كانوا عرضة للاهانت والضرب وابتزاز المال .

ان انشاء امبراطورية في الهند جعل اهمية خاصة لطريق السويس وهي طريق اخصر بكثير من طريق رأس الرجاء الصالح . الا ان البحر الاحمر الذي تقوم على سواحله الشرقية مدن الاسلام المقدسة كان محظوراً دخوله على الكفار . الا ان الضعف الذي اعترى السلطنة العثمانية سهل الاتصال مباشرة مع سيد مصر الموقت . ففي سنة ١٧٧٥ ، ثال وورن هاستنغز ، الترخيص للسفن الانكليزية بالدخول الى مرفأ السويس . وفي سنة ١٧٨٦ عاد الانكليز فانشأوا لهم قنصلية في القاهرة ، ومنذ ذلك الحين اخذ الضباط الانكليز والموظفون والتجار منهم يعتمدون السويس في طريقهم الى الهند ، عبر الصحراء والاسكندرية والبحر الابيض المتوسط ، والعكس بالعكس . وثال الفرنسيون مثل هذه الامتيازات ، عام ١٧٨٥ .

هذه البلاد الغنية ، مصر ، التي تعود التجارة فيها بارباح مغرية على القاطنين بها والتي تقع وسطاً بين عالمين وكانت في ولايتها تابعة لسلطان ضعيف مستضعف ، كانت تثير الرغائب والهازفات في قلوب من يرون اليها باشتها . فقد رأى شوازل في احتلال فرنسا لمصر ، خير عوض لها عن خسارتها وفقدانها لكل من كندا والهند ، فراح سنة ١٧٨٤ يشرح في شانتلو وبين افكاره وآراءه ويؤيد نظرياته امام تاليران الذي كان وزيراً للخارجية ، في حكومة الديركتوار . وعرضت قضية احتلال مصر عدة مرات لفرجين . وانشأت الامبراطورة كاترين الثانية قنصلية لها في الاسكندرية لتدفع بالبيكاوات والاعوات الى التحرر من ربقة السلطان بوضع انفسهم تحت حمايتها . وستلعب مصر ، عما قريب ، دوراً رئيسياً في المسألة الشرقية .

كلما اوغل المرء سيراً باتجاه الغرب كلما شعر بضعف الولاء وضعف تابعة شعوبها تونس لتركيا . فقد سبق وقام في تونس دولة جديدة عقب مناداة الاعوات منها بالحسين باي عليها (١٧١٠) وتوارث الحكم والخلافة بعده ابنائه . واغتنم سكان الجزائر حدوث أزمة حكم في البلاد ، فاستولوا على تونس وفرضوا على الباي ضريبة فادحة (١٧٥٦) ، الا انه تمكن ، عام ١٧٩٠ ، من الغاء علاقات الولاء والتابعة التي شدته لداي الجزائر . واثري هؤلاء الحكام بفضل الاحتكارات التجارية التي انشأوها . وقد اثار ادعاءاتهم المجانية وتعديات القراصنة الذين خرجوا عن طاعتهم ، صعوبات مع الاوروبيين كسكان البندقية والاسبان والفرنسيين (تدخل الاسطول الفرنسي في الـ *Goulette* ، عام ١٧٨٤/١٧٨٥) وثال الفرنسيون من علي بك (١٧٥٩ - ١٧٨٢) امتيازاً خولهم احتكار صيد المرجان وإنشاء وكالة تجارية لهم في بنزرت ، واربعة مراكز تجارية اخرى حول رأس عنابة *Cap Bon* وبزت الحركة التجارية الفرنسية في عهد خلفه الباي حموده (١٧٨٢ - ١٨١٤) نشاطات كل البلدان الاخرى .

كانت الجزائر خاضعة لحكم الداوي الذي يجري انتخابه عادةً ، من قبل ضباط
الجزائر فرقة الإنكشارية . فمن اصل ٣٠ داياً تعاقبوا على حكم البلاد ، بين ١٦٧١ -
١٨١٨ ، جاء ١٤ حاكماً منهم الى الحكم إثر انقلابات عسكرية كانت تؤدي الى قتل الحاكم العام .
ولعل اكثر الصناعات رواجاً في الجزائر واوفرها رفقداً ودخلاً هي القرصنة اذ يقوم القرصان
بهاجمة السفن التجارية واخذ من وما فيها من انس ومال ، والاعتداء على المسيحيين الساكنين
على السواحل البحرية . الا ان تطور صناعة السفن واساطيل الحربية لدى الاوروبيين ، خلال
هذا القرن ، والرحلات التفتيشية التي اخذت تقوم بها هذه الاساطيل ، حدثت كثيراً من هجمات
القرصان . دخل الداوي في مفاوضات مع الدول الاوروبية التي رضيت تفادياً منها لتعديات
القرصان ، ان تدفع له ، رسماً سنوياً معيناً بشرط ان تكون في مأمن من هجماتهم وتعدياتهم
ومضايقاتهم ، وما عثم ان اعمل هؤلاء القرصان مهنة لم تعد لتدرّ على القائمين بها مدخولاً
طيباً . وهكذا هبطت قوة الاسطول الجزائري من ٢٤ سفينة عام ١٧٢٤ ، الى ١٠ سفن عام
١٧٨٨ . كذلك ضعف النشاط الزراعي فيها وتمدّت الاعمال الزراعية من جراء الجفاف الذي
لحق بالبلاد ، ووباء الطاعون الذي تعرضت له ، كما ان تجارة الاستيراد التي كانت الشركة
الفرنسية الافريقية تلعب فيها دوراً بارزاً تقوم به فروعها الثلاثة في لآكال وعنابة وكولو ، قد
المحطت هي ايضاً .

وقد راح الداوي يشدد ، اكثر فأكثر على استثمار مرافق البلاد ، اذ عهد بالادارة في الملحقات
الى بيكوات اترك لقاء رسوم طائلة يفرضها عليهم فيحملون اليه الضرائب الجبأة كل ثلاث
سنوات . وكانت إيالة الجزائر تقسم ادارياً الى عدة اقصية ، يعهد بامور الادارة فيها الى موظفين
من الترك . وكان الحكام الاداريون يصدرون تعليماتهم لرؤساء القبائل وشيوخها الذين كانوا
يتحكمون بدورهم ، بالقرى او الدوار . وتوكلت للقبائل الحرية بالمحافظة على عاداتها وتقاليدها
المرعية ، اذ كل ما اراده الداوي منهم هو دفع الضرائب والرسوم المترتبة . اما قبائل الخزن
فكانت تتمتع بالاعفاء من الضرائب وتعمل على تحصيلها من القبائل الموالية . ولم تكن سلطة
الداوي الفعلية لتتعدى سدس مساحة البلاد . وكانت جمهوريات القبيل والقبائل الرحل التي تسكن
المرتفعات والجنوب ، والامارات العسكرية امثال توغورت ، او الديلية ، كمين مهدي مثلاً ،
لم يشدها الى الداوي سوى وشائج غامضة من التبعية والولاء ، تضعف دوماً مع
الانقلابات والانتفاضات .

واسبانيا التي اضطرت لاخلاء وهران والمرسى الكبير أمداً من الزمن ، عادت الى احتلالها ،
عام ١٧٣٢ . غير ان الاسبان فشلوا في انشاء قاعدة قوية لهم ، وكانوا يعملون بالاحرى ، على
وطنهم الأم ، لتأمين اسباب عيشهم . وفي سنة ١٧٩٠ ، حدثت هزة ارضية هدمت مدينة
وهران بما حمل الاسبان على التخلي عن هذه القاعدة للداوي .

كان السلطان الشريف في المغرب يتمتع عملياً باستقلاله التام عن السلطنة العثمانية. المغرب
ففي مطلع القرن الثامن عشر ، كان حكم السلطان مولاي اسماعيل ، هذا الطاغية المستبد ذي المزاج الناري ، يمتد فوق سلطنة واسعة الأرجاء ، شملت المغرب والسودان .
كان السودان يقدم للسلطان ما هو بحاجة اليه من قوة عسكرية فيمّده بجيش من الزنج قوامه ١٥٠,٠٠٠ جندي يخلصون له الخدمة والولاء . وكان هؤلاء الجنود ، في الغالب ، متزوجين من زنجيات ، حتى اذا ما انجب ، شبت ابناؤهم الذكور في نخبات التدريب وانخرطوا فيما بعد ، في صفوف الجيش . اما الافاڤ فينشان على الاعمال المنزلية ثم يتزوجن . وقام في الاماكن الاستراتيجية قصبة يحيط بها سوران ترتفع فيها المستودعات والمساجد وحامية للدفاع عنها . ومن مدينة مكناس ، كان الشريف مولاي اسماعيل يفرض احترامه وطاعته على البلاد اجمع ، بعد ان ازل في قلوب الناس الخوف والرعدة ببطشه واعمال السلب والنهب والابتزاز . فلم يترك للانكليز سوى مدينة طنجة ، وللبرتغاليين سوى موزاغان ، وللاسبان سوى مدينتي سبتا ومليل .

واشتهر السلطان مولاي اسماعيل ببعده النظر ، وعمل على التخفيف من حساس الذين عرفوا بتعصبهم الديني ، وهم فرقة من القرصان يقومون بنشاطاتهم على السواحل البحرية . ويعملون على مطاردة المسيحيين وتعذيبهم . فوضع حداً لاعمال القرصنة التي انقطع اليها القرصان في صالح وتطوان . وكان من جراء ذلك ، ان نشطت الحركة التجارية وزادت واردات السلطان ، بعد ان فرض على المصادر والوارد رسوماً بلغت ١٠٪ ، واصبحت مدن صالح وتطوان وصافي واغادير ، مرافئ تجارية ناشطة . واحتلت مدينة فاس من هذه الامبراطورية القلب . وكان البرتغاليون يفدون على مدينة قادس طلباً للدودة القرمزية والزنجفر من الاسبان ، والاجواخ والاصداق من الفينة التي كانوا يستعملونها نقوداً ويستوردها الانكليز مع الاقمشة ، يتلقون التوابل والاسلحة والاعتدة الحربية من الهولنديين ، والشب والكبريت من ايطاليا ، والحرير والقطن والزئبق والافيون من بلدان الشرق الادنى ، ويحملون كل هذه الاصناف الى السواحل ، حيث كان المسلمون واليهود يتهاقتون على شرائها لمقايستها مع العرب والسودانيين لقاء مسحوق الذهب والفيل وريش النعام والعاج من السودان ، والتمر من الواحات وقد احتل الانكليز في هذه التجارة المرتبة الاولى .

وبعد وفاة مولاي اسماعيل ، أخذ أولاده من نساؤه العديداً ، يتجاذبون الخلافة كل من جهته ، في هذه الفترة الواقعة بين ١٧٢٧ - ١٧٥٧ . وقد تصرف الجنود الزنج تصرف المستبد . يرفعون الشرفاء الى الحكم ويخلعونهم كما يخلعواهم . واغتتم زعماء القبائل هذا الوضع لاعلان العصيان والثورة . فاهمل المناربة مصير السودان واسقطوه من اهتمامهم فوقع في الفوضى وراح يتخبط فيها .

استطاع مولاي محمد (١٧٥٧ - ١٩٧٠) ان يعيد الامن والهدوء الى البلاد . الا انه

تحلى نهائياً عن السودان وارغم البرتغاليين على الانسحاب من مازاغان ، عام ١٧٦٩ ، الا انه بام بالفشل امام مليلا . فبعد ان اعطى الدانيهارك احتكار الاتجار مع مدينة اسفي وأغادير (١٧٥١) عقد مع فرنسا معاهدة تجارية عاملها معاملة الدولة الاكثر رعاية . وقام منذ ذاك في مدينة الرباط ، قنصل فرنسي ، كما جاء وسكن البلاد عدد من الفرنسيين . وأسس السلطان مدينة موغادور وجعل منها اكبر اسواق المغرب على الاطلاق ، كما اقام احتكاراً للملح . وهكذا عرف المغرب الازدهار دون ان يعيد الى الوجود ، الامبراطورية الافريقية ، مع بقاء البلاد في وضع لا يختلف كثيراً عن وضعها في الاجيال الوسطى .

كانت افريقيا السوداء التي ألقت سوقاً كبيرة للرق والنخاسة آخذة في مجموعها بالانحطاط والقهقرى وهي تقاسي الامرّين من الاتجار بالرقيق . وقد راح تجار الرق من العرب ، يتجهون شمالاً وشرقاً سائقيهم امامهم سوق النعاج ، سعائب لا تنقطع من الارقاء باتجاه مدينة مراكش وطرابلس ، او باتجاه اسبوط والممالك الاسلامية في الصومال وسلطنة زنجبار ، ومنها ينقلون للعمل في الزراعة او في الجيش ، او في حريم السلاطين والامراء ، في افريقيا الشمالية وآسيا الصغرى . اما تجار النخاسة من الاوروبيين فكانوا ينشطون للعمل الى الغرب من القارة الافريقية ، انطلاقاً من موريتانيا حتى الكونغو في رقعة شاسعة طولها ٣٥٠٠ كيلومتر . وكانت النخاسة أهم وجوه النشاط التجاري في هذه الوكالات التجارية الفرنسية القائمة في سان لويس وبودور وغوريا وكازامانس والبريدا بعد ان تتموت بالرقيق من السنغال ومن المراكز الانكليزية في غينيا وسيراليون والشاطئ الذهبي . اما خير ارقاء الزنج الذين عرفوا بقوتهم البدنية وحسن طاعتهم فقد كان يؤتى بهم من جزيرة فرناندو بو الاسبانية ومن الوكالات التجارية الدانيهاركية والهولندية ، في منطقة خليج بنين *Bénin* التي ألقت سوقاً طيبة وان كانت محاصيلها وسطى ، واخيراً من الوكالات التجارية البرتغالية المديدة ، في سان بول دي لواندا ، وسان فيليب دي بنغويلا ، على الساحل الغربي ، ومن لورنسو ماركيز وصوقالا ، وكويليان وموزمبيق على الساحل الشرقي .

واستعمل تجار النخاسة طريقتين : الكتيبة الفيازية والشراء . فالاولى كانت الطريقة التي عول عليها التجار العرب في زنجبار ، اذ كانوا يفاجئون بكتيبة من الجنود حسنة التسليح يصطحبونها معهم ، القرى على حين غرة ويذبحون فيها كل من يحاول المقاومة او يسبب لهم ازعاجاً ما ، ويستاقون السكان صفوفاً لا نهاية لها ، عبيداً وارقاء . فيلاقى عدد كبير منهم حتفهم في الطريق . وكان الهلع يسمر الخوف في قلوب السكان حتى من كان منهم في مناطق البحيرات الافريقية ، ويتعرض الريف لعملية منظمة من السلب والنهب ، ويروح الزوج فريسة البؤس والخوف ويدب التفسخ والانحلال في المجتمعات الزنجية . ونهج الطريقة نفسها الخلاسيون البرتغاليون *Pombeiros* الذين عرفوا بالقسوة والفظاظة وفساد الاخلاق محذرين حذو التجار

العرب . اما الطريقة الثانية ، وهي التي اعتمدها بالاكثـر الاوروبيون ، واحيانا تجار النخاسة من العرب ، فقامت على شراء الارقاء من بعض الزعماء على اساس من المفاضات تستدعي احيانا ستة اشهر من المفاوضات والمداولات . كان من نتائجها بيع اكثر من ١٠٠ ٠٠٠ اسير زنجي ، في السنة .

وقد تركت تجارة الرق اثرها البعيد ، داخل القارة الافريقية . هنالك زعماء كثيرون اشعلوا الحرب ونفخوا في اوارها ، تأمينا لحاجتهم من الارقاء . وقد راح العرب والاوروبيون على السواء ، يجرسون الملوك والامراء والزعماء المحليين بعضهم على بعض فيقتلون فيذهب الفريق المغلوب على امره اسرى يقودونهم الى الموانئ الساحلية ، في صفوف طويلة . ولذا قامت الحرب بينهم باستمرار ، والف الرق عند اصحابه عملية اختيار بالمعكوس . فينقل النخاسون بعيدا من افريقيا السوداء ، الغنيان الاشداء يعملون في الزراعة ، والزنجيات الجيلات للاخصاب والنسل ، والاولاد الصغار للعمل والخدمة في المنازل . وهكذا كانت افريقيا تفقد خير سكانها وتزحف دوغا انقطاع ، دمها المتجدد . والذين يستبقون في مجاهل الارض يعيشون تحت رحمة شريعة الغاب ، حيث الحق للقوي ، وحيث يطلع الصباح عن مصير مجهول ، وعن غد بطوح بهم الى البراري ، او يعرض مقتنياتهم لغزو لا يرحم من السلب والنهب ، ومنازلهم للحريق والابادة ، فيجدون انفسهم مشردين تترصد لهم يد الموت ، واحيانا اذا ما اسعف الحظ واقر العدر عن بسمة الرضى ، امام مقصف ينقطع اليه الاوروبيون في القرن التاسع عشر حتى اذا ما خمر هؤلاء واولئك ، راحوا فريسة عملية فتح لا تبقي ولا تذر .

اما الى اقصى الجنوب في القارة السوداء ، فالشركة الهولندية لم تكثرت بمدينة الراس الا باعتبارها الاسكلة الرئيسية على طريق الهند . هنالك مزارعون هولنديون انضم اليهم بعض اللاجئين من بروتستانت الفرنسيين ، جكوا عن بلادهم هربا من الاضطهاد الديني راوا اعمالهم الزراعية في السهول الطيبة التربة تجود وتزدهر ، اربى عددهم على ٢٠ ٠٠٠ . فمن عاش منهم على مقربة من الساحل جاء عيشهم رغيدا على النمط الاوروبي . اما الذين نهضوا منهم للعمل في مشاريع استثمارية داخل البلاد ، فقد عاشوا عيش الاباء الاقدمين . فقد كانوا كلفنيين متعصبين ، يطالعون باستمرار الكتاب المقدس ، ويعتقدون اعتقادا لا يتزعزع ، باسطورة تفوق الجنس الابيض ، وشرعية الرق وقانونيته بعد ان اقرته اسفار العهد القديم ، كما اعتقدوا يقينا ان الله افاء عليهم بارض افريقيا شريطة ان يمتثلوا منها الزوج المشركين كما فعل اليهود باعداء دينهم من عبدة الاصنام ، وتحت تصرفهم يعمل في خدمتهم ٢٠٠ الف من الزنج العبيد ، يطاردونهم احيانا مطاردة الصياد لطريدته الماربة اللب ، ويتعقبون فارين من وجهم ، اقوام البوشيان والهوتنتو ، الى آخر حدود الارض المأهولة المتصلة بمنطقة الكلاهاري ، ثم يعودون للحرب ضد الاحلاف العسكرية التي شكلها الاقوام الرعاة كالزولو والمتابيلة ، والكفار والبسوتو الذين

عرفوا بنشاطهم وعنادهم . واول مستعمرة انشأها البيض من الاوروبيين ، عرفت بسغيها المسعور للقضاء على سكان البلاد الاصليين .

حاول الآباء اليسوعيون ، في المستعمرات البرتغالية ، ان يكسبوا الزوج للمسيحية فيضعونهم تحت حمايتهم . فقد حاولوا ، هم انفسهم ، ان ينشئوا لهم مزروعات ناجحة ، وان يؤلفوا للزنج ديناً مبسطاً يألف مع تفكير الاطفال وذهنيتهم . الا انه صدر ، عام ١٧٥٨ ، الامر بطرد اليسوعيين من جميع الممتلكات التابعة للملك البرتغال . هؤلاء الزنج الذين اعتنقوا من عهد قريب مسيحية مبسطة ، لم يلبثوا ان عادوا الى وثنيتهم الاولى ليغرقوا من جديد في الخرافات واعمال السحر والسحرة .

جلب العرب معهم الى سباسب افريقيا وسهولها الرحبة الواقعة الى الجنوب من الصحراء الكبرى ومن ليبيا ، والسودان ، الاسلام والزي العربي في اللباس ، أقله لزعماء القوم ، وفن البناء العربي ممثلاً في المساجد ، كما حملوا اليهم المبادئ الاسلامية التي قام عليها التنظيم السيامي والاجتماعي . وقد انتشر الاسلام بين بعض القبائل الكبرى ولا سيما بين التي تعيش منها على تربية الماشية والظعن . وبمعكس هؤلاء بقي سكان الريف على وثنيتهم يؤمنون بوحدة الأرواح المعاقلة في الحيوان . وكان من تأثير اعتناق القوم للاسلام ان اخذوا يختارون لهم زعيماً او شيخاً للقبيلة ، كما اخذوا يخضعون لقانون واحد ولشريعة مشتركة . وألفت عدة قبائل من ذاتها مملكة قد تكون سلطنة او امارة ، على شاكلة الدول التي قامت في الاجيال الوسطى . وكان من جراء ذلك ان زاد القوم تماسكاً بالاخلاق والآداب ، كما ازدادوا حركة ونشاطاً وكثيراً ما طلب الى المؤمنين الجدد الاشتراك بالجهاد او الحرب المقدسة ، اشد الفرائض الاسلامية وقماً عليهم واقساها طراً ، وساد بينهم تعدد الزوجات ، وهو وضع خول عدداً من انصاف الاخوة ، المطالبة بحق الوراثة ، الامر الذي سبب المحلل عدة سلالات ، كما ادى الى وقوع عدة حروب اهلية بحيث حق لنا ان نتساءل اذا كان الدين ادى بالفعل الى رفع مستوى الزوج ام لا . واستمرت حركة نشر الاسلام طوال القرن الثامن عشر . فبعد ان اخذ اقوام التوكولور بالاسلام راحوا يفرضونه على قبائل «البولة» التي كانت تؤمن بالغيبية ويلزمونهم الاخذ بمؤسساتهم ونظمهم ، كانشاء مجلس الاختيارية ورئيس منتخب لمدة سنتين يكون في الوقت ذاته كاهن القبيلة ، وقائدها في الجهاد والقاضي فيها ، وألف البولة عام ١٧٢٠ ، مملكة ثيوقراطية في مقاطعة الفوتا-جالون ، كما الفوا لهم عام ١٧٧٠ ، مملكة اخرى في الفوتا-تورو . واذ كانوا شعباً ذا اخلاق راعوية شديدة ، محافظين حتى حدود القسوة على الاخلاق ، فلم يلبثوا ان عرفوا بعصبيتهم المتشددة ، اشداء في الحروب . واستمروا على هذا الوضع بينما اخذ السودان بالتحلل والتفكك .

وراح السودان يتأثر ، الى حد بعيد بحوادث الغرب . فمملكة السنغاي التي قامت عند

عطفة نهر النيجر ، وجدت نفسها ، في مطلع القرن الثامن عشر ، تحت حماية المملكة الشريفة المغربية ، يحكمها ملك ينتخب من بين أبناء الاسرة الملكية القائمة في مدينة تمبوكتو . وكان يقوم الى جانبه ، باشا مغربي يعينه السلطان ويعهد اليه بالإدارة المدنية . وكان قاضي تمبوكتو يتولى قيادة الجيش العليا ، كما تولى القضاة المساعدون قيادة الحاميات الغربية المربطة في مدن مېبا وغار ودياننا وتندرينا وكولامي . وقسمت المملكة إدارياً الى اربع نيابات توزعت كل واحدة الى عدة ولايات . وكان الباشا يختار نواب الملك الاربعة كما يختار الحكام من بين أبناء الطبقة الارستوقراطية الزنجية . وهناك امراء قوايع ، من بينهم امراء الطوارق والفلولبا والجوليمند ، والبربر القادمين من جنوبي المغرب ، يستمدون سلطتهم من الباشا ، يعملون في جيش المرتزقة على تخوم المملكة . اما حضارتهم فعلى شيء من الازدهار ، والمدن عديدة مكتظة بالسكان . والحرف اليدوية ناشطة والتجار بالحاجيات الثمينة رائجة على اكتاف المدن والاسواق التجارية ، وعرفت الزراعة ان تقيّد من بعض الاشغال الفنية كحفر الآبار والاقنية والترحال اللازمة للري ، كما ان المدن كانت مراكز للنشاط الفكري غصّت بالادباء والعلماء المسلمين الذين ألفوا تربة صالحة انبتت عدداً كبيراً من الشيوخ والعلماء والادباء والفقهاء ، وعلماء الكلام والاطباء .

بعد وفاة مولاي السلطان اسماعيل (١٧٢٧) واثناء هذه الاضطرابات الدامية التي نشبت في المغرب ، وجد الجيش المغربي في السودان نفسه سيداً مطلقاً على البلاد . وما لبث ان ألّف هذا الجيش وذراعي الجند ، طبقة عسكرية عُرفت بـ"شمعها" وفظاظتها وشراستها . وتمكن قضائهم من تأليف امارات خاصة بهم عرفت ، عندما تتفق فيما بينها ، ان تفرض تعيين الباشا الذي ترضى عنه ، لذلك كثيراً ما آل الامر فيما بينها الى الحرب والاقتتال . وراح الطوارق والجوليمند ، بعد ان نعموا بالمزيد من الحرية عند تقهقر المغرب ، يفتنمونها فرصة سانحة لغزو مقاطعات الشمال ، بينما راح الامراء والملوك الوثنيون ، في الجنوب يحذون حذوهم هم ايضاً . وفي اواخر القرن الثامن عشر تمكن الطوارق والجوليمند من الاستيلاء على تمبوكتو وانزلوا الدمار بمدينتي مېبا وغار ، وزرعوا الخراب في هذه البقاع الواقعة عند عطفة نهر النيجر . فأدت هذه الحروب الى مذابح هائلة بين السكان ودمرت المزروعات وهدمت الآبار والتّرع القائمة ، وعرضت البلاد لمجاعات شديدة ، فافقرت الطرق من سالكيها ، فهانت التجارة وبارت السكّارات ، كما خففت الحركة الفكرية في المدن بعد ان اصبحت بالانحطاط .

وقد تعرّض غرب السنغال لغزوات المغاربة . اما مقاطعة البورنو الواقعة في الشمال والتي اعتنق أهلها الاسلام ، فقد استكان ملوكها وخلوا وضعف بالتالي صمودهم في وجهه الطوارق الغزاة ، وفي وجه الغزوات التي شنّها عليهم ملوك الدول الوثنية ، في الجنوب ، فأقفرّت مقاطعة البورنو من سكانها . وهذه المدن التي اعتنق أهلها الاسلام ، امثال باغرمي وعوادات ودارفور ، والتي كانت بمنزل من الغزوات التي قامت بها الدول الكبرى الغازية ، فقد تمتعت

بفترات طويلة من الازدهار ، استغلت فيها الى اقصى حد ، شبكة الطرقات وقنوات الري والارتعة ، فازدهرت فيها الفنون التشكيلية والآداب وعلم الكلام . وقد تخلل هذه القرون وقوع ثورات وحوادث قتل وحروب دامية بين مختلف السلالات الملكية انطلقت فيها الاطباع والغرائز البشرية من عقالها ، فجاءت بأعمال من القسوة والوحشية زرعت البلاد خراباً ودماراً .

وراحت جاليات من العرب تتغلغل شرقاً بالرغم من اعتراض جبال الحبشة المسيحية لسيروها الى الامام ، بالرغم مما قام بينها من انقسامات وعصبيات حزبية ، فاستأثرت بالمراعي الخصبة القائمة عند عوبيداني ، حيث اختلطت ذرايرهم بذراير سكان البلاد الاصليين وتمازجت معاً فتألفت قبائل الشواس الذين كانوا رعاة ثم استحالوا حضراً بعد ما ابتلوا به من اوبئة وافدة فتناكبا صابت ماشيتهم فمحققتها ، وبعد الحروب الدامية التي ارغمتهم على التراص فيما بينهم ، فأخذوا يتعاطون الزراعة .

والى الجنوب من عطفة نهر النيجر قامت اقوام الموسيس الذين انزلوا عن العرب والبربر لبعدهم ولبنوا على الوثنية . واستمروا قائمين في المنطقة بعد ان ألغوا من بينهم ، مملكتين قويتين مركزتا حول واغادوغو .

اما هذه المساحات التي افترشتها الغابات الظليلة ، فقد استوطنها قوم من حضرة الزنج احترفوا الزراعة وقالوا بوجود الارواح العاقلة في الحيوان . ففي هذه المنطقة التي تغطيها الانهر ومصباتها العريضة ، والغياض والمستنقعات والاحراج البكر التي تقف حائلاً دون التواصل والتمازج ، فقد راحت تشأر من القبائل الضاربة في مجالها . لكل منها لهبتها الخاصة وعاداتها واعراقها . ويكفي ان تتمرى ارض من غاباتها لتعرضها لانحباس المطر ، حتى يروح الزنج يكتوتون لهم فيها مملكة فيلتفون حول مليك يكون لهم ، في الوقت ذاته ، حاكماً مستبداً ورئيس احبار ، كله استعداد ، للأخذ هو واتباعه ، بالوثنية وتعدد الالهة ، ثم تحاول التوسع وتشرب بأعناقها الى السيطرة بعيداً . وفي القرن الثامن عشر ، انقسمت امبراطورية الماندينغ الى عدد لا يحصى من الامارات . واستطاعت مقاطعة الداوومي ، اذ ذلك ، ان تحقق استقلالها على حساب مملكة أردرد *Ardre* ، وتؤمن للبلاد وحدتها ، خلال هذا القرن . واستمرت قبائل أشنقي الجربية في توسعها وتقدمها الى الشرق والغرب معاً . ومع ان عهد ازدهار دولة « البنين » ، *Bénins* قد مضى وانقضى ، فقد عرفت ، مع ذلك ، ان تحافظ على حضارتها الاصلية كما تشهد على ذلك صنائع الشبهان والعاج التي خلفتها ، وهي مصنوعات اقل جمالاً فنياً من سابقتها ، مع ما لها من قيمة عالية .

وظهر في اواخر القرن ديلان على حدوث تغيير او تبدل ظاهر في موقف الاوروبيين ، فقد قام السكوتلاندي جيمس بروس ، بين ١٧٦٩ - ١٧٧٣ ، بعد ان استهدف لمخاطر تشيب لولها الولدان - باستكشاف مجاهل الحبشة والنيل الأزرق وبلاد النوبة . فنشر عام ١٧٨٨ ، وصف رحلته هذه ، فكان لها وقع كبير في انكلترا . وفي هذه السنة بالذات ،

تأسست في لندن ، الجمعية الافريقية ووضعت نصب عينها القيام باستكشافات منهجية . ومن جهة ثانية استطاع فريق من أرقاء الزنج النجاة بأنفسهم من اميركا ، والقدوم ، باعداد كبيرة ، الى انكلترا حيث وجدوا انفسهم في حرز حرير اذ لم تكن الشرائع الانكليزية ولا طائفة الكويكر وعلى رأسها ويلبرفورس ، تعترف بشرعية الرق . فسمح لهم بالرجوع الى بلادهم الاصلية . وعلى يدهم قامت مدينة فريتون ، في سيراليون ، كملاذ لهم ولكل الزنج الارقاء الذين ينجون بأنفسهم من افريقيا . فعاش هؤلاء الارقاء القدامى فيها بين الفوضى واعمال العنف . وهكذا طلعت علينا حركة واسعة المدى من الرحلات والرسالات كشفت للناس عن موارد غنية في افريقيا ، فرنت اليها النظر الدول والمغامرين مما ادى الى اقتسام الاوروبيين لها في القرن التاسع عشر .

الكتاب الخامس

الأنوار والمجتمعات الأوروبية في أميركا

لبث العالم القديم شبه منعزل عن الحضارة الأوروبية ، بالرغم من وقوع أوروبا على مسافة قريبة جداً من القارة الأفريقية وهي امتداد أو استطالة لآسيا . ففي العالم الجديد وحده ، استطاع الأوروبيون ان يؤلفوا ، عبر البحار ، مجتمعات جديدة . فقد ارتفعت لهم حضارة مشتركة امتدت اطرافها من بطرسبورغ حتى مدينة كويبيك في كندا وحتى اورليان الجديدة ، في اميركا ، ومن البندقية حتى مدينة بونس ايرس . وهكذا بدا المحيط الاطلسي اداة وصل وربط اكثر منه حاجزاً او حائلاً .

ومرد هذا الوضع يعود الى ان السفر بجزراً هو ايسر اخذاً من الاسفار براً ، كما ان أوروبا هي اقرب بجزراً الى اميركا منها الى آسيا ، مع انها متصلة بها جغرافياً . فالقوارق الجغرافية بين أوروبا واميركا ، وهذا الامتداد الذي لا ينتهي ، وهذا الاستواء في المناطق ، وقوة العناصر الماحقة للانسان المستضعف التي لم تكن لتبذل القوارق القائمة بين أوروبا من جهة ، وبين افريقيا واميركا من جهة اخرى ، قام بديلاً منها وعوضاً عنها ، ما نرى ونشهد من سهولة النفاذ والتغلغل في القارة الاميركية ، ومن امتداد طبيعة المناخ في هذه المرتفعات والاصعدة المرتفعة الملائمة للانسان الابيض . ومن ذلك ايضاً هو ان الأوروبيين لم يصادفوا ، في اي مكان من اميركا ما اعترضهم في آسيا من كثافة السكان ومن امبراطوريات قوية ذات حول وطول ، بل وجدوا انفسهم امام اقوام قليلة العدد ، مشتتة على مستوى مادي متدن جداً ، وان الامبراطوريات الاكثر تطوراً التي وجدوها احياناً امامهم ، في المكسيك او في البيرو ، كانت تقنياتهما ادنى بكثير مما تم منها للاروبيين ، كما وجدوا امامهم قبضة من المتحكمين المسيطرين ، رعاياهم واتباعهم على اتم استعداد للثورة ضدهم وشق عصا الطاعة عليهم ، وزحزحة النير الذي رزحوا تحته طويلاً .

وهذه المجتمعات الأوروبية التي قامت في العالم الجديد ، خلال القرن الثامن عشر ، اخذت بدورها تتطور بسرعة فائقة وتستبدل مرافقها المهلهلة بالجديد ، وهو تطور ظهر في تزايد

موصول لعدد السكان ، وفي مختلف مظاهر النشاطات والثروة والحياة الفكرية . واكتسب السكان فيها عادات واعرافاً ومصالح اختلفت كلياً عما تم من امثالها لسكان البلدان الام . وهبت على هؤلاء الاقوام روح قومية جديدة ، فأخذت المجتمعات البشرية تتعامل وتتنهم من وضع الاستعباد والاستعمار والاستثمار الذي أريد لها فأقصرت عليه ، والذي روعيت فيه ، قبل كل شيء ، مصلحة الوطن الأم لا غير . فرفضت بعد ان عاد اليها وعيها الاجتماعي والسياسي ، بشمم وابهاء ، ان تدار شؤونها من الخارج ، كما رفضت الخضوع والتسليم لنظرية اقتصادية نفعية ولنظام اقتصادي اعتباطي حائل اساسه الاستثناءات ، يقوم على الميثاق الاستعماري ، والذي يفرض على المستعمرات إقصاء تجارتها على الوطن الأم او حصرها في نطاق المستعمرات الاخرى ، وان تقصر انتاجها الزراعي والصناعي على ما يسد حاجة البلد الأم . هنالك نزعة شاملة تتغلغل بين هذه البلدان تدفعها للتحرر ونيل الاستقلال . وهذه النزعة تقوى او تضعف بنسبة درجة التطور الذي بلغته المستعمرة ، والقوة التي تمت لها مع وجوب مراعاة العديد من المستويات والمفارقات .

الفصل الأول

أميركا البرتغالية

يُمثل البرازيل احد هذه البلدان الاميركية المستعمرة التي كان وضع البرازيل في مستهل القرن فيه الوقوف في وجه الوطن الام ، والرغبة في التحرر منه والاستقلال عنه اقل مما استمر من امثال هذه المشاعر ، وادنى مما اعربت عنه الرغبات الماثلة في البلدان الاخرى . فقد تطور البرازيل دونما خضخضة او رجرجة ، فما ان مالت شمس القرن الى المقيب حتى رأينا على استعداد لبسير سيرته الشخصية دون اي رغبة فيه بفرض مثل هذا الحل بالقوة ، حتى انه لم يفكر قط في مثل هذا الامر جدياً .

ومع ذلك ، فالبرازيل لا كيان له ولا وجود الا لمصلحة الوطن الام . فالبرتغال احتفظ لنفسه باستثمار خيرات هذه البلاد الغنية والاستثمار بمواردها الطائلة ، فحظر على التجار الاجانب الدخول الى البلاد . فاذا ما شذ عن القاعدة وخرج عن الصدد ، عام ١٧٠٣ بمعاهدة 'مثنون' التي عقدها مع انكلترا واعترف لها بحرية الاتجار مع البرازيل ، فلأمر واحد هو رغبته في تصريف نبيذه في المملكة المتحدة ، وليجد فيها نصيراً له وحامياً ، وتوفيراً منه للمواد الصباغية التي تحتاج اليها هذه المستعمرة . فمصلحته الخاصة هي الهادي له في الامر والمسير لخطاه ، ومنها يستوحي احكامه ويستلهم مواقفه . فالوكالة التجارية الانكليزية في لشبونة ، هي التي تشحن البضائع الانكليزية ، والسفن التي ترسلها البرتغال ، كل سنة ، الى البرازيل هي التي تجلب الى مرفأ لندن ، محاصيل البرازيل ونتاجه لتخزينها في عنابرها ، وتعود فيما بعد لتوزعها بمئة ويسرة ، حسب مقتضيات الحال واستبداد الاسعار بالاسواق .

كانت الزراعة في مستهل العصر المرفق الرئيسي في اقتصاديات البرازيل . وكان البرتغال يلتظر ان تصله منه المحاصيل التي تعطيها المستعمرة . فهو يحظر عليها زراعة الكرمة وشجرة الزيتون والتوت . وكان على المعمارين ان يشتروا ، باعلى الاسعار ، من البرتغال ، النبيذ والزيت والحريز والملح وخشب الصباغة الذي يخضع لاحتكار الدولة . ويعهد ملك البرتغال بحق الاحتكار هذا ، لمن يدفع خير الاسعار . ولذا كان ارتفاع سعر الملح يجعل من صيد السمك عملية رابكة مينة . وسكر القصب يجب شحنه للبرتغال غير مصفى ولا مكرر ، بحيث يجري

تكريره هناك . واكبر قدر من التبغ يحتفظ به لمعامل التبغ في الدولة البرتغالية ، وعلى المعمرين ان يتنازلوا للبرتغاليين عن الارباح التي يحققها ترويض التبغ ومعالجته الفنية . وكل المزدروعات تخضع لضريبة كنسية تبلغ العشر ، تجبى باسم الملك الذي يحتفظ لنفسه بقسم منها .

والبرتغال الذي يحتفظ لنفسه بالارباح الناجمة عن عمليات الاستثمار احتفظ لنفسه ايضاً بحق ادارة البلاد وحكمها على هواه . فالمجالس الملكية في لشبونة ، وعلميا ، الملك ووزرائه هم الذين يمينون بالفعل ، منذ عام ١٧٢٠ ، نائب الملك ، ورئيس القباطنة ، والقباطنة الماديين ، والقضاة في وظائفهم لمدة ثلاث سنوات . ورئيس قبطان هو الذي يعين ، بدوره ، صغار الموظفين . وبالإشتراك مع القباطنة العاديين يعين اعضاء المجالس البلدية المفروض فيهم ان ينتخبوا انتخاباً .

وهذا النظام الذي فرض على البرازيل الخضوع التام للبرتغال والذي اوجب عليه وضع جميع مصالحه في خدمة البلاد الام ، عمل به المعمرون عن رضى وقبول وطيب خاطر ، لأنه كان شكلياً او صورياً اكثر منه حقيقياً واقعياً . كان الموظفون لا يستمرون طويلاً في وظائفهم فالهيئات الوحيدة القائمة لم تكن سوى الغرف البلدية وهي تتألف من سكان البلاد . وكث على الموظفين ان يرجعوا الى هذه الهيئات في الكثير من امور الادارة . وبالفعل ، كثيراً ما كانت المجالس البلدية هي التي تقضي او تقضي في الأمر حق في القضايا والشؤون البعيدة عن الإدارة البلدية . وكان من حق هذه الهيئات ان تعين رئيس الادارة اذا ما تلكأت الحكومة عن اتخاذ الاجراءات اللازمة . ولما كان هؤلاء الموظفون كثيراً ما يرون في الوظائف التي تعهد اليهم ، فرصة لاستغلال الصلاحيات التي عهد بها اليهم ولا يهتمهم من الامر الا ان يثروا من اخصر الطرق ، فكثيراً ما تركوا لهذه المجالس البلدية حرية التصرف . ان عدداً كبيراً من رؤساء القباطنة لم يكونوا موظفين بالمعنى المعروف ، اذ كانوا ينظرون الى وظيفتهم كإنعام يهود بها عليهم الملك . والاوامر القطعية والتعليقات الاستبدادية الصادرة عن الحكومة البرتغالية ، كثيراً ما جرى تطبيقها ، عند ابلاغها ، بتساهل كلي ، فاهيك عن ان هذه المجتمعات البشرية كانت مشتتة ، متباعدة والمسافات شاسعة بين الواحدة منها والاخرى ، والمواصلات بطيئة للغاية . ولذا كان كبار الملاكين والموظفون المحليون يتصرفون على هواهم ، دونما رقيب او حسيب .

فالمعمرون وذرائعهم في المستعمرات ، كان بينهم عدد كبير من الاولاد المنفيين والمبعدين والخارجين على القانون من سكان جزر الاسور والماديرا ، فسيطر عليهم الخمول ورسفوا في الجهل والجهالة ولم تحش نفوسهم بأي رسيس من الرغائب التي تتطلب الاشباع ويقتضي اشباعها الانفاق . فقد صممت فيهم الميول وخف عندهم الاستعداد او القابلية للعمل ، فلم يهتموا من قريب او من بعيد ، ولا اعتنوا قط بما يؤمن او يؤول الى الازدهار الاقتصادي في البلاد ، وما

يُرموا يوماً من نظام الاستثناءات الذي خضعوا له وعاشوا فيه . دفعهم الى مثل هذا الوضع خفوت نشاط الحياة الاقتصادية وضعفها التي لم تُثير فيهم اي منزع للرغبة ، ولم تحرك فيهم اية شهوة للربح . فالانتاج كان محدوداً لا يزيد على حاجة اليد العاملة بعد ان قل فيها عدد السكان في البلاد . وقد استحال عدد كبير من الهنود فيها الى أرقّاء يعملون باستمرار في المزارع او في المناجم . الا ان الآباء اليسوعيين عرفوا ان يجتذبوا اليهم عدداً كبيراً من هؤلاء الأرقّاء ولا سيما من بين الهنود وانزلوهم قرى وداكر في ظل حكم ثيوقراطي شيوعي . وقد بقي عدد منهم حراً يتمتع باستقلاله في هذه المناطق والمرتفعات الجبلية ، او في حوض نهر الامازون . ولذا كان لا بد من الاستعانة بالزئج لتأمين ما يلزم من يد وقوى عاملة في زراعة قصب السكر ، في مناطق برغبورك وبسيهيا وبراهيبا . الا ان عددهم لم يكن لیسد حاجة البلاد ، وهكذا بقيت مشكلة اليد العاملة فيها مشكلة مستعصية الحل . والعمال الاحرار من اصل برتغالي كانوا يلتجئون بالقدر الذي يفي بحاجاتهم ويسد عوزهم ، اذ لم يكن ليساورهم اي امل بأن يصبوعوا يوماً من صفار الملاكين ، على قِلَّتِهِم . وكان رؤساء القباطنة يتولون ، هم انفسهم ، توزيع الاراضي الشاغرة ، فانشأوا في البلاد ، بهذه الطريقة ، اطيافاً شاسعة الأرجاء . فقد توزعت اراضي مقاطعة براهيبا بين ٤ من كبار الملاكين ، وحددت مساحة الممتلكات ، في مقاطعة بيوهي ، بـ ١١٤٠٠ هكتار . وكان باستطاعة اي كان من الناس ان يقتني ما يشاء من الاقطان ، مساحة الواحد منها ١١٤٠٠ هكتار ، ولعل معمرأ بسيطاً تألفت املاكه من ٥٠ هكتار ، واليسوعي ٣٠ هكتار . وكان المصرون يرفضون رفضاً باتاً ان تقسم املاكهم لثلاث يتعذر عليهم تنويع زراعاتهم وتبدلها كلها افتقرت الارض . وكان وضع المهاجرين القادمين ، والمعتقين وضع المرابعين والمزارعين في بلادهم الأصلية .

كذلك اشتدت حاجة البلاد كثيراً الى رؤوس اموال ، فقد تمكن الانكليز من سحب مقادير كبيرة من نقد البلاد عن طريق بيعهم الالهين الحاجيات المصنوعة . وكانت النقليات لجمد جانباً كبيراً من رؤوس الاموال . فعدد البغال والبغالين اللازمين للنقل في الغابات الاستوائية ، والعربات والثيران المعدة للجسر ، والسواقين ، والاكثارين في السهول والسباسب المرتفعة ، والمتالين الهنود ، او العملة الذين يعملون في جر السفن عند المساقط والشلالات النهرية ، وبطء المواصلات الصعبة التي تستغرق شهوراً للوصول بالملاحة النهرية ، الى ماتوغروسو ، عبر نهر تاباغوس وامازونيا ، كل هذه النشاطات والاعمال كانت تضطر للمتزمين والمتعهدين الى عمليات تسليف باهظة . ولم يكن المال يتوفر للقيام بمشروعات زراعية او صناعية اخرى .

وهذا الشعب البرازيلي ، لم يخامر يوماً اي شعور بالحاجة لاستبدال النظام السياسي المعمول به في البلاد ، ولا الى النظام الاقتصادي ، اذ عُرف عن البرازيليين ، الامثال والطاعة . فقد عُرف عنهم حبهم للظهور . الا انهم كانوا يقنعون بمركز ثانوي من هذه المراكز التي كانت تُعطى عادة للعواليد من البرتغاليين في تلك البلاد . وكان باستطاعة الاغنياء من ابناء هذه الطبقة بلوغ

اعلى المراتب وأرفع الوظائف التي كان يحتفظ بها لإجلالاً ، للبرتغاليين من أبناء الوطن الأم ، وهي وظائف تولي من يقوم بها او من يضطلع بمسؤوليتها شرف المحدث . ولم يكن الخلاسيون يشعرون بأي احتقار نحوهم او بأي إنتقاص من شأنهم . والفوارق الاجتماعية عندهم لم تنهض على اختلاف اللون او البشرة ، اذ كان باستطاعة الملونين ان ينالوا الوظائف العامة كالاخلاسين ، مثلاً بمثل ، بعد ان اتصفوا بالنشاط والإقدام ، فالتفوا نسبة محترمة بين الطبقة الوسطى . ولم يرق ما يسبب النفور بينهم او يبعث فيهم التذمر من المجتمع الذي عاشوا فيه .

اما الوحدة البرازيلية ، وحدة الشعب ، فقد عرفت اوضاع مخاض صعب . فكانت لكل منطقة او مقاطعة كبيرة من مناطق البلاد ومقاطعاتها الرئيسية ، حياتها الخاصة التي تتركز حول ما قام فيها من موانئ ومرافئ ناشطة ، تتجه بعلاقاتها الى لشبونة اكثر منها الى المقاطعات المجاورة ، ولكل قبطانية او ولاية ، عملتها الخاصة ونقدها الخاص . وكانت قبطانية مارنهاو ، تصدر ، عبر مرفأ بارا ، ما تنتجه من خشب للصناعة كما تصدر انتاجها من الابنوس لاوروبا . واعتادت مدن باراهيا وبرغوبوك وبهيا ، ان ترسل برأ ، سيرا على الاقدام ، ما تنتجه من قصب السكر والتبغ واللحوم ، وجلود الابقار المستوحشة من المناطق الداخلية الى الساحل . وقام حول ريو دي جانيرو وسان-باولو ، كما قام حول كوريتينيا وباراناغو ، حركة تعمير واحياء زراعي اخذت تلتش وتكوى باستمرار . اما البلاد ، في الداخل ، فقد كانت فارغة تقريباً ، والعزلة الاقتصادية تتضاعف بعزلة ادارية . وقد اعتادت لشبونة ان تتصل مباشرة برؤساء القباطنة دون المرور ادارياً بنائب الملك .

وهكذا نرى كيف ان السكان كانوا يتحملون راضين قانعين ، سيادة كانت من اليسير عليهم ان يرحلوا عنها ، وان يتحرروا منها بأيسر السبل . فالوظائف البرتغاليون ، قلة هم ، وافراد الجيش البرتغالي لم يكونوا راضين عن مرتباتهم التي لم تكن لتُدفع لهم بانتظام ، كما برموا من قلة العناية بهم ، فاهيك ان عددهم كان اقل بكثير من افراد الميليشيا المحلية .

اخذ البرازيل يزداد ، تدريجياً ، غنىً وسكاناً ووحدة . فقد كانت تطور البلاد الى عهد ببال . اشتدت جداً ، قبل سنة ١٧٥٠ ، حركة السفن الانكليزية التي تعمل في التهريب ضمن الامبراطورية الاسبانية ، اذ كان جانب كبير من نشاط هذه الحركة ، يمر عبر البرازيل ، باتجاه ريو دي لابلاتا ، في الجنوب ، او باتجاه بوليفيا والبيرو ، الى الغرب ، او باتجاه فنزويلا عبر نهر الريو نغرو والكاسيكويار الى الشمال . وحركة التجارة والتهريب هذه وفرت لمتهمدي النقل البري ، الاموال اللازمة لقيامهم بمشروعات واشغال جديدة ، كما انها بعثت النشاط في العلاقات بين مختلف المناطق البرازيلية .

ومن جهة اخرى ، شاعت الاقدار ، عام ١٧٥٠ ، ان يعثر البولسيون ، وهم عرق توالد في البرازيل من تزاوج المنفيين والهنديين ، عرف بالنشاط العارم وروح المغامرة والانتكال على النفس ،

على مناجم الذهب ، في هذه المناطق الواقعة في حوض نهر الأورو بريشو ، وبلو هوريز ونثه ، وإلى الجنوب من سان - باولو ، كما 'قبض لهم ، ان يعثروا ، منذ عام ١٧٢٥ ، على الماس ، عند مجرى نهر سان فرانسيسكو ، وفي المنطقة المعروفة عندهم بمنطقة الماس Diamantina . وقد تحلى ملك البرتغال عن استثمار مناجم الذهب لبعض الخاصة ، لقاء رسم معين يتناسب وعدد العمال العاملين في استخراجهم من المناجم . اما استثمار الماس الذي سار على النهج ذاته ، في بدء الامر ، فقد اصبحت ، بعد عام ١٧٤٠ ، احتكاً حكومياً تولته الدولة مباشرة ، وذلك تقديراً منها لاغراق الاسواق بهذا الحجر الكريم والحفاظة من جهة ثانية على اسعاره العالية في العالم . وفي سنة ١٧١٤ ، اصبحت منطقة المناجم هذه ، قاعدة لقبطانية عامة ، 'عرفت باسم 'ميناس جيرائس . فقد أدّى استثمار المناجم ، بالطبع الى تعمير الارض وإحياء الاملاك الواقعة على مقربة منها ، في الداخل ، امثال : فتو غروسو وغويار . ولم تلبث هذه المناطق ان اصبحت فيما بعد ، مراكز نشطت فيها تربية الماشية ، لتأمين حاجة المعدّنين من المواد الغذائية ، كما قامت فيها اسواق تجارية ، منها سوق كويابا (١٧١٨) ، وغوايز (١٧٢٢) ، ومدينة ريودي جانيرو التي كانت ترد اليها محاصيل الذهب والماس ، كما كانت تردها الادوات الصناعية اللازمة للعمل في المناجم ، فلم تعتم ان بزت مدينة بيبا بنشاطها . وهكذا أدّى اكتشاف مناجم الذهب والماس الى توفير رؤوس الاموال اللازمة لاستثمارها وإلى ايجاد مناطق اقتصادية جديدة ، كما أدى الى تنشيط التبادل التجاري بين مختلف مناطق البرازيل ، وزادها ارتباطاً بعضها ببعض ، وشدّت بالتالي من وحدتها .

وكان من بعض نتائج هذا الوضع ان ارتفع عدد السكان في البلاد ، وطراً بالتالي ، تغيير على طبيعة تركيبهم الاثنوغرافي . فأخذ البولسيون بمطاردة الهنود حتى في منطقة الامازون لتأمين اليد العاملة في المناجم . الا انهم اصطدموا ، في منطقة بارانيا ، بمعارضة اليسوعيين لهم ، الذين اخذوا يقاومون بالقوة ، الحملات العسكرية التي اخذ البولسيون بتنظيمها تأميناً لحاجتهم ، وبذلك استطاع الآباء اليسوعيون ، ان ينقذوا الهنود من الرق الذين استهدفوا له ، كما حافظوا عليهم من الغناء المحتم ، اذ كان الهنود يتعرضون للموت باكراً ، اذ لم تكن اجسامهم الضعيفة ، لتتحمل عياء المناجم واعمالها الشاقة المضنية . ولذا كان لا بد لهؤلاء البولسيين من استيراد الزنوج ، باعداد كبيرة من المستعمرات البرتغالية في افريقيا . فآلف سوقهم وشحنهم مجرى لم ينقطع سيله حتى اواخر القرن . ولما كانت الحكومة البرتغالية مهتمة بتطوير الزراعة في البرازيل ، فقد حرصت على نقل عدد كبير من الفلاحين ، من جزر الاسور وماديرا ، نزولاً منها عند طلب حكام القبطنيات ، شريطة ان يوفر لهم السكن والعمل عند وصولهم .

قام الوزير 'مبال ، بين ١٧٥٠ - ١٧٧٧ ، بمجهود اصلاحى ، عمراني
عمل بمبال الاصلاحى كبير في البرازيل وفي البرتغال ايضاً . فحاول بوصفه 'دكتاتوراً

مستثيراً ، ان يخضع البرازيل لتوجيهات الملك مباشرة . فاجرى تغييراً جذرياً في وضع القباطنة العامين وذلك يجعلهم موظفين رسميين . كذلك اعطى الموظفين حق البقاء في الخدمة العملية الى ما لا حد له ، كما مكنهم من ان يتمتعوا ، عن طريق خبراتهم الواسعة لامور البلاد وطبائع العباد واعرافهم ، بكل حرية ، بالسلطات والصلاحيات التي تؤهلهم لاتخاذ القرارات اللازمة ، كما انه أقصر مهمة المجالس البلدية على الامور البلدية ، ليس إلا .

واذ كان بمبال من كبار الداعين للتطور الاقتصادي في البرتغال ، فقد راح يحاول ، دون ان يسبوه ، منطق المعاهدات والمواثيق الدولية السارية المفعول ، الحلول محل الانكليز ، بالتجار مع البرازيل . فاخذ ، في هذا السبيل ، بتنشيط الصناعة في البرتغال . فحظر على سكان البرازيل ان ينشئوا ، على ارضهم ، الصناعات التي تقوم مثلها في البرتغال . الا انه ترك لهم فقط حرية صنع المنسوجات الخشنة المتخذة من الكتان او القطن والتي يحتاج اليها الزوج والهنود والطبقات الشعبية السفلى . وحاول جاهداً ، ان يهيئ للبرازيل ، الاخذ بأسباب التطور والائتماء الاقتصادي عن طريق إنشاء شركات برتغالية رأسمالية قوية ، بمعاونة الدولة . فانشأ من ذلك شركات تجارية تتمتع باحتكارات خاصة ، منها شركة بارا التي رأت النور عام ١٧٦٥ ، وشركة مارنوا ، عام ١٧٦٩ ، وشركة برن بوك وبراهيا . واخذت شركة بارا تقوم بأعمال لها واسعة في منطقة كانت لا تزال متخلفة جداً ، وتفتقر كلياً لوسائل العمل ، ومع ذلك حققت نتائج ممتازة . فاستوردت العبيد من زنج افريقيا ، اذ لم تتوفر للطبقات الفقيرة ، تأمينهم من قبل ، واوجدت سوقاً لتنفيق وتصريف المحاصيل الطبيعية التي تدرها بسخاء منطقة الامازون والتي أهمل امرها لعدم وجود من يهتم بها . وضاعفت مقاطعة ماتوغروسو وغواياز تصدير انتاجها من الماشية الى منطقة الامازون ، وارغمت الممرين على التخلي لها عن محاصيل السكر بسعر ادنى من السعر الذي له في السوق الحرة ، كما ألزمتهم بشراء حاجياتهم بأثمان غالية . وراح بمبال يعوض عليهم هذه الخسارة عن طريق تشجيعه زراعة النيلة ، وذلك باعفاها من الرسوم لمدة عشر سنوات ، والارز لمدة عشرين سنة .

كذلك حاول ان يزيد من انتاج المناجم التابعة للتاج . فعرض ، منذ عام ١٧٥١ ، دفع رسم مقداره ٢٠٪ على الذهب ، فجاءت هذه الزيادة في وقت كان الانتاج قد اخذ بالهبوط . ولكي يحول دون حركة تهريب الماس ويخفف من نتائجها وذيولها ، استبدل نظام المهدة او التأجير بنظام الاحتكار ، وابعد عن المنطقة الغنية بالماس ، كل من لا يعمل في المناجم . ويبدو ان نظام الاحتكار لم يأت بنتائج افضل من نظام التأجير والتأجير .

وبعد ان اقتنع بمبال بالمساوىء التي يجرها الرق على الهنود ، اصدر عام ١٧٥٥ ، امره بتحريرهم وعتقهم . فاصطدم هنا بمعارضة اليسوعيين الذين لم يكونوا مقتنعين قط ، بمقدرة الهنود على تدبير امورهم بانفسهم ، وكانوا من فاحية اخرى ، يرغبون في ابقاء من يعملون منهم في الارساليات الدينية والتبشيرية ، تحت اشرافهم مباشرة . وكان بمبال على اختلاف شديد مع

تلك الرهينة بمناسبة حركة القرصنة والتهريب التي كانت تقوم بها السفن البريطانية . وكان الانكليز راغبين جداً بتفادي كل اختلاف او مشاحنة مع الاسبان في منطقة الريد دي لابلاتا ، لاستخدامهم في حركة التهريب الواسعة التي يقومون بها ، عن طريق باراغوايا المفضية في نهاية المطاف ، الى مدينة اسنسيون ، ومنها عبر اودية بلسكومايو وفيرميخو ، الى بوليفيا ، فراحوا عام ١٧٥٠ ، يحرصون البرتغال ، على ان يقوم بعملية مبادلة مع الاسبان ، فيتنازل لهم عن مقاطعة سكرمنتو (اورغواي) لقاء املاك الارساليات اليسوعية الواقعة بين نهري الاورغواي والباراغواي . واليسوعيون الذين كانوا تمكنوا من ربط ارسالياتهم في الشرق بارسالياتهم في الغرب بعد ان تم لهم انشاء مركزي ساوستانسلاس وساو يواكيم ، والذين كانوا يتولون الاشراف التام على دولة ثيوقراطية امتدت اطرافها من الاورغواي حتى جبال الاندس ، والذين كانوا يرغبون في ابقاء الهنود بعيدين عن كل اتصال بالبيض لأثرهم المخلخل للاخلاق ، راحوا يقاومون بشدة هذه الاجراءات . وتمكن ببال ، عام ١٧٥٤ - ١٧٥٥ من تحطيم مقاربتهم بالقوة ، مستعيناً على ذلك بالبوليسيين . ثم اصدر امره عام ١٧٥٩ ، بطرد اليسوعيين من البرازيل . ولم يلبث الهنود ان عادوا سريعاً الى وثنيتهم الاولى ، بعد ان فقدوا كل شعور بحريتهم ، اذ كان لا بد لهم ، وهم في مثل هذا الدرك السحيق من التخلف ، ان يعمد بادارتهم ، الى حكام مدنيين ، علمانيين ، يتوجب عليهم تسليفهم بعض المال ليتغلبوا على مصاعب الحياة ، فجعلتهم ديونهم هذه التي رزحوا تحتها ، في وضع مادي عصيب لا يجدون لهم منه مخرجاً ، اما هنود بارا ومارناو ، فأقروا ان يعملوا قسّة احراراً باجر اعلى .

اما مشاكل الحدود بين البرازيل واسبانيا ، فقد حلت بموجب معاهدة سانت الدفونش المعقودة عام ١٧٧٧ ، وبمعاهدة البرادو التي وقعتها الطرفان ، عام ١٧٧٨ . فتنازل البرتغال عن مقاطعاته الجنوبية الواقعة على ريد دي لابلاتا ، مقابل الاراضي الواقعة الى الشرق من الباراغواي ، والشرق من البيرو والفويان حتى مشارف الريد نغرو . وكان من نتائج هذه الاتفاقات انشاء طريق جديدة تسلكه السفن القائمة بالتهريب (*Interlope*) قامت عليها ، عام ١٧٧٤ مدينة كورنبا ، وتسهيلات اوسع في الاتجاهات التي كانت تعتمد عليها حركة التهريب النهرية من قبل . وهكذا تأسست مدينة طبانتفا ، على نهر الامازون ، عام ١٧٨٠ .

وقد أتيح للوزير ببال ان يحدث حركة تطويرية عادت بالخير واليمن ، ووفرت رأس المال واليد العاملة ، وزادت من الانتاج وتقوية العلاقات بين مختلف المقاطعات ، ولكن بعد ان دفع ثمن ذلك غالباً من الاستثناءات الاضافية .

على إثر اعتزال ببال مهام الوزارة ، ألغيت بعد عام ١٧٧٢ ، كل حركة التطور بعد ببال حركة التطور بعد ببال الشركات التي كان اسسها بعد ان جاءه بأطيب النتائج . فاستمرت مقاطعات الشمال تنعم بالازدهار الذي عرفت ان تؤمنه لها شركة بارا . واخذ عدد من القباطنة العامين يهتمون بمصالح رعاياهم وتأمين الازدهار للمقاطعات التي يشرفون عليها ادارياً ،

بعد ان اتبع لها القيام بمثل هذا العمل الطيب المجدي . فبقطع النظر عن هذه الزراعات التي كانت موضوع اهتمامهم منذ عهد بعيد كقصب السكر والتبغ ، فقد بذلوا جهوداً طيبة لتطوير الحديثة منها كالنيلة والارز والبن والقطن والكافور ، كما ازداد كذلك ، تصدير الجلود . وبذلك أصبحت الزراعة اهم مرافق البلاد ، فأمنت لها الرفاه بعد ان هبط انتاج المناجم من المعادن الثمينة ، لنفاذ الطبقات السطحية ، مما ادى الى تأخر مدينة اورو بريتو بحيث أمست في اواخر القرن قرية متواضعة لا شأن لها . وهذا الازدهار الاقتصادي ادى بدوره الى مضاعفة عدد السكان بين ١٧٧٦ - ١٨٠٦ .

فبعد ان أصبحت البلاد اوفر سكاناً ، واكثر غنى واشد تماسكاً ووحدة ، اخذت تشمر ، اكثر فاكثراً ، بمساوىء نظام الاستثناءات الذي تعيش في ظله ، بعد ان شدد بمبال من قبضة البلاد الام في ادارتها لها . واخذ الشعب يتوق بملء جوارحه الى حرية اوسع في التجارة والصناعة والزراعة . كما انه تاق أن يرى انشاء البلاد يحكمون انفسهم بأنفسهم . وانتشرت افكار « الفلاسفة » التي نادى بها الكتاب الفرنسيون بين ذراري البرتغاليين الذين تولدوا في البرازيل وتناسلوا بعد ان تم لهم المزيد من الثراء والعلم والقبس من الآراء التقدمية ، كما ان مثل الولايات المتحدة الاميركية حرك رغائبهم نحو الاستقلال . فبدت على الناس أعراض التذمر والقلق . فقد كانت الأمة البرازيلية في سبيلها الى التكون والبروز والانفصال عن البرتغال وكانت تنتظر الفرصة المؤاتية والسالحة المارضة . الا انه بالنظر لإدارة البرتغال السمحاء ، على الاجمال ، لم تلشب في البرازيل ، أزمة حادة كما شهدنا في غير مكان من اميركا الجنوبية .

الفصل الثاني

أميركا الاسبانية

كان التطور الذي أخذت اميركا الاسبانية باسبابه ، شبيهاً من وجوه عدة بذلك التطور الذي نهجت عليه البرازيل مع فارق وحيد هو ان الشعور الوطني او القومي برز فيها اشد ، كما ان أزمة الاستقلال أخذت تستخدم فيها ، منذ عام ١٧٨٩ ، إذ أن الدولة الاسبانية التي تم لها من القوة والبطش ما لم يتم بعضه للبرتغال ، استطاعت ان تطبق ، بشكل اشد وأبرز ، مبادئ الميثاق الاستعماري ، ، ولان نفوس فريق محترم في الامبراطورية الاسبانية ، جاشت بمشاعر واحاسيس نحو الملونين فاعتمدوا تجاههم سياسة من الاستثناءات والتمييز الطبقي بلغ من عنفها وحدتها ما لم تصل الى بعضه نفوس البرتغاليين .

الوضع العام بعد معاهدة اورتريخ
كان ملك اسبانيا يعتبر نفسه عام ١٧١٤ ، ملكاً مطلقاً على امبراطورية تسكنها شعوب واقوام هم ادنى منزلة ومرتبة من الاسبان في البلد الأم ، 'يحتم استثمارها واستغلالها بما فيه مصلحة الملك والشعب الاسباني.

فهذه الامبراطورية التي قامت في الهند الغربية ، كانت 'تُحكم وتدار من اسبانيا مباشرة ، وباسم الملك ونيابة عنه ، على يد مجلس الهند . والقرارات التي يتخذها هذا المجلس ، يقوم على تنفيذها والتقيدها بكل دقة : نائبان للملك ، يقيم احدهما في اسبانيا الجديدة ، مركزه مدينة مكسيكو ، كما يقيم الثاني في مدينة ليا ، عاصمة البيرو ، يجري تعيينها من قبل الملك نفسه ، ويتمتعان بجميع الصلاحيات والسلطات التي له . ويعمل تحت ادارتها قبطانان عامان ، يقيم احدهما في غواتيمالا ، ويقيم الآخر في سانت دومنغو ، واليه يرجع حكام كوبا وبورتوريكو وفلوريدا . ويصدر نائب الملك اوامرهما مباشرة لحكام الولايات الواقعة ضمن نيابتهما ، والتي لا يقوم على رأس ادارتها قبطان عام . ويتولى الادارة المحلية في المجتمعات غير الوطنية ، مجالس بلدية (*Cabildos*) ، يُنتخب اعضاؤها انتخاباً ، من حيث المبدأ ، مع ان وظائفهم تبقى عرضة للمساومات ، فيزداد عددها لتزداد بالتالي مداخيل الملك ، وان لم يكن لها بالفعل أي سلطة ، يؤمن العدالة ، في الدرجة الاولى ، قضاة مختصون . اما في الدرجات الثانية والثالثة ،

فمحلفون يجلسون للقضاء . للسكان الوطنيين الحرية بالمحافظة على عاداتهم واعرافهم القومية ، شريطة ألا تتعارض مع وصايا الكنيسة الكاثوليكية وتعاليمها ، تحت مراقبة فريق من بني دينهم يقضون فيما بينهم في القضايا المدنية والجزائية ، لهم السلطة لتشغيلهم لقاء اجر معين ، ويقومون بالفعل وسطاء بينهم وبين البيض في كل ما يتعلق بامورهم . فالحكام المحلفون والقضاة ، كل هؤلاء يجري تعيينهم مباشرة من قبل ملك اسبانيا . وفي حال غيابه ، من قبل نائب الملك . اما صغار القضاة ، فيتولى تعيينهم الحكام بحيث يشعر الجميع ، حتي في المجالس البلدية ، بسلطة الملك المطلقة .

واستغلال الامبراطورية واستثمارها هي من شؤون اسبانيا الخاصة وحدها فيحظر على هذه الامبراطورية أن تنتج اي صنف تنتج مثله اسبانيا . وثالث الليرو بصموبة كلية الترخيص لها بغرس شجرة الزيتون في بلادها ، وزرع الكرمة في اراضيها المعتدلة ، شريطة الا تصدّر اي شيء من انتاج هذين الصنفين ، الى اي جزء من اجزاء الامبراطورية الاسبانية التي تتكون زيتاً وزيتوناً من الوطن الأم . وحظر على الامبراطورية كذلك ان تصنع اي شيء يصنع مثله في اسبانيا . فاسبانيا وحدها الحق بشراء جميع منتوجات الامبراطورية ، كما لها وحدها الحق بأن تبيعها ما تحتاج اليه من امور المعيشة . فاذا ما تعذر على اسبانيا ان تزودها بما تحتاج اليه ، او ان تستهلك هي نفسها منتوجات امبراطوريتها ، قامت اسبانيا وسيطاً بينها وبين زبائنها . فغرفة تجارة اشبيلية التي انتقلت ، عام ١٧١٨ ، الى مدينة قادس ، لسهولة دنو سفن الشحن من المرفأ ، تحدد هي نفسها ، كمية الشحن المعد مثلاً للهند الغربية ، كما تحدد منها الاسعار ، وعدد السفن التي تقوم بنقل الوسق والمشحونات . هنالك اساطيل تجارية تؤلف معاً قوافل منتظمة تغادر قادس المرفأ الوحيد الذي له حق الاتجار مع اجزاء الامبراطورية الاسبانية في اميركا ، باتجاه مرفأء بورتو بلو وقرطاجنة وفيراكروز حيث يجري تفريغ الاصناف المشحونة ، ثم تباع البضاعة في الاسواق التجارية ، وهي اسواق تستمر قائمة مدة اربعين يوماً ، ومنها تنقل برأ الى جميع اطراف الامبراطورية . كذلك تشحن من هذه الموانئ جميع محاصيل بلدان الامبراطورية . والبضاعة الوحيدة التي يجري نقلها مباشرة ، بين الامبراطورية الاسبانية وبين بلاد المنشأ ، هي تجارة الرقيق التي ألغت احتكراً انكليزياً (*Asiento*) وذلك منذ عام ١٧١٣ . فللانكليز الحق بنقل الرقيق مباشرة من افريقيا الى بونس ايرس وقرطاجنة وبورتو بلو ، اختصاراً للوقت والمسافات ، واستمجالاً للمعاملات لما تتعرض له هذه البضاعة السريعة العطب من اخطار ومهالك .

وهذا النظام القائم على الحظر والاحتكار والاستثناء والذي فرض على الامبراطورية فاضطرت للزول عنده والاخذ به ، فالزمها الشراء بسعر عال والبيع بسعر متدنٍ منخفض ، حال ، الى حد بعيد ، دون تطوير مرافق الزراعة والصناعة فيها . ففيه كل المساويء التي عانت منه البرازيل في النظام البرتغالي ، فالطريقة التي يجري عليها الاستثمار لا تساعد قط على توفير ما

تحتاج اليه البلاد من رؤوس الاموال واليد العاملة . فاسبانيا والقائمون بأعمال التهريب من قرصنة البر والبحر ، يسلبون الامبراطورية ، ما لديها من معادن ثمينة ، فيقل النقد من التداول ، وتتاخر حركة البيع والشراء . ان تأمين كل ما يحتاج اليه العمال العاملون في الغابات بالتزيم ، وبطء حركة النقل ، والصعوبة القائمة في توفير رؤوس الاموال التي لا بد منها لتأمين هذه المتوجبات ، يلتهم رؤوس الاموال الزهيدة التي يمكن توفرها (مع العلم انه يقتضي ٣ اشهر لقطع المسافة القائمة بين بونس ايرس وسلطا ، كما يقتضي لقطعها ١٢٠٠٠ رأس بقر ، و ٦٠٠ مركبة او عربة) . واعمال النقل تستوعب عدداً كبيراً من اليد العاملة . ان ثلث سكان كولمبيا ونصف البونغا في لاباز وبوليفيا هم من البغالين . وهذه البلاد الكاثوليكية ، على طريقتها الخاصة ، تعد من الرهبان والراهبات عدداً لا يحصى . فلا عجب ان تفتقر افتقاراً شديداً لليد العاملة .

حاولت الدولة الاسبانية ان تحافظ ، جهدها ، على استمرار بعض الافكار التقليدية حية بين رعايا امبراطوريتها في اميركا . فالجامعات التي قامت في كل من مكسيكو وليا وسلتا فيه في بوغوتا ، وقرطبة وشركاس وغواتيالا وكوزكو وسان دومنغو ، ضمت فروعاً واقساماً لتعليم اللاهوت والفلسفة الكلاسيكية والحقوق والطب ، والآداب الرفيعة والرياضيات . فجامعة ليما ، مثلاً ، تدرس لغة الكويسوا ، كما ان جامعة مكسيكو تدرس لغة الازتيك والاقوامي . كثيرة هي في البلاد ، المدارس الابتدائية والثانوية التي يقوم على ادارتها العديد من الرهبان والراهبات . اما الكتب فنادرة الوجود غالبية الثمن . فليس من مطبعة بعد ، في غير مكسيكو وليا . والحكومة تراقب الطباعة ودورها عن كثب ولا تبيح الدخول الى الامبراطورية ، لاي من الكتب او المطبوعات التي توجس منها شراً على الاخلاق او العقائد او الآداب ، كما تحظر دخول الكتب ذات النزعة المتحررة . ويساعد الحكومة في مراقبتها هذه ديوان التفتيش الذي سجل بين الكتب الممنوع دخولها الى اي جزء من اجزاء الامبراطورية ٤٢٠ كتاباً . وهكذا نرى الامير كيين يخضمون لنوع جديد من الوصاية الشديدة والرقابة الصارمة .

ليس من عجب قط ان ترتفع ، بعد هذا ، الاصوات بالتذمر والشكوى معربة عن عدم رضاها . ويرى مواليد الاوروبيين في المستعمرات من ذراري المعمرين الاسبان ، انهم يضحى بهم بسخاء فيذهبون ضحية اسبانيا ، فاهيك عن ان كل الوظائف الرئيسية هي بأيدي من هم من مواليد اسبانيا . والشاذ اذراً جداً ، حتى ان الشؤون المحلية لا تخضع هي نفسها لمراقبتهم . فالمواليد البيض في المستعمرات يتحسسون عميقاً للفوارق الطبقية التي تعتمل بها نفوس الاسبان : فهم يحتقرون الخلاسين بعد ان تكاثروا عددهم في البلاد ويعرضون عنهم باستلاء وازدراء . وهؤلاء الخلاسيون يزدرون الهجناء من هؤلاء المواليد الذين بالنظر لما فيهم من الدم الابيض ، خيّل اليهم انهم فوق الهنود بمراحل . وكثيراً ما شعر الهندي بمرارة المغلوب على امره فيستغله غالب علج لا تربطه به اية صلة . فمن منهم كان في ارض سجاد بها ملك اسبانيا لاسباني ما ، كان عليه ان يقوم بما يفرضه عليه سيد الارض الجديد من اعمال واشغال لقاء اجر يعينه له ، فيعمل

في المناجم والحقول او المزارع . ويحق للقضاة ان يفرضوا عليهم العمل ، بالشروط ذاتها ، في الطرقات والمباني العامة . فالقوانين الحكومية الخاصة بالهنود تعتبر ممتازة . ولكن في هذه البلاد النائية ، تمجذ الحكومة المركزية السقي تفصلها مسافات شاسعة ، عن تنفيذ ما تتخذها من قرارات . فالهنود الذين تفرض عليهم اعمال شاقة ينوؤون تحتها ، والذين يذهبون ضحية معاملات مؤذية تلحق بهم الحيف والضرر من حيث المرتبات التي تجري عليهم والغذاء الذي يعطى لهم ، والذين يستهفون لالوان الابتزاز والاستثمار البشع ، كل هؤلاء تجيش نفوسهم بالحقد والبغضاء نحو اسيادهم . ويأتي دون الهنود مرتبة ، الارقاء من الزوج الذين لا يزال الكثيرون بينهم يتنقصون ، وليس من يرحم او يسمع ، للحرث التي كانوا يتمتعون بها من عهد قريب ، قبل ان يصيرهم عظمهم الماثر والقدر الفاسم الى ما اصارهم اليه من نكد العيش . وفي الدرك الاسفل من السلم الاجتماعي يأتي «الزمبو» ، هؤلاء الخلاسيون من الزوج والهنود ، الذين كانوا موضوع هزء الجميع واحتقارهم ، والذين كانوا يُسَخَّرُونَ للقيام بأقسى الاعمال واحقر الاشغال باجور سيئة جداً .

وهذا النظام الطبقي الذي وصفنا ، كان من شأنه ان يثير الاحقاد والضغائن ويفذي الحفاظ بأشنع واقذع الذكريات . فمنذ مطلع القرن الثامن عشر ، هبّ على الامبراطورية الاسبانية ، بعكس الامبراطورية البرتغالية ، ريح صرصر من الثورة تغطي بين الضلوع ، وأخذ الناس يتطلعون بلهفة وشوق الى الاستقلال .

كان توسع الامبراطورية الاسبانية ، حتى عهد الملك شارل الثالث ،
الامبراطورية الاسبانية يتجه نحو الشمال ، وذلك بفضل الارساليات الكاثوليكية ، على
بين ١٧١٣ - ١٧٩٥ الاخص . فقد انشأ الآباء اليسوعيون ، في كاليفورنيا القديمة ، قري لهم
ودساكر تنازلوا عنها ، فيما بعد ، الآباء الدومنيكيين . كذلك عمل الآباء الفرنسيون سكان من
جبهتهم ، على تطوير كاليفورنيا الجديدة ، اذ ساعدوا على توطين الهنود كما ادخلوا على البلاد
زراعة الاشجار المثمرة والبقول والخضروات المعروفة في أوروبا . وأنشأ المرسلون لهم مراكز
يشمون منها الى اريزونا ، وخلال ١٧٢٠-١٧٢٢ ، وضعت اسبانيا يدها على مقاطعة تكساس
حتى مشارف النهر الاحمر ، تحوطاً من المشروعات الفرنسية حول لويزيانا . وحاول الاسبان
الوقوف في وجه تقدم البرتغاليين ، حتى نهر ريودي لابلاتا ، فأسسوا ، عام ١٧٢٦ ،
مدينة مونتفيديو .

وبفضل نشاط الحركة التجارية ازداد عدد السكان كما ازداد الغنى واليسر بين الناس .
وقد أقصرت التجارة مع الامبراطورية على بعض المرافئ منها في المكسيك مثلاً فيراكروز .
ومن هذا المرفأ كانت البضائع ترسل ، عن طريق خلايا ، الى المناطق الجبلية ، واكبولكو التي
كان يصلها كل سنة ، سفينة مانيلا محملة منتوجات ومحاصيل آسيا الشرقية . اما في اميركا الجنوبية

فأهم هذه المرافئ ، مرفأ قرطاجنة ومنها تشحن البضاعة باتجاه كميته وليا ، متبعة في سيرها الى الامام ، وادي مفدلينا وكوكا ، مارة بمسدن : مادلين وستنا فيه بوغوتا وبويوان ، ومرفأ بورتو بلو ومنه تشحن البضائع عبر برزخ بناما ، الى مدينة بناما ، لتحملها من جديد سفن باتجاه ليا . ومن ليا كانت تنقل على ظهر البغال باتجاه بوليفيا والشيلى وسالطا ، ومنها تحمل على عربات نقل ، الى التوكومان وقرطبة وبونس ايرس . وكان من المحظور وصول ايصة بضاعة الى بونس ايرس رأساً باستثناء الرقيق والسفن التي تشحن ارقاء الزنوج ، والسفينة البريطانية المرخص لها ، وحدها تستطيع الرسو مباشرة في بونس ايرس . وعلى طول هذا الخط التجاري الشاسع المسافات ، نشأت قباعاً للاستثمارات الحرجية والمزروعات ، يغذيها بما يلزم من المال ، متمهدو النقل الذين اثروا . وقد توفرت لهم اليد العاملة اذ ان عدداً كبيراً من الزنوج سهل لهم الدخول الى « الاراضي الدافئة » في كوليبيا وفنزويلا ، كما نشأت اسواق تجارية ضمت كل ما يلزم للتمون والانتاج .

والى هذا النشاط يجب ان نضيف عمليات التهريب الواسعة التي قامت بها سفن القرصنة *Interlope* ، اذ كان يتم على يد عمليات التهريب الواسعة هذه حركة واسعة من الاستيراد والتصدير لعدد كبير من مختلف البضائع والسلع . وهذه التجارة غير المشروعة التي كان ينهض بها تجار الرق وقباطنة السفن المجاورة التي كان وسعها يتجاوز دوماً الخمسةائة برميل المرخص بها في المعاهدات والمواثيق المبرمة ، وذلك بفضل توسيع صابورة السفينة فوق خط العموم وعمليات تحشية الألواح والحواجز . وبين القائمين بعمليات التهريب هذه ، التجار غير المرتبطين بعقد اتفاق من كانوا يستخدمون الموانئ والطرق البرازيلية ، وجزيرة الثالوث ونهر الاورينوك وشواطئ خليج المكسيك . وقد استخدم الانكليز في هوندوراس وساحل الموسكيتوس ، الترخيص الممنوح لهم من الاسبان ، ليقطعوا خشب الصباغ الذي يتوفر كثيراً في تلك المنطقة . ومن بينهم كذلك المعمرون في جايكا الذين قاموا ، بين ١٧٢٠ - ١٧٤٠ ، بأنشاء وكالات تجارية لهم ، عند مصب النهر الاسود *Rio Negro* وقد قام الاسبان بذلك هذه الوكالات وهدمها . وفي كل مرة كان المعمرون يعمدون بناءها ، وقد بلغ القائلون بأعمال التهريب الهضاب والمرتفعات الجبلية وتحالفوا مع هنود موسكيتوس ، واقاموا عليهم نوعاً من الحماية ، واخذوا يصدرون نحو جايكا ولندن ونيويورك ، خشب البقم والكافور والنييلة وسكر القصب والتبغ ، وقد سوّلت لهم النفس الوصول الى سواحل المحيط الهادي ليفتحوا لهم باتجاه اميركا الجنوبية ، طرقاً جديدة يعتمدونها المهربون في تجارتهم الراجحة . وفي هذا السبيل ، وتأميناً لسيطرتهم على الطرقات التي تمر ببرزخ بناما ، اقنعوا ، انكلترا ، عام ١٧٤٠ ، على توجيه الاميرال فرون ضد بورتوبلّو وقرطاجنة ، والاميرال انسون ، الى سواحل البيرو . وفي سنة ١٧٤٣ ، راح تريلوقي حاكم جايكا الانكليزي ، بتشجيع من لندن ، بحشد المعمرين في هوندوراس وسلمهم ، وبلغت حكاهم نيكاراغوس وغواتيمالا ، بسط الحماية الانكليزي على المنطقة . الا ان الفشل الذي اصيب

به الاميرال فرنون امام قرطاجنة ، ومعاهدة اكس لا شابيل التي حافظت على الوضع الراهن ، من جهة اخرى ، حملت الانكليز على ان يقترحوا عقد المعاهدة الاسبانية البرتغالية ، عام ١٧٥٠ ، ليفتحوا امامهم طريقاً جديداً . وراحوا من جهة ثانية يطالبون بمنحهم حق احتكار الاتجار مع الامبراطورية الاسبانية مقابل تخليهم عن تجارة النخاسة والرق التي اصبحت ادعى للخسارة منها للربح .

وقام بتجارة التهريب هذه ، على نطاق واسع ، عدد من الفرنسيين والهولنديين فعادت عليهم بارباح طائلة ، فاتخذوا من جزائر بحر الكرايبي او الانتيل قاعدة لهم ومستودعاً لبضائعهم فقاموا بمنافسة الانكليز ومزاحمتهم مزاحمة قاسية .

وتجارة التهريب التي سببت نقصاً كبيراً في واردات مرفأ قادس حيث كان يسيطر التجار الفرنسيون ، عادت بالخسف على اسبانيا ، كما حركت الضغائن والاحقاد .

ولقد كانت معاضدة الحكومة الانكليزية لتجارة التهريب ومناصرتها للقائمين بها ، من هذه الاسباب التي دعت الى هذه الحروب التي نشبت بين الانكليز والاسبان ، عام ١٧٣٩-١٧٤٨ ، و ١٧٦٢-١٧٦٣ ، وتلك الحروب التي قامت بينهم وبين الفرنسيين ، عام ١٧٤٢-١٧٤٨ ، و ١٧٥٦-١٧٦٣ ، فاذا ما عادت حركة التهريب هذه بارباح طائلة على المهربين الأجانب فقد أمتنت ، من جهة ثانية ، للاهلين من سكان الامبراطورية الاسبانية ، ارباحاً طيباً من التي تعود عليهم من التجارة العادية ، اذ شجعت فيهم الحماس والرغبة على مضاعفة الانتاج وسهلت لهم الوسائل المالية والبشرية .

ولذا جاء التطور الاقتصادي كبيراً . وبفضل التسهيلات التي وفرتها وسائل النقل تركزت المناجم وتضاعف النتاج بعد ان كان اخذ يتقهقر قهقراً ملحوظاً في القرن السابع عشر ، وأمدت اوروبا بالنقد اللازم لتطورها الصاعد ، وساعدت في رفع الاسعار ، فكان ذلك كله سبباً لظهور هذه التغيرات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية التي وقعت فيها ، كما ساعدت من جهة أخرى على تطوير المحاصيل والمواد الغذائية في اميركا ، ولا سيما في هذه المناطق « المعتدلة » ، أو « الباردة » في جبال الاندس . فازدهرت زراعة الذرة والشعير والقمح والزيتون والكرمة ، بعد ان ساعدت هذه المحاصيل على اجتذاب اليد العاملة والباحثين عن اسباب الرزق . وراح المعمرون وذراي الاسبان المولودون في اميركا يستخدمون العبيد من الزنج لحياء المزيد من الأرض ولانشاء زراعات جديدة ، من قصب السكر والتبغ والفانيلا والكافور والبن ، في الاراضي السهلية الدافئة ، في كل من البيرو وكولبيا وفنزويلا والفويان والمكسيك وجزر الانتيل . وراح الخلاسيون والهناد يستثمرون الغابات بحثاً منهم عن خشب الصباج وخشب الابنوس ، ولحاء شجر الكينا ، منذ عام ١٧٥٠ ، وزراعة الماتيه . كذلك عرفت تربية الماشية رواجاً كبيراً توفيراً لحيوافات الجر والنقل اكثر منه للحوم والجلود . واخذت البيرو تستورد اكثر من

١٠٠ ألف بغل من التوكومان والشيلي . وكان يباع في كل سنة يقام فيها معرض مالطا ، أكثر من ٦٠ ألف بغل جرى تطبيقها وتدريبها وقد قام في السهول المعشوشبة المحيطة بنهر الاورينوك وبرتقعات غرناطة الجديدة والاناهايوك والمكسيك الجديدة ، على مقربة من الاستثمارات الزراعية والمعدنية ، مزارع كبيرة تعنى بتربية الماشية . اما في هذه السباسب والسهول التي تنأى بعيداً عن هذه المشروعات الاستثمارية ، فقد تركت قطعان الماشية تعيش فيها نصف متوحشة او برية ، يسهر على حراستها اقوام من الخلاسين والهنود ، يعملون على وشمها واقتيادها بمشقة الى الاسواق القائمة في خلايا وتوكومان وسلطا ، بقصد بيعها .

كذلك اخذت الحياة الفكرية بالظهور والتفتح ، على اثر سماح السلطات المعنية في المكسيك ، باصدار جريدة دورية اخرى بعنوان *Mercurio Volant* تعطي قراءها اخباراً عن اوربا ، وتلشر في حقولها ابحاثاً ومقالات حول العلوم الطبيعية والفيزياء . ويجب التنويه هنا بفضل حركة التهريب التي ساعدت على نشر الافكار الجديدة بين مواليد الاوروبيين وذريتهم في المستعمرات بعد ان تغلفت بينهم المؤلفات الفرنسية .

ان ازدياد عدد السكان ونشاط حركة الاعمال ، والرغبة في منع حركة التهريب ومراقبة الانتاج ، والرد على التهديد الانكليزي والصمود في وجهه ، كل ذلك وما اليه أدى الى انشاء تقسيمات جغرافية جديدة والاكتثار من الموظفين . ففي سنة ١٧١٧ ، انشئت لتعود الى الوجود من جديد بعد الغائما ، عام ١٧٣٣ ، نيابة للملك في غرناطة الجديدة (كولمبيا وفنزويلا) ، كما انشئت ، عام ١٧٤٢ ، قبطانية عامة في فنزويلا .

هذا التشدد في المراقبة وزيادة احكامها اخذ يحد من التطور الذي اخذت البلاد باسبابه ، كما صدم ، في الصميم ، شعورها بالحرية والاستقلال ، وساعد كثيراً في اذكاء اسباب الفجرة والتدمير في الداخل ، مما أدى بالتالي الى حركات تمرد في اماكن كثيرة ، منها الحركة البلدية التي قام بها طلاب المدارس في الباراغواي ، عام ١٧٢١ ، والثورة التي قام بها الاسبان وذريهم المتمردين الاوروبيين في البيرو (١٧٤١) ، وفي المكسيك (١٧٤٢) ، والثورة الشعبية التي قام بها الخلاسيون والهنود في وجه كبار الملاكين في فنزويلا ، عام ١٧٤٩ . كذلك ثار اليسوعيون في الباراغواي عندما وقعت الحكومة الاسبانية ، عام ١٧٥٠ ، المعاهدة التي عقدتها مع البرتغال وتنازلت لها فيها عن الممتلكات التي قامت فيها ارسالياتهم في الباراغواي ، مما اضطر الآباء اليسوعيون معه لمغادرة تلك المقاطعات والجلاء عنها ، مما سهل للانكليز الذين كانوا وراء عقد هذه المعاهدة ، الدخول بحرية الى البرازيل ومنها الى مقاطعة شاكو ، باتجاه المناطق الجبلية في بوليفيا والبيرو . وبذلك سلسلست عندهم وسائل التهريب وهددت بأسوأ المساويء الهنود الذين تمركزوا وشأنهم . ورفض اليسوعيون الانصياع ، واخذوا يتحصنون في ارسالياتهم للصمود في وجه الاسبان والبرتغاليين معاً وطردهم اذا امكن ، فاضطر هؤلاء الى مجابهة حرب شنوها ضدهم . وكانت الحرب في هذه الفترة قائمة على قدم وساق في الشيلي ضد الأروكان الذين كانوا

انشأوا لهم دولة مستقلة ، فاصبتهم العداة .

عهد شارل الثالث
في عهد الملك شارل الثالث (١٧٥٩ - ١٧٨٨) وقعت معظم التطورات الجذرية وتمت النجاحات التي سجلتها الامبراطورية الاسبانية ، اذ ذلك . فقد عرف ملك اسبانيا ان يحافظ على المبادئ الاساسية التي نهض عليها الاستعمار الاسباني . الا انه تفهم تماماً الموجبات التي تقضي بخلق مصالح وبيع روح مشتركة بين اسبانيا واوروبا والتمكين لها في النفوس .

فقد حالفه النجاح في محاولاته توسيع حدود الامبراطورية الاسبانية ، والدفاع عما تم لها من وضع اقتصادي ممتاز ضد الانكليز . ففي ٢ كانون الثاني ١٧٦٢ ، دخل الحرب الى جانب الفرنسيين ضد الانكليز ، فجرت عليه الحرب الخسائر والهزائم ، اذ احتل الانكليز مدينة لاهافا ، واستولوا على ١١ سفينة اسبانية كانت راسية في خليجها وغنموا من الاسلاب ما تزيد قيمته على ٣ ملايين غرش ، وبذلك اصبح في مكننتهم مهاجمة فيراكروز والكر على قرطاجنة دون ان يلقوا مقاومة تذكر من قبل الاسبان . وبتاريخ ٢٣ ايلول من السنة نفسها ، استولت عمارة انكليزية على مدينة مانيل في الفلبين هذا المرفأ الاسباني الكبير في المحيط الهادي . وبموجب الصلح الذي عقد عام ١٧٦٣ ، اضطرت اسبانيا للتنازل لانكلترا عن واحدة من اثنتين : اما بورتوريكو او فلوريدا ، فتخلت لهم عن الثانية بعد ان احدث بها الخطر الانكليزي اثر تحلي الفرنسيين للانكليز عن ضفة ميسيبي اليسرى . كذلك اضطر شارل الثالث للتنازل لهم عما له من حقوق الصيد في ضواحي جزيرة الارض الجديدة وارباضها التي كانت بمثابة دار تدريب للتجارة الاسبان . كذلك اعترف لهم بحق قطع خشب الصبغة في هوندوراس مما اتاح لهم المزيد من الفرص للقيام بمظاهرات باتجاه المحيط الهادي . الا ان الاسبان استرجعوا لاهافا وكوبا . وبعد ان تحلى الانكليز عن تجارة العبيد تنازلوا عن مطالبتهم الاحتفاظ بحق احتكارهم الاتجار في الامبراطورية الاسبانية . فهل ادى ذلك ، ياترى ، الى التخفيف من تجارة التهريب التي كانوا يقومون بها ؟ وتعويضاً لاسبانيا عن تنازلها للانكليز عن فلوريدا ، تنازلوا لها بدورهم عن ضفة ميسيبي اليمنى . وفي حرب الاستقلال الاميركية ، تدخل شارل الثالث بوصفه حليفاً لفرنسا في الحرب ضد انكلترا ، وذلك من سنة ١٧٧٩ الى ١٧٨٣ . وواجبت معاهدة باريس على الانكليز ، ارجاع فلوريدا لاسبان .

وسجل الاسبان لهم انتصارات ضد البرتغاليين . كان سيبالوس حاكم بونس ايرس استولى عام ١٧٦٢ ، على المستعمرة البرتغالية سكرمنتو ، فجاءت معاهدة باريس توقف تنفيذ العملية . واستأنف سيبالوس ، عام ١٧٧٦ ، المغامرة واستولى على سكرمنتو من جديد ، واقام فوقها الحصون والقلاع . واذ كان الانكليز غارقين في الحرب ضد مستعمراتهم الاميركية في اميركا الشمالية لم يستطيعوا مساندة البرتغال وشد ازرها فاضطر هؤلاء بموجب معاهدي سان الفونس

(١٧٧٧) والبرادو (١٧٧٨) للتخلي نهائياً عن مقاطعة سكرمنتو لاسبانيا ، وقالت اسبانيا وحدها حق الملاحة في نهر ريودي لابلاتا والاورغواي .
وفي سنة ١٧٧٦ ، جرى تعيين الحدود الفاصلة بين الممتلكات الفرنسية والاسبانية ، في سان دومنيك .

واستمر ٣٦ راهباً من الرهبان الفرنسيين في توسيعهم على ساحل المحيط الهادي وإنشاءهم القرى والداكر والمزارع . من إنشاءاتهم تلك ، سان بلاس ، ومونتيري ، وسان فرانسيسكو ، وجعلوا من هذه المراكز الجديدة قواعد لتنظيم حملات ورحلات باتجاه خليج قوتكا الذي استكشفه خوان بيريس ، والذي كان مركزاً هاماً للتجارة بفراء كلب الماء . وهناك التقى الأسبان بتجار من الانكليز والروس والأميركان . واسس الانكليز لهم في قوتكا ، شركة حاولت ، عام ١٧٨٩ ، الاستيلاء على الخليج المعروف بهذا الاسم . الا ان الاسبان تمكنوا من صدمهم وردمهم خاصتين .

وهكذا امتدت حدود الامبراطورية الاسبانية في كل اتجاه وعرف الاسبان كيف يناضلون دونها ويردوا عنها تعديات جيرانهم .

وعرف شارل الثالث ، بوصفه « طاغية مستنيرا » ان يشدد من قبضته الادارية على الامبراطورية . فطبق ، عام ١٧٦٨ ، على الهند الغربية ، النظام الفرنسي الذي ادخله الملك فيليب الخامس ، على اسبانيا ، بتعيينه نظاراً او قهارمة مرتبطين رأساً بنائب الملك ، جاؤوا مرتبة ، فوق القباطنة العاملين وفوق الحكام العامين . كان عددهم كبيراً ، اذ قام منهم ١٢ في المكسيك ، و ٨ في البيرو ، و ٧ في لابلاتا ، فكانوا اكثر اهلية لادارة مقاطعة اصغر مساحة . وتمتع هؤلاء النظار بصلاحيات واسعة : مالية واقتصادية وعسكرية وفي مجال الامن العام . فتمكنوا من القضاء على مساوئ كثيرة في الادارة ، وحوا ، على الاخص ، الهنود ضد تعديات صغار الحكام الاسبان والمتزعمين . فالاصطدامات التي قامت بينهم وبين الانكليز ، والبرتغاليين ، والخوف الذي بعثه في نفوسهم ممثل الولايات المتحدة الاميركية العميق الاثر ، والتغيرات الاقتصادية ، كل ذلك سبب ، عام ١٧٧٨ ، إنشاء نيابة ملك جديدة ، في لابلاتا كانت عاصمتها بونس ايرس ، كما أدت الى إنشاء قبطانية عامة في الشيلي . كل هذا جاء جيلاً انما زاد الادارة مركزية وشدد من المراقبة الادارية .

وشجع شارل الثالث الحياة الفكرية لتأتي وفقاً لما كانت عليه في البلد الأم . فأنشأ جامعات جديدة : في سنثياغو الشيلي ولاهفانا وكيكو . وأدخل على الجامعات القديمة تدريس علوم جديدة ، فأتخذوا يدرسون في جامعة مكسيكو علم الهيئة وعلم النبات ، وعلم المعادن والكيمياء . وقام في مكسيكو معهد خاص بتعليم علم المناجم ، وحديقة الحيوانات والنبات أسسها غلغيز وزير الهند الغربية . وسمح عام ١٧٧٧ ، بإدخال الطباعة الى غرناطة الجديدة ،

والى بونس ايرس عام ١٧٧٩ . وصدر في مكسيكو الـ *Le Journal Littéraire* عام ١٧٦٨ ، كما ظهر فيها عام ١٧٨٨ الغازيت الادبية . وصدر في اماكن كثيرة جرائد عديدة . الا ان ديوان التفتيش ووزارة الهند اوصدا بشدة ابواب الامبراطورية ، امام الكتب الاجنبية .

الا ان الاسس الاقتصادية التي قامت عليها سياسة البلاد الاساسية بقيت مرعية الجانب . فنظام الاستثناءات بقي معمولاً به بشدة والقاعدة الركينة لكل سياسة . فالشاغل الاكبر هو ان تصبح اسبانيا بعد تجدها وبعثها خير زبون للامبراطورية تصديرأ واستيراداً^(١) . فهي وحدها دون سواها ، تمد الامبراطورية بالمواد الصناعية وبعض المواد الغذائية . فقد حرّم شارل الثالث العرق المستخرج من نبات الـ *Agave* ، الذي كان ينافس العرق الاسباني المصنوع من العنب . واستمر مرفأً قانس وحده المرفأ الذي يتولى تصدير الحبوب ومواد غذائية اخرى ، كل سنة ، الى الامبراطورية التي كان بإمكانها الاستغناء عنها . وبقيت التجارة محصورة بيد الاسبان دون سواهم . وفي سنة ١٧٧٨ ، انتهى اجل العقد المعطى للشركة الانكليزية التي تتعاطى تجارة الرق *Asiento* فرأى الملك شارل الثالث ، في حرب الاستقلال الاميركية ، فرصة سانحة ليحتفظ بهذه التجارة لاسبانيا ، واجبر البرتغال على التنازل له عن جزر فرناندو - بو وانوبون ، على سواحل افريقيا الغربية ، باعتبارهما مركزاً لتجارة الرق الاسود . وفي سنة ١٧٨٠ ، رفض مشروعاً فرنسياً بانشاء ترعة او قناة تربط ما بين نهر سان خوان وبحيرة نيكاراغوى ، وبذلك كان تم ربط خليج المكسيك بالمحيط الهادي ، فتختصر المسافة بين اوروبا وآسيا الوسطى ، مبرراً رفضه من خوفه ان يؤدي فتح هذا الطريق الجديد الى اشتداد تجارة التهريب ودخول التيارات الفكرية الاجنبية الى الامبراطورية الاسبانية .

فبالاضافة الى الجهود العظيمة التي قام بها لتطوير التجارة والصناعة في اسبانيا ، وحولاً دون قيام ابناء المستعمرات الاسبانية باحتذاء حذو الاميركيين في طلب الانفصال وانتزاع الاستقلال ، راح الملك شارل الثالث ، عام ١٧٧٨ ، يمطي حرية الاتجار بين اسبانيا والامبراطورية لـ ١٣ مرفأً اسبانياً ولـ ٢٤ مرفأً في اميركا ، من بينها بونس ايرس . وقد استثنى المكسيك وحدها من هذا الحق ، فاحتفظ لمرفأ فيراكروز وحده ، باحتكار التجارة ، الا انه لم يسمح له باستيراد اكثر من ٦٠٠٠ برميل من مختلف البضائع والسلع ، في السنة كلها . الا ان المكسيك عرف بدوره ان يتمتع ، سنة ١٧٨٦ بحرية اكبر أدت الى مضاعفة علاقاته بين اسبانيا والامبراطورية ، وهي حرية لم تحدث اي تبدل في صلب نظام الاستثناءات المعمول به . ومع ذلك فقد حققت ازدهاراً عظيماً . فقد بلغ ما صدرته اسبانيا ، عام ١٧٧٨ ، الى الامبراطورية ، ما قيمته ٢٨ مليون ريال من البضائع الاسبانية ، وما صدرته من البضائع الاجنبية ، بلغت قيمته ٤٨ مليون ريال . فقد شحنت عام ١٧٨٨ ما قيمته ١٥٨ مليون ريال من البضائع الاسبانية ، و ١٤٢ مليون ريال من

(١) - راجع الكتاب الثالث ، الفصل الثاني

البضائع الأجنبية. وباعت أميركا الإسبانية من اسبانيا بما قيمته ٨٠٠ مليون ريال^(١). وهكذا اخذت اسبانيا تصدر وتستهلك اكثر من الماضي ، مما أدى الى إثراء مواليد الاسبان في المستعمرات ، واكتظاظ المدن بالسكان وازدياد حركة العمران فيها . وهكذا نرى ان عهد الملك شارل الثالث المستبد المطلق ، عاد بالخير العميم على بلاد الهند الغربية .

ومع ذلك فالتعلم والتذمر ازدادا حدة. فقد بعث الاثراء ونماء الازدهار الشعور في النفوس بالحاجة الى الاستقلال كما ايظف فيهم الوعي والشعور بالقيمة الذاتية فتملكهم الشعور الشديد بالحرية والتحرر الذي يعود عليهم بالمزيد من المفانم والمكاسب . وبالرغم من التدابير الزجرية والاجراءات الاحتياطية المتخذة ، فقد راحت الافكار والمبادئ الجديدة التي نادى بها الفلاسفة الفرنسيون تتغلغل بين سكان المستعمرات الاسبانية ، وتهريب الكتب وتسريبها سرأ وانتقالها بين الناس كان على اشده . وعمل مربيون فرنسيون على ادخال المبادئ التي نادى بها روسو واصحاب دائرة المعارف الفرنسية .

وقد قصد عدد كبير من الشباب في المكسيك وغرناطة الجديدة ولا بلاتا ، اوروبا ولا سيبا فرنسا يتشربون الامكار والآراء الجديدة المسيطرة على اجواء باريس ، كما راح يستلشق هذا الجو المشبع بكل جديد من الافكار والنظريات التقدمية ، كثيرون ممن هبطوا باريس من الخارج ، ومواليد الاسبان في اميركا اقبلوا بعمش ، على تعلم الفرنسية والاستبحار في آدابها ، برغبة وتوق ابن منها رغبة الشباب الاوروبي . ولم تر في مكان ما من التعليقات والشروح على «روح الشرائع» لونتسكيو الذي منه استمد الاميريكيون مبادئ دستورهم الجديد ، مثل ما قام منها في الولايات والمستعمرات الاسبانية التي كانت اكثر اوساط العالم طراً اعجاباً به ولا سيما الشباب الاميريكي الذين اطلعوا على تاريخهم الوطني من مطالعتهم وقراءتهم كتاب « تاريخ الفلسفة » الذي وضعه رينال . وقد خلف روسو وراءه تلاميذ تميزوا بالنشاط والحماس فكانوا خيراً بين النشء الجديد ، وهذه الجمعيات الادبية والثقافية التي رأت النور في جميع المدن الكبيرة القائمة في المستعمرات الاسبانية ، كان اعضاؤها وغيرهم من المتحمسين يقرأون ويروون عن ظهر قلوبهم ، المسرحيات الفرنسية الكلاسيكية .

ان تمثل الولايات المتحدة والتشبه بها عمر النفوس بالأمل . فقد تغلغلت الافكار الجديدة بين الطبقات العليا في البلاد وبين رجال الادارة والضباط حتى اخذ بها واحتضنها دون برناردو اوهيجنز ، ابن حاكم الشيلي . ورؤساء الاكليروس والمرساوون كلهم أخذوا يمثل الولايات المتحدة حتى ان الحوارنة العاملين في خدمة مواليد الاسبان الروحية في المستعمرات كانوا من بين دعاة الانفصال .

ويبدو ان الاسبان المولودين في المستعمرات الاميركية عرفوا وحدهم ان يفيدوا على الوجه الصحيح من ثماء الغنى والثروة في البلاد ومن التطور الفكري الذي اخذت باسبابه . فالجامعات كانت وفقاً عليهم . والمولودون هالتمهم الفروق التي اخذت تباعد بينهم وبين البيض . فالكهنة الخلاسيون ، كثيرأ ما سجاشت نفوسهم بفكرة التحرر ، وكثيرأ ما حرصوا اخوتهم في الدم على المطالبة بالحرية . وبالرغم من سهر نواب الملك والنظار والمفتشين العاملين تحت امرتهم استمر صفار رجال القضاة في المدن في استغلال الهنود على ابشع وجه ، بالرغم مما يرضحون تحته من

(١) يجب ان نأخذ بعين الاعتبار ارتفاع الاسعار .

الضرائب الباهظة والرسوم الغاصمة . وهكذا نرى ان طبقات الشعب الدنيا حكايت على اثم استعداد للسير في ركاب الثورة اذا قام من ينادي بها ويرفع لواءها ضد الاسبان وضد ذرارهم في البلاد .

كان عدد سكان اميركا الاسبانية يتراوح ، اذ ذاك ، بين ١٦ - ١٨ مليوناً اي بزيادة ٦ - ٨ ملايين اكثر من البلد الام ، بينهم ٣ ملايين من العرق الابيض ، معظمهم من الاسبان المتوالدين في البلاد ، ممن زودتهم الحكومة بالسلاح وشدت من ازهم بالمليشيا دفاعاً عنهم وعن المستعمرة . ولكن عدد البيض ضاع بين الهنود الذين زاد عددهم على ٨ ملايين ، اصف الى ذلك • ملايين من الخلاسيين و ٧٨٠٠٠٠ من الزنج .

ففي سنة ١٧٨٣ ، رفع الكونت داراندا الى الملك شارل الثالث ، مذكرة بين له فيها الصعوبة التي يقتضيها الحفاظ على المستعمرات الاسبانية ، واقترح عليه بالاحتفاظ اسبانيا بغير كوبا وبورتوريكو وبقطر آخر في اليابسة . اما ما تبقى من هذه المستعمرات الشاسعة الاربعاء فيلنشا فيه ثلاث ممالك : واحدة منها في المكسيك ، والثانية في البيرو ، والثالثة في داخل البلاد ، على ان يعهد بالملك فيها لثلاثة من امراء العائلة المالكة يقيمون الولام للملك اسبانيا بوصفه امبراطوراً ، ويبقون مرتبطين باسبانيا تشدها اليهم وشائج وروابط التبعية والولاء ، وهذه العلائق التجارية والمصالح المادية ، ومواثيق هجومية ودفاعية ، تقوم بين الطرفين . اما شارل الثالث فقد ضرب بهذا الاقتراح عرض الحائط واطرحه جانبا .

الا ان ربح الثورة عاد يعصف بالبلاد في الربع الأخير من القرن الثامن عشر ، اذا ما ضربنا صفحا عن الثورة المشتعلة بين اقوام الأروكان في الشيلي . من لفحات هذا الريح الصرصر ، الثورة اللاهبة التي قام بها ، في البيرو ، زعيم الإنكا : توباك-أمارو ، آخر سلالة «ابناء الشمس» الذي عرف ان يستغل الاحقاد والضغائن المعتملة في قلب الشعب لهذه الابتزازات الدفانيا التي تعرض لها من قبل صفار القضاة . الا ان هذه الانتفاضة الثورية انتهت بتقطيع اوصاله ارباً في مدينة كوزكو (١٧٨١ - ١٧٨٣) . ومنها الثورة التي قام بها الاسبان وذرارهم في سنتا فيه بوغوتا (١٧٨١) ، وفي الشيلي بقيادة فرنسيين هما برنيه وغراموزيه ، والحركات العدائية التي قام بها المواطن الفنزويلي فرنسيسكو دي ميراندا ، المولود في كراكاس ، عام ١٧٥٠ ، والذي خدم ضابطاً في الجيش الاسباني وتتلذذ على اصحاب الموسوعة الفرنسية وعلى البنائين الاحرار ، فقام برحلات الى الولايات المتحدة الاميركية ، والى انكلترا (١٧٨٠) وبروسيا (١٧٨٥) وروسيا (١٧٨٧) وراح يفاوض رجال السياسة من الاميركيين والانكليز ؛ ويستأنس برأي ملك بروسيا ، ويستشير امبراطورة روسيا كاترين الثانية ، مستمزجاً رأيهم ، محاولاً ان يكسب عطفهم على حركة التحرر التي تقوم بها المستعمرات الاسبانية في اميركا ، قبل ان يأتي الى فرنسا وينخرط في جيش الشوار ، تمهيداً لمحاولته النفخ في بوق الثورة في اميركا الاسبانية .

في هذا الجو العابق بروح الثورة ، رأى النور ، عام ١٧٧٨ ، سان - مارتن الذي كان
ابوه عقيداً في الجيش الاسباني وحاكماً اسبانياً ، والمحرر العتيد للشيلي والبيرو . كذلك ، ولد
عام ١٧٨٣ ، من اسرة ثرية ومن ذراري الاسبان ومواليدهم في اميركا ، بوليفار .
وفي سنة ١٧٨٩ ، غدت لا تسمع الناس يقولون لك : « انا اسباني » بل « انا اميركي » .
وهكذا طلعت على البلاد حركة التحرر ، واطلت عليها سحائب الثورة مزججة . فالردة التي
قام بها شارل الرابع ، وفتح الفرنسيين لاسبانيا في مطلع القرن التاسع عشر ، ألهب المهشم
فتطارت الشظايا تحرق الاخضر واليابس .

الفصل الثالث

الجزر

بين « جزر » البحر الكرايبي او جزر الانتيل الفرنسية والانكليزية اكثر من نقطة تشابه . فهي ، في نظر كل من البلد الام ، مستعمرات نموذجية ، هذه المستعمرات التي تمد الوطن الام بما يحتاج اليه ، في الاساس ، والتي لا يتوفر فيها شيء مما تنتجه البلد الام . فزروعات التبغ والنيلة ، ولا سيما قصب السكر ، والبن تتسع فيها باطراد وتستوعب اعداداً اكبر من زوج افريقيا الارقاء . وهذه المحاصيل والغلال هي محور حركة تجارية تعود على اصحابها والقائمين بها بالربح الوافر : تجارة انكليزية مثلثة الاضلاع ، فليقبول شحن الى غينيا والغينية الخضراوات الحديدية والانسجة لتصبح فيها موضوع مقايضة بالزئوج الذين يسبحون بدورهم مادة للمقايضة مقابل السكر والروم والتبغ والدبس والقطن ، وكلها مواد تطلبها اوروبا وتصدر اليها . وعلى مثل هذا تجري في الجزر الفرنسية حركة تجارية تزفد سان - مالو وفانت ولاروشيل وبوردو وتجعل من فرنسا الند المنافس لانكلترا . وهكذا تؤلف هذه الجزر منطقة قوامها العرقية . فالزراعة تمتنع اسبابها ويستحيل الاخذ بها ما لم يتوفر لها ما يلزم من اليد العاملة ، يؤمنها رقيق من الزئوج ، لا ينقطع معينه . « زئوج وما يحتاجون اليه من مواد غذائية ، هذا هو قوام الاقتصاد » في هذه الجزر . هنالك ارستوقراطية مؤنقه قوامها اصحاب المزرعات تؤلف الطبقة ، العليا في البلاد ، تسمح للزئوجي بالزواج من بيضاء ، وتقضيه عن الوظائف العامة وعن المراقب المسلمكية في الملبشيا ، وتحظر على الزئوج ارتداء ازياء البيض ، وقضن عليهم بالتعليم ، وتعزلهم عن المؤمنين في الكنائس وينظر الكاثوليك شراً الى العضو منهم في الكنيسة الكاثوليكية التي تقول بالاخوة الانسانية .

تتردى الجزر الانكليزية منها في وضع حرج يهدد بأوخم العواقب الحياة في الامبراطورية البريطانية ، كما رأى فيه كثيرون تهديداً للسلام في اوروبا . فقد ازداد استهلاك السكر كثيراً ، في اوروبا ، منذ عام ١٧١٣ . فليس من عجب قط ان يصبح قصب السكر محور النشاط الزراعي في جزر الانتيل . الا ان انهاء التربة واعياءها ، في الجزء البريطاني من هذه الجزر ، والضرورة لاستعمال المزيد بالتالي ، من العبيد والمخصبات الكيماوية تسببت في رفع الاسعار

والسكفة بصورة فادحة . اما في جزر الانتيل الفرنسية فقد كان الوضع على عكس ما هو عليه في الجزر الانكليزية تماماً ، اذ ان الارض فيها لم يجز استثمارها الا بعد استثمار الانكليز لجزرهم بزمان طويل ، ولذا بقيت التربة فيها مستريحة وغنية كما ان الزوج فيها عملوا بشكل افضل وكان الانتاج بالتالي اقل كلفة ، ولذا استطاع المزارعون الفرنسيون ان يبيعوا محاصيلهم من السكر بسعر ٤٠٪ افضل . ومنذ عام ١٧٢٨ ، اخذ السكر الفرنسي يزحزح من طريقه السكر الانكليزي ، في اي مكان عرضا للبيع معاً في اوروبا . وبما هو أنكى من ذلك واحز وقعاً في نفس الانكليز ، هو ان المعمرين الانكليز في انكلترا-الجديدة راحوا يتسوقون عصير الدبس والروم من جزر الانتيل الفرنسية ، ويصدرون اليها ، بالمقابل ، الحبوب واللحوم ، ومواد البناء والسفن . فالانتيل البريطانية اقتدرت لكل شيء واضطر المعمرون الانكليز ان يدفعوا للأميركيين الشاليين ثمن محاصيلهم الزراعية ، نقداً وعداً ، كما اضطروا لمضاعفة حركة التهريب في ارجاء الامبراطورية الاسبانية ، فكان ذلك سبباً في إطلاق شرارة الحرب ، عام ١٧٣٩ . فالانتيل الفرنسية رفقت بالبحبوحة وانخفضت فيها اسعار الحاجيات الضرورية وتمكن الفرنسيون من تخفيض سعر السكر فيها ، بحيث ان التجار الانكليز في الانتيل الانكليزية راحوا يشترون ، بالتهريب ، السكر الفرنسي لارساله الى لندن ، حتى ان انكلترا نفسها تم للسكر الفرنسي غزوها بعد ان كانت سوقاً محفوظة ، مبدئياً ، للسكر الانكليزي . واذ ذاك تحرك المزارعون الانكليز ، وكانوا من اصحاب النفوذ في بريطانيا . وبفضل ما كانوا عليه من بسطة العيش والغنى والنفوذ ، كثيراً ما كان يجري انتخايم اعضاء ، في مجلس العموم البريطاني ، حيث كانوا يحاولون إفساد الضمائر . واذ كانوا ، في نظر الانكليز ، معمرين غودجين ، ورؤساً ومصدين لا مندوحة عن خدماتهم ، فقد كان الرأي العام دوماً على استعداد لمناصرتهم والاستماع بعطف الى مطالبهم . فطالبوا بمنع الاتجار بين انكلترا-الجديدة وجزر الانتيل الفرنسية . ان الاستجابة لهذا المطلب والاخذ به ، كان من شأنه ان يلحق الفوضى في النظام التجاري الانكليزي ، وذلك لاضطرار المعمرين الانكليز في انكلترا الجديدة للتجار مع جزر الانتيل ، وذلك ليستطيعوا تسديد اثمان مشترياتهم من البلد الام : وقد نال المزارعون قانون عام ١٧٣٣ الذي فرض رسوماً عالية على العصير ودبس القصب الغريب الانتاج المستورد من البر الاميركي ، كما حملوا المجلس على إقرار القانون الآخر الصادر عام ١٧٣٩ ، الذي اجاز لهم بالرغم من المبادئ الاساسية للاقتصاد التجاري ، نقل السكر، رأساً الى اوروبا. الا ان الاميركيين من سكان انكلترا الجديدة ، كانوا بحاجة الى كل جزر الانتيل كسوق طبيعية لهم اذ كانت تضم مجتمعة من السكان ما يوازي عدد سكان اميركا الشالية . فقد كانوا بحاجة للحرية التجارية التامة او ضم جزر الانتيل الفرنسية .

ولذا اصبحت هذه الجزر فريسة عراك هائل تمثل في هذا التصادم الدائم الذي قام بين المعمرين والقراصنة . والمهرين من كلا الدولتين المتنافستين ، كما راحت فريسة المطامع الدولية ، اذ ان « هذه الجزر » والنشاط التجاري الذي تقوم به كانت سبباً من هذه الاسباب لهذا العراك

الجبار بين الفرنسيين والانكليز ، مثلاً بأوضح مجاليه ، بحرب خلافة النمسا وحرب السنوات السبع وحرب الاستقلال الأميركي . فقد اعتبر الفرنسيون معاهدة ١٧٦٣ ، نصراً كبيراً لهم ، اذ بالرغم من تنازلهم عما لهم من حقوق عينية على جزر تباغو وسانت كروا وغرناطة وغرينادين وسان فليسان ، استطاعوا ان يحتفظوا بخير زبائنهم من جزائر الانتيل ، كما عرفوا ان يحتفظوا بجزيرة غوريه الصغيرة في عرض السنغال وجعلها قاعدة لتجارة الرق عندهم . وقد شعر الانكليز بمرارة الخيبة المحرقة ، وجاشت نفوسهم بالحقد ضد الوزير «بوت» احد وزراء الملك جورج الثالث ، لفشله في المفاوضات . ونزولاً عند مطلب الرأي العام وارتياحاً منه للدور الذي تلعبه المستعمرات ، راح الملك لويس السادس عشر الذي تغلب على الانكليز ، يطالب عام ١٧٨٣ ، في معاهدة فرساي ، باسترجاع ما كان له من حقوق على تباغو وسانت لوسي ، والمراكز التجارية التي كانت لفرنسا في السنغال .

كانت «الجزر» تخضع مبدئياً لنظام الميثاق الاستعماري ، الا ان الغنى الذي رتبع فيه المزارعون ، والأهمية المتزايدة التي كانت لزراعتهم في المجال التجاري ، ارغمت الدول على القبول بعدة تنازلات . فالجزر الانكليزية نعمت بهيئات تمثيلية . اما الفرنسية منها في الانتيل فقد قامت فيها مجالس راحت تنافح عن مصالح المزارعين الذين كانوا موضوع رعاية الحكام ايضاً . وكان المعمرون يتدمرون من المراقيل التي تقف حائلاً دون نشاطهم الجهم ، ولا سيما الفرنسيون ، وظهر بينهم حوالي عام ١٨٠٩ ، تيار قوي يطالب بالبلد الام ، بالاستقلال الاداري ، حتى ان بعض الفرنسيين منهم ذهبوا للمطالبة بالانفصال .

الفصل الرابع

أميركا الشمالية الفرنسية والانكليزية

حتى عام ١٧٦٣

وجد المغربون الفرنسيون والانكليزيون أنفسهم ، في أميركا الشمالية ، وسط البلاد وسكانها خضم من الغابات البكر والاحراج الظليلة تفتش رقعة من الارض تساوي ربع مساحة أوروبا . فقد حاول البيض إعمار بعض القطاعات منها وعزق الارض واحياها . فعلى مقربة من سيف البحر ، لم يعد يوجد ما يذكر بوجود الغابات في المنطقة ، سوى واحات حرجية ، تقوم هنا وهناك . اما في المدى الإبعد ، فالانفراجات الحرجية ، كانت تدق وتسترق بحيث تبدو وكأنها رقاع غبراء او صفراء في بحر متموج من الخضرة السندسية . فعلى مقربة من نهر المسيسي ، خلفت الحرائق الهائلة الأكل التي اضرمتها الهنود وراهم ، صحارى شاسعة تكسوها الاعشاب الظليلة ، لتترك بعد حين المجال لسباسب لا حد لها تمتد مدى البصر . وباستثناء بعض المغامرين من رجال الكشف ، وبعض تجار الفراء ، كانت عملية الاستعمار والاستغلال تقوم على استثمار بعض الاحراج لما فيها من خشب للبناء او للسفن .

في هذه الغابات عاشت اقوام الهنود من عرق مغولي ، صفر الجلد نافرو الوجنت ، سود الشعر على نعومة عند الملمس . عددهم قليل لا يتجاوز ٤٠٠ الف كما هو مرجح بالنظر لثمنط العيش الذي كانوا عليه يتأرجحون بين نصف بدائة ونصف حضر ، يعملون على نظام زراعي ، قوامه زراعة الذرة وقطاف الثمار البرية ، وصيد الوعول والغزلان وريم الفلا ، والمز البري . وفي سبيل القنص والصيد كانوا يتخلون ، في فصلي الربيع والخريف عن قراهم الخشبية ليمشوا تحت الحياض . نظامهم الاجتماعي فوضي ، اذ كانوا يؤلفون احلافاً جذورها واحدة تتوزع الى قبائل تجمعيها المعصية . ولكل قبيلة مجلس اختيارية يضم رؤساء القبيلة وقواد الحرب . وقد الفت قبائل الايروكوا الضاربة الى الشرق من بحيرات ايريه واونتاريو مع قبائل الكريك في الاباما ، التحادات فيما بينها ، ملاطها الضام مجلس من الساشم Sachems ، الا انه لم يكن للاتحاد اي وسيلة للضغط على القبيلة ولا للقبيلة اي تأثير على الحلف ، ولا للحلف اي تأثير على الافراد . وكان في مقدور اي هندي ان يقوم مع زمرة من اصدقائه بعمليات غزو و سلب ، وهي

عمليات كثيرة ما اضطرتهم اليها وحملتهم عليها قلة الدراية وعدم الإدارة . والمعاهدات كثيراً ما انتهكت . وكانت الحرب قائمة باستمرار بين الهنود وبينهم وبين الأوروبيين .

فقد كانت حروبهم ضد الأوروبيين تنتهي بالفشل والهزيمة فيضطرون للراجع والانسحاب . فقد ثقفوا استعمال الأسلحة النارية الا انهم لم يستمروا قط مما تم للبيض من تقنية زراعية . وقد عرف البيض كيف يستغلون رقعة صغيرة من الارض تسهل عليهم حمايتها والدفاع عنها ويحصلون منها محصولاً طيباً من المواد الغذائية تكفيهم مؤونة السنة بكاملها . اما الهنود فكانوا يحتاجون الى اراض شاسعة تسرح فيها الماشية المعدة للذبح . وكل تقدم او تطور يحققه الأوروبيون كان يجر معه القضاء على القنص والصيد مما يضطر الهنود معه للانكفاء والراجع الى الوراء تفادياً منهم لغائلة الموت جوعاً . وكان الهنود المتحدون فيما بينهم يستغلون ما بين الهنود من انقسامات ، فيقيمونهم بعضاً على بعض . ومن سوء حظ الهنود ان يكون العنصر الانكلوسكسوني هو العنصر الغالب في اميركا الشمالية . فالفرنسيون عاملوا الهنود بالحسنى ، وحاولوا تفهمهم والتفاهم معهم ، وتربيتهم وتمثيلهم . وقد سن الاسبان قوانين ترمي للحفاظ عليهم . اما الانكلوسكسون فقد كانوا هنا ، كما في كل محل آخر ، عرقين بالفطرة ان لم يكونوا من حيث المبدأ . فقد حملوا كرهاً شديداً لسكان البلاد الاصليين ونزعوا دوماً للقضاء عليهم . واذا كانوا على البروتستانتية فقد راحوا يبررون تصرفهم هذا منهم وسلوكهم وفقاً لنصوص التوراة وآيات الكتاب المقدس : فאלله قد اقطعهم هذه الارض . ولذا ترتب عليهم ان يعاملوا سكان البلاد الاصليين كما عامل المبرانيون الكنعانيين في فلسطين .

تألفت المستعمرات الفرنسية في اميركا الشمالية ، قبل كل شيء ، من المستعمرات الفرنسية فرنسا الجديدة التي تشكلت اصلاً ، من كندا . وقد اقتطعت منها معاهدة او تريخت ، قسماً كبيراً ضم اكاديا وجزيرة الارض الجديدة وخليج هدسون . وهكذا اقتصرت فرنسا الجديدة على العناصر الثلاثة التالية : امها وادي نهر السانت لوران الذي اخذ يحتل بالسكان بسرعة كبيرة عن طريق التوالد والهجرة ، اذ ارتفع عددهم من ١٩٠٠٠ نسمة ، عام ١٧١٤ ، الى ٦٦٠٠٠ ، عام ١٧٦٣ . وقد ألفوا من بينهم اشبه ما يكون بـ « قرية » جبارة اعتمدت في معاشها على الزراعة وتربية الماشية . ولم يزد عدد السكان في مدينة كوبيك ، اذ ذاك ، على ٨٠٠٠ نسمة ، كما ان عدد سكان مونتريال بلغ ، في ذلك الحين ٤٥٠٠ نسمة . ثم يأتي ما سلم من اجزاء اكاديا القديمة : جزيرة سان - جان ، وجزيرة رأس بريطانيا يعمل فيها من ١٠ - ١٢ ألف معمر ، واخيراً عدد من الارساليات التي يشرف عليها اليسوعيون وبعض المراكز التابعة لتجار الفراء ، وفوقها في اختيار مواقعها عند نقاط العبور والمخاضات بحيث اصبحت اليوم مدناً كبيرة عامرة ، منها فرونتناك وليفار وديترويت وولوت - سانت - ماري وماكينياك ، ولاوانت (دولوث) .

ولم يكن اهتمام فرنسا كبيراً بهذه البلدان ذات المحاصيل والمنتجات الطبيعية الشبيهة

بالحاصل الفرنسية من وجوه عدة ، باستثناء الفراء منها . ولم يكن ليرسو في مرفأ كوبيك اكثر من ٣٠ سفينة طوال السنة بكاملها . وكان يمضي وقت طويل على الموظفين والجنود العاملين في هذه المستعمرة قبل ان يعودوا الى الوطن الأم . وكان عدد كبير بينهم يتزوج ويشترى له بعض الاراضي يعمل في احيائها واستثمارها . والسلطات الادارية كانت تحاول ، وهي في عزلتها ، الوصول حبيبا الى قيام وضع من التفاهم بينها وبين السكان حيث ران على الجميع جو من التفاهم والمشاركة ، يشد من ازهم كونهم جميعا على الدين الكاثوليكي المتأصل منهم بفضل كهنة غيورين . وعلى هذا النحو ، نعمت فرنسا الجديدة بشيء من الاستقلال الاداري . وكان الحكام يمتدحون عاليا ما أنسوا بينهم من المحبة رائدة جميع السكان ، كما كانوا يثنون على ما هم عليه من دماثة الاخلاق ونمط العيش الرضي ، وكثرة المواليد في العائلة ، والقناعة وما هم عليه من طيب استعداد للتعاون ومن نشاط لا يعرف الملل .

اما في حوض نهر المسيسيبي ، فقد كانت مقاطعة أليونيوي او البلاد العليا مرتبطة ، منذ عام ١٧١٧ ، بمقاطعة لويزيانا التي كان يدير احوالها ، في بداية الأمر ، شركات تجارية ، ثم لم تلبث ان اصبحت ، منذ عام ١٧٣٣ ، مستعمرة ملكية . وقد تم استكشاف هذه البلاد وبُدئ باستثمارها على يد مرسلين وتجار هبطوا اليها من كندا . ولم يبق فيها سوى بعض قرى معزولة ، قليلة السكان ، منها شيكاغو وحصن سان لويس (بيوريا) وكاهوكيا وكسكاسيا وسانت جنيفاف واوريان الجديدة (١٧١٨) . وقد تألف عدد السكان في مقاطعة أليونيوي من ٤٠٠ من البيض ، ومن بضع مئات من ارقاء الزنج . وعدت لويزيانا ٢٥٠٠ من البيض ، و ٤٥٠٠ من الزنج العبيد . فالى جانب تجارة الفراء ، كانت مقاطعة أليونيوي تغل للقمح لتموين مقاطعة لويزيانا التي كانت تعطي بدورها الخشب والماشية والقطران الذي يصدر لجزر الانتيل ، والأرز والنيلة والتبغ يصدر للوطن الام . وكانت الحكومة الملكية والرأي العام يعلقان اهمية كبيرة على مقاطعة لويزيانا التي كانت تفتقر جذريا للمعمرين . وهكذا نرى ان الممتلكات الفرنسية ، في اميركا الشمالية ، ألفت لوحدها ، امبراطورية واسعة الاطراف ، قليلة السكان .

شابهت المستعمرات الانكليزية ، المستعمرات الفرنسية من حيث المستعمرات الانكليزية تباعدها عن بعضها البعض وبما جاشت به من نزعة نحو الاستقلال الاداري . الا انها تميزت عنها بعدد اكبر من السكان ، وبانتاج أوفر وبمركبة تجارية انشط بكثير ، وبالديانة الغالبة على الاهلين وهي البروتستانتية . غذى هذه المستعمرات حركة من الهجرة الواسعة . فقد بلغ عدد سكان هذه المستعمرات عام ١٧٠٠ نحو ٢٥٥٠٠٠ نسمة ، ارتفع عددهم ، عام ١٧٦٣ ، الى ١٠٦٤٠٠٠ نسمة . فقد تكاثر عدد الزنج العبيد في الجنوب لتأمين اليد العاملة للزدرعات . اما في الشمال ، فقد كان عددهم قليلا ، حيث عملوا على الاخص في الاعمال المنزلية .

تنوعت هذه المستعمرات كثيراً فيما بينها . فقد كانت كل واحدة تنوع المستعمرات الانكليزية منها مستقلة تماماً عن الأخرى ، وتقف الواحدة من الثانية موقف اللامبالاة ، ان لم نقل موقفاً معادياً . وكان بعضها يرفض شد أزر البعض الآخر في حالة قيام حرب ، وتفرض الواحدة رسوماً جمركية في وجه تجارة الأخرى . وكان يباعد أحياناً بين الواحدة والأخرى مسافات شاسعة وصعوبة المواصلات مما يعرض الركاب والمسافرين للمخاطر . فالمسافة بين مقاطعة ماين ، في الشمال وجيورجيا في الجنوب ، تبلغ ٢٠٠٠ كيلومتر ، أي المسافة القائمة بين باريس ومدريد . فالطرق والكباري والبحيرات كانت تادرة ، وكان التقدم الى الامام يتم ببطء كلي على هذه الممرات الضيقة والشعاب القائمة بين الغابات الظليلة ، حيث لا معالم غير ضربة فأس على جذوع الشجر ، يرى المسافر نفسه مهدداً بخاطر الضياع أو الفرق في النهر أو البحيرة ، أو التفتت في المستنقعات . ان خبر اعلان استقلال الولايات المتحدة ، عام ١٧٧٦ اقتضى له ٢٩ يوماً ليصل من فيلادلفيا الى شارلستن ، وهي ذات المسافة التي يقطعها المسافر بين فيلادلفيا وباريس .

واختلفت بما يبعد بينها من فوارق طبيعية وانماط المعيشة وغير ذلك من المنافع والمصالح والمشارب والتقاليد والاعراف . فالجنوب الذي تألف من مقاطعات ماريلاند وفرجينيا وكارولينا ، ثم من جيورجيا ، فيما بعد ، بلغ عدد سكانه ، عام ١٧٠٠ ، نحو ١٠٨،٠٠٠ ، فاذا بهذا العدد يرتفع عام ١٧٦٣ ، الى ٧٣٥،٠٠٠ ، بينهم ٢٨١،٠٠٠ من الزوج ، وتوزع على الاجال ، الى ممتلكات واسعة بلغت أحياناً ٢٠٠٠ هكتار في كارولينا الجنوبية وجيورجيا ، كما بلغت إحدى هذه الممتلكات ، في فرجينيا ٧٠،٠٠٠ هكتار . اما زراعتهم فقامت على اساس تجاري ضمت : التبغ في ماريلاند وفرجينيا ، والأرز والنييلة في كارولينا الجنوبية وجيورجيا ، والتبغ والأرز وتربية الماشية والخشب في كارولينا الشمالية . وتصرف المزارعون تصرف الاسياد المستبدين في مزرعاتهم ، كانت تحت امرتهم قوة من المليشيا وقصوب بين الناس كحكام صلح ، ويصوتون على مشاريع القوانين كنواب . فقد كانوا اجمالاً على جانب لائق من الثقافة ، من خريجي الجامعات الانكليزية ، فأنشأوا لهم في منازلهم مكتبات عامرة .

اما في الشمال او انكلترا الجديدة (نيوهمشير ، ماستشوستس - ماين ورود ايلاندو كونكتيكت) الذي عدد ٩٤،٠٠٠ نسمة عام ١٧٠٠ ثم ارتفع هذا العدد ، عام ١٧٦٣ ، الى ٢٩٥،٠٠٠ نسمة بينهم ١٧،٠٠٠ من الزوج ، عام ١٧٦٣ ، فقد قامت فيه مجتمعات صغيرة ضمت كل منها عدداً من صغار الملاكين . فقد عولوا في معاشهم على زراعات مختلفة كالذرة والقمح والخضروات وحدائق التفاح وتربية الماشية . وقد تمهدوا بشرفهم الا يشترى اية كمية من الخارج ، مها صغرت . حملهم فقر التربة عندم على الاخذ بأسباب الصناعة والتجارة فتوزعت نشاطاتهم بين السفن المعدة للتصدير الى انكلترا ناقلة اليها الخشب والسلك ، واللحوم المقددة ، نقل المواد

المصنوعة في انكلترا ، الى جزر الانتيل ، واستيراد عصير الدبس وثفالة القصب من هذه الجزر ومن المقاطعات الجنوبية ، فيخضعونه لعمليات تخمير معقدة لصنع مشروب الروم الذي تجري مبادلاته في الغينية بالزئوج الذين يباعون عبيداً أرقاء في الجنوب وفي الانتيل . وكان معظم السكان في هذه المقاطعة على مذهب البيورتين المغالين في العقيدة والمتعصبين ، الذين عرف عنهم انهم لا يصنعون رجعتهم نهار السبت لثلاث تجمعات يوم الاحد . اما التعليم عندهم فكان الزامياً بحيث يستطيع المرء قراءة التوراة ، مع ان عدداً كبيراً يكاد لا يعرف ان يوقع امضاءه . ومع ذلك ، فقد قامت جامعة لهم ، في هارفرد (١٦٣٦) ، وبعد ذلك جامعة اخرى في يال . وكان الجدل السياسي ضارباً أطنابه بين الجامعات ، والقساوسة يحيشون بينهم بأفكار راديكالية ، هذه الافكار التي قال بها وعلم كل من لوك ومونتسكيو وبلاكستون الذين قام لهم في وسط الجماعة تلاميذ ومريدون نشيطون . وكانت مدينة بوسطن التي بلغ عدد سكانها اذ ذاك ، ٢٠،٠٠٠ نسمة ، مركزاً فكرياً وثقافياً هاماً .

اما القسم الأوسط من هذه المستعمرات ، فقد تألف من نيويورك ونيوجرسي وبنسلفانيا وديلاوير . وبلغ عدد السكان في هذه المقاطعات ٥٣٤،٠٠٠ عام ١٧٠٠ وهو عدد ارتفع عام ١٧٦٣ الى ٤١٠،٠٠٠ بينهم ٢٩،٠٠٠ من الزئوج . وقد حاز الملاكون ممتلكات من جميع المقاييس كما ان السكان كانوا خليطاً من جميع الشعوب والمذاهب ، حيث ألف الانكليز أقلية نعمت بالتسامح الديني . اما المدن الرئيسية في هذه المنطقة فأهمها نيويورك حيث كانت تسرح الخنازير وتقرح ، وفيلادلفيا التي كانت أكبر مدينة اذ ذاك ، في اميركا الشمالية والتي امتازت بشوارعها وانتظام مساكنها . وهذه المنطقة التي نشطت فيها الصناعات الخشبية واشتهرت بمحاصيل الحبوب ولا سيما القمح والطحين وتنظيم رحلات قوافل السفن باتجاه جزر الانتيل وأوروبا الجنوبية ، ازدهرت فيها الاعمال التجارية على اختلافها .

جمعت بين هذه المستعمرات مصالح مشتركة متناهلة ، فقد وحدة هذه المستعمرات تشابهت من وجهة وحدة الرأي العام بحيث استطاعت الصمود في وجه الحكومة الانكليزية فيما بينها . فقد تنوعت اوضاعها وتوزعت الى ثلاثة اشكال او ثلاثة اوضاع استعمارية مختلفة ، هي : مستعمرات ملكية ، ومستعمرات اقطاعية لبعض كبار الملاكين (ماريلاند وبنسلفانيا) ، ومستعمرات اعترفت براءات ملكية خاصة بملكية بعض الشركات لها (كونكتيكت ورود-ايلاند) ، وعاشت كلها في ظل نظام تمثيلي بورجوازي ، اذ كانت تنتخب لها هيئات من ممثلين يقومون بالتصويت والاقتراح على مشاريع القوانين المعروضة . واحتفظت كل منها بحق الانتخاب للملاكين الموسرين من تتوفر فيهم شروط دينية خاصة . اما عدد الناخبين فيها فكان يتراوح بين ٨ - ٩ ٪ حتى ان عددهم في ماستشوستس وكونكتيكت لم يكن ليتجاوز ٢ ٪ . وهناك مجلس اعلى مشترك مكلف بالتصويت على مشاريع القوانين لدى القراءة الثانية ، وحاكم عام يسهر على تنفيذ هذه القوانين بعد اقرارها .

تمركزت القضايا السياسية في مقاطعتي كونكتيكت وروود-ايلاند حول استياء الذين حرّموا من حق التصويت وحردهم . تمتعت هذه المستعمرات باستقلالها الإداري الواسع : فعمثلو الشعب يقرعون بكل حرية ، على مشاريع القوانين ، ويختارون مجالسهم الخاصة وحاكمهم . اما في ماريلاند وبنسلفانيا فالمشكلة تركزت حول المجلس والحاكم الذين كان يقوم باختيارهما وتمييزهما ، اصحاب الاملاك اذ ان القوانين لم تكن خاضعة لحق الفيتو . اما في المستعمرات الملكية الثمان ، فالمعمرون كانوا في نزاع دائم مع المجلس والحاكم والملك . فالحاكم كان له حق الفيتو او حق رفض القوانين ، وفي حال اقراره لها ، لم تكن قابلة للتنفيذ الا بعد مصادقة المجلس الخاص لها . فالمعمرون يعتبرون انفسهم انهم اخبر الناس بنوع القوانين التي تصلح لهم ، فكانوا يفرضون ارادتهم على الحاكم ، بتهديدتهم له الامتناع عن فرض الرسوم والضرائب التي يستدعيها الدفاع والادارة او اقرار الرسوم التي تتعلق بمرتبه ، مع ان معدل القوانين التي كان يلغونها لم يكن يتعدى ٥٥٪ . ولذا اخذوا يطالبون بالغاء كل حق بالمراقبة ، والتمتع بحقوق السلطة التشريعية كاملة .

ومن جهة ثانية فقد أخضعت هذه المستعمرات لنظام الاستثناءات . فأخذ مكتب الزراعة والتجارة على عاتقه تحديد نمط الحياة الاقتصادية بتوجيهاته وارشاداته التي تستحيل فيما بعد قرارات واحكاماً يصدرها الوزير او مجلس الملك . ان عدداً كبيراً من محاصيل المستعمرات لم يكن يسمح بتصديره الا لانكلترا او الى مستعمرات انكليزية أخرى ، وعلى المعمرين الذين يتسوقون من مستعمرة انكليزية ان يدفعوا رسماً اضافياً هو رسم الإستيراد ، والا كان عليهم ان يذهبوا من نيويورك الى لندن ليحصلوا على أرز ولاية كارولينا . وقد أسثنى من هذا التدبير ارز كارولينا منذ سنة ١٧٣٠ ، اذ أبيع تصديره رأساً الى البرتغال أو الى اسبانيا . ولا يُسمح باستيراد أية بضاعة او سلعة اجنبية الى المستعمرات ما لم تُشحن الى احد موانئ انكلترا ثم تُشحن من جديد الى المستعمرة المستوردة . وفي سنة ١٧٣٣ ، صدر قانون جديد فرض على دبس القصب الاجنبي وثقالته رسوماً مائنة أو رادعة بينما استيراد القصب من جزر الانتيل لم يكن يفى بالحاجة ، فلا بد والحالة هذه ، من الاعتماد على دبس وعصير جزر الانتيل الفرنسية لصنع مشروب الروم ، الذي كان بمثابة النقد اللازم للمقايضة في اسواق النخاسة . والصناعات على اختلافها اخذت تتطور في الاقسام الوسطى والشالية من البلاد ، منها صناعة النسيج والحياكة ، وقبعات الكستور والحديد الخام ، وكلها مواد استطاعت ، منذ عام ١٧٥١ ، ان تدخل الى انكلترا ، بينما تصدير الغزول والانسجة والقبعات كان محظوراً . وحظر القانون الصادر عام ١٧٥٠ ، على المستعمرات انشاء اي معمل او مصنع للتصفيح او اي مسبك او اي معمل حدادة او معمل نشارة . فاذا ما خطر لاميركا ان تصنع على ارضها مسباراً واحداً لكانت انكلترا تشعرها في الحال وتتدخل في الأمر بكل ثقلها وبطشها . ولذا كان الاميركيون في غاية الاستياء من هذه التدابير التعسفية ، ولا سيما من كان منهم في الوسط او في الشمال لان

الامر يعينهم مباشرة . فقد كانوا مستائين اكثر منهم متضررين ، لان بعد اعلان هذا المبدأ
عالياً ، وتأكيد وجوب التقيد به كانت الحكومة البريطانية كثيراً ما تغض النظر عن المخالفات ،
وعن اعمال التهريب التي نشطت في هذا المجال . وقد حرصت على الأخص ، ان يفيد المعمرون ،
على نطاق واسع ، من النظام الاقتصادي البريطاني ، هذا النظام الذي هدف الى افراغ
الامبراطورية الانكليزية في وحدة تكفي نفسها بنفسها ، اذ كان يترتب على كل عضو او جزء
من اعضاء هذه الامبراطورية وأجزائها ان يعطي او ينتج ما هو مهميـة بالأكثر لانتاجه . وكانت
الدولة تدفع مكافآت لرجال الصناعة عن كثير من الاصناف التي يصنعونها او يصدرونها الى
المستعمرات . وكان سعرها يخفض للمستهلكين فيها . فألف هذا التدبير بحذائه ، عملية تسليف
واعتبر بمثابة توفير رأس مال . وهكذا كانت منتوجات المستعمرات موضوع احتكار في
الاسواق التجارية البريطانية . فالمستهلك الانكليزي كان ملزماً بتدخين التبغ الاميركي
واستهلاك السكر الذي تلتجه المستعمرات ، وان يستعمل القير او الزيت الذي تصدره ، وكان
يدفع غالباً ثمان هذه السلع لعدم وجود منافس لها . فقانون الملاحة كان في مصلحة بناء السفن في
انكلترا الجديدة اكثر منه لبناء السفن في انكلترا ، مع انهم كانوا يبتاعون الخشب فيها بأسعار
مرتفعة . فالتقييدات التي نص عليها قانون عام ١٧٥٠ جاءت مقابل السماح بادخال عتلات
الحديد الاميركي الى البلاد معفاة من كل رسم ، بينما الحديد الاسوجي كانت تفرض عليه رسوم
عالية منفردة . ولذا فهيجان الرأي العام الاميركي وتذمره ليس ما يبرره او يذكيه . فقد قام
على اساس من عدم تفهم الامور على وجهها الصحيح وعلى جانب كبير من حب الذات والاعتداد
القومي والفردية الشخصية .

وهذه المشكلات السياسية والقضايا الاقتصادية التي نشبت بين انكلترا ومستعمراتها
الاميركية طبعها نزعة ظاهرة تركزت حول تأمين وحدة المستعمرات ، كما حملت في طياتها
وبين ثاياتها بذور الانفصال عنها . وزادت هذه الامور حدة خلال القرن مع التطور الاقتصادي
الذي اخذت المستعمرات باسبابه ، ومع النجاح العظيم الذي حققته في الداخل ، والصمود في
وجه الفرنسيين في هذا النزاع الحاد الذي نشب بين الجانبين المتجاورين .

أهلت المستعمرات الاميركية بسرعة وتحمرت بالسكان ، قبل عام
١٧٦٣ ، وذلك بفضل ما انهار عليها من سيل لا ينقطع من
المهاجرين الاوروبيين بعد ان اجتذبتهم اخبار الازدهار المادي
الذي ينعم به الاهلوت ، واغرام رخص ثمن الاراضي وقلة تكاليف الحياة ، وارتفاع اجور
العمال ، وسهولة الانضمام الى الطائفة الدينية التي يرغب بالانضواء اليها من قبال بمقالتها . فقد
جاءوا باعداد قليلة من انكلترا نفسها ، وبأعداد أضخم من مقاطعة الاولستر إثر نزوح السكوتلانديين
من ابناء الكنيسة المشيخية ، وتركهم البلاد بعد استفحال ازمة اللسيج الحادة التي نشبت اثر
صدور القوانين الخاصة بحماية التجارة . كذلك جاءت اعداد كثيفة من المانيا الرينانية حيث

حركة الاسكان في
المستعمرات حتى سنة ١٧٦٣

جعلت الاضطهادات الدينية ، والحروب والنظام الاقطاعي المسيطر على البلاد ، الحياة صعبة قاسية ، والعيش عسيراً في وجه عدد كبير من الفلاحين . وقامت في نواح عديدة مكاتب تجميس عهّدت الى دعاة جهزتهم ببيانات جذابة ، مغرية ، حركت في قلوب الناس الشوق الى الاغتراب والهجرة . الا انه كان لا بد للراغبين في النزوح والسفر ان تتوفر لهم نفقات الطريق ورأس مال صغير يساعدهم على السكن والاستقرار بعد وصولهم سالمين الى حيث يقصدون . فالفقراء المعدمون منهم وقّعوا تعهدات اشترطت عليهم شروطاً معينة قبلوا بها وتمهدوا بالنزول عند مقتضياتها . فكان قبطان السفينة التي تنقلهم يودعهم عند وصولهم الى الشواطىء الاميركية ، في نزل خاص ، فيأتي المعمار الراغب في الحصول على اليد العاملة ويدفع للقبطان مبلغاً من المال يزيد مرتين او ثلاث مرات على تكاليف السفر ، ثمناً للعامل الذي وقع عليه الاختيار . فكان هذا يتعهد له بالعمل في خدمته ثلاث او خمس سنوات ، يتلقى عند انتهاء اجل العقد من رب العمل ، الالبسة والادوات والعدد اللازمة وحيوانات الجر ومبلغاً من المال بحيث يتمكن من ان يعمل لحسابه الخاص معتمداً على نفسه ونشاطه . وهكذا ، بالرغم من رحلة شاقة تستغرق بضعة اسابيع او عدة اشهر ، يعتبر المسافر نفسه محظوظاً ، الى حد بعيد اذا لم تقع عينه في النهار على اكثر من جثتين او ثلاث يغذف بها البحارة الى المي ، ممن يموتون على ظهر السفينة ، اثناء الرحلة لكثرة ما كانت تفص به من الركاب . اضاف الى هذا السيل الجارف ، عدداً من المبعدين او المنفيين يجري ابعادهم الى المستعمرات ، بلغ عددهم ٥٠ الفاً بين ١٧١٧ - ١٧٧٩ ، حكم عليهم بالاشغال الشاقة مدة سبع سنوات ، بينهم بعض رجال السياسة الذين رؤي التخلص من مضايقاتهم ، وبعض المحكوم عليهم بمنح من قبل القضاء الذي كان يأخذ الناس بالشدّة ، فاذا بهم بعد لأي من الزمن يصبحون من اقوام المواطنين واصلحهم اخلاقاً ونشاطاً للعمل في البلاد .

وعند انتهاء اجل عقود هؤلاء النازحين عن ديارهم ، والتحرر من ارتباطاتهم ، كان كثيرون منهم يتجهون غرباً سعيّاً وراء اراضٍ حرة تباع لهم بالبخس الاسعار أو يستملكونها بمجرد وضع اليد ، يسيرون في خطى تجار الفراء . ومعظم هؤلاء الرواد من السكوتلانديين ، يبنون لهم اكواخاً من جذوع الشجر ، يمزقون الارض ويحيونها ثم يزرعونها فاهجين في عيشهم نهج الهنود يقتاتون من بعض نتاج الارض مما يزرعون او مما يجمعون عليه من صيد او قنص ، ثم لا يلبثون ان يتخلوا عن ارضهم لراغب فيها طارئ ، وينزحون هم الى ابعد ، باتجاه الغرب . وكثيراً ما حل محلهم أسر ومعمرون احسن عدة وعتاداً ، معظمهم من الالمان ، فلا تعدم ان ترتفع في الارض الحدائق والمغروسات وتلتأ فيها المزارع ، وتأخذ رقاع الغابات بالتقلص والضمور حتى تصبح معالمها واحة أو جزيرة في السهل المنبسط على مدى البصر . وعندما تعترض سيرهم مساقط المياه والشلالات يتحول هؤلاء الرواد الى بنسلفانيا ويتغلغلون بين ثناياها ويهبطون اودية الابالاش ويقيمون لهم المنازل في رؤوس الوديان في فرجينيا او كارولينا . وهكذا قامت انشاءات على

الاراضي المرتفعة كما قام منها العديد على السواحل ، في هذا الغرب الديوقراطي ، حيث الرجل الموفور الكرامة الذي يتمتع بالشهرة الواسعة والجاه العريض ، هو من يقطع بفأسه اكثر من غيره من الاشجار في سبيل « احياء الارض وتعميرها » ، والذي كان في مقدوره ان يسلخ جلد رأس عدد من الهنود ، بعكس المنطقة الشرقية التي كانت بورجوازية .

فمنذ سنة ١٧٣٠ راح المزارعون على سواحل فرجينيا من عائلات لي Lee واشنطون ينشؤون لهم شركة واستحصلوا على ارض مساحتها ٢٠٠,٠٠٠ ايكر (٨٠,٠٠٠ هكتار) في وادي اواهيو ، لتوطين بعض المبعدين هنالك . وفي سنة ١٧٤٩ ، وعدت سلطات فرجينيا شركة اخرى باسم شركة : لويال لاند ، بان تضع تحت تصرفها اراضي مساحتها ٨٠٠,٠٠٠ ايكر (٣٢٣,٠٠٠ هكتار) تقع الى الغرب من جبال أليغاني .

في هذه الحركة من التوسع والانتشار يقوم بها تجار الفراء والرواد المستكشفون واصحاب رؤوس الاموال ، اصطدم هؤلاء بالهنود والاسبان والفرنسيين . فقد قام بينهم وبين الهنود صراع دائم كانت معه المستعمرات تقدم مكافأة لمن يأتي برأس هندي . وقعت بالفعل حروب دامية كالتى اصطلح بناها اقوام تشيروكي في جيورجيا او تلك التي وقعت في ولايتي كارولينا الشمالية والجنوبية ، سنة ١٧٥٩ و ١٧٦١ . وقال جيمس أوغلثورب ، عام ١٧٣٢ امتيازاً بإنشاء مستعمرة له في جيورجيا الى الجنوب من سفانا مزاحة منه للاسبان في فلوريدا ، مما أدى الى سلسلة من الغزوات والاصطدامات بينهم وبين الاميركيين اضطر معها الاسبان للتنازل عن فلوريدا للانكليز ، عام ١٧٦٣ . ولكن النزاع الطويل هو الذي قام بين الانكليز وبين الفرنسيين .

ضربت المستعمرات الفرنسية نطقاً محكماً حول المستعمرات
النزاع بين الفرنسيين والانكليز الانكليزية ، واصبح الفرنسيون ، بعد عام ١٧١٥ ، في وضع يسيطرون معه على تجارة الفراء . فالتجار والمعمرون الانكليز هم الذين باشروا الحرب اولاً ثم جروا اليها الهنود واخيراً ارغموا الحكومات على الدخول فيها والانغماس في ميدانها على غير رضى منها تقريباً .

بالرغم من معاهدة اوترخت احتفظ الفرنسيون بتفوقهم في تجارة الفراء ، بفضل رحالهم وروادهم المستكشفين . فالرحلات التي قام بها فيرنديري ، باتجاه الشمال الغربي ، اتاحت له الاتصال المباشر بالقبائل التي تقوم بعملية الصيد وتمكنوا من تحويل تجارة الفراء نحو مونتريال . والرحلات الاستكشافية التي قام بها سان - دني ، بين ١٧١٤ - ١٧١٧ ، فاجتاز معها مقاطعة التكنساس وبلغ منها نهر الريو غرانده ، والرحلات الاخرى التي قام بها لاهارب ، فصعد بعيداً في النهر الاحمر (١٧١٩ - ١٧٢٠) والاركنسو (١٧٢٢) ، وهذه الرحلات الاخرى التي قام بها بورمون ، لم تكن من استكشاف الكنساس (١٧٢٣) ، وعمليات الاستكشاف التي قام بها الاخوة ماله للذان انطلقا من نهر ميسوري واجتازا نهراسكا والكنساس والكولورادو (١٧٣٩) ، كل

هذه الرحلات وعمليات الاستكشاف الواسعة النطاق التي رافقتها ، ساعدت على ازدهار تجارة الفراء في اورليان الجديدة . وبفضل تفوق المواصلات البرية ، تم السبق للتجار الفرنسيين على التجار الاميركيين في ألباني ونيويورك ، مع ان هؤلاء كانوا يحصلون على البضائع الانكليزية بشروط ٥٠٪ افضل ويستخدمون نهر الهدسون الذي كان حراً من الجليد طوال السنة . ومن جهة اخرى ، وبالرغم من البند الخامس عشر من معاهدة اوترخت التي اعطت الجنسية الانكليزية لاقوام الايروكوا ، انتشر الكنديون في المقاطعات الواقعة الى الجنوب من بحيرات اونتاريو وايريه وسان - لوران ، باتجاه خط مقسم المياه بين البحيرات الكبرى والمحيط الاطلسي . وقد اصطدم الرواد البروتستانت القادمون من انكلترا الجديدة في تقدمهم ، بالكنديين الكاثوليك ، فنظروا اليهم نظرة المبرانيين الى العالقة والمديانيين المستوجبين عندهم للذبح والافناء ، كالهنود مثلاً بمثل .

ولذا نشبت الحرب بين الجانبين واحتدمت بينهم بالرغم من رغبة الحكومتين بالحفاظ على السلام . ونال التجار الانكليز ، عام ١٧٢٧ ، من قبائل الايروكوا ، السماح لهم بانشاء حصن في أوسونغو على بحيرة اونتاريو ، ومنه اخذوا ينطلقون غرباً ويشعرون عن طريق الاومايو . ولكي يوقفهم الفرنسيون عند حدهم ويحولوا دون تقدمهم ، راح الفرنسيون يبنون حصن فسنين على نهر الواش ، كما راح تجار نيويورك وبنسلفانيا ، ينقلون عن طريق الايروكوا ، الاسلحة الى اقوام الينار في مقاطعة الفسكنسين والألينوي وحرضوهم على الحرب ضد الفرنسيين ، وهي حرب استمرت حتى سنة ١٧٣٠ . وتقدم تجار كارولينا حتى الاركنسو ، وحرضوا عام ١٧٢٩ ، قبائل الناتشز على الثورة ضد الفرنسيين . كذلك عملوا على تسليح اقوام شيكاشا وعلى تنظيمهم وتدريبهم ، ثم دفعوا بهم ، عام ١٧٣٦ ، الى مهاجمة القوافل الفرنسية التي كانت تسير ونهر المسيسيبي .

واثناء حرب خلافة النمسا ، احتل المتطوعة الانكليز ، في انكلترا الجديدة ، مدينة لويسبورغ (١٧٤٥) التي اعادتها الحكومة الانكليزية ، الى الفرنسيين مقابل مدينة مدراس ، في الهند ، مما اثار حفيظة سكان بوسطن واحتجاجاتهم . وكان الانكليز خلال الحرب مسيطرين على البحار ، فلم يصل الفرنسيين سوى النزر النزر من البضائع ، كما ان اسعار الحاجيات والسلع على اختلافها ارتفعت كثيراً بحيث بلغت ١٥٠٪ ، واستطاع تجار بنسلفانيا ان يكسبوا ، الى جانبهم ، القبائل الهندية وان يؤسسوا لهم مدينة لفتاون ، الى الجنوب من بتسبورغ ، وحصن بيكاولاتي ، الى الجنوب الغربي من بحيرة ايريه اللذين اصبحا مركزين هامين للتجارة في تلك النواحي .

فالصلح الذي عقده عام ١٧٤٨ ، في اكس لا شابيل ، لم يغير شيئاً ولم يوقف شيئاً . وحافظ التجار الانكليز على مواقفهم . واستمر آل واشنطن وآل لي Lee ، في محاولاتهم ومشاريعهم

الاستثنائية لوائي الاواهيو ، وراح انكلوسكسون هالفكس التي انشئت عام ١٧٤٠ هاجون
دوغا نتيجة ، سكان اكاديا ، عام ١٧٥٠ . وبشخص من حاكم بوسطن راح المعمرون الانكليز ،
في انكلترا الجديدة ، يتقدمون من خط مقسم المياه حيث اصطدموا بخطوط الدفاع الكندية
وراحوا يتحصنون في مراكزهم الامامية .

وقد اوجس الحاكم الفرنسي في كندا السيد لاغارسونيير خيفة من ان تنقطع اتصالات
فرنسا الجديدة مع مقاطعة لويزيانا . فجرد حملة فرنسية استرجعت الاواهيو ، ودكت عام ١٧٥٢ ،
حصن بيكاولاي . وراح خلفه الحاكم دوكسن ينشئ خطاً من القلاع والحصون ، تأميناً
لوصل كندا بالارواهيو . وفي سنة ١٧٥٣ ، دفع المعمرون في فرجينيا ، الحاكم على انشاء حصن
لهم في الموقع الذي تقوم عليه مدينة بتسبورغ ، عند تشعب نهر الاواهيو الملقب : «الباب الى
الغرب» ، فاستولى عليه الكنديون ودكوه الى الارض وبنوا مكانه حصناً كبيراً باسم دوكسن
واذ ذاك ، انفذ حاكم فرجينيا كتيبة من المشاة بقيادة احد كبار المساهمين بشركة الاواهيو ،
هو جورج واشنطن . وفي ظروف غامضة ، مبهمة ، وقع قتيلاً قائد الكتيبة الفرنسية
جومونفيل الذي كان متوجهاً بصفته مندوباً ممثلاً لحكومته . واضطر واشنطن للالتجاء الى
قلعة ارتجل بناءها عرفت باسم «الحصن المرتجل» ، واستطاع الفرنسيون من ارغامه على
الاستسلام بعد ذلك بقليل في ٢٠ تموز ١٧٥٤ .

اجتمع ممثلو المعمرين الانكليز في مدينة الباني ، في شهر حزيران ، الا انهم لم يتوصلوا
الى اتفاق فيما بينهم . ولذا قرروا الاتصال بالبلد الام . وفي تلك الاثناء انهزم الجيش الانكليزي
وجيش الميليشيا التابع لفرجينيا ، شر هزيمة امام حصن دوكسن ، وفي ٩ تموز ١٧٥٥ ، وبفضل
هذا النصر عاد الهنود الى تحالفهم مع الفرنسيين . وراح جيش فرنسي يسير باتجاه الباني
ونيو يورك ، متبعاً في سيرة الوادي الجليدي التكوين الكبير الذي يسير فيه مجرى نهر ريشليو ،
والذي تقع فيه بحيرة تشامبلين وجورج ، الا انه انهزم عند بحيرة جورج ونجح من جهة ثانية ،
الهجوم الذي شنته ميليشيا بوسطن على اكاديا . وحدث من جراء ذلك ان تم ابعاد سبعة
آلاف من سكان اكاديا الكاثوليك ، وبذلك حيل بين الابناء والديهم ، والازواج وزوجاتهم ،
كما تعرضت النساء للضرب العنيف وماتت تحت الضرب عدد منهن . ومن اصل هؤلاء الآلاف
السبعة قضى اربعة منهم فريسة البؤس والعناء وتمكن ثلاثة آلاف آخرون من الافلات والفرار
والنجاة بانفسهم ، واستهدف بعضهم لسلخ جلدة رؤوسهم اذا ما شاء نكد طالهم وحظهم العائر
ان يقموا من جديد في قبضة الانكليز . واحترقت القرى والساكن ليزيدوا من شقاء الفارين
ولهلمهم . وصودرت املاكهم واراضيهم ووزعت بين معمرين اميركيين . «وهكذا راح هذا
الشعب الشهيد فريسة قوة طاغية اظهرت من الفظاظة والفظاعة وعدم الحياء ما لا يختلف
بشيء عما تضرست به اوربا وراحت فريسة له في تلك الآونة» .

ومع هذا كله ، كانت فرنسا وانكلترا لا تزالان رسمياً بحالة سلم . الا ان مهاجمة الاميرال

الانكليزي بوسكوين ، في حزيران ١٧٥٥ ، بدون سابق إعلان حرب ، لغافلة من السفن الفرنسية ، في طريقها الى كندا ، ثم مهاجمة كل السفن الفرنسية ، في تشرين الثاني ، اقضى الى حرب مكشوفة بين الدولتين ، في كانون الثاني ١٧٥٦ . واذ كانت الحكومة الفرنسية منهمكة في الحرب القائمة اذ ذاك ، على القارة الاوروبية ، المعروفة بحرب السنوات السبع ، فقد املت شؤون كندا . وعندما راح مندوب فرنسي كندا يطلب ، عام ١٧٥٩ ، امدادات ليقوي من موقفهم الصعب في الحرب ، رد عليه وزير المستعمرات قائلاً : « عندما تكون النار عند ابواب منزلك ، يا سيدي ، فلا يعود من الجائز التفكير بالاصطبلات » . اما التفكير الانكليزي فكان على عكس ذلك تماماً . اذ تصبح حرب المستعمرات في نظرهم ، هي الساحة الاولى والجال الرئيسي لها ، وتسمي مشروعاً قومياً وصلبية مقدسة .

ومع ذلك ، وصل في شهر مايو ١٧٥٦ ، القائد الجديد للقوات الفرنسية ، هو المركيز دي مونكالم الذي عُرف بروحه المرحية ، وُبعد تفكيره ، ونشاطه وشجاعته ، وعرف بالتسعة آلاف من الجيش النظامي الفرنسي وبقبضة من جنود الميليشيا وبعض الهنود ، ان ينظم صفوفه وان يصمد في وجه القوات الانكليزية التي كانت تفوق قوته كثيراً ، والتي كانت تتلقى الامدادات باستمرار اذ وصلها ١٢٠٠٠ عام ١٧٥٧ ، و ١٤٠٠٠ عام ١٧٥٨ ، و ٩٠٠٠ عام ١٧٥٩ ، عدا عن جيش الميليشيا العامل في المستعمرات الانكليزية الذي يزيد على مجموع هذه القوى بكثير . فراح مونكالم يؤمن ، قبل كل شيء ، سلامة وادي الاواهو ، باستيلائه على حصن اوسويغو ، في آب ١٧٥٦ . وفي سنة ١٧٥٧ ، امن طريق مونتريال باستيلائه على حصن وليم - هنري الواقع عند بحيرة جورج . وفي سنة ١٧٥٨ ، راح الانكليز يستغلون تفوقهم العددي الساحق ، فبادروا للهجوم من ثلاث نقاط ، في وقت واحد . فقد فشل سيرم رأساً ضد مونتريال ، اذ استطاع مونكالم ، بقوات ٦ مرات اقل ، ان يلحق بهم الهزيمة الى الجنوب من بحيرة تشمبلين ، عند حصن نيكوندروغا . الا انهم استولوا على حصن فرونتناك وحصن دوكنس وبذلك تمكنوا من فصل كندا عن مقاطعة لوزيانا ، كما فصلوها تقريباً عن فرنسا الجديدة باستيلائهم على لويسبورغ . واخذت قوى الجيش الفرنسي بالتناقص والانهيار . وفي سنة ١٧٥٩ ، قام الانكليز بهجوم مركز على كوبيك ومونتريال ، مستخدمين لانجساحه بحيرة اونتاريو ونهر ريشليو ومصب نهر سان لوران . فالطواوير المهاجمة من الجنوب اخفقت في تحقيق اهدافها بالرغم من احتلالها حصون تريكوندوفا ونياغارا . والعبارة الانكليزية في سان لوران ، فشلت هي الاخرى ، في بدء الامر ، في مهاجمتها لخطوط الدفاع القائمة الى الجنوب من كوبيك . الا ان القائد البريطاني وولف المعروف بمناده ، قام بمنورة جريئة رائدة ، اذ نقل قوة انكليزية عبر النهر ، كما انزل قوات اخرى الى الشمال من المدينة ، ودار في ١٣ ايلول قتال عنيف بين الفريقين ، قتل فيه كل من القائدين : وولف ومونكالم ، الا ان الانكليز بقوا مسيطرين على الوضع . وهكذا اضطرت كوبيك للابتسلام في ١٨ ايلول ١٧٥٩ . وتمكن

الشفاليه دي لفيش من الصمود سنة ثانية ، وانتصر في نيسان عام ١٧٦٠ ، على الانكليز عند ابواب صكوبيك . الا ان الامدادات لم تصله من فرنسا ، فراحت ثلاثة جيوش انكليزية ، تضرب الحصار حول مونتريال ، فاضطرت المدينة للاستسلام في ايلول ١٧٦٠ ، لحاجة المدافعين للاعتدة الحربية والمؤن والقوى اللازمة لمتابعة الحرب . وبموجب معاهدة باريس ، في ١٠ شباط ١٧٦٣ ، اضطرت فرنسا الى ان تتخلى لانكلترا عن كندا وعن وادي الاوهايو وضة المشيسي اليسرى . وهكذا زالت الامبراطورية الفرنسية في اميركا الشمالية من الوجود ، وراح المعمرون الانكليز يستسلمون في الخيال للاحلام المعسولة امام غنى هذه المجالات الشاسعة الغنية بمواردها التي انفتحت آفاقها امامهم .

الفصل الخامس

استقلال المستعمرات الانكليزية في أميركا (١٧٦٣-١٧٨٣)

ما كادت عشرون سنة تمر على انتصار انكلترا على فرنسا وانتزاعها ممتلكاتها الشعب الاميركي في شمالي اميركا ، حتى كانت المستعمرات الانكليزية قد انفصلت عن انكلترا واستقلت عنها تماماً . لم يأت هذا الاستقلال قط وليد ارادة رغبة فيه وهيات له الأسباب . ان عدداً كبيراً من المعمرين في اميركا بقوا على تعلقهم بالوطن الأم . وعندما كان يخطر لبعضهم الذهاب الى انكلترا ، كانوا يقولون انهم ذاهبون الى « بلادهم » ، وأثناء الثورة الاميركية ، وبالرغم من الاصطدامات العنيفة التي قام بها كلا الجانبين بقي هنالك ما لا يقل عن ثلث السكان يحتفظون بولائهم للانكليز ، كما بقي على الحياد ، في هذا المصطرع ، ثلث آخر ، ولم يبق في الميدان سوى ثلث « الوطنيين » الذين قرروا ، في اللحظة الأخيرة ، والأسف يحز في نفوسهم ، والنفس في حلوهم ، القيام بالخطوة الحاسمة .

الا ان المعمرين كانوا قد استحالوا ، دون ان يشعر أحد من الناس ، ولا هم تدبوا في مطلع الأمر ، كيف انهم أصبحوا ، شعباً جديداً هو الشعب الاميركي . فقد برزوا من هذا المزيج او الانصهار الذي تم بين المهاجرين والسكان ، وكلهم من اصل انكلوسكسوني ، دون ان تم لهم السيطرة على كل شيء . فقد كان ثلثا سكان بنسلفانيا من السكوتلانديين نزحوا من مقاطعة الاولستر في ايرلندا الشمالية ومن الالمان . أما الجنوب ، فكانه جبهة سكانه في الداخل أجنب . وتخلق هؤلاء الناس ، في مثل هذا المحيط والبيئة الجديدين ، باخلاق وعادات جديدة ، وتمت لهم اعراف واحدة مشتركة فيها بينهم . ولفتهم الانكليزية ، احتفظت ببعض التمايز والمصطلحات القديمة ، وببعض التراكيب التي عفا اثرها لدى الانكليز ، واقتبسوا عن الهنود وعن المهاجرين الجدد ، اوضاعاً ومسميات وكلمات جديدة . فتطلعت نفوسهم الى روح المغامرة وهاموا بالجديد من كل شيء . وهذا المجتمع الجديد الذي طلوعوا به كان أكثر ديمقراطية ، في مجموعه مما هو عليه المجتمع البريطاني المعروف بروحه المحافظة . فبسطاعة أي متطوع في الجيش أو أي متطوع خدم فيه ان يلقي وان يرتفع ويرقى الى المراتب الأولى . فالعرب منه كان أكثر اخذاً بالعقلانية من

الشرق ، حتى ان المزارعين في الجنوب تشربوا بتعاليم لوك ومونتسكيو وبكاريما والموسوعيين القرنسيين . فقد احتفظوا بهذه الروح الثورية التي جاشت بها انكلترا ، حيناً ، الا ان جذوتها خمدت في الوطن الأم ، فيما بعد وخفت ريحها . ومن جهة ثانية ، فالكنيسة التي كانت قوياً بالطاعة والامتثال للملك اقتصر اثرها على الجنوب وعلى نيويورك ، أما في ما عدا ، فالأمر كان بيد المشاقين . ومع نظريات المقد [الاجتماعي] رفرقت فوق النفوس ، في كل مكان ، روح من سوء الظن والريبة نحو السلطة ، والرغبة في تحديها والصمود في وجهها .

وامتنع التفاهم بين الانكليز والاميركيين . فالانكليز كانوا يزدرون : « رعايا في اميركا » . ودار في خلد العسكريين منهم واستقر في يقينهم ان المعمرين أكثر من جنباء بحيث يستطيعون الصمود ، وانهم سيفرون زرافات ووحداً لدى أول لقاء بهم أو اصطدام معهم . وكان صموئيل جونسن (١٧٠٩ - ١٧٨٩) اكتب كتاب الانكليز وأبعدم شهرة في هذه الحقبة يردد : « نحن أمام عرق من ذراري من حكم عليهم بالاشغال الشاقة ، يا سيدي . بالطبع لم يكن هذا الكلام وما أشبه مما يطيب للاميركيين سماعه او مما يشتم آذانهم ، عندما يأتون لانكلترا ، فيتبرم كبرياؤهم من مثل هذه الآراء فيهم . وقد هالهم ما هي عليه الطبقة العليا في انكلترا من تفسخ الأخلاق ومن فشاء روح التشكك وحسب التمتع بلذات ، وفساد الطباع وشيوع ذلك فيما بينهم بالرغم من « وشلي » ومن نزعتهم القديمة الى السيطرة والحكم المطلق .

كان من المتوجب على الحكومة البريطانية ان تستعمل معهم الكثير من الدراية والمداورة واللين . وكأنه حلاً لها ان تصدم باستمرار مصالح الاميركيين وتثير مشاعرهم ، وبذلك جعلتهم يعمون ، أكثر فأكثر ، ما يباعد بينهم وبين انكلترا ، ويدركون ، أكثر فأكثر ما يوجد بينهم ، فساعدت بذلك على ان تجعل منهم أمة مترابطة مترابطة .

فعل الانكليز بانتصاراتهم الداوية فراخوا يطبقون ، الى اقصى روح السيطرة البريطانية والمقاومة حد ، بعد عام ١٧٦٣ ، النظرية الاقتصادية القديمة التي قامت على الاستثناءات . فهم تصوروا الامبراطورية البريطانية بمجموعة من البلدان والأقاليم والشعوب والأمم يحيد بينها كل انكليزي ما يشبع اطباعه ويروي غليله على ان تبقى هذه المجموعة تحت حكم بريطانيا وسيطرتها مباشرة لانها سبب هذا الازدهار المشترك الذي ينعم به الجميع . وهذه الطريقة في التفكير تنسجم الانسجام كله مع ما جاش به الملك جورج الثالث من نزعات استبدادية تعسفية ، هذه النزعات التي دان بها للتربية التي تلقاها وخضع لها والتي قد تكون جاءت على مثل ما اراده « الطاعة المستنيرون » . فبعد عقد معاهدة باريس ، تحيل للحكومة البريطانية انها تستطيع ان تتصرف بمستعمراتها الاميركية كيفما تشاء .

وفي ٧ تشرين الاول ١٧٦٣ ، نشر تصريح ملكي جاء فيه ان الأراضي الجديدة التي يتم فتحها الى الغرب من خط مقسم المياه في جبال أللغاني ، يجب اعتبارها أراضي ملكية يحظر فيها

القيام بأية انشاءات او استثمارات ، ويُطرد بالتالي كل من استقر فيها أو قام عليها . وهكذا رأى المعمرون وأصحاب رؤوس الأموال أنفسهم محرومين الافادة من الأراضي التي ناضلوا دونها ويبدلوا دماءهم في سبيل استخلاصها .

ومن جهة أخرى ، رغبت الحكومة الانكليزية في ان تؤمن لحكام المقاطعات مرتباً ثابتاً يضمن لهم مع الكرامة الذاتية ، الاستقلال والسيادة ، ويجعلهم في مأمن من هوس المجالس المحلية واهوائها ، فترسخ سلطاتهم وتنزل هيبتهم في النفوس . كذلك أعرب حكام المقاطعات عن رغبتهم في الاحتفاظ بجيش دائم قوامه ١٠,٠٠٠ جندي للحفاظ على المستعمرات والدفاع عنها لدى الطوارئ . ولما كانت انكلترا غارقة في ديونها ، وجدت من العسير عليها تأمين الرسوم اللازمة من الضريبة العقارية . فمن العدل ، والحالة هذه ، ان تسهم المستعمرات في تحمل بعض هذه الأعباء التي هي في مصلحتهم وحدهم . وكان من حق البرلمان البريطاني ان يفرض رسوماً على التجارة في المستعمرات . فأقر عام ١٧٦٤ ، قانون السكر ، كما وضع عام ١٧٦٥ ، قانون التمتع . ففرض الأول رسوماً جديدة تجبها ادارة الجمارك أصابت عدداً كبيراً من المنتجات الأجنبية ، من بينها عصير قصب السكر وثفاله وهي مادة لا غنى عنها . وفرض قانون التمتع من جهته رسماً جديداً على المعاملات القانونية ، كالسفاتج المالية وكتب الاعتماد والجرائد . وأخيراً وليس آخراً ، أعاد البرلمان سنة ١٧٦٦ ، النظر في تصدير أي بضاعة من المستعمرات الى غير انكلترا أو الى أي بلد يقع الى الجنوب من رأس فلسطين ، من مستوردي الأرز في الجنوب .

لم يكن في مثل هذه الاجراءات شيء جديد . فالجديد فيها هو ان الوزير غرينفيل ، رغبة منه في تطبيق هذا القانون ، ارسل الى اميركا فريقاً من مأموري الجمارك وسفناً تقوم على مراقبة الشواطئ البحرية ، وأحال المخالفات الى محكمة الاميرالية . وهكذا قامت الصعوبات في وجه تجارة التهريب .

وراح الامير كيون بدورهم ، بوصفهم من الرعايا البريطانيين ، يعترضون على هذه التدابير فاعترفوا للبرلمان الانكليزي ، من حيث المبدأ ، بحق اصدار القوانين المتعلقة بتنظيم التجارة في الامبراطورية عن طريق فرضه للرسوم اللازمة . أما في هذا الوضع بالذات ، فالقضية ليست قضية تنظيم التجارة ، بل ايجاد موارد جديدة للخزينة . فالرسوم المفروضة على السكر وعلى التمتع ليست في نظرهم ، سوى ضرائب غير مباشرة . ان إقامة المعمرين في اميركا لم تفقدهم حقوقهم كمواطنين بريطانيين . فمن حقهم الاسامي ان يقرؤا هم أنفسهم ، الضرائب التي يترتب عليهم تحملها . ولم يكن لهم بالتالي من يمثلهم في البرلمان الانكليزي . ورد الانكليز على هذا الحجاج بان أعضاء البرلمان يمثلون الشعب الانكليزي أينما كان وليس الدوائر التي انتخبهم . الا ان الامير كيون لم يكونوا ليرضوا الا بتمثيلهم الفعلي في البرلمان .

انطلقت إشارة المقاومة في ٢٩ أيار ١٧٦٥ ، من مجلس فرجينيا ، على يد محام شاب هو بتريك

هنري الذي أعاد الى الذاكرة ممثل بروكس الذي تصدى لقيصر ووقف في وجهه ، كما استشهد بمثل كرومويل الذي وقف في وجه شارل الأول ، وحمل المجلس ببلاغته على إقرار « قرارات فرجينيا » ، وهي قرارات أيدت حق الاميركيين وكان لها اذ ذلك ، وقع هائل في نفوس القوم . وراح التجار ينظمون في ما بينهم حركة مقاطعة واسعة النطاق للبضائع الانكليزية . واتفق تجار المرافىء الرئيسية كنيويورك وفيلادلفيا وبوسطن على ان يمتنعوا عن استيراد بضائعهم من انكلترا . وشكل العمال في المدن جمعيات لهم ، عُرفت باسم « أبناء الحرية » ، تجاهل التجار في أول الأمر وجودها ، ثم ما لبثوا ان اتخذوا منها أداة انتفموا بها ، وأخيراً توصلوا معها الى اتخاذ موقف موحد ، وارغوا على الاستقالة ، بالقوة ، الموظفين المهود اليهم تصريف أوراق التمغة . وفي تشرين الأول ١٧٦٥ ، عقد ممثلو تسع من هذه المقاطعات مؤتمراً لهم في نيويورك وجوهوا خلاله عريضة التماس الى كل من ملك انكلترا والبرلمان ، صاغوها بعبارة تنبض بالاحترام . وعلى الأثر ، أرسل فرنكلين مندوباً عنهم يمثلهم في لجنة برلمانية خاصة تشكلت لهذا الغرض . وبعد أخذ ورد أقرت الوزارة الغاء رسم التمغة وخفضت الضريبة على نقل السكر بمقدار لحاسة (بنى) واحدة للغالون الواحد (آذار ١٧٦٦) ، مما أدخل البهجة والفرح الى قلوب الاميركيين بعد ان سبب لهم توقف الحركة التجارية كثيراً من صنوف الحرمان . الا ان المشكلة الدستورية بقيت قائمة كاملة ، اذ ان القانون الجديد الذي فرض رسماً على عصير قصب السكر وثقالته ، مع انه ابقاه متديناً جداً ، لم يشترع شيئاً جديداً في المجال التجاري . فبقي هذا الرسم ضريبة سارية المفعول وراح البرلمان يعلن صلاحيته وحقوقه المطلقة لسن القوانين ، مها كانت طبيعتها ، وهي قوانين يجب تطبيقها على كل أجزاء الامبراطورية البريطانية .

وفي سنة ١٧٦٦ ، خلال وزارة «بت» الثانية ، راح وزير المالية تاونسند يأخذ من جديد بسياسة غرينفيل ، وحمل البرلمان في شهر مايو ١٧٦٧ ، على اقرار رسوم جديدة على الورق والزجاج والقصدير والشاي . واذا ذلك ، قام التجار في اميركا ، يقاطعون البضائع الانكليزية وعملوا على ادخال بضائع اجنبية بالتهريب ، فنتج عن ذلك اضطرابات . وفي الخامس من آذار ، اصدر اللورد بورث قراراً بالغاء الضرائب الجديدة باستثناء الرسم المفروض على الشاي ، الأمر الذي ادخل البهجة الى القلوب ، باستثناء قلعة من الناس رفضوا بكل حيلة ووسيلة ، الوقوف موقفاً معتدلاً . وفي نيسان ١٧٧٣ ، تسهلاً لشركة الهند الشرقية تصريف شحنة لها من الشاي ، رخص لها اللورد نورث ، بيع بضاعتها رأساً من الاميركيين بحيث يصبح سعر الشاي متديناً للغاية . غير ان هذا التدبير عرض التجار الاميركيين لخسارة الأرباح الناجمة عن النقل ، كما جعل من المتعذر عليهم بيع الشاي الذي كانوا استوردوه رأساً من انكلترا ، كما ان التجار الذين اختزنوا كميات كبيرة منه رأوا أنفسهم مهددين ان يبيعوه بخسارة . واذا ذلك دفعوا الى الامام « أبناء الحرية » . فقد راح عام ١٧٧٣ ، فريق من سكان بوسطن تزيّنوا بلباس الهنود الحمر ، يطرحون الى البحر وسق ثلاث سفن مشحونة شايًا .

والمهم في هذا الأمر كله هو ان الحكومة الانكليزية لم تكن تجاوزت حقوقها في هذه القضية، بينما رأى الاميركيون في المناسبة السانحة فرصة مؤاتية للتعبير عن موقفهم المتصلب هذا وعن عزمهم على معالجة شؤونهم الاقتصادية بأنفسهم، دون ان يبالوا، من قريب او بعيد، بالصلحة العامة في الامبراطورية. وبذلك عبروا بصراحة عن رغبتهم بالاستقلال التام. فقد كانوا تجاوزوا بعيداً القضية الاساسية التي كانت سبباً اولياً في هذا الجدل. ولذا قام بعض الاميركيين، من بينهم بنجامين فرانكلين، يسمون جهدهم، للمحافظة على وحدة الامبراطورية وحياتها، وذلك عن طريق الوصول الى صيغة تصونها في المستقبل، بحيث تؤلف المستعمرات الانكليزية، من بينها، حلفاً يتمتع باستقلاله ويبقى متحداً، مع ذلك، مع الامبراطورية، بالملك. وعلى مثل هذا كان رأي «بت» الذي استقدم فرانكلين الى دارثه وأعد معه، من آب الى كانون الأول ١٧٧٤، مشروع تحقيق امبراطورية انكليزية تمتد من البحر الشالي الى المحيط الهادي. الا انهم كانوا بهذا، اسبق من زمانهم بكثير.

واذ ذاك اغلقت الحكومة البريطانية مرفأ بوسطن واخضعت المدينة وولاية مستشوستس كلها لنظام عسكري (١ ايار ١٧٧٤). وقد ارسلت جميع المستعمرات، باستثناء فرجينيا، مندوبين عنها يمثلونها في مؤتمر قاري (٥ ايلول ١٧٧٤) فأسس المؤتمر بتاريخ ٢٠ تشرين الأول «الجمعية القارية *Le Congrès continental*» تأخذ على نفسها تنظيم مقاطعة شاملة للنظام الاقتصادي الانكليزي. وتحول حماس الاميركيين الى هياج شديد عندما بلغهم خبر قانون كوبيك، الذي ربط ادارياً كل الشمال الغربي حتى الاوهايو بولاية كوبيك، اي انه وضع بمنح هذه الاقطار الجميلة تحت تصرف «البابويين» اذ كانت الديانة الكاثوليكية مسموحاً بها في كندا. وهكذا اصبح الصمود في وجه الملك ومقاومته صليبية شعارها: «لا بابوية». وتآلفت في طول البلاد وعرضها لجان شعبية من المواطنين وقدم «بت»، في اول شباط ١٧٧٥، مشروع تسوية رفعه الى مجلس اللوردات. وراحت اللجان الاميركية «للسلامة العامة» تقيم مستودعات وتلشئ لها مخازن للأسلحة والعتاد الحربي. وفي ١٩ نيسان ١٧٧٥، وقع اصطدام بين كتيبة انكليزية ارسلت لوضع يدها على احد هذه المستودعات، بأفراد الميليشيا الاميركية، في لكسنغتن. فأتلفت المستودع الا انها اضطرت للعودة بفوضى وبدون نظام الى بوسطن، بعد ان تعرضت لتحريشات الاميركيين ومضايقاتهم لها. وفي اليوم التالي، اخذت فرقة الميليشيا، في انكلترا الجديدة بضرب الحصار حول بوسطن. وهكذا نشبت في البلاد الحرب الاهلية.

حرب الاستقلال
استمرت الحرب تتأرجح ثماني سنوات. وكان حزب الاحرار *Whigs* الانكليزي يعطف على الاميركيين ويعمل باستمرار، على اثارة العراقل، بوجه الحكومة. وكان عدد المواليين في اميركا كبيراً. فبعد ان قلق التجار جداً من راديكالية «ابناء الحرية»، نزعوا للوقوف الى جانب الملك، اذ رأوا في الحرب القائمة حرباً بين الطبقات. وراح المواليون يؤلفون من بين انصارهم، فرقاً خاصاً مما اضطرت الجيش الانكليزي الى التخاذ

احتياطات عسكرية خاصة كالتى يتخذها جيش معاذ . فالمسافات الشاسعة ، والبلاد المقفرة ، زادت كثيراً من صعوبة المواصلات والتموين . والجيش الانكليزي الذي تألف من وحدات نظامية مدربة وجد حركاته وسكناته مقيدة من قبل القيادة في لندن التي كانت ترغب في ابداء رأيها في خطط الحرب والتصميم للعمليات الحربية . اما الجيش الاميركي ، فقد تألف من افراد الميليشيا الذين رفضوا الخدمة في مقاطعاتهم ليعودوا ، بعد انتهاء نوبتهم وانقضاء مدة خدمتهم للعمل في الحصاد ، كما تألف من متطوعين كثيراً ما راحوا في بدء الأمر ، فريسة للهلل والخوف ، مرتباتهم سيئة تدفع لهم « بعملة ورقية قارية » ، ولم يكونوا دوماً ممن يطمأن الى نواياهم . وكان غايتس يدس على واشنطنون ويحيك له الدسائس ، كما خان شارلي لي وارنولد القضية وتحولوا عنها . ولحسن الحظ ، فقد اظهر القائد العام الذي جرى تعيينه من قبل الكونغرس القاري الثاني ، من الروح الوطنية ، ما جعله فوق كل امتحان ، كما انه برهن عن تفهم سليم للامور والأوضاع القائمة ، وعن حزم لا يتزعزع ، ورباطة جأش ليس ما يكدرها . كل ذلك اعاد الثقة الى اكثر المترددين المتأرجحين وبعث الحماس في النفوس .

اجتمعت الكونغرس البرية الثانية في العاشر من ايار ١٧٧٥ ، وأدركت على ضوء الحوادث انه لا بد من عقد ائتلاف مع بعض الدول الأجنبية لتحقيق اهداف الثورة . فتوجهت بأنظارها الى الكنديين الذين كانوا لا يزالون يذكرون ، والمرارة ملء نفوسهم ، ما لحقهم من عنت الحروب السابقة ، وما استهدفوا له من حقد هذه القوى البروتستانتية المتعصبة التي تكشفت عنها نفوس الانكليوسكسون . ان قانون كوبيك كان منعهم من جهة ثانية التسامح الديني واستمرار العمل بمعظم القوانين الفرنسية التي ساروا عليها من قبل . فلم يجرؤوا ساكناً . ولذا راحت كتائب الاميركيين تغزو كندا . وأصبحت بالتالي خطراً يهدد مونتريال وكوبيك . واذ ذاك نهض الكنديون لامتشاق الحسام وردوا الاميركيين على اعقابهم (تشرين الثاني ١٧٧٥) . وهكذا بقيت الكونغرس وحدها في الميدان . وكان الملك جورج الثالث اعلن على الملأ ان الاميركيين بحالة عصيان وتمرد وحظر كل نشاط تجاري معهم ، اذ قصد من ذلك ان « يزرع » الخراب في اميركا . وأحرق الانكليز مدينتين مفتوحتين هما فالموث في مقاطعة الماين ونورفولك في مقاطعة فرجينيا .

واذ كان اعضاء الكونغرس على يقين تام بأن الحرب وحدها هي التي ستقرر المصير ، وان الحليف الوحيد الطبيعي الذي يقف الى جانبهم في حريهم ضد الانكليز ، انما هو فرنسا ، فقد قاموا بمفاوضات . فاشترطت فرنسا عليهم لدخول الحرب الى جانبهم ، انفصالهم التام واستقلالهم عن الانكليز شريطة ان يوحدا من صفوفهم بحيث يظهر من مظهر المتحدين . ففي ٤ تموز ١٧٧٦ ، اتخذ الكونغرس قراراً باعلان الاستقلال التام . وقد وضع نص هذه الوثيقة التاريخية جيفرسن فجاءت بمثابة قياس استدلاي ذكرت مقدمته الكبرى بمبادئ « الفلاسفة » ، هذه المبادئ التي أصبحت التراث المشترك لكل الأوروبيين . فقد جاء فيها بالحرف الواحد :

« نحن نعتبر واضحة بذاتها المبادئ التالية التي تعلم وتقول ان الناس اجمع خلقوا متساوين فيما بينهم ، وان الله خالقهم ميزهم ببعض الحقوق التي لا يمكن نسخها . من هذه الحقوق : حق الحياة ، وحق الحرية والبحث عن السعادة . فالحكومات تقوم بين الشعوب لضمان هذه الحقوق وان صلاحياتها ومسؤولياتها الحققة تصدر عن رعاياها وموافقتهم . فكل مرة يستحيل فيها شكل الحكومة الى حكومة تعمل على العبث بهذه الحقوق ، حق الشعب ان يستبدل حكومته هذه بأخرى وان يقيم محلها حكومة جديدة » .

ثم راحت تعدد سلسلة من العبث لهذه الحقوق الطبيعية ، من قبل ملك انكلترا والانكليز . وانتبهت من سرد هذه الأمثلة بالنتيجة الحتمية قائلا :

« نحن ممثلو الولايات المتحدة الاميركية المجتمعون هنا هيئة عامة ، نحتكم الى محكمة الديان الاطلي لهذا العالم ، المطلع على سلامة نوايانا وطهاره ضمائرنا . نحن ننشر ونعلن باسم هذا الشعب الطيب المقيم في هذه المستعمرات ، بان هذه الولايات الحق التام بان تكون ولايات حرة مستقلة ، وبانها لا تعترف بأي ولاء ولا بأي خضوع للتاج البريطاني وان كل الاتحاد سياسي فيما بينها وبين بريطانيا العظمى انقطع ويجب ان ينقطع تماماً » .

ابتهج الشعب الفرنسي لثورة الاميركيين ، اذ رأى فيهم رجالاً من ابناء الطبيعة ، كلهم تقى . جاء فرانكلين باريس بما هو عليه من بساطة الروح ، بجواربه الصوف وأحذيته الضخمة ، فازداد القوم في فرنسا ايماناً بهذا الشعور . وقد راح الشباب الفرنسي يحتاز المحيط الاطلسي باعداد كبيرة مقدماً خدماته للكونفرس الاميركي . وراحت وثيقة اعلان الاستقلال تحمّل حماس الفرنسيين الى هذيان الفرح والغبطة . وفي هذه الفترة بالذات يسافر الميركيز دي لافاييت نفسه ويتطوع في خدمة الجيش الاميركي . وحلا للوزير الفرنسي فرجين ان يرى في هذه الحرب الوسيلة الوحيدة ليشأ لفرنسا من معاهدة ١٧٦٣ المشينة . وبواسطة بومارشيه ، استطاع ان يد الاميركيين بالسلاح والعتاد الحربي . غير ان هزائم الاميركيين المتتالية جعلته يتردد قليلاً قبل ان يكشف عن اوراقه . الا انه في ١٧ تشرين الاول ١٧٧٧ ، اضطر جيش انكليزي أرسل من كندا الى نيويورك لتعزيز موقف الانكليز الحربي فيها ، الى الاستسلام ، في بلدة سراتوغا ، بعد ان احاطت به كتائب المليشيا ومنعت عنه وصول الامدادات والمؤن . وقد كان لهذا النصر الاميركي الكبير الأول صدًى عظيم ووقع كبير على الرأي العام ، فأكسبهم محالفة الفرنسيين لهم . وقمت معاهدة التحالف هذه في ٦ شباط ١٧٧٨ ، وتعدت كل من فرنسا والولايات المتحدة الاميركية على الاتعقاد هدنة أو تجزياً صلحاً إلا برضى الفريق الثاني ، وان لا ترمي السلاح الا بعد أن تنال الولايات الاميركية ، استقلالها التام الناجز . وتعدت فرنسا بالألا تعود الى استرجاع كندا . الا أن الولايات المتحدة ضمنت لها الممتلكات التي لها او التي بين أيديها في القارة الاميركية ، وقد استطاع الوزير فرجين ان يحمل اسبانيا على الدخول في الحرب الى جانبها (حزيران ١٧٧٩) . وأعلن الانكليز الحرب على الهولنديين الذين راحوا يبيعون الاميركيين ما هم بحاجة اليه من البارود (كانون الاول ١٧٨٠) وأخيراً راحت الدول الأخرى الواقفة على الحياد بمسعى من الامبراطورة كاترين الثانية ، تؤلف من بينها حلفاً يقف بالقوة ، في وجه كل سفينة من سفنها تحاول تهريب الأسلحة الحربية .

جاء التدخل الفرنسي حاسماً . فالاساطيل الفرنسية بقيادة امراء البحر لاموت - بيك و غراس واستانغ وسوفرين استطاعت ان تؤمن حرية البحار . والانكليز الذين تعرضوا للهجوم ايتاً وجدوا : في جزر الانتيل والهند واميركا وجبل طارق ، اضطروا لتوزيع قواهم . فقد اخذت جيوشهم في اميركا تشكو عالياً من انقطاع الامدادات والذخائر الحربية . ثم ان وصول فرقة فرنسية مؤلفة من ٧٥٠٠ جندي ، في تموز ١٧٨٠ ، بقيادة الكونت دي روشمبو ، امنت للاميركيين الذين بقوا حتى الساعة يسجلون الهزيمة تلو الهزيمة في المعارك المعبأة ، قوة نظامية حنكتها الاعمال الحربية التي تدرست بها ، كانت بمنأى من التقلبات الموسمية أو من الاشتباكات المحلية ، وكانت لها قدرة تامة على متابعة الحركات الحربية ، وقامت بتعاون مشترك بين اسطول فرنسي بقيادة الاميرال دي غراس وبين الجيوش الفرنسية والاميركية بقيادة واشنطون ولافاييت وروشمو . فقد اجبرت هذه الاعمال الحربية والتعاون بين مختلف القوات العاملة في مختلف القطاعات ، على الاستسلام ، الجيش الانكليزي الوحيد الذي له القدرة على التناور في البر ، وذلك في مدينة بورتون ، في ١٩ تشرين اول ١٧٨١ وبذلك ربحوا الحرب .

وقد حنث المندوبون الاميركيون قسمهم وأخلفوا بوغدهم بالرغم من معارضة فرانكلين وضربوا بعرض الحائط توقيع الشعب الاميركي ، فسارعوا الى التفاوض مع انكلترا والى التوقيع على تمهيد للصلح ، في ١٣ تشرين الثاني ١٧٨٢ . واذا رأى الوزير فرجين نفسه امام الأمر الواقع اضطر للدخول معهم بالمفاوضات . جرى توقيع المعاهدة الفرنسية الانكليزية في فرساي ، في غرة ايلول ١٧٨٣ ، وهي معاهدة لم تعترف الا ببعض المنافع والتنازلات لفرنسا بسبب انسحاب الاميركيين من الميدان ، وبسبب هزيمة نزلت بالاسطول الفرنسي في جزر الانتيل ، في نيسان ١٧٨٢ ، ولأن المفاوضات الفرنسيين لم يطالبوا بكل ما كان يجب ان يطالبوا به . فاستعاد الفرنسيون جزر تباغو وسانت لوسيا وبعض المؤسسات والمراكز في السنغال . اما نصيب ملك فرنسا فقد كان انه حال دون استبطار سيطرة الامبراطورية الانكليزية ، وقلّص اظافرها بعد ان نزع منها احسن مستعمراتها واغناها وأمن الحرية والاستقلال لشعب من شعوبها . اما المعاهدة الانكليزية الاميركية ، فقد جرى توقيعها في باريس ونصت على اعتراف انكلترا باستقلال الولايات المتحدة الاميركية ، وحملت حدودها في الغرب الى المسيسيبي ، وفي الشمال الغربي الى البحيرات الكبرى ونهر السان لوران .

فبالرغم من انسحاب الاميركيين لم يشأ لويس السادس عشر ان يطالبهم باي تعويض لقاء النفقات الباهظة التي تحملها في الحرب . فقد تنازل لهم ، فوق ذلك ووهبهم ١٢ مليون ليرة ، وعلاوة على قروض الحرب التي استدانوها ، قدم لهم سلفة من ٦ ملايين ليرة لأجل ترميم اقتصادياتهم واعادتها على أسس قوية عام ١٧٨٣ . كل هذا حدا بفرانكلين للتنبؤ عالياً بالصدقة والامتنان الخالدين .

القسم الثاني

تطور كندا

(١٧٦٣-١٧٩١)

ونشأ الولايات المتحدة الأمريكية

(١٧٨٣-١٧٨٩)

كندا وأكاديا على ضوء التجربة والاختبار راحت الحكومة الانكليزية تنهج تجاه ما كان يُعرف بفرنسا الجديدة نهجاً يتسم بالحرية الواسعة. فقد نشأت فيها مستعمرات تمتعت باستقلالها الإداري، سكانها مزيج من عروق متباينة واجناس مختلفة .

فقد استثنى الملك جورج الثالث ، في منشور له ، العناصر الكاثوليكية من الاشتراك في ادارة البلاد ، وبذلك رأى سكان كندا انفسهم خاضعين لسيطرة بضع مشات من الانكليز . الا ان خصومة انكلترا وحربها مع مستعمراتها القديمة ، حلت الوزارة الانكليزية على انتهاج سياسة تم عن تسامح اكبر . فقانون كوبيك (١٧٧٤) اعترف للكاتوليك بحرية ممارسة طقوسهم الدينية ، واعفى الكنديين من مرسوم *Bill of Test* الذي كان يفرض على كل من قام باعباء وظيفة عامة تناول القربان حسب الطقوس الانفليكانية ، كما ترك لهم حرية العمل بجانب كبير من القوانين الفرنسية التي خضعوا لها من قبل ان يخضعوا للحكم البريطاني ، لقضاء قسم بالتزام الولاء للملك انكلترا ، والأخذ باحكام اهم الشرائع الانكليزية ، والعمل تحت اشراف حاكم عام ومجلس يقوم الملك بتعيينها . وقد اتسم اول حاكم انكليزي على كندا بروح سمحاء ، واقام علاقات طيبة مع الاكليروس الكاثوليكي وطبق بكل دقة مرسوم كوبيك بحيث بقي الكنديون على ولائهم الصادق للملك انكلترا .

وافتح انت ٣٥٠٠٠ من « الموالين » الاميركيين ، نزحوا عن الولايات المتحدة ، خلال حرب الاستقلال وبعدها ، فجاؤوا وسكنوا الى الشمال الغربي من بحيرة اونتاريو . وشابت العلاقات بين الفرنسيين والانكليز الظنة وسوء التفاهم والتحفظ باستمرار . وتقديرأ لحسن موقف الكنديين وصدق ولائهم للتاج البريطاني ، اصدر الملك جورج الثالث امراً بتقسيم البلاد الى

ولائتين متميزتين : كندا العليا للانكليز ، وكندا السفلى للفرنسيين . وتمتعت كل ولاية باستقلالها الاداري ، وقام فيها مجلس تمثيلي منتخب .

وقد حافظ الكنديون الفرنسيون على عقيدتهم ولغتهم واعرافهم وتقاليدهم ، وطبقوا ما جاء على لسان النبي إرميا ، اذ يقول : « ابنوا بيوتاً واسكنوا واغرسوا جنات وكلوا من ثمارها ، واتخذوا نساءً » ، ولدوا بنين وبنات ، واتخذوا لهم نساءً واجعلوا بنايتكم لرجال وليلدن بنين وبنات ، وأكثروا هناك ولا تقلتوا واطلبوا سلام المدينة التي ألجأتكم اليها ، وصلتوا من أجلها الى الرب ، فإن بسلامه يكون لكم سلام . » (١) . وبدون ان يتلقوا أي رديف عن طريق الهجرة والاعتراب من فرنسا التي أهملت أمرهم وتحلت عنهم ، وبفضل تمكسهم بالمثل الكاثوليكية السامية واتهاجهم في الحياة نمطاً قوامه الزراعة والاستمساك بمكارم الأخلاق على سنة الجدود ، وبفضل تزايد عدد السكان عندهم بمعدل هو أعلى ما عرف المجلس الأبيض من أمثاله ، وبعدم لا يفتر ، قرروا معه الا يتركوا أنفسهم يذرويون في الكير الانكليزي والبوقفة البريطانية . فقد بلغ عددهم عام ١٨٠٦ ، أكثر من ٢٥٠،٠٠٠ نسمة . وهكذا استطاعوا بفضل ما أوتوا من صلابة العود وصدق العزيمة ، ان يحافظوا على طابع حضارتهم الفرنسية ، وسط بلد ومحيط سكانه من الانكلوسكسون .

اما اكاديا ، فقد أخذ يعود اليها تبعاً ، بعد عام ١٧٦٣ ، جماعات صغيرة من نجا من الهنة الماحقة التي ابتلوا بها وما ناهم من جرائها ، من العذابات والاضطهادات المريعة . وقد فرشوا طريق العودة ، كما فرشوا طريق الهجرة من قبل ، بالاعزة من سقطوا في مختلف مراحل صليبيهم المرير . وهكذا وصل منهم ١٢٦٥ شخصاً ، فوجدوا املاكهم ومقتنياتهم وارضيتهم يحتلها المعمرون الانكليز . ولذا استقروا بين اراض رديئة التربة راحوا يعزقونها ويحيونها بعرق جبينهم ، حتى اذا ما لانت وطابت وجادت فاجأهم على حين غرة طارئ انكليزي وبيده صك ثقلك ، فينتزعها ويجبر مالكيها على العمل في خدمته ، وليس في اليد حيلة بعد ان كانت الحاكم التي يرفعون اليها ظلامتهم تصدر دوماً احكامها ضدهم . وكانت الجبس الاجور تعطى لهم دوماً عن اشق الاعمال وأقسى الاشغال . وراحت الحكومة الانكليزية ، خلال حرب الاستقلال الاميركي تداري جانبهم وتلين ملامسها ، فتتنازل لهم عن اراض يستملكونها ، كما اجازت لهم ممارسة واجباتهم وفقاً للطقوس الكاثوليكية . الا ان سيلاً جارفاً من « الموالين » الاميركيين ، زاد عددهم على ٤٠،٠٠٠ ، هبط عليهم واغرقهم تحت غمره ، واخذوا في تعمير واحياء ما عرف بايكوسيا الجديدة وبرونسويك الجديدة . ومع ذلك فقد عرف الاكاديون ان يحافظوا كالكنديين على شخصيتهم وفرديتهم المميزة . فبلغ عددهم عام ١٧٩٠ ، بفضل حركة الموالين الناشطة بينهم ، ٨١٦٦ نسمة ، واستمروا على نماهم وتكاثرهم ، يشتركون من الانكليز اراضيهم ويعملون بذلك على زحزحتهم تدريجياً .

(١) - ارميا ، اصحاح ٢٩ ، عدد ٥ - ٧

الولايات المتحدة ودستورها الجديد
 تُخيل لمعظم الناس بما فيهم الملك جورج الثالث وفردريك الثاني ، ولعدد كبير من الاميركيين انفسهم ، ان الاتحاد الذي تألف من هذه الولايات لن يعمر طويلا ، لما بينها من فوارق واختلافات ، وبما في هذه الجمهورية التي الفوها من عناصر غلخلة وقوى محلة . وبالفعل فقد اخذت هذه الولايات تتصرف فيما بينها كدول مستقلة ، سيدة والفوضى فيها ضاربة اطنائها .

ويدعوة من مجلس الكونغرس ، راحت الولايات الاميركية ، باستثناء كونكتيكت ورود آيلاند ، تنشئ نظمها ومؤسساتها الجمهورية على اساس من المبادئ التي نادى بها العقد الاجتماعي (لروسو) ، والنظريات التي قال بها مونتسكيو وعلم . وقد اتسمت هذه النظم والمؤسسات بالروح الديمقراطية بالرغم من قلة عدد سكانها ، في بلاد كانت فيها الملكية العقارية هي التي تولي صاحبها ، حق الاقتراع ، وهذا مطلب يسير ، سهل التحقيق ، كما برهنت عن سماحة وتساهل ظاهر في علاقاتها مع الكاثوليك . واذ كانت الهيئات التمثيلية توجس خيفة من طغيان السلطة الفردية ، فقد سيجت حولها بسلطات مطلقة . فالحكام الذين ينتخبون بالاقتراع العام يتمتعون بسلطة تنفيذية محدودة . ومثل هذا الوضع ، كان معقولا ومقبولا يوم كان هؤلاء الحكام يمثلين الملك وراثي ، تتمثل في شخصه وتتجسم المصالح العامة في الدولة ، ويتمتع بالتالي ، بنفوذ عظيم ، اما ما هو من الغرابة بكان ، ان يكون هؤلاء الحكام هم ممثلو الشعب . فقد ادى النظام الذي قام على هذه المجالس والهيئات الى نتائج وخيمة ، بحيث ان سلطة الحكام اخذت تزداد وتقوى طوال القرن التاسع عشر .

وراحت هذه الولايات تتباعد عن بعضها البعض حسب منطوق مواد دستور الاتحاد الذي أقر بتاريخ ١٥ تشرين الثاني ١٧٧٧ ، اذ جعل هذا الدستور ، من هذه الولايات « عصابة من الاصدقاء يعملون في سبيل الدفاع المشترك » ، وفي سبيل « مصلحتها العامة المشتركة » . فقد احتفظت كل ولاية بسيادتها وحريتها التامة واستقلالها . والكونغرس الاميركي ، لم يكن في الواقع سوى مؤتمر من الدبلوماسيين لعدد من السفراء تبعث بهم الولايات ممثلين لها . فلكل ولاية صوت واحد ، والقرارات يجب ان تؤخذ باجماع الأصوات . ويتولى الكونغرس الشؤون الخارجية وكل ما يتعلق بالحرب والبحرية والنقد ، والمكايل والموازين والبريد . الا انه لم يكن من صلاحياته ، ولا يوسعه ان يتولى النظر او تنظيم النشاط التجاري بين مختلف الولايات ، ولا بين الاتحاد والخارج . فلم يكن للكونغرس اي سبيل او اي وجه للضغط على الولايات المستقلة وارغامها على السير باتجاه معين .

فالضعف الذي وجدت حكومة الاتحاد نفسها فيه خلف الفوضى في عجز مجالس الكونغرس جميع مرافق البلاد ، وسبب لها ازمة حادة جعلت في وضع مضطرب ، خطير ، مراقفها الاقتصادية والاجتماعية والسياسية .

فقد اقعدتها حاجتها الملحة للمال . فراحت تصدر نقداً ورقياً لا تغطية له ، فهبطت قيمته بسرعة بحيث ان خطر لاحد الحثاء من المزيقين ان يفرش جدران محله بالأوراق المالية الكبيرة . وعبثاً طلب الكونغرس من الولايات الاسهام بالنفقات العامة التي بلغت ٨ ملايين دولار ، عام ١٧٨٢ ، ومليون دولار فقط عام ١٧٨٣ . الا انه لم يصل من أصل هذه المبالغ الا الى مليون دولار ونصف . وقد هبطت مساهمة الولايات ، عام ١٧٨٥ الى ٣٧٥,٠٠٠ دولار لا غير . ولذا عسرت قضايا تسريح الجيش وتمعدت كثيراً ، اذ راح الضباط يطالبون بمعاش تقاعدي ، وهو طلب لم يكن وضع خزينة الاتحاد يستطيع تحقيقه ، كما انه كان يلاقي معارضة قوية لدى الرأي العام ، الذي وجد في مثل هذا الطلب وتحقيقه ايجاد جسم جديد في الدولة ولوعاً من الارستوقراطية .

واستطاع واشنطن ان ينتزع ، في ٢٢ آذار ١٧٨٣ ، من مجلس الكونغرس سندات على الخزينة بقائد ٦٪ ومعاشاً كاملاً لمدة خمس سنوات . وقبل ان يأخذ الضباط بالتفرق ، اسسوا فيما بينهم ما يعرف ، في التاريخ ، بالاتحاد سلسناتي ، مع شارة خاصة تعطى للأعضاء هي عبارة عن نسر وشريطة زرقاء . فكان هذا الاتحاد ، الهيئة الوحيدة المعترف بها في كل الولايات . فألف له لجناً في كل المدن الرئيسية . وقد ساعدت هذه المنظمة كثيراً على تتين روابط الوحدة ، كما جاهدت كثيراً وسعت الى اقرار الدستور الذي وضع عام ١٧٨٧ .

أما أفراد الجيش ، فلم يتيسر لهم قبض المتأخر من مرتباتهم ، فأعلنت وحدات معسكر نيوزبرغ العصيان ، في أيار ١٧٨٣ ، فاضطر واشنطن لاستعمال كل سلطته ونفوذه ليحملهم على قبول تسريحهم ، بعد دفع مرتب ثلاثة أشهر ، ونثر الوعود المعسولة للمستقبل .

واشتدت الازمة الاقتصادية وأخذت بخناق البلاد ، وهي ازمة تسببت اصلاً عن الخراب الذي زرعه الحرب وويلاتها في البلاد كما نتجت عن نزوح عدد كبير من الموالين للانكليز ، بينهم عدد كبير من التجار ورجال الصناعة الاغنياء ، فاهيك عن الاموال الذي نزل بالمشروعات العامة وفقدان رؤوس الأموال ، في البلاد ، والنقص الفادح في الانتاج . وزاد في حدة الأزمة وشدها المعجز المالي المقعد الذي تسكع فيه مجلس الكونغرس . فقد أبت عليه الولايات الاعتراف له بأي حق في فرض الرسوم الجمركية حتى ولو كان طامعاً اميرياً لتأمين جانب من واردات الخزينة . وراحت هذه الولايات المتمتعة باستقلالها وسيادتها تشن على بعضها البعض حرباً اقتصادية لا هوادة فيها . فاذا ما خطر لاحدها ان تزيد من رسوم الجمر في اراضيها ، راحت الأخرى تخفض الرسوم عندها اجتذاباً منها للتجار وخنقاً لحركة الاعمال في الولايات المجاورة . وقد رأت انكلترا في هذا الوضع الهزأة ، فرصة سانحة لها ، لاغراق البلاد بمصنوعاتها الوطنية ، وبذلك سددت ضربة قاصمة لهذه الصناعات الناشئة التي رأت النور في البلاد إبان حرب الاستقلال . فقد باعت الاميركيين ، سبعة أضعاف ما كانوا يستوردونه من البضائع والسلع المصنوعة في الخارج ، بينها المصنوعات الحديدية على اختلاف حجومها ، والسكاكين والمسامير ومصنوعات الصفيح ،

والأجواخ والعقادة (تجارة الخردوات) والعقاقير والمواد الطبية . وأخذت الولايات المتحدة تصدر إليها ، بدورها ، القسم الأكبر من محصول القمح والطحين واللحوم المحلية ، والتبغ ، وشيئاً من محصول القطن . ومع ان هذه الولايات كانت مستقلة سياسياً فقد كانت تعمل اقتصادياً على انكلترا التي منعت عليها ، مع ذلك ، الاتجار مع جزر البحر الكاريبي او جزر الانتيل ، فان أقرها فمن باب التهريب ليس الا . وقد أبت انكلترا عقد أي معاهدة تجارية معها لمعجز مجلس الكونغرس عن إلزام الولايات المتحدة احترام المواثيق والتقييد بأحكامها ومندرجاتها . وفي البحر الأبيض المتوسط ، كان القراصنة المسلحون ينقضون على السفن الاميركية ، لامتناع الانكليز عن حمايتها او الدفاع عنها . وبالرغم من الاسواق التجارية الجديدة التي انفتحت أمام صادراتها ، في كل من فرنسا والبرتغال والصين ظل الميزان التجاري عندها يشكو المعجز المزعج .

وكانت رؤوس الأموال تخرج باستمرار من البلاد او تحتزن في صناديق أصحابها تحسباً للمستقبل الغامض . فقد عجزت عن تلبية حاجات البلاد ومطلب المرافىء الشرقية ، كما انها كانت شبه مفقودة في اقصى الغرب حيث اقتضت الحركة التجارية على المقايضات ، وحيث كانت الرسوم تجبى جلوداً او لحم خنزير مملحاً او شحمأ او وسكي . وقد شلت لدورة النقد حركة البيع والشراء وكل نشاط تجاري ، فخف بالتالي الانتاج . فلا عجب ان ترتفع أصوات المتبرمين والشاكين . وراح كثيرون يطالبون باصدار عملة ورقية ولا سيما بين المزارعين والرواد المستكشفين والقائمين بأعمال المضاربات الغارقين في ديونهم لقاء المبالغ التي استلفوها من التجار . وقد بدا للدينين ان النقد البنكنوت سيخسر كثيراً من قيمته الاسمية ، وان متوجاتهم سترتفع أسعارها وبذلك سيتخلصون بسهولة مما يرضحون تحته من ديون ، فيتاح لهم شراء الأراضي والاملاك . وهكذا راحت سبع ولايات تصدر لها عملة ورقية .

رفضت ولاية ماستشوستس الاخذ بهذا الاصدار ، فأسقط بيد الدائنين في وفاء ديونهم واستهدفوا لعقوبات السجن . وبالنظر لفقدان السيولة ونقص رؤوس الاموال الفادح ، والمزاحة الانكليزية الشديدة ، اصبحت الحياة صعبة في البلاد . وقولى ضابط قديم في جيش التحرير ، يدعى شايس ، قيادة فرقة من العصاة الخارجين على القانون معظمهم من رجال الميليشيا الذين استدانوا على مورتباتهم خلال خدمتهم للعلم في حرب الاستقلال ، لتأمين أود ذويم . قُبِعت حركة العصيان هذه بسهولة كلية الا ان الحركة لاقت عطفاً كبيراً من قبل الطبقات الشعبية اذ رأوا فيها نذيراً لحرب اهلية تنفجر بين الطبقات الفقيرة والطبقة الغنية . وقد كتب واشنطن الى لي Lee ، اذ ذاك ، قائلاً : « يجب ان تتمتع البلاد بحكومة تضمن حياتنا وحرانا ومقتنياتنا والا دهانا ما هو انكى وافظع » . فالثورة التي قامت بقيادة شايس ، اقمعت الجميع بالحسوس ، بعد ان زرعت الملح في قلوب الطبقات الثرية ، بوجوب قيام حكومة قوية ، لتفرض احترام « قدسية الارتباطات المعقودة » وحقوق الملكية . فكان الوضع الذي تردت اليه البلاد من هذه البواغث التي دعت الى وضع دستور جديد لها .

امتنع على مجلس الكونغرس الاميركي ايجاد الحل المرجحى لقضية الغرب الاميركي . لهذا عام ١٧٦٣ ، وبالرغم من الاوامر والتعليمات الصادرة عن ملك بريطانيا ، وبالرغم من قيام الحرب ، لم يتوقف الرواد قط عن عبور الانهر واجتياز الجبال . وقد اضطرتهم الأزمة التي نشبت بعد حرب الاستقلال الى الانسحاب والانكفاء نحو الشرق . ففي سنة ١٧٧٦ ، رأينا ٢٥٠٠٠ أسرة اميركية تقيم في وادي الاوهايو ، الى الغرب من ولاية بنسلفانيا بحيث أصبحت بتسبورغ مدينة صغيرة . والرواد كانوا يسرحون في الاودية التي تسير فيها روافد الاوهايو ، امثال كنتاكي والتنسي ويمتازون الاوهايو . وشكل عدد من المضاربين شركات قوية لهم اخذت بشراء الاراضي وبيعها حصصاً . وهكذا تأسست مدن جديدة ، منها مدينة لوزيفيل ، عام ١٧٧٤ ، ولكسنغتن وستسنتاني ، عام ١٧٩٠ . وفي هذه السنة بالذات بلغ عدد سكان كنتاكي ٧٨٠٠٠ نسمة وتنسي ٣٥٠٠٠ نسمة كما رأينا يقطن مقاطعة الاوهايو التي ستصبح فيما بعد ولاية ، ١٧٣٠ ، نسمة .

وقد نشأ عن هذا التوسع والتطور صعوبات ومشاكل مع الهنود . فالمساهمات التي تلقت عام ١٧٦٨ (فورت-ستافكس) ، وعام ١٧٨٥ ، حملت البعض منهم على التخلي عن حقوقهم العينية . وقد اضطرت السلطات الاميركية الى شن حرب فعلية عام ١٧٧٤ ، ١٧٧٦ ضد قبائل تشيروكيز ، وعام ١٧٧٨ ضد قبائل الايروكوا .

ومع ذلك ، فلم تكن هذه الامور اصعب المشكلات وأشعبها مما وقف في وجه الحكومة الاميركية ، اذ راحت ولايات فرجينيا وكارولينا الشمالية وجيورجيا تطالب لنفسها بضم هذه الاراضي التي انتزعت من الهنود ، باعتبارها امتداداً لها ومكلاً لحدودها . وقد اعترضت على هذا المطالب كل من ولايات ماسشوستس وكونكتيكت وماريلاند التي اوجبت ثمر أمن رقعة هذه الولايات الضخمة ، واقترحت على الكونغرس بان يجعل من الغرب اقليماً خاصاً خاضعاً للاتحاد . فاحبط في يد المجلس المنكود الحظ وبقي متردداً لمن من الجانبين يستجيب . فأمام إصرار ماريلاند ووقوفها موقفاً متصلباً من الاعتراف بالدستور ، اضطرت هذه الولايات الراغبة في التوسع ، للتنازل ، الواحدة بعد الاخرى ، عن مطالبها ومطامعها . وحوالي عام ١٧٧٨ ، اعتُبر الغرب مقاطعة خاضعة للاتحاد .

وقد أثار الرواد ، من جانبهم ، مشاكل عديدة ، في وجه الكونغرس ، اذ راحوا يسطون على المواشي وينهبون حدائق الكنديين الفرنسيين القاطنين كسكاسكيا وكاهوكيا ، بعد ان راحت إحدى الشركات ، تحاول انتزاع ملكيتهم . وبصعوبة كاية نال الكنديون من الكونغرس الاميركي ضمان حقوقهم في التملك والتعويض اذ ما تخلفوا عنها . وقد اخفق مجلس الكونغرس الذي كان بحاجة ملحة للمال والجيش في حمل اسبانيا ، على منح الاميركيين ، حق الملاحة في نهر المسيسيبي بعد ان أصبحت ضرورية لهم في عملية تطوير الغرب الاميركي ، ولذا راحت اسبانيا تقفل النهر في وجه الاميركيين وتحرض الهنود على الوقوف ضدهم . واذ كان الرواد المستعمرون

بحاجة شديدة للمال ، فقد أخذوا يهددون بالانفصال عن الاتحاد ، كما راح فريش ملهم يهدده هو الآخر ، بالالتحاق بإسبانيا .

كل هذه الامور والقضايا كانت مرآة انعكس عليها عجز الكونغرس الاميركي وضرورة تقوية حكومة الاتحاد . ولذا راحت ولاية نيويورك ، عام ١٧٨٢ ، وولاية ماسشوسيتس ، عام ١٧٨٥ ، تقترحان تعديل الدستور . وفي سنة ١٧٨٦ ، انتخبت الولايات مجلساً تأسيسياً ضم ٥٥ مندوباً ، اجتمع في ٢٥ ايار ١٧٨٧ ، برئاسة جورج واشنطن ، وأقر الدستور الجديد الذي صدر عام ١٧٨٧ ، هذا الدستور الذي تسيّر عليه الولايات المتحدة اليوم .

انشأ هذا الدستور الجديد عدداً من النظم والمؤسسات الجديدة التي « تعمل دستور عام ١٧٨٧ في سبيل الدفاع المشترك » ، ومن اجل « تأمين الازدهار العام » للبلاد ، وتحقيقاً لهذه الاهداف ، فقد ألغى سيادة الولايات واستقلالها المطلق ، واعلن قيام أمة اميركية واحدة تتشكل من الولايات وتكون فيه مجرد اعضاء باسم : « نحن شعب الولايات المتحدة » . ويجري العمل بهذا الدستور ويعمل بموجبه ، عندما تقره تسع ولايات من اصل ثلاث عشر ولاية . فلم يعد اذاً للولايات من سيادة مطلقة ، وعلى الاقلية ان تتبع الاكثرية ، وبذلك اعترفت بسلطة بشرية اعلى من سلطتها وسيادتها الفردية .

استوحى واضعو هذا الدستور المبادئ التي نادى بها مونتسكيو وعلم . وقد اخذ بمبدأ الفصل بين السلطات تفادياً للحكم الاستبدادي المطلق ، وتجنباً لهذه الفوضى التي تفضي بالبلاد الى الضعف والوهن وتؤول بالتالي الى وقوعها تحت سيطرة الاجنبي . وقام بموجب الدستور الجديد حكومة قوية باعتمادها النظام الرئاسي في الحكم ، تحت حكم رئيس ينتخب لمدة اربع سنوات من قبل المجلسين ، وينفذ باسمها القانون . ينتخب اعضاؤها المواطنون لفرض واحد هو انتخاب الرئيس . فالرئيس يمثل ، اذاً ، الشعب الاميركي ، ويكتسب بهذه الصفة ، سلطة ادبية عظيمة ونفوذاً كبيراً . فالرئيس ليس مسؤولاً امام المجلس ، وهو يختار وزراءه ، كما يشاء ويرغب ، ويصرفهم عندما يستحسن . ولا يمكن لأي من المجلسين ان يرغمهم على الاستقالة ، اذا ما حجب عنهم الثقة . فليس هنالك من نظام نيابي بالمعنى الحصري . فباستطاعة الرئيس ان يتابع مدة ولايته التي تمتد اربع سنوات ، السياسة العامة التي رسم خطوطها الكبرى عندما تم انتخابه شريطة ان يصادق المجلسان على الموازنة العامة .

ويضطلع الرئيس كذلك بجانب من السلطة التشريعية . فالقوانين لا تكتسب الصفة الازامية الا اذا اكتسبت مصادقته النهائية . فاذا ما رفض الموافقة عليها وأبى إقرارها ، كان باستطاعة الكونغرس ان يتجاوزها شريطة أن ينال مشروع القانون في كل من المجلسين ، اكثرية ثلثي الأصوات ، وهي اكثرية من الصعب توفرها . لا يحق للرئيس ان يقترح هو نفسه مشاريع القوانين ، ولكن بوصفه رئيساً للدولة ويمثل مصلحة البلاد باجمعها ، بإمكانه ان يقدم اقتراحاته في رسائل عامة

يوجهها الى الكونغرس يعرض فيها الوضع العام في الاتحاد كما يستعرض قضايا الساعة ومشكلاتها وموقف الاتحاد منها .

وينوب عن الرئيس ، نائب الرئيس الذي يجري انتخابه مع انتخاب الرئيس ويقوم باعباء الرئاسة ومهامها عندما يستحيل على الرئيس القيام بها .

ويؤمن الدستور مراقبة المواطنين في معالجتهم القضايا العامة التي تهم الشعب الاميركي . السلطة التشريعية بيد مجلسين : مجلس النواب الذي ينتخب ممثلي الشعب فيه الناخبون في كل ولاية ، من الذين تتوفر لهم المؤهلات القانونية فتولهم حق الاقتراع والاشراك بعمليات الانتخاب لاكثر هذين المجلسين اعضاء . وتنتخب كل ولاية من الممثلين لها عدداً من النواب يتناسب مع عدد سكان الولاية . فالولاية التي تضم ارقاء ، للبيض وحدهم حق الاقتراع . وفي عملية تقدير عدد ممثلي الولاية في المجالس ، يعتبر الارقاء ثلاثة اخماس عددهم . فالبيض في الولايات الجنوبية هم اكثر تمثيلاً من البيض في الولايات الشمالية ، ينتخب اعضاء المجلس لستين فقط . وهكذا بإمكان الناخب ان يراقب ممثليه ويحاسبهم على اعمالهم اثناء ولايتهم .

هنالك خطر على الولايات القليلة السكان ، هذه الولايات بالذات التي تألفت منهم انكلترا الجديدة ، بان تهدر مصالحها الولايات الكبيرة المكتظة بالسكان . ولذا كان لابد من مجلس ثان للنظر في القوانين التي مرت على المجلس الاول وقد يكون اقرها في ساعة من الهوى او الغرض ولذا قام مجلس الشيوخ . فلكل ولاية شيخان يمثلانها ، مها كان عدد سكانها . ويقوم بانتخاب اعضاء مجلس الشيوخ المجالس التشريعية القائمة في الولاية . وينتخب الشيوخ لست سنوات ، يتجدد انتخاب ثلث الاعضاء كل سنتين ، وذلك تقادياً للتغيرات المفاجئة التي يمكن ان تقوم بها الاكثوية تحت تأثير حوادث عاطفية .

القوانين المقترح اصدارها يجب ان يصادق عليها كل من المجلسين . يمكن تقديم مشروع القانون المقترح لهذا المجلس او لذاك ، على السواء ، باستثناء قانون الموازنة العامة الذي يجب ان يصوت عليه مجلس النواب في الدرجة الاولى ، وذلك لتأمين مراقبة المواطنين لنفقات الدولة ، وبالتالي مراقبتهم لأعمال الحكومة واجراءاتها .

يشارك مجلس الشيوخ ببعض السلطة التنفيذية . فعلى الرئيس ان ينال موافقة مجلس الشيوخ على تعيين بعض كبار الموظفين في الدولة . فما من معاهدة يوقعها الرئيس مع الدول الاجنبية تكتسب للصفة القطعية ، ما لم يقرها مجلس الشيوخ . كذلك يمارس هذا المجلس جانباً من السلطة القضائية ، اذ يتحول الى مجلس أعلى ليقاضي الأشخاص الذين يوجه اليهم مجلس النواب تهماً معينة . وهكذا اتخذت الاحتياطات الضرورية لتفادي اي انقلاب يمكن للرئيس ان يقوم به .

ولكن المجلسين ليسا مطلقا التصرف في إقرار ما يرغبان في إقراره من القوانين . فالأقلية

قد تستهدف للضغط من قبل الأكثرية . ففوق القوانين يوجد الدستور الذي بموجبه يصدر ما يصدر من الشرائع والقوانين . وفوق القوانين التي يضعها البشر والدساتير التي تقرها الأمم ، هنالك شرائع طبيعية ركزها الله في الانسان وأولته حقوقاً مقدسة لا يمكن نسخها او انتزاعها منه : كالحرية وحق التملك او الحياة . فكل قانون يخالف للدستور او يتنافى وحقوق الانسان الطبيعية ، باطل هو وساقط ، لا يعمل به . فالمحكمة العليا مكلفة بالنظر والحكم فيها اذا كانت القوانين مطابقة لروح الدستور ولحقوق الانسان الطبيعية . هنا تقوم وظيفته الأولى . وهذه المحكمة تنظر وتقطع في القضايا الناشئة بين المواطنين والادارة ، وفي المشكلات التي قد تنشأ بين الولاية والأخرى . فهي تتحرك للعمل بناء لطلب يتقدم به احد المواطنين او إحدى ولايات الاتحاد . وهذه المحكمة تتألف من سبعة قضاة يعينهم رئيس البلاد مدى الحياة ، تأميناً لما يتمتعون به من استقلال تام في اقصيتهم .

الجماعات عرضة للتغير والتبدل على مر الزمن وكر السنين . والدساتير التي يجب ان تحافظ على المبادئ العامة ، يجب ان تكون قابلة للتكيف وفقاً للظروف المستحدثة . فالدستور اذاً ، هو قابل للتكامل ، ويمكن بالتالي إدخال تعديلات عليه . تعديل الدستور يجب ان يتقدم بمشروعه ثلثا عدد الولايات . والتعديل يصبح جزءاً مكملًا للدستور اذا ما اقره ثلاثة أرباع الولايات في الاتحاد ، من قبل هيأت خاصة تنتخب لهذه الغاية .

وقد رؤي اتخاذ اجراءات خارجية عن الدستور لتوسيع احكامه على الغرب الاميركي . فقد سبق واتخذ عام ١٧٨٥ ، قراراً باجراء عملية مسح للمنطقة الشمالية الغربية ، نص في بعض موادها على بيع الفدان الواحد من الارض بالمزاد العلني ، على الا يقل السعر الأدنى عن دولار واحد للفدان ، يدفع نقداً . بوشر بعملية المسح عام ١٧٨٦ . والقرار الذي صدر في تموز ١٧٨٧ حول المنطقة الشمالية الغربية ، جعل من هذه المنطقة ارضاً تابعة للاتحاد ، وعين لها حاكماً وثلاثة قضاة ، واوصى بقسمتها الى عدة اقسية متميزة . فكل قضاء منها بلغ عدد السكان فيه ٥٠٠ من الذكور البالغين ، تمتع بحاكم عام يعينه مجلس الكونغرس ، وقام فيه مجلس تمثيلي منتخبة ، ومجلس آخر ينتخبه الكونغرس من بين قائمة من المرشحين بعدها مجلس النواب . وعندما يبلغ عدد سكان القضاء ٦٠,٠٠٠ من الافراد الاحرار ، يمكن له ان يصبح ولاية جديدة فيضع لنفسه دستوراً خاصاً ويرسل ممثلين عنه الى الكونغرس ، وينعم بكل الامتيازات التي تتمتع بها الولايات الاخرى على قدم المساواة التامة معها . وهذا القرار اصبح الدعامة او الوثيقة الاولى التي قام على اساسها التطور العظيم الذي اخذ الغرب بأسبابه .

وفي سنة ١٧٨٨ صادقت اكثرية الولايات على الدستور المعدل وبذلك اصبح نافذ المفعول . وقد ادخلت عليه ، فيما بعد ، عشرة تعديلات ، صودق عليها في حينه و اقرت وشكلت نوعاً من اعلان حقوق الانسان ، فهي تضمن الحرية الفردية ، وحرية الصحافة وتحظر على الكونغرس

توحيد دين الدولة . واذا ذلك تم انتخاب جورج واشنطن رئيساً بالاجماع واخذ بممارسة
صلاحياته كرئيس اعلى للبلاد ، في ٤ اذار ١٧٨٩ .

كان على الدستور ان يؤمن بالضرورة ، وعلى الوجه الاكمل ، السلطة للبلاد ، والحرية لافراد
الشعب وان يساعد على نمو الاتحاد وتأمين ازدهار الولايات المتحدة .

لما سلك الدستور الاميركي اول دستور محرر او مكتوب تضمنه دولة
الولايات المتحدة واوروبا كبيرة قام على المبادئ العقلانية ، وتشجيع ، اسوة بوثيقة اعلان
الاستقلال ، من مبادئ وافكار الفلاسفة ، الفرنسيين ، ولا سيما من المبادئ التي نادى بها
مونتسكيو وعلم ، فقد اصبح ، كإعلان الاستقلال نفسه ، مصدر وحي وإلهام للدول الأوروبية
المستتيرة . فالولايات المتحدة الاميركية التي تدين لاوروبا بوجودها وطريقة تفكيرها
وسياستها ، والتي تلقت منها الفن يوم كان هودون يرفع فوق كابيتول رتشموند ، تمثال جورج
واشنطن على شاكلة تمثال لويس الرابع عشر بمرقم ديچاردين ، كما ان الكابيتول جاء نسخة عن المنزل
المربع في مدينة «نم» كما كان اوتيل سلم «ملهماً لبنا البيت الابيض» فرساي الجديدة ، وللبناني
التي قامت في واشنطن عاصمة الاتحاد الجديدة ، في هذا الوقت بالذات انتقل طراز غبريل
الهندسي الى بوسطن ، وقد ساهمت الولايات المتحدة بحاصيلها وتجارتها في اعداد هذه التغييرات
الاقتصادية والاجتماعية والسياسية التي وصلت الى اوروبا عن طريق الاتصالات الدولية ،
وراحت تقدم لها ، اليوم ، مثلاً يحتذى ، لاكمال حركة التطور ، عن طريق نقل الثورة اليها .

كان الاوروبيون يتتبعون بشوق وحرارة اخبار اميركا ، وقولهم تحقّق لكل خبر من اخبار
صراعها . وعندما بلغ مدينة ألسنور خبر نيل اميركا استقلالها ، وكان مرفأ المدينة يعج بالسفن
من جميع الدول ، وقد ارتفعت الاعلام ابتهاجاً وأخذ البحارة يتفون هتافات الفرح والغبطة
... وقد راح ابي يثير فينا الشعور بالحرية السياسية ، فجمعنا حول المائدة وشربنا مع ضيوفنا نخب
الجمهورية الجديدة ... ، واستولى على الجميع ، في اوروبا رغبة شديدة دفعت الناس الى احتذاء
حدو اميركا والنسج على منوالها ، اوروبا هذه المتعبة ، المحتاجة ضد حكوماتها والتي اخذ فيها
جميع البرمين ، المستائين ، اينما وجدوا ، في بروسيا والممتلكات النمساوية ، وفي هولندا واسوج ،
وجنيف ، ينظمون المظاهرات الصاخبة . ولم يبلغ الحماس في مكان ما من اوروبا ، مابلغة في
فرنسا . وهذه الثورة الهادرة التي كانت وشيكة الانفجار ، في كل مكان ، قامت بها اوروبا لان
ما تبقى فيها من مخلفات الاجيال الوسطى ، كان قريب الزوال لانه بدا للناس شيئاً لا يطاق .
وقد عرفت فرنسا وهي اكثر حكومة مركزية في اوروبا ، وفيها أكبر طبقة مهيضة الجناح من النبلاء ،
مؤسساتها الثأفوية أشد ، عبودية . فكانت اكثر الدول نجاساً وأكثرها تماسكاً . وقد بدت
فيها الثورة ضرورة ملحة ، كما بدت وسائل النهوض بها سهلة التناول للغاية . ولم تكن فرنسا
لتنقذ بأن يقتصر العمل الثوري عليها وحدها . فستحاول ان تجعل من حقوق الانسان ،
الجميل البشرية الجديد ، كما تجعل من ثورتها اداة لتحرير الشعوب ، وصليبية ، تأخذ
على نفسها انقاذ الشعوب والامم وتأمين سعادة البشر .

القسم الثاني

مجتمع القرن الثامن عشر أمام الثورة

من اقل الامور احتمالاً وتوقعاً ان يرسخ في الارض المحتوى او المفهوم الثوري كنظام يعمل به . وهذا المجتمع الذي قام في العهد الملكي القديم والذي طوحت السنوات السبعون الاخيرة بالجانب الاكبر من اوضاعه المادية والروحية ، اصبح الآن مهلهلاً نحرأ ولن يبقى منه . بعد لأي من الزمن ، سسوى الركام والحطام المتناثر . ومثل هذا الوضع تجلّى للجيل الطالع فيها له على نطاق واسع ، الاسباب الكفيلة بتحقيقه والخروج به الى حين الوجود .

فغنصر المفاجأة يكن في اغراض الثورة واهدافها اكثر منه في العمل الثوري نفسه . وهو يتمثل على الاخص ، في ما اتخذت الثورة لها من نهج او صراط سارت عليه ، وما استعانت به من وسائل للخروج بالنهج الذي رسمت الى الفعل الحيز . لمدينة السعادة والحجى السقي ارتفعت قبائها تحت كنف الكائن الاسمى ، اثار ت بين المواطنين مشاعر واحاسيس كثيرة الى جانب الارتياح الذي جاشت به نفوسهم في بدم الامر . فقد افترقت الحركة لرضى الطبقة التي تجردت من امتيازاتها : وهو مجلى من مجالي المشكلة ، التي لم يفتن لها بالقدر اللازم ، القرن الثامن عشر الذي استرسل كثيراً وراء التفاؤل . فالبورجوازية والارستوقراطية اللتان تمثلان معاً عوامل الدفع والاستمرار ، سكتنصبان الواحدة في وجه الاخرى ، وتأخذان ، لمدة ربع قرن ، في صراع عنيف مرير لم تعرف البشرية ، خلال تاريخها المديد ، اعنف منه صراعاً واقسى . فالانجاء نحو السعادة الشاملة لم يعم ان افضى الى تصادم عام ، الى حرب طاحنة قامت على جبهتين : داخلية ثم خارجية ، الى حياة لمحتها القلق وسداها الاضطرابات . وعندما راح المارشال الامير شوارزنبرغ يتكلم في الوقت الذي كان فيه هذا الصراع يلفظ انقاسه الاخيرة ، باسم الردة الاوروبية على الثورة ، اخذ يصف «السنوات العشرين التي الفت سلسلة متصلة الحلقات من الاضطرابات والويلات ، فاذا «بالعالم يرى وهو مشدوه كيف تتجدد في عصر الانوار ، المصائب والنكبات ذاتها التي تضرست بها الاجيال الوسطى » .

هذا العالم « المشدوه » كان قد عاش بالفعل واختبر ، بعد ان تنازعه عاملاً الإثارة والهلع ، ثورة اجتماعية لاهبة عارمة ، كما شاهد ارتكاساتها وردود فعلها العامة .

الكتاب الأول

الثورة الفرنسية والدعائم النابوليونية

الفصل الأول

قوى الثورة

١ - القوى الطبيعية

في هذه المدينة ، مدينة القرن الثامن عشر ، التي لا نعرف عن اوضاع الحياة فيها اليوم ، شيئاً يذكر تهيأت اسباب الثورة وتمت حضانتها . وبواسطة هذه المدينة امكن القيام بالثورة والانقلاب الجذري الذي يعنيه . وهذه المدينة التي كانت المجلس الاجتماعي للتماطل التركيب والتي يمكن ان تحيي او ان تموت لكثرة ما قام فيها من حدثان وما شهدت من امور جسام والتي كان طابعها الاسامي بوجوازي على درجات متفاوتة ، مهما كان اصلها او جاءت نشأتها ، تبدو ، هنا ، مركزاً للأعمال تعيش في بعض اقسامها على الاقل ، من حياة البلاد الاقتصادية ، تزدهر بازدهارها وتركز بركودها او تخفت بخفوتها ، كما تبدو ، هنالك ، مركز جذب واستقطاب لرجال المال والاعمال في مجالات الصناعة والتجارة والفن وتأثيرهم المباشر على الطبقات او الفئات الاجتماعية القريبة منها او المتصلة بها ، ولا سيما على طبقة البروليتارية التي عاشت دوماً على اتصال مباشر برب العمل وصاحبه : مدن وقصبات وبورجوازيون ، هذا هو العنصر التاريخي المفسر الذي يبرز هنا اكثر منه في اي زمن من الازمنة التاريخية .

١ - المدن

اخذ الدفع البورجوازي يحتمد ويستند في الجيلين الاخيرين . فالنخبة القديمة بين الطبقات الشعبية اخذت تزداد غنى وتنمو فواء ، وعددأ والدفع الديبوزرافي ارتفاع عام في الاسعار وتتماظم نفوذاً وشأناً ، فعمقت اعمالها ومشروعاتها النجاح والاقبال ولاقت الازدهار . فبين الربح الثاني والاخير من القرن الثامن عشر ارتفع الانتاج الصناعي

الى الضعفين ، ومردود التجارة ، في الداخل والخارج ، وربما ازداد ثلاثة اضعافه ، كما ان التجارة مع المستعمرات ازداد نشاطها خمسة اضعاف فليس من هبوط في قيمة النقد يلفت اليه النظر . فأرقام المعاملات التجارية ترتفع باستمرار بصورة طبيعية دون اي ظاهرة تضخم . فالتوطيد المالي الذي تم سنة ١٧٢٦ ، وضع حداً نهائياً لتقلبات الليرة وتأرجحها ، اذ حافظت على وزنها حتى عهد « فرنك بوانكاريه » ، كما حافظت على قوتها الشرائية حتى عام ١٩١٤ ، باستثناء الفترة القصيرة التي طلعت علينا فيها سكة الـ *Assignats* . فبالرغم من استمرار وحدة العملة ، اخذ معدل الربح دوماً بالارتفاع . والبورجوازيون من جميع الألوان والاضاع عرفوا ان يجمعوا ثروات هائلة بأسرع ما يمكن وباخصر الطرق . وهذا الوضع لا يعني قط ان العرق او المجلس الفرنسي تغير او تبدل . وهذه الطبقة البورجوازية الناصبة ، المقتصدة ، الحذرة ، التي قامت في القرن الثامن عشر ، والتي تجلت فيها أرسخ الفضائل والاخلاق العائلية والمنزلية ، هي هي بالذات الطبقة التي عرفنا وتبينها من قبل ، في الأجيال الماضية . لا شك في ان بعض صورها وأوضاعها العليا تبدي لنا بعض التأخر من حيث الفطنة والأخلاقية ، الا ان الاعمال عندها ازدهرت تحت تأثير عاملين مهمين . فالتضخم الديموغرافي لم يحدث اي ارتفاع في سعر النقد الورقي وأرباح النقد الورقي . فالتضخم الذي سجل في عدد السكان ، وفي ازدياد المعادن الثمينة ، ترك اثره البعيد في ترسيخ النقد « الذهب » والربح « الذهب » .

ان تضاعف عدد السكان المفاجيء الذي نما ، نلاحظه جيداً في الربع الثاني من القرن الثامن عشر ، جعل نمو السكان في المملكة بمعدل تراوح بين ٣٠-٤٠٪ . فمن أبرز الامور في هذه الظاهرة الاجتماعية ، هذا الفارق بين الحركة الديموغرافية الساكنة ، في عهد الملك لويس الرابع عشر ، والحركة الديموغرافية الثورية في عهد العاهلين اللذين تعاقبا على الملك بعده . وهذا لا يعني ان حركة المواليد زادت وارتفعت ، بل ان معدل الوفيات نقص او انخفض ، ولا سيما معدل الوفيات بين الطبقات الشعبية ، خلال هذه الازمات التي نصفها « بالدورية » . فلم يقع شيء من هذه الازمات التي تتصف « بالجماعة » ، هذه « الجماعات » الاجتماعية التي هي اكثر تعقيداً مما تبدو في الظاهر ، والتي كثيراً ما صاحبها انهيارات ديموغرافية ، تحتاج الى نصف جيل للتعويض عن خسارتها . فالأزمة « المميتة » حل محلها أزمة « عرضية » او خفيفة هذه الأزمة التي تفص عن الحياة والتي تنوع مشكلاتها عن طريق ازدياد السكان وتكاثرهم .

وهذا الارتفاع في عدد السكان الناجم عن الثورة التي ألمت بمستوي الوفيات ، كانت من شأنه ان يحدث ضغطاً على أسعار الحاجيات الزراعية ، في بلد لم يعد ليأمل ان يرى على ارضه عمليات إحياء زراعي واسعة تزيد من دخله كثيراً ، وحيث تقنية المواصلات تنقص استيراد المواد الغذائية ، على الزر التزير منها . فبين عدم قابلية توسع الاراضي الزراعية ، في البلاد ، وهو شيء معروف من قبل ، وبين حركة تزايد السكان المفاجيء يقوم تناقض « ملتوس » ، فأخذ ملتوس منه عبءاً له وعظماً . فقد بدا من الضرورة الملحة رفع معدل الانتاج في البلاد بكلفة

أكبر ، عن طريق استثمار احسن وأكفا لهذه الاراضي التي يصعب استثمارها . وهكذا تأخذ بالارتفاع ، منذ مطلع الثلث الثاني من القرن كأنها حلقات ممسك بعضها باطراف البعض الآخر ، اسعار كل المواد الغذائية التي تسيطر على الاسواق التجارية ، اذ ذاك ، ولا سيما ، المحاصيل الزراعية التي تتعلق بغذاء الانسان وقوته وبالحامات الاساسية . ومن جهة اخرى ، هذه الزيادة في معدل السكان تفيد منها المدينة اكثر مما يفيد منها الريف . صحيح ان طبائع الأمة الاساسي يبقى زراعياً ، غير ان المدن تتضخم بنسبة اكبر ولا سيما تلك التي يتركز فيها الاقتصاد القائم على الرأسمال الذي كان ماثراً للنشاط التجاري ، هذه المدن التي كان يترتب عليها ان تؤمن اسباب السكن والكساء للمتدفقين عليها والنازحين اليها باستمرار ، طلباً للرزق ، فكان ذلك باعثاً على رواج الصناعتين الاساسيتين المسيطرتين ، اذ ذاك البناء والنسيج . ان ازدياد عدد السكان وتوزيعهم الجديد كان سبباً مباشراً في ارتفاع الاسعار ، وفي إيجاد مجالات ومرافق جديدة للتجارة .

وبعد التضخم في السكان ، جاء التضخم في « الذهب » ، وبعبارة اخرى ، في المعادن الثمينة ، حاملاً معه النتائج ذاتها التي حملها معه العنصر الاول ، على انساب واقدار ، ليس من السهل تحديدها وتوضيحها . فالقرن الثامن عشر درّ على اوروبا ، من الفضة والذهب اكثر بكثير مما دره عليها اكتشاف اميركا . وقد حدث اذ ذاك ، كما حدث في القرن السادس عشر ، وكما سيحدث مرات عديدة بعد ذلك ، خلال القرن التاسع عشر ، ان توفرت للناس وسائل اوسع وامكانات اكبر للدفع أيسرها طراً المعادن الثمينة ، بعد ان اكثرت الدول من ضربها سكة وطرحها في التداول ، فتسبب عن ذلك ارتفاعات ثابتة في معدل الاسعار . وهكذا ظهرت في الاسواق وبرزت المجالات التجارية التي اتسع نطاقها ، الاسعار بعملة الذهب . وبعبارة اخرى زادت كثيراً تحت التأثير المزدوج لارتفاع سعر الوحدة وازدياد حجم البضاعة المبيعة ، حركة الاعمال والاشغال بين المتعهدين البورجوازيين وتجاوزت حركة الاعمال والاشغال كثيراً النسب التي رسمنا من قبل ، صورة لها ، ولا سيما الارتفاع التي كانت عوامل كثيرة تحد منها اليوم ، كما في الماضي سعر الكلفة ، وخصوصاً معدل الفائدة والاجر ، فارتفعت بمعدل اقل من معدل ارتفاع الاسعار .

وهكذا ازدادت ثراءً وغنى ، الطبقة البورجوازية الناشطة ، على مختلف اشكالها ، من بورجوازية المال والاعمال والصناعة ، العليا الى البورجوازية الوسطى والبورجوازية الدنيا التي تسيطر على التجارة بالمفرق وعلى النشاطات الصناعية القريبة منها . وبالرغم من النقابات التي لم تكن توجد في كل مكان ، كانت المخازن والاشغال من جميع المقاييس تتكاثر في المدن النامية . وحدث ولا حرج ، عن صناعة البناء والصنائع الأخرى التي تثبت على جوانبها . فقد كانت اكثر النشاطات التي تستفيد من حركة التجدد في المدن . وهذه البورجوازية المتعددة الوجوه والمظاهر ، لم تزد غنى فحسب بل ازدادت كماً وقدراً ايضاً .

وعلى هذا قس ايضاً ثقافة الجماهير التي ازدادت هي الاخرى تنوعاً وغنى ساعد كثيراً على

تطورها . فقد ازداد الاقبال على المواد الفكرية والعقلية بعد أن أصبحت من موارد الرزق وكونت مردوداً طيباً استهوى الناس فأقبلوا عليه . فالرأي العام الضيق ، الذي تمثل قديماً في رأي « مدينة » القرن السابع عشر ازداد انفتاحاً واتساعاً وضخامة بحيث ارتدى مقاييس وطنية . فداري هذه الطبقة الآخذة بالتكاثر والنماء ، سواء أ كانوا من طبقتها العليا أم الوسطى أخذوا يؤتمون الجامعة وينخرطون في صفوفها ، سيان لديهم أحسنوا اللاتينية أم جهلوهما . وهذا الضرب الجديد من البورجوازية الذي أخذ بالانتشار والشيوع والصقل ، يوماً بعد يوم ، أصبح منصرفاً فكرياً وثرياً خصبة تنبت المؤلفين كما أصبحت زبونا كبيرا لم يلبث ان فرض رغائبه المضرة وهواياته المستبدية . فهي ، بعكس التسالم الكنسية التي تتجه من الحياة الابدية ، تسعى وراء السعادة القريبة المنال ، والدانية القطوف ، السعادة المادية ،

اهداف البورجوازية
« المستترة » والمواقف التي
تحول دون تقدمها

الواقعية « البورجوازية » . فالقضايا التي يثيرها كتابها ومفكروها والنقاد والمتشائمون المنادون بالشهور وعظائم الامور ، تمثل مشكلات تكن بالقوة ، امام الطبقة الطالعة ، مشكلات سياسية تعنى بالدرجة الاولى ، باعادة توزيع السلطة هذا التوزيع الذي لا يمكن أن يتم مبدئياً ، ولو بصورة جزئية الا لمصلحة الطبقة البورجوازية . فالسلطان في تعبير العصر ، لم يعد ليعني الملك فقط أو الأمير الحاكم ، بل « الجسم السياسي » ، والمشكلات الاقتصادية اخذت هي الاخرى تعني تحرير الاقتصاد ، وهي عملية تعود بالخير الكبير على البورجوازية نفسها . وهذا التحرر للاقتصاد ، هل ارتفعت الاحداث بالمطالبة به عالياً ، قبل القرن الثامن عشر ؟ لا شك في ذلك قط ، انما بصورة اضعف بكثير لعمرى وأخف وبين وسط أضيقت . والجديد في الأمر هو أن هنالك الآن تياراً قوياً وان شئت فقل مدرسة ، تسند بكل قواها مثل هذا المطلب ، في كثير من التضامن والتعاقد ، بعد أن غمر تيار اقتصادي عارم ، فرنسا وكل دول القارة باجمعها ، بشكل معين أو بآخر ، وعلى أثر هذا التطور الذي طبع الافكار السياسية التي قالت بها هذه المدرسة ، والذي سيبقى الطابع المميز . والمطالبة بحرية الاقتصاد تتطور شيئاً فشيئاً وتوسع على شكل حساب التوجيه « الاستبدادي » الذي ميز مطلع القرن .

في وسع البعض ان يهاجوا ، ولا شك ، الفردية الاقتصادية باسم العدالة البشرية ، ولكن ليس باسم الفعالية . فحركة الاثراء الشاملة أو العامة ، ألم تكن آخذة بالاتساع والانتشار منذ أكثر من خمسين سنة — أليس بفضل الارتفاع المستمر للاسعار بالعملة الذهب وما يؤمنه من أرباح ؟ — لا ، ليس هذا — فقد اشتعلت في الجواب ، بل قل بفضل ارباب العمل لعمرى ، ولا شك ا لا لزوم لاكثر من « ترك الامور تجري في أعنتها » ، ويتم كل شيء على ما يرام . على هذا النحو كان يفكر رجال العصر . وكيف لا تكون البورجوازية على ما يجب ان تكون عليه من التوعية واليقظة ، بعد ان أصبحت اكثر غنى واثراء ، واكثر عدداً ونصراء ، وأكثر وعياً وعلماً وقضائاً ، واكثر اتصالاً من أي وقت مضى في المدن ؟ وكيف لا يتم لها من عمق الشعور

والتنبه ما لم تر بعضه من قبل بوصفها هيئة متميزة ومماثلها الاماثل على خير ما يكونون من الوعي والشعور والتحسس بهذا كله. ومثل هذا الشعور أخذ بالامتداد والانتشار بفضل المقاومة والصمود ؟ فالعدوة القديمة للبورجوازية طبقة النبلاء هذه تعمل دوماً على إقامة الصعوبات وإثارة العراقل في وجهها وتقف كالمعتاد عقبة كؤود ، تحدان لم تصد من هذا الصمود او التطور الاجتماعي الذي اخذت البورجوازية بأسبابه ، وهذه العراقل التي عانت منها طويلاً ستكون يوماً سبباً للاحتكاك ، فتجعل الحويصلة الصفراء تنشط إبدأ للعمل وإفراز المزيد من الاحقاد والمراثر بين الطرفين .

ويتفانم خطر هذه العقبة فجأة . فنذا ان انقضى عهد الملك العظيم وغاب ذكره عن الازهان ليس ما يصدم الخواطر مثل الفارق القائم بين تطور البورجوازية المادي والروحي من جهة وبين تقهرها المدني من جهة أخرى . فشأنها أخذ دوماً بالازدياد والتعاظم في الامور الحياتية أو المعاشية ، بينما لا حيثية لها ولا شأن في الدولة . فاستمتاعها المستمر براسم التأثيل لا يثير مشكلة . فالقضية الاساسية المطروحة على بساط البحث تتعلق بصميم النسب ومعدل الاقدار ومدى المجالات المفتوحة امامها . فابواب الوظائف العليا موصدة تقريباً في وجهها ، وكذلك أيضاً ابواب القضاء . فنبلاء المحتد بيزاتهم الميزة الذين يملأون باحات البرلمان وبطانات الملوك والامراء ، يؤخذون من بين صفوف ابناء طبقة الاشراف السفلى . وطبقة النبلاء الوسطى اصبحت مع الزمن ، هي الاخرى ، وراثية . كذلك أوصدت امامها ابواب طبقة الاكليروس العليا . اما في الجيش فالوضع بالنسبة اليهم اصبحت اقع وأوقع فالارتكاسات والحركات الرجعية التي ألفنا وقوعها لم تلبث ان اصبحت وضعاً كرسه القانون . فقد حظر على ابناء البورجوازية ، منذ عام ١٧٨١ ، مباشرة الخدمة العسكرية ، برتبة ضابط . ويتحتم على طالب هذه الوظيفة من ابناء البورجوازية ان يثبت بالدليل القاطع ، حصوله على اربع شهادات تأهيل لكي يحق له ممارسة هذه الوظيفة دون ان يخضع للخدمة العسكرية الفعلية . وعبناً اعتبرت حرة ومفتوحة امام الجميع المراكز العسكرية التقنية . وهكذا اصبحت السلك العسكري مقفلاً الابواب امام اللشء الطالع من ابناء البورجوازية ، في وقت توفرت فيه الفرص وزخر العرض البورجوازي كما تضخمت فيه واستفحلت الطبقة البورجوازية نفسها .

وهل في بقاء الوظائف الوسطى والسفلى وفقاً على البورجوازية ما يشفي غليل هذه الطبقة ويخلق فيها شيئاً من القناعة والرضى ؟ فحدوث بعض استثناءات حرية بالذكر والتنويه يؤكد بوضوح التمييز المدني الذين راحت البورجوازية فريسة له . وهذا التمييز المدني شمل كل ما يتعلق بالارض والموارث . فقام بون كبير في الحقوق التي تنتظم الاطيان والاملاك والعقارات الخاصة بالنبلاء ، وحقوق الارتفاق المفروضة على الاطيان والاملاك والعقارات العائدة للبورجوازيين ، حق ان بعض احكام هذا الارتفاق اصبحت مع الوقت عبئاً ثقيلاً وحلاً لا يطاق . قد يكون في استطاعة أي انسان ان يبتاع أي اقطاع يرغب في اقتنائه . فاذا كان الشاري من طبقة الشعب

و الصعاليك حلت له عملية الشراء رسوماً وعوائد خاصة لا تطال الشاري النبيل . فهل يشترى هذا البورجوازي غالباً ، راضياً مرضياً ، ما يمكن ان يصبح معه سيداً أو رباً ؟ فالعقار العائد للنبيل يبقى استثناءً أو شذوذاً ، كما يستدل على ذلك من ربيع الاقطاع الحر . « فالقطاعية ، الفخرية وما تبقى من أثر الاقطاعية السياسية التي تعود بربح اكبر ، يزيد في تباين هذه الفوارق الاجتماعية العنصرية أو الطبقة .

« فالبورجوازية عام ١٧٨٨ هي اشبه ما تكون بمنبوذ اجتماعي . لما ان تدق ساعة الاصطدام بطبقة النبلاء حتى تسرع البورجوازية ، الى افراغ جام حقدتها ، كما نرى ذلك في تصرف كروزيه - لا توش أحد النواب العامين واحد نوابهم الامثال ، الذي يأخذ ، قبل ١٤ تموز (يوليو) ، بشجب هذا « الصلف المكابر » و « هذه الادعاءات البغيضة المتطرفة » ، و « هذا السيل العارم من المشاحنات المتعالية ، والمشاكسات الصارخة ، وهذا الفيض من الامانات وهذه الحيانات المتمثلة على انماها ، في الطبقة المدونة » .

اما الملك فيبدو متضامناً مع طبقة النبلاء . فهذه الحركة الرجعية التي بدت من النبلاء ، انما قامت برضاء والاتفاق معه ، ولهذا البورجوازية اكثر من سبب لتتقم على الحكومة ولسلقتها بالسنة حداد . فالوضع المالي الذي تتخبط به البلاد فرصة سانحة للإيقاع بها . فهي تتوق من كل مشاعرها الى ان ترى في البلاد ادارة مالية ، منتظمة بعد ان كثر بين ابناءها عدد مقترضى الحكومة وحمله الاسهم المالية ذات الاستحقاق القريب الاجل . فهي ترغب صادقة ، بالاتفاق مع طبقة النبلاء ، بفرض رقابة شديدة عليها ، كما انها ترغب ، من جهة أخرى ، في مراقبة السياسة الاقتصادية في البلاد ، تفادياً « لازمات و ضربات » مؤلمة ، كهذه المعاهدة الفرنسية الانكليزية التي عقدها عام ١٧٨٦ . وهذا يستدعي بالطبع وصول بعض من يمثلها ، للمراكز الحساسة العليا لتحمل المسؤوليات .

والروح التي هبت على العصر أوحى لها بمطالب أخرى أهم واكبر ، لا سيما بعد الدرس البليغ الذي تلقته من الجانب الاميركي . فهي ترمي في الواقع ، يحدوها الى ذلك شعور يتراوح بين الشدة والضعف ، الى قيام مجتمع لا يعرف الطبقات ، مجتمع لا يكون أقل تهديماً وزعزعة لنبل العهد البائد من تهديم مجتمع لا طبقي للنبلاء ، هذا المجتمع الذي سيطلع فيما بعد .

ولواجهة هذه التغيرات الجذرية التي ترسم معالمها للعيان في الأفق ، كانت باستطاعة البورجوازية ان تعتمد على قوى أخرى هي غير القوى التي لها . فاجتذبتها للطبقة الطالعة ، تضمن لها اوساطاً أخرى وفئات جديدة . فبالرغم من تعارض صريح احياناً بين المصالح ، وهو تعارض يخفف من حدته أو يذهب بها كلياً كثير من التوافق ، نرى البروليتارية تشد بنواجزها على الايديولوجيا التي تقول بها . كذلك هنالك فريق من النبلاء المتحرين وعدد كبير من الكهنة ورجال الدين الذين تتألف منهم طبقة الكليروس .

البروليتارية ومن هم في الاختلاف بين البورجوازية وبين البروليتارية لا يقل قديماً وحدة عما منتصف الطريق منها . قام من جهة أخرى من اختلافات بين البورجوازية والارستوقراطية . ففي أي نظام اجتماعي اساسه الاستثمار يحاولون عبثاً ، عن طريق الاستثناء والاغتصاب والروح النقابية ، الوصول الى تحديد نسبة معينة بين قيمة الاجر الذي يأخذه العامل وبين ازدياد دخل البورجوازي . فقد هبطت كثيراً القوة الشرائية للنقد في هذا القرن . ولذا بدا البون فاضحاً بين ارتفاع دخل البورجوازي وبين هبوط أجرة العامل . فالخصومة الطبيعية القائمة بين الجانبين كان لا بد لها من ان تزداد حدة ، وهذا ما حدث بالفعل كما يبدو في الواقع ، ولكن ليس الى درجة يضول معها ما نرى من اختلافات وخصومات اخرى لا تقل قديماً وحيوية ونشاطاً عن حدة هذه الخصومة التي قامت بين العامل الذي يؤخذ عادة من بين فلاحى المدن ، وبين الارستوقراطي ، هذا الملاك العقاري الكبير المسيطر كلياً أو جزئياً ، مباشرة أو بالواسطة ، على الجانب الأكبر من الخانات المعدة للبيادلات التجارية كالحبوب وبين هذا البورجوازي الذي يتمتع خاصة لجهة الرسوم المعمول بها محلياً والمفروضة مباشرة او غير مباشرة ، بالمحاصيل الغذائية التي لا يستغنى عنها .

وبما يلفت النظر في الوضع الاقتصادي السائد اذ ذاك ، ما هو عليه منحى الاجر من ثقل وسلبية اذا ما قارناه بتكاليف الحياة . ففي حُرَف عديدة يستثنى منها الصناعة الضخمة ولا سيما هذه الفئة الرأسمالية التي تقوم صناعة النسيج ، بقي معدل كلفة الحياة يحافظ لسنين عديدة ، على ما له من طابع المشايكة او المقابلة المقطوعة . فالعنصر المتقلب او العنصر الحاسم في الامر الذي يتمثل ، قبل كل شيء ، في الارتفاع او الهبوط الناجم عن ضواغط الموازنة او سهولة توازنها ، هو ارتفاع او انخفاض سعر اهم المواد الغذائية التي يعول عليها الشعب في معاشه ، ولا سيما الحبوب ، او الخبز الذي يبلغ ثمنه ، نصف معدل دخل الاسرة في السنة ، بارت مواسمها او طابت . فالبروليتارية تبدو اذ ذاك حريصة جداً على تأمين مصالحها كعنصر مستهلك . ففي حالة حيف يصيبها او ينزل بها ، نراها تفرغ جام غضبها على الارستوقراطي او على المحتكر الجشع . وكثيراً ما اضطرب النظام الاجتماعي واختل امنه من جراء حدوث ثورات او انتفاضات كان الباعث اليها انعدام المواد الغذائية . وقد قيل المصيبة توحد بين هذه الانتفاضات التي عبرت فيها عن نقيمتها وغضبها . فاذا ما طالبوا باستمرار الرسوم على المواد الغذائية ، فالمطالبة بالحد الأدنى من الاجور او « التعرف » ، تبقى من الامور الاستثنائية ، وليست البروليتارية بحصر المعنى هي التي تقوم بالمطالبة ، بل طبقة اصحاب الحرف والمهن المرتبطين بالبروليتارية ، هذه الطبقة التي سيدور الحديث حولها ، بعد حين . علينا ان نضيف هنا ان هذا الارتفاع الملحوظ لاسعار الخبز الذي يتفاوت كثيراً مع معدل ارتفاع اجر العامل ، يردّه كثيرون الى تصرفات ممثلي السلطات العاملة كموظفين لبلديات ووكلاء الموظفين والمفتشين والمراقبين ، هذا ان لم يكونوا كلهم على تواطؤ مباشر مع « المحتكر » والعمال وارباب العمل الضالعين جميعاً في مثل هذه الاستغلالات .

وما عسانا ان نصف به هذا البون الشاسع الذي نلاحظ وجوده بين البروليتارية العاملة في المصانع في عهدنا هذا وبين بروليتارية القرن الثامن عشر ، في المدن . وستكلم ، فيما بعد عن بروليتارية الريف ، هذه البروليتارية التي لا تزال مشتتة و « مستكنة » في ما تحالف عليها من وضع زري . فقد توزعت على اكثر من نصف مليون معمل او متجر . وكثيراً ما كانت بمثابة تكلفة عدد في الوضع العائلي ، تعمل في خدمة رب العمل القديم محسوبة على التابع نفسه ، كثيراً ما تسكن معه تحت سقف واحد وتأكل على مائدته . فهل يعقل الا تخضع لنفوذه وسيطرته ؟ وباعتبارها عاملاً تابعاً او ثانوياً ، فهي تقع تحت تأثير المجال الاقتصادي والفكري البورجوازي ، فان ثارت او تمردت فخدمة منها للغير ، ومع ذلك فدورها يبقى رئيسياً .

فاليد العاملة في الصناعة في المدن الكبرى والتي تؤلف وحدة مركزة نكرة حيث العامل يعيش ، على نسبة كبيرة ، عيش الهيئات العمالية في عصرنا هذا ، هي مiale بطبيعتها للاستقلال وللشعارات العمالية . وعلى هذه قس ايضاً هذه الفئة التي تتناول ، في المدن ، اجرها من التاجر الرأسمالي بشكل ما او بآخر يكون الشغل في صناعة نسيج الحرير خير نموذج لها . فالعامل فيها يعمل في منسجه او منزله - وغالباً ما يكون الاول ضمن الثاني - بعيداً عن مراقبة التاجر ، فهو يكتري بدوره عمالاً ليعملوا معه ، ويصبح قانونياً من هذه الناحية ، رب عمل . ولما كان امره مقصوراً على اشغال تقنية فهو يبقى تحت رحمة طلبات التاجر المسيطر على وسائل التنفيق والتصريف والتسويق والتوزيع . فهو ، من حيث الشكل رئيس ورشة . اما من الوجهة الاقتصادية ، فهو لا يخرج عن كونه أجييراً ، هم الاول ومطلبه الاكبر تأمين « تعرفه » للحد الأدنى كما سبق ونوهنا بذلك من قبل . فهو أجيير عامل ، يجلب على صاحب رأس المال وجع الرأس . انه لعمري في مستوى افضل من الأجيير البسيط وباستطاعته ان يناقش بحرية تامة شروط اتفاقية العمل . فهو في وضع احسن وأفضل ، ولديه امكانات اكبر . وكثيراً ما يكون مسكنه في حارات او في مساكن شعبية آهلة بأمثاله من العمال والشفيلة . وهكذا يقوم بينه وبين رفاقه زمالة السكن اذا ما فاقته زمالة العمل المشترك . وهناك وسيلة اخرى تساعد على العمل التعاوني المشترك : هي النقابة او الرابطة العمالية ؛ اذا ان هؤلاء العمال هم بالفعل أرباب عمل ، وهذه الرابطة لن يلبث الوضع الاجتماعي ان يجعل منها نقابة نصف عمالية . وهكذا يخوض عمال صناعة الحرير مثلاً ، الحرب على جبهتين : فيندفعون بكل قواهم يناضلون ضد طبقة النبلاء أسوة بالقرى والداكر العمالية القائمة على ارباض المدن وفي ضواحيها . هؤلاء واولئك هم ، على الاجمال ، « متمثلون » ، متمشعون من افكار ونظريات متقاربة بعضها من البعض الآخر ، الا ان يكونوا واقعين تحت تأثير رب العمل مباشرة او انهم لا يزالون في هذه المناطق والاقاليم التي وقعت فريسة التطرف الديني والتمصب المذهبي ، خاضعين لهذه النظريات والدعوات الدينية المتعصبة التي اقامت الكاثوليك ضد البورجوازية والبروتستانتية المتحركة باليد العاملة .

وهكذا قامت في وجه طبقة النبلاء ونصراؤها في الادارات العامة مشاعر المدينة تقف في وجه امتيازات النبلاء

المدينة المعادية التي تنبض بالنفرة والمعداء. فطبقة النبلاء ليست سوى أقلية ضئيلة لا يؤويه لها من الوجهة العددية بين مجموع السكان في المدن حيث تمثل أقل من ٢٪ من الشعب الفرنسي ، هذه الطبقة التي راحت تطالب عالياً بأجراء تحقيق دقيق شامل بين أصحاب الرتب والمراقب لتحديد الاصيل منها والدخيل الطارئ ، والتي جددت في وضع صلب لا ينثنى ، وذلك في وقت اخذت فيه البورجوازية تنمو وتوسع ويشتد منها الساعد . ومع ذلك ، فهي تسيطر على جانب كبير من مالية البلاد يتمثل على اتمه في رؤوس الأموال المشتركة المستثمرة في ما يقع في حيازتها من الاطيان والمقارات والصناعات القائمة في البلد الام او في الممتلكات الواقعة عبر البحار او في الحركة التجارية بين المستعمرات ، كالتنجم وصناعة التعدين والاستثمارات الزراعية الاخرى حيث يعمل وينصب ألوف مؤلفة من العبيد والارقاء المستوردين من الجزر . فالتجارة الكبرى هي مجالها الافضل . وتؤلف الملكية العقارية عندها العنصر الاساسي الذي تنهض عليه وتقوم به . فهي تملك ربع مساحة البلاد برمتها ، كما انها تسيطر على القسم الاكبر من الاخذات . كل هذا يمثل ، اذا ما اخذنا بعين الاعتبار الدخل السيادي ، اكثر من ثلث مداخيل البلاد القابلة للتبادل والاتجار ، وثلث المحاصيل الغذائية الضرورية لمعيشة الانسان بما ينفق في الاسواق المحلية . وهب ان عدلتها مساحة الاملاك التابعة للبورجوازية فهذه الاملاك تتوزع على بضعة ملايين من الافراد ، عرفت أسراتهم بضخامة إنفاقها العائلي على المواد المعيشية . فالأسمالية العقارية وطبقة الاشراف ، واقطاعية النبلاء هما شيء واحد في نظر العامة ويؤلفان في نظر علماء الاقتصاد ، العنصر الاساسي الذي تقوم عليه « الطبقة المالكة » .

من الطبيعي ، واما الحق ، ان تتفرع طبقة النبلاء وتتشعب كما تشعبت طبقة البورجوازية والبروليتارية الى عدد كبير من الفئات الاجتماعية . فمؤلاء واولئك هم في طليعة المستفيدين من ارتفاع اسعار المواد الغذائية ، وقد ارتفعت ، خلال هذا القرن ، قيمة محاصيل الاطيان والاملاك الزراعية . ولا بد لنا من ان نذكر هنا الثورة الاجتماعية الجذرية المتمثلة بوفرة اليد العاملة بفضل تناقص حركة الوفيات ، وبفضل ارتفاع الاجور ارتفاعاً يكاد لا يذكر ، ومزاحة الملتزمين والمتعهدين . فهبطت بالتالي كلفة الانتاج مفسحة المجال ، لفائض اضافي جاء يردف انتاج الارض وفائض الغلال . وبالنسبة ، ففي الوقت الذي راحت فيه اسعار الغلال الزراعية ترتفع من ٥٠ - ٦٠٪ ارتفع بالتالي معدل التزام الاراضي . وكذلك ارتفع ريع الاراضي السيادية : كارتفاع الاسعار وزيادة خفيفة في مساحة الاراضي الزراعية ، ونشطت الرجعية السيادية التي تبعث حية غوائل ورسوماً عفا عليها الدهر وتناساها الزمن . كل هذه العوامل مجتمعة تضافرت معاً وفعلت فعلها . ان جمهرة صغار الملاكين ، والمتعهدين الملتزمين والمرايعين تحملت وحدها وطأة هذا التوزيع الجديد للدخل ، بعد ان لم يعد احد يحمل التأثير العميق لهذا كله على الفلاحين . وقد اخذت هذه الجمهرة تشكو مريراً مما أحاق بها من حيف وما نزل بها من ضعف ذات اليد ، بينما راحت تُثري

قبضة من أصحاب الاقطاعات سببت عليها الجماهير الشعبية غضبها وافرغت دونها مرارة حقدها . وفي الوقت الذي راحت فيه هذه الطبقة المتمتعة بمثل هذه الامتيازات العريضة والاعفاءات الضافية والتي ترفل بمثل هذا الوفرة الطائل وتستمتع بمرتباتها الضخمة ، راح البرجوازيون ومن لف لفهم من الاتباع يصبون عليها مرارة حقدهم . ان سلم الوظائف العالمة في الدولة رحب وواسع . فبين الموظف الصغير من الفئة والسفلى والاداري الكبير ، من الفرق ما يزيد ٥٠ و احيانا ٦٠ ضعفاً . ومثل هذا الفارق الكبير بين أفراد هذا المجتمع الاقتصادي ، ما يصدم ويذهل ويترك اثره العميق في قرارة النفس . والمهم في هذا كله وفوق هذا كله هو ان يخضع الجميع شرعاً او عرفاً ، لمبدأ مثالي واحد . فعلماء الاقتصاد انفسهم يرون هذا الرأي . فهم لا يسلون الا بفرض ضريبة واحدة موحدة تصيب ، على السواء ، نسبة كبيرة من أفراد الشعب ، ضريبة واحدة تفرض على ريع الارض وعلى عقود الايجارات والالتزامات وعلى الصافي من محاصيل الارض على اساس المعدل الفردي والمعدل العام للمجموع . فأصحاب الاعفاءات وأصحاب طبقة الاشراف يتمتعون بامتيازات تعفى معها محاصيلهم من الضرائب والرسوم ، وهي رسوم وضرائب عبثاً يدور حولها ويحاول التعرض لها الجباة المكلفون تحصيل ضريبة الواحد من العشرين . وبالرغم من حركة الثروات التي عكسها جيداً علماء الاقتصاد اذ ذاك ونظرياتهم حول الضريبة ، فالرنج العقاري المركز المسيطر بين ايدي النبلاء ، ينعم الى حد بعيد بحق الاعفاء الضرائبي . والمواد التي تخضع في الدرجة الاولى للضريبة تتجمع وتحتشد في نطاق يتمتع بالاعفاء من الضرائب . فقد اصرت طبقة النبلاء ونجحت في اصرارها ، على المحافظة على موقفها المكابر ، هذا الموقف الذي ستضطر مرغمة للتخلي عنه مبدئياً ، ولكن ليس بصورة مطلقة عامة ، في اللحظات الأخيرة التي كان النظام القديم فيها يلفظ أنفاسه .

يجب ان نستخلص من هذه المظاهر الأولية التي لا تقضي بالمراتب الى شيء واضح ، بانها تعبير صريح عن تطور عام غير العقول وسطا على الافكار . فالقول بظهور او قيام طبقة من النبلاء الاحرار او المتحررين ، والاعتقاد بان هذه الطبقة اخذت تراتب بوجودها وتشك بمقدرتها على البقاء وتنمى بالتالي طلوع عهد جديد ، ليس سوى اسطورة او مظهر خارجي غرار . هنالك ولا شك نبلاء متحررون كانوا مخلصين لنظريتهم وتفكيرهم المتحرر يتمثلون على خير وجه في هذه الفئة التي طلعت علينا في شخصيات ديفيوتون وكستلان وليانكور وغيرهم من قدامى المحاربين الذين اشتركوا بحرب التحرير في اميركا امثال لا فاييت ولواي والاخوة لامث الثلاثة . فالأكثرية الساحقة من ممثلي هذه الطبقة بقيت على موقفها المتصلب المعروف لا تحيد عنه قيد أنملة . فبدلاً من ان تهزها ثورة فكرية تقدمية ، فهي في حركة رجعية تحاول معها زيادة امتيازاتها ، جارة ورامها الدولة ، تتطلع للاستئثار بالسلطة السياسية في البلاد ، عن طريق البرلمان وعن طريق توسيع قاعدة تمثيل الولايات التي تم لها ولطبقة الاكليروس ، السيطرة عليها . فهي حريصة كل الحرص على ان تحافظ على حقوقها الاقطاعية : الاقتصادية منها والشرفية ، بعد ان رأت فيها ممتلكات او مقننات لا تختلف بشيء عن الاملاك الاخرى التي تمت لها ، يؤيدها الملك في مطالبها

الملحفة ويشد من ازرها . فهي تفرض المساواة امام القانون كما تفرض التسليم بقانون العدد او الاكثرية . وسرى جيداً ، في حزيران ١٧٨٩ ، خلال المناقشات التي دارت مع ممثلي هذه الطبقة ، وفي الاحاديث الخاصة من يقول : « هل تنظر الى قائد الجيش نظرتك الى احد افراد الجند ؟ » . مثل هذا الكلام هو على لسان وفي قلب كل نبيل على الاطلاق .

تؤلف الكنيسة من جهتها ركناً قوياً من أركان النظام الاجتماعي في العهد البائد قوة الكنيسة في فرنسا . وهذا التأكيد لا يعني قط ان الكليروس كان يؤلف كتلة واحدة متراسة ، مع العلم ان مصالح مادية واحدة وروابط روحية واحدة كانت تشد اعضاء هذه الطبقة التي تخضع لنظام مسلسل أسر .

يعمل اعضاء هذه الطبقة في معاشهم على غلال الاراضي ومحاصيلها . فالواضع التي تتمتع بها هذه الطبقة التي تعمل على السواء في المدينة والريف ، من الوجهة العقارية ، هي اقرب الى الكمال . فتحت تصرفها في المدن اوقاف غنية من المباني والممتلكات الاخرى تؤمن لها دخلاً طيباً يقوم معظمه على الانتاج الزراعي . وقد تبلغ نسبة الاوقاف العائدة للكنيسة ١٠٪ من مساحة الارض في فرنسا . ويحبي الكليروس العُشر من غلال الارض وتمثل هذه النسبة ١/١٣ من المحصول الخام للارض بما فيه البذار . وبالإضافة الى ذلك فالأقطاعات السيادية التي يملكها الكليروس هنا وهناك ، في جميع أنحاء البلاد تؤمن له حقوقاً سيادية بالمعنى الحصري . فكمية الحبوب التي تحت تصرفه — وهي كمية بإمكانه ان يبيعها مباشرة او بواسطة المتعهدين او المزارعين العاملين في خدمة الاراضي الوقفية ، تمثل جانباً كبيراً من المحصول الزراعي القابل للتبادل والتجارة . فاذا ما اضمنا الى هذا كله الربع العائد لطبقة النبلاء ، أُلّف المجموع الجانب الاكبر من المحصول الزراعي في البلاد .

وهكذا يبدو الكليروس بفضل النظام الذي يتمتع به من كبار اصحاب الاملاك السيادية والعقارية . وقد زادت مداخيله بنسبة الزيادة التي اصابته مداخيل طبقة النبلاء ، وقد كانت لهذه الاعتبارات سبباً من أسباب الاحتكاك الطبقي والاجتماعي . صحيح ان الكنيسة كانت ، تتحمل مصارفات عديدة ناجمة عن الاحتفال بالطقوس الدينية واعمال البر والمؤاسة والتصدق التي كانت تقوم بها ونفقات التعليم في جميع أنحاء البلاد ، كما كان عليها ان تؤمن للاسقف عيشاً كريماً ، هذا الاسقف الذي لم يكن ليؤتى به من صفوف الشعب بل من بين ابناء طبقة النبلاء الصميمين . وعلى هذا ايضاً قس رؤساء ورئيسات الرهبانيات والاديار والكهنة القانونيين في الكنائس الكبرى ، وعدد كبير من النواب الاسقفيين في كراسي الابريشيات الشهيرة البعيدة الصيت . فليس من حاجة بعد لاستمطار نعمة الروح القدس وبركته لاختيار اصحاب هذه المراكز الدينية الكبيرة . والكاتب الهجاء الذي يستشهد بكلامه الاب « له فلون » ، يضيف قائلاً : « تكفي وساطة السيد دوريزيه » . ويتصرف اصحاب المراكز العليا من رجال الكليروس وهم على

الغالب من أبناء الأسر النبيلة العليا ، ربيع عال من دخل املاكهم يزيد احياناً على ١٠٠ الف ليرة اي ما يزيد ٢٤٠ ضعفاً على مرتب النائب الاسقي ، كما يزيد ٤٠٠ مرة على الأقل ، على اعلى اجر يدفع للعامل في المدينة ، عن يوم واحد . والاعفاء التي يتمتع بها الاكليروس تتناول هذا الدخل اكثر مما تتناول دخل النبلاء . فالاكليروس معفى قانوناً من ضريبة ١/٢٠ ، وهو يرفض بعناد واصرار البحث او المناقشة حول هذا الموضوع . فبعض الاستثناءات من الكهنة يجب الاتخذ عنها . فامثال الكهنة شميون دي سيسه ، ولافرانك دي بومبليان هم من هذه الشواذات القليلة التي خرجت عن خط الاكليروس الذي يؤلف ، في مجموعه مع النبلاء ، كتلة واحدة متراسة . فكلهم على اختلاف شديد مع فلاسفة العصر وتآليهم للانسان . فالاسقف ، بما تم له من انتخاب وشرف المحند والحسب والنسب ومما له من افكار ومبادئ ونظريات ، هو على طرفي تقيض مع البورجوازي ومع صعاليك الشعب في تمسكه بمصالحه الدنيوية والامتيازات التي ينعم بها . « فتجريدته » من هذه الامتيازات عملية وطنية في الصميم .

وقد يكون هذا هو ايضاً رأي الطبقة السفلى او الوضيعة من رجال الاكليروس ، هذا الفريق الذي يختلف نشأة ومحتدأً وأصلاً وفصلاً واختياراً عما تم من هذا كله للاسقف ، ولذا فالتفام بينه وبين ابن البورجوازية ليس بصعب قط ويسهل تحقيقه من وجوه عديدة . ولكن ما العمل وامامه عراقيل وصعوبات كثيرة روحية ومادية تحد من حريته . فالسلطة الكنسية لن تلبث ان تحطم المخالفين او الناشزين عن الخط ، فتنزل بهم صواعق القطع والحرم والبسّل . وجل ما تستطيع الطبقة السفلى من الاكليروس صنعه هنا ، بالاكتر ، مساية الدفع الثوري . والوقوف الى جانب الرأي العام المحلي . فلن يكون في مجموعه رفيق طريق يؤمن جانبه ، وأقل من ذلك ، قوة في يد الثورة وسيسهم احياناً ، ولا سيما في الارياف ، في مد الحركة الرجعية ضد التيار الثوري بالأطُر التي هي بحاجة اليها .

٢ - الارياف

قد يكون تبادر الى ذهن بعضهم ان جمهور الفلاحين المستثمرين لاملاكهم الفلاحون الملاكون هم الذين استفادوا ، بالاكتر ، باستثناء الذين افادوا من ارتفاع اسعار الضمان ومن ردة الفعل السيادية ، من ارتفاع عدد السكان وتضخم النقد الذهبي الذي تسبب في ارتفاع اسعار المواد الزراعية . فلكي يستفيد الانسان من حركة ارتفاع الاسعار يفرض فيه ان يكون لديه ما يبيعه . فالفلاح الذي له من محصول ارضه وغلال املاكه ما يستطيع معه ان يعيش وان يبيع هو من الندرة بكان .

فليس اكثر ، مع ذلك ، من الفلاحين الملاكين . فكثرتهم قوم وتؤثر . فهم يملكون ٤٠٪ من مساحة الارض الزراعية . فممتلكاتهم عبارة عن قطع من الارض مساحتها بضعة دراهم او قرايط من املاك القرية ، فهي هنا : منزل وسمه حديقة صغيرة او كرم عنب او كرم زيتون

او ارض تزرع جنبلا او حشيشة الدينار ، مما يرد ذكره او بيانه كثيراً في السجلات العقارية او في قوائم توزيع ضريبة الخراج . فيصيب الفرد الواحد من هذه الاملاك قسماً ضئيلاً فلما يسد أود العيش في الاسرة . فالغلال قليلة المحصول . ان ثلث الارض او ما هو اكثر من ذلك بقليل يبقى محولاً (بوراً) ، كما ان البذار يمثل نسبياً ، قسماً كبيراً من محصول الارض يوازي احياناً الخمس او الربع . فاذا ما قطعنا او طرحنا ١٠٪ منه لضريبة العشر وللضريبة السيادية ، فلم يبق منه ما يقوم بأود افراد الاسرة ، وهي عادة كبيرة لتفي بحاجة الارض الى اليد العاملة . وهذه الاسرة الكبيرة التي يعمل معظم أفرادها في الارض تستهلك مقادير كبيرة من الخبز . فما اكبر عدد الاسر التي يمد أفرادها أيديهم مستعطفين ، أيام الشدة وفي مواسم القحط ، وما اكثر عدد الاسر التي يظهر اسمها في سجلات العائلات المستورة التي تعاني الأمرين لضيق ذات يدها ، هذه السجلات التي نظمها الثورة ا ان ردود فعل الريف الكثيرة امام الغلاء ، وامام قحط المواسم الزراعية ، هي من مميزات هذا العصر . فلا عجب ان ترتفع الاصوات منادية بالويل والثبور وعظائم الامور ، ويكثر الهرج والمرج في هذه المجتمعات الريفية وسرعان ما تتضخم صفوف المحتجين والمتظاهرين بن ينضم اليهم من سكان الدساكر في السهل والجبل .

ومع ذلك ، هنالك بعض اعيان القرية يتصرفون بغائض من الغلال ويتجرون به . وليس من عجب قط ان يرتفع عددهم وان تتضخم صفوفهم فيؤلفون من بينهم بورجوازية زراعية . هنالك فئات متنوعة من الفلاحين الملاكين الموزعة املاكهم يعتمد اصحابها نهجاً اقتصادياً في عمليات المقايضات والمبادلات التجارية عرفوا ان يفيدوا جيداً من ارتفاع الاسعار ، ولا سيما فئة ملاكي الكروم الذين ألّفوا من بينهم طبقة كان لها اثرها البعيد في حياة الريف . وقد عاش هؤلاء واولئك ، مع ذلك ، اياماً شداداً وذكريات مريرة ، كما سيمر معنا بعد حين ، في هذه الحقبة الممتدة من ١٧٧٠ - ١٧٨٠ . الا انهم عرفوا على العموم ، ان يفيدوا الى حد بعيد من الظروف المؤاتية .

اما الفئات الاخرى التي تؤلف جبهة الفلاحين الملاكين ، فقد تضرس اصحابها بآسفي هذه الحقبة العسيرة . صحيح ان ما لهم من الارضين اتاح لهم ان يصلحوا من شؤون معاشهم بعض الشيء فتفادوا على انساب واقدار مقسومة ، مغبة غلاء المعيشة بعد ان استحسنت حلقاتها برقاب العباد . الا انهم اضطروا ليؤجروا زلودهم واورقاتهم ليؤمنوا ما يحتاجون اليه من المواد الغذائية . فسكن من ملاك صغير رقيق الحال ، عمل في الاوقات الصعبة ، خادماً او سائق عربية ، او بنّاء او عماراً او حائكاً لقاء النزر النزر من اجر مجبول بمرق الجبين او بدمعة العين ؟ فوضعه المادي ليس بسر لهجه . فقد كبا به الدهر وهوى . فاسعار الحاجيات اغلى بكثير من الاجر الذي يصّر له ، والبطالة في الريف بدلاً من ان تحف وطأتها تزداد شدة وسوءاً . فقد راح فريسة فساغل عاملين بارزين : تكاثر عدد الناس وضآلة غلال الارض وشرح نتائجها . ومن جهة اخرى ، فان تناقص معدل الوفيات بين الاطفال ولا سيما بين اوساط الفلاحين زاد تكاليف

الاسرة وابهظ قدرتها على الانفاق لتأمين اورد الابدي العاطلة او القاصرة عن العمل ، فكان هذا وسبه جديد من وجوه المجتمع المتخبط بالجديد من الازمات والمشاكل الضاغطة . فالتطور الاقتصادي خلال هذا القرن عاد على الفلاح الملاك بأسوأ العواقب بدلاً من ان يعود عليه باليمن والرفاه ، بعد ان اضعف في الاسرة القوة الشرائية كما زاد كثيراً من عدد افرادها .

فما صو ان يكون لعمرى ، في حالة تضخم سعر النقد الذهبي ،
 وضع هذا المتعهد او الملتزم ؟ بالطبع عليه ان يبيع ليتمكن من دفع
 ما يستحق عليه للوجور . نحن هنا امام فئة من الناس حالقها الحظ بعد ان جاء ارتفاع
 الاسعار يسير في ركابها ويحسن لها الرغد فيخدمها اطيب الخدمات . هذا هو بالذات وضع كبار
 المتحمدين الذين جاءت حركة المركزية الجديدة تضاعف من صفوفهم . سيعاود ارباب المال
 ومستثمرو رؤوس الاموال ان يوسعوا من نطاق عمليات الالتزام التي يقومون بها بحيث يلتزم
 الواحد منهم بجباية العشر والرسوم السيادية . فارتفاع الاجور بقي دون ارتفاع الاسعار بمراحل
 وهذا ما وفر عجالات جديدة امام هؤلاء المتحمدين الذين يكثران الاجراء في بعض المواسم
 الخاصة الى جانب ما توفر للاسرة من يد عاملة . اصف الى هذا كله التطور التقني البطيء الذي
 كثيراً ما ساعد على تحسين قيمة املاكهم وغلاها . استطاع هذا الفريق من الناس ان يتدبروا
 امرهم بالتى هي احسن بالرغم من مضاعفة ايجاراتهم . ولكن الى جانب هذه الاطيان الضخمة
 كم من القطيع الصغيرة ؟ كم هو اذ ذاك ، عدد الملتزمين للاطيان المتجزئة الذين سيعاودون بالطبع
 اجتذاب الفلاحين الملاكين اصحاب الاملاك المتباعدة او المشتتة ؟ فقد تأثر هؤلاء جميعاً من
 جراء ارتفاع اسعار الايجارات دون اى مقابل .

اما المربع وهو وضع اكثر انتشاراً وشيوعاً من وضع المتعهد ، فهو في وضع من شأنه
 ان يدخل الرم على الانسان . فالمربع ورب العمل يبدوان ، امام القانون شريكين متضامين .
 فقد اقترح سيسموني في مطلع القرن الطالع ، جعل وضعها شيئاً يمتدنى به . فعلماء الاقتصاد
 والزراعة في القرن الثامن عشر يتفقون رأياً على ان المستثمر « بالنصف » لا يحيا بالفعل الا
 نصف حياة . ففي مقدور اقلية هائلة جداً ان تبسيع ، اذ ان عدم توفر بضاعة صالحة للبيع
 يفسر بالطريقة نفسها التي ألمنا اليها من قبل عندما تكلمنا عن وضع الفلاح الملاك . فالسواد
 الاعظم يعمل ضمن اقتصاد مقفل اي انه يقتصر على الشراء . فسيد الارض يستطيع ، على
 عكس ذلك ، ان يبيع بسهولة لا سيما وفي مقدوره ان يختزن وان يجمع جزءاً من غلال الارض
 التي يملكها .

فهل في وسع المربع ان يحافظ ، بالمقابل ، اقله على موقفه ؟ هل في مقدوره خلال هذا القرن
 بكامله ، ان يقتطع من غلة الارض التي هي باستثماره ، جزءاً سوياً ؟ وبالتالي مقداراً متساوياً
 من الماراد الغذائية ؟ وبهذه الحصة بالنسبة للفرد الواحد ، في حال الاخذ بمثل هذا الافتراض ،

عرضة للنقص او التناقص لان الثورة الديموقراطية التي اخذت بتلاييب المجتمع زادت كثيراً من عدد افراد الاسرة الماطلين عن العمل او العاجزين عنه ، وهي زيادة لم يلبث المربع ان شعر بها ووقع تحت وطأتها ، لاسيما وهو لا ينعم ، على العموم ، بالبعجوحة وبسطة العيش . فالوضع هنا لا يختلف بشيء عن وضع جبهة الفلاحين الملاكين ، وهذه الفئات الشعبية البائسة يؤلف بينها تناقص معدل الوفيات ظاهرة اجتماعية شعر بها على الاخص كل من هم في مثل هذا الوضع فجاء عاملاً اضافياً ساعد على هبوط مستوى العيش في الاسرة .

فاذا ما تعادلت الامور كان لا بد من ريع المربع ان يميل بالتالي الى الهبوط . ولكن هذا التعادل او التساوي لم يكن « في كل شيء » . ففي نظام المربعة المعمول به ، لا يستطيع المربع الذي يستلم دخله عيناً ، اي من محصول الارض ، ان يرفع من مقدار هذا الدخل ، طوال القرن ، الا في نطاق تسمح به نسبة ارتفاع اسعار الفلال والمحاصيل الزراعية ، اي بمعدل يتراوح بين ٥٠ - ٤٥ ٪ اما نظام الالتزام فارفع الاسعار في ظله يبلغ الضعف . فلرب الارض او السيد وسائل كثيرة وذرائع عديدة لتحسين اوضاعه . في مكنته مثلاً ان يخفض من معدل نفقات اعماله الزراعية « بتوحيده » اراضي المربعة ، كما « وحد » مزارعه الخاصة ، وهي طريقة من شأنها ان تجعل عدداً من المستثمرين بلا عمل . باستطاعته كذلك ان ينهج سياسة عكسية وذلك بتصغير مساحة الارض التي يعطيها مربعة وتخفيض نسبة دخله من الارض بصورة تدريجية . ومثل هذا التصرف من شأنه ان يزيد من فعالية عمل المزارع اذ يضطره ان يعتني أكثر فأكثر بزراعة ارضه وان يتقن استثمار ما تحت تصرفه من الاراضي الزراعية بعد ان نقصت مساحتها ، كما يضطره ، من جهة اخرى ، لمضاعفة الاعمال والخدمات . وفي مكنه صاحب الارض ان يرفع معدل الحصة المفروضة على المربع وان يعدل من قيمة الرسوم والعوائد العقارية وان يزيد من ايام السخرة وان يفرض علاوة نقدية على الحصة التي يتقاضاها عيناً ، فيعوضها عدداً ونقداً تحت ستار ريع مربعة او ضريبة استثمار ، كما يجري عادة في عمليات الاستمهاد . فلديه من الوسائل ما يمكنه من الاخذ بهذا كله دون ان يثير اي سبب للمشاحنات بينه وبين الفلاح المربع ، بطريقة شيطانية ، هي طريقة الالتزام العام التي تساعد ، بايسر الطرق واسهلها على ان يساوي بين اسعار الارض المستثمرة مربعة وبين الاراضي المعطاة بالالتزام . وبذلك يحافظ ظاهرياً على الاعراف والتقاليد المعمول بها في الزراعة بين سكان الريف في منطقته . وهكذا يبقى نظام المربعة هو النظام المتبع . فالملتزم العام الذي يلتزم غلال عدد كبير من القطع الزراعية ، يدفع للملاك رسوم استثمار ترتفع سنة بعد سنة يعود فيحصلها اضعافاً من المربع الذي يرتبط به مباشرة . فمن المفيد ان تقرأ بتعمق وتدير هذه الصورة الوصفية المليئة بالعبر المستخرجة من سجلات الضرائب التابع لإيالة «بورج» .

« يجري الملتزمون التزاماتهم بالسعر الذي يحدده اصحاب الاراضي . من مو لمعري ، كبش المحرق في عملية استغلال كهذه ؟ هو بالطبع المزارع او المربع . وبماخذ الملتزم فيشرح للمربع كيف انه ، التزم الارض بسعر

مرتفع جداً وإن عليه أن يستثمر دراهمه بحيث تدر عليه ما يجب من الأرباح ثم ينهي سعيه معه بقوله : هذه هي شروطي . فإن لم تعجبك ، فهناك من هو على استعداد للعمل بها . فيضطر المربع للزول عند الشرط القاسية المفروضة عليه ، فإن يذهب أن رفض ؟ وعليه أن يؤمن ما يقوم بأود عائلته والأرلاد ، هنالك بالطبع متعهدون أو ملتزمون يعترفون صراحة أنهم ملتزمون للعمل على إنقاذ الفلاح وأرضه (مأخوذ من ج . لوفيفر في كتابه : « القضايا الزراعية في عهد حقبة الهول ») .

الأسمال العقاري والمتجهون
فإذا ما أخذنا بأقوال البعض ، فنظام المربعة بالنصف لا يعتم أن يصبح ، على هذا الشكل نظام مربعة بالربع .

فالمربعون والملتزمون كانوا بالطبع على خلاف دائم مع الملاك سيد الأرض ، أي مع طبقة الملاكين ، على العموم ، وهو خلاف زادته حدة واذكت أواره حوادث عدم التوازن المتصلة الحلقات خلال القرن الثامن عشر . فمع الربيع العقاري الذي يتضاعف والاجر المتناقص الذي يدفع للفلاح البائس ، معارضة صارخة . وهذا التحدي ليس بالعقبة الصغرى التي تواجه صغار البورجوازيين من الملتزمين حتى ولا كبارهم الذين يستطيعون بنسبة تبتاين حجماً وقدر ، الصمود في وجهها . ففي نهاية كل إيجار أو التزام يعمد الملاك دورياً ، عن طريق رفع رسم الالتزام ، إلى مصادرة ، كل الربح الإضافي الذي أتاحته له تحقيقه ظروف اقتصادية مؤاتية أو مقدرة الملتزم ونشاطه خلال مدة الالتزام . فالاصطدام « بفئة الملاكين » في الأرياف هي من هذه الأمور التي لا مناص منها ولا حيدة عنها . هذا التصادم مع الرأسمال العقاري المتمثل على أقمه في الطبقتين الناعمتين بالامتيازات العريضة وصاحبتي حصة الأسد في كل استثمار زراعي أو التزام مربعة بالإضافة إلى ما لها من حقوق عينية في الحصيد وجباية الأعشار بوصفها من ذوي الاقطاع امر لا يمكن تفاديه .

وبالإضافة إلى هذه الاعتبارات ، تقيم طبقة الملاكين ضدها فئات الفلاحين الثلاث التي تكلمنا عنها أعلاه . فالرسوم والعوائد الدسمة التي تتقاضاها ، ولا سيما حصتها من الحصيد وجباية العشر ، هذا العشر الذي هو من مقومات النظام الاقطاعي الصميم ، تزهق الملاك والملتزم والمربع . فإذا ما محسوسوا معاً بشعور مشترك فهذا الحقد الذي يحملونه عنيفاً يوجهونه ضد اصحاب الاقطاع وما يمثله من رسوم وعوائد باهظة .

فهم يتحملون ، والحق يقال ، كل مساوئ العهد بما فيه الضغط الذي تمارسه منظمات أقل وطأة . فسجلات الرعويات ليست سوى صرخات داوية في وجه اصحاب السيادة . وهذا النظام نفسه ساء وازداد رداءة خلال هذا القرن ولا سيما في الثلث الأخير منه . فهناك رسوم وفرائض عفا ذكرها وتنوسي ، اسمها عادوا فأحيوها واستأنفوا الأخذ بها بينما ازداد وقر رسوم أخرى لا تزال معلوماتنا عنها ناقصة لليوم ، لا تروي غلة حول مدى هذه الردة السيادية وشدها . إلا أنه ليس من شك قط من حدوث هذه الحركة الرجعية التي تضرست بها كذلك ، على أقدار متفاوتة ، الطبقة البورجوازية في المدن بوصفها من اصحاب العقارات والاملاك .

اما فئة اصحاب الاملاك والمعارات المشتتة او المتباعدة بعضها عن بعض ، والمرابمين الذين كانوا يضطرون احيانا لتأجير سواعدهم وقوام الجسدية تأميناً منهم لوارد إضافية تساعدهم على تأمين اسباب العيش لهم ولذويهم ، فقد أولوا هذه الحركة الرجعية لديهم ، بصورة تلقائية ، شكلاً آخر اشمل واوسع . فقد خضعت غلال الارض ومحصول المواسم لاستيفاء العشر والحصة المفروضة على الحصيد حتى ولو قصر الموسم عن سد حاجة الاسرة من المواد الغذائية ، فتضطر ، والحالة هذه لشراء حاجتها من الاسواق او من العمل المأجور الذي يؤديه رب البيت . وبسبب الهبوط الذي لحق بأجر العامل ، فالمقادير التي تمثل الرسوم السيادية تؤمن عن طريق تأدية كمية اكبر من الشغل والسخرة . فاذا ما قدرنا رسوم العشر وحصة السيد من الحصيد بنسبة ايام العمل الثابتة المفروضة على المرباع تأديتها بالمقابل ، شالت كفة الرسوم وزادت كثيراً . وفي حال افتراض استقرار قيمة الرسوم المتوجبة ، وهو افتراض لا يصح قبوله ، والأخذ به مهما بلغ التفاؤل من الانسان ، فكل دخل او ريع سيادي يقابله دوماً مجهود بشري ابدأ في ارتفاع .

وهذا الهبوط يصيب الاجر في الصميم هو هبوط اشرف الى وجوده من بؤس البروليتارية الريفية قبل وتوقفنا عنده هنيهة ، وقد تضرس العمال به في الريف ، كما تضرس به العمال في المدينة . فهو ينزل بالعامل اليومي في الريف ويلحق دارس الحنطة على البيدر ، وخادم المزرعة وعامل النسيج في منزله يعمل لتلبية توصيات الرأسمالي في المدن ، كما يصيب العامل اليومي في الدسكرة او المزرعة . هنا أيضاً ترتفع قيمة الاجرة على اساس العملة الفضية ، ولكن بصورة اقل بكثير جداً من كلفة الحياة لدى افراد الشعب . وكثيراً ما يدفع قسم من الاجر لقاء العمل في المزارع حيناً لتقديم الغذاء مثلاً للعامل او بعض الحبوب . ولو فرضنا جدلاً ان هذه الرسوم المحببة بقيت على حال واحد لكان هبوط القوة الشرائية للعملة استهلك بكامله . الا انه بسبب بعض الاستثمارات الريفية الضعيفة المردود او الفاشلة وازدياد عدد السكان في البلاد اشتدت البطالة في الريف اكثر منها في المدن التي لم تلبث ان اصبحت قطب جذب للعاطلين عن العمل . ومهما يكن ، فالعامل بالاجرة في الريف يبتاع عادة جانباً من حاجة اسرته للخبز ويخضع للمؤثرات ذاتها التي يخضع لها العامل في المدينة . فهو يشترك ، مثله ، في المظاهرات والفن التي تنشب من وقت الى آخر للمطالبة بالمواد الغذائية . وقد تضطره هذه الانفعالات الطبقيّة للوقوف في وجه متعدي السّفعلّة في الوقت الذي تتجمع فيه اليد العاملة بمن تحتاج اليهم الاستثمارات الكبرى . فهو ينتمي مع ذلك ، الى فئة معينة من الطبقة البروليتارية هي من هذا اللحم الذي لا تجانس بين افراده الذين يتألف سوادهم من اناس نصف بروليتاريين ، من هذا الجنس بالذات الذي اتينا على وصفه اعلاه ، كصغار الملاكين والمزارعين والمرابمين العاملين الى جانب الملتزم . وهذه الفئة من العمال المياومين والخدام العائشين في المزارع والداكر او على الاملاك السيادية ، كثيراً ما يأكل افرادها على مائدة المزارع ، وهم اكثر توزعاً وشتاتاً واكثر تألفاً من فئة العمال في المدن . ولذا نراهم يتحركون ويدورون في مجال التبعية الاقتصادية

والايدولوجية لطبقة خاصة من البورجوازية ظهرت في الريف. وعلى هذا قس ايضا المهني العامل في منزل لبورجوازي في المدن، التي منها يخرج، على انساب متفاوتة الداعية والمبشر. فهؤلاء وأولئك على السواء كثيراً ما يتعاطون عدة حرف ريفية وكلهم يشعرون عميقاً بما بينهم وبين الطبقة المملوكة من فوارق جذرية. وهكذا تتجسد وتتضخم احقاد البورجوازية والبروليتارية في المدن والارياف، ضد الطبقة الاقطاعية العريقة وضد الدولة للحظوة التي توليها اياها.

هذا هو لعمري الشعور العام الذي يسيطر على النفوس ويرتسم على الوجوه والذي يجدر ان تقوم حوله دراسة جغرافية. فالمدن تبدو على الاجال، اكثر تجانساً من الريف حيث العزلة التابعة للملاك العقاري، والتماس الشخصي المحلي الموصول بين النبيل ورجل الدين يقف حاجزاً ويؤلف عائقاً في توجيه هذه الخصومة القائمة.

٣ - أزمة ١٧٨٩ الاقتصادية

هذا «الازدهار» المنسوب للقرن الثامن عشر، انما هو ازدهار
موسم زراعية رديئة طبقي تركيز بنوع خاص في الطبقات العليا للمجتمع البشري
وارتفاع مستمر في الاسعار في فرنسا.

هذا الازدهار الذي طالما تغنوا به، انقطع حبله في مستهل عهد لويس السادس عشر، مع العلم انه لم يكن يوماً مطرداً ولا متصلاً. وكانت تقوم، اذ ذاك، كما تقوم اليوم، أزمات اقتصادية تزيد الحروب الناشئة من حدتها وشوكتها، حروب رافقها حصار بحري اوقف كل نشاط تجاري وعطل كل حركة تجارية في البلاد. غير ان ايام الشدة والضيق لم تكن لتطول، اذ كان يعقبها ايام سعة وهناء يتناسى فيها الناس بسرعة ايام المحنة التي تضرسوا بها. ولم يكن تم للاقتصاد الفرنسي بعد، التخلص من عقابيل آخر أزمة نزلت بالبلاد عام ١٧٧٠ التي تكونت في الصميم من عدد من الازمات المحلية او الاقليمية تجتمعت حول هذه السنة بالذات. واخذت البلاد، عام ١٧٧٦ - ١٧٧٨، تشمر بوطاة تدهور عام استحكمت حلقاته ابان حرب الاستقلال الاميركي، وبقي الناس يتألمون من شوكة هذه الازمة اللاذعة حتى بعد ان وضعت هذه الحرب اوزارها. وصناعة النسيج التي عانت من نقص فادح في القطن من جراء الحصار البحري الذي فرضته الاساطيل البريطانية، اخذت تعاني مريراً وتشكو من جديد من نقص فاضح في الاصواف وهو نقص يجب رده لفقدان المراعي والعلف، عام ١٧٨٥. وجاءت المنافسة الدولية الحادة التي نشطت عبر المانش، في انكلترا تزيد الطين بلة والوضع سوءاً في اعقاب توقيع المعاهدة التجارية عام ١٧٨٦. ومن جهة ثانية، فالارباح التي كانت تدرها الكرمة على البلاد - هذا النوع من الدخل الزراعي الشعبي - اخذت تتقهقر وتدهور لتنتهار تماماً منذ عام ١٧٧٧، في فترة الاثني عشرة سنة التالية. هنالك لعمري قطاعات وجوانب في الحركة التجارية بقيت بمنزل عن هذا الوضع العام. من ذلك مثلاً الاتجار بمحاصيل المستعمرات التي لم تكن اليد العاملة الفرنسية

لتهتم بها او تكثر لها . وعلى مثل هذا قس ايضاً قطاع البناء . فنحن هنا لسنا امام ازمة عامة حادة ، من هذه الازمات الدورية التي تنقض على البلاد ، بل بالاحرى امام حركة جود اوركود مستمرة . فاذا بأزمة ١٧٨٩ الدورية تطل فجأة في وقت كانت فيه الاقتصاد الفرنسي يشكو الأمرين .

وهذه الازمة التي أنشبت اظافرها الحادة اخيراً في البلاد، حلت في ثناياها كل شوائب العهد . فقد ابتدأت ازمة نقص في المحاصيل الزراعية في المرحلة الاولى ، ثم لم تلبث ان تحولت سريعاً الى ازمة نقص قادح في الاستهلاك الصناعي جارية وراءها مصاعب ومشكلات اقتصادية هزت اركان البلاد من اساساتها .

جرفت سنة ١٧٨٨ العاصفة في ما جرته من غوائل البرد والصقيع والعواصف الهوجاء التي هبت على البلاد اذ ذاك ، جانباً كبيراً من المواسم الزراعية ، في وقت لم يبق في البلاد سوى قسم ضئيل من المواد الغذائية المخترنة . ان اياحة تصدير الحبوب للخارج واعطاء ترخيص بذلك لكالون وبرين ، في العام الفائت تركت اثرها السيئ ونتائجها الوخيمة على البلاد . فقد راح العهد يشجع ، اكثر من اي وقت مضى ، تصدير الحبوب بحيث فاق ما صدر منها ، عام ١٧٨٧ المعدل المعروف ، اربعة اضعاف ، كما برزت حركة التصدير هذه ، عام ١٧٨٨ ، المعدل الاخير ، سبعة اضعاف ، بالرغم من القيود التي فرضها الوزير نكير . الا ان ضعف وسائل النقل ، لم تسمح ، ولا شك الا باخراج كميات ضعيفة على الاجمال . فقد كان في مثل هذا التصرف الطائش ما اقلق الرأي العام واهاجه ، لا سيما وقد دلت الدلائل على ان المواسم الزراعية ، لعام ١٧٨٩ ، ستكون سيئة في جميع المناطق ، وقد جاء الخبر ، في نهاية الأمر ، تؤيد الخبر . فارتفعت اسعار المواد الغذائية بصورة جنونية اذ ارتفع سعر إردب القمح من ٢٢١ نحاسة و ١٠ صولد عام ١٧٨٧ الى ٣٤١ و ١٢ ، عام ١٧٨٩ . وهكذا بلغت موجة ارتفاع الاسعار ٥٠ ٪ وهو المعدل السنوي للاسعار . وبالطبع بلغ ارتفاع الاسعار أوجه في الاشهر الحتمية لسنة ١٧٨٩ و ١٧٩٠ . والمادة الغذائية الاساسية الشعبية زاد ثمنها مائة بالمائة . وهذا الغلاء جر وراءه ، بالطبع ، اسعار الخضروات والنبيد التي جاءت مواسمها ، هي الاخرى ، رديئة عاطلة .

وبدلاً من ان ترتفع الاجور بالنسبة ذاتها انخفضت بالاحرى في الريف عن المعدل المعروف في المدينة . والعمل قل الطلب عليه . وراحت جماهير من صغار المستثمرين تراحم العمال المياومين على اعمالهم بعد ان قلت لديهم اسباب الرزق . كذلك نزل الضيق بالفئة الاخرى من المستثمرين ، اذ لم يبق تحت تصرفهم سوى قسم ضئيل من البضائع او المواد القابلة للتجارة ، ينحسرون على الكميات اكثر مما يربحون على الاسعار . فتكاليف الخبز التي يبلغ معدلها عادة نصف تكاليف اسرة العامل اخذت تمتص ثلاثة ارباع موازنة الاسرة ، هذا اذا ما افترضنا ،

في الاساس ، حصوله على اجبر ثابت . وهكذا تقلصت فجأة القوة الشرائية في الارياض ، كما
تدنت قدرة المستهلكين في المدن .

وهذه الضائقة تنزل بالانتاج الزراعي في البلاد ، اقترنت كما هي
القاعدة عامة في النظام الاقتصادي الذي ساد عليه العهد القديم ،
بأزمة حادة اصاب انتاج الصناعي . فقد كانت سوق الحبوب ،
البوصلة او ميزان الطقس بالنسبة للمصانع في البلاد ، كما وصفها ادارة تفتيش الصناعة . سبق
لنا وتكلمنا ملياً عن ارتفاع اسعار المواد الأولية وعن المعاهدة التجارية المعقودة مع انكلترا .
فقد استحكمت حلقات الازمة خلال السنة بعد ان تأزم الوضع الزراعي في البلاد ، فأصبحت
كل المراكز الصناعية الكبرى بالجود ، من نورمنديا الى شمبانيا ، ومن مصانع الجوخ في الشمال
الى « المصنع الكبير » في مدينة ليون . فهبط الانتاج الى اكثر من النصف كما هبط بالتالي معدل
العمل واجور اليد العاملة . وامتدت الازمة الى المرافق الاخرى الاساسية والكيمائية على السواء
كصناعة البناء والمفروشات ، وانقطع النشاط في حي سان انطوان . ففي هذا المحيط العمالي
الماطل عن العمل والذي اصيب في الصميم ، من جهة الاجور او من جهة الاسعار ، انطلقت الثورة
او بالاحرى الفتنة المعروفة بفتنة « ريفييون » ، فلم يعد لاي قطاع كان ان يسجل اي ربح او
كسب . فانهالت الافلاسات تترى وتكاثرت حوادث الاعلان عنها ، فقد تكدست الديون
على الملجأ التجاري الكبير في مدينة روان الى خمسة اضعاف رأس ماله ، مع العلم ان هذا الملجأ
هو اكبر البيوتات التجارية في البلاد .

والهزات السياسية التي توالى تباعاً منذ عام ١٧٨٩ زادت الامور تعقيداً والوضع حرجاً .
فالضغط على سوق الحبوب والازمة العامة استطلاحت سنة ١٧٩٠ المعروفة بطبيب مواسمها .
واخذت تلوح في الافق الاعراض العامة الملازمة لكل تصفية نهائية : فانهارت اسعار
الحبوب وتراكمت بين ايدي الفلاحين المحاصيل القابلة للتبادل التجاري ، واستعادت الاوساط
الريفية وأوساط المدينة القدرة على الشراء ، والصناعة استعادت اسواقها في الداخل ، والشعور
ببؤار التضخم في النقد جعل الناس يستبشرون باقتراب الانفراج والانفلات من القيود
الضاغطة ، بحيث تنعم البلاد بشيء من التوازن الدقيق يستمر حتى نهاية عهد الجمعية التأسيسية .
وانتقال اللوات البطيء الذي حدث في عهد لويس الخامس عشر زاد في احقاد الطبقات
واثار ضغائنهما . فالمشكلات الاقتصادية التي قامت في عهد لويس السادس عشر ولا سيما ازمة
١٧٨٩ الحادة منها ، كانت بمثابة صب الزيت على النار العاقبة فأثارت هذه الاحقاد وجاشت
في الصدور تشابك بعنف ، واطلقت في البلاد صراعاً طبقياً مريراً ، فلم تلبث الازمة الاقتصادية
ان استعالت ازمة سياسية واجتماعية .

النتائج السياسية والاجتماعية
 فهل من عجب ، والحالة هذه ، ان يذهب الناس كل مذهب
 في اتهم الحكومة ويرموها بكل فرية ويحملونها مسؤولية مباشرة
 عن هذه المشكلات التي يتخبط فيها رؤوسا الاعمال والعمال ، والمنتجون والمستهلكون ويتنصرس
 بها الجميع ، يرون فيها ازمة بشرية اكثر منها اقتصادية ؟ فهم يجهلون كل شيء عن مقوماتها الروحية
 والفكرية . والتفتيش في المصانع والمعامل يتحرى لدى ارباب العمل ويتلمس معرفة الاسباب
 الدقية التي ادت بالاجتماع الى مثل هذا التفكك والانهيار . فجعل بعضهم النظام الاداري
 المسؤول الاول عن هذه الكوارث كما نزل آخرون باللائمة على الشركة الهندية التي تحتفظ ،
 وهي الفرنسية ، بمستودعاتها وعنابرها ، في كل من لندن وامستردام ، بدلا من مدينة لوريان .
 ورأى آخرون في سماح فرنسا للولايات المتحدة الاميركية تمويل المستعمرات الفرنسية مسؤولا
 بعض الشيء عن هذا الوضع المتردي ، وعزا بعضهم هذه المساوئ للقرار الملكي الذي حرّم
 على العسكريين ارتداء جوارب الحرير ، كما عزا فريق آخر الى غلاء سعر الاصواف . وجعل
 السواد الاعظم علة هذا البلاء المعاهدة التجارية التي ابرمت مؤخراً مع انكلترا . وقد كان هذا
 رأي المفتش العام للمالية بالذات . فليس من اهمية بالطبع ان تكون هذه التهم العديدة مجتمعة ،
 اسباباً صحيحة ، المهم هنا هو هذه الحملة الفكرية للرأي العام في البلاد . ان غالبية الناس
 رأت ان المسؤول الاول والاكبر عن هذا الوضع الاقتصادي المتأزم هو الوزارة والهيئات
 العامة في البلاد .

أما الطبقات الشعبية فقد رأت الامور بشكل ايسر . فهي تنهم بالدرجة الاولى الاجهزة
 التي ساعدت على نشر البطالة في الصناعة . فالازمة تتمثل في كليها على السواء ، ان في المدن أو
 في الريف ، فتبدو تارة في ندرة المواد الغذائية ، وطوراً في هذا الارتفاع الهائل لتكاليف الحياة
 الذي اقلق الخواطر واثارها . فقد رأوا في الامر فرصة سانحة لاتهام النظام القائم وجعله مسؤولا
 عن مساوئ السياسة الزراعية في البلاد . فأخذوا يتساءلون مثلاً لماذا راحت الحكومة تشجع
 اقامة المروج الخضراء دون زراعة الحبوب ؟ كما تتساءل عن الاسباب التي تركت الدولة معها
 الحبل على الغارب لزراعة الكرمة دون العناية بالفلاحة والزراعة ، وقد جهلوا ان الزراعة لا
 يمكن ان تعيش وان تزدهر في ظل نظام ضرائبي ثقيل الوطأة . كل هذه انشكاوى والتذمرات
 تملأت قديمة قدم الانسان فراحت الازمة تعيدها من قرار الذاكرة الانسانية للخواطر ، محاولة
 تنفيذها في النفوس وتزكيتها امام الناس .

كل هذه التبريرات تتعلق بالمسؤوليات البعيدة . اما القريبة أو المباشرة منها ، فلا تقل عنها
 وضوحاً . وراحت الاسئلة ترسم على الشفاه وترقص امام الاعين . لماذا سمحوا باخراج هذه
 المقادير الهائلة من الحبوب خارج البلاد ؟ لماذا لم يضمنوا حداً لحركة التصدير هذه ؟ فقد اتخذ الرأي
 العام من الجماعة وفقدان المواد الغذائية من الاسواق ذريعة للصحاج العنيف . فمان أحد يمتد بصلاح
 هذا التعليل حتى ولا ارثور يونغ . فالكامل يرى ان اصحاب المصالح المعرضة بالغوا في هذه التهم

عن سابق قصد وتصميم . فحكاية المضاربات المالية في البورصة هي على كل فم ولسان ، هذه المضاربات التي غضت السلطات المسؤولة الطرف عنها ان لم تكن سمحت بها واجازتها . ألم ترفض هذه السلطات التدخل في الاسواق لتجعل الاسعار عند حد معقول مقبول ؟ فلم تسمح بتطبيق العلاج الشعبي الفعال وهو فرض العقوبات الرادعة على المخالفين . وهكذا أخذ موظفو البلديات والوكلاء الاداريون والمفتشون الماليون يفقدون من اعتبارهم بعد ان استهدفوا مراراً لانفجار غضب الشعب وفورانه . ومن جهة أخرى فليساكن الارياف وجهة نظر خاصة في هذه الازمة الزراعية . فالزارعون أنفسهم الذين اعتادوا ان يحتفظوا ببعض محاصيلهم الزراعية برسم البيع ، رأوا مواسمهم تبور بعد ان امسكت الارض رفاها ورفضها فلم تطلع الا بالزر النزير . فتوفي البذار اللازم وتأمين ما يلزم من المواد الغذائية للأسرة يستهلك معظم الموسم ويخلف وراءه على أي حال ضغطة قويا ووقراً ثقيلاً تزج تحته مواسم السنة الشحيحة . والحال ، فالخقوق السيادية المدنية وفريضة العشر نفسها لا يقومان على المحصول الصافي بل على المحصول الاجالي او العرفي . فمن لم تؤمن مواسم الزراعة اسباب معيشته ، والذي تبدلت منه الحال من نافع الى شار ، عليه ان يؤدي كلمة غير منقوصة ، الفرائض والرسوم المقررة وفقاً لحجم الغلة وطاقة المحصول ، عليه ان يتنازع بأي ثمن ، ما فيه أود اسرته وما فيه وفاء عوائد النيل ورجل الاكليروس .

وهكذا فالازمة الاقتصادية التي انشبت اظاقرها الحادة ، عام ١٧٨٩ ، والتي تشاقلت وطأتها الخائفة على المدن والارياف ، وأناخت بكلكلها المزرع على التجار والمزارعين ، وعلى جماهير الشعب واصحاب المهن والصنائع ، واصحاب الاجور الصغيرة ، صهرت في بوتقة واحدة كل المتذمرين الناعين ، وأخرجتهم جميعاً فأخرجتهم . فقد تركت اثرها العميق على الخصومات الطبقة المتراكمة ضغائناتها في الصدور على مر الزمن ، وزادت في النفوس الملتاعة مرارة الاحقاد . فبعد ان كيفت نفسها مع الذهنيات الاجتماعية المتأتمية عن النظم القديمة ، هذه الذهنيات التي ولدتها الخصومات ، فلن تلبث أن أصبحت قوة هادرة وعابلاً جديداً من عوامل التهديم السياسي .

واستمرت الازمة مستحكمة بالبلاد ، مستبدة بالعباد حتى منتصف عام ١٧٩٠ ، الى درجة انها ليس فقط لم تخمد جذورها مع طلوع الحوادث الثورية الاولى ، بل أبقت الجماهير طويلاً تحت وطأتها الثقيلة ، وكابوسها المزرع .

وهكذا بدت البورجوازية والبروليتارية بمثابة المحرك الاول للثورة والنافع الاكبر في بوقها . فالدور الموجه يعود للطبقة الاولى دون ان تؤلف مع ذلك وحدة مستقلة ، اذ ان عدداً كبيراً من افرادها ما زال تحت التأثير الفكري للطبقات الممتازة الاخرى واحجموا عن ولوج الطريق المنفتح امامهم . فاهدافها التي قل التحسس بها ، والحوادث الاولى التي وقمت والتي ساعدت كثيراً على توضيح معالم الطريق ، كانت على طرفي نقيض مع مبادئ النظام القائم . وأي شأن

أو كبير أمر ، من الوجهة النظرية ، ان تتجه انظار ذوي الطبقات الممتازة الى إعطاء بعض الحريات الفردية أو العامة ، أو يرضون بالتنازل عن الاعفاءات المالية ، التي ينعمون بها ؟ فسنداهم ، خلال الجمعية التأسيسية وقد ضاقت عليهم الأنفاس ونبذوا جانباً . ولكن هذه البورجوازية تتطلع من جهتها وبكل نوازعها المختلفة ، نحو تحقيق السيادة العليا وتشرب بانظارها الى مشاركة الملك بها . فهي تتمسك بعناد ، بقانون العدد أو الاكثرية الذي يفضي بنهاية الامر الى انتصارها وتأمين فوزها . فهي ، قبل كل شيء وفوق كل شيء ، تطالب بالمساواة المدنية . فللحرية والسيادة قيمتها الخاصة ولا شك . فيها تساعدان على تحقيق المساواة وتأمين استمرارها في المجتمع . اما المشكلة الحقيقية فهي شق الطريق امام مجتمع جديد ، مجتمع بورجوازي لا وجود للطبقات فيه ولا يقوم لها فيه نظام . فالاهداف ثورية في الصميم بينا الوسائل المسعفة لم تصل بعد الى هذا الحد . ان افراد النظام الجديد يطلبون من النظام القديم ان يضحى بنفسه فيقوم من ذاته أو ان يقوم هو نفسه باصلاح ذاته بصورة حبية .

كان من شأن منهاج على مثل هذا النحو ان يثير حماسة الطبقات الشعبية التي كان لها هي الاخرى مطالبها الخاصة ، هذه المطالب التي جرى التعبير عنها بصراحة ووضوح في هذه العرائض والالتماسات الراعية والتي ابدتها الانتفاضات الشعبية التحررية مطالبة بالغاء النظام الاقطاعي والغاء الرسوم والعوائد السيادية ومكافحة الغلاء واسبابه عن طريق الغاء الضرائب والرسوم والتعريفات على المواد الاستهلاكية ، وفرض المراقبة على سوق الحنطة ، وحماية حقوق تملك الفلاحين من تعديات كبار الاقطاعيين العقاريين . ولم يكن بين هذه المطالب ما يهدد بشيء مطالب البورجوازية ، فليس بغريب قط ان يتفق الطرفان على العديد من هذه المطالب الاساسية المشتركة .

ثانياً — عدة الثورة وادواتها

لم تدع الثورة هذه القوى الطبيعية الهائلة المتوفرة لديها على حالتها البدائية . فمنذ ان ارتفع كل وهم وسقطت الفشاوة عن الابصار باستحالة تحقيق أي اصلاح بصورة سلمية ، وابتدأت المعركة ، راحت الحركة الثورية توحد من هذه القوى وتجميعها حزمة واحدة . فقامت بين ١٧٨٩-١٧٩١ ، في جميع أنحاء البلاد ، مجالس بورجوازية ، دخلتها على انساب مختلفة عناصر من العهد الماضي ، تتأثر اقدار متفاوتة بضغط الطبقات الشعبية ممثلة بهذا العدد الكبير من اللجان ومجالس البلديات والجمعيات والنوادي المتباينة الاشكال والمظاهر والالوان . فيقوم من بينها ما يشدد من اواصرها . فهذه الجمعيات والصحافة والحرس الوطني والاحلاف التي قامت اذ ذاك ونشطت للعمل ، برزت للعيان اجيزة دعائية وإعلان تدعو للثورة وتعمل لها ، مها تباينت منها النوازع واختلفت بينها الاغراض وتولنت معها وجهات نظر الواحدة عن الاخرى .

جاء قيام هذه الوحدات وتشكيل هذه الهيئات التي تألفت منها عدة
الثورة وادواتها الفاعلة ، في وقت واحد واستمرت تظهر وتعمل بلا
انقطاع . فاللجان والبلديات التي كثيراً ما نزعت بأشكال مختلفة لإنشاء

المجالس البورجوازية
والنوادي والصحافة

تحالف عام من بينها ، أخذت منذ عام ١٧٨٩ بممارسة السلطة المحلية . وراح عدد كبير من
البلديات جرى انتخابها عام ١٧٩٠ وفقاً لأحكام الدستور تتجاوز بدافع من المنظمات الشعبية القائمة
وضغطها ، الصلاحيات المخولة لها بموجب القانون . وكانت هذه المنظمات والجمعيات نشأت في المدن
الكبرى في الوقت الذي أطلت فيه على الحياة ، في تموز (يوليو) من السنة نفسها ، السلطة الجديدة ،
للبلديات . ولم يلبث نفوذ هذه الهيئات والمنظمات ان اشتد بسرعة واقامت ممثلين لها في
أطراف البلاد على اقدار مختلفة من الحول والطول ، حسب وجودها في الاحياء والمدن والساكن
مع ما بينها من تباين في النظريات السياسية . فالجمعية الثورية وحدها ، والحق يقال ، تمت
وازدهرت ولعبت في المجال الثوري دورها الحامض . فقد كان النادي الرئيسي الذي انشأته يؤمن
الاتصالات بين النوادي الاخرى ويذيع على الملأ ، القرارات وكلمة السر والشعارات بين
الاعضاء ، كما راح ينظم عرائض مشتركة ويعلن للعموم عن قراراته ويعلقها في الساحات العامة
ليتمكن الجميع من قراءتها والاطلاع عليها ، ويتدخل في حياة البلاد الادارية ويدعو للمثول
امامه موظفي الادارة العامة ، ويأخذ تحت حمايته الوطنيين الأحرار ، ويقف بعد الاضطرابات
والهزات التي يشهرونها او يدعون اليها ، في وجه ملاحقتهم من قبل القانون ، ويشهر بالرجعيين
المنافين للثورة ، ويراقب جلسات المحاكم عن طريق ممثلين له يحضرون جلسات القضاء ويطلب
بان تخصص لهم مراكز خاصة على مقربة من قوس المحكمة ، ويمارض في تنفيذ بعض الاجراءات
والتدابير التي اتخذتها السلطات ضد الثورة ورجالها ، ويعمد الى افاس من قبله بمهات خاصة ،
ويحضر بكامل اعضائه الاحتفالات الرسمية . وكان في مقدور افراد الجيش من اي رتبة وصف
كلوا ، ان يحضروا الجلسات التي يعقدها هذا النادي ، كما أقام علاقات من المكاتبات والرسائل مع
ادارة الجيش وقيادته ، وتدخل حتى في صميم شؤون النظام . واخذ النادي يوجه لمن يستحق ،
اللوم او الثناء ، كما انه أمّن الاتصالات مع كل الملاكات والأطر الجديدة ، وحرص على مراقبة
التيارات الفكرية والحياة السياسية في البلاد . ولعل ما هو احسن من ذلك كله انه اخذ يعمل
على توجيه هذه السياسة ويسمى لتقليب وجهة نظره في الامور المعروضة على بساط البحث .
هذا هو بعينه الدور الذي قام به النادي البريتاني القديم الذي رأى النور اثر الشجار الذي نشب
بين ممثلي الطبقات الثلاث ، وتأثيره العميق عام ١٧٩٠ ، على نوادي اليقويين التي بلغ عددها
في البلاد ١٥٢ نادياً . وكانت طبيعة هذه النوادي واهدافها تختلف طبعاً باختلاف المكاتب
والزمان . فالنادي هو ، على الأجمال « فرع » محلي لفرع الحزب الثوري في المنطقة ، وهو
السلطة العامة شبه الرسمية . وكثيراً ما احتدم ، بهذه الصفة ، الخلاف بينه وبين السلطات القانونية ،
والمجلس الوطني نفسه الذي كثيراً ما اتخذ ضده احكاماً واجراءات بقيت غير نافذة المفعول ،
فبعد ان تحدت النخبة الثورية الادارة الملكية القديمة واعتكفت في النادي ، راحت تتعسدى

الهيئات الجديدة نفسها وتدخل معها في عراقك مرير . ومها يكن فقد اخذت هذه النخبة على نفسها توجيه الرأي العام وراحت تستقل الى اقصى حد ، الوضع السياسي والاجتماعي المتأزم .
وسائل الاعلام والاعلان من جرائد واعلانات وكراريس وبطاقات ، لعبت من جهتها دوراً مائلاً للدور الذي لعبه النادي . فبعد ان اطلقت حرية النشر والكتابة في مايو - يونيو (ايار - حزيران) ١٧٨٩ ، اصبح من الميسور استعمالها ، مبدئياً ، كالنادي نفسه للعمل في خدمة الارستوقراطية او الحركة الوطنية . فالارستوقراطية التي عدت في صفوفها كتاباً ومفكرين يحسنون امتشاق القلم ، احسنت الدفاع عن نفسها فجالت وصالت في هذا الميدان . ولكن الصحافة الثورية انطلقت بكثرة واخذت بعد الرابع عشر من تموز (يوليو) بالازدهار والتألق .
والصحافة المتطرفة امثال : « صديق الشعب » الذي انشأه مرات في ايلول (سبتمبر) ١٧٨٩ ، والذي اخذ على نفسه التشهير بالرجعيين كما اخذ يدعو الى العصيان المدني ومقاومة قوانين البلاد ، لقي من الرواج والانتشار ما يذهل ويخجل العقل . فقد زرع الرعب وسم الخوف في قلوب الارستوقراطيين والمعتدلين في موقفهم . وقد ساعد هذا الشكل الجديد من الادب السياسي ، طوعاً واختياراً ، او غصباً وكرهاً على رواج النداءات والشعارات الثورية الجديدة التي ساعدت على انتشارها وسريانها اما باقتباسها واما بالدعوة لها . فقد انسابت وتغلغلت كالنوادي ، في الولاية وبين وحدات الجيش .

وهذا الجيش عملت الحوادث الثورية تبعاً على تفكيكه وانهائه .
الجيش والحرس الوطني فرؤساء تشكيلاته معظمهم من النبلاء ، فالتفوا بذلك ضمن اطراف طبقة خاصة . اما الافراد الذين تتألف منهم وحدات هذا الجيش ، فقد تشبعوا بمشاعر الشعب واحاسيسه . فقد كان قسم من وحداته لا يقيم في العشلاقات بل يشاطر اصحاب المنازل الخاصة السكنى معهم ، اي ينزل ضيفاً على البورجوازي . فمنذ يونيو - يوليو (حزيران - تموز) ١٧٨٩ ، سيطر على هذه الوحدات جو عابق بالروح الثوري والايديولوجيا الثورية ، وذلك من جراء ما يقاسي افرادها من غلاء اسباب المعيشة ، فاخذوا يرمون ، كثيرهم من الناس ، المحتكرين بكل تهمة وفرية وبالتواطؤ مع كبار المسؤولين . وهكذا ، اشتد موقف المعارضة بعد النجاح الذي سجلته الجماهير الشعبية . وقد أخذ افراد الجيش وصفار الضباط بالافكار الثورية والشعارات التحررية المدوية كما وقعوا تحت اغراء وجاذبية هذه المساواة المدنية التي رأوا من خلالها الف احتمال للترقي والتطور . والضباط النبلاء اصبحوا اكثر فاكثر مظنة وموضع ارتياب كالطبقة نفسها التي ينتمون اليها ويؤلفون معها كتلة واحدة . ويحرص الضباط الذين يتغلون عن رتبهم ومراكزهم في الجيش على تهشيم العصاميين من زملائهم وقتلهم ادبياً فوقعت بين صفوفهم وتكررت حوادث العصيان والتمرد . وقام في وجه جيش العهد البائد جيش جديد حديث كان عماد الثورة وركيزتها الاولى تمثل ، قبل كل شيء ، في المليشيا البورجوازية ، ولم يلبث هذا الجيش ان اصبح الحرس الوطني الذي ضم بين صفوفه نحواً من ثلاثة ملايين . وانشأ الحرس

الوطني له على شاكلة المدن والنوادي ، شبكة من الاتصالات بين مناطق البلاد المختلفة . وقد جاء تشكيل هذا الجيش يتباين نزعة سياسية وطابعاً اجتماعياً بحسب منشأ افراده وتشكيل وحداته . فالعناصر « المنشطة » منه تسيطر على مختلف المراكز وتلعب دوراً بارزاً ، اكبر مما يسمح به عدده نسبياً ، ولا سيما في الاحياء الشعبية في المدن الكبرى والارياف . ومها يكن ، يؤلف الحرس الوطني ، اي الثورة المسلحة ، ضماناً للعهد الجديد تجاه اي حركة رجعية هجومية يقوم بها العهد القديم ، وضد الحركات والانتفاضات التي يسببها فراغ صبر الطبقات السفلى . وقد اتفق له احياناً ان يترك الامور تجري في اعنتها عندما تكون العناصر الثورية الجديدة هي التي تهاجم وتقوم بكفاحها ضد السلطة السيادية كما تجلى ذلك ، منذ عام ١٧٩٠ ، اذ ان اكثر من ٤٠ الف بلدية ريفية كانت على اتصال مباشر بالفلاحين تستجدهم وفقاً للحالات الطارئة ، دعماً منها للحركات الثورية او عندما تريد ان تتجاهل الحوادث وتشيح عنها بنظرها .

فالحرس الوطني لن يتصرف ابداً منفرداً او يعمل لوحده ، حتى ولا جماهيرياً ، على اساس هذا الاعتبار . فالعناصر التي تشارك منه في الاضطرابات والقلقل الشعبية لا تؤلف في الغالب سوى تمة عدد ، لها شأنها وخطرها نسبياً بحيث يكون اثره حاسماً بعض الاحيان . ولكن هي الجماهير الشعبية التي تسيطر على الموقف العام بشعاراتها العفوية ، ترددها الاندية والجرائد اليومية ، هذه الشعارات التي تأتلف كلياً وتعبر بصورة غريبة ، عن الوضع الاجتماعي وحقيقة تركيبه الشاذ . فقد عرفت ان تزاوج بعفوية مدهشة بين مطلب « اقتصادي » خاص ، له دوي عميق لدى الاوساط الشعبية وبين شعار سياسي يسري سريان النار في الهشيم بين الطبقات البورجوازية ، وكلاهما شعارات برّاقة ، خلاصة ، مغرية كجعل الخبز ارخص سعراً وفي تناول الجميع ، والتلويح بحقوق الانسان الاساسية . ولم تلبث هذه الاضطرابات الشعبية ان استعالت بالفعل الى ثورة عارمة لا الى فتنة محلية ، بينما كونت الشعارات السياسية من جهتها قوة اجتماعية لا مثيل لها ولا نظير .

هذه الجماهير اليقظة ، التي تجيش بالحركة ، وهذا التركيب الناجم عن مزيج من البورجوازية الصغرى وطبقات الشعب السفلى والذي اولى الاحداث تأثيره الموصول ، لا تتمثل ، بالطبع ، بسوى اقلية ضئيلة . فهذه الاقلية الديناميكية المصطفاة هي التي تتحرك وتلشظ للعمل ، كما ان هذه الاقلية هي التي تقتفي بعين يقظة سير الامور وما تترك بعدها من اثر وتؤيد بصراحة . فاذا كان المطلب قضية تصويت إداري أو اقتراح على أمر سياسي بلخ ، عدد الممتنعين عن التصويت عادة الثلثين من لهم حق الاقتراح ، أو الثلاثة ارباع أو اربعة اخماسهم . اما نسبة الذين يقترعون بالفعل فأقل بالطبع ، من ذلك . وقد يحتجون باطلا بعد ذلك على ما كان لطريقة الاقتراح اذ ذاك ، من صفة تمداية . وسرى بعد حين ان عدد المواطنين الذين لهم حق الاقتراح يفوق كثيراً عدد الذين يتمتعون بهذا الحق ، فجمهور المقترعين لا يمتدّ به في القضايا السياسية . وعلى هذا فس ايضاً عدد الممتنعين عن الاقتراح . وهذا لا يعني قط ان هؤلاء واولئك لا يبالون من قريب

او بعيد او بقليل او بكثير، بالاحداث الجارية. فنفسهم تجيش بالمشاعر الفياضة نحو الثورة، ولا سيما بانجازاتها في المجال الاجتماعي. الا انهم قلما تهتز نفوسهم للقضايا السياسية العامة. فالقلة التي تتولى الحركة الثورية وتوجهها تنعم لذا، بحرية اكبر. فلا شيء يعمق نشاطها او يحد من الجرأة لمواجهة الوضع الجديد الذي طلع على البلاد، كالتلهي بالسوابق الماضية واحتضان الافكار والنظريات القديمة الرثة. وهذه الاقلية تكون قوة في المدن حيث تعتمد على عناصر ووحدات كثيرة يمكن تجنيدها والاعتماد عليها بسرعة، وهي عناصر يقيمها ويقعدها تمجيد الأمة، والتفني بالوطن الجديد في مثل عبادة تتأجج بها القلوب والنفوس في طقوس ومراسم مكرسة وتقاليد محترمة بعد ان دفعت على هياكلها قديسيها وأوليائها. فاذا ما سارت الجماهير عن بعد، فالطليعة تتقدمها كتلة متراسة

ثالثاً — انتصار الثورة

هذا الضغط الذي مارسه هذه العناصر والقوى المجتمعة التي استعرضنا أثرها أدّى في بضعة اشهر الى انهيار النظام السياسي القائم ودكه من الاساس . .

ولعل اول الانتصارات الكبرى التي سجلتها هو اقتصار حزيران، أي الانتصار الذي حقق وكرس الاقتراع الفردي، هذا الاقتراع الذي اولى الطبقة العامة وتمثيلها المضاعف، القوة الكبرى في المجلس الوطني بعد ان تحول الى جمعية وطنية عليا. فانهار بذلك النظام القديم وهوى الى الحضيض برمته .

تحقق هذا الانتصار الباهر في التغلب على الارستوقراطية وعلى الملك .
انتصار الشعب في المجلس
فأوهام المصالحة الوطنية التي ساورت النفوس يوماً والتعلل بثورة سلبية كما حلت بذلك الطبقة البورجوازية، خبيثها الواقع فأصيبت بنكسة مريرة خلال هذه المعركة التي استمرت سبعة اسابيع. فقامت طبقة النبلاء بحركة رجعية بدت فيها العناصر المتحررة على حقيقة امرها، كما هي بالفعل أقلية ضئيلة مستضعفة، اذ ان اربعة اخماس ممثلي هذه الطبقة بقوا صامدين الى جانب الملك. وعلى هذا قس ايضا مصف الاكليروس العالي. فطبقة الاكليروس هي اشد انقساماً وتفتتاً. فالأقلية والاكثريّة بينهما تتعادلان تأثراً تقريباً، بالتيارات التقدمية والقومية الكبرى، هذه التيارات التي لم تكن الا لتترك اثرها البعيد على هذا الوسط الكاثوليكي الاول الذي شكّل النصف الشعبي في هذه الطبقة. فالطبقة الثالثة او الطبقة العامة قادت المعارضة بمهارة وعناد، دونما هوادة اولين. فان لم تكن جماعية في ١٧ يونيو (حزيران) عند إعلان الجمعية الوطنية، فقد حققت هذا الاجماع او كادت، في العشرين منه، عندما تعاهد بمثلها بقسم مُغلظ في ساحة التنيس، جارّين وراءهم ممثلي الطبقات الاخرى. وقد ناصب الطبقة العامة العداء: الجيش والمحاكم والقانون وكل الجهاز الاداري والمالي في الدولة. فالامر لجلّ، وسيحالف النصر في النهاية السمتانة بحام من البورجوازيين الذين قيّض لهم التغلب

على النظام القديم . وقد حالقهم الحظ لوجود ملك مستضعف على رأس الدولة ، من جهة ، ولتأييد الرأي العام باجمعه الذي صقلته تطورات العصر الاجتماعية واهاجته مزمنة الازمات الثلاث معاً : الازمة السياسية التي جاءت تعبيراً صريحاً لهذا التطور ، والازمة الاقتصادية ، والازمة المالية الناجمة عن الازمتين الآخرين .

وهذا الانحلال والتخلخل الذي ترسف فيه البلاد وتلكع ترك اثره البعيد في نفوس الخوص . فانقسمت الحكومة على نفسها ، اذ اخذ اربعة من الوزراء من اصل سبعة ، بينهم «نيكر» ، يطالبون بإجراء مصالحة عامة ، كما راحت الازمة الاقتصادية تثير الفتن والاضطرابات بين الشعب وتعمل على تقنيت الجيش .

واخذت جماهير الشعب بالفليان بعد ان أطل على الناس شبح افلاس الدولة فازدادوا كراهية للنظام القائم ، وعلا الهيجان في كل من فرساي وباريس وزاد الهرج والمرج بعد ان انضم البورجوازي الحامل السندات على الخزينة الى الثوار في القصر الملكي والاحياء الشعبية ، واصبح هم الناس الوحيد تأمين الدخل والخبز والمطالبة باصلاح النظام الملكي . وراحت الجماهير في فرساي تفرغ جام غضبها على ممثلي الطبقتين المتميزتين ، خصوم الطبقة الثالثة وتكيل لهم الشتائم والاهانات . وشاعت بين الناس اخبار يقولون فيها عن اعداد مذهبة للنبلاء . فالقاروت اصبحت عرضة لغضب الشعب ونقمتهم ، وظهرت في البلاد تجمهرات واحتشادات خشي الناس شرها . واعتري البلاط الخوف والرعب فاضطر للتراجع وتظاهر بالتنازل على طول الخط ، بينما راح يستمد سراً ليشأ لنفسه .

فالتأثر اصبحت مؤكداً وفي متناول اليد عندما يستطيع الملك ان يؤمن انتصار الشعب في باريس له من الجند ما يضمن القضاء على كل مقاومة من قبل القوى الشعبية ، ومثل هذه العملية لا يقتضي لها سوى بضعة ايام او اسابيع بالاكتر . فقد شعرت الطبقة العامة بما يحياها من مؤامرة تهيء اعدادها الطبقة الأرستوقراطية ، سواء أكانت حقيقية ، او وهمية ، بشكل من الاشكال والتي راحت الثورة تحاول ردها الى نحر القائمين بها ، كما يفصل لنا ذلك جورج «له فيفر» . وهكذا بدت الجمعية العامة بحكم المقضي عليها ما لم تتدخل الطبقات الشعبية في الامر بكل قواها . وسبق امر جليل ، خباثت جماهيري شامل سيمكن الثورة الخروج ظافرة مما يتهددها . فالأزمة الاقتصادية تشدد وتمنعك حلقاتها مما يسبب انهيار الاجور وارتفاع اسعار كلفة الحياة خلال هذه الحقبة التي يحاولون فيها رتق الفتق . فتكاوت في البلاد الفتن واعمال الشغب واضطرب حبل الامن في جميع اطراف البلاد : فقطعت الطرق ، وسدت الاقنية والممرات المائية وتعطلت أرصفة المرافئ حيث احتشدت الجماهير الشعبية تصدى لمرور شحنات الحبوب ومنع تصديرها للخارج . وغمرت الفتنة الاسواق ومخازن التوطين الكبرى ، فاستولت عليها الجماهير وحاولت بيع ما فيها من ارزاق ومحاصيل بسمار تجلته مع رسم

اضافي . وتآرت صفوف المصطفين بانتظار دورهم لاستلام قرواناتهم وراحت تهاجم حواصل
المؤن والمخازن والاهراء الخاصة بالاديار والرهبنات الكنسية . وانتشرت الفتن واعمال النهب
والشغب في ذوائر البلديات ومكاتب وادارات جبسة الرسوم البلدية وحول الدواوين الرسمية
المكلفة جباية الرسوم والعوائد المفروضة ، وراحت البورجوازية نفسها تتدخل احياناً في الامر
وتشارك هي نفسها باعمال الشغب هذه التي اخذت ترتدي ، اكثر فأكثر طابعاً سياسياً . وتراخت
امام هذه الاحداث قبضة الجيش واخذت وحداثه وافراده يفكرون ملياً بكل هذه الحوادث
المثيرة ويستعرضون ، مع الجماهير الشعبية ، مشاكل الساعة . وفي اواخر حزيران وقع في باريس
حادث دوى وقعه بعيداً في البلاد ، تمثل في تمرد الحرس الوطني .

واطلت على العاصمة باريس ، اذ ذاك ، فترة حاسمة استمرت ١٥ يوماً تميزت بالاعمال التي قام
بها العمال وافراد الجيش . وبلغت الحركة ذروتها في ١٤ يوليو (تموز) اذ قامت في العاصمة
مظاهرة جبارة ضمت بين صفوفها العديد من العمال والصناع واعضاء الحرس الوطني والفرسان ،
فملأت جماهيرهم الفقيرة الحدائق العامة والميادين الرحبة ، وقد اهاجهم منظر القصر الملكي ،
وتضخمتم ، لتوافد الوافدين ، صفوف البورجوازيين الامامية ، وسرى بين الناس خبر التمخلي
عن نيكور ، صباح الاحد في ١٢ تموز يُصب الزيت على النار ويشعل برميل البارود . فعمت
المظاهرات الاسواق والشوارع وراح افراد الحرس الوطني والجماهير يهاجمون الفرسان والخيالة
الملكية ، والكل يبعث عن الحبز والسلاح اينما وجدوا منه شيئاً ، واخذوا باشعال النار في
الحواجز المنصوبة ويتردون مآمير الجباية بحيث راحت المواد الغذائية تصل بحرية تامة . وفي
اليوم التالي ، اي في ١٣ تموز ، قامت الجماهير بنهب دير سان لازار ، في حي سان - دنيس على
امل ان يحدوا فيه من المواد الغذائية ما يشبع جوعهم . وراحت الاجراس تدق دقات الخطر
تستنفر مناصري الثورة . وتآلف على الفور حرس وطني دخلت فيه عناصر شعبية كثيرة الى
جانب عدد كبير من ابناء البورجوازية . وفي ١٤ منه انقضت الجماهير على مخازن الاسلحة في
الانفاليد ونهبتها وبدأت المناوشات حول الباشتيل وتحمت الضربات الشديدة التي انتهت على هذا
السجن المشهور من قبل الجماهير في احياء سان انطوان والماريه ومن افراد الحرس الوطني ، انهار
هذا المعقل القديم الذي يمثل عصور الظلم والاستبداد والطغيان . وهكذا قام العمال والشغيلة
بأول حادث حاسم في تاريخ الثورة .

وفي اليوم التالي ، قام الملك نفسه بزيارة للمجلس الوطني تعبيراً عن خضوعه واستسلامه
وامر بإبعاد الجيش . ثم اصدر امره في اليوم الثاني باعادة نيكور الى منصبه . ثم قام في ١٧
تموز بزيارة ثانية للمجلس البلدي ، لها من الرمز والمعنى ما للاولى ، حيث يقدم مجلس «الكومتين» .

كان لثورة العاصمة دويها البعيد في المقاطعات الفرنسية التي
الثورة في المقاطعات الفرنسية قامت بدورها بثورة عارمة التهمت معها الاخضر واليابس .
وعمت الثورة البلديات ، اينما كانت ، كما راحت الثورة تلشء لها حرساً وطنياً خاصاً بها .

وهكذا جمعت البورجوازية بين يديها السلطة الفعلية والسلطة القانونية ، وانفجرت في الارياض الاحقاد الحقيينة ضد الاسياد ، اذ كان الوقت وقت جباية الرسوم والعوائد المفروضة على ابناء الطبقة العامة . وأبت الجماهير دفع او تسليم شيء من هذه الرسوم فأجبروا اصحاب الحقوق المعيلة على التخلي عنها ، واخذوا بمهاجمة الحصون والقلاع والغرف الحصينة ، وأوقدوا الحرائق في دور الوثائق والمحفوظات السيادية فأقت على قصور النبلاء وصروحهم والنهتها . وموجة الهلع العام الذي اعتدى الجميع ادنى بدوره الى حركة تسليح شاملة في البلاد . وزاد من قوة الدفع الثوري ، الفرع الذي دب في قلوب الارستوقراطية ، وسمم الخوف في قلوبهم عندما رأوا المصير المشؤوم الذي ينتظرهم . وكان الحرس الوطني يتقاضى عادة عن هذه الامور العنيفة . وفي هذا الوضع المؤلم الذي تحبسط فيه فرنسا ، وقع حادث الرابع من اغسطس (آب) الذي تمت فيه المناذاة بحقوق الانسان .

الانتصار على البورجوازية المحافظة
تأثر المجلس الوطني نفسه بهذه الاحداث الجسام . وشعر عميقاً بالدفع الذي أحدثته . وقد بدا من المحتملات الممكنة قيام اغلبيية من الوسط واليمين تضم في صفوفها رجال المقاومة والداعين الى ثورة مسالمة تقف في وجه التيار المهتاج . مثل هذه الاكثريية كان يمكن ان تتألف بصورة طبيعية من ممثلي الطبقات الممتازة ومن قسم كبير من ممثلي الطبقة الثالثة القائلين بالتمثيل المضاعف . فمذ حزيران ، وبعد اجتماع الطبقات الثلاث راح عدد كبير في صفوف البورجوازية من جزعوا لحوادث العنف التي أتاها الثوار يقومون بحركة تقارب مع ممثلي الاكليروس والنبلاء ، ليؤلفوا بشكل من الاشكال الطبقة الثالثة بقيادة مونييه وبرغاس وشمبيون دي سيدس وكليرمون تونيزر ولاي تولندال بعد ان عينتهم الجمعية الوطنية اعضاء عنها في اللجنة التأسيسية . فالثورة الاصلاحية المجددة غلبت على امرها . فليس لها من سند ولا خلاص الا بانتصار الشعب . واخذ المجلس بالتصويت على القضايا الهامة بتسمية الاسماء بين هتافات المحبذين وصياح الناقمين الشاجيين . ان «خيانة» قسم من ممثلي الطبقة العامة بانضمامهم الى الارستوقراطية تثير الشكوك . وراحت رسائل التهديد المغلفة تنهال على مونييه ورفاقه . وخاف اصحاب المطابع على انفسهم من تحمل مسؤولية نشر خطبهم . فالصحافة الثورية تسيطر وحدها على الشارع . وراح رجال ١٤ تموز يهددون بالسير السافر على فرساي وصار الناس يخشون كثيراً « لوائح النفي والابعاد » كما كانوا يوجسون خوفاً من المراسلات المتبادلة مع المقاطعات وهي رسائل تشنع القول على رجال الاكليروس والنبلاء لمقاومتهم ، الامر الذي خشى منه على اشغال الحرائق من جديد في القصور والصروح .

واخذ المجلس الوطني يتأرجح بين اليمين وبين الشمال . فاعتصمت اكثريية النبلاء والاكليروس بالصمت حتى انها وقفت احياناً اسوأ المواقف . فهي لم ترض ، في الواقع يوماً بالهزيمة . ففي سلسلة الاخطار التي تهدد الثورة ، في نظر البورجوازية خطر الارستوقراطية يأتي في المقدمة

فهو خطر متصل ، مائل في كل حين . فالتهديد الاجتماعي للطبقات الشعبية يأتي في الدرجة الثانية .

ولم تلبث اللجنة الدستورية ان استقالت في ١٢ ايلول ، فعاد اليسار يسيطر ومعه سيس وهكذا غلب على امرهم نصراء الملكية ومريدوم ومن بينهم ميرابو .

غير ان الملك لم يقر بعد ٥ - ١١ آب (اغسطس) كما انه لم يصادق على وثيقة اعلان حقوق الانسان . وعادت الارستوقراطية عودتها الاولى الى الدس والتبئيس ، كما راح البلاط يستعد ليثار لنفسه من حوادث ١٤ تموز . وراحت مجالس الاقضية تتحرك في العاصمة . ولعبت الصحافة اذ ذاك دوراً حاسماً . وكان بوسع الثورة في باريس الاعتماد كلياً ، هذه المرة ، على قوة جديدة : هي الحرس الوطني . والازمة الاقتصادية التي زادت ازمته السياسية حدة وحرماً ، اخذت تتسع وتزيد من اهاجة الخواطر . وكانت وليمة الحرس الملكي التي اقيمت في غرة تشرين الاول (اكتوبر) بمثابة اشغال الفتيل المتصل ببرميل البارود . واخذت الجماهير تلوح في الخامس منه بتنظيم مسيرة الى فرساي تتألف من الرجال والنساء و افراد الحرس الوطني انفسهم . وراحت الجماهير تتناقل فيما بينها النداءات المثيرة : « الخبز ووضع حد للامور » اي الرضوخ للقرارات . فيخضع الملك للتهديد من جديد ويسلم بالامر الواقع ويصادق على هذه القرارات ويعود الى باريس على رأس الثورة المظفرة . « فالانتفاضة الثانية للثورة » التي طالما طالبت بها حركات باريس الثورية جاءت في حينها ، فالسلطتان الرئيسيتان في البلاد : الملك والمجلس الوطني هما بكامل تصرف الحزب القائم بالحركة . ومثل هذا الوضع سيمتد العمل به الى عام ١٨٩١ .

وامام تحالف من هذا النوع للقوى الثورية تفشل عملية هرب الملك الى فارين فيقع المقدور الذي باعد بين الملك والامة . ان محاولة هرب الملك لويس السادس عشر عملية كان بالامكان ان تنجح كما نجحت عملية هرب الامير . فالقدر العاشم هو وحده الذي فضح هوية الهارب ، في الوقت الذي راحت فيه الدعوة للفرار وحركة تنقلات جيش بوييه تخلق بين الناس جواً مشعوراً بالتحسب والتحورز . فبعد الكشف عن هوية الملك اصبحت ماجريات الحوادث التي وقعت بين ٢١ / ٢٢ حزيران ١٧٩١ متوقعة ومنتظرة . فمن محلة سان منهولد الى كليرمون ، الى فارين ، نشطت الاتصالات بين مختلف البلديات و فرقت الحرس الوطني والجماهير النائرة ، وراحت تستنفر بعضها البعض وتتخذ سلسلة من المناورات الجريئة فتدخل صفوف الجيش وتذب الفوضى بين وحداته فيفسد الامر على بوييه وجيشه بعد ان عملت الدعاية المحللة في صدعه عليها الثوري الهدام .

ففي سنة ١٧٩١ كما في سنة ١٧٨٩ ، في جميع أنحاء فرنسا كما في باريس نفسها ، وبالرغم من حادثة شان دي مارس المثيرة ، شالت لجهة واحدة كحفة الميزان وهوت بكل ثقلها .

الفصل الثاني

عهد المؤسسات الثورة والجمعية التأسيسية (١٧٨٩ - ١٧٩١)

انهارت النظم السياسية والمؤسسات الاجتماعية التي عرفها العهد القديم في الاشهر الاولى من الثورة . فما ان مالت شمس عام ١٧٨٩ للغروب حتى كان حل محل هذه المنظمات الانجازات الكبرى التي حققها العهد القديم . فالامور الرئيسية وقعت ، قبل خريف ١٧٩٠ ، ولم يبق حتى ايلول ١٧٩١ ، موعد انفراط عقد الجمعية التأسيسية ، سوى بعض الاجراءات الثانوية .

فالاشياء والسياسات التي ما زالت ماثلة على الواجهة لا يؤبه لها ولا يحسب لها حساب في البنيان الجديد . فقد أطل على الحياة مجتمع جديد ، مجتمع لا طبقات فيه ، ادارته وتوجيهه هما في يد البورجوازية .

اولاً — النظم السياسية

١ — الغاء النظام الاقطاعي

انهال على الجمعية الوطنية ، من جميع الولايات والمقاطعات ، سيل من ثورة الفلاحين الرسائل والتقارير لم تترك في الاذهان اي شك او وهم حول مدى الاضطرابات التي قام بها الفلاحون ، في شهر تموز (يوليو) ، اي أبتان موسم الحصاد ، طارحة على بساط البحث ، قضية الرسوم السيادية والاعشار المتوجب تأديتها .

فقد استهدفت ملكية الاراضي ، في كل مكان من البلاد ، « لأكبر لصووية مجرمة على الإطلاق » اذ اضرمت الحرائق في القصور وطرحت وقوداً للنار وطعماً لها سندرات التملك وكل ما ينتهز دليلاً على الموائد السيادية ورسوم الاعشار .

وقد خلصت لجنة العرائض والتقارير الوضع كما يلي :

« فالقوانين تبقى ميتة لا مفعول لها ولا من ينفذها ، والحكام لا سلطة فعلية لهم ولم يبق من العدل والعدالة سوى شيخ هبثا يبحثون عنه في المحاكم » .

وهكذا انفجرت « حرب الصماليك ضد الاغنياء » وسَّمر الرُّعب قلوب النبلاء بعد ان غلبت طبقتهم على امرها مع الملك ، في ١٤ تموز وتكثرت لها الطبقة الثالثة او الطبقة العامة ، فاصبحت موضع مظنة وارتياب ، في المدن والارياف ، ملاحقة في املاكها ، مضطهدة في افرادها. وحُرمت هذه الطبقة ، دفعة واحدة من كل شيء . وكذلك قل عن مصف الاكليروس العالي الذي تعرض ، هو الآخر ، ولو بدرجة أقل ، للاضطار ذاتها . فامام الطبقة الثالثة ، فرصة ذهبية عليها ان تستغلها الى اقصى حد ولو لفترة قصيرة ، وان تفيد من هذه القوة الشعبية العارمة لما فيه خير الثورة البورجوازية والمجاهدا ، وان تقوم بعملية توزيع غير متساوية بين فريقين ، وان « تصفّى » في الحال وتسجل دفعة واحدة ، في النصوص والوثائق الرسمية التي رسمت لغاء النظام القديم « الاقطاعي » وقضت بالمساواة القانونية امام القانون ، اي انها حققت بضربة واحدة مزدوجة ، المساواة بين املاك النبيل واملاك البورجوازي ، كما سارت بين شخصية النبيل وبين شخصية البورجوازي . فالفلاح الذي قام بالدور الاول في هذا الانقلاب الجذري الثوري كان من حقه ان يصيب ، اجرأ له زهيداً ، مثل هذا الغنم ، مثلاً في هذه المنافع التي عادت عليه من الغاء النظام الاقطاعي البغيض . وبذلك يهدئون روعه فيطمئن باله ، ويهدأ بلبالاه ولو اضطروا لاستعمال الشدة معه والقمع حيناً .

لم يسبق للطبقة الثالثة ان احزرت في المجلس الوطني مثل هذا المركز القوي تحققه هذه الدفعة ، بحيث اصبحت الطبقات الممتازة تحت رحمتها ، لا مرجع لها ولا سند غير المجلس الوطني بالذات الذي اصبح في وسعه وحده ان يخفف من قبضة الفلاحين ويلطّف من شوكتهم الناخسة . فقبل الساعات الفاصلة من الرابع من آب (اغسطس) بدت الطبقة العامة ، في مجموعها ، مترددة ، حيرى ، منقسمة على نفسها . والليلة الليلاء التاريخية التي سيلهج العصر كله يذكرها ، ليست من ناحية خطة التنفيذ وتفاصيلها ، سوى عملية ارتجال ، قوامها التجربة والجرأة او الاقدام .

كانت ثورة الفلاحين تهديداً مباشراً للنظام السيادي ولكل ما يمثله او ليلة الرابع من آب يرمز اليه . اجتمع اليسار المتطرف ، في ليلة ٣ - ٤ للبحث والمناقشة . واخذ المجلس الوطني في ٤ آب ينظر في التشكي من الاقطاعية . فالعملية تولاه ، في البدء ، ليس ممثلو البورجوازية في الطبقة العامة بل نصراؤها التوابع بين النبلاء ، كالفيكونت دي نواي ودوق دي غويون وهو تكتيك كان في غاية البراعة طالما اعتمدوه ، فيما بعد ، عندما تستأنف الجمعية جلساتها لوضع الصيغة النهائية للقرارات التي تم الاتفاق بشأنها . وراح لويس دي نواي يشدد بحق على السبب « الاجتماعي » لهذه الاضطرابات والقلق التي هزت البلاد من اقاصها الى اقاصها . فلنعالج هذه الاسباب ا ان سكان الارياف وجماهير الرعيويات لم تتقدم من الجمعية الوطنية ، بطلب دستور ، بل بالغاء الرسوم والعوائد والتخفيف من الفرائض السيادية . ودوق دي غويون نفسه راح يعالج القضية نفسها ويبحثها . هنالك الآن ثورة شعبية عارمة

تهز الآن أركان المملكة . وما حديث للناس غير أحاديث القرصنة واللصوصية ، ففي مقاطعات عديدة ، الشعب كله نائر ، مهتاج يرعد ويؤيد .

فهو يكون في مجموعه ، شبه عصابة ترمي لهدم القصور ونهب الاقطان وسلب الغلال والاستيلاء على خزائن المحفوظات حيث تعان سندات تملك الاقطاعيين .

فالخل الوحيد المرجى هو إلغاء العوائد المفروضة والرسوم السيادية .

يجب ان نحدد ، قبل كل شيء ، مفهوم كلمة « إلغاء » ، وما هو المقصود منها . فمن جهة الرسوم السيادية ، فالدائن لن تنزع حقوقه . « إذ ان هذه الحقوق تؤلف بالفعل ملكية قائمة ... ولا يمكن مس الملكية على الإطلاق » . غير ان باستطاعة المدين ان يستهلك دينه . فيدفع ما يترتب عليه ، مع الزمن . فقابل المجلس هذا الكلام بالتصفيق الحاد . ولم يشذ عن هذا الإجماع صوت واحد في صفوف الطبقات الممتازة حيث تتمثل على أتمها مباهج الحياة والثراء ... وإذا بصوت يلعلع من بين صفوف الطبقة العامة محتجاً معارضاً ، صوت فرد ، وحيد الآن ، لا صدى له ولا دوي ، صوت الاقتصادي دييون من نواب الوسط – اليمين الذي شق عليه كثيراً ان يلحق بالنظام الطبيعي مثل هذه الأمانة ، على مثل هذه الصورة . وراح يتكلم عن القوانين وعن الحاكم وعن الأزمة الاقتصادية . حادث يقع ويتهيأ الأمر . وراح احد ممثلي الطبقة العامة ، يصل ما انقطع بإعادة البحث في الموضوع ، فيقابله تصفيق داور كالرعد : لن يكون ابداً حقوق للانسان طالما هنالك رسوم وفرائض اقطاعية .

ليس عندكم من الوقت ما تهررونه جزافاً . كل يوم تأخير يتسبب في حرائق جديدة . الا ترغبون في اعطاء فرنسا المحتاجة ، المهتاجة ، القوانين والتشريعات اللازمة لها ؟

واذ ذاك حدث مشهد رائع من التنازلات العفوية . ففي ليلة واحدة شهد العالم انهيار العهد القديم . وقبل انفرط عقد الاجتماع عند الساعة الثانية صباحاً ، راح المجلس يوجز مناقشاته ويضبط في محضر الاجتماع ، القرارات الخمس عشر الرئيسية التي اوحى بها الجمعية الوطنية ، واتخذت بشأنها التواصي بحيث ترتدي شكلها وتأخذ صورتها النهائية من الجلسات اللاحقة . في الطليعة من هذه القرارات ، المواد الست المتعلقة بالنظام « الاقطاعي » ، هذه المواد التي تنص على الإلغاء والاستبدال : إلغاء الاسترقاق الزراعي (*Servage*) الذي لم يكن بقي منه سوى بعض الحالات النادرة الفردية والانعامات السيادية ، وحقوق الصيد المحتفظ بها للاسياد ، والتعويض عن الرسوم السيادية جهد المستطاع ، واستبدال ضريبة العشر التي يمكن ردها بيسر الى الربيع السيادي ، برسم تقدي خاضع للشراء والاستبدال .

وليلة الرابع من تموز التي انطلقت عن ثورة الفلاحين تبدو وكأنها الليلة البكر الكبرى التي قوضت سلطة الاسياد ، فكانت بمثابة الفتح الاغر يحققه سكان الارياف . فلا يجوز التقليل من

اهمية الارباح والمنافع التي حققتها لهم . فالاقطاعية الرسمية تكاد وحدها تسقط بالنتيجه من هذه النصوص التي تمدد اكثر مما تقي وتمن اكثر مما تمنطي . وعلى الاجمال « فالاقطاعية » الواقعية ، هذه الاقطاعية الاقتصادية بقيت معمولاً بها . صحيح ان الارستوقراطية اكثر من التنازلات الفرعية الا انها احتفظت بالنصيب الاطيب من التركة .

تحقيق المساواة اما البورجوازية ، فالمفانم التي حققتها لم يكن ليستهان بها ، والحق يقال . فقد ساهمت من جانبها ، بوصفها مالكة لأراضٍ شعبية ، ببعض التنازلات المادية ، اسوة بالنبل . اما هذا البورجوازي ، المنافس الاجتماعي للنبل ، فقد عاد عليه إلغاء الاقطاعية ، بأكثر من ذلك بكثير . فلم يبق ، بعد الإلغاء ، اراضٍ سيادية وارض فلاحية (Roturière) ، ولا إقطاع ولا فدان ولا من يحزنون . فالمساواة بين الممتلكات حالة هيأت من قريب للمساواة في الحقوق المدنية . وعلى هذا قس ايضاً إلغاء حقوق البكورية هذه الحقوق التي تتناول ، في الاساس ، ممتلكات النبلاء .

وها هي المساواة المدنية ينادى بها عالياً وتعلن على الملأ في نهاية الامر . فابواب الوظائف العسكرية والمدنية مفتوحة على مصراعها ، لجميع المواطنين . وكذلك الوظائف القضائية . والعادة المعمول بها في شراء الوظائف تسقط الى الابد وينسخ الاخذ بها من الآن فصاعداً ، كما تلغى من الاستعمال حقوق ورائة مهنة المحاماة . والوظائف حق الكبرى منها ، تنفتح ابوابها امام الجيل البورجوازي الصاعد ، فيدخلونه زرافات ووحداً من الباب العريض ، بعد ان كانوا يتسللون اليه ، من قبل ، تسللاً متحرزاً . فلم يعودوا ليقنعوا ، هنا ، بالمظاهر الفارقة الجوفاء . فللبورجوازية حصة الأسد في الحال وتدأب بالتالي على تصفية ما تبقى من امتيازات ، لحسابها .

والمساواة المالية جاءت تجتمه كاس المساواة المدنية . فالفلاحون سيفيدون ، ولا شك ، من هذه المكاسب ، ولو كان احياناً على حساب احد النبلاء ، من سكان المدن أو على حساب مواطن ينعم بموجب اعفاء شخصي أو جماعي من بضريبة الخراج . هنالك بين اصحاب الامتيازات في العهد القديم ، مدن ومقاطعات نعمت ، هي الاخرى ، بإعفاءات ضرائبية ، فاضطرت للتنازل عن هذه الامتيازات التي خولتها وضعاً خاصاً متميزاً عن الغير ، في المجتمع الفرنسي ، اذ ذاك ، وأخذ الجميع يتسارعون ويتنافسون في عملية التنازل عن امتيازاتهم المحلية أو الاقليمية ، وهي تنازلات لم تكن لتلحق باصحابها الضرر والخسارة كما لحق منها اصحاب الطبقات الممتازة . وهكذا تغيرت فرنسا وتبدلت منها الاوضاع الاجتماعية . فقد حدث في هذه الليلة شيء اشبه ما يكون بالخلق ، بالولادة الجديدة ، عن طريق هذا الاتحاد الوطني الذي صحح بالتراضي الارادي ، هذا النظام التعاقدي الاستبدادي القديم الذي يعود منشؤه الى عهد ايام الفتح ، اذ استبدلت في فرنسا كلها الملكية الفيدرالية بالاتحاد وطني اساسه المساواة المطلقة .

كثيرون باركوا ليلية القدر هذه وغبطوا ، وبحق فعلوا . فهذه الليلة التي تميزت بعملية هدم شامل مثير ، شارك فيها صاحب العُرم والغم ، جنباً الى جنب ، هي من هذه الليالي التي قلما يجيء بمثلا الزمن . فما من أحد ، والحق يقال ، من بين ممثلي هذه الطبقات المجتمعين معاً ، يفقد صوابه أو يضيع رُشده ، كما ما من أحد بينهم يتناسى مصالحه الحقة في هذه التصفية العامة التي قامت اساساً على المساومات ، وفي هذه التنازلات التي امكن التعويض عنها ، وهي تنازلات وتصفية أخذ المجلس الوطني بكامل هيئاته علماً بها ، وضبطت القرارات المتخذة بها ، بكل دقة . فالممثلون للدور الرئيسية في هذه المسرحية المأساة والنظارة على السواء ، شعروا ، باتفاق الآراء ، انهم يعيشون « حداثاً مصيرياً » بحيث كان يُخشى على ضعاف القلوب ومفؤديها ، من شدة الفرح وهزة الطرب . فنحن هنا امام ظاهرة من هذا الشعور الجماهيري الغلاب ، لم يكن ، كما سنرى ، خاصاً بعام ١٧٨٩ ، بل على عكس ذلك ، كثيراً ما يتجدد بمثل هذا الفوران العارم ، خلال مناقشات رجال الثورة ومداولاتهم : تريثٌ حيران يخشى من الاسوأ ويوجس من الانكى ، ويتوقع ما قد يكون أشد وأدهى ، فيعودون من ذلك كله ، بمواقف اجماعية سمحاء ، يُغلفها الغموض حيناً ، ويشيع منها احياناً ، تفاؤل المنتصر وأمل الفائز المرجى ، هذه الظاهرة التي غشيت ، في تلك الليلة التاريخية ، اعضاء المجلس الوطني الذي غمره الحماس والذي لم يكن في كنفاته خير ما يمنع عنه الخطل والشطط وخير ما يوقفه عند حافة الخطر .

ومع ذلك فالمبادئ ، والمبادئ وحدها ، تُعلن وينادون بها . فلم يبق سوى إعطائها الصيغة القانونية ، وهي مهمة سينصرف لها المجلس الوطني بكليته ، خلال الاسبوع الواقع بين ١١ آب - دون حاجة الأمر بعد للاجماع الذي عرفناه من قبل .

قرارات ١١ - آب
٤ آب (اغسطس) يتساءلون ، ما اذا لم يكن من المستطاع لديهم ، الخروج بثمن أقل . فهل يوافق ناخبوهم ، في المقاطعات ، على ما قبلوا به واتخذوا له من قرارات ؟ فلم يتعرض أحد لحصة البورجوازية . ولكن ماذا من أمر حصة الغائب الاكبر ، حصة الجماهير ، في الارياض ؟ أو لم يُضحّ ممثلو طبقة النبلاء ، أو لم يعرضوا للخطر بسرعة ، هذا الذي اعترف به المجلس الوطني « ملكاً » لهم ؟ فجاء ذلك اشبه ما يكون بمذبحة جديدة « من مذابح سانت برثلماوس » فيما يتعلق بممتلكاتهم ، كما بدا الامر لريفارول . هذا ما يمثل بالفعل رضى الطبقات الممتازة وما يعني قبولها هذه التنازلات . وسيكرر ممثلو طبقة النبلاء ، فيما بعد ، مثل هذه الاقاويل عندما يتحدثون عن الليلة الليلية ، عن ليلة القدر . وراح أحد النواب المعروفين بموقفهم المعتدل هو الكونت مونتولوزيه ، الذي غادر البلاد مهاجراً فيما بعد وانضم الى حركة بوناپرت وحارب الغلاة في عهد إعادة الملكية الى فرنسا بعد سقوط نابليون ، يدون في مذكراته قائلاً ان العمل الذي تم في ٤ آب قامت به لصوصية أقرته لصوصية أخرى ، وكَم من ممثل من ممثلي طبقة النبلاء فكروا ، وهم في مقاعدهم ، في المجلس الوطني ، مثل هذا التفكير ، خلال المناقشات

التي دارت حول الموضوع . وهل من عجب ان نرى ونسمع ، بعد هذا عن حوادث قشع وخلافات في صفوف هذه الارستوقراطية التي طال صمتها في ليل ٤ آب . هنالك عدد من ممثلي هذه الطبقة ادعوا انهم وافقوا بشرط الرجوع الى استفتاء عام ، بينما راح فريق آخر ومن بينهم تاليران يحاول الحد من التوضيحات مستعينين على ذلك بإبراز العناصر في القلب واليمين . الا ان المجلس لم يتنكر لنفسه . فبدلاً من ان يلطف من المبادئ التي أقرها فقد تجاوزها ، في كثير من الحالات وذهب الى أبعد مما تنطق به النصوص .

وعاد المجلس يسلك المسلك الذي سلكه في ٤ آب . هوذا ممثل عن طبقة النبلاء التي تنازلت عن حقوقها وامتيازاتها ، يتقدم بنص وثيقة التنازل ، كما يشير الى ذلك مونموورانسي . وها هو نيبيل آخر ، دي پورت ، من ممثلي باريس يضع النصوص النهائية لوثيقة إلغاء النظام الاقطاعي .

قضى المجلس الوطني على النظام الاقطاعي قضاء مبرماً ، بعد ان قرر بأن الحقوق والواجبات الاقطاعية والضرائية ، على السواء ، ولا سيما ما تعلق منها بالرهونات العقارية العينية او الشخصية ، او بحقوق الارتفاق الشخصية او ما يقوم مقامها ، تلغى كلها بدون اي تمويض عنها . اما ما تبقى من هذه الحقوق والواجبات فيمكن التخلص منها بالشراء او الافتداء ، وفقاً للشروط التي يحددها المجلس الوطني . اما الحقوق التي لم يأت لص على إلغائها في هذه الوثيقة ، فتبقى قائمة ، يجب استيفائها كاملاً الى ان تسدد برمتها .

فالمجلس يثبت هنا القرار الذي كان اتخذته في الرابع (من آب) مع ما فيه من متناقضات ظاهرة وما يخفيه من محاذير . فهو يبقّي بالفعل الرسوم « الاقطاعية » مع انه ألغى الاقطاعية « كلياً » . فالارياف التي تحررت يجب ان تتحمل هي نفسها نفقات معاملات الافتداء او الافتكالك .

اما في ما يتعلق بالأعشار ، فقد ذهب اعضاء المجلس التأسيسي الى ما هو أبعد من منطوق النص الاول واحكامه . فقد وقعت ، في هذا السبيل ، مناقشات صاحبة استمرت طويلاً . هل يمكن إقتداء هذا العشر كما اقتديت الحقوق السيادية ووفقاً للرسوم الصادر بهذا الشأن ؟ او يلغى نهائياً . فالموضوع له اهميته الكبرى . فالقرارات التي اتخذت في الرابع من آب لم تعط الفلاحين اية ترضية مادية تستحق الذكر ، في هذا الشأن . وراح ممثلون عن الطبقة العامة يتولون الهجوم المركز بعنف مصرحين على رؤوس الاشهاد ان العشر يؤلف ملكية كالريغ السيادي ، مثلاً بمثل . فهو بالتالي ضريبة يمكن إلغاؤها ككل ضريبة من هذا النوع . وراح ميرابو يفضح ببلاغته المعروفة هذه الضريبة المزرحة التي تسبب الخراب لمن تقع عليه ، اذ تقتطع ثلث المحصول القائم .. «ضريبة مرهقة ارادوا ان يلبسوها لبوس الملكية» . وأصر الاكليروس من جهته على الرفض باسقاطها والتمسك بها الى النهاية . فقضيته قوية من الوجهة الحقوقية . وراح أحد كبار الفقهاء يؤيدها بالنصوص القانونية ، وله من منزلته الرفيعة وشهرته البعيدة في عالم الشرع والفقهاء ما يكون دعامة قوية للقضية . نعم ان العشر هو ملكية ، هو حق مقدس ككل ملكية ولا يمكن بالتالي التعرض لها ببحث الا من جهة شرائها او اقتدائها . ووقف هذا الموقف الصلب نفسه

اعضاء بارزون في المجلس الوطني بينهم مطران لانغر ، و «لاوزير» شقيق الوزير نيكر احد
اعضاء الجمعية البارزين ، والأب مونتسكيو ، والأب سيس المعروف عنه وقوفه الى جانب
اليسار ومؤازرته له فأيدوا جميعهم القول بأن العشر ملكية هي وتنعم من هذا القبيل ، بحماية
القانون . ولذا يجب ألا تلغى لصالح الاكليروس لصالح الفقراء معاً . ومهما يكن
فلا يمكن الغاؤها قبل استبدالها بشكل آخر «فما من أحد يدم مدينة قبل ان يعلن مسبقاً عزمه
على اعادة بنائها» . واعتبرت الخبرة المجلس أمام هذا الموقف من مواقف نزع الملكية الذي من
شأنه ان يؤلف سابقة خفيفة . وقد بدا من المرغوب فيه كثيراً ان تستبدل هذه الضريبة التي
يذهب جانب كبير منها جزافاً على يد كبار الجباة وعيشتهم ، لتحل محلها موارد معينة ، محددة
تستطيع ان تغطي الحاجات القائمة . كم من الكهنة المتواضعين يفكرون هذا التفكير السليم ؟
ففي الوقت الذي كان فيه احد كبار خطباء الطبقة العامة يوضح من فوق منبر الخطابة كيف ان
شراء هذه الضريبة او اقتسكاها يُرزح صاحبها ، راح عدد منهم يلقون اليه بيانات عن تنازلاتهم .
فكان ذلك ايداناً بحركة عامة من التنازلات ، فعذا حذوهم عدد كبير من الكهنة . ولم يمض
القليل حتى انهار كل أثر المقاومة والصمود ، وراح المطارنة ورؤساء الاساقفة يقومون هم الآخرون
بتنازلاتهم . وجاءت الضريبة القاضية على يد تاليران ، فراح اسقف اوتون يتلو نص المادة التي
تجرد طبقة الاكليروس من هذا الامتياز ، فيقرأها الجميع بالاجماع . فالاعشار تلغى بلا اي عوض
او مقابل باستثناء ما كان اقتطع منها لاحد العلمانيين وصار خاصاً به .

قرار اسامي ، وان بقي لأمدٍ وجيز مجرد وعد مقطوع . فالأخذ به والعمل بموجبه يبقى
معلقاً ويستمر استيفاء العشر ريثما يخرج المجلس بإجراء قانوني يعوض معه على من حرموا من
ضريبة العشر . وهذا المزارع القائم على حراسة زرعه والمدافع عن غلته ومواسمه فيرفض تسليم
العوائد والرسوم المترتبة عليه ، يواجهه المجلس برفض في غير محله . فقد ابقى واجب الاداء
او التسديد لرسم قضى بالغائه بناءً على مسببات وحوافز عديدة .

والرسوم العظيم الذي وضع في شكلها النهائي القرارات المبدئية التي اتخذت في ليل ٤ آب ،
صدر في الحادي عشر منه . تشبثت البورجوازية ، من جهتها بأن يُدفع لها نقداً في الحال ،
فاستجيب طلبها باعطائها المساواة المدنية . اما الشعب ، فلم يُدفع له الا صبراً او عِدَّة او في
مواعيد معينة وبعملة عليه ان يؤمن هو نفسه قسماً من غطائها .

المرسوم الذي صدر في ١١ آب لم يتخذ الا مبادئ أساسية . فعلى
الحقوق الاقطاعية الغالبة المجلس الآن ان يضع النصوص القانونية الصالحة للتطبيق ، كما عليه ان
الافتداء او الاقتسكاك يستخلص النتائج العملية المترتبة على الغاء الاقطاعية ، هذا الالغاء الذي
نصت عليه المادة الاولى من قانون الالغاء . وكثيراً ما يعمد الفلاح نفسه الى استخلاص هذه
النتائج بدلاً من ان ينتظر من يستخلصها له ، اذ يمتنع بعناد عن تسليم الحصّة المفروضة عليه من

غلة الموسم ، هذا ان لم يحاول ان يسترجع ما كان سبق له وسلم من حصة مضروبة عليه ، كما انه عاد يتلف سندات تملك كبار الاقطاعيين ، هذه العملية التي كان يشرها في تموز الماضي . الا ان المجلس وقف منه موقفاً خشناً صلباً في بادىء الأمر . فراح يؤكد من جديد الغاء النظام الاقطاعي ويشدد على نصوص الالغاء واحكامها القطعية القاضية قضاء تاماً على كل اثر من آثار الاقطاعية الشريفة ، كما انه حافظ على كل المنافع والامتيازات التي حققها الغاء الاقطاعية الاقتصادية .

ووفقاً لاحكام القرار المتخذ في آب ، هنالك بعض حقوق (رسوم وعوائد) تلتقى دونها مقابل بيتا يبيع شراء او اقتناك بعضها بشرط وفي حالات تحددها النصوص .

تفتدى وتسجيل املاكاً بورجوازية : الحقوق والواجبات والرسوم الاقطاعية والعملية التي اعتبرت ، منذ القديم ، مؤسسات استثمار . وينزل هذه المنزلة احكام القرار الصادر في ١٥ آذار (مارس) ١٧٩٠ ، وما هو بحكم حصة الحصيد الواجب تأديتها والرسوم المفروضة على التركات ، والملتزم المزارع ، والمؤجر الاقطاعي . فلا يمكن للقانون الا الوقوف بجانب هذه الالتزامات . وراح مقرر اللجنة مرلين ، المندوب عن الطبقة العامة في مقاطعة دوآي ، والذي مارس الحماية مدة ٣٥ سنة ، وصاحب المرافعات الطنانة والدعاوى الشهيرة ، والذي سنجده فيما بعد في مركز الادعاء العام في محكمة التمييز وكونت الامبراطورية ، يميز بين الاقطاعية السيادية واقطاعية الالتزام . فحق التملك هو الذي يخشى عليه هنا ، والذي لا يمكن ان يتأثر ، بأي حال من الاحوال باعمال العنف او الاكراه . فلا يسهل المجتمع الا المحافظة عليه والدفاع عنه بكل قواه . فالتنازلات التي تتم بالاكراه او تجرى قسراً تبقى لاغية ، لا قيمة لها ولا وزن . ولذا صدرت التعميمات للبلديات ومراكز الاقضية والمحافظة تحظر عليهم التدخل لصالح المكلفين او التصدي لجباية الرسوم المقررة ، وذلك تحت طائلة الالغاء والتعرض للملاحقة القانونية ، وتحمل مسؤولية الاضرار المتسببة . وأكثر المجلس من النصوص الزاجرة . فعلى البلديات ان تسهر على عملية الجباية ، وان تعمل على تفريق التحشيدات التي ترمي للتصدي لها والوقوف بوجهها ، بالقوة ، كما على المحاكم ان تلاحق عدلياً موظفي البلديات المتهاونين ، وعلى أفراد الحرس الوطني وأفراد الجيش ان يضعوا أنفسهم تحت تصرف الجباية ، ولا بأس من اعلان الحكم العرفي وحالة الطوارئ اذا ما دعت الحاجة الى ذلك . وعلى هذا قس الاحشار التي صدر النص بالغائها والتي لا بد من تأمين جبايتها حتى غرة كانون الثاني (يناير) ١٧٩١ ، وهو التاريخ المحدد للتوقف عن جباية محصيلها الى الأبد .

وهكذا قام بين المجلس الوطني وبين ثورة الفلاحين ، وضع أوجب اللجوء الى القوة المسلحة . فقد بدت عملية شراء الحقوق المينية في نظر صعاليك الملاكين عملية لا يمكن الأخذ بها في معظم الحالات . فهي كثيرة التكاليف من جهة اذ تبلغ كلفتها من ٢٠ - ٢٥ مرة قيمة الربيع السنوي بالإضافة الى الحصص السابقة التي لم تسدد بعد ، كما يجب ان يضاف الى هذا كله العوائد والرسوم

المرتبة على انتقال التركات والتي يجب دفعها في الوثت ذاته، وهي رسوم مفروضة على الموارث التي تم في الارياف عادة ، بالوراثة ، من الأب الى الابن والتي قلما كان يُطلب استيفائها . هنالك بعض الملاكين يقومون بعمليات الاقتداء او الافتكاك ، ولا سيما الاغنياء منهم ، هؤلاء الذين لا يستثمر معظمهم املاكهم بأنفسهم . وهكذا نرى ان الصعوبة لم تجد حلها بل انتقلت من محلها الى جانب آخر . فشراء هذه الحقوق المرتبة على المالك لا يفيد منها بالطبع الا هو ، وهو وحده تخلص من هذه الرسوم والعوائد وليس المزارع الذي يعمل في ارضه ، سواء أ كان مرابحاً أو فلاحاً ، وبقيت همّاً عليه ، عليه ان يحسب لها الف حساب . فالحق المرتب على سيد مالك الأرض بالنسبة للسند في المنطقة جرى استبداله بحق آخر ترتب على مستثمر الأرض نحو المالك البورجوازي في العقار الذي حل محل النبيل صاحب العوائد السيادية . وعلى هذا قس العشر ايضاً، فالمالك هو الذي يفيد وحده من الغاء العشر بموجب نصوص قرار ١١ آذار (مارس) ١٧٩١ . ويبقى على متعهد الأرض او الملتزم ان يدفع الرسوم نقداً بينما يترتب على المراجع ان يدفع رسومه من الغلال بلسبة الحصول . فسواء اقتديت الرسوم المتوجبة بحسب النظام الاقطاعي أو ألفت ، فهي تبقى قائمة على الفلاح يتوجب عليه اداؤها . وهذا الوضع يُفضي بالطبع الى المقاومة : المقاومة القضائية او الشرعية يدأرون معها ويدأرون ما مكنهم القانون وما شأوا ، او المقاومة غير الشرعية : سلبية كانت او ايجابية واحياناً بقوة السلاح ، الى ان تتحول ، في غالبية الأحوال ، الى مقاومة جماعية . فيلتج عن هذا كله حرب اهلية ، حرب شعبية داخلية تنصدي للمجالس البورجوازية ، ومثل هذه الحروب استمرت ثارها الى عام ١٧٩٣ ، اي الى ما بعد سقوط حزب الجيروندي .

قد يكون الفلاحون ، سجلوا حتى هذا التاريخ ، دفعات مهمة ، تدابير أخرى لتأمين المساواة على الحساب قبضوا معظمها منذ طوع الجمعية التأسيسية . منها يتخذها المجلس الوطني مثلاً ، الغاء العشر ، ابتداء من اول يناير ١٧٩١ ، فأفاد منها كل ملاك بينهم مع بقاء الضريبة على المستثمرين بينهم لاملاك الغير . وعلى عكس السياسة التي انتهجها النظام الملكي ، حرص المرسوم الصادر في ١٥ من آذار (مارس) ١٧٩٠ ، على توسيع المشاعات التي تتألف منها الكومونات (Communes) على حساب الاسباد المحليين ، وذلك بمصادرة املاكهم واغتصاب اراضيهم وبالغاء الحقوق المرتبة عليها دونما مبادل . وعلى الاجمال ، فقد ألغى المرسوم المذكور ، كل التعميدات والالتزامات التي فرضتها الاقطاعية السيادية : كالرق المفروض على الأرض (Servage) او الغدانة الذي ورد نص بشأنه في القرارات التي اتخذت في الرابع من آب (اغسطس) ، وغير ذلك من الرسوم المرتبة على الأرض ما لم تكن نتيجة اتفاق سابق ، فعلى القائم بالاستثمار والحالة هذه ، ان يأتي بالدليل على صحة دعواه ، والسخرات الشخصية ، والسخرات العينية ما لم يثبت الدائن انها حصيلة تنازل منه عن مبلغ من المال او عن رسوم عينية ، وبعض رسوم الباج او الدخولية المفروض على نقل البضائع في الداخل وانتقالها بين مقاطعة واخرى ، ورسم القبان ، وبعض الرسوم المحلية على

المواد الاستهلاكية ، لمنفعة السيد الشخصي . وهكذا توارى عن الأنظار وارتفع عن الخطوط كلبوس مرزح بزوال ما تبقى من الرسوم والعوائد الخاصة ، وكل ما تبقى من معالم العوائد البلدية . ففي نظام الكومون الذي عمل به عام ١٧٩٠ ، فالسيد « المائل هنا » لم يعد سوى بورجوازي كثير من الناس .

وستبين ذلك جلياً لدى البحث في إلغاء الحقوق والامتيازات الشرفية . فالمادة الاولى من مرسوم ١٥ آذار (مارس) ١٧٩٠ ، نصت بالحرف الواحد على إلغاء « كل شارات النبيل الخارجية التي تم على السيادة والسلطة الناجمتين عن النظام الاقطاعي » . وقد طبق أعضاء الجمعية التأسيسية نص المادة المذكورة الى اقصى ما تتسع له من مدلول ومفهوم . وبعد ذلك بثلاثة أشهر تماماً ، أي في ١٩ حزيران يلغى إلغاء نهائياً حق وزاثة النبالة . وقد حُظر على الجميع اطلاق مسميات ومراتب شرفية : كالامير والدوق والكونت ، وحامل السلاح ، كما حُظر على أي كان ان يحمل هو نفسه أو ان يلقب غيره بألقاب شرفية : كالسيد ، وصاحب السمو ، وصاحب السعادة ، وحظر تماماً استعمال شعائر النبالة واللبات الخاصة بها او الدالة عليها . وراح عدد من ممثلي طبقات الاشراف يحتجون باطلاً على هذا الحرمان والالغاء . وقد حدث هنا ما حدث في الرابع وفي الحادي عشر من آب ، اذ راح النبلاء الأحرار يخوضون المعركة باندفاع كلي فيشجبون الادعاءات المضحكة التي قولها الجدائل والشعور المستعارة : « أمكذا يتكلمون في اميركا : المركيز فرانكلين ، والكونت واشنطن والبارون فوكس ؟ » ومثلو الطبقة الثالثة يتقدمهم : لاشابلييه ولانجوينه وروبل صوتوا الى جانب القرار بصفوف متراصة . وأخذ الشعب من جهته يسهر على تطبيق النصوص بحرفيتها ، ويراقب ، عن كثب ، تنفيذها بكل دقة . وقد يستبق الجمعية نفسها احياناً فيقوم بحوادث دامية أمام بعض الالغاب السيادية الشرفية وشارات التكريم لبعض النبلاء ابان المراسم والحفلات الكنسية . وقد ألغى القرار الصادر في ١٣ نيسان ١٧٩١ ، « كل الحقوق والامتيازات التكريمية المدرجة هنا والمرسومة للسيد الذي يناط به امر القضاء او لرب العمل » . فالمشائق وأدوات التعذيب التي افتتت العدالة السيادية باستنابها ، تلفى كلها الغاء قاطعاً ، وكذلك تلفى الرياضات (*girouettes*) بوصفها من شارات النبيل المميزة . فمحطمو الرياضات كانوا في الطليعة من هذه الحركة الثورة . فقد أصبح من حق كل مواطن ان يرفع على سطح بيته أو رأس مدخنه رياحة . وقد أزيلت من الكنائس والخورص المقاعد والكراسي المنصوبة للسادة او الموقوفة على النبلاء . وقد وجه النصح لاصحاب الامتيازات القدامى بان يتقيدوا « بالنصوص الرسمية الخاصة بالمقاعد المعينة لبعض الخاصة في الكنائس » . فلم يعودوا أول من يوزع عليهم الماء المقدس في المعابد والكنائس ، او الغرْبينية او البخور ، او قبلة السلام ، ولن يكونوا بعد اليوم المتقدمين او الطليعة في الموكب والزيارات ، وفي حفلات التقاديم . فعليهم ان يلغوا الوشائح السود التي تلف بها أعمدة الكنائس في الجنازات الخاصة باصحاب المقامات ، كما يجب رفع العلام المائمية التي تحمل شارات النبيل ، سواء أ كان في داخل الكنيسة أم في خارجها . فاذا ما حاولوا اللف والدورات واللعب على النصوص ، والرجوع الى الالغاب

والمراتب الشرفية : كالسيد والدوق والكونت « المشار اليه هنا » ، انتصبت امامهم -م- نصروس المرسوم الصادر في ٣٠ تموز (يوليو) ١٧٩١ ، تذكرهم بوجوب التقيد بأحكام المنع . ومع ذلك تبقى ظاهرة للعيان بعض شارات وعلائم النبيل الخارجية . وفي اليوم نفسه تجري مناقشة حادة حول الموضوع ، فتتخذ الجمعية في الحال قراراً نص على ان « كل مراتب الفروسية وما شاكل ، وكل شارات الجمعيات وكل الاوسمة » وكل شارة خارجية تولي حاملها تمييزاً خاصاً يتم على شرف المحتد او الاصل ، تطفى تماماً في كل انحاء فرنسا » . وفي ايلول من السنة نفسها يقترح شبرود في حماسة لقامت النظارة واقعدتها ، بان 'يحكم على المتعنتين الذين يرفضون الانصياع والامتثال بلبس طوق الحديد (Carcan) الذي كان 'يحكم بوضعه على رقبة كبار المجرمين ، ويعود القرار الصادر في ٢٧ منه فيقرر جزاءً نقدياً على المكابرين المتعنتين .

٢ - حقوق الانسان

اعلان حقوق الانسان والمواطنة الذي صدر بتاريخ ٢٦ آب ، لا يقتصر الاقتراع على وثيقة اعلان
حقوق الانسان
قط على ترديد نصوص القرارات الصادرة في الرابع من آب التي قضت
بالمساواة المدنية والضرائبية . فهو يكرس عالياً ويعلم حقوق الانسان
بالحرية العامة كما يكرس ويعلم حق المواطن في السيادة . فهو يؤلف البراءة الكبرى الثانية
التي صدرت عن الثورة الفرنسية .

وقد قوبل النص الاول لمشروع وثيقة حقوق الانسان الذي قدمه لافليت في ١١ تموز بالترحاب المتحفظ ، اذ كان الجميع تحت وقع تهديد الملك باستعمال القوة المسلحة . فاليمين كله على استعداد للوقوف موقفاً معارضاً للمشروع ، مقترحاً بالاجرى اعلان حقوق الملكية . وراح المجلس الوطني يقرر من جهته ان على الدستور ان يتضمن صراحةً اعلاناً عالياً بحقوق الانسان . وجاء يوم ١٤ تموز يشجع الاخذ بهذا الاقتراح ، كما جاء ، من جهة ثانية تهديداً مباشراً له . فانطلقت الحركة واخذت الاقتراحات تترى على الجمعية : هذا يقدمه سيس ، وذاك باسم تاريخيه وذلك باسم سرفان ، الا ان جانباً كبيراً من ممثلي الطبقة العامة الذين أوجسوا شراً من الاضطرابات العنيفة التي وقعت وهزت ارجاء البلاد رأوا ان الخطر يهيم ثارة هنا وطوراً هناك ، بين الصفوف . ففي جلسة المناقشة الحادة التي عقدت في غرة آب ، راح النواب يتساءلون فيما بينهم ، ما اذا كان من المناسب او من اللائق طرح القضية على بساط البحث من جديد . وراح النائب الملكي مالويه ، تحت ستار تقييم المشاريع المقترحة على مكتب المجلس وتبيين حسنات وسيئات كل واحد منها على حدة ، يلخص بالاحرى ويشدد علانية على الهواجس والمخاوف التي تساور الوسط - اليمين . وأخذ يشدد ، بنوع خاص ، على المخاطر الكامنة في التأكيد للناس انهم احرار وانهم متسلون ، مع ان الوضع القائم او الراهن في المجتمع البشري ، ليس هو في الواقع ، وفي أكثر الاحيان ، سوى تابعة مسلسلة ، وعدم مساواة على طول الخط .

ومع هذا تبليغ منكم الجرأة على معاملة الناس ومصارحتهم بأنهم أحرار :

بين مواطنينا عدد لا يحصى من الناس لا مقتنيات لهم ولا مال ، يعتمدون في معاشهم الحياتية على عمل مضمون وعلى أمن مستتب ، وحماية موصولة ، ترمد عيونهم أحياناً ، لغير ما سبب ، من مرأى البذخ ويحرضون في ريقهم من ودية القراء .

فليس من يعتقد بينكم أيها السادة ، ولا شك في ذلك أنني اخلص من هذا القول بالاستنتاج ان هذه الطبقة من المواطنين ، لا حق لها بالتنعم بالحرية ... الا أنني ارى ... من الضروري جداً ، لهذا الفريق من المواطنين في هذه المملكة ، جعلهم حظه العاثر في وضع التابعية ، ان يقنعوا بالآخرى ، بما هيء لهم من الظروف التي تمت لهم والحالات التي تكتنفهم بدلاً من التشوق الى حريات اوسع والتطلع الى آفاق ارحب .

فهل يُباهد الناس بأنهم متساوون ؟ من الافضل ، قبل كل شيء ، التخفيف بالآخرى مما يباعد بينهم من فوارق مادية .

فلنأجهم هذا البذخ في الصميم ولننصده لاسبابه ومبعثه . لتحل الروح العائلية ... وعبة الوطن محل الحزبية وروح المعصية بيننا ، ونحل التمسك بالامتيازات والاعفاءات ... لنتم فينا هذه الفضائل والمكارم ... ان لنحاول أقله ، غرسها في نفوسنا قبل ان نصارع بصورة مجازمة هؤلاء الناس الملعدين وهؤلاء البشر المدمسين من كل نور ووسيلة ، بأنهم متساوون في جميع الحقوق مع عظماء الارض واغنيائها

واذا بالمجلس يصرف النظر عن الموضوع ويشيح بوجهه عن هذه القضية . الا ان المعارضة تماور الكرة متدركة هذه المرة بوسائل جديدة ، فاذا كان لا بد من الكشف عن حقوق الانسان الطبيعية والاعلان عنها ، فلماذا لا نعنى بالمقابل ، بتوضيح الواجبات واعلانها في الوقت ذاته ؟ فتقابل الاكثرية الاقتراح المقدم بالرفض القاطع . واذا ذلك ، يتزحزح الوسطاليين ، ولو الى حين ، عن موقفه المعلن . فتقر الجمعية ، نهاية الامر بشبه الاجماع ، ان لا بد من ان يسبق وضع الدستور اعلان حقوق الانسان وحقوق المواطن .

ويطل الرابع من آب والجمعية على بضع ساعات من الجلسة المسائية . فالقرارات التي اتخذت اثناء الليل ، والمناقشات الحادة الطويلة التي تلتها ، اوقفت لاكثر من اسبوع ، النقاش في القضية المطروحة على البحث ، واذا بهم يعودون للنظر في القضية في ١٢ منه .

وكان الوسطاليين قد اتخذ له موقفاً معيناً اساسه المشروع المفرط الحياء لاعلان الحقوق والواجبات ، هذا المشروع الذي اعده المكتب السادس في المجلس الوطني الذي كان يرأسه احد افراد حزبهم ، هو شمبيون دي سيه . فكان هذا الموقف مفاجأة للمجلس اوقعت في حيرة وارباكته ، فتبنى نص هذا المشروع واتخذ اساساً للنقاش . الا انه ابتداءً من العشرين في الشهر ، جرى في جلسة عامة اعادة النظر وصياغة جديدة جماعية في عملية عامة من التركيز والتحديد تتابع خلالها تشكيل اكثر ايات استرجعت بالتفصيل كل ما كانت فقدته بالجملة في القرار السابق . فلم يبق في وثيقة اعلان الحقوق التي تم الاتفاق بشأنها في السادس والعشرين ، شيء كبير من نص الاقتراح الذي تقدم في الاول .

سبق للمجلس ونادى ، مرثين مختلفين في الرابع من آب وفي الحادي عشر
المساواة المدنية منه ، بالمساواة المدنية ، وسيعلمها مرة ثالثة . فلهذا التشديد المكرر معنى
ومغزى خاصان . ان وثيقة اعلان حقوق الانسان لا تأتي على ذكر الغاء النظام الاقطاعي الذي
يؤلف نصراً مزدوجاً تحققه البورجوازية وجمهرة الفلاحين . الا انها تحرص على ان تكرر النص
الخاص بالمساواة ، هذا النص الذي يكرّس النصر ويجعل منه انجاز البورجوازية الامثل في
الدرجة الاولى ، القائم على المساواة الشرعية مع النبلاء .

واعضاء الجمعية التأسيسية يعمدون مع ذلك الى اعلان المساواة المطلقة لما فيه خير الناس
اجمع . فالخوف الاجتماعي الذي عبر عنه مالويه في خطابه كان يشع من كل تعبير من تعابير
المكتب السادس . فالصيغ الصريحة السامية التي تقررت اثناء الجلسة نزولاً عند ضغط الرأي
العام تنطلق عالياً وتعبّر خير تعبير عن الفوز المبين الذي سجلته الحركة الثورية .

نص مشروع المكتب السادس

النص النهائي

المادة الاولى - يولد الناس ويستمررون متساوين
في الحقوق . فالفوارق الاجتماعية لا يمكن ان
تركز الا على النعمة المشتركة .

مادة ٤ - لكل انسان من الحقوق ما يتساوى
مع ما يتمتع به من حرية وملكية .

مادة ٥ - لم نجد الطبيعة على كل انسان بذات
الوسائل التي تخولهم الافادة بنسبة واحدة من هذا الحق .
من هنا نشأت حالة عدم المساواة بين الناس . اللامساواة
هي من صميم الطبيعة البشرية .

مادة ٦ - نشأ المجتمع البشري على الشعور بحاجة
المحافظة على الحقوق تجاه عدم مساواة الوسائل .

وستحرص هذه الوثيقة على ان تبين وان تذيب ، من جديد ، بعد التأكيد المطلق بالمساواة
كما نصت على ذلك المادة الاولى ، النتائج المنبثقة عنها ، هذه النتائج التي نجدها مجرّفاً الواحد ،
او مضمرة في صلب النصوص التي تم الاتفاق عليها ، يوم ٤ و ١١ ، اي وفقاً للمساواة المدنية
والمساواة الشخصية والمساواة الضرائبية . فالنصوص التي وضعها المكتب السادس وتلك التي
وضعتها الجمعية تحمل الفوارق التي اشرنا اليها اعلاه :

لما كانت اولى واجبات المواطن خدمة المجتمع
وفقاً لطاقته وتبوّعه ، فمن حقّه ان يضطلع بأي
المواطنون متساوون في نظر القانون ويحق لهم تسلم
الوظائف والخدمات العامة وفقاً لكفاءتهم وطاقاتهم .
افضلهم أقومهم خلقاً وافرهم استعداداً .

ومحل كلمة « الواجب » و « الخدمة » استعملت الجمعية كلمة مساواة التي هي اساس
كل حق .

وعلى عكس المساواة المدنية تم اعلان حق التمتع بالحرية للمرة الاولى :
الحريات الفردية والحريات العامة وحرية العبادة .

فلم تُذكر الحريات الفردية او الشخصية اية صعوبة . وقد برهن الاطلاع على بيانات الطبقات

وثقاريرها عن اتفاق عام في هذا الشأن . وسيعطي النص الذي جرت الموافقة عليه ، مرة اخرى ، القضية الاساسية قوة اكبر ويبرزها بشكل اوضح من النص الاول الذي ورد في مشروع الاقتراح ، وسيظهر في مقدمة وثيقة اعلان الحقوق . فالعمل بموجبه سهل يسير : « لا يمكن اتهم اي انسان او توقيفه او سجنه الا في الحالات التي ينص عليها القانون ، ووفقاً للأنظمة المعمول بها . ويتعرض للملاحقة القانونية كل من يصدر اوامر استبدادية او يبلغها او ينفذها » . والعقوبات التي يتعرض لها المخالف لا تتضمن اي شدة لا محل لها . واللجوء الى الشدة يجب ان يكون « حسباً تقتضيه الضرورة بشكل واضح » . فالقانون الجنائي لا يمكن ان يكون له مفعول رجعي .

وتضيف الجمعية التأسيسية الى هذه الحريات الاساسية ، حرية الرء في التنقل والانتقال . فهو حر « بأن يذهب وان يبقى وان يسافر الى اي مكان يرغب فيه » .

والحريات العامة تتناول حرية النشر ، وحرية التعبير ، وحرية الاجتماعات السياسية وفقاً للعرف وكما سينص عليه القانون ، بعد حين . الا ان الاتفاق هنا ليس تاماً ، كما نرى ، اقله فيما يتعلق بالصيغة وبعض الفروق والتعديلات . فالمعارضة الجديدة تأتي من قبل رجال الاكبروس : « هنالك خطر على الدين والآداب في اطلاق الحرية للصحافة » . وكان من العسير جداً تحقيق شيء من التفاهم العام حول الموضوع . والنص النهائي الذي تم قبوله وأقر في النهاية ، نحن مدينون به لاحد النبلاء الاحرار هو الدوق لاروشوكو ، وهو كما يلي :

التعبير عن الافكار والآراء هو من اتمن الحقوق التي يتمتع بها الانسان . فلكل مواطن حرية الكلام والكتابة وحرية النشر بشرط ان يتحمل مسؤولية تجاوز هذه الحرية ، في الحالات التي ينص عليها القانون .

وستضيف الجمعية التأسيسية ، فيما بعد ، نصاً يتناول إلغاء المراقبة والغاء التعري وبالفعل بقيت الصحافة وستبقى حرة بالرغم من الملاحقات التي قامت بها الجمعية التأسيسية ، بعد ذلك بقليل ، ضد من يسيئوا استعمال هذه الحرية بنظرها او ضد من يقومون بالتحريض على العصيان . فقرار ١٧ آذار (مارس) ١٧٩١ الذي ألغى الجمعيات واعترف لكل صاحب مصلحة بحرية القيام ، بأي نشاط اقتصادي يرغب القيام به . وقد حرر من جهته المهن والحرف الخاصة بالطباعة وتجارة الكتب .

ومبدأ حرية الكلام الذي جرى اعلانه واقاراره بعيداً عن هذه التضييقات التي رافقت الاعلان عن حرية الصحافة ، يتضمن ما يشير الى حرية الاجتماع ، هذه الحرية التي لجأت اليها الثورة واستعملتها على نطاق واسع . وقد صدرت ، فيما بعد ، قوانين كرست هذا العرف . وبحسب منطوق المرسوم الصادر في ١٤ تشرين الاول (اكتوبر) ١٧٨٩ ، يتمتع المواطنون بحرية عقد الاجتماعات بهدوء ، عزلاً من السلاح في جلسات خاصة بقصد وضع المرائض والالتماسات . وبعد ذلك بأقل من سنة ، طلع قرار ١٣ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٧٩٠ الذي أيسد من

جديد ، حرية الاجتماع ، كما ان الجمعية التأسيسية نفسها ادرجت هذه الحرية ضمن المبادئ السياسية التي اعلنتها .

كذلك استعملت الثورة على نطاق واسع حق تأليف الجمعيات التي قامت الى جانب هذه النوادي العديدة من كل لون وصنف . وقد جرى الاعتراف بهذا العرف بموجب القرار الصادر عام ١٧٩٠ ، هذا القرار الذي اجاز تشكيل جمعيات حرة ولا سيما نواد سياسية . الا ان وثيقة اعلان حقوق الانسان ، والدستور نفسه لا يشيران الى شيء من هذا . وفي اواخر عهد المجلس الوطني ، حرصت الجمعية التأسيسية ، عند قيام الحركة الرجعية التي ظهرت اثر سادس اطلاق الرصاص في ميدان شان دي مارس ، على تنظيم هذه الجمعيات وضبط نشاطاتها ، وذلك باصدارها القرار المؤرخ ٢٩ - ٣٠ ايلول ١٧٩١ . فقد كان سبق لها وحظرت ، كما سنرى بعد قليل ، انشاء الجمعيات المهنية والعلمية . وباستثناء هذا النوع من الجمعيات ، ساد البلاد نظام من الحريات العامة ، بصورة مؤقتة .

وقد حدثت مناقشة حادة لدى البحث في حرية الضمير . وهذا ايضا قام أحد النبلاء المتحررين ، هو الكونت دي كستلان يقترح ما ألفت القسم الجوهري من صلب النص الذي تمت الموافقة عليه .

والصيغة التي تم تبنيها اختلفت كثيراً عن النص الاساسي الذي قدمه المكتب السادس .

المادة ١٦ - لما كان ليس في وسع التعاون ان يطال
الجنح الخفية ، ترتب على الدين وعلى الاخلاق ان
يسدا هذا المسد . فمن الضروري والحالة هذه ،
محافظه على حسن النظام في المجتمع ان يلقيا
الاحترام اللازم .
(فصلت هذه المادة وارسلت للجمعية التأسيسية
لمناقشتها) .

المادة ١٧ - الإبقاء على الدين يستدعي حتماً
قيام عبادة علنية . ولذا لا بد من احترام مظاهر
العبادة العامة .
(فصلت وارسلت للجمعية التأسيسية لمناقشتها) .

المادة ١٨ - كل مواطن لا يخلو هذه العبادة
يجب الا يتعرض لأي ازعاج كان .
المادة ١٩ - لا يجوز ازعاج أي كان لأرائه الدينية
بشرط الا يؤدي التعبير عنها الى الاخلال بالنظام العام
الذي اقره الدستور .

احل المجلس الوطني محل المشروع الذي ضمن الحقوق الدينية وحرية الاعتقاد والحريات الشخصية نصاً كان على الجمعية التأسيسية استكمالها ، ولم تستثن منه الا ما تعلق بحق الفرد في حرية الرأي حتى في امور الدين ، والتساهل المشروط لاقامة مناسك العبادة . فنحن لم نصل بعد الى حرية الضمير . فالمساواة التامة في الحقوق لم يُسلم بها لغير الكاثوليك ، الا في الرابع والعشرين من كانون الاول ، بينما استثنى نص صريح ، اليهود ، من هذا التدبير العام . فالقرار النهائي بشأنهم لم يصدر الا عام ١٧٩٠ و ١٧٩١ .

ووثيقة اعلان حقوق الانسان سجلت في عداد حقوق الانسان الطبيعية التي لا يمكن نسخها على الاطلاق ، حق التملك وحق التمتع بالطمأنينة ومقاومة الضغط ، وهو قرار تمت الموافقة عليه بالاجماع . فلتملك « هذا الحق المقدس الذي لا يمكن مسه ولا يمكن إنكاره على الانسان أو تجريده منه الا اذا اقتضت ذلك ، المصلحة العامة ، ولقاء تعويض عادل سابق » ، نص صريح تقدم به احد نواب اليسار هو السيد دي بور .

السيادة هذه الحريات والمساواة المدنية وحق التملك ، كل هذا في مقدور طاعية مستبد ان يعترف بها عند الاقتضاء . تبقى بعد هذا ، قضية السيادة . وراح اذ ذاك بعض البروسيانين يزعمون ان النظام الملكي الفرديكي ، قد رسم من قبل ووضع بكلفة أقل ، اساسيات كل حكومة ، هذه الاساسيات التي راحت الجمعية التأسيسية تقتفي أثرها وتحذو حذوها . الا ان الثورة الفرنسية جاءت من اسفل وطلعت من تحت فنادت بحقوق المواطنين في السيادة . فهي انبثقت من صميم الانسان وبواسطته لتعمل وتجري كل ما يعود عليه بالنفع .

فمبدأ السيادة الوطنية مبدأ عبرت عنه وطالبت به باتفاق الآراء تقريباً كل مشاريع القرارات التي رفعت الى مكتب المجلس ولو بصورة نظرية ، مجردة : من مشروع مونييه الى مشروع لافاييت ، الى مشروع سيبه . ان مشروعاً واحداً من هذه المشاريع يكاد لا يتعرض لهذا الموضوع بشيء . فاذا ما راح يؤكد : « ان القانون انما هو تعبير عن ارادة الامة » ، فعلى كل مواطن ان يسهم مباشرة باعداد هذا القانون . فقضية السيادة تُعرض الآن عرضاً جانبياً . فلا يؤتى قط على ذكر الملك أو الدولة ، حتى في أي من مواد الاربعة والعشرين .

تثبت وثيقة اعلان الدستور بالحرف الواحد ، تقريباً نص المشروع الذي قدمه لافاييت في ١١ تموز ، هذا المشروع الذي تبناه في ما بعد كثيرون ولا سيما مونييه . وقد نص فيما نص عليه : « ما من هيئة او فرد كان ان يمارس سلطة ما لا يكون مصدرها الامة » . ولعل ذلك من اتفاق الصدف بين الثورة المسالمة والثورة المجددة . فالاختلافات لم تلبث ان برزت حالاً على حدها ، تماماً كما حدث بعد ليلة ٤ آب ، اذ نشبت المعركة حول تطبيق المبدأ .

وقد جرى التصويت على المواد الاخيرة من وثيقة اعلان الحقوق في السادس والعشرين . ورفضت الجمعية في السابع والعشرين منه مواداً إضافية أخرى . واحتدم النقاش في الجلسة ذاتها بشأن الدستور حيث عادوا لقضية السيادة يستجولون مدلولها .

ما من احد في الجمعية التأسيسية وما من تيار فكري او سياسي في البلاد فكريوماً أن يكون النظام المعمول به غير نظام حكومة دستورية او النظام الملكي فهو أمر فوق كل جدل ونقاش . ولكن كيف يمكن التوفيق بين الامتيازات الملكية والسيادة الوطنية ؟ وكيف يتأتى التعبير ، من جهة ثانية ، عن « الارادة العامة » ؟ هل تحال القضية الى مجلس واحد تختاره البلاد ليفتي في الأمر بقرار يصدره بهذا الشأن أما يجب ان تقوم سلطة تمثيلية لهذا الاستمرار

الوطني تأخذ على نفسها استخلاص فرنسان هذه التبدلات وليدة النزوات العابرة؟ وهذه السلطة قد تكون ممثلة في الملك أو في مجلس الشيوخ أو في الاثنين معاً ، يتمتع كل منها بحق النقض . وراح المقران : لاي تولندال ومونييه يختاران الحل الأخير : حق نقض ملكي وحق نقض في مجلس الشيوخ ، لا حد له ، كما هو مفروض . اما حق الرفض التوقيفي فليس هو سوى مجرد حق يدور على الشجب أو الانتقاد .

وهكذا يتم التوازن بين السلطات . فالقول بمجلس وحيد ، من شأنه ان يعرض الدولة كثيراً لمناقضة نفسها بنفسها ويوجد فيها وضعاً مستمراً من عدم التوازن يساعد على إقامة الطغيان الديموقراطي في البلاد :

سلطة وحيدة في البلاد ، لا تلبث ان تلتهم كل شيء .
لا بد لسلطين فارسان الحكم في البلاد ان تقضيا الى نزاع لن ينتهي قبل ان تقضي الواحدة منها على الاخرى .
اما مع ثلاث سلطات فمن المقبول ان تبقى البلاد في توازن عام . انما يجب تشكيل هذه السلطات بحيث لو قامت اثنتان منها بمخاصمة الواحدة الاخرى اعادت الثالثة الهدوء الى البلاد .

يجري انتقاء اعضاء مجلس الشيوخ الفرنسي « من بين جميع الطبقات » ، أي من بين ابناء الطبقات الثلاث . ويمكن ان يقوم بعملية التعيين هذه الملك وممثلو المجالس الوطنية ، أو الملك وممثلو مجالس المحافظات أو ممثلو هذه الهيئات وحدها . ويكون في ذروة المنى ان يعمل بالوراثة في الوظائف ، غير ان الرأي العام الحالي لا يسمح قط بذلك . ولذا يجب الركون الى التعيين الدائم أو لمدة معينة ، وفي الحالة الاخيرة ، فرض شروط صعبة يجب ان تتوفر في من ينتخبونه .

يهم الملاك الفني او كثر من سواه ان يستتب الامن في البلاد ، ويخشى جداً لاكثر من سبب هذه الانتفاضات المتجددة .

وراح اليسار يعارض بشدة هذه الحجج عن طريق الصحافة وإثارة الشارع . فكيف السبيل الى اصلاح المفاصل أو المساوىء مع مجلسين يحاول كل منهما الشد بالحبل من طرفه الخاص . ولن يلبث مجلس الشيوخ أن يصبح ، شئنا أم أبينا ، ملاذ الارستوقراطية ، لا سيما عندما يكون اعضاؤه غير قابلين العزل أو معينين من قبل الملك . وبذلك « تتحكم الأقلية بالأكثرية » كما يلاحظ لانجونييه بحق . هل يكون من المنشأ ذاته وتم له بالتالي ، القيمة التمثيلية التي للمجلس الثاني ؟ في مثل هذا الحال لا خير منه ولا فائدة . فالاقتراع الذي جرى في العاشر من ايلول كان بمثابة كارثة على اللجنة الدستورية ، صوت ٨٤٩ عضواً ضد مشروع مجلس الشيوخ كما اقترحه مونييه ، مقابل ٨٩ غياب ، و ١٢٢ امتنعوا عن التصويت .

تناول الشق الثاني من المناقشة حق الملك غير المقيد بالرفض . فالقضية حق الملك بالرفض تبقى في الصميم ، حيث هي . ففي حال غياب أو عدم وجود مجلس الشيوخ ، الملك وحده يمثل عنصر الاستمرار « المحافظ » ، في الجسم التشريعي .

وراح مونييه يعلق باسم اللجنة الدستورية قائلا :

« لا نعرف حكومة قط تعتمد في عملها الاداري على ارادة الجماهير وحدها... من واجب اللجنة المقدس ان تعرب هنا امامكم عن المخاوف التي تساورها والنتائج الوخيمة التي تتوقعها من نظام ديمقراطي يدعى للفصل في خلاف الملك وممثلي الامة ، من لهم حق الاقتراع في المحافظات ، او ان نترك للممثلين الجدد حرية القضاء على كل ما يعرض انقسام السلطات على نفسها » .

فحق الرفض غير المقيد في شخص الملك هل يترك المجلس في وضع يستحيل عليه معه الدفاع عن نفسه ؟ فيراى لا يرى ذلك قط . وهذا سبب من الاسباب التي حملته على التصويت الى جانب هذا الرأي . باستطاعة ممثلي الامة أن يردوا على أي رفض لا يراعي المصلحة ، بتدابير جذرية حازمة وقاسية ، شديدة الفعالية ، منها مثلا عدم إقرار ضريبة الاراضي وعدم التصديق على الاعتمادات الحربية .

وراح معظم الخطباء الذين تعاقبوا على الكلام يأتون بمجبعهم ضد حق الرفض غير المقيد للوصول بذلك الى حق رفض توقيفي او تعليقي ، والا لم تخرج « القرارات التي تتخذونها - كما يقول لاجوينه - عن كونها مجرد التماسات لا غير » . وقد عارض نيكرو ومجلس الوزراء هذا الاتجاه واعرب نيكرو رسمياً عن موقفه هذا . ولم يجر الاتفاق ، والحق يقال ، بشأن تحديد مدة الرفض التوقيفي . وقد التف حول المبدأ غالبية ضمت ثلثي اعضاء المجلس . وفي الاقتراع الفاصل الذي وقع في ١١ ايلول ، اندحر المعتدلون من جديد . فنتائج حق الرفض قد تستمر طوال مدة المجلس ، على الأقل ، اي مدة سنتين . ورفض الملك يرتفع بن ذاته في الدورة التشريعية الثانية التي تأتي بعد الدورة التي صدر فيها الرفض الملكي .

وهكذا فالكلمة الاخيرة تبقى للامة بعد فترات قصيرة ، ما لم تحدث ظروف خاصة كاعلان الحرب مثلا ، تفسد على الناس مفهوم الزمان والطوارئ .

٣ - الديمقراطية البورجوازية

نحو ديمقراطية قوامها دافعوا الضرائب

فالامة التي يمثلها مجلس تشريعي وحيد لا يلبث ان تعمل فيها ، مواطنون عاملون وسليبيون بعد لأي قصير ، كفة الامة على كفة الملك . ولكن من هذه الامة السياسية يستثنى شطر كبير من الشعب . فبالرغم من مبدأ تساوي المواطنين في الحقوق ، هذا المبدأ الذي وعد باعتقاد الاقتراع العام ، اقر المجلس الاقتراع المبني على المكلفين .

فالمجلس الوطني لم يفكر يوماً بالاتجاه الاول . ففي نظر الاغلبية الساحقة من اعضاء الجمعية التأسيسية ، كانت الملكية الضمانة الوحيدة التي تنهض على التجربة والروح الاستقلالية والحسنة الاجتماعية ، والتي يمكن ان تعتبر بالفعل الاساس الوطيد للمواطنة . وقد رضي فريق من المعتدلين ، بينهم مونييه ورفاقه الذين كانوا يسيطرون على اللجنة الدستورية ، منذ شهر آب ، ان يشارك في عملية انتخاب ممثلي الامة : « اكبر عدد ممكن » من الناخبين ، ناخبين من الدرجة

الاولى ، على الاقل ، اذ ان عملية الاقتراع تجري بشكل غير مباشر اي على درجتين . فالحد يستم بتعيين من تتوفر فيهم شروط الانتخاب وبوسائل اخرى : كالمجلس الأعلى وحق الرفض المزدوج المطلق . ان مدى اتساع حق الاقتراع في الدرجة الاولى من شأنه ان يقيد الجمعية التأسيسية ويطبعمها بطابع خاص كما يرى الوسط اليميني .

وكان من رأي توريه ، مقرر اللجنة الجديدة ، ان تُعطى صفة المواطن العامل وبالتالي حق الاقتراع ، في الدرجة الاولى ، لهؤلاء المواطنين من الفرنسيين الذين يتوفر فيهم الشرطان التاليان : صفة الاستقلال الذاتي اي ان لا يكونوا من الاجراء ، ويدفعون ضريبة مباشرة قيمتها قيمة ثلاثة ايام عمل ، اي من ليرة ونصف فرنسية الى ثلاث ليرات ، وبعبارة اخرى اي ما يقرب من فرنك ونصف الى ثلاث فرنكات للجرمينال وعبثاً راح الاب غريغوار يلوح بخاطر ارستوقراطية الاغنياء ، كما راح دي بور وروبسبير يلوحان بوثيقة اعلان حقوق الانسان . وعلى عكس ذلك ، راح دوپون دي نيمور بوصفه من اكبر علماء الاقتصاد المبني على الزراعة ، يحاول حصر حق الاقتراع في الملاكين وحدهم . واخيراً اقرت الجمعية المشروع الذي اقترحتة اللجنة .

وهكذا جعلت الجمعية التشريعية من ٤٠٣٠٠٠٠٠ مواطن فرنسي مواطناً عاماً كما جعلت نحواً من مليونين مواطنين سلبين . وهكذا اصبح في وسع ثلثي الفرنسيين ان يقرعوا . واسقط القانون حق الاقتراع ، تلقائياً ، عن الاجراء الذين هم في خدمه الغير او الفعلة الذين يعملون مأجورين في الحقول ، بمن يؤلفون شطراً كبيراً من البروليتارية في الارياض . ولا يدخل في هذه الفئة طبقة المزارعين والمرايحين والصناع وكذلك جمهرة صغار الملاكين واصحاب الاملاك الموزعة والمشتتة وان كانوا عمالاً او مياومين . ففي مقارنة هذا الوضع بالوضع الآخر الذي اوجد رجوع الملكية « المتحررة » بتحويلها حق الاقتراع للمواطن الذي يدفع من الضرائب ٣٠٠ فرنك فاذا بعدد ٩٠٠٠٠٠ ، او بمقارنته بالوضع الذي اوجدته الملكية في تموز ، اذ حصرت حق الاقتراع بمن يدفع ٢٠٠ فرنك ضريبة ، فبلغ عددهم ١٦٠٠٠٠٠ ناخب عام ١٨٣١ .

من الواضح ان ملايين المواطنين من دافعي الضرائب الذين اعطتهم الجمعية التشريعية حق الاقتراع ، يشتركون في تأليف الهيئات الاولى التي يوكل اليها اختيار ممثلها للاشتراك في انتخابات الدرجة الثانية . فلم يخطر للهمد اي تدبير او وسيلة اخرى لانتخاب الهيئات التشريعية . في هذا النظام من انتخابات الدرجة الاولى الذي وضعته الثورة ، ينتخب النواب مندوبين من قبل الشعب يُعهد اليهم الاقتراع في الدرجة الثانية لانتخاب ممثلي الامة . اما الانظمة الاخرى التي عرفها القرن التاسع عشر والتي اتُخذت اساساً لها دافعي الرسوم الضرائبية ، فلم تكن لتنتخب هذه الهيئة بل تعين تلقائياً من بين دافعي الضرائب .

وبرز الاختلاف حول حق الانتخاب . فمندوبو انتخابات الدرجة الاولى الانتخاب الضرائي الشعبية الذين يتولون هم انفسهم انتخاب ممثلي الشعب الذين تتألف منهم الجمعية التشريعية ، جرى انتخايمهم وفقاً لقرار صدر عام ١٧٨٩ ، من بين دافعي الضرائب المباشرة ، مبلغاً يعادل قيمة عشرة ايام عمل ، اي ما تتراوح قيمته بين ٥ - ١٠ ليرات . وهكذا نرى ان ثلاثة ارباع المواطنين العاملين يتوفر فيهم هذا الشرط ، وهكذا تبدو قاعدة الانتخابات الشعبية الاولى واسعة جداً الا انه عندما اعيد النظر في النصوص الدستورية على اثر حادث اطلاق الرصاص في ميدان شان دي مارس ، راحت اللجنة الدستورية تقترح رفع هذا المبلغ الى اربعة امثاله ، وهكذا اصبحت الطبقة الوسطى ، كما يلاحظ برناف ، هي صاحبة المسؤولية الكبرى في انتخابات ممثلي الامة ، « اذ ان الطبقة الوسطى هي التي تمثل اصحاب الثروات » ، دون ان يكون الانتخاب وفقاً على الاغنياء وحدهم ، اذ كان من اللازم وضع حد لهذه الطبقة التي كان منها الاكبر الدس والتبئيس ونشر الاخبار المشوشة والتلفيقات الهدامة ، تهيئة لنظام جديد . وبعبارة اخرى كان لابد من اتخاذ اجراءات زجرية ضد فراغ صبر الصحافة ونزقها وضد الشعارات التي ترفعها النوادي الثورية ودعاياتها . وراح روبسبير مهاجم باسم حقوق الانسان ، اقتراح اللجنة قائلاً :

« اعترفتم ... للمواطنين بحق استلام اي وظيفة وممارسة اية خدمة عامة دون اي ميزة او فارق للواحد على الآخر غير محامد الاخلاق وطبيب الاستعداد . فما الفائدة من مثل هذا الاعتراف او الوعد البراق طالما لحستم موافقتكم في الحال (بعض التصفيق في اقصى مقاعد اليسار وبين النظارة) . وماذا ، وماذا يهنا؟ الا يوجد بعد نبلاء اقطاعيون اذا ما اقمتم مقامهم بالفعل فارقاً معنوياً او مادياً تجمعونه اساساً لحق سياسي ؟ ... وهذا التناقض الذي تقعون فيه يخولنا ان نشكك بحسن نياتكم وباخلاصكم (تصفيق بين النظارة) .

وللحال نهض برناف يرد على هذا الكلام ملاحظاً بحق ان المعارضة تخلط بين « الحكومة الديوقراطية » و « الحكومة التمثيلية » . فالدستور اعترف بهذه وأقرها ورفض تلك ، مع العلم . أن « وظيفة الناخب أو المقترح ليست حقاً له قط » .

واستبدلت الجمعية في نهاية الامر شرط الاربعين يوم عمل ، بنظام اكثر اعتدالاً من النظام الذي اقترحته اللجنة وأكثر تنوعاً ، مميزة بين المدن التي يزيد سكانها على ٦٠٠٠ نسمة والمدن الاخرى والارياف . فالضريبة التي تخول دافعها حق الاقتراع تعادل رسماً ضريبياً يتناوح بصورة تقريبية وفقاً للحالات والاضاع ، بين ١٢ - ٢٥ ليرة . فاذا لم تستثن البروليتارية بالمعنى الحصري ، من الهيئات الناحية في الدرجة الاولى ، فقد استثنيت بالفعل من الهيئات المكلفة انتخابات الدرجة الثانية ، وحرمت بالتالي من الاشتراك بالتمثيل الوطني . إلا أن جماهير البورجوازية الصغرى ، كاصحاب الحوانيت وعدداً كبيراً من اصحاب المزارع وعناصر مهمة ممن يؤلفون طبقة أنصاف البروليتارية كالمربعين مثلاً ، يؤلفون معاً ، على الاقل من الوجهة النظرية ، مجالاً رحباً لانتخاب هيئات الدرجة الاولى . وهكذا نراهم يبتعدون كثيراً ، هذه

المرة ، عن الحكمة الاجتماعية التي اعتمدتها انظمة الحكم التي عمل بها خلال عهدي لويس الثامن عشر ولويس فيليب ، هذه الحكمة التي قامت على معدل ضرائبي تحدده عام ١٧٩١ بين ١٢ - ٢٥ ليرة ، والربسم الضرائبي الذي 'فرض على أقلية المواطنين في القرن التاسع عشر والذي تراوح هو الآخر بين ٣٠٠ - ٢٠٠ ليرة .

انجذبت افكار اللجنة الدستورية التي سيطر عليها الوسط - اليمين الى جعل حق المارك الفضي الاقتراع محصورا باصحاب الملكية العقارية . وقد خطر على بال مونييه حصر هذا الحق بن عتدم ثروة عقارية تساوي ١٢ الف ليرة . وراح كازاليس يزايده على ذلك مشروطا بالاحرى ، على من يتمتع بحق الاقتراع أن يكون له من ربيع اطيانه دخل يبلغ ١٢٠٠ ليرة . وبذلك تم الاحتفاظ على اساس من المساواة مسح الارستوقراطية ، بالتمثيل الوطني في أقلية ضئيلة من اصحاب العقارات والاملاك . فاللجنة الدستورية الجديدة التي جرى تعيينها في ايلول ١٧٨٩ ، عادت الى الثروة العقارية الحقوق التي تمتعت بها من قبل ، اذ كان يكفي المواطن ان يملك عقاراً ما ليتمتع بهذا الحق . ثم ظهر فجأة شرط لم يلبث أن ارتدى شهرة واسعة ، هو شرط « المارك الفضي » : وحدهم يُنتخبون اعضاء في الجمعية التأسيسية ، المواطنون العاملون الذين يدفعون من الضرائب ما يساوي قيمة « مارك فضة » أو ما يعادل قيمة ٥٠ ليرة . وراح بيتيون وباربر والاب دي لامارن وحتى ميرابو نفسه يهاجمون باطلا هذا الاقتراح الذي حظي في نهاية الامر بموافقة الجمعية فأقرته وعرفت أن تحافظ عليه باكثرية ضئيلة بالرغم من الهجمات المتكررة التي قام بها اليسار المتطرف مع شطر من اليسار ، وبالرغم من الحملات العنيفة التي قامت بها الصحافة الحزبية . وقد ذهبت اعادة الملكية الى فرنسا ، والنظام الملكي الذي أعلن في تموز ، الى ابعده من ذلك ايضاً ، عندما اشترطاً أن يكون صاحب حق الاقتراع لممثلي الجمعية التشريعية من يدفع من الضرائب الف فرنك ، وهو مبلغ انزل الى ٥٠٠ فرنك ، عام ١٨٣١ .

وشروط « مارك الفضة » غير المرغوب فيه لم يلبث أن اختفى وزال من الوجود ، عند إعادة النظر في الدستور ، عام ١٧٩١ ، مقابل شرط إسقاط الضريبة المترتبة على حق الاقتراع لناخبي الدرجة الثانية . وهكذا أمكن انتخاب ممثلي الامة من بين جميع المواطنين العاملين . وتسيطر ، في نهاية الامر ، البورجوازية على الهيئة الانتخابية كما انت اعيانها كانوا مدعويين لتمثيل دور حاسم . ولزعت الجمعية الى مهالة الفئات العليا بين هذه الطبقة ونبتت جانباً الشطر الأكبر من البروليترارية بعد أن رأت في مؤازرتها لها شراً يفوق المؤازرة التي قد توفرها ، أقله في المدن الصغرى ، لبعض العناصر البورجوازية الصغرى واصحاب الحرف .

فالقاعدة الانتخابية بقيت ، مع ذلك ، رحيبة واسعة . فالقداى من اصحاب الطبقات الممتازة اصبحوا ، بالرغم من محافظتهم على مالمهم من نفوذ اجتماعي اقوى بكثير مما يوليهام اياه

عددهم ، كمية مهمة ، أقله في البدء . وهكذا تحقق الانتصار ، من هذه الناحية ، على النظام القديم ، كما ظهر من جهة أخرى ، مجتمع قوي لا اثر فيه للطبقات ، حتى بين أمة حق الاقتراع فيها يتولاه الثلثان من السكان . فالاشداء من بين الذين قاموا بهذه الثورة المجددة ، والذين عدوا بين صفوفهم زعماء بارزين استطاعوا ان يحافظوا على مراكزهم واقدارهم .

التنظيمات الادارية والمعدية
ان توزيع السلطة التنفيذية بين الشطر الذي يدفع الضرائب في الأمة وبين الملك ، لا يبدو ، بالرغم من كل المظاهر ، بأقل انصافاً من السلطة التشريعية . صحيح ان الملك « وحده » يعين الوزراء ويقيلهم ، ويعين السفراء وقادة الجيش والمارشالات وامراء البحر ، وجانباً كبيراً من اصحاب المراتب العليا في البلاد ، « وفقاً لأحكام القرارات والمراسم المعمول بها في كل ما يتصل بقرفيهم » غير ان هذا القسم الهام من السلطة التنفيذية ممثلة بالادارة العامة في الولايات ، يخرج من يده بالسكية تقريباً . فوفقاً لأحكام المرسوم الصادر في ٢٢ ايلول ١٧٨٩ ، تقسم المملكة ، ادارياً الى محافظات *Départements* وهذه بدورها الى أقضية ، فناحية . ويقوم من لهم حق التصويت من سكان المقاطعات والأقضية والنواحي انفسهم بانتخاب حكاهم والموظفين الاداريين ، كما يقومون بانتخاب ممثليهم في المجالس البلدية ، ويدعون للاقتراع من جديد عندما يحين موعد الانتخابات .

ولعله عدم وجود ممثل دائم للسلطة المركزية في هذه الادارات الاقليمية او المحلية ، فتأثيرها فيها يكاد لا يذكر . وقد نص القانون « على انه لن يقوم اي وسيط » بين هذه السلطة والسلطة المحلية في المقاطعات . وهكذا زال من الوجود كل اثر للمفتشين ونوابهم . صحيح ان مرسوم ١٥ مارس ١٧٩١ يعترف صراحة للملك ان يحل ، على مسؤولية الوزير ، كل ادارة في المحافظة لمحاول العصيان او التمرد ، ولكن هو المجلس الذي يجب ان يشعر بالامر والذي له الكلمة الفصل في نهاية الامر . كل محافظة مكلفة بأن تشعر المجلس التشريعي بالارامر الملكية المخالفة للقوانين المرعية الاجراء . وادارة الاقضية ، تنعم هي الاخرى ، بالاستقلال تجاه السلطة التنفيذية . اما البلديات ، فالمرسوم الصادر في ١٢/١٤/١٧٨٩ ، يصرح بأن يقوم المواطنون العاملون فيها انفسهم بانتخاب المجالس البلدية ، بما فيها رئيس المجلس البلدي . وهكذا يبدو ان النظام اللامركزي الذي فرضته الجمعية التأسيسية انما كان يخفي تحسباً للحركات الثورية .

وهكذا سيكون للنظام عن طريق الاقتراع العام اداريون على شاكلته ، كما سيكون له قضاء يختارهم الناخبون انفسهم مباشرة ويخضعون للتجديد دورياً . فمذ ٣ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٧٨٩ ، أجل المجلس ، الى أجل غير مسمى ، اجتماع البرلمانات . وكرس المرسوم الصادر في ١٦ آب ١٧٩٠ نهاية هذه الاقليات القضاية القديمة كما كرس نهاية القضاة السياديين ، وانشأ عوضاً عنهم محاكم قضاء ، وقضاة صلح ومحاكم تجارية . ومفوضو الملك وحدهم يمثلون تجاه قضاء

الاقضية وظيفة النائب العام ويعينون من قبل السلطة التنفيذية . الا انهم لن يثلوا وظيفه النائب العام في الامور الجنائية . والمواطنون العاملون ينتخبون بأنفسهم قضاة الصلح . اما قضاة المحاكم التجارية ، فينتخبهم ، مبدئياً ، أبناء المهنة انفسهم . والقضايا الجنائية ينظر فيها محكمون . ومحكمة الجنايات في المحافظة التي نص على انشائها في كانون الثاني ١٧٩١ تشكل من رئيس ومدع عام منتخبين ومن قضاة يجري انتدابهم من محاكم الاقضية .

وليس من درجات استثنائية . فالاستئناف يجري من محكمة قضاء الى محكمة قضاء أخرى . كما ان اعضاء محكمة التمييز يجري انتخابهم بالاقتراع العام ، وهي المحكمة التي نص على تشكيلها المرسوم الصادر في ٢٧ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٧٩٠ . وتشارك المحافظات مناصفة ، على التوالي ، بعملية الاقتراع .

رجال الاكليروس انفسهم يؤتى بهم انتخاباً ، اقله فيما يتعلق
الاكليروس والدستور المدني بالثورانيات والاسقفيات وفقاً لهذا الدستور . فحق انتخاب
تخدمه الدين هو من احكام هذا الدستور الاساسية .

وهذا الدستور المدني الذي نظم وضع الاكليروس ورجال الدين في البلاد ، صدر في تموز ١٧٩٠ . فالعملية ، كما تصورها السيد دوزيه تتم بالاقتراع العام . وبناء على دعوة رئيس رابطة الاساقفة في المقاطعة وتعليقاته ، يجتمع الناخبون - هؤلاء الناخبون انفسهم الذين يلتخبون مجلس المقاطعة ، يوم احد ، في الكنيسة الكبرى في مركز القضاء ، ويلتخبون ، بعد الاستماع الى القداس ، اسقفهم بالاكثرية المطلقة . ويجري الانتخاب من بين كهنة الراعيات ، والنواب الاسقفيين ، ورؤساء النواب الاسقفيين أو رؤساء المدارس الاكليزيكية ، الذين سبق لهم وعملوا ١٥ سنة في خدمة النفوس في الابرشية . فأمام الاكليروس الوطني المتوسط النسب ، كل الحظوظ المؤاتية . وبذلك تصبح الاسقفية مهنة بورجوازية ، حرة . وقد ازيحت سلطة البابا . فالمتروبوليت أو اقدم اسقف سيامة في المقاطعة يقوم بمراسم السيامة القانونية . ويُعلم الخبر الجديد المنتخب الكرسي الرسولي بارتقائه السدة الاسقفية ، وكذلك خوارنة الراعيات يُلتخبون وفقاً للنظام نفسه بواسطة الهيئات الانتخابية في القضاء ، من بين رجال الاكليروس الذين تولوا مجلس سنوات على الأقل ، ووظيفة نائب اسقفي الابرشية ، ويجري تكريسهم من قبل الاسقف الذي جعل مرتبه اقل بكثير مما كان عليه هذا المرتب من قبل ، بينما اخذ الكاهن يقبض اكثر بكثير مما كان يقبض في الماضي ، اي زهاء ١٢٠٠ ليرة على الأقل ، علاوة عن السكن والحديقة امام المنزل ، بينما يتناول نواب الاسقف ٧٠٠ ليرة . وعلى الجميع ان يتقيدوا بفريضة الإقامة حيث هم معيّنون .

وكلا الفريقين يمتهران من موظفي الادارة العامة ، موظفي لدى الامة التي تدفع لهم مرتباتهم . وهم ملزمون بوصفهم موظفين ان يؤديوا في كنائسهم قسم الولاء قبل الشروع باقامة

القداس الراعي ، بأن يخلصوا لوطنهم وللقانون وللملك ، وان د يحافظوا ، بكل قواهم على الدستور الذي سنته الجمعية الوطنية وصادق عليه الملك .

وها هو الاكليروس نفسه يُؤمَّم بعد ان تأممت املاكه وممتلكاته . اما تأميم الاكليروس الرهباني فقد كان عملية اصعب واشق ، اذ لم يكن بوسع الاقتراع هنا ، ان يلعب دور التصفية والتنقية الذي لعبه هناك . والتحرز المعادي للنظام الجديد يبرز على اقمه ، في المرسوم الصادر في ١٣ شباط (فبراير) ١٧٩٠ الذي يَعد الرهبان الذين يخرجون على رهبانياتهم بتعويض مالي . وقد نَظر المرسوم المذكور النذور التي ستبقى من الآن فصاعداً دونما مفعول مدني . فالقانون لم يعد ليُقف بجانب المخالفات التي تعبت بالنذور : فالرهبان الحرية العامة بترك الحياة الرهبانية والزواج ، كما بإمكانهم ان يرثوا وان يورثوا ما يشاؤون . وهكذا هدف النظام الجديد الى حل الرهبانيات دفعة واحدة دون ان يذهب الى تحريمها بالمرة .

فالاكليروس العامل في خدمة النفوس اخذ يقاوم ورفض التقيد بقسم الولاء المترقب عليه . وسار الاساقفة في مقدمة المعارضة والمقاومة . وقد اعتبر المرسوم الذي صدر في ٢٧ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٧٩٠ ، مستقيلاً من وظيفته في خدمة الدولة ، كل رجل من رجال الاكليروس لا يؤدي قَسَم الولاء في خلال ٨ ايام من تاريخ صدور المرسوم ، وحرص المجلس على ان يؤكد بان حلف اليمين يجب الا يرافقه اي تفسير او تضمين او اكتفاء او احتفاظ بالرأي . ونشبت على الاثر حرب دينية في معظم المحافظات ، ولا سيما في تلك المحافظات التي تعد اكبر عدد من الكاثوليك من سكانها او من الكهنة الذين لم يؤدوا قسم الولاء ، كمجموعة محافظات الغرب من كلفادوس الى بريتانيا حتى محافظة الفاندية ومحافظة الشمال وبا دي كاليه والرين الاسفل والموزيل ، ومحافظات الجنوب الشرقي من السلسلة الوسطى . وكان بهذه المناطق التي تقطنها اغلبيية ريفية حاسمة والتي تبدلت منها الاوضاع على اثر حركة التصنيع المصري والتي رأى فيها اندريه سيفريد واقتباع مدرسته المركز الرئيسي للمحافظة ، تبرز فيها روح محافظة شديدة بمزول عن كل اثر لرجل الكنيسة على محيطه ، بل تأثير المحيط على رجل الدين .

كذلك حدث صدام بين البابوية والعهد الجديد . فجاء هذا الخلاف الحاد مظهرأ جديداً لمطالب الكنيسة الفاليدانية ، كما ان هذا التصادم كان من جهة ثانية مظهرأ قوياً لهذه الخصومة الجدريه التي قامت بين المجتمع الثوري الجديد وبين اكبر سلطة روحية في المجتمع الطبقي ومع الملكية الرسولية ، اكبر واغوى المراكز المحافظة في اوربا ، اذ ذاك . واحتار البابا بيوس السادس في امره ، ولم يتخذ موقفاً جلياً الا بعد ان رأى موقف مصاف الاحبار في فرنسا . فالبرامات البابوية التي اصدرها في ١٠ آذار (مارس) و١٣ نيسان (ابريل) ترمي بالحرم علانية ليس الدستور المدني للاكليروس والكهنة الذين ادوا يمين الولاء له فحسب بل ايضاً الثورة الفرنسية نفسها . فهو يتكلم باسم الله الخالق وباسم الناموس الذي لا يُنسَخ . وقد تعطلت لفة الكلام بينه وبين المجتمع الجديد .

وقد صمدت الجمعية التأسيسية في وجه الفتنة بعد ان حملتها المدن حملاً على هذا الموقف المسير
وشدت من ازرها . ولذا راحت تقطع علاقاتها مع البابا وتضم مدينة افنيون التي صوتت بأكثرية
ساحقة للانضمام الى فرنسا . اما في الجبهة الداخلية فقد حققت نصراً أكيداً . فالكليروس
الدستوري او المدني اصبح كاملاً في اواخر ١٧٩١ . وقد اصبح الاساقفة بنسبة ٧٠٪ من اصل
كهنة عملوا من قبل في خدمة الراعويات .

اما البورجوازية فقد بقيت على انقسامها الشديد . فبالرغم من فترة انصرمت بين التردد
والمساومات والتحسب لردة يقوم بها انصار النظام القديم ، فقد نزع وجوه القوم فيها ، شيئاً
فشيئاً للترفع في دست معظم السلطات التشريعية والادارية والقضائية والروحية . فقد تمسكت
بهمة مد البلاد بأطر وطنية وقضاة وطنيين ، وكهنة وطنيين ومربين وطنيين . فالتربية العامة
يجب ان تحرر من سيطرة رجال الدين واحتكارهم لها وان تلقى بين ايدي الامة . فهي من هذه
المهام الرئيسية التي يترتب على النظام الجديد الاضطلاع بها ، وهي تبعة يؤكد الدستور وجوب
تحملها والقيام بها ، عندما يؤكد :

يصار الى انشاء وتنظيم مصلحة عامة للتعليم تعني بامرر تعليم المواطنين يكون من اهدافها الاساسية نشر المعاهد
التربوية تدريجياً وفقاً لنظام مدرّوس يتناول جميع فواحي الدول .

ولعل ما هو افضل من ذلك هو أنه نشأ في جميع انحاء فرنسا بصورة عفوية تلقائية شعور
عميق بإيقاظ الروح المدنية بين المواطنين . وراخ الدستور نفسه يعمل على بعث هذه الروح ، اذ
جاء فيه بالنص الواحد :

تنشأ في البلاد اعياد وطنية ترمي لتخليد مآتي الثورة الفرنسية والمجازاتها والى شد اواصر الاخوة بين المواطنين
وازدادهم تعلقاً أكثر فأكثر بدستور البلاد والوطن والتعلق بالقوانين المعمول بها .

وبدا للنظام الجديد أن يجتذب اليه النفوس ويستميل القلوب ليس عن طريق التحكم
بالافكار ، بعد أن اصبح الرأي العام من الامور التي تهتم لها الحكومة وتحسب لها الف حساب .

ثانياً — النظم الاقتصادية

قلبت الثورة التشريعية نظام البلاد رأساً على عقب بإيجادها نظاماً
حرية العمل وحرية التنقل
ضرائباً قوامه النخبة بين الطبقة البورجوازية العليا والوسطى .
وقد قلبت كذلك النظم الاقتصادية دور أن تدخل على المؤسسات والمنظمات القائمة
تغييرات جذرية وتعديلات اساسية . وتمكنت البورجوازية من أن تسيطر تماماً على هذا
القطاع وتتحكم به . فسياسة تدخل الملك في الامور الاقتصادية التي انحسر تيارها وسارت
القهقري منذ منتصف القرن ، تركت ما يلزم من حرية التصرف للمناهج والخطط التقدمية
المتحررة ولا سيما في قطاع الاسعار والارباح وهي التي تمد بحق من أهم مقومات النظام المالي

والتي عانت كثيراً من نظام الحكر والإعفاءات ، هذا النظام الذي اقام الصعوبات في وجهه المنافسة التجارية والصناعية : وهو احتكار جماعي من قبل رؤساء النقابات استأثرت به بعض الاستثمارات الكبيرة والمصانع وبعض الشركات التجارية . وقد حددت التعريفات الجمركية لحماية التجارة من حركة انتقال المحاصيل ، سواء في الداخل وفي الخارج ، كما وقفت حاجزاً في وجه هذه التجارة الضرائب ورسوم الباج والدخولية . وكذلك جمدت الاوقاف الكنسية جانباً كبيراً من رأس المال ممثلاً في الثروة العقارية . اضيف الى هذا كله حقوق ارتفاق سيادية او طائفية كانت تترتب الى حد بعيد ، جانباً من الملكية الزراعية .

وقد حرصت الجمعية التأسيسية على ازالة هذه المعوقات التي حدثت كثيراً من حرية العمل وحرية المرور . وحررت من كل ضغط النشاطات المبدولة لتحقيق الارباح المشروعة ، ففتحت بذلك الباب على مصراعيه امام اقلية رأسمالية عرفها القرن التاسع عشر . الا انها لم تنظر الى ابعاد من النظام الاقتصادي الفردي او الجزأ الذي سيطر على العصر ، كما انها لم تفكر قط ان بإمكان الحرية ان تقضي الى شيء آخر ، الى ديموقراطية متنافسة قوامها المزارعون وارباب الصناعات والتجار ورؤساء المصانع ، والتي رأت في معامل النسيج ومغازلها المائدة خير ما يمثل هذه الصناعة الضخمة . وكثيراً ما يحملها الضغط او الحتمية الثورية على التصلب في موقفها . والسياسة الاقتصادية تقيم وزناً كبيراً وتحسب حساب الرغائب والحاجات التي تحيى في نفوس وصدور عدد كبير من زبائن البورجوازية حتى رغائب الجماهير الشعبية ، عندما يتبينون انها لا تتعارض قط مع مصالحها الاساسية .

وقد ادت حرية العمل في الصناعة والتجارة بصورة عملية ، ولو مؤقتاً ، الى إلغاء نظام كثيراً ما جمع الى الحكر وما يمثله من امتيازات شرعية ، القوة التي يمثّلها الرأس المال . اما التسهيلات الجديدة التي تتيحها حرية التنقل او المرور ، فتتمثل على احسن وجه بالقضاء على الضرائب غير المباشرة ، والتعهدات المالية ، ورسوم الدخولية وضريبة الملح ، وهذه الرسوم الموضوعة على المواد الاستهلاكية . ان تصفية الاوقاف الكنسية يعود بالخير المشترك ، انما مع تفاوت ، على البورجوازيين والفلاحين . وكذلك قل عن تحرير الاراضي « من القيود الاقطاعية » التي تكبلها . وبعد ان اعادت الجمعية التأسيسية الى محله الطبيعي ، المذهب الفردي ، اي هذه النظرية التقدمية التي تجعل من الفرد العامل الوحيد الحر ، والعنصر الوحيد الحر الذي باستطاعته ان يخلق الثروة ويعمل على تسهيل انتقالها ، وتجعل منه السيد الوحيد الحر لارضه ، تبدو لنا ، في الوقت ذاته في ما لها من معان مختلفة وما لها من متناقضات ، الوسيلة الوحيدة للانتاجية ولتأمين المساواة في التنافس ، كما تبدو ، الى حد كبير ، ولوقت قصير جداً ، محور سياسة ترمي لتأمين الرفاهية الاجتماعية بين الناس .

١ - حرية التصرف وإلغاء الاحتكار

يبدو الاحتكار هذا الشكل الرئيسي الذي يتلبسه الامتياز المتبادرات المهنية دليل ، أب الاقتصادى ، امرأ يتعارض تماماً مع مجتمع لا اثر للطبقات فيه . وباعتبار النقابات المهنية شكلاً من اشكال الاحتكار ، فقد كُتِبَ عليها ان تزول من الوجود . فالثورة لم تبت في القضية دفعة واحدة ، هذه القضية التي حرص الدستور الموضوع عام ١٧٩١ ، التشديد عليها بصورة بارزة .

فقد انقسمت الطبقة الثالثة رأياً بشأنها ، بعد ان برز هذا النظام ، نظام النقابات بصور مختلفة ، وأنت بنتائج متعارضة وتلبست اشكالاً واوضاعاً متباينة . صحيح ان هذه المنظمات النقابية تألفت من رؤساء حرف واصحاب مهن ، يمين عليها كلياً القيمون على هذه الحرف ، الا انها كانت تنزع بالفعل الى اقاحة احتكارات والى الحد من النشاط الاقتصادي والتحكم به . ومعظم اعضاء هذه النقابات انفسهم شعروا بشيء من الحرج لهذه الاجراءات والقيود الاستبدادية التي أدخلت على تنظيمها والتي فرضوها على الناس كما تضايقوا من هذه الرسوم المالية ، التي كانت تفرض بالمقابل والتي كونت بالفعل ضرائب مهنية او حرفية ، وهي رسوم وضرائب يتبدل مدلولها ويتغير بين حرفة واخرى وطبقة واخرى ، وبين منطقة واخرى ، ومدينة واخرى . فالريف كان ضدها بالطبع . ولذا لم تقم هذه النقابات الحرفية الا في المدن . فالزراع لم يكن ليفيد منها كمنهج ، وكثيراً ما تضرس بغرمها باعتباره مستهلكاً ، كما انها كثيراً ما وقفت حائلاً دون سكانها المدينة او دون ممارسته مهنة صغيرة . والنظام النقابي او المؤسسة النقابية بالاحرى ، لم يكن معمولاً بها في كل مكان . هنالك مناطق كثيرة لم تعرف على هذا النظام . والمدينة المرتبطة بقسَم الولاء والتضامن المهني ، لم تكن ، بما لها من اوضاع مكرسة متبعة ، تفكر كالمدينة الحرة التي لم تتقيد بمثل هذا التعهد أو القسَم الولائي . وقد تبين مفهوم هذه المؤسسة واختلف مدلولها اختلافاً كبيراً بنسبة ما ضمت في صفوفها من اصحاب المخازن ورؤساء الورش المستقلين ، يبيعون زبائنهم بحرية تامة . ومثل هذا الوضع شاع وعم انتشاره ، وكان أرباب الصناعات يعملون في تصريف انتاجهم على شيخ تجار أو بندر تجار يتولى تصريف انتاجهم . وفي مثل هذا الوضع كانت الرابطة تبدو بمظهر اتحاد نقابي يضم عدة نقابات ، كثيراً ما انتصب في وجهها ، تحت أشكال وألوان مختلفة ، الاتحاد التجاري الكبير .

وهذا الوضع يفسر لنا تماماً التردد الذي استحوذ على الجمعية التشريعية عند معالجتها هذه القضية ومحاولتها إيجاد حل لها ، اذ أن كل حل تقترحه كان من شأنه أن ينعكس على اوضاع الفئات الاجتماعية العديدة التي تتألف منها هذه النقابات الحرفية ، وهذا ما سبب بالفعل انقسام الطبقة الثالثة رأياً ، ولا سيما البورجوازية منها ، بعضها على بعض .

وقد حمل ليل ٤ آب القدر المحتوم للامتيازات النقابية اذ صدر قرار الحل في ٥ آب ونص على أن « كل الامتيازات الخاصة بالمقاطعات والامارات والمدن والهيئات والنقابات... تلغى نهائياً » ، وتبقى خاضعة للقانون العام الذي يخضع له جميع الفرنسيين . وللحال راح كميل ديولان وقد هزه الشهور ، يعلن فرحته الكبرى ، قائلاً : « هذه هي الليلة الكبرى » .

هذه هي الليلة التي ألغت الاعفاءات والامتيازات التي تجارزت كل حد . فبفتح دكاناً له من قفرت لديه الوسائل المسقة . فعمل الخياطين ، ورؤيس الاسكافيين ، ورؤيس باعة الشهور المستعارة سيكون وينوحون . اما الخدم فينتهبون جدران وسيصبصب النور من خصاص الباب وفواقد العلقات .

وقد يكون هذا هو الشيء الذي لم ترم اليه الجمعية التشريعية بالذات . فالفرحة التي ابداهها كميل بتسرع كلي كانت سابقة لاوانها . فمن يستطيع أو يحسر أن يستغني بمثل هذا اليسر ، عن جانب من تجارة وصناعة الباريسيين في اليوم التالي ل ١٤ تموز ، وفي هذا الوقت بالذات من ركود الاحوال والاعمال التجارية ؟ فبعد أن نص القرار الصادر في ٥ على إلغاء هذه الامتيازات اذ بالمرسوم الختامي الذي صدر في ١١ آب لا يأت في بشيء على ذكر « النقابات والهيئات الحرفية » بل يذكر بتخصيص المقاطعات والامارات... والمدن والجمعيات الاهلية . فالاغفال والاسقاط التفسيري الذي صدر في ١١ جعل الالغاء الذي صدر في الخامس ، لا أثر له ولا مفعول .

فالقضية لن تلقى حلها النهائي إلا بعد سنة ونصف السنة ، بعد أن تبدلت الظروف وتغيرت الاوضاع كلياً وبعد أن اصبح موقف الجمعية التأسيسية من العهد القديم ، أقوى بكثير ، كما اصبحت غالبية سكان البلاد لا تبالي كثيراً بهذه الهيئات ، كما أن تكون حركة الاعمال والاشغال تحسنت بعض الشيء ايئناً كان .

دار البحث في الجمعية حول رسم الرخصة اذ لم يكن ليخطر على بال
الغاء تعريضات المحلفين
واحد ان المستهلك هو الذي يتحمل بالنتيجة هذا الرسم . « لا تصوروا
رؤساء الحرف ان باستطاعتكم حمل التجار على دفع الضريبة » . كما كان يقول فرانكلين
بكل مناسبة ، « فهم يقيدون الضريبة والرسوم التي يتكبدونها في فائورة الحساب » . ولم يكن
علماء الاقتصاد في فرنسا ليقولوا بخلاف ذلك . فمقابل رسم الرخصة فرض رسم الاستهلاك . ولذا
راحت الجمعية تتساءل ما اذا لم يكن من المناسب إلغاء ضرائب أخرى من هذا النوع ، او
مؤسسات أخرى شبيهة ، كالنقابة الحرفية التي كانت تعتبر عنصراً هاماً في تسبب الفناء في
البلاد . وراح السيد دالارد المقرر العام للجنة الضرائب يربط كل هذه القضايا معاً . فلا بأس
من الغاء رسم الرخصة ، ولكن بعد الغاء ما يوازيه من تعويض . وكذلك يجب إلغاء الرسوم
والضرائب كما يجب الغاء النقابات التي يساعد وجودها على ارتفاع الاسعار وزيادة تكاليف
المعيش ، وذلك عن طريق اضافة الرسم الحرفي الى ثمن الحاجيات الانتاجية او عن
طريق الاحتكار .

وسيقضي منطق النظام الجديد بالطبع بإلغاء ثعويضات المهلفين *Jurandes* ومعلمي الكار
« لسبب واحد هو انه انعامات أسيء استعمالها » بحيث يتناول الالفاء ليس فقط النقابات
الحرفية بل أيضاً مؤسسات الصناعة الرأسمالية ذات الاحتكار. كم بينها من ينعم، بشكل أو آخر،
بامتيازات مادية أو ادبية وباحتكارات مختلفة الاشكال ؟

هذه الاعفاءات يجب أن تزول من الوجود باعتبارها مسيئة ليس للمستهلك فحسب بل أيضاً
للجميع ولا سيما لرؤساء الكارات في مجموعهم وتحمل الكثير من العسف للعمال. فليارس كل منهم
مهنته بحرية تامة بمنأى عن كل ضغط أو تعسف .

وهكذا فقد ازيع بصورة قاطعة كل خطر ناتج عن اغراق الاسواق بالانتاج .

هل يخشون من وفرة العمال (اي من ارباب الحرف وشغيلتهم الذين يعملون لحسابهم ؟) فمدهم سيكون ابداً
بنسبة عدد السكان في البلاد ، وبعبارة اخرى بنسبة حاجة الاستهلاك .

صدر قرار الالفاء في ٢ آذار ١٧٩١ . فالتقابات والمنظمات الحرفية ومشاريع الاستثمارات
ذات الامتياز لم يعد لها وجود شرعي ابتداء من اول نيسان .. وهذا القرار الهام الذي
سيحرر — في القرن الطالع — قوى الرأسمالية الانتاجية ، كان في نظر اصحابه اجراء لا بد
منه لتخفيض غلاء المعيشة ولبعث روح نقابية عامة . وقد رمى فعلاً في مدلوله العام لتحقيق
هذه الاغراض بالذات .

سيجري فيما بعد اجراءات تكميلية اخرى . فالقرار الذي صدر في ٢ آذار لم يحرم الانتاج
تماماً من عراقيل العهد القديم . فقد استبقى ، شرعاً ، التدبير التقليدي المعمول به وهو لصاق
تمغة او علامة مميزة توضع على المواد المنتجة ، شهادة من النقابة على جودة الصنف المباع واستجماعه
المواصفات القانونية . وقد ألغى القانون ايضاً ، الى جانب النقابة الحرفية ، التنظيمات التي
كانت تخضع لها . كما ألغى القرار استعمال التمغة . ان الغاء النقابات والجمعيات والرابطات وعادة
تعيين بوليس مراقبة المحافظة على اسرار المهنة كان يعني ، من الوجهة العملية ، في اكثر الحالات
والاوضاع ، منعها من العمل . كيف يمكن ضبط الرسوم المهنية بدون الاستعانة بمراقبة المهلفين ؟
بقي قائماً ، مع ذلك ، امر تفتيش الانشاءات الصناعية الكبرى . كما بقيت قائمة مكاتب الزيارة
ومكاتب التمغة ، انما لبضعة اشهر لا غير . وقد ألغيت بالفعل كما ألغيت بالاسم . فلم تختلف نظرة
الثورة الى دائرتي التفتيش والتمغة عن نظرة رجال الادارة اليها في العهد البائد ، اي انها كانت
تحد من قدرة المواطنين وقوتهم على الخلق والابداع . واتخذت الجمعية التأسيسية قراراً بإلغاءها
في ايلول . وها هم المفتشون يصبحون بلا عمل كما ان المرتبات لم تعد تدفع لهم حتى غرة كانون
الثاني (يناير) ١٧٩٢ .

والغيت في الوقت ذاته الغرف التجارية ، قوام الحركة التجارية الكبرى ، اذ ان وجود هذه
الغرف « كان يتعارض والمبادئ التي استندت اليها الجمعية التأسيسية عندما ألغت النقابات
الحرفية » . ويكفي التجار الآن كايكفي جميع المواطنين ما اخذوا يتمتعون به من حق

الاجتماع بحرية وحرية الالتباس ليعربوا بانفسهم عن تمنياتهم وعن حاجاتهم العارضة .

وهكذا 'حلت كل المنظمات والمؤسسات النقابية ، الامر الذي جعل المنظمات العمالية تستهدف ضمناً هي الاخرى ، لهذا المصير بالرغم من القرار الصادر في ٢١ آب ١٧٩٠ المتعلق بحق الاجتماع ، وحق تأليف الجمعيات . فالطبقة البورجوازية لم تحظر على ارباب العمل تأليف الاتحادات الحرفية في اسواق الانتاج حتى ترضى بوجود اتحادات العمال في مجال العمل .

وعلى هذا الشكل مرّ قانون لاشابلييه في المجلس دون اية مناقشة ، في ١٤ قانون لاشابلييه
حزيران ، ولم يثر حوله اية ضجة في خارج المجلس ايضاً كما في داخله . وقد حظر على « المواطنين الذين يمارسون الحرفة او المهنة الواحدة عمالاً كانوا ام ارباب عمل ، ان يختاروا لهم رؤساء الاتحادات وأمناء سر أو أن يتخذوا لهم قرارات أو أن يقوموا بمداورات » .
وها هي النقابة الحرفية 'تمنع وتلقى مرة ثانية ، كما ان الجميع رأى في « إلغائها ومنعها احد الانجازات الجذرية التي حققها الدستور الفرنسي » . وها هو يلقي ايضاً - وهنا كل اهمية النص - كل شكل من اشكال الجمعيات المهنية . واتخذ المجلس في العشرين من تموز التدابير اللازمة لمواجهة الاوضاع في الريف ، فحظر من جهة ، على اصحاب الاملاك والمتعهدين الزراعيين وعلى عمال الحصاد ، والخدمة والأجراء من جهة ثانية ، كل تحزب نقابي أو كل تكتل يقصد منه التأثير على الاجور .

من المعقول جداً ان يمر هذا الاقتراح في اليوم التالي لحوادث اطلاق النار في ميدان شان دي مارس ، دون أن يبالي به احد . ولكن هل من المعقول ذلك بشأن قانون لاشابلييه ، في حزيران ؟ فاليسار المتطرف يبقى صامتاً مع ذلك دون أن يبدي حركة . أتقف منه الطبقة البورجوازية هذا الموقف محافظة منها على مصالحها ؟ ليس شيء من هذا لدى روبسبير او لدى مارات ، روبسبير هذا الذي حرص على ان يفضح في نيسان ، بمناسبة المناقشة التي دارت حول تشكيل الحرس الوطني ، الروح الحزبية عند هؤلاء الذين رغبوا ألا يسلموا غير المواطنين العاملين .

من قام بثورتنا المجيدة هذه ؟ هل هم الاغنياء في هذه الامة ؟ هل هم الاقوياء في هذا العصر ؟ الشعب وحده
تقنما وثاق اليها وقام بها . وللسبب نفسه ، بإمكان هذا الشعب السير بركبها والعمل على مؤازرتها .

الا ان روبسبير يلزم الصمت التام امام نص القرار الذي صدر في ١٤ حزيران ، هذا القرار الذي لم يبين مبدوله التاريخي . ولم يكن موقف مارات بخير منه ولا نظره بابعد ، مع انه فتح صفحات جريدته لعمال البناء في كفاحهم ضد رؤساء الورش . فما احسنها فرصة ، في نظره ، لمهاجمة قانون ١٤ حزيران ! فقد راح ينتقده بالفعل بشدة . فما الذي عزاه اليه أو رماه به ؟ فلم يتمل بأن قانون وضعته « الرجعية الاجتماعية » كما نقول اليوم ، بل قانون الرجعية السياسية اذ انه حدد من حرية الاجتماع وحرية الالتباسات .

ولكي يحولوا دون تجمعات الشعب المتعددة التي يخشونها ويتهيبونها كثيراً ، فقد حرّموا فئة العمال وفئة مساعدي البنائين الضخمة ، من حق الاجتماع للتداول وابداء الرأي في امور مصالحهم .. لم يكن لهم من هدف سوى عزل المواطنين والحؤول بينهم وبين اهتمامهم بالمصلحة العامة .

ويبدو ، كما يلاحظ البير ماتيزو بحق أن مارات يلوم الجمعية التأسيسية لاقفالها النوادي أكثر مما يلومها لحظرها الاتحادات النقابية . فالخطر الذي قرره الدستور الجديد ليس سوى تكرار لهذا الخطر الذي اصدره التشريع الملكي من قبل ، اذ منعت ، منذ اجيال النقابات العمالية والاضطرابات . فالمنظمة المهنية التي كانت بمثابة قوة بوليسية لتأمين النظام ضمن المنظمة المذكورة ، والتي كانت ترمي لتقييد الجاهل المشاغبة في الارياض ، كانت تتمتع ، في العهد القديم ، بامتياز من جانب واحد : أي منع قيام جمعيات أو مؤسسات عمالية . فالروح الفردية الحرة التي فادت بها الثورة ، استبدلت الخطر غير القانوني « للمنظمات الوسيطة » بنظام يقوم على المساواة . فمهما ضوّلت هنا المساواة في الحقوق ودققت ، فقد حلت ، ولو اسماً على الأقل ، محل عدم المساواة .

فقبل أن يتعرض اعضاء الجمعية التأسيسية لامتيازات النقابات العمالية أي لهذه المنظمات المهنية الصغرى والمتوسطة ، فقد ألغوا أو حدّوا كثيراً ، تحت ستار حرية الاقتصاد ، المؤسسات التجارية الاستعمارية الكبرى وحدوا من امتياز احتكاراتها كشركة الهند مثل التي اقامت نفسها ارباب التجارة الحرة ، وشركات التعدين المشهورة التي تفانى في محاربتها ومناصبها العدماء ، هذا الفريق من الفلاحين المستثمرين .

إلغاء امتيازات المؤسسات التجارية كانت الجمعية التأسيسية ، تبحث منذ ربيع عام ١٧٩٠ ، قضية الشركة التجارية الكبرى التي تجاوز رأسمالها ٤٠ مليون ليرة ، وهو مبلغ كان له من القدرة الشرائية اذ ذاك ما يوازي عشرات المليارات في يومنا هذا . فبعد ان أعيد تنظيم هذه الشركة ، عام ١٧٨٥ ، وأقر لها المراقب المالي العام كالون بامتيازات استثنائية أخذت تحتكر بين يديها الاتجار مع كل البلدان الواقعة ما وراء رأس الرجاء الصالح : مدغشقر ، وبلدان ساحل افريقيا الشرقي والهند والكوسنصين وكل بلدان الشرق الأقصى . فقد كانت ربيبة كبار رجال المال والنواخذ من مجهزي السفن التجارية وكبار رجال الاعمال ، وعلى اتصال وثيق بالواسط السياسية العليا ، وألغت بذلك اكبر اتحاد رأسمالي في ذلك العصر . فمستودعاتها الضخمة ، وهذا العدد العديدين الوكلاء والممثلين التجاريين والاسطول التجاري الضخم الذي كان تحت تصرفها ، كل ذلك جعل منها بحق اكبر مشروع تجاري عرفه ذلك العصر . فالاحتكار الذي نالته والامتيازات التي تمتعت بها الحق الضرر مباشرة ، ان لم يكن بمصالح الكثيرين ، فأقله بمصالح كبيرة للغاية ، بحيث ان المناقشة التي دارت بشأنها امام الجمعية التشريعية برزت وكأنها صراع بين جبايرة المال والاعمال . فالاحتكار الذي تمتعت به اقام الصعوبات والعراقيل امام الحركة التجارية في البلاد والاستثمارات الصناعية معاً . وارتدت

القضية من جهة ثانية طابعاً رمزياً : الوقوف مع مبدأ الامتياز أو ضده، مع الاستبعاد الوزاري أو ضده . والموقف المحدد تماماً اثناء طرح القضية للمناقشة . فاليمين في الجمعية وقف الى جانب الشركة ؛ وأخذ فريق ضئيل من الوسط واليمين يساوم بشأنها ، كما راح اليسار يطالب بالغائها وحلها .

فانتصب لاشابلييه بقامته الفارعة وهو يقول : ليُبدل المدافعون عن حق الامتياز بحججهم وأدلتهم . وللحال قبل زعماء اليمين التمحدي بينهم كازاليس وبرمسنيل وموري ، وكليرمون تونير نفسه ، فراخوا يطالبون للشركة بحق الاستثمار الذي تتمتع به والاستمرار بالتالي بشايطها التجاري . وأخذ موري يدافع عن الامتيازات الضرورية التي لا بد منها للشركة . وراح أبرمسنيل من جهته يهاجم بعنف كلي خرق الدولة للتعهدات التي قطعتها تجاه الشركة . ويندد على الاخص « بهذا المبدأ الخفيف الذي يجعل قانوناً يولي الحرية قانوناً ذا مفعول رجعي ضد حق التملك » . وأخذ مالويه ، من جهته يحاول عبثاً حلاً وسطاً يخفف بعض الشيء من حدة الامتيازات ويلطفها نوعاً ما . وحمد ممثلو اليسار للهجوم دون أن يقوم البارزون في صفوفهم بما قام به وجوه اليمين . وراح بعض النواب في صفوفهم امثال : رودير و لاشابلييه ونواي ودستوت دي تراسي يتدخلون في المناقشة كلما دعت الحاجة ، اما الهجوم العنيف المركز فقد قام به النواب الاعضاء الذين يمثلون الحركة التجارية والموانئ البحرية ومؤسسات التصدير وراحوا يشيدون عالياً بسمو الحرية التجارية من الوجهة الاقتصادية والاجتماعية والادبية . وأخذ الحذر يرسم على الوجوه بوضوح من الشركات والجمعيات القائمة على الاسهم والتي تعود على القائمين بإدارتها بالغنى والثراء على حساب « المساهمين » الذين لا يفقهون شيئاً من اسرار عملية الاستثمار كلها . فالتعويض على الشركة ليس موضوع بحث ، اذ لم يُسمع قط انهم عوضوا عن ملكية قامت خلافاً للحق الطبيعي وضده .

وفي جو من الحماس الذي ألهب المجلس والتأثير البالغ الذي استحوذ على الاعضاء وبين دوي تصفيق اليسار والنظارة قررت الجمعية الغاء هذا الاحتكار المخالف لحقوق الانسان الطبيعية والمضاد في الصميم للاقتصاد الحر . « حرية التجارة مع البلدان الواقعة ما وراء رأس الرجاء الصالح معترف بها لجميع الفرنسيين » . وبعد قليل سيأتي دور الشركات التجارية الأخرى . وستعلن « حرية » التجارة مع السنغال ، لجميع الفرنسيين ، في يناير ١٧٩١ .

كان من شأن قضية المعادن واستثمارها أن أضفت على حرية إلغاء احتكار شركات التعدين الاقتصاد التي جاش بها اعضاء الجمعية التأسيسية مدلولاً اجتماعياً اكثر مما اضافته قضية النقابات المهنية ومؤسسات الاستثمار والشركات التجارية الكبرى التي قامت على الاحتكار والامتيازات التي تؤمنها لاصحابها . فنحن هنا امام نظريتين متناقضتين : الاولى تقول بان المنجم ملك للدولة ، وهي نظرية تبناها وناضل حيالها رجال الاختصاص والتقنية وأقلية ضئيلة من الشركات صاحبة الامتيازات . اما الثانية فهي النظرية التي تقول بان المنجم

هو ملك خاص لصاحب الارض ، وهو نظر أخذ به فريق كبير من الفلاحين المستثمرين .

نظريتان قديمتان جداً من حيث المبدأ ، اختبار النظام الملكي احدهما كما يستدل من منطوق القرار الوزاري الصادر عام ١٧٤٤ . فقد رجحت عنده حكمة الشركات الاستثمارية الكبرى . « فالمنجم » الشعبي تعمل فيه معاول الفحامين ولا يسهل استثماره لما هو عليه من عطفات وتثن وتعاريج ، لا يمكن الأخذ به والدفاع عنه . وخضع استثمار المناجم لموافقة المراقب المالي العام ، وهو استثمار تقوم به الشركات الكبرى وحدها . ولذا طرد الفلاح من منجمه الملتشت كما طرد من الحقل الذي يملكه . وهذا الحل تتخذه الحكومة في العهد البائد ، ترك مثاراً للبحث والجدال ، مشكلة اجتماعية حادة ، برزت على أشدها ان لم يكن في الشمال من البلاد ، فاقلة في الجنوب ، في مقاطعة موزين واللانغدوق أي في أغنى منطقتين للفحم اذ ذاك .

وجاءت الانتفاضة الثورية تطرح على بساط البحث من جديد الوضع القائم منذ عام ١٧٤٤ . فالتقسيمات الادارية الجديدة والدوائر البلدية التي تكثر فيها مناجم الفحم الحجري ومراكز المحافظات نفسها اخذت تعرب عن مطالبها الشعبية في هذا المجال . فهذه الشركات ذات الامتيازات التي تعيش وتثري على حساب احتكار تتمتع بمنافعه الجزئية ، أليست في وضع مغاير لاحكام الدستور ؟ ألا يكون وجودها والعمل بها نقضاً صارخاً لحق التملك ؟ فالدولة لا حق لها قط على ما يقع تحت سطح الارض . وتصرفها به لا ينهض به أي حق . فالفحم المحبوه في بطن الارض يخص مالك سطح الارض . فالطبقات التحتانية تعود كلها للمالك كما يعود له السطح ، مثلاً بمثل . فالتفريق بين الاثنين طعنة في قلب وثيقة اعلان حقوق الانسان ، كما يطعن في الصميم هذا القانون الطبيعي الذي « اكثر حكمة واكثر طبقية من القوانين التي تنص عليها الالواح الاثني عشر » .

فالشركات الاستثمارية واصحاب الاملاك من الفلاحين ، وقفوا وجهاً لوجه امام الجمعية التشريعية ، في النصف الثاني من شهر اذار ١٧٩١ . اما موقف المقرر فقد كان الى جانب النظرية التي تقول بان المنجم هو ملك عام ويخضع بالتالي للاستثمار أي ان موقفه كان تماماً الوضع الذي كان مثار النقاش امام الجمعية . وقد القى ميرابو خطابه الأخير محاولاً التوفيق بين النظريتين ، مع ميل ظاهر لتأييد موقف كبار مستثمري المناجم في الشمال . ثم راح يدافع عن قضية «أئز» وسياسة النظام الملكي القاتل : الاقتصاد أولاً والتقنية أولاً ، هذه السياسة التي وجدت بين اعضاء الجمعية من يتبنها وينهض بها عالياً .

فالتسليم باستثمار المناجم المتوزعة ، قول يمجح العقل من عتدة وجوه انما يطمن له الضمير ويرتاح اليه . هاهم المدافعون عن حقوق صغار الملاكين ضد الاحتكار والامتياز وما يمثله من قوة الاغراء . « فالملكون لاصحاب الامتيازات » و « لاصحاب الاستثمارات التعسفية » يحاولون « ان يجرّدوا من املاكهم اصحابها الآمنين الذين ليس من يدافع عن قضيتهم الحق غيرنا » . فبأي حق تجعل المنجم مشاعاً عاماً ، يتسامل دستوت دي ترابي . قد يخفي حقلي بين طبقاته كنزاً مثلاً

ام درة أو ماسة ، ومع ذلك تريدون ان تضع الدولة يدها عليه . ان ادعاءات الشركات الاستثمارية صاحبة الامتيازات العريضة تكون اهانسة للجمعية التأسيسية وانكاراً لحق الانسان الطبيعي . فمالك الطبقة الارضية لا يمكن ان يكون غير صاحب سطح الارض . والى اي عمق تبلغ يا ترى الطبقة الارضية ؟ فعمل الاقتصاد بالذات والاقتصاد الحر والمذهب الفردي نفسه ، كلها تتساءل مع دويون : « كيف يمكن بمناسبة البحث في قضية المناجم ، تغيير المبادئ الاساسية التي يقوم عليها المجتمع » ؟ وتدخل اخدم في النقاش وراح يقدم ، للملكية الفردية ، باسم جيش جرار من صفار المستثمرين ، في جدهم ضد اصحاب الشركات الاستثمارية ذات الامتياز ، تحديداً أو تعريفاً هو أحوى وأشمل ما جاء من أمثاله .

يجب ان يكون اصغر ملاك فرنسي ، بعد ان كسرت عنه قيود الاقطاعية التي كبلته ، حراً طليقاً في هذا المدى الذي يمتد من الجو الذي يعلو ارضه من اعل طبقات الجو حتى اعلى الارض .

وأخذت الجمعية تراعي وتسالم . فقد أعلنت القوانين التي صدرت في شهري آذار وتموز ١٧٩١ المناجم « تحت تصرف الأمة » ، الا انه يجب الاحتراز من الاستثمارات الضخمة بحيث لا تتجاوز المساحة الكبرى منها ستة فراسخ مربعة في حال الاستثمار يعطى الافضلية للمالك سطح الارض ، هذا اذا ما اراد هو نفسه أن يستثمر المنجم الموجود في أرضه ، بذات الشروط والظروف التي تقدمها شركات الاستثمار نفسها اذا ما كانت أرضه وأراضي شركائه تصلح لتأليف مشروع استثماري . فالمناجم التي تستثمر بخندق مفتوح أو « بدهليز مضاء » عمقه مائة قدم تبقى من حق مالك سطح الارض . هذا فيما يتعلق بالمستقبل . ولكن ماذا من الحاضر ؟ كيف الوصول الى حل هذه المشكلة الاجتماعية الهامة التي اقامت شركات الاستثمار والفلاحين بعضاً على بعض ؟ ولكن وجهة نظر الشعب لم يجر الدفاع عنها باطلاً . فالاستثمارات التي قامت على مناجم معروفة من قبل ، بعد ان افتزع الاستثمار من يد صاحبها ، تسخن وتصبح لنياً ملغياً .

واستناداً للقانون ثار الملاكون من اصحاب المناجم وراحوا يتسلحون . وفي مقاطعة فوريز ، لم ينتظر البعض منهم هذه الفرصة . واستقبل الملاكون بحفاوة بالغة في مقاطعة فوريز ممثلهم الذي حضر جلسات الجمعية ومتابعة اعمالها ، وذلك لدى رجوعه الى مدينة سانت أتيان ، بينما كان المجلس البلدي على استعداد ليرسل الى الجمعية قطعة من الفحم الحجري نقشت عليها عبارة تم عن شكر الشعب وامتنانه .

وعندما اعترف اعضاء الجمعية التأسيسية بحرية التصرف في القطاع زراعة حرة وسياج حر الاقتصادى وفي المجال التجاري والصناعي ، هدفوا من ذلك بالاحرى الى تأمين المساواة في القريب العاجل اكثر منه الى تسميم العلاقات بين الجانبين المتخاصمين وقد كان يخشى ، اذا ما أريد تطبيق هذا الحق على الاقتصاد الريفي ، من ان يؤدي الى نتائج

عكسية ، إذ أن النظام القديم المعمول به في هذا القطاع ، كان الى جانب مصالح الفلاحين ، كما كانت من جهة ثانية ، متصلاً الى درجة كبيرة بحياة الريف بحيث لم يدخل في الحسبان قط توقع حدوث تغييرات مفاجئة في هذا المجال . وتعبيراً عما نجيش به هذه الجمعية من روح تحررية أصيلة اخذت تحاول التوفيق مع الاعراف الشعبية المعمول بها في البلاد .

ولم يتم الامر باليسر المرغوب بعدد ان استحوذ التردد على الجمعية التأسيسية ، فقد راحت اللجان المختلفة مع مقررهما هيرتو دي لامرفيل تقدم اقتراحات أقل تهديئة للخواطر من هذه النصوص التي توصلوا الى اقرارها من قبل . ففي نظر هيرتو ان تحرير الملكية هي قضية دستورية في الصميم .

ربطت الجمعية الوطنية مصائر المواطنين بالحرية الفردية القائمة على العدالة التي لا يمكن مسها . وما هي اللجنة تتقدم ... منكم بطلب ادراج هذه الكلمات الاخيرة : « حرية الارياف » في صلب نص الدستور الذي كرس عالياً حرية المواطن وحرية الفكر .

وهذه الحرية تقتضي بالطبع : حرية الزراعة وحرية الاسعار وكذلك حرية التسوير أو اقامة السياج كحدود فاصلة بين قطعة ارض وأخرى ، هذه الحرية التي يجب ان تقوم على سياسة حكيمه رشيدة تيسر المبادلات التجارية وتحدد شروط الدفع . وراحت الجمعية تعطي الدليل القاطع على موافقتها : فالملك سيصبح حراً في ارضه الموروثة حيث يستطيع ان يطبق نظام استصلاح الاراضي على هواه . وهكذا انقلب الوضع رأساً على عقب وبطناً لظهر في اعراف وتقاليده الحياة الريفية القديمة .

وهذا الاتفاق الاجماعي زال عند مناقشة الحقوق الجماعية ولا سيما حقوق رعي الماشية في المراعي الطبيعية . فاقترح هيرتو لنساء هذا الحق أو ما يقرب من ذلك . ان حقاً من هذا الشكل ، « يطمئن » في الصميم ، دوناً مبرر ، ويحرم من التعويض ، حق التملك الطبيعي والدستوري مما ٢٢٠٠٠ . فان احتفظ به فكقانون خيري لا غير ، ولمصلحة الموزين فقط . واذا ذلك راحت الجمعية تعرب عن مقاومتها وترفض باصرار الأخذ بنص اكثر اعتدالاً تقدمت به اللجان . واذا ذلك اخذ كل من مرلن دي دواي وترونشيه وبريور دي لامارن وغيرهم عديدون من مقاعد الطبقة الثالثة يدافعون بكل مالدتهم من حجج عن اعراف الحق القديم .

ضموا قانوناً تستحقون معه ادعية سكان الارياف وبركانهم . فالنص المقترح امامكم يستنزل عليكم السخط واللمنات .

فحق رعي الماشية في المراعي الطبيعية غير المسورة بقي معمولاً به للجميع ، باستثناء المراعي الاصطناعية - الا اذا كان هذا الحق قائماً على سند خاص أو منصوصاً عنه في قانون ما أو جاري المفعول منذ عهد سحيق . فالوضع بقي عملياً كما هو ، أقلته من حيث الحق المبدئي . كذلك ابقت الجمعية حق المرور ، اذا قسام على حجة أو عرف وليس على « تصرف غير

منازع ، كما اقترحه المقرر في الاساس .

وكان من نتائج مساعي التوفيق ، التمييز بين حق رعي الماشية وبين حق المرور ، في النظام الزراعي ، بعد أن كانا مرتبطين معاً إلى ذلك الحين . فالحقوق تبقى مرعية الجانب في المجال الزراعي الذي تحرر من القيود ومن حظر التسوير . وهذا التوفيق الذي توصلوا اليه يكتنفه التضاد والتناقض في كل مظاهره ، اذ كان يكفي الفلاح الذي يتمتع بحرية الزراعة على هواه ، ان يلقي الارض البور ، لينزع بالتالي حق رعي الماشية وحق المرور . ويكفي له أن يسوّر أرضه ويقم حولها سياجاً ليفضي على الاثنين معاً ، دون أن يحسب حساباً للتطور الزراعي البطيء والسير . وهذه الحرية المعترف بها لمربي الماشية كانت تقوم على ترخيص أو اذن سابق . والتصرف بهذه الرخصة أو الاذن كان يقتضي له الوقت الطويل والمال الجزيل . وبانتظار هذا كله ، وباستثناء المناطق التي لم يُحظر فيها العهد القديم بعد ، انشاء المراعي الاصطناعية ، فالاقتصاد الجماعي القديم بقي معمولاً به كفيها كان الامر من حيث المبدأ ومن حيث الوضع القائم . فالحرية رجح جانبها الى حد كبير من الوجهة الحقوقية . اما الاعراف الجماعية القديمة ، فقد روعي جانبها واحتفظوا بها بالفعل . وهكذا قامت جنباً الى جنب الاعراف القديمة والحق الجديد .

كذلك بقيت قائمة الاملاك المشاعية . فقد حرصت الجمعية التأسيسية على هدم
الشاعات ما علمته الروح الفردية السيادية . فقد توصل السيد الاقطاعي بصورة قانونية حيناً إلى اقامة الحدود ووضع الترخوم حول شطر كبير من الاملاك المشاعية ، شريطة أن يتولى إحياءها وإعمارها ، وبصورة غير قانونية احياناً ، عن طريق الاختلاس أو التزوير أو التواطؤ مع المجالس الاقليمية ، وبعض الأحياء ، منذ عشرين سنة على الأخص ، بالتواطؤ مع الادارة الملكية بواسطة قرارات يتخذها مجلس الوزراء ، تؤلف تشريعاً يعمل به في جميع أنحاء البلاد .

بقي امام الجمعية النظر ملياً في قضية كبرى والبت بها : ما العمل بهذه الاملاك المشاعية المتضخمة ؟ راحت اللجان المختصة ترى كما يرى هيرتو . انه لم « يحن الوقت بعد لاصدار القوانين الرادعة » اذ انها ستحدث في حال ظهورها ، هزة عنيفة في البلاد . فعملية اقتسام هذه الاملاك المشاعية ، مرتبطة الى حد بعيد ، بمشئمة هذه البلديات نفسها وبرغبتها في ذلك ، معلنة ذلك في بيان صادر عن ادارة المجلس البلدي . فباستطاعتها ايضاً بيع أو تأجير أو الاستمرار في التمتع بها جماعياً . ففي حالة اقتسامها يجري التقسيم وفقاً لطريقة اقترحها المقرر تقوم على التراضي بين الفرقاء المعنيين ، ثلاثم تماماً المشاعات الواسعة . فيجري اقتسام نصف المشاع بين الأشخاص والقسم الثاني بنسبة الرسوم . والضرائب التي يدفعها المكلفون . ولم يكن لدى الجمعية من الوقت ما يتسع للنظر بحيث تقتني نهائياً في الأمر ، فتركت الامور في وضعها القائم .

٢ - حرية المرور

أو إلغاء الرسوم المفروضة على المواد الاستهلاكية

من شأن حرية التنقل في الداخل ان تساعد ولا شك على تليشيط التبادل حرة الانتقال في الداخل التجاري بين المحافظات والاقاليم المختلفة في البلاد ، كما تتيح بالتالي ، تحقيق الارباح المشروعة ، مع العلم ان الابقاء على المعاهدة التجارية المعقودة مع انكلترا ، عام ١٧٩١ ، كان يهدد باثارة مشكلات حادة بوجه ارباب الصناعة في فرنسا .

ولكن حرية التنقل اكثر من مدلولها الاقتصادي . فرجال العصر اليوم يرون لها وجها اجتماعيا وماليا . فالرسم المفروض على التنقل ، رسم يصيب ، على الغالب ، المواد الاستهلاكية وهذا الشكل يؤلف لونا من الوان الضرائب المفروضة ، كثيرا ما أثار غضب علماء الاقتصاد والفلاسفة والمكلفين . فالاعتراف بحرية المرور للدقيق واللحوم والسلك ، والخطب والخور والملح معناه إلغاء رسم الدخولية والضرائب غير المباشرة والرسم المفروض على الملح . ومثل هذا التدبير انما يعني رفع القوة الشرائية ، بالفعل او بالقوة ، بين الطبقات البورجوازية وعلى الاخص الشعبية . هنالك شطر كبير من الشعب - الفرنسي - لا يمكن ان تتصور اهميته في القرى والارياف الفرنسية ، تعود عليه حرية التنقل بالخير العميم ، كالكرام مثلا الذي تفرض عليه رسوم وضرائب استثنائية باعتباره مستهلكا ومنتجا في الوقت ذاته . فحرية التنقل تنقذه الى الابد وتحرره نهائيا من تعسف هؤلاء المأمير الجيوليين بالشر ، كما تجعله بأمن من ماضي دم الدولة والذين يتفنونون ببلص الناس فكلاهما سقالة المجلس البشري . فالقرار الذي صدر في ٢ آذار (مارس) ١٧٩١ ، والذي ألغى تمويضات النقابات الحرفية ، والخبوة ، ألغى كذلك الضرائب على الكحول وأقر بالنتيجة عدم الدفع احدى رغائب الشعب العامة .

وكانت الثورة المتأججة منذ ١٧٨٩ قد التهمت مكاتب جبابة الرسوم والدخولية . وسيبادر دويوا غرانسه لمصارحة البعقوبيين بضرورة الغاء أوكار أكلة البشر ، إلغاء نهائيا . وهذا هو بالذات ما فعلته الجمعية التأسيسية خلال شهر شباط (فبراير) ١٧٩١ . فقد كانت أقرت قبل ذلك ببعضة أيام حرية الزراعة وحرية صناعة التبغ وبيعه ، كما كان صدر ، قبل ذلك بسنة ، إلغاء الرسوم المترتبة على اسواق الخضار وغيرها من الاسواق التجارية . وأزيل من الوجود مبدئيا الرسم المترتب على بيع الملح منذ آذار ١٧٩٠ ، وعمليا منذ الاشهر الاولى لانفجار الثورة وانطلاق لحيها ، كما كانت الغيت تماما ضرائب اخرى منذ تشرين الاول .

ففي الحين الذي انتهت فيه مهمة الجمعية التأسيسية كانت ألغيت تقريبا جميع الرسوم المفروضة على السلع الاستهلاكية ، باستثناء الرسوم التي تفرضها التعرفة الجمركية والرسوم المفروضة على شهادة المنشأ .

ومع ذلك هنالك محصول فرنسي هام بقي مقيدا « ولم ير » ، اقله من فرنسا الى الخارج ،

هي مادة الجبوب ، اذ بقي تصديرها محظوراً تماماً . كل شيء كان يحمل الجمعية الميالة للدفاع عن حرية التبادل التجاري ، على الرجوع الى حرية التصدير كما سبق للملكية ورسمت حدودها عام ١٧٦٤ ، وبصورة جذرية عام ١٧٨٧ . فلم تأت شيئاً مع ذلك بهذا الصدد ، اذ كان الامر لا يخلو من التعرض لمصلحة كبرى او لضرر عام . ولذا عمدت الجمعية هنا ، بدافع من الروح التحررية ، كما عمدت من قبل لدى مناقشتها الحقوق البلدية ، الى المصانعة ومحاولة التوفيق بين المصالح المختلفة . فاذا ما استبقت ، بالرغم من رغائب الشعب المتمتع بحرية التنقل في الداخل ، وحرية الاسعار والارباح صعوداً ونزولاً ، فقد وقفت في ما يتعلق بالتجارة مع الخارج الى جانب النقيض من تشريع عام ١٧٨٧ . وبالرغم من جودة مواسم عام ١٧٩٠ والهبوط المحسوس في الاسعار الذي جاء في اعقاب هذه المواسم ، لم يسمح بتصدير الجبوب من فرنسا مؤقتاً .

٣ - محاولة اعادة توزيع الثروة في فرنسا

فعلت عوامل عديدة هنا ، كما في الظروف الاخرى ، فعلها في تصليب الجمعية في موقفها فجعلتها تسارع لاتخاذ القرارات اللازمة .

فالظروف المالية التي احاقت بالبلاد في اواخر خريف ١٧٨٩ اضطرت تأميم الارقاف الكنسية الجمعية الوطنية لاتخاذ اجراءات جذرية . فالازمة الاقتصادية والازمة السياسية حدثا كثيراً من جباية الضرائب وتغذية خزينة الدولة . فلم يعد يتوفر للبلاد ما تحتاج اليه من اعتمادات قصيرة او طويلة الاستحقاق . كذلك اصبح من المتعذر جداً عليها ، ان لم نقل من المستحيل ، تجديد عمليات التسليف عن طريق تحاويل او سحوبات بواسطة سندات مالية أشبه ما تكون بسندات على الخزينة مرهونة لدى المؤسسات العقارية التي أصبحت ملفاة . وعلى هذا قس ايضاً حسومات صندوق القطع التي كان يمكن الحصول عليها بالطريقة ذاتها . فقلّ النقد المتداول بين الناس . وفشل تماماً قرضان الواحد بعد الآخر أنزلا الى السوق ، الاول بفائدة ١/٧ في المائة والثاني بفائدة ٥ في المائة ، بعد ذلك ببضعة أشهر . ولم يكن من المنطق بشيء ، ولا من المعقول بالتالي ، التمويل على التبرعات الوطنية ، على كثرتها ، لما كانت عليه من نتائج زهيدة بالنسبة للحاجات العارضة . فلم يتجمع منها أكثر من مليون حتى آذار ١٧٩٠ . وفي الوقت نفسه فالتبرع ببيع الدخل ، هذا التدبير الذي اقرته الجمعية بتصويتها عليه في ٦ تشرين الاول ١٧٨٩ لم يعط أكثر من ٨ ١/٧ في المائة . اما موازنة النفقات فكان من المتوقع لها ان تبلغ ٥٥٠ مليون ليرة . وهكذا نرى ان جميع الذرائع المشروعة العادية استنفدت فلم يبق أمام الثورة ، والحالة هذه ، سوى اللجوء الى وسائل جذرية وثرية .

وهكذا رأت الدولة نفسها مضطرة لمصادرة اوقاف الكنيسة وتأميم املاك الكليروس وعرضها بالتالي للبيع وتجميد قيمتها قبل المباشرة ببيعها ، بحيث تصبح اساساً لسندات على الخزينة لم تلبث ان أصبحت عملة متداولة . وهكذا صدرت « الاسينيا » *Assignats* اوراقاً نقدية

أشبه ما تكون بشحاويل مسحوبة ، تغطيتها المالية : الاوقاف الكنسية واملاك الاكليروس ،

ابتدأت المناقشة العامة حول مبدأ المصادرة في شهر تشرين الاول (اكتوبر) ١٧٨٩ ، إثر انتقال مجلس الامة الى باريس . وجاء دفاع الاكليروس محكماً وقوياً جداً من الوجهة الحقوقية . هذه الاوقاف تخص جماعات عديدة لها شخصيتها الادبية ، لها ككل شخص ، حق بالتملك كما لها الاهلية القانونية للحيازة والتملك . والبعض من هذه الاوقاف والممتلكات يعود لثلاثة عشر قرناً . وقد تولت هذه المؤسسات الدينية ادارة هذه الاملاك وتصرفت بها بيعاً وقرراً حسبما دعت الحاجة الى ذلك ، كما انها نالت احكاماً بنشأتها . والدولة نفسها اعترفت بهذه الملكية العقارية فكان ذلك بالتالي منها تصديقاً وتثبيتاً لهذه التدابير . ان خضوع هذه الاملاك لبعض التضيقات ولا سيما قضية بيعها لا يسبب شيء حق تملكها . أو ليس هذا هو وضع القاصر او العاجز بعينه ! وخضوع هذه الاملاك لبعض الرسوم وللبعض الضرائب لا يجعل منها فئة او طبقة خارج القانون . الا يوجد في البلاد ممتلكات او حقوق استثمار يترتب عليها رسوم متأخرة الاداء ؟ ان حق المؤسسات في هذه العقارات هو الحق الذي يتمتع به جميع الفرنسيين . فعق الدولة عليها وامر لا يمكن ان يصمد في وجه الحق . لم يهدف مؤسسو هذه الاوقاف من وراء علمهم هذا الى مجرد الجود بهبة ، بل رموا منه الى انشاء وقفية لهذه المؤسسة او تلك ، وبراءة الوقف تعتبر مبدولاً او ملعوناً كل من حاول استبدال او تغيير وجه الانتفاع بهذه الوقوفات ، بحيث يستطيع حفدة الذين أسبلوا هذه الاوقاف على الخير ، ان يطالبوا ، في بعض الحالات بحقوقهم فيها وباسترجاعها . وبدون ان تستهين الاكثرية ، بهذه الحجج الدامغة والادلة القاطعة والبراهين التاريخية والحقوقية التي لا تُدحض ، هذه الادلة التي يحلو لاحد أعضاء الكونغرس ان ينعتها عندما تعرض لقضية ، اخرى بـ « قطر من المعارف والمعلومات لا خير منه يرتجى ولا فائدة » ، فقد تبنت مع ذلك نظرية الثورة وموقفها متعلقة بالعدالة والحق الطبيعي . فما هو القصد الذي قصده الواقف ووضعه نصب عينيه عندما أسبل وقفيته هذه ؟ أليس تأمين أو الشخص أو المؤسسة التي وقفها عليها وخص الفقراء والمعدمين بما تفي من إيراد ومدخول ؟ فإذا ما اضطلعت الامة بهذه المسؤولية ، واذا ما عولت على هذه الاوقاف في الملأ الكبري والازمات الخانقة افلا تبقى مقاصد الواقفين محترمة ومرعية الجانب ؟ ثم هل من المعقول ان تقيّد مقاصد الواقفين الاجيال الطالمة بعدم ؟ وراح ميرابو يستشهد هنا بحجج تورغو الشهيرة : فلو كان آباءنا احتفظوا لانفسهم بقبورهم لكان وجب ، توفيراً للاراضي الزراعية اللازمة ، هدم هذه القبور والمبث بالتالي برفات الراقيدين فيها تأميناً لقوت الاحياء ؟ وهكذا خرجوا من هذا النقاش الحاد الطويل بالنتيجة التي اوجزها دويون دي نور عندما قال : ان املاك الاكليروس تخص المجتمع كله .

وعبئاً يرد الجانب الآخر معللاً ان انتزاع هذه الاملاك من اصحابها الشرعيين يهدد الاحسان والتصدق في الصميم ، هذا الاحسان الذي يرى فيه الغني الواقف نوعاً من الضمان الوطني ، كما انه يجرح مبدأ حق التملك الخاص ، هذا الحق الذي راح موري يتنبأ بشأنه قائلاً :

لحق التملك واحد هو ونفدس هو عندنا وعندكم . فأملأنا ضمان لأملاككم . فنحن نستخدم اليوم لهجوم ،
فإذا ما جردونا من حقوقنا ، فسيأتي دوركم غداً ولا شك في ذلك .

وقد ردت الاكثريه على هذه الحجج بان عدد الملاكين — عماد كل نظام
وقوامه — سيزداد ويتضخم بعد توزيع الاملاك الضخمة التي يحمدها
الاسيئاه وبيع الاوقاف
ذات المنشأ الاول
الوقف .

وفي الثاني من تشرين الثاني (نوفمبر) ١٧٨٩ ، اتخذ المجلس قراره بوضع املاك الكنيسة
« تحت تصرف الأمة » . وراح باربر يعلق على هذا القرار في صحيفته : « شق الفجر » قائلاً :
كان من الواجب « توضيح كل المبادئ أو العوامل التي تحول دون ظهور الطبقات من جديد ودون
بعث الارستوقراطية من رفاقها وهي رميم » . فهذه الكنوز المنقطة التي تتراوح قيمتها بين ٢ —
٣ مليارات من الليرات ، أي ما يوازي من ٣ — ٥ اضعاف نفقات الدولة في السنة ، كان يمكن أن
تكون اساساً لنظام من السندات على الخزينة ، ودعامة لقروض داخلية جديدة ، قصيرة الأجل
أو غطاء مضموناً لنقد جديد . وبقراره الصادر في ١٩ كانون الأول (ديسمبر) ١٧٨٩ ، اختار
المجلس بكل حرص الحل الاول الذي لا يبطال سوى فئة الزبائن القدامى ، هذه الفئة المتكونة
من سحمة الاسهم أو السندات . فقد باءت التجربة بالفشل التام . فلم يعد من مَنزوع يُركن اليه
سوى الاقدام والجرأة . فبدلاً من « الاسيئاه » السند على الخزينة ظهرت « الاسيئاه » نقداً أو
عملة للتداول ، حددت انواعها وفئاتها وقيمتها ، القرارات الصادرة في ١٧ نيسان و ٢٩ ايلول و ٨
تشرين الاول ١٧٩٠ . فهذه الورقة النقدية الصادرة باسم الدولة والمطروحة في التداول بين
الناس والتي لها قوة إبراء لا حد لها والتي تتداولها الاممة باجمعها ، تسهل القيام باعمال
مالية جبارة .

وكم عوّل عليها الناس وأملوا بتحقيق نهضة اقتصادية كبرى في البلاد ، اذ كان من شأن
تداولها بين الناس أن يبعث النشاط في الحركة التجارية بعد الهمود والركود الذي اعتراها ، بعد
ان شكا الناس وتذمروا من ندرة النقد وانقطاعه . وراح ميرابو يستحلف المجلس ، في آب
١٧٩٠ ، ان يطرح في التداول هذا العنصر المحيي الذي يبعث النشاط في المجتمع بعد أن اشتدت
حاجته اليه . ويمثل توزيع املاك الاكليروس جانباً سياسياً واجتماعياً كبير الاثر ، اذ من
شأنه ان يفتح في سوق الاراضي تياراً قوياً من الطلبات يفري الشاري البورجوازي والريفي
بالاقبال عليها .

وسيفيد المتقدمون الأول من هذه الصفقة اكثر من المتهملين بكثير . فالجمعية التأسيسية
تبحث عن كميات طازجة من النقد . وقد اتفقت مصلحة الخزينة ومصلحة البورجوازية التي
بإمكانها الدفع نقداً ان تحتفظ لنفسها بالقسم الأكبر من قرص الحوى . فالبيع يجري بالزاد العلني .
هنالك بين هذه الاملاك ما يؤلف وحدة تامة تتوفر لها مجموعة متناسقة متكاملة من المباني

والأدوات الصالحة للفلاحة والمروج تؤلف اجزاؤها وحدة إنتاج متكاملة ، يصنع جداً تقسيمها وتوزيعها . وقد أبت الجمعية أن يصار الى تقسيمها « الى قطع صغيرة » تباع أو تؤجر بنسبة ثمنها بحيث لا تلبث ان تستبدل الزراعة التجارية (الاستثمارية) بزراعة مقفلة تعود بالاقتصاد القهقري .

فبعد ان ترددت الجمعية مدة حول الوسائل ، راحت تبحث على طريقها الخاصة ، عما يوفق بين وجهات النظر العديدة المتعارضة . وقد نص القرار الصادر ٢٥ حزيران - ٢٥ قوز على أن تقسم الأراضي بحسب اتساعها ، الى شقق ملائمة 'تُرغَّب الشاري وتثير العروض ، لاسيما والمشتري الجديد لهذه القطع الأرضية سيستفيد من تسهيلات محترمة في الدفع : ١٢٪ نقداً في كل ما يتصل بالحقوق والمروج والكروم وأبنية الاستئجار . والباقي يُسدد اقساطاً متساوية على ١٢ سنة ، بفائدة ٥٪ وبالنظر لما كانت عليه الاملاك من توزيع وتشتت ، كانت هذه الشروط المغرية حافزاً للشراء على الدخول في المزايدات . فالقرطع التي كان ثمنها أقل من ١٠٠٠ ليرة كانت متوفرة جداً . هذه قطعة أرض تضم اقساماً قابلة للزراعة يشترها الزبون ، فيدفع من ثمنها ٦٠ ليرة نقداً ويدفع الباقي اقساطاً سنوية على ١٢ قسطاً ، أي انه يدفع ما يترب عليه ، من غلة الأرض ومدخولها تقريباً . الا ان العملية لم تكن في متناول الجميع . فالستون ليرة توازي مرتب أو اجرة ثلاثة اشهر . هنالك عدد كبير من المياومين لا يملكون مثل هذا المبلغ . وقد خطر للجنة الصدقات ان تعهد اليهم باستئجار اراضٍ من المجلس الرديء ، فتتنازل لهم عن قسم منها ، وهو تدبير يجنبهم العوز والحاجة . الا ان هذا الاجراء وخطة الاسعاف الكبرى التي سنتكلم عنها فيما بعد لم يجر عرضها على بساط البحث . ومن المظنون ان اعضاء الجمعية التأسيسية لم يكونوا ليرضون قط بان يتم مثل هذا الامر على حساب املاك الاكليروس .

والراغبون في الشراء جاؤوا بعدد كبير . فقد سيطر على عملية المزايدة احياناً ، جو من الحماس الشديد . وكثيراً ما قوبل المشرفون على عملية المزايدة بالاهازيج والاغاريذ الحماسية . والذي يرسو عليه المزا ، كانت الموسيقى تشيعه لدى انصرافه ، ويسلمونه إكليلاً مديناً وبندقية ليرد من يتعرض لارضه بسوء . وكثيراً ما راح البورجوازيون في المدن ، والنبلاء والفلاحون حتى وبعض رجال الاكليروس يزايدون بعضهم على بعض لرفع الاسعار . وكان الأول منهم يتقدمون لشراء العقارات الواسعة ، كما انهم لم يأنفوا قط من شراء القطع الصغيرة . وقد فاقهم عدداً ، عندما تكون المزايدة تتعلق باملاك ريفية ، المزارعون وعمال المنازل ، والفلاحون والمرايعون ، والعمال المياومون في الصناعة الذين كانوا يرغبون في الحصول على قطع صغيرة من الاراضي ، أو على عقارات صغيرة ، وحياناً على عقارات كبيرة ، فيؤلفون ، في هذا السبيل نقابة من المشترين . ستمد الدولة على منهاها وإلغائها عام ١٧٩٣ ، أي في وقت كانت معظم الاملاك الكنسية قد بيعت أو جرى التصرف بها بشكل أو آخر . وفي نهاية الامر ، نرى أن مشتري الاملاك الريفية كانوا نوعين من المشترين : بورجوازيي المدن والفلاحين : فالفسارق بين

الفنئين ، لم يكن كبيراً . انما يظهر هذا الفرق بوضوح اكبر اذا ما قسنا ذلك على الافراد ، وعلى فئة الفلاحين ، بين بروليتارية المياومين من جهة وبين انصاف البورجوازيين في الارياض من جهة اخرى ، الذين يتألفون من الفلاحين أو يعملون في الصناعة . ومهما يكن من الأمر فالملكية العقارية المتمتعة بالامتيازات كانت كبش المحرقة هنا .

هنالك ، مع ذلك ، نقطة يجب التوقف عندها هنية والتأمل فيها ملياً . فبيع املاك الكنيسة والاكليروس لم تزد من نسبة عدد الملاكين في البلاد فحسب ، بل زادت كثيراً من نسبة أصحاب الاستثمارات . ان قسمة العقارات الكبيرة لما فيه مصلحة البورجوازية حمل عدداً أكبر من الفلاحين على طلب رزقهم من خبايا الارض بوصفهم مزارعين أو مرابعين . وهكذا تحقق أمل كبير من آمال سكان الريف الذين طالما دغدغت خيالهم وافترت لها شغافهم ببسمة رضى عندما وقفوا موقفاً معارضاً في وجه توحيد المزارع وتكتلها في وحدات متأسكة ، ضخمة .

وهذه السياسة التي قامت على توزيع قسم كبير من الثروة الضرائب والرسوم العقارية العقارية تتفق كل الاتفاق مع السياسة الأخرى التي رمت لتصحیح أوضاع الدخل الوطني في البلاد ، وقد تم تطبيقها على حساب الطبقات الأخرى ولغايدة المنتصرين ، ولو جاءت ضئيلة لدى البعض . ان تخفيض المرتبات العالية تخفيضاً محسوساً على ، هو الآخر ، عمله في هذا المجال . وهكذا قل عن إلغاء العشر والحقوق السيادية الأخرى ، وإزالة الضرائب المفروضة على المواد الاستهلاكية وتساوي الجميع أمام الرسوم المالية .

والنظام الضرائبي الجديد : كضريبة الاراضي والمسقفات بلغ تمامه في الأشهر الأخيرة من سنة ١٧٩٠ ومطلع عام ١٧٩١ . فاذا ما قارنا هذا النظام بالنظام الضرائبي القديم نراه يلقي شيئاً من الرضى وحسن القبول والارتياح لدى جمهرة الخاضعين للضرائب أو المكلفين ، لا سيما عندما نعارض بأسعار اليوم ، قيمة الاعشار والرسوم السيادية التي كانوا يرزحون تحتها . غير ان الفارق الطفيف بين الرسوم المباشرة التي فرضت عليهم احدثت فيهم احياناً شعوراً مريراً لشدة فداحتها ، اذ ان هذه الضرائب ، بخلاف الضرائب غير المباشرة التي اعتادوا ان يدفعوها يومياً دون أن يشعروا بها ، والتي كانت تختلف باختلاف أسعار المواد الاستهلاكية نفسها ، أو قيمة الاعشار والرسوم التي يلزمون بدفعها بنسبة قيمة القلة ، لم تكن لتتأثر كثيراً — هذا ان تأثرت — بتغيرات المحصول السنوي . وبالفعل ان جمود الهيئات السياسية المنتخبة والمكلفة بتطبيق هذه القرارات جعل البلاد تنعم بمهلة طويلة من تأجيل الديون .

ان جانباً من هذه الضريبة التي تصيب الجميع بالتساوي معد للاتفاق في وجوه جديدة لم تعرف مثلها البلاد من قبل ، منها مثلاً ما هو مخصص للمجال الاجتماعي لا سيما التربية والتعليم ، هذا القطاع الذي حلت فيه الدولة محل الكنيسة .

كذلك في مجال الاسعاف الاجتماعي . فقد سبق للجنة الصدقات في الجمعية التأسيسية ان وضعت مشروعا كاملا للاسعاف العام . فهي ترى ان «البؤس الذي تتسكع فيه الشعوب ، انما تقع مسؤوليته على الحكومات » . فيترتب بالتالي على المؤسسات الحكومية وهيئاتها الرسمية ، العمل على إزالة أسبابه والقضاء على مسبباته . والنظام الذي اقترح اخذ به وتطبيقه يكفل للبائس والفقر المدقع رعاية تلازمه في كل مراحل حياته ، كما ينص على تخصيص اسعافات للاولاد المحرومين من كل عون ، وللامر الكبيرة والفقراء الذين اقمدهم المأهنة عن العمل ، وللمرضى وللعائدين في السن . فتعويض الشيخوخة البالغ ١٢٠ ليرة يمثل تقريبا نصف الأجر الذي كان العامل اليومي يتناوله ، على ما نعلم من تدني هذا الأجر . فليس من يعارض ، من هذا القبيل ، في العالم الاقتصادي : من دوق دي لاروشفوكو - ليانكور ، رئيس اللجنة المذكورة الى مجموع اعضاء الجمعية . فاذا لم يكن لدى الجمعية التأسيسية من الوقت للتصويت على هذه الخطة ولاقرارها فهي تحرص ، في قسم الاحكام الاساسية من الدستور على وعد علني بهذا الشأن .

وهكذا تمّ قطعاً ، بانتهاء الجمعية التأسيسية بين ٣ - ١٤ من ايلول ، تفويض النظام البائد وهدم المجتمع الذي قام عليه .

فالنظام الملكي الذي عاش قرابة الف سنة مات وزال تماما من الوجود ، والسيد السند اول نبلاء فرنسا وطلبيعتهم لم يعد سوى خدام الدولة الأول ، هذه الدولة التي هي نفسها اوجدته وتدفع له مرتباته وترفقه ، تحت ستار تقديم استقالته من نفسه اذا ما رضى ان يؤدي لها بين الولاء أو اذا ما حنت بهذا الحلف وخفر قسمه أو اذا ما تولى قيادة جيش يحاول معه النيل من سيادة البلاد واستقلالها ، او اذا ما ترك هذا الجيش يتصرف على هواه ، أو اذا غادر فرنسا فلن يسمح له بالعودة اليها حق ولو بدعوة من الهيئات التشريعية .

كذلك انهارت أرضا دعائم هذا النظام الاجتماعي الألفي . فطبقة النبلاء أرغم انفسها صاغرة . والاكليروس صودرت أملاكه وانتزعت اوقافه وأقصر على الطاعة والخضوع . واستقر في روع «المنتصرين» ان «الرؤساء» القدامى تمّ محققهم الى الابد . فالمال والكفاءات وحدما تتكلم وتفصل . فمفسر الادارة في النظام الجديد يؤمن للبورجوازية العليا والوسطى السلطة الفعلية في البلاد . ويسند النظام قوة شعبية بالرغم مما يظهر عليه احيانا من عوارض الاختلاف .

الا ان الوضع العام لا يزال يبدو متقلبا وموقوتا . فهناك بعد ، خطر البطن (الجوع) يطل من خلال القوة . والمغلوبون على امرهم لا يسلمون بالهزيمة ويتمتعون في فرنسا نفسها بقوة تفوق كثيرا نسبة عددهم ، والبعض منهم يستغيث باوروبا ويدعو ملوكها للنجدة ، وتراود الخيال احوال الثائر الذي يبدو لهم وشيكاً . فالمؤسسات الثورية وفرنسا نفسها عام ١٧٩١ تزرع الخوف في قلب العالم القديم . وقد انتصبت امام انظار المعاصرين - يوما بعد يوم - اخطار حرب كبيرة طاحنة .

فالمتصرون من جهتهم منقسمون على انفسهم . كثيرون بينهم آثروا ، بعد ان تحرروا من كل ضغط خارجي ، على الثورة الخلاقة المبدعة ، ثورة سلمية مسالمة . فالحظر الذي مصدره اليمين ، والضغط الذي يمارسه اليسار من جهته لم يكونا ليتركاهم حرية الاختيار . فقد انجرفوا مع قوى الثورة العارمة ودخلوا خضما فساورهم القلق وقد حان الوقت ، في نظرم ليحلوا محل حركة المقاومة .

الا ان هذه القوى التي تحالفت في ظلها البورجوازية مع الطبقات الشعبية ولمبت معها دوراً حاسماً كانت تخطط لأبعد من ذلك . فسواء لديها أنشبت الحرب ام اشتد ضغط اليمين واصبح خطراً ممتاً على النظام الجديد ، فضرورة المصير ستكون الحركة الجديدة من تجربة حظهها وتنطلق الى الامام .

الفصل الثالث

عهد المتوقعات الثورة والمؤتمر الوطني (١٧٩٢ - ١٧٩٥)

الحرب الكبرى التي ستنفجر لتضع وجهاً لوجه ، المجتمع اللاطقي والمجتمع التقليدي فيه شجرت عام ١٧٩٢ . ففي هذا الصراع المموم الذي لم يسبق ان اهتمت المشاعر المتلاحمة فيه بمثل هذا الهيجان ، في ما سبق من العصور ، اذ بلغت فيه الاحاسيس من الغليان ما سجل رقماً قياسياً ، تبرز لأول مرة الوحدات العددية القياسية التي تطبع سياسة العصر : الوحدة العسكرية او الحربية التي تقوم على مليون جندي مسلح ، والوحدة المالية قوامها المليار ، والوحدة النقدية قوامها الورقة النقدية بـ ١٠٠,٠٠٠ ليرة ، ليتكون من هذا كله ، ما عرف في تاريخ الثورة بعهد « الاوليات » او المتوقعات . ان معظم النظم او المؤسسات التي رأت النور في هذا العهد تحت ضواغط استثنائية لم تلبث ان زالت بسرعة كلية ، مع انه شدت بينها وشائج وروابط . محكمة ربطتها بالعهد المنصرم ، وهي نظم ستؤلف ذكراها في هذه الاحزاب السياسية التي قامت في القرن التاسع عشر ، قطب جذب واغراء عظيمين .

اولاً - القوى المتحركة

١ - الخطر المزدوج

كانت الثورة قد تفاعلت حتى الآن ، والى مدى بعيد ، بمشاعر جماهيرية واجتماعية الطابع . فطلعت احساسات جماهيرية اخرى ما زجت بين القوى ووجدت بينها في المجالين الوطني والاجتماعي لتزيد الثورة تأججاً واضطراباً .

أخذ الناس يشعرون منذ ١٧٩١ بطلوع جو مثقل بالحرب : حرب
 « الانفعال الوطني » الشوائع الغثة والسميكة والمناوشات والفن التي لا نهاية لها . يقرأ هذا
 واللاجئون « الحونة » في الصحافة اخبار الفوضى الضاربة اطنابها في فرنسا واخبار الجرائم
 الوحشية التي يحدث العالم الخارجي عن وقوعها ، كما يروون في الداخل ، حوادث الاضطرابات
 والقتال والانتفاضات الثورية . هنالك تحركات جيوش على الحدود وإهانات يلحقونها في الخارج
 بالعلم المثلث الالوان . وازداد الجو ضغطاً عموماً بعد حادثة فارين Varenne . وتصل باريس ، في
 مطلع ايلول ، بحزمة مضخمة ، اخبار مؤثر قصر بيلننتز Pillnitz ، تصف بصورة متقطعة
 الشخصيات التي اشتركت باعماله ، بينهم امبراطور النمسا ليوبولد ، والارشيدوق فرنسوا ،
 وملك بروسيا وابنه ولي العهد الملكي ، وامير هوهنلو ، وامير ناستو ، عدداً فاضلاً من
 وقهرمان القصر . والمهاجرون يمثلوا هم أيضاً في المؤتمر بشخص كالرث وكونديه واسترهازري
 وبولينياك و« مسيو دارتوا » و« الحائن بوييه » ، وبالأجمال « مجموعة مدهشة » من ممثلي اوروبا
 الارستوقراطية . لا شك في ان حديث المؤتمر دار حول فرنسا بعد الشوائع العديدة التي نثرها
 واشاعها اللاجئون في كل من كوبلنتز وبروكسل ، وعلى اثر المنشور الذي اذاعه الامراء في العاشر
 من ايلول عقب اجتماعهم المعلوم ، الذي تضمن استنفاً للاجنيبي ودعوتهم للتدخل استجابة منه
 لهذه الصرخة الرسمية . وقام اذ ذاك ما يعرف « بالتحالف الذي لا يُقهر » الذي هدف الى
 وضع حد لعهد الاستبداد والطغيان الديماغوجي ، و« بطر الطبقة الشعبية » ، فاذا ما جرت محاولة
 اعتداء على ذات الجلالة الملكية « تناقلت باريس كلها الخبر ، وكان على باريس ان توقن جيداً ..
 ان جيوشاً قوية جداً ستنتفض حالاً على المدينة المارقة فتنزّل بها صواعق السماء وغضب العالم
 بأسره » . لا شك في ان الامراء اللاجئين سيتجاوزون الحقائق كثيراً في البيان الذي اذاعوه ،
 ويورطون الامبراطور ليوبولد فيذهب أبعد مما كان ينوي الذهاب اليه . فالعلم الذي تم للعاصرين ،
 اذ ذاك ، نراه مسجلاً في هذه النصوص وفي هذه المحادثات العنيفة التي أثارها هذا البيان . من يذكر
 بعد هذه الاستطرادات والابحاث التقدمية المستفيضة حول حرية اختيار الوطن ، وحول سابقة
 ابناء الفريقين الفارين الذين اعترفت الجمعية التأسيسية لذراريهم بالجنسية الفرنسية . والفرصة سانحة
 لكوندورسيه وفيرييو ولغيرهم ان يحولوا وان يصولوا ، فيعيدون عبثاً ، على الاسماع ، خلال
 المناقشات الاولى التي دارت في الجمعية التأسيسية حول اللاجئيين ، ويذكرونهم بالواجبات المترتبة
 عليهم نحو الوطن المهددة به الاخطار من كل صوب ، ووجوب التحلي بالتضامن الوطني ، والجرأة
 الشكراء التي يأتيها من يتنكر لهذه الواجبات . وراح القرار الصادر في التاسع من تشرين الثاني
 (نوفمبر) يهدد المجرمين ، ومن بينهم السيد السند ، بمصادرة املاكهم والحكم باعدامهم . فاذا
 رفض الملك المصادقة على قرار يُعرض عليه ، وهو يعمل سراً لحل الدول الاجنبية على التدخل ،
 اتهم بالتواطؤ معها بالخيانة . وقد حدث اذ ذاك ما هو أنكى وأوقع ، وهو انطلاقة الحرب
 الدبلوماسية . فأخذت الامبراطورية تحاول بمائة الامراء الذين « جردوا من املاكهم وألقاهم
 لاجبار فرنسا على اعادة النظر في القرارات التي اتخذتها بهذا الصدد ، وراحت فرنسا من جهتها

تُحاول أن تفرض على الامبراطور تسريح تشكيلات اللاجئين. كذلك قطعت العلاقات الدبلوماسية مع البابا بيوس السادس منذ الربيع . وقد وجهت تهمة الخيانة الى وزير الخارجية : دي لستار بالتواطؤ مع النمسا وأحيل أمام المجلس الوطني في آذار ١٧٩٢ ، للمحاكمة ، جاراً معه الى السقوط الوزارة برمتها . فعندما اعلنت الجمعية الحرب على ملك هنغاريا وبوهيميا في ٢٠ نيسان ، حرصت على ان تؤكد موضحة ان هذه الحرب ليست بين أمة وأمة ، بل بين شعب وملك . و « تبثت مسبقاً كل اللاجئين الذين يغادرون صفوف العدو ليحاربوا تحت الالوية الفرنسية » .

هنالك ظنون وريب مخيفة تحوم حول الزوجين الملكيين في هذا الصراع ضد النمسا دفاعاً عن الحرية . ففي ايام الحرب ، يعزل الملك في ١٣ حزيران ، الوزراء الوطنيين ، امثال رولان وسرفان وكلافير ، ويرفض توقيع القرارات المتعلقة بأمن الثورة الوطنية ، الصادرة في ٢٧ ايار (مايو) و ٨ حزيران (يونيو) فثارت باريس في ٢٠ منه وراحت تشهر في عريضة تهديدية ، هؤلاء المتآمرين ضد الوطن ، المسؤولين « عن الجلود الذي يضل جيوشنا ويُعدها » . فاذا ما كانت السلطة التنفيذية هي المسؤولة عن هذا المسلك « فلتسحق سحقاً » . وراح لافاييت يدافع عنها بوصفه قائد جيش يتولى الاعمال الحربية ، بعد ان اتهمه دانتون من قبل انه « يتزعم فئة النبلاء المتحالفين مع كل الطغاة في اوروبا » ، ثم يسارع في ٢٨ حزيران الى منبر المجلس الوطني ويهاجم اليعقوبيين فيلاقي خطابه دويماً في صفوف الـ *Feuillants* . وقام روبسبير يتصدى له بالرد عليه من منبر شارح سانت هونوريه ، مطالباً بملاحقة « هذا المجرم » .

ولم تلبث ان برزت الاوضاع بشكل اوضح ، اذ اعلن

الامبراطور وملك بروسيا موقفهما الصريح من « الفوضى الفرنسية » ، واعلن ملك بروسيا الحرب في ٦ حزيران . وراح

« الخائن » لافاييت
« الخونة » في الداخل

برونسويك يوضح في ٢٥ منه الاهداف التي وضعها البلاطان نصب اعينها : « القضاء على الفوضى داخل فرنسا ... ووضع حد لهذا التهجم على البلاط والكنيسة ... وإعادة السلطة الشرعية ... وجعل الملك في وضع يستطيع معه ممارسة الحكم وادارة البلاد وفقاً لما له من سلطة شرعية » . ويكثر المشور الذي اذاعه من التهديدات ضد الامة الفرنسية ، ترديداً منه للتهديدات نفسها التي اصدرها الامراء والتي تبثناها اللاجئين بدورهم . فالرأي العام لم يفرق بين الاعداء في الداخل والاعداء في الخارج فهم واحد ايها كانوا . والشعب في شعوره العفوي لمس الواقع لمس اليد . فالمنشور صدر بالفعل عن « اللجنة النمساوية » في التويلري التي كشف امرها تيسو ، اكثر منه عن برونسويك . وراحت بعض الاحياء تتخذ قرارات بسقوط الملك . فبعد ثورة ١٠ آب وسقوط العرش ، حاول لافاييت عبثاً حمل الجيش للعمل ضد السلطة الجديدة في البلاد ، ثم ينجو بنفسه باتجاه العدو في ١٩ آب مسجلاً بعمله هذا « خائناً جديداً » في البلاد . ثم تتعاقب الاحداث العسكرية بسرعة ، اذ يعبر الجيش الالماني الحدود ويدخل فرنسا في اليوم ذاته ليستولي في ٢٣ منه على بلدة لونغوي . « بين صفوفكم خونة » يصرح بيان صادر عن المجلس الاستشاري ، « وإلا

سكانت المعركة انتهت . . . وفي ٣٠ منه يبدأ النمساويون بحصار تيونفيل . « الملك وزع جيشنا وشتته وترك حدودنا مفتوحة » ، مشرعة ، يعلن التعميم الوزاري المرسل الى مختلف المحافظات ، وذلك على إثر الوثائق والمستندات التي عثر عليها في قصر التويلري ، وفي ٧ ايلول انكسر خيبر سقوط فردان ، آخر خط دفاعي في الطريق الى باريس ، بعد ان اذيع ان المدينة سلمها الخونة من انصار الملك ، وان مطران المدينة ينوى دخولها في اعقاب احتلال الجيش البروسياني لها . وفي كل مكان تقريباً ترى النظام القديم يلبعث من جديد في إثر الغزاة . ويعلن المجلس الوطني العام ، للكمون ، التعبئة العامة ، كما يأمر بتجريد المشبوهين من اسلحتهم ، ويكشف عن الخيانات التي تحيق بالبلاد وتهددها . « من الافضل لنا ان ندفن مع وطننا » ، وان نحول « مدينتنا الى تلال من الردم والحراب » ، على ان نخضع لبرونسويك . وانطلق المدفع يستنفر الناس ، كما اخذت الاجراس تفرع باستمرار منذرة بالخطر المدام . فما الذي تفكر به الجماهير وهي تتألب زرافات وتتجمع في الشوارع ؟ فقبل الالتحاق بجبهة فردان ودخول المعركة يجب ان نضع حداً للجبهة الموجودة في العاصمة . « فهذه الكتائب المدعوة القادمة للقضاء علينا تتواطأ سرّاً مع المجرمين ومع المساجين » في السجون . نحن امام دسيسة سجون . فاعداء الثورة ينتظرون قدوم العدو ليفتحوا ابواب السجون . يجب اخلاؤها في الحال .

بعد هذا بثلاثة أشهر كان القرار الاتهامي يذكر ، امام المؤتمر الوطني ، الجرائم لويس الحائن التي اقترافها الحائن لويس ، آخر ملوك الفرنسيين ، ضد الوطن . فهو متهم بخلخلة الجيش الفرنسي ، واغراء طوابير برمتها لترك صفوف الجيش ، وتسليم لتغوي وفردان ، عن سابق قصد وتصميم للعدو ، والقضاء على الاسطول الحربي ، وتواطؤ على طول الخط مع ممثلينا الدبلوماسيين الذين يقدمون خدماتهم للدول الاجنبية وللارماة ضد فرنسا ، وعدم اكرائهم لسوء المعاملة التي يتعرض لها الفرنسيون في الخارج ، وتعمير الأمة الفرنسية ، في المانيا وايطاليا واسبانيا .

خونة هم ايضاً سكان مقاطعة فانديه « الانفصاليين » ، كما ينعتهم حركة الانفصالية يقوم بها سوريل بالذات ، بعد أن راحوا يكشفون ، منذ عام ١٧٩٣ ، عن سكان مقاطعة الفانديه خططهم المعادية للثورة « بالتواطؤ مع اعدائنا في الداخل والخارج » . وفي شهر آذار نفسه ، تشهد البلاد خيانة القائد ديموريز ، فيعيد على المسرح الدور الذي قام به لا فاييت من قبل ، ويمتاز عن سابق قصد وتصميم ، الحدود ملتحقاً بصفوف العدو ، ويتكلم كما تكلم برونسويك ، ويعرب عن رغبته ، « بالهجوم على باريس ليضع حداً لهذه الفوضى المفجعة التي تسيطر على العاصمة » كما ان كوبرج يعلن في ٥ نيسان عن تضامنه مع ديموريز ، وبشهر بهذه الفوغام التي « لا تحمل إلا بالقتلة والسفاحين » . خونة ايضاً الجيرونديون رفاق ديموريز ، وراح روبسبير يعلق في غرة نيسان على الحوادث امام اليمقوبيين ، قائلاً :

أيميسر ديوريز ان يأتي ما اتاه لو لم يكن يعتمد على حزب قوي ؟ هو يعد بيننا من الانصار من يتواطون معه ... فسلامة الجمهورية تقوم في اعادة تنظيم الحكومة .

ففي فرنسا المستباحة التي يقف مصيرها على كف عفريت ، كل اعداء الثورة من المهاجرين الى حزب الجيروندي ، يُتهمون تباعاً بالتواطؤ مع الاجنبي .
فرنسا والثورة سيان ، شيء واحد ها . فالمدو ، واحد هو سواء أكان في الداخل أم في الخارج . ها هو بارير يعتلي منصة الخطابة في المؤتمر الوطني ، في ٨ آب ١٧٩٣ ، وأخذ يتكلم باسم لجنة الانقاذ العام قائلا :

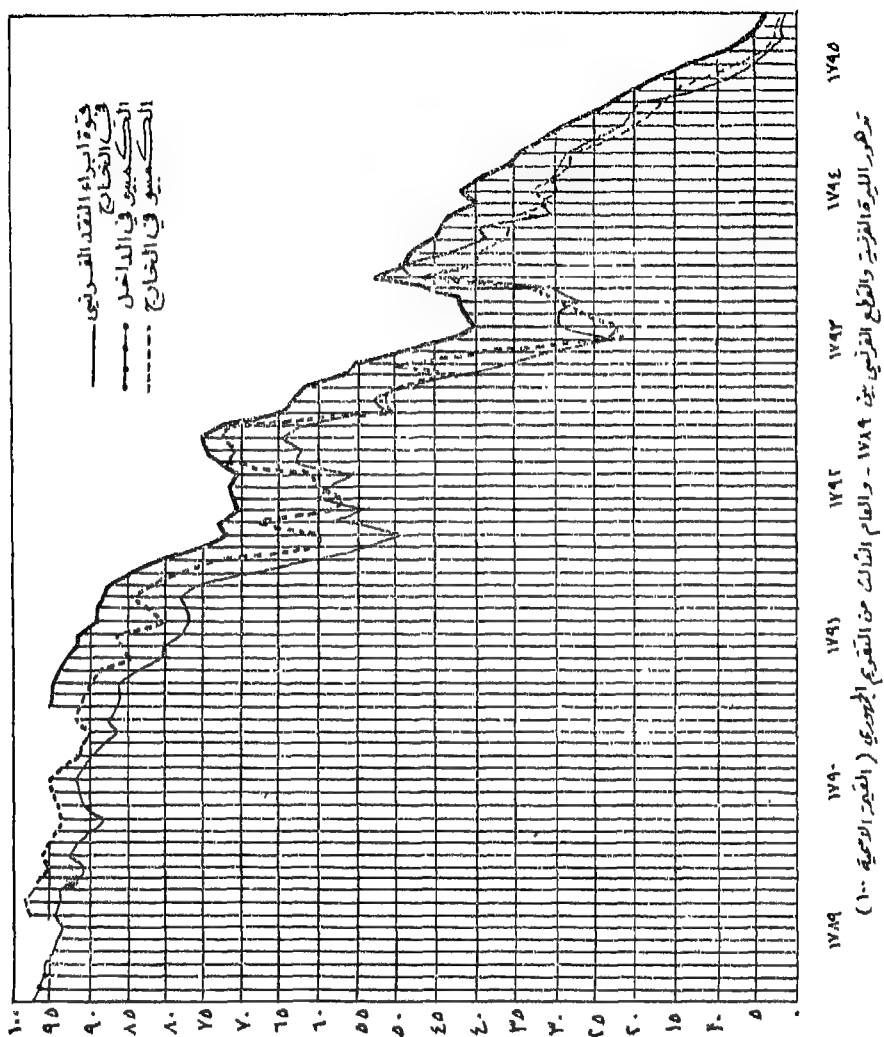
« عليكم ان تضربوا في يوم واحد كلا من الكلترا والنسا والفانديه والميكل وآل بوربون . »

وفي الوقت ذاته يشهر «بيت» وينعته بأنه : «عدو الجنس البشري» . فانكلترا «قرطاجة هذا العصر» يجب سحقها من الوجود . ويردد الشارع هذه النداءات : علينا أن نقوم بغزو هذا الشعب الضاري وأن نمنح لندن من الوجود . ويقوم من يضيف : وفيينا أيضاً . والتهب الشعب بالحماس الوطني ضد العدو التقليدي وضد شركائه المتواطئين معه من الملكيين أو « المتحالفين » الذين يحاولون — عبثاً — تمكينه من مرسليلياً ، في اواخر آب ، انما يحالفهم الحظ في الوقت ذاته ويمكنونه من مدينة طولون ، بينما تثور مدينة ليون وتقدم يداً مسعفة للغزاة البيامونتيين . وقد دخل في روع الجيهاير واستقر في خلد الغوغاء ان فئة من افراد الفرنسيين يعملون في خدمة العدو ، من داخل مدننا الحصينة ، وهم على استعداد كلي لمؤازرته بالسلاح ، ومدته بما يرغب من المعلومات . ان عملاء الاجنبي ، كما يؤكد روبسيير ينساون بين جيوشنا ، ويعملون على خلخلتها من الداخل ... ويحضرون المداولات والمناقشات التي تجري في الدواوين وفي أي لجنة من لجاننا الفرعية ، ويتغلغلون في انديتنا حتى بين صفوف المؤتمر الوطني .

وأياً كانت نيات الترميدوريين ، فهم لن يلعبوا بالنار ويعيشوا بهذه المشاعر . فبعد كيهرون يعتلي قاليب المنبر في التاسع من شهر ترميدور من السنة الثالثة للجمهورية في التقويم الجمهوري الجديد ، ويسلق بلسان حديد سلبط هذه الطغمة الذميمة من المتواطئين ، وهؤلاء الخولنة من مأجوري « بيت » الذين « يحملون بقتل آباءهم » والذين « بلغ من قحتهم أن دنسوا هذا الوطن عندما وطأت أقدامهم الرجشة » . فطبقت بحقهم احكام النصوص القاسية التي أقرت ضدهم في التاسع من تشرين الاول (اكتوبر) ١٧٩٢ و ١٨ اذار ، و ٥ نيسان ١٧٩٣ . وسيُحكم عليهم بالموت رمياً بالرصاص ، على هذه الفئة الخارجة على القانون . وقد نصت المادة ٣٧٣ من دستور عام ٣ على أن الامة الفرنسية لا تسلم بشكل من الاشكال ، برجوع اللاجئين الى بلادهم .
لم نر قط ، منذ القرن السادس عشر أمة تقبل برمتها على الحرب وتنفمس فيها بمثل هذه الحماسة وبمثل هذا الاطباق . فمن الجانب الفرنسي وحده ، بلغ عدد افراد الجيش ، مليون جندي .

فإذا ما بلغ من شدة الانفعال الوطني ما ساعد على عقلنة الرأي « الانفعال الاجتماعي » . التضخم العام وتقييم الحياة السياسية في البلاد ، فقد استطاعت الحياة المالي وارتفاع الاسعار الاقتصادية بدورها ان تبرز المشاعر الاجتماعية الدفينة للانسان والملازمة له . كهذه المظاهرات التي يسببها غلاء المواد الغذائية المتأتي عن ارتفاع اسعار المحاصيل الزراعية وتقلباتها بعد جذب المواسم الزراعية لسنة ١٧٩١ و ١٧٩٤ . ولا سيما هذا الجو الثقيل الذي سببه ، تضخم النقد ، فأضفى على حركة الاسعار هذه مقاييس شدت عن الصدود وفاقت كل وزن وحده ، وتركت اثرها واضحا في هذا الجو المسيطر على الحياة الاقتصادية في البلاد . والثورة لا يزال اعتمادها الاول والاكبر على الاسلحة . فقد زالت الى غير رجعة ، الضرائب القديمة ، والضرائب المباشرة الجديدة تجبى بصعوبة كلية ، وباب الإنفاق والصرف اتسع ورُحِب مجاله وتحتم على الخزينة مواجهة مصروفات مستجدة ، منها مثلا تسديد الدين القصير الامد الذي لم يعد بالامكان تمديده ، ودفع الرسوم المخصصة لمراسم العبادة ولمرتبات رجال الدين ، وتكاليف الاسعاف الوطني ولا سيما ما تعلق بالمؤسسات الخيرية ، والاشغال العامة المختلفة التي قضت بها الازمة الاقتصادية المستحكمة ، والاعتادات اللازمة لآلة الحرب . فإذا ما اخذنا بعين الاعتبار هنا الاوراق المالية التي طرحها في التداول صندوق النقد برسم التبادل وإتلاف الاسلحة التي دخلت الصندوق ، بلغت قيمة النقد الورقي في التداول ، في اواخر ١٧٩١ ، ما يوازي تقريبا مليارا ونصف المليار وهو مبلغ ضخم جداً اذا ما قارناه بالمبالغ التي طرحها في التداول صندوق الحسم والمبالغ التي طرحها في التداول بعد ذلك مصرف فرنسا عام ١٨٢٠ ، التي قلما تجاوزت ١٠٠ مليون . ثم جاء عهد الحرب الكبرى ، وهي حرب من طراز جديد تستمر بضع سنوات فاقتضت تأميم الناس كما فرضت بالتالي تأميم العملة . فتحويل هذه المفامرة الكبرى لم يكن ممكناً بغير القروض الاجبارية التي تستدعي لزماً في التداول ، نقداً وافرأ : ملياران من الاسلحة عام ١٧٩٢ ، وقريبة ٣ مليارات في اواسط عام ١٧٩٣ ، و ٦ مليارات في مساء التاسع من شهر ترميدور ، و ١٨ مليارات في آخر عهد المؤتمر الوطني وأقل من ٣٤ مليارات بقليل في مطلع عام ١٧٩٦ ، أي في اواخر عهد التضخم المالي المعجاج .

وتبعاً لذلك ، ارتفعت بالطبع الاسعار ، انما بنسبة غير متساوية وفقاً للظروف والصروف والأصناف . ففي السنة الاولى من الثورة ، اي من منتصف سنة ١٧٩٠ الى منتصف ١٧٩١ ، هبط معدل الاسعار بصورة ملحوظة بدلاً من ان يرتفع ، تبعاً لهبوط سعر الحبوب . اما القطع ، فقد بلغ معدله الذروة منذ البدء ، والازمة الدورية التي نزلت بالبلاد عام ١٧٨٩ ، زادت سوءاً مع الحوادث السياسية التي وقعت اذ ذاك . فليلقى القارئ الكريم نظرة عابرة على الخط البياني في الصفحة التالية . ففي أواخر ١٧٨٩ يفقد القطع من ٥ - ١٠ ٪ من قيمته . ثم ان طبيعة التغيرات والحوادث السياسية والدورية واستمرار ازمة النقد هي الميزة التي تطبع متعنى الانحدار في السنوات التالية . فالفرق يقرب من ١٥ ٪ في أواخر عام ١٧٩٠ ، ثم يرتفع الى الربع بعد حوادث بلناتز ، وإلى النصف قبيل إشهار الحرب ، ولا يبقى الا الثلث بعد



معركة فالمي ويبلغ ١/٤ حوالي منتصف عام ١٧٩٣ ، عند الغزو الجديد الذي تعرضت له البلاد وثورة الإئتلافيين ... ثم يأتي بعد ذلك ، النهضة المالية الكبرى في الأشهر الأولى من العام الثاني للتقويم الثوري . وبالرغم من الانتصارات الباهرة جاء المنعطف الحظر الذي صارت اليه البلاد بين شهري *Pluviose* و *Ventose* والنكسة التي أصابتها من جراء هبوط النقد وهي نكسة استمرت حتى مطلع عهد الديركتوار .

وسعر القطع في الداخل ، والتداول بالذهب وبيعه بحرية - ولو تأخر عن مسابقة تقلبات سعر القطع في الخارج - يُعيد عهد هذه التقلبات من جديد . فالليرة الذهب الحاملة طغراء لويس والتي تساوي قيمتها في آذار ١٧٩٦ ، نحواً من ٧٠٠٠ - ٨٠٠٠ فرنك، تفقد في خلال سبع سنوات، أكثر بقليل مما فقدته الليرة الذهب بطغراء نابليون خلال فترة الـ ٣٥ سنة التي انقضت قبيل ١٩١٤ مباشرة .

فالطاقة الشرائية في الداخل المرتكزة على اسعار الحاجيات وتوفر الرساميل معاً ولا سيما العقارية منها بين اراضٍ ومبانٍ ، تبدو متأخرة عن المعدل الذي يسجله خط المنحنى الثاني ، ويتغير في ذات الاتجاه تقريباً ، مع الملاحظة ان ذبذباته او اهتزازاته هي اقل اتساعاً وان كانت أكثر وضوحاً وبروزاً مما هي في مراكز المحافظات حيث البيوتات التجارية الكبرى ، او هي على اتصال مباشر بهذه المراكز نفسها . كل هذا يقع في هذه الفترة الواقعة بين ربيع ١٧٩١ وصيف ١٧٩٤ ، كأنما سعر القطع في الخارج هو الذي يحدد سعره في الداخل . وعلى هذا تُبنى الاسعار في الداخل . سنصادف من جديد في مطلع الحرب العالمية الاولى ، مثلاً ، مثل هذا الترابط النظيم بين سعر القطع في الخارج وثمان الحاجيات . ان هبوط سعر القطع في الخارج تحت التأثير المزدوج للتغيرات وللثابتة المشار اليها اعلاه اصبح بعد ربط السوق الداخلية بالذهب ، سبباً من أسباب هذه التطورات التي أصابت قيمة الاسنياء لدى الرأي العام ، هذه التطورات التي كثيراً ما يحدثن عنها الكتاب المعاصرون . وهذه القيمة الاسمية تعبر على الاخص عن شعور البورجوازية وتتناول معاً المحاصيل والرساميل . وقد يختلف عن هذا بالطبع (رأي) أصحاب الاجور الذين يهتمون على الاخص ببعض المواد الاساسية التي ترتفع اسعارها أكثر من ارتفاع الرساميل ، بين ١٧٩٠ - ١٧٩١ ، وبين الأشهر الاولى من عام ١٧٩٣ ، اذ بلغ ارتفاع سعر القمح ١٠٠٪ تقريباً . فالاسنياء تخسر على الاجمال ، بحسب ما يمكن ان نكون لنا رأياً في الموضوع ، في سوق القطع ، أكثر مما تخسره في سعر الحاجيات والمحاصيل .

وينقلب الوضع تماماً منذ صيف ١٧٩٤ ، اذ تأخذ الطاقة الشرائية بالانهيار سريعاً . فنحن على ابواب تضخم مالي طام وامام ظهور اوراق نقدية بـ ١٠٠,٠٠٠ ليرة للورقة الواحدة . والقطع لم يعد العنصر الذي يتحكم بالحركة . فهبوط قيمة النقد مصدره الاسواق الداخلية ، واسعار الحاجيات في الداخل ، بعد أن أخذ معدلها بالارتفاع أكثر من معدل الاصدار . ومنحنى الاسعار يحارل اللحاق بمنحنى القطع دون أن يدركه تماماً . وقد عرفت سنة ١٧٩٥ بما جرت

على البلاد من صعوبات مالية واقتصادية في الداخل ، وبما سببته من ارتفاع هائل شامل في مستوى الحياة ، بعد ان جمعت معاً في فرنسا بين بؤس الازمة الدورية وبين البؤس الذي يسببه التضخم المالي . وعندما يعقد المؤتمر الوطني جلساته النهائية ، يبلغ سعر الحبوب بقدر ما تسمح لنا الدلائل بتقديره اعلى بين ١٥ - ٣٠ مرة مما كان عليه عام ١٧٨٩ .

رئيس الجبهة : البؤس كل انهيار في القوة الشرائية يصحبه على العموم ، المزيد من التشويش والاضطرابات ، يبدو ذلك واضحاً لمن يتملتى النظر في الرسم البياني الذي أشرنا اليه اعلاه . فأول ازمة طلعت على البلاد هي ازمة خريف ١٧٩١ ومطلع ١٧٩٢ ، تلتها على الابر اضطرابات شديدة في المحافظات والولايات . لمشحونات القمح تصادر في الطريق ويحري تسميرها ويبيعها من قبل الجاهل . وهذه الرسوم غير القانونية ، تنزل كذلك بالزبدة والبيض وبعض المحاصيل الصناعية . « فالأغنياء » يتحملون الضرر . وترسم في الاتفاق مطالب اجتماعية جديدة ، ويأتي اعلان حالة الطوارئ ليزيد الطنبور نعمة والطين بلة . فيرفض الجيش الانصياع بالتدخل . فالجاهل هي التي تبادر الى اطلاق النار احياناً . وفي الثالث من آذار يصرع سيمولر رئيس بلدية ايتامب ، ويروح احد الكهنة ممن يخدمون في الضواحي يدافع ، خلافاً للقانون ، عن حقوق القتل الاجتماعية ويؤذي عملهم . وقد خبرت باريس ، قبل ذلك بقليل ، اضطرابات دامية بمناسبة فقدان السكر من الاسواق . وبعد ان توقفت الاضطرابات لفترة قصيرة ، خلال الربيع لمواجهة الاحداث الخارجية ، عادت للظهور من جديد ، في أواخر الصيف ومطلع الخريف في العاشر من آب ، وفي اليوم التالي لمركة فالمي . فالرأي العام لم يتبدل قط . فاذا ما ارتفع سعر الخبز من جديد ، فالذنب على المضارب التي يقوم بها سليل آل كابت (الملك) والمحتكرون ومن وراءهم من قضاة مبالين لهم وتتضاعف الرسوم والضرائب في كل من ليون ومنطقة باريس ومنطقة سهل البوس *Beauce* ، والسلطة عاجزة تترك الحبل على الغارب .

وتطل علينا في أواخر ١٧٩٢ ومطلع عام ١٧٩٣ ، الازمة الاقتصادية الكبرى الثانية . فقد عرفت أسعار الحبوب ، خلال فصلي الشتاء والربيع ، ارتفاعاً مستمراً سجلت معه رقماً قياسياً جديداً . فرغيف الخبز الأسود الرديء ، ثمنه في المحافظات الوسطى بين ٧ - ٨ نحاسات بحيث ان اجرة العامل المحلية تكاد لا تكفي شراء أكثر من ليبرة واحدة . اما في مدينة ليون حيث يستمر عمال النسيج في اضرابهم ، فالرغيف يساوي ٦ نحاسات متجاوزاً بكثير السعر القياسي الذي بلغه السعر الاستغزازي للخبز عام ١٧٨٩ . وقد تجاوزت الأسعار هذا المعدل في أكثر من نصف البلاد . ويهاجم الشعب في باريس دكاكين البقالين فيمتصرها او ينهبها ، ويأخذ سكان الأحياء في الهياج احتجاجاً منهم على غلاء ثمن الخبز ، ويتهمون الرعية والمتواطئين بانهم وراء هذا الغلاء المفتعل ، كما يصير المؤتمر الوطني وأصحاب الأفران على المطالبة باتخاذ اجراءات زجرية ضدهم . كل هذا والموسعون من حزب الجيروند ماضون بتحجير الخطب التقدمية حول

المواد الغذائية لا يأبهون بشيء لتهكمات مارات الساخرة والهزء بهم .

واضطراب الأحياء واهتياجها يظهر من جديد في آب وايلول ، أي في هذا الوقت بالذات الذي بلغت فيه الأزمة أوجها . ويأخذ الناس يصطفون أمام أبواب الخبز والأفران منذ الساعة الرابعة صباحاً بانتظار الواحد منه حصته الضئيلة من الخبز عند الساعة الحادية عشرة . وسرعان ما تسري الاشاعة بأن الخبز سيختفي تماماً من الأسواق . وراح جالك رو وثيوفيل ليكلار يطالبان عالياً بنصب المشائق للخنونة وللنواب الخائنين وللقائمين بالمضاربات المالية والمحتكرين . وراح الأب دوشين (Duchesne) يصب الزيت على النار ، صارخاً : الوطن أين هو . فالتجار لا أوطان لهم ، ثم يأخذ بتشهير « أكلة اللحوم البشرية » ، أعداء الجمهورية ، المتواطئين مع العصاة المارقين . فالعمال المتظاهرون يغشون في الرابع من ايلول صالة المجلس البلدي مطالبين بالخبز ، كما يتهم المتظاهرون ، في اليوم التالي وهم حاملون اللافتات : « الطغاة » و « الارستقراط » و « المحتكرين » ويتزايد ضغط الجماهير يوماً بعد يوم طول الشهر وتتخذ بالاقتراع ضد تدابير رادعة بين خاصة وعامة .

وأزمة أسعار الحاجيات الحياتية تسير جنباً الى جنب والأزمة الاجتماعية ، في هذا الانهيار العام الذي وقع في شتاء عام ١٧٩٣ - ١٧٩٤ . كانت قضية الخبز سبغت بعض النتائج الإيجابية ، بعد أن استلكت الحكومة لها سياسة خاصة قوامها المصادرة والاسعاف والتنظيم وتعيين حصص لكل فرد . الا ان هذه السياسة أصيبت بالفشل على الاجمال . ويكثر الشجار وتقوم الخناقات أمام أبواب الجزارين . فالأزمة هي على اسوأ ما عرفت البلاد من امثالها ، في كل ما يتعلق بالبيض والحليب والزبدة . وراح فريق كبير من نصراء الثورة يطالب المسؤولين باستعمال الدواء الناجع أي المقصلة او القيام بعملية تصفية جديدة أشبه بعملية ايلول الجذرية . واستمرت الأسعار في صعودها بعد تصفية اتباع حزب هيبرت كما كانت من قبل ، وبعد القضاء على حزب دانتون وقبلة . وبعد التخلص من روبسبير كما قبله . وقد قضت هذه العلة في النهاية على خلخلة الروح المدنية وقتلها .

ان التوقف عن استعمال اقصى الشدة في اليوم التالي للتاسع من ترميدور لم يكن له من نتيجة غير ازدياد الوضع سوءاً ، في وقت اخذت معه صفوف المتذمرين والناعبين من الوضع الاجتماعي تتضخم الى ان انفجر في شهري جرمينال وبريريال من السنة الثالثة للتقويم الثوري وشعاره : دستور ١٧٩٣ والخبز .

فالتمويل على الأسينياه ، والتنثيرات الجذرية التي لحقت بالسندات المالية خلال السنوات الخمس المتوالية اوجدت وضعاً متصلاً من الضغط الاجتماعي ، هو انهيار واخشن مما نزل من امثاله بالبلاد حتى الآن ، نتيجة لهذه الأزمات الاقتصادية الآخذ بعضها برقاب البعض الآخر . وقد رأت الطبقات الشعبية في هذا الوضع البائس نتيجة محتومة لتحالف الجماعة على البلاد ، وهي جماعة من جلس جديد ، على النظام ان يضع حداً له بأسرع ما يمكن . وهذا الوضع الاجتماعي

كالوضع القومي اخذ يُعقلن الثورة . فالرأي العام هنا لا ينم عن الاجماع بشيء . فقبل فشل التجربة الأخيرة ، نرى عناصر عديدة بين الطبقات البورجوازية الوسطى والعليا تضرر لهذا الوضع العداء . فاذا ما كانت حوادث الوطن تُعقلن القوى الثورية وتؤلف فيها بينها ، فالحوادث الاجتماعية لا تعقلن فحسب ، بل تفرق هي ايضاً .

٢ - عدة الثورة وادائها

هذه القوى الطبيعية التي تعاضمت شأنها في بضع سنوات ، مضت الجمعيات الشعبية
تستعمل عدة الثورة وأدتها التي اوجدتها الجمعية التأسيسية . وقد اللجان الثورية ، الصحافة
اضاف اليها المؤتمر الوطني جهازاً جديداً أولاًها فعالية لا مثيل لها .

فالنوادي والجمعيات المحلية ولا سيما هذه الجمعيات الشعبية التي تجاوز عددها الالفين والتي كانت تأتمر بإشارة اليعقوبيين وتعمل بتوجيهاتهم ، ضمت بين صفوفها النخبة في الجهاز الثوري . وأخذت هذه النخبة تتسم - شيئاً فشيئاً - اجتماعياً وسياسياً ، بطابع ديموقراطي راديكالي . فقد طردت من بين صفوفها حزب الجيرونديين في اعقاب طرد حزب الـ *Feuillants* كما طردت فيما بعد الهبرتيين والدانتونيين . وراحت هذه النوادي تقوم بصورة قانونية ما حالت الجمعية التشريعية في اواخر عهدها دون قيامها به . فكل حائل او عائق او مانع دون اجتماعها ، اعتبره المرسوم الصادر في ٢٧ تموز ١٧٩٣ متجنياً على الحريات العامة . فالسلطة الحكومية والهيئات الشعبية حرصت من الآن فصاعداً على التآزر فيما بينها والتساند ، بدلاً من التنافر والتخاصم . وقد طُلب من النوادي في الملحقات الاشتراك بالادارة المحلية ، وعُهد اليها مراقبة الموظفين ، كما انيط بها كل ما يتعلق بشؤون العزل والرفق والتمعين . وعن طريق اللجان الثورية المحلية التي تضم الكثيرين من انصارها واعضاؤها بسطت هذه النوادي اشرافها على المدن والقرى وقد امننت لها عمليات التطهير التي جرت في اوقاتها المرسومة ، التجانس بين اعضائها والنفوذ الحزبي البعيد المدى ، وهذا ما جعل الناس يطلقون على الجمعية الشعبية اسم : « الجمعية المتجددة » . وهكذا أخذ حزب اليعقوبيين دور الحزب الموجه باعتباره « الحزب اليقظ » .. ورائد الرأي العام في البلاد ، بعد ان عرف كيف يستثمر هذا الرأي العام وينيره ويثيره وفقاً لخطة رسمها جمعت من الدهاء ما مازج بين المطالب الاقتصادية والسياسية . وقد ألفت الجمعيات والنوادي الشعبية العاملة في باريس والملحقات على اختلافها ، اثر ارتباطها بالبلديات مباشرة ، المراكز المحركة للثورة ، لعبت فيها الطبقات الشعبية السفلى دوراً بارزاً .

وحرية الكلام والنشر والصحافة استعملت على الاجمال ، منذ عام ١٧٨٩ في ما ينفع في تأييد النظام الجديد ، وهي حرية لن تستخدم على مرور الزمن الا لمصلحة هذا النظام ولمصلحته لا غير . واستمرت وحدها في الصدور ، المنشورات الثورية التي راحت تصطبغ ، اكثر فأكثر ، بالروح الحزبية المتصرفة . فمنذ ١٢ آب ١٧٩٢ ، قررت الكومون ، في باريس ،

« تعطيل هذه الصحف التي تسم الرأي العام » كما اوصت اصحاب المطابع الوطنية بالامتناع عن نشرها او تأمين صدورها . وفي الحين ذاته اصدرت الجمعية التأسيسية ، بين ١٨-٢١ آب قراراً « يتعلق برسائل القذح والذم » التي تمس الروح الوطنية والتي ترمي لتضليل الرأي العام ، كما وضعت مبلغ ١٠٠,٠٠٠ ليرة تحت تصرف وزارة الداخلية تشجيعاً للصحافة الوطنية . وعاد شيء من الحرية الى الصحافة في مطلع عهد المؤتمر الوطني (Convention) وتقلص الخطر الاجنبي وابتعد عن البلاد ، وذلك لفترة قصيرة جداً . وكان من جراء الازمة السياسية والاقتصادية التي ذرت قمرها في آذار ١٧٩٣ ، ان اصدر المؤتمر مرسوماً تاريخه ٢٩-٣١ آب نص على وجوب الحكم بالاعدام على كل من يُحرّض ، عن طريق الصحافة ، على إفساد التمثيل الوطني وخلخلته او اعادة النظام الملكي الى البلاد . ويتعرض للمقوبة نفسها كل من يهدد الغير بالقتل وكل من يتعدى على حق التملك او يعيث به ، اذا ما وقع الجرم بعد التحريض الفعلي . ومُعطيت الصحافة الخاصة بحزب الجيروندي في الصباح من ٢ حزيران . وكان الصراع بين الاحزاب قد جر المؤتمر الى اتخاذ اجراءات مبدئية حدثت ليس من حرية الصحافة فحسب بل ايضاً من حرية الكلام اجمالاً . وسيذهب حكم الارهاب (La Terreur) الى ابعد من ذلك ، كما سنرى بعد قليل . والنظارة والصحافة ، هاتان المؤسستان الحزبيتان اللتان اطلعتها الثورة لم يعودا في نهاية الامر يملان ، الا لما فيه مصلحة الاحزاب التي وضعت نُصب أعينها التوسيع في الحريات وجعلها في مأمن .

وفي الوقت ذاته اخذ الحرس الوطني طابعاً ديموقراطياً خليقاً بأن يحتدب اليه المواطنين السليبين الذين أُهمل جانبهم من قبل ، او كانوا موضع شبهة او ظنة ، بعد ان امنتوا لهم مرتباً يُدفع لهم مياومة مقداره ٤٠ لحاسة . ونرى بين الطويحية بنوع خاص ، عدداً كبيراً من اصحاب المهن من اخلصوا لعقيدة الثورة . وانشئت في باريس قوة خاصة ، وكذلك في الملحقات ، تحت ستار جيش الثورة ، واحيطت الحياة المدنية والعسكرية بمثل هذا الدعم ايضاً .

والاعباد الوطنية وهذا الدعم يتناول ايضاً المظاهر المثيرة في هذا الوضع السائد . فالدعاية تنشط جداً لتكريم مظاهر العبادة الدينية التي حضنتها المشاعر المدنية وتبنتها في عهد الجمعية التأسيسية . فهذا الحماس يتجلى على اتمه بالكلام واساليب التعبير . فخدّام الديانة الجديدة ، يتملقون الجماهير ويتمدحون امامها الاولياء الجدد : الجبل المقدس ، والمساواة المقدسة ، والحرية المقدسة . وطقوس العبادة الجديدة تتألق بأناشيد واماديح وتسابيح لا مثيل لها . وتطل علينا من جميع اطراف البلاد ، هياكل جديدة وشهداء جدد . فالاعباد العشرية تحتفل بعيد السكان الاعظم ، بالطبيعة ، بالآلهة البشرية : كالجنس البشري ، والشعب الفرنسي وبكبار المحسنين الى الانسانية .

فإذا ما تمكنت عدة الثورة من تسخير القوى الشعبية على مثل
بين الديوقراطية والدكتاتورية هذا النحو، والاستفادة منها واستغلالها على مثل هذه الصورة، فلأنها
« طفيان » الحرية أصبحت ليس أكثر تجانساً فحسب ، بل أيضاً لأنه اشرفت
عليها الآن حكومة مركزية اخذت تجانس بين عملها وتداركها واحسنت دمجها في قانون شامل
للحق العام ينتظم الكفاح .

هدفت الحريات العامة اول ما هدفت اليه ، تحقيق الديوقراطية ، واتخذت سبيلاً اليها
اقامة دكتاتورية مؤقتة في البلاد . فقد نص المرسوم الذي صدر في ١٩ فندمير (Vendémiaire)
من السنة الثانية للتقويم الجمهوري ، هذا المرسوم الذي اقترح اصداره سان - جوست باسم لجنة
السلامة العامة ، على ان : « حكومة فرنسا المؤقتة هي حكومة ثورية حتى استتباب السلام في
البلاد . فمن يستطيع ان يخضع لنظام واحد « السلام والحرب ، والصحة والمرض » ، واج
يكتب روبسيير فيما بعد . فأعداء الوطن جرى وضعهم خارج الوطن . « فليس من مواطنين في
الجمهورية غير الجمهوريين » فهي تتحكم بالاقلية الملكية ، كما يعلن سان - جوست « بما لها من
حق الفتح ... يجب أخذهم بالعنف ، بالقوة هؤلاء الذين لا يمكن أخذهم بالعدل ؛ يجب استعمال
الظلم مع الطغاة الظالمين ، يجب الا يختلط الناس ، كما يقول روبسيير في تقرير له مؤرخ في ١٨
بلوفيز (Pluviose) « بين استبداد الحرية واستبداد الطغيان . فالشدة التي يلجأ الطغاة الى
ممارستها مصدرها التمنع والقسوة . اما الشدة التي تقارنها حكومة الجمهورية فمصدرها حب
الحير . فقد كان سبق لبارير وصرح في ٨ آب ١٧٩٣ بمناسبة حروب الاقناء التي استسلم
لها الملوك من قبل والتي تقوم بها الجمهورية الآن ، بان الاولى منها قامت على الضغط والكبت ،
بينما تمت الثانية حفاظاً على حقوق الانسان .

« طفيان » الحرية تارسه دكتاتورية تتألف من المجلس والمقاطعات ممثلة بلجنة السلامة
العامة ، تحت اشراف المؤتمر الوطني الاسمي ، هذا الاشراف الذي يمكن ان يتحول يوماً من
الايام ، الى اشراف فعلي . فجهازه معروف ، مفهوم ، مقيد اساساً بنصوص المراسم والقرارات
الصادرة في ١٩ فندمير و ١٤ فريمير من السنة الثانية للتقويم الجمهوري . واللجنة التي
اعيد تشكيلها من جديد في تموز - ايلول ١٧٩٣ ، ضمت بين صفوفها ابرز وأمثل الشخصيات
التي قامت بثورة اليمقوبيين ، وكبار « الاخصائيين » العاملين في خدمتها والمتضامنين مع
الفريق الاول ، امثال : روبسيير وسان جوست وكوتون وبيو - فارين وكولو ديربوا وبارير ،
وكارلو وجان - بون سانت اندريه وبريور دي لاكوت دور ، وروبير لندييه . فهي تعد
القوانين الرئيسية وتعرضها لموافقة ومصادقة المؤتمر الوطني وتشرف على تنفيذها بدقة .
والوزراء الذين جرى استبدالهم فيما بعد بالمفوضين ، وفقاً للرسوم المؤرخ ١٢ جرمينال ،
والقواد والهيئات النظامية تقع كلها تحت اشرافها . ولجنة السلامة العامة هي بالفعل يدها اليمنى
في كل ما يتعلق بالاجراءات البوليسية أو التأديبية . فهي تتصل مع الاقضية والمحافظات

مباشرة . وتقوم في كل من مراكز الاقضية والبلديات بصورة مستمرة ، هيئة تمثلها تتألف من العملاء الوطنيين واللجان الوطنية للمراقبة المرتبطة بالاقضية او ببلجنة السلامة العامة التي تراقب تنفيذ الاجراءات الثورية . وهي تنتدب للمهام الخاصة ممثلين عنها . وتراقب بالاسم والفعل معاً مجلس الثورة ومن يضمه من محكمين وقضاة ، اذ جعل المرسوم الصادر في ٢٢ بريرال تعيينهم ، من اختصاصه وحده . وقد اجاز له التدخل في اجراءات المحاكمة . فهو يحكم ويدير ويقضي في كل ما يرفع اليه ، ويقوم عملياً بأمور التشريع على ان تنال موافقة المؤتمر الوطني .

وعنه صدرت بالفعل ، ما يعرف بوثيقة « استبداد الحرية » التي تم الاقتراح عليها بناءً على اقتراحه ، اعني بذلك قانون المظنون عليهم أو المشتبه بهم ، الذي صدر في ١٧ ايلول ١٧٩٣ ، والمرسوم الصادر بتاريخ ٢٣ فنتوز من السنة الثانية للتقويم الجمهوري ، هذا المرسوم الذي اتخذ اجراءات جديدة ضد المنفيين ، والمرسوم الصادر في ٢٧ جرمينال حول تدابير الامن العامة في الجمهورية ، واخيراً القرار الذي صدر في ٢٢ بريرال . وهكذا تمت للبلاد تشريعات خاصة ، اعتبرت خارجين على القانون ، النبلاء والسادة والعلماء القائمين على خدمة هؤلاء النبلاء ، ورجال الدين والاجانب . ومن الاجراءات الاحترازية الحفيفة التي اتخذت ضد هذه الفئة : استنناؤهم من الوظائف العامة والاقامة الجبرية ، واجبارهم على إثبات وجودهم بحضورهم شخصياً الى مركز البلدية . وقد عبر عن هذه الاجراءات تدبيران مهمان : اولهما احترازي والثاني تأديبي : السجن لكل من يشتبه به انه موال لاعداء الثورة ، والاعدام لكل من ثبت عليهم عداؤهم للثورة أو عملوا ضدها . وحكم عليه بالاعدام ، منذ كانون الاول ١٧٩٢ ، مع ذلك ، كل من يجرد الملكية والقدراية ، أو يطالب بالقانون الزراعي ، كما ورد النص على هذا في القانون الصادر في اذار ١٧٩٣ . ولم يعد من حاجة بعد لتقديم الاقتراحات أو للكشف عن هوية الناس ، بعد ظهور القوانين الارهابية الكبرى . «خونة للوطن كل من مالا، بشكل أو بآخر، أي خطة تهدف لزعة السلطة ، أو خلخلة الرأي العام » . تعد جريمة ضد الوطن وخيانة عظمى ، كل مقاومة ، وكل محاولة تهدف لمراقبة عمل الحكم بأي شكل أو بأي مسلك يصوب ضدها . فالمقاومة تؤلف جريمة يعاقب عليها القانون بالموت . والتدمير يؤلف عملاً إجرامياً بحد ذاته . . أقله للاغنياء . فالمطاولون عن العمل الذين لم يبلغوا الستين أو لم يشكوا من علة مرضية ، يستهدفون للإبعاد الى مستعمرة الغويان اذا ما ثبتت عليهم تهمة التدمير والتأف من الثورة وجهاز التطهير . فالقمع يتحرك بسرعة مدهشة وفقاً لقانون شهر بريرال الذي يعلن : عدواً للشعب كل من افترى القول بشكل من الاشكال ، ضد الروح الوطنية ، أو حاول زرع اليأس والقنوط في النفوس أو حاول إفساد الاخلاق ، وضد كل من يحاول بأي شكل من الاشكال أو تحت أي ستار أو مظهر يتلبس تحته ، الاعتداء على الحرية أو مس وحدة البلاد ، أو العبث بأمن الجمهورية وسلامتها ، أو سعى لايهاها أو إضعافها . . فالدليل الاولي يكفي حجة عليه . والعقاب الذي يستحقه هو الموت .

وبأخذ غوثون بالتعليق على هذا قائلاً : يجب رفض كل مظاهر العدالة الزائفة التي كانت تحكم بالموت على الشعب تحت ستار إنسانية زائفة ، ثم تخون الشعب تجنباً لوساوس الضمير وتأنيبه .

وهكذا توفرت لقوى الحركة فعالية رهيبة . ونرى هنا ، كما في عهد الجمعية التشريعية جزءاً ضئيلاً من الشعب يساهم في نشاط الحياة السياسية . وبإمكان هذه الدكتاتورية الثورية أن تتحرك لما فيه مصلحة الأكثرية . فهي صنعة قلّة ضئيلة في الوطن . والسواد الأعظم من الشعب ، إذا ما وقف جانباً ، مثله اليوم كما في السابق ، فهو لا يبقى على الحياد قط . فمشاعره وعواطفه كلها في مأمن . فمن لم يكن مع عهد الرب ، فهو على كل حال ، مع الثورة التي يؤلف الرب فيها ذريعة أو اسلوباً وقتياً من الذرائع التي اعتمدها ، لها على الأقل ما يبررها . فهو يترك حرية التصرف والعمل لهذه القلة المحدودة ، الحازمة . وعلى شاكلة المواطنين العاملين هؤلاء ، لا نرى بين من يتمتع من الناخبين بحق الاقتراع ، من يسارعون لاستعمال حقهم الثابت هذا . فعدم يكاد لا يعدو ١٠ - ١٥ ٪ لا غير . فالرأي الحزبي لا يزال بعد ، حتى في معناه الواسع ، من هذه الكماليات عند الأكثرية .

٣ - فوز الحركة

في هذا الوسط الرخب ، السهل التكيف ، حيث لا يعترض الشعارات الملتنة ، عهد الرب سیر الزمن ، أي نظرية سياسية سابقة ، يجري التاريخ بسرعة كلية ، لا سيما والحكومة اللامركزية التي انشئت عام ١٧٩١ ، والتي عاشت سنة واحدة بعد النظام الملكي ، لم تعرف أن تصمد في وجه الخطط التي وضعتها لها الحركة الثورية . والجمعية التشريعية ، نفسها جاءت عقب أزمة وطنية واجتماعية حادة . وهام « ممثلو » ، الأمة تقذفهم الاحداث الهوجاء المتلاحقة الى وراء ، دفعة واحدة . فالاحياء الباريسية والكومون والحرس الوطني في العاصمة والملحقات ، وفي حواضر البلاد وقراها ، قاموا بمحاولة جريئة تكلفت بالنجاح . وهذه الثورة الثانية التي دكت العرش الى الحضيض تفتح الطريق امام الديموقراطية السياسية ، كما تمهد السبيل امام حادث خطير جداً ، وان قصر أمده ، سنعود للحديث عنه بعد حين .

واجتمع المؤتمر الوطني في ٢٠ ايلول ١٧٩٢ ، وراح يستخلص لذاته النتائج التي طلعت بها الثورة الثانية بقضائها على النظام الملكي وإعلانها الجمهورية . وشهد العالم باجمعه تجربة سياسية مليئة بالعظائم والعبر تمثلت بالدعوة المقامة على الملك . لم يتخذ المجلس بالطبع قراره التاريخي « تحت التهديد بالخنجر » . فالحكم بالاعدام صدر بعد مناقشات ومداولات استمرت منذ تشرين الثاني . غير أن سر « الحيات » المتهم بها لويس ، ورد الفعل الذي احدثته على الرأي العام الذي استشارته الجمعيات الشعبية والصحافة ، اوجدت جواً من الضغط لا يقاوم . ففي عمليات

التصويت التي تعاقبت من ١٥ الى ٢٠ كانون الثاني (يناير) انشق حزب الجيروندي على نفسه ، بينما بقي « الجبل » صامداً كالطود الشامخ ، متراصاً كالبلديان المرصوص .

فمع الازمة الوطنية والاجتماعية التي سيطر جوها على الاشهر الاولى من عام ١٧٩٣ ، هنالك مع ذلك ، ما هو أدهى وأنكى : هذا الجو الثقيل الذي عبق به الصيف المنقضي . فالتحالف الذي وحد بين القوى الثورية التي تمت لها السيطرة ، عاد فأطل من جديد في العاشر من آب ، واتجه صراحة ليس ضد النظام الملكي والمجلس المنتخب من قبل دافعي الضرائب ، بل ضد المجلس الاول الذي تم انتخابه بالاقتراع العام . والزعماء الذين كانوا يسيطرون على الحركة في ٣١ ايار ، أخذوا يلوحون عالياً بالشعارات التالية : اصدار قرار اتهام ضد زعماء حزب الجيروندي ، والخبز بسعر ٣ محاسات ، وانشاء جيش قوري بمعاش بعد تنقيته من العناصر المشبوهة ، وتأمين مساعدات لعائلات حماة الوطن . وقد غلب المجلس على أمره ، وهشم تهشماً في ٢ حزيران وقضي على الاكثية . وهكذا أطلت ثورة ثالثة فتحت امام البلاد مرحلة جديدة ، لعبت البورجوازية الصغيرة فيها والهيئات الاجتماعية الصغرى دوراً رئيسياً في توجيه احداثها .

وهذه الازمة المزدوجة ازدادت حدتها ايضاً في الاشهر التالية ، بعد أن أطلت الاحداث التي وقعت في ٤ و ٥ ايلول ١٧٩٣ ، والجو يدوي بكلمات السر والشعارات المثيرة : « الحرب للطفاة » ، و « الحرب للارستوقراطية » ، و « الحرب للمحتكرين » . فالنتائج لم يتأخر ظهورها قط . ففي ٥ ايلول بالذات يجري تطويق المؤتمر الوطني ويخيم عليه جو ثقيل من الضغط المرهق ، فينصاع ويقرّ الرعب . ويصادق في ١٧ منه على القانون الخاص بمن تحوم حولهم الظنون . ثم جاء القرار الاكبر الذي صدر في ١٩ فندمير من السنة الثانية للتقويم الجمهوري الذي اعلن مبدأ الحكومة الثورية وحدد منها المهام والمسؤوليات ، بالعبارات التالية : الحكومة — وتأمين المواد الغذائية ، ولجنة السلامة العامة الكبرى .

ويطلع على البلاد اذ ذاك نصر مزدوج مبين في القطاعين الاقتصادي والحربي : الحد الاقصى للاسعار ، وارتفاع الاسيقياء ، وانكسار الفانديي ، وتطهير الوطن من الغزو الاجنبي . وحكومة الانقاذ العامة التي كان منها روبسبير بمنزلة الراح من الروح قضت تماماً على كل مقاومة ، وأرسل بالجيرونديين الى المقصلة زرافات ووحداً ابتداءً من ٣١ تشرين الاول . واخذ الرعب يوجه سيفه البتار ذات اليمين وذات اليسار فيحصد بمنجمله النافخين بريح الانقسام كهيبت وأتباعه ، كما حصد فيما بعد دالتون وأتباعه الداعين للمسالمة والتوفيق . وفي صبيحة العاشر من آب ، أعيد النظر ، في التشريع الاجتماعي من اساسه فعدلوه بحيث أصبح اكثر تشدداً وتصلباً .

كان من بعض نتائج حكم الرعب والهول الذي أتاح بكله على البلاد ان يوادر الضعف
أخذ القلق يساور الطبقات البورجوازية ويقلقها . فالبورجوازي الأثيل لم يخف عام ١٧٩٠ ، مخاوفه من استئثار هذه الطبقات الجديدة بالسلطة . فان لم يخش هو بشراً

على نفسه منها ، فقد أوجس شراً على ممتلكاته ومقننائه من هذا النظام الذي يعيش على دوامة من القروض الداخلية القسرية ، وعلى المزيد من الضرائب والرسوم . فلم يلبث كل هذا ان استحال حرباً ضد الاغنياء والموسرين . وقد شاركهم في هذا الشعور كثيرون غيrom من أبناء الطبقات البورجوازية المغمورة . كذلك اضطربت خواطرم وجزعوا كثيراً من الغزو الاجنبي ورأوا من خلاله احتمال عودة الارستوقراطية المكبوتة . ولم تعدم ان ذهبت الانتصارات الباهرة بالاعطار التي هددت الوطن . فالانتصارات التي سجلتها مرافق البلاد في المجال الاقتصادي لم تلبث ان مر افرها بسرعة ، كما انها جاءت غير مكتملة وكلفت غالياً جداً ليس الاغنياء فحسب ، بل ايضاً الثورة الشعبية ، اذ قضى عليها بتشقيت قواها المسلحة . وصغار التجار لا يطيقون صبراً على تحمل الحد الاعلى عندما يطال منتوجاتهم وهي الحالة التي استقر عليها الوضع العام منذ شهر فنتوز وقد كن المزارعون والباة في الارياف كرهاً شديداً لهذا الوضع بالرغم من الاجراءات المائلة والتدابير التي سبق للجنة السلامة العامة ان اتخذتها في سبيل التخفيف مما يصيبهم من سوء ولا سيما ما شيتهم ، من جراء هذا الوضع . وعلى النقيض من هذه الاسباب ، اغتاض اصحاب الاجور بدورهم من فعاليتها بالقدر الذي يتمنون ، وبلغ السيل الزبي عندما حاولت السلطة رفع الاجور الى الحد الأقصى . فالفضل كان كامناً يتربص ابدأ النظام الجاري الاخذ به . وقدرة الاسيبياء الشرائية كانت دوماً في تدهور موصول ، خلال الفصل الاول من عام ١٧٩٤ . فسرما الاسمي عاد ، في شهر ترميدور ، الى ما كان عليه قبل ذلك بسنة عندما بلغ الخطر الحارجي والداخلي ذروته .

وتردد الجماهير المرءيك مع شعور عميق بخيبة الامل أوشك الا يترك في الميدان سوى افراد يعمولون منفردين ، لا سيما وقد كانت الحياة الشعبية في باريس اخذت بالتدهور والتردي منذ ايلول ١٧٩٣ ، تحت ضغط الحكومة نفسها . وفي ربيع ١٧٩٤ ، توقفت الهيئات الشعبية في الاحياء عن عقد اجتماعاتها العادية . فتصفية النظرية التي قال بها وعلم والقضاء عليها ، كانت الضربة القاضية ونقطة الماء التي جمعت الكأس ، بعد أن رأى فيها فقير الحال سبباً ، أطلّ ولو من وراء القبر ، للتدهور المستمر في قوة الاسيبياء الشرائية . وهذه الحركة تبدو معالمها اوضح في الملحقات ، ولم يبق منها قائماً الا النادي التقليدي المعروف (*Conformiste*) وهذه القوى الجماعية الكبرى التي نهضت بالثورة وحملت على اكتافها اصببت الآن بشيء من الانحطاط والوهن . ويبدو ان الثورة القائمة على العدد ، هذه الثورة التي تتأثر بعمداً بعامل القوة ، كاد يحل محلها ثورة القصر بكل ما تحمل في ثناياها من اخطار وما تتعرض له من دسائس واحاييل . ففي سلسلة الاحداث الكبرى التي طبعت الثورة وتحركت عليها ميسمها ، نكاد لا نرى للعدد فيها من اثر . فعادئ التاسع من شهر ترميدور يبدو وكأنه ليس للعدد فيه من اثر ، وبالتالي للشعب ، هذا الاله الذي كان المحرك الاول والفاعل الاول في هذه الضغوط السابقة ، اية صورة واضحة او شأن . فالحدث الدامي وقع وكأنه ضمن وعاء مغلق ، في نطاق فردي خالص . فكان سنة

صدام فردي شخصي وقع ضمن المؤتمر الوطني . فالأخطار التي تهدد بها احكام قانون بريرال ، وعداء لجنة الأمن لروبسيير ولصحبه ، والانشقاق الذي بليت به لجنة السلامة العامة ، والدسائس التي افتعلها المفوضون المرتجفون لدى استدعائهم ، وهفوات روبسيير نفسه ، كل ذلك ، وما اليه فعل فعله وهياً النتيجة المحتومة لهذا الصراع الذي كان المؤتمر الوطني ميداناً له .

كان في وسع باريس ان تعيد المجلس الى رشده مرة اخرى في اعقاب الحوادث المفجعة التي وقعت يومي ٨ و ٩ ترميدور . صحيح انه أطلق سراح روبسيير وصحبه ، بعد اعتقالهم ، بفضل قبضة من رجال الدرك وبعض الموظفين وثورة الكومون المعروفة . غير ان الحركة بحاجة لنصر الوقت وتفتقر اصلاً لعامل الحماس ، فالتفسخ الذي اصبحت به قوى الثورة لم يلبث ان ادى نتائجها المتوقعة . والدم المهرق الذي اهدره حكم الارهاب جزاقاً في نظر عدد كبير من المستائين ، جعل الرأي العام يشمئز من هذه الافعال . فالاستجابة جاءت ضعيفة جداً للاستنفار الذي تم بواسطة دق الطبول وقرع الاجراس نذيراً بالخطر الفاعر فاه في ٩ ترميدور . وقوى النظام والانضباط تتفوق على قوى الفتنة الثائرة . والتدبير الذي اقدم على اتخاذه المؤتمر الوطني آمن له الغلبة على القوى المقاومة دون ان يلقي اي حماس بين صفوف اعدائه .

٤ - الملح البوردجوازي

الردة السياسية والاقتصادية والاجتماعية

بدت على الثورة حركة من الجزر . وهذا لا يعني قط ان الاكثية في المؤتمر الوطني أو في البلاد اصبحت مضادة للثورة . ولم يُدر في خلد احد من الناس ، اذ ذلك ، الرجوع الى النظام القديم مثلاً ، كما لم يُدر في روح احد التحلي ، مثلاً عن نظم الجمهورية . وقد عني المؤتمر الوطني بوضع حد لهذه الضغوط التي مارسها الاقليات في الخارج وتمرض لها فأخرجته عن الصدد وأزاحته عن الصراط القويم . امام الخطر المزدوج المنتصب امامه من كلا الارستوقراطية والديموقراطية ، كان لا بد من اعادة تنظيم احزاب القلب او الوسط فيه . وبعبارة اخرى ، فالبورجوازية التي وقعت الاحداث المتعاقبة بين فئاتها المختلفة - باستثناء اقلية ضئيلة من الارهابيين وبعض عناصر الطبقات الشعبية التي اصبحت بلا قوة في عزلتها - انكفأت على نفسها وراحت تتولى بيدها تدبير شؤون الحكم والادارة .

ولذا كان لا بد من اعادة النظر بصورة شاملة في الجهاز الثوري وعدته الحركة . فراح المؤتمر الوطني يوجه اهتمامه الخاص « للحركة الإرهابية » معثلة بهذه الادوات الجديدة التي أطلقت في شخص الحكومة الثورية والادوات القديمة كالنوادي والصحافة ، والحرس الوطني والكومون في باريس ، اي كل هذه الاجهزة المعجلة لعمل الثورة والمضخمة له .

وقد تم منذ ترميدور ، الغناء معظم القوانين والتشريعات التي زرعت الهول في البلاد وعدلت تعديلا جذريا فأعيد تنظيم لجنة السلامة العامة كما حدد عدد افرادها ، بانتظار ان يفقدوا في الشهر القادم ، جانباً كبيراً من سلطتهم ونفوذهم ووضعت بلدية باريس في ٩ من الشهر خارج القانون ، وقضت على الكومون وجرت تصفيته الى الابد ، ووزع القرار الصادر في ١٤ فروكتيدور صلاحياتها ، فعُهد بإدارة البوليس لهيئة معينة من الموظفين . وفي الشهر التي تمت تصفية حزب اليعقوبيين ، اذ راح المرسوم الصادر في ٢٥ فنديمير من السنة الثالثة للتقويم الجمهوري يحظر كل انتساب للجمعيات القائمة وكل تراسل جماعي بينها ، كما يحظر كل التماس أو كل استرحام يقدم جماعياً . ووضعت الاندية تحت مراقبة البوليس . فعلى كل جمعية ، ان تنظم من الآن فصاعداً ، قائمة مفصلة بالاعضاء المنتسبين اليها ، كما أجبرت على ارسال نسخة من هذه القائمة للمسؤول عن أقرب مركز قضاء منها وعلى تعليق هذه القائمة على ابواب البلديات . وجرى في ٢١ برومير اقفال نادي اليعقوبيين في باريس . وصدر بعد ذلك بتسعة اشهر ونصف مرسوم بالغاء كل الجمعيات الشعبية . وراحت الصحافة تحبذ بالطبع مثل هذه الاجراءات المتخذة بعد ان تحررت من كل ضغط وتمتعت بحرياتها ، لا تخشى ما يسيء اليها من الحوادث الطارئة ، باستثناء حوادث فردية ، كما انها اصبحت معادية لليعقوبيين في مجموعها ، اذ اصبحت « بورجوازية » بطبيعتها وبأهدافها . والحرس الوطني أعيد على ما كان عليه في عهد الجمعية التأسيسية ، فجرت تنقية صفوفه من الفقراء والارهابيين ، بصورة مباشرة وغير مباشرة ، بانتظار صدور مرسوم ١٠ بريرال من السنة الثالثة للتقويم الجمهوري الذي « اعفى » الصناع والمياومين والعمال المساعدين من الخدمة العسكرية .

وهكذا قضت البورجوازية بعد ان استعادت وغنيها وعاد اليها رشدها ، على الخطر الذي يمثله لها الديموقراطية الفوغائية . لا مرأ بان الصعوبات الاقتصادية والاجتماعية التي أخذت بجناق البلاد ، في العام الثالث من التقويم الثوري ستسبب لها بعض الاضطرابات والقلاقل ، لا سيما ما وقع منها في ١٢ جرمينال والأيام الأولى من بريرال . وقد فشلت الحركة في المهد لانتقارها لأطر بورجوازية ، اذ ان قطاعاً صغيراً من البورجوازية هو الذي يفكر باسم الجماهير . ومن جهة أخرى ، فالجماهير لم تعد قوة فاعلة في هذا العهد ، بعد ان تمت الغلبة والسيادة للمؤتمر الوطني ، وامن له السيطرة بالقوة في شهر بريرال . وبذلك تأمن اليمين انتصاره الساحق بدون هذه الجماهير وبواسطة الجيش وحده .

فالجيش يلعب الآن في الصراع السياسي القائم الدور الذي لعبته الجماهير منذ اطلالة الثورة . والرجل الذي هيأته الاقدار لتوجيه هذا الصراع على جبهتين ، هذا الصراع الذي وحده يستطيع ان يرسخ العهد الذي أطل على البلاد ، هو قائد حرب مجرب .

ثانياً — الوحدات القياسية في السياسة

في هذا التحدي الجنوبي العاني الذي تنطج ، بين ١٧٩٢ — اعلان حقوق الانسان عام ١٧٩٣ ، ١٧٩٤ ، للعالم القديم والجديد ، تطل علينا من خلاله ، مؤسسات ومستجدات ضخمة ، أفعمت قلب اوروا دهشة وعلماً . كما زرعت الخوف وسمرت الرعب في قلب البورجوازية الفرنسية بالنظر للماضي في كل ما يتصل بالاقتراع العام والنظام الجمهوري والاعمال الحربية التي قامت بها الديموقراطية الاجتماعية في سالف أيامها ، والجور الذي سيطر على المدينة في المستقبل ، أمور مرت كأضغاث الأحلام والكابوس الضاغظ ، اذ ما كادت السنة الثالثة من التقويم الثوري تمر حتى كانت معظم هذه الاشباح مرت وزالت ولم يبق منها عين أو أثر .

فالاعلان الجديد لحقوق الانسان ، عام ١٧٩٣ وضع المساواة بين المواطنين في رأس هذه الحقوق التي يتمتع بها الانسان . ويلبها اهمية : الحرية والأمن والملكية . وجعل من الاسعاف العام واجباً مقدساً . واعترف للانسان بنوع من الحق في العمل ، وهو حق يختلف تماماً عن مفهوم الحق في العصر التالي . والانتفاضة الشعبية أعلنت حقاً من أقدس حقوق الانسان يقوم بها ضد حكومة تقتصب السلطة اغتصاباً .

فهذا الاعلان الذي تم في السنة الثالثة اعاد للحرية المرتبة الاولى ، هذه المرتبة التي ارادها لها النص الاول لحقوق الانسان كما اعلنتها وثيقة هام ١٧٨٩ . فهو يشدد بالطبع على المساواة المدنية ، ويفسخ هذا الاعلان محلاً مرموقاً « لواجبات الانسان » وهو الشيء الذي حاول دعاة التوفيق في الجمعية التشريعية ، عبثاً تحقيقه . من هذه الواجبات : احترام حق الملكية ، اذ نصت المادة الثامنة منه على ما يلي :

المادة ٨ — على صيانة الملكية تقوم حرارة الارض وما يرجى من محاصيل واثاث ، وكل وسائل العمل والنظام الاجتماعي نفسه .

فما من داع بعد للاسعافات العامة ولا للجوء بالتالي لحق العصيان والتمرد .

فحق الاقتراع العام قضي عليه هو الآخر . سنت هذا القانون حق الاقتراع العام وسكومة المجلس الجمعية التأسيسية وذلك في ١٠ آب ١٧٩٢ ، وهو القانون المتملق بانتخاب اعضاء المؤتمر الوطني . يعترف هذا القانون لكل فرنسي بلغ الحادية والعشرين من عمره ، بحق التصويت ، دون تمييز ما بين المواطنين من حيث الوضع المالي ، وقصد استثنت القرارات التي صدرت في ١١ و ٢١ منه ، الخدم المرتبطين بخدمة شخص معين باعتبارهم

لا يتمتعون بالاستقلال الشخصي . وحق الانتخاب بقي غير مباشر ، تماماً كما كان الوضع في دستور عام ١٧٩١ . يُنتخب كل من بلغ عمره ٢٥ سنة ، وقد حافظ دستور ١٧٩٣ ، على طريقة الاقتراع هذه ، بعد ان ألغى الاستثناء الخاص بالخدمة ، وسأوى من جهة ثانية ، بين السن الذي يمكن للمرء معه ان ينتخب ويُنتخب ، فجعله ٢١ سنة . ولم يطل العمل بهذا النص ، اذ ان قانون ٥ فروكتيدور من السنة الثالثة للتقويم الثوري ، اعتبر الاقتراع عمومياً ، أي يشمل كل الفرنسيين الذين اشتركوا في الدورة الأولى من عملية الاقتراع ، وطلب اليهم ابداء الرأي في النص المعروض عليهم ، هذا النص الذي سيصبح دستور البلاد في السنة الثالثة ، كما دعاهم للاشتراك في انتخابات الدورة الاولى للمجلس التشريعي . فالوضع يقتضي السرعة والمجلة : وقد حصر هذا الدستور ، حق الانتخاب بمن يدفعون ضريبة الاملاك وهي ضريبة معد لها أقل مما فرضه قانون ١٧٩١ . له حق الاشتراك في انتخابات الدورة الاولى ، كل من يدفع ضريبة مباشرة ، مهما كانت قيمتها . وهكذا نرى ان غالبية السكان تمتعت ، وفقاً لهذا النص بحق الاقتراع . كذلك اعيد العمل بالرسم الضرائبي الذي يولي صاحبه الاهلية ليُنتخب عضواً في المجلس . كما حدده الجمعية التشريعية من قبل بنصه الحرفي الواحد تقريباً ، بعد ان استثنى المراعين والمزارعين الذين يتمتعون ، هم ايضاً برسم أقل . فالناخبون للدورة الثانية يُتخذون من المحيط الاجتماعي ذاته ، اسوةً بدستور عام ١٧٩١ ، ويجري انتخاب ممثلي الامة بدون اي اعتبار او اكثارات لضريبة الارض التي يدفعها المرشح للانتخابات .

كذلك استغني أيضاً عن المجلس الوحيد الذي يتجدد كل سنة ، كما استغني كذلك عن حكومة المجلس على الوجه الذي اقترح تشكيلها دستور عام ١٧٩٣ . فمجلس الشيوخ الذي كان مؤنسيه وانصاره عجزوا عن إقراره ، عاد للظهور من جديد ، وهو مجلس يختلف مع ذلك اختلافاً كلياً عن المجلس الذي خططوا له .

فدستور السنة الثالثة من التقويم الثوري وزّع السلطة التشريعية بين هيئتين مختلفتين : مجلس الخمسة ومجلس الشيوخ . وكلا الهيئتين تأنيان بالاقتراع العام من قبل هيئة واحدة من الناخبين . وكلاهما ينتخبان لدورة تدوم ثلاث سنوات ، يجري خلالها تجديد كل واحد منهما بالثلث . والفارق الوحيد ، بقطع النظر عن الاوضاع الخاصة بالاحوال الشخصية والسكن هو فارق السن لا غير بعد ان اشترط فيه ان يكون ٣٠ سنة ثم أنزل الى ٢٥ لاعضاء مجلس الخمسة و ٤٠ سنة لاعضاء مجلس الشيوخ . فمن مميزات مجلس الشيوخ حق انتخاب المديرين الذين يُنتخبون لمدة خمس سنوات . ويجري تجديد انتخابهم على اساس الخمس . والوزراء الذين لا يؤلفون مجلساً خاصاً يعينون ويمزلون من قبل مجلس الادارة (ديركتور) ، ويجب انتخابهم من خارج اعضاء الهيئتين المذكورتين . لا يمكن لاية هيئة من الهيئتين تشكيل أي لجنة دائمة ، تفادياً وتحسباً بالوقت ذاته ، من اللجان الحكومية في عهد المؤتمر الوطني .

استمر العمل بقرار إلغاء المسيحية حتى شهر برومير *Brumaire* تحت
مظاهر مختلفة احتفظ نابليون في تشريعه ببعضها . فقد أوقفت الأديار
بموجب القرارات الصادرة بتاريخ ١٧ و ١٨ آب ١٧٩٢ كما خلفت هذه
القرارات الجمعيات الرهبانية . فمعاربة المتمردين ، وتقلب العديد من عناصر الكنيسة الدستورية
وتغييرها ، وضغط قوى الحركة التي تحظى من وقت الى آخر ، بمؤازرة البلديات التي عهد اليها
المرسوم الصادر في ٢٤ آب ١٧٩٠ بمهمة تأمين الاحتفالات العامة والتي راحت ، فيما بعد ، تدعي
لنفسها حق مراقبة طقوس العبادة ، كل هذا وما اليه أدى بالطبع الى خلخلة الاكليروس العلماني
والى اشاعة الفوضى في الحياة الدينية . ففي السنة الثانية من التقويم الثوري ، نرى ثلثي الاساقفة
الدستوريين مستقيلين ، او مارقين عن الدين او متزوجين . والدولة الثورية التي لم تتعرف الى
عبادة العقل انشأت لها بموجب القرار الذي اصدرته في ١٨ د فلوريال ، عبادة الكائن الاعظم ،
وانقطعت عن دفع مرتبات الكهنة ، وتبنت ، في اواخر السنة الثانية من هذا التقويم الجمهوري
مبدأ الفصل بين الكنيسة والدولة . والكائن الاعظم ، لم يعتمر بعد ترميدور ، اذ ان القرارات
التي صدرت في ٣ فنتوز و ١١ بريال من السنة الثانية لهذا التقويم الثوري ، اكدت حرية
الطقوس التي يمكن ان تقام في المعابد الواحدة ، على اختلافها . فدستور العام الثالث عجل في
ترسيخ مبدأ الفصل ومبدأ حرية العبادة .

كذلك استمر العمل بقرار إلغاء المسيحية في الحياة الاجتماعية ، وذلك ابتداء من الطلاق
المبني على تراخي الفريقين المعنيين ، او للتناقض القائم بينها ، او لعدم التجانس ، وذلك وفقاً
لاحكام القانون الصادر في ١٠ ايلول ١٧٩٢ ؛ وفي كل ما يتعلق بالاحوال الشخصية والتقويم
الجمهوري والنظام العشري الذي وضعته الثورة .

واخيراً عاد الى استلام زمام الامر في البلاد ، ان لم يكن رجال ١٧٩١ ، فأقله الاوساط
الاجتماعية ذاتها ، على نسبة كبيرة للمصالح ذاتها . فقد شعر هؤلاء الذوات انه يرب فوق رؤوسهم
كابوس المساواة الذي فرضه نظام السنة الثانية من التقويم الجمهوري . كثيرون بينهم لا يزالون
يمتقدون بالحرية العامة ولكن باحتراز وتحسب لم يكن ليتحلوا به من قبل كطبقة ، او انهم
لم يحددوا فيها الجرأة الكافية ، اذ ذلك ، للتعبير عنها قبل ان يسيطر عليهم الخوف الاجتماعي .
فان لم يشر الاعلان الجديد لحقوق الانسان الى هذه الحريات خلافاً لاعلان هذه الحقوق ، سنة
١٧٨٩ ، و ١٧٩٣ ، فالدستور الذي وضع ونشر العام الثالث من التقويم الثوري ، اعلنها من
جديد ، في الفصل المعنون : الاحكام العامة . من هذه الحريات : حرية التعبير وحرية الصحافة .
فالنص مع ذلك ، هو اقل وضوحاً من السابق . وراحوا يشددون على التدابير الاحترازية بعد
ترميدور . فنظّموا ، في كثير من الحيلة والاحتراز ، حق الاجتماع وحق التماس : لا يمكن
للجمعيات السياسية ان تتعت نفسها بـ « شعبية » ، ولا يحق لها بان تنضم بعضها الى البعض
الآخر ، ولا ان تقوم بمراسلات فيما بينها ، كما يجب ان يقدم كل التماس على اساس فردي

وليس على اساس جماعي . ويحق للقانون ، لدى الاقتضاء ، ان يعلق حرية الصحافة لمدة سنة ، مع امكانية تجديد التعطيل لسنة اخرى .

ثالثاً — الوحدات القياسية في الاقتصاد والاجتماع

من بين هذه المستجدات الرئيسية التي حققتها الانتفاضات الثورية ، بقي الكثير منها حياً معمولاً به في المجالين الاقتصادي والاجتماعي .

في الطليعة من هذه المستجدات ، القضاء قضاء مبرماً ، على النظام
خلط من المستمر والزائل
الاقطاعي في ما تعلق منه بالمرافق الاقتصادية في البلاد . ومثل هذا
الاناء الرسوم الاقطاعية
الاصلاح طالما نزع اليه الفلاحون من انفسهم بشوق ، اذ نراهم
مستمرين ابدأ في مقاومتهم الجماعية لجباية الرسوم السيادية . فتم لهم تحقيق اغراضهم هذه على
مرحلتين تتمثلان في : انهيار العرش وانهيار الجيرونديين .

وصفت الجمعية التشريعية أسس السياسة التي انتهجتها في مصادرة الاملاك السيادية ، خلال
الاضطرابات التي سبقت الـ ٢٠ من حزيران ١٧٩٢ . فالقانون الذي صدر في ١٨ منه ، نصّ على
إلغاء الرسوم المعارضة او الطارئة كالرسوم التي يتقاضاها السيد على بيع التراكات ، ما لم يثبت
المالك ، عن طريق ابرازه سند تملك قديم ان الرسم المترتب عليه انما اساسه تنازل سابق عن
المعار . ومثل هذا الدليل كان من الميسر جداً ابرازه والاحتجاج به . وعادت الجمعية الى تعيين
هذا المبدأ وتوسيعه في اليوم التالي للعاشر من آب . وقد ألغى الرسوم الصادر في ٢٥ منه ، بذات
الشروط ، كل الرسوم الاقطاعية او الضرائبية المقيدة ، وكل الفوائد التي كانت تجبى تحت ستار :
حصّة الحصيد او رسم الاراضي ، والعشور المرسومة ، وعلى الاجمال ، كل الرسوم التي ابقت
عليها التشريعات الماضية ، او جعلتها قابلة للفداء او الشراء ، وبعبارة اخرى ، نص هذا
المرسوم ، الى حد بعيد ، على إلغاء كل الرسوم السيادية المتبقية او التي ربطها الشارع بشرط الفداء .
فالمادة الاولى ، ألغت ، بدون تمويض ما ، كل الرسوم « حتى منها ما احتفظ به قانون ٢٥ آب
الماضي ، وأجبر حاملي السندات الثبوتية على ايداعها قلم البلديات ليجري احراقها واتلافها
فيما بعد ، علانية . وفي ذكرى العاشر من آب في كل سنة تضرع في البلاد نيران الاحتجاج ، امام
اعضاء المجلس البلدي والمواطنين المجتمعين معاً في ميدان البلدية . وهكذا خلصت ، في نهاية
الامر ، على حساب السيد وحده الملكية العقارية ممثلة باملاك البورجوازيين وبهذه الملايين من
قطع الارض الصغيرة التي يملكها الفلاحون . وقد رمى المؤتمر الوطني من تشريعه هذا ليس لتأمين
فائدة مجموع الملاكين فحسب ، بل ايضاً لتأمين مصلحة المستثمرين لاملاكهم ، اذ حظر القانون
الصادر في اول برومير من العام الثاني للتقويم الجمهوري ، مطالبة المربعين والمعمرين والمزارعين
باي حصّة او جزء من محصول الارض كتعويض لهم . وتمكن بعض الملاكين في محافظة

Gers ان يتحدثوا القانون علانية ، بينما حاول غيرهم الدوران حوله . هل حدث ذلك كثير؟ لا ندري . فالنص مائل امامنا ، وشهر ترميدور لا يتعرض له بشيء .

وهكذا تم انتقال جانب كبير من ثروة الارستوقراطية « الاقطاعية »
 الانتقال الملكية وبيع
 املاك اللاجئين
 الى طبقة البورجوازية والفلاحين ، كما ان نزاع ملكية اللاجئين
 النازحين ادى من جهة الى انتقال جانب كبير من رؤوس الاموال
 والثروة الوطنية الى هذه الفئات . وهكذا نرى ان الخطوة الثانية من حزيران كانت اوفر
 نتيجة واكثر حزمًا من الخطوة التي اتخذت في العاشر من آب . صحيح ان قرار ٩ شباط عام
 ١٧٩٢ امر بمصادرة املاك الفارين النازحين الى الخارج ، كما ان القرار الذي صدر في ٢٧ تموز
 قرر بيع املاكهم بالمزاد العلني . وقد نص قرار ٦ - ١٤ آب على قسمة هذه الاملاك وعلى
 فرزها قطعًا صغيرة تتراوح مساحة الواحدة منها بين ٢ - ٤ دونات (*Arpents*) على ان يسدد
 ثمنها اقساطًا من العملة الفضية تدفع سنويًا . وبهذه الشروط يتقدم للشراء من يرغب من المواطنين.
 الا ان قرار ٢ ايلول قصر عن القرار السابق ، اذ انه يقتصر على تجييد تقسيم الاملاك الى قطع
 صغيرة واستبدال في معظم الحالات طريقة الدفع بالتقسيط بالدفع نقدًا . فحزب الجيرونديين
 رفض العمل بهذه النصوص ، وكذلك حزب « الجبل » الذي لم يأبه لها كثيرًا ، نزولًا منها
 معًا عند مقتضيات مالية اكثر منها لاسباب اجتماعية . ولم يكن من إشكال او غموض في
 مطالب الفلاحين . ولم يسع حزب « الجبل » الا النزول عند مطالبهم وبذلك أصبحت قضية
 هذه الاملاك واملاك الدولة سلاحًا بين يديه ضد المعتدلين من اعضاء المجلس . ومنذ ٣ حزيران
 عام ١٧٩٣ ، عاد المؤتمر الوطني لتبني الاسس ذاتها التي قام عليها قرار ايلول السابق بعد ان
 استبدلت طريقة الدفع نقدًا عندما لا تنصر شروط البيع على تسديد المتأخرات اقساطًا ،
 وذلك يجعل الدفع على عشرة اقساط موزعة على ١٠ سنوات . وقد عاد القرار الذي صدر في
 ١٣ ايلول فحدد هذه المهلة بعشرين سنة بدوثة فائدة . وقد سجلت المراسم الصادرة في ٢
 برومير و ٤ نيفوز من السنة الثانية للتقويم الثوري كل مبيعات الاملاك العامة متساوية
 بينها وبين الشروط الخاصة ببيع املاك اللاجئين . ونصت على وجوب تقسيمها كالاخرى ،
 الى قطع صغيرة شريطة الا يلحق ذلك اي ضرر بسلامة الارض ، كما اشترط ان تدفع المبالغ
 المتوجبة على ١٠ سنوات .

ولا يستلج من ذلك ان الشعب اقدم بـ مورة لا تقاوم على شراء هذه الاملاك المصادرة .
 فالامر على عكس ذلك تمامًا . فمن اوليات الفطنة التي يعتمدها الفلاح في سلوكه شعوره
 بشيء من الانكماش والوقوف موقف المتدبر من هذه الاسعار التي يُسجلها البيع بالمزاد
 العلني ، ولا يجازف ، اقله في المدن ، بهذا الفوائد التي يؤمنها تضخم المال في الاجل البعيد .
 فالارض تحتاج لرؤوس اموال كبيرة لاستثمارها ، ومثل هذه الاموال لا تتوفر دومًا . ومن
 جهة اخرى ان موقع هذه القطع المروضة للبيع يثير بنفسه مشكلة لدى الشاري ، سواء

أكان من العمال المياومين او من صغار المزارعين الذين يبقون مشدودين الى اعمالهم الرئيسية . فلم يكن من مصلحتهم قط ان يقتنوا ، في أي مكان كان ، ارضاً يزرعونها . وهذه العراقيل لم يكن لها من كبير اعتبار لدى بورجوازي المدينة الذين كانوا المستفيد الاكبر من انتقـال هذه الثروة الضخمة من فريق الى آخر .

هذا الانجاز المستمر الاثر ، يبرز على اشده اذا ما قارناه بالانجازات الاقتصاد المشترك الاخرى السريعة الزوال التي تمت في المجالات الاخرى ، ولا سيما اذا ما قارناه ، بالدرجة الاولى ، بهذا النظام الاقتصادي المرتجل الذي عمل به من ١٧٩٢ - ١٧٩٤ مع ما حصل من ارتفاع كبير في الاسعار .

فقد أصمحت الجمعية التشريعية آذانها على مطالب الشعب الذي كان يطالب بإلغاء الضرائب والرسوم . فاليمين واليسار على السواء رأوا ان الحل الوحيد يقوم باطلاق حرية التجارة باستثناء تصدير الحبوب للخارج الذي بقي تصديره ممنوعاً بالكلية . فسياسة التدخل لم يبد الاحتمال بانتهاجها الا في اليوم التالي للعاشر من آب . فالضغط الذي تعرضت له السلطات من اسفل ، حمل السلطات المحلية والبلديات ، والجمعية التشريعية والمجلس التنفيذي المؤقت ، الى التسليم والرضوخ . فالمراسم التي صدرت في ٩ و ١٦ ايلول خولت السلطة مصادرة الحبوب . فاذا ما قارنا هذا التدبير بالتصريح الذي صدر عن الحكومة في ٤ منه بفرض الرسوم والذي طبق على نطاق واسع في هذه السياسة التي رسمتها الجمعية للاستيراد ، وعينت وسائل جديدة لتنفيذها ، نجد انها جاءت ضمن الخطة الموضوعة للاقتصاد الحر ، في هذا القطاع الرطب الذي يتناول المواد الغذائية . وهذا التعارض لن يدوم طويلاً ، لا سيما وقد وجدت الحكومة في هذه الخطة وسيلة من وسائل تدبير الامور التي ارجلتها مصلحة الاعاشة ، وضرورة لا بد من اخذها والنزول عندها على هذا الشكل ، في اليوم التالي للثورة . ففقد كان في هذه الاجراءات ذرائع مرجحة اكثر منها خطة حكومية في المجال الاقتصادي . فرولان وصحبه في الجيرون اعتبروها على هذا الشكل . فالقرار الذي صدر في الرابع من الشهر والذي كان يفترق اصلاً الى التوقيع ، تم نسخه وإلغاؤه ، وهو قرار يتفق تمام الاتفاق مع رغبات المجلس الجديد اقله مع غالبية الساحقة . فبعد جدال وتقاش طويلين اقترح المؤتمر الوطني بحماس في الثامن من كانون الاول ، الى جانب الحرية .

واستمر غلاء المعيشة في ارتفاع موصول يـمكس هذه الارتكاسات الشعبية . فلم يعد ، بين اعضاء حزب « الجبل » من يثق قط بالضريبة على الحبوب ، ولا بالحد الاعلى للاسعار على العموم . ومع ذلك تم الاتفاق في نيسان ١٧٩٣ . فالمؤتمر الوطني اخذته الحيرة وراح يتردد ، مع ان حزب الجيرونه خفف من مطالبه بعد ان تشدد فيها . وتبنى المؤتمر الوطني في النتيجة النص الذي وصفه ممثلو « الجبل » فاصبح اساساً للرسوم الذي صدر في ٤ ايار . فالمناقشة قامت على موضوع الحبوب مع المطالبة بتثبيت الاسعار ، في المعدل الذي سجلته في الاشهر

الاربعة الاولى من السنة انه تدبير محال . فالفشل كان اسرع مما ظنوا . لماذا لا ينتظرون موسم الغلال ؟ يقتصرون ، على إقرار قوانين جديدة ، لا فعالية لها ولا تأثير ، كقانون ٢٧ تموز الذي جعل من الاحتكار واختزان المواد الغذائية جريمة نكراء ، وكقانون ٩ آب الذي اوجب انشاء حواصل لحفظ المواد الغذائية في مركز كل قضاء . واشتد الضغط العام بحيث اصبح لا مندوحة من الرجوع الى سياسة ايار والسير بها الى ابعده .

فمنذ النصف الثاني من شهر ايار ، أخذ المؤتمر الوطني باتجاه الحد الاقصى العام ، فاطلق يد السلطات المحلية في المحافظات المختلفة لتفرض رسوماً على مختلف المنتوجات . فاعمال المصادرة هي الوسيلة الوحيدة لتأمين الغذاء للجياهير ، والتجارة بالجملة لم يبق لها من أثر ، كما ان التجارة بالقطاعي تخضع لاجراءات وتدابير دقيقة . وطلب الى الجمعيات الشعبية مؤازرة الدولة في تطبيق القانون ووضعه موضع التنفيذ . وعلى آخر ذلك ، صدرت المراسيم الجديدة في ٢٩ ايلول و ١١ برومير و ٦ فتوز فاقرت نهائياً الحد الاقصى العام للحاصلات والخدمات بما فيها الاجور . واتخذوا اساساً له الحد الاقصى لعام ١٧٩٠ ، مع إضافة الثلث اليه ، هذا مع العلم أن أجرة العامل اليومي الذي يأكل على حسابه تزداد ، استثناء ، الى النصف . ويضاف الى سعر الصنف نفقات النقل وبيع التجار بالجملة وبالفردى ، مع إضافة رسم مقداره ٥ - ١٠٪ فالجداول الشاملة الموضوعة في شهر فتوز تضم بالتفصيل الكلي قائمة طويلة باسماء الاصناف التي حددت اسعارها القصوى . وراحت لجنة السلامة العامة تمتدح بلسان جريدة بارير « قائمة المواد الغذائية » وتنبجح بأنها قضت ، الى الابد ، على « الاسفنجيات الماصة » المثلة بهذا العدد الضخم من الوسطاء والعملاء .

وبواسطة القرارات الخاصة بالتسميرة العامة وما شاكل من القرارات التي أثمرنا اليها . استطاعت السلطات العامة أن تراقب جانباً كبيراً من التجارة الداخلية . واذ كانت هذه السلطات تسيطر بالفعل على التجارة الخارجية ، فقد كان في طاقتها أن تتحكم الى حد بعيد ، بحركة النقل . كذلك تناول تأثيرها إنتاج المواد الضرورية لغذاء الطبقات الشعبية ، وراحت تلشّطها عن طريق تحديد جوائز مكافأة . فبعد أن اصدرت قرارها الصادر في ١٣ آب ١٧٩٣ الذي أمر بتجنيد عام في الاقتصاد الوطني ، اخذت بتنظيم صناعة المواد الحربية . وهكذا بفضل الضغوط الاجتماعية الشديدة الوطأة والضرورات التي اوجبها الكفاح والصراع في الداخل والخارج ، وضمت السلطات الجمهورية يدها على مرافق وقطاعات رئيسية في الاقتصاد الوطني .

وقد فرضت الظروف ذاتها ، سياسة مالية رمت من خلالها الى مضاعفة
 جمهورية اجتماعية الرسوم والضرائب على الاغنياء . فكان عليهم ان يتحملوا نفقات الجهود الحربي عن طريق فرض ضرائب تصاعدية : ضرائب للثورة عهد ييجابتها لوظفين خاصين ، وقرض اجباري قيمته مليار فرنك ، أقره القانون الصادر في ٣ ايلول ١٧٩٣ اصاب كل من لم

يكتتب بالقرض الاختياري . وقد اعطت هذه التدابير نتائجها المرجوة . وتأمننا للسواة الضرائبية لدى الجميع ، وإصابة للاجئين « في ثروتهم العقارية » وتحطيماً للشركات الرأسمالية التي تضارب بالعملة الجمهورية ، ألغيت السندات لحامله ، كما ألغيت الشركات المساهمة . وفي آب ١٧٩٣ ، رضي كمبون « خوض هذه المعركة الممينة بين ارباب المال والمتجربين به توطيلاً لأركان الجمهورية » .

نحن على ابواب تشريع اجتماعي وشيك الوقوع . انبثق هذا
 عادة وضع تشريع اجتماعي
 طابع العام الثاني الزائل والرمزي
 التشريعية . من بينها المراسم التي صدرت في ١٨ آذار و ٢٨ حزيران ١٧٩٣ . فقد نص الاول منها على تخصيص مساعدات مالية للفقراء الاصحاء ، كما نص على مد يد المساعدة للفقراء المقعدين في منازلهم العاجزين عن العمل . ونص الثاني منها على تنظيم الاسعاف للأطفال والشيوخ . من هذه المراسم التي صدرت ، المرسوم المؤرخ ٢٢ فلوريال من العام الثاني للتقويم الثوري الذي خص بعض عمال الارياض بمعاشات تقاعدية وبمساعدات تعطى للارامل وللأمهات الولود ، واسعافات طبية اخرى للرضى . وفي هذا السبيل ، انشئ الى جانب دفتر الاستاذ للديون العمومية الذي تم انشاؤه في ٢٤ آب ١٧٩٣ حيث تسجل الاستحقاقات المترتبة على الاغنياء ، دفتر آخر تفيد فيه المبرات الوطنية المقدمة بروح اجتماعية عصرية .

وستفضي نتائج هذه السياسة الوقائية ضد البؤس ، بالثورة التي قام بها المؤتمر الوطني ، الى ابعاد من ذلك بكثير . كانت حصة الفقراء الآن ضئيلة من هذه الاملاك الوطنية في مصدرها الاول والثاني . والاملاك المشاعية ، التي تضاعفت بمصادرة الاراضي المفروضة فيها ان تكون مشاعية ، وذلك عملاً بنص المراسم والقرارات الصادرة في ٢٨ آب ١٧٩٢ ، و ١٠ حزيران ١٧٩٣ ، قد يمكن اعتبارها مصدراً ثالثاً من مصادر هذه الاملاك . والقانون الزراعي الذي صدر في ١٠ حزيران ، يتيح قسمة الاراضي بصورة مجانية ، وبحسب الافراد ، اذا ما تقدم بذلك بعريضة موقعة من ثلث السكان .

وستضع القرارات الصادرة في ٨ و ١٣ فنتوز من العام الثاني للتقويم الجمهوري ، عملاً قريب ، تحت تصرف المعوزين ، مصدراً رابعاً لهذه الممتلكات كانت تخص هذا الفريق من الاشخاص الذين تجوهم الشبهات والظنون ، ثم اتضح في نهاية الامر انهم من اعداء الثورة . « من يبدو عليه انه عدو الوطن لا يمكن أن يكون من اصحاب الاملاك في هذا الوطن » ، كما علق على ذلك سان - جوست مقرر اللجنة الخاصة .

« لتفهم اوروبا باجمها وتسبح الكم لم تمودوا تتعمدون رؤية بائس او مضطهد على الارض الفرنسية . ليعط هذا المثل فوائده على ارضنا هذه ، ولنشر في كل مكان محبة الفضائل والسعادة . فالسعادة فكرة اطلت حديثاً على اوروبا

جديدة ، وهنة وسريعة المطب . . هذه التدابير ، كهذا الالغاء للرق «في نواحي المستعمرات» هذا الالغاء الذي نادى به المؤتمر الوطني ، من شهر سبقي ، أي في ١٦ فنتوز من العام الثاني للتقويم الجمهوري .

لم يبق من هذه الاجراءات والتدابير اجراء واحد بعد ٩ ترميدور . وقد جاء رد الفعل أحياناً قبل ذلك بكثير ، لا سيما في ما يتعلق بالتنظيمات الزراعية . وقد قام في شهر فروكتيدور من السنة الثانية للتقويم الثوري حملة شديدة في سبيل حرية التجارة من شأنها ان تعيد المحبوبة الى البلاد وتجعل اسعار الحاجيات رخيصة . ومع انه مدد العمل بقانون الحد الأقصى ، فقد أصبح هذا القانون مع ذلك كلمة جوفاء الى ان صدر قانون ٤ نيفوز (Nivose) من السنة الثالثة للتقويم الجمهوري ، فالغاء تماماً . فالنظام الضرائبي فقد طابعه الاجتماعي . فالحالة التي قامت بها حكومة الادارة (ديركتوار) مرتين لفرض قرض اجباري ، لم تخلف الا الفضيحة . وبسبب فقدان الاعتمادات اللازمة لم يجر تطبيق القوانين والقرارات الخاصة بالاسعار الوطني ، وان طبقت ، فبشكل يجزوء مختصر ، وذلك بالرغم من الجهود التي بذلت في تنفيذ المرسوم الصادر في ٢٢ فلوريل . ويبدو ان المؤتمر الوطني اخذ يتنكر ، في نهاية الأمر ، لهذا النظام بكامله ، في الأشهر الاخيرة من العام الثالث للتقويم الجمهوري وفي مطلع العام الرابع . وستتخذ حكومة الديركتوار ، بعد ذلك بقليل ، قرارها الفصل ، بشأن المشاعات ، فقد اوقف مفعول المرسوم الصادر في ٢١ بريرال من السنة الرابعة ، بصورة مؤقتة ، والتقسيم الذي اجازته «القانون الفاسد» لعام ١٧٩٣ ، كما ان القانون الصادر في ٢ بريرال من العام الرابع الذي يحظر تماماً تطبيق القرارات التي صدرت في شهر فنتوز ، لم يتعد قط الاجراءات التمهيدية .

وهكذا بدت حقيقة رجال المؤتمر الوطني في آخر عهده على ما كانوا عليه ابدأ منذ الاساس : جماعة من الفرديين لا يختلفون بشيء عن رجال الجمعية التشريعية وعلى شاكلة هؤلاء الناس الذين كونتهم القرن الثامن عشر ، مثلاً بمثل . فبعد ان رأوا انفسهم بنأى عن الضغوط السياسية والاجتماعية التي طالما تعرضوا لها في العام الثاني من التقويم الجمهوري ، اذ بهم يرجعون الى المواقف الاقتصادية ذاتها التي وقفوا منها ، عام ١٧٩٠ يحبون في حافظتهم ذكرى ما تعرضوا له من ضواغط ، ويعمون تمام الوعي هذا الخطر الشعبي ويوجدون شرأ من هذا الهول المريع الذي روع البلاد وقض مضاجعهم . وعلى هذا النحو فكر السواد الأعظم من أعيان البلاد ووجهائها .

هذا العهد التاريخي المضطرب لم يطل أكثر من سنتين . فقد انتقد دولة البورجوازية التي ما ان رأت الخطر يرتفع عنها حتى أصبحت اقوى وأشد ، بعد ان امتنت جانبها ودفعت بمبدأ عنها .

لا شك في انه بقي هنالك ، في المدى القريب ، ديمقراطيون وعناصر شعبية مخلصه لهذا العهد التاريخي المضطرب . انما اثر هذا العهد لن يظهر الا في المدى البعيد ، اذ انه بقي حقاً ، مثلاً في

ذاكرة الاجيال . وأخذ الناس في أعقاب عام ١٨٣٠ يرونه شيئاً واحداً هو والثورة . وثولت الخيالات الخصبه تحت الأساطير ، واختلاق الحكايات والروايات حول شخصيات هذه الحقيقة التاريخية وأخذت تحللهم وتشرحهم بعاطفة مشبوبة . فالبروغرام عاد فبعث حياً بعد ان تغيرت منه الملامح والقسيمات . وهذه المسجلات القياسية التي سجلها العهد في الحقل الاجتماعي ارتدت طابعاً رمزياً او تنبؤياً واتخذت صفة الرؤيا . فالسنة الثانية التي مرت كالطيف الزائل تركت على المستقبل مسحة من السناء تألق لها القرن التاسع عشر بكامله .

الفصل الرابع

عهد التدعيم والنوطين، محاولة الديركتوار الفاشلة والثورة السابوليونية (١٧٩٦-١٨١٥)

اولاً - القوى الموطنة

أخذ أنصار ٩ ترميدور يتفنتون في مبالاة الشعور العام، فراحوا
الجميع يتوقون ببله جوارحهم يقدمون له بشيء من التحدي القرار الذي اتخذوه في الخامس من
الى الاستقرار السياسي شهر فريير من السنة الثالثة للتقويم الثوري، فاقروا إعادة انتخاب
ثلاثي الأعضاء الذين يتألف منهم المجلس الوطني، وفاقاً للقرار الذي كانوا اتخذوه حول أفضل
طريقة لوضع حد للثورة. كذلك، أخذت حكومة الإدارة (الديركتوار) تمرب من جهتها،
عن رأيها في أحسن الوسائل التي تساعد على إعادة الاستقرار الى البلاد، محاولة جهدها لتتحيين
هذه الوسائل واخراجها بالتي هي أحسن الى حيز الوجود. فالحزب الملكي بقي على عناده
لا يهادن ولا يصانع وهو شاهر سلاحه. فإن لم يعتمد للقوة فقد أخذ يحبك الدسائس ويحبك
المؤامرات. ومع ان مقاطعة الفاندييه الشائرة قد غلبت على امرها وكبح جماحها، فقد سكنت
على مضض وعزمها لم ينثن، فكان على الحكومة ان ترد على التهديد وان تتحداه. فقد خسر
ستوفلو صريماً برصاص ثلثة من الحرس الوطني اعدامته رمياً بالرصاص في شباط ١٧٩٦، كما قال
شاريت العقاب نفسه في آذار. فاذا ما هدأت الاحوال بعض الشيء في تلك السنة والتي بعدها
فقد عاد الاضطراب، عام ١٧٩٩، الى مقاطعات القرب والجنوب، والى بلجكا. وراحت
اللجان العسكرية تحكم بالاعدام رمياً بالرصاص على المهاجرين حتى شهر برومير. وقد أطلقت
الفتنة بقرنها بين صفوف الجيش في الوقت الذي وقعت فيه الخيانة الانكليزية الملكية مع بيشغرو
ووصلت الى قلب حكومة الديركتوار بشخص برثلي. ولعل ما هو أنكى واحز في النفس من

هذا كله ، هذه الحالة الفكرية الرجعية التي لغيت رواجاً في البلاد والتي تفسر لنا ، بعض الشيء ، حقيقة الانتخابات التي تمت عام ١٧٩٧ والتي أسدلت ستاراً على هذه المحاولات ، قوامها فريق من المتواطئين ومن المفرورين .

وقد زاد الحالة الفكرية قلقاً واضطراباً ، الخوف الاجتماعي الذي استحوذ على الطبقة البورجوازية من احتمال عودة اليعقوبيين الى الميدان ، بالرغم من ان الحزبية اليعقوبية لم تعد سوى 'فزاعة لا غير . فالفتنة التي اثارها كل من بابوف بنظريته الجديدة حول المساواة ، وأزمة التضخم الحادة 'قضي عليها الحال ، اذ جرى توقيف بابوف وصحبه ، في ايار ١٧٩٦ ، دون ان يثير توقيفه اية مشكلة . لم يثر قمع هذه الفتنة ولا الاشتباك الدامي الذي وقع في ميدان غرينيل ، في شهر ايلول ، اية قلق للحكومة . فالتمردون في غرينيل ، وأنصار بابوف تمت تصفيتهم جميعاً وحكم عليهم بالاعدام ، عام ١٧٩٦ ، و ١٧٩٧ ، دون ان تتحرك باريس او ان تهتز أو ان ترتجف لها عين ، بعد ان كبح جماحها ، في شهر بريرال الماضي . لا بأس من هذا كله . فالتهديدات حتى الفاشلة منها تبعث الرعب في النفوس . فالشبح اليعقوبي ترتد له الفرائص . فكل سياسة تفتتح امام هذا الحزب المجال لاستعادة نشاطه او شيئاً من حيويته ، كانت تثير اشمئزاز معظم وجهاء الجمهورية واعيانها . ومع ذلك ، فالخطر المدام الذي يتهدد البلاد من جهة اليمين ، كان يحتم على كل حكومة جمهورية ، شامت أم أبت ، النزوع الى مثل هذه السياسة اذا ما شئت ان تحكم بأكثرية برلمانية .

فالانقلاب الذي قامت به حكومة الديركتوار في ١٨ فروكتيدور بالغائها الانتخابات الملكية الطابع التي وقعت في العام الخامس من التقويم الثوري ، بعثت النوادي حية من جديد . وجاءت الانتخابات التي جرت في العام السادس يسارية محضة ، الامر الذي حدا بالحكومة الى القيام بانقلاب جديد ، فألقتها في ٢٢ فلورال . كذلك جاءت يسارية أيضاً الانتخابات التي تمت في العام السابع . غير ان نشوب الحرب من جديد والانتصارات الاولى التي حققها التحالف الثاني ، والاضطرابات التي اثارها ، في الداخل ، الممالئون لهذا التحالف ، كل هذا جعل النظام الجديد يتصلب في موقفه وفي مقاومته . والقانون الذي صدر بتاريخ ١٠ مسيدور من العام السابع ، دعا لخدمة العلم ، كل الذين هم في سن الخدمة العسكرية من ابناء الفئات الخمس الذين لم يجر تجنيدهم بعد . وجرى تغطية نفقات التجنيد بقرض داخلي اجباري تصاعدي وقع عبئه على المكلفين الاغنياء . وبعد ذلك بعشرة ايام ، صدر قانون الرهائن ، وهو قانون فرض توقيف ذوي القربى من اللاجئين والنبلاء ، في فرنسا ، ووجهاء المالكين في المقاطعات التي تعبت فيها الاضطرابات ، وارسالهم الى مخيمات الاعتقال ، وهدد بنفي وإبعاد هؤلاء المشبوهين من جنس جديد واتخاذ عقوبات مالية بحقهم تنزل بهم الخراب والدمار ، اذا ما ألحقوا بالجمهوريين ادنى أذى . وعادت الى الظهور كذلك الجرائد والنوادي 'اليعقوبية' . كل هذا ادخل الخوف في روع البورجوازية منذ شهر فروكتيدور .

كذلك قل عن الازمة التي سببها ، عام ١٧٩٧ ، الرجوع الى العملة المعدنية ومحاربة التضخم المالي في البلاد ، في اثر الفشل الذريع الذي اصاب ، في السنة السابقة ، السندات العقارية التي شابهت الاسيبياء .

اشتدت هذه الازمة ودامت طويلا ، خلال عامي ٦ و ٧ وأنزلت اسوأ الاثر في المشروعات الاستثمارية الكبرى . وزادت الحرب الطنبور نفمة والطين بلة بما ألحقته بالبلاد من ضيق ومصاعب . فالحفمة في المائة التي جمعت ال ٢٤ فرنكاً ٢٥ ، في السنة الاولى من تحديد هذا المعدل ، هبطت في السنة التالية الى ٧ فرنكات . كل هذه المشاكل تحمل في نظر اعيان القوم ، اذ ذاك ، علامات مصدرها أو منشئها ، اذ انها تعبر جميعها عن الخطر الذي يشهه اليسار . وهذا الخطر ليس بأخف قط من خطر الملكيين وقد تضاعف بانضمام خطر الغزو الخارجي اليه . فالوضع ، مع ذلك هو اكثر تعقيداً وارقباً كما وأصعب حلاً ، من بعض الوجوه ، ولو لم يبلغ من التوتر ما بلغه عام ١٧٩٢ و ١٧٩٣ . فالمهم ، في هذا كله ، انقاذ الثورة ، بما يحق بها من مخاطر هي هذه العناصر الشعبية التي لم يكن لها فضل انقاذ الثورة من قبل فعصب ، بل ايضاً انقاذها من هذه العناصر بالذات . كل هذا يقتضي له دكتاتورية مركزية او ما شابه ذلك . الا ان الدكتاتورية الشعبية لا بد من ان تحلي المكان في آخر المطاف ، لدكتاتورية عسكرية .

الجيش الموطن
لم يكن من الممكن قط اجبار الجمهورية البورجوازية على انتهاز خطة مترنة ، بعد فنديبير ، الا بواسطة الجيش ، والجيش وحده . فالرجال الذين قاموا بحركة ترميدور والمسؤولون في حكومة الديركتوار ، شكلوا وحدهم القوة الموطنية لاركان النظام . فقد عرفوا ، على انساب من الفشل والنجاح ، ان يتفادوا العواصف الهوجاء ، وان يتجنبوا الزعازع . ولكن فرنسا كانت تترج تحت ما تعاقب عليها من الحن والاحن . وكانت قطع ، منذ عهد بعيد ، ان يعود الاستقرار على انواعه الى جميع القطاعات : الى البلاد ، الى اوربا ، الى الاعمال ، الى دنيا المال ، كل هذا في اطار مجتمع لا طبقي بالطبع ، وفي ظل ادارة بورجوازية . فالمشكلة قامت في ايجاد طريقة للفصل بين الثورة وبين « الروح البرلمانية » وعند الاقتضاء « ثورة التحرر السياسي » . ومثل هذا الوضع لم يعرف الديركتوار ان يحقق منه الا صورة مسوخة ، وهو وضع أخفى دوماً بين طياته ، كما دل الاختبار على ذلك حديثاً ، احتمال بعث الروح اليعقوبية من جديد .

وها هو الموطن يطل فجأة : فاذا ببونايرت يصل فجأة الى فريجوس ، في ١٧ فنديبير من السنة الثامنة للتقويم الثوري ، ويدخل باريس في ٢٤ منه . كل شيء حاضراً للانقلاب في أواخر النصف الاول من شهر برومير .

ففي مساء ١٩ منه ، يحل القناصل الثلاثة : بونايرت وسيس وروجيه دوكو ، محل الديركتوار ، والدستور الجديد يُقرَض على الامة للاستفتاء ، في الرابع والعشرين من شهر فريمبر .

يرتكز الدستور على المبادئ الصريحة التي هي أساس كل حكومة تمثيلية وعلى مبدأ الملكية المقدس ، والمساواة والحرية .

والسلطات التي نص الدستور الجديد على اقامتها تتصف بالقوة والاستقرار ، وهاتان الصفتان لا بد من توفرهما لضمان حقوق المواطنين ولتأمين مصالح الدولة .

انها المواطنين ! الثورة ترتكز دوماً على المبادئ التي انطلقت منها ، وقد انتهت الآن .

الفصل الاول وعمله التوطيدي
كرّس صباح ١١ تشرين الثاني ١٧٩٩ ؛ أطول فترة استمرار عرفت فرنسا عبر تاريخها الحديث . فمن قنصل موقت الى قنصل أول منذ ٢٥ كانون الاول ١٧٩٩ ولمدة عشر سنوات ، الى قنصل لمدي الحياة ، منذ ٢ آب ١٨٠٢ مع صلاحية تعيين خلف له ، كما نص على ذلك القرار الصادر عن مجلس الشيوخ (*Senatus Consulte*) الذي صدر في ٢ آب ١٨٠٢ (ترميدور من السنة العاشرة) الى المناداة به امبراطوراً وراثياً ، وفقاً للاستفتاء الشعبي الذي جرى في ٢٨ فلوريال من السنة الثانية عشرة (١٨٠٤ ايار) . فقد اضطلع نابليون بمسؤوليات السلطة العليا لمدة ١٤ سنة ونصف . فمحاولات الاغتيال التي تعرض لها ، تارة من قبل الملكيين ، وطوراً من قبل « العقوبيين » كما زعموا ورددوا ، ساعدت كثيراً على تحديد مراحل هذا التطور ، كما ساعدت على ذلك الاحداث التي وقعت في الخارج ، كاعادة السلام يرفرف من الجديد على البلاد ، عام ١٨٠٢ بفضل معاهدة أميان . لا مراء قط ان سياسة من هذا النوع كانت تستجيب ، بمزول عن اطباع نابليون الواسعة ، للاماني المراض التي جاشت في قلب الشعب الفرنسي الذي تاق ، من جميع جوارحه ، للاستقرار والديمومة في الحكم .

وهكذا قضى تماماً على حركات « الاحزاب » التي طالما اصابته البورجوازية في الصميم من مصالحها الرئيسية . وهكذا زال من الوجود ، كل خطر « يعقوبي » . فألغي قانون الرهائن ، في ٢٣ برومير ، كما فرض ، في ٢٧ منه ، القرض الاجباري التصاعدي . وفي بضعة ايام لا غير ارتفع سعر القطن ٧٥٪ وارتفعت الا الابد ، قوانين المصادرة والسلب ، وقامت في البلاد جمهورية تتمتع « بحرية صحيحة » . وسمح قانون ٣ نيفوز لكل من طالهم قانون الابداد في شهر فروكتيدور بالرجوع الى البلاد . وليس بغريب قط ان يمود باريز وفاديه ايضاً في عداد من عادوا اليها . وقد عرف العهد ان يضع الندي موضع السيف ايضاً وان يصانع ويقطع الالسنه ، وسرعان ما وضع الحزب الديموقراطي في وضع لا يستطيع معه ان يأتي بأي أذى . فبعد محاولة الاغتيال التي وقعت في شارع سانت نيكيز في الثالث من شهر نيفوز من السنة التاسعة ، صدر قرار من مجلس الشيوخ يسلق بالسنة حداد « سفاكي الدماء » و « مقلقي الامن في كل حكومة » كما كانت المحاولة والنكبة النكباء التي نزلت بالبلاد في جميع المراحل التي مرت بها الثورة . انها لفرصة ذهبية بيد السلطة لوضع الديموقراطية تحت المراقبة المستمرة ، لتتغني من ترغب في نفهم ، ولاعدام من يروق لها اعدامهم . ومن جهتهم لم يعد اصحاب النظريات من

الجمهوريين في المجالس الجديدة ليسبوا اي ازعاج بمطالبهم . ففي اواخر العام العاشر من التقويم الجمهوري ، نرى « اليسار » يسير الهويناء .

اما الملكيون الذين لم يتزحزحوا عن مواقفهم ، فحركة القمع التي تعرضوا لها لم تتم بالسرعة والشدة المطلوبة ، فلم يكن لها بالتالي التأثير الرادع . فالقانون الذي صدر في ٢٣ نيفوز من العام الثامن ، أوقف العمل بالضمانات الدستورية في هذه المحافظات الواقعة الى الغرب والتي سادت فيها الاضطرابات والقلق . فقد حق للقائد العام في الجيش ان يتخذ قراراً يقضي بعقوبة الموت على الثائرين ، كما اعترف له بصلاحيه فرض ضرائب استثنائية ، على المؤسسات العامة ، أسوة بما يجري في البلدان العدة ، كما اعطيت المحكمة التي تنتظر الجنايات ، بصورة استثنائية الحق باصدار أحكام لا تقبل أي طريق من طرق المراجعة ، وتستمر اللجان العسكرية التي كانت تعمل في عهد حكومة الادارة (الديركتوار) ، في تنفيذ حكم الاعدام بزعماء الثوار ورؤسائهم في المقاطعات الغربية . أما الثوار من الجند ، فما زالوا يستهدفون للمطاردة ويصرعون بالمشات الى عام ١٨٠١ . فما من حاجة بعد لليعقوبيين ، لتطمئن جماهير الملاكين لحسن مصير ما في حيازتهم من الاملاك العامة . كذلك عادت الحياة ، في شباط ١٨٠٤ ، الى المحاكم الجنائية الخاصة ، بعد المؤامرة التي دبها كادودال : فاعدام دوق دانغان *Engliien* في ٢١ آذار واعدام كادودال ومعاونوه في ٢٤ حزيران ، كان من شأنه ان ستر الخوف في قلب « حزب اليمين » . استعملت ضد الملكية وضد اليعقوبية ، على السواء كل الوسائل الناجعة ، حتى الخليم منها . ان اعلان اقفال قوائم المهاجرين صدر اثر الانقلاب الذي وقع في آذار ١٨٠٠ ، والاستفتاء الذي جرى في ٦ فلوريال من العام العاشر مناقضاً نص الدستور الموضوع عام ٨ ، منح عفواً عاماً لم يستثن إلا الزعماء . وقد اجاز للاجئين العودة الى اوطانهم ، بعد ان الزموا بقسم الولاء للجمهورية .

وهكذا سمي النظام الجديد ليؤتب كل فرنسا وقادتها ووجهائها حول النظام الذي انبثق من الثورة .

ثانياً — القوى الموطة لسياسة البلاد العامة

فالجمهورية تبقى قائمة بصورة رسمية . ولا يزال هذا المسمى يتزاء الرعب في اوربا ويحول دون استتباب السلام في ربوعها . فالمادة الاولى من الدستور الذي صدر في العام الثامن تعلن عالياً : « الجمهورية الفرنسية واحدة هي لا انفصام لها » . فبونايرت وزملاء هم « قناصل الجمهورية » والمادة الاولى من الدستور المعلن في ٢٨ فلوريال عام ١٢ ، تدمج الامبراطورية بالجمهورية :

المادة الاولى — يتولى مقاليد حكومة الجمهورية امبراطور... المادة ٥٣ — وقد صيغ القسم

الذي على الامبراطور ان يؤديه ، على هذا الشكل : « أقسم بأن احترم وأجعل الكل يحترمون المساواة في الحقوق والحرية السياسية والمدنية » .

نابوليون هو امبراطور الفرنسيين ، اقله في الايام الاولى « بمشيئة الله و ارادة دستور الجمهورية » . فالثورة التي اعلنها نابوليون تركز على سيادة الشعب كما جرى التعبير عنها في استفتاء عام للشعب . هو « الشعب الفرنسي » الذي عين نابوليون بوناپرت قنصلاً أولاً مدى الحياة » وهو الذي « يرغب » وفقاً لاحكام الدستور الصادر في عام ١٤ « في جعل المنصب الامبراطوري وراثياً في ذرية نابوليون » .

فالاقتراع العام الذي الغاه الدستور الصادر في العام الثالث ، الاقتراع العام يقتصر على اقلية من دافعي الضرائب ، إستفتاءات أعيد العمل به أساساً من أسس النظام الجديد بعد أن جرى دمج نظام ضرائبي شديد الفعالية ، جرد من كل قدرة على اتخاذ القرارات الا في ما له علاقة بالاستفتاء .

فاللجان التي عهد اليها إعداد قوائم الوجهاء وفقاً لنص الدستور الصادر في العام الثامن ، تنبثق من الاقتراع العام . المواطنون من سكان الناحية ينتخبون المرشحين لادارة الشؤون العامة من بين لوائح الوجهاء في الناحية ، بنسبة عشر عدد الناضحين في المقاطعة . ففي كل محافظة يؤلف مجموع أعيان الاقضية ، بالطريقة ذاتها ، قائمة خاصة بالمحافظة يُنتخب من بين الأسماء التي تضمها قائمة الموظفين ورجال الادارة في المحافظة ، وأعيان المحافظات ينتخبون هم أنفسهم عُشر الأعضاء الذين يؤلفون بهذه الصورة قائمة الأعيان الوطنيين الذين يتم من بينهم انتخاب كبار الموظفين وأعضاء المجالس الوطنية . واذ رأى الدستور ان هذه القوائم لا يتم وضعها لأول مرة الا في العام العاشر ، فكل موظفي العهد وكل أعضاء المجالس جرى تعيينهم ، خلال هذه الفترة ، دون العمل بالتمثيل من أسفل .

لم يعمل بهذا النظام ، والحق يقال الا لأمد قصير . أي من شهر فنديمير الى شهر ترميدور من العام العاشر . فقد وضع الدستور الذي صدر ، في هذه السنة بالذات ، نظاماً آخر جاء فيه نظام الاقتراع العام اضعف قاعدة بمراحل . فالمرشحون للانتخابات لا يمكن اخذهم إلا من أقلية ضئيلة من رجال المال . وعلى عكس النظام الانتخابي الواسع الموضوع عام ١٧٩١ ، والنظام الآخر الموضوع في العام الجمهوري الثالث الذي قام على قاعدة واسعة من دافعي الضرائب والذي جعل بضعة ملايين من المواطنين ، مهما تبانت اوضاعهم المالية ، واتجاهاتهم الفكرية مؤهلين للمشاركة في انتخاب مجالس المحافظات ، راح الدستور الذي صدر في السنة العاشرة يحصر المؤهلين لمعضوية هذه المجالس ، في حيز اجتماعي متجانس ، ضيق جداً . فمجالس النواحي ، حيث الكل يقترح ، لا تستطيع انتخاب ممثلين لها في مجالس المحافظات الا من بين ال ٦٠٠ الواردة اسماؤهم من قبل المحافظة . وبما ان مجالس المحافظات يتألف من ٢٠٠ - ٣٠٠

عضو، ظهرت لنا الحدود الضيقة التي يستطيع فاخبرو الدرجة الاولى العمل ضمنها . فاذا ما تقيدها بالاراضي الفرنسية ، كما كانت سنة ١٧٩٠ ، كان حق الانتخاب وقفاً على طبقة من الاغنياء لا يتجاوز عددهم ٥٠،٠٠٠ من الفرنسيين . وبالإضافة الى ذلك ، فالمنتخب يصبح عضواً في المجلس مدى الحياة . وكان باستطاعة الحكومة ان تضيف ٢٠ عضواً ، من اختيارها هي ، بعضهم يختارون من بين الثلاثين ممن يدفعون من الضرائب في المحافظة اكثر من غيرهم . والملحق الدستوري الذي صدر عام ١٨١٥ حافظ على هذا النظام . وهذا المجلس لا يتمتع بغير حق التشريع ، أي ان مهمته تعيين المرشحين فهو يسمى المرشحين للوظائف العامة لا سيما لوظيفة عضو مجلس الشيوخ وبالإشتراك مع الهيئات المعنية في النواحي ، هذه الهيئات التي تألفت بقطع النظر عن نسبة الضريبة التي يدفعها الاعضاء ، ينتخبون اعضاء المجلس التشريعي . غير ان الانتخاب لا يتم على ايديهم . فهو يأتي من فوق ، من القنصل الاول ، في الاصل ، أو من الامبراطور الذي يمثل وحده الشعب في هذا النظام .

وتحت مظهر الاستفتاء الشعبي الذي يتخذ شكل الاقتراع العام ، أولي القنصل الاول بموجب احكام الدستور ، سلطة واسعة جداً . فهو يعين ويمزل كما يشاء . فهو الذي يعين اصحاب المقامات والرقب الكبيرة في الامبراطورية وكبار القضاة من غير اعضاء مجلس التمييز دون أن يكون له الحق مع ذلك بعزلهم . فهو يقترح بحق اقتراع القوانين وينشرها بعد إقرارها ، كما انه يعين قسماً من اعضاء المجالس العليا .

في رأس هذا النظام نرى أول ما نرى ، اعضاء مجلس شوري الدولة .
النظام الدستوري
والهيئات الاستشارية
فالمادة ٥٢ من دستور العام الثامن هي التي نصت على انشاء هذه الهيئة التي تعمل تحت ادارة القناصل . يعدّ مجلس شوري الدولة مشاريع القوانين والانظمة الادارية التي تسيّر عليها الادارة العامة في البلاد ، كما انه ينظر في القضايا الادارية ويقطع بها . كذلك يعين القناصل ، وبالفعل القنصل سيبس نفسه ، الفريق الاول في اعضاء مجلس الشيوخ ، هذا المجلس الذي يرعى تطبيق الدستور ويحافظ عليه . ويعمد مجلس الشيوخ الى استكمال عدد اعضائه المحدد ، وذلك عن طريق انتخاب اعضاء المجلس انفسهم من تبقى من الاعضاء لتكتمل هيأته بكاملها ، بعد ان المحصر عددهم بـ ٩٠ شيخاً ينتخبون مدى الحياة . إلا ان الدستور الذي صدر في العام العاشر فتح الطريق امام تدخل السلطة التنفيذية في تشكيل المجلس . قالشيوخ الذين يجب تعيينهم من الآن فصاعداً يجري انتخابهم من قبل المجلس ومن بين قائمة مرشحين يعدها القنصل الاول بالاعتماد على قوائم تقدمها المحافظات . وبالإضافة الى ذلك ، في مقدور القنصل الاول ان يعين ٥٤ عضواً جديداً من اعضاء مجلس الشيوخ دون أن يختارهم من القوائم المقدمة له من قبل . وهذا الامر بالذات يولي القنصل الاول قسماً من السلطة الدستورية ، بعد ان اصبح من حق مجلس الشيوخ ، عن طريق قرار اتخذ (*Sénatus - consulte*) ان يفسر الدستور وان يكمله . وهكذا أصبحت هذه الهيئة العليا الى حد بعيد ، تحت قبضة

القنصل الاول . وهذا الامر يبرز اكثر وضوحاً في دستور عام ١٢ الذي خول الامبراطور نفسه تعيين اعضاء مجلس الشيوخ وجعل عددهم غير محدود .

وهذا المجلس نفسه يعين من بين المرشحين الذين يقدم الامبراطور اسماءهم ، اعضاء مجلس الـ *Tribunat* واطباء المجلس التشريعي . تقوم صلاحية مجلس التريبونا هذا بمناقشة مشاريع القوانين التي يعدها مجلس شورى الدولة ويرفعها اليه ، ويتخذ بشأنها قرار تمتي بالقبول او بالرفض . اما المجلس التشريعي ، فدوره دور هيئة المحلفين الذين يلزمون الصمت طوال المحاكمة . فيقتصر مع المشروع او ضده بعد الاستماع الى مراقعات وخطب الدفاع التي يلقيها مجلس شورى القوانين ومجلس الـ *Tribunat* دون ان يشترك او ان يتدخل بصورة من الصور ، بالمناقشات الدائرة . ولما كان عمل الـ *Tribunat* يدعو ، اكثر من غيره ، للتشوش ، فقد تم الفاؤه بنسب هلى فتوى من مجلس الشيوخ ، بتاريخ ١٩ آب ١٨٠٧ . وبذلك أعيد النطق او حرية الكلام والتعبير ، الى المجلس التشريعي .

وقد عرف نابليون ان يضع في خدمة اغراضه بسهولة كلية ، هذه المجالس الصورية . فالنصوص القائمة والعرف المعمول به في البلاد ومقتضيات الامن العليا قضت تماماً على الروح البرلمانية الدستورية ، مع العلم ان الامبراطور وهذه الهيئات القائمة صدرت عن الثورة ، وذلك ليس لان القطيعة الصارخة مع النظام القديم قد جاءت كاملة ، بل لان التباين بين ذهنية البورجوازية النابوليونية وبين ذهنية المجلس التشريعي كانت اكبر في الظاهر منها بالواقع ، لا سيما اذا ما سلطنا جدلاً بان الاخيرة منها اصبحت بنأى من ضغط الجماهير الشعبية وبما تبقى من الروح الحزبية الملكية . فالأغلبية الطبيعية في الجمعية التشريعية تألفت من القلب واليمين متعلقة حول مونييه وصعبه . فتورثهم المسألة التي رمت للتوفيق بما ضمنوها من حق انتخاب موقوف على اقلية من ارباب المال ، ومن مجلس شيوخ كثيراً ما تمنوا ان يكون وراثياً يعينه الملك والطبقة العامة ، وحق النقض المزدوج ، غير المحدود ، كل ذلك يلعب من مصدر الهام واحد مشترك مع الثورة الموحدة التي وقعت في آخر المطاف ، في شخص هؤلاء تبنت الامبراطورية بنسبها وانصارها . والجمعية التشريعية ذاتها كما ابرزتها الحوادث المتعاقبة تحررت الى حد بعيد من سلطة تنفيذية شديدة الشكينة لاسباب عدة ، اهمها جميعاً انها كانت ملكية بعد ان طرحت سلطة تنفيذية ، ثورية او ملتبقة عن الثورة ، القضية بشكل آخر . فالمؤسسات والنظم النابوليونية التي كان في شبه المستحيل على رجال الاكثية « الطبيعية » ان يفتنوا لها او ان يفكروا بها ، عام ١٧٨٩ ، اصبحت بعد ذلك بعشر سنوات ، أيسر اخذاً واسهل تنديباً بكثير ، من قبل هؤلاء الافراد انفسهم بعدما اعتراهم من هلع اجتماعي ، وتحمت ضغط وتأثير شخصية قوية كنابوليون لا مثيل لها ولا كفاء ، بينما تستمر من جهة اخرى ، في اوروبا ، حرب لا هوادة فيها ، تهدد في الصميم ، النظام الجديد .

مهما يكن من الامر فالمرسوم الاضافي الذي صدر عام ١٨١٥ ، انما كان في الحقيقة بمثابة تعبير

صريح واضح ، عن الحد الاخير لهذه التنازلات التي في مقدور النظام الجديد ان يقدمها للحركة التقدمية التحررية : مجلس للاعيان وراثي ، ومجلس تمثيلي ينتخب من بين ٥٠،٠٠٠ من اصحاب الغنى واليسار ، يمثلون رجال المال والاعمال والصناعة .

كذلك زالت من الوجود الحريات العامة في البلاد : صحيح ان الامبراطور مصير الحريات الاساسية اقسام اليمين الدستورية التي نص عليها المرسوم الصادر في عام ١٢ ، هذا القسم المتعلق بالمحافظة على الحرية السياسية . فقد نصت المادة ٦٤ من الدستور المذكور على انشاء لجنة في مجلس الشيوخ تعنى بامور الحريات والصحافة . وقد نشرت الجريدة الرسمية المونيتور *Monitor* عام ١٨٠٦ ما يلي : ان هذه الحرية هي اولى الحريات التي حققها هذا العصر واهم الامبراطور جداً ان تبقى مصونة ، محترمة . فليس من مراقبة معطلة . ظواهر غرارة : فالبوليس والعديلية والداخلية ، كلها تقوم بمراقبة الصحافة وتخضعها للتفتيش ، فترغم الجانب الاكبر منها على التوقف عن الصدور . ففي يديها الموت والحياة . صحيح ان السلطات تظهر احياناً بظهور التساهل امام التيارات الادبية والفلسفية التي تهب على البلاد . ولكن منذ عام ١٨١٠ اخذت مصلحة النشر والمطبوعات بفرض الرقابة على المطبوعات قبل ارسالها للطباعة ونشرها . فالعهد يريد التحكم بالافكار ، والتعليم الرسمي نفسه يساعد على هذا الامر هو ايضاً ، كما نبتين ذلك في كتاب التعليم المسيحي الذي صدر عام ١٨٠٦ والتعليم الجامعي ايضاً عام ١٨٠٨ . فالبوليس والداخلية والدوائر التابعة لها تراقب المسرح عن كثب . فبعد الرجوع الاول الى النظام الملكي ، نص الدستور على ان حرية الصحافة باستثناء حالات سوء الاستعمال ، هي جزء لا يتجزأ من « الحق العام الذي يتمتع به الفرنسيون » وحقبة المائة يوم ، تتميز هي الاخرى ، بحركة تحريرية . والمرسوم الاضافي الذي صدر عام ١٨١٥ يجعل حق الطباعة وحق النشر « بدون اي رقابة مسبقة » وبالفعل فقد اصبحت الصحافة حرة .

فالدساتير القنصلية والامبراطورية لا تشير بشيء الى حق الاجتماع . فالقضية هي من اختصاص الأمن ، تقطع بها الحكومة باصدار امر منع اذا كان ما يوجب المنع او ما يبرره . فلاحكام التمهيدية لقانون الجزاء الذي صدر في شباط عام ١٨١٠ تشير بصراحة الى ان الموضوع لم يسبب على الاطلاق لرجال القانون اي ارتباك ولم يثر عندهم اية صعوبة . فالقضية لم تصد فتح « هذه الاوكر المظلمة » التي أغلقت في ١٨ برومير . فمن الجهة الحقوقية النظرية : « ان حق الجماهير المطلق وغير المحدود بالاجتماع للتداول في الامور السياسية والدينية وما شاكل يتعارض تماماً مع وضعنا السياسي الراهن » . ومع ذلك ، فالقضية ليست منع الاجتماع على اطلاقه ، او اجتماع بضعة اشخاص معاً حتى ولو كان القصد من اجتماعهم التعليق على اخبار الجرائد . فالترخيص الذي يرتبط برضى الحكومة ورغبتها ، لا يطلب الا عندما يتجاوز الاجتماع العشرين شخصاً .

وهكذا زالت من الوجود الحريات العامة التي نادت بها الجمعية التشريعية خلال الثورة ، هذه الحريات التي يحلو للنظام الجديد ان يتغنى بها . فالثورة النابوليونية والحالة هذه ، تتنكر للنقسم النابوليوني ، ولكن ليس لروح ميثاق شهر برومير الذي صدقته واقتره عدة استفتاءات شعبية . فالصحافة الحرة عرف سوادها الاعظم كيف يمالئ الحركة ويماشيها مع الزمن ومن بعدها الرجعية الملكية . فالنوادي لم تلبث ان تطورت الى نوادر ثورية (يعقوبية) . وهذه الحريات التي بدت شيئاً لا يحتمل في نظر المتربع على العرش والتي لم ير معظم الاعيان الجدد ضرورة لها ظهرت لهم كأنها عوائق تحد من التوطيدات التي كانوا يرغبون في الاخذ بها ، او ذرائع بدائية اعتمدوها لتأمين فوز البورجوازية عندما اقراها العرف ورعاها القانون ، فلم يبق لها ، من بعد ، ضرورة البتة للعهد المكلف بتأمين الاستقوار وترسيخه في البلاد .

وبالمقابل ، فقد بقي قائماً ، مرعي الجانب ، الحق الجديد المعترف به للحريات الفردية . فالاحكام العامة للدستور الصادر في العام الثامن ولقانون الجزاء منذ اول كانون الثاني ١٨١١ ، قدس في كل ما يتعلق بالانتهام والتوقيف والسجن ، المبادئ التي بني عليها اعلان حقوق الانسان والتشريعات اللاحقة . فالاحكام التي تقضي بفرض جزاء حلت محل الاحكام التعسفية التي عمل بها في الماضي ، بعد ان تركت للقاضي ضمن حدود النهايات الكبرى والصغرى ، حرية تقدير الاسباب وتقييمها . فالحاكم سعيداً ان يتورع قط ولن يخشى لومة لائم ، ولا شك ، اذا ما رأى من مصلحته ان يتعدى الشرعية التي أقامها ، وسيكون عنده سجناء دولة . وستساعد الاضطرابات الناشئة والحروب القائمة على اللجوء الى القضاء العسكري . وما عسانا ان نقول عن تعسف الدكتاتور ؟ فاجراءات العدل تضبطها مع ذلك هذه النصوص الجديدة ، في معظم الحالات العارضة .

كذلك قل عن حرية الضمير أو الاعتقاد التي تجدد مكانها في سياسة التوطيد والتدعيم والترسيخ النابوليونية . فالكاثوليك والبروتستانت واليهود ينعمون جميعاً على السواء ببنات الحقوق المدنية والسياسية . فبالرغم من الجهود التي بذلها البابا بيوس السابع ، لم تؤمن المعاهدة المعقودة مع الكنيسة (كونكورداتو) عام ١٨٠١ ، ولا القانون الصادر في ١٨ جرمينال من العام العاشر الذي أقرها ، أي امتياز للديانة الكاثوليكية التي اعترف لها بكل بساطة ، بأنها « ديانة غالبية المواطنين الفرنسيين » . وممارسة مراسم عبادة هذه الديانة تتم بكل حرية ، بالاتفاق مع الانظمة والاجراءات التي يضمها البوليس . ان قس البروتستانت وكهنة الكاثوليك يتناولون على السواء مرتباً من الدولة ، وفقاً لمنطوق المواد الاساسية التي تتعلق بممارسة العبادة الدينية ، كما ان المرسوم الذي صدر في ١٧ اذار ١٨٠٨ نظم العبادة الخاصة باليهود .

بقيت الكنيسة الكاثوليكية في المجتمع التقليدي القوة الكبرى التي
 الاكليروس والجامعة تعمل في الحدود التي رسمتها لها الجمعية التأسيسية ، بالرغم من
 التنازلات التي قدمتها ، لفترة طويلة ، الادارة النابوليونية للاكليروس الكاثوليكي . فقد احتفظ
 القانون النابوليوني بعلمانية الأحوال الشخصية في البلاد وبالطابع المدني المجرد للزواج والطلاق -
 بعد ان سُحِدَّت بوضوح ، الظروف والحالات التي يصح فيها الطلاق - فأبطل الأخذ بعدم تمازج
 الاخلاق والطباع ، كما ان الاحتجاج بالتراضي المتبادل ، يسقط بعد مرور عشرين سنة من
 الحياة الزوجية المشتركة ، أو عندما تكون الزوجة تجاوز سنها ١٥ سنة . وقد حافظت
 الكنيسة في قضية التربية والتعليم على مواقفها القوية . غير ان الجامعة اخذت تنزع ، في اثر
 الاصلاح الذي وقع عام ١٨١١ ، على تجريدها من التعليم الثانوي واصبحت بالتالي خطراً يهدد
 مستقبل الكنيسة . فاذا لم يتناول الامر بعد ، الرجوع الى خطط المساعدات الواسعة التي وضعتها
 الجمعية التأسيسية . فالروح العلمانية بقيت مع ذلك معمولاً بها ومسيطرة على الاوضاع ، بالرغم
 من الاستماعة براهبات المحبة ، في العام التاسع من التقويم الجمهوري ، للعمل في المستشفيات . فقد
 بقيت املاك الكنيسة مصادرة وقد اعترف قداسة البابا عالياً في المعاهدة المعقودة مع فرنسا ان
 الاملاك الكنسية التي صارت الى حيازة مالكيها تبقى غير قابلة للتصرف ، كما أُجيز باقامة
 وقوفات جديدة . وقد ألغيت المعاهدة المذكورة الدستور المدني القديم للاكليروس وقانون فصل
 الكنيسة عن الدولة . فالحكومة تعين الاساقفة والبابا يولمهم الولاية ويتولى سيامتهم كما ان الدولة
 تؤمن لهم مرتبات سنوية كافية . قد اندمجت الكنيسة في العهد الجديد بثقل ما اندمجت مع العهد
 القديم . فعلى الاساقفة ان يقسموا بين الولاء للجمهورية اسوة بما كانوا يؤدونه من ولاء سابق
 للملك ، فيتعهدون بالآلا يشتركوا في أي مسمى أو عمل ضد الحكومة ، وبان يخبروا عن كل
 مؤامرة أو دسيسة ضد النظام القائم يبلغهم خبره . وعلى الكهنة ان يحتذوا حذوهم في هذا الصدد .
 ومن جهة اخرى فالمواد الدستورية التي وضعها نابليون من جهته زادت من احكام قبضة الدولة
 على الكنيسة . فعلى اساتذة ومعلمي الاكليريكيات الدينية ان يتبنوا المبادئ التي نادى بها
 الكنيسة الفالتيكانية المملنة عام ١٦٨٢ ، كما ان البراءات البابوية وتنفيذها ، وتنفيذ قرارات
 المجامع الكنسية يجب ان يخضع مسبقاً لموافقة الحكومة . فكل مجمع كنسي وطني أو اقليمي
 يجب ان ينال ترخيصاً مسبقاً من الحكومة . كذلك لا يحق لأي فرد يحمل لقب سفير أو مندوب
 بابوي او اي لقب بابوي آخر ان يارس أية خدمة او وظيفة خاصة بأمور الكنيسة الفالتيكانية
 بدون ترخيص سابق من الحكومة . ويترتب على رجال الاكليروس القيام باعمال المراسم العامة
 التي تأمر السلطات القيام بها حتى ولو ادى الامر الى اعتقال البابا وسجنه ، كما حدث عام
 ١٨٠٩ . وستحرص هذه السلطات ، بالطبع على توضيح وتحديد الفوارق الطفيفة . كذلك
 يترتب على الاساقفة تقديم الشكر على الانتصارات التي سجلتها جيوش الامبراطور في «وغرام» -
 حق في اثناء توقيف البابا - وعلى فوزه العظيم على نهر الموسكوكوفا مشيدين عالياً بهذه
 الانتصارات الداوية . وهكذا أعيد العمل من جديد بتقاليد الاستقلال القديمة التي طالما طالب

الملوك باحترامها والتقيدها ، ولكن لصالح الثورة الثورية هذه المرة ، كما كان في عهد الجمعية التشريعية ، بعد ان اصبح الاكليروس ، شاء ام أبى ، مساعداً لها وسائراً في ركابها . ولم يحل هذا التدبير دون ان يتبنى بعض رجال الاكليروس ، شيئاً فشيئاً ، ولا سيما بعد ١٨١٠ - ١٨١١ ، موقفاً معارضاً .

بعد كل هذا ، وبعدما تمّ من قبل وقّع ، بقي قائماً راسخاً في
الارض ، هذا المجتمع اللاطقي والانتصار العظيم الذي حققه ممثلاً بهذه
المساواة امام القانون التي طالما نادوا بها واتوا على ذكرها والتغنى بها
منذ عام ١٧٨٩ . فالقسّم الامبراطوري الذي على الامبراطور ان يؤديه طالماً نوّه بذلك
صرامة . فالقانون المدني الذي فُرج من وضعه في شهر فنتوز من العام ١٢ ، أقام على نتائج
مبدأ المساواة هذا ، نظاماً منهجياً . كل المواطنين سواء امام القانون . وكذلك املاكهم
ايضاً : فلم يعد هنالك عقارات نبيلة وعقارات فلاحين . فالدستور المعلن عام ١٢ ، يحظر ، من
جهة اخرى ، كما سنرى بعد قليل ، كل محاولة للعودة الى النظام الاقطاعي البائد . فالارض ،
أياً كان نوعها ، تأخذ تعريفها الصريح الحر ، تحت اسم مشترك ، هو الاملاك العقارية التي تؤلف
فئة واحدة . ومبدأ المساواة في الإرث ، هذا المبدأ الذي قام على المادة ٧٤٥ من القانون
المذكور ، جاء وضعه يكتمل النظام . فلم يعد من أثر ، في القانون الجديد لهذه الفوارق
الاجتماعية القديمة . الا ان الثورة النابوليونية اوجدت نوعاً من التفرق او التمييز بخلقها الطبقة
المنتصرة . فوسام الشرف *Légion d'honneur* الذي أنشئ في العام العاشر والذي تم الاحتفاظ
به في الدستور المعلن في العام ١٢ والذي فرض على حامله قسّم الولاء للثورة اي بالدفاع عن
قوانين الجمهورية وعن الممتلكات التي كرس ملكيتها والذي يتمتع بمحاربة كل محاولة يقصد منها
العودة للنظام الاقطاعي ، والسهر على تطبيق المساواة والحرية ، هذا الوسام سيصبح العلامة
الفارقة والشارة المميزة « لفرسان » الرتبة الجديدة . كل هذا شيء بسيط . وقد قام في العام
العاشر الى سنة ١٨٠٨ ، ارستوقراطية ظاهرة ، مفتوحة ، هي طبقة من النوابغ والمبدعين ،
هي حلية البورجوازي الاولى . في مقدمة هذه الطبقة افراد الاسرة الامبراطورية المالكة ،
الذين جعل منهم الدستور الذي صدر في العام ١٢ : امراء فرنسيين . وها نحن امام اصحاب
المراتب الكبرى في الامبراطورية الذين يُضفي عليهم الدستور القاباً طنانة هي من مخلفات
الاجيال الوسطى او العهد القديم بعد ان جدد من شبابها ونشاطها وصقلت من جديد . من
ذلك مثلاً : المنتخب الاعظم *Le Grand Electeur* (لقب جوزف بوناپرت) ورئيس مستشاري
الامبراطور (كمباساريس) ورئيس مستشاري الدولة (اوجين بوهارنيه) ، والخازن الاكبر
(لوبران) والكونستابل (لويس بوناپرت) والاميرال الاكبر (مورات) . ويليه مرتبة
كبار الضباط : المارشالية وكبار الموظفين المدنيين لدى البلاط . فتاثيران يصبح الحاجب
الاكبر ، وبرنييه : رئيس البّيّرة (*Le grand veneur*) . وما زلنا بعد في اول الطريق .

وستزداد حركة الترفيع البورجوازي وتتضخم مع الرسوم الصادر في غرة آذار ١٨٠٨ ، الذي انشأ مرتبة نبلاء البلاط ، وحلة هذه المراتب واصحابها ينعمون بها مدى الحياة ويمكن لهم توريثها لأولادهم. فأصحاب المقامات الكبرى يحملون هذا لقب امير وذلك ، لقب صاحب الجلالة ، وذلك عطوفة ، فابنهم البكر يحمل لقب دوق ، شريطة ان يكون الوالد قد ترك لابنه مبرة مدخولها ٢٠٠,٠٠٠ ليرة في السنة. وهناك عدد من الوزراء واعضاء مجلس الشيوخ ومستشارو دولة مدى الحياة ، كما ان هنالك اساقفة ورؤساء يحملون لقب كونت . فكبار القضاة والاساقفة يصبحون بارونات ، ومثل هذه الالقاء يمكن اعطاؤها للقواد وللحكام في المحافظات كما يمكن اعطاؤها ايضاً للمواطنين العاديين اذا ما قُيِّض لهم وأدوا خدمة كبرى للبلاد ، مكافأة لهم لما أتوا من جليل الاعمال. ويحق لهؤلاء النبلاء الجدد استخدام علائم الشرف والنبيل . ومرتبة الشرف التي عرفوا بها مدى الحياة ، يمكن توريثها لخلفائهم من بعدهم اذا ما أنشئت لهم مبرة تلبين قدراً وقيمة بتباين الرتبة التي يحملونها . فاللقب والاملاك المرتبطة بالمبرة يمكن توريثها لابن البكر في بعض الحالات المعينة ، وهو تدبير يرتبط بمشيئة الامبراطور وترخيصه وفقاً لأحكام الرسوم الصادر في اول آذار ١٨٠٨ . وبعض هذه الموارث مستعدي الحق العام. وهكذا نشأت في البلاد طبقة نبلاء جديدة ، على اسس بورجوازية تقوم على المنافسة والمزاومة الشريفة المبيلة على العمل والاقدام والمهارة التقنية - والطاعة ، هي ارستوقراطية وراثية مفتوحة . ولكن دون ان تتمتع بأية اعفاءات أو اية امتيازات ، ارستوقراطية ستحافظ عليها معاهدة عام ١٨١٤ .

ومختصر القول ، فالجتمتع المدني الذي قام ١٧٩١ ، لا يزال قائماً . كذلك بقي معمولاً بها الادارة البورجوازية للمجتمع الجديد ، وعن طريق تقنية الانتخابات ، عرفت البورجوازية ان تستأثر بكل السلطات ، كما عرفت ان تحافظ عليها بواسطة التعيين ، وهي وسيلة عرفت حكومة مركزية ثورية ان تستغلها على الوجه الامثل . ان سياسة كسب الانصار من جهة ، والميل الى الاكثار من حديثي النعمة ، هذا الميل الذي شاع بين الاسر القديمة ، من جهة اخرى ، عبثاً جعل لافراد العهد القديم ، في الادارة شأنًا اخذ دوماً بالازدياد ، وادخل الى قلب مجلس شورى الدولة أعضاء من بين قدامى اللاجئين الذين حملوا السلاح ضد وطنهم فرنساء امثال السادة «لاس كاس» وجلبرت دي فوازن ، أو قرَّب الى الحكم الرؤساء السابقين للجنة العفو والاسترحام ، أو عين في القضاء ممثلين قدامى للنيابة العامة ، أو وزع مطرانيات على اساقفة من العصاة المنشقين . فمجلس شورى الدولة بقي مع ذلك ، للثورة الدستورية ، الحصن الحريز الذي لم يمكن اقتحامه ، هذا الحصن الذي دافع عن الفتوحات الاجتماعية التي حققتها هذه الثورة ، وقام حول النظام الجديد بحراسة شديدة ، مبعداً عنه اليعقوبيين والملكيين الذي بقوا مصريين على نشوزهم . ان رجال عام ١٧٨٩ ، اعتنقوا الحركة بعد ان تخلقوا باخلاق العصر ، حتى رجال العام الثاني منهم الذين عادوا الى روح ١٧٨٩ ، بينهم مثلاً روديرر ورينيو دي سان جان دانجلي ، وبولاي دي

لامورت وديفرمون، وشبتال وبرون وثيبودو وثرهارد. وفي عام ١٨٠٦، عاد فدخل الحظيرة، مرلين، واضع القانون الخاص بالمشبوهين، وفي سنة ١٨١٠، المشترك بقتل الملك كينيت (وغيرهم كثيرون) . فمن اصل ١١٢ مستشاراً عملوا اعضاء في مجلس شورى الدولة، في الفترة الواقعة بين العام الثامن و عام ١٨١٤، كان ثلثهم اعضاء في المجالس والهيئات الثورية . ومعظم كبار الوزراء، هم من المنشأ ذاته او تعاونوا، على الاقل، مع الحكومات الثورية . ومعظم كيمباسيرس وتاليران وفوشيه ولوبران وشبتال وكارنو . وقد ضم اول فوج من المحافظين ١٣ محافظاً كانوا اعضاء في الجمعية التأسيسية، و١٦ في المجلس التشريعي، و١٩ في الكونفلسيون، و٥ في مجلس القدامى، و٢١ في مجلس المحسنة . ف « درويه ، اليعقوبي ومن اشد انصار بايوف يعين وكيل محافظ في سانت مانهولد . فاذا ما خطر لدرويه او لغيره من هؤلاء الناس ان يلعب لعبة اليعقوبين، او ان يجتمع خلال تمرسه بالوظيفة باي عدد من المرتدين، كبر او صغر، او باي من هؤلاء الرجال الذين لا ماضي لهم، فمثل هذا التصرف او المسلك لا يؤثر بشيء في جوهر الادارة الجديدة واتجاهها . فقد حل محل ادارة العهد القديم، حياة سياسية جديدة . والهيئة القضائية، تجدد القسم الاكبر منها، واكثر من ذلك الجيش ايضاً . فالاسقفية، كاللارشالية اصبحت وظيفة بوجوازية . لم تكن الاسقفية لتعد، في اعقاب المعاهدة المعقودة بين الدولة والكنيسة، سوى ١٦ اسقفاً من كانوا قبل ١٧٨٩ . ان اعيان الطبقة الجديدة الموجهة قوي جانبيهم اكثر فاكثر، في الاطر والملاكات العليا . فالبورجوازية هي التي تحكم بما تم لها من اطر وملاكات . فهي تحكم بواسطة القنصل الاول او الامبراطور . فالتجربة وحالة الحرب على جبهتين استبدلت سيطرتها بسيطرة مركزية، مباشرة، بسيطة، منتدبة، شخصية . فالذرائع تبدلت انما الهدف الاجتماعي بقي وحده قائماً .

ثالثاً — التدعيم الاقتصادي

لم يترك التدعيم الاقتصادي اي مجال للشك من هذا القبيل . فقد ثبت الدستور الصادر في العام الثامن من التقويم الثوري، الممتلكين للمقارات الوطنية، في املاكهم وممتلكاتهم الجديدة . كما ان القسم الامبراطوري، عام ١٢، اعلنها عالياً وبصورة مطلقة عدم الرجوع عن هذه البيوع اصلاً . ومجلس شورى القوانين اخذ يسهر من جهته على تطبيق الشرائع، ولا سيما في كل ما هو مضاد لسلطة الاسياد، وتطبيق قانون ١٧ تموز ١٧٩٣ تطبيقاً دقيقاً . وقد أكد انه يقف ضد الايجارات الدائمة . فالرسوم السيادية والاعشار التي ألغيت دونما اي تعويض ستبقى ملغاة الى الأبد، بالرغم من المداورات والذرائع غير القانونية التي يلجأ اليها بعض عاقدي هذه الايجارات، وبالرغم من ارتفاع سعر الايجار، بالنسبة للاسعار منذ الرجوع الى العملة الثابتة . فهو يصادر من جهة ثانية، لحساب البوجوازية، القسم الاكبر من المنافع التي ادت اليها العملة الثابتة . ان عملية انتقال الاملاك وإلغاء الرسوم اجرت تبديلاً كبيراً لا يقل بشيء عن ٢٠٪ من ايراد الاملاك

المقارنة الوطنية ، مما عاد على البورجوازية هنا بالقسم الأكبر من الأرباح ، مع العلم ان عدداً كبيراً من الفلاحين افاد هو الآخر من هذه الزيادة .

هنالك على العموم تعديلات هامة مصدرها هذه الروح تدابير تتناول حرية التصرف البورجوازية التي تطبع القرن التاسع عشر وتميزه بعميدة عن ضغط شعبي ، توطيداً للتدعيمات التي جرت في مجالي حرية التصرف وحرية المرور والانتقال . فقد استمر إلغاء النقابات الحرفية كما ان مجلس شورى القوانين بقي متصبلاً في موقفه من هذه القضية . الا انه ظهر في دنيا الاعمال شركات تحمل طابع الاحتكار . فقد صدر في ٢٨ نيفوز من العام الثامن قرار يقضي بإنشاء مصرف فرنسا ، اتخذ مقراراً له رئيسياً دير الاوراق الوطنى ، واعطي بموجب القرار الصادر في ٢٤ جرمينال من العام ١٢ الامتياز ، دون سواء ، بإصدار سندات لحامله وسندات عند النظر . كذلك عادت الى الظهور ، ابتداءً من العام ٨ ، شركات قانونية ، وصدرت في البلاد قوانين جديدة بشأن المناجم واستثمارها جاء صدورهما يقطع قطعاً باتاً لصالحها قضية استثمار المناجم ، هذه القضية القديمة التي كانت بين الشركات وبين الفلاحين اصحاب الاملاك . فقد نزع القانون الصادر عام ١٨١٠ ، عن مالك سطح الارض الافضلية التي اعترف له بها قانون عام ١٧٩١ باستثمار المناجم الواقعة في بطن الارض ، مفضلاً عليه الشركات الاستثمارية ، واخضع للقانون العام استثمار المناجم المفتوحة ، ولم يعين اي حدود كما لم يحدد اي اجل لهذه الاستثمارات . وهكذا اصبح المنجم ملكاً مستمراً قابل الانتقال ، وان بقي عملياً محتفظاً به للمشاريع الاستثمارية الكبرى . وقد احتفظ بالقانون الزراعي الصادر عام ١٧٩١ ، غير ان مشروع اصلاح الزراعي عام ١٨٠٨ كان يرمي لان يضع بأسرع ما يمكن ، حداً نهائياً لحق المرور وحق الرعي في المراعي المشاعية ، بينما تبنت مشروع قانون ١٨١٤ ، موقفاً وسطاً قريباً جداً بالفعل من الموقف الذي وقفته الجمعية الدستورية وقد تصلبت الدولة في موقفها عند مواجهتها لقضية اصحاب الاجور . فعقد العمل يعالجه القانون المدني في الفصل الخامس الخاص بالاستكراء ، اذ انه يميز بين استكراء الاشياء واستئجار الماشية ، ويخصص له مادتين ، منها المادة ١٧٨٠ التي تعترف ، كما يعترف القانون القديم ، بان صاحب العمل هو حري بالتصديق عند نشوب اختلاف بينه وبين الأخير حول معدل الاجر وكيفية الدفع ، وهو معدل حدد ٦٦ لاستئجار الاشياء و ٣٢ لاستئجار الماشية ، وما تبقى يعود امره في النهاية لاجراءات بوليسية ولقانون الجزاء الذي امتنع المشرع الثوري ، حتى الآن ، عن الخوض بشأنه . فقد نص قانون ٢٢ جرمينال من العام ١١ ، وقانون ٩ فريمير من العام ١٢ : على ان يوضح دفتر العمل الذي يوقعه مأمور البوليس ، اسم العامل ومهنته واسم رب العمل وصفته ، وتاريخ انتهاء عقد العمل . وباستطاعة صاحب العمل ان يحتفظ بدفتر العمل طوال مدة العقد ، كما يجب ان يشير الى المكان الذي يتجه اليه العامل عند انتهائه من العمل . فبدون تذكرة عمل لا يمكن تشغيله ، والا اعتبره القانون متشرداً . وقد احتفظ بقانون لاشابلييه ، بعد ان

مبحث ثقوية نصوصه بقانون ٢٢ جرمينال ، ولا سيما بالمادتين ٤١٤ ، و ٤١٦ من قانون الجزاء اللتين تشددان على النصوص السابقة . وامام الخطر المتساوي لاتحاد العمال ولاتحاد ارباب العمل ، قام نظام من الخطر غير المتساوي يختلف ولا شك عن النظام الذي كان قائماً قبل الثورة ، مما ينم عن عقلية متقاربة امام مشاكل العمل والعمال . ان اتحاد العمال كتحد ارباب المهن ، يقع تحت طائلة القانون انها الاتهام والقمع هما اقل قوة . هنالك عدم تساوي في الاتهام . فاتحاد اصحاب العمل لا يتعرض للجزاء «الا اذا رمى الى تخفيض الاجور بصورة تعسفية وغير عادلة» . واذا تدخل اتحاد العمال بغية رفع الاجور او بغية ادخال تعديلات على شروط العمل ، فمثل هذا التصرف قابل للجزاء والعقوبة في كلا الحالتين . ففي عدم تساوي في المنع ، يتعرض رب العمل للسجن من ٦ ايام الى شهر ، ولجزاء نقدي من ٢٠٠ الى ٣٠٠٠ فرنك . اما العامل فيتمتع بعقوبة سجن من ٥ سنوات مع استهدافه للبقاء تحت المراقبة من قبل دوائر البوليس العليا . ونرى في الواقع ان التساهل والقانون احياناً يحمي بعض النقابات المهنية : امثال غرفة البناء الاتحادية التي يحول اليها القضاة احياناً قضايا تحكيم للفصل فيها ، ولا سيما غرف التجارة التي عادت للظهور وللعمل بها وفقاً لقانون ٣ نيفوز من العام ١١ .

حرية الانتقال والرسوم المشتركة
حرية الانتقال بقيت هي القاعدة ، أقله في الداخل ، شريطة ألا تلحق اي اذى بنظام اميري جديد اعتمد اكثر فاكثر ، على ضريبة تصاعدية للاستهلاك . فقد اعاد القانون الصادر ، عام ٧ ، بعض الرسوم الخاصة بالدخولية ، وعرف هذا الرسم ازدهاراً جديداً في اعقاب ظهور القنصلية . والرسوم المشتركة التي فرضت عام ١٨٠٥ تناولت التبغ المستورد وورق اللعب والعربات ولا سيما المشروبات الكحولية التي فرض عليها القانون الصادر ، عام ١٨٠٦ رسماً عندما يجري بيعها بالجملة . والقانون ذاته فرض رسماً على الملح لدى خروجه من الملاحات . وطبيعة نظام الضريبة تختلف كلياً عن الرسم المفروض من قبل على الملح الذي جاء أخف بكثير . والضريبة على التبغ التي لم يكن يشعر احد بها لحقتها في السنين الاولى من عهد القنصلية ، انتهت بنظام الحكر على التبغ ، وهو نظام تميل به منذ عام ١٨١١ .

وبالرغم مما اتصف به نظام التبادل التجاري في الداخل ، من حرية اساسية ، فقد حرصت الحكومة هنا ، اكثر مما فعلته الحكومات في العهد القديم والجمعية التأسيسية ، كل الحرص ، على تأمين المواد الغذائية . فقد نظمت من العام ٨ الى العام ١١ ، مهنتي الخبازين والقصّابين او الجزارين . وعملًا بمنطوق المرسوم الصادر ، في ١٩-٢١ حزيران عام ١٧٩١ ، أعيد العمل برسم لطيف على الخبز وعلى اللحم ، في عدد كبير من المدن ، على اساس السعر الحس للحبوب والماشية . الا ان سعر الجملة بقي مراقباً ثم فرض عليه رسم عندما سجل ارتفاع الحبوب ، رقماً قياسياً ، عام ١٨١٢ ، وذلك بالاعتماد على سياسة تقوم على الشراء والخزن ، والاحصاء والمصادرة ، والمنع ، تكلفت في اواخر السنة بحد اقصى موقت . وتصدير الحبوب الذي حظّر

منذ عام ١٧٨٨ ، بقي معمولاً به مبدئياً خلال العهد النابوليوني . فالحرب والحصار البحري المضروب على البلاد خلخل التجارة الخارجية ، وهو امر لم تنزع له قط سياسة الحماية التي اخذ بها العهد الامبراطوري . فقد ارتفعت على العموم ، مع ذلك ، ارقام التجارة الدولية ، وكذلك ارقام التجارة الداخلية . وتحت تأثير ارتفاع سعر الذهب ظهر من جديد الازدهار المادي الذي ميز القرن الثامن عشر ، وبقي قائماً الى ان برزت الازمة الاقتصادية الكبرى ، عام ١٨١٠-١٨١٢ ، وحتى بعد ذلك ، بصورة متقطعة .

النتائج ان الاماني السياسية والاقتصادية التي اعربت عنها الامة ، عام ١٧٨٩ ، تحققت جزئياً . فالثورة النابوليونية كانت عدوة للثورة الدستورية ، لا نسخة حرفية لها . فقد عملت ، شأنها شأن افلاس سببه سوء الادارة ، على تضييقها وعلى تدعيمها ، في وقت واحد .

فهي ثورة شخصية ، مخطط لها ، تحمل طابع رجل يفتقر اساساً للقياس ، وطابع طاغية يحكم بانتصاراته المدوخة . ويلقى جانباً ، عند أول صعوبة يصادفها ، بكل الجهود المقطوعة ، انما هو طاغية متدرب من نوع معين يؤلف طبقة لوحده ، ويمثل للثورة التي قام بها . وهذه الثورة التي فصلت على قذته والتي قضت بها ضرورات الصراع أصبحت ثورة تجريبية واختبار ، وليس ثورة فكرية او نظرية ، يمكن تعريفها بالشعار التالي : مساواة ، سلطة وتقنية . والروح التي انطلقت في البلاد ، عام ١٧٨٩ ، انقطع هبوبها ، والحركة الدائمة حل محلها الحمود والجمود . والجهة التي راحت الثورة النابوليونية تناضل دونها ، جاءت نتيجة حركة ارتداد أكثر منها حركة انطلاق .

وامام النظام القديم صمد الامبراطور بواسطة الارادة الوطنية ، في كل المواقع الاستراتيجية الكبرى . فقد تحلى طوعاً واختياراً عن البعض . فالخط الذي وقف عنده ، يرسم شكلاً يثير الدهش . فقد عرف ان يحتفظ حتى النهاية ، بما قصد المحافظة عليه بكل عناد ، هذا الشيء الذي كان لا يزال بعد ، جراثيمه في القرن الثامن عشر . فالمنظمة القيمة التي اطلقتها الثورة البورجوازية ، تحمل طابع عدة عهود . فقد ولدت في الثورة ولكن ليس في الثورة وحدها . فقد تمنوها قبل ذلك بكثير ، وتحققت اثناء الثورة ، وجرى تدعيمها فيما بعد خلال هذا العهد الطويل من التجربة التي تمتد من سنة ١٨١٤ الى سنة ١٨١٥ .

في سلسلة الثورات المترابطة الحلقات هذه التي لا توجهها اية قوة منظمة مستقرة ، من طرف الى طرف آخر ، في هذا العالم المعقوي الذي قام على التوازنات المتعاقبة ، للتاريخ يحافظ ، كما يظهر لنا ، على وعوده : الصحيح يختلط على اقدار وانساب بالمرجح وبالتوقع .

الكتاب الثاني

العالم أمام الثورة الفرنسية والفتوحات النابوليونية

الفصل الأول

العالم في سنة ١٧٨٩

رئاسة أوروبا الأطلسية في أعقاب حرب الاستقلال الأميركية المحصر مجال النشاط الزاخر في العالم ، هذا النشاط الذي يعمل التاريخ ، في أوروبا . فلم يكن عدد سكان الولايات المتحدة ليتجاوز ، اذ ذاك ، أربعة ملايين نسمة بينما لم يكن عدد سكان مدينة فيلادلفيا وهي أكبر مدنها آنئذ واعمرها ليتجاوز ٤٥,٠٠٠ نسمة . والنشاط الأوروبي ، المحصر أساساً في مناطق أوروبا الغربية والوسطى حيث كان يقطن ثلاثة أرباع سكان القارة تقريباً ، مع العلم ان لا حدود « القلب » الأوروبي ولا حدود المجال الشرقي منها ، واضحة جلية ، فاهيك عن صعوبة المواصلات وقلة وسائلها التي كانت تضاعف من المساحات الفاصلة ، اذ كان يقتضي ثلاثة أسابيع لرسالة ترسل من فرنسا الى بولونيا . وكان أكثر الصحف انتشاراً اذ ذاك « كلر كور دي فرانس » و « الانباء الوطنية والادبية » التي كان يصدرها كاداً ، لم تكن تشر من الانباء وأخبار الاحداث ما يتعدى مداه مدينتي درسد وفيينا . وبالرغم من اتصالات فولتير وديدرو وغريم ، كانت روسيا القيصرية ، في عهد الامبراطورة كاترين الثانية ، تمثل في نظر الرأي العام « بلاد البرابرة » . فالأنباء الأجنبية التي كانت الصحافة تذييها عن الخارج تكاد لا تأتي على ذكرها الا لماماً . وهذه المناطق ، لم يكن مجموع سكانها ليتجاوز ٣٠ مليوناً أي بزيادة بضع ملايين لا غير عن سكان فرنسا .

فحدود أوروبا الناشطة كانت تقف ، في الشرق ، عند مقاطعتي الساكس والنمسا . فالغرب أقله ، لا يمتد نظره الى أبعد من ذلك ، بينما يتطلع الشرق الى هذا الغرب المثالي أي الى أوروبا

البحرية التي تطل على المحيط الاطلسي حيث يكتظ الناس ويحرصون على جمع المال والثروات . فالمقاطعات المتحدة والبلاد الواطية النمساوية ، تعد من ٤ - ٥ ملايين نسمة ، وانكلترا ١٥ مليوناً ، منهم ٥ ملايين في ايرلندا ، وفرنسا تعد من ٢٦ - ٢٧ مليوناً ، ويقرب عدد السكان في اسبانيا من عشرة ملايين ، بقطع النظر عن امبراطورية ضخمة من المستعمرات تترامي أطرافها بين سان فرنسيسكو شمالاً وبين مقاطعة بتغونيا في أقصى الأرجنتين، جنوباً، والبرتغال نفسه لا يمد أكثر من ثلاثة ملايين بينا هو يسيطر على البرازيل . فالولايات المتحدة وانكلترا وفرنسا تسيطر بمستعمراتها او بالاقطار المتجرة معها على ما تبقى من أقطار العالم . فكل ما يقع في المجال الاطلسي هذا لا يلبث ان يأخذ طابعاً عالمياً .

هذا الطابع يبدو قبل كل شيء اوروبياً ، ليس لأن الغرب الاوروبي هو قبلة الأنظار بل لما عليه هذه القارة الأوروبية من وحدة التركيب السياسي والاجتماعي ، لا تند عنه حتى انكلترا الالحد ما ، كما تبيننا ذلك بما جاء في القسم الأول من هذا الكتاب . فكل ما زحزح هذا التركيب او أدخل عليه ما يشوشه أو أحدث فيه رجّة ما تردد صداه في الاجزاء الاخرى .

١ - المباني الرئيسية

ان المدى الاقتصادي الطويل الذي عاد على فرنسا بالغننى والثروة ، خلال القرن الثامن عشر عمل على إغناء أوروبا أيضاً . فقد توزعت هذه الثروة في كل من فرنسا وبلدان أوروبا توزيعاً واسعاً مما أدى الى تغييرات وتطورات عظيمة ، مادية وروحية معاً . وقد حدثت هذه التغييرات بالرغم من استمرار الأنظمة القضائية القديمة .

وبالرغم من الاصلاحات التي تمت في ظل الاستبدادية المستنيرة ، فالنظام السياسي التقليدي عرف ان يحافظ على الطابع الذي يميزه ، فهو نظام ارستوقراطي دعامة الاولى للطغمان المستبد وعدم المساواة في كل ما يتصل بالامور المدنية . وهذا الطابع التقليدي القديم يبدو على أبرز صوره في هذه المقاطعات الواقعة الى الشرق من نهر الإلب . وقد جرى صورياً تكييفه في بعض البلدان المطلة على المحيط الاطلسي بينا يحاذر القلب الاوروبي كل تغيير ويحانب أي تطور . وتحت ستار من التنوع الظاهر بقيت النظم الملكية والاقطاعية قائمة في كل مكان ، ان لم نقل اشتدت او اصرها متانة بعض الاحيان .

لم يلبث مفهوم الدولة للنظام الملكي كما حدده بوسويه ان حل محل الاستبداد والارستوقراطية السلطة الاقطاعية . فالحق الالهي لا يطبق الا على الدولة في ما استقر من مفهومها : كل الملوك يملكون باسم الله العلي العظيم ، أي هؤلاء الذين يؤول اليهم الملك بالولادة أو حصلوا عليه بالانتخاب ، لأن كل موهبة صالحة تنحدر من لدنه وهو الذي « ينير كل مجلس » ، فيبدو الملك ، والحالة هذه ، مستودع السلطة الإلهية .

فقراراته كلها معصومة عن الغلط وفي الملك تتمثل الدولة وتنصهر . لها حاول الاستبداد المستنير ان يجعل هذه السلطة في خدمة المصلحة العامة او ان يسخرها لتحقيق نظرية نفعية ، فلن يغير هذا شيئاً من منطلقها الأصلي ، كما انه لا يس بشيء شمول هذه السلطة . فلها وحدها حق التشريع والادارة في البلاد . فمن آزرها أو عمل في خدمتها فقد قام بما انتدبته له . قد يفتر الملك لشخصية لامعة : فلن ينتقص هذا بشيء من جوهر الملك ومن النظم الملكية ولن يلحق بها أي وهن أو أي ضعف . ففي سنة ١٧٨٩ ، كان يتربع في دست الحكم ، في كل من الدانمارك والبرغفال وانكلترا وبروسيا ملوك أدنى من المستوى العادي . والثالث الذي تألف من شارل الرابع وماري لويز دي بارما وغودوي هو مضغة تلوكها بلاطات أوروبا وتحدث بها . الا ان الروابط السلالية بقيت متينة شديدة كما بقي قويا الاحترام للسلطة الملكية .

ومع ان الارستوقراطية تقف في وجه الملكية في كل من السويد وهنغاريا وأوروبا العثمانية ، ومع انها هي التي تستبد ببولونيا ، فهي تستخدم الاساليب ذاتها التي تستخدمها الملكية ، وترمي الى تحقيق الاهداف نفسها . فأصحاب السلطات من العلمانيين والاكليزيكيين يحتفظون بجاذب كبير من الحكم ممثلاً بمراقق الادارة والسلطة البلدية والسلطة القضائية في درجتها الاولى . وقد عرفت الملكية كيف تدمج كل هذه العناصر في انظمتها . فالاسباب مرتبطة بعضها ببعض . فبعد ان اخضعتهم الملكية ، لسيطرتها وانتظمتهم مراتب وهيآت فقد ألغوا أطر الدولة وملاكاتها الادارية ، وقاموا بالاعمال الادارية في المقاطعات والولايات والألوية والمدن . فهم مساعدون لملك الادارة ويؤمنون جباية الضرائب . وقامت في كل من انكلترا وهولندا ارستوقراطية هي في مجموعها لا عسكرية ولا اقطاعية ، تتولى ادارة الحكم في البلاد . فاللوردات وحدهم في البلاد يؤلفون مرتبة متميزة ، ويورثون رتبتهم لابنهم البكر . الا ان اصلهم او منشأهم لا يعود بعيداً ومنذ ان تولى ملوك آل تيودور الأول ، فقد تقلعت بينهم البورجوازية الثرية . وهنا ايضا ترتبط الاسباب بعضها ببعض .

والامتيازات المالية التي تمتعت بها طبقة النبلاء الاقطاعية تدعم في القارة هذه المصالح المشتركة . فالملك الذي هو اول النبلاء في المملكة غير قادر ان يضع حداً لهذه العوائد التي يفرضونها على الفلاحين ، ولهذه الاعفاءات التي يتمتعون بها دون ان يلحق اي اذى بسلطتها الخاصة . وهكذا أسبلت الامبراطورة كاترين الثانية على الارستوقراطية امتيازات ومنافع جديدة . اما جوزف الثاني الذي راح يتصدى لامتيازات النبلاء ، فقد أحدث البلبلة والاضطرابات في مملكته . وقد شدد كثيراً من قبضة السلطة الملكية بعد محاولته تحقيق المركزية الادارية في البلاد . والاستبدادية المستنيرة تبدو ، في الاصل ، ذريعة من الذرائع المالية التي تتسلح بها . فالعاهل الفيلسوف يحاول ان يستخلص من نتائج فلسفته ، نفعاً مادياً مباشراً . فهو يبحث عن المال اينما وجده ويفرض الضريبة على المواد الصالحة لغرض الضرائب ، اي على هذا الدخل العقاري الآخذ بالازدهار ، هذا الدخل الذي يعود الجانب الاكبر منه على

الارستوقراطية نفسها. فراح يقتبس عن الغرب التدابير والاجراءات التي تساعد على الانتفاع، الى اقصى حد، من هذه الاطر المعمول بها في البلاد، كما راح يوسع من نطاق املاك التاج بمصادره املاك الرهبانيات القانونية. وهذه الروح التجارية التي جاشت فيه دفعته على تحسين وسائل الاستغلال المعمول بها في البلاد، وعلى الحد من الاستيراد وعلى حماية بعض الصناعات الوطنية. وقد قصد من هذا كله تغذية خزينته وصندوق بيت المال بحيث يتمكن من مواجهة الابعاء المالية المتزايدة بعد ان عرف كيف يملأ الارستوقراطية ويصانعا تأميناً منه لمسامحتها. فالنبيل البروسياني لا يتنازل عن اي شيء من حقوقه وفردريك الثاني يتورع كثيراً عن التدخل في شؤون الاملاك السيادية. فالانظمة القديمة بقيت مرعية الجانب بصورة عامة. فلاستبدادية والارستوقراطية بقيتا مترابطتين. فالفلاحون وحدهم يقع عليهم غرم الحركات الاصلاحية بينما لا يعود ذلك على البورجوازية، كما يبدو، بكبير امر.

والنظام الإقطاعي هو اشد وطأة على أوروبا منه على فرنسا. فما تكاد
أرقاء الارض
ومتعهدون ومكترون
تعتبر نهر الايلب شرقاً حتى يطالعك استبداد ملكية النبلاء ونظام
رق الارض. فالفلاحون المتحررون او الاحرار يؤلفون شواذاً.
فالارض الروسية برمتها تعود للنبلاء وللقبصر الذي ربط املاك الكنيسة وواقفها باملاك التاج. وعندما ضمت الامبراطورة كاترين الثانية مقاطعة اوكرانيا الى ممتلكاتها، ازداد بذلك عدد أرقاء الارض التابعين لها ٨٠٠,٠٠٠ فألفوا بذلك أربعة أخماس سكان البلاد اجمع. فالرق يقع على الشخص اكثر مما يقع على الارض ويجعله في منزلة الحيوانات، ويجري بيعهم قطعاناً وجماعات، بيع البهائم في الاسواق التجارية ومعارض الحيوان. ليس ما يحميمهم ضد تعسف السيد ونزواته سوى مصلحته الآنية. فقد يسمح لهم احياناً بالعمل في الخارج شريطة ان يقاسمهم حصة من الاجر المدفوع لهم. صحيح ان فلاحي البلاط يتمتعون، من جهتهم بحرية اوسع نسبياً، الا انهم يخضعون كغيرهم من هؤلاء الأرقاء للسخرة ويدفعون مثلهم العوائد المترتبة عليهم. والوضع سواء في بولونيا حيث سبعة ملايين ونصف من أرقاء الارض يعملون في خدمة ١٠٠,٠٠٠ نبيل. اما في بروسيا وفي البلدان السكندنافية، فقد توارى رق الارض عن الانظار تقريباً، انما بقيت قائمة، مرعية الجانب، الامتيازات المترتبة على الإقطاع ذاته ولذا كان تطور ملكية الفلاحين بطيئاً للغاية، بعد ان أخضعت الملكية لقانون الفدية او الاستخلاص. فالنبيل هو وحده، من حيث المبدأ، سيد الارض. والمتعهد يبقى خاضعاً لارادة السيد الذي في مقدوره ان يفرض عليه عقوبات جسامية ويخضعه لرسوم وجزوات تأديبية. وهو يقوم بوظيفة قاضٍ في كل ما يتعلق بالمشاعات، ويراقب النشاط الصناعي في المقاطعة ويحاول فرض الحكر على تجارة الحبوب كما يحتكر صناعة الجعة والتقطير، وبيع السمك ويحتفظ لنفسه بحق القنص والصيد.

والعوائد العينية والنقدية، وتأدية الخدمة على انواعها والسخرة، ودفع الرسوم المترتبة على

البيع والشراء ، يزرع الفلاح تحتها في المملكة النمساوية ، بالرغم من الغاء رِق الأرض وتحرير الفلاحين رسمياً فيها ، اذ ان المعارضة التي قوبلت بها الاصلاحات التي قام بها جوزف الثاني ، من قبل النبلاء في هُنغاريا بالخاص ، جعلت من هذه الاجراءات الملكية ، حبراً على ورق ، فأدت هذه التدابير الى تسميم الوضع اكثر مما أدت الى تذليل المصاعب والمشكلات القائمة . ومع ذلك ، فتملك الفلاحين للأرض اخذ بالازدياد والنماء فتناول حتى تملك اراضي النبلاء ، انما على نسبة أقل مما نرى في الامبراطورية الجرمانية المقدسة وفي ايطاليا . فرق الأرض الذي يبغي معمولاً به في مقاطعتي البافيار وهانوفر بدا في وضع أخف ، كما راح الفلاحون يقتنون لهم ، على طول نهر الرين ، بعض الاملاك ، وأخذ مارغراف بادن يخفف من اعمال السخرة واعطى تسهيلات اكبر لافتداء العوائد المنروضة على اصحابها . وكذلك ، فلم تنترس المجتمعات الجبلية السويسرية كثيراً من الضغط الإقطاعي ، وحركة تحرير الفلاحين في مقاطعة السافوا اخذت تتطور ببطء هي ايضاً . كذلك توارى عن الانظار رِق الأرض في كل من مقاطعات سهل البو وتوسكانا وفي اسبانيا : فالنبلاء ورجال الاكليروس من مالكي الأرض يؤجرونها لمزارعين وللمرابمين . فهم في وضع أقل بؤساً مما هو عليه وضع المزارعين في مملكة الصقليتين وفي السلطنة العثمانية حيث تسيطر على أرض ممسكة ، جنداء ، اقطاعية جشعة لا ترحم ولا تشفق . واكثره الأرض لقاء بدل نقدي ، هي طريقة من طرق الاستئجار ، يُعمل بها في الأراضي الخصبة المعطاء فقط . ففي البلاد الواطية حيث قسم كبير من الأرض يعود للكنيسة ، اتسع الأخذ باكتراء الأرض . وفي انكلترا خصوصاً حيث الملكية يقع معظمها بين ايدي اللوردات والبورجوازيين ، فقد أوجد اتساع رقعة القطع الزراعية ، أوضاعاً مختلفة . وفي ايرلندا اُصار اصحاب الأرض المزارعين الى البؤس والفقر المدقع ، اذ ان ثلاثة ارباع السكان كانوا يمسون حفاة ، ومثل هذا الوضع البائس لم يكن ليخفى امره لدى المجتمع المستنير في اوروبا ، بعد ان أنّ الجميع وتعاملت تشكيكاتهم من فداحة الضرائب التي رزحوا تحتها .

وهكذا مهما كان وضع النظام الزراعي المعمول به في البلاد ، فالمجتمع البشري كان يعمل بالاكثَر على استثمار الفلاح للأرض . فرق الأرض مشكلة حادة عانت منها اوروبا جمعاء ، وفي كل الاقطار الاوروبية كانت الرسوم السيادية والعوائد المضروبة ، تجبى دوناً رحمة . والنتيجة الثابتة هي ان المحاولات التي استهدفت الاصلاح والتخفيف من حدة وحرافة الاوضاع القائمة والتي لم تحل ابدأ من مقابل والتي وقع معظمها على الفلاحين ، كانت بمثابة طرح قضية الواقع السيادي على بساط البحث .

فالفلاح حق المتحرر منه يبدو وكأنه أعزل من السلاح ، لا يبدي ولا نحو الملكية المركزية يعبد امام طغيان « اسباب الأرض » . فالاملاك الكبيرة تؤلف النظام المستبد بالريف . والطريقة المتبعة في استثمار الأرض واستغلالها ، تحمل مالك الأرض على طلب المزيد من العمل والربح ، ولذا اتجه استثمار الأرض اكثر فاكثر نحو شكل رأسمالي . واعتبار

امكانية زيادة الدخل هو الذي يفصل في نهاية الامر : فالنظرة النفعية هي التي تشيل في النهاية على النظرة الاجتماعية او الانسانية . ففي اوربا الغربية غلبت رقعة المروج على رقعة الاراضي التي كانت تزرع من قبل ، والحنطة اخذت مقاديرها تتضاءل بالنسبة للزراعة التي امتصت عدداً اقل من اليد العاملة . وعلى عكس ذلك اصبحت الاراضي الزراعية في الشرق ، تعطي كميات اكبر من الحبوب . وازداد عدد من لا املاك لهم اكثر فاكثراً . ففي ايرلندا وحدها اكثر من مليون عامل نصفهم فقط يعمل باستمرار طوال السنة . وفي انكلترا والمقاطعات البلجيكية يطلب الشغل أو دم من العمل في الصناعة ، اما في المقاطعات والبلدان المطلة على البحر المتوسط فقد زاحوا يردفون صفوف المستعطين فازداد بالتالي الوضع حرجاً وسوءاً من جراء التفاوت الاجتماعي الصارخ ومن انخفاض معدل الملكية لدى الفلاحين او المتأني عن الحركة الديموغرافية وازدياد حركة السكان ازدياداً سريعاً لا يرحم . ويحق لنا ان نقدر ان عدد سكان اوربا الوسطى ارتفع هو ايضاً بمعدل الثلث ، خلال الربع الأخير من القرن الثامن عشر . وبالرغم من ارتفاع معدل الوفيات في روسيا ، فقد كان عدد السكان فيها يزداد بنسبة ٢٠٠,٠٠٠ في السنة . كذلك تضاعف عدد السكان في اسبانيا وفي البلاد الواطية والجزر البريطانية ، خلال هذه الفترة الواقعة بين ١٧٠٠ و ١٧٨٩ وقد بدا بؤس الفلاحين ، في اواخر القرن الثامن عشر ، اكثر انتشاراً واكثر اتساعاً . وكثيراً ما قاموا بانتفاضات ثورية طلباً للتحرر الا ان ثورتهم هذه امكن كبها بسرعة . فمثل هذه الحركات لا تتمخض بعد الا برئيس ضعيف جداً من الوعي الطبقي . ولكي تولد ثورات الفلاحين قضية سياسية كان لا بد من مؤازرة الأطر المتحررة لها ومن ثورة عارمة تقوم على مقربة منهم .

٢- البورجوازية والرأسمالية

ها هي البورجوازية تستبطر شأنها وتزداد عدداً وقوة ، في كل ادمار المدن الصناعية والتجارية مكان ، كما تبرز نهضتها الاجتماعية في كل مكان بالرغم مما تصادفه نهضتها هذه من صماب وعراقيل تثيرها النظم القضائية . فاذا ما تطورت هذه البورجوازية وبيدأ في الاقطار الانكلوسكسونية ، فهي تلاقى في القارة ، متاعب عديدة . وبالرغم من بعض التنازلات ، بقيت اللامساواة المدنية القاعدة المعمول بها . فالنظام الاقطاعي ، والوضع القانوني للملكية والسلطة السياسية التي تتمتع بها طبقة النبلاء ، كل ذلك وما اليه حد كثيراً من اطباعها ومن الاهداف التي ترتسمها . وهؤلاء النبلاء يقطعون الطريق على كل من يزوم الوصول الى المراكز العالية أو يطمح اليها . فسكان المدن يبقون ، على الغالب ، دونما شك بذلك ، مقتصرين على نسبة طفيفة . والتطور الذي اخذوا باسبابه انما مصدره هذا النشاط التجاري والصناعي الذي اخذت المدن باسبابه ، ان دلّ على شيء فعلى ما تتمتع به من نفوذ « بورجوازي » هو في ابان نشاطه . ومع ذلك فالمدن الكبرى تبقى نادرة جداً الى الشرق من نهر الرين . ففينا تمد ،

اذ ذاك ، أقل من ٢٥٠ ألف نسمة ، أي أقل من نصف سكان باريس ، في تلك المدة . وليس في برلين ما يوازي ربع هذا العدد . ففي بولونيا ، مدينة فرسوفيا وحدها تعد ١٠٠،٠٠٠ نسمة ، وروسيا لا تعرف سوى مركزين هامين : هما موسكو وبطرسبورغ ، وكلاهما بنسبة فيينا من حيث عدد السكان . والمدن الحرة الواحدة والخمسون القائمة في الامبراطورية الجرمانية المقدسة لا تعد مجتمعة أكثر من ٥٠٠،٠٠٠ نسمة ، الا ان مدينة هامبورغ وحدها يزيد عدد سكانها على ١٣٠ ألف نسمة ، أي ما يعادل مجموع سكان مدن فرنسا وانكلترا معا في المقاطعات . اما على الساحل الاطلسي ، فقد ادى النشاط التجاري الذي زخرت به المدن البحرية ، الى ازدياد عدد السكان فيها . فلندن تاهزت المليون ، وامستردام تعد ٢٠٠ ألف . ويتجاوز عدد سكان كل من مدن روتردام وبروكسل وانفرس وغاند وليمين الخمسين ألفا . وفي الجنوب بزّت لشبونة بعدد سكانها مدينة مدريد ، بينما تجاوز عدد سكان مدينة برشلونة بكثير الـ ١٠٠،٠٠٠ نسمة . فالماضي يفسر لنا اكثر من الحاضر الطاقة الكامنة في المدن الإيطالية : هنالك ستة مدن كبيرة تعد الواحدة اكثر من ١٠٠،٠٠٠ وستة مدن أخرى يتراوح عدد سكان الواحدة منها بين ٥٠،٠٠٠ و ١٠٠،٠٠٠ والازدهار العظيم الذي سجلته الحركة التجارية في هذا العصر ساعدت الى حد بعيد على تكوين مزيج من الطبقات الوسطى قام مقام البورجوازية .

فالازدهار التجاري والاقتصادي يفسر لنا ، الى حد بعيد ، ازدهار المدن وتطورها المساعد . فالازدهار الاقتصادي الخارجي والارتفاع الدولي للأسعار ، واتساع الاسواق التجارية امام حركة الاستهلاك المتزايدة ، والنزعة نحو الحرية التجارية أدت ، بعد فترة من التردد ، الى احداث بعض الامر على سياسة الدول التجارية . فمن انكلترا الى روسيا ، اخذت حركة المقايضات التجارية تنمو وتتطور باستمرار ، فارتفعت الى ثلاثة اضعافها خلال القرن في الاولى ، وارتفعت اكثر من ذلك ايضا نسبياً في ما يتعلق بالثانية . فما من شك قط ان مثل هذا التطور المحسوس حصل في مجال التجارة الداخلية والصناعة ، ونشطت الحركة نشاطاً محموداً بتأثير من العوامل ذاتها . فالنجاحات التي سجلها الانكليز في هذا المجال يعرفها الجميع ، الا انها لنجاحات يجب الاتكساف ما تم من امثالها في البلدان الاخرى . وانشئت افران تعمل على الفحم لتشغيل معامل الحديد على طول مدى نهري السامبر والموز ، في مدن شارلوا وليمين ، مع العلم ان جوف الارياض الفلمنكية كان يرتكض لكثرة ما قام فيها من معامل النسيج . فقاطعة وايس تعد اكثر من ٤٠،٠٠٠ من الحاكة واكثر من ٢٠٠،٠٠٠ من مغازل القطن . وأخذت معامل الاجواخ في فرفبيه ومعامل الدانتيل في مالين تستعين بعدد كبير من العمال تأخذهم من بين الفلاحين وتدفق لهم اجوراً لا ترد عنهم غائلة الجوع . وعلى عكس هذا كان الوضع في الشرق . فالفلاح ، ولو حراً ، لا ينعم بحرية صناعية أو تجارية . فكم بالحري من كان رقيق الارض ؟ فرق الارض في روسيا يشجع ، مع ذلك ، على الاخذ ببعض المشروعات الاستثمارية : حكومية كانت أم خاصة بالنبله . فصناعة الحديد التي تركزت في الاورال تعود لهم ، وقد زاد انتاجها عام

١٧٨٩ على التاج فرنسا من الحديد . الا ان البورجوازية تعاني كثيراً من المصاعب والمراقيل التي يُثيرها امامها النظام الاقطاعي . فالفلاحون الاحرار وأرقاء الارض الذين يعملون على اساس مقاسمة اجورهم مع اسيادهم لا يفون بالحاجة قط ، ولذا فلن يلبث المصنع ان ينشئ له فرعاً في الريف ليفيد من اليد النسائية العاملة ، وليس اغرب من ان تعرف كيف افادت مختلف الفئات الاجتماعية من حركة الازدهار الاقتصادي هذه . والثابت هو ان معظم هذه المنافع والارباح كانت تذهب للمتعهدين ، كباراً وصغاراً ، وبورجوازيين واحيائاً من النبلاء ، فتحدث بينهم تطوراً بطيئاً لا يلبث ان يترك اثره الظاهر على نمط الحياة وطرق التفكير في المجتمع ، على نحو ما تم في انكلترا وفرنسا .

وقد مر ولا شك ، هذا الازدهار ، من وقت الى آخر في ازمات تركت مضاعفاتها على المجتمع ، واقامت ارباب العمل ضد اصحاب الاجور . ان ١٤٪ من سكان المدن في انكلترا كانوا عيالاً على صندوق الصدقات ومبرات الاحسان ، عام ١٧٨٩ ، وكنا نرى الحاقة في فرفيه يناضلون في تلك السنة بالذات ، في سبيل الحصول على زيادة لمحة واحدة عن كل ذراع قماش ينتجون .

غير ان موضوع الخلاف الاكبر كان في غير هذا المجال ، وسواء أكان خفياً الحائز الثوري أو مكشوفاً ، فقد قام على الاخص ، بين البورجوازية والارستوقراطية فانتصبت الواحدة منها في وجه الاخرى . فقد شكلت حرية الصحافة سلاحاً جديداً في يد الاولى ، في كل من الدانمارك وبروسيا . صحيح ان فردريك غليوم الثاني عاد عن محاولة الاصلاح التي قام بها ، فأمر في كانون الاول عام ١٧٨٨ ، باخضاع كل مطبوعة أو نشرة تصدر في البلاد ، لمراقبة مسبقة من قبل لجنة حكومية . الا ان أية نشرة مُنعت عن الظهور في برلين مثلاً كان لها ملء الحرية في فرانكفورت .

وليس ما يضير قط ان يبقى قائماً في المانيا امير صغير وبلاطه المتواضع ، أو اسقف ما مع كهنة أو أية بلدية من البلديات . فالقرن الثامن عشر قد زرع في النفوس خمير الثورة . فالوعي الوطني يهد الطريق امام بحث ماضي الامبراطورية المجيد . وهما هي المقاطعات السويسرية واطاليا تتحسنان عميقاً وجوب تحقيق وحدتها .

فالنار تحمى الرماد حتى في الجانب الآخر من المحيط الاطلسي ، في الطرف الآخر من العالم الابيض ، في اميركا اللاتينية التي انتظمها على شاكلة اوروبا ، سلك واحد من الازدهار الشامل ، ولا سيما المستعمرات الاسبانية منها . فالى قبضة الوطن الام الشديدة الوطأة من الوجهة الادارية والتجارية ، أضف سلطة الكنيسة المتفطرة وغناها المفرط . ليعُمد من يشاء للقسم الاول من هذا الكتاب لير كيف انتصبت مطالب الموظفين ورجال الكليروس التعسفية ضد « بورجوازية » قوامها التجار والخلاسيون والمزارعون الذين ابتدأوا يكافحون في سبيل عيش

أكرم ، من نحو عشر سنوات ، فتهدف من وراء صراعها هذا الى خلع النير الاسباني الثقيل عن اكتافها ، ليس رغبة منها في تحرير ابناء البلاد المستعبدين والزواج الأرقاء ، بل طمعاً في الاستيلاء على مقاليد الحكم في البلاد . فلم تلبث ان قامت ثورات في كل من الشيلي وغرناطة الجديدة . وأقبل الناس يقرأون بلهفة «العقد الاجتماعي» ، «لروسو» و «البيان الاقتصادي» الذي وضعه «كسنائي» ، و «بحث المشاعر» لكوندياك . وميراندا يحتفظ بهذه الكتب في خزائنه الخاصة . فراح بوليفار وسان مارتين يلتهمانها . كذلك رغب سكان البرازيل في خلع نير البرتغال عن اعناقهم . فقد التقى احدهم المدعو مايا في مدينة نيم ، من اعمال فرنسا ، عام ١٧٨٧ ، يجفرون الفرجيني بعد ان كان استقر منه الرأي ، على ان يكسب عطف الولايات المتحدة الاميركية لمساعدتها على استقلال بلاده .

في كل مكان نرى البورجوازية أو ما يقوم مقامها تشرئب باعناقها وانظارها نحو البلدان الانكلوسكسونية مدفوعة الى ذلك بالآمال المعسولة .

٣ - السراب الانكلوسكسوني

تجري في كل مكان بكل ارتياح ، المفاضلة بين الدول ذات قوة الارستوقراطية البريطانية النظام الاستبدادي وانكلترا . فالمجتمع «المستنير» نظر الى انكلترا نظره الى الرائدة ، وحلله ان يرى في نظامها الدليل القاطع على تأثير المبادئ والنظريات الفلسفية . فالأمة الانكليزية قائمة بالفعل ، ولها حياتها السياسية الخاصة . ومثل هذه الحياة لم تتوفر بعد للفرنسيين ، كما تنعم بنظام تمثيلي وتقاليد مشبعة بالحرية . ومع ذلك فالسلطة فيها هي في قبضة أقلية . أما المجتمع الانكليزي فاشبه ما يكون حقل اختبار وتجربة ، ومجالاً تجارياً واسعاً .

في هذه المملكة الدستورية ، العرف وحده هو القسطاس الذي يضبط الحقوق الخاصة بالملك وبالبرلمان . فليس من نص دستوري يبين الحدود ويقيم السدود ، والملك جورج الثالث يعلنها عالياً بأنه «يرغب في ان يكون هو نفسه رئيس وزرائه» . فهو الى جانب حزب المحافظين الذين يحترمون ارادته حتى ولو تعارضت مع اهداف مجلس العموم ، هذا المجلس الذي لا يمثل بالفعل سوى قسم ضئيل من الشعب الانكليزي . فحق الاقتراع هو امتياز وقف اصلاً على كبار مالكي العقارات من اراض ومنازل . فالبلاد برمتها لا تعد أكثر من ٤٥٠,٠٠٠ مقترح ، فالبورجوازيون اصحاب المهن والمزارعون الاثرياء يؤلفون ثوابع لاصحاب الاراضي الاغنياء الذين يتقاسمون فيما بينهم المقاعد في مجلس العموم . فالخريطة الانتخابية التي لم يدخل عليها أي تعديل منذ بضعة اجيال ، لا تتفق بشيء مع التوزيع الحالي للسكان في انكلترا اليوم . فالمدن المنحطة *Bourgs pourris* ومدن الجيب (*Bourgs de poche*) التي لا تزال مراكز رئيسية للانتخابات بالرغم من الحطاط شأنها ، تبعث في النفس الشك . ان وظيفة النائب العام تشري وتباع ، ومنها

لا يقل قط عن ٢٥٤٠٠٠ فرنك ذهب . والثابت ان ثلثي اعضاء مجلس العموم يُعرفون قبل اوان الانتخابات ، بعد ان تفرض الحكومة وكبار الملاكين إرادتهم على الناخبين الذين يقترحون وفقاً لسجل مفتوح . فالطبقات الاجتماعية الواحدة تؤمن لنفسها ادارة المقاطعات والراعيات وادارة البوليس والعدل وجباية الضرائب . وبالرغم من الاصلاحات التي قسام بها وليس بت ، لا تزال تسيطر على البلاد جباية مالية بالية يضاف اليها رسم خاص بالكنيسة الانغليكانية يجبي من جميع اطراف البلاد ، من اتباع الكنيسة المسيحية في اسكتلندا ، ومن الكاثوليك الارلنديين الذين 'حظّر عليهم القيام براسم عبادتهم . فالدولة بقيت مذهبية في الصميم ، والمشاجرات الدينية كانت تسم العلاقات الاجتماعية ، فالتسامح الديني ليس بالفعل سوى كلمة جوفاء ، كما هي الحال تماماً مع الحريات العامة . فحق تأليف الجمعيات مع انه حق معترف به رسمياً ، لا يطبق على اتحادات العمال . وحرية العمل هي حرية محدودة في بعض الحالات بمجرد الاضطرار لقبول العمل وفقاً للاجر الذي يحدده القانون . فالمعوزون الذين يترقب على الراعية أو الخورانية إعالتهم ، يمكن ابعادهم عن اولادهم وارغامهم على القيام باعمال السخرة . فالطبقات المدممة هي بالفعل خارج الحق العام . هنالك قانون وحشي يعاقب على الجرائم التي تجر اليها الحاجة والفاقة . ان سرقة احدهم ما يزيد على ١٢ نحاسة من جيب جساره تستوجب عقوبة الموت . والنساء كالرجال هن عرضة لعقوبات الجلد والتشهير .

ومع ذلك ، فهذه التجاوزات نفسها تساعد على تكوين الرأي العام ، هذا الرأي الذي تعبر عنه النوادي والذي يعبر فيها عن مطالبه ومتطلباته . فالحركة الراديكالية التي ظهرت عام ١٧٨٠ ، خلال حرب الاستقلال الاميركي جاءت رجع صدى لهذا الرأي العام . من خطبائها المشهورين . Price و Priestley وتوماس باين الذين وقموا تحت تأثير افكار روسو السياسية ، وراحوا يطالبون بالزيد من « الحرية والمساواة والاخاء » . فحرية الصحافة اخذت تهب بهم الى الاكثار من اكتساب الانصار ، فاستعملوا افانينها على نطاق واسع .

فالمبادئ التي علموا وعملوا بها نراها محترمة ومرعية الجانب في الجمهورية الاميركية . فكل ولاية من الولايات الثلاث عشر لها دستورها المكتوب يسبقه اعلان رسمي لحقوق الانسان الطبيعية التي هي اساس العقد الاجتماعي . فالسلطات يُفصل بين بعضها البعض كما ان حدود السلطة التنفيذية فيها جاءت واضحة جلية . فباستثناء ولاية بنسلفانيا ، يقوم في كل ولاية ، كما هي الحال في انكلترا ، مجلسان . الا ان حق الاقتراع بقي محصوراً بملكية الارض ، والشروط الموضوعية لمن يحق لهم ان ينتخبوا تحدد من ذاتها الهيئة السياسية : يجب على كل من يرشح نفسه للانتخابات ان يكون له من الاملاك ما قيمته ٢٠٠٠ ليرة انكليزية بحيث يحق له ترشيح نفسه لمجلس الشيوخ في ولاية كارولينا الجنوبية . فالحكومة الاتحادية تبدو ضعيفة حيال الولايات التي تتمتع ببله سيادتها . فقد توصلا الى تأمين توازن بين سلطات مجلس الكونغرس ورئيس البلاد الذي يحسم رغبات الولايات . فهو بالنسبة لكل ولاية

رئيس الوزراء لكل منها . فالحكومة تعود بالفعل لأقلية من المزارعين من ولاية فرجينيا من اصل انكلوسكسون ومن المذهب البيوريتاني . فمعجز الحكومة المركزية يُغضب الجمهوريين ، ومعارضتها تكاد لا تبرز لها صورة ، اذ باستطاعة اي فرد كان ان يحرب حظه في هذه الارض الجديدة التي لا ماضي لها . فليس من عائق يقف في وجه حرية الصحافة او حرية العمل ، او يحد من حق الاجتماع وتأليف الجمعيات ، الا ان الدساتير التي وضعها البيض لهم ولابنائهم ، دون سواهم ، تتجاهل في المجتمع المدني ، جماعة الملونين . فليس من يُطالب ، في اي من ولايات الاتحاد ، بإلغاء الرق وأوضاع الزواج تبقى حيث وضعها وكيف تركها عهد الاستعمار الاستعماري .

وهكذا يبدو واضحا سبق الانكلوسكسون لاوروبا القارة وتقدمهم عليها . فالأوهام المتناقلة والحقائق الواقعية تسهم جميعا في تكوين قوة الجذب هذه التي يتمتعون بها في الخارج . فالكل يرى فيهم اول من خلق مجتمعا اقرب من اي مجتمع آخر ، الى الحرية والمساواة والمدنية تتولى الحكم فيه طبقات البورجوازية العليا والوسطى . فالاغراء الذي تمثله الثورة الانكليزية واحسن منها الثورة الاميركية ، يبقى قويا .

ولكن ها هي فرنسا ، فرنسا التي أطلقت « الثورة الفكرية » والتي عبرت بمثل هذا الوضوح عن فكر العصر وروحه ، تعلن ثورة جديدة ، تعالج على المكشوف بصورة علنية و اكثر من اي ثورة اخرى ، المشكلات الكبرى التي تقضّ اوروبا وتمضّتها . فكل مشاكل فرنسا الزراعية ، لمجدها في الخارج ، اكثر عدة ، ولا سيما بنسبة غير متساوية ، مشكلة بورجوازية ، متصاعدة ، فامية ، تزخر بالتطور المادي والروحي وتتخبط في خضمّ من الموجبات المدنية ، في مجتمع يحاول ان يعيش .

فبين المجتمع القديم المبني على الطبقات ، والمجتمع الجديد الذي انبثق عن الثورة الفرنسية ، سيظل على الدنيا صراع يلف العالم بأسره ، الى عام ١٨١٥ ، ويستأثر بتاريخ العالم .

الفصل الثاني

الثورة الفرنسية والعالم

(١٧٨٩ - ١٨٠٢)

أولاً - عدوى الثورة الفرنسية

انضم المجتمع المستنير فالجرائد والمنشورات الثورية لقيت في جميع أنحاء أوروبا وأرجائها ، معلقين وشارحين يتناولون تطوراتها بالرضى واليمن بينما تعمل مدينة ستراسبورغ على نشر هذه المطبوعات السرية التي كانت تقذف بها المطابع السرية وتؤمن نشرها وتوزيعها في الشرق . وتحصر الجرائد الأجنبية على نشر أخبار فرنسا بانتظام كلي . واخذت غازيتا فرصوا تنشر في أعدادها المتوالية ، ابتداءً من ٢٣ أيار ١٧٨٩ ، رسالة يبعث بها مراسلها من فرساي . فجريدة الاتحاد والحرية كانت تصدر ، في باريس ، بالفرنسية والانكليزية . ومما لا شك فيه فقط ان المحافل الماسونية قامت بدعوة عريضة للثورة . فبونفيل ، احد اعضاء محفل النادي الاجتماعي ، حرص على ان يبعث بملزمة من الرسائل للمستنيرين في البافير ، كما ان محافل سافوي الاسكتلندية كانت تتلقى كلمة السر من مدينة ليون . وفي سنة ١٧٩٠ ، ترجمت وثيقة اعلان حقوق الانسان الى عدة لغات واصبحت بذلك رفيق الروح المتحررة التقدمية التي كانت تهب على أوروبا جمعاء ، حتى في اسبانيا نفسها حيث عين ديوان التفتيش اليقظة لم تكن لتغفل لحظة ، وحيث لقيت مبادئ الثورة عند منطلقها ، ترحيباً حاراً ، بالرغم من ملاحقة هذا الديوان لاسرار الفكر وتحرياته الدقيقة لهم .

فها هم السياح وه حجاج الحرية يتوافدون على فرنسا من كل فج و صوب ، فقد قدم من المانيا الى فرساي فورستر والملاك الكبير غليوم دي مبولدت ، ومن انكلترا : الشاعر وردسورث ، والهامي الحر التفكير أرسكين ، وبيفوت من فرقة الكويكرز ، الذي سيصبح فيها بعد الورد كستلرغ ، والامير الروسي الشاب ستروغانوف الذي سيتولى مهمة تهذيب رومة *Rome* ،

عضو مجلس الامة في المستقبل، والذي وقّش سجل التشريعات باسم مستعار هو سكرتير جمعية لعبة التنس، وحضر مراسم احتفالات الذكرى الاولى للقسّم المشهور. وقد استقبلت النوادي والجمعية التشريعية، بكل ترحاب الاجانب القادمين الى باريس. والبارون البروسياني غلوتز تمنى ملتصاً ان يحضر التحالف على رأس وفد كبير من مختلف الاجناس والقوميات، فيه التركي والايراني، وذلك بغية الاحتفال بطلائع حلف عام. وطلب مثل هذا الشرف توماس باين وغيره من الرعايا الاميركيين.

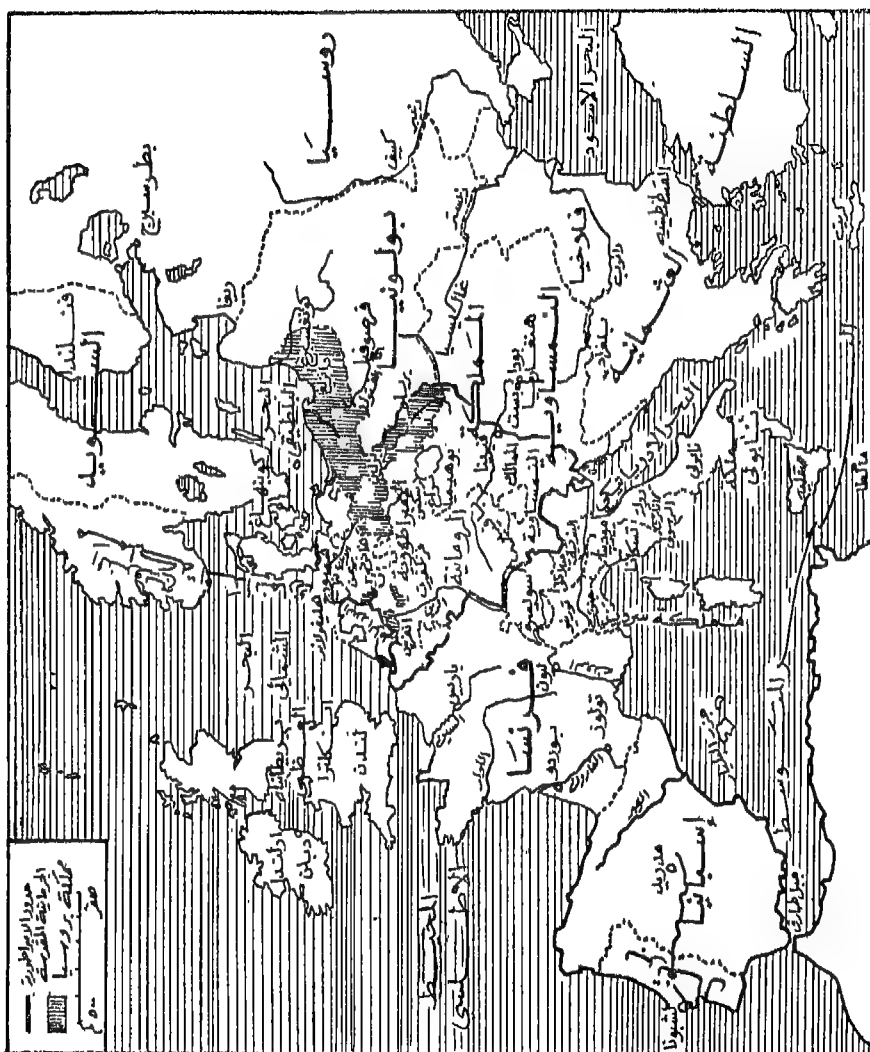
فأخبار فرنسا والمشاهد الصادرة عنها تضع في الرتبة الاولى من الاهتمام، المشكلات المشتركة بين جميع الشعوب. «ان مجهوداً رائعاً في سبيل الانسانية جمعاء» تنهض به فرنسا. فقد رأى «كنت» في هذا العمل «تطبيقاً للمقد الاجتماعي» كما رأى فيه «فخّخت» تأكيداً جديداً للكرامة الانسانية. وسيقوم غوته بعد ذلك، بتقييم اهمية السنين التي عاشها كما صرح بذلك، على لسان القاضي الاجنبي في اللشيد السادس من كتابه: هرمان ودوروتيه، حيث يقول بأنه «شعر قلبه يكبر في صدره»، وبارت دماً اكثر نقاءً فاض على هذا الصدر المتحرر عندما أطلت بوارد هذه الشمس المشرقة وعندما اخذ الناس يتحدثون عن هذه الحقوق المشتركة بين الجميع وعن الحرية المسكورة والمساواة الفائقة الوصف. كذلك لجّد في ايطاليا بيترو فرّي «وكان نور باريس يُضيء وطنه»، وراح فريق من مواطني بولونيا، امثال ستانسلاس انازتش وجوليان نيمنتش ببحثون فيما بينهم القضايا الاقتصادية والاجتماعية، كما انث اليوناني ريفاس فلستنسليس يستخلص من مبدأ سيادة الشعوب العناصر التي عليها بنى نظرية القومية. وثيقة اعلان حقوق الانسان تجد طريقها الى الخارج فتتغلغل بسرعة في جميع ارجاء اميركا اللاتينية بعد ان نقلها فارينو وتم نشرها على يد المهندس الهندي أسكوينخو بالتعاون مع ميراندا واليسوعي السابق بابلو فسكاردو إي غوسمان الذي عرفت «رسائله الى الاسبان الاميركيين» رواجاً عظيماً. وشقيق الكونت ليليه الذي كان يعمل ضابطاً في صفوف الجيش الاسباني، يترجم في مقرّه في بونس ايرس «صفحة تروي آخر اخبار باريس»، وهي وثيقة كان لها رواج عظيم في داخل البلاد. وراح احد شعراء البرازيل يقترح على بلاده ان تتخذ من فرنسا اسيناً لها، كما ان تيرادنتس راح يعلن في صحيفة *Minas Geraes* المبادئ التي نودي بها عام ١٧٨٩.

أخذت الاضطرابات تظهر عند جيراننا الاقربين وتمتد فيما بينهم،
أولى الانتفاضات :
فها هي مدينة أفينيون، آخر مركز للبابوات في فرنسا، تزدل
ثورات برابانت ولييج
سلطة البابا وتطلب في ١١ حزيران ١٧٨٩، انضمامها الى فرنسا.
كذلك ارتفع كل اثر للنظام الاقطاعي من المقاطعات العائدة لامراء الامبراطورية الجرمانية
المقدسة في الازراس، وقامت اضطرابات في مدينة مونبليار. اما في بلجيكا، فقد كان سبق
لمندوبي الإيالات المتحدة ان نادوا بالعصيان وقاموا بالاضطرابات قبل نشوب الثورة الفرنسية.
ففي كانون الثاني ١٧٨٩، رفض ممثلو ولاية هاينو التصويت على الاعتمادات التي تطالب بها

النمسا ، فحسروا بذلك الامتيازات التي كانوا يتمتعون بها . وهام ممثلو ولاية برابانت ينهجون نهجهم في حزيان من تلك السنة . وقد اقسم الامبراطور جوزف الثاني يميناً مغلفة بالدفاع عن امتيازاته ، فراح الاهلون ينادون عالياً بسقوط سلطته . وهكذا ابتدأت المقاومة يقودها الاكليروس والبورجوازية العنيفة . وانقسم الرأي العام في البلاد بين انصار الشرعية *Statistes* الذين تحلقوا حول فان در نووت واخذوا يطالبون باعادة امتيازات الامبراطور القديمة وبين الوطنيين الذين راحوا ، بزعامة فونك ، يتمنون استبدال السفير النمساوي بسيادة الشعب . والاتحاد المؤقت الذي توصلوا الى تأليفه آمن لهم الفوز والنجاح اذ استطاع فان در نووت الدخول ظاهراً الى بروكسل ، في ١٨ كانون الاول عام ١٧٨٩ ، مهدداً بذلك الطريق امام تحالف عام لممثلي الشعب ، على اساس ارسنوقراطي . واذا صدرت الاوامر والتعليمات بابعاد انصار فونك ، فقد أثر اللجوء الى فرنسا ، وتمكن ليوبولد الثاني الذي برهن اكثر مما فعل والده ، عن مقدرة ادارية ، من اعادة سيطرته على البلاد ، بمساعدة بروسيا ، وذلك في اواخر عام ١٧٩٠ . اما حوادث لياج فقد كانت من نوع آخر . فالثورة التي نشبت فيها في آب عام ١٧٨٩ جاءت صدىً لحوادث فرنسا الداوية ، وقد وضعت نصب عينيها ، القضاء على سلطة المطران الامير ، يشد من ازرها اصحاب الممن والفلاحون الذين رزحوا تحت وطأة الضرائب الثقيلة والذين راحوا فريسة المجاعة . « وبدون هدر اي نقطة دم ، فقد انهارت الانظمة القديمة ، كما ألغيت التسوية التي يعود تاريخها الى عام ١٦٨٤ . وقد كانت الثورة هنا شعبية وتبنت المبادئ التي سارت عليها الجمعية التأسيسية ، وراحوا ينظمون بيانات بمظالمهم وموضوع شكاياتهم . وتنازل رجال الاكليروس والنبلاء عن امتيازاتهم وعوائدهم المالية . ووثيقة اعلان حقوق الانسان في ١٦ ايلول التي جاءت عندهم اكثر جذرية من اعلان حقوق الانسان في فرنسا ، جددت وسائل تعيين ممثلي البلاد وطريقة انتخابهم . انتهت ثورة لياج في اواخر عام ١٧٩٠ ، بانتهاء ثورة البرابانت ، لدى وصول القوات النمساوية الى البلاد .

فمثل مدينة لياج لم يكون شواذاً ولا استثناءً . فالقرارات التي اتخذت في باريس في ليل ٤ آب ، سارت سير النار في الهشيم ، واخذت الانتفاضات وحركات التمرد تنفجر على طول نهر الرين : في كولوني وتريف وسير . واتخذت المناشير الثورية توزع في كل مكان ، ولسان حال موقعها يقول : « تريد ان تتحرر من نير الرهبان » . وراح اسقف مدينة بال ، في سويسرا يستعين بالقوات النمساوية لاستعادة سلطته المتأرجحة . وفي جنيف اضطرت حكومة المشيخة ، مرتين متواليتين ، عام ١٧٨٩ ، لتعديل دستور المدينة وراح « المشاغبون » في مقاطعة السافوى يهددون بالاستيلاء عنوة على الحكم . وامتدت الاضطرابات الى ايطاليا ولا سيما الى مدينة ليفورنو وفلورنسا .

والملكة المتحدة نفسها لم تبق على وضعها مع الاضطراب الديني والاجتماعي الذي انفجر في ايرلندا . وفي هولندا راحت حركة مقاومة قوية تقف في وجه الحاكم العام (*Stathouder*) .



أوروبا عام ١٧٨٩

وعلى منأى من فرنسا ، الى الشرق ، ارتبكت الاوضاع الاجتماعية وزاد القلق والبلبال في عدد من بلدان اوروبا الوسطى واوروبا الشرقية الراحة تحت الضغط والاستبداد المهرق . فالجر يتغنون بحشوع هذه الاشعار من نظم شاعرهم الوطني « بكساني » عندما يقول : علينا ان نخذو حذو فرنسا وان لمحطم الاغلال التي تقيّدنا . ويردد هذه اللازمة وطنيون بلغ منهم الحماس كل مبلغ امثال ألويس بتياني . والظاهر ان الامبراطور ليوبولد كان على استعداد كلي للنزول عند مطالبهم ، واخذت الدييت باعداد دستور يضمن للصحافة حريتها كما يؤمن للاهلين حرية العبادة . كذلك أعدت قراراً بتحرير الفلاحين ، غير ان الامبراطور اختتم اجتماعات الدييت بخطاب بذل فيه الكثير من الوعود البراقة ، وانفرط عقد المجلس دون تسجيل اية نتيجة واقعية . وفي كتابه : « رحلة من بطرسبورغ الى موسكو » ، يجتذ رادتشيف إلغاء عبودية الارض التي ينسب اليها كل الشرور التي تتألم منها روسيا . وفي بولونيا يلجأ الوطنيون للقيام بحركة انقلاب ويفرضون على الدييت وعلى الملك في ٣٠ ايار ، دستوراً جديداً اعترف للبورجوازية بحريات واسعة ، مع تأكيده الاعفاءات والامتيازات التي تتمتع بها طبقة النبلاء ورجال الكليروس . والحكومة الدستورية التي تألفت في اعقاب الحركة الوطنية قوي جانبها من جرّاء إلغاء حق الرفض *Liberum veto* . وهكذا وُضع حد للفوضى في البلاد واصبح في مقدرة المحاكم ان تقضي في الناس دون الاخذ بالوجوه وان تحكم ببلاداً تحاول استرداد قوتها واستعادة مكانتها .

هذا الهيجان العام مبعثه ، الى حد بعيد ، الف سبب وسبب .
ردود الفعل الارستوقراطية
فقد انتهت هذه الانتفاضات بالفشل ، الا في ليج . الا ان
وموقف الملوك
عدوى الثورة ونقلها الى الخارج اصبح بالفعل الشغل الشاغل ، كما
انها اصبحت مفزعة الاوساط الاجتماعية ذاتها كما كانت في فرنسا ، ومفزعة فئة الامراء واصحاب
الامتيازات ومن يقول مقاتلهم او يعتنق نظراتهم الفلسفية ، وغيرهم عناصر عديدة من
البورجوازية الثرية او المستنيرة التي اثار الفتن والاضطرابات المخاوف في نفوسها ، كما انها
أوجست شراً من هذه القلاقل وسياسة اللف والدوران والتهجم على النظم والهيئات الدستورية
في البلاد . فالامراء الالمان يخشون ان يصيبهم ما اصاب زملاءهم في مقاطعة الازراس وقد
كتب الامبراطور ليوبولد للملك لويس السادس عشر ، في كانون الاول عام ١٧٩٠ عن تمنياته
« في اعادة الحقوق السيادية الى اصحابها ، وارجاع كل ما اطاحت به الثورة الى ما كان عليه
من قبل . وقد اقام فلوريدا بلانكا حول جبال البيرانيس ، ما بين فرنسا واسبانيا صفاً من
الجند يحول دون انتقال العدوى الوخيمة الى اسبانيا ، وراح البابا بعد ان ردّ دستور
الاكليروس المدني الذي سنته الثورة ، يحرّض الدول الكاثوليكية على فرنسا ، كالبافير
والبرتغال ، وبعد ان اخذت النخبة المستنيرة في المانيا تتأرجح في موقفها من الثورة الفرنسية ،
انقلبت في نهاية الامر « ضد أكالة لحوم البشر في باريس » . واستقر الرأي عند « كنت » و« فضحت »

وغوثية على ان الفرنسيين الضالين هم غير اهل لهذه المثل العليا . وانكاثرا خرجت في نهاية الامر عن تحفظها ، وفي النداء الملكي المنشور بتاريخ ٢١ ايار عام ١٧٩١ والمزود بإعداده الى « بيت » ، يعلن هذا الاخير جهاراً انه يتخذ موقف الهجوم ضد المبادئ الفرنسية . و« بورك » الذي وقف وحده تقريباً ، عام ١٧٩٠ ضد مبدأ المساواة بوزارة الاكايروس الانغليكانى ورجال الادارة ، يبدو الآن وكأنه احد الانبياء . اما حزب الاحرار فينقسم اعضاؤه رأياً . فالتخذ المسؤولون من الوضع القائم عندهم حجة ليؤجلوا الاصلاحات التي كانوا باثروها كما انهم وقفوا ضد الاحرار .

فمن هنا للتدخل الفعلي لا يزال المجال بعيداً . فقد نظر الملوك الى احداث فرنسا كمظهر من مظاهر أزمة عابرة ، حلها بين يدي حكومة لويس السادس عشر . وكانوا مرتاحين الارتياح كله لهذه المصاعب والمشكلات التي من شأنها ان تفت من عضد الدولة المجاورة . والحروب التي قامت في القرن الثامن عشر ، جعلت الدول ذات الحكم المطلق تنتصب في وجه بعضها البعض . ففي غرة عام ١٧٩٠ ، نرى النمسا في حرب مستمرة مع تركيا ، وروسيا في حرب مع تركيا والسويد . وبروسيا تعارض في كل مكان النمسا وتقف في وجهها ، ومستشار كل من النمسا وبروسيا اللذان يجتمعان في شباط عام ١٧٩١ ، يهتان بشؤون بولونيا اكثر من اهتمامهما بشؤون فرنسا . فهما يقفان موقفاً متراجحاً باستمرار بين هذين القطبين : فرصوفاً وباريس . ومن جهة ثانية أخذت الجمعية التشريعية تدل على رغبتها في السلام ، كما تشهد على ذلك حادثة نوتكا . فقد صرحت عالياً في ٢٢ ايار عام ١٧٩٠ : « انها لن تمسك السيف قط ولن تلجأ ابداً للسلاح او تستخدم قواها لسلب اي شعب حريته » ، وتحدد مفهوم الجندي المواطن ، وتجرد الملك من حق اعلان الحرب وعقد السلم .

ومع ذلك نرى النوادي والصحافة في باريس ، اشد جراءة من الجمعية الدستورية . فقد مر معنا كيف ان الجدال الثوري ارتدى ، عام ١٧٩١ ، طابعاً دولياً . فالديموقراطيون أخذوا يرفعون عقيرتهم عالياً : « على كل امة نبيلة وفخورة بحريتها حتى النزول الى عقلية الفتح ان تعلم انها لا ترغب بأن تهين احداً كما انها لا تطيق ان يلحق احد بها اية إهانة » (روبسيير) . وبعد ان فشل كميل دي مولين ، عام ١٧٩١ من جراء التطورات التي اتخذتها احداث بروكسل ، نراه يضيف على كتابه : « ثورات فرنسا والبرابانت » عنواناً فرعياً رمزياً هو : « ثورات فرنسا والممالك التي تطالب بجمعية تأسيسية والتي ترفع العلم المثلث الالوان ، هي حرية » بان تحتل مكاناً مرموقاً في تاريخ البطولة . واليعقوبيون يقابلون بالتصفيق الحاد الخطب الحربية التي يلقيها الوطنيون اللاجئين ويدعون الجمعية « لتحسن الافادة دونما إضاعة في الوقت » من هذا الاحترام العميق ومن هذا الشعور الديني العام الذي عرفت الجمعية التأسيسية ان يفرضه على جميع ارجاء اوروبا ، وذلك في سبيل القيام بتطور خلاق على يد قواتها .

وبالمقابل ، نرى النفوس على خير استعداد للقيام بصليبية مضادة للثورة يدعون لها وينهض بها ملك السويد غوستاف الثالث ، بتحريض من روسيا . والامبراطور ليوبولد يوقع ، من جهته ، صلحاً مع الاتراك ، فتسارع الامبراطورة كاترين الثانية للسير على نهجه ، وتعتقد كل من بروسيا والنمسا اتفاقاً خاصاً حول القضية البولونية . ومع ذلك ، فهما يتورعان في امر تدخلهما في الغرب . الا ان النداء الذي وجهه الملك لويس السادس عشر ، ومحاولته الفرار ، والاهانات التي لحقت بحالته ، والتحديات المتتالية من قبيل اللاجئين ، كل ذلك وما اليه ارغهما على التدخل . فمع تصريح بلنتز وبعمده ، لسنا بعد امام الحرب مع فرنسا . فما هي الحرب ضد النظام الجديد ، الحرب ضد الدستور الذي سيطر به علينا عام ١٧٩١ ، هذا الدستور الذي يكون تهديداً لا يمكن للنظام الاجتماعي السائد ولا يصح له السكوت عنه . وهكذا يتأزم الموقف من كلا الجانبين . ولن يلبث ان اتضح جلياً انه لا مجال للتفاهم قط بين الثورة وبين اوروبا القديمة . وبعد ذلك ببضع سنين ، في أبان المعركة ، تبدى الامر لجوزف دي ميستر على الشكل التالي : « ان الثورة في صميم عقيدتها هي عدوة لكل الحكومات ، اذ انها تنزع الى تقويضها جميعاً بحيث يصبح من مصلحة الجميع القضاء عليها » .

٢ - الحرب الاجتماعية الدولية

(١٧٩٢ - ١٧٩٥)

الثورة هي التي تقوم بالمبادرة . فبالرغم من تحذيرات روبسبير لليعاقبين ، قام المجلس الوطني ، باعلان الحرب ، في ٢٠ نيسان ١٧٩٢ في نشوة من الحماسة الوطنية ، اذ عارض سبعة من اعضاء المجلس صراع في سبيل الدفاع عن المدينة

لا غير ، اعلان الحرب .

وهذا الصراع لم يُعتم طويلاً حتى ارتدى طابعاً مميزاً . فهو ليس من هذه الحروب التقليدية القديمة النمط ، بل هي حرب من طراز جديد ، حرب اجتماعية دولية تنصدي لنظريات مضادة في الصميم ، قائمة في العالم . فالرعب الذي تبعته الثورة يسيطر على مؤخرة الجيش البروسياني القائم بالغزو ، بينما يسيطر على جو باريس هلع يُسمّر الخوف في قلوب السفراء الاجانب . فالكومون تنصدي لهم في العاشر من آب وتحتجز حقائبهم الدبلوماسية ، فيطالبون بتسليمهم جوازات سفرهم ويركبون البريد في طريق عودتهم الى بلادهم ، وبعد ذلك ببضعة اشهر ، اقامت محاكمة الملك وتنفيذ حكم الاعدام به ، اوروبا القديمة واقعدتها : وباستثناء سويسرا ودول سكندينايفيا، وجدت جميع دول اوروبا نفسها في حالة حرب . وهذا الصراع لاسباب متعددة ، منها احتلال جيوش فرنسا المظفرة البلاد الواطية النمساوية ، في الاشهر الاخيرة من عام ١٧٩٢ ، وفتح منافذ نهر الإسكو ، وكلاهما يؤلفان حالة حرب مع انكلترا نفسها التي كانت تطمع ، من وراء ذلك ، الى احتكار الحركة التجارية مع المستعمرات وتأمين المنافع الطائلة التي تؤمنها سيادتها على البحار . و«يت» الذي عُرف بترده حتى الآن ، لم يلبث ان اصبح المحرك الأكبر للأحلاف ضد فرنسا . وقد اخذت الدوائر الدبلوماسية في متابعة اعمالها التقليدية مع الظاهرة الجديدة التي تشكلها

الثورة الفرنسية . ان تدخل الملك يجب الا يكون مجانياً . وهذه الظاهرة الجديدة هي الشيء الاساسي . واخذوا يبدرون هذه الحرب الشاملة ، في نظر الرأي العام ، ويصورونها كضرورة للحفاظ على شكل جديد أطلّ على المجتمع . فلترك لـ «بيت» التعبير عن وجهة نظر المتحالفين ضد الجمهورية والمجلس الوطني وباريس :

باريس لم تعد سوى مثنى الاشرار او قطيع من العبيد . فالثورة الفرنسية تهديد لكل قيم الحضارة . هي قضية موت او حياة للعدلية . . لسلامة اوروبا وللمجتمع المدني . علينا ان نستعد لحرب طويلة الأمد ، لحرب دائمة الاشتعال والاضطراب الى ان نقضي على الوهاب القتال .

فقد ترك التاسع من ترميدور الوضع سليماً ، مع انه زالت من الوجود بعض خصائص النظام ومقوماته المفردة . فالهمم باقية . وليس من يغفل عن باله قط ان الحرب نشبت بين الثورة واوروبا . فالثورة بقيت ، كما سلاحظ جوزف دي ميستر بعد حين ، « شيئاً شيطانياً » سواء بوجود روبسيير او بدونه ، في الحين الذي يهبط به بورك ، بين ١٧٩٥ - ١٧٩٧ ، بالعالم المتمدين لمحاربة حكومة الديركتوار القاتلة للملك .

من المعروف جيداً ان في مثل هذا الصراع ، ستجد اوروبا ، حتى في فرنسا الثورة نفسها حلفاء طبيعيين لها . ويتعم على الحلفاء ، بالمقابل ، ان يحموا انفسهم ، في عقر دارهم بالذات ، من خطر ثوري ثانٍ . وستستمر الثورة الفرنسية في اثارة الاهداء المالية لها في بعض الاوساط البورجوازية المتحررة والشعبية ، بالرغم من الدعاوة التي يستغلها المتحالفون وبينونها على واقع الارهاب الذي ساد فرنسا مدة من الزمن . ويحاول الملوك خلق كموّل ابيض حولهم . فقد بادرت الامبراطورة كاترين الثانية - وكانت الاولى بذلك ، في اوروبا - اقفال المحافل الماسونية وامرت بابعاد رادتشيف الى سيبيريا . وجرى توقيف المحامي المتحرر ثوريلد ، في ستوكهولم ، في كانون الثاني ١٧٩٣ . ويجري في جميع انحاء اوروبا ، رذل المبادئ الثورية ، كما حلت كل المنظمات الطلابية ، حتى انهم حرّموا مطالعة مؤلفات «كنّت» . واشتدت التحريات في كل من البافير وبودابست وفيينا . وفي تشرين الثاني ١٧٩٤ ، تم توقيف مارتينوفاش والهنغاريين المطالبين بالانفصال . وقامت في نابولي عصبة من الملكيين تلاحق بمؤازرة رجال الاكليروس ، الديموقراطيين وتحكم عليهم بالموت . وفي شبه الجزيرة الايبيرية استحال ديوان التفتيش بوليساً سياسياً . واتخذت انكلترا ، من جانبها ، منذ كانون الثاني ١٧٩٣ ، اجراءات مشددة تنصف بالعداء . وافاق لإقرار القانون الخاص بالاجانب *Alien Bill* ، للحكومة الانكليزية ، ابعاد الاجانب من بلادها . و «بان» الذي كان عضواً في المجلس الوطني ، حُكم عليه غيابياً ، وقامت تحريات شديدة ضد المحامي مُوير الذي كان سبق له واتجه الى باريس ، منذ عهد قريب ، وراح بيت يستثمر مشاعر الوطنيين ، فأصدر قراراً شجّب فيه كل المبادئ « الهدامة » باعتبارها من مصدر فرنسي . وفي اسكتلاندا ، ارتدت « مطاردة المشبهين » مع دنداس ، طابعاً من التعصب الشديد . وفي اواخر تشرين الثاني ١٧٩٣ ، اجساز مجلس النواب البريطاني ، القيام

بتحريرات واسعة وباعتقالات تعسفية، وراحوا يجلدون « كل من يزُددون او يُشْهرون بالدستور البريطاني الجيد ». وقد حُكم بالموت في اسكتلندا، على عضوين من رابطة الجمعية التأسيسية، كما جرى ابعاد موير الى خليج بوتي. اما في لندن، فن اصل ١٣ شخصاً حامت حولهم التهم وتولى ارسكين الدفاع عنهم، من بينهم توماس هاردي، ثلاثة فقط برئت ساحتهم. وقامت الجماهير في لندن تنظم للمحامي المحافظ حفلات شائعة. وتؤكد *Annual Register* في اواخر عام ١٧٩٤، ومطلع ١٧٩٥ « ان طبقات الشعب السفلى، في « كل أنحاء اوروبا » تصف هذا التحالف الذي قام ضد الجمهورية « بحرب الملوك ضد الشعب ». وقد عزوا هذه النتائج الى الدعاوة الفرنسية.

لا شك قط في ان هذا الضغط المرهق اوجد فراغاً كبيراً في المقاومة السرية في الخارج صفوف رجال الفكر الاحرار، بعد ان مُحل فريق منهم على النكوص، امثال غوتيه وشيلر او ألفياري، كما اضطر فريق آخر منهم، للجوء الى فرنسا امثال كرامر. الا انه ساعد على ترسيخ ودسورث في آرائه. وتعمد المقاومة الى التخفي ويزداد نشاطها عمقاً بين الجماهير التي تتضرس بالحرب وبما صار اليه الوضع الاقتصادي في اوروبا من دهور، اُضيف الى ذلك المساوىء التي جرّتها وراءها الأزمة الاقتصادية الدولية التي اشتدت وطأتها بين ١٧٩٤ - ١٧٩٦. فالمواهم البائرة التي تميزت بها اعوام ١٧٩٢ و ١٧٩٤، واستيفاء الرسوم والعوائد السيادية تنكشف عن اضطرابات اجتماعية في سويسرا ولا سيما في مقاطعة سانت غال وفي القرى الواقعة على حدود مقاطعة البيامونت. وتختبئ بروسيا نفسها في غمار ازمة عنيفة فيقوم العمال الصناعيون في كل من سيليزيا وبرلين بفتن هوجاء في مدينة برسلو. وجرت مشاغبات صاخبة في اسبانيا رمت للتخلص من غودوي. وفي بولونيا قامت فتنة، في تشرين الثاني ١٧٩٤ رفع فيها الشباب النائر العلم المثلث الالوان داعين الشعب الى الثورة والتمرد. واكتشفت في « بالرمو » مؤامرة حاكها الاحرار كما اعلن الفلاحون الثورة في مدينة بازيليك. اما في جنيف فقد نجحت الحركة الديموقراطية التي انفجرت فيها، خلال تموز ١٧٩٤ وامتدت الى مقاطعة زوريخ. اما هولندا فقد بلغ من تأصل الروح البيعوية فيها واشتداد سيطرتها ما هيأاً للنتائج الرهيبة التي وقعت فيها. كذلك تكاثرت الفتن في انكلترا نفسها: في لندن وبرمنغهام احتجاجاً على نظام القرعة، وفي ليفربول ضد حرية الصحافة التي دعوا للتخلي عنها. اما في الريف فقد أثارت *Enclosures* جرائم زراعية. وقد خفقوا من حدة الحصار البحري بمنع الحظر على القمح. والالتاسات توالى دراكاً من المدن الكبرى. وقامت في البلاد تجمهرات ضخمة راحت تنادي في نفس لندن بالذات: « كفانا «بت»، كفانا حرباً، اننا نريد خبزاً ».

فالحرب ، في فرنسا بالذات ، هي من طراز جديد . ان فكرة بعث
عالم جديد تحتتمر في النوادي فتردد الصحافة صداها عالياً . فالنظام
الديمقراطي سيعم اوروبا جمعاء ، من الرين الى روسيا . وتتلور هذه
السياسة بعد معركتي فالمي وجيباب . والمرسوم الصادر في ١٨ نوفمبر نص عالياً على ان « الامة
الفرنسية » ستجود بالاخاء وبالمساعدة على جميع الشعوب التي تتحسس عميقاً الرغبة في استرجاع
حريتها المبهضة . فالاقربون هم ، بالطبع ، أولى بالمعروف ، ولذا بادرت القوات الفرنسية باحتلال
بلادهم . ويحرص المرسوم المذكور على التنويه بالنظام الرّخي الذي سينعمون به بعد الاحتلال .
اذ ينص على « الدفاع عن المواطنين الذين يتعرضون للمظالم ولعبث العائنين أو يمكن لهم ان
يستهدفوا لهذا كله من جراء حرياتهم » . فنحن هنا امام دعوة مباشرة الى الحرية اكثر منه عرضاً
لها . وقد انتصح ذلك جلياً بعد شهر من هذا التاريخ ، وذلك بصدر القرار المؤرخ ١٥ - ١٧
كانون الاول الذي يعلن عالياً ان الامة الفرنسية ستعامل معاملة بلاد عدوة البلدان التي تحتتمر
لنفسها النظام الملكي أو النظام الطبقي القائم على الامتيازات ، بينما هي تدعم استقلال البلدان
التي « تقوم فيها حكومة شعبية حرة » . وهكذا نحن امام نظام حماية ثوري يُعرض على الدول
أو يُفرض على البلدان التوابع الدائرة في فلك الثورة الفرنسية . وقد ذهبوا بالفصل الى ابعد من
ذلك بكثير . فهذه القوى الاجتماعية والوطنية التي تحتتمر حماسة في فرنسا ، فرضت على الدولة
انتهاج سياسة خارجية معينة ترمي في المدى البعيد ، لتحقيق حدود فرنسا الطبيعية . والنظام
الجديد يتطلع بانظاره الى المجد الاثيل الذي يصيبه من تحقيق هذه الاهداف . فالمؤتمر الوطني يضع
كل اعتماده على هذه العناصر الثورية المحلية ، اياً كان طابعها : اكثرية كانت أم أقلية ، ليس الأمر
بهم قط . وتعد هياكل تمثيلية تحت اشراف مراقبة جيش الاحتلال ، وتتخذ قراراتها بالانضمام
الى فرنسا . ومنذ اواخر تشرين الثاني (نوفمبر) ١٧٩٢ حتى نهاية آذار ١٧٩٣ ، يحتفل المجلس
الوطني بضم السافوى وكونتية نيس والبلاد الواطية النمساوية ومقاطعة رينانيا ومقاطعة بورانتراي
الصغيرة (بالقرب من مدينة برن) .

الا ان الفشل الذي لحق بالجيش الفرنسية عام ١٧٩٣ ، والمقتضيات الجديدة للحرب ،
اضطرت المسؤولين على انتهاج سياسة أخرى ، أقله في الظاهر . ففرنسا تقف موقف المدافع عن
نفسها . فالأمر لم يعد حرب تحرير شاملة كما نص على ذلك مرسوم ١٨ تشرين الثاني . وعلى عكس
ذلك تماماً ، قرر المجلس الوطني في ١٣ نيسان ، بناءً على اقتراح دانتون « بالاً يتدخل باي
صورة من الصور في شؤون حكومات الدول الاجنبية » . والدستور الذي صدر عام ١٧٩٣ ،
يؤكد : « بالاً يتدخل الشعب الفرنسي قط في شؤون الدول الأخرى » . وبعد ذلك بخمسة اشهر ،
يصرح روبسبير بأن الحرب الباردة أو حرب الدعاوة التي يشنها الجيرونديون هي « حقاقة
مكيا فيلية ليس إلا » ، « اذ انهم يلحقون الاهانة بالطغاة فيخدمونهم من حيث لا يدرون » ففوق
اختلافات الفرقاء ، ووراء الظروف التي تشجع احياناً أتباع دانتون على المصانعة تستنّ الثورة

السياسة الخارجية التي تتفق والقوات الموضوعة تحت تصرفها . الا انها تفضل الف مرة ان تسقط وتدفن تحت الانتقاض ، كما صرحت بذلك ، في ١٣ نيسان ، من ان تقبل أو ترضى بأي تدخل اجنبي في شؤونها . كذلك لن ترضى قط بالتخلي يوماً عن البلدان التي انضمت للجمهورية، لهؤلاء الطغاة الذين دخلت معهم في حروب ميمية ، ما عدا بعض التعديلات التي يجرها الشعب الفرنسي، الذي جعل منه الدستور الصادر عام ١٧٩٣ ، « الصديق والحليف الطبيعي لكل الشعوب » . فهو لن يتخلى قط عن حل مشعل الثورة الى كل مكان ، كلما استطاع الى ذلك سبيلا . وسحاول روبسبير نفسه ان يجعل الدستور الصادر عام ١٧٩٣ ينص على : « ان الملوك والارستقراطيين والطغاة » ليسوا « سوى أرقاء ثاروا في وجه ... المجلس البشري » . وقد حاولت مصادر ادبية ضخمة تعميم هذا المبدأ ونشره في كل مكان، هذا المبدأ الذي وضع موضع التنفيذ، سياسة المجلس الوطني ولجنة السلامة العامة ، وهي سياسة واقعية من ناحية أخرى لم تعد لتنتقص بشيء من قوة النظريات المحافظة على سلامة الشعوب . الا اننا لم نر قط ان الحرب التي تعني ككفاحاً مريراً بين نظامين اجتماعيين مختلفين ارتدت مفهوماً على مثل هذا الوضوح والجلالة .

والترميدوريون الذين لم تقم عندهم مثل هذه اللغة ، والذين استفادوا من وضع عسكري ملائم جداً ، اخذوا على انفسهم تطبيق هذه السياسة والنهوض بمتطلباتها ، الى الحد الأخير . صحيح ان انصار الملك واعضاء حزب اليمين يتمنون ، هم الآخرون ، تحقيق «الحدود الطبيعية» للبلاد . الا ان الرأي العام الذي كان يحن عميقاً الى السلم والسلام وقف منها موقفاً معادياً ، ومثل ذلك واكثر الجيش الجمهوري . فما من حكومة بلغ منها التردد والحيرة مبلغه ، تستطيع ان تتجاهل هذه التيارات الفكرية العاصفة . الا ان المصلحة العليا كانت تفرض سلباً دولياً ، اي تحقيق الحدود الطبيعية ، سلباً يرسخ اكثر من أية وسيلة أخرى ، أمن الثورة ، ويضمن السلامة والطمانينة ويشيد نفوذ من قاموا به في عيون العالم اجمع . فعرب الدعاية وتحقيق حدود البلاد الطبيعية ، ليس في الواقع سوى وجهين أو مظهرين لشيء واحد ، الا وهو النشر العفوي للثورة . والقضية لا تنتهي بمجرد عملية انقاذ اخوي على حساب المنقذ ، بل بالضم على حساب البلد المضموم ، هذا الضم الذي يمكن وصفه أو نعمته بأنه جاء محققاً للمصلحة ، اذ ينقذونه من ضغط وقسر الطبقات الممتازة . فبدلاً من الضم القديم الطراز الذي كان يحترم النظام القائم في القطر الذي جرى ضمه ، قام ضم آخر من نوع جديد ، الذي يجري فيه قلب النظام رأساً على عقب لخير السواد الاكبر من سكان البلاد . فليتم تعميم الثورة ونشرها تحت ستار الـ *Sans Culottes* أو بدون البورجوازيين دافعي الضرائب : فالامر بيان . فالفتح يأتي وفقاً لطبيعة الاشياء وجوهرها . وهكذا تتمثل عام ١٧٩٤ و ١٧٩٥ الحدود الدائرية الفرنسية . وسترى سنة ١٧٩٥ اول جمهورية تدور في فلك فرنسا الثائرة ، هي التي تتكون من الولايات المتحدة .

وهذه الحرب تعتمد من كلا الطرفين القائمين بها ، للذرائع والاعتدة التي
 مناهج الدبلوماسية التقليدية تأتلف وطبيعتها . وهي ذرائع طبيعية ، تقليدية لدى الحلفاء الذين لا
 والحصار البحري يفكرون بالنهوض بالحرب على غير الاسس التي نهضت بها الحروب
 السالفة . فالحرب عندهم هو واقعة الملوك الذين اعتادوا ان يحشدوا جيوشهم على الطريقة التي
 سادت عهد لوفوى . فقد اصبح من المتوجب الآن اذكاء الحماسة والهيب النفوس ضد العدو ،
 تحقيقاً للاماني التي جاش بها صدر ماليه دي بان وفرسن ، أي « انشاء لجنة تسهر على السلامة
 العامة في اوروبا » . ومختصر القول ، فقد كان من اللازم الغاء أو أقله زحزحة هذا النظام القديم
 الذي يحارب الحلفاء في سبيل الحفاظ عليه ، ف « بت » نفسه لا يحسر على توجيه نداء للامة الانكليزية
 خشية منه على الديموقراطية .

تقليدية ايضاً الحرب التجارية التي يشنها الانكليز . فهي ترمي لتهديم مالية فرنسا وتخريب
 تجارتها . ففي مطلع ١٧٩٢ ، عبثاً راح النازحون يقترحون على ملك بروسيا طرح اسينياه
 مزورة في التداول . اما « بت » فقد اغرق البلاد بها مرتين . كان لا بد من التداول ، في باريس
 بسندات على لندن تسهيلاً لتهريب العملة . فبعد ان صدر « بت » الحظر على بيع الاسلحة والمواد
 الغذائية التي لا بد منها للجيوش ، اضاف الى ذلك الحبوب والطعين . وقد اصدر امراً في ٨
 حزيران ١٧٩٣ « بمصادرة كل سفينة تحمل مواداً غذائية الى فرنسا مهما يكن العلم الذي ترفعه » .
 فانكلترا تراقب الشحنات وبواسطتها التجارة بين الهايدين ، وتضع قانوناً بحرياً يخدم مصالحها
 في الدرجة الاولى ، وتمنح أذونات وتسهيلات تصدير مشجعة ، وتحاول ان تكتسب مؤازرة
 الولايات المتحدة الاميركية بحيث تحتفظ لنفسها باحتكار الحركة التجارية في المستعمرات .

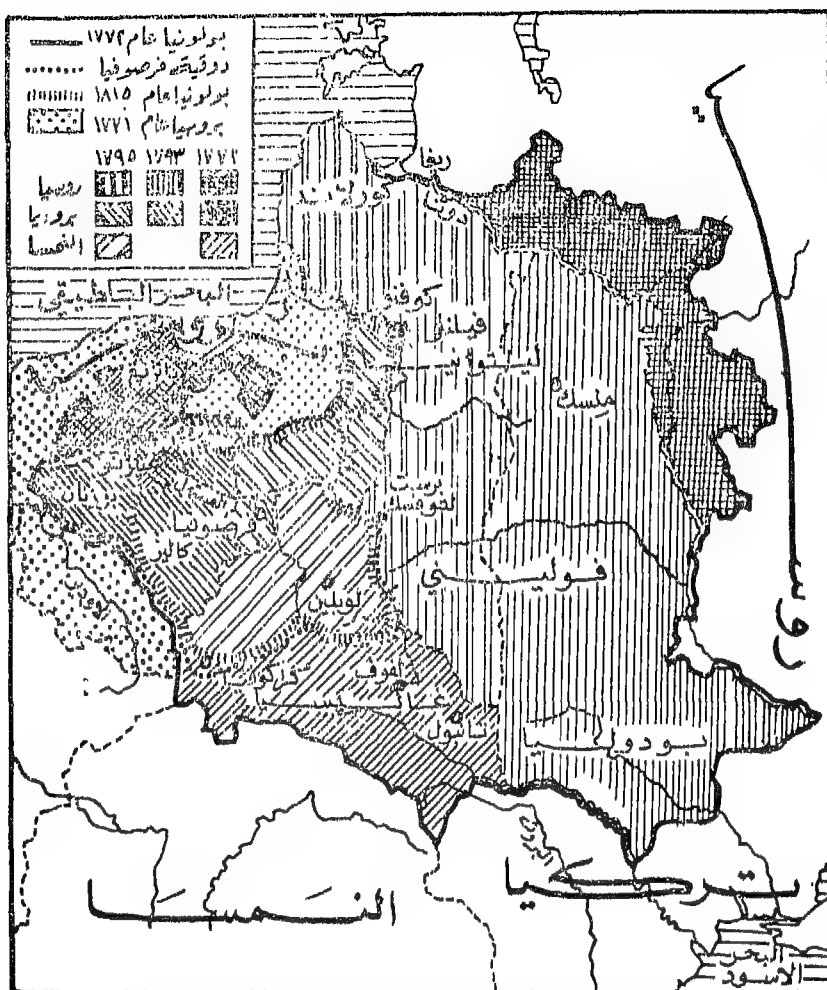
تقليدي ايضاً النشاط الدبلوماسي . فالمدى الثوري يقع ضمن أطر اوروبا القديمة . فسواء
 التفت شرقاً أو غرباً وقعت عينك على مفاوضات تدور حول التوسع والتقسيم . وهذه اللقم
 يناها اصحاب المطامع تريد انقساماً بعضاً على بعض كما تذكي فيهم سورة النهم للزيد ، ولكل
 منهم حربه الخاصة والشهوة الآنية تعبت بمحدود الاتفاق المرسوم . فاققسام بولونيا ، يلبي الى
 حين ، بين ١٧٩٣ - ١٧٩٥ الفرقاء الشرهين : بروسيا وروسيا والنمسا . واذا استثنيت هذه الاخيرة
 من عملية اقتسام المغانم ، عام ١٧٩٣ فقد ترك لها ملء الحرية ، لتعوض عن حرمانها ، من
 جهة الغرب ، فتبتلع مقاطعات الازراس والفلاندر والهائينو . فيرحب كوتنز بهذا الاقتراح الذي
 وقع من نفسه موقع الرضى والقبول . ففي محافظة الشجال يرفض ساكس كويورج ، عام ١٧٩٣ ،
 المناداة بلويس السابع عشر ملكاً كما يرفض السباح للتبلاء النازحين بالعودة للمقاطعة . وفي
 تموز ١٧٩٣ ، تعترف انكلترا باقتسام بولونيا ، فاذا ما رفضت العمل بالمشروع النمساوي الرامي
 لمقايسة الايلات المتحدة بالبافير ، فهي تقترح على النمسا مط حدود الولايات البلجيكية في
 الجنوب حق نهر السوم . وهكذا نرى ان « الاربعة » لا يفكرون الا بمصالحهم الخاصة . فقد
 أبوا ان يرموا بالكرارح الى حلفائهم الصغار وبقيت اسبانيا صامدة في وجه مطالب لندن

التجارية في اميركا اللاتينية .

اما فرنسا فهي واحدة ، موحدة وتقوم بالحرب على نهج جديد ، جيش الثورة وقبول الحرب نهج الحرب في القرن العشرين ، حيث يأخذون بجهد الجيوش دون ان يبالوا بشيء : بالناس والمال . ففي ميزان القوى ، فستلقي ، في المعركة ، بكل مواردها المادية والروحية ، هذه الموارد التي تكمن في ٢٧/٢٦ مليوناً من سكانها ، بينهم مليونان ممن تتراوح اعمارهم بين ٢١ - ٣٥ سنة .

وفرنسا ، باستثناء روسيا وحدها ، هي أغنى دول أوروبا بالرجال . فعملية الصهر والذوبان لا تلبث ان تمزج معاً ، في جيش واحد ، الفئات المجددة حديثاً « القيشاني الأزرق » بالجيش الملكي القديم « الفرسان البيض » . فالمصادر والتعبئة العامة يقضيان على كل شعور بالوجل لجهة المدد . وفن الحرب وتعبئة الجيوش على نمط فني جديد عرف ان يفيد الى اقصى حد من الكمية أو العدد . فالتكتيك الحربي ، يضع في وجه العدو ويوجه في هجوم ساحق ، وحدات من الجيش يحسن الضباط الافادة منها في المعركة ، الى اقصى حد . فالشجاعة والتمرس الطويل بأمور القتال يُستغنى معهم عن تدريب تقني طويل سابق . فكارتو رجل الحرب الهجومية الامثل يتحمل مسؤولياته ويولي القيادة للشبان : هوش الذي كان عريقاً عام ١٧٨٩ يقود جيشاً وله من العمر ٢٥ سنة . وفرنسا تُطْلِع اذ ذاك ، أخصب ما عرفته عبر عصورها من رجال الحرب جيلاً من نوابغ قادة الحرب معوّلة في ذلك على معين لا ينضب من طبقات البورجوازية الصغرى والمتوسطة . ان تطهير أطر الجيش العليا ، والاختلاف الطويل الى النوادي وقراءة الجرائد والصحف ، واستمهاد مثلي الشعب في مهمات المراقبة ، كل هذا وما اليه رفع الروح المعنوية في الجيش وأذكى نار الحماسة بين وحداته .

كل شيء في سبيل الجيش ، وفي سبيل تأمين ميرة الجيش وذخيرته تجنّد كل موارد البلاد . فالاسنياء تشكل مورداً لا ينضب كما ان البلاد التي تم « تحريرها » والبلاد العدو نفسها تلتناهد في سبيل تأمين ميرة الجيش وعताده . على المرء ان يواجه الواقع . فالنهوض بهذه الاعباء وتوفير كل أسباب النجاح لقضية الثورة التي هي بالفعل قضية مصير الجنس البشري ، فلا قبّل للعنقذ وحده ان يتحمل الاعباء الباهظة المرزحة . فمن استمر ينظر الى الأمور القائمة بمنظار المهيد القديم ، يحيد من الطبيعي ، بالرغم من اندفاعه للدفاع عن الجديد ، ان تغتذي الحرب بالحرب . « فمن رغب في النتائج تحم عليه استعمال الوسائل المحققة لها » كما جاء في صحيفة المونيتور ، في عددها الصادر في ٤ كانون الاول (ديسمبر) ١٧٩٢ . « فالتبرعات هي من وسائل الحرب العادية الا انه عندما تنتفض الأمة بأجمعها السيف وتشهره في وجه العدو ، فالويل لمن يتبنى هذه النزعة الانسانية التي تحاول ، في غير اوانها ، ان تفل منه الحد او تثلم منه الشفار » . وتقرباً من الفلاحين وكسباً لثقتهم ، سيعمدون قريباً لاعلان الحرب على « الصروح والقصور » وتأمين السلم والسلام



اقتسام بولونيا الخامس في القرن الثامن عشر والتاسع عشر

« لساكني الأكوخ » . الا ان اعمال المصادرة والتداول بالاسيניה ، يجعل هذا التمييز في غير محله . فليجئة السلامة العامة تفرض على البلاد المحتلة تضحيات غالية : « قهر العدو والعيش على حسابه هو قهره مرتين » . وفي ايلول ١٧٩٣ ، اصدرت هذه اللجنة الى القواد تعليمات تقضي بجمع السلاح من بين أيدي الأهليين ، وأخذ الرهائن منهم وفرض الضرائب على المدن ، ومصادرة المواد الغذائية والحيل والمعادن والأواني الفضية ، واتلاف الكباري والممرات المائية ، ونزع البلاط من الطرقات . فهاذا يقول الناس عن هذه الأمور كلها « فعلت نسبة عظيمة التضحيات التي يقومون بها وضخامتها يكونون أهلاً للحرية » . والجيش يتحول بواسطة مفوضي الشعب الى « مزرع الجمهورية ومُعيلها » بعد ان أوجدوا وكالات خاصة تنص باستخلاص ما يمكن استخلاصه او انقاذه . فكل ما لا يمكن حمله يُتلف في مكانه . ومثلو الأمة الذين يُعهد اليهم بمهمات رسمية ، تلقوا ، عام ١٧٩٤ ، تعليمات لا ترحم ، اذ كان بإمكانهم ان يطلبوا خلال الأربع وعشرين ساعة التالية ، دفع كل الضرائب والرسوم المتأخرة . كما أعطوا الصلاحية بتنظيم قوائم مفصلة بالاشياء التي يمكن مصادرتها ، وان يدفعوا من الاسينيه ، ما يوازي ثلاثة أرباع القيمة المستحقة ، ويرسلون الى مؤخره الجيش « مواطنين على جانب كبير من الثقافة المالية يعهد اليهم البحث والتقصي عن التحف والطرف الفنية » . وقد عمدوا ، في مقاطعات البالاتينا الى خلع الأقفال والغالات من الأبواب وارسلوا بها الى فرنسا . ويعد ترميدور ، لم يطرؤ أي تحسن على الوضع : « نحن بحاجة لكل شيء ولذا يتحتم علينا أخذ كل شيء » . فقد ألفوا « لجأت الانقاذ » ، وبقي العمل بالانقاذ والاستخلاص . وقد تعرضت بلجيكا مرتين للغزو والاستباحة خلال سنتين ، وقد تركها الغزو الثالث قفراً يباباً .

فالنصر هو من نصيب العدد ، من نصيب الحماسة والوحدة ، وقوة النتائج : النصر الفرنسي
الاندفاع ، هذه القوة الجديدة الصاعدة التي تتمثل بالثورة الفرنسية كما واحتدام الحلفاء غضباً
بدت في ذلك العصر . وقد كان بإمكانها ان تعتمد مسبقاً على مناصرة قلة لها ، في أي محل كان . وفي كل مكان داخل حدودها الدائرية ، كان بإمكانها ان تعتمد على غالبيات امينة ، صادقة ، بالرغم من المشاعر الوطنية التي تثيرها ، وذلك بفضل العلاقات الاجتماعية التي عرفت ان تقيمها .

فالقرار النهائي يترددون باتخاذها . ها هو اول الغزو النمساوي البروسياني يمتد من نيسات الى ايلول ١٧٩٢ ، هذا الغزو الذي امكن ايقافه والتغلب عليه عندما كتب النصر للجيش الفرنسي في فالمي . ثم ينقلب الوضع تماماً من ايلول ، الى آذار ١٧٩٣ ، اذ يدخل القائد الفرنسي مونتسكيو مقاطعة الساقوى في اليوم التالي لفالمي . وفي اواخر الشهر ، يدخل جيش « كوستين » مدينة سبر ثم يدخل مدينة ماينس في ٢١ تشرين الاول ، ويحقق في ٦ تشرين الثاني انتصاره الرائع في موقعة جتآب ، وتفتح الولايات الواطية التابعة للتمسا ابوابها امام جيش ديموريز ، ثم يطل عهد التراجع الذي يستمر من آذار ١٧٩٣ الى الحريف : فالحرب مع اوربوا والاتقسامات في

الداخل ، كل ذلك يحمل الثورة على الانكفاء من جديد . ديموريز يخون ويستسلم للعدو في نيسان ، واذا ذلك يبتدىء الغزو الثاني : في الشمال والشرق والجنوب وتغتصب الحدود عنوة . ولكن دنكرك تنجو بفضل معركة هندشوت في ٨ ايلول ويجري تحرير مدينة موبوج بعد معركة « وتيني » في ١٥ و ١٦ تشرين الاول ، في اثر الهجوم الذي قام به جوردان وكارلو بواسطة فرقة المشاة . ويقوم القواد هوش وبيشفرو وديسيه وسان جوست بتحرير مقاطعة الازاس في شهري تشرين الثاني وكانون الاول . واذا ذلك يبتدىء الدور الثالث من الحرب الذي ادى بالنتيجة الى تثبيت النصر والترسيخ له . فجيش السامير والموز بقيادة جوردان وبمؤازرة القواد كليبر ومارسو ولوفيفر وهاي يلحق الهزيمة بالنمساويين في « فلوريس » في ٢٦ حزيران ويبلغ في تشرين الاول ، مدينتي كولوني وكوبلنتز . وها هي بلجكا تفتح ابوابها للمرة الثانية ، ثم هولندا في كانون الاول وكانون الثاني . وفي الجنوب الشرقي والجنوب تحتل الجيوش الفرنسية الخط الممتد على طول جبال الألب والبيرانيس وجانب صغير من مقاطعة كتلونيا وبسكاي . وهكذا اختل توازن القوى .

وبدخول سنة ١٧٩٤ ، ابتدأ عهد السيطرة الحربية الفرنسية ، هذا العهد الذي استمر لحوا من ٢٠ سنة .

فمنذ خريف ١٧٩٤ ، اخذت كل من بروسيا واسبانيا والبيامونت يتمنى حلول السلام . فراح بارير يتهم بالخيانة العظمى اية محاولة من هذا القبيل . وقد اقتضى للجنة ترميدور عدة اسابيع لاتخاذ قرار بهذا الشأن بعد ان انتهجت سياسة اقسمت حيناً باللف والدوران وحيناً بالتنازل والانسحاب ، في سير ملتو لا يستقيم على قرار . وخلال المفاوضات ، حاول سيبه افراغ اوروبا وصهرها من جديد ، وذلك بانشاء خط ستراتيجي يحمي فرنسا يكون حاجزاً من الدول الحليفة يمتد من هولندا الى البيامونت . الا ان مثل هذا الافراغ يقتضي له نصراً مؤثلاً يكون حاسماً ، يحير وراه استسلام انكلترا والنمسا معاً . وسار ممثلو فرنسا الدبلوماسيون ومن بينهم برثلي على مصانعة ملوك اوروبا ، فاعتمدوا سياسة كانت مزيجاً من الواقعية والتقليدية والكلبية . ولم يكن المطلوب ، اذ ذلك ، وضع اخلاقية دولية جديدة واعادة القضية البولونية الى بساط البحث مثلاً . فالمهم هو الوصول الى تقفيت هذا التحالف الاوروي الذي يشكل بالفعل خطراً ممتاً على الثورة ، وتسجيل حقيقة النصر الفرنسي في معاهدة رسمية .

فقد عقدت بروسيا سلاً منفرداً ، في مدينة بال ، خلال شهر نيسان ١٧٩٥ بحيث تستطيع ان تتفرغ ، في الشرق لمعالجة قضية بولونيا والمصاعب التي سببها هذا الاقسام الثالث ، لها ولحلفائها ، فقد اعترفت اكبر قوة برية في اوروبا ، بالجمهورية وسلمت باحتلال فرنسا للصفة الغربية من الرين وبضم بعض الاجزاء بشرط التعويض عنها ببعض الاراضي عند عقد سلم عام في اوروبا . وتأتي بعد ذلك المعاهدة التي عقدت مع الولايات المتحدة ، في لاهاي بتاريخ ٢٦ ايار بعد ان اصبحت جمهورية باسم بتافياً تابعة للجمهورية الكبرى . وعندما اقترب جيش بيشفرو ونشبت ثورة في

هولندا اضطر معها حاكم البلاد العام للنجاة بنفسه والحرب الى انكلترا ، فقام الوطنيون يطالبون بدخول الجيش الفرنسي البلاد . واضطرت هولندا للتنازل عن ممتلكاتها الواقعة على الضفة اليسرى من نهر الرين متخلىة بذلك عن قاعدة فلسنخ البحرية وتحولت مع اسطولها الى تحالف مع فرنسا ضد انكلترا ، وألفت مجلساً وطنياً يهيء للبلاد دستوراً جديداً ويُعد لها الانظمة والمؤسسات الجديدة التي فصلت على طراز الدستور الفرنسي الصادر في العام الثالث ، واخيراً عقدت الجمهورية في مدينة بال ، بتاريخ ٢٢ عوز معاهدة صلح مع اسبانيا تخلت هذه الاخيرة بموجبها لفرنسا عن الجزء الذي لها في جزيرة دومنيك ، مقابل انسحاب فرنسا من الاراضي الاسبانية المحتلة . وستعقد في السنة التالية معاهدة تحالف وضمان متبادل لسلامة اراضي البلدين .

ثالثاً - تتمة الحرب الاجتماعية

انكسار أوروبا (١٧٩٥ - ١٨٠٢)

ها قد « طلع » اخيراً التحالف الاوربي ، مع العلم ان جانباً كبيراً من دول اوروبا بقي في حومة الوغى . فانكلترا هي التي تقوم بتمويل الحلف وتأمين حاجاته المالية . فالخطر الاجتماعي المتمثل في الثورة والذي شكّل تهديداً موصولاً لأوروبا تضاعف وازداد حرجاً عليها بالضربة التي نزلت بها في بال والتي قضت على توازن القوى فيها . فمُنذ ايلول ١٧٩٥ ، تم تجديد الميثاق الثلاثي في بطرسبورغ على اساس الوضع الذي كان قائماً قبل الحرب : ان اعادة الملكية الى فرنسا يستطيع وحده كبح جماح المطامع الفرنسية كما من شأنه ان يعيد البلاد الى حدودها الاولى . وقامت على الاثر مفاوضات فرنسية انكليزية باءت بالفشل فلم يكن من حل سوى الحرب الى ان يقضي الله امراً كان مفعولاً .

وحدة الهدف والوسائل والتكتيك
فالحرب الجديدة هي من الوجهة الفرنسية ، امتداد للحرب التي اندلعت لهييها عام ١٧٩٢ - ١٧٩٣ ، سواءاً أاعترفت بذلك حكومة الديركتوار ام لم تعرف . وما من شأن قط لحادث انخياز بأرأس الى جانب البندقية لقاء ٦٠٠,٠٠٠ ليرة ، وما لبيع تاليران نفسه من الانكليز ببضعة ملايين من أثر يذكر . واي بأس من ان تصبح الدعاوة ، حتى في اعين الباقيين من الجيرونديين امثال لارافليير ، اداة كفاح بالية لا تخلو من خطر على مستعمليها انفسهم ؟ فلن يكفوا ، مع ذلك عن استعمالها والركون اليها ، بالرغم من خيبة الامل المريرة التي تركتها في النفوس . فقد استعملها مورو ، عام ١٧٩٦ ، على ضفة نهر الرين اليمنى وبوتيرا الذي قدم خصيصاً من بال ، راح يستعملها في مقاطعتي الصواب والباقيير وورتنبرغ ، مستعيناً على ذلك ببعض القدامى من اعضاء نوادي ماينس . وستقوم كل من حكومة مقاطعة ورتنبرغ وبادن بمصادرة املاك الكنيسة وبالغاء الحقوق والرسوم السيادية.

وفي إيطاليا يوجه بونايرت ، منذ شهر نيسان ، من مدينة ميلانو ، نداء للإيطاليين ، يدعوهم فيه الحرية ، وقامت فتن ثورية (يعقوبية) الطابع في هنغاريا حيث راح دعاة السلم يكثرون من نشاطاتهم. وفي تركيا حيث بلغت الفوضى الضاربة اطنائها كل مبلغ وجعلت منها تربة صالحة ، فقد اعطت فيها الدعاوة ثمارها المرجوة . وراح بونايرت يشجع هذه الحركة ، فاستقبل وهو في ميلانو وفداً من اقوام الـ *Maniotes* قدموا من شبه جزيرة كورفو التي كانت قطب النفوذ الفرنسي في تلك الأرجاء . وقد لقي هذا النفوذ صدى بعيداً في جميع ارجاء اليونان ، اذ خطر لريغاس فلستنس ان يقوم بتوحيد كل اجزاء شبه الجزيرة اليونانية تحت كنف اثننا . الا انه جرى توقيفه في فيينا ، في اواخر عام ١٧٩٧ ، وعُهد الى فريق من الاتراك مهمة تصفيته بالحقن مع بعض رفاق له . وفي مصر ، احتفل بونايرت في مأدبة فخمة سخية بذكرى قيام الجمهورية الفرنسية حيث كنا نرى جنباً الى جنب وثيقة اعلان حقوق الانسان والقرآن الكريم . وفي حملته على سوريا ، خشي الانكليز من أن تصل محاولة نابوليون نشر الديمقراطية ، الى المعجم .

يجب ان نذكر هنا بكلمة وجيزة خاصة ، الحركات الانكليزية الايرلندية الشعبية . اساس هذه الاضطرابات الازمة الاقتصادية التي نشبت عام ١٧٩٥ ، فجاءت نتيجة للهزة الاجتماعية التي بلغت الذروة في انكلترا عام ١٧٩٥ - ١٧٩٦ ، واعطت ابرز حوادثها وابعدها صدى عام ١٧٩٧ ، بالتمرد الذي اعلنه الاسطول الانكليزي . فقد تألفت في كل سفينة لجنة خاصة من بحارها ، وراحت اللجنة السقي قامت على ظهر سفينة شامبيون تطلب حماية الحكومة الفرنسية التي « تم لها وحدها ان تدرك على وجهها الصحيح ، حقوق الانسان » . وقد راح كاتنغ في كتابه *Anti - Jacobin* الصادر عام ١٧٩٧ يصور بونايرت ممثلاً للحزب الجمهوري . ويبدو ان الحوادث سترغم بت على طلب الصلح . فقوات الانزال البحرية في الجمهورية الفرنسية تضع نصب عينها ايرلندا الثائرة ، بين ١٧٩٦ - ١٧٩٨ التي كانت تدعوها اليها وتلتظر وصولها بفارغ صبر . وفي هذا السبيل ، جمعت اعتمادات في الولايات المتحدة الاميركية ، في الوقت الذي دخل فتزوليام ، في همبورغ ، بمفاوضات مع فرنسا . وفي آخر الامر انفجر الوضع في ايرلندا ، عن ثورة لاهبة ، عام ١٧٩٨ ، دون اي انسجام في التوقيت بينها وبين محاولة الغزو . وهكذا تم لانكلترا ، على شاكلة فرنسا ، ولو متأخراً ، مقاطعة الفانديه الثائرة .

وفي ايلول ١٧٩٨ ، عهد الى الزعيم البولوني كوشبوسكو ، بمهمة حمل الجنود البولونيين على الفرار من صفوف جيوش الحلفاء السقي كانوا يخدمون فيها . هنالك طابور من الجنود البولونيين يحارب افراده تحت الاعلام الفرنسية الى جانب فرقة المانية واخرى ايطالية .

فقبل معاهدة بال وبعدها ، وبالرغم من التحول الذي طرأ على الرأي العام في فرنسا ، اصطبغت الحرب الاوروبية بطابع حرب اجتماعية في الداخل والخارج . فقد خضع جيش الجمهورية ، من جهته ، لتغييرات عميقة ، فمنذ ترميدور بلغت نسبة الفارين من الخدمة العسكرية

نصف الذين هم في الخدمة الفعلية الذين أربى عددهم على ٥٠٠,٠٠٠ . وقد جرى تسريع جانب كبير من الجيش في اعقاب معاهدات ١٧٩٥ . فمن بقي منهم في خدمة العلم ، اتخذوا من الخدمة في الجيش مهنة لهم او حرفة ، كما رأوا في الحرب حلا لمصاعب الحياة ومشكلاتها ، اذ باستطاعة الفرد هنا اكثر من أية حرفة او وظيفة اخرى ، ان يقطع مراحل التقدم ويرقى الدرجات بسهولة دون ان تتوفر له اسباب التربية والتعليم . الا ان 'حب الطمع وشهوة الربح والافادة لا تتنافى قط والروح الوطنية وحب الاوطان . والحاسة التي ميزت ، عام ١٧٩٢ لم تزل متأججة في النفوس . ' ففي نظرنا ، يقول ستانداي ، ان سكان بلجيكا الذين يقاتلوننا للبقاء تحت نير الاستعباد ، لم يكونوا سوى معتوهين حريين بالشفقة ، او خطفة باعوا انفسهم لهؤلاء الطغاة المستبدين الذين يحاربوننا . ومع ان التفاني في خدمة السيد يتصل بالتفاني بحب الوطن ويدوب فيه ، فنحن امام جيش جمهوري في الصميم ، هو على استعداد كلي لتدوين عواصم جديدة .

فالصادرة المستمرة وقانون جوردان الصادر عام ١٧٩٨ الذي فرض الخدمة العسكرية على الجميع ، ساعدا كثيراً على مد الجيش دوماً بدم حار جديد . الا ان تمويل هذا الجيش ، وتأمين العُدَد والعتاد الذي يحتاج اليها عن طريق الاسلحة ، لم يعد سهلاً المأخذ . ومثل هذه الصعوبات اعترضت المؤتمر الوطني من قبل ، عام ١٧٩٥ . وقد اصبح من الضروري ، والحالة هذه ، لا سيما بعد انقضاء العام الثاني من التقويم الجمهوري ، وقبل عقد المعاهدة البروسانية ، ان تقول الحرب 'الحرب' وان تقتدي بها . وهذه الحرب نفسها ستعمل على تأمين العيش للجمهورية كلها حتى وللقادة انفسهم . فالامة العظيمة لا تهنيء مجاناً ، اسباب التقدم لهذه القارة الاوروبية التي تترزع تحت عوامل التأخر والتقهقر .

فمنذ ان انطلقت شرارة الحرب الاولى ، عهدت حكومة الديركتوار الى بوناپرت ان يحسن الاستفادة من انتصاراته الداوية ومن فتوحاته العريضة ، الى اقصى حدود الافادة ، وهي مهمة سيقوم بها على الوجه الامثل . والدرس الايطالي الذي جاء مثالياً ، يجب الا يُخلط بينه وبين الدروس او الامثلة الاخرى . فالقائد العام سيصبح الممول الاكبر للنظام القائم في البلاد ، والاموال ستجري مصادرتها من صناديق اصحابها او من صناديق الائتمان حيث تودع ، وعلى البابا ان يدفع ، من جهته ، القسم الاوفى الذي قد يكون تجاوز ١٠٠ مليون ليرة ، ستستخدم بعض كنوز برن التي سقطت بيد الغزاة ، في تمويل الحملة الفرنسية على مصر . والى هذا يجب ان نضيف المواد العسكرية الاخرى ومصادرة اي مادة اخرى حتى اطلاق الفنون الجميلة . ونهب ايطاليا وتجريدتها من خيراتها كانت عملية عادت على فرنسا بخيرات اكثر بكثير مما عادت عليها عملية نهب المقاطعات الريفانية ، عام ١٧٩٤ . وقد خطر احياناً للسكان ان يعارضوا وان يعترضوا على اعمال السلب هذه فيتعرضون لعمليات كبت وقمع دامية . وقد اصدر بوناپرت امره يوماً باضرام النار ببدة بيناسكو وان يقتلوا كل سكانها .

وفي مدينة بافي اقتضى الامر يوماً إطلاق النار على اعضاء المجلس البلدي ، وأخذ ٢٠٠ من الرهائن كما أطلق بونابرت لأفراد جيشه العنان بنهب كل ما وقعت عليه ايديهم لمدة اربع وعشرين ساعة .

وهكذا تجاوزوا بعيداً الاعراف والعادات التي كان معمولاً بها في العام الثاني من التقويم الثوري . وستعرف الثورة الفرنسية ، حتى في ايطاليا ان تحتفظ بولاء المخلصين لها من يعقوبيين واحرار ، وقد عرف هؤلاء كيف يصانمون الفازي ويفوزون برعايته .

بالرغم من التراخي والتفكك الذي ابتليت به الدوائر الحكومية بونابرت في ايطاليا والتصدع الذي ألم بالرأي العام ، فقد كانت مهمة فرنسا ، في نهاية الامر ، أيسر مما كانت عليه عام ١٧٩٣ . ومع ذلك ، فقد مرت سنتان بين معاهدات مدينة بال والمفاوضات التمهيدية التي جرت في ليون والتي ادت الى انهيار النمسا واستسلامها .

ففي الحين الذي كان فيه القادة مورو وجوردان يرسفان مترددين على ضفاف الرين راح بونابرت يقود جيوشه المتجمعة عبر ايطاليا الشمالية ويطوف بها من ضواحي مدينة نيس الى أرباض مدينة فيينا . ابتدأت حملته هذه في ١١ نيسان عام ١٧٩٦ ، فتم له في أقل من خمسة ايام ، فصل النمساويين عن فرق البيامونت ، فدب الرعب في بلاط تورينو ، وجرى توقيع الهدنة في شبراسكو في ٢٢ نيسان . والبيامونت الذي اصبح اعزل من السلاح ، اضطر للتخلي عن مقاطعتي السافوي ونيس . وأخذت الضربات القاصمة تنهال اذ ذاك على النمساويين ، مما اتاح لبونابرت الدخول الى ميلانو ، في ١٥ ايار فاستقبله الاهلون استقبالا الفاتحين . واضطر دوق بارما ودوق مودينو والبابا وملك نابولي لطلب السلم وعقد الصلح . واجتاز نهر الأدّا في ٩ ايار على جسر لودي ، واذا بالجيش النمساوي بقيادة بوليو يرى نفسه محتجزاً في مدينة مانتو . وقد استنزف الامبراطور قواه في محاولة الاستيلاء على الموقع في نهاية السنة لانقاذ جيشه المحصور . وتمكنت الجمهورية ان تسجل عليه سلسلة من الانتصارات الداوية في كستفليوني وبسانو وأركول ، واخيراً في كانون الثاني عام ١٧٩٧ ، في موقعة ريفولي ، وسقطت مانتو في ٢ شباط ، وبذلك أصبح نابوليون بونابرت حراً طليقاً ، فاندفع بكل قواه باتجاه فيينا ، عبر جبال الالب . وبعد ان حل هوش محل جوردان في قيادة جيش الرين اجتاز النهر مع مورو . واذا ذاك ، لم تر النمسا بداً من الاستسلام فالقت سلاحها ارضاً ، ووقعت الهدنة في ٧ نيسان بعد المفاوضات التمهيدية في ليون .

وبعد ذلك بستة اشهر عقدت معاهدة كمبوفورميو التي تنازلت النمسا بموجبها لفرنسا عن المقاطعات البلجيكية واعترفت لها بحدودها على الرين مروراً بمدينة بال . وبالرغم من حكومة الديركتوار ومعارضته ، فرض بونابرت السلم الذي اراده على ايطاليا : فوجد ثلاث

جمهوريات توابع في شبه الجزيرة الايطالية ، هي جمهورية ما وراء الالب *Rép. Cisalpine* التي تشكلت من مقاطعة الميلانية ولبارديا بعد ان تخلت النمسا عنها في معاهدة كمبوفورميو وجرى توسيع رقعتها بضم مقاطعة فالتالين ومقاطعات اخرى اقتطعت من البندقية ، وممتلكات البابا ودوق مودينو ، وجمهورية عبر بادوا *Rép. Cispadane* التي انشئت على حساب الآخرين والتي لم تدم ان انضمت الى جمهورية ما وراء الالب ، واخيراً الجمهورية الليغورية التي حلت محل جمهورية جنوى القديمة . وهناك جمهورية اخرى حرية بكل احترام قامت وزالت سريعاً ، من البندقية ، التي ترك امرها للنمسا تعويضاً لها عما خسرت ، عن الممتلكات البرية حتى نهر الاديج . فالصلح النابوليوني ابتداءً بما يشبه «بولونيا» . فليس ما يحمله على ان يترحم على الدبلوماسية التي جرى عليها العهد البائد القديم .

فالفتح الجديد له خصائص مفرقة من نوع خاص . ان تمثيل البلدان المفتوحة وصهرها وانشاء دويلات توابع تدور في فلك الجمهورية الفرنسية قلب الوضع السياسي والاجتماعي في قسم كبير من اوروبا رأساً على عقب وظهر لبطن وارتفع بذلك عدد المحافظات الفرنسية من ٨٣ محافظة الى ١٠٢ ، وسياسة الضم التي سارت عليها حكومة الديركتوار منذ معاهدة كمبوفورميو أكسبت فرنسا مدينة مولهوز ومونتبليار وجنيف حاضرة محافظة لمان . وهكذا دخلت كل هذه المدن ضمن الوحدة الفرنسية . وفي كانون الاول عام ١٧٩٨ ، أعيد احتلال البيامونت بعد ان فر ملكه في اثر الدسائس والمؤامرات التي دبرها ممثلو فرنسا في هذا البلد .

قامت الى جانب فرنسا والتف حولها سلسلة من الجمهوريات التوابع الجمهورية الشقيقات لها دساتيرها ونظمها الخاصة مستمدة كلها من دستور العام الثالث ومفصلة على شكله ومثاله . فجمهورية بتافيا التي أنشئت من قبل عدلت دستورها عام ١٧٩٨ الى « جمهورية واحدة لا تنقسم عراها ، أساسها سيادة الشعب وسيطرته » . فالقوائم الانتخابية الموضوعة في البلاد لا يمكن لها ان تضم اسم اي شخص ما لم يقسم مسبقاً انه يحمل « حقاً أزرق » لحكومة الستاتودر وللروح الفدرالية والارستوقراطية والفوضى . يُحرم من حق الاقتراع ، لمدة عشر سنوات على الاقل ، كل من عُرف بمخصومته وعدائه « لمبادئ الثورة المعلنه عام ١٧٩٥ » . فقد زخر كل مكان في ايطاليا بهذه النوادي ترفرف فوقها الحرية والاعلام المثلية الالوان : الازرق والابيض والاحمر ، التي تم اقتباسها عام ١٧٩٤ . والدساتير الموضوعة عام ١٧٩٧ ، والموطىء لها بوثيقة اعلان حقوق الانسان وواجباته لا تقل بشيء عن دستور جمهورية بتافيا . فالتمثل لا يطبق النصوص بحرفيتها والقادة الفرنسيون لهم فرحتهم الكبرى في تعيين المرشحين للانتخابات ، وتقنية الادارة من كل ما يشيها ، مطبقين في الخارج ما طبقه الديركتوار لحسابه في فرنسا . وكثيراً ما هيجوا الروح الوطنية بتدخلهم في شؤون البلاد الداخلية ، باعثن اليأس في قلوب حلفاء فرنسا ونصرائها ، منتقصين من كرامتهم وخافضين من



٥ افينيون
قصبه المحافظة حدود المحافظة حدود ١٢٩٠ حدود ١٨٠٢

شأنهم . كل هذه التغييرات التي وقعت على حدود فرنسا بدت للاروروبيين نجاحاً مسرحياً للثورة العارمة . والسبحة زادت حباتها بإنشاء الجمهورية السويسرية ، في نيسان ١٧٩٨ . وهكذا تمت تقوية حدود فرنسا في الجنوب الشرقي ، من مرتفعات الجورا حتى مشارف البحر الابيض المتوسط ، كما ان هولندا ، تحميها من الشمال . والنظم الثورية تمتد وتوسع لتغشى املاك الكرسي الرسولي نفسه . ففي شباط من تلك السنة ، نودي في ساحة الفوروم بإنشاء الجمهورية الرومانية . فلقد كان سبق للبابا ان ابرم معاهدة تولنتينو مع الثورة الجهنمية وقبل بالتنازل لها عن بعض ممتلكات الكنيسة . اما الآن فقد اصبح في قبضتها . وقد تم لبرتييه وللفتنة الديوقراطية السيطرة على روما . فألقي القبض على البابا بيوس السادس وأبعد الى فرنسا حيث اسلم الروح بعد القليل من وصوله اليها .

الكلترا وحدها بقيت واقفة على قدميها ، بعد ان تمكنت من عزل بوناپرت في الحلف الثاني مصر التي تم له فتحها ، وذلك بقضائها ، في ١٨ آب ١٧٩٨ ، على الاسطول الفرنسي في موقعة ابو قير . ووقفت معها روسيا ايضاً التي لم يتم لها ان تظهر بعد في الغرب . فقد اطلقت على الغرب بزم ودف ، في ربيع ١٧٩٩ . فقد خلف القيصر نصف المعتوه بولس الأول الذي اقض مضجعه الخوف من العقبين ، منذ أكثر من سنتين بقليل ، الامبراطورة كاترين الثانية . فانضمامه الى الحلف الثاني الذي تألف في اواخر عام ١٧٩٨ ، من انكلترا والنمسا ، فتح لاساطيله مضايقة الدردنيل وفتح له ان يرفع العلم الروسي على الجزر الايونية ، وسيبقى العلم الروسي مرفرفاً عليها حتى واقعة تلسيت ، وقد اتيح للجيش الروسي - النمساوي بقيادة سوفوروف ان يفتح ايطاليا الشمالية برمتها وان يتجه في آب نحو محافظة الدوفنية . ودخل كوراكف الملقب رفسكي (أى الروماني) سويسرا ، ونزل جيش انكليزي روسي في هولندا . والنمساويون الذي حققوا انتصارات لهم في المانيا منذ شهر آذار ، أخذوا يهددون الحدود الفرنسية من جهة الرين . وقد راح الحلفاء يضمون خطة شاملة لاعادة الاوضاع الى نصابها الاول ، ليس في ايطاليا فحسب حيث يرغب سوفوروف باعادة الوضع الى ما كان عليه قبل الاحتلال الفرنسي ، بل في كل مكان ، وذلك بمساعدة خصوم الثورة واعداؤها الذين اخذوا يعملون على اثارة مقاطعة الفرانك كونتيه والجنوب والغرب .

وقد اتخذت الشؤون الحربية اتجاهاً جديداً في مطلع الخريف ، اذ تمكن مسينا من سحق الجيوش الروسية بقيادة كورساكوف ، في زوريخ ، في ٢٥ - ايلول ، كما ارغم بعد ذلك ببضعة أيام الجنرال سوفوروف الذي كان يزحف على زوريخ على التراجع والتقهقر نحو الشرق في احوال مضنية وظروف مهلكة . وفي الوقت ذاته تمكن الجنرال برون من كسر الانكليز والروس معاً في هولندا وارغمهم على الانسحاب من البلاد وركوب البحر . واذ ذاك استدعى الامبراطور بولس الاول جيوشه ، فاذا بفرنسا تجدد نفسها ، كما كانت عام ١٧٩٥ ، وجهاً لوجه ، مع النمسا لوحدها تقريباً في القارة . فالقنصل الاول الذي فاز بالنصر في مارنغو ، في حزيران ١٨٠٠ ،

املى على العدو شروط الهدنة ، الذي تعهد باخلاء لمبارديا والبيامونث . وفي كانون الاول ، حقق الجنرال موررو في هوهنلندن انتصاراً مبيناً ، فتح أمامه طريق فيينا . فلم يعد أمام النمسا الا الرضوخ والاستسلام وتوقيع شروط السلم بعد ذلك بشهرين ، في لوفيل ، فجاءت هذه المعاهدة تؤيد وتؤكد التنازلات الارضية التي نصت عليها معاهدة كجوفورميو ، والاعتراف بالجمهوريات التوابع التي انشئت في ايطاليا . باستثناء القطعة التي احتفظت بها في مقاطعة فنيسيا ، فقد تخلت النمسا بالفعل عن كل ايطاليا ، للجمهورية الفرنسية .

وجاء في نهاية الأمر دور انكلترا التي لم تقل رغبتها في السلم عن رغبة فرنسا فيه . وكانت الاضطرابات الديموقراطية لا تزال تمزق شعبها وارضها ، ، وقد زاد الاضطرابات تأججاً ولهباً نشوب ازمة اقتصادية ، بلغت فيها اسعار الحبوب رقماً قياسياً في القرن التاسع عشر . وتقرب بوفابرت من الدول المحايدة التي ألغت من ضمنها عصبة قصيرة الأمد ، للدفاع عن حرية التجارة تألفت من قيصر روسيا ومن بروسيا ضد انكلترا . وقد قدم بت استقالته قبل توقيع معاهدة لوفيل ببضعة أيام . وجرى التوقيع على مقاضات لندن التمهيدية في أول تشرين الاول ١٨٠١ ، كما وقمت معاهدة السلم في اميان *Amiens* ، في ١٥ آذار التالي . فاعادت انكلترا الى فرنسا ولحلفائها الاسبان وجمهورية البناث المستعمرات التي استولت عليها باستثناء مستعمرة الكاب وسيلان وجزيرة الثالث ، هذه الجزيرة الجميلة التي من غلالها السكر . وقد قبلت تحت شرط بالتخلي عن مالطة . وفرنسا من جهتها ، اعادت مصر الى اصحابها . والمهم ان كل شيء تم بصمت وسكون : فبلجكا وضفة الرين اليسرى واوروبا القارية الجديدة وسيطرة فرنسا الثورية . والصراع الضخم الذي اقام الدول بعضها على بعض لم يعد قط حرباً بين مجتمعين بل هو عراك في سبيل اقتسام العالم ، هو منافسة حول السيطرة ، كما بدا هذا الصراع مجهوداً ضخماً تقوم به الدول ، بعد ان اختل ميزان التوازن الدولي في اوروبا ، محاولة اعادة هذا التوازن ، في هذا الوقت بالذات الذي يعمل فيه التجاوز النابوليوني على إذكائه واهاجته .

الفصل الثالث

نابليون والعالم

(١٨٠٢ - ١٨١٥)

اولاً - أقدار نابليون ١٨٠٢ - ١٨١١

تألفت الجمهورية ، عام ١٨٠٢ من ١٠٨ محافظات بعد ان ضمت اليها
الحصار النابوليوني
وموقف الدول التوابع
البيامونت . اما قوتها السكانية فكانت تعادل ، الى حد بعيد ، قوة
روسيا من هذه الناحية . فالكثلة الغربية بما لها من دول متحالفة او
واقعة تحت الحماية تمتد من قانس جنوباً الى بحار الهانزا شمالاً ، ومن برست غرباً الى انكونا
شرقاً . ففيها أكثر من ثلث سكان القارة الاوروبية .

وموقف الدول التوابع تميز منذ نشأة الحلف الثاني بانضباطية أكبر سياسياً وادارياً
واجتماعياً . فقد جرى انتخاب بوناپرت ، منذ مطلع السنة ، رئيساً لجمهورية ما وراء الألب
سابقاً بعد ان اصبحت الآن الجمهورية الايطالية . وبدلاً من الدساتير الديركتوارية حلت الآن
دساتير « قنصلية » ، الى ان تحل محلها في العام الثاني عشر من التقويم الجمهوري دساتير
امبريالية . كذلك اخذ بالارتفاع عدد الدول التوابع ، الذي جاء علةً او معلولاً ، نتيجة
للاتصارات المتلاحقة . وهكذا طلعت لاحقاً الدساتير الهلنتيكية (السويسرافية) سنة ١٨٠٢ ،
و ١٨٠٣ ، والدساتير الجمهورية أو الملكية الهولندية ، عام ١٨٠١ ، و ١٨٠٥ ، و ١٨٠٦ ،
والقانون الدستوري للجمهورية الايطالية الذي ظهر في العام العاشر ، والقانون الدستوري
لمملكة ايطاليا في سنة ١٨٠٥ ، ولمملكة نابولي عام ١٨٠٦ ، ولدوقية فرسوفيا ، ولمملكة
وستفاليا ، عام ١٨٠٧ ، ولملك البافير واسبانيا ، عام ١٨٠٨ ، ولدوقية فرانكفورت الكبرى
عام ١٨١٠ . وقامت انظمة حكم تمثيلية من نماذج والمخاط متنوعة جداً في قسم متزايد من بلدان
اوروبا . وخلفات الاعراف الماضية التي تفاوتت وضوحاً ، ميّزت الى حد بعيد ، دساتير الدول
التوابع الجديدة الا انها اصطبغت أو تمازجت ، على العلوم ، مع اعلان حقوق الانسان الاساسية ،

غالباً ما كان بينها حرية الصحافة وحرية العبادة . كل هذه الدساتير تضع في يد النبلاء والاشراف الذين يُنتقون على أسس صعبة من شروط دفع الضرائب ، حق الاقتراع والتصويت على الضرائب والشرائح وفقاً لاحكام النصوص الرسمية ، التي يتوقف تطبيقها ، الى حد بعيد ، على الظروف السائدة ، أو على أمزجة المالك وطبائعهم . فروح الحكم الاستبدادي أو الطغيان يبقى قائماً متحكماً . فملك ورتنبرغ يكاد لا يستغني بشيء ، مجلس شورى القوانين . فالامثلة الفرنسية حاضرة امام الازدهان في كل مكان مع التحالفات والنواشز النابوليونية ، وغيرها من ضروب والوان التحالفات التي وقعت في الخارج . فنابوليون يطرح جانباً بالمجلس الايطالي . ومراقبة الجرائد والمسارح لم تبارح اي مكان . ومع ذلك فالحكم الاستبدادي المطلق والنظام الارستوقراطي ، في نكوص وتأخر متلاحقين ، ايضاً كان . وفي كل مكان تسير في الطليعة ، البورجوازية والطبقات الوسطى ، حتى في هذه البلدان التي ما زالت طبقة النبلاء فيها وطبقة الاكليروس تحافظان على ما لهما من تمثيل خاص بهما . فاصحاب الاملاك والتجار ، ورجال الفكر واصحاب المهن الحرة يصلون على اقدار ونسب كبيرة ، الى عضوية المجالس والهيئات التمثيلية .

وهكذا نزع النظام السياسي الفرنسي ، على اقدار تختلف كثرة أو قلة ، لان يصبح النظام السائد في اوروبا . وكذلك قل عن نظام القارة الاداري . وهذه الروح الموحدة ذاتها التي هي روح الثورة أو روح الامبراطورية ، تدفع الناس على التخلص من سوء تجربة الادارات السابقة ، فيستعينون على ذلك ، بكل ما كانت له قدرات وقابليات ، في سبيل جعل البيروقراطية أكثر فعالية واقدر على جمع الضرائب وتحصيلها ، وافعل في حشد الانصار والازلام والمحاسيب . فلو قيض الله لهذا النظام امداً اطول وبقاء اوسع وارحب لكانت اوروبا النابوليونية برمتها « كونت شعباً واحداً ولكان المسافر الذي يرغب في الارتحال وجد نفسه ، ايضاً توجه وايضاً هبط أو دبت رجلاه في وطن واحد مشترك » . ورجال الادارة الذين يجري انتقاؤهم محلياً يستمرون في تخاطبهم بالالمانية والايطالية ، مثلاً ، مع التزام كبار الموظفين بينهم تعلم اللغة الفرنسية . وانشئت في ايطاليا الشمالية مدارس ثانوية ، منها مثلاً ثانوية ميلانو للآلات « التي كانت منقطعة النظير حتى في فرنسا نفسها » . وقد تكونت في شبه الجزيرة الايطالية فرقة هندسية عم نشاطها الولايات الليرية نفسها ، كانت تعنى بالفسور والطرق ، كما قامت فيها مصالح مستقلة تعنى بإدارة التعليم ، ومصلحة الرهونات ، وشيئاً فشيئاً ادارة مركزية في المحافظة . وفي الطرف الابعد من المدى النابوليوني ، قسمت دوقية فرسوفيا الكبرى ، الى محافظات واقضية ، كما قام النظام المالي فيها على مثال النظام المالي في فرنسا ، تحت مراقبة دائرة التفتيش المركزي . وقد رحبت السلطة ، في كل من البافير وورتنبرغ ، خير ترحيب ، بهذه المستجدات الادارية ، وعززت على تقوية فعاليتها الادارية .

والام من هذا كله - وهنا الميزة الرئيسية - هو ان النظام الاجتماعي
الثورة وانتشار
الفرنسي ، نزع قبل كل شيء ، الى العالمية او الشمول ، داخل الحدود
الفرنسية ، وهو شيء طبيعي جداً ، هذه الحدود التي كانت تتسع
باستمرار ، فرعية الامبراطورية تولى صاحبها ، قبل كل شيء ، المساواة المدنية والحرية دون
ان يضطر يوماً بعد يوم ، لفتح هيبانه ، ودفع ضرائب سيادية ورسوم اخرى ، وكلها عوائد
تقلص ظلها في كل مكان ، باستثناء الولايات الإليرية . وفي جميع المناطق التي تتألف منها هذه
الكتلة ، نرى الضرائب العاصمة تنهال على الاقطاعية وعلى النظام الطبقي القديم . فوثيقة اعلان
حقوق الانسان تأتي ديباجة الدستور البنفاي المعلن عام ١٨٠١ ، وهذا الدستور الذي ينادي
بالمساواة المدنية ووجوب الغاء الرسوم الاقطاعية . والدستور السويسري يعلن امكانية اقتداء
عوائد الارض الدائمة ولا سيما الاعشار ، وقانون الوساطة الصادر عام ١٨٠٣ ، يعلن مبدأ
المساواة المدنية . وفابوليون يقسم عام ١٨٠٥ ، بعد ان نودي به ملكاً على ايطاليا ، ميثاقاً دستورية
مشابهة لليمين التي يؤديها رئيس الجمهورية الفرنسية ، فيقسم بالله العظيم : « ان يحترم المساواة في
الحقوق ... واستحالة الرجوع عن بيع الاملاك الوطنية ... » وفي سنة ١٨١١ ، تبدو المساواة
المدنية القسطاس الفصل الذي تسير عليه الدول التوابع . والاسس الزراعية التي ارتكز اليها
العهد البائد لم يعد لها من وجود ، او هي في طريق الزوال الى الابد . فاملاك النبلاء وغير النبلاء
هي سواء امام القانون ، وباستطاعة الصماليك ان يصبحوا من اصحاب الاملاك . والفناء رقى
الأرض يحرق ليس الانسان فحسب ، بل ايضاً ، اليد العاملة . فقد نصت على هذا الالفاء ،
دساتير هولندا وايطاليا ووستفاليا والباوير وجراندوقية بيرغ ، واسبانيا وهس . فالعبوديات
الجسمانية زالت كلها من الوجود . الا ان الغاء العوائد قابلة للاقتداء ، والقيمت فقط السخرات
التمسقية . اما في ايطاليا واسبانيا الجنوبية ، فقد احتفظ الناس بالعوائد التقليدية . وكثيراً ما
يضطر الفلاح تحت ستار افتداء العوائد ، الى وضع يعمل فيه كرايع . وفي بولونيا نفسها ، هذه
الرقعة الخاضعة للامبراطورية النابوليونية ، في بلاد عدوة ، اصبح نظام العوائد المترتبة على
الارض ، مخلفاً . وفي سنة ١٨٠٩ ، اغرق الفلاحون ، في مونستر ، تحت سيل من المطالب التي
راحوا يتساءلون فيها عما اذا لم تكن الاراضي الواقعة على ضفة الرين الشمالية قد اصبحت
متحررة ، وهكذا نرى ان سياسة الثورة النابوليونية هي سياسة قامت على المناسبات ،
فاوجدت في المنطقة التي سيطرت عليها ، تنويماً كبيراً . الا انه ليس من يشك قط في
توجيهاتها العامة . وهكذا فالنظام الاجتماعي القائم في فرنسا ، نزع دوماً الى الانتشار
والتوسع ، اينما كان .

والعانون النابوليوني الذي عم تطبيقه المجال الدولي ، سيصبح ، ولا شك ، اداة مثل في
تأمين التزامن أو التوقيت المشترك . فبانتشار هذا القانون ، انتشرت المبادئ التي نودي بها
عام ١٧٨٩ : المساواة بين الناس والاراضي والتركات ، والتسامح الديني ، وعلمنة الاحوال

الشخصية ، والطلاق . فقد وضعت هولندا ، هذا القانون ، موضع التنفيذ ، وفي سنة ١٨٠٦ ، مُرجم الى الإيطالية بغية تطبيقه بين الايطاليين . وفي سنة ١٨٠٧ ، تبنته نابولي ، بعد ان ادخلت عليه تمديدات طفيفة اقتضتها ظروف الكتلثة ، التي هي ديانة السواد الاعظم من سكان البلاد . كذلك دخل هذا القانون معظم الدول الألمانية ، كما دخل معظم المدن الداخلة في الاتحاد الاقتصادي (*Hanséattque*) والى الولايات الإليرية . وفي سنة ١٨١٠ تبناه قرصوفيا ، ويراهنون على دخوله الى كل من اسبانيا والبرتغال .

وتستمر الثورة ، من جهة ثانية ، في خلق مناطق نفوذ اجتماعي لها في البلدان العدو ، مع العلم ان الحرب كثيراً ما وقفت سداً منيعاً وحاجزاً دون هذا الانتشار وجرت الى تعديل مبادئها أو الى مقاومتها ، مثيرة في وجه المستعبدات الفرنسية ، الشعور الوطني . وهذا لا يمنع قط الجماهير من ان ترفع العلم المثلث الالوان وان ترتدي القبعة الحمراء ، خلال الانتخابات التي وقعت ، عام ١٨٠٢ في فوتنهام . والقارة لم تكن معصومة قط او سليمة من هذا القبيل . فستعمل بروسيا من جهتها ، على الاخص ، للتخفيف من هذه المؤثرات وذلك عن طريق اصلاحات سياسية واجتماعية ، سنعود للتكلم عنها بعد حين .

الجيش والتكتيك النابوليوني
هذا الحصار البري الضخم القائم في الغرب والذي يزداد ضخامة يوماً بعد يوم ومحانساً ، يقابله حشد بري جبار ، بإمكان ثورة عارمة هوجاء ان تقوم وحدها به . فـ نابوليون لم يغير شيئاً في نظام حشد الجيش ولا في نظام تعبئته العام . فقد ابقى سائر المفعول ، جاري الاخذ به ، قانون جوردان الذي يحدد العدد اللازم في السنة وذلك بواسطة نظام القرعة . فعدد المدعوين للخدمة العسكرية ينمو باطراد سنة بعد سنة من جراء اتساع رقعة فرنسا ، الا انه عدد لم يتجاوز مجموعه في اي حال ٢٦ ٪ في مجموع المسجلين . وعملية المزج او الملمعة تستمر وتعمم : فالقوامى في الجيش يتولون تدريب الشبان خلال الحملة نفسها . والترقية هي من نصيب من يتحلون بالشجاعة والبسالة اكثر مما هي من نصيب اوفرهم علماً ومعرفة . وقد فتحت الترقية ، امام الطبقات الوسطى امكانيات رحبة وفرصاً ذهبية للترقى والتقدم . فالجهاز الحربي لم يتغير ولم يتبدل . وحرص نابوليون على تقوية جهاز المدفعية التي بالرغم من عجز مصانع الحرب كان لها شأن كبير ومساهمة واسعة في تقرير مصير الاشتباك الحربي . والحرس ، هذه المنظمة الجديدة التي تشكل قوة بوليسية من الدرجة الاولى ، يؤلف من ناحية ثانية جهازاً مستقلاً ، كما يؤلف في نهاية المطاف ، احتياطياً ثميناً .

واذ رفض نابوليون العودة الى عملة الورق ، فقد آثر ان يقوم بحروب قليلة الكلفة ، سريعة الفعالية ، نظراً لصعوبة التموين . فالحرب الخاطفة تنفق تماماً ومزاجه الخاص . فهي تحافظ ، في الصميم ، على مبدأ التكتيك والستراتيجية الذي سارت عليه جيوش الجمهورية .

فالمركة التي تشترك فيها الكتلالات الحربية، يتركز الهجوم فيها بالدرجة الاولى على العدد. فالعدد يزرع الرعب في الخصم ويرهبه. فشجاعة الجند ونشاطهم وقوة احتمالهم، وتفانيهم في ساحة الرغبى، كل هذه العناصر تساعد القائد وتوازره في المبادرة التي يقوم بها. وعبادة الامبراطور لتحمل محل عبادة الجمهورية الشخصية وتتلبس قيمتها المعنوية، كما يحمل الشرف محل الروح الوطنية. وكلما ازدادت هذه العبادة وقويت تناقصت، من جهة ثانية فعالية هذا الجيش الذي سيحارب بنشاط اقل وبروح أخف في اوروبا الشرقية، ليس بالنسبة للظروف المحلية والجغرافية القائمة فصعب، بل ايضاً لانخفاض محسوس في قيمة افراد الجيش وقواده والمرشالية، وللسمامة الكبرى التي طلب من الدول التوايع تقديمها للجيمورية.

وهذه القوة الديموغرافية والسياسية والاجتماعية والعسكرية الضمغة التي تمثلها الوضع الدولي الثورة النابوليونية، جاءت الاوضاع الاقتصادية تزيد من فعاليتها. فبالرغم من الحرب ومن الحصار القائم، كان الوضع الدولي، في مجموعه، حتى نشوب الازمة بين ١٨١٠ - ١٨١٢، ملائماً للغاية.

لا شك ان الحصار البري ألحق بالنوافذ خسائر فادحة. فالمرافىء اعترتها الكساد والتجارة مع المستعمرات أصيبت في الصميم. وقد عجزت بعض الدول التوايع عن تصريف انتاجها الزراعي ومحاصيلها من الخشب. وكان من الضروري تكيف التبادل التجاري مع الظروف الجديدة، واعداد الطرقات وجعلها صالحة للمرور والتنقل في كلا الاتجاهين. فالهاور الرئيسية تنطلق من ستراسبورغ ومن ليون. فالاولى تؤمن الاتصالات بالمانيا، والثانية بايطاليا، الا ان المواصلات تصطدم هنا، بجبال الألب. وقد انجزت عام ١٨٠٥، طريق مجاز السبلون، وسنة ١٨٠٦، الشعبة المارة بجبل سني، وفي سنة ١٨١٠، شعبة الكورنيش حتى مدينة سبازيا، واخيراً مددوا المواصلات البرية باتجاه راغوز وليساخ لتسهيل وصول الحرير من بلدان الشرق الادنى. وبالرغم من اهمية حجم البضائع المنقولة عبر هذه المسالك والممرات، فقد قصرت جداً عن تعويض النقل البحري. وقد ابى نابوليون الاخذ بفكرة انشاء مناطق اقتصادية تقتصر من المسافة المقطوعة وتحد منها. فقبل ان يفكر باوروبا كانت فرنسا تهتم بالاكثر. وعيناً اقترحوا عليه انشاء اتحاد جمركي الماني واتحاد جمركي ايطالي. فهذا العايت الاكبر بالحدود والمقوض لها، أثر بالاحرى استمرار الحدود والحواجز الجمركية. فقد اغلق في وجه انكلترا موافىء الدول التوايع ولم يفتح لها بالمقابل، الاسواق الفرنسية، باستثناء ايطاليا. وهكذا بقي النظام الاقتصادي في اوروبا بعيداً عن كل مركزية وتضرس كثيراً من هذا التقسيم الجغرافي ومن الجمارك الداخلية التي بقيت دوائرها قائمة.

واذ كتب على اوروبا ان تعيش ضمن اقتصاد مغلق، فقد عرفت مع ذلك ان تكيف نفسها وفقاً لهذه الظروف الاستثنائية التي عاشتها اذ ذاك. فبعد ان تخلصت من المنافسة الانكليزية،

اخذت الصناعة المحلية والاقليمية تتطور وتنمو بسرعة من ذلك مثلاً صناعة الخرزوات وصناعة الاسلحة في مقاطعة تورنج حتى ان صناعة نسج القطن اخذت تزدهر في الساكس . وصناعة سكر القصب نمت كثيراً في منطقتي فرنكفورت ومجذبورغ . وقد عاد الحصار البري بفائدة عظيمة على البلدان المجاورة لفرنسا كسويسرا وايطاليا الشمالية . وارتفع الدخل القومي في اكثر هذه البلدان . واكثر من ذلك ايضاً الارباح التي حققها ارتفاع الاسعار بالعملة الذهبية للمنتوجات الصناعية والزراعية . ووضع فرنسا الذي سبق وصفه من قبل ، قوفر مثله من جديد هنا . فالبورجوازية ، هي المستفيدة الكبرى من ارتفاع الاسعار ، هنا كما في فرنسا ، وعلى هذا قس ايضاً المجال الزراعي . فالمزارع الكبير وكبار الملاكين توفرت لهم مقادير كبيرة قابلة للتجارية بعد ان ادت الفاء الضرائب والرسوم السيادية الى ازدياد محسوس في عذدهم . فالحيطة المادية وحركة الاعمال جاءت في صالح هذه الفئات النبيلة صاحبة النفوذ ، بعد ان دعاها النظام القائم للمساهمة في حياة البلاد السياسية والتحرر الاجتماعي .

النبوغ النابوليوني
هذا الحصار البري الضخم والمواد الجسيمة التي يتناولها يمثل ذرائع نبوغ
واساليب سياسية لم يعرفها الاّن تاريخ العصر الحديث ، وهذه الوسائل
الهائلة هي بتصرف نبوغ فرد واحد أحد : نابغة حرب ونابغة سلم ، ونابغة سرعة حركة
ونابغة فعالية يزيد من طاقتها تخيلة رومانطيقية ، جامحة ، ويحركها مزاج مغامر لبق ، وسار في ركابها
وعمل في خدمتها ، حتى معركة إنسا حظ يفلت الصخر ، بسملة القدر طويلاً وقد توفرت له عبقریات
ومهارات من اقوى ما عرفه العصر ووسائل غلبة ، قاهرة ، بطاشة .

في وجه هذه الكتلة ، كل ما تبقى من اوروبا لم يعرف ان يؤلف كتلة أخرى تجابهها .
وشعور هذه الكتلة ليس من يراتب فيه . فالالمانى فردريك دي جنتر الذي نقل بورك وماليه
دي بان الى الالمانية ، والذي سيضع نفسه قريباً في خدمة بلاط فيينا ، عبّر عنه خير تعبير ، عقب
معركة مارنغو ببضعة أيام . فقد تنبأ بقرب نهاية العالم أمام التقدم الذي لا يقاوم تحققة الثورة
الفرنسية .

سيقدم في وجه المجتمع البشري بكامله عصر هائل ، من شأنه ان يقلب ، كما تحدثني مشاعري ، كل النظم القائمة
وكل المبادئ التي يقوم عليها هذا المجتمع . فالجيل الحاضر سيفرق في لجج من الشرور والويلات على يد الثورة التي
لم تبتلح حتى الآن سوى ضحاياها الاول .

سواء أُسِّم على أوروبا بالموت أم لا ، فقد انهالت عليها الضربات القاصمة وقد خاضت
الحرب متخاذلة الصغوف . فالفرق الروسية والنمساوية والبروسيانية والانكليزية لم تقم حتى
الآن باي اتصال بعضها ببعض في الغرب . وهذه الشعوب لم تجتهد على هذه الفرق والوحدات لا
يحسمها ولا يروحها .

ثانياً - الفتوحات النابوليونية^(١)

وهذا الخطر الوطني والاجتماعي الموحد الذي تشكله القوة الفرنسية الرهيبة والذي يزرع على صدر اوروبا ، لم يكن ، عام ١٨٠٦ ، ليتسع لأكثر من هدنة عابرة . فبعد ان وصل نابليون بانتصاراته الداوية الى رئاسة البلاد وتولى قيادتها لم يكن ليرضى او ليسلم بان يضمه بأي جزء من الأراضي التي احتلتها جيوشه ، مهما كان ضئيلاً . فالقسم الامبراطوري الذي أقسمه في العام الثاني عشر ، فرض عليه ، من جهة أخرى ، « المحافظة على سلامة وصيانة اراضي الجمهورية » . واكثر من هذا ، فقد أخذ يفكر في مضاعفة المنافع والفوائد التي تمكن من تحقيقها حتى الآن . وتقوية لنفوذه وهيبته ، راح يثير او يخلق اوضاعاً مثيرة يتحتم عليه فيها ، عندما تحين الضربة الأخيرة القاسمة وساعة الفصل ان يقول : « بلاها اضعفها » مثلاً يقول المؤرخ الفرنسي جورج لوفيفر .

وهذا النفوذ يريده في كل الحقول والمجالات : في عالم التجارة كما ساحة القتال . ولكي يعيد الازدهار الى فرنسا ، كما كانت عليه قبل الحرب ، والى البلدان التي فتحها ، اختط سياسة الاستبداد ، هذه السياسة التي سار عليها من قبل ، الاستبداد المستنير . الا انه لا يستطيع استعادة الاسواق العالمية الا على حساب لندن . فحكومة بـت كانت قبلت ، بعض الشيء ، بمعاهدة اميان ، على امل منها ان تستعيد اسواقها في اوروبا الغربية . فسياسة كولبير التي اعتمدها نابليون ، جاءت تعارض خططها ، كما ان سياستها الاستعمارية تمت عن مخاطر اكبر وأدهى . فقد استطاع البريطانيون ان يحتكروا محاصيل الاقطار الاستوائية وان يفيدوا منها فوائد جمة . وكان الناس يستبضعون في لندن البن والشاي ، والسكر والافاويه . ولذا عزم بوناپرت على ان يتخلص مرة واحدة من هذا الحكر ومن هذه الوصاية ، باستغلاله الى اقصى حد ، جزر الانثيل ، كما فرغ باستئثار مقاطعة لويزيانا . الا ان استعادة العمل بالنخاسة بعد ان رأى فيها الضمانة الوحيدة لاعادة هذا الازدهار ، ادى الى نشوب الفتنة والعصيان في جزيرة سان دومينيك . وبالرغم من تدخل لوكليز وتوقيف توسان لوفرتور ، اعلنت الجزيرة المذكورة استقلالها في تشرين الثاني عام ١٨٠٣ . وقد اصبحت فرنسا ، في السنة نفسها بفشل آخر في مقاطعة لويزيانا . فالحملة التي قام بها الجنرال فكتور اهاجت الولايات المتحدة الاميركية ، ولذا آثر بوناپرت ان يدخل معها في مفاوضات انتهت ببيعه المقاطعة المذكورة بـ ٨٠ مليوناً . والبعثات التجارية التي ارسلها الى الجزائر وتونس وطرابلس الغرب ، والى سوريا وحتى الهند اقلقت جداً لندن والوزارة البريطانية . وهكذا بدا الصراع بين الدولتين الاستعماريتين امراً لا بد منه . فانككترا التي شيدت قوتها على التجارة البحرية تحرص كل الحرص على ان تبقى في طليعة الدول البحرية ، كما انها رفضت ، من جهة ثانية الانسحاب من الموقع الاستراتيجي المهم ،

(١) راجع ص ٥٦١ ، خريطة اوروبا سنة ١٨١٠ .

الذي تمثله جزيرة مالطة ، بعد ان نصّت على هذا الانسحاب معاهدة اميان ، وفقاً لشروط معقّدة .

والاصطدام بين انكلترا وفرنسا بدا امراً لا مفرّ منه ، في القريب العاجل . ففي ايار ١٨٠٣ ، اصدرت الوزارة الانكليزية امراً بمصادرة كل السفن التي ترفع العلم الفرنسي . وجاءت ردة الفعل عند نابوليون ان امر بتوقيف كل الانكليز الموجودين في فرنسا ، كما اصدر امره للجيش الفرنسي ، باحتلال المانوفر والموانئ الإيطالية . وعرف ان يؤمن من جهة اخرى ، التعاون بين هولندا واسبانيا . ولكي ينزل بانكلترا ضربة قاصمة اخذ باعداد حملة غزو وإتزال في الجزر البريطانية ، وهي حملة وضع خططها عام ١٧٩٨ . فجمع في هذا السبيل ، اكثر من ٢٠٠٠ سفينة مسلحة الظهر ووضعها تحت تصرف الجيش الذي حشده حول مرفأ بولوني . ولكي يتمكن من النزول في انكلترا ، كان لا بد له من ابعاد الاساطيل الانكليزية والهاتها ، أقله لبضعة ايام ، فعهد الى الاميرال فيلنوف ، بعد نجاحه من معركة أبوقير الجريئة ، بمهمة اجتذاب الاميرال نلسون الى جزر الاندليل ، بالتعاون على ذلك مع الاسطول الاسباني ، على ان يعود فجأة لبحر المانش بغية حماية عملية الاتزال في انكلترا . وقد تمكن نلسون من تحطيم اسطول فيلنوف امام رأس الطرف الآخر ، في تشرين الاول ١٨٠٥ . وهكذا رجحت انكلترا الشق الاول ، واحتفظت لوحدها بالسيادة على البحار . وكان عليها ان تحتاط لنفسها فتؤمن لها حلفاء اقوياء ، بين هؤلاء الملوك الذين يتهددهم خطر مشترك . ولكي تضمن تحالفهم معها ، فقد قبلت بتحمل الأعباء المالية الباهظة ، مستعينة على ذلك باليسر والرخاء العام الذي تتمتع به انكلترا ، والازدهار الدولي الذي يطبع الوضع السياسي والذي غمر جميع البلدان ، فسّهلت عمليات القروض ، كما سهلت جباية الضرائب والرسوم المفروضة . وقد ردت انكلترا على فرنسا « بتجديد الجنيه » بقرض داخلي در عليها ٣٣ مليون ليرة انكليزية بينما لم يعطِ القرض الذي عقده عام ١٧٩٢ سوى ٩ ملايين لا غير .

أرغمت النمسا على الخضوع فوقعت معاهدة 'لُونِفِيل' التي سمحت
نابوليون والدول الكبرى
في اوروبا
بادخال بعض تعديلات جغرافية على الامبراطورية الجرمانية المقدسة ، قام به نابوليون عام ١٨٠٣ . وجاء الفرمان (*Recess*)
الذي صدر في شباط يخفض عدد الوحدات السياسية التي تتألف منها الامبراطورية المذكورة الى ٨٢ وحدة ، ويُعلن الامارات الكنسية لمصلحة كل من بروسيا والبايفير . وبذلك اصبحت غالبية الناخبين فيها من البروتستانت مما اقلق بال النمسا وازعجها كثيراً . ومن جهة اخرى ، انت ضم البيامونت ، منذ ايلول ١٨٠٢ ، وتوسيع رقعة الجمهورية الإيطالية ، والمشاركة على سويسرا بعد ان اصبحت بونابرت ، الوسيط ، في مطلع عام ١٨٠٣ ، اثار من جهة اخرى ، غضبها . فهي لا يمكن ان تسكت عن السيطرة الفرنسية على ايطاليا والمانيا ، كما لا يسعها الاطمئنان للخطر البعقوبي الثوري الجاثم على حدودها ، وكذلك انكلترا . فالموقف السلبي الذي وقفته حتى الآن

لم يعد من الجائز الاستمرار فيه . فهي ستخرج من سلبيتها لدى الفرصة الاولى . وبالفعل فالاتفاق الانكليزي الروسي الذي تبدى للقيصر اسكندر الاول بشكل تحالف مقدس ، يؤلف نطاقاً صعباً يعزل فرنسا ويحكم المراقبة حولها بعد ان يعيدها الى حدودها الاولى . وقد انضم الامبراطور فرنسوا الاول لهذا الحلف في آب ١٨٠٥ ، وأمر جيوشه بالزحف على البافير حليفة نابوليون . وللحال قام الجيش الكبير بحركة التفاف بارعة وتحرك من بولوني الى الرين ، واخذ بمحاصرة الجنرال ماك في مدينة « أولم » ، الذي اضطر للاستسلام في ١٥ تشرين الاول . وبعد ذلك بشهر تقريباً ، دخل الجنرال مورات مدينة فيينا ، حيث رُفِّفَ العلم المثلث الالوان فوق المدينة التي صمدت في وجه الاتراك كما صمدت في وجه السويديين ، وجرى احتلالها لأول مرة . وفي الثاني من كانون الاول ، عند الساعة الثانية ، من بعد الظهر ، انهارت البقية الباقية من القوة الروسية النمساوية ، في معركة اوسترلتز . وعلى الاثر انسحبت روسيا القيصرية من الحلف المقدس . وقد قبلت بروسيا التحالف مع فرنسا مقابل السكوت عن احتلالها مقاطعة الهانوفر الانكليزية . وهكذا وضعت شروط الصلح في بضعة اسابيع : ففي ٢٦ كانون الثاني ١٨٠٥ ، تم طرد آل هابسبورج نهائياً من المانيا ومن ايطاليا . واجبروا على التخلي عن لقب امبراطور . وهكذا فالصفحة المفجعة التي نُحِطَّت في كمبوفورميو ، جرى تمزيقها بعنف في برسبورغ كما تم ضم مقاطعة البندقية الى الجمهورية الايطالية .

وهكذا قضى على الامبراطورية الجرمانية المقدسة لتفسح المجال امام طلوع الامبراطورية الكبرى التي بلغت الحد الاقصى من القوة . فالرومسية النابولونية ، تعمل على افراغ اوروبا الاخذة بالذوبان ، حيث كان يمكن ان يحدث كل شيء ، ولو بصورة مؤقتة .

وفي تموز سنة ١٨٠٦ ، أنشئ حلف الرين الذي تشكل من عدد من الامراء الالمان انضمت اليهم البافير وورتمبرغ ، وقد كان نابوليون الحامي لهذا الحلف والمدافع عنه . هذه التغييرات الجديدة لم تكن لتترك بروسيا غير مبالية بالامر ، لا سيما وقد جرى البحث اخيراً في باريس ، خلال المفاوضات الانكليزية الروسية ، حول امكانية إعادة الهانوفر الى انكلترا ، مقابل بعض التمويض . واذا ذاك ينذر فردريك غليوم الثالث ، الامبراطور بوجوب التخلي عن المانيا والا فالحرب . وقد وصل بلاغ اعلان الحرب في ٧ تشرين الاول ١ٸ٠٦ . فقد ورد الجواب بعد هذا التاريخ بستة ايام ، اي من ٨ — ١٤ منه . ففي المساء من ١٤ ، في اثر معركتي إينيتا واورستادت ، زالت من الوجود دولة بروسيا التي انشأها فردريك الكبير . فبعد ان قُطعت اوصالها وجرى احتلالها وفرضت عليها غرامة حربية باهظة ، لم يبق لها وجود في خريطة اوروبا ، حتى عام ١٨١٣ . ودخل نابوليون برلين في ٢٧ منه ، حيث كان سبقه اليها الجنرال دافو المنتصر في معركة اورستادت ، بيومين . اما الحملة ضد الروس فتستمر ثمانية اشهر ، اي من شهر كانون الاول ١٨٠٦ الى حزيران ١٨٠٧ . وسار نابوليون للاقاء الروس . فأثار دخوله مدينة فرسوفيا ، حماسة البولونيين ، فاستقبلوه استقبال الفاتحين . الا انه لم يرد إعادة بولونيا الى الوجود ، بل

اكتفى بأن انشأ فيها ادارة مؤقتة، وعمل على تأليف جيش من ابنائها وعلى تأمين أوّد جيوشه. الا ان الحظ اخذ يتعرج في بروسيا الشرقية ، عند مداخل روسيا وامام الشتاء الروسي . فمعركة «أيلو» لم تحسم الخلاف ولم تضع حداً للحرب. وفي حزيران يفاجئ نابوليون الجنرال بنيفسن في قواعده في فريدلاند ويحطمه. فاذا بنابوليون يقدم للامبراطور اسكندر الاول اكثر من هدنة، فهو يقترح عليه عقد تحالف معه ويتم الاتفاق في اجتماع قلّست على حساب بروسيا وبالتالي على حساب انكلترا . وتفقد بروسيا مقاطعاتها الواقعة غربي نهر الايلب ، هذه المقاطعات التي يشنون منها مملكة تكون من نصيب جيروم بونابرت ، هي مملكة وستفاليا ، وتفقد كذلك هذه الولايات البولونية التي تكون غراندوقية فرسوفيا . وهكذا امتدت سيادة فرنسا وسيطرتها حتى نهر الفستول . وهكذا بالتحالف مع روسيا يتسع الحصار البري ضد انكلترا ليشمل كل اوروبا تقريباً .

الحصار البري ونتائجه
آمن نابوليون بفعالية السلاح الاقتصادي وجدّواه ، هذا السلاح الذي لم يثبت التاريخ فعاليته، منذ ذلك الحين . والمرسوم الذي اصدره في برلين في الحادي والعشرين من تشرين الثاني ١٨٠٦ ، عبثاً اعلن الحصار حول الجزر البريطانية ، اذ لم يغير كثيراً من الوضع السابق ، وذلك ، لان اوروبا كانت تؤلف سوقاً رئيسية للصادرات البريطانية ، فالاقسام الاخرى من العالم كان لها عندها حساب اكبر . فكانت البضائع الانكليزية تتغلغل في اوروبا محملة على سفن حيادية . وقامت انكلترا نفسها بردة فعل . فبعد ان قصفت مدينة كوبنهاغن ، أسرت الاسطول الدانماركي ، كما استولت على جزيرة هليغولاند وانزلت فيها حامية عسكرية ، باتجاه سكاكيا ، بحررة بذلك مداخل البحر البلطقي . وقد اصدرت الوزارة البريطانية امراً بتفتيش كل السفن المحايدة التي تمخر عباب البحر . ورد نابوليون على هذا التدبير من ميلانو اذ يعلن عن عزمه مصادرة كل سفينة تقبل بتفتيشها . ولذا كان لابد من اختيار احد الأمرين . ونجح الحصار البري كان يتوقف الى حد بعيد على انتصارات الجيش الكبير . فضخامة هذا الجيش عرضته لمواطن الضعف والنفاذ ، فاستمرت مدينة همبورغ مثلاً مركزاً للنشر وتوزيع البضائع الانكليزية التي كانت تصلها باستمرار بصورة متواصلة . وعلى هذا سارت أيضاً مدينة لشبونة بالرغم من وجود الجنرال جونو فيها ، الذي جعل منها عام ١٨٠٧ ، مقراً له ، بعد ان ارغم الاسرة المالكة على الانتقال الى البرازيل .

ولكي يؤمن الجنرال مورات المواصلات وحرية التنقل ، احتل شمالي اسبانيا ثم مدينة مدريد نفسها ، مهدداً الطريق ، عن غير رضى ، لاعتلاء جوزف بونابرت عرش اسبانيا . وبذلك حمل الشعب الاسباني على الثورة والعصيان . وقد كان لهذا الحادث شأن كبير اذ قام لأول مرة منذ عام ١٧٩٢ ، حرب شاملة بين أمة وأمة أخرى . وتجنيد الانكليز للجنيه سيمتيح لها تجنيد الرجال بصورة هدية . ولكي يعيد نابوليون الوضع الى ما كان عليه اضطر لاستخدام الجيش الكبير، الا انه لم يتلق من القيصر الذي طلب منه اثناء المقابلة التي ختمتها معاً في ارفورت،

تحالفاً ضد النمسا ، سوى جواب مبهم ، ولذا رأى نفسه ملزماً بقيام حملة سريعة في شبه الجزيرة الأيبيرية، لم تأت بأثر قط . فحرب المناوشات التي قام بها الأسبان بعد إستباحته البلاد، في كانون الثاني ١٨٠٩ ، كانت أكثر فتكاً من قبل .

وراح البلاط الامبراطوري في فيينا يبني له قصوراً في اسبانيا . تمكن ولا شك من ان يعيد تشكيل جيشه بعد انهزامه الماحق في اوسترلتز ، ووضع في الخدمة جيشاً كان اقوى جيش بعد الجيش الفرنسي في اوروبا ، جاش بروح وطنية عارمة . الا ان السياسة التي اتبعتها حكومة فيينا كانت جد محافظة ، كما ان النمسا كانت وحدها في حلبة الوغى ، باستثناء انكلترا ، والفرن القائمة في كل من اسبانيا والبرتغال . انفجرت الحرب دون اعلان سابق من النمسا ، واستمرت ثلاث سنوات . وقبل مرور سنة واحدة تمكن نابوليون من الدخول الى عاصمة آل هابسبورغ ، من جديد . واصل فيينا الذي جرى توقيعه في شهر تشرين الاول ، بعد انتصار الفرنسيين في معركة وغرام بثلاثة اشهر ، جرد النمسا من مقاطعة غاليسيا ومن الولايات الواقعة على البحر الادرياتيكي . فالاولى اعطيت غنيمة باردة لفرانكوية فرصوفيا التي ترمز الى بولونيا ، بينما كانت الثانية ، من نصيب الامبراطورية الكبرى . وهكذا امكن احكام الحصار البري حول انكلترا بعد ان اضطرت النمسا للانضمام اليه والعمل بقتضاه .

نزولاً عند متطلبات هذا الحصار ، استمر نابوليون في قلب اوربا رأساً على عقب . فضم اليه الممتلكات البابوية وهولندا ومدن اتحاد الهانزا . ففي وجه هذه النمسا التي درست درساً وعزلت تماماً عن البحر ، وامام بروسيا التي قصت اجنحتها وأقصرت على بروسيا الشرقية والبراندبورغ ويوميرانيا وسيليزيا، انتصب هذا البناء الامبراطوري المشمخر الذي ضمت جنباؤه ٧١ مليوناً من البشر منهم ٢٧ مليوناً لا غير من الفرنسيين الصميمين . وهذه الامبراطورية تمتد من الزويدرز شمالياً الى جبال الپيرانيس جنوباً ومن روما الى ممبرج ، وتبلغ مساحتها ٧٥٠,٠٠٠ كلم^٢ . وقد قسمت الى ١٣٠ محافظة . ويستند الى هذه الامبراطورية عدد من الدول والتوابع اقامتها حولها نطاق وقاية تألفت من ولايات وراثية في العائلة ، أو من اقطاعات أو من احلاف لها . وكورسيكا التي كانت رئيسة الجوقة عرفت ان تخدم ابناءها الخدمة المثل . فابناء اسرة نابوليون تقاسموا فيما بينهم العروش والتيجان : فنال جيروم ملكة وستفاليا ، وجوزف ملكة اسبانيا ، ومورات ملكة نابولي . وكان على كل واحد من هؤلاء ان يمثل لارادة رئيس الاسرة الماتي والقائم بالوصاية على من هم في حكم اولاد قاصرين ، له ملء الحرية بجل أو ربط كل الروابط الزوجية ، والمتصرف دونما رقيب أو حسيب ، بشخصيتهم . والامبراطور، مع ذلك، هو المتبوع الأكبر وحكمه الاستبدادي يتلاءم مع النظرية الاقطاعية القديمة التي لا تزال تسود اوروبا الوسطى . فقد احتفظ له في كل دولة من هذه الدول التوابع ، بعدد من الاقطاعات الخاصة يوزعها كيفما شاء على رجال بطانته مدى الحياة ، بينها امارات كأمارة نيوشاتل مثلاً

التي كانت من نصيب برتبيه ، وأمارة بنيفانت التي راحت لثايران ، و ٦ دوقيات في ولاية البندقية و ١٢ في دلماتيا . وهذه المقاطعات تدخل في المحالفات الجديدة ، سواء أكانت اتحاد هلفيتيا (سويسرا) أو المملكة الايطالية أو غراندوقية فرسوفيا أو حلف الرين . وقد شدد من روابط التبعية ووشائجها عن طريق المصاهرات التي اخضع لها اخاه جيروم وبرقيه واولجين وبوهارنيه . وفرض في كل مكان الاصلاحات التي يقتضيها الوضع ، فوحد بين مجموعها وطسّد فيها المركزية .

وهذا البناء لا يخلو مع ذلك من فجوات وثغرات ، لا سيما في النواحي المطلّة منه على البحر ، اتاحت للبضائع الانكليزية بالنفاذ منها والتغلغل فيها ، بعد ان نشطت حركة التهريب في كل مكان وانسرحت بعيداً في البلاد . ففي ليل ١٧ - ١٨ تشرين الاول ١٨١٠ ، رأّت فرنكفورت نفسها محوطة باحدى فرق الجيش . وبعد اعمال التحري والبعث وجدوا بضائع انكليزية الصنع لدى ٢٣٤ تاجراً من تجار المدينة . وقد زادت الصادرات الانكليزية في هذه السنة وزّدت ما سجلته من قبل من ارقام قياسية ، كما ان قيمة هذه البضائع ضربت الرقم المسجل . كذلك سجلت الكمية المصدرة مثل هذا الرقم ، باستثناء السنة التي عُقد فيها صلح اميان . وهذا الحصار الذي أريد منه أن يحطم التجارة الانكليزية لم يستطع ان يوقف عند حد نشاط هذه التجارة .

ثالثاً - يقظة الروح القومية وانتصار اوروبا

راحت قوى التحلل تفعل فعلها في الداخل والخارج على السواء ضد القوى المادية الامبراطورية . فقد ملّت اوروبا نابوليون الخدمة العسكرية وسُمّت هذا السير الذي لا ينقطع للطواوير الحربية ، واستمراضات الجيوش واعمال المصادرة التي لا تنتهي عند حد ، وهذه الضرائب التي لا تنفك . فقد تضاعفت الضريبة بين ١٨٠٨ - ١٨١٢ في غراندوقية برغ ، وازدادت ثلاثة اضعاف في مقاطعة فينسيا . وهذه الشعوب التي غلبت على امرها والتي أمضت الاحتلال الدائم وأفضت روحها المنتصر وغدواته نحو العاصمة او باتجاه اطراف اوروبا القيصيّة ، وأرزحها الغُرم الذي اناخ عليها بكلكلة عقب انكسارها ، كل هذه العلل خلقت في نفوس سكان هذه البلدان روحاً من التذمر والتأفف والاهتياج اخذ يتزايد ويتصاعد . وهذا الحصار البري ألحق في العالم كله الاذى والضرر سواء من جهة المنتجين او من جهة المستهلكين ، كما ان السياسة الجمركية التي انتهجها نابوليون اهاجت البلدان التوابيع بعد ان اوصدت في وجه سكانها او كادت ، ليس البحار فسحب ، بل ايضاً البر الفرنسي نفسه مع انها أُجبرت على فتح اسواقها للمحاصيل الفرنسية معفاة من كل رسم . والبلاد التي تمّ ضمها الى فرنسا او أُجبرت على السير في فلكها لم تمثل دوماً للاوامر التي تبلغتها كما انها لم تلتزم السير والصراف المرسومان لها دون خشية على نفسها من الرسوم الاقتصادية التي فرضتها عليها فرنسا . وقد راح اصحاب الحرف ينعمون بجمعياتهم ونقاباتهم التي ألغيت . وازدادت حركة التذمر هذه

حدثه كلها عيبت الاقدار للجيش الفرنسية وقسا الحظ لها . وقد بدا ان عهد الازدهار زال وارتفع منذ عام ١٨٠٩ كما أخذت تهبط باستمرار اثمان المواد الصناعية . ثم تأتي بعد ذلك الأزمة الاقتصادية الدورية عام ١٨١١-١٨١٣ التي قفّرس الجميع بأثرها البالغ . فراححت أوروبا بأجمعها تعزو أسباب هذه الأزمة للحصار البري ان لم يكن للمستجدات الفرنسية التي 'فرضت على البلاد . والارستوقراطية العقارية التي 'عرفت بعدائها لهذه الاجراءات بعد ان أسقط في ايديها في تصريف محاصيلها من الحبوب والاشباب ، والواسط البورجوازية نفسها التي كانت اسهل اتصالاً واقرب ، راحت كلها تشدد من مقاومتها الوطنية بعد ان أصبح نابوليون في نظرم المفسد الاقتصادي الاكبر .

والقوى الدولية عملت هي الاخرى عملها كالقوى المادية ، مثلاً بمثل ، في المجال الروحي والادبي . فالصراع العنيف الذي قام بين نابوليون والبابا ، منذ عام ١٨٠٩ ، حل على الوقوف ضد هذه السياسة الخرقاء ، كل من اعتنق العقيدة الكاثوليكية ، بحيث ان العداء ضد فرنسا النابوليونية انتشر بين جميع طبقات السكان .

فالصير مرتبط فقط بهارة الحكومات في تجميع الشعوب وشدها عصبية واحدة تقف في وجه الثورة وان تستعمل ضدها الوسائل التي عرفت وحدها ، حتى الآن استعملها .

فان لم تعرف أوروبا اللانابوليونية ان تستغل هذه الظروف السالحة بما فيها من مادة بشرية ومادة تقدمية ، على الوجه الاكمل ، وان تؤلف من دولها حلفاً عاماً ، فقد كانت مع ذلك هي صاحبة الكلمة الاولى في القارة . وأوروبا هذه تتألف ، عام ١٨١٢ ، من انكلترا ومن المغلوب على امرها من دول القارة . فالدول المفروض فيها ان تكون صديقة او حليفة ، لا يستقيم النفوذ الفرنسي فيها الا عرضاً . فالدائماتك التجارية في الصميم هي في منأى منه جزئياً . والسويد التي عهدت بعرش ملوكها الى شخص برنادوت ، هي منافس قسوي لنابوليون . وبعض حلفاء فرنسا كالبافير مثلاً ، هم موضوع شك وريبة . ولم يلبث الامبراطور اسكندر الاول ان استفاق من احلام تلسيت المعسولة : فقد احولى له ان يلعب دور « حامي الدول المضطهدة والمسيحيين الارثوذكس في البلقان » وقد اضطر للتخلي عن حمايتهم عام ١٨١٢ ، بعد ان بنوا قصوراً على مساعدته ضد الاتراك العثمانيين .

بالطبع كان على نابوليون ان يحسب حساب الحقد الازرق الذي يجيش ضده في صدر الارستوقراطية التي كثير ما هيزئت بهذا « الوصولي » وضحككت من لبائته المستجدة . فاذا ما تبنت بعض المبتكرات التي طلع بها النظام الجديد ، فعلى مقدار ما يتفق هذا مع مصالحها الاساسية ، وعلى نسبة ما كانت تحشاء من قوة فرنسا الحربية كانت توجس شراً من المبادئ التي أعلنها الثورة . والنمسا التي صار الامر فيها للامبراطور فرنسوا الثاني وللمستشار مترنيخ منذ صلح شونبرون ، تمثل بخير تمثيل ، هذا الشعور . ان زواج الاميرة ماري - لويز

من بونا برث سجل حلقة مخجلة جديدة في سلسلة الخطوات المخجلة التي خطاها الامبراطور ، في نظر بعض أوساط المجتمع القديم . فالارشيدوق لم تكن ، في نظر مترنيخ ، سوى ذريعة من هذه الذرائع التي استعان بها الخلة التحالف الفرنسي الروسي . ان حيا د بلاط فيينا الطويل في صراع يحمل في ثناياه خطراً أكيداً على فرنسا لم يكن من الامور الواردة .

علينا ان نبعث في غير مكان عن الوسائل والاساليب الاخرى التي اعتمدت في هذا الصراع . فقد اظهر قيصر روسيا ارتياحه ، بعد تلسيت ، لمشروعات الاصلاح التي وضعها سيرانسكي والتي كان لها دور بعيد الأثر على العوامل الغربية . فقد سلم القيصر اسكندر الاول ، عام ١٨٠٩ ، بإنشاء مجلس تمثيلي (دوما) يُنتخب اعضاؤه انتخاباً ، من قبل اصحاب الاملاك في المقاطعات ، كما وافق على قيام دوما امبراطوري يتولى التصديق على الموازنة والقوانين . الا انه اكنفى بالواقع ، عام ١٨١٠ ، بإنشاء مجلس استشاري كما وافق على خلق مراكز وزارية . وقد اشترط للدخول في خدمة الدولة النجاح في مباريات عام تنظم في هذا السبيل ، وانعم على الكفاءات التي تؤيدها الشهادات الجامعية برتب الشرف . وستقوم فيما بعد اصلاحات اخرى ، منها مثلاً وضع تشريع مستوحى من القانون النابوليوني . الا ان الارستوقراطية وقفت منها موقفاً معادياً . فقد وجهت الى سيرانسكي تهمة التواطؤ مع فرنسا فغلبت عنه الامبراطور فراحت مشاريعه الاصلاحية مع الريح . ومع ذلك فقد ارتدت الحرب ، في تلك السنة ، طامعاً من الشدة كان دوماً بازدياد . ودخل الشعب الروسي المعمة اكثر مما دخلها الشعب الاسباني ، مقدماً في سبيلها ، راضياً مرضياً ، الجنود والعتاد ، واحداً اكثر من ٤٠٠،٠٠٠ ، دفعة واحدة ، تحت تصرف الحكومة ، عام ١٨١٢ . والغزو الفرنسي قابله البلاد ، بهبة عامة قام بها الشعب وراح الاكليسوس الأرثوذكسي يذكي في النفوس روح التعصب والروح القومية ويدعو للمقاومة والصمود في وجه الغزاة .

فبالجاء الى القوى الوطنية والاعتصام بحبلها يبدو على الاكثر ، في
البعطة البروسية
والرومنطيقية الالمانية
بروسيا ، مع ما اقتضى ذلك من التنازلات وقطع الوعود
والتضحيات التي لا بد منها ومواجهة الاخطار الاجتماعية العارضة .
فبعد ان اتخذ فردريك غليوم الثالث من كونيغسبرغ عاصمة له اثر هزيمته النكراء ، فقد قبل خدمات بعض الضباط امثال شارنهورست وغنايسنو ، كما عرف ان يستدرج خدمات بعض رجال الادارة المشهورين امثال شتاين للقيام باصلاحات جذرية في الجيش والدولة . فقد عرفوا ان يؤمنوا في المجال المدني ، التعاون بين البورجوازية وكبار الملاكين ، في كل ما يتصل بالامور السياسية . كذلك أعيد النظر في صميم الاوضاع الاجتماعية . فقد عرف كبار الملاكين ان يحافظوا على ما لهم من قوة بالرغم مما اصابهم من خفض في امتيازاتهم . والمرسوم الذي صدر عام ١٨٠٧ ، اباح تملك الارض لكل من يستطيعه . فبما كان المتهمدين ان يفقدوا العوائد المترتبة عليهم . وقد ألغى رق الارض . وقد أوقف الاصلاح في منتصف الطريق بعد ان قرر شتاين الأبقاء على القيود

الشديدة التي غلّت طبقة الفلاحين ، كما رفض التخفيف من الروابط الاقطاعية . واستأنف الأخذ بهذه الاصلاحات ، عام ١٨١١ ، هاردنبيرغ فتناولها بروح أخرى ، فقد ألغى القرار الصادر عام ١٨١١ ، العبوديات القائمة لقاء التخلي عن بعض ريع الارض للسيد ، محرراً بذلك الفلاح ، الا انه شجع كثيراً توسع الملكيات القائمة على الرأسمالية . وامثل هاردنبيرغ لارشادات «ثاير» ونصائحه ، فقابل النبلاء هذه الاصلاحات بمعارضة شديدة . ومجلس الاعيان الذي تم تعيين اعضائه في شباط ، اوقف جلساته في تشرين الثاني . ولم يبق قائماً غير مجلس القضاء والهيئات البلدية المنتخبة من قبل البورجوازيين . وقد ادّى الاصلاح الحربي الى نتائج قيمة محسوسة بالرغم من نفقات جيش الاحتلال ، والغرامة الحربية التي فرضت على البلاد . وادرك كل من شارنهورست وغنايسنو جيداً ان القضية الحربية هي ، قبل كل شيء ، قضية اجتماعية واستشهد على ذلك بالمثل الفرنسي . وقد ابدى غنايسنو دهشته واستغرابه « لهذه القوى غير المحدودة الكامنة في قلب الشعب الالماني ، التي لم يعرفوا حتى الآن كيف ينموها ويفيدوا منها الى الحد الابدع » . فتأميم الحرب وادخال الأمة بأسرها في اطار الجيش ، كل ذلك يفرض جيداً انسكاب الشعب في صميم الدولة . فعدم المساواة بين افراد الشعب ، والامتيازات التي ينعم بها المجتمع الطبقي في البلاد يقيم الحواجز والفواصل بين الشعب الواحد ويحول دون تحقيق هذا التجمع والحشد العام الذي يسمح وحده بالتجنيد العام . وفي سنة ١٨٠٨ ، افسح النظام الذي وضعه كرومير المجال لاعداد أطر الجيش الوطني الذي استشراف شتاين ، شكله وصورته ، من قبل ، وراح شارنهورست يقلل من عدد الاعفاءات ، ويلغي العقوبات الجسائية ويفتح امام الجميع سُلّم الرقي الى مراتب الضباط ، مع انه لم يتمكن من كسر الاحتكار الذي فرضه كبار الملاكين على الرُتب العليا . وعندما اخذ الوزراء البروسيانيون بتنظيم ادارة الجيش ونفخ الروح الحربية بين صفوفه ، جعلوا من برلين التي انشئت فيها ، عام ١٨١٠ ، الجامعة وفقاً للتصاميم الذي وضعها هوبولت ، المحور الاكبر لاجرار الفكر الالماني .

واستولى القلق على الشعب ، وقامت منظمة *Tugendbund* ترأب الموظفين وتفتقي اثر الاشخاص الذين يستسلمون للهزيمة أو يعملون على الترويج لها .

والرومنطيقية الالمانية اسهمت ، من جهتها ، بهذا البعث الوطني الالماني ، وهي حركة تنمو وتمتد في بلدان أخرى ، بما لها من خاصيات تجعلها تلتصب في وجه الشعوبية الثورية والنابوليونية .

وقد ساعدت هذه الحركة المانيا اكثر من أي بلد آخر ، على تجميد فكرة النبلاء . فراح «فخت» يعلم ، منذ عام ١٨٠٧ ، بان الشعب الالماني الذي يتمتع وحده بين الشعوب بلغة فرضت احترامها على الاجيال المتعاقبة ، فلم تسمح قط بدخول المؤثرات الاجنبية الفاعلة اليها . فالشعب الالماني هو « شعب الله المختار » و « الخير الذي سيخمر الارض » . وراحت جامعة هيدلبرغ ، تمنى بالبحث عن القصص الشعبي الالماني الفولكلوري وتعمل على تكسيفه وترجمته الى لغة العصر

امثال *Niebelungen*، ووجدت في ما يسميه «جامن» عام ١٨١٠، *Le Volkstum*، اسس حضارة جماعية مستقلة، بحيث امكن لشتاين ان يكتب قائلا: «من هيدلبرغ انطلقت الشعلة الالمانية التي قُبِض لها ان تطرد الفرنسيين من البلاد».

ومها يكن، فالخريق اتسع واصبح شاملا في الاشهر الاولى من عام ١٨١٣. فالوطنيموت وانصار الحرب بقيادة شارنهورست نجحوا في نهاية الامر بالفوز بفردريك غليوم الثالث والخروج به من التردد المميت الذي كان يتخبط فيه. وفي شباط وجه الملك نداء يدعو فيه الشعب للحرب ويلشء الجيش البري *Landwehr*، ويأمر بالحشد العام «بشدة وعزم لم يتم للجنة السلامة العامة من قبل شيء منها» وانتقلت الحماسة من طلاب الجامعة في برلين الى البورجوازية وطبقة النبلاء. وبروسيا التي خرجت من اجتماع تلسيت مهينة الجناح لا تضم غير خمسة ملايين نسمة، ستتمكن من حشد جيش جرار قوامه ٣٥٠,٠٠٠ جندي.

وعلى درجات متفاوتة من الحماس والاستعداد دخلت الدول الاخرى حومة الوغى ضد فرنسا: هي حرب الجماهير المتكئة ضد فرنسا. ولاول مرة منذ عام ١٧٩٣ تتحالف دول اوروبا الكبرى الثلاث وتتكفل دون ان يند عن الصف احد، فتضم قواها وحشودها الحربية بعضا الى بعض. ومما هو خير لها من عام ١٧٩٣، فقد تمكنت من تأمين الانسجام في التدقيق. فاللعبة البولونية لم تعد لتتفع شيئا. فها مليون جندي يتهاون للانقضاض على الجيش الكبير.

وقد وقع هذا بالفعل، في الوقت الذي اخذت فيه تتراجع القوى الفرنسية وتلثني. فالجرب التي لن تتأخر عن احراقها قد التهمت النخبة من شبانها وشبابها كما التهمت الفرق التي طالما تمرست بالحرب فالتفت خيرا لاطر لهذا الجيش. ومع ذلك فالمادة البشرية لا تزال متوفرة. والوضع يقتضي له الحشد الكامل ولكن بشروط اقصى بكثير مما اقتضاه عام ١٧٩٣. فاعيان العهد لا يرغبون قط في المغامرات الاجتماعية التي تؤول اليها الحرب. فبعد ان اطمأؤوا، في المجالين المدني والسياسي، راحوا يبدون كل استعداد للتضحية بكل شيء في سبيل سلامة الوطن والحفاظ عليه. فقد اختل توازن القوى الفكرية والروحية: فهي الدعابة التي يقوم بها الحلفاء تلشظ بين صفوف الفرنسيين انفسهم تدعوم للسلم والاستسلام. فقامت في الغرب قلاقل. وقامت الارستوقراطية وبعض عناصر البورجوازية ترشح بالفزاة. وما هي خزينة الدولة فارغة والمال ينقص بعد ان انقطع المورد الاكبر: الحرب على حساب الآخرين، والتسليف العام الذي لا يزال في طور الجرثومة يتنكب ويتوارى، والركون الى الاسيئاه، امر لا يمكن تصوره او التفكير به.

وللقضاء على الثورة الفرنسية في الشكل الذي تلبسته والاتساع قوى على قياس الثورة الفرنسية الذي بلغته والشأ الذي حققته، كان لا بد من قوى بقياس هذه الثورة وبضخامتها: قوة العدد المادية تجيش بالشعور الجماعي او قوة الطبيعة العديدة. وقد

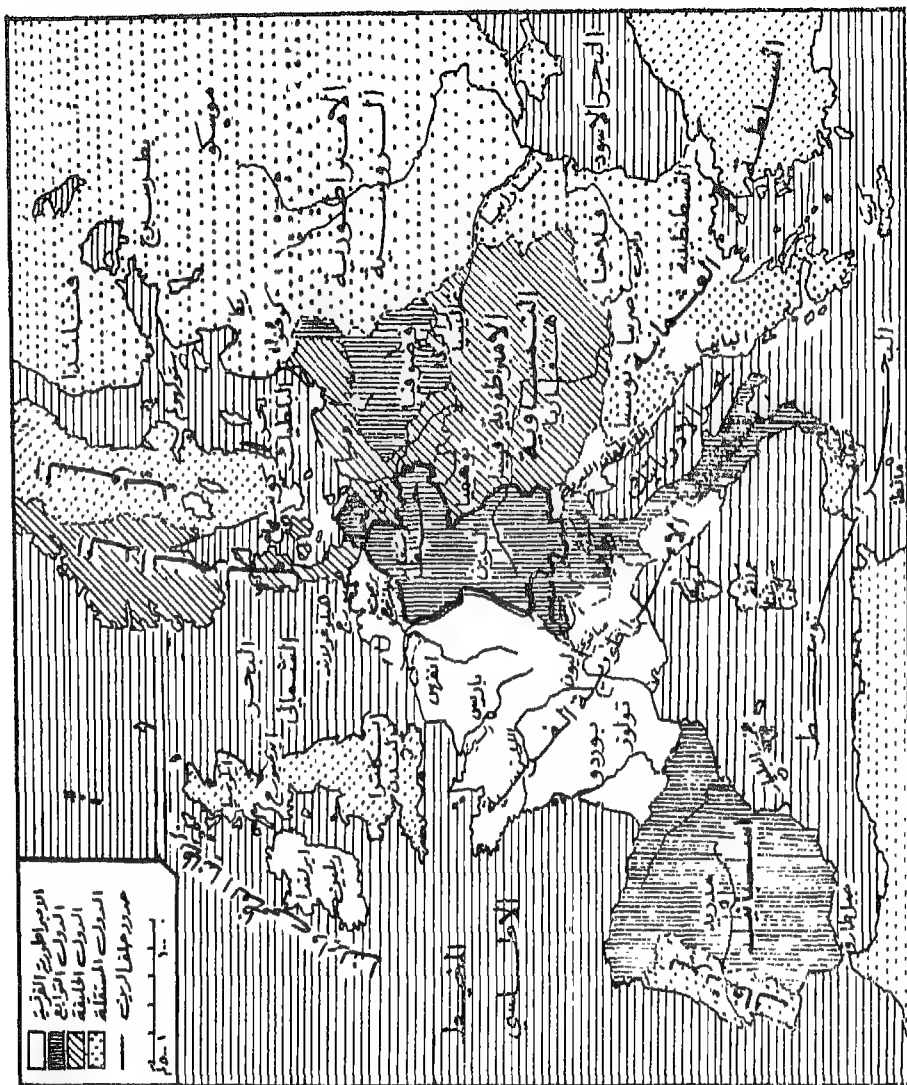
استبطرت هذه القوى وتلك ، بين ١٨١٢ - ١٨١٥ فيها هو الفضاء الروسي ، والشتاء الروسي ، والعدد الروسي ، والعدد الاوروبي ، والروح القومية المستشيطه التي أوقظت من سباتها العميق والجبرؤوت المالي الذي توفر لسيدة البحار .

واخذت الاحداث تتوالى سراعاً : ففي اقل من ١٦ شهراً ، اي من ٢٤
النصر الروسي حزيران ١٨١٢ ، وهو تاريخ ببدء الحملة على روسيا ، الى ١٦ - ١٩ تشرين
الاول ١٨١٣ ، وهو تاريخ انكسار نابوليون في ليبزيغ عبرت القوة وانتقلت من الجيش الكبير
الى صفوف الحلف الكبير .

فوقوف طبقة النبلاء الروسية ، في وجه فرنسا النابوليونية والامتداد غير المحدود الذي
حققته فرنسا والذي جعل من روسيا الحليفة دولة من الدول التوابع ، كل ذلك ادى ، بعد
تأسيس ، الى القطيعة التامة بعد عام ١٨١٢ . فأى وزن بعد يأتى ، وأي قيمة لهذه المكاسب
تحققها روسيا بانتزاعها ولاية غاليسيا الشرقية على حساب النمسا ، عام ١٨٠٩ ، وبانتزاعها عام
١٨١١ ، فنلندا من السويد ، وبسارابيا التي احتلتها عام ١٨٠٦ ، انتزعتها نهائياً من تركيا عام
١٨١٢ ، بإزاء المدى الفرنسي العظيم واتساعه الرحب بحيث قطع القارة برمتها وانتصب عملاقاً
من البحر البلطقي حتى البحر الادرياتيكي؟ والعمليّة تمت احياناً ، كما حدث في مقاطعة اولدنبورغ ،
على حساب صهر القيصر ووريثه العتيد في المستقبل القريب ، وعلى مسافة بعيدة من هذه
المنطقة . تشعر روسيا ، بحق او ببطل ، لسبب او لغير سبب ، بأنها حذودها مهددة في الصميم
كل يوم . فنابوليون يحتل بوميرانيا السويدية ، منذ مطلع عام ١٨١٢ ، وقد جعل من مدينة
دانتزيغ قاعدة كبرى لاعماله الحربية في هذه المنطقة كما انه كان في الصميم من قلب بروسيا .
واخشى ما تخشاه روسيا هو اعادة بولونيا الى الحياة وبعمها دولة قوية من جديد . فلا لزوم
لاكثر من هذه العوامل ، لاثارة هواجس القيصر اسكندر واهاجة الروح القومية والعصبية
الروسية فيه .

فقد رفض نابوليون دون أية مداراة بلاغ القيصر الأخير الذي ارسله في نيسان واجتاز نهر النيمن
بعد ذلك بشهرين . وسيكون تحت تصرفه جيش لجب من الفرنسيين والألمان والبولونيين . وهو
أكبر جيش عدداً وشتاتاً تم حشده في أية دولة للآن ، من دول الارض : ٧٠٠،٠٠٠ جندي ،
نصفهم تقريباً غرباء عن اوروبا ، بينهم وحدات ايطالية وكروات وبرغاليون وسويسريون
ودانماركيون كلها مؤلفة مع الوحدات الفرنسية في جيش واحد . وقد اشترك في عملية الحشد
هذه ملك بروسيا وامبراطور النمسا ، اذ اسهم الاول بتقديم ٢٠ ألف رجل والثاني بتجهيز ٣٠
ألف محارب . وهنالك ١٨٠ ألف الماني أي ما يوازي عدد الفرنسيين الذين تم حشدهم من حدود
فرنسا لعام ١٧٩٠ .

والروس على استعداد للتراجع الى وراء ، الى مسافة ٧٤٠ كيلومتراً خلفين وراءهم عند



أوروبا في عهد نابليون عام ١٨١٠

انسحابهم الخراب والدمار أمام الجيش « الاوروبي » . وهكذا قلت الميرة وندرت الذخيرة ، وأخذت الأمراض ، والتفتت والحرب من صفوف الجيش يفت من عضد قوى الغزو التي أوغلت في قلب البلاد . وفي ٥ أيلول ، ها ١٣٠،٠٠٠ فرنسي والماني وايطالي وبولوني على بعد ١٥٠ كيلومتراً فقط من موسكو ، وقد احتشدوا في موقع مورودينو على نهر الموسكوفيا حيث يقف كوتوسوف معترضاً تقدمهم الى الأمام . انفجرت المعركة في ٧ ايلول ، وفي ١٤ منه يدخل الجنرال مورات قصر الكرملين ، ثم يدخل نابوليون والحرس الامبراطوري موسكو ، في اليوم التالي ، على انغام النشيد الوطني المرسلياز . وفي اليوم ذاته اشتعلت موسكو بالحريق . وبعد ذلك بشهر يغشى الجليد البلاد . وانقطاع الحلف يعني الحيلة ويهدد المدفعية . ولذا لا بد من الانسحاب والتراجع بأسرع ما يمكن . واذا بكوتوسوف يقطع عليهم الطريق في الجنوب . وأعاد العدو تشكيل قواته . فما هو يهاجم بدون انقطاع ، مستخدماً في ذلك فرسان القوزاق مع من لديهم من الانصار ، المائة ألف الذين بقوا على قيد الحياة من جيش الغزو ، و١٨ ألف لا غير يعبرون نهر النيمان في كانون الاول .

فقد ذابت جيوش الغازي في الفضاء الروسي وأمام الشتاء الروسي والعدد الروسي . وقد صمد الشعب الروسي وحكومته صمود الأبطال . والقيادة الروسية العليا التي كانت في مستوى ضعيف بالنسبة لقيادة العدو ، كانت مهمتها يسيرة نسبياً ، في بسلا منبسطة السهول حيث لا يعترض حركات الجيوش مشكلة ولا تثير أية قضية في وجه أركان الحرب .

وهكذا « هوى الى الحضيض درع الامبراطورية الكبرى » .

هذا التغيير المفاجيء للأقدار والاضاع الذي تم على مرأى ومسمع جميع الشركاء الحلف العام الاوروبيين ، لم يلبث ان وضع حداً لتعاونهم . فالشعوب تبقى سهلة الانقياد والتعاون أمام الأمل المرتجى . فقد أزقت ساعة الهجوم الأخير العام على فرنسا . فعند ٣٠ كانون الأول ١٨١٢ ، خرجت الفرقة البروسيانة من الصف ، اثر اتفاق الحياذ ، وقعه الالمان مع الروس في توروجن . ونشبت الفتنة في بروسيا الشرقية وسارت في ارها البلاد برمتها وانضم اليها الملك في شباط وأخذت المانيا برمتها تهتز وتموج ، والنمسا من خلفها تترقب الفرصة المؤاتية . صحيح ان نابوليون بادر الى تأليف جيش جديد ، الا انه جيش افتقر في الصميم ، الى فرقة الحيلة . والانتصارات التي حققها في لوتزن وبوتزن ، في شهر أيار ، لم توفر له سوى فترة قصيرة من الهدوء والراحة ، بفضل الهدنة التي عقدت في بلايسفاز *Plaiswitz* بتاريخ ١٤ حزيران ، وهي هدنة ستفتتها الدول للوصول الى التفاهم فيها بينها . فبروسيا تعاد اليها وحدتها كاملة كما كانت في الماضي ، وبرنادوت يستولي على النرويج ، وجراندوقية فرسوفيا يجري اقتسامها من جديد بين الفرقاء الشركاء الذي قطعوا عهداً بالا يمحروا صلحاً منفرداً . ومهما يكن من موقف نابوليون في مسرح براغ ، خلال الحلف الذي ينتصب في وجهه ، خلال تموز وآب ، من اعدائه اليوم ومن هؤلاء الاعداء في الغد الطالع ، فلن يبدل الحلفاء من موقفهم قيد شعرة . فهم يفكرون في قرارة

نفوسهم بوضع حد لاوروبا النابوليونية ، والعملية ستمتد الى أبعد من ذلك ، بالطبع وسينضم لصفوف الروس والبروسيين والانكليز والنمساويين المتراصة ، السويديون والبايفيريون . وقد يكون مترينخ قد تردد كثيراً حول توقيت ساعة العمل ووسائل التنفيذ : ان انكسار فرنسا ، يجب ألا يؤول لتأمين السيطرة للروس وللبروسيين . وفي ٧ آب ارسل بلاغ اعلان الحرب الى نابوليون ، وفي ١٠ منه تدخل النمسا الحرب بدورها .

ففي ساحات الحرب وميادينها المختلفة هنالك أكثر من مليون جندي يتجهون صوب فرنسا . فتفوقهم العددي هو بنسبة ٢ - ١ أي النسبة التي يراها كلوسفتر في الجيوش العصرية ، هذه النسبة التي تؤمن النصر النهائي اذا ما تعادل السلاح والتجهيزات الحربية والتدريب العسكري ، مهما أوتيت قيادة العدو من مهارة ومقدرة ودهاء حربي في السراطينية والتكتيك ، لا سيما والأمل ضعيف بان تنجح سرعة التحرك والضربات المفاجئة ومهارة المناورات ، مع هذه الحشود الضخمة .

نابوليون هو في وضع الحاسر . فالقائد الانكليزي ولنغتن الذي انتصر في فيتوريا يتقدم الآن نحو البيرانيس ، ولذا اضطر الجيش الفرنسي للانكفاء واخلاء اسبانيا . فقد استطاع الحلفاء ان يوجهوا ضربتهم القاصمة في ليزينغ ، هذه المعركة التي استمرت أربعة أيام من ١٦ - ١٩ تشرين الأول حيث انتصب وجهاً لوجه أكثر من ٥٠٠،٠٠٠ جندي وتدخل في المعركة ٢٠٠٠ مدفع . فالتفاوت بين القوى المتناظرة ظهر بوضوح في هذا الاشتباك الدامي ، فقد خاض نابوليون المعركة ضد خصم يزيد ضعفين . ففي اليوم الثالث ، وفي اثناء احتدام المعركة قلبت له فرق الساكسون والفرق اللورتنبورجوازية ظهر المجن وصوبوا ضده مدافعهم ، وسكان بادن اخذوا بمقاومة مؤخرته ، والتقهقر استحاله كارثة هوجاء . واذ ذاك يتخلى عنه الباقون من حلفائه الجرمان ، كما يهوى الى الحضيض حلف الرين . ومورات يسير باتجاه الحيانة منذ الحسف الذي لقيه في روسيا ، ولن يلبث ان فر الى انكلترا ثم الى النمسا في اوانل عام ١٨١٤ ، وتحطى العدو الحدود التي كانت لفرنسا عام ١٧٩٥ بين كوبلنتز وبين بال ، في أكثر من ١٥ مركزاً .

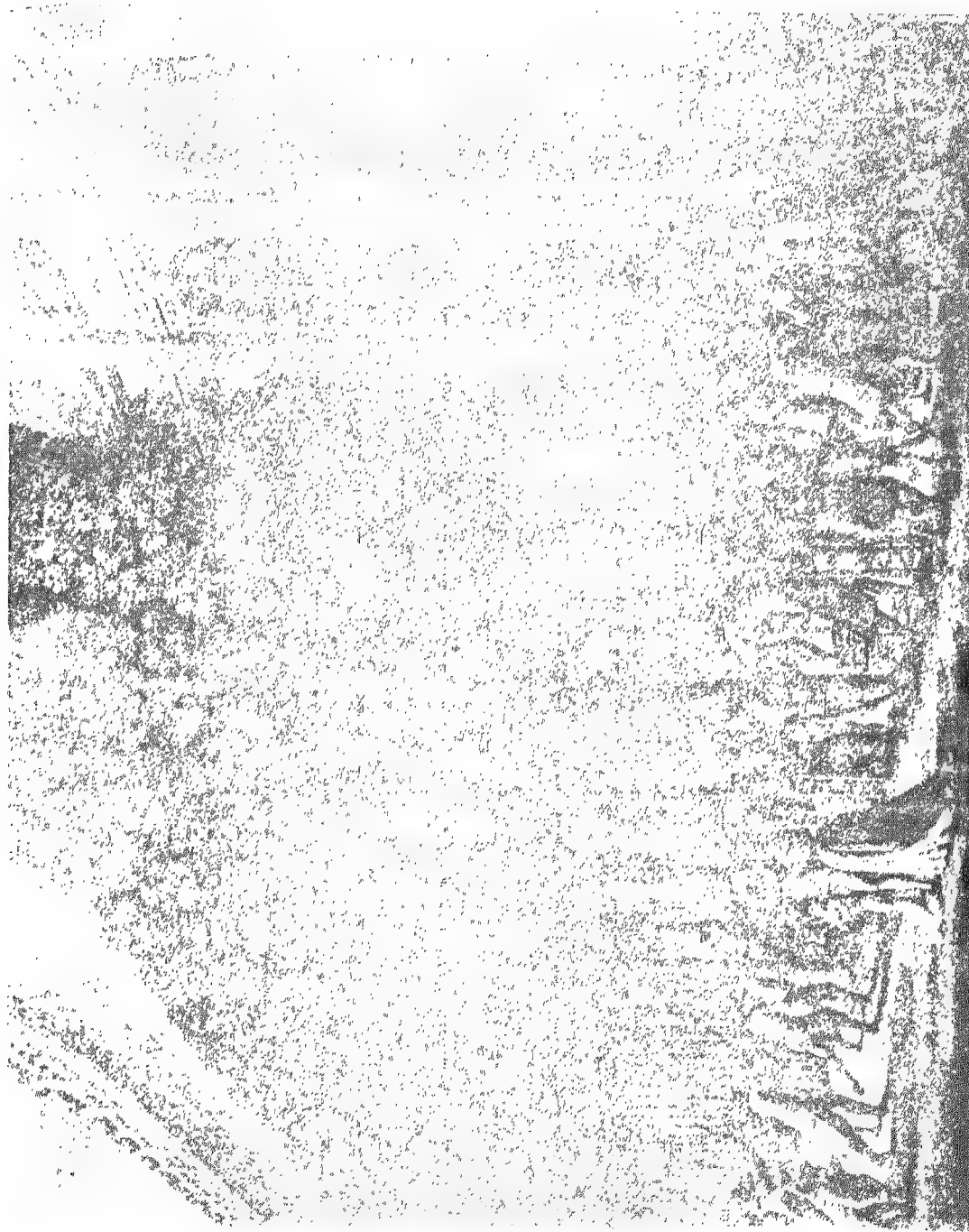
ومعجزات معركة فرنسا المدهشة لم تبدل أي شيء في المصير المقدور ، والحلفاء لا يتزحزون عن قرارهم قيد أنملة . وبناء على اقتراح قدمه كستلريخ بانشاء كوردون صحي يحكم الربط حول فرنسا ، يتألف من الستاتهور ومن بروسيا ، فقد وقعوا جميعاً ، في شومون ، بتاريخ ٩ أيار ١٨١٤ ، اتفاقاً أعلنوا بموجبه تحالفاً فيما بينهم مدته عشرون سنة ، يجمعهم في السراء والضراء ، وفي السلم والحرب ، على السواء ، الأمر الذي اضطر معه نابوليون للتنازل عن العرش في ٦ نيسان . وفي الوقت الذي « أعلنت فيه عودة فرنسا الى احضان حكومة ملوكها الابوية » وتؤلف بذلك لاوروبا جماء « ضمان سلامة واستقرار » - وهو التعبير الرسمي الذي أريد منه ارضاء الجماهير - لتعود ، وفقاً لمعاهدة باريس المعقودة في ٣٠ أيار ١٨١٤ ، الى ما هو وسط بين حدودها عام ١٧٩٠ - ١٧٩٢ . فمن الفتوحات الواسعة التي حققها أثناء الثورة ، تحتفظ

يجزء ضئيل من مقاطعة السافوى ، وافنيون والكونتات *Comtat* ومولوز ومونتيليار ، وبعض الاراضي الاخرى الواقعة على حدودها الشمالية والشمالية الشرقية التي تربط بين ممتلكاتها القديمة في لاندو وفيليفيل ومارينبورغ .

ان حادثة المائة يوم تنتهي أمام اختلال توازن القوى الذي فاق بكثير قوى الاحتياطي . ومعركة واترلو الحاسمة تنهي في ١٨ حزيران ١٨١٥ ، هذا الصراع الذي انفجر قبل هذا التاريخ بـ ٢٣ سنة . « وقد استطاعت اوروبا بعد طول عناء ان تلتفكس الصعداء وان تستسلم للقبضة دونما حد بفضل هذا النصر المبين » ، كما كتب في ١٣ تموز ، من بطرسبورغ ، جوزف دي ميستر ، الى الكونت فاليز . وماهدة باريس الثانية ستشهد عالياً من جديد ، في ٢٠ نوفمبر ١٨١٥ ان فرنسا واوروبا قد خرجتا معاً سالمين « من هذه الانقلابات الجذرية التي استهدفتها من جراء جريمة نابليون بونابرت الأخيرة النكراء ، ومن جراء النظام الثوري الذي وضعته فرنسا لانجاح هذه المحاولة » .



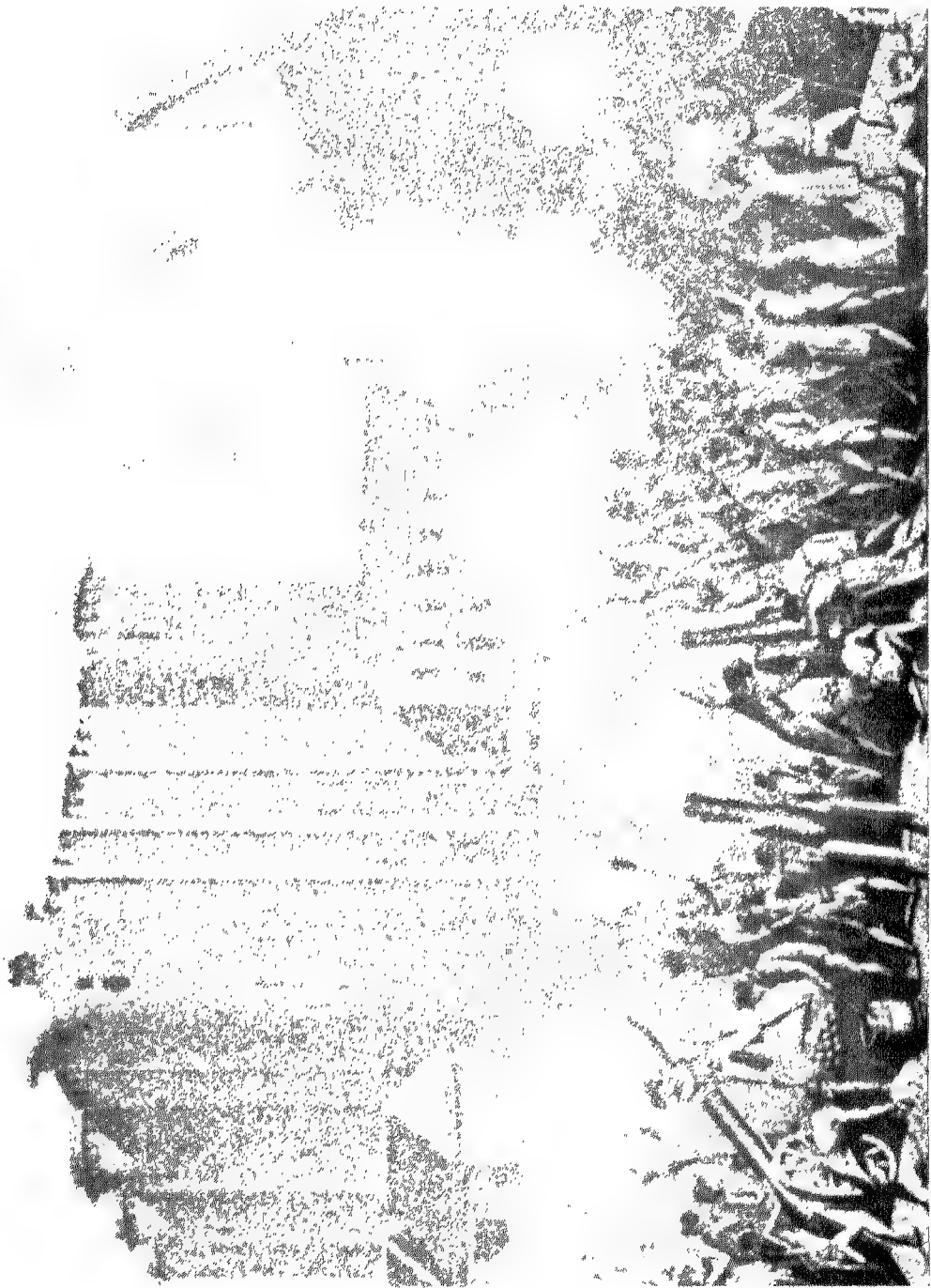
٢٢٠ فصل پنجم



٢٤- كيل ديمولان يخاطب الجماهير في القصر الملكي في ١٢ تموز ١٧٨٩



١٠٣٥ الشعب في الشارع (ليل ١٢-١٣ تموز ١٩٧٨)





٣٧ - عَوْدَةُ الْعَائِلَةِ الْمَالِكَةِ إِلَى بَارِيس



۳۸- عید الاتحاد فی باریس فی ۱۴ تموز ۱۷۹۰

Nouvelles nouvelles, les uns ont dit que le
 des aut-...
 semblerait être...
 roi pour l'épouse...
 de leur...
 ne pas...
 les Capes...
 Autrichiens...
 de la famille...
 par...
 proclamer la loi...
 l'exécution du...
 — Avilissement...
 nombre des...
 et 2^e...

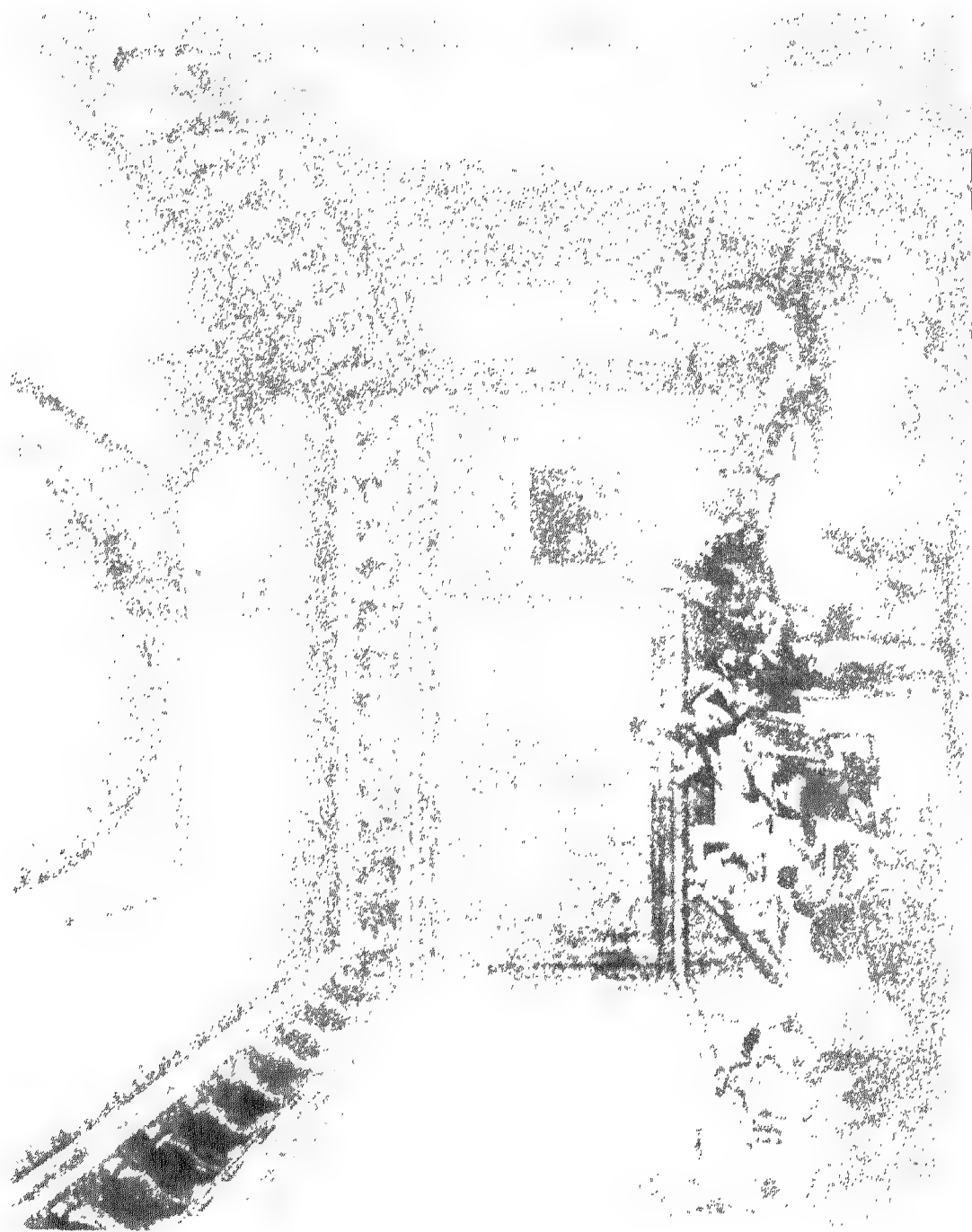
Grand dénonciateur des conspirateurs de l'ordre public, apprenez donc que l'homme qui agit en agissant avec les autres à la poursuite des chasseurs imbéciles qui s'amusaient à...



٤٠- مفهى "غودية" فى شارع "التمبل"



١٠- الاحتفال بعيد "الكائن الأسع"





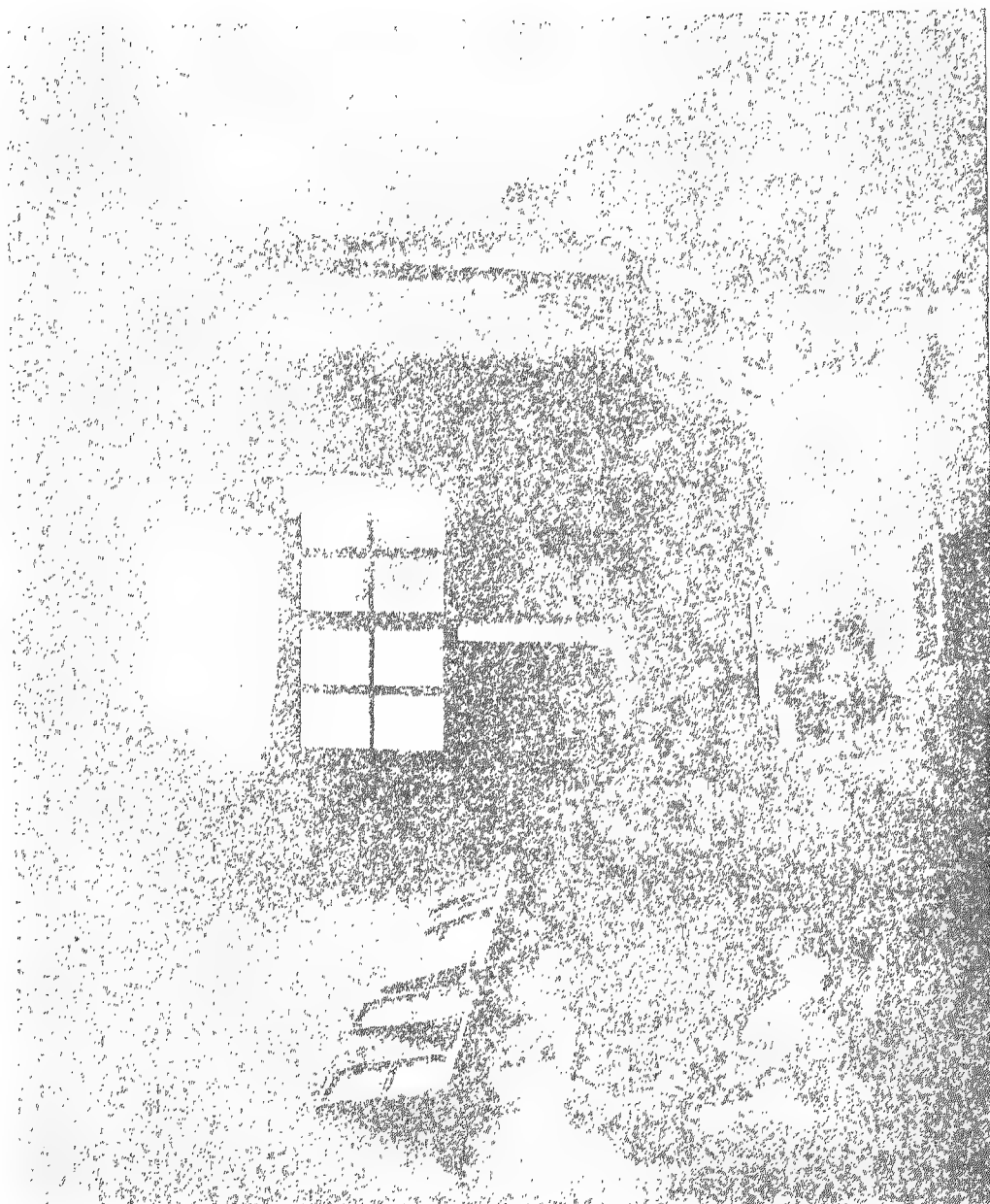
سنة - وصوره نقاش الحوية الى فرنسا





٤٥- حديقة قصر التويلري عام ١٨٠٨

١٦٠ الفصل الأول في تأسيس شركة تصنيع



٢٧- داخل مشغل "دافيد" في النوف



٤٨- فتنة الثالث من ايار ١٠٨٠ في "لابويرتا دل سول"

استنتاجات عامّة حضارة السنة ١٨١٥ المجدّدة

١ - التجدد الأوروبي و « مجتمع الدول »

« أوروبا » : لقد تبدل مفهوم هذه الكلمة منذ السنة ١٨١٣ ، أي منذ انقلاب ميتران
القوى وانتصار الحلفاء . ان المؤتمر الذي سيصنعها سينعقد في فيينا عاصمة الثورة
المضادة . وسيترأسه المستشار ، الامير « دي مترنيخ » : « مترنيخ دي كونانتز » الذي حررته
« الثورة » من امارته ، تلك الثورة التي حقق عليها حقدًا « تعاطف بتقدم سنة واتساع خبرته » .
اضف الى ذلك اقتناعه بأنه ان « يماون ساعد الرب » . وقام الى جانبه « د ثاين سر »
للمؤتمر ، صديقه وسيدته ، ولجنته ، « فردريك دي جنتز » الشهير ؛ وهو الرجل الذي اقام في
وجه الثورة الفرنسية الأخوة في التوسع ، ومبادئ سياستها الجمهورية ، اعظم النظريات ، فعالية ،
اعني بها القول القائل بالتوازن الأوروبي ، واعادة توزيع السيادة التي تضمن الاستقلال القومي ،
والقول بالفعل نفسه عملياً ، من قريب او بعيد ، بالاستمرار الاجتماعي ؛ انه المفكر الألماني
الكبير الذي طلع بالنظريات لـ « أوروبا » الواقعة في وجه نابليون .

التوازن
اجل سيماد بناء أوروبا باسم التوازن . فان الميثاق الذي وقعه الحلفاء الاربعة الكبار
في « شومون » (١ آذار ١٨١٤) قد جعل من استقرار أوروبا ، « رقعة توازن
عادل جديد بين الدول » ، احد اهداف الحرب .

الشرعية
ونودي بمبدأ آخر : الشرعية التي تستلزم اعادة الاقاليم ، نفسها او قبضها ، الى
مالكها الشرعي ، وفاقاً للحق الملكي القديم . فان السيادة ، من بعض الارجح ،
ارث ابدي ، او ملك ، تمنع النزاع لا يستطيع البشر امراء كانوا ام رعايا - ان يحتدوا عليه .
لقد ادى المبدأ آن كلاً ما خدمة للتجاه المحافظ . الفرنسيون والحلفاء اسندوا اقوالهم اليها .
ولم يمن ذلك تساهلاً مع الحق المسام الثوري ، واكثر ائلاً لامنية السكان التي تجاهلتها الثورة
نفسها ، وتجاهلتها الامبراطورية تجاهلاً أشد سفاً . ازدهرت مقايضة البشر كما في الزمان
القديم . وبشرت لجنة الاحصاء الحسبان ، ووزعت « النفوس » ، ودخل الضرائب ، بحيث يحصل
كل شخص على نصيبه .

او ما يشبه ذلك تقريباً . امسا الحلفاء فقد فهموا التوازن والشرعية والاستعدادات

والتمويضات على طريقتهم الخاصة . اعتمدوا شريعة الاقوى . وكما شرح القيصر ذلك لـ « تايران » ، كان « الحق ما يوافق اوروبا » . فمن الموافق الابقاء على برنادوت غير الشرعي في عرش السويد التي توسعت بضم النرويج اليها ؛ ومن الموافق كذلك الابقاء على ماري - لويز في بارم . لم تجددت جمهوريتا جنوى والبندقية القديتان ، ولا الامارات الكنسية ، ولا الدول الالمانية التابعة . ولم يستعد آل بوربون نابولي تاجهم بنعمة المبدأ ، بل بفضل زهو « مورا » وعجبه . وكان هناك الى جانب ما يوافق اوروبا ، ما يوافق الدول ، وحتى الملوك . دب الخلاف بين الاربعة الكبار حول بولونيا والمانيا وايطاليا . لا بل حدث ما هو ادهى من ذلك : حين زال كابوس الهيمنة الثورية ، برزت مجدداً اللعبة الدبلوماسية التقليدية . عولت انكلترا على بروسيا ضد روسيا . وخشيت النمسا روسيا . ولكن بروسيا اقلقتها ايضاً . وما ان تم التقارب الروسي البروسي في خريف السنة ١٨١٤ ، حتى قابله تقارب انكليزي نمساوي ما لبث ان شمل فرنسا ، اذ وقعت الدول الثلاث معاهدة تحالف سرية في ٣ كانون الثاني من السنة ١٨١٥ .

ان مؤتمر فيينا ، الذي تقرر انعقاده في البدء في أواخر تموز ١٨١٤ ثم ارجىء مؤتمراً فيينا الى غرفة تشرين الاول ، ثم الى غرفة تشرين الثاني ، لم يفتتح بعد رسمياً عند توقيع المعاهدة . فاللجان وحدها هي ما اخذت تعمل عملها منذ هذا التاريخ الاخير . كان كل شيء يحتمل على الاعتقاد بأن الدول على ابواب حرب جديدة : بين معسكري التحالف المتفكك . ولكن الامور انتهت الى تسوية . وطبيعي ان الحلفاء تكتلوا مرة أخرى في آذار منذ ان نزل الى اليابسة نابليون الذي رفضوا الدخول معه في مفاوضات . وهذا ما يسر اعمال دبلوماسيين في اللجان حيث اعدت المعاهدات الخاصة بين الدول .

ولكن مؤتمر فيينا لن ينمقد في النهاية . ولن يفتتح رسمياً قط . الا ان ممثلي اوروبا كلها قد حضروا الى الموعد . فالامراء المجردون من سلطانهم والشعوب المطالبة بحقوقها ، والجماعات المذهبية ابتداء من فرسان مالطة حتى اليهود الالمان ، قد اوفدوا اليه محاميهم ان ٢١٦ وفد ، تقدر بمدة آلاف من الاشخاص ، افادت من ضيافة آل هابسبورغ البذخية . دامت المفاوضات منذ مستهل تشرين الثاني ١٨١٤ حتى التاسع من حزيران ١٨١٥ . ولكن لجناً فرعية من المفوضين المطلقين الصلاحية هي التي وقعت معاهدات خاصة . وهي النصوص « ذات الامة الكبرى والدائمة » ما ألفت وثيقة المؤتمر النهائية . وهي هذه الوثيقة ، مع معاهدتي باريس المعقودتين في ٣٠ ايار ١٨١٤ و ٢٠ تشرين الثاني ١٨١٥ ، ما سوى حالة فرنسا ، وقر النظام الاقليمي للعالم « المجدد » .

انه لتجديد ينطوي على قديم وجديد . لمعاهدة باريس الثانية ، المعقودة في ٢٠ فرنسا تشرين الثاني ١٨١٥ ، قد اعادت فرنسا الى حدودها في السنة ١٧٩١ مع بعض التغيرات الطفيفة . احتفظت فرنسا باقليمي مونبليار ومولوز ، الفرنسيين منذ السنة ١٧٩٣

والسنة ١٧٩٨ فقط . ولكنها فقدت شطراً من السافوى ترك لها في السنة ١٨١٤ ، كما فقدت «الساو» ، والجيوب القديمة في الشمال والشمال الشرقي - لندو ، بويون ، فيليبيل ، مارينبورغ - مع الاقاليم التي ربطت بها . وفقدت كذلك سان - دومنغ ، الركن الفريد في مستعمراتها ، التي كانت تؤمن لها بمفردها ، في السنوات الاخيرة من العهد القديم ، بفضل اعادة تصدير منتوجاتها عن طريق الوطن الام ، تعادل الميزان القومي لحساباتها ، بينما سيتوجب عليها التعويض على الحلفاء بمبلغ ٧٠٠ مليون ، الذي يوازي واردات الموازنة العادية خلال سنة كاملة .

وابتغى هاردنبرغ انتزاع الالزاس واللورين والفلاندر من فرنسا ، ولكن مطالباته الشديدة اصطدمت بمقاومة اسكندر ثم انكلترا اللذين وقف الى جانبها ماترينيخ في النهاية : ومن جملة الاسباب المقدمة ان المستفيد الاكبر من تجزئة فرنسا سيكون البروسي ، فيختل من ثم ، بفعل ملاسبات هذه التجزئة ، التوازن الذي لم يتحقق في قيسنا الا بكل جهد وعناء .

وكن الخطر كذلك ، كما اجاد ماترينيخ في تفسيره ، في تخطي الهدف ، وفرض صلح لا يطيقه الفرنسيون ، وحرمان الحكم الملكي المحدد من خير الفرص السانحة ، ومن ثم تغذية الاعداء الثوري . فكانت حدود السنة ١٧٩٠ ، والحالة هذه ، خير أمل في رؤية فرنسا تسهم في النظام الجديد .

وستضع فرنسا ، على كل حال ، لرقابة داخلية وخارجية . ستراقبها جيوش احتلال تبقى فيها طيلة خمس سنوات . وسيراقبها من الخارج حاجز جديد من الدول . في الشمال مملكة البلدان المنخفضة ، التي تضم الاقاليم المتحدة القديمة ، والولايات البلجيكية ، القديمة ، والتي كان ملكها في الوقت نفسه غراندوق لو كسمبورغ ، المربط بهذه الصفة بالاتحاد الجرمانى الذي سيتناوله البحث في سياق هذا الكلام . وفي الشمال الشرقي ، بروسيا التي تتولى حراسة الرين بعد ان استولت على ضفته اليسرى باستثناء البالاتينا الرينانية التي ضمت مجدداً الى بافاريا . وفي الشرق ، الاتحاد الجديد ، الذي قام مقام اتحاد الرين (١٨٠٦) ، ودخلته النمسا وبروسيا ، وضم معظم الدول الالمانية . وفي الجنوب الشرقي ، مملكة سردينيا التي استعادت السافوى وكوتنية نيس ، وضمت اليها اراضي جمهورية جنوى القديمة ، واسندت ظهرها بالاضافة الى ذلك الى النمسا بفضل المملكة اللومباردية - البندقية الجديدة . وجلي ان السد ودعامته من المتانة بكان ، فكبح جماح الثورة في اشد جبهاتها خطراً .

ليست فرنسا ، من جهة ثانية ، في اوروبا الجديدة ، سوى دولة كبرى مصفرة .
بروسيا مصفرة بصورة مطلقة ، لا بل بصورة نسبية ايضاً : اذ ان الاربعة الكبار قد تعززت مراكزهم في السنة ١٨١٥ ، ليس باسترداد الاقاليم التي انتزعتها منهم الجمهورية والامبراطورية فحسب ، بل بكاسبهم الجديدة ايضاً . فان بروسيا قد اعادت شطراً كبيراً من

بولونيا وثنازلت عن فرسوفيا ؛ ولكنها استعاضت عن ذلك بما استولت عليه في الساكس وبسطة سيطرتها على كافة الحما المانيا الشمالية وأمست دولة ربنانية كبرى . انتقل مركز ثقلها نحو الغرب . امتدت امتداداً متواصلاً تقريباً من نهر « نيمن » حتى الحدود الفرنسية . ولم يفصل بين كتلتها ممتلكاتها سوى المر الهستي - الهانوفري الضيق . ولم تحقق البلاد كسباً في التجانس الجغرافي فحسب ، بل في التجانس البشري أيضاً . قبل اينما ، كان ما يقارب ثلث سكان بولونيا من السلافين ، فعدا خمسة اسداس رعاياها ، في السنة ١٨١٥ ، من الالمان . اصف الى ذلك ان الولايات التي ادخلتها الحلف الجرمانى تفوق من حيث الأهمية الولايات النمساوية المشتركة فيه . لا شك في ان عدد سكانها قد بقي مماثلاً له في السنة ١٨٠٦ تقريباً ، بعد توسعها العظيم في بولونيا ، ولكنه زاد خمسة ملايين عليه في السنة ١٧٩٠ ؛ وهي زيادة تمثل ثلاثة ارباع . واصبحت مساحتها ٢٨٠٠٠٠ كيلومتر مربع بعد ان كانت ١٩٠٠٠٠ كيلومتر مربع فقط . بيد انها شعرت بانها مغبونة على الرغم من هذه المكاسب الباهرة .

ولا خلاف كذلك على مكاسب النمسا ، مع انها لم تظهر الا في زيادة ضئيلة في النمسا المساحة والسكان . لندع جانباً مكاسبها في بولونيا في السنة ١٧٩٥ ، اقليم لوبلن - كراكوفيا الشاسع ، الذي سيعود الى القيصر - باستثناء كراكوفيا - كما سئى ذلك قريباً . ولنتقارن مرة أخرى بالسنة ١٧٩٠ . كسبت النمسا ، من جهة البيريا ومنطقة البندقية ما فقدته بفقدان المناطق المنخفضة النمساوية القديمة . ويقابل مكاسبها الالمانية - ترانت ، سالزبورغ - بعض المقابلة ، تخلياتها في باد وبافاريا . ولكن اراضيها تؤلف الآن كتلة واحدة . وبحقها جمهورية البندقية ، باتت دولة ايطالية كبرى . فخاري - لويز تلك سعيدة في بارم مكان آل بوربون . والارشيدوقية يحكون ، طبعاً ، مرة أخرى ، توسكانا ومودينا . ولا يعني ذلك ان النمسا ، التي تتجه اكثر من أي وقت مضى شطر ايطاليا والبحر الادرياتيكي ، تتخلى عن المانيا ، فهي تشرف على الجمع الاتحادي في الاتحاد الجرمانى الجديد ، الذي تتجمع فيه المانيا . ومؤتمر فيينا قد واصل هنا العمل التوحيدي الذي حققته الثورة والامبراطورية تحقيقاً بعيداً : فالدول الالمانية الـ ٣٦٠ ما قبل السنة ١٨٠٣ لم تعد اليوم سوى ٣٩ .

ولكن الرابع الاكبر هو روسيا . غنمت بولونيا « البروسية » ، وبولونيا روسيا « النمساوية » : فاليها عادت - بصرف النظر عما استولت عليه في تقسيمات السنوات ١٧٧٢ و ١٧٩٣ و ١٧٩٥ - فرسوفيا ، لوبلن ، كاليسز ، اقاليم النيمن والبوغ والفسستول والفارنا . بين السنة ١٧٩٠ والسنة ١٨١٥ ، تقدمت حدودها « البولونية » ، على العموم ، من روسيا البيضاء حتى سيليزيا . لاريب في ان مملكة بولونية « مستقلة » قد أنشئت ، في فيينا ، من الشطر الغربي من هذه الفتوحات . ولكن القيصر هو

ملك بولونيا . وفي الشمال الشرقي كذلك ، انتزع من السويد ، في السنة ١٨٠٩ ، فنلندا التي باتت هو غراندوقها . وفي الجنوب الغربي كانت كاترين قد اقتطعت ، في السنة ١٧٩٢ ، سواحل البحر الاسود بين البوغ والدنيستر . وفي السنة ١٨١٢ اضاف اسكندر بسارابيا الى ذلك . وفي الجنوب الشرقي ، وراء القفقاس ، اصبحت جيورجيا روسية منذ السنة ١٨٠١ ، ومصعب الاراكس ، على بحر قزوين ، منذ السنة ١٨١٣ . وجلة القول ان عدد رعايا القيصر ، قد انتقل في ربع قرن ، بفضل تكاثر السكان والفتوحات ، من ثلاثين الى خمسين مليوناً تقريباً .

اما الكبير الرابع ، الحليف الانكليزي ، فقد حقق جل مكاسبه في الخارج . انكلترا ففي اوروبا وضع يده على قواعد ستراتيجية جديدة : هليغولند ، مالطة ، الجزر الايونية . ولكنه صرف اهتمامه في الدرجة الاولى الى ممتلكات فرنسا الاستعمارية وحلفائها القدماء ، اما بالحصول على الاعتراف بمكاسبه المحققة في صلح « اميان » ، اما بضم ممتلكات جديدة اليها . ففي بحر الهند مكنته الحرب الكبرى اخيراً من الاستيلاء على جزر سيشل ، وجزيرة فرنسا ، ورودريغ ، وفي الانتيل ، على سانت لوسي ، وتاباكو ، وترينيد ، وبصورة خاصة على الرأس وسيلان . وحققت مكاسب غير منظورة أهم شأناً من المكاسب المنظورة : الاسواق الجديدة في البحار النائية ، والحركة التجارية الضخمة مع اميركا ، وانطلاقة المقايضات الخارجية المدهشة التي ربما بلغت ثلاثة اضعافها قيمة ذهبية بين السنة ١٧٩٠ والسنتين ١٨١٤ - ١٨١٥ .

تأمن المال لتعالف جديد قد تمس الحاجة اليه . وفي آخر سنة واترو ، بدا عدم تناسب القوى بين الثورة واروپا الموحدة وكأنه يضمن للحلفاء ، لمدة طويلة ، رجحان النصر .

ان « توازن » السنة ١٨١٥ ، لم يفض قط ، من ثم ، الى صلح توازن بين المغلوب والغالب . اذا ما قورن صلح فيينا بصلح اوترخت ، وحتى بتلك المعاهدات التي وضعت حداً لكافة الحروب الكبرى منذ القرن السادس عشر ، بدا في حسبانته ومهارته صلحاً ساحقاً لاحقاً . زد على ذلك ان شيئاً جديداً قد طرأ على العلائق الدولية منذ الثورة . تأزمت بسرعة بين الطرفين ، فتحولت الى فظاظات كلامية لم يسمع مثلها من قبل واعمال وحشية مادية رهيبية . ظهر اثر ذلك في « معاهدات صلح » كثيرة عقدت في هذا العهد . لم تكن الحرب كغيرها من الحروب . اجل ، لم تستبعد الحرب التسوية الراجحة للدول الحليفة . ولم تجزى فرنسا الملكية القديمة . ولكنها اتخذت ضد الثورة كافة الاحتياطات التي اعتبرت ضرورية ومجدية . وهكذا لم يقم في النهاية بين العالم القديم والعالم الجديد سوى سنة الاقوى .

القيم الأوروبية بيد أن صلح السنة ١٨١٥ لم يستخدم بعد سوى الوسائل التقليدية . ثم لجأ إلى وسائل أخرى : ففي سبيل ضمان النظام المجدد ، هدف إلى تأسيس مجلس دائم ، أو ما هو أشبه بمنظمة دائمة تسهم فيها الدول الأوروبية المختلفة . وقد سبق لجنتر عند اندلاع الحروب النابوليونية أن أوضح على طريقته أن « جمعية الأمم » الأوروبية متكافئة متضامنة ، وأن الخير والشر لا يمكن أن يتعايشا ، وأن دولة سليمة لا يمكن أن تتساهل في قيام شر ، في بلد مجاور ، قد يعرضها للخطر . وسيقول مترنيخ من جهته أن « علينا أن نضع أبدا نصب أعيننا « جمعية » الدول ، ذاك الشرط الأساسي للعالم المعاصر . فكل دولة من ثم ، خارج صوالحها الخاصة ، صوالح مشتركة أما بينها وبين كافة الدول الأخرى ، وأما بينها وبين بعض المجموعات من الدول :

« أن ما يضمني على العالم المعاصر طابعه الخاص ، أن ما يميزه في جوهره عن العالم القديم هو ميل الدول إلى التقارب وتكوين ما يشبه جسماً اجتماعياً يرتكز إلى القاعدة نفسها التي يرتكز إليها المجتمع البشري الذي تكون في وسط المسيحية » .

هذه القاعدة هي التبادل ، هي الأساليب الخيرة المتبادلة . وقد رأى مترنيخ أيضاً أن الدول متكافئة ومتضامنة . ولا يعني هذا التبادل وهذا التضامن سلباً وتوازناً فحسب ، بل التزاماً بمقاومة ما قد يلحق الضرر بالبلاد المجاورة ؛ وفي الدرجة الأولى النظريات الهدامة ، التيارات المضرة بالمجتمع ، الآراء الثورية المقلقة .

ومن الجانب الفرنسي ، برهن شاتوبريان في كتابه « بونابرت وآل بوربون » ، الذي ظهر في أوائل آذار من السنة ١٨١٥ ، عن تفكير غير بعيد عن تفكير مترنيخ وجنتر . هناك مجتمع ملوك :

« فليعلم الجميع أن كافة ملكيات أوروبا تكاد تنتسب بالنسبة إلى الأخلاق نفسها والازمنة عينها ، وأن الملوك اجمعين هم في الواقع أشبه بأشقاء تجمع بينهم الديانة المسيحية وقدم الذكريات » .

وانطلاقاً من ذلك يجب أن ينظر الفرنسيون إلى نصر الحلفاء كما « إلى درس من دروس العناية الإلهية التي تعاقبنا دون أن قذلنا » . جنود جيش الغزو « محرون ، لا فاتحون » . ونسمع صدى ذلك في النداء الذي أذاعه في « مالبلاكيه » بتاريخ ٢٢ حزيران ١٨١٥ : فهو لا يدخل فرنسا عدواً ، وإنما يدخلها « لمساعدة » الفرنسيين على « خلع النير الحديدي الذي يضيهم » . وفي ٢٩ حزيران أعلن لويس الثامن عشر في « كاتو - كبريزس » ، أن « جهود حلفائه الجبارة قد بددت توابع المستبد الظالم » . وقد بلغ من رسوخ هذا الرأي أن الهزيمة قد جعلت صحيفة « لاكوتيديان » تتراعى بوارق الخلاص الأولى . وفي ١٢ تموز كتب « مونيتر » التي أخبرته بأن إمبراطور روسيا وملك بروسيا قد وصلا في اليوم السابق إلى باريس :

« وبعد مرور ساعة ، ... قام الملك بزيارتها . واليوم جاء الملوك الثلاثة الى قصر « تويلري » ... وعلمت العاصمة ، بشعور الرضى العميق ، ان هذين المليكين العظيمين موجودان فيها . »

وتبنى لويس الثامن عشر رسمياً الرأي القائل بحسن لويا الغازي : وذلك في وثيقة رسمية هي القانون الصادر في ١٦ آب . فقد جاء فيها ان « الاعتداء » الذي شكلته العودة من جزيرة « إلبا » قد ارغم الدول الاجنبية على ادخال جيوشها الى فرنسا . ازدانت الولاية المتحرية للملك بالاعلام ورقص سكانها ابتهاجاً ، ولكنهم ما لبثوا ان افاقوا من سباتهم وغبروا موقفهم . واوصت صحيفة الـ « تايمس » من جهتها بأن « لا تمحض الثقة سوى المليكين الاوفياء . »

ليس من ثم ما يحول دون تعاون بين الغالب والمغلوب في اطار أوروبا الجديدة . سيعمل كلاهما على احياء القيم القديمة وتجديد الحضارة « باسم الثالث الاقدس الممنوع التجزؤ » ، الذي استشهد به مرة اخرى ، كما في العهد القديم ، في المعاهدات التي وقعتها فرنسا .

سيكرر الحلف المقدس هذا القول ، في باريس نفسها ، في شهر ايلول . انه الحلف المقدس لاداة دبلوماسية غريبة لعمري ، تختلف كثيراً عن نهج دواوين المستشارين الخاص : فان اسكندر الذي اقترحه لا يكتب كما تكتب دوائر مارتنيخ - ولعله يقصد تلبيك البعض من شركائه . ولكنه وثيقة بشرية لا نظير لها ، وشهادة رمزية في الذهن ، تؤكد قواعد ومبادئ السياسة الدولية في نظر الارستوقراطية الأوروبية ! قواعد ازلية من وحي الله ، هي « الحقائق السامية التي تلقننا اياها ديانة الاله المخلص الازلية » . نرى فيها تأكيد واجب المساعدة المشترك بين الملوك ، الذين سيتبادلون العون والتساند والمساعدة في كل زمان ومكان . هؤلاء الملوك بموجب الوضع الالهي « منتدبون من قبل العناية الالهية » لحكم الشعوب ، التي تؤلف اعضاء عائلة واحدة ، والتي يمارسون حيالها سلطتهم الابوية المطلقة : ينظرون الى انفسهم ، « حيال رعاياهم وجيوشهم ، كما الى ارباب عائلات » ، يستحثونهم على « التشدد تشدداً مطرداً في مبادئ وممارسة الواجبات التي لقنها المخلص الالهي البشر » . يقتضي « لسعادة الامم التي طالما اضطربت وقلقت ، ان يكون لهذه الحقائق كل ما تنطوي عليه من أثر على المصائر البشرية ... » ملوك ثلاثة وقعوا الوثيقة : اسكندر الارثوذكسي ، فرنسوا الكاثوليكي ، فردريك غليوم البروتستانتي . وسوافق عليها لويس الثامن عشر وامراء آخرون من كاثوليك وبروتستانت بدورهم .

وبعد انقضاء اكثر من شهرين بقليل على الحلف المقدس واقترانه بالتواقيع الحلف الرابعي الاولى - وبناء على مبادأة انكلترا التي ربما ابتغت مخادعة القيصر وخشيت نتائج تعاظم القوة الروسية - برزت الاداة الدبلوماسية التي جاءت تأييداً لسياسة المساعدة

المتبادلة ونادت بها ، اعني بها هذه المرة ، معاهدة اكثر كلاسيكية بين الحلفاء الاربعة ، اي ميثاقاً سياسياً وعسكرياً اكثر صراحة ، وقع في باريس بتاريخ ٢٠ تشرين الثاني ١٨١٥ ، اي في يوم توقيع المعاهدة الثانية مع فرنسا بالذات - وتبنى من جهة ثانية بعض المقررات المتخذة في شومون في السنة ١٨١٤ . فالانكليزي « كاسلرغ » ، امين سر الدولة للشؤون الخارجية ، لا يفقر لاسكندر أليبيه ودبلوماسيته غير الاعتيادية . ولكن اللورد كاسلرغ ، قاصح الحركة « اليقوبية » ، وباعث التحالف ، قد فكر هو ايضاً تفكير الارستوقراطية الأوروبية . لا ريب في انه استطاع النظر الى الحلف المقدس كما الى « وثيقة صوفية وحماقة ساميتين » . وكانت للحلفاء على الصعيد الأوروبي والعالمي مصالح متباينة ، ولكن سياستهم قد اتفقت ضد فرنسا وكل ما تمثله . فان المعاهدة الجديدة قد استشهدت بـ « أوروبا » ، و « الاستقرار » والضمانة الواجبة له . كل تهديد ثوري سيصطدم اليوم وغداً بجيش الثورة المضادة المتضامن . المبادئ الثورية والفتح النابوليوني يشكلان خطراً واحداً .

« المادة الثانية : ... ان المبادئ الثورية نفسها التي ساندت الاغتصاب الاجرامي الاخير قد تستطيع ، بأشكال اخرى ، تمزيق فرنسا ، ومن ثم تهديد راحة الدول الاخرى ... »
في هذه الحال ، سيتفق الموقعون فيما بينهم وبين ملك فرنسا على التدابير الواجب اتخاذها . وكما فسرت ذلك ، من جهة اخرى ، مذكرة صدرت بالتاريخ نفسه من وزراء الدول الحليفة الرابع ،

« وعد الملوك الحلفاء صاحب الجلالة المسيحي جداً بأن يسانئوه يحيوشهم على كل حركة ثورية » .

الحركة الثورية قد تجر « بالحاح » الى التدخل . فيهم « ولنفتون » ، قائد جيوش الاحتلال ، بما يقتضي معالجة سريعة ، آخذاً بعين الاعتبار « تنوع الاشكال التي قد تتلبسها الروح الثورية مرة اخرى في فرنسا » . وفي حال خطر يهدد جيش الاحتلال ، او في حال الحرب ، توجب المادة الثالثة على الموقعين التدخل بالقوة وفاقاً لنصوص معاهدة شومون . اضاف الى ذلك ان الاتفاق على هذه الموجبات لم يحدد بزمان : فهي تبقى سارية المفعول بعد مرحلة الاحتلال .

وتنص المادة السادسة على اجتهاد - عاج يعقده في مواعيد محددة ، مجلس رقابة حليف يراقب الاحداث .

« ستكرس بعض الاجتماعات للمصالح الهامة المشتركة والنظر في التدابير التي ستعتبر خير ضماناً لراحة الشعوب ويسارها ولصيانة السلم في أوروبا » .

وسيتراسل من جهة ثانية وزراء البلاطات الحليفة الاربعة والدوق ولنفتون تراسلاً منتظماً ، كما ان الحكومة الفرنسية ستتصل به مباشرة ايضاً اسهاماً منها في المحافظة على النظام المجدد .

وفي سبيل هذه الغايات سيعقد الوزراء الاربعة ، عملياً ، اجتماعاً اسبوعياً طيلة استمرار الاحتلال .

في قطاع آخر من اوروبا ، اتخذت النمسا احتياطاتها بالتمهد للملك نابولي بان لا تدخل الى دوله انظمة لا تتفق وانظمة المملكة اللومباردية البندقية . وفي المانيا نفسها اعلن الميثاق الاتحادي المؤرخ في ٨ حزيران ١٨١٥ ان الهدف من هذا الاتحاد الدائم هو ، الحفاظ على سلامة المانيا خارجياً وداخلياً ... » وسيضيف نص آخر بعد ذلك ان هذا الاتحاد يركز الى حق اوروبا العام . « اذا حدثت اضطرابات في احدى الدول الاتحادية وهددت الدول المجاورة ، على جميع الاتحاد ان يقدم كل امداد لازم لاعادة النظام الى نصابه » .

يتضح من ثم ان الدستور الجديد للبر الاوروبي يستهدف ، بشتى التدابير المتخذة ، ولا سيما بالنظام الدولي للتعاون المتبادل ، احباط قوى الثورة الفرنسية . وقد احبطها كذلك في الداخل الدستور الخاص بكل دولة .

٢ — التجديدات الداخلية

اما هذا الدستور فتراقبه اوروبا الحذرة من الاستحداثات او الواقفة منها موقف الدفاع . وطبيعي انه يختلف باختلاف مقتضيات الحال في الدول المختلفة ، ووفقاً لميزان القوى المتقابلة ، وبحسب مزاج الملك احياناً : فان ادعاءات اسكندر « بالحريات الدينية والمدنية » مثلاً هي أيضاً عنصر تاريخي زائل في إطار الوضع العام .

ان الدستور الفرنسي الذي وضع ما بين ٤ و ١٤ حزيران ١٩١٤ قد اقام ميثاق السنة ١٨١٤ تسوية بين العهد القديم والعهد الجديد تمثلت فيها التحقيقات الاجتماعية الكبرى للثورة . وقد الح الحلفاء ، عند اعداد معاهدة باريس الثانية ، في ان تستخدمها الحكومة من أجل التهدئة واعادة السلم . وعلى الرغم من دفاعهم عن المجتمع التقليدي ، فقد سلموا ، في فرنسا ، بالتساهل مع نظام حاربوه سحابة ربع قرن قريباً وما كانوا ليقبلوا به في بلدانهم . بدا لهم الدستور احتياطاً ضرورياً يستجيب لوضع فرنسا في الداخل . فهو يدعهم موقف آل بوربون ، اخلص من قد تحمل بهم اوروبا كولاة يمثلون الحلف المقدس . يضاف الى ذلك ان اخطار الإعداء قد تبدلت تبديلاً تاماً . فان فرنسا المغلوبة على نفسها في السنة ١٨١٥ كانت في نظر الاجنبي موضوع كراهية وحقد اكثر منها قدوة يقتدى بها .

لم يناد الدستور ، على كل حال ، الابدائى التسوية . اما تطبيقها فما زال في تقليد ووراثه عالم الغيب . المبادئ الاساسية محافضة كل المحافظة . هي « العناية الالهية » التي استدعت لويس الثامن عشر ، الملك « بنعمة الله » . بالامس كما اليوم ، تنحصر السلطة كلها ،

في فرنسا ، في شخص الملك ، . ينفصل « بمنسح » دستور قطعي ، « بممارسته الحرة لسلطته الملكية » . ولكن :

« يتوجب علينا التذكر أيضاً بأن واجبنا الاول نحو شعبنا كان المحافظة ، من اجل مصلحتها بالذات ، على حقوق وامتيازات فاجنا » .

اضف الى ذلك ان الدستور يمت بصلة الى الماضي ، الى الملوك السابقين . أجل ، لقد اقتضى عدم اغفال « نتائج الانوار المتعاطمة ابدأ .. والاتجاه الذي تركه اثرها في العقول » - « والمفاسد الخطيرة التي نجمت عنها ايضاً » . ولكن ما استلهم في الدرجة الاولى هو الخلق الفرنسي والآثار الجليلة التي خلفتها القرون الغابرة . وهكذا بدا التقليد ، والوراثة التي هي أحد مظاهره ، وكأنها صفات الحق العام ، لا ارادة الشعوب . وان للشرعية التي استشهد بها في فيينا قيمتها بالنسبة للحق الداخلي وللحق الخارجي على السواء : انها مبدأ شامل يتعلق به « النظام الاجتماعي » . وهذا بالفعل ما سيقوله الملك للفرنسيين في بيان ٧ تموز ١٨١٥ :

« ان مبدأ الشرعية احد المرتكزات الاساسية للنظام العام ... وقد نودي بهذا المذهب ، في الآونة الأخيرة ، مذهباً اوروبياً شاملاً » .

وهكذا كان للحدث الجديد في وثيقة الدستور ما يبرره قانوناً ، حاضراً وماضياً ، في اعتبارات السلطة المطلقة . قد يرى فيه رجال القانون شيئاً آخر غير التفسير العسير للتفهميات التي فرضتها قساوة الايام . وقد يكشف « التبرير » الملكي ، اتفاقاً ، في حال غرض النص ، النقاب عن مقاصد « المانع » العامة ، ويسهم في حصر الاهمية العملية لتنازلاته . ولكنه ، على أية حال ، ينم عن حقيقة نفسيته وتفكيره .

وعلى الرغم من كل ذلك ، فان التنازلات المثبتة في النصوص على جانبي كبير التنازلات من الاهمية . السلطة التشريعية ، تعود للملك والمجلس الأعلى ومجلس النواب . وجهة المبادئ لا تقرر الضريبة الا بموافقة المجالس التي لا تستطيع التسليم بالضريبة العقارية الا لسنة واحدة . مجلس النواب ينتخب انتخاباً . الضريبة الانتخابية تحدده بـ ٣٠٠ فرنك للمنتخبين وبـ ١٠٠٠ فرنك للمرشحين ، وهما رقمان فاقا الى حد بعيد أرقام السنة ١٧٩١ والسنة الثالثة ، ولكنهما سيتيحان تجميع هيئة من منتخبي الولايات من بين اوليغارشية أوسع منها في عهد الامبراطورية .

يتمتع الملك بحق تمديد ولاية المجلس أو حله شرط دعوة نواب المجلس الجديد خلال الاشهر الثلاثة التي تلي الحل . يعين اعضاء المجلس الاعلى ، دونما تقيد بعدد ، اما مدى الحياة ، واما بصفة وراثية ؛ وبه ترتبط ، من ثم ، اكثرية المجلس الاعلى . واليه تود من جهة ثانية الكلمة الفصل في الحقل التشريعي . كما تعود اليه كذلك المبادأة في سن القوانين : شأن الحكم القنصلي والامبراطوري من قبله ، وحق الابرام والنشر ايضاً . ولا يتمتع المجلسان بحق التعديل . الملك

يمارس السلطة التنفيذية : « الملك وحده » ، يعين الوزراء ويعزلهم ، كما يعين ويعزل كافة موظفي الادارة العامة . لا بل تبدو صلاحيات السلطة التنفيذية وكأنها تحد من صلاحيات السلطة التشريعية . فللملك حق اشهار الحرب ، في حال ان الدساتير القنصلية والامبراطورية فرضت مبدئياً الاقتراع على قانون يحيز هذا الاشهار . لا بل يبدو كذلك انه يستطيع ، في بعض الحالات ، ولا سيما حين يكون النظام العام في خطر ، تعديل القانون وادخال بعض الاضافات عليه :

« ١٤ - الملك هو الرئيس الاعلى للدولة ... يسن الانظمة ويصدر الاوامر الضرورية لتنفيذ القوانين وتأمين سلامة الدولة » .

اذا ما اقتصرنا على حرف الدستور ، رأينا ان السلطة التنفيذية قد تعززت ، من بعض الواجه ، لجهة الشخص والسلط - بينما زالت ، من جهة ثانية ، الشخصية التي لا تقاوم والتي افسدت كل النصوص ! ويبرز هذا الفارق بوضوحاً ظاهراً في « الوثيقة الملحقه » . ولكن هذه السلطة التنفيذية الملكية تمثل التقليد في الدرجة الاولى ، بينما هي مثلث الثورة ، مع الامبراطور المنتخب باستفتاء شعبي ، أي مع الامبراطور « البورجوازي » .

فهل نحن الآن بصدد الحريات العامة أم الحريات الفردية التي استهدفها التجاهل منذ ١٢ سنة . ان حرية الصحافة ، التي عطلت في الواقع في عهد الامبراطورية ، وبرزت مجدداً خلال « الايام المائة » وفي « الوثيقة الملحقه » ، قد تأيدت مرة اخرى ، شرط مراعاة « القوانين التي يجب ان تحول دون تجاوزات هذه الحرية » . وتأيدت كذلك حرية الاديان ، مع ان « الدين الكاثوليكي الرسولي الروماني » قد أعلن « دين الدولة » . كما تأيدت الحرية الفردية اخيراً .

ولكن ما يلفت الانتباه - والحدث من الاهمية بكان - هو ان الدستور قد اعترف ، على ما يظهر ، الى حد بعيد ، بالمجتمع الذي خلفته الثورة الفرنسية . فان بنوده الثلاثة الاولى تنادي بالمساواة المدنية : مساواة امام القانون ، مساواة جبائية ، حق الوصول الى الوظائف المدنية والعسكرية . ويضمن البند التاسع ملك الممتلكات القومية . اجل ان سكوت النص أو بعض مفارقاته قد يثيران القلق . فقد اغفل ذكر الاقطاع ، والحقوق السيادية ، والعشور مثلاً . ولكن الذاكيدات بهذا الصدد ستعطي في وقت لاحق . فالبيان الملكي الذي صدر بتاريخ ٧ تموز ١٨١٥ قد نعت « بالاساطير ... والافتراءات ... والكاذب » ما اشاعه « العدو المشترك » حول العزم المنسوب للعهد على اعادة العُشر والحقوق « الاقطاعية » . يضاف الى ذلك من جهة ثانية ان القانون المدني ، حيث تأيدت تحقيقات ثورية كثيرة ، قد بقي ساري المفعول - أقوله « ريثما يُنقَضَ شرعاً » . فان يمثل المجتمع القديم المنظم قد قبل من ثم مبدئياً بالمجتمع الجديد - على الرغم من كل ما قد يبدو اخفاء وكتماً في هذه التصريحات العامة جداً ؛ وعلى الرغم من اعادة طبقة النبلاء القديمة ، الى جانب الطبقة الجديدة على كل حال ؛ وعلى الرغم من المجلس الاعلى الذي سيبقى حصن الارستوقراطية الحصين والذي سيؤلفه الملك وحده .

شكركم لم يكن ذلك سوى المبادئ ، على كل حال . يبقى ان يعرف التشريع الموضوع حول التطبيق الذي ستستخلص منها ، ولا سيما الروح التي ستطبق بها .

ان الدواعي في مقدمة الدستور قد تثير القلق . وقد يثير مزيداً من القلق الجو المسيطر في السنة ١٨١٤ ولا سيما في السنة ١٨١٥ . فهناك وراء النصوص القوي الاجتماعية والسياسية المتقابلة ، لا ريب في ان الدستور قد وفر امكان نهضة الحياة العامة وتسوية مفيدة جداً ، في النتيجة ، للعهد الجديد . ولكن المسألة هنا هي معرفة مدى امكانات مثل هذا المستقبل في السنة ١٨١٤ أو السنة ١٨١٥ . ما زال الوضع متقلباً جداً في نظر رجال السنة ١٨١٥ . وفي السنة ١٧٨٩ ، بدت الثورة المصلحة ممكنة ايضاً . فمن يستطيع تقدير امكانات الثورة المضادة المصلحة ، في السنة ١٨١٤ ، في فورة حروم الثورة المضادة ، والحملة التي استهدفت الجامعة ومقتني الممتلكات القومية ، وفي السنة ١٨١٥ ، بعيد واترلو ، في غمرة الارهاب الابيض ، مع انتخابات آب التي اسفرت عن المجلس الذي لا وجود له ، وبعد سقوط وزارة « تاليران - فوشيه » في ايلول ، وبعد قانون تشرين الثاني الذي انشأ المحاكم الاستثنائية - الذي رده « كوفيه » الى المجلس الاعلى - وبعد اعدام « ناي » في كانون الاول ، والغاء الطلاق ، والحملات التي استهدفت بعض نصوص الدستور واستهدفت مقتني الممتلكات القومية كما في السنة ١٨١٤ ؟

الا ان الخطر الاكبر قد نَمُن في جهة السلطة التنفيذية : اذ ان نصوص التسوية يمكن ان تطبق بمفهوم محافظ . وقد برز هذا الخطر بشكل واضح ، في السنة ١٨١٥ ، بصدد المساواة المدنية المعتبرة مادة رئيسية . فبحسب القانون يحق للبورجوازي ، على غرار الشريف ، ان يعين في الوظائف العامة الكبرى . ولكن المسألة مسألة موافقة وتناسب . فطبقة الاشراف القديمة - التي يجب الاتى نلنى ، من جهة ثانية ، ان قسماً منها قد التف حول الامبراطورية قبل السنة ١٨١٤ - كانت تسيطر آنذاك في الواقع على المجلس الاعلى ، لا سيما بعد تعيينات السابع عشر من شهر آب . وتمثلت بعدد كبير في مجلس النواب . وتولت الحكم في معظم الولايات . اما البورجوازيون فقد شغلوا مراكز كثيرة في القضاء وحتى في الاسقفيات . ولكن الاشراف - مع مراعاة النسبة العددية في الطبقات - كانوا في كل مكان موضوع تفضيل على من سواهم الى حد بعيد . ففي الارياض ، حيث لم تعد مسألة الحقوق السيادية تجعل منهم اعداء لجاهل الفلاحين ، ولا سيما في الغرب ، اصبح الاشراف هم الاعيان بالذات بفضل ثروتهم ووجودهم وتأثيرهم على السلطات المحلية ، والجو المسيطر العام .

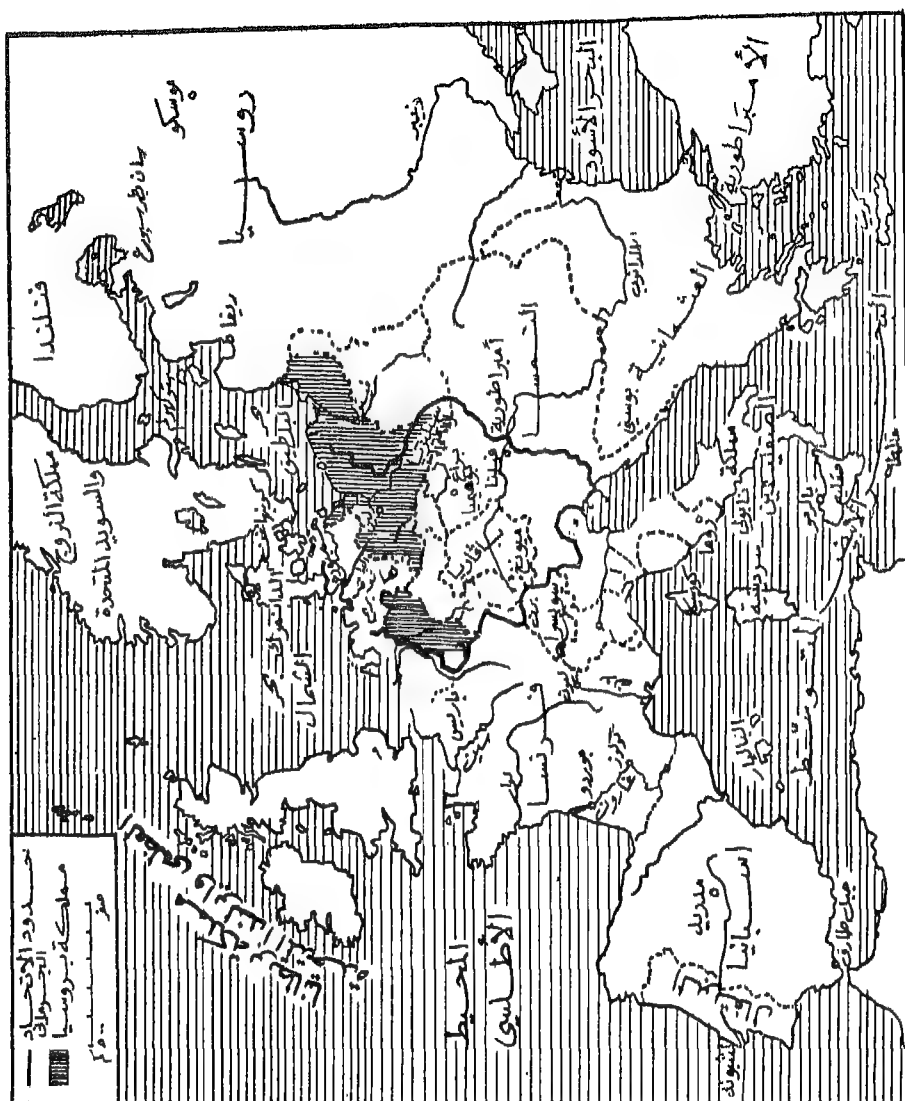
في انكلترا باستطاعة التسوية في الدستور ان تنقذ بالنتيجة من المجتمع القديم اكثر مما يسدو ذلك ممكناً عند قراءة النص .

الا ان التنازلات الواردة فيه لم تقبل في الدولة الدستورية الكبرى الاخرى : المملكة المتحدة التي تضم بريطانيا العظمى وايرلندا - وهي « متحدة » منذ السنة ١٨٠٠ . ان انكلترا

الأوليغارشية والمحافظة القديمة ، قد خرجت من الحرب الكبرى معززة الجانب . تزعت جبهة النضال حتى النهاية . فأتت وزارة النمر ، التي ترأسها ليفريول منذ السنة ١٨١٢ ، ستاربع في دست الحكم حتى السنة ١٨٢٧ . كما أن حزب المحافظين الذي استلم الحكم في السنة ١٧٨٣ سيستمر فيه حتى السنة ١٨٣٠ . وقد استمدت الحزب الوزاري قوته ، ولا يزال يستمدتها ، من الاكليروس والاشراف وكباو ارباب العمل وشطر كبير من الاوساط الشعبية التي بقيت مرتبطة بالاعيان ارتباطاً نظرياً وحركياً الشعور القومي . ان برلمان الاشراف هذا ، ومجلس العموم المالي بـ « الابوقراطية الوردية اللون » الذي سيتكلم عنه « كارليل » في عهد لاحق ، لا يمثلان البلاد بشيء ؛ ولكن على الرغم من العياء ، والانشقاقات ، والصعوبات الناجمة عن الازمات الاقتصادية ، واثار الثورة الفرنسية العميق في شطر من الرأي العام ، بقي ولاية الامر في الواقع منسجمين مع الشعور العام . لم يعرف نضالهم الذي دام ٢١ سنة سوى فترات فادرة من الضعف والخور . الخوف من الغزو وطدم في الحكم . عند بدء الاعمال الحربية لم يوافق على اقتراحات « فوكس » باقرار المراقبة سوى خمسين نائباً تقريباً . ولكن « بورك » ، الذي توفي في السنة ١٧٩٧ ، قد وضع مبادئ « الهويغية » الوزارية والارستوقراطية ، التي ستعرف الحياة زمناً طويلاً من بعده . اما المعارضون الهويغيون الآخرون — وقد حاكوا العديد من الدسائس واواغار الكثير من القلاقل التي لم ترفع من شأن معارضتهم في نظر الرأي العام — فقد اتفقوا بكل صموبة في السنة ١٨٠٨ ، الى ان يجمعوا ، حول اقتراح هوايتبرد السلمي ، عدد لاصوات نفسه تقريباً . ولعل المعارضة البرلمانية المائعة لم تعد لتضمن هذا العدد في السنة ١٨١٥ .

ان الحرب قد حملت ممارسات تعزز الامتياز الملكي الذي حرص كل من جورج الثالث والامير الوصي من بعده على التمسك به . فبات حل المجلس قبل انتهاء مدته عادة مألوفة لا اعتراض عليها . وتدخل الملك شخصياً مرتين (١٨٠٠ و ١٨٠٦) للحيولة دون تحرير الكاثوليك . وسبقت الاشارة الى تشريع يستهدف مقاومة الاخطار الثورية كانت نتيجته خلق سوابق مخيفة في التعرض للحريات التقليدية . اجل كان لبعض هذه النصوص صفة مؤقتة ، ولكن بعضها الآخر قد عرف الديمومة . وكانت هنالك قوانين لمراقبة النوادي استغلت خير استقلال لمحاربة الجمعيات العمالية . وكان من نتيجة قانون السنة ١٧٩٩ الذي اقر عقوبات خطيرة على التكتلات الحزبية — اخفها السجن لمدة ثلاث سنوات او الاشغال الشاقة لمدة شهرين — انه اقام العقوبات لا في طريق النشاط العمالي فحسب بل في طريق المجتمع العمالي الذي كان أشبه بتكتل دائم . الا ان بعض القوانين اللاحقة ، ولا سيما قانون السنة ١٨٠٠ ، لم تسمح بالتعرض لكافة مظاهر التكتل : فليجأ القضاء آنذاك الى قانون « التآمر » القديم الذي يسمح لهم بغرض القرامة النقدية وعقوبة السجن على هوام بعد ثبوت المخالفات للمحلفين .

منذ السنة ١٨٠٠ صدرت نصوص تحدد من حرية الصحافة ادت الى اصدار احكام



۱۸۷۱ء کا نام

متكررة على الصحافيين . ارتفع رسم التمتع على الصحف من « بنسين » في السنة ١٧٨٩ الى اربعة « بنسات » في السنة ١٨١٥ . الا ان حرية الصحافة وحقوق الاجتماع وتأسيس الجمعيات لم تلغ قط الغاء تاماً . واستمر كذلك حق تقديم العرائض . ولكن الاوليفارشية قد عرفت كيف تدافع عن نفسها بمجموعة من التدابير التسلطية ، وقد برهنت عن ذلك عند الحاجة . وسيطرت كذلك سيطرة شديدة على الادارة المحلية التي مارسها بالجمان بعض افرادها او بعض خلائقها .

وكانت دستورية ايضاً بعض البلدان التي ضمتها فرنسا النابوليونية اليها او انضوت هي تحت لواها ، ولا سيما تلك التي تأثرت بها تأثراً عميقاً : المناطق المنخفضة ، والاتحاد الهلفيتي ، وبولونيا - ونروج ايضاً .

انه لابتكار تحت رقابة انكليزية ذاك « القانون الاسامي » للمناطق المنخفضة ، الذي اعيد النظر فيه في تموز ١٨١٥ ، والذي اقر دستور المملكة . على غرار ما حدث في فرنسا ، كان لا بد من ان تؤخذ بعين الاعتبار القوى السياسية والاجتماعية المتقابلة . وكان الرجوع الى النظام القديم امراً مستحيلاً . كان الدستور ميثاقاً للدستور الفرنسي - مع انه خص الملك بتعزيز امتيازاته - فاعلن الامير مصدرراً لكل سلطة ، ووزع السلطة التشريعية بينه وبين مجلس الطبقات - تاركاً الكلمة الفصل للملك - ونظم السلطة التنفيذية التي اعطاها حق تعطيل الحريات العامة . ان النظام الاجتماعي الذي اقامته الثورة الفرنسية قد استمر في خطوطه الكبرى . الا ان بعض الحقوق السيادية قد اعيدت . وكانت المسألة الكبرى ، هنا ايضاً ، معرفة كيفية تطبيق السلطة الملكية التنفيذية للباديء علياً : وبصورة خاصة معرفة ما اذا كانت المساواة المدنية ستطبق دون حكم اجتماعي او قومي او معتقدي مسبق ، على حساب البورجوازي او البلجيكي او الكاثوليكي . وفي هذا الصدد ، ما لبثت من جهة ثانية ان برزت معارضة حادة عبر عنها الاساقفة في « الحكم المذهبي » الذي ندد ببحرية الآراء الدينية ، والمساواة في حماية الاديان ، والمساواة في الحقوق المدنية والسياسية ، وحرية الصحافة .

عرفت سويسرا النابوليونية ، على غرار المناطق البلجيكية والهولندية ، دستوراً سويسرا على الطريقة الفرنسية . وها هي الآن « محررة » مستقلة ، ولكنها منقسمة بين انصار التجديد المصام وخصومه . كل ولاية ستضع دستوراً داخلياً يملء سيادتها . يشكل المجموع ، في تنوعه ، عودة محسوسة الى الانظمة الارستوقراطية القديمة ، منطوية على تباينات كثيرة تؤمن نفوذ سكان مركز الولايات ، او العائلات القديمة ، او الثروة ، بالطبع . الاكديروس يقبض مرة اخرى على زمام الحالة المدنية . مساواة الاديان ليست قانوناً .

يبدو الدستور النرويجي ، الذي تقرر بالتصويت في السنة ١٨١٤ ، ابعده
الدستور النرويجي سخاءاً بالحرريات ، لا من الدستور البولوني المضحك الذي اعلنه اسكندر
رسمياً في شهر كانون الاول ١٨١٥ - قاضياً بمجلس شيوخ يعينه الملك ومجلس نواب ينتخبهم
النبل والمدرن - فحسب ، بل من كافة الدساتير الاوروبية ايضاً . استوحى دستور السنة
١٧٩١ الفرنسي ، فأعطى البرلمان ، او « الستورتنغ » ، الذي تنتخبه هيئة انتخابية كبيرة
نسياً ، الكلمة الفصل في الحقل التشريعي . الملك لا يتمتع الا بحق ايقاف المجلس مؤقتاً
عن القيام بعمله ، ولا يستطيع حل الجمعية . زد على ذلك ان شارل الثالث عشر الاسويجي مدين
بتأجه الثاني للمجمع التأسيسي الذي تنتخبه ملكاً على « نروج » شرط اعترافه بالدستور .

اما الدول الاوروبية الاخرى ، فقد عادت ، في السنة ١٨١٤ - ١٨١٥ ، الى
في المانيا نظام السلطة المطلقة او بقيت خاضعة له . لم تثر المسألة اية صعوبة في البلدان
التي لم تعرف قط دستوراً على الطريقة الفرنسية ، والتي لم يعدها الملك بشيء : كالنمسا وروسيا ،
حيث عدل اسكندر عن كل اصلاح بعد السنة ١٨١٥ . وبين اولئك الذين اغدقوا الوعود ، لم
يتقيد الاقوياء بوعودهم : فان الدستور الذي كان مفروضاً ان يمنحه فردريك غليوم الثالث
بروسيا بموجب قانون ٢٨ ايار ١٨١٥ - قبل واترلو - لن يرى النور في يوم من الايام . الا انه
سيؤسس مجالس اقليمية استشارية . واذا ما استثنينا المانيا الجنوبية التي ستعرف دساتير محافظة
جداً - كما في باد وبافاريا - فان معظم دول الاتحاد الجرمانى قد اكتفت بالسلطة المطلقة على
الطريقة القديمة ، وان خفت وطأتها بعض الشيء هنا وهناك . اما غراندوقية « ساكس فيار »
فقد شذت عن القاعدة بمبادئ دستورها الحرة .

وكذلك عادت ايطاليا ، التي سيطرت عليها النمسا ، الى نظام السلطة المطلقة . كما اعيد
البابا الى دوله الادارة الكنسية .

منذ شهر ايار ١٨١٣ ، اعلن فرديناند السابع ، الذي استعاد عرشه بفضل النصر
في اسبانيا الانكليزي ، بطلان الدستور الذي اقرته بالتصويت جمعية كادكس في السنة
السابقة - واقتبسته عن دستور السنة ١٧٩١ ، فاعتبر جنائية على الملك ، تعاقب بالموت ، كل عمل
يستهدف المحافظة عليه . أوقف بعض الاعيان وحوكوا امام محكمة خاصة لم تستطع ادانتهم
بموجب اي نص ، فتولى الملك محاكمتهم بنفسه واصدر عليهم في كانون الاول ١٨١٥ احكاماً
بالاشغال الشاقة ، او الحجر في احد الاديرة ، او النفي .

رافق السلطة المطلقة بصورة اجمالية فقدان الحريات العامة . الا ان نظام الصحافة قد
اختلف باختلاف الدول ، باستثناء الرقابة التي كادت تكون شاملة ، اذ قد عمل بها في روسيا
وبولونيا والنمسا ، واخيراً في بروسيا بعد تردد . في الاتحاد الجرمانى ، تأخر صدور التنظيم
المعلن عنه في وثيقة فيينا والمسند وضعه الى المجمع : فاستعاض عنه كثير من الحكومات الخاصة

بتشريع يكرس السلطة المطلقة ؛ الا ان دستور غراندوقية ساكس - فيمار قد منح الحرية . واعاد ملك سردينيا الرقابة الكنسية . وتبدو حرية المعتقد كذلك خروجاً على القاعدة سواء اقرت في البلدان الكاثوليكية ام في البلدان اللوثرية والارثوذكسية . واعتمد فردينسان السابع في هذا الصدد سياسة قمع عنيف واعاد محاكم التفتيش . واعاد فكتور عمانوئيل للحالة المدنية الى الاكليروس والغى حرية الاديان . وتناولت الدائنين بغير الكاثوليكية الذين اغضي عليهم في النمسا منذ جوزف الثاني تدابير قاسية مختلفة : فقد اقصوا عن الوظائف العامة والزمو بالحصول على وثيقة اعفاء لاقتناء العقارات والتمكن من ادارة الموسيقى في الكاتدرائيات او نيل الدرجات الجامعية . اما في روسيا فكانت الكنيسة الارثوذكسية كنيسة الدولة . اجل لقد مارس سكان المناطق المحتلة بحرية معتقدهم قبل الفتح ، ولكن كل ارتداد من الديانة الارثوذكسية الى ديانة اخرى كان محرماً .

ان ما قلناه عن الحق العام القديم ، يمكن قوله عن المجتمع القديم التجديد الاجتماعي الطبقي الذي استمر او برز ثانية . وتأتي في الطبقة طبقة الاشراف ، طبقة الاشراف الروس التي وفرت للدولة ضباطها وموظفيها ، وطبقة الاشراف البولونيين التي ادار كبار ممثليها البلاد مع الاكليروس ؛ والتي تلتخب بهذه الصفة ، مع المدن ، مجلس قصائد المجتمع حيث يضمن لها الدستور الاكثريّة ؛ في حال ان الامراء الاميراطوريين والملكيين والاساقفة الامراء يؤلفون مجلس الشيوخ . والجمع السويدي والجمع الفنلندي من بعده - مع طبقتهم الاربع : الاشراف والاكليروس والبورجوازيون والفلاحون الذين يقترعون كل طبقة على حدة ، والاشراف النمساويون ويكادون يشكلون وحدهم المجالس الاقليمية التي تضم احباراً واسياداً وفرساناً وممثلين عن المسنن الغراندوقية . ويسيطر النظام نفسه في منطقتي « تيرول » وبوهيميا . وتتألف الجمعيات الاقليمية البروسية من ممثلي الطبقات الثلاث : الاشراف ، ممثلي المدن ، الفلاحين ، ومجالس طبقية في بافاريا عملاً بدستور السنة ١٨١٨ ؛ وتحدد براءة النبلاء حقوق طبقتهم . وتتألف مجالس « ساكس » ، التي سيقرها مرسوم ملكي في السنة ١٨٢٠ ، من ممثلين لثلاث طبقات : ممثلي الاحبار ، والكونتية والبارونات والجمعيات ؛ وممثلي طبقة النبلاء بصورة عامة التي قد تضم اشخاصاً من غير طبقة الاشراف يمتلكون عقارات حصلوا عليها من الاشراف ؛ واخيراً ممثلي عامة الشعب . وعرفت هانوفر مجلسين في السنة ١٨١٩ : الاشراف وغير الاشراف . الاشراف وممثلو البلديات الممتازة يؤلفون مجالس مكلمبورغ . وفي غراندوقية « ساكس - فيمار » نفسها ، ضمت جمعية ممثلي الشعب مندوبي الفرسان والمدن والفلاحين . وحتى في مملكة المناطق المنخفضة تألفت المجالس الاقليمية من ممثلي الطبقات الثلاث ، النبلاء والمدن والارياف . وعاد الى هذه المجالس الاقليمية تعيين اعضاء مجلس الطبقات الثاني .

يتضح من ثم ان طبقة الاشراف كانت صاحبة امتيازات شتى ، مع ان الامتياز قد تراجع من بروسيا الى ايطاليا ، وحتى الى نابولي عاصمة البوربون . ما زالت الاقطاعية قائمة مع ما

تستلعبه من تمييز بين الارض الشريفة والارض العامية . ففي النمسا عاد للاشراف دور غيرهم اقتناء الاراضي من الفئة الاولى . وحدث التمييز نفسه بين الاملاك الشريفة والاملاك غير الشريفة في دول المانية مختلفة . الا انه حق لغير الاشراف ، في روسيا ، اقتناء املاك لا فدادين فيها . وقد استمر التمييز القديم ، بصورة خاصة ، في الاراضي التي لم تخضع من قريب لاحتلال الثورة او الاحتلال النابوليوني . ويصبح القول نفسه في السلطات السيدي : سلطات الامن والقضاء وتنظيم الصناعات والايواء في المنزل ، التي مارسها الاشراف في اراضيهم ، واعمال التسخير والآلات التي فرضوها على الفلاحين . وفي بروسيا نفسها ، باستثناء الاقاليم الغربية ، مازالت طبقة الاشراف ، على الرغم من الاصلاحات التي تحققت قبل السنة ١٨١٤ ، تحتفظ بمكانة خاصة في المجتمع الريفي وبحقوق الامن والقضاء على الفلاحين ، التي تتيح لها اصدار احكام خفيفة . تحرر الفدادون البولونيون منذ السنة ١٨٠٧ : ولكنهم لم يمتلكوا ارضاً بقوا تحت رحمة الاشراف . وباستثناء الاقاليم الدائرية الغربية من الامبراطورية الروسية ، ولا سيما في استونيا وكورلاند ، نرى حركة التحرير تعود الى الوراء بعد النصر . عرف الارتقاء البورجوازي نحو المساواة المدنية فترة من التوقف على الرغم من ان قانون نابوليون ما زال ساري المفعول ، مؤقتاً او نهائياً ، في المناطق المنخفضة ، وبروسيا الريفية ، وباد ، وغراندوقية « برغ » ، ومملكتي نابولي وبولونيا . احتفظت طبقة الاشراف قانوناً - فللاشراف البروسيين « حق الافضلية في المناصب الفخرية التي اثبتوا جدارتهم باحتلالها » - ولا سيما عملياً ، بامتياز شغل الوظائف العليا .

فلم يقتصر من ثم مجهود السنة ١٨١٤ - ١٨١٥ في سبيل التوطد او التجدد على تثبيت اقدام الحكومات ، واعادة السلاطات الملكية الى عروشها ، وتجديد اوروبا ، واقامة تضامن اوروبي من اجل البقاء . لم يكن العمل سياسياً فحسب . بل استهدف المجتمع بأكمله . مجتمع يتميز بالخوف ، ويرفض قيم القرن الثامن عشر ، المسؤول الاكبر عن الكارثة .

٣ - قيم الحضارة المحددة

الثورة هي الشر المطلق . لقد رأى مترلينخ فيها « كارثة اجتماعية رهيبة » لنجا المقلات الارلية « العالم المتحضر » منها باعجوبة . وبدا له نابوليون وكأنه « الثورة المجسمة » . وبعد مرور ربع قرن من الانقلابات الوحشية ، اخذت حضارة السنة ١٨١٥ القلقة تبحث عن قيمها الخاصة : قيم التثبيت ، والسمو ، والتحرير ، في مقاومتها العقل النقاد وتدخل الارادة في العقد الذي يمكن اعادة النظر فيه .

وجدها في تجديد ديني واخلاقي اولاً . وقد عبر « بونالد » خير تعبير عن هذا التضامن بين العرش والمذبح . كما عبر عنه كذلك « جوزف دي ميستر » :

« ان المبدأ الديني يتصدر كافة الابتكارات السياسية ، وكل شيء يزول بزواله ... في مجاهل هذه الحقيقة الكبرى ينحصر ذنب أوروبا ، وهي تتألم لانها مذنبه » .

وكما عبر مارتينغ أخيراً عن شعور عم خواص القوم : الشر منبته « قرن الحساد » مع ما جاء به من « تعاليم مزيفة » و « فلاسفة مزعومين » .

طبيعي ان الكنيسة ستبقى في الدولة كما في السابق : ولكنها لن تكون ظنية ، ومناصفة للسلطة الملكية يجب مراقبتها ، بل معاونة لا غزو عنها . الحرب ستد الروح الثورية تستلزم الصلح بين الكنائس والصلح في الكنيسة . المشادة الاجتماعية الكبرى عقلت المشادة الدينية الكبري . للمرة الاولى منذ اوائل العصر الحديث ، نرى ملوكاً ثلاثة يدينون بمعتقدات مسيحية مختلفة يتكلمون ، طوهاً أو كرهاً ، في ميثاق الحلف المقدس ، اللغة الصوفية نفسها . في نظر الكنيسة الانغليكانية ليس المسيح الدجال هو البابا ، بل نابوليون . وهذا هو « كونسالفي » يستقبل في لندن في السنة ١٨١٤ ، في هذه المملكة المحرمة على البابويين منذ اكثر من قرنين ونصف القرن . وسيقوم امبراطور النمسا وملك بروسيا ، في وقت لاحق ، بزيارات داوية الى روما . لقد ولي عهد الجلسيلية والغليكانية والنبرونيانية والجورفية : فقد انتقلت هذه المنازعات المهانة الى خلفية الاوحة . وبموافقة البلاطات جعلها اعداد بيوس السابع ، في ٧ آب ١٨١٤ ، جمعية اليسوعيين التي ألغاهما اكليمنضوس الرابع عشر منذ ٤١ سنة بسبب عداء هذه البلاطات نفسها لها .

ليس تقسيم أوروبا الجديدة وحده ما يجري « باسم الثالث الاقدس » ، بل بناء المجتمع من الداخل ، أقله كما اراده رجال الساعة . وقد عبر فلاسفة السلطة المطلقة من امشال بونالد وجوزف دي ميستر ، وهال في كتابه « تجديد العلم السياسي » الذي اعد منذ اوائل القرن والذي سترك صدى عظيماً في أوروبا الألمانية ، خير تمثيل عن هذا التيار الفكري . المجتمع ليس تعاقدياً . هو الله من خلقه واعطاه مؤسساته . فمن حيث هو واقع واجب وأولي وأزلي وشامل ، فانه يفرض نفسه على الانسان الذي لا يستطيع تغييره . « الدستور الصباغي » محسب الهي ، اجل ليس هذا الدستور مكتوباً بالامس العامي ، ولكن الطبيعة توحيه لنا بوضوح لا يترك مجالاً للشك . قد تنادي الدساتير بالمساواة المدنية ، ولكن فقدان هذه المساواة في الطبيعة سيحول دون قيامها فعلياً . ويستشهد هال بالتاريخ الذي يُظهر له ، من اوجه كثيرة ، وكان نظام الملكية التقليدية تطبيق للحق العام في كافة الازمنة . الامير يسبق شعبة في الزمان من حيث هو يملك الارض التي يحكمها ويديرها كما يدير املاكه الخاصة : انه ذو سلطة على غرار رب العائلة والولي والقائد ، وعلى غرار الملاك العقاري الذي له سلطة على خدامه وعملاله وكل من يقيم في اراضيه . لم تتكون السلطة من اسفل الى اعلى بل من اعلى الى اسفل :

« السنة الالهية الطبيعية بدلاً من الارادة العامة ... وسيادة من هو مستقل بقوته وكروته

بدلاً من سيادة الشعب أو استقلاله ... والسلطة الشخصية أي الصادرة عن الله بدلاً من سلطة التفويض ... وواجبات العدالة والمحبة المفروضة على كافة البشر بدلاً من الوصايات الخيالية ...

على هذه القواعد ستجدد السلطة الملكية التي يشابه الازدراء بها، كما اشار الى ذلك الماركيز « دي كلرمون - تونير » ، الازدراء بالسلطة الابوية وبالزواج . مبادئ الملكية والعائلة متكاملة ، لا بل لا تتميز احياناً . كلاهما يرتكز الى السلطة والوراثة . ويصح الكلام عن حق الارث الشامل بصدد السيادة كما يصح بصدد الاملاك الوالدية . ..

أجل ليس حق الارث واحداً بالنسبة لكل هذه الاملاك . وفي موضوع السيادة ، يرافق الحدود القانونية نوع من المنع الطبيعي : لا يستولي عليها كل من يرغب فيها . الانسان سجين بيئته . وسيقول شاتوبريان « ان من يخرج من صفوف المجتمع الدنيا » لا يستطيع ان ينتزع سلطة سيده و « يجلس مكانه بين الملوك الشرعيين ... » اما الوفاء فيبدو وكأنه الفضيلة الاجتماعية الكبرى : يمين الولاء للملك ؛ الوفاء للسيد ، للولي ؛ الوفاء للمهنة ، للاخلاق ، للتقليد ، للقيم الاخلاقية التقليدية .

وهي قيم داستها الثورة والامبراطورية ، في نظر مسؤولي السنة ١٨١٥ . فسيقول شاتوبريان ايضاً :

« باسم القوانين تنكس الديانة والاخلاق ، ويكفر باختبارات آباءنا وعاداتهم ، ويدنس بالتحطيم ضريح جدودنا ، القاعدة المتينة الوحيدة لكل حكم ، من أجل اقامة مجتمع لا ماضي ولا مستقبل له على عقل مشتبه فيه » .

فكيف العجب والحالة هذه ، كما يقول شاتوبريان ايضاً ، من التجاوزات الغريبة التي شوهت في السنوات الخمس والعشرين الاخيرة ؟ من اغتيال « فروتييه » والدوق دانغين ، ومن تعذيب « بيشغرو » واغتياله ؟ من سوء معاملة الحبر الاعظم الذي اقدم الكورسيكي الغريب على ضربه بنفسه وجرحه بشعره ؟ بهذا ، كما يقول مترنيخ ، يتضح ان القرن الثامن عشر هو المذنب الاكبر ، بازدرائه « بكل ما اعترفت الحكمة البشرية بارتباطه ارتباطاً وثيقاً بمبادئ الاخلاق الازلية » . تلك المبادئ التي لم يقنط « كاسرينغ » - على الرغم من الظواهر - من تلقينها « الشعب الفرنسي » مرة اخرى .

الالهية ، الوراثة ، الوفاء : تلك هي من ثم مبادئ التجديد الاجتماعي ، ذاك التجديد الذي سيقف في وجه نفعية القرن الثامن عشر ويعرف ، اذا اقتضى الأمر ، كيف يوقف التقدم المادي عندما يكون منطقياً على أي خطر لإعساء ثوري . في النمسا حظرت كتب الطب التي وضعها « بروسيه » البيعقوبي . وفي روما منعت المستحذات الفرنسية كاللقاح ، والمصابيح العاكسة النور في الشوارع . وفي تورينو ، ازيلت بأمر ملك سردينيا حديقة النباتات . كل هذا

قد تم بوحى الذهنية نفسها . وقد اعلن كذلك خطر روح التنعم ، « الميل الى الملاذ والنفقات التي تتعدى طاقة الثروة » - الذي تعاضم بفعل الازدهار الاقتصادي قبل السنة ١٨١٢ . يستشف المرء هنا موقفاً حذراً يقفه المحافظون والملاكون العقاريون من كافة التغييرات - وحتى من تلك الثروة المرببة التي تجمع بسرعة وتشكل خطراً على الحياة التقليدية .

تمكنت هذه القطيعة مع القرن الثامن عشر اراً عميقاً في كافة نشاطات التجند الروماني . الانسان التي يمكن ان تتأثر بالاوساط الحاكمة . وليس تجديد الأدب وتوجيه الفكر توجيهها معيناً اقل مظاهر الحضارة المجددة في السنة ١٨١٥ . اضاف الى ذلك ان تأثير الشعوب التي اشتركت اشتراكاً فعلياً في الصراع ضد فرنسا قد حالف هنا ، لفترة قصيرة ، تأثير خواص الشعب المحافظة .

اجل لا شيء يشير ، لا في التيار السابق للرومانيكية ولا في التيار الرومانيكي الاول - روسو ، هرر ، غوته في شبابه وكهولته ، شيلر - الى وحي سياسي او اجتماعي معاد لنزعات العصر العامة . فهي تجد فيها ، على نقيض ذلك ، تعبيراً معزراً . وسنسير المدرسة مرة اخرى في هذا الاتجاه في مرحلتها الاخيرة ، حين يعود القرن التاسع عشر نفسه ، عند اندلاع ثوراته ، الى القرن الثامن عشر . ولكن بين هاتين المرحلتين الكبيرين ، ازدهرت ، في الصراع ضد فرنسا وفي فترة ارتقاء كافة القيم القديمة ، رومانيكية مسيحية ، كاثوليكية ، اوسطية ، تنبض بالحنين الى الماضي التقليدي . لا ريب في ان اصول المدرسة قد اعدتها لهذه المهمة . نشأت عن ردة فعل مضادة للمذهب العقليين ، ومن تحرر من الحس يدعو الى الحوار مع الله . فكان طبيعياً ان تقودها عاطفتها الدينية الى الدين . اما مواضع وحيها الجديدة ، الحياة الريفية ، وبساطة الازمنة القديمة وعظمتها ، والاسطورة الملحمية البعيدة ، فقد جعلتها سريعة الاستجابة لنداء التقليد والانبعاث . وما ان اعلنت الحرب على فرنسا الثورية ، وتجندت الشعوب ، وتعاضم الشغف العام والاقبال على الادب ، حتى « تجندت » المدرسة بدورها . وغني عن البيان ان هذا التجند قد اختلف باختلاف البلدان والبشر ، وان البعض قد تمسكوا بشدة باستقلالهم . ولكن بالقدر الذي حددت به المدرسة موقفها من مسائل عهدها ، ردت له ما جاءها منه .

وسيكون ذلك ، لا سيما في الشعر الرومانيكي الالماني ، بانتصار المذهب المضاد للمذهب العقليين ، والدفاع عن الصوفية والكاثوليكية والرهبة . فقد كتب « نوفاليس » الذي توفي في السنة ١٨٠١ ، « ان صلة القرى تربط بين قوة الحس الشعرية وقوة الحس النبوية وقوة الحس الدينية والهديان بصورة عامة » . وعلم « شليغل » في السنة ١٨١٢ ان الشعر الفرنسي لا يمكن ان يتجدد الا بالعودة الى المنابع القديمة والى « الحمية الدينية الخالصة » . ولكن هذا التجدد ليس ممكناً الا اذا « رجعت العقول الى الورا » واذا « رجع الشعر الى عصور فرنسا القديمة » . كل بلاد تلهم شعراءها . وفي المازيا ، رأى « تياك » ، ان قوة الحس الوطنية في المؤلفات الحديثة تتلائم تلاشياً كلياً ، حين ينتشر الادب الفرنسي . في السنة ١٨١٤ مجّد « روكرت » الشعور الوطني

في « القصائد المدرّعة ». ونجّلت الروح الوطنية كذلك في مسرحية « سيفورو » لـ « لاموت - فوكيه » ومسرحية « معركة ارمينيوس » لـ « كليست ». ولا يعني ذلك من جهة ثانية ان الرومنطيين الالمان قد الفوا جبهة سياسية متجانسة : فـ « اوهلاند » وتياك نفسه ينتسبان الى الديموقراطيين او الاحرار . ولكن « برنتانو » و « اينخندورف » - مع « نوفاليس » - مسيحيان قوميان . كما ان بيتهوفن ، الذي استلهم الروح الجمهورية من قبل ، قد وضع في السنة ١٨١٣ سمفونية « معركة فيتوريا » التي عظم فيها ظفر ولنغتون . وفي الوقت نفسه تقريباً انشد « جوكونفسكي » في روسيا « الشاعر في معسكر المحاربين الروس » و « الرسالة الى القيصر الظافر » . اما في الادب الانكليزي ، ولا سيما في مؤلفات كبار الادباء ، فلا تترك الاحداث اثرأ بعيداً . فان اللورد « بايرون » الذي سيكون لمؤلفاته تأثير قلّ نظيره على الرغم من وفاته في ربيع السّادس والثلاثين ، قد بقي ثورياً يحنقر المضطهدين والمضطهدين على السواء . وبين الشعراء البحريين ، جاهر شيلتي ، الذي سيموت في التاسعة والعشرين من عمره ، بأراء ديدلية إلحادية ، حتى في كتابه « الملكة ماب » الذي صدر في السنة ١٨١٣ . ولكن « وورد سوورث » و « كولريج » ، اللذين انجزا آنذاك معظم مؤلفاتهما ، قد انتقلا الى محاربة نابوليون . اما « وولتر سكوت » المحافظ ، فكان روائي التقاليد و « شاعر الشرعية » .

لم يبرز في فرنسا سوى اسم عظيم واحد : شاتوبريان . بالاضافة الى « اتالا ورنيه » ، وضع ثلاثة مؤلفات كبرى بليئة المعنى الالهامي : « عبقرية المسيحية » (١٨٠٢) ، « الشهداء » (١٨٠٩) ، « رواية رحلة من باريس الى اورشليم » (١٨١١) . ولكن على الرغم من هذا الانتاج الرائع ، لم تعد الاولوية لفرنسا ، بسبب افتقارها الى الرجال . انتقلت العظمة والآراء الرائجة الى بلدان اخرى . ان كسوف فرنسا الادبي قد رافق كسوفها السياسي . ولكن ما يجب لفت الانتباه اليه ، في اوربا المقهورة هذه حيث تنظم الثورة المضادة ، ان برج الرومنطيقية الاوسطي والمسيحي ينادي على طريقته بقم التجديد التي سبق وشاهدنا غلبتها .

ان مجتمع السنة ١٨١٥ قد عرف من ثم بضعف الانسان أمام المقولات الازلية . القيم المجددة
هنالك دين ازلي ، واخلاق ازلية ، وتسلسل سلطة ازلي ، ونظام الهي وبشري ازلي . نظام لا يهتم بالحقوق ، بل بالواجبات ، « بالوصايا » . كان علم الاخلاق الديني وتعلم الكنائس العام مشبعين بالروح الاجتماعية المنتشرة في اوساط الارستوقراطية او الاوليفارشية الضيقة الحاكمة - التي ما زالت ، من جهة ثانية ، تحتل مراكز السلطة الروحية في معظم النحاء اوروبا - والفا خير جهاز منظم للدفاع عن العالم التقليدي ، كما اتضح ذلك منذ قرون عدّة على كل حال . ولكن عليه القوم قد لمست ذلك لمس اليد في السنة ١٨١٥ ، ولا سيما كبار الملاكين الذين تغلب مجتمعهم الراسخ غير المتحرك على المجتمع الصناعي السريع التبدل في ثرواته وافكاره وخواصه . وقد زاد في رسوخه الخوف الاجتماعي : فان روح الحذر قد تغلبت على روح التفاؤل والافدام ، والايان بمصير منقطع النظير ستبلغه الشعوب سبق لكوندورسيه ان أوما اليه بالرموز .

ان الصراع المنتهي قد اقام في وجه القرن الثامن عشر وحضارته المتحركة الصادرة عن الانسان حضارة مقاومة صادرة عن الله .

٤ — الاخطار المحدقة بالمجتمع المجدد

بدت هذه الحضارة في السنة ١٨١٥ وكان لها انصبتها في الحياة . نصيب الخوف الاجتماعي سلسلة طويلة من خيبات الامل ؛ والنهكة ؛ وارتقاب سلام معمر . نصيب الخوف الاجتماعي نفسه : اذ ان الخوف لم يسيطر على الاوساط الارستوقراطية او « المجددة » وحدها ، بل فكك ، منذ زمن بعيد ، الجبهة البورجوازية ، وأسهم ، خلال الغزوتين الاخيرتين ، في الحيلولة دون تنظيم دفاع قومي على غرار ما جرى في السنة ١٧٩٣ . فان العديد من اوساط البورجوازية الكبرى قد رغب في التعاون . وهكذا فان تجديد العالم القديم ، بالقدر الذي تم به ، قد يعطي معاصرين كثيرين فكرة خاطئة عن متانته .

الا ان الوضع ما زال مهدداً باخطار جمة ، من خارج اوروبا ، وفي اوروبا نفسها حيث تقوم أشد الأخطار هولا .

ان الحدث الاكبر ، خارج اوروبا ، هو لعمرى سرعة نمو هذه الجمهورية انطلاقة
الولايات المتحدة
الاميركية الفتية التي لم يمتد فلاسفة العهد القديم ، قبل عشرين سنة ، بحظها في الحياة . انها لجمهورية بورجوازية ، تفرعت عن القرن الثامن عشر تفرعاً سريع الامتداد ، وبقيت ، على ما يظهر ، وفيه للقيم الاصلية : للفلسفة الثورية ، لحقوق الانسان ، للدستور العقد ، وبدت منذ السنة ١٨١٥ وكأنها ترفض التاريخ بحسب التعامل الازلية الواردة في الحلف المقدس .

ما فتئت البلاد تتوسع ، لا سيما نحو الغرب ، وكذلك نحو الجنوب . ابتدأت المسيرة نحو الباسيفيكي بشراء مقاطعة « لوزيانا » من « القنصل الاول » في السنة ١٨٠٣ وبانتقال السكان الى « الغرب الاوسط » و « اوهايو » و « الميسيسيبي » ؛ وباقامة اول مركز للجنود الاميركيين على شاطئ الباسيفيكي عند مصب نهر كولومبيا في السنة ١٨١١ . وضم قسم من فلوريدا بين السنة ١٨١٠ و ١٨١٣ . فبلغت رقعة الاتحاد الآن أكثر من خمسة ملايين كيلومتر مربع بدلاً من المليونين ، مساحة رقعته الاولى ، وتجاوز عدد السكان ضعف ما كان عليه في السنة ١٧٩٠ ، قبلئذ ، حوالي السنة ١٨١٥ ، بين ثمانية وتسعة ملايين نسمة : أي نصف سكان المملكة المتحدة ، وثلاثي سكان بريطانيا العظمى . اما كندا الموالية المجاورة فلا شأن لها تقريباً ، اذ ان سكانها لا يتجاوزون نصف المليون .

بتأثير الظواهر التي سبقت الإشارة إليها في اوروبا القرن الثامن عشر ، والتي كان لها هنا

مزيد من التأثير القوي ، تكاثرت النشاطات الاقتصادية ، وتكدست المكاسب تكديساً مطرد السرعة لا نظير له في الماضي . اتسعت السوق الداخلية بارتفاع عدد السكان . واتسعت كذلك السوق الخارجية ، في أوروبا وأميركا اللاتينية ، بفضل الفوائد التجارية التي يوفرها الحياض للبلاد في ظروف حرب شاملة : على ان الحصار الانكليزي قد اشتد أكثر فأكثر بعد نقض صلح أميان . اضيف الى ذلك ان ارتفاع الاسعار الاميركية - كما يظهر ذلك من الرسم البياني المنشور في الصفحة ٥٩٣ - قد وسع حجم الاعمال والمكاسب توسيعاً عظيماً . فبين السنة ١٧٩١ والسنة ١٨١٠ كاد محمول السفن المستخدمة في التجارة الخارجية يبلغ ثلاثة أضعاف مما كان عليه ، بينما تضاعفت قيمة الصادرات ، منذ السنة ١٨٠٧ ، ست مرات تقريباً . وسار الانتاج الصناعي في الطريق نفسها ، انه ربما ارتفع عدد صناعات الحياكة من ٨٠٠٠ في السنة ١٨٠٨ ، الى ٥٠٠،٠٠٠ في السنة ١٨١٥ . اما في صناعة الاجواخ فكان التقدم اقل سرعة . ولكن الصناعة التي قامت في المشاريع الكبرى على أنواعها كانت صناعة جديدة كلياً ومجهزة خير تجهيز . وشجعت الظروف نفسها ، وتوسع المدن ، وازدياد الاستهلاك الداخلي ، حرفة البناء والتجارة الصغرى ، كما شجع الانتاج الزراعي ارتفاع اسعار الحامات في العالم كله ، وهو ارتفاع ملموس جداً حتى السنة ١٨١٢ تقريباً ، لا سيما وان الاراضي واسعة جداً وتصلح للمشاجر الكبرى او للزراعة الاستهلاكية الصغرى . وفي الداخل توفرت الاراضي للجميع ، اعني بها اراضي الهنود القليلي العدد والمدفوعين الى الورا بانجباء الغرب . وقد تراوح سعر الهكتار بين دولارين وثلاثة في حال ان اجر العامل المادي غير الكفء تراوح بين ٨٠ سنتاً ودولار .

في فردوس المشاريع الحرة هذا ، بدا من ثم وكان كل شخص قادر على الجد في طلب الثروة . اجل انه لفردوس نخاسي ، وبستانم ، من جهة ثانية ، اباداة الهنود . ولكن ليس من يعبأ بأمر الابداءة . كما ان النخاسة ، على الرغم من الغائما في السنة ١٨٠٧ - الذي لم يحل دون تضخم حجم الانعام السوداء - لم تصبح بعد معضلة قومية كبرى .

ويحذر لفت الانتباه اخيراً ، في هذه الديمقراطية الاقتصادية السائرة قدماً في انطلاقتها والخاصة بالعرق الابيض ، الى ان طبقة ارباب المشاريع ، وهي العنصر الخلاق بالذات في البورجوازية ، قد توسعت من اعلى المجتمع الى اسفله .

بدت الجمهورية الاميركية من ثم ، في نظر العالم ، وكأنها نجاح مادي باهر . الفوز الجمهوري
كما بدت في الوقت نفسه وكأنها خلق ديموقراطي يتوطد أكثر فأكثر كل يوم . كانت السيطرة للمعتدين الاتحاديين اولاً ، حتى السنة ١٨٠٠ ، وقد تكلم أحدهم ، وزير المال « هاملتون » ، عن اسناد الحكم الى « الطبقات العليا » . اتهمهم خصومهم الجمهوريون بانهم « الحزب الانكليزي » ورجال الثورة المضادة ، وطالبوا - اقله في تصريحاتهم الدعائية -

بدخول الحرب الى جانب الثورة الفرنسية ، فكان منهم ، امام القيود التي فرضها « مجلس المديرين » على تجارة الدول المحايدة ، وامام خرقه المهين ، ان قطعوا علاقاتهم الدبلوماسية به . انتزع الجمهوريون السلطة منهم لفترة ثلاثين سنة تقريباً . وانتخب للرئاسة « جفرسون » ، واضع بيان الاستقلال في السنة ١٧٧٦ ، وصديق فرنسا الثورية ، الذي نعتة خصومه الاتحاديون باليعقوبية والميل الى فرنسا ، والذي رأى في انتخابه انتصاراً ديمقراطياً على « فئة من المتجننين الملكيين والارستوقراطيين الميالى الى الانكليز » . الا انه انتهج سياسة توفيق انتهت الى احباط تدابير الحزب الاتحادي وتفكيكه . وحرص كذلك ، في الخارج ، على ابقاء بلاده خارج الحرب الكبرى . ولكن زيارة الاساطيل الانكليزية للسفن الاميركية ادت الى حوادث كثيرة ، كما ان فرض الحظر على البضائع الاجنبية عرض مجهزي السفن للافلاس . فتعلم المزارعون واصحاب المغارس في الغرب والجنوب من الهبوط الخفيف في تصدير الحنطة والقطن . وكان للارهاق والاطماع شأنها ايضاً . فقد اعتقد الجميع بقرب فتح كندا . وهكذا فان ماديسون ، خليفة جفرسون ، اعلن الحرب في السنة ١٨١٢ .

يتضح من ثم ان ظروفًا كثيرة ، لم تلعب النظريات فيها اي دور ناشط على كل حال ، قد انتهت الى وقوف الولايات المتحدة ، عملياً ، الى جانب فرنسا في أشد ساعات صراعها حرجاً ضد أوروبا . فاشتعلت من ثم الحرب (الاستقلالية الاميركية الثانية ، المجهولة المصير ، التي نشبت المارك فيها بين جيوش غير ثابتة لم يحسن تدريبها وبين جيوش ولنغتون المضرسية على الحرب التي جيء بها من اسبانيا في السنة ١٨١٤ . نزلت فرقة انكليزية صغيرة الى البر في جون (شيسايبك) واستولت على واشنطن حيث احرقت الكابيتول والبيت الابيض ، انتقاماً من احراق الجيوش الاميركية لمبنى برلمان تورونتو ، كما يقال ، وبجرد اغارة سريعة على ارض العدو ، اذ ان العمليات الحربية لم تلتها الى أي حل عسكري . الا ان معاهدة الصلح ستوقع في النهاية في «غنت» في شهر كانون الاول .

انه لصلح غريب ، لا غالب ولا مغلوب فيه . صلح « وضع راهن » - ولكنه يوطد استقلال الجمهورية الكبرى التي لن يكون لاروبا الحلف المقدس حق البحث في موضوعها مرة اخرى . وقد عززت هذا الاستقلال بتحقيقات الاستقلال الاقتصادي التي يعود الفضل فيها لتقدم الآلات الصناعية . وقد رافق كل ذلك انتشار الديمقراطية وتوسيع حق التصويت في داخل الولايات .

خرجت الجمهورية معززة من الاحداث الخطيرة التي صمدت فيها في وجه اقوى دول الحلف الكبير ، وكانها جدّدت شبابها برجوعها الى اصول . فقد جاشت فيها قوى جديدة ، نخص بالذكر منها وعياً قومياً ارفع سموً تولّد من اخطار الحرب والتضامن الذي استلزمته . فكتب حينذاك احد محامي واشنطن الشباب ، « كي » ، « العلم المكوكب » . وباتجاه الجنوب ، ففي تلك القارة الاميركية التي أخذت تبدر وكانها تعود كلّها الى الجمهورية ، ارتفعت نجوم

جديدة أيضاً .

الثورات اللاتينية في الوقت نفسه الذي تخلخلت فيه الثورة في أوروبا وانطفأت ، اندلعت النار فجأة في كافة أنحاء اميركا الشاسعة المستعمرة . فمن «لابلاتا» الى اسبانيا الجديدة ، ومن «بونبوس ايرس» الى مكسيكو ردت حروب الاستقلال اللاتينية صدى حروب الاستقلال «الاميركية» . وبفضل هذه وتلك ، وفي الشطر الاكبر من العالم الجديد ، في الشمال وفي الجنوب ، ومن «الارجنتين» حتى الحدود الكندية ، خفقت في اوائل السنة ١٨١٤ ، على الرغم من بعض الهزائم المثيرة للقلق ، الاعلام الدستورية او الجمهورية .

اندثقت الثورة من هيجان خواطر طويل الامد شمل اواسط السكان المولودين في المستعمرات وبورجوازية تضم اصحاب المغارس والتجار والمثقفين المنحدرين من أصل واحد . جلي ان هذه البورجوازية قد اكتملت بحسب شرائعها الخاصة . فالجتمتع الاستعماري ، ولا سيما الجتمتع الاميركي ، قد اثار هنا بشكل فريد مشاكله الخاصة الناجمة عن الاعراق ، والطبقات ، والمدى الحيوي ، والانزال . يضاف الى ذلك من جهة ثانية ان هذه «البورجوازية» قد وضعت هنا ، اكثر من أي مكان آخر ، قيودها الاوليفارشية . ولكنها ترعرت ، في الواقع ، على غرار كافة بورجوازيات القرن . فبفضل الحركة التجارية وارتفاع الاسعار جمعت ثروات طائلة في وقت قصير جداً . ورافق هذا الاثراء المادي الاثراء الثقافي ووفرة الاتصالات في المدينة المتوسعة . فاستألت من ثم اليها عدداً كبيراً من الخلاسين والمبيد الجبهة . اجتمعت فيها ، في آن واحد ، الانوار ، والقوة الحقيقية ، والتصميم على التغيير . وجهت تفكيرها الفلسفة الفرنسية . اجتذبتها مثل الثورتين الاميركية والفرنسية . واصلت تربيتها السياسية وجمعت خواصها في جمعيات سرية . انضم خلاسون اثرياء الى المحافل الماسونية او تأثروا بتعاليمها : بوليفار ، الذي كان مكباً على قراءة مؤلفات جان-جاك ، وبلوتارك ، و«سان مارتين» ، و«مورينو» ، الذين سيلعبون ، مع «ميرندا» - صديق الجيرونديين وجندي السنة ١٧٩٢ - اكبر الادوار في الثورة الجديدة .

على غرار البورجوازيات الاخرى تطلعت «بورجوازية» اوائل القرن التاسع عشر الحلاسية ، بوعي متفاوت ، الى الاستيلاء على الدولة . اقصيت عن الوظائف الكبرى العامة في المستعمرات الاسبانية . ونظر اليها كما الى عنصر اجتماعي من المرتبة الثانية ، بينما توطدت ثروتها ووعياها توطد لم يعرفها من قبل ، فابتغت ، في اعماق اوساطها تطوراً ، تحقيق دستور شبيه بالدستور الاميركي . واقتضت صوالحها الاقتصادية من جهة اخرى التخلص من الحرمان الذي يستهدفها ، اذ ان البلاد يجب ان تعيش لنفسها . فالتخذت صيغة التحرر ، التي ستستخدم لمنفعة الاوليفارشية الاستعمارية ، طابع الحريّة والقومية . لن تلبث الكنيسة الكاثوليكية ان تنقسم بصدد هذه المسائل ، ولكنها اسهمت في البدء اسهاماً غير منتظر : اوغر صدرها إلغاء

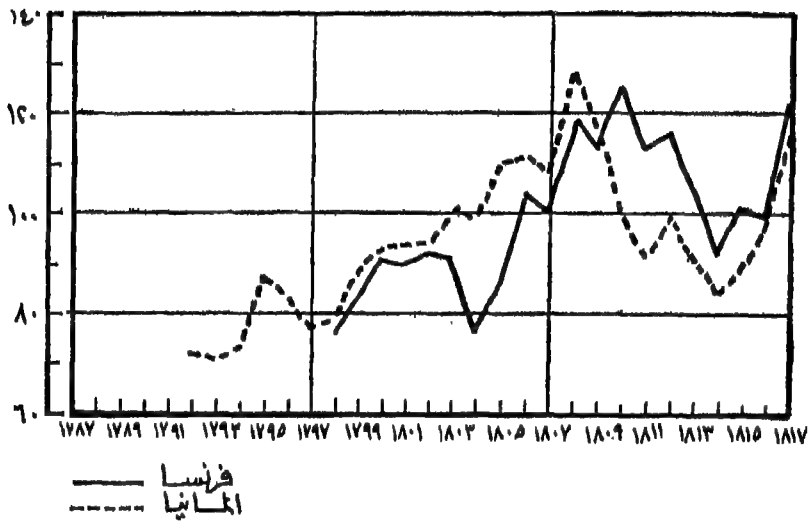
جمعية اليسوعيين ، فقاومت في الحفاء السيطرة الاسبانية . يضاف الى ذلك من جهة ثانية ان أحداث اوروبا التي ستفضي الى الصراع الكبير ستسهم بعض الاسهام بدورها ايضاً . سيخطب المسكران ودّ المستعمرات التي ستساعدوا او تشجعها انكلترا وفرنسا والولايات المتحدة على السواء ، فتجد في اتفاق الظروف هذا فرصة فادرة للتححرر .

اصبحت البرازيل ، في شهر شباط ١٨٠٨ ، ملجأ العائلة المالكة الفارة امام
البرازيل جيش « جونو » . فقد اقام الوصي على عرش البرتغال الذي سيحمل اسم جان السادس بعد الحلول محل والدته المعتوهة - والبلاط وكبار موظفي الادارة في « ريو دي جانيرو » التي باقت بالفعل نفسه عاصمة دولة مستقلة عملياً . ومنذئذ سيتولى آل « براغنس » والسياسيون الذين تبعوهم حكم البلاد لا بوصفها مستعمرة للاستثمار ، بل دولة يجب ان تؤمن حاجاتها وتعمل بنفسها . جهزوها على الطريقة الأوروبية بالوزارات والمحاكم والمدارس . وفتحت الموانئ للتجارة الخارجية ، ولا سيما التجارة الانكليزية والتجارة الاميركية . ووضعت اتفاقات جمركية حصلت انكلترا بموجبها ، في شباط ١٨١٠ و كانون الاول ١٨١٢ ، على مركز ممتاز . فنجمت عن ذلك ، في شتى الميادين ، انطلاقة مدهشة ستحول دون العودة فيما بعد الى الميثاق الاستعماري ، الذي ما كان الامير الوصي على العرش ولا المقربون اليه يرغبوا فيه . فقد بلغ من تعودهم حياتهم الجديدة ان اهلوا البرتغال بعد ان تخلى عنها نابوليون وقد حافظت البرازيل على استقلالها الداخلي في السنة ١٨١٥ داخل المملكة المتحدة التي ضمت البرتغال والبرازيل « والغارف » واعترف بها مؤتمر فيينا . فلم يكن ما حدث ثورة حرية بل ما يشبه « ثورة قومية » .

ولكن الإعداء الثوري تفشى في اميركا الاسبانية بنسوع خاص على
انتفاضة المستعمرات الاسبانية الرغم من الاحتياطات التسلطية التي اتخذتها الحكومة . رفضت المستعمرات الاعتراف بـ « جوزف » في السنة ١٨٠٨ وانضمت الى فردينان السابغ . الا انها ارادت ان تدير شؤونها بنفسها في اثناء منفى الملك وطالبت بالعودة الى التقاليد البلدية القديمة ، الى تلك الجمعية المحلية المفتوحة ابوابها ديموقراطياً للجميع . عارض المجلس الاسباني المركزي هذه المطالبة وعين للمستعمرات تمثيلاً ، يحمل على السخرية ، في مجلس الكورتيس الذي سينعقد في فادس . اثار الرفض حفيظة سكان المستعمرات على الاسبانين في الوطن الام . فألف بوليفار واصدقاؤه والكاهن القانوني الشيلي « مادارياغا » ، بدورهم ، مجلساً اعترفت بسيادته كافة المجالس المحلية . طرد نواب الملك او الضباط العامون ، خلال ايام ثورية نشيطة ، في فنزويلا ، وغرناطة الجديدة ، وبوينوس ايرس . وحدث ما حدث في بوينوس ايرس في « ٢٥ ايار » ١٨١٠ . وفي تموز اعلنت شيلي استقلالها . وفي كل مكان تقريباً اجتذب السكان المولودون في المستعمرات جباهير الخلاسين الاول والعبيد الزنوج والهتود . فحدث الحدث المرغوب

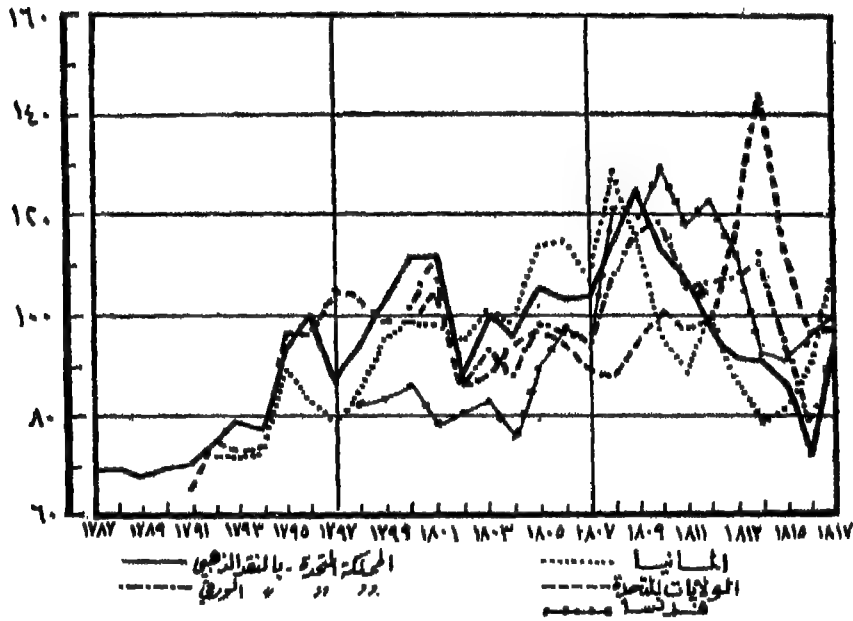
دوغما مقاومة ، باسم حقوق الانسان والديانة الكاثوليكية .

ولكن هذه التبشير الاخوية ما لبثت ان بلغت اجلها . فبرزت المقاومة . ثم اقتضت معالم الصراع بين بورجوازية السكان المولودين في المستعمرات وطبقة « الموالين » اصحاب الامتيازات ، اعني بهم الموظفين الاسبانيين الذين يغارون على الاحتفاظ بسلطتهم وممتلكاتهم ووظائفهم . انتصر الاحبار للموالين ، والاكليروس الادنى لخصوصهم ، وانقسم الخلايون الأول والهنود كذلك . وليس سوى الزوج من اتجهوا دون تحفظ شطر ثورة هدفت في برنامجها الى الغاء الرق . توفى الموالون ، الذين ساندتهم عناصر هندية كثيرة وجيوش مرسله من اسبانيا بعد اعادة



الملكية القديمة ، الى التغلب على الحركة في اغلب الاحيان . فاستردت « كيتو » في السنة ١٨١٢ ، كما ان فزويلا ، التي اعلنت في السنة ١٨١١ دستوراً مقتبساً من دستور الولايات المتحدة ، والتي خلف فيها بوليفار اليعقوبي ميراند الجيروندي ، قد استعادت السيطرة عليها في السنة ١٨١٥ . وفي اسبانيا الجديدة عرفت الثورة ، منذ السنة ١٨٠٨ ، انتصارات وهزائم كثيرة تعاقبت تعاقباً مطرداً . ارتدى الصراع طابعاً خاصاً جداً وقد لعب فيه الهنود دوراً رئيسياً . ابصر النور دستور اعده مؤتمر « شيلبنسيفو » . في السنة ١٨١٣ ، اعلن الاستقلال المكسيكي . ولكن وحدة عسكرية مؤلفة من ٨٠٠٠ جندي وصلت من اسبانيا . فمحققت الحركة ، وفي كانون الاول ١٨١٥ اعدم زعيم الحركة الكاهن موريلوس رمياً بالرصاص . اما في الجنوب فقد صمدت بعض مناطق « لابلاتا » في مقاومتها . فأحرزت الثورة هنا نصراً حاسماً .

فكان هذا النصر نموذجاً يمت في المناطق الاخرى آمالاً لن يفوت مصالح الولايات المتحدة السياسية والتجارية مساندتها . وربما مصالح انكلترا ايضاً . فاذا كانت المعاهدة التي وقعتها مع اسبانيا في تموز ١٨١٤ قد حظرت عليها شحن الاسلحة بعد هذا التاريخ ، فهي قد احتفظت في هذه الاسواق الجديدة بمرکز الدولة المفضلة . فهل ستعتمد سياسة تملئها عليها اسواقها ياترى؟ يجدر لفت النظر هنا الى ان عملها ، وعمل الولايات المتحدة كذلك سيكون سهلاً : اذ ان من يسيطر على المحيط يسيطر على العالم الجديد . امام هذا العالم الجديد ، الذي جاءت اعظم قواه

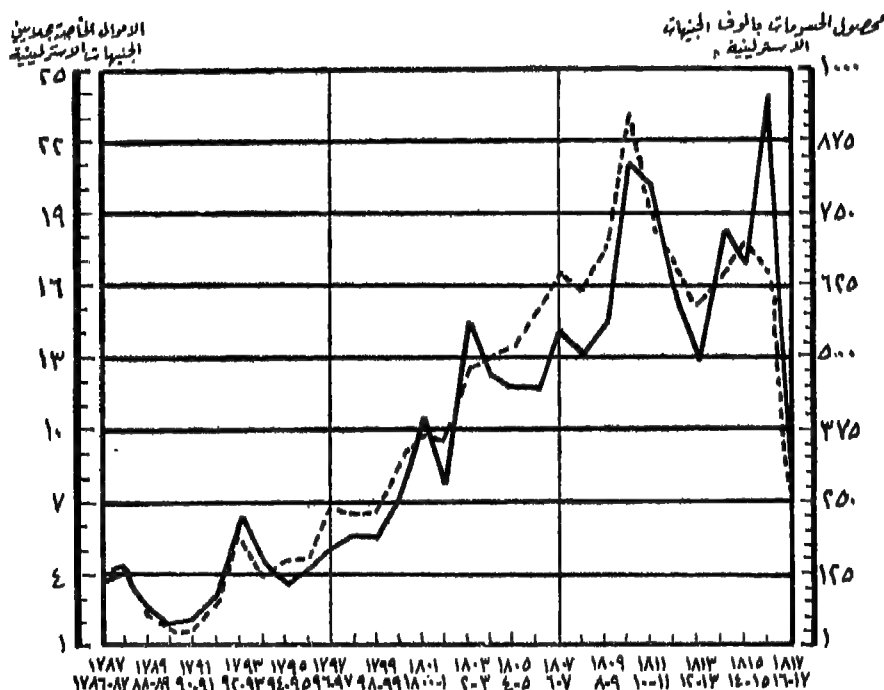


حبيوية وكأنها تناقض وتتحدى من الخارج قيم الحلف المقدس ، ليس مستبعداً ان تتدخل الجبهة « الاوروبية » .

وفي أوروبا نفسها ، من جهة اخرى ، كم من « مناقضات » ، صامتة ، ولكنها بالغة الاهمية ، يبصرها من يقدر على ابصارها . لا ريب في ان الثورة المضادة قد انتصرت ، ولعل ما هو ادهى من ذلك ان شطراً من البورجوازية قد اسهم في هذا الانتصار . وان ضربة السنة ١٨١٥ القاضية قد تركت الشعوب عديمة الحركة والحياة . ولكن القوى التي قامت بالثورة ما فتئت تتعاضد .

ان امكانات قيام مجتمع عقاري وحضارة عقارية ولتى زمانها ، ما زالت ماثراً للسخرية بعد قيام الثورة الصناعية ، وان هذه الثورة التي باتت بالامكان ، منذ السنة ١٨١٥ ، معرفة

التجارب الهادفة الى ان يدخل على الحياة ، وكأنه سيتحدى العصر الذي بدت فيه « الحركة » السياسية شبه مشلولة ، حركة « اقتصادية » لا تقاوم ستخدم ، اقله في البدء ، مصلحة القوة البورجوازية . اذا ما قورنت بالحضارة الزراعية او الريفية ، بدت الحضارة التجارية والصناعية ، منذ الآن ، حضارة سرعة في جوهرها : فقد تزايد الانتاج والمقايضات والاستهلاكات ، في النظام الاخير ، تزايداً اسرع منه الى حد بعيد في النظام الاول . وسوف يزيد انتشار التقنيات الجديدة كثيراً من هذا التفوق الطبيعي . يضاف الى ذلك ان الاقتصاد « البورجوازي »



الجديد ، المتميز بمرحلة لم يعرفها الاقتصاد القديم ، قد تقدم الاقتصاد المقاري المتصلب مسافات اكثر بعداً ايضاً . وهو سوف يحرق ، في تقدم مشترك ، الفئة الناشطة التي تنظمه .

ان الثورة الصناعية ، المتميزة بجمعها الشامل بين الآلة البخارية والآلة الاداة ، ما زالت في اوائل عهدها على كل حال . فالانقلابات الدولية خلال السنوات الخمس والعشرين الاخيرة قد اعاققت او اوقفت الشواغل التقنية التي اعارها القرن الثامن عشر اهتمامه . الا ان بعض النقاط قد رسمت . فقد اقيم اول مصنع بخاري في ملشستر في السنة ١٨٠٦ . وتماظم دور الآلة البخارية في صناعة استخراج المعادن وتقنياتها ومعالجتها ، ولا سيما على مقربة من افران تحويل الحديد المصبوب الى حديد وتصفيحه . وابتكر المهندسون الكثير من الآلات الادوات . منذ

السنة ١٨٠٣ حقق « هديلي » القاطرة، وفي السنة ١٨١٠ باشر ستيفنسون اعماله . حلت الخطوط المصنوعة من الحديد المصبوب محل الخطوط الخشبية المستخدمة لنقل الفحم المعدني في حوض « نيوكاسل » . كما ان الانارة بالغاز التي سوف تتيح وحدها استمرار عمل المصنع ليلا نهاراً قد اعتمدت في لندن في السنة ١٨٠٧ في حي « بول مول » . ولكن الطاقة المائية هي دائماً ما يحرك الصناعة الكبرى ، باستثناء عمل المناجم .

مهما كانت من طابع العظمة الذي بدت الآفاق القريبة مطبوعة به في السنة ١٨١٥ ، فان الشيء الأهم، منذ ربع القرن الاخير ، لم يرقم في جده المستحدثات قيامه في ديمومة اتفاق الظروف، ولم يرقم كذلك في تجديد الجهاز المنتج قيامه في ديمومة وتميز الجو الاقتصادي الذي خلقه القرن الثامن عشر ، جو الاثراء ، والكسب الوافر ، واتساع البورجوازية ونفوذها . اذا ما القينا نظرة على الرسوم البيانية المنشورة في الصفحات السابقة ، تبين لنا ان ارتفاع الاسعار ، الذي حدث قبل الثورة بزمان بعيد يستمر زمناً بعيداً بعدها ايضاً ، حتى حوالي السنوات ١٨١٠ - ١٨١٢ ، في العالم كله تقريباً . وكانت لهذا الارتفاع نتائجها الاعتيادية : ارتفاع غير متناسب في المكاسب ، ودفع الى الانتاج المطرد النمو ، وتوسيع في المقايضات، وتقدم عام في التجارة ، الكبرى منها والصغرى على السواء . فالبائع يكسب من ثم في كل من الاسعار والكميات . وغالباً ما يسهل الكسب تضخم معتدل نسبياً، يشكل من جهة ثانية ضداً للنقد الذهبي المتداول في فرنسا . في السنة ١٧٩٧ حظر « قرار » التقييد على مصرف انكلترا تسديد دائنيه نقداً معدنياً . وما زال هذا القرار ساري المفعول في السنة ١٨١٥ . فالنظام النقدي انطوى عملياً على استحالة التحويل والسعر المفرط . تجاوز هبوط قيمة الجنيه الاسترليني الورقي ٢٥٪ في السنة ١٨١٤ . وفقد كل من الفلورين والروبل و « التاج » السويدي اكثر من نصف قيمته الاسمية . فتوجب اللجوء الى التضخم المالي لتأمين نفقات الحرب الضخمة في معظم البلدان . ووافق هذه الكوارث النقدية انتقال الثروات الى بائعي المحاصيل والمصنوعات وارباب المشاريع على اختلاف قوائمهم . وان في ارتفاع الحسوم البادي في الرسم البياني المنشور في الصفحة السابقة لخير تعبير عن ارتفاع حجم المعاملات في التجارة الانكليزية الكبرى . ويصح القول نفسه في مراكز البر الاوروي الرئيسية . وهنا يبرز ما انطوت عليه المحاولة من مقايضة للصواب : فهي البورجوازية المتعاطمة ، والسائرة قدماً في نموها الاقتصادي، ما حاولت الحضارة المحددة الانتعاش من مقامها سياسياً واجتماعياً .

اضف الى ذلك ان صعوبات جمة قد تقوم بصورة مفاجئة . لا يمكن ان النظام البريطاني المعمر يعود التاريخ الى الوراء . فبعد ان تبلغ البورجوازية مستوى معيناً من الثقافة والوعي ، ستسير قدماً في طريقها الخاصة . ومهما كانت موقف العالم القديم منها ، فهي تشكل عنصراً رئيسياً وثابتاً من عناصر المجتمع السياسي . ان لتفكيرها المستقل ومصالحها المستقلة وسائلها التعبيرية المستقلة ، وتمكسها صحف كثيرة واسعة الانتشار . في انكلترا ثمان

صحف يومية صباحية وثنائي صحف اخرى مسائية ، من بينها الـ « تايمز » ، صحيفة الاعلام
الوزارية ، والـ « مورتنغ كرونكل » ، لسان حال الهوينغ ، والـ « مورتنغ بوست » لسان حال
التوري ، التي لا تقتصر على رواية تفاصيل الاحداث بل تنشر مقالات تتناول امهات المسائل .
وبين المطبوعات الدورية مجلة « كوررتلي ريفيو » المحافظة نظيرة « مجلة ادنبره » التي أسسها
الهوينغ في السنة ١٨٠٨ . وقام في مدن كثيرة ما عرف بـ « نادي الكتاب » . وتأسست نواد
ثقافية ، شبيهة بالجمعيات الادبية والعلمية في لندن والعواصم الاقليمية . منذ ذلك الوقت ظهرت
بوادر الاستعداد لفتنة « الاحرار » والراديكالين بعد صدور قانون السنة ١٨١٥ الذي اقر رفع
قيمة مدفوعات الحنطة . فانضم « بئتم » الى الحركة المطالبة بالتخلي عن النظام الانتخابي
القديم . وفي كتابه « مبادئ الاصلاح البرلماني » ، الموضوع منذ سنوات عدة ، اتهم الملك
والاوليفارشية الحاكمة المحدودة العدد اللذين اعتبروا انفسهما الاوصياء على الأمة ، بتبذير اموال
اليتيم القاصر .

ان بعض العناصر المنادية بالنظام الحر في بروسيا والنمسا ولا سيما في روسيا
قد لحقت بالحركة من بعيد وبطرائقها الخاصة . فقد صدر في موسكو
« رسول اوروبا » لـ « كرامزين » ، و « الرسول الروسي » لـ « غلنكا » ،
ومازوني و « روح الصحف » . حد ارتفاع بدل الاشتراكات من عدد المشتركين ، ولكن عدداً من المعلقين
تطوعوا للعمل في هذه المنشورات ، على غرار ما حدث في القرن الثامن عشر . فأسهمت الحروب
ولا سيما الحرب الوطنية الكبرى في السنة ١٨١٢ ، في ايقاظ وعي الضباط والجنود والانصار
السياسي . ومن ناحية أخرى اوسع نطاقاً ، تجلّى للاشراف الروس والعناصر المتقدمة في الجيش ،
بفعل الغزو الغربي ، عالم جديد كله بمعاداته وعلائقه الاجتماعية وافكاره .

وعلى صعيد آخر ايضاً ، قامت معارضة رهيبية كانت لها امكاناتها الكبرى .
الحركات القومية
فالامان والايطاليون لم يطبقوا نير النمسا بلء رضاهم ولم يخف « بالبو »
ومازوني و « غواراسي » و « مسيمودازيليو » خيبة آمالهم . « لن نغدو احراراً ما لم نكن أمة واحدة » .
وتحسروا على « فكرة المملكة الايطالية الحلوة » التي قال بها الفرنسيون . واستمرت المبادئ
الثورية في الاختار في المحافل الماسونية . فتأسست جمعيات سرية منذ السنة ١٨١٥ ضمت الطلاب
وقدامى ضباط الجيش الكبير قبل غيرهم . وأثار « ميلوخ اوبرينوفيتش » الصرب مرة أخرى
على السلطان الذي اعترف باستقلالهم في السنة ١٨١٥ . وما لبثت ان اندلعت في اقصى البلقان
ثورة اعظم شأنها ستعظمى بمضد البورجوازية اليونانية التي جمعت الثروات عن طريق التجارة
والحرف الصغرى . اجل لا يمثل النظام الحر في هذه الحركات المختلفة سوى قوة غير متساوية :
ولكن الحركات القومية اخذت تهدد اوروبا الجديدة تهديداً مباشراً ، حتى حين كانت الحواجز
قائمة بين الشعوب وبين هذا النظام .

وهكذا عملت في سبيل الثورة البورجوازية ، أو أقله ضد هذا العالم المجدد ، المعرض لشتى الاخطار ، اعظم قوى القرن التاسع عشر : الشعور القومي ، والحس الاجتماعي بما فيه الحس الطبقي البورجوازي بصورة خاصة . فهذا وذاك قد جعلنا فرنسا منذ هذا التاريخ ترفع لواء الثورة الصامتة على معاهدات ومواثيق السنة ١٨١٥ . وسيحدث ان يجمع كلاهما في خارج فرنسا ايضاً . ومهما يكن من امر فانها لن يتعارضا كما حدث ذلك احياناً من قبل . لقد رفع الحظر عن الهيمنة النابوليونية : ولم تعد الفلسفة الثورية لتبدو لاوروبا وكأنها فلسفة العدو ، أو كأنها فرقة خيالة تهدد استقلال الشعوب . ولم تعد « الحركة القومية » ، أقله مؤقتاً ، مبطللة « للحركة الاجتماعية » .

وبات باستطاعة بورجوازية الثورة ، في وجه اوروبا السنة ١٨١٥ ، وفي وجه النظام البروليتاريا القديم في ما مضى ، الاعتماد كذلك على قوة طبقة أخرى : البروليتاريا التي ما زالت ، مؤقتاً ، عنصراً رئيسياً من العناصر المرتبطة بها سياسياً .

بيد ان اختلافات خطيرة ، زادت من حدتها احداث ربع قرن كامل ، قد نشبت بين الطبقتين . لقد وعى كل منها حقوقه . ولكن وعي البورجوازية ربما فاق وعي البروليتاريا . فالبروليتاريا وما اليها سيتحدان عند الحاجة في سبيل مقاومة العدو المشترك . أما البورجوازية فستثبت ، حتى في الصراع ، على حذرهما وخوفها ، ذاك الخوف الاجتماعي القديم الذي بلغ اقصى حدوده خلال السنوات الثورية الاولى ، والذي شمل من جهة ثانية رجال التجديد الاوروبي انفسهم . وان في الشواعر التي اعرب عنها شاقوبريان في السنة ١٨١٥ في كلامه عن العامة — ذاك « الرعاع » المدعو للتداول « في وسط شوارع باريس » في المواضيع السياسية الكبرى ، و « اولئك الملوك شبه العراة الذين لوثتهم الفاقة وخبلتهم ، ومسختهم اعمالهم وشوهمتهم ، والذين تقتصر فضيلتهم على سفه البؤس وكبرياء الرثا » — تعبيراً تقريبياً عن حركة اجتماعية انعكاسية مشتركة بين توابيع الاسياد على اختلاف مناشئهم . وليس شعور اوروبا الارستوقراطية القديمة بهذا الواقع أقل حدة : ودليلنا على ذلك في زعر مترنيخ الذي تنسم « نزعة اشد خطراً من كل ما سواها » ، هي تلك التي « يستهدف التبشير بها إثارة الطبقات المعوزة على الملاكين » .

فاذا ما سوَّى النزاع المزمع الذي يقوم بين البورجوازية والارستوقراطية تسوية نهائية ، وارسخ المجتمع الخلو من المراتب ، بات ممكناً حينذاك تنظيم مقاومة المجتمع الخلو من الطبقات مقاومة مشتركة .

وقد عبر اقتصاديو المدرسة الجديدة خير تعبير عن تصلب البورجوازية هذا . فان الوعي الطبقي والخطر المحدق بها قد امليا عليها هذا الموقف . ويُشاهد ذلك في المسافة التي تفصل بين « آدم سميث » ، و « تورغو » ، واعضاء لجنة التسول — وكلهم يطالب بالتخاذ بعض التدابير للتعويض

على الفقراء - وبين « مالتوس » الموهبي الذي احترم جان - جاك منذ حداثة سنه والذي ستعرف مؤلفاته شهرة عظيمة :

« اذا ولد انسان في عالم سبق تملكه ، واذا لم يستطع الحصول من ذويه على الأود الذي يحق له مطالبته به ، واذا لم يكن المجتمع بحاجة لعمله ، فلا يكون له أي حق في المطالبة بادنى نصيب من الغذاء ، ويكون في الواقع عبثاً على المجتمع . لا مكان له في وليمة الطبيعة الكبرى . الطبيعة تأمره بالذهاب ولن تتأخر عن تنفيذ اوامرها اذا لم يتمكن من استعطاف بعض المدعويين الى الوليمة . واذا ما توانى هؤلاء المدعوون وافسحوا له مكاناً ، اسرع غيره من الدخلاء الى استجداء المنة نفسها . فمجرد سريان الخبر بان هناك اطعمة لكافة القادمين يلاً القاعة بمطالبي كثيرين . ومن ثم يضطرب نظام الولائم ، وتتحول البحبوحة الى عوز ، وتتهار سعادة المدعويين بمشهد البؤس والعسر اللذين يسودان كافة اجزاء القاعة ، وضجيج اولئك الهائجين بحق لانهم لم يجدوا الاطعمة التي تعلموا الاعتماد عليها . ويكتشف المدعوون متأخرين الخطأ الذي ارتكبوه بمخالفتهم الاوامر المشددة التي تتناول الدخلاء والتي اصدرتها السيدة الكبرى الداهية للوليمة . »

أجل ان هذا المقطع الذي نشر للمرة الاولى في طبعة السنة ١٨٠٣ لـ « مبادئ السكان » والذي قامت حوله جدالات كثيرة ، قد حذف في النهاية ، من المؤلف . ولكن ليس تحت هذا الحذف كبير امر . فالفكرة راسخة ، وسوف تترك أثراً عميقاً في مجموع الاعيان البورجوازيين . الفقراء هم الاسباب الرئيسية لويلاتهم . فاليهم وحدهم يعود أمر معالجة ذلك بالتبصر والعفة وتحديد الجنس . ولن نخلو « المبادئ » من هذا التأكيد :

« يجب التبرؤ علناً من حق الفقراء المزعوم في ان يتولى المجتمع الاتفاق عليهم . »

وليست المعضلة انكليزية فحسب . انها لمعضلة شاملة . فما العمل برب عائلة ، دهمته الازمة وهجز عن توفير الغذاء لافراد عائلته ، نرى امثاله في كافة البلدان ؟

« لنسلم .. هذا الانسان الى العقوبة التي حكمت عليه بها الطبيعة .. عليه ان يعلم ان نواميس الطبيعة ، أي نواميس الله ، قد اصدرت عليه حكماً ان يعيش حياته بكد وعناء .. وان ليس له على المجتمع أي حق في الحصول منه على أي نصيب من الغذاء سوى ما يستطيع شراؤه بعمله . »

أجل ليست البورجوازية كلها ما تلتفوه بهذا الكلام القاسي . ولا رجال التجديد الاوروبي ايضاً . لا بل ان هذا الكلام يصدم اناساً كثيرين في هذه الأوساط المختلفة . ومع ذلك فان نجاح المدرسة الجديدة والعقلية الاجتماعية التي تمثلها كان باهراً جداً . هو « قفاؤل » « سميت » ما ميل الى الزوال ، وتشاؤم مالتوس ما يتصاعد ويرتقي . ومن سمات هذا العصر ان مثل هذا التيار الفكري أخذ حينذاك يجد بيئته في كل مكان تقريباً ؛ وان الدلائل تشير الى انتشاره وسيطرته . بيد ان المعاندين الذين سيعترضون على المبنى قبل المعنى كثيرون جداً . فللالتوسية قيمتها ،

في الدرجة الاولى ، اذا ما نظر اليها كما الى رمز ، او موقف ، في وجه معضلات العمل الجديدة .
 فبينما نرى ان أية مدرسة لم تتهم بعد المجتمع الصناعي الناشئ - اذ ان « المبادئ الجديدة
 للاقتصاد السياسي » لـ « سيسموندى » لن تصدر الا في السنة ١٨١٩ - ، وان مطالب
 البروليتاريا لم تُصنَّح بعد بتعابيرها الحديثة ، أخذ تيار الفلسفة البورجوازية ، المتسع أكثر فأكثر
 يوماً بعد يوم ، يتبنى ، في وجه البروليتاريا ، قيم المنع والسمو في الفلسفة التجديدية . أجل ليس
 هذا القول بالجديد . فان المدرسة المسيطرة في القرن الثامن عشر قد نظرت الى اجهزة الانتاج
 والمقايضات كما الى طبقات ازلية ، صادرة عن العناية الالهية . ولكن التشديد الكلي يتناول
 الآن ظواهر التوزيع . فهو توزيع الدخول الاجتماعي ما تفكر به المدرسة المسيطرة بتعابير الازلية
 والوجوب . رأيناها اعلاه تستشهد « بنواميس الطبيعة » و « نواميس الله » ضد مبدأ التدخل
 الاجتماعي ، على غرار « دي ميستر » و « بونالد » و « هالر » وغيرهم على الصعيد السياسي .
 البورجوازية توجه على غير علم منها الى البروليتاريا الكلام الذي يوجهه المجتمع التقليدي الى
 البورجوازية . فيستنتج من ثم ان التقليدية السياسية والتقليدية الاجتماعية ترتكزان من بعض
 الأوجه الى القواعد نفسها .

واذا صح ان رفض الحركة ورفض التاريخ ظاهرة التقدم في السن ، فان بورجوازية السنة
 ١٨١٥ الأوروبية قد اصبحت منذ ذلك التاريخ بهذا الداء الخفي . فالميل الحقيقي الى الزوال يبتدىء
 بالنسبة لها قبل ان تبلغ القمة في تصاعدها .

التوجيه السيليوغرافي

لا مجال هنا لايراد مراجع تاريخ القرن الثامن عشر والثورة والامبراطورية الاولى بالتفصيل .
فبالامكان طلبها في الكتب المدرسية المعدة لطلاب التعليم العالي من مجموعة :

(P.U.F.) «Clio»

Ed. PRECLIN et V-L. TAPIE, t. VII, Le XVII^e siècle, 1952, 2 vol.

Louis Villat, t. VIII, La Révolution et l'Empire, 1947, 2 vol.

:«Peuples et Civilisation»

P. MURET et Ph. SAGNAC, t. XI, La Prépondérance Anglaise (1715-1763).

Ph. SAGNAC, t. XII, La Fin de l'Ancien Régime et la Révolution Américaine (1763-1789), 1952.

G. LEFEBVRE, t. XIII, La Révolution Française, Nouv. Ed., 1951.

G. LEFEBVRE, t. XIV, Napoléon, 1953.

ولكننا سنورد فيما يلي ، بالإضافة الى ذلك ، بعض اهم المؤلفات ، لا سيما الفرنسية منها ،
التي تصلح عند الحاجة للمطالعات التكميلية .

١ — تطورات الثورة الفكرية

P. BRUNET, L'Introduction des théories de Newton en France au XVIII^e siècle, I, Paris, Blanchard, 1931; Les physiciens hollandais et la méthode expérimentale en France au XVIII^e siècle, Paris, Vrin, 1926; La vie et l'œuvre de Clairaut, Paris, P.U.F., 1952.

R. TATON, l'Oeuvre scientifique de Mouton, Paris, P. U. F., 1951.

M. DUMAS, Les Instruments scientifiques aux XVII^e et XVIII^e siècles, Paris, P.U.F., 1953.

Centre international de synthèse, l'Encyclopédie et le progrès des sciences et des techniques, Paris, P.U.F., 1952.

M. DUMAS, Lavoisier, Paris, Gallimard, 1941.

E. GUYENOT, L'Evolution de la pensée scientifique. Les sciences de la vie aux XVII^e et XVIII^e siècles, L'Evolution de l'Humanité», N°. 68, Paris, Albin-Michel, 1941.

R. MOUSNIER, Progrès scientifiques et techniques au XVIII^e siècle, Paris, Plon, 1958.

P. HAZARD, La Pensée Européenne au XVIII^e siècle, Paris, Boivin, 1946.

D. MORNET, Les Origines intellectuelles de la Révolution française, Paris, A. Colin, 1947.

P. WEULERSSE, *La Physocratie sous les ministères de Turgot et de Necket (1774-81)*, Paris P.U.F., 1950.

J.J. SPENGLER, *Economie et Population. Les Doctrines françaises avant 1800*, I, de Budé à Condorcet, Inst. Nat. d'Etudes Démographiques, Travaux et Documents, N° 21, Paris P.U.F., 1954.

٢ — الثورة التقنية

P. MANTOUX, *The Industrial Revolution in the eighteenth century*, 17^e éd. Londres, Jonathan Cape, 1952.

T.S. ASHTON, *La Révolution Industrielle (1760-1830)*, trad. F. Durif, Paris, Plon 1955.

A. et L. CLOW, *The Chemical Revolution*, 1952.

G. LEON, *La Naissance de la Grande Industrie en Dauphiné*, I, Paris P.U.F. 1954.

H. SEE, *Les Origines du Capitalisme Moderne*, Paris, A. Colin, 1926; *Histoire Economique de la France (avec compléments par R. SCHNEEB)*, I, Paris, A. Colin, 1939.

R. BIGO, *Les Bases Historiques de la France Moderne*, Paris, Société d'Editions Géographiques, Maritimes et Coloniales.

Ch. de LA RONCIERE et G. CLERC-RAMPAL, *Histoire de la Marine Française*, Paris, Larousse, 1934.

S. T. MAC CLOY, *French Inventions of the eighteenth century*, Lexington, University of Kentucky Press, 1951.

O. FESTY, *L'Agriculture pendant la Révolution française*, Paris, Gallimard, 1947.

E. JUILLARD, *La Vie Rurale dans la Plaine de Basse-Alsace*, Paris, Les Belles-Lettres, 1953.

٣ — استحالة قيام الامة الاوروبية

L. REAU, *L'Europe Française au siècle des lumières*, «L'Evolution de l'Humanité», N° 70, Paris Albin-Michel, 1938.

A. SOREL, *L'Europe et la Révolution Française*, I, Paris, Plon, 1885.

F. BRUNOT, *Histoire de la Langue Française*, VI, *Le XVIII^e siècle*, Paris A. COLIN, 1930-1933.

H. LAVEDAN, *Histoire de l'Urbanisme*, II, Paris, Laurens, 1941.

L. HAUTECOEUR, *Histoire de l'Architecture Classique en France*, III, *Le Style Louis XV*, IV, *Le Style Louis XVI*, Paris, Picard, 1952.

J. COMBARIEU et R. DUMESNIL, *Histoire de la Musique*, II, *XVII^e-XVIII^e siècles*, nouv. éd., Paris A. Colin

A. LORTHOLARY, *Le Mirage Russe en France au XVIII^e siècle*, Paris Boivin, 1951.

J. FABRE, *Stanislas-Auguste Poniatowski et l'Europe des lumières*, Paris Les Belles-Lettres, 1952.

G. ZELLER, *Les Temps Modernes*, II, *De Louis XIV à 1789*, «Histoire des Re-

- lations Internationales» publié sous la direction de P. RENOUVIN, t. III, Paris, Hachette, 1955.
- P. GAXOTTE, *Le Siècle de Louis XV*, «Les Grandes Etudes Historiques», Paris, A. Fayard.
- A. de TOCQUEVILLE, *L'Ancien Régime et la Révolution Française*, Paris, Gallimard, 1952.
- PH. SAGNAC, *La Formation de la Société Française Moderne*, II, Paris, P.U.F. 1946.
- C. E. LABROUSSE, *La Crise de l'Economie Française à la fin de l'Ancien Régime et au début de la Révolution*, Paris, P.U.F., 1943.
- M. BLOCH, *Caractères Originaux de l'Histoire Rurale Française*, Paris, A. Colin, 1952.
- F. OLIVIER-MARTIN, *L'Organisation Corporative de la France d'Ancien Régime*, Paris, Sirey, 1933; *Histoire du Droit Français*, Paris, Domat-Moutchresien, 1948.
- J. EGRET, *Le Parlement de Dauphiné*, Paris 1942.
- H. FREVILLE, *L'Intendance de Bretagne*, Rennes, Pihon, 1953.
- A. V. DICEY, *Introduction à l'Etude du Droit Constitutionnel Anglais*, Paris, Giard, 1902.
- H. BUTTERFIELD, *George III, Lord North and the People*, London, 1949.
- R. PARES, *King George III and the Politicians*, Oxford, Clarendon Press, 2ème Ed., 1964.
- P. GAXOTTE, *Frédéric II*, «Les Grandes Etudes Historiques», Paris, A. Fayard.
- W. L. DORN, *The Prussian Bureaucracy in the Eighteenth Century*, *Political Science Quarterly*, XLVI, 1931, p. 402-423, XLVII, 1932, p. 75-94, 259-273.
- R. MINDER, *Allemagne et Allemands*, I, Paris, Coll. Esprit, Frontière Ouverte, 1948.
- E. J. HAMILTON, *War and Prices in Spain (1651-1800)*, Cambridge (Mass.) Harvard University Press 1947.
- R. PORTAL, *L'Oural au XVIIIe siècle*, Limoges, Bontemps, 1950.
- L. JUST, *Der Aufgeklärte Despotismus*, Darmstadt, Hafeld, s.d.

٤ — علاقہ اوروبا بالعالم

- H. DESCHAMPS, *Méthodes et Doctrines Coloniales de la France*, Paris, Colin, 1953.
- GASTON-MARTIN, *Histoire de l'Esclavage dans les Colonies Françaises*, Coll. «Colonies et Empires», Paris, P.U.F., 1948; *L'Anti-colonialisme au XVIIIe siècle*, «Colonies et Empires», Paris P.U.F., 1951.
- R. GROUSSET, *La Chine*, «Les Grandes études Historiques», Paris A. Fayard, 1942.
- M. EBERHARD, *Histoire de la Chine*, Paris, Payot, 1952.
- G. MASPIERO et J. ESCARRA, *Les Institutions de la Chine*, Paris, P. U. F., 1952.

- V. PINOT, *La Chine et la Formation de l'Esprit Philosophique en France*, Paris, Geuthner, 1932.
- A. H. ROWIZOTHAM, *Missionary and Mandarin. The Jesuits at the Court of China*, Los Angeles, University of California Press, 1942.
- H. CORDIER, *La Chine en France au XVIII^e siècle*, «B. i. des Curieux et des Amateurs», Paris, Laurens, 1910.
- W. W. APPLETON, *A cycle of Cathay. The Chinese Vogue in England during the seventeenth and eighteenth centuries*, New York, Columbia University Press, 1951.
- B. WLADIMIRTSOV, *Le Régime Social des Mongols. Le Fédéralisme Nomade*, Paris, Maisonneuve 1948.
- SANSOM, *Le Japon*, Paris, Payot 1938.
- H. A. R. GIBB et H. BOWEN, *Islamic Society and the West, I. Islamic Society in the eighteenth century, Part I*, Oxford University Press, 1950.
- R. C. MAJUMDAR et H. C. R. CHAUDHU et KALIKINDAR DATTU, *An Advanced History of India, II*, London, Macmillan 1949.
- P. SPEAR, *Twilight of Mughals . . Studies in Late Mughul Delhi*, Cambridge University Press, 1951.
- Ch. A. JULIEN, *Histoire de l'Afrique du Nord*, 2^{ème} Ed., II, revu par LÉTOURNEAU, Payot, 1952.
- G. HANOTAUX, *Histoire de la Nation Egyptienne*, V, Paris, Plon, 1934.
- M. DELAFOSSE, *The Negroes of Africa*, Washington, The Associated Publishers, 1932.
- H. LABOURET, *Histoire des Noirs d'Afrique*, Paris P. U. F. 1946.
- G. HARDY, *Histoire d'Afrique*, Paris A. Colin, 1930; *Nos Grands Problèmes Coloniaux*, Paris, Colin, 1928.
- A. BALLESTEROS BERETTA, *Historia de America, XIII, Los Virreynatos en el Siglo XVIII*, par C. ALCAZAR MOLINO, Madrid, Salvat, 1945.
- R. PARES, *War and Trade in the West India*, Oxford, Calarendon Press, 1936.
- A. MARTINEAU et L. Ph. MAY, *Trois Siècles d'Histoire Antillaise*, Paris Leroux, 1935.
- D. PASQUET, *Histoire Politique et Sociale du Peuple Américain, I*, Paris, Picard, 1924.
- E. PRECLIN, *Histoire des Etats-Unis*, Paris, Colin, 1937.
- E. H. BELDT, *American History and American Historians*, London, The Athlone Press, 1952.
- M. GIRAUD, *Le Métis Canadien*, Paris, Institut d'Ethnologie, 1945.
- TRUDEL, M. Louis XVI, *Le Congrès Américain et le Canada*, Publ. de l'Université Laval, Québec, 1949.
- Cl. de BONNAULT, *Histoire du Canada Français «Colonies et Empires»*, Paris, P. U. F., 1950.

• — الثورة والامبراطورية

- J. JAURES, *Histoire Socialiste*, Paris, Librairie de l'Humanité, nouv. Ed. par A. MATHIEZ, 1922-1924, 8 vol.

- M. DESLANDRES, *Histoire Constitutionnelle de la France de 1789 à 1870*, t. I, Paris, Sirey, 1932.
- J. GODECHOT, *Les Institutions de la France sous la Révolution et l'Empire*, Paris, P. U. F. 1951.
- D. MORNET, *Les Origines Intellectuelles de la Révolution Française*, Paris, A. Colin, nouv. Ed. 1947.
- B. FAY, *L'Esprit Révolutionnaire en France et aux Etats-Unis à la fin du XVIII^e siècle*, Paris H. CHAM-PION, 1924.
- M. MARION, *La Vente des Biens Nationaux*, Paris, H. Champion, 1909.
- G. LEFEBVRE et A. TERRAINE, *Recueil des Documents Relatifs aux Séances des Etats-Généraux*, t. I, Paris C. N. R. S., 1953, in 8°.
- G. DEBIEN, *Les Colons de St. Domingue et la Révolution*, Paris, A. Colin, 1953.
- G. LEFEBVRE, M. BOULOISEAU, A. SOBOUL, *Discours de Robespierre*, t. I, II, III, Paris P. U. F., 1950-54.
- G. LEFEBVRE *Questions Agraires au Temps de la Terreur*, nouv. Ed., La Roche-sur-Yon, H. Poitier, 1954.
- G. LEFEBVRE, *Etudes sur la Révolution Française*, Paris, P.U.F. 1954.
- G. LEFEBVRE, *Les Paysans du Nord Pendant la Révolution Française*, Lille, Giard, 1924, 2 vol.
- G. LEFEBVRE, *La Grande Peur de 1789*, Paris A. Colin, 1932.
- G. LEFEBVRE, *Quatre Vingt Neuf*, Paris, Maison du Livre Français, 1939.
- A. MATHIEZ, *La Révolution Française*, 3 vol. Coll. A. Colin, Paris A. Colin, 1922-1927.
- G. LEFEBVRE, *Les Thermidoriens*, Coll. A. Colin, Paris A. Colin, 1937.
- G. LEFEBVRE, *Le Directoire*, Coll. A. Colin, Paris, A. Colin, 1946.
- A. MATHIEZ, *La Vie Chère et le Mouvement Social sous la Terreur*, Paris, Payot, 1927.
- J. EGRET, *La Révolution des Notables*, Mounier et les Monarchiens, 1789, Paris, Colin, 1950.
- A. LATREILLE, *L'Eglise Catholique et la Révolution Française*, 2 vol. Paris, Hachette, 1946 et 1950.
- A. CHABERT, *Essai sur le Mouvement des Prix et des Revenus en France de 1798 à 1820*, Paris, Lib. de Médecis, 1945-1949, 2 vol.
- L. DUBREUIL, *Histoire des Insurrections de l'Ouest*, Paris, P. U. F. 1929, 2 vol.
- J. BOUCHARY, *Les Manieurs d'Argent à la fin du XVIII^e siècle*, Paris, Rivière, 1939-1949, 3 vol.
- E. VINGTRINIER, *Histoire de la Contre-Révolution*, Paris, Emile-Paul 1924-1925, 2 vol..
- Chanoine J. LEFLON, *La Crise Révolutionnaire*, *Histoire de l'Eglise* par FLICHE et MARTIN, t. XX, Paris, Bloud et Gay, 1949.
- P. CARON, *Les Massacres de Septembre*, Paris, Maison du Livre Français, 1936.
- P. CARON, *La Première Terreur (1792)*, I : *Les Missions du Conseil Exécutif*

- Provisoire et de la Commune de Paris**, Paris, P. U. F., 1950.
- M. DOMMANGET, **Babeuf et la Conjurati on des Egaux**, Paris, Lib. de l'Humanité, 1922.
- M. REINHARD, **Le Grand Carnot, t. I**, Paris, Hachette, 1950.
- A. FUGIER, **La Révolution Française et l'Empire Napoléonien**, «Histoire des Relations Internationales» publiée sous la direction de P. RENOUVIN, t. IV, Paris Hachette.
- R. GUYOT, **Le Directoire et la Paix de l'Europe**, Paris, P. U. F., 1911.
- E. HALEVY, **Histoire du Peuple Ang lais au XIXe siècle, t. I**, Paris, Hachette, 1913.
- J. DROZ, **l'Allemagne et la Révolution Française**, Paris, P. U. F., 1949.
- J. DESCHAMPS, **Les Iles Britanniques et la Révolution Française**, Bruxelles La Renaissance du Livre, 1949.
- P. MILIOUKOV, **Histoire de Russie, t. II**, Paris P. U. F., 1933.
- P. VERHAEGEN, **La Belgique sous la Domination Française**, Bruxelles, Goe-mare, Paris, Plon, 1922-1929, 4 vol.
- H. PIRENNE, **Histoire de Belgique, t. V**, Bruxelles, Lamartin, 1921.
- A. FUGIER, **Napoléon et l'Espagne**, Paris, P. U. F. 1930, 2 vol.
- J. MANCINI, **Bolivar et l'Emancipation des Colonies Espagnoles des Origines à 1815**, Paris, Perrin, 1912.
- F. CHARLES-ROUX, **L'Angleterre et l'Expédition d'Egypte**, Le Caire, Soc. Géogr. 1925, 2 vol..
- A. LATREILLE, **Napoléon et le Saint-Siège (1801-1804)**, Paris, P. U. F., 1935.
- G. SIX, **Dictionnaire Biographique des Généraux et Amiraux Français de la Révolution et de l'empire (1792-1814)**, Paris, Bordas, 1934-1935, 2 vol.
- A. ROBERT, **L'Idée Nationale Autrich ienne et les Guerres de Napoléon**, Paris, P. U. F., 1933.
- F. BALDENSPERGER, **Le Mouvement des Idées dans l'Emigration Française**, Paris, Plon, 1925, 2 vol.

مراجع عربية

استكمالاً لجريدة المصادر الفرنجية وتنمة للبحث ، رأيت « دار منشورات عويدات » في بيروت ، تكليف الاستاذ يوسف اسعد داغر ، الاختصاصي بفن المكتبات والخبر العالمي بالبيبلوغرافيا الشرقية من عربية واسلامية ، وبالتوثيق العلمي ، وأحد المترجمين لهذه الموسوعة التاريخية ، إعداد قائمة ببلوغرافية بالمراجع والمصادر التاريخية العربية التي تتعلق بأهم مواد هذا الجزء الخاص بتاريخ العالم بين ١٧١٥ - ١٨١٤ . وقد نزل الاستاذ داغر عند رغبتنا هذه فأعد هذه القائمة خدمة للبحث العلمي وتيسيراً لأسبابه وللعاملين في مجال البحث في عالم الضاد من يهتمون بالدراسات التاريخية العائدة لهذه الحقبة المهمة من التاريخ العام .

فمعي ان يحمد الباحثون في هذه القوائم المختارة ما يغني بعض الشيء عن جهد التقصي والتعميش .

منشورات عويدات

اوروپا في القرن الثامن عشر

فيليب ميرزا - التاريخ العام للكلليات والمدارس العالية ، الجزء الثالث : التاريخ الحديث - بيروت ، المطبعة الاميركية ١٩٢٩ ، ص ٤٠١ - ٦٤٢ .

نهاد رضا - الادب الثوري في القرن الثامن عشر - بيروت ، دار مكتبة الحياة ، ١٣٤ ص - مراجع ، ص ١٢٨ - ١٢٩ .

هيز - كارلتون جوزف - الثورة الصناعية ، ترجمة احمد عبد الباقي - بغداد ، مكتبة المتنبي ، ١٩٥٠ ، ١١١ ص .

الهند

ابو الليل - محمد مرسى - الهند : تاريخها وتقاليدها وجغرافيتها - القاهرة مؤسسة سجل العرب ، ١٩٦٥ ، ٢٨٦ ص - صور وخرائط .

الحسني ، عبد الحفي - الثقافة الاسلامية في الهند . معارف الموارد في انواع العلوم والمعارف - دمشق ، الجمع العلمي العربي ، ١٩٥٨ ، ٣٥٧ ص .

السادقي ، احمد محمود - تاريخ المسلمين في شبه القارة الهندية وحضارتهم - القاهرة ،
وزارة التربية والتعليم ، جزآن ١٩٥٢ .

لوبون ، غوستاف - حضارة الهند ، ترجمة عادل زعيتر - مصر ، مطبعة دار إحياء
الكتب العربية ، ١٩٤٨ - ٧٣١ ص ، مع خرائط .

محمود ، احمد عبد المنصف - في بلاد البقرة المقدسة - القاهرة ، دار الكتاب العربي ،
لا . ت . ١٥٤ ص - صور .

موداك ، مانورافا - الهند : شعبها وارضها . ترجمة محمد عبد الفتاح ابراهيم - القاهرة ،
مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٦٤ ، ٢١٧ ص .

النمرة ، عبد المنعم - تاريخ الاسلام في الهند - القاهرة ، دار العهد الجديد ١٩٥٩ ، ٤٨١
ص - صور ، خرائط .

الثورة الفرنسية والعهد النابوليوني

جلال حسن - حياة نابوليون - مصر ، مطبعة الاعتماد ، جزآن - مع صور .
الحويك ، الياس طنوس - تاريخ نابوليون الاول - القاهرة ، مكتبة زيدان العمومية ،
١٩٣١ ، ٣ اجزاء .

رفعت ، محمد - تاريخ مصر السياسي في الازمنة الحديثة - القاهرة ، مطبعة الشعب
١٩٢٠ - مراجع .

شكري ، محمد فؤاد - الحملة الفرنسية وظهور محمد علي - القاهرة مطبعة المعارف
ومكتبتها ، ١٩٣٠ ، ٣٥٦ ص .

العدوات ، يعقوب - اسلام نابوليون - عمان ، لا . ت . ٦٩ ص .

عوض ، احمد حافظ - فتح مصر الحديث او نابوليون بوناپرت في مصر ، القاهرة ،
مطبعة مصر ، ١٩٢٥ ، ٤٣٨ ص .

كابانيس ، اوغستين - حول سرير الامبراطور . نقله بتصريف نقولا فياض القاهرة ، دار
الهلل ، ١٩٢٦ ، ١٢٨ ص - صور .

لودفيغ ، اميل - نابوليون ، ترجمة محمود ابراهيم الدسوقي - القاهرة ، دار الكتاب
المصري ، ١٩٤٦ ، جزآن .

كاليغارس ، لويس - سيرة نابوليون الاول - ١٨٥٦ ، ٥٨٤ ص .

لوبون ، غوستاف - روح الثورات والثورة الفرنسية - ترجمة عادل زعيتر - القاهرة ،
المطبعة المصرية ، ١٩٣٤ ، ١٨٣ ص .

ليني ، ارثور - النسر الاعظم او نابوليون الاول ، ترجمة يوسف البستاني القاهرة ، مطبعة الهلال - ١٩١٣ ، ٩٨ ص.

عين ، انطوان - نابوليون : أحدث تاريخ له - بيت شباب ، مطبعة جريدة العلم ، ١٩٣٦ ، ٢٢٢ ص.

التيار الفلسفي

الحاج ، كمال يوسف - رنيه ديكارت ، ابو الفلسفة الحديثة - بيروت ، دار مكتبة الحياة ، ١٩٥٤ ، ٢٦٨ ص.

الحاج ، كمال يوسف - مدخل الى فلسفة ديكارت ، مع ترجمة التأملات - بيروت ، منشورات عويدات ، ١٩٦١ ، ١٩١ ص.

اوروبا ، تاريخها الحديث

الاسكندري ، عمر وحسن سليم - تاريخ اوروبا الحديثة وآثار حضارتها - مصر ، مطبعة المعارف ، ١٩٢٠ - ١٩٢٢ ، جزآن ، رسوم - خرائط.

حداد ، جورج مرعي - تاريخ اوروبا والمسألة الشرقية في الازمنة الحديثة - (١٧٨٩ - ١٨٤٨) - حلب ، المطبعة الوطنية ، ١٩٣٥ ، ٢٥١ ص.

سلطان ، عثمان - التاريخ السياسي - دمشق ، مطبعة الترقى ١٩٢٥ .

فيشر ، هربرت البرت - تاريخ اوروبا في العصر الحديث ، ترجمة احمد نجيب هاشم ووديع الضبع - القاهرة ، دار المعارف ١٩٤٦ ، ٦٦٩ ص - خرائط .

قاسم ، احمد واحمد نجيب - التاريخ الحديث والمعاصر - القاهرة ، دار المعارف ١٩٦١ ١٥٦ ص - صور وخرائط.

الصين

تواضع ، محمد - الصين والاسلام - القاهرة ، دار الطباعة والنشر الاسلامية ١٩٤٥ ، ٢١٠ ص - خريطة .

حي الصيني - بدر الدين ، العلاقات بين العرب والصين - القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٥٠ ، ٣٢٠ ص - صور .

السيرافي ، حسن ، رحلة السيرافي الى الهند والصين واليابان واندونيسيا سنة ٨٥١ م - بغداد ، دار منشورات البصري ، ١٩٦٢ ، ١١٢ ص.

روسيا

بيدش ، خليل ابراهيم - العقد التنظيم في اصل الروسيين واعتناقهم الايمان القديم -
بعيدا ، المطبعة العثمانية ، ١٨٩٧ ، ١٦٠ ص.
خرباوي ، الخوري باسيلوس - تاريخ روسيا منذ نشأتها الى الوقت الحاضر نيويورك ،
١٩١٤ ، ٧١٨ ص.

سليم قبعين- سياحة في روسيا - مصر .
نخلة قلفاط - تاريخ روسيا الحديث - بيروت ١٨٨٦ ، في ٤ اجزاء
نخلة قلفاط - تاريخ بطرس الاكبر - بيروت ، ١٨٨٥ .
حسن لبيب - تاريخ المسألة الشرقية - القاهرة ، مطبعة الهلال ، ١٩٢١ ، ١٢٠ ص.
وهبي تادرس - الاثر النفيس في تاريخ بطرس الاكبر ومحاكمة الكسيس - بولاق ،
١٩٠٤ ، ١٦٠ ص .
فولتير - الروض الازهر في تاريخ بطرس الاكبر ، ترجمة احمد عبيد الطهطاوي بولاق ،
١٢٦٦ ، ٢٤٨ ص .
مؤلف مجهول - كاترين الثانية - مصر ، ادارة الهلال ١٩٢٢ ، ٥٩ ص .
شارل ، ريمون - الهلال الشهيد . مصير الاسلام في ظل الانظمة القيصريية والسوفيياتية ،
المعهد الدولي للبحوث والدراسات الشرقية ، ١٩٦٣ ، ٢٣٦ ص .

البرتغال والبرازيل

عبد الهادي ، محمد هنائي - نهاية الاستعمار البرتغالي - القاهرة الدار القومية للطباعة
والنشر ، لا . ت ، ٢٠٢ ص .
اطلس ، جورج ميخائيل - تاريخ البرازيل - سان باولو ، دار الطباعة والنشر العربية
١٩٤٦ ، ١٨٠ ص .

العلم والحركة العلمية

كوثانت ، جيمس بريانت - مواقف حاسمة في تاريخ العلم ، ترجمة احمد زكي - القاهرة ،
دار المعارف ١٩٥٤ ، ٥١٦ ص .
مرتز ، جون ثيودور - نزعة الفكر الاوروبي في القرن التاسع عشر - القاهرة ، مطبعة
جريدة الصباح ، ١٩٢٣ ، ٩٠ ص .
منتصر ، عبد الحليم - تاريخ العلم ودور العلماء في تقدمه ، القاهرة ، دار المعارف ،
١٩٦٦ ، ٢٨٣ ص .

الولايات المتحدة الاميركية

- جيمس ، برستون آي - ملحمة اميركا الشمالية . ترجمة جورج قاعي - بيروت ، المؤسسة الشرقية ، لا ت . ٢٠٨٤ ص .
- حداد ، يوحنا - تاريخ العالم الجديد - بيت شباب ، مطبعة العلم ، ١٩٥٢ ، ٣٥٤ + ١٢٨ ص .
- دجلاس ، وايم - وثيقة حية للحقوق . ترجمة يوسف شاهين - القاهرة ، دار الكرنك ١٩٦٥ ، ٨٣ ص .
- زيادة ، فرحات وابراهيم فريحي - تاريخ الشعب الاميركي ، برنستون ، مطبعة جامعة برنستون ١٩٤٦ ، ٣٤٦ ص - صور - خرائط .
- كويل ، دافيد بوشمان - النظام السياسي في الولايات المتحدة . ترجمة توفيق حبيب ، القاهرة ، مكتبة الخالجي ، ١٩٥٥ ، ٣٢٠ ص .
- ليسي ، دان - الثورة الاميركية : دوافعها ومغزاها . ترجمة سامي فاشد - القاهرة ، مؤسسة سجل العرب ١٩٦٦ (١٩٤٦) - مجلدان .
- مايز ، فيكتور - معركة السفينة ، ترجمة صبحي الجيار - القاهرة دار النهضة العربية ١٩٦٢ ، ٣٢٩ ص - صور .
- هاملتون ، الكسندر - الدولة الاتحادية : اسسها ودستورها . ترجمة محمد احمد - بيروت ، دار مكتبة الحياة ، ١٩٥٩ ، ٦٨٨ ص .

جدول زمني مقارن

- ١٧١٥ - ارتقاء لويس الخامس عشر العرش « ١ - ٩ » - وصاية دوق اورليان « ٢ - ٩ » -
تنظيم *Physynodie* - انشاء هيئة مهندسي الجسورة والطرق -
فنيلون : رسالة الى الاكاديمية *
- ١٧١٦ - بطر سبرج عاصمة بطرس الاكبر - انشاء مصرف لو « ٢ - ٥ » - مرسوم السباعية
Septennalité في انكلترا « ٧ - ٥ » - البروني رئيس الوزراء عند فيليب
الخامس *
- ١٧١٧ - حلف لاهاي الثلاثي « ١١ - ١ » - بطرس الاكبر في باريس « شهر ايار » - انشاء
شركة الغرب الفرنسية « آب » - استيلاء الامير اوجين على مدينة بلغراد « آب »
- ١٧١٨ - معاهدة ساروفتس « او معاهدة بوجارفتس » بين الامبراطور وتركيا « تموز » -
التنازل عن ولاية بوليسنوديا « ايلول » - وفاة شارل الثاني عشر « ٣٠ - ١١ » -
مصرف لو يصبح المصرف الملكي « ٧ - ١٢ » - انشاء مدينة اورليان الجديدة -
- ١٧١٩ - الغاء فريديريك غليوم الاول عبودية الفلاحين في اراضي النبلاء - بطرس الاكبر
يغزو اسوج - دانيال ديفو يضع روايته : روبنسن كروزيه *
- ١٧٢٠ - معاهدة ستوكهولم بين بروسيا واسوج - فيليب الخامس يزهد بعرش فرنسا
« ٢٢ - ٦ » - استقالة لوهره - « ١٢ - ١٢ » - عودة البول الى الوزارة « ك ١ »
استيطان الاسبان في مقاطعة تكساس - افلاس شركة مياه الجنوب الانكليزية -
- ١٧٢١ - معاهدة نيتادت « ٢١ - ١ » - انشاء اول محفل ماسوني في مدينة دنكرك -
وضع واتو رسمه المعروف : علم جرسين - مونتيكيو ينشر كتابه : رسائل
فارسية *
- ١٧٢٢ - دييوا يرأس الوزارة « ٢٢ - ٨ » - انشاء شركة اوستاند - بطرس الاكبر ينشيء
التشن *
- ١٧٢٣ - وفاة دييوا « ١٠ - ٨ » والوصي على العرش « ك ١ » - وزارة دوق بوربون -
استيلاء الروس على مدينة باكو - اعادة تنظيم الشركة الفرنسية للهند *
- ١٧٢٤ - انشاء نادي انترسول في باريس - تاسيس البورصة في باريس *
- ١٧٢٥ - وفاة بطرس الاكبر « ٨ - ٢ » - زواج لويس الخامس عشر بماري لزنسكا « ١٥ - ٨ »
معاهدة فيينا الاولى « ٥ - ١١ » - اكتشاف مضيق بهرينغ *
- ١٧٢٦ - فلوري رئيس الوزارة في فرنسا « ١٢ - ٦ » - رحلة بهرينغ الى كمشتكا - فيكون
يضع كتابه المعنون : « العلم الجديد » *

- ١٧٢٧ - وفاة نيوتن - بطرس الثاني قيصر روسيا •
- ١٧٢٨ - جورج الثاني ، ملك على انكلترا « ٢٢ - ٦ » •
- ١٧٢٩ - معاهدة اشبيلية « ٩ - ١١ » - انشاء اولى المستعمرات الانكليزية في كارولينا •
- ١٧٣٠ - بدء حبرية البابا اقليمس الثاني عشر - معاهدة كياخا الروسية الصينية - اوري يعين مفتشا عاما للمالية - انا ايفانوفنا قيصر روسيا •
- ١٧٣١ - معاهدة فيينا الثانية والثالثة « ١٦ - ٣ و ٢٢ - ٧ » - فولتير يضع كتابه : « تاريخ شارل الثاني عشر - دوبلكس حاكم شندرنافور في الهند •
- ١٧٣٢ - مجلس الامة الجرماني يقر المعاهدة الدينية « ١١ - ١ » - تأسيس المستعمرة الانكليزية في جيورجيا •
- ١٧٣٣ - حرب الخلافة في بولونيا - ستانسلاس لكزنسكي ينتخب ملكا على بولونيا « ايلول » - الميثاق الاول في الاسرة « ٧ - ١١ » - اختراع اول نول للحياكة على يد لويس بول •
- ١٧٣٤ - فولتير ينشر كتابه : رسائل انكليزية - باخ يضع نشيد عيد الميلاد •
- ١٧٣٥ - حساب خط الطول يقوم به لكوندامين - استخدام الفحم الحجري في صناعة الحديد على يد ابراهيم دربي •
- ١٧٣٦ - احتلال الروس لمدينة ازوف وغزوهم شبه جزيرة القرم - معاهدة القسطنطينية الثانية بين الاتراك والفرس « ١٧ - ١٠ » - انشاء مصرف كوبنهاغن •
- ١٧٣٧ - طرد الروس من القرم - اول صالون للرسم - رامو يضع : كستور وبولوكس •
- ١٧٣٨ - معاهدة فيينا الرابعة « ٢ - ٥ » - وسلي ينشئ اول جمعية متودية « حيران » - اختراع كاي « للمكوك الطائر » - تأسيس معمل البورسلين في فنسين « ثم ينتقل الى سيفر » •
- ١٧٣٩ - معاهدة بلغراد « ١٨ و ٢٣ - ٩ » - الحرب الانكليزية الاسبانية « ١٩ - ١٠ » •
- ١٧٤٠ - تجديد الامتيازات الاجنبية « ٨ - ٥ » - وفاة الملك الشاويش واعتلاء فريدريك الثاني العرش « ٣١ - ٥ » - وفاة الامبراطور شارل السادس واعتلاء ماري تيريزيا العرش « ١٩ - ١٠ » - اعلان الحرب بين فرنسا وانكلترا « ١ » - فريدريك الثاني يغزو سليزيا « ١٦ - ١٢ » - ريشاردسن يضع : بامبلا - شاردين يضع : البندسيتة •
- ١٧٤١ - التحالف الفرنسي البروسياني « ٥ - ٦ » - الحرب بين روسيا واسوج « اب » •
- ١٧٤٢ - سقوط وزارة ولبول في انكلترا « ١٣ - ٢ » - معاهدة برلين « ٢٨ - ٧ » - دوبلكس يعين حاكما عاما في الهند الفرنسية - بندكتوس الرابع عشر يشجب طرق واساليب اليسوعيين في الصين •
- ١٧٤٣ - وفاة فلوري « ١٩ - ١ » - معاهدة ابو بين روسيا والسويد « ١٧ - ٨ » - الحلف العائلي الثاني « ٢٨ - ١٠ » •
- ١٧٤٤ - انطلاق شرارة الحرب بين فرنسا وانكلترا والنمسا « ١٥ - ٣ » - فريدريك الثاني يهاجم بوهيميا •

- ١٧٤٥ - انتصار موريس ده ساكس في موقعة فونتنوا « ١١ - ٥ » - صلح درسد « ٢٥ - ١٢ »
وقوع جزيرة كاب بريتون بيد الانكليز - بدء حظوة مدام بمبادور .
- ١٧٤٦ - سقوط بروكسل بيد الفرنسيين « ١٢ - ٢ » - وفاة فيليب الخامس ملك اسبانيا
« ٩ - ٧ » - سقوط مدينة مدراس بيد لابوردونييه « ٢١ - ٩ » - ديدور يصدر :
« خواطر فلسفية » .
- ١٧٤٧ - فرنكلين يكتشف ناموس الشاري او قضيب الصاعقة - تأسيس مدرسة المناجم في
باريس على يد ترودين .
- ١٧٤٨ - معاهدة اكس لا شابل « ٢٨ - ١٠ » - مونتسكيو وكتابه : روح الشرائع - اكتشاف
آثار مدينة بمبايي .
- ١٧٤٩ - فرض ضريبة ٥ بالمائة في فرنسا « ايار » - هنتسمان يكتشف طريقة صنع الفولاذ
المصهور - ديدرو ينشر كتابه : رسائل حول الانكليز - فيلدنغ ينشر روايته :
توم جونز .
- ١٧٥٠ - مناهضة ماشو للامتيازات والاستثناءات - فولتير في برلين - دوبلكس ينال الحماية
على مقاطعة كرناتييك - روسو ينشر كتابه حول « خطاب حول العلوم والفنون » .
- ١٧٥١ - نشر المجلد الاول من دائرة المعارف الفرنسية « ٧ - ٢ » - فولتير ينشر كتابه : عصر
لويس الرابع عشر - البرتغال تحظر التعذيب بالنار .
- ١٧٥٢ - اول حرم تنزله الكنيسة بدائرة المعارف « ٧ - ٢ » - كوتنز يعين مستشارا فسي
النمسا - انشاء ميدان ستانسلاس في مدينة نانسي .
- ١٧٥٣ - قضية اوراق الاعتراف النقدية - حل برلمان باريس « ايار » واعادته « تشرين الاول » -
مؤتمر لندن لتسوية شؤون الهند - الاعمال العدائية تنشب من جديد في كندا ووادي
نهر الاوهايو .
- ١٧٥٤ - استدعاء دوبلكس « اب » - معاهدة غودهو « ٢٦ - ١٢ » - ماشو يتخلى عن مركز
المفتش العام - روسو يضع كتابه : خطاب حول اصل عدم المساواة بين البشر -
كوندياك يضع بحثه حول الاحاسيس والمشاعر .
- ١٧٥٥ - حادث اعتداء بوسكوين « ١٠ - ٦ » - طرد الرهبنة اليسوعية من البراغواي .
- ١٧٥٦ - انقلاب الاحلاف : معاهدة فرساي الاولى « ١ - ٥ » - الحرب الفرنسية الانكليزية
« ١٥ - ٥ » - مونكالم في كندا « ايار » - سقوط مينوركا بيد الفرنسيين
« ٢٨ - ٦ » - اول وزارة لبنت « ك ١ » - فولتير يضع كتابه : محاولة حول
الاخلاق .
- ١٧٥٧ - دميانس يحاول الاعتداء على لويس الخامس عشر - الاستيلاء على كلكتوتا
« ٢ - ١ » على شاندرناغور « ٢٣ - ٣ » وانتصار كليف في موقعة بلاسي - معاهدة
فرساي الثانية « ١ - ٥ » - موقعة روزاباخ « ١١ - ٥ » - موقعة لوتن « ٢٥ - ١٢ » .
- ١٧٥٨ - شوازل سكرتير دولة للشؤون الخارجية « ٩ - ١٠ » - استيلاء الانكليز على
اللكسمبورغ « ٢٦ - ٧ » وعلى حصن دوكسين « ٢٥ - ١١ » بابوية اقليس
الثالث عشر - احتلال الروس لروسيا الشرقية - لالي تولندال في الهند « نيسان » -

روسو ينشر كتابه : رسالة الى دالمبير - وهلفتيوس يضع كتابه : حول العقل - كسناي
يضع كتابه : صورة الوضع الاقتصادي .

١٧٥٩ - ثاني حرم تنزله الكنيسة بدائرة المعارف « ٨ - ٣ » - سقوط كوبيك « ١٨ - ١٠ » -
ارتقاء الملك شارل الثالث عرش اسبانيا - موت مونكالم - تأسيس المتحف
البريطاني - فولتير ينشر كتابه : كنديد .

١٧٦٠ - استسلام الفرنسيين في مونتريال « ٨ - ٩ » - سقوط برلين بيد النمساويين
والروس « ٩ - ١٠ » - ارتقاء جورج الثالث عرش بريطانيا « ٢٥ - ١٠ » - روسو
يضع : هيلوير الجديدة .

١٧٦١ - سقوط بونديشيري « ٨ - ١ » وما هي « شباط » بيد الانكليز - « بت » يتخلى عن
الحكم « ٦ - ١٠ » تورغو مراقب مالية الليموزين .

١٧٦٢ - قضية كالاس واعدامه « ١٠ - ٣ » - موت اليزابت بتروفا « يناير » - ارتقاء
بطرس الثالث العرش ، ثم كاترين الثانية في روسيا « ٢٨ - ٦ » - برلمان باريس
يتخذ قرارا بالغاء الرهبنة اليسوعية - روسو يضع : العقل الاجتماعي ثم
« اميل » كما يضع غلوك : اورفيه .

١٧٦٣ - معاهدة باريس « ١٠ - ٢ » ومعاهدة هوبرتسبورغ « ١٥ - ٢ » - موت اغسطس
الثالث ملك بولونيا - الروس يفزون ليتوانيا .

١٧٦٤ - وفاة المركزية دي بمبادور « ١٥ - ٤ » - انتخاب ستانسلاس بونياوفسكي
ملكاً على بولونيا « ايلول » - حل الرهبنة اليسوعية في فرنسا - فولتير ينشر
كتاب : المعجم الفلسفي - صعوبات بين دوق أغويون وبرلمان رين - سوفلو يشرع
ببناء البانيون في باريس .

١٧٦٥ - اعادة الاعتبار الى كالاس « ٩ - ٣ » - فردريك الثاني يؤسس بنك برلين -
ارتقاء جوزف الثاني عرش النمسا - اختراع هارغريفس لدولاب الغزل .

١٧٦٦ - موت ستانسلاس لكسنكي وضم اللورين الى فرنسا « ٢٣ - ٢ » - رحلة بوغنفييل
في البحار الجنوبية - أرندا يرأس الوزارة عند شارل الثالث .

١٧٦٧ - طرد اليسوعيين من اسبانيا « ٢٧ - ٢ » - جيمس واط ينتهي من صنع اول آلة
بخارية - الدانمارك تنال مقاطعتي شلسويغ وهولستين .

١٧٦٨ - عريضة ماستشوستس « يناير » - فرنسا تشتري جزيرة كورسكا « ١٥ - ٥ » -
الحرب الروسية التركية « تشرين الاول » - كاترين الثانية تصادر املاك
الاكليروس الروس - بدء حظوة مدام دي باري - اول رحلة يقوم بها كوك في
البحار الجنوبية - كسناي يصدر كتابه : حول علم الاقتصاد .

١٧٦٩ - الغاء امتياز الشركة الفرنسية للهند « ١٣ - ٨ » - مولد نابليون بوناپرت
« ١٥ - ٨ » - احتلال الروس لاهم الامارات الرومانية - حلف « بار » في بولونيا .

١٧٧٠ - مذبحه بوسطن « ٥ - ٣ » - زواج الملك القادم لويس السادس عشر بماضي
انطوانيت « ١٦ - ٥ » - معركة تشميه « ٦ - ٧ » - صرفشوازل « ٢٤ - ١٢ » -
الوزارة الانكليزية برئاسة اللورد نورث - لافوازييه يحلل تركيب الهواء -
بارون دولباخ ينشر كتابه : مناهج الطبيعة - الاب رينال ينشر كتابه : تاريخ
الفلسفة في الهند .

- ١٧٧١ - ابعاد برلمان باريس « ٢٠ - ١ » - مويو والاصلاح القضائي « ٢٣ - ٢ » - الغاء
رق الارض في مقاطعة السافوي - اختراع اركرايت للطار المائي .
- ١٧٧٢ - تقسيم بولونيا لأول مرة « ٥ - ٨ » - انقلاب غوستاف الثالث في اسوج « ٩ - ٨ » -
كوك يقوم برحلته الثانية .
- ١٧٧٣ - مشكلة الشاي في بوسطن « ١٦ - ١٢ » - انشاء محفل الشرق الاكبر في فرنسا -
بدء ثورة بوكاتشيف - ديدرو في روسيا - البابا اقليمس الرابع عشر يحل الرهينة
اليسوعية .
- ١٧٧٤ - وفاة الملك لويس الخامس عشر « ١٠ - ٥ » - ارتقاء لويس السادس عشر العرش
تورغو يؤلف الوزارة « ٢٠ - ٧ » - معاهدة فينرجي « ٢١ - ٧ » - مجلس
كونغرس فيلادلفيا « ٢١ - ٩ » - مرسوم كويك - غوتيه يصدر فتر .
- ١٧٧٥ - معركة لكسنغتن « ١٩ - ٤ » - انتهاء ثورة بوغانشيف « ايلول » بابوية
بيوس السادس - اول تمثيل لمسرحية حلاق اشبيلية - استخدام قوة البخار
المحركة في الصناعة على يد واط الاسكتلندي .
- ١٧٧٦ - صرف تورغو وفقدانه الخطوة « ١٢ - ٥ » - اعلان استقلال الولايات المتحدة
« ٤ - ٧ » فرنكلين في باريس « ايلول » ما يلي يضع : اصل القوانين ونشأتها ،
وآدم سميث ينشر كتابه : غنى الامم - رحلة كوك الثالثة حيث يلاقي حقه -
سفينة الماركيز دي جوفروا البخارية - اول خطوط حديدية .
- ١٧٧٧ - فيكر يعين مديرا عاما للمالية « حزيران » - لافاييت في اميركا - استسلام ساراتوغا
« ١٤ - ١٠ » - الاقتراح على دستور الاتحاد .
- ١٧٧٨ - عقد تحالف بين فرنسا والولايات المتحدة الاميركية « ٦ - ٢ » - وفاة بت الاول
« ١١ - ٥ » - انشاء مجلس الولاية في بري « ١٢ - ٧ » - انشاء صندوق الخصم في
باريس - فتح الامبراطورية الاسبانية للتجارة الدولية - بوفون يضع كتابه :
حقب الطبيعة .
- ١٧٧٩ - معاهدة تيشن « ١٣ - ٣ » - الحلف الفرنسي الاسباني المعقود في اراغون
« ١٢ - ٤ » - اختراع الانكليزي كرومبتون نول حياكة القطن - اقرار حرية
الاستثمارات في روسيا .
- ١٧٨٠ - رومبو في اميركا « ايار » - موت ماري تريزيا امبراطورة النمسا « ٢٩ - ١١ » -
حلف الحيايين ينتصب ضد انكلترا - هودون ينشر كتابه عن فولتير .
- ١٧٨١ - تقرير يرفع للملك « فبراير » واستقالة نيكرو « ١٩ مايو » - استسلام الانكليز في
يوركوتون « ١٩ - ١٠ » - انشاء معامل كروزيه - الغاء اوقاف الفلاحين في النمسا -
كنت يضع كتابه : نقد العقل المجرد - روسو ينشر كتابه : اعترافات - وموزارت
يضع : الخطف في السراي .
- ١٧٨٢ - سقوط وزارة اللورد نورث « ١١ - ٣ » - جوزف الثاني يصادر الاديار « تشرين الاول »
فشل محاولة فرنسية اسبانية امام جبل طارق « تشرين الاول » .
اعتراف الانكليز باستقلال اميركا « تشرين الثاني » - سوفرين في الهند ، حصار
مدراس .
- ١٧٨٣ - وزارة بت الثاني « ١٩ - ٢ » - معاهدة فرساي « ٣ - ٩ » - وزارة كاثون

- « ١٠ - ١١ » - ثورة الفلاحين في بوهيميا - ارتفاع اول منطاد يحمل بشرا -
 لا فوزيه يتمكن من تحليل العناصر المقومة في الماء - اختراع تسويط الحديد -
 تمثيل رواية زواج فيغارو ، تأليف بومارشيه .
- ١٧٨٤ - اقرار قانون الهند « نيسان » - ضم القرم الى روسيا - انشاء مصرف نيويورك -
 انشاء الشركة الاسبانية للفيليين .
- ١٧٨٥ - قضية عقد الملكة - اجتياز بلانشار مضيق المانش جوا - رحلة لابيروز - اعادة
 تنظيم شركة الهند الفرنسية - اول معمل للنسيج على البخار في نوتنغهام -
 اختراع كارترايت لاول نوع للحياكة الميكانيكية - كنت ينشر كتابه : اسس
 متافيزيكا الاخلاق - موزارت يضع : زفات فيغارو .
- ١٧٨٦ - وفاة فريدريك الثاني « ١٧ - ٨ » - وارتقاء فريدريك غليوم الثاني العرش -
 معاهدة تجارية تعقد بين فرنسا وانكلترا « ٢٦ - ٩ » - تسلق الجبل الابيض
 لاول مرة .
- ١٧٨٧ - المعاهدة التجارية الفرنسية الروسية « ١١ - ١ » - مجلس النبلاء الاولى
 « ٢٢ - ٢ » - سقوط كالون وتأليف وزارة بريين « ٨ - ٤ » - حل مجلس
 النبلاء « ١٢ - ٥ » - الحرب الروسية التركية « ١٣ - ٨ » - اقرار دستور
 الولايات المتحدة الاميركية « ٢٧ - ٩ » - التحالف الثلاثي الانكليزي الهولندي
 البروسياني - احتلال الانكليز لخليج بوتاني - لاكرانج يضع كتابه : الميكانيكا
 التحليلية - برناردن دي سان بيير يضع كتابه : بول وفرجينى - دافيد يرسم
 صورة : موت سقراط - موزارت يضع : دون خوان .
- ١٧٨٨ - الحرب النمساوية التركية « فبراير » - لاموانيون يقوم باصلاح القضاء « ٨ - ٥ » -
 يوم الترشق بالقرميد في مدينة غرينوبل « ٧ - ٦ » - المباشرة بوضع الدستور
 الاميركي موضع التنفيذ « ٢١ - ٦ » - اعلان دعوة ممثلي الطبقات في فرنسا
 لاجتماع عام « ٨ - ٨ » - التخلي عن بريين وتشكيل نيكر وزارته الثانية
 « ٢٥ - ٨ » - دعوة دييت الاربعة سنوات للاجتماع في بولونيا
 « ٦ - ١٠ » - مجلس النبلاء الثاني « ٦ - ١١ » - معاهدات برلين « ١٣ - ٦ »
 ولاهاي « ١٥ - ٩ » بين البلاد الواطية وبروسيا وانكلترا - مرسوم الدين في
 بروسيا - كنت ينشر كتابه : نقد العقل التجريبي - بنشام ينشر كتابه : المدخل
 الى مبادئ الاخلاقية - تأسيس جريدة التيمس .
- ١٧٨٩ - انتخاب جورج واشنطنون رئيسا للولايات المتحدة « ٣٠ - ٤ » - جلسة
 افتتاح مجلس ممثلي طبقات الامة « ٥ - ٥ » - قسم قاعة لعبة التنس
 « ٢٠ - ٥ » - بدء جلسات المجلس الوطني التأسيسي « ٩ - ٧ » -
 الاستغناء عن نيكر « ١١ - ٧ » - الاستيلاء على الباستيل « ١٤ - ٧ » -
 اعادة نيكر « ١٦ - ٧ » - الهلع الاكبر و ليلة الرابع من آب « تموز - آب » -
 ثورة ليج و انتشارها في جميع المقاطعات البلجيكية « ١٨ - ٨ » - التصويت
 على حقوق الانسان العامة والمواطن « ٢٠ - ٨ » - هجوم الشعب الباريسي على
 فرساي وقدم الملك الى باريس « ٥ و ٦ - ١٠ » - الامبراطور جوزف
 الثاني يستولي على بلفراد « ٩ - ١٠ » - التصويت على مصادرة املاك الكنيسة
 « ٢ - ١١ » - انشاء عملة الاسينياء « ١٤ - ١٢ » .

١٧٩٠ - المنداة بالولايات المتحدة البلجيكية « ١٤ - ٢ » - موت الامبراطور جوزيف الثاني وارتقاء ليوبولد الثاني العرش في النمسا « ٢٠ - ٢ » - قضية نوتكا صاوندي « ايار - تشرين الاول » - اقرار دستور الاكليروس المدني « ١٢ - ٧ » - عيد التحالف « ١٤ - ٧ » - راشنباخ بين بروسيا والامبراطور « ٢٧ - ٧ » - فانكوفر يستكشف الشواطئ الاميركية على المحيط الهادي - كنت ينشر كتابه : نقد العقل - بورك ينشر كتابه : خطرات حول الثورة الفرنسية .

١٧٩١ - موت ميرابو « ٢ - ٤ » - البابا يحرم دستور الاكليروس المدني « ١٣ - ٤ » - الدستور البولوني الجديد « ٣ - ٥ » - المجلس التأسيسي يقر قانون لاشابلييه « ١٤ - ٦ » - محاولة حرب الملك لويس السادس عشر « ٢٠ - ٦ » - حادث اطلاق النار في ميدان شان ده مارس « ١٧ - ٧ » - معاهدة سيستوفا تعيد السلام بين الامبراطور والاتراك - تصريح بلنتز « ٢٧ - ٨ » - ضم افنيون والكونتيا « ٢٠ - ٩ » - لويس السادس عشر يقسم باحترام الدستور « ١٤ - ٩ » - انتهاء عمل الجمعية التأسيسية الوطنية وانصرافها « ٣٠ - ٩ » - اولى جلسات المجلس التشريعي « ١ - ١٠ » - توجيه انداز لناخب تريف « ٢٩ - ١ » - تحقيق التلغراف البحري على يد شاب .

١٧٩٢ - معاهدة ياسي بين روسيا وتركيا « ٩ - ١ » - وفاة الامبراطور ليوبولد وارتقاء فرنسوا الثاني العرش « ١ - ٣ » - اغتيال غوستاف الثالث في السويد « ٦ - ٣ » - فرنسا تعلن الحرب على ملك بوهيميا وهنغاريا « ٢٠ - ٤ » - الروس يهاجمون بولونيا « ٩ - ٦ » - هياج الشعب في باريس « ٢٠ - ٦ » - اعلان الوطن في خطر في فرنسا « ١١ - ٧ » - بيان برونسويك « ٢٥ - ٧ » - تكوين الكومون الثوري في باريس « ٩ - ٨ » - استيلاء شعب باريس على التويلري - الغاء النظام الملكي « ١٠ - ٨ » - المذابح في سجون باريس « ٢ و ٦ - ٩ » - النصر الفرنسي في فالسي ونهاية المجلس التشريعي « ٢٠ - ٩ » - اولى جلسات الكونغرسيون والغاء النظام الملكي « ٢١ - ٩ » - الجمهورية الفرنسية واحدة لا تنقسم عراها « ٢٥ - ٩ » - انتصار فرنسي في جماب واحتلال بلجيكا « ٦ - ١١ » - ضم مقاطعة السافوى الى فرنسا « ٢٧ - ١١ » - بدء محاكمة لويس السادس عشر « ٤ - ١٢ » - شميلر يضع كتابه : « تاريخ حرب الثلاثين سنة » .

١٧٩٣ - اعطاه الملك لويس السادس عشر « ٢١ - ١ » - اقتسام بولونيا الثاني « ٢٣ - ١ » - ضم كونتية نيس الى فرنسا « ٣١ - ١ » - فرنسا تعلن الحرب على انكلترا وبدء التحالف الاول « ١ - ٢ » - انشاء محكمة الثورة في باريس واعلان حالة المصيان في مقاطعة الفانديه « ١٠ - ٣ » - خيانة ديومويه وتشكيل لجنة السلامة العامة « ٥ - ٤ » - اول قانون بتحديد الحد الاعلى للاسعار في فرنسا « ٤ - ٥ » - الايام الثورية في فرنسا وسقوط الجيروندي « ٣١ - ٥ و ٦ - ٦ » - المصادقة على دستور عام ١٧٩٣ « ٢٤ - ٦ » - تجديد لجنة السلامة العامة « ٦ - ٧ » - قتل مارات « ١٣ - ٧ » - روبسبير ينتخب عضوا في لجنة السلامة العامة « ٢٧ - ٧ » - اقرار النظام المتري والعمل به في البلاد - استيلاء الاسطول الانكليزي على قاعدة طولون « ٢٩ - ٨ » - قانون ضد المشبوهين « ١٧ - ٩ » - فرض الحد الاقصى للاسعار لسي جميع انحاء فرنسا « ٢٩ - ٩ » - العمل بالتقويم الثوري « ٥ - ١٠ » - استعادة

- مدينة ليون « ٩ - ١٠ » موقعة واتيني وانتصار فرنسا « ١٥ و ١٧ - ١٠ » -
انهزام نوار الفانديه في موقعة شوليه « ١٧ - ١٠ » - استعادة مدينة طولون
« ١٩ - ١٢ » - انتصار الجنرال هوش في موقعة جيسبرغ « ٢٦ - ١٢ » -
اختراع هويتني آلة حليج القطن وفرز البزر - تأسيس متحف التاريخ الطبيعى *
- ١٧٩٤ - الثورة البولونية بقيادة كوسيو سكو « اذار » - تصفية انصار هربرت في باريس
« ٢٤ - ٣ » - تصفية دانتون والمتساهلين « ٥ - ٤ » - عيد الكائن الاعلى
في باريس « ٨ - ٦ » - انتصار الفرنسيين في معركة فلوريس « ٢٦ - ٦ » -
احتلال الفرنسيين لمدينة انفرس « ٢٧ - ٧ » - سقوط روبسبير وتصفيته
مع انصاره « ٢٨ و ٢٩ - ٧ » - التاسع من شهر ترميدور - حل كومن
باريس « ايلول » - احتلال الفرنسيين لوادي الرين « ٢٣ - ١٠ » - هزيمة
كوسيو سكو ووقوعه اسيرا في ماشيايوفتش « ١٠ - ١٠ » - اغلاق نادي
اليقويين « ١٩ - ١١ » - معاهدة جاي الانكليزية الاميركية « ١٩ - ١١ » -
الفاء العمل بالحد الاعلى للاسعار في فرنسا « ٢٤ - ١٢ » - الفرنسيون
يغزون هولندا « ٢٧ - ١٢ » - كوندورسيه ينشر كتابه : رسم بياني لتاريخ
تطور الفكر البشري *
- ١٧٩٥ - بيشغرو يستولي على الاسطول الهولندي عند رأس هلدر « ٣٠ - ١ » - معاهدة
صلح في بال بين فرنسا وبروسيا « ٦ - ٤ » - حوادث يوم ١٢ جرمينال
« ٤ - ١ » - الصلح مع هولندا وحلف لاهاي « ١٦ - ٥ » - حوادث يوم
اول بريريال « ٢٠ - ٥ » - انتهاء ثورة مارتيونفتش في المجر « ٢٠ - ٥ » -
استسلام المهاجرين الذين نزلوا الى البر في كيبرون « ٢٢ - ٧ » - معاهدة بال
بين اسبانيا وفرنسا « ٢٢ - ٧ » - اقرار دستور العام الثالث « ٢٢ - ٨ » -
حوادث يوم ١٣ فنديمير « ٥ - ١٠ » - اقتسام بولونيا للمرة الثالثة
« ٢٦ - ١٠ » - انفرط عقد الكونفسيون وبده حكومة الديركتوار « ٢٦ - ١٠ » -
الفاء حق التجمهر في انكلترا *
- ١٧٩٦ - نابوليون بوناپرت يتزوج جوزفين بوهارنيه « ٩ - ٣ » - استبدال الاسينياه
بتحوايل قارية « اذار » - انتصارات بوناپرت في ايطاليا « منذ ١٣ - ٤ » - هدنة
شيراسكو « ٢٨ - ٤ » - مؤامرة بابوف وتوقيفه « ١٠ - ٥ » - انتصار فرنسي
في لودي « ١٠ - ٥ » - معاهدة نيسان ايلدفونس بين فرنسا واسبانيا
« ١٩ - ٨ » - بوناپرت يحاصر ورمس في مدينة منتو « ٨ - ٩ » - وفاة كاترين
الثانية واعتلاء بولس الاول العرش في روسيا « ٧ - ١ » - انتصار بوناپرت في
موقعة اركول « ١٥ و ١٧ - ١١ » - محاولة انزال بحرية يقوم بها هوش
في ايرلندا « ١٦ - ١٢ » - بده حكم كيا - كلخ في الصين - شروع جنر
بتجاربه العلمية حول اللقاح - لابلاس ينشر كتابه : عرض نظام الكون - غوتيه
يصدر : ولهم ما يستر *
- ١٧٩٧ - انتصار بوناپرت في ريغولي « ١٢ و ١٦ - ١ » - معاهدة تولنتينو « ١٩ - ٢ » -
انتخاب جون آدمز رئيسا للولايات المتحدة الاميركية « ٤ - ٣ » - انتخابات
ملكية النزعة في فرنسا « اذار - ابريل » - مقدمات الصلح في ليوبن بين بوناپرت
وامبراطور النمسا « ١٨ - ٤ » - تمرد الاساطيل الانكليزية في سبيتهيد والبحر
الشمالي « ابريل - ايار » - انشاء الجمهورية الليغورية « ٦ - ٦ » - بده

المفاوضات في ليل « ٧ - ٧ » - انشاء جمهورية ما وراء الالب « ٩ - ٧ » -
انقلاب ١٨ فروكتيدور « ٤ - ٩ » - افلاس الثلثين في فرنسا « ٣٠ - ٩ » -
حملة مشتركة فرنسية هولندية ضد انكلترا « ١١ - ١٠ » - معاهدة كمبوفورميو
« ١٧ - ١٠ » - موت فردريك غليوم الثاني وارتقاء فردريك غليوم الثالث
العرش في بروسيا « ١٦ - ١١ » - بدء معاهدة راسنات « ٢٨ - ١١ » -
غوتيه يصدر : هرمان ودوروتيه .

١٧٩٨ - ضم مدينتي مولهوز « ٢٨ - ١ » - وجنيف الى فرنسا « ٢٦ - ٣ » - اعلان
الجمهورية الرومانية وابعاد البابا الى مدينة فالنس « ٥ - ٢ » - انتخابات
يعقوبية النزعة في العام السادس « نيسان » - انقلاب في ٢٢ فلوريال « ١١ - ٥ » -
سفر الحملة الفرنسية على مصر « ١٩ - ٥ » - انتصار الفرنسيين في معركة
الاهرام « ١٢ - ٧ » - تحطيم الاسطول الفرنسي في معركة ابوقير « ١ - ٨ » -
قانون جوردان الذي يفرض الخدمة العسكرية والتجنيد الاجباري « ٥ - ٩ » -
نزول الجنرال همبرت من البحر في ايرلندا « آب - ايلول » - مالتوس يصدر
كتابه : محاولة حول مبادئ السكان - تكون الحلف الثاني ضد فرنسا « تموز ك ١ »

١٧٩٩ - انشاء الجمهورية البارتونية او النابولية « ٢٣ - ١ » - اعلان فرنسا الحرب
على النمسا واختتام مؤتمر راسنات « ٢٣ - ١ » - انكسار جوردان في
معركة ستوكاخ « ٢٤ - ٣ » - فشل بوناپرت امام عكا « ٢٠ - ٥ » - انقلاب
٣٠ برييال « ١٨ - ٦ » - اعادة تشكيل نادي اليعقوبيين في باريس « ٦ - ٧ » -
انكسار الجيش التركي في ابوقير « ٢٥ - ٧ » - انكسار جوير في لوفي وموته
« ١٥ - ٨ » - انتصار ماسينا في زوريخ مما اضطر الروس معه للانسحاب من
الحلف « ٢٥ و ٢٦ - ٩ » - عودة بوناپرت الى فرنسا « ٩ - ١٠ » -
استسلام الكمار « ١٨ - ١٠ » - انقلاب ١٨ برومير وتاليف حكومة القنصلية
« ٩ و ١٠ - ١١ » - موت جورج واشنطن « ١٤ - ١٢ » - رحلة همبولت الى
اميركا الجنوبية - انشاء ادارة الضرائب المباشرة « ٢٣ - ١٢ » - تطبيق دستور
العام الثامن « ٢٥ - ١٢ » - انشاء مجلس شسوري القوانين « ٢٦ - ١٢ » -
شلييرماخر ينشر كتابه : خطاب حول الدين - بيتوفن يضع الصونات المثيرة .

١٨٠٠ - اتفاقية العريش في مصر « ٢٤ - ١ » - انشاء حكام المحافظات ومصرف فرنسا -
اعادة تنظيم الادارة المحلية والمحاكم « فبراير ومارس » - صك اتحاد انكلترا
وايرلندا « ٥ - ٢ » - انتخاب البابا بيوس السابع « ١٤ - ٣ » - انتصار
مورو في ستوكاخ « ٣ - ٥ » - انتصار الفرنسيين في مارنغو « ١٤ - ٦ » -
انتصار مورو في هوهلنندن « ٣ - ١٢ » - عصبة الحيايين الجديدة ضد
انكلترا « ١٦ - ١٢ » - محاولة قتل بوناپرت في شارع سان نيكيز « ٢٤ - ٢ » -
اختراع فولتا للحاشدة الكهربائية .

١٨٠١ - صلح لونفيل « ٩ - ٢ » - استقالة بت « ١٤ - ٣ » - قتل القيصر بولس
الاول وارتقاء اسكندر الاول العرش « ٢٤ - ٣ » - انتخاب جيفرسن رئيسا
للولايات المتحدة الاميركية « ٤ - ٣ » - معاهدة اراوخوز « ٢١ - ٣ » -
عقد الصلح مع فلورنسا والصقليتين « ٢٨ - ٣ » - الانكليز يقصفون كوبنهاغن
« ٢ - ٤ » - توقيع المعاهدة الدينية مع البابا « ١٦ - ٧ » - استسلام

القائد منو في مصر « ٣٠ - ٨ » - مفاوضات تمهيدية في لندن « ١ - ١٠ » -
توقيع معاهدة الصلح بين فرنسا وروسيا « ٨ - ١٠ » - شاتوبريان ينشر : أتالا ،
وشلر يصدر كتابه : *Die Jungfrau von Orléan*

١٨٠٢ - بوناپرت رئيس الجمهورية الإيطالية « ٢٦ - ١ » - صلح اميان مسع انكلترا
« ٢٥ - ٣ » - المصادقة على المعاهدة الدينية والمواد الدستورية « ٨ - ٤ » -
انشاء المدارس الثانوية في فرنسا « ١ - ٥ » - انشاء وسام جوقة الشرف
« ١٩ - ٥ » - استيلاء الجنرال لاكليس على توسان لوفرتور « ٧ - ٦ » -
بوناپرت قنصلا مدى الحياة « ٢ - ٨ » - دستور العام العاشر « ١٦ - ٨ » -
نشوب ثورة عامة في سان دومينكو « ١٣ - ٩ » - ضم البيامونت وبارما الى
فرنسا « ايلول - ت ١ » - شاتوبريان ينشر كتابه : عبقرية المسيحية - فوسكولو
ينشر كتابه : رسائل جاكويو اورتس الاخيرة .

١٨٠٣ - ارغام سويسرا على القبول بوساطة « ١٩ - ٢ » - تثبيت قيمة فرنك جرمينال
« ٢٣ - ٣ » - قطع صلح اميان « ١٦ - ٥ » - فرنسا تبيع مقاطعة
لويزيان للولايات المتحدة وتحتل الهانوفر « ايار » - سان دومينو تعلن استقلالها
« ت ٢ » - بدء العمل بتذكرة العامل « ك ١ » - مؤامرة ملكية ينظمها بيشفرو
ضد بوناپرت « ك ١ » - ج . ب . ساي ينشر كتابه : بحث في الاقتصاد
السياسي .

١٨٠٤ - انشاء دائرة الرسوم المجتمعة « فبراير » - تنفيذ عقوبة الموت بدوق دانجيين
« ٢٠ - ٣ » - نشر القانون المدني « ٢ - ٣ » - المناادة ببوناپرت امبراطورا
باسم نابوليون الاول . دستور العام الثاني عشر « ١٨ - ٥ » - قطع العلاقات
الديبلوماسية بين فرنسا وروسيا « ايلول » - عودة بت الى الحكم « ت ١ » - تتويج
الامبراطور والامبراطورة « ٢ - ١٢ » - اسبانيا تعلن الحرب على انكلترا « ك ١ » -
فوريه ينشر كتابه : الانسجام العام وشيلر يعد : وليم تل ، وغرو ينشر كتابه :
المصابون بالطاعون في يافا ، وبيتهوفن : السنفونية البطولية .

١٨٠٥ - نابوليون ملك إيطاليا « اذار » - ضم جنوى الى فرنسا « حزيران » - ظهور الحلف
الثالث ضد فرنسا « آب » - استسلام النمساويين في اولم « ٢٠ - ١٠ » -
تحطيم الاسطول الفرنسي عند الطرف الاغر « ٢١ - ١٠ » - انتصار الجيش
الفرنسي في اوسترليتز « ٢١ - ١٠ » - التحالف الفرنسي البروسياني في شنبرون
« ١٥ - ١٢ » - صلح بريسبورغ « ٢٦ - ١٢ » - جاكوار يخترع دولايب
حياكة الحرير - شاتوبريان ينشر كتابه : رينه .

١٨٠٦ - وفاة بت « ٢٣ - ١ » - قطع العلاقات بين نابوليون والبابا « فبراير » - جوزف
بوناپرت ملك على نابولي - انشاء الجامعة « ايار » - لويس بوناپرت ملك على
هولندا « حزيران » - تكوين تحالف الرين « تموز » - فرنسوا الثاني يتخلى عن
لقبه امبراطور المانيا وانتهاء الامبراطورية المقدسة « ٦ - ٨ » - انقطاع
العلاقات بين فرنسا وبروسيا وظهور الحلف الرابع « ٨ - ١٠ » - انتصار
نابوليون عند ايانا وانتصار دافو عند اورستادت « ١٤ - ١٠ » - دخول نابوليون
الى برلين « ٢٧ - ١٠ » - مرسوم برلين يفرض الحصار البري « ٢١ - ١١ » -
دخول نابوليون مدينة فرسوفيا « ٢٧ - ١١ » .

١٨٠٧ - معركة آيلو « ٨ - ٢ » - انتصار نابوليون في فريدلان « ١٤ - ٦ » - معاهدة تسليت والتحالف الفرنسي الروسي « ٧ - ٧ » - انشاء غراندوقية فرسوفيسا « ٢٢ - ٧ » - فقدان تاليران الحظوة لدى الامبراطور « ٩ - ٨ » - جيروم ملك وستفاليا « ١٨ - ٨ » - الغاء التريبونية « ٩ - ٨ » - الغاء عبودية الارض في بروسيا « ١ ت » - دخول الفرنسيين الى لشيونة وفرار ملك البرتغال الى البرازيل « ٣٠ - ١١ » - مرسوم ميلانو « ٢٣ - ١١ » - تشديد الحصار - الغاء انكلترا للنخاسة - فلطن ينشيء مصلحة السفن البخارية على الهندس - غروس يرسم : معركة آيلو .

١٨٠٨ - الغاء النخاسة في الولايات المتحدة الاميركية « يناير » - ضم روما الى الامبراطورية « فبراير » - انطلاق الثورة الاسبانية « ٢ - ٥ » - مقابلة بايون وتنحي فردينان السابع عن العرش « ٥ - ٣ » - جوزف بوناپرت ملك اسبانيا ، مورات ملك نابولي « ١٠ - ٥ » - استيلاء بوليفار على السلطة في كركاس « تموز » - استسلام بايلان « ٢٢ - ٧ » - بروسيا تعمل بنظام كرومبير « آب » - استسلام جونو في سفترا « ٣٠ - ٨ » - مقابلة ارفورت « ٢٧ - ٩ » - دخول نابوليون الى مدريد « ٤ - ١٢ » - فيخت : خطاب الى الامة الالمانية - بيتهوفن : السنفونية الرابعة .

١٨٠٩ - غوستاف الرابع ملك السويد يترك العرش لعمه شارل الثالث عشر « اذار » - قدوم الجنرال الانكليزي ولسلي الى البرتغال « نيسان » - بدء التحالف الخامس « ١٠ - ٤ » - نشوب الثورة في التيرول - انتصار فرنسي في اكموهل « ٢٢ - ٤ » - دخول نابوليون فيينا « ١٣ - ٥ » - ضم فرنسا ممتلكات الكرسي الرسولي اليها « ١٧ - ٥ » - معركة أسلنغ « ٢١ و ٢٢ - ٥ » - رمي الكنيسة الحرم على نابوليون « ١٢ - ٦ » - انتصار في معركة وغرام « ٦ - ٧ » - توقيف البابا بيوس السابع « ٦ - ٧ » - عملية ازال الانكليز من البحر في هولندا « ٢٩ - ٧ » - صلح فيينا « ١٤ - ١٠ » - طلاق نابوليون « ١٦ - ١٢ » - شاتوبريان يصدر كتابه : الشهداء .

١٨١٠ - زواج نابوليون من الارشيدوقة ماري لويز « ٢٧ - ٣ و ٢ - ٤ » - انطلاق الثورة الشاملة في المستعمرات الاسبانية « ايار » - ضم فرنسا هولندا اليها « تموز » - اختيار برنادوت اميرا وراثيا شرعيا في السويد « آب » - مرسوم التريانون « آب » - ظهور الازمة الاقتصادية في انكلترا « آب » - انشاء جامعة برلين « آب - مرسوم فونتنبلو « ١ ت » - ضم مقاطعة فالليه « ٢ ت » - ومدن الهانس الى الامبراطورية الفرنسية « ١ ك » - اسكندر الاول يخرج على الحصار البري « ١٣ - ١٢ » - نشر قانون الجزاء - فيليب دي جيرار يخترع دولايا لحياكة الكتان - بيتهوفن يضع : اغمونت .

١٨١١ - نابوليون يضم مقاطعة اولدنبورغ « يناير » - ماسينا ينسحب من البرتغال « اذار » - ولادة ملك روما « ٢٠ - ٣ » - فشل ماسينا في تورييس فدراس - في انكلترا : هياج اللوديت ، وفرض العملة الورقية بالقوة « اذار - مايو » - اجتماع مجمع وطني في باريس « حزيران » - مرسوم التسوية في بروسيا « تموز » - قرار هاردنبورغ يولي الفلاحين البروسيين ملكية قسم من الاراضي التي يستثمرونها « ايلول » - التشديد على احتكار الجامعة « ٢ ت » - سبيرانسكي

يعين سكرتير دولة الامبراطور اسكندر الاول :

١٨١٢ - بدء التحالف السادس « ٨ - ٤ » - صلح بوخارست بين روسيا وتركيا
 « ايار » - الولايات المتحدة الاميركية تعلن الحرب على انكلترا « ١٨ - ٦ » -
 بدء حملة روسيا « ٢٤ - ٦ » - نابليون يأمر بنقل البابا الى فونتينبلو
 « حزيران » - معركة سمولنسك « ١٦ و ١٧ - ٨ » - ومعركة بورودينو
 او موسكو « ٥ و ٧ - ٩ » - دخول نابليون مدينة موسكو « ١٤ - ٩ » -
 بدء الانسحاب والتقهقر « ١٩ - ١٠ » - مؤامرة ماليه الثانية على الامبراطور
 « ٢٣ - ١٠ » - اجتياز نهر البرزينا « ٢٦ و ٢٧ - ١١ » - بيرون يصدر :
 نشأة شلده هارولد .

١٨١٣ - معاهدة فونتينبلو الدينية « ٢٣ - ١ » - البابا يسحب اعترافه بالمعاهدة « اذار »
 اعلان بروسيا الحرب على نابليون وبدء الحلف السابع « ١٧ - ٣ » - معركة
 ليزن « ٢ - ٥ » - ومعركة بونزن « ٢٠ و ٢١ - ٥ » - هدنة بلسويتز
 « ٤ - ٦ » - انتصار الانكليز في فيتوريا « ٢١ - ٦ » - مؤتمر براغ
 « ١٢ - ٧ و ١٠ - ٨ » - النمسا تعلن الحرب على نابليون « ١٢ - ٨ » -
 انتصار فرنسي في دوسدن « ٢٦ و ٢٧ - ٨ » - انكسار نابليون في معركة
 ليبزيغ « ١٦ و ١٩ - ١٠ » - تراجع الفرنسيين الى الضفة نهر الرين اليسرى -
 مؤتمر فرانكفورت « ٤ - ١١ » - الثورة في هولندا واعلان البلاد استقلالها
 « ١٧ - ١١ » - نابليون يعيد عرش اسبانيا الى فردينان السابع « ١١ - ١٢ »

١٨١٤ - نابليون يفرج عن البابا ويعيد اليه املكه « يناير » - بدء حملة فرنسا : معارك
 بريين « ٢٩ - ١ » - وروتيير « ١ - ٢ » - مؤتمر شاتيون « ٥ - ٢ » و
 « ١٩ - ٣ » - انتصار نابليون في مونتيرو « ١٨ - ٢ » - ميشاق شومون
 « ٩ - ٣ » - معسارك لان ودارسي « اذار » سقوط باريس « ٣٠ - ٣ » -
 مجلس الشيوخ يصوت على عزل نابليون « ٣ - ٤ » - معركة تولوز « ١٠ - ٤ » -
 معاهدة فونتينبلو « ١١ - ٤ » - تصريح سانت اوان « ٢ - ٥ » - دخول
 نابليون الى جزيرة البا « ٤ - ٥ » - معاهدة باريس الاولى « ٣٠ - ٥ » -
 اعلان وثيقة البراءة « ٤ - ٦ » - بدء مؤتمر فيينا « ١ - ١ » - معاهدة غنت
 « ٢٤ - ١٢ » - البابا بيوس السابع يعيد الراهبة اليسوعية الى الوجود -
 اختراع القاطرة البخارية على يد ستيفنسن . الرسام انفر يضع : الوصيعة الكبرى -
 وغويا يضع رسم فردينان السابع وظهر مايا .

١٨١٥ - مغادرة جزيرة البا « ١ - ٣ » - وصول نابليون الى باريس « ٢٠ - ٣ » -
 المائة يوم - القرار الاخير في مؤتمر فيينا « ٩ - ٦ » - معركة واترلو « ١٨ - ٦ » -
 سقوط باريس « ٣ - ٧ » - لويس الثامن عشر يعود الى باريس « ٨ - ٧ » -
 نابليون يتنازل ثانية عن العرش « ٢٢ - ٧ » - ونفي نابليون « ٢٩ - ٧ » -
 اتحاد السويد والنرويج « ٦ - ٨ » - الحلف المقدس « ٢٦ - ٩ » - اعدام
 مورات رميا بالرصاص « ١٣ - ١٠ » - وصول نابليون الى جزيرة القديسة
 هيلانة « ١٧ » - معاهدة باريس الثانية « ٢٠ - ١١ » - ومعاهدات
 الحلف الرباعي .

جدول الاعلام

ارميا ، النبي ٣٧٢	١
ارمينيا ٢٦٢ ، ٢٦٢ ، ٢٦٥	الاباش ٢٥٧
اروكان ٣٣٩	ابرمسني ٤٤٦
اريزونا ٣٣٥	ابو قمر ٥٥١
اريوان ٢٦٢ ، ٢٦٥	انازش ستانلاس ٥١٧
ازور ، جزر ٣٢٨ ، ٣٢٥	انر وريا ١٧٠
ازوف ٢٢٦ ، ٢٢٢ ، ٢٢٣	احاديث حول تعدد العوالم الماهولة
اسبانيا ١٢٩ ، ١٢٢ ، ١٣٤ ، ١٥٣	كتاب لفونتييل (١٦٨٦) ص ١٦
١٧٨ ، ١٨١ ، ١٨٣ ، ١٨٧ ، ١٩٢	احمد اباد ٢٦٩
١٩٩ ، ٢٠٠ ، ٢٠١ ، ٢٠٣ ، ٢١٥	احمد عبدلي ٢٧٣
٢١٨ ، ٢١٩ ، ٢٢٠ ، ٢٢٤ ، ٢٢٥	اخوة المدارس المسيحية ١٥٦
٢٢٧ ، ٢٢٨ ، ٢٢٩ ، ٢٣٠ ، ٢٣١	الاخوة المرافيون ٩٤
٢٣٤ ، ٢٣٣ ، ٢٣٢ ، ٢٣٠ ، ٢٣٤	آدم ٩٠
٣٣٨ ، ٣٤٠ ، ٣٤١ ، ٣٤٢ ، ٣٤٣ ، ٣٤٤	ادنبره ٣٩
٣٤٥ ، ٣٥٥ ، ٣٦٩ ، ٣٧٦ ، ٣٧٧	ادنسون ٥٩
٤٦٢ ، ٥٠٦ ، ٥١٠ ، ٥٢٤ ، ٥٢٧	الذريجان ٢٦١ ، ٢٦٢ ، ٢٦٥
٥٥١ ، ٥٥٣ ، ٥٥٤ ، ٥٦٣ ، ٥٨١	اراء في فلسفة تاريخ البشرية ، لهردر ٧٤
٥٩٣	اراس ١٤٨
استانخ ٣٧٠	الاراكس ، نهر ٢٦٥
استراباد ٢٦١ ، ٢٦٢	ارقتش ، بحيرة ٢٩٠ ، ٢٩٢ في ٢٩٣
استراكخان ٢٦١ ، ٢٩٠ ، ٢٩١ ، ٢٩٢	ارجنتين ٥٠٦ ، ٥١١
استراليا ٢٤٨ ، ٢٤٩ ، ٢٥٠ ، ٢٥٧	ارسطو ٢٠ ، ٤٥ ، ٥٣ ، ٥٨ ، ٩٣ ، ٢٧٥
استونيا ٢٢٤	الارض الجديدة ، جزيرة ١٢٢ ، ٢٣١
استرهازي ٤٦٠	٣٤٠ ، ٣٥٠
اسكتلندا ٩٤ ، ٢٣١ ، ١٨٩ ، ٥١٤ ، ٥٢٣	الوضوم ٢٦١
٥٢٤	ارفورت مقابلة ٥٥٣
اسكنيدر الاول ٥٥٢ ، ٥٥٣ ، ٥٥٦	اركرايت ١٣٦ ، ١٤٠ ، ١٤١
٥٥٧ ، ٥٦٠ ، ٥٧٢ ، ٥٧٣ ، ٥٧٤	اركنسو ٣٥٨
٥٨١	ارلندا ٣٦٣ ، ٥٠٦ ، ٥٠٩ ، ٥١٠ ، ٥١٨
الاسكندرون ٢٦١	ارلندا الجديدة ٢٤٧ ، ٢٤٨ ، ٢٤٩
الاسكو ، نهر ٢٢٢	ارمونفيل ٢٣٧

- اكاديمية الكتابات والاداب الجميلة ٦٨
اكس لا شابل ٢٢٩ ، ٢٧٩
اكس لاشابل (معاهدة ١٧٤٨) ٢٢٩ ، ٣٥٩
الاكوييني ، لوما ٨٤ ، ٩٣
اكليمفوس الثاني عشر (البابا) ٨٩ ، ٥٨٤
البا ٥٧٢
البروني ١٩٩ ، ٢١٩
الالب ، جبال ٢٢٥ ، ٢٣٠
البارني ٣٥٩ ، ٣٦٠
البستو ٣١٧
التاي ، جبال ٢٩٠ ، ٢٩٣
الالزاس ١٦٠ ، ١٨٣ ، ٢٢٥ ، ٢٢٩ ، ٥٢٧ ، ٥٦٨
السنبور ٣٨٠
المانيا ١٨ ، ٣٩ ، ٥٦ ، ٨٦ ، ٩٤ ، ١٠٠ ، ١٠٥ ، ١٣٢ ، ١٥٧ ، ١٦٠ ، ١٨٨ ، ٢٠٤ ، ٢٢٢ ، ٢٣٢ ، ٢٣٨ ، ٢٨٢ ، ٣٥٦ ، ٤٦٢ ، ٥١٦ ، ٥٥١ ، ٥٦٢ ، ٥٦٧ ، ٥٦٩ ، ٥٧٤ ، ٥٨١
الله اباد ٢٧١
الويس بتياني ٢٥٠
الا - تاو ٢٩٠
اليزابت القيصر ٢٣١
اليزابت الملكة ٢٠٤
الياذة ٢٦٢
اليزابت بتروفنا ٢١٤ ، ٢١٥
الينوي ٣٥٢ ، ٣٥٩
الامازون ٣٢٦ ، ٣٢٨ ، ٣٢٩
الامبراطورية الجرمانية المقدسة ٥٠٩ ، ٥١١
امبوان ٢٨٧
امستردام ١٣٠ ، ١٣١ ، ١٩٣ ، ٢٢٥ ، ٤٠٤ ، ٥١٢
امورينا ٢٩٣
اميان ، معاهدة ٤٩١ ، ٥٥٠ ، ٥٥١
٥٨٩ ، ٥٥٥
اميركا ٣٩ ، ٥٧ ، ١١٣ ، ١٥٣ ، ١٩٣ ، ٢١٩ ، ٢٣٠ ، ٢٣١ ، ٢٤٤ ، ٢٤٥ ، ٢٥٣ ، ٣٢١ ، ٣٢٢ ، ٣٣٦ ، ٣٣٨
اسكويخو ١٢٧
استسيون ٢٣٠
اسوج (او السويد) ٩٤ ، ١٠٠ ، ١٣٤ ، ١٣٦ ، ١٥٣ ، ٢٠٩ ، ٢١٠ ، ٢١٨ ، ٢٢٢ ، ٢٢٤ ، ٢٢٥ ، ٢٢٦ ، ٢٣٤ ، ٢٣٨ ، ٣٨٠ ، ٥٠٧ ، ٥٢٢ ، ٥٥٦ ، ٥٧٠ ، ٥٦٧ ، ٥٦٠
اسيا ٥٧ ، ٦٨ ، ١٥٠ ، ٢١٣ ، ٢٢٠ ، ٢٤٢ ، ٢٤٤ ، ٢٥٩ ، ٢٥١ ، ٢٦٠ ، ٢٦٥ ، ٢٩٥ ، ٣١٠ ، ٣١١ ، ٣٢٢
اسيا الوسطى ٢٩٠ ، ٢٩١ ، ٢٩٢ ، ٢٩٤ ، ٢٩٥ ، ٣٠٢ ، ٣٤٢
اسيا الصغرى ٢١٢
اسيوط ٣١٢
اشبيلية ٣٣٣
اصفهان ٢٦١ ، ٢٦٥ ، ٢٦٦
اعتبارات حول مظلة الرومان وانحطاطهم
لوتنسيكو (١٧٣٤) ٦٩
اغادير ٣١٥
افريقيا ٢١٢ ، ٢٥٣ ، ٣١٠ ، ٣١١ ، ٣١٦ ، ٣١٧ ، ٣١٨ ، ٣٢١ ، ٣٢٣ ، ٣٢٨ ، ٣٢٩
افشر (قبيلة) ٢٦١
الافغان ٢٦٠ ، ٢٦١ ، ٢٦٢ ، ٢٦٥ ، ٢٦٧ ، ٢٧٣ ، ٢٨٣
افغانستان ٢٦٤ ، ٢٦٥ ، ٢٦٣ ، ٢٦٨
افلاطون ٢٧٥
افنيون ، مدينة ٤٣٩ ، ٥١٧
اكاديا ٣٥٠ ، ٣٦٠ ، ٣٧١ ، ٣٧٢
اكاديمية بطرسبورج ١٩ ، ٢٠ ، ٣١ ، ٣٢ ، ٢٠٨ ، ٢٣٩
اكاديمية برلين ٤٢
اكاديمية ستوكهولم الملكية (١٧٣٩) ١٩
الاكاديمية السويدية ٢١٠
اكاديمية العلوم في باريس ٢٣ ، ٢٨ ، ٣٢ ، ٣٢ ، ٤٩ ، ٥٠ ، ١٢٦ ، ١٤٨ ، ١٤٩
الاكاديمية الملكية للجراحة في فرنسا (١٧٣١) ١٥٢
اكاديمية العلوم في برلين ٢٠ ، ٢١

٣٦٢ ، ٣٥٩
 انغريا ٢٢٤
 انغوليم ١٣٢
 انكتيل - دوبرون ٦٨
 انوناي ١٤٩
 انوي ٢٩٤
 انوبون ، جزيرة ٣٤٢
 اوبركامف ١٤٦
 اوبسالا ٣٩ ، ٤٦
 اوبنودت ١٧٩
 اوتون مارو ٢٠٦
 اوتريخت ، معاهدة (١٧١٣) ٢٠٣ ، ١٣١ ،
 ١٦٧ ، ٢٨٩ ، ٢١٧ ، ٢٢٣ ، ٢٢٤ ،
 ٢٢٦ ، ٢٣٢ ، ٣٥٠ ، ٣٥٨ ، ٣٥٩ ،
 ٥٧٠
 اوجين ، الامير ١٨٠
 اوجين دي سافوا ١٨٤
 اخوتسك ، مرفا ٢٩١
 اوده ٢٧٢
 الاودير نهر ٢٢٨
 الاوديون ١٧٢ ، ١٧٣
 اوديسه ٢٦٢
 اورانوس : اكتشافها على يد هرشل ، عام
 ١٧٨١ ، ٣٤
 الاورال ٢١٤ ، ٢١٥ ، ٢١٦ ، ٥١١
 اورانج اسرة ٢٩٣
 اورستادت (معركة) ٥٥٢
 اورغا (بحيرة) ٢٩٠
 اوز الكدائيين ٢٨٨
 اورليان ١٧١
 اورليان الجديدة ٣٥١ ، ٣٥٩
 اورنكريب ٢٦٧ ، ٢٦٨ ، ٢٦٩ ، ٢٧١
 اوروبا ١٦ ، ٢٠ ، ٤٦ ، ٥١ ، ٥٧ ، ١٠٣ ،
 ١٠٥ ، ١٢٦ ، ١٢٨ ، ١٢٩ ، ٢٣٠ ،
 ١٤٦ ، ١٤٩ ، ١٥٠ ، ١٥١ ، ١٥٣ ،
 ٢٦١ ، ١٦٤ ، ١٦٦ ، ١٦٧ ، ٢٦٨ ،
 ١٦٩ ، ١٧٧ ، ١٧٨ ، ١٧٩ ، ١٨١ ،
 ١٨٢ ، ١٨٣ ، ١٨٥ ، ١٨٦ ، ١٩٦ ،
 ٢٠٠ ، ٢١٣ ، ٢١٧ ، ٢١٩ ، ٢٢٠

٣٤٠ ، ٣٤٣ ، ٣٤٤ ، ٣٤٩ ، ٣٥٠ ،
 ٣٥٥ ، ٣٦٣ ، ٣٦٦ ، ٣٧٠ ، ٣٩٣ ،
 ٤٢٤ ، ٥٧٠ ، ٥٩١
 اميركا الاسبانية ٣٣٣
 اميركا البرتغالية ٣٢٤ ، ٣٣١
 اميل لروسو ٦٢ ، ٨٧ ، ٩٧
 اميل ، نهر ٢٩٣
 انام ٢٨٧
 انايافوننا ٢١٤
 انا هيوك ٣٣٩
 الانتيل ١٢٥ ، ١٣٢ ، ٢١٩ ، ٢٢٦ ، ٢٣١ ،
 ٣٣٨ ، ٣٤٦ ، ٣٤٧ ، ٣٤٨ ، ٣٥١ ،
 ٣٥٤ ، ٣٥٥ ، ٣٧٠ ، ٣٧٥ ، ٥٧٠ ،
 ٥٥١ ، ٥٥٠
 اندجان ٢٩٤
 الاندس ، جبال ٣٣٠ ، ٣٣٨
 انزين ١٤٦ ، ٤٤٧
 انسون الاميرال ٢٤٥ ، ٣٣٦
 انسولاند ٢٨٧
 انطوان ١٧٢
 انظمة الطبيعة للنيه ٥٨
 انفرس ١٣٠ ، ١٣٤ ، ٢٢٥ ، ٢٣٠ ، ٥١١
 انكلترا ٨ ، ١٥ ، ٣٩ ، ٥٦ ، ٨٨ ، ١٠٤ ،
 ١٢١ ، ١٢٢ ، ١٢٩ ، ١٣١ ، ١٣٢ ،
 ١٣٤ ، ١٤٠ ، ١٤٥ ، ١٤٦ ، ١٥٠ ،
 ١٥٦ ، ١٦٢ ، ١٨١ ، ١٨٨ ، ١٨٩ ،
 ١٩٠ ، ١٩٣ ، ١٩٩ ، ٢٠٠ ، ٢٠١ ،
 ٢٠٣ ، ٢١٠ ، ٢٢٤ ، ٢١٦ ، ٢١٧ ،
 ٢١٨ ، ٢٢٠ ، ٢٢٤ ، ٢٢٦ ، ٢٣٠ ،
 ٢٣٣ ، ٢٤٦ ، ٢٨٧ ، ٢٣٠ ، ٣٢٤ ،
 ٣٣٦ ، ٣٤٠ ، ٣٤٤ ، ٣٤٦ ، ٣٥٢ ،
 ٣٥٤ ، ٣٥٥ ، ٣٥٦ ، ٣٦٠ ، ٣٦٢ ،
 ٣٦٣ ، ٣٦٤ ، ٣٦٥ ، ٣٧٠ ، ٣٧١ ،
 ٣٧٤ ، ٣٧٥ ، ٤٠٣ ، ٤٠٤ ، ٤٥١ ، ٤٦٣ ،
 ٥٠٦ ، ٥٠٧ ، ٥٠٩ ، ٥١٠ ، ٥١١ ،
 ٥١٢ ، ٥١٣ ، ٥٢٢ ، ٥٢٤ ، ٥٥١ ،
 ٥٥٣ ، ٥٥٤ ، ٥٦٣ ، ٥٦٧ ، ٥٧٠ ،
 ٥٧٢ ، ٥٧٧ ، ٥٩٢ ، ٥٩٤ ، ٥٩٦ ،
 انكلترا الجديدة ٣٤٧ ، ٣٥٢ ، ٣٥٦

اوهايو ٢٣٠ ، ٢٣١ ، ٣٥٨ ، ٣٥٩ ،
٣٦٠ ، ٣٦١ ، ٣٦٢ ، ٣٧٦ ، ٥٨٨

ايتامب ٤٦٧

ايران ٢٥٩ ، ٢٦٠ ، ٢٦٤ ، ٢٦٥ ، ٢٧٣

الايراوادي ، نهر ٢٨٦

الايروكوا ٣٤٩ ، ٣٥٩ ، ٣٧٦

ايطاليا ١٤٧ ، ١٥٠ ، ١٧٨ ، ١٨٣ ،

٢٠١ ، ٢٠٢ ، ٢٠٣ ، ٢٠٤ ، ٢١٨ ،

٢٢٤ ، ٣١٥ ، ٤٦٢ ، ٥٠٩ ، ٥١٢ ،

٥١٨ ، ٥٤٩ ، ٥٥١ ، ٥٦٧ ، ٥٦٩ ،

٥٨١ ، ٥٨٢

ايفان السادس ٢١٤

ايفرد ، رأس ٢٤٩

ايبوسيا الجديدة ٣٧٢

الايلب ، نهر ٢٠٧ ، ٥٠٦ ، ٥٠٨ ، ٥٥٣ ،

الايلوث ٢٩٢ ، ٢٩٣ ، ٢٩٤

ايلو ، معركة ٥٥٣

ايلي ٢٩٠ ، ٢٩٣ ، ٢٩٤

اينا ، معركة ٥٤٩ ، ٥٥٢ ، ٥٦٩

اينشي ، نهر ٢٩١

ايوتيا ٢٨٦

ب

بابلو كاردو ٥١٧

البابوس ، (اقوام) ٢٥٣

بابوف ٤٨٩ ، ٥٠١

بابيون ١٤٤

بات ١٧٨

باتافيا ٢٤٩

باتينيو ١٩٩

باد او بادن (مقاطعة) ١٧٩ ، ٥٠٩ ، ٥٦٣ ،

٥٦٩ ، ٥٨١

بادوا ١٥١

بادي كاليه ٢١٨ ، ٤٣٨

بار ، اتحاد ٢٢١

بارا ٣٢٧

بارقواي ٣٣٠ ، ٣٣٩

بارانبا ٣٢٨

باراناو ٣٢٧

بارانبا ٣٢٨

٢٤ ، ٢٢٧ ، ٢٢٩ ، ٢٣٢ ، ٢٣٤ ،

٢٣٥ ، ٢٣٦ ، ٢٤٠ ، ٢٤٢ ، ٢٤٩ ،

٢٥٢ ، ٢٦١ ، ٢٦٢ ، ٢٦٥ ، ٢٧٦ ،

٢٩٠ ، ٣٠٤ ، ٣٢٢ ، ٣٢٧ ، ٣٣٥ ،

٣٣٨ ، ٣٣٩ ، ٣٤٠ ، ٣٤٢ ، ٣٤٣ ،

٣٤٦ ، ٣٤٧ ، ٣٤٩ ، ٣٨٠ ، ٤٦٠ ،

٤٦١ ، ٤٧٨ ، ٤٩٠ ، ٤٩٤ ، ٤٩٥ ،

٥٠٥ ، ٥٠٧ ، ٥٠٨ ، ٥٠٩ ، ٥١٠ ،

٥١٦ ، ٥٢٠ ، ٥٢٣ ، ٥٢٣ ، ٥٢٧ ،

٥٢٨ ، ٥٤٩ ، ٥٥٢ ، ٥٥٣ ، ٥٥٥ ،

٥٥٦ ، ٥٦٤ ، ٥٦٦ ، ٥٦٧ ، ٥٧٠ ،

٥٧٣ ، ٥٧٤ ، ٥٨٣ ، ٥٨٤ ، ٥٨٧ ،

٥٨٨ ، ٥٨٩ ، ٥٩٢ ، ٥٩٣ ،

٥٩٧ ، ٥٩٨

اورو برينو ٣٢٨ ، ٣٣١

اورو منشي ٢٩٣

اوريسا ٢٧٢

اورينغواي ٣٣٠ ، ٣٤١

الاورينوي ، نهر ٣٣١ ، ٣٣٩

اوستاند ٢٠٥ ، ٢٢٤

اوستلتر ، معركة ٥٥٢ ، ٥٥٤

اوسنكا مينوفورسك ٢٩٢

اوغست الثاني ١٨٤ ، ٢١١

اوغست الثالث ٢١١ ، ٢٢٥ ، ٢٣٢

اوغسبورغ ١٣٠ ، ١٦٠

اوغسطينوس ٩٣

الاوقاف الكنسية : لاميمها ٤٥٢

اوقيانيا ٢٥١

اوكرانيا ١٥٣ ، ٥٠٨

اوكتوسك ٢٤٥

اوكتي بونزو ٣٠٨

اولدنبيرغ ٢٠٨ ، ٥٦٠

اولر ٢٩ ، ٢٠ ، ٢١ ، ٢٢ ، ٢٤ ، ٣١ ،

٣٢ ، ٣٨

اوليريك - اليونور ٢٠٩

الاولستر ٣٥٦ ، ٣٦٣

اولم ٥٥٢

اولياسوتاي ٢٩٣

اونيونز ١٣٦ ، ١٣٨

بالبو ٥٩٧
 بالرمو ٥٢٤
 بالاتينا ٢١٨ ، ١٧٨
 بانيبوت ، معركة ٢٧٣ ، ٢٨٢ ، ٢٨٣
 الباشوي ٢٧١
 باين ٥١٤ ، ٥١٧
 بايل ١٦٩
 بابي ٢٣
 بت او بيت ، وليم ١٩٣ ، ١٩٣ ، ٢٣١ ،
 ٣٦٦ ، ٣٦٧ ، ٤٦٣ ، ٥٢٤ ، ٥٢٧ ،
 ٥٥٠
 بت الثاني ١٩٢ ، ١٩٣
 بتسبورغ ٣٥٩
 بتسو ١٥٤
 بتنا ٢٧١
 بيتي (الجراح) ١٥٥
 البحث من الحقيقة (كتاب للبرانش) ٤٤
 بحث في الطبيعة البشرية (كتاب لهيوم) ٧٨
 بحث في علم القوى (كتاب لدالمير) ٢٤
 البحر الاحمر ٣١٠ ، ٣١٣
 البحر الادرياتيكي ٥٥٤ ، ٥٦٠
 البحر المتوسط ١٨٨ ، ٢١٨ ، ٢١٩ ،
 ٢٢٠ ، ٢٩١ ، ٣١١ ، ٣٧٥ ، ٥٦٩
 البحر الاسود ٣١٢ ، ٥٧٠
 بحر البلطيك ١٨٨ ، ٢١٨ ، ٢١٩ ، ٢٢٠ ،
 ٢٢٤ ، ٥٥٣ ، ٥٦٠
 بحر بهرينغ ٢٤٥
 بحر الشمال ٢٢٥ ، ٢٣٠
 بحيرة اونتاريو ٣٤٩ ، ٣٥٩ ، ٣٦١ ، ٣٧١
 بحيرة ايريه ٣٤٩ ، ٣٥٩
 بحيرة تشاد ٣١٠
 بحيرة تشامبلين ٣٦٠ ، ٣٦٢
 بخاري ٢٦١ ، ٢٦٤ ، ٢٩٢ ، ٢٩٤
 بختيار ، قبائل ٢٦٥
 برابانت ٥١٧ ، ٥١٨ ، ٥٢١
 برادلي ٣٥
 البرادو ، معاهدة (١٧٧٨) ٣٣٠ ، ٣٤١
 البرازيل ١٢٢ ، ١٢٩ ، ٢٠٠ ، ٢١٩ ،
 ٣٢٤ ، ٣٢٧ ، ٣٢٨ ، ٣٣٠ ، ٣٣١

باريس ٦١
 بارك مونسو ٢٣٧
 بارس ٢٢٤ ، ٢٢٥ ، ٢٢٦ ، ٢٢٩ ، ٥٦٧
 بارجييه ٤٢٥
 بارنف ٤٣٤
 بارير ٤٣٥ ، ٤٥٤ ، ٤٦٣ ، ٤٧١ ، ٤٩١
 باس ، مضيق ٢٥٣
 باس ، مدينة ٢٧٢
 باسا روفتنر (معاهدة) (١٨٠٥) ٢٢٤
 باستور ٦٠ ، ٦١
 باسدو ١٥٧
 باستيل سقوطها ٤١٢
 باسكال ١٤
 باريس ٨ ، ٢٥ ، ٢٨ ، ٤٣ ، ٤٣ ، ٦٨ ،
 ١٠٠ ، ١٤٧ ، ١٤٩ ، ١٥١ ، ١٥٣ ،
 ١٥٧ ، ١٦١ ، ١٧٨ ، ١٨٢ ، ١٨٣ ،
 ٢٢٢ ، ٢٢٨ ، ٣١٢ ، ٣٥٢ ، ٣٦٩ ،
 ٤١١ ، ٤١٢ ، ٤١٤ ، ٤٥٣ ، ٤٦١ ،
 ٤٦٢ ، ٤٦٧ ، ٤٧٦ ، ٤٧٧ ، ٤٨٩ ،
 ٥١١ ، ٥١٦ ، ٥١٨ ، ٥٢٢ ، ٥٢٣ ،
 ٥٥٢ ، ٥٦٣ ، ٥٧١ ، ٥٧٣ ، ٥٩٨
 باريس معاهدة (١٧٦٣) ١٠٤ ، ١٣٩ ،
 ١٣١ ، ١٨٩ ، ٢٣١ ، ٢٣٢ ، ٣٤٠ ،
 ٣٦٢ ، ٣٦٤
 باريس معاهدة (١٨١٤) ٥٦٣ ، ٥٦٧ ،
 ٥٧٤
 باريس مجلس ١٩٨
 بازيليك ، مدينة ٥٢٤
 باغاييل ٣٠٤
 باغاييل ٢٣٧
 باغرمي ٣١٩
 باقاريا ، او بافير ١٧٨ ، ٢١٨ ، ٢٢٠ ،
 ٢٢٨ ، ٢٢٩ ، ٢٣٤ ، ٥٠٩ ، ٥١٦ ،
 ٥٢٣ ، ٥٢٧ ، ٥٥٢ ، ٥٥٣ ، ٥٦٨ ،
 ٥٦٩ ، ٥٨١ ، ٥٨٢
 بافلوسك ١٨٠
 بانبا ١٥١ ، ١٦١
 باكو ٢٦١
 بال ، مدينة ٢١ ، ٢٣

برنوبي دانيال ١٢٠
 برنييه ٣٤٤ ، ٤٩٩
 برونوس ٣٦٦
 بروسيا ١٩ ، ١٠٧ ، ١١٧ ، ١٢٩ ، ١٤٧
 ١٥٦ ، ١٥٧ ، ١٥٩ ، ١٦٠ ، ١٦٨
 ١٧٨ ، ٢٠٦ ، ٢١٢ ، ٢١٨ ، ٢٢٤
 ٢٢٧ ، ٢٣٠ ، ٢٤٤ ، ٣٨٠ ، ٤٦٠
 ٤٦١ ، ٥٠٧ ، ٥٠٨ ، ٥١٢ ، ٥٢٢
 ٥٢٤ ، ٥٢٧ ، ٥٥١ ، ٥٥٢ ، ٥٥٣
 ٥٥٤ ، ٥٥٧ ، ٥٥٩ ، ٥٦٣ ، ٥٦٧
 ٥٦٨ ، ٥٧١ ، ٥٨١ ، ٥٨٣ ، ٥٨٤
 ٥٩٧
 بروس ، جيمس ٣٢٠
 بروسيا البولونية ٢٧٢
 بروشاسكا ٦٣
 بروك تالور ٢٣
 بروكسل ١٦٥ ، ٤٦٠ ، ٥١١ ، ٥١٨
 ٥٢١
 برونسويك ١٦١ ، ٣٧٢ ، ٤٦٢
 برونشيتشيف ٢٤٥
 بروهل ١٧٩
 برويل ، المارشال ٥٠ ، ١١٤ ، ١١٥
 ١١٦
 برويل الكونت دي ١٢٤
 برتانيا ٤٢٨
 بريستلي ٢١ ، ٤٦ ، ٤٧ ، ٤٩ ، ٦٢ ، ١٤٩
 بريستول ١٠٤
 بريسو دي وارفيل ٩٩
 بريفادي مولير ٤٤
 بريمار ٦٨
 بريمن ٢٢٤
 بريدو دي لاکوت ٤٧١
 برين ١٦٠ ، ١٦١
 بساراييا ٥٦٠ ، ٥٧٠
 بستالوزي ١٥٧
 بشاور ٢٧٣
 بشکيريا ٢١٥
 بطرس الاکبر ١٩ ، ١٨٢ ، ١٨٣ ، ٢١٣
 ٢١٤ ، ٢١٥ ، ٢١٦ ، ٢١٨ ، ٢٢٠

٣٣٣ ، ٣٣٢ ، ٥٠٦ ، ٥١٣ ، ٥١٧
 ٥٥٣ ، ٥٩٢
 براغ ٦٣
 براندبورغ ١٢٨ ، ٥٥٤
 براهمان ، البراهمانية ٢٧٥
 براهمز ١٧٨
 براهيبا ٣٢٦ ، ٣٢٧ ، ٣٢٩
 برنيان ٢٩
 البرتغال ١٢٩ ، ١٧٨ ، ١٨١ ، ٢٠٠ ، ٢١٩
 ٢٩٧ ، ٣١٨ ، ٣٢٤ ، ٣٢٥ ، ٣٢٨
 ٣٢٩ ، ٣٣٠ ، ٣٣٣ ، ٣٣٩ ، ٣٤٢
 ٣٥٥ ، ٣٧٥ ، ٥٠٦ ، ٥٠٧ ، ٥١٣
 ٥٥٤ ، ٥٩٢
 برلمی ٤٨٨
 برتو ٢١٢
 برتوليه ٥٢ ، ١٤٣
 برتوي ٢٨
 برتين ، الانسة ١٧٧
 برتييه ٥٥٥
 برست ١٩ ، ١٦٠ ، ٢٥٠
 برسلو ١٤٧ ، ٢٢٥ (معاهدة) ٥٢٤
 برشلونه ٥١١
 برغ ، غراندوقية ٥٥٥
 برغاس ٤١٣
 برغان ٤٦
 برکلي ١٣ ، ٧٦ ، ٧٧ ، ٨٠
 برکول ٢٩٣
 برمنغهام ٥٢٤
 برلين ١٤ ، ١٣٤ ، ١٨٠ ، ١٨٢ ، ٢٣١
 ٥١١ ، ٥١٢ ، ٥٢٤ ، ٥٥٣ ، ٥٥٨
 ٥٥٩
 برنادوت ٥٦٧
 برن ٩٩ ، ٥٢٥
 برنبولک ٣٢٦ ، ٣٢٧ ، ٣٢٩
 برنادوت ٥٥٦ ، ٥٦٢
 برناردين دي سان بيير ٢٣٧
 برنستوف ٢٠٨ ، ٢٠٩
 برنقيل ١٥٣
 برنولي ٢٠ ، ٢٣

بنتغونيا ٥٠٦
البنجاب ٢٧٣ ، ٢٦٩
بندا ٢٨٧
البندقية ٢٠١ ، ١٥٤ ، ١٤٨ ، ١٣٠ ، ٢٣٤ ، ٣٢٢ ، ٥٥٦ ، ٥٦٧
البندقية اختراعها ١٠٥
بنديشيري ٢٧٦ ، ٢٧٩
بندكتوس الرابع حشر البابا ٨٩
بنسلفانيا ٣٥٤ ، ٣٥٥ ، ٣٥٧ ، ٣٥٩
٣٦٣ ، ٣٧٩
بنزرت ٣١٣
البنغال ٢٨٢ ، ٢٧٢
بنكس ٢٤٩
بنكوك ٢٨٦
بنيفات ، امارة ٥٥٥
بنين ، خليج ٣١٦
بهادر ٢٦٨ ، ٢٦٩
بيرينغ ١٩ ، ٢٤٤
يهوسلا ٢٧٣
بيها ٣٢٦ ، ٣٢٧ ، ٣٢٨
بوالو ١٨
بوانكاريه ٢٨٥
بوتران ٥٦٢
بوتسدام ١٤٧
بوتسي ، خليج ٢٨ ، ٢٤٩ ، ٢٥٠ ، ٢٥٤
بودابست ١٥٤ ، ٥٢٣
بودلوك ١٥٤
بوده ٢٧٣
بودين ، جان ٦٨
بورائراي ، مقاطعة ٥٢٥
بورتو تلو ٣٢٣ ، ٣٣٦
بوربون ١٨٣ ، ٢١٨ ، ٥٦٧
بورتو ديكو ٣٣٢ ، ٣٤٠ ، ٣٤٤
بور رويال ٩٦
بورديو ٤٢ ، ١٧١ ، ١٩٢ ، ٣١٦
بورديو بوت ٣٤٦ ، ٣٤٨
بورك ٥٢٣ ، ٥٤٩
بورنال (اول من علم علم الوظائف) ١٥١
بومارشية ٣٦٩

٢٣٢ ، ٢٤٤ ، ٢٦٤ ، ٢٩١
بطرس الثاني ٢١٤
بطرس الثالث ٢١٤ ، ٢٣١
بطرسبرج ٤٣ ، ١٦٩ ، ١٧٩ ، ٢١٦ ، ٢٣٢ ، ٣٢٢ ، ٥١١ ، ٥٢٠ ، ٥٦٤
بطرسبرج معاهدة ٢٦١
بطليموس ٢٤٦
بكاريا ٨٧ ، ١٦٩ ، ٣٦٤
بكساني ٥٢٠
بكين ٢٩٠ ، ٢٩١ ، ٢٩٣ ، ٢٩٥ ، ٢٩٧ ، ٣٠١ ، ٣٠٤
بلجكا ٢٢٥ ، ٤٨٨ ، ٥١٧
بلخس ، بحيرة ٢٩٠ ، ٢٩٢ ، ٢٩٣
بلسكومايو ٣٣٠
بلطيك ٢٠٩
بلغراد ٢٢٤ ، ٢٢٦
بلغراد معاهدة (١٧٣٩) ٢٢٦
البلقان ٢١٢ ، ٢٢٠ ، ٢٢٦ ، ٢٣٣ ، ٥٥٦ ، ٥٩٧
بلاجي داو ٢٤٧
بلاد ما بين النهرين ٢٥٩
بلاك جوزف ٣٩ ، ٤٦
بلاكستون ٣٥٤
بلانشار ١٥٠
بلايستيتز ، هدنة ٥٦٢
بلنتر ٤٦٤ ، ٥٢٢
بلنك ١٥٤
بلوا ١٧١
بلوتارك ٥٩١
بلوس ٥٤
البولسيون ٣٢٧ ، ٣٣٨
بلوشتان ٢٦٦
بلونديل ١٧٩
بلو هوريز ٣٢٨
بلين ٥٥
بمبال ، المركيز فالهودي ٢٠٠ ، ٢٧٥ ، ٣٢٧ ، ٣٢٨ ، ٣٢٩ ، ٣٣٠ ، ٣٣١
بمباي ٢٧٦
بناما ٣٣٦

بومبي ١٧٠
بومفارتن ٨٢
بوموتو، جزر ٢٤٥ ، ٢٤٧ ، ٢٥٠
بومون ٣٥٨
بوميرانيا ٢٢٣ ، ٢٢٤ ، ٥٥٤ ، ٥٦٠
بون ٢٤
بونابرت ، جوزف ٥٥٣ ، ٥٥٤
بونابرت جبروم ٥٥٣ ، ٥٥٤ ، ٥٥٥
بونابرت انظر كذلك نابوليون بونابرت
بونالد ٥٩٩
بونديشيري ٢٣١
بونس ايرس ، ٣١٢ ، ٣٣٣ ، ٣٣٤ ، ٣٣٦ ،
٣٤٠ ، ٣٤٢ ، ٥١٧ ، ٥٩٢
بونشليه ١٦١
بونفا ٣٣٤
بونفيل ٥١٦
بونياتو فسكي ، ستانسلاس ٢٣٢
بوهارنيه ٢٤٥ ، ٤٩٩ ، ٥٥٥
بوهيميا ٢٠٤ ، ٢٠٥ ، ٢٢٨ ، ٢٢٩ ،
٤٦٢ ، ٥٨٢
بويه ٤١٤ ، ٤٦٠
البيامونت ٣١٨ ، ٢٢٤ ، ٥٢٥ ، ٥٥١
بيترهوف ١٨٠
بيرار ٢٧٣
البيرائيس ٥٥٤ ، ٥٦٣
البيرو ١٩ ، ٢٨ ، ٣٢٢ ، ٣٢٣ ، ٣٣٢ ،
٣٣٦ ، ٣٣٨ ، ٣٣٩ ، ٣٤١ ، ٣٤٤ ،
٣٤٥
بيشغرو ٤٨٨ ، ٥٨٥
بيفوت ٥١٦
بيكال ، بحيرة ٢٩٠
بيكال ولاني ٣٥٩ ، ٣٦٠
بيكون ١٥ ، ٤٦ ، ٩٣
بيلانتر دي روزيه والمركز دارلان اول
من طار في الجو (١٧٨٣) ١٤٩ ، ١٥٠
بيل واييل ٢٢٨ ، ٢٢٩
بيلنتز ، قصر ٤٦٠
بيليدور ١١٦
بيليو دي تيهان ٢٥٧

بورنو ، مقاطعة ٣١٩
بورنيو ٢٨٧
برهاف ٢٥٢
البوس ، سهل ٤٦٧
بوسكوين ، الاميرال ٣٦١
بوسطن ٢٩٧ ، ٣٥٤ ، ٣٥٩ ، ٣٦٠ ،
٣٦٦ ، ٣٦٧
بوسي ، دي ٢٧٢ ، ٢٩٥
بوسويه ٩٣ ، ٥٠٦
بو شاردوف ١٧٩
بو شمان ، اقوام ٣١٧
بوشيه ٣٠٤
بوغانشيف ٢١٥ ، ٢١٦
بوغانفيل ٢٤٧ ، ٢٤٨
بوفر ٢٨ ، ٢٩ ، ٣٠ ، ٣٣
بوغوتا ٣٣٤
بوفور ، لويس دي ٦٧
بوفون ١٦ ، ١٧ ، ١٩ ، ٢٠ ، ٤٢ ، ٥٣ ،
٥٥ ، ٥٩ ، ٦٢ ، ٦٤ ، ٦٦ ، ١٦١ ،
١٦٩ ، ٢٥٢
بوفيه ٩٣ ، ٣٠٣
بولتون ، ماثيو ١٠٤ ، ١٣٩ ، ١٤٠
بولنبروك ١٦٤
بوله ، قبائل ٣١٨
بولو ، كوندور ، ارخبيل ٢٨٧
بولوني ، مدينة ٥٥١ ، ٥٥٣
بولوني غابة ٣٠٤
بولونيا ١٨٠ ، ١٨٨ ، ٢٠٦ ، ٢١٠ ، ٢١٢ ،
٢٢١ ، ٢٢٢ ، ٢٢٥ ، ٢٣٢ ، ٢٣٣ ،
٥٠٥ ، ٥٠٧ ، ٥١١ ، ٥١٧ ، ٥٢٠ ،
٥٢٤ ، ٥٢٧ ، ٥٥٢ ، ٥٥٤ ، ٥٦٠ ،
٥٦٧ ، ٥٦٩ ، ٥٧٠ ، ٥٨١ ، ٥٨٣
بولاي دي لامورت ٥٠١
بوليفار ، ٣٤٥ ، ٥١٣ ، ٥١١ ، ٥٩٢ ،
٥٩٣
بوليفيا ٣٢٧ ، ٣٣٠ ، ٣٣٤ ، ٣٣٩ ،
بولينياك ٤٦٠
بومبادور ، مدام دي ١٧٠ ، ١٧٧ ،
٣٠٣

٣١٣
 ترمبلي ٥٨
 ترونشيه ٤٤٩
 تريانون ١٧٢ ، ١٧٩ ، ٢٨٠
 التريونا ، مجلس ٩٤٥
 تريستا ٢٠٥ ، ٢٢٠
 تريشينا بالي (معركة) ٢٨٠
 تريف ١٧٩ ، ١٨٣ ، ٥١٨
 تريلوتي ٣٣٦
 تريكوندوغا ٣٦١
 ترينه ٢٨٦
 تريهارد ٥٠١
 تسمان ٢٤٨
 تسو ، تشوان ٢٨٨
 تسيو نوبو ٣٠٦
 تشميد ٢٣٢
 تشيروي ٣٥٨
 تشيلبو سكين ٢٤٥
 تطوان ٣١٦
 التعليم ١٥٥ ، ١٦٢
 تكساس ٣٣٥ ، ٣٥٨
 التلفراف : محالاة الاولى ١٤٩
 تمبوكتو ٣١٩
 التمبرل ٣٠٤
 تمسفار ٢٢٤
 تندريفا ٣١٩
 تنسي ٣٧٦
 تنفا ٢٥٥
 ٩
 توارينخ الطبيعة (كتاب لبوفون) ٧٤
 توباك ، امارو ٣٤٤
 تور ١٧١
 توران ، خليج ٢٨٧
 تورغو ١٣ ، ٧٢ ، ١٩٦ ، ١٩٨ ، ٤٥٣
 تورغوت ٢٩٤
 تورنج ١٧٥ ، ٥٤٩
 تورنفور ٥٨
 توروچن ٥٦٢
 تورييس ، مضيق ٢٤٩
 توريشلي ١٥

بيناريس ، مدينة ٢٨٥
 بينو هوف ١٨٠
 بينيل ١٥٣
 بيوس السادس ، البابا ٤٣٨ ، ٤٦١
 بيوس السابع ، البابا ٤٩٧ ، ٥٨٤
 بيو فارين ٤٧١
 بيوهي ٣٢٦
 ت
 تاريخ الاسفار البحرية الى الاراضي
 الاوسترالية ٢٤٦
 تاريخ اسكتلندا ، كروبرتسون (١٧٥٩)
 ٧٣
 تاريخ الانسان الطبيعي (لبوفون) ١٣ ،
 ٥٣ ، ٦٦
 تاريخ اوسنابروك لجوستوس مؤزر ٧٣
 تاريخ بريطانيا العظمى ، لهيوم (١٧٥٤)
 تاريخ السنغال الطبيعي لادنسون ٥٩
 تاريخ الفن في العصور القديمة لوتكلمسي
 (١٧٦٤) ٧٤
 تاريخ الكهرباء لبريستلي (١٧٧٥) ١٧
 تاليان ٤٦٣
 تاليران ٤٣١ ، ٤٩٦ ، ٥٠٢ ، ٥٦٧ ،
 ٥٧٧
 تاماسب الثاني ٢٦٠ ، ٢٦١ ، ٢٦٢
 تاهيتي ٢٠ ، ٢٤٧ ، ٢٤٨ ، ٢٤٩
 تاونسهند ٣٦٦
 التايمز ٥٩٧
 تباغو ، جزر ٣٤٨ ، ٣٧٠
 تبريز ٢٦١
 تبليس ٢٦٥
 التحول ، مذهب ٦٣
 تدجن ، مضيق ٢٦٤
 التربية الحديثة : صفاتها الاساسية ٨٨
 تربية الجنس البشري (١٧٨٠) للسنغ ٧٤
 التركستان ٢٥٩ ، ٢٦٤ ، ٢٧٣ ، ٢٩١ ،
 ٢٩٢ ، ٢٩٤
 التركمان ٢٦١
 تركيا او الامبراطورية العثمانية ٢١٢ ،
 ٢٢٠ ، ٢٢٥ ، ٢٢٦ ، ٢٣٤ ، ٣١٠ ،

جامعة اكسفورد ١٥٧
جامعة باريس ١٥٧
جامعة الامم ، دعوة يقوم بها لتشكيلها
الاب دي سان بيير ٧٨
جان بون ، سانت اندريه ٤٧١
جاهن ٥٥٩
جاوا ٢٤٧ ، ٢٨٧
الجبال السماوية ٢٩٠
الجبال الصخرية ٢٤٥
جبل طارق ١٢٢ ، ٢١٨ ، ٢٢٤ ، ٣٧٠
جبل سانت ايلي ٢٤٤
الجدول الاقتصادي ٧١ ، ٧٢
الجرائم والعقوبات ليكاري (١٧٦٤) ٨٧
الجراحة : اولى مدارسها في اوربا ١٥٢
جريدة باريس ١٦٥
جريدة العلماء ١٦٥
جريدة فرنسا ١٦٥
الجزائر ، بلاد ٣١٣ ، ٣١٤
جزيرة ، الثالث ٣٣٦
الجزر اللوشيانة ٢٤٤
الجزيرة العربية ٢٢٢
جسنر ٢٣٧
جمايكا ٣٣٦
جفرسون ٥١٣
جنري ، الدكتور ١٥٠
جلبرت دي فوازن ٥٠٠
جمعية كلكتا الاسيوية ٦٨
جمعية المرسلين الاجانب ٢٩٨
جونتز ٥٦٦ ، ٥٧١
جنيف دي مالبواسير ١٨
جنوى ١٣٠ ، ٢٠١ ، ٥٦٧
جنيف ٨٨ ، ٩٤ ، ٩٥ ، ٩٩ ، ١٣٠ ، ١٣١
٣٨٠ ، ٥٢٤ ، ٥١٨
جودو ١٨٠
جودج الاول ملك انكلترا ١٩٢
جودج الثاني ١٩٢ ، ٢٢٩
جودج الثالث ٢٠ ، ١٦٤ ، ١٩٢ ، ٢٣١
٣٤٨ ، ٣٦٨ ، ٣٧٠ ، ٣٧٣ ، ٥١٣
جوزف الثاني ١٥٢ ، ١٦٨ ، ١٦٩ ، ١٨٠

تورين ١٠٧
تورية ٤٣٣
توزا ٣٠٩
توزاما ٣٠٥ ، ٣٠٩
توسكانا ٢٠١ ، ٢٢٦ ، ٥٦٩
توغرت ٣١٤
التوكولور ، اقوام ٣١٨
توكو غاوا ، ال ٣٠٥ ، ٣٠٨ ، ٣٠٩
توكومان ٣٣٩
تولوز ١٧١
تولون ١٦٠
توما الاكوييني ، انظر الاكوييني ، توما
توماس هايز ، مبتكر للمغزل المائي (١٧٦٧)
١٣٦ ، ١٣٧ ، ١٣٨
توماس غراي ٢٣٨
تونس ٢١٢ ، ٣١٣
تونكا ، خليج ٣٤١
تونكين ٢٨٦
تيان ، شان ٢٩٠ ، ٢٩٢
التيب ٢٥٩ ، ٢٩٢ ، ٢٩٣ ، ٢٩٤
تيبو ٢٨٣ ، ٢٨٥
تيبودو ٥٠١
تيبو ، صاحب ٢٧٦
تيبول ، الاخ ٢٩٨
تيراذس ٥١٧
تيري ، اوشطين ٧٤
تيسو ٤٦١
تيكونديروفا ، حصن ٢٦١
ث

ثاير ٥٥٨
الثاني ، اقوام ٢٨٦
ثوريلد ، المحامي ٥٢٣

ج

الجازبية ٢٦ ، ٢٨
جالك الاول ١٩٢
جالاير ٤٢
جامايكا ١٢٢

خ

خامسي ٢٩٣
 خان ٢٦٤
 خراسان ٢٦٥ ، ٢٦٢ ، ٢٦١
 خطبة في منشأ وأسس التفاوت بين
 البشر ، لروسو (١٧٥٤) ٩٦
 الخليج الفارسي ٢٦٥
 خوان ييريس ٢٤١
 خوان فرنانديز (جزيرة) ١٢٢
 خوسيه الاول ٢٠٠
 خوسيه مونيرو ١٩٩
 خوكان ٢٩٤
 خولدجا ٢٩٣
 خيبر ، مضيق ٢٦٤
 خيفا ، خان ٦٢٤
 خيوى ٢٩٢ ، ٢٩١
 د
 دائرة المعارف ١٣ ، ٨٤ ، ٨٧ ، ٨٨ ، ١٢٨ ،
 ١٦٩ ، ١٨٥ ، ٢١٤ ، ٢٣٩ ، ٣٤٣
 مشروع ماسوني كما يقول بول هازار
 ١٢٨ ، ٨٨
 دا بوردا ١٢٠
 داجية ١٧٧
 دار بنت ٢٦١
 درتوا ١٠٦
 داربي آل ١٣٦ ، ١٣٧ ، ١٣٩ ، ١٤١
 دارجنسون ، المركب ٢٢١
 دارفسور ٣١٢ ، ٣١٩
 دارلند : اول من طار في الجو (١٧٨٧)
 مع بيلان دي روزيه ١٤٩
 دارند ، الكونت ١٩٩
 داغستان ٢٦١
 دافو ، الجنرال ٢٥٢
 دافيد ١٧٥
 دافيلر ١٧٩

١٨٢ ، ٢٠٤ ، ٢٠٥ ، ٢٣٤ ، ٥٠٩

٥١٨

جوزف بوناپرت ٤٩٩
 جوزف كليمان ١٨٣
 جوزف دي مستر ٥٦٤ ، ٥٨٤ ، ٥٩٩
 جوفروا ، دابان ١٢٧ ، ١٢٦
 الجوليمند ٣١٩
 جومو نفيل ٣٦٠
 جون فريك ١٣١
 جون كلي ، مخترع المكوك المتحرك ١٣٦
 جونز ٦٨
 جونسن ، صموئيل ٣٦٤
 جبراد دون ١٧٩
 الجيرونديون او الجيرونديون ٤٢٣ ، ٤٦٢ ،
 ٤٦٣ ، ٤٦٧ ، ٤٧٤ ، ٤٨٣ ، ٥٢٥
 جيفرسون ٣٦٨ ، ٥٦٠
 جيمباب (معركة) ٥٢٥
 جيناري ٣٠٧
 جينوفيزي ٩٤
 جوجيا ٣٥٢ ، ٣٥٨ ، ٣٧٦
 الجيولوجية ٥٥ ، ٥٧

ح

حاجي كاك ، مضيق ٢٦٤
 حافظ الشيرازي ٢٦٥
 الحبشة ٢٢٠
 الحجاز ٣١٢
 الحسين ، باي تونس ٣١٣
 الحصار البري (١٨٠٦) ٥٥٣
 حصار كاليه (مسرحية) ٢٣٨
 الحصن المرتجل ٣٦٠
 حلب ٢٦١
 الحلف المقدس ٥٥٢ ، ٥٧٢ ، ٥٧٣
 الحلف الرباعي ٥٧٢
 حمودة الباي ٣١٣
 حيدر علي ٢٨٣ ، ٢٨٥

روسو ، جان جاك ، ١٨ ، ٧٩ ، ٨٥ ، ٩٥ ،
 ، ٩٦ ، ١٥٧ ، ١٦٧ ، ١٧٨ ، ٢٣٦ ،
 ، ٣٠٣ ، ٣٠٤ ، ٣٤٣ ، ٥١٣ ، ٥١٤ ،
 روسيا ، ١٩ ، ١٢٩ ، ١٣٤ ، ١٤٧ ، ١٥٦ ،
 ، ١٥٧ ، ١٦٩ ، ١٧٨ ، ١٨٠ ، ١٨٣ ،
 ، ١٨٨ ، ٢٠٦ ، ٢١٠ ، ٢١٢ ، ٢١٣ ،
 ، ٢١٤ ، ٢١٥ ، ٢٢٠ ، ٢٢٤ ، ٢٢٥ ،
 ، ٢٩٢ ، ٣٤٤ ، ٥٠٥ ، ٥١٠ ، ٥١١ ،
 ، ٥٢٠ ، ٥٢٢ ، ٥٢٥ ، ٥٢٨ ، ٥٥٥ ،
 ، ٥٥٣ ، ٥٦٠ ، ٥٦٣ ، ٥٦٧ ، ٥٦٩ ،
 ، ٥٦٩ ، ٥٧١ ، ٥٨١ ، ٥٨٢ ، ٥٨٣ ،
 ٥٩٧

روشمبو ، الكونت دي ٣٧٠
 روشفور ١٦٠
 رومجيفن ٢٤٥
 روشن ١٢٤
 روكو ١١٤ ، ١٣١
 رولان ٤٨٣ ، ٤٦١
 روما ٢٠٥ ، ٢٣٥ ، ٥٨٤ ، ٥٨٥
 الرومنطقية ٩٥
 دومني ٢٣٨
 روملة ٥١٦
 روهان ، دي ١٨٣ ، ٣٠٤
 روهو ١٦
 الرياضيات ٢٢
 ريجيس ١٦
 ريجيوس ١٦
 ريسويك (معاهدة) ٢٢٨ ، ٢٢٦
 ريشليو ٢٤٢
 ريشليو ، نهر ٣٦٠
 ريفارول ١٦٨ ، ٤١٩
 ريفيون ٤٠٣
 ريمون ، ميشال ٢٨٤
 الرين ، نهر ١٧١ ، ١٩٨ ، ٢٠٦ ، ٢٢٠ ،
 ، ٢٣٨ ، ٥٠٩ ، ٥١٠ ، ٥١٨ ، ٥٢٥ ،
 ٥٥٢ ، ٥٦٨
 الرين ، حلف (١٨٠٦) ٥٥٢ ، ٥٥٥
 الرينار ، اقوام ٣٥٩
 ريشان ٧
 رينانيا ١٨٣ ، ٥٢٥ ، ٥٨٢

٩٨ ، ٩٦ ، ٩٣ ، ٨٢
 دي لوني ٢٠٨
 دي لويولا ٣٠٣
 ديلانو ٤٦
 ديلاور ٣٥٤
 ديمولين ، كميل ٤٤٢ ، ٥٢٢
 دي هالد ، الاب ٣٠٣
 ديو ٢٧٤

ر

راجبورت ٢٦٧ ، ٣٦٨ ، ٣٧٢
 رادشيف ٥٢٠
 راس يريطانيا ، جزيرة ٣٥٠
 راس الرجاء الصالح ٢٠ ، ٣٤ ، ١٢٢ ،
 ، ١٢٤ ، ٣١٣ ، ٣١٧ ، ٤٤٥ ، ٤٤٦ ،
 راستادت (معاهدة) ١٦٧ ، ١٦٨ ، ٢١٨ ،
 ٢٢٣
 رامو ١٧٥ ، ١٧٦ ، ١٧٨
 ربنين ٢١١
 رثمون ٤٣ ، ٣٨٠
 الرباط ، مدينة ٣١٦
 رحلة من بطرسبرغ الى موسكو ٥٢
 رمبرانت ١٧٤
 رمس ١٧١
 روان ١٩٥ ، ٤٠٣
 روبر فال ١٤
 روبسبير ١٤٨ ، ٤٣٣ ، ٤٣٤ ، ٤٤٤ ،
 ، ٤٦٢ ، ٤٦٣ ، ٤٧١ ، ٤٧٤ ، ٤٧٦ ،
 ، ٥٢١ ، ٥٢٢ ، ٥٢٣ ، ٥٢٥ ، ٥٣٦ ،
 روبنس ١١٨ ، ١٧
 روبير لنديه ٤٧١
 روتردام ٥١١
 روتمبرغ ١٧٨
 روجيه دي ليل ١٦١
 روح الشرائع لونتسكيو ٦٩ ، ٣٠٣
 رودني ١٢٤
 رود ايلاند ٣٥٢ ، ٣٥٥ ، ٣٧٣
 رودير ٥٠٠
 روسباخ (معركة) ١٥٠ ، ١٨٤ ، ٢٣١ ،
 ٢٣٨

سان الفونس ، معاهدة (١٧٧٧) ، ٣٣٠ ، ٣٤٠

سان باولو ، ٣٢٨ ، ٣٢٧

سان بلاس ، ٣٤١

سان بول لواندا ، ٣١٦

سان بيير وميكلون ، ٢٣١

سان جان ، جزيرة ، ٣٥٠

سان جوست ، ٤٧١ ، ٤٨٥

سان دومنغو ، ٢٣١ ، ٣٣٢ ، ٣٣٤ ، ٥٦٨

سان دومنيك ، جزيرة ، ٥٥٠

سان دنيس ، ٣٥٨ ، ٤١٢

سان سولبيس ، ٧٧

سان فرنسيسكو ، ٣٢٨ ، ٣٤١ ، ٥٠٦

سان فنسان ، ٣٤٨

سان فيليب دي بنفويلا ، ٣١٦

سان كلو ، ٣٠٢

سان لازار ، دير ، ٤١٢

سان لوران ، نهر ، ٢٤٨ ، ٣٥٠ ، ٣٥٩

٣٦١ ، ٣٧٠

سان لويس ، ٢٣١ ، ٣٦١ ، ٣٤٨ ، ٣٥٢

سان مارتين ، ٣٧٠ ، ٥١٣ ، ٥٩١

سان مالو ، ١٩٥ ، ٣٤٦

سانت اتيان ، ٤٤٨

سانت ايلي (جبل) ، ٢٥٠

سانت جنيفاف ، ٣٥١

سانت جيمس ، ٣٠٤

سانت غال ، ٥٣٤

سانت كروا ، جزر ، ٣٤٨

سانت نيكيز ، شارع ، ٤٩١

سانتا فيه ، ٤٣٤

سانتومير ، ١٤٨

سانتو نوريه (شارع) ، ١٧٧ ، ٤٦١

ساو ستانسلاس ، ٣٣٠

ساو يواكيم ، ٣٣٠

سايفون ، ٢٨٧

ساينسك (جبال) ، ٢٩٤

سبالنزاني ، ٦٠ ، ٦١ ، ٦٢ ، ٦٤

سباندو ، ١٤٧

سبتا ، ٣١٥

رينهارد ، سمير ، ٢٨٣

رينولدز ، ٢٣٨

رينو دي سان جان دانجلي ، ٥٠٠

ريو ، جزيرة ، ٢٨٧

ريو دي جانيرو ، ٣٢٧ ، ٣٢٨ ، ٥٩٢٠

ريو دي لا بلاتا ، ٣٢٧ ، ٣٣٠ ، ٣٣٥ ، ٣٤١

ريو غرانده ، نهر ، ٣٥٨

ريو مير او ريو مور ، ١٨ ، ٣٩ ، ٥٤ ، ٥٥

٦٢

ريو ناكو ، ٣٠٨

ريونفرو ، نهر ، ٣٢٧ ، ٣٣٠

ز

زحل ، ٣٠ ، ٣٢

الزند ، دولة ، ٢٦٠

زند ، افسنا : ترجمته الى الفرنسية

(١٧٧١) ، ٦٨

الزيمو ، ٣٣٥

زنجرار ، ٣١٦

الزهرة الطبيعية (كتاب لمبرتوي) ، ٦٤

الزولو ، ٣١٧

زوريخ ، ١٠١ ، ٥٢٤

الزويدريزيه ، ٥٥٤

زيسان ، بحيرة ، ٢٩٢

زيلاندا الجديدة ، ٢٤٨ ، ٢٤٩ ، ٢٥٧

س

ساحة التنس ، ٤١٠

ساراتوغا ، ١١٤

الساسانية ، الدولة ، ٢٦٠

سافر ، مصنع ، ١٧٨

سافوا ، ١٨ ، ٢١٨ ، ٢٢٥ ، ٢٢٩ ، ٢٣٠

٥٠٩ ، ٥١٦ ، ٥٢٥ ، ٥٦٤ ، ٥٦٨

الساكس ، ٥٠٥ ، ٥٤٩

ساكس كوبورج ، ٥٢٧

ساكس - وينار ، ٥٨١ ، ٥٨٢

السامير ، نهر ، ٢٢٩ ، ٥٥١

ساموا ، ٢٥٥

الساموراي ، ٣٠٧ ، ٣٠٨

سليبيس ٣٨٧
سماراف ٢٨٧
سمث ، آدم ٧٢ ، ٧٣ ، ٥٩٩
سملر ١٥٦
سميراميس الشمال (لقب كاترين الثانية)
٢١٥
سندوتش ، اللورد ٢٤٩ ، ٢٥٠
سندهيا ٢٨٣ ، ٢٤٨
سنديا ، المهرات ١١٩
سنسناني ٣٧٦
سنغ - كوي ٢٨٦
السنغال ٢٢٨ ، ٢٣١ ، ٢٣٤ ، ٢٦٤
٣١٦ ، ٣١٩ ، ٣٤٨ ، ٣٧٠
السنغاي ، مملكة ٣١٨
سنيانغ ٢٩٤
سوجي ٢٧٠
سوبلب بلاس ١٨٢
سويل ١٥٠ ، ١٦٦
سوتشوين ٢٩٣
سوجيتا. ٣٠٨
السودان ٣١١ ، ٣١٢ ، ٣١٥ ، ٣١٦
٣١٨ ، ٣١٩
سودون خان ٢٧٢
سوديل ٤٦٤
سوريا ٥٧ ، ٢١٢ ، ٣١٢ ، ٥٥٠
سوفرين ١٢٤ ، ١٢٥ ، ١٢٦ ، ٢٨٥
٣٧٠
سوفلو ١٧١
السوم ، نهر ٥٢٧
سولندر ٢٤٨
السون ، نهر ١٢٦
السوند (مضيق) ٢١٩ ، ٢٢٤
السويد انظر اسوج
سويدنبرغ (ابو التنويم المغنطيسي) ١٠١
السويس ٣١١ ، ٣١٣
سويسرا ١٠٠ ، ١٠٢ ، ٥٢٢ ، ٥٣٤
٥٨٠ ، ٥٥١

سبير ٥٢٨
سبيرانسكي ٥٥٧
سبينوزا ١٠٠
ستاكلبرغ ٢١٢
ستانسلاس يونيانوفسكي ٢٢١
ستار ، مدينة ٢٧٠
ستانسلاس يونيانوفسكي ٢١١
ستاتين ٢٢٤
ستاهر ٤٥
ستاهل ٥٠ ، ٥١ ، ١٥٢
ستراسبورج ١٩ ، ١٠١ ، ١١١ ، ١٨٣
٥١٦
ستراسبورج كالدراية ٢٣٩
سترالسند ٤٦
سترالسون ٢٢٤
ستروغانوف ٥١٦
سترومر ٣٩
ستندال ٧٨
ستوارت ، ال ١٩١ ، ١٩٢
ستوفلو ٤٨٨
ستوكهلم ١٦٩ ، ٨٠ ، ١٨١ ، ٢٤٢ ، ٥٢٣
ستوكهلم ١٦٩ ، ١٨٠ ، ١٨٢ ، ٢٢٤ ، ٥٢٣
ستيفنسون ٥٩٦
سخالين ٢٥٠
سردنيا ٢١٨ ، ٢٢٤ ، ٢٢٥ ، ٢٢٧ ، ٢٢٩
سرفان ٦١
السركار ٢٨٠
سعدى ، الثامر ٢٦٥
السفن الحربية : تطورها ١٢٣
سكارلاي ١٧٨
سكانيا ٥٥٣
سكرمنتو ٣٣٠ ، ٣٤٠ ، ٣٤١
سلبات يونغ ٢٧٢
سلسيوس ٣٩
سلطا ٣٣٤
السلطان اسماعيل ٣١٩
سلفستر ، الرسام ١٨٠
سلفستري ساسي ٦٨ ، ٢١٢

شارنهورست ٢٦١ ، ٥٥٧ ، ٥٥٨ ، ٥٥٩
 شاري٢ ٤٨٨
 الشاطيء الذهبى ٣١٦
 شاكونتالا ، ماساة ٦٨
 شالروا ٥١١
 شاتنلي ٣٠٣ ، ٣٠٤
 الشاهنامه ٢٦٢
 شاو ، الراجا ٢٧٠ ، ٢٧١
 شاپس ٣٧٥
 شبتال ٥٠١
 شتاي ٥٥٧ ، ٥٥٩
 شرکاس ٣٣٤
 شرميتاف ١٨٠
 شلسويغ هولشتاين ٢٠٨ ، ٢٢٤
 شليفيل ٥٨٦
 شمبادزو ٣٠٥
 شمبانيا ٤٠٣
 شمبيري ١٠١
 شمبورازو ٣٠
 شمبيون دي سيه ٤١٣ ، ٤٢٦
 الشمس بعدها عن الارض ٣٥
 شندر نافور ٢٧٦ ، ٢٨٢
 شوارزبيرغ ٣٨٣
 شوازل ١١٧ ، ١٣١ ، ١٤٨ ، ٢٣٢
 شوبار ١٥٥
 الشوغون ٣٠٥ ، ٣٠٧ ، ٣٠٨
 شوفلين ٢٢٤ ، ٢٢٥
 شوفين : قاموسه ١٥
 شو - كنغ ٦٨
 شومون ٥٦٣
 شيكاشا ، قبائل ٣٥٩
 شيكاغو ٣٥١
 شونبرون ، صلح ٥٦
 الشونين ، طائفة ٢٠٦
 شيراز ٢٦٥ ، ٢٦٦
 شيروود ٤٢٥
 شيلر ١٨٤ ، ٥٢٤ ، ٥٨٦
 شيلي ٤٦ ، ٤٧ ، ٤٩ ، ٥٩٢

سويقت ١٩٤
 سيام ٢٨٦
 سيبالوس ٣٤٠
 سيبيريا ٥٧ ، ٢١٥ ، ٢٤٤ ، ٢٩١
 سيت ، مدينة ١٩٥
 سيتانغ ، نهر ٢٨٦
 سيجسموند ٢٩٨
 السيخ ٢٦٨ ، ٢٦٩ ، ٢٧٣
 سيراليون ٣١٦
 سيموندي ٣٩٧ ، ٥٩٩
 سيفين ٦٢
 السيكلاد ، جزر ٢٤٧
 سيلان ٢٥٣ ، ٢٧٦
 سيلويت ١٩٧
 سيليزيا ١٦٦ ، ٢٠٥ ، ٢٠٧ ، ٢٢٨ ،
 ٢٢٩ ، ٥٢٣ ، ٥٢٤ ، ٥٥٤ ، ٥٦٩
 سيهاي هاباشي ٣٠٨
 سييه ، الاب ٤٢١ ، ٤٢٥ ، ٤٣٠ ، ٤٩٠ ،
 ٤٩٤

ش

شابتال ٥١
 شاتوبريان ٥٧١ ، ٥٨٥ ، ٥٨٧ ، ٥٩٨
 شارب ٩٤
 شاردين ١٧٤
 شارل ١٤٩ ، ١٥٠
 شارل الاول ملك انلكترا ٣٦٦
 شارل الثالث ملك اسبانيا ١٩٩ ، ٢٠٠ ،
 ٣٣٥ ، ٣٤٠ ، ٣٤١ ، ٣٤٢ ، ٣٤٣ ،
 ٣٤٤
 شارل الرابع ملك اسبانيا ٣٤٥ ، ٥٠٧
 شارل السادس ملك اسبانيا ٢٠٤ ، ٢١٨ ،
 ٢٢٠ ، ٢٢٤ ، ٢٢٥ ، ٢٢٦
 شارل الثالث عشر ٥٨١
 شارل الثاني عشر ملك السويد ٢٠٩
 شارل البير ، منتخب بافاريا ٢٢٧
 شارل دي بروس ٢٤٦
 شارلستين ٣٥٢
 شارلوط الملكة ٢٤٩

ع

السامور ٢٦٤ ، ٢٩١
عبد الله خان ٢٧١
عجيت - يانغ ٢٦٩
العراق ٢٦١ ، ٢٦٢ ، ٢٦٦
عرض نظام العالم (كتاب للابلاس) ٣٥
العقد الاجتماعي لروسو ٦٢ ، ٨٧ ، ٩٦ ، ٣١٥

علا وداخ ٢٦٤

علم الآليات العملي ٢٤
علم الاجتماع : مؤسسوه ٦٨
علم الطبيعة ٣٨ ، ٤٤
علم الفلك ٢٦
علم الفلك بنظر لابلاس ٣٧
علم نواميس العالم العامة لموبرتوي
٦٤ (١٧٥٦)

علم الثاني ٢٨٣
العلوم : تصنيفها ٥٧
العلوم الطبيعية ٥٣ - ٥٧
علي بك ٣١٢ ، ٣١٣
العمالق ٣٥٩

عنابة ٣١٣ ، ٣١٤
العناصر ، لاوقليد ٢٠
عناصر فلسفة نيوتن (كتاب) ١٦
عوادات ٣١٩
عويدي
عين مهدي ٣١٤

غ

غازيتا فرسوفيا ٥١٦
غال الجديدة ٢٤٩
غالغاني ٤٣
غالياني ١٦٨
غاليسيا ٢٣٢ ، ٥٥٤ ، ٥٦٠
غالييو ١٥
الغانج ٢٥٩ ، ٢٦٦
غاند (صلح) ٥١١ ، ٥٦٠

الشيلي ٣٣٩ ، ٣٤١ ، ٣٤٤ ، ٣٤٥ ، ٥١٣

ص

صافي ٣١٥
صالح ، مدينة ٣١٥
الصحافة ١٦٢ ، ١٦٦
الصحراء الكبرى ٣١٠ ، ٣١٨
صحبة اهل العلم ١٥٤
صربيا ٢٢٤ ، ٢٢٦
الصفوية ، الدولة ٢٦٠ ، ٢٦٢ ، ٢٦٥ ، ٢٦٦
صقلية ٢١٨ ، ٢٢٠ ، ٢٢٤ ، ٢٢٦
صورات ٢٧٦ ، ٣١٢
صوفالا ٣١٦
الصومال ٣١٦
صولت ٣٥٠
صومطرة ٢٨٧

الصين ٢٠٥ ، ٢٠٩ ، ٢٦٠ ، ٢٦٤ ، ٢٨٨ ، ٢٨٩ ، ٢٩٠ ، ٢٩١ ، ٢٩٢ ، ٢٩٣ ، ٢٩٤ ، ٢٩٥ ، ٢٩٦ ، ٢٩٧ ، ٢٩٨ ، ٣٠٠ ، ٣٠١ ، ٣٠٢ ، ٣٠٣ ، ٣٧٥ ، ٣٠٥ ، ٣٠٤

ط

الطب : اولى مجلاته العلمية ١٥١
طبائع الانسان (علم) ٦٦
طباتنفا ٣٣٠
طرابزون ٢٦١
طرابلس الغرب ٣١٦ ، ٥٥٠
طريفاتاي ٢٩٠
الطرف الاغر ٥٥١
طرفان ٢٩٣
طشقند ٢٩٤
الطقوس الصينية ٢٩٨ ، ٣٠١
الطقوس الملابارية ٢٧٥
طنجة ٣١٥
طهران ٢٦١ ، ٢٦٦
الطوارق ٣١٩
الطوري ١٩١ ، ١٩٢

غورية ، جزيرة ٣٤٨
غوس ٢٢
غوستاف ادولف ١٨١ ، ١٨٢
غوستاف فاذا ١٨١
غوستاف الثالث ٢١٠ ، ٥٢٢
غوندلور ٢٨٥
غويار ٣٢٨ ، ٣٢٩
غويان ٣٣٠ ، ٣٣٨
غويتون ده مورفو ٥١
غويند ٢٦٩
غويون ، دوق دي ٤١٦
غلم جير ٢٦٨
غيبير ، الكونت دي ١١٠ ، ١١١ ، ٢١٢ ،
١١٩ ، ١١٥
غيلان ٢٦١
غيمار ١٧٠
غيثيه ٣١٦
غينية الجديدة ٢٤٧
ف
فاتو ١٧٤ ، ١٧٩
فاجاتاك ٢٨٦
فاديك ٤٩١
فارادي ٤٤
فارس ، بلاد ٢٥٩ ، ٢٦٠ ، ٢٦١ ، ٢٦٤ ،
(انظر ايضا ايران)
فارنير البرابنة ٢١٩
فاروق شير ٢٦٨ ، ٢٦٩ ، ٢٧١
فارين ٤١٤ ، ٤٦٠
فارينو ٥١٧
فاس مدينة ٣١٥
فالاشيا ٢٢٤
فالي ، معركة ٤٦٦ ، ٤٦٧ ، ٥٢٢
فاليز ، معركة ٥٦٤
فالير ١١٦٠
فان ، مدينة ١٦٠
الفاندية ٤٣٨ ، ٤٦٣ ، ٤٧٤ ، ٤٨٨
فاهرنيت ٣٨
فخت ٥١٧ ، ٥٥٨

فايتس ٣٦٨
فراس ، دي ٣٧٠
غرافساند ١٥
غراموزيه ٣٤٤
غرانشة ، دويوا ٤٥١
غراي ٤١
غرناطة ٣٤٨
غرناطة الجديدة ٣٣٩
غروسو ٣٢٦ ، ٣٢٩
غريبو فال ١١٧ ، ١١٨ ، ١٤٨
غريفوري ٣٤
غرينادين ، جزيرة ٣٤٨
غرين العالم ٢٤٩
غرينوبل ١٠١ ، ١٩٨
غرينيل ٣٦٦ ، ٤٨٩
غريم ١٦٨ ، ٥٠٥
غسندي ١٤ ، ٩٣
غلجيس قبيلة ٢٦١
غلوتر ٥١٧
غلوك ١٧٨
غلاسكو ٣٩ ، ١٠٤
غليوم دي همبولدت ٥٢٦
غمبيا ٣١٦ ، ٣٤٦
غناستنو ٥٥٧ ، ٥٥٨
غنيدوان ١٧٢
غوا ، مدينة ٢٧٢ ، ٢٧٤
غوايمالا ٣٣٢ ، ٣٣٤
غوادلوب ٢٣١
غورانسبي ٥٩٧
غوبلين ١٧٧
غويل ٦٨
غوتنجن ، جامعة ١٦١
غوتيماك ٣٣٦
غوتيه ١٨ ، ١٦٨ ، ١٦٩ ، ١٨٤ ، ٢٣٩ ،
٥١٧ ، ٥٢٤ ، ٥٨٦
غوئون ٤٧٣
غودهو ٢٨٢
غودوي ٥٠٧ ، ٥٢٤
الغوركاس ٢٩٤

٤٠٤ ، ٤١٤ ، ٤١٧ ، ٤١٩ ، ٤٣٥ ،
 ٤٣٨ ، ٤٥١ ، ٤٥٢ ، ٤٥٧ ، ٤٦٠ ،
 ٤٦٢ ، ٤٦٣ ، ٤٨٩ ، ٤٩٠ ، ٥٠٥ ،
 ٥١١ ، ٥١٢ ، ٥١٣ ، ٥١٥ ،
 ٥١٦ ، ٥١٧ ، ٥١٨ ، ٥٢٠ ، ٥٢١ ،
 ٥٢٥ ، ٥٢٧ ، ٥٢٨ ، ٥٤٩ ، ٥٥٠ ،
 ٥٥١ ، ٥٥٢ ، ٥٥٥ ، ٥٥٧ ، ٥٥٩ ،
 ٥٦٢ ، ٥٦٣ ، ٥٦٤ ، ٥٦٧ ، ٥٦٨ ،
 ٥٧٠ ، ٥٧٢ ، ٥٧٣ ، ٥٧٤ ، ٥٧٥ ،
 ٥٨٠ ، ٥٨٦ ، ٥٨٧ ، ٥٩٠ ، ٥٩٢ ،
 ٥٩٦ ، ٥٩٦

فرنسا الجديدة ٣٥٠ ، ٣٥١ ، ٣٦٠ ، ٣٧١

فرنسا جريدة ٢٧٨

فرنسا الاول ، الامبراطور ٥٥٢

فرنسا الثاني ، الامبراطور ٥٥٦

فرنسا ، الارشيدوق ٤٦٠

فرنسا دي لورين ١٨٣

فرنسيسكو ميراندا ٣٤٤

فرنكفورت ١٦٦ ، ٥٤٩ ، ٥٥٥

فرنون ، الاميرال ٣٣٦ ، ٣٣٧

فرنيه ١٧٤

فرونتنالك (حصن) ٣٥٠ ، ٣٦١

فري بتررو ٥١٧

فريبورغ ١٦١

فريتون ٣٢١

فريجوس ٤٩٠

فريدريك الثاني ١٩ ، ١٠٨ ، ١٠٩ ، ١١٠ ،

١٥٦ ، ١٥٩ ، ١٦٢ ، ١٦٨ ، ١٦٩ ،

١٨٠ ، ١٨٤ ، ١٨٥ ، ٢٠٦ ، ٢٠٧ ،

٢٠٨ ، ٢١٠ ، ٢٢٢ ، ٢٢٣ ، ٢٢٧ ،

٢٢٩ ، ٢٣٠ ، ٢٣١ ، ٢٣٢ ، ٢٣٤ ،

٢٣٨ ، ٢٣٩ ، ٣٧٣ ، ٥٠٨

فريدريك غليوم الاول ١٠٧ ، ٢٠٦ ، ٢٣٤

فريدريك غليوم الثاني ١٠١ ، ٢١٨ ، ٥١٢

فريدريك غليوم الثالث ٥٥٢ ، ٥٥٧ ،

٥٥٩ ، ٥٧٢

فريدريك الرا بع ملك الدانمارك ٢٠٨

فريدريك الخامس ملك الدانمارك ٢٠٨ ،

٢٠٩

فتوفروسو ٣٢٨

فراغونار ١٧٤

فرانك النمساوي ١٥٤

فرانكفورت ٥١٢

فرانكلين ١٨ ، ١٩ ، ٤٢ ، ٤٤ ، ١٢٧ ،

١٤٧ ، ١٨٢ ، ٣٦٦ ، ٣٦٧ ، ٣٦٩ ،

٣٧٠ ، ٤٢٤ ، ٤٤٢

فرانكلين جريدة ١٦٤

فرجين ١٦٥ ، ٢٣٤ ، ٣٦٩

فرجينيا ٢٧٥ ، ٣٥٢ ، ٣٥٧ ، ٣٥٨ ،

٣٦٠ ، ٣٦٦ ، ٣٦٨ ، ٣٧٦ ،

٥١٥

فردان ٤٦٣

فردينان السابع ٨١ ، ٥٨٢

ألفريدوسي ٢٦٢

فرفيه ٥١١ ، ٥١٢

فرساي ١٧١ ، ١٧٣ ، ١٧٩ ، ١٨٠ ،

١٨١ ، ١٨٢ ، ٢٢٥ ، ٢٢٨ ، ٢٣٠ ،

٢٩٠ ، ٤١١ ، ٥١٦

فرساي ١٧١ ، ٢٧٣ ، ١٧٩ ، ١٨٠ ،

٣٤٨

فرصوفيا ١٨٢ ، ٥١١ ، ٥٥٢ ، ٥٥٤ ،

٥٥٥ ، ٥٦٢ ، ٥٦٩

فرناندو ، جزيرة ٣١٦ ، ٣٤٢

فرنسا ٨ ، ١٥ ، ١٧ ، ٢٣ ، ٤٢ ، ٥٦ ،

١٠٠ ، ١٠٤ ، ١١٦ ، ١١٧ ، ١٢٠ ، ١٢٢ ،

١٢٩ ، ١٣٠ ، ١٣١ ، ١٣٢ ، ١٤٥ ،

١٤٦ ، ١٥٢ ، ١٥٧ ، ١٥٩ ، ١٦٠ ،

١٦١ ، ١٦٥ ، ١٦٧ ، ١٦٨ ، ١٧٧ ،

١٧٩ ، ١٨١ ، ١٨٢ ، ١٨٤ ، ١٨٧ ،

١٩٢ ، ١٩٣ ، ١٩٦ ، ١٩٩ ، ٢٠٠ ،

٢٠١ ، ٢٠٢ ، ٢٠٣ ، ٢١٠ ، ٢١٦ ،

٢١٧ ، ٢١٨ ، ٢١٩ ، ٢٢٠ ، ٢٢١ ،

٢٢٢ ، ٢٢٤ ، ٢٢٥ ، ٢٢٦ ، ٢٢٧ ،

٢٢٨ ، ٢٢٩ ، ٢٣٠ ، ٢٣١ ، ٢٣٤ ،

٢٣٦ ، ٢٣٨ ، ٢٤٢ ، ٢٤٣ ، ٢٤٤ ،

٢٤٥ ، ٢٤٦ ، ٢٤٧ ، ٢٤٨ ، ٢٤٩ ،

٢٥٠ ، ٢٥١ ، ٢٥٢ ، ٢٥٣ ، ٢٥٤ ،

٢٥٥ ، ٢٥٦ ، ٢٥٧ ، ٢٥٨ ، ٢٥٩ ،

فولر ١٥٣
 فولر ١١٠ ، ١١١
 فوافا ، نهر ٢٩٢ ، ٢٩٤
 فونتنوا (معركة) ١١٠ ، ١١٣ ، ١١٤
 فونتنيل ١٣ ، ١٦ ، ٤٤ ، ١٦٩
 فونك ٥١٨
 فيبورغ ٢٢٤
 فيتوريا ٥٦٣
 فيرخو ٣٣٠
 فيراكروز ٣٣٣ ، ٣٣٥ ، ٣٤٠ ، ٣٤٢
 فيراندي ٣٥٨
 فيك دازير ٦٤
 فيكو ٦٨ ، ٦٩
 فيلدنغ ١٦٤
 فيلادلفيا ١٢٧ ، ١٤٧ ، ١٤٩ ، ٢٩٧ ،
 ٣٥٢ ، ٣٥٤ ، ٣٦٦
 فيليب الخامس ملك اسبانيا ١٨١ ، ١٩٩ ،
 ٢١٨ ، ٢١٩ ، ٢٢٢ ، ٢٢٤ ، ٢٤٢
 فيليبس النري ٩٣٠
 فيليفيل ٥٦٤
 الفيلبين ٢٩٨ ، ٣٤٠
 فيلثوف ، الاميرال ٢٢٦ ، ٢٥١
 فيينا ١٣٤ ، ١١١ ، ١٥٢ ، ١٥٤ ، ١٦٠ ،
 ١٧٨ ، ٢٨٢ ، ٢٠٤ ، ٢٢٢ ، ٢٢٩ ،
 ٤٦٣ ، ٥٠٥ ، ٥١٠ ، ٥٢٣ ، ٥٤٩ ،
 ٥٥٢ ، ٥٥٤ ، ٥٥٧ ، ٥٦٦ ، ٥٦٧ ،
 ٥٨١
 فيينا معاهدة الثانية (١٧٣١) ٢٢٤ ،
 ٥٦٧ ، ٥٦٩ ، ٥٧٠ ، ٥٩٢
 ق
 قادش ١٢٩ ، ٢٠٠ ، ٣١٥ ، ٣٣٣ ، ٣٣٨ ،
 ٣٤٢
 قاموس شوفين ٢٥
 القاموس الفلسفي لغوتير ٨٤ ، ٣٠٣
 قبدان ٢٩٣
 القبيلة الذهبية الكبرى ٢٩٤
 القبيلة الذهبية الصغرى ٢٩٤
 القديس مرقس ، كنيسة في البندقية ١٤٨

فريدريك دي جنتز ٥٤٩
 فريدلاندر ٥٥٣
 فريرون ، جريدة ٢٦٥
 فكتور ، الجنرال ٥٥٠
 فكتور عمانوئيل ٥٨٢
 الفستول ٥٥٣
 فلتن ١٢٧
 فلورنسا ٥١٨
 فلوري ٢٢٥
 فلوريدا ١٩٩ ، ٢٣١ ، ٢٣٤ ، ٣٣٣ ، ٣٥٨ ،
 ٥٨٨
 فلاندر ٢٠٤ ، ٥٢٧ ، ٥٦٨
 فن التوكيد ١٥٤
 فنزويلا ٣٣٦ ، ٣٣٨ ، ٣٣٩ ، ٥٩٢ ، ٥٩٣
 فنستير ، رأس ٣٦٥
 فنسين (حصن) ٣٥٩
 فنلندا ٢٠ ، ٢٢٤ ، ٥٦٠ ، ٥٧٠
 فنيسيا ٥٥٥
 فوفا ، تورو ٢١٨
 فوفا ، جالون ٢١٨
 فو ، تشيو ٢٩٦
 الفوداي ، نبلاء ٣٠٥
 فوركروا ٥١
 فورث ، ستانفكس ٣٧٦
 فورستر ، جورج ٢٠٨ ، ٥١٦
 فورموزا ٢٩٦
 فورير ، مقاطعة ٤٤٧ ، ٤٤٨
 فوستيل دي كولانج ٦٩
 فوسيو ١١٢
 فوشيه ٥٠١
 فوكان ٢٩٢
 فوكس ٤٢٤ ، ٥٨٧
 فوكنسون ١٤٦
 فوكيان ٢٩٦ ، ٢٩٨ ، ٣٠٠
 الفولبا ٣١٩
 فولتر ١٣ ، ١٥ ، ١٨ ، ٥٧ ، ٦٨ ، ٧٣ ،
 ٧٤ ، ٧٨ ، ٩١ ، ٩٣ ، ٩٦ ، ٢٢٨ ،
 ١٦٥ ، ١٦٧ ، ١٦٩ ، ١٨٤ ، ١٨٥ ،
 ١٨٦ ، ٢٠١ ، ٢١٤ ، ٢٤٢ ، ٣٠٣ ،
 ٥٠٥

كاليديونيا الجديدة ٢٤٩
 كاليوسترو ١٠١
 كاليغورنيا ٣٣٥
 كانت ٧٩ ، ٨٠ ، ٨٢ ، ٩٩ ، ١٠٠
 كيانغ هي ٢٨٨ ، ٢٨٩
 كاهوكيا ٣٥١ ، ٣٧٦
 كبلر ٣٠ ، ٣٦
 كتاب فن تنظيم الحقائق للبلون ١٧٩
 كتالونيا ٢٢٠
 كراتنستانين ١٥٣
 كراكاس ٣٤٤
 كرامر ٥٣٤
 كراكوفيا ٥٦٦
 كرايبي البحر ٢٣٨ ، ٣٤٦ ، ٣٤٧ ، ٣٧٥
 كبرين ، فرنسوا ١٧٦
 الكترولانية ١٥ ، ١٦ ، ٢٧ ، ٤٤
 الكرج ، بلاد ٢٦٢
 كردستان ٢٦٤
 كرمان ٢٦٦
 كرنايك ، قبائل ٢٧٨ ، ٢٨٥
 كرنال ٢٦٤
 كروزو ، مصنع ١٤٦
 كروزبة ، القبطان ٢٥٧
 كرومويل ٣٦٦
 كريستيان الرابع ١٥٢
 كريستيان السادس ٢٠٨ ، ٢٠٩
 كريستيان السابع ١٨٢ ، ٢٠٩
 الكريك ، قبائل ٣٤٩
 كريم خان ٢٦٥
 كستلان ، دي ٤٢٩
 كستلريخ ٥١٦ ، ٥٦٣
 كسكاسيا ٣٥٠ ، ٣٧٦
 كسناي ٥١٣
 كشغار ٢٩١ ، ٢٩٣ ، ٢٩٤
 كلكتوتا ٢٧٦ ، ٢٨٢ ، ٢٨٥
 كلافيير ١٣٢ ، ١٣٣
 كلاماري ٣١٧
 كلوبستوك ١٦١ ، ٢٦٨

قرطاجنة ٣٢٣ ، ٣٣٦ ، ٣٣٧ ، ٣٤٠
 قرطبة ٣٣٤
 قرص ٢٦٢
 القرم ٢٢٦ ، ١٣٣ ، ٢٣٤
 قرن لويس الرابع عشر لفولتير ٧٣
 قزوين ٢٦١ ، ٢٦٥ ، ٢٩٤
 قزوين بحر ٢٦١ ، ٢٦٥ ، ٢٩٤
 القسطنطينية ٢١٣ ، ٢٣٣ ، ٢٦١ ، ٣١١
 القسطنطينية معاهدة (١٧٣٧) ٢٦٢
 القيصر ٣١٢
 القفقاس ٢٦٢ ، ٣١٢
 قندهار ٢٦١ ، ٢٦٤ ، ٢٦٥
 ك
 كابول ٢٦١ ، ٢٦٤ ، ٢٧٣
 كاترين الثانية ١٧ ، ١٩ ، ١٦٨ ، ١٧٨
 ١٨٥ ، ٢١٠ ، ٢١٦ ، ٢٢١ ، ٢٣٢
 ٢٣٤ ، ٢٦٥ ، ٣٤٤ ، ٣٦٩ ، ٥٠٥
 ٥٠٧ ، ٥٠٨ ، ٥٢٢ ، ٥٣٣ ، ٥٧٠
 كاترين الاولى ٢١٤
 كادا ٥٠٥
 كاديا ٢٤٨
 كادو دال ٤٩٣
 كاترايت ١٣٦ ، ١٣٨ ، ٢٤٧
 كاردون ٣١٢
 كارليل ١٣٧ ، ٥٧٨
 كارنوه ٢٧١ ، ٥٠١
 كارولين ٣٥٢ ، ٣٥٥ ، ٣٥٧ ، ٣٥٨
 ٣٥٩ ، ٣٧٦ ، ٥١٤
 كاريكال ٢٧٨
 كاريليا ٢٢٤
 الكازاك ٢٩٤
 كازاليس ٤٣٥ ، ٤٤٦
 كازامانس ٣١٦
 كازانوف ١٨٣
 كاسيني ، جاك ٣٢
 الكاسيكويار ٣٢٧
 كافنديش ٤٣
 كافور ٢٢٥
 كالون ١٩٧ ، ٤٦٠

٢٥١ ، ٢٥٠ ، ٢٤٩
 كوكس ٢٤٥
 كولبير ١٤٦ ، ٢٤٢ ، ٥٥٠
 كوليبا ٣٣٦ ، ٣٣٨
 كولنسون ٤٢ ، ١٤٤
 كولو ديربوا ٣١٤ ، ٣٧١
 الكولورادو ٣٥٨
 كولومب ١٦١
 كوليبا ٣٣٤
 كولون ، فرنسوا ٤٣١
 كولوني ، مدينة ٢٦٦ ، ١٨٣ ، ٢١٨ ، ٥١٨
 كوم (الاخ) ١٥٥
 الكومون ٤١٣ ، ٤٦٢ ، ٤٧٣ ، ٤٧٦ ،
 ٥٢٢ ، ٤٧٧
 كونارسكي ، الاب ٩٣
 كونتا ٥٦٤
 كونتشر ٥٢٧
 كونت اوفست ٣٥ ، ٦٦ ، ٧٤
 كونده ١٠٦ ، ٤٦٠
 كوندورسيه ، الركيث ١٤ ، ٧٤ ، ٧٥ ،
 ١٤٨ ، ٤٦٠
 كوندياك ٥١ ، ٦٣ ، ٧٧ ، ٧٨ ، ٩٥ ، ٥١٣
 كونفسبرغ (جامعتها) ٧٩
 الكونفو ٣١٦
 كونفوشيوس ٣٠٠
 الكونفوشية ٣٠٧ ، ٣٠٩
 كونكتيكت ٣٥٢ ، ٣٥٤ ، ٣٥٥ ، ٣٧٣ ،
 ٣٧٦
 الكونكورداتو (٢٨٠١) ٤٩٧
 كونيتز ٢٠٥
 كونيو ، مخترع اول سيارة على البخار
 ١٦١ ، ١٤٨
 كويابا ٣٢٨
 كوييل ٣٠٣
 الكويكر ٣٢١
 كويلمان ٣١٦
 كورنسو ماركيز ٣١٦
 كيا خطا (معاهدة ١٧٢٩) ٢٩١
 كيانغ ، سي ٣٠٣

كليرمون تونير ٤١٣ ، ٤٤٦
 كليرو ٢٣ ، ٢٨ ، ٣٠ ، ٣١ ، ٣٢ ، ٣٣
 كليف ١٦٦ ، ٢٠٦ ، ٢٨٠ ، ٢٨٢ ، ٢٨٣ ،
 ٢٩٥ ، ٢٨٤
 كليمان ونسلاس دي ساكس ١٨٣
 كمباسيرس ٤٩٩ ، ٥٠١
 كمبارلاند ٢٣٠
 كمبوديا ٢٥٣
 كمبو فورميو ٥٥٢
 كمشتكا ، شبه جزيرة ٢٤٥
 كميتو ٣٣٦
 كنتاكي ٣٧٦
 كنتون ٣٠١ ، ٤٩٦ ، ٤٩٧
 كندا ١٣٢ ، ٢٢٩ ، ٢٣٠ ، ٢٣١ ، ٢٤٥ ،
 ٢٤٦ ، ٣٢٢ ، ٣٥٠ ، ٣٦١ ، ٣٦٢ ،
 ٣٦٧ ، ٣٦٨ ، ٣٦٩ ، ٣٧١ ، ٣٧٢
 الكهرياء ٤٠ ، ٤٤
 كوان سن ، جبال ٢٩٢
 كواي ، تشايو ٢٨٨
 كوبا ٣٣٢ ، ٣٤٤
 كوبرين ١٧٨
 كوبرنيك ٢٦ ، ٧٩ ، ٣٠٢
 كوبلنتز ١٧٩ ، ٤٦٠
 كوبنهاغن ١٩ ، ٢٠٩ ، ٢١٨ ، ٥٥٣
 كوبنهاغن جمعية ... الملكية (١٧٤٥) ١٩
 كوبورج ٤٦٢
 كوبيك ٢٣١ ، ٢٤٨ ، ٣٢٢ ، ٣٥١ ،
 ٣٦١ ، ٣٦٧ ، ٣٦٨
 كوتوسوف ٥٦٢
 كوربو ساسي ٣٠٧
 كوردموا ١٦
 كورسيكا ٩٩ ، ١٩٧ ، ٢٣٢ ، ٥٥٤
 كورنيا ٣٣٠
 كوريل ، ارخييل ٢٤٥
 كوزكو ٣٣٤
 كوشنصين ٢٨٦
 كوك ، البحار ١٢٢ ، ٢٤٦ ، ٢٤٧ ، ٢٤٨ ،

لو ، الضابط ٢٨٠ ، ٢٨٣
 لوبرون ٤٩٩ ، ٥٠١
 لوبلين ٥٦٩
 لوثرن ٣٦٢
 لوثرن (معركة - ١٧٥٧) ٢٣١
 لورستان ٢٦٤
 لوريان ، مدينة ١٩٥ ، ٤٠٤
 اللوردين ٢٢٥ ، ٢٢٩ ، ٥٦٨
 اللوردين ضمها الى فرنسا (٧١٦٦) ١٩٧
 لوفرتور ٥٥٠
 لوفيفر ، جورج ٥٥٠
 لوك ١٣ ، ١٤ ، ٧٦ ، ٩٣ ، ٩٨ ، ٣٥٤ ،
 ٣٦٤
 لوكسمبورغ ٥٦٨
 لوكليز ٥٥٠
 لوموى ٥٢٧
 لونخ ، تشانغ ٢٨٨
 لويز فيل ٢٧٦
 لويزياد ٢٤٧
 لويزيانا ٢٣٢ ، ٣٣٥ ، ٣٥١ ، ٣٦٠ ،
 ٣٦١ ، ٥٥٠ ، ٥٨٨
 لويس بونابرت ٤٩٦
 لويسبورغ ٢٢٩ ، ٣٥٩ ، ٣٦١
 لويس الثالث عشر ١٧ ، ١٨٨ ، ١٩٥
 لويس الرابع عشر ١٩ ، ٨٨ ، ٢٠٧ ، ١٢٠
 ١٢١ ، ٢٢٣ ، ١٧٠ ، ١٧٩ ، ٢٨٠ ،
 ١٨٣ ، ١٨٤ ، ١٨٨ ، ١٩٥ ، ١٩٧ ،
 ٢٩٩ ، ٢٠٤ ، ٢٠٧ ، ٢١٨ ، ٢٢٠ ،
 ٢٢٣ ، ٢٢٤ ، ٢٣٤ ، ٢٩٧ ، ٣٨٠ ،
 ٣٨٥
 لويس الخامس عشر ١٧ ، ٢٩ ، ٩٣ ، ١٢٠ ،
 ١٧٠ ، ١٨٠ ، ١٩٦ ، ٢٢١ ، ٢٢٢ ،
 ٢٢٣ ، ٢٢٥ ، ٢٢٩ ، ٣٠٢ ، ٣٠٤ ،
 ٤٠٣
 لويس الخامس عشر الصيني ٢٨٩
 لويس السادس عشر ١٣ ، ١٢ ، ١٤٨ ،
 ١٦١ ، ٢٧٠ ، ١٧٣ ، ١٧٧ ، ١٩٥ ،
 ١٩٦ ، ١٩٨ ، ٢٣٤ ، ٢٤٦ ، ٣٠٤ ،
 ٣٤٨ ، ٣٧٠ ، ٤٠١ ، ٤٠٣ ، ٤٦٢ ،
 (لويس الثامن) ٥٢٢

كيانغ ، لونغ ٢٩٣ ، ٢٩٤ ، ٢٩٥ ، ٢٩٨ ،
 ٣٠١ ، ٣٠٤ ، ٤٩٦
 كيانغ ، يونغ ٢٨٩
 كيبي ٧١ ، ٧٢
 كيتو ٢٨ ، ٢٩ ، ٣٤١
 كيدو ٢٩٣
 كيل ٦١
 الكيمياء ٤٥
 كينيت ٥٠١
 كيوتو ٣٠٥
 كيولو روا ٣٠٧
 كيومنسو ٣٠٧
 كيونوغا ٣٠٧

ل

لسار ، دي ٤٦١
 لسنغ ٧٤ ، ١٠٠ ، ١٦٨ ، ١٨٤
 لشبونة ٢٨١ ، ٢٧٦ ، ٣٢٥ ، ٣٢٧ ،
 ٥٥٣
 لغريه ١٥٤
 لانيس ، الشفاليه دي ٣٦٢
 لكرنسكي ، ستانسلاس ٢٣٥
 لكسنغتن ٣٦٧ ، ٣٧٦
 لندن ١٤ ، ١٥ ، ١٠٤ ، ١٣٠ ، ١٣١ ،
 ١٤٧ ، ١٨١ ، ١٩٢ ، ٢٢٥ ، ٢٨٠ ،
 ٢٨٤ ، ٣٢١ ، ٣٢٤ ، ٣٣٦ ، ٣٤٧ ،
 ٣٥٥ ، ٣٦٨ ، ٤٠٤ ، ٤٦٣ ، ٥٢٤ ،
 ٥٥٠ ، ٥٨٤ ، ٥٩٦
 لبلون ١٧٩
 لنفوي ، بلدة ٤٦١
 له تاس ١٨
 له تور ١٧١
 له روا ١٢٢
 له غران ، استاذ سلفستر دي ساسي ٣١٢
 له فرو ١٧٧
 له هافر ١٩٥
 له كور بوزيه ١٧١
 له مونيه ٣٠ ، ٣٢
 له نوار ٢٧٨
 لو ١٣١ ، ١٣٢ ، ١٣٣ ، ١٣٤ ، ١٨٣ ،
 ٢٨٠ ، ٢٩٥

لامارن ، بربودي ٤٤٩	لويس السابع عشر ٥٢٧
لا متري ٨٥	لويس الثامن عشر ٤٣٥ ، ٥٧١ ، ٥٧٢ ، ٥٧٤
لامث ، الاخوة ٣٩٣	لويس فيليب ٤٣٥
لامرغيل ، هيرتو ٤٤٩ ، ٤٥٠	لاباز ٣٣٤
لاندو ٥٦٤	لابرادور ٢٤٨
لاموت بيكه ٣٧٠	لابلاتا ٣٤١
لانفدوق ٤٤٧	لابوانت ٣٥٠
لاهارب ٣٥٨	لابوردونية ٢٧٨
لاهافانا ٣٤٠ ، ٣٤٢	لابونيا ٢٠
لاهسا ٢٩٥	لابلاس ٢٠ ، ٢٣ ، ٣٢ ، ٣٥ ، ٣٧ ، ٤٠ ، ٦٢ ،
لاهور ٢٦٤ ، ٢٦٩ ، ٢٧٣	لا بيروز ٢٤٦ ، ٢٥٠
اللاوس ٢٨٦	لاروشفوكو ٤٢٨
لاي ، ملوك ٢٨٦	لاروشفوكو ، ليانكور ١٥٧ ، ٤٥٧
لي ، عائلة ٣٥٨ ، ٣٦٧ ، ٣٧٥	لازار كارنو ١٦١
ليزيخ ١٤ ، ٥٦٠ ، ٥٦٣	لاروشل ٤٣ ، ١٩٥ ، ٣٤٦
لينز ١٩ ، ٢٠ ، ٢٢ ، ٢٣ ، ٢٧ ، ٥٣	لاسيبيد ٥٣
لييا ٣١٨	لاس كاس ٥٠٠
ليندن ١٦ ، ٤١ ، ١٢٦	لاشا بليه ، (قانون) ٤٢ ، ٤٤ ، ٤٤٦ ،
ليفورس ٩٤	لاشالوتيه ٨٨
ليفارا ٣٥٠	لاغرانج ٢٠ ، ٢٣ ، ٢٤ ، ٣١
ليفورنو ٣١١ ، ٥١٨	لافابيت ٣٧٠ ، ٣٩٣ ، ٤٢٥ ، ٤٣٠ ، ٤٦١
ليفربول ١٣٥ ، ٣٤٦ ، ٥٧٨	٤٦٢ ،
ليفونيا ٢٢٤	لافرانك دي بومبيان ٣٩٥
لييبوت ٢٦٤	لافوازييه ١٩ ، ٢٠ ، ٢١ ، ٤١ ، ٤٥ ، ٤٦ ،
ليما ٣٣٢ ، ٣٣٤ ، ٣٣٦	٤٨ ، ٥٢ ، ٦٢
لينيه ٥٨ ، ٣٩ ، ٣٠٨ ، ٥١٧	لاير ، مدرسة ١٦١
ليوبولد ، امبراطور النمسا ٤٦٠ ، ٥١٨ ، ٥٢٠ ، ٥٢٢	لايراندري ٢٤٥
ليون ، مدينة ١٤٥ ، ٤٠٣ ، ٤٦٧ ، ٥١٦	لاكال ٣١٤
ليونار ، مصمم الازياء ١٧٧	لاكاي ٣٣ ، ٤٨
لييج ١٦٣ ، ٥١٢ ، ٥٢٨	لاكواندامين ٢٨
م	لاند ٣٣
ماتيو ، البير ٤٤٥	لالوزيرن ٤٢١
ماجيلان ، مضيق ٢٤٧	لانغرو ٤٢١
مادافا سندهيا ٢٨٣ ، ٢٨٤	لالى تولندال ٤١٣
مادورا ، جزيرة ٢٨٧	لامارنيك ٢٣١
ماديرا ، جزر ٣٢٥ ، ٣٢٨	لامارك ٦٥
ماديسون ٥٩٠	لامارن ، الاب ٤٣٥
مارات ٤٤٤	

ماريني ، الاخوة ٣٥٨
 ماريني دي : ان ٥٧٢ ، ٥٤٩
 الما ٢٥٤
 مانزو ، دوقية ٢٢٠
 الماندر فيج ٣٢٠
 المانش : اجتراره بالحمى لاول مرة على يد
 بلانشمار والدكتور جيفري في ٧ كانون
 الاول ١٧٨٣
 مائرة السماء في ١١٧
 مائو اسم ١٧٩
 مائو : شوائعه ٦٨
 مائولا ٢٤٩ ، ٣٤٠
 مائيه ٢٧٨
 مائولا ٥١٣
 الما ٣٠٥
 مائوي ، الاب ٩٩
 مائون ٣٥٢
 مائوس ١٧٩
 المايدى الرياضة القاعقة الطبعه
 اكتابات لاثون ، ١٧٢٦ (٢٢
 ميايدى علم جديد ، لفيكو (١٧٢٥) ٦٨
 مياي ، تسي ٢٨٨
 المايله ٣١٧
 مترنسخ ٥٥٦ ، ٥٥٧ ، ٥٦٣ ، ٥٦٦ ،
 ٥٧١ ، ٥٧٢ ، ٥٨٢ ، ٥٨٤ ، ٥٨٥
 متون (معاهدة ... ١٧٠٧) ١٢٩ ، ٣٢٤
 مجد بورغ ٥٤٩
 مجلس العموم ١٩١
 مجلس اللوردات ١٩١
 مجمع انتشار الامان ٢٤٣
 المحاولات الفلسفية حول الادراك البشرى
 (كتاب) ١٧٨
 محاولة في ادخال طريقة الرهنة الاختبارية
 الى العلوم الادبية لهيوم ٧٨
 المحر ٣٨
 محفل لندن الماسوني ٨٩
 محمود ، السلطان المغولي ٢٦٤ ، ٢٦٥ ،
 ٢٦٨ ، ٢٧٢ ، ٢٧٣
 محمود ، الامير الافغاني ٢٦١

مارينو مائوس ٥٢٧
 ماركسي ، كارل ٧١ ، ٧٢ ، ٧٣ ،
 المارلينز ، جزر ٢٤٩ ، ٢٥٠
 ماسارلي ١٧٩
 ماسان ، جزر ٢٤٧
 مارنوب وريغ ٥٦٤ ، ٥٦٨
 مارنغو ، معركة ٥٤٩
 مارنهاو ٣٢٧ ، ٣٢٩ ، ٣٣٠
 الماسيه ٤١٢
 ماري انطوانات ٦٤ ، ١٦٨ ، ١٧٠ ، ١٧٤ ،
 ١٧٧ ، ١٨٣
 ماري تيريل ٩٢ ، ١٦٨ ، ١٨٢ ، ٢٠٤ ،
 ٢٠٥ ، ٢٢٦ ، ٢٢٧ ، ٢٢٩ ، ٢٣٢ ،
 ٢٣٨ ، ٥٦٩
 ماري لكرنسكي ١٧٠ ، ١٧٤
 ماري لوب دي بارم ٥٠٧ ، ٥٦٧
 مارنلايد ٣٥٢ ، ٣٥٤ ، ٣٥٥ ، ٣٧٦
 مارنوت ١٥
 مازن ران ٢٦١ ، ٢٦٥
 ماستشوسيتس ٣٥٢ ، ٣٧٥ ، ٣٧٦ ، ٣٧٧
 الماسونية : نشاتها ، رموزها ، اهدافها
 ٨٨ ، ٩٠
 مسالك لورين ٢٣ ، ٣١
 ماكساو ٢٥٠
 ماكس صانويل ، منتخب بالاريا ١٨٣
 ماكسار ٢٨٧
 ماكنزي ٢٤٥
 ماكو دار توفيل ١٩٧
 مالقسا ، مضيق ٢٨٧
 ماكيسا فلي ٦٨
 ماكينيالك ٣٥٠
 مالبرانش ٢٠ ، ٩٦
 مالنوس ٥٩٩
 ماليسول ١٦٤
 مالطيه ٥٥١ ، ٥٦٧
 ماله ، الجنرال ٥٥٢
 مالوسه ٢٢٥ ، ٤٤٦
 مالزرب ٩٢
 مالزيبا ٢٥٤
 مالمين ٥١١

مكاو ٢٩٦ ، ٣٩٧ ،
مكتشفات جديدة في فن الحرب ١١١
المسيك ١٢٩ ، ٣٢٢ ، ٣٣٥ ، ٣٣٨ ،
٣٣٩ ، ٣٤١ ، ٣٤٣ ، ٣٤٤ ، ٥٩٣ ،
المسيك خليج ٣٣٦
مكسيكو ٣٣٢ ، ٣٣٤ ، ٣٤١ ، ٣٤٢ ، ٥٩١ ،
مكمبورغ ٢١٨ ، ٢٤٥ ، ٥٨٢ ،
مكناس ٣١٥
مل ، ستوارت ٤٦
الملا باريه ، الطقوس ٢٧٥
مليلا ٣١٥ ، ٣١٦
النيوزين ٢٦٩
منشستر ١٠٤ ، ١٣٥ ، ١٤٠ ،
المنشو ٢٩٤
منشوريا ٢٥٠ ، ٢٩١ ،
المنشوية ، الدولة ٢٦٠
منفالور (معاهدة) ٢٨٥
منغوليا ٢٥٩
المهندس : وصفه ٢٥
المهرات ٢٦٨ ، ٢٦٩ ، ٢٧٠ ، ٢٧٢ ، ٢٧٣ ،
٢٨٠
موادافر ٢٨٣
موبرتوي ٢٠ ، ٢٤ ، ٦٤ ، ٨٥
موبو ١٩٨
موخان ٢٦٥
المور ٢٢٩
مورات ، الجنرال ٤٩٩ ، ٥٥٢ ، ٥٥٣ ،
٥٥٤ ، ٥٦٢ ، ٥٦٣ ، ٥٦٧ ،
موراتوري ٤٢٠
مورلي ٩٩
مورودينو ٥٦٣
موري ٤٤٦ ، ٤٥٣ ،
موربتانيا ٣١٦
موريز ٤٤٧
موريس دي ساكس ١١٠ ، ١١٣ ، ١١٤ ،
١١٥
موريلوس ٥٩٣
موزر ١٧٨
موزاغان ٣١٥ ، ٣١٦ ،
موزمبيق ٣١٦

المحيط الهادي ٢٤٤ ، ٢٤٥ ، ٣٤٩ ، ٢٥٠ ،
٢٥٣ ، ٣٣٦ ، ٣٤٠ ، ٣٤٢ ، ٣٦٧ ،
المحيط الهندي ١٢٤ ، ١٣٢ ، ٢٤٨ ،
المحيط الاطلسي ٣١٠ ، ٣٢٢ ، ٢٤٩ ،
٣٦٩ ، ٥٠٦ ، ٥١٢ ،
المخزن ، قبائل ٣١٤
مدراس ٢٢٩ ، ٢٧٦ ، ٢٧٨ ، ٢٧٩ ، ٣٥٩ ،
مدريد ١٨١ ، ٣٥٢ ، ٥١١ ، ٥٥٣ ،
مدغشقر ٢٥٣ ، ٤٤٦ ،
المدفع الصقيل ١٠٦
المدانيون ٣٥٩
مذكرات حول الصين لمرسلين في بكين ٣٠٣
المدنات ٣٢
مراكش ، مدينة ٣١٦
مرسيليا ١٩٥ ، ٣١١ ، ٣١٢ ، ٤٦٣ ،
المرسليين ١٦١
مرسين ١٤
مركور فرنسا ١٥٦
مرلين دي دواي ٤٢٢ ، ٤٤٩ ،
مزبير ، مدرسة ١٦١
مسكلين ٢٩ ، ٣٠ ،
مسمر ١٠١
مستيل ديران ١١١
المسيحي ١٣٢ ، ٢٢٦ ، ٢٣١ ، ٢٣٤ ،
٣٤٠ ، ٣٤٩ ، ٣٥١ ، ٣٥٩ ، ٣٦٢ ،
٣٧٠ ، ٣٧٦ ، ٥٨٨ ،
ميمو دازيليو ٥٩٧
المشتري ٣٠ ، ٣٢ ،
مشهد ، مدينة ٢٦١ ، ٢٦٤ ، ٢٦٥ ،
٢٩١
مشهد الطبيعة (كتاب للاب بلوش) ١٧
مصر ٢١٢ ، ٢٣٤ ، ٣١١ ، ٣١٢ ، ٣١٣ ،
مصرف فرنسا ١٠٢
مصنف انكلترا ٢٣١
مصنف باريس ٢٣٣
المغرب ٢١٢ ، ٣١٥ ، ٣١٦ ، ٣١٩ ،
المغول ٢٦٠ ، ٢٦٧ ، ٢٦٨ ، ٢٧١ ، ٢٧٣ ،
٢٨٤
المغول الكبير ٢٦٧ ، ٢٦٨ ، ٢٧٢ ، ٢٧٣ ،
٢٧٦ ، ٢٧٨ ، ٢٧٩ ، ٢٨٠ ، ٢٨٥

وانقسموا عن الانكليكانية عام (١٧٩١)

٩٤

ميرابو ٧٢ ، ٢٠٨ ، ٤٣٥ ، ٤٤٧ ، ٤٥٣ ، ٤٥٤

ميراندا ٥٩٢ ، ٥٩٣

ميزاباربا ٣٠٠

ميزير : مدرستها الهندسية ٢٤

ميسوري ٢٧٢ ، ٢٧٦ ، ٢٨٥ ، ٣٥٨

ميشليه ٧

الميكادو ٣٠٥ ، ٣٠٩

ميلوخ اوبرينوفتش ٥٩٧

مينورك ٢٣٤

ميلانو ١٥٠ ، ٢٠٢ ، ٢١٨ ، ٢٢٥ ، ٢٢٩

٢٤٠ ، ٥٥٣

٢٢٩ ، ٢٤٠ ، ٥٥٣

ميلانو دوقية ٢٠٥

ميمتشين ٢٩١

ميناس ، جيريس ٣٢٨

مينورك ٢١٨

ن

ناباغوس ٣٢٦

النابعة الكهربائية ٤٣

النابعة الكهربائية ٤٣

نابولي ١٦٨ ، ١٦٩ ، ١٨٢ ، ١٩٩ ، ٢٠١

٢٠١ ، ٢١٨ ، ٢٢٦ ، ٥٥٤ ، ٥٨٢ ، ٥٨٣

٥٨٣

نابوليون بونايرت ١٠٦ ، ١١٩ ، ١٦٠ ، ١٦١

١٦١ ، ٢٨٣ ، ٤١٩ ، ٤٦٦ ، ٤٨٠ ، ٤٩٠

٤٩٠ ، ٤٩١ ، ٤٩٢ ، ٤٩٣ ، ٤٩٥ ، ٥٤٩

٥٤٩ ، ٥٥١ ، ٥٥٣ ، ٥٥٣ ، ٥٥٤ ، ٥٥٥

٥٥٥ ، ٥٥٦ ، ٥٦٠ ، ٥٦٢ ، ٥٦٣ ، ٥٦٤

٥٦٤ ، ٥٦٦ ، ٥٦٧ ، ٥٨٣ ، ٥٨٤ ، ٥٩٢

٥٩٢

نابليون الثالث ١٢٥

ناتشر ، قبائل ٣٥٩

ناييه ١٧٤ ، ٣٠٤

ناسم ، الدكتور ٨٣

نادر شاه ٢٦٢ ، ٢٦٢ ، ٢٦٤ ، ٢٦٥ ، ٢٧٢

٢٧٢

موزيل ٤٣٨

موس ٥٧

موسبرت ١٤٤

موسكو ١٥٣ ، ٢١٦ ، ٥١١ ، ٥٢٠ ، ٥٦٣ ، ٥٩٧

٥٩٧

موسكوف ، نهر ٥٦٣ ، ٤٩٨

الاوليس ، اقوام ٣٢٠

موسكيتوس ٣٣٦

موشنبروك ٤٦ ، ١٥

موفادور ٣١٦

موغان ٢٦٢

مولوز ٥٦٤ ، ٥٦٧

مولينو ٧٦

مولاي اسماعيل ٣١٥

مولاي محمد ٣١٥

مونيار ٤٢

مونيليار ٥١٧ ، ٥٦٤ ، ٥٦٧

مونيليه ٦١ ، ١٥١

مونتسكيو ١٨ ، ٢٠ ، ٦٩ ، ٧١ ، ٨٤ ، ١٠٠

١٠٠ ، ١٠٢ ، ١٦٣ ، ١٦٩ ، ٢١٤ ، ٢٤٢

٢٤٢ ، ٣٠٣ ، ٣٤٣ ، ٣٥٤ ، ٣٦٤ ، ٣٧٣

٣٧٣ ، ٣٧٧ ، ٣٨٠

مونتسكيو ، الاب ٤٢٢

مونتكالم ، المركيز دي ٣٦١

مونتفيدو ٣٣٥

مونتلوقيه ٤١٩

مونتياري ٣٤١

مونتييرز ٢٥٠

مونج ، غاسبار ٢٤

مونريال ٢٣٣ ، ٣٥٠ ، ٣٥٨ ، ٣٦١ ، ٣٦٢

٣٦٢ ، ٣٦٨

مونز ٢٨٦

مونفولقيه : الاخوان اتيان وجوزف ١٤٩

مونمورانسي ٤٢٠

موير ، المحامي ٥٢٣ ، ٥٢٤

مونيه : ٤١٣ ، ٤٣٠ ، ٤٣١ ، ٤٣٢ ، ٤٣٥

٤٣٥

مي - نام ٢٨٦

ميثو ، مدينة ٢٨٦

اليهوديون : اسسهم وسلي عام ١٧٢٨

نياغارا ٢٦١
 نيد هام ، الاب ٦٠
 نيراك ٤٣ ، ٤٢
 نيس ٤٢٥ ، ٥٦٨
 نيستات (معاهدة ١٧٢١) ٢٢٤
 نيكاراغوى ٣٣٦ ، ٣٤٢ (بحيرة)
 نيكر ١٣٢ ، ٤١٢ ، ٤٢١
 النيل ٣١٠ ، ٣١١
 النيل الازرق ٣٢٠
 نيم ، مدينة ٥١٣
 نيتمفتش ، جوليان ٥١٧
 نيمن ٥٦٠ ، ٥٦٣
 نيمور ، دويون دي ٤٣٣
 نيوتن ١٣ ، ١٤ ، ١٥ ، ١٦ ، ٢٢ ، ٢٣ ،
 ٢٤ ، ٢٦ ، ٢٧ ، ٢٨ ، ٢٩ ، ٣٠ ،
 ٣١ ، ٣٢ ، ٣٣ ، ٣٤ ، ٣٨ ، ٤٣ ، ٤٤ ،
 ٤٥ ، ٧٦ ، ٧٨ ، ٩٣ ، ٩٩ ، ٣٠٣
 نيوجرسي ٣٥٤
 نيوشاتل ، إمارة ٥٥٤
 نيوزبك ٣٧٤
 نيوكمن ١٣٦ ، ١٣٨ ، ١٣٩
 نيويورك ٢٩٧ ، ٣٣٦ ، ٣٥٤ ، ٣٥٥ ، ٣٥٩
 ، ٣٦٠ ، ٣٦٦ ، ٣٦٩ ، ٣٧٧
 *
 الهاتف : اختراعه ١٤٨ ، ١٤٩
 هاردنبرغ ٥٦٨
 هارسون ١٢٢
 هارغريفز ١٣٦ ، ١٣٧ ، ١٤٢ ،
 هارفرد ، جامعة (١٦٣٦) ٣٥٤
 هارونوبو ٣٠٦
 هازار ، بول ٨٨ ، ٧
 هاستنفر ، وورن ٢٨٤ ، ٢٨٥ ، ٣٢٣
 هال ، جامعة ١٦١
 هالي ٣٢
 هالي ملذب ٣٢
 هاليكس ٣٦٠
 هاملتون ٥٨٩
 هاتشانغ - تي ٢٩٩

نادر قلعة ٢٦٤
 ناغا باتام ٢٨٧
 ناغازاكي ٣٠٥
 ناسو ، امير ٤٦٠
 نانت ١٧١ ، ١٩٥ ، ٢٤٦
 نيراسكا ٣٥٨
 ناين ، المارشال ٥٧٧
 نانسي ١٧١
 نانغ ، هو ٢٩٦
 نرثنسك ، معاهدة ٢٩١
 النروج ٢٠٨ ، ٥٦٢ ، ٥٦٧ ، ٥٨١
 نظام الزوابع (كتاب لفونيل - ١٧٥٢) ١٦
 نظام الملك سوبادار ٢٧٢
 نظام الطبيعة (كتاب لموبرتوي ١٧٥٢) ٦٤
 نفوين ٢٨٦ ، ٢٨٧
 نقد العقل الصريح لكانت ٧٩
 نقد العقل العملي لكانت ٧٩
 نلسن ٥٥١
 النمسا ١٢٩ ، ١٦٦ ، ١٨٠ ، ٢٠٤ ،
 ٢٠٥ ، ٢١٢ ، ٢١٧ ، ٢١٨ ، ٢٤٢ ،
 ٢٢٥ ، ٢٢٧ ، ٢٢٩ ، ٢٣٠ ، ٢٣٣ ،
 ٢٣٢ ، ٢٣٨ ، ٢٣٩ ، ٤٦٠ ، ٤٦١ ،
 ٤٦٣ ، ٥٠٥ ، ٥١٨ ، ٥٢٢ ، ٥٢٧ ،
 ٥٥١ ، ٥٥٤ ، ٥٥٦ ، ٥٦٠ ، ٥٦٢ ،
 ٥٦٣ ، ٥٦٩ ، ٥٧٤ ، ٥٨١ ، ٥٨٤ ،
 ٥٨٥ ، ٥٩٧
 نمور ، دويون دي ٤٥٣
 النهر الاسود ٣٣٦
 النهر الاحمر ٣٣٥ ، ٣٥٨
 نواي ، لويس دي ٤١٦ ، ٤٤٦
 نوبل ١٥
 النوبة ، بلاد ٣٢١
 نورفولك طريقته في الزراعة ٢٤٤
 نورث ، اللورد ١٩٢ ، ١٩٣ ، ٣٦٦
 نورمنديا ٤٠٣
 نوسترا ، الاخوان ٢٥١
 نوفاليس ٥٨٦ ، ٥٨٧
 نولية ، الاب ١٧ ، ١٨ ، ٤٢
 النيبال ٢٩٤
 النيجر ، نهر ٣٢٠ ، ٣١٩ ، ٣٢٠

الهند التبشير بالمسيحية فيها ٢٧٤ ، ٢٧٦ ،
الهند الصينية ٢٨٦
الهندوس ، نهر ٢٥٩ ، ٢٦٤ ، ٢٦٦ ، ٢٦٩
الهندوس ، طائفة ٢٧١ ، ٢٧٢ ، ٢٧٤ ،
٢٧٥ ، ٢٧٦
هنري الرابع ١٨٨ ، ١٩٥
هنري السابع ١٨٧
هنري الثامن ١٨٧
هنري ، بترك ٣٦٩
هنغاريا ٢٠٤ ، ٢٠٥ ، ٤٦١ ، ٥٠٩
هوبرتسبورغ (صلح - ١٧٦٣) ٣٣٢
هوتس ١٤
هوتبو ٣١٧
هودون ١٤٥
هوغو ٧٤
هوفمن ١٥٢
هولستين ٢١٨
هولندا ١٤ ، ١٦ ، ١٨ ، ٣٩ ، ١٢١ ،
١٣٠ ، ١٣١ ، ١٣٢ ، ١٤٥ ، ١٦٢ ،
١٨١ ، ١٨٨ ، ٢٢٠ ، ٢٨٧ ، ٢٨٠ ،
٣٨٠ ، ٥١٧ ، ٥١٨ ، ٥٢٤ ، ٥٥٢ ،
٥٥٥
هولندا الجديدة ٢٤٨ ، ٢٤٩
هوندوراس ٣٣٦
هوهنزولرن ، ال ٢٠٦ ، ٢٢٧
هوهنيلوه ٤٦٠
هويغنس ٢٥ ، ٢٤ ، ٢٧ ، ٢٨ ، ٢٩
هويه ، مدينة ٢٨٦ ، ٣٠٣
هيبيرت ٤٧٤
هيلدبرغ ١٥٨ ، ١٥٩ ، ١٦١
هيرمن ٢٤٥
هيكل سليمان ٨٩
هيليغولند ، جزيرة ٥٥٣
هيلوير الجديدة ٨٥
هيوم ٧٨ ، ٧٩ ، ٨٠ ، ٩٩
و
الواباش ، نهر ٣٥٩
واترلو ٥٦٤ ، ٥٧٠ ، ٥٧٧
الواز ٢٢٩
واشنطن ، مدينة ١٢٧ ، ٣٨٠ ، ٥٩٠

هانغ - هي ٢٩٢ ، ٣٩٤ ، ٢٩٦ ، ٢٩٨ ،
٣٠٠
هاردنبرغ ٥٥٨
الهانزا ، اتحاد ٥٥٤
هانوفر ٢١٨ ، ٢٢٠ ، ٢٢٤ ، ٢٣٠ ، ٢٣١ ،
٥٠٩ ، ٥١ ، ٥٥٢ ، ٥٨٢
هانوفر جامعة ١٦١
هانوي ٢٨٦
هاواي ٢٤٩
هايلز ٦١
هاينو ٥١٧ ، ٥٢٧
الهبريد ، جزر ٢٤٩
الهبريد الجديدة ٢٤٧
هدسون ، خليج ٢٠ ، ٢١٩ ، ٣٥٠
٣٥٩
هرمان ودوروتيه ٥٠٧
هردر ٧٤ ، ١٠٠ ، ٢٣٧ ، ٢٣٩
هس ١٤٧
هيسبورغ ، ال ١٦٠ ، ١٦١ ، ١٨٣ ، ٤٠٢ ،
٢٠٥ ، ٢٠٨ ، ٢٢٤ ، ٢٢٧ ، ٥٥٢ ،
٥٥٤ ، ٥٦٧
هراة ٢٦١ ، ٢٦٢
هرشل ، ولیم ٣٠ ، ٣٤ ، ٣٦
هلفينيا ، اتحاد ٥٥٥
همالايا ، جبال ٢٨٦ ، ٢٩٤
همبورغ ١٣٤ ، ١٦٦ ، ٥١٢ ، ٥٥٣ ، ٥٥٤
هلفتيوس ٥٥ ، ٩٥
هنتمن ، مكتشف الفولاذ (١٧٥٠) ١٣٨ ،
١٤١
الهند ١٣١ ، ١٣٢ ، ١٣٧ ، ١٥٣ ، ٢٠٠ ،
٢٠٥ ، ٢٢٤ ، ٢٢٦ ، ٢٣١ ، ٢٤٦ ،
٢٥٩ ، ٢٦٠ ، ٢٦١ ، ٢٦٤ ، ٢٦٦ ،
٢٦٧ ، ٢٦٨ ، ٢٦٩ ، ٢٧١ ، ٢٧٢ ،
٢٧٣ ، ٢٧٤ ، ٢٧٧ ، ٢٧٨ ، ٢٧٩ ،
٢٨٢ ، ٢٨٣ ، ٢٨٤ ، ٢٩٥ ، ٢٩٨ ،
٢٩٩ ، ٣١٣ ، ٣١٥ ، ٣٣٢ ، ٣٥٩ ،
٣٧٠ ، ٤٤٥
الهند مجلس ٣٣٢

ونكلن ٢٣٩ ، ٢٣٧ ، ٧٤
 وورتنبرغ ٥٥٢
 ووكر ، صموئيل ١٠٤
 وولش ٤٣
 وولف ، القائد ٨٦ ، ٣٦١
 ويسمار ٢٢٤
 الويفر ١٩١ ، ١٩٢
 ويلبر فورس ٣٢١
 ويليس ٦٣

ي

اليابان ٣٦٠ ، ٣٠٤ ، ٣٠٥ ، ٣٠٦ ، ٣٠٨ ،
 ٣٠٩
 يادو ٣٠٥
 ياكوتسك ٢٩١
 يال ، جامعة ٣٥٤
 يالويو ٣٠٧
 اليانغ - سي ، نهر ٢٥٩ ، ٢٨٨
 ياهندر ٢٦٨
 يتيم الصين (مسرحية لنولير) ٣٣
 يسوع المسيح ٢٧٥ ، ٢٩٩ ، ٣٠٠
 اليسوعية الرهبانية (الفلها - ١٧٧٣)
 ٩٢ ، ٩٣ ، ٢٠٠
 العقوبيون ٤٢٣ ، ٤٦١ ، ٤٦٢ ، ٤٧٧ ،
 ٤٨٩ ، ٤٩١ ، ٤٩٧ ، ٥٢١ ، ٥٢٢
 يورك ، رأس ٢٤٩
 يو نان ٢٨٦ ، ٢٩٣
 يونغ ارثر ٤٠٤
 يونغ - تشانغ ٢٨٩ ، ٢٩٣ ، ٢٩٨ ، ٣٠٠ ،
 ٣٠١

واشنطن ، جورج ١٢٧ ، ٣٥٨ ، ٣٥٩ ،
 ٣٦٠ ، ٣٦٨ ، ٣٧٠ ، ٣٧٤ ، ٣٧٧ ،
 ٤٢٤ ، ٣٨٠
 وات او واط (جيمس) ٤٠ ، ١٠٤ ، ١٣٧ ،
 ١٧٣ ، ١٤١
 واطو ٢٨٩ ، ٣٠٣
 واغادوفو ٣٢٠
 والبول ١٩٢ ، ٢٢٤
 واليس ٢٤٧ ، ٢٥٠
 وايلز ١٠٤
 وثيقة الملاحة (١٧٥١) ١٨٨
 ورتمبرغ ١٤٧
 وردسوث ٥١٦ ، ٥٢٤
 وسام جوقه الشرف ٤٩٩
 وستقاليا ٢٢٥ ، ٥٥٤
 وستمنستر (اتفاق - ١٧٥٦) ٢٣٠
 وسلي ٩٤ ، ١٩٠
 وصف الصين (كتاب) ٣٠٣
 وضع الصين الحالي (كتاب) ٣٠٣
 وفرام ٤٩٨ ، ٥٥٤
 الوكر الاسود (سجن) ٢٨٢
 ولنفتن ٥٦٣ ، ٥٧٣
 وليم هنري (حصن) ٢٨٣ ، ٣٦١
 الولايات المتحدة الاميركية ٨ ، ٢٠٧ ،
 ٢٣٤ ، ٣٣١ ، ٣٤١ ، ٣٤٣ ، ٣٤٤ ،
 ٣٥٢ ، ٣٦٩ ، ٣٧٠ ، ٣٧١ ، ٣٧٣ ،
 ٣٧٥ ، ٣٧٧ ، ٣٨٠ ، ٤٠٤ ، ٥٠٥ ،
 ٥٠٦ ، ٥١٣ ، ٥١٤ ، ٥٢٦ ، ٥٢٧ ،
 ٥٥٠ ، ٥٨٨ ، ٥٨٩ ، ٥٩٠ ، ٥٩٢ ،
 ٥٩٣

فهرست الخرائط والنصايم

ص	
١١٠	الانتقال من صف السير الى صف الحكومة
١١١	الصف المنحرف
١٢٢	سفينة في اقرب نقطة ممكنة من الريح الماكسة
١٢٦	رسم ايجازي لناورة « سوفرين »
١٤١	رسم ايجازي لآلة نيوكومن
١٤٢	رسم ايجازي لآلة وات
٢٢٧	خريطة ١ - معاهدات ١٧١٣ - ١٧١٤
٢٣٣	٢ - الفتوحات الروسية وقسم بولونيا الاول
٢٦٣	٣ - المراكز التجارية الكبرى في المعجم
	٤ - الممالك المنفصلة عن الامبراطورية المقلوية والممالك الاخرى القائمة الى
٢٧٠	الجنوب من الهند
٢٧٧	٥ - الاروبيون في الهند
٢٧٩	٦ - طرق آسيا الوسطى
٢٨١	٧ - توسع الصين في آسيا الوسطى
٣٣٧	٨ - طرق مواصلات الامبراطورية الاسبانية في اميركا الجنوبية
٣٥٣	٩ - الفرنسيون والانكليز في اميركا الشمالية
٤٦٥	تدهور الليرة الفرنسية والقطع الفرنسي بين ١٧٨٩ والعام الثالث من التقويم الجمهوري
٥١٩	خارطة ١٠ - اوربا عام ١٧٨٩
٥٢٩	١١ - اقتسام بولونيا الخامس في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر
٥٣٧	١٢ - فرنسا عام ١٨٠٢
٥٦١	١٣ - اوربا في عهد نابليون عام ١٨١٠
٥٧٩	١٤ - اوربا عام ١٨١٥
٥٩٣	نمو الاقتصاد الاوروي
٥٩٤	نمو الاقتصاد الدولي
٥٩٥	نمو الاقتصاد الانكليزي

فهرست الصّـور

- ١ - اّحد مشاهد الشارع : السير في باريس في القرن الثامن عشر (تصوير «فيوتيه») .
- ٢ - اختبار كهربائي على رجل يحويه الاب (نوليه) في مختبر لعلم الطبيعة .
نقش لـ (ر . برونه) ، نقلا عن (له سيور) ، لكتاب الاب «نوليه» : « محاولة
في كهرباء الاجسام » (باريس ، الاخوة غيرين ، ١٧٤٦) .
- ٣ - اختبار مغناطيسي (متحف « كرنفاليه » ، تصوير « بولوز ») .
- ٤ - مختبر كيميائي في القرن الثامن عشر .
نقش « بريفو » ، نقلا عن « غوسيه » ، لدائرة المعارف (دار الكتب الوطنية) .
- ٥ - لافوازييه يجري في مختبره اختباراً على تنفس الانسان في حال الراحة .
رسم السيدة لافوازييه (دار الكتب الوطنية) .
- ٦ - تتويج فولتير في « المسرح الفرنسي » ، في ٣٠ آذار ١٧٧٨ .
رسم « غابرييل دي سانتوين » (١٧٧٨) . (متحف اللوفر . تصوير بولوز) .
- ٧ - شارع « كنكامبوا » في السنة ١٧٢٠ .
رسم مغفل (مجموعة « بول انغولفان » ، تصوير ب. و. ف.) .
- ٨ - انشاء طريق عام في منطقة جبليّة .
رسم « جوزف فرنه » (متحف اللوفر . المحفوظات الفوتوغرافية للفن والتاريخ) .
- ٩ - فلاحو غونيس يمزقون منطاداً هبط في قريتهم .
نقش مغفل (دار الصور المنقوشة) .
- ١٠ - ملشاً اللقاح (رسم هزلي لـ « ادوار جنر ») (دار الصور المنقوشة) .
- ١١ - منظر دار « سوبيز » ، من جهة الشارع .
رسم « ج. ب. ريفو » نقلا عن « جاك ريفو » (متحف اللوفر) .

- ١٢ - منظر قاعة الاستقبال في اللوفر في السنة ١٧٥٣ .
رسم « غابرييل دي سانتوين » (دار الصور المنقوشة) .
- ١٣ - رمز « جرسين » - نقش « ب. افلين » نقلا عن « واتو » . (دار الصور المنقوشة) .
- ١٤ - قصر « سان-سوسي » في بوتسدام .
نقش « ج. س. كنوبفز » (١٧٨٨) . (دار الصور المنقوشة) .
- ١٥ - الشاي على الطريقة الانكليزية في صالون « المرايا الاربع » في الـ « قبل » .
رسم « اوليفيه » . (متحف اللوفر . المحفوظات الفوتوغرافية للفن والتاريخ) .
- ١٦ - رقصة روسية - نقش « سانتوين » ، نقلا عن « له برنس » ، لكتاب الاب « شاب
دوروش » : « رحلة الى سيبيريا » . (دار الصور المنقوشة . المحفوظات الفوتوغرافية
للفن والتاريخ) .
- ١٧ - منظر حدائق « باغانيل » - نقش « نيكه » ، نقلا عن ل. « بلائجه » . (دار الصور
المنقوشة) .
- ١٨ - الملكة « اوبيريا » تتخطى عن « تاميتي » للضابط « واليس » .
نقش نفذت تحت اشراف « غودفروا » لكتاب حول الرحلات التي امر بها صاحب
الجلالة البريطانية ... لتحقيق الاكتشافات في النصف الشمالي من الكرة الارضية .
(دار الكتب الوطنية) .
- ١٩ - برابرة من راس « دين » يعدون طعامهم .
نقش « كوبيا » و « م. - ف. ديان » نقلا عن « بيرون » . (دار الكتب الوطنية) .
- ٢٠ - منظر جزيرة « اولياتيا » مع زورق مزدوج مصنوع من جذع شجرة ومحطة مسقوفة
لايواء زوارهم .
نقش لكتاب « رحلات كوك » ، المجلد الثالث (تموز ١٧٦٩) . (دار الصور
المنقوشة) .
- ٢٠ - موكب المهرابا - رسم سيلاني ، (مجموعة « بول انغولفان » : تصوير « ب. و. ف. »)
- ٢٢ - الامبراطور « كيان-لونج » يتقبل الجزية من الـ « كازاك - كرخيز » .
نقش نفذت تحت اشراف « كوشين » ، نقلا عن رسم للأب كستيفليون اليسوعي (عهد
السنج) - (متحف غيمه ، المحفوظات الفوتوغرافية للفن والتاريخ) .
- ٢٣ - مراكب صينية - صورة منقوشة مغلقة ، (دار الصور المنقوشة) .
- ٢٤ - متنزه على شاطئ البحر ، في اليابان - صورة منقوشة لـ « كيوتاغا » .

- ٢٥ - وصول طليعة علماء الآثار الى مصر .
نقش مغفل منقول عن كتاب « دانون » : « رحلة الى مصر » (١٨٠٢) . (دار
الصور المنقوشة) .
- ٢٦ - النخاسة في المرتينيك - نقش مغفل . (دار الصور المنقوشة) .
- ٢٧ - نساء « ايدنتون » ، في كارولينا الشمالية ، يأتلين على الامتناع عن احتساء الشاي
حتى انقاذ بلادهم .
نقش مغفل . (دار الصور المنقوشة) .
- ٢٨ - جمعية الكونغرس الاميركي الاول .
نقش « غودفروا » ، نقلًا عن « له باربييه » . (دار الصور المنقوشة) .
- ٢٩ - نزهة عند اسوار باريس .
رسم « ب. ف. كورتوا » ، نقلًا عن « اوغسطين دي سانتويين » (١٧٦٠) (دار
الصور المنقوشة) .
- ٣٠ - عيد احيته مدينة باريس على نهر السين في السنة ١٧٣٩ .
نقش « ج. ف. بلونديل » ، نقلًا عن « سالي » ، (متحف اللوفر) .
- ٣١ - حي « تويلاري » مع بناء « الجمعية » ومنتدى « اليعقوبيين » .
نقش « كلود لوقاس » ، نقلًا عن « لويس بريتر » (متحف اللوفر) .
- ٣٢ - مشهد احد الشوارع : مشهد الاناشيد .
نقش « مادلين سكوشين » ، نقلًا عن « ش. ن. كوشين » الابن . (دار الصور
المنقوشة) .
- ٣٣ - افتتاح مجلس الطبقات في فرساي ، في ٥ ايار ١٧٨٩ .
نقش هلمن نقلًا عن « ش. مونييه » . (دار الصور المنقوشة) .
- ٣٤ - « كميل ديمولان » يخاطب الجماهير في القصر الملكي ، في ١٢ تموز ١٧٨٩ .
نقش « برتو » ، نقلًا عن « بريور » . (دار الصور المنقوشة) .
- ٣٥ - الشهب في الشارع (ليل ١٢ - ١٣ تموز ١٧٨٩) .
نقش « ا. ف. سرجان » (١٧٨٩) . (دار الصور المنقوشة) .
- ٣٦ - الاستيلاء على سجن « الباستيل » ، نقش « سلييه » (١٧٨٩) . (دار الصور
المنقوشة) .
- ٣٧ - عودة العائلة المالكة الى باريس ، في ٦ تشرين الاول ١٧٨٩ .
رسم مغفل . (دار الصور المنقوشة) .

- ٣٨ - عيد « الاتحاد » في باريس ، في ١٤ تموز ١٧٩٠ .
نقش « برتو » ، نقلا عن « برير » (دار الصور المنقوشة) .
- ٣٩ - صورة طبق الاصل مأخوذة من العدد ٣٩١ من « صديق الشعب » أو « الصحافي الباريسي » . (٦ اذار ١٧٩١) . (دار الكتب الوطنية) .
- ٤٠ - مقهى « غوديه » في شارع « التمل » ، حوالي السنة ١٧٩١ .
رسم « سويباك ديفونتين » . (متحف كرنفاليه . المحفوظات الفوتوغرافية للفن والتاريخ) .
- ٤١ - الاحتفال بعيد « الكافن الاسمى » في ٢٠ « بريرال » من السنة الثانية .
(دار الصور المنقوشة) .
- ٤٢ - العودة بروبسيو مجروحاً الى مدخل مركز لجنة السلامة العامة ، في ٢٨ تموز ١٧٩٤ .
(١٠ ترميدور من السنة الثانية) .
- رسم (برتو) نقلا عن « دوبلسي - برتو » (دار الصور المنقوشة) .
- ٤٣ - وصول الغنائم الحربية الى فرنسا .
صورة منقوشة مغلقة (متحف كرنفاليه ، تصوير بولوز) .
- ٤٤ - مسح نابوليون - نقش « لافاليه » . (دار الصور المنقوشة) .
- ٤٥ - حديقة قصر ال « تويلري » في السنة ١٨٠٨ .
رسم « نوربلين دي لاغوردين » . (متحف كرنفاليه . تصوير بولوز) .
- ٤٦ - القنصل الاول والسيدة بوناپرت في زيارة مصنع الاخوة « سنين » في مدينة « روان » في تشرين الثاني ١٨٠٢ .
- رسم « ايزابييه » (صالون السنة ١٨٠٤) . (متحف فرساي ، تصوير « جيرودون ») .
- ٤٧ - داخل مشغل « دافيد » في اللوفر - رسم « كوشرو » . (متحف اللوفر ، تصوير « فيوليه ») .
- ٤٨ - فتنة الثالث من ايار ١٨٠٨ في « لابويرتا دل سول » .
رسم غويا (١٨٠٨) . (متحف ال « برادو » . تصوير جيرودون) .

فهرس

ص	مدخل
٧	

القسم الأول

القرن الاخير للنظام الجديد

الكتاب الاول

« الانسوار »

١٣	الفصل الاول . - روح القرن
١٣	١ - الاسلوب
	ديكارت ، لوك ، نيوتن - النزاع بين ديكارت والالين - اقتصار الآلية النيوونية في هولندا او الأثر الهولندي - الاختلاط بين الكروانية والآلية
١٧	٢ - ظروف العمل
	شف الجاهير - مساندة الرأي والحكومات - شمول علم العلماء
٢٢	الفصل الثاني . - الرياضيات
	تحليل الكمية الصغرى - تفرق البر الاروبي والفرنسي - الهندسة الوصفية - علم الآليات العقلي - المهندس
٢٦	الفصل الثالث . - علم الفلك
	مسألة الجاذبية - براهين الجاذبية - مقاييس موبرتوي ولاكوندامين - ملاحظات بوغر ومسكلين - بوغر وحياد الجبال - مراقبات « له مونيه » - اثبات الجاذبية بالحساب - نظرية السيارات والاقمار - ثبات النظام الشمسي - المذنبات - وسائل جديدة للمراقبة - الاكتشافات - تأليف لابلاس

ص

٣٨	الفصل الرابع . - علم الطبيعة
	الحر - قياس كمية الحرارة - الكهرباء - الاكتشافات الاولى - قنينة لايدن - الكهرباء الجوية ومانة الصواعق - الكهرباء العضوية والنابعة الكهربائية - طبيعة الكهرباء
٤٥	الفصل الخامس . - الكيمياء
	العنصر الهبي - شيل - بريستي - لافوازييه - الاصلاحات الكيميائية
٥٣	الفصل السادس . - العلوم الطبيعية
	بوفون - الجيولوجية - التصنيفات النباتية والحيوانية - التناسل الذاتي - التغذية - الاخصاب - الاعصاب - مذهب التعول
٦٦	الفصل السابع . - علوم الانسان
	علم طبائع الانسان - العلم الواسع - علم الاجتماع - الاقتصاد السياسي - التاريخ - «علم المقولات» - توسع العلم
٨٤	الفصل الثامن . - النظريات الشاملة
	« فلسفة الانوار » - الماسونية - المسيحية والكنايس - الرمنطيقيون - جان جاك روسو - «كانت» - الرجعيون

الكتاب الثاني

« الانوار » والتقنية

١٠٥	الفصل الاول . - التقنية العسكرية
	البندقية - المدفع الصليل - الحرب في السنة ١٧١٥ - الجيش البروسي - التقدمات النمساوية والفرنسية - الاصطفاة المييق - النيران الاختيارية - جنود الطليعة - صف الهجوم - الفرقة - الفرسان - مدفعية فالير - « بيليدور » - مدفعية « غريبوفال » - المدفع المفرض - الحرب الجديدة - التوسع الاوروبي
١٢٠	الفصل الثاني . - الثورة الملاحية
	المهندسون - السفن - مسألة تحديد موضع السفينة - السفن الحربية - الفن الحربي البحري والستراتيجية البحرية - « رودني » و « سوفرن » - السفينة التجارية
١٢٨	الفصل الثالث . - الثورة المالية والصناعية
	الروح النقدية - توافر رؤوس الاموال - تدفق المعادن الثمينة - النقد الورقي - الاوراق النقدية - النقد الورقي في هولندا - في انكلترا - في فرنسا - في البلدان الاخرى - الثورة الصناعية في انكلترا - الصناعة المنزلية - التركيز التجاري - تقسيم العمل والانتاج بالجملة - العامل - الآلات - اسباب

ص

اختراعا - المخترعون - نجاح الاختراعات - ترابط الاختراعات في صناعة التسيج - صناعة
استخراج المعادن ومعالجتها - الآلة البخارية - التعاون المتبادل بين الصناعات - التجمعات الصناعية
- تحسين النوعيات وتزايد الكميات - الصراع الطبقي - استموار الصناعة المنزلية - الصناعة
الكيميائية - الزراعة الصناعية - في البر الاوروي - في فرنسا - في البلدان الاخرى - مائة
الصواعق - السيارة والقطار الحديدي - الهاتف - التلفراف - الملاحة الجوية - اوربا والعالم .

الفصل الرابع . - تقنيات التحسين الانساني ١٥١

١ - الطب والجراحة ١٥١

الدروس - التشخيص والتقدير - الطب الدوائي - الوقاية - فن التوليد - الجراحة

٢ - التعليم ١٥٥

روح القرن - التعليم الابتدائي - التعليم الثانوي - التعليم العالي

٣ - الصحافة ١٦٢

المصحف الهولندية - الصحافة الانكليزية - الصحافة الاميركية - الصحافة في البر الاوروي - في
فرنسا - البلدان الاخرى

الكتاب الثالث

الانوار وتعذر تحقيق الامة الاوروية

الفصل الاول . - وحدة اوروبا ١٦٧

اوروبا الفرنسية - الفرنسية لغة اوروبية - الفن الفرنسي فن اوروبي - هندسة العمارة الفرنسية -
الرسم الفرنسي - النقاش الفرنسية - الموسيقى الفرنسية - الزي الفرنسي - الطهاية الفرنسية -
غزو فرنسا لاوروبا - اسباب التوسع الفرنسي - بلاط فرنسا - قاعات الاستقبال - الاستقبال
الفرنسي - الهجرة الفرنسية - الروح الاقطاعية - الوطنية الشائكة - الاستبداد المستنير

الفصل الثاني . - تنوع اوروبا ١٨٦

اوروبا الغربية ١٨٨

الملكة المتحدة - الاقاليم المتحدة - فرنسا

اوروبا الجنوبية ١٩٩

اسبانيا - البرتغال - ايطاليا

اوروبا الوسطى ٢٠٢

سويسرا - البلدان الجرمانية والدافوبية - الامبراطورية المقدسة - الامراء - آل هابسبورغ - آل
« هوهنزولرن »

اوروبا الشمالية ٢٠٨

ص

.....	الدنمارك - السويد
٢١٠	اوروپا الشرقية
.....	بولونيا - تركيا - روسيا
٢١٧	الفصل الثالث .- تنوع اوروپا ، المنافسات بين الدول
	الوضع الدبلوماسي في السنة ١٧١٥ - مميزات السياسة الخارجية في القرن الثامن عشر - القبول بمعاهدات اوترخت ورامنتات (١٧١٥-١٧٣١) - نهوض فرنسا (١٧٣١-١٧٤٠) - الحروب البرية والبحرية الكبرى (١٧٤٠-١٧٦٣) - اوتقاء الروس والبروسيين (١٧٦٣-١٧٨٩) .
٢٣٥	الفصل الرابع .- تنوع اوروپا ، انطلاقي اويقظة العصيان القومية

الكتاب الرابع

حضارة الانوار وحضارات ما وراء المحيطات

.....	انتشار الحضارة الادروبية
٢٤٤	الفصل الاول .- الاكتشافات الاوروبية في القرن الثامن عشر
٢٥١	الفصل الثاني .- اوقيانيا
٢٥٩	الفصل الثالث .- آسيا
٢٦٠	بلاد فارس والهند
	بلاد فارس الهند
٢٨٦	الشرق الاقصى
	الهند الصينية - الانسولاند - اليابان
٣١٠	الفصل الرابع .- افريقيا
	مصر - تونس - الجزائر - المغرب - افريقيا السوداء

الكتاب الخامس

الانوار والمجتمعات الاوروبية في اميركا

٣٢٤	الفصل الاول .- اميركا البرتغالية
	وضع البرازيل في مستهل القرن - تطور البلاد الى عهد ببال - عمل ببال الاصلاحى - حركة التطور بعد ببال

ص

٣٣٢	الفصل الثاني . - اميركا الاسبانية
	الوضع العام بعد معاهدة اوترخت - الامبراطورية الاسبانية بين ١٧١٣-١٧٩٥- عهد شارل الثالث
٣٤٦	الفصل الثالث . - « الجزائر »
٣٤٩	الفصل الرابع . - اميركا الشمالية الفرنسية والانكليزية حتى عام ١٧٦٣
	البلاد وسكانها - المستعمرات الفرنسية - المستعمرات الانكليزية - تنوع المستعمرات الانكليزية - وحدة هذه المستعمرات - حركة الاسكان في المستعمرات حتى ١٧٦٣ - النزاع بين الفرنسيين والانكليز
٣٦٣	الفصل الخامس . - استقلال المستعمرات الانكليزية في اميركا (١٧٦٣-١٧٨٣)
	الشعب الاميركي - روح السيطرة البريطانية والمقاومة - حرب الاستقلال
٣٧١	الفصل السادس . - تطور كندا (١٧٦٣-١٧٩١) ونشأة الولايات المتحدة (١٧٨٣-١٧٨٩)
	كندا واكاديا - الولايات المتحدة ودستورها الجديد - عجز مجالس الكونغرس - دستور عام ١٧٨٧ - الولايات المتحدة واروپا

القسم الثاني

مجتمع القرن الثامن عشر امام الثورة

الكتاب الاول

الثورة الفرنسية والدعائم النابوليونية

٣٨٤	الفصل الاول . - قوى الثورة
٣٨٤	١ - القوى الطبيعية
٣٨٤	١ - المدن
	الدفع الديموغرافي - ارتفاع عام في الاسعار - اهداف البورجوازية «المستنيرة» والعوائق التي تحول دون تقدمها - البروليتارية ومن هم في منتصف الطريق منها - المدينة تقف في رجة امتيازات النبلاء - قوة الكنيسة
٣٩٥	٢ - الأرياف
	الفلاحون الملاكون - متعهدون ومرابعون - الرأسمال العقاري والمنتجون - بؤس البروليتارية الريفية
٤٠١	٣ - ازمة ١٧٨٩ الاقتصادية
	موسم زراعية رديئة وارتفاع مستمر في الاسعار - انهيار الانتاج الصناعي واستحكام البطالة في البلاد - النتائج السياسية والاجتماعية

ص

- ٢ - عدة الثورة واداراتها ٤٠٦
- المجالس البورجوازية والنوادي والصحافة - الجيش والحرس الوطني ٤١٠
- ٣ - انتصار الثورة ٤١٠
- انتصار الشعب في المجلس - انتصار الشعب في باريس - الثورة في المقاطعات الفرنسية - الانتصار على البورجوازية المحافظة ٤١٥
- الفصل الثاني . - عهد المؤسسات ، الثورة والمجمعية التأسيسية (١٧٨٩ - ١٧٩١) ٤١٥
- ١ - التنظيم السياسية ٤١٥
- ١ - إلغاء النظام الاقطاعي ٤١٥
- ثورة الفلاحين - ليلة الرابع من آب - تحقيق المساواة - قراوات ٥ - ١١ آب - الحقوق الاقطاعية الغاية الاقتداء أو الافتكاك - تدابير اخرى لتأمين المساواة يتخذها المجلس الوطني ٤١٥
- ٢ - حقوق الانسان ٤٢٥
- الاقتراح على وثيقة اعلان حقوق الانسان - المساواة المدنية - الحريات - السيادة - حق الملك بالرفض ٤٣٢
- ٣ - الديمقراطية البورجوازية ، نحو ديمقراطية قوامها دافعو الضرائب ٤٣٢
- مواطنون عاملون رسلبيون - الانتخاب الضرائبي - المارك الفضي - التنظيمات الادارية والعديلة - الاكثريوس والدمستور المدني ٤٣٩
- ٢ - التنظيم الاقتصادية ٤٣٩
- حرية العمل وحرية التنقل ٤٤١
- ١ - حرية التصرف وإلغاء الاحتكار ٤٤١
- الامتيازات المهنية وليل ٤ آب - إلغاء تمويضات المخلصين وروساء الحرف - قانون لاشابلييه - إلغاء امتيازات المؤسسات التجارية - إلغاء احتكار شركات التعدين - زراعة حرة وسياج حر - المشاعات ٤٥١
- ٢ - حرية المرور أو إلغاء الرسوم المفروضة على المواد الاستهلاكية ٤٥١
- حرية الاقتعال في الداخل ٤٥٢
- ٣ - محاولة اعادة توزيع الثروة في فرنسا ٤٥٩
- تأميم الاوقاف الكنسية - الامنياء ربيع الاوقاف ذات للنشأ الاول - الضرائب والرسوم المقاربة ٤٥٩
- الفصل الثالث . - عهد المتوقعات ، الثورة والمؤتمر الوطني (١٧٩٢ - ١٧٩٥) ٤٥٩
- ١ - القوى المتحركة ٤٥٩
- ١ - الخطر المزدوج ٤٥٩

هـ

- « الانفصال الوطني » واللاجئون « الحرة » - « الحائن » لافايت - « الحرة » في
الداخل - لويس الحائن - حركة انفصالية يقوم بها سكان مقاطعة الفانديه - « الانفصال
الاجتماعي » - التضخم المالي وارتفاع الاسعار - رئيس الجوقة : البؤس
- ٢ - هدة الثورة وادائها ٤٦٩
- الجمعيات الشعبية - اللجان الثورية - الصحافة - الاعياد الوطنية - بين الديمقراطية
والدكتاتورية - « طفيان » الحرية
- ٣ - فوز الحركة ٤٧٣
- الشمارات المقتنة - عهد الرعب - بوادر الضعف
- ٤ - الملع البورجوازي ٤٧٦
- الردة السياسية والاقتصادية والاجتماعية
- ٢ - الوحدات القياسية في السياسة ٤٧٨
- اعلان حقوق الانسان عام ١٧٩٣ - حق الاقتراع العام وحكومة المجلس - الكائن الاعظم ،
فصل الكنيسة عن الدولة
- ٣ - الوحدات القياسية في الاقتصاد والاجتماع ٤٨١
- خليط من المستمر والزائل ، إلغاء الرسوم الاقطاعية - انتقال الملكية وبيع املاك اللاجئين -
الاقتصاد المشترك - جمهورية اجتماعية - محاولة وضع تشريع اجتماعي - طابع العام الثاني
الزائل والرمزي
- الفصل الرابع . - عهد التدهيم والتوطيد ، محاولة الديركتوار الفاشلة والثورة
- الناپوليونية (١٧٩٦ - ١٨١٥) ٤٨٨
- ١ - القوى الموطدة ٤٨٨
- الجميع يتوقون ببلء جوارحهم الى الاستقرار السياسي - الكل يرغب في الاستقرار الاقتصادي -
الجيش الموطد - القنصل الاول وعمله التوطيدي
- ٢ - القوى الموطدة لسياسة البلاد العامة ٤٩٢
- الاقتراع العام يقتصر على اقلية من دافعي الضرائب ، استفتاءات - النظام الدستوري والهياكل
الاستشارية - مصير الحريات الاساسية - الاكليروس والجامعة - سلطة الاعيان والبورجوازية
النبيلة
- ٣ - التدهيم الاقتصادي ٥٠١
- تدابير تتناول حرية التصرف - حرية الانتقال والرسوم المشتركة - النتائج

الكتاب الثاني

العالم امام الثورة الفرنسية والفتوحات النابوليونية

- ٥٠٥ الفصل الاول . - العالم في سنة ١٧٨٩
 رئاسة اوربا الاطلسية
- ٥٠٦ ١ - المباني الرئيسية
 الاستبداد والاستوقراطية الاقطاعية - ارقاء الارض ومتعهدون ومكترون - نحو الملكية المركزية
- ٥١٠ ٢ - البورجوازية والرأسمالية
 ادمار المدن الصناعية والتجارية - الحائز الثورية
- ٥١٣ ٣ - السراب الانكلوسكسوني
 قوة الارستوقراطية البريطانية - الجمهورية الاميركية
- ٥١٦ الفصل الثاني . - الثورة الفرنسية والعالم (١٧٨٩ - ١٨٠٢)
- ٥١٦ ١ - عدوى الثورة الفرنسية
 انضمام المجتمع المستنير - اولى الانتفاضات : ثورات براينت ولييج - ردود الفعل الارستوقراطية
 وموقف الملوك
- ٥٢٢ ٢ - الحرب الاجتماعية الدولية (١٧٩٢ - ١٧٩٥)
 صراع في سبيل الدفاع عن المدنية - المقاومة السرية في الخارج - حرب الدعاوة والتشار الثوري
 مناهج الدبلوماسية التقليدية والحصار البحري - جيش الثورة وتمويل الحرب - النتائج : النصر
 الفرنسي واحتدام الحلفاء غضبا
- ٥٣٢ ٣ - قمة الحرب الاجتماعية : انكسار اوربا (١٧٩٥ - ١٨٠٢)
 وحدة الهدف والوسائل والتكتيك - بونايرت في ايطاليا - الجمهوريات
 الشقيقات - الحلف الثاني
- ٥٤٠ الفصل الثالث . - نابليون والعالم (١٨٠٢ - ١٨١٥)
- ٥٤٠ ١ - اقدار نابليون
 الحصار النابوليوني وموقف الدول التوابع، الثورة وانتشار فتوحاتها الاجتماعية ، الجيش
 والتكتيك النابوليوني - الوضع الدولي
- ٥٤٦ ٢ - الفتوحات النابوليونية

ص

نابليون والدول الكبرى في أوروبا - الحصار البري وتناحله - الامبراطورية الكبرى والنظام
القاري في أوروبا

٥٥١ ٣ - يقظة الروح القومية وانتصار أوروبا

القوى المعادية - القطة البروسية والرومنطيقية الألمانية - قوى على قد الثورة الفرنسية - النصر
الروسي - الحلف العام

استنتاجات عامة

حضارة السنة ١٨١٥ المحددة

٥٦٢ ١ - التجدد الأوروبي و « مجتمع الدول »

أوروبا - التوازن - الشرعية - مؤتمر فيينا - فرنسا - بروسيا - النمسا - روسيا الراجحة الكبرى
- إنكلترا - القيم الأوروبية - الحلف المقدس - الحلف الرباعي

٥٧٠ ٢ - التجديدات الداخلية

ميثاق السنة ١٨١٤ - تقاليد ووراثة - التنازلات لجهة المبادئ - شكوك حول التطبيق - في
إنكلترا - المناطق المنخفضة - سويسرا - الدستور النرويجي - في ألمانيا - في إسبانيا -
التجديد الاجتماعي

٥٧٩ ٣ - قيم الحضارة المحددة

القولاء الأتلية - التجدد الرومنطقي - القيم المحددة

٥٨٤ ٤ - الاضطراب المحددة بالجمتمع المحدد

الحرف الاجتماعي - انطلاقة الولايات المتحدة، الفور الجمهوري - الثورات اللاتينية - البرازيل
انتفاضة المستعمرات الإسبانية - شمول انطلاقة البورجوازية النظام البريطاني الحر - بواور
النظام الحر في روسيا - الحركات القومية - البروليتاريا

٥٩٧ التوجيه البيليوغرافي

٦٠٣ مراجع عربية

٦٠٨ جدول زمني مقارن

٦٢٠ جدول الاعلام

٦٥١ فهرست الخرائط والتصاميم

٦٥٣ فهرست الصور

٦٥٧ فهرست عام

انتهى المجلد الخامس ، ويليه المجلد السادس
القرن التاسع عشر

- ١- حوار الحضارات
- ٢- الميتولوجيا اليونانية
- ٣- مبادئ في العلاقات العامة
- ٤- الخلدونية
- ٥- سوسيولوجيا الأدب
- ٦- الأسواق الزراعية
- ٧- الجمالية الفوضوية
- ٨- تاريخ الفنون العسكرية
- ٩- الفكر الفرنسي المعاصر
- ١٠- الأدب المقارن
- ١١- الإسلام
- ١٢- برغسون
- ١٣- سيكولوجيا الفن
- ١٤- تأملات ميتافيزيقية
- ١٥- في الدكتاتورية
- ١٦- العقد النفسية
- ١٧- دستوفسكي
- ١٨- نظرية العفو
- ١٩- الإنسان ذلك المعلوم
- ٢٠- سوسيولوجيا الفن
- ٢١- السيمياء
- ٢٢- التخلف المدرسي
- ٢٣- علم الأديان وبنية الفكر الإسلامي ...
- ٢٤- مدخل إلى علم السياسة
- ٢٥- نقد المجتمع المعاصر
- ٢٦- روسو
- ٢٧- الأدب الرمزي
- ٢٨- طريقة الروايز في التربية
- ٢٩- مصير لبنان في مشاريع
- ٣٠- من ديكاوت إلى سارتر
- ٣١- الانطباعية
- ٣٢- تاريخ قرطاج
- ٣٣- باسكال
- ٣٤- المؤسسات العامة
- ٣٥- المسألة الفلسفية
- ٣٦- تاريخ السوسيولوجيا
- ٣٧- الفدرالية
- ٣٨- أمراض الذاكرة
- ٣٩- المذاهب الأخلاقية الكبرى
- ٤٠- نقد الايديولوجيات المعاصرة
- ٤١- الفلسفات الكبرى
- ٤٢- العواطف والحياة الأخلاقية
- ٤٣- المكتبات العامة
- ٤٤- منظمة الأمم المتحدة
- ٤٥- الدستور واليمين الدستورية
- ٤٦- هذه هي الحرب
- ٤٧- الممارسة الايديولوجية
- ٤٨- المواطن والدولة
- ٤٩- فلسفة العمل
- ٥٠- مونتاني
- ٥١- علم الجمال
- ٥٢- تدريب الموظف
- ٥٣- فلسفة التربية
- ٥٤- السوق النقدية
- ٥٥- الإنسان المتمرد
- ٥٦- تيار دوشاردان
- ٥٧- التربية الحديثة
- ٥٨- كيركغارد
- ٥٩- تقنية المسرح
- ٦٠- المذاهب الأدبية الكبرى
- ٦١- النقد الجمالي
- ٦٢- الحضارات الإفريقية
- ٦٣- ديكاوت والعقلانية
- ٦٤- العلاقات الثقافية الدولية
- ٦٥- البيليوغرافيا
- ٦٦- علم السياسة
- ٦٧- الإعلام
- ٦٨- سوسيولوجيا السياسة
- ٦٩- الأدب الطبيعي
- ٧٠- الجمالية عبر العصور
- ٧١- فن تخطيط المدن
- ٧٢- علم النفس التجريبي

- ٧٣- أصول التوثيق
- ٧٤- دينامية الجماعات
- ٧٥- تاريخ العرقية
- ٧٦- قيمة التاريخ
- ٧٧- سوسيولوجيا الصناعة
- ٧٨- الماركسية بعد ماركس
- ٧٩- معرفة الذات
- ٨٠- تاريخ الطيران
- ٨١- التعليم المبرمج
- ٨٢- السلطة السياسية
- ٨٣- سوسيولوجيا الحقوق
- ٨٤- الخطوط الأولى لفلسفة ملموسة
- ٨٥- مدخل إلى التربية
- ٨٦- معرفة الغير
- ٨٧- القيمة
- ٨٨- عظمة الفلسفة
- ٨٩- الإنسان الأول
- ٩٠- اللحظة العدمية المتعالية
- ٩١- الجمالية الماركسية
- ٩٢- تاريخ بابل
- ٩٣- الفلسفة والتقنيات
- ٩٤- جغرافية العالم الصناعية
- ٩٥- فلاسفة إنسانيون
- ٩٦- الحرب الأهلية
- ٩٧- أصل الموحدين الدروز
- ٩٨- من الرأي إلى الإيمان
- ٩٩- التسويق
- ١٠٠- دفاعاً عن الأدب
- ١٠١- الذين يحضرون غيابهم
- ١٠٢- الجماعات الضاغطة
- ١٠٣- الأسطورة
- ١٠٤- التوفير والتشجير
- ١٠٥- الإحصاء
- ١٠٦- الوظيفة العامة
- ١٠٧- الكلام
- ١٠٨- النظام السياسي والإداري في بريطانيا
- ١٠٩- الثقافة الفردية وثقافة الجمهور
- ١١٠- توظيف الأموال
- ١١١- الأدب الألماني
- ١١٢- المحاسبة التحليلية
- ١١٣- النظام السياسي والإداري في فرنسا
- ١١٤- الأمومة والبيولوجيا
- ١١٥- الحريات العامة
- ١١٦- قانون القضاء
- ١١٧- تلوث المياه
- ١١٨- النقد الأدبي
- ١١٩- النظام السياسي والإداري في الاتحاد السوفياتي
- ١٢٠- التلوث الجوي
- ١٢١- النسبية
- ١٢٢- السورالية
- ١٢٣- حلول فلسفية
- ١٢٤- التلفزيون الملون
- ١٢٥- مدخل إلى الاقتصاد
- ١٢٦- الأخلاق والحياة الاقتصادية
- ١٢٧- مناهج علم الاجتماع
- ١٢٨- استطلاع الرأي العام
- ١٢٩- وحدة الوجود العقلية
- ١٣٠- الأدب الإيطالي
- ١٣١- المذاهب الاقتصادية
- ١٣٢- الفن التكميلي
- ١٣٣- التربية الجنسية عند الولد
- ١٣٤- فلسفة القانون
- ١٣٥- الطفولة الجانحة
- ١٣٦- الرواية البوليسية
- ١٣٧- النقد البنوي للحكاية
- ١٣٨- تاريخ الجزائر المعاصر
- ١٣٩- الكوميديا
- ١٤٠- تاريخ علم الآثار
- ١٤١- السيكلوجيا الصناعية
- ١٤٢- الدولة
- ١٤٣- البحث العلمي
- ١٤٤- المجتمع الصناعي

- ١٤٥- الترجيح التربوي والمهني
- ١٤٦- الجوع
- ١٤٧- التخفيض النقدي
- ١٤٨- القانون الدولي
- ١٤٩- الدراما والدرامية
- ١٥٠- صراع الطبقات
- ١٥١- الامبريالية
- ١٥٢- الاستعارة والمجاز المرسل
- ١٥٣- علم الدلالة
- ١٥٤- البنيوية
- ١٥٥- الاتجاهات الأدبية الحديثة
- ١٥٦- جغرافية الاستهلاك
- ١٥٧- معايير الفكر العلمي
- ١٥٨- تاريخ الحساب
- ١٥٩- الياس أبو شبكة
- ١٦٠- آراء في السعادة
- ١٦١- تقنية السينما
- ١٦٢- العقل والنفس والروح
- ١٦٣- علم النفس الاجتماعي
- ١٦٤- الطاقة
- ١٦٥- مناهج التربية
- ١٦٦- آداب الهند
- ١٦٧- الوحدة والديموقراطية في الوطن العربي
- ١٦٨- جغرافية السكان
- ١٦٨- التقمص
- ١٦٩- حقوق الطفل
- ١٧٠- أينشتاين
- ١٧١- السدود
- ١٧٢- تقنية الصحافة
- ١٧٣- الإنسان
- ١٧٤- الأدب الصيني
- ١٧٥- تفرظ الفلسفة
- ١٧٦- اللامركزية السياسية والإدارية في العالم
- ١٧٧- الفكر العربي
- ١٧٨- طبيعة الميتافيزيقا
- ١٧٩- الخدمة المدنية في العالم
- ١٨٠- التربية المستقبلية
- ١٨١- تاريخ الحضارة الأوروبية
- ١٨٢- حقوق الإنسان الشخصية والسياسية
- ١٨٣- المحاسبة
- ١٨٤- سيكولوجيا الذكاء
- ١٨٥- الاقتصاد في المغرب العربي
- ١٨٦- فولتير
- ١٨٧- التاريخ الدبلوماسي
- ١٨٨- الطبقات الاجتماعية
- ١٨٩- من الكندي إلى ابن رشد
- ١٩٠- الاستثمار الدولي
- ١٩١- مدخل إلى السوسيولوجيا
- ١٩٢- الحركة النقابية في العالم
- ١٩٣- المحاسبة في النظرية والتطبيق
- ١٩٤- الأدب اليوناني
- ١٩٥- تاريخ علم النفس
- ١٩٦- الفوضوية
- ١٩٧- المورفولوجيا الاجتماعية
- ١٩٨- الآليات الزراعية الحديثة
- ١٩٩- التسويق السياسي
- ٢٠٠- الفلسفة الشريفة
- ٢٠١- الاسترخاء
- ٢٠٢- بحوث في الرواية الجديدة
- ٢٠٣- المواقف الأخلاقية
- ٢٠٤- مع الفلسفة اليونانية
- ٢٠٥- أضواء عربية على أوروبا في القرون الوسطى
- ٢٠٦- الجريمة
- ٢٠٧- الأسواق المالية في العالم
- ٢٠٨- المراهقة
- ٢٠٩- الكندي
- ٢١٠- الصحة العقلية
- ٢١١- ميزان المدفوعات
- ٢١٢- الوسائل السمعية والبصرية
- ٢١٣- البنزين

- أصالة الفكر العربي / د. محمد عبد الرحمن مرجبا
- من الفلسفة اليونانية إلى الفلسفة الإسلامية / د. محمد عبد الرحمن مرجبا
- الجامع في تاريخ العلوم عند العرب / د. محمد عبد الرحمن مرجبا
- الله والإنسان في الفكر العربي والإسلامي / د. أحمد خواجه
- أفلوطين رائد الوجدانية / د. غسان خالد
- الشيخ عبد الله العلايلي والتجديد في الفكر المعاصر / د. فايز ترحيني
- تاريخ الفلسفة الإسلامية / هنري كوربان
- تيارات الفكر الفلسفي / أندريه كرسون
- آداب الزواج في الإسلام / القاضي هشام قبلان
- الوصية الواجبة في الإسلام / القاضي هشام قبلان
- مع القرآن في الدين والدنيا / القاضي هشام قبلان
- رسل ثلاثة لإله واحد / روجيه اولانديز
- جبل العرب - صفحات من تاريخ الموحدين الدروز / حسن البعيني
- تاريخ الثورة الفرنسية / أليرسويول
- فلسفة الثورة الفرنسية / بونار غرويتون
- مدخل إلى تاريخ العلاقات الدولية / ريتوفان ويدروزيل
- اللامركزية ومسألة تطبيقها في لبنان / د. خالد قباني
- معركة وادي المخازن / يونس نكروف
- يوم تبض الصين / آلان بيرليت
- تاريخ الرواية الحديثة / أليريس
- اللسانيات واللغة العربية / د. عبد القادر الغامبي الفهري
- مدخل لجامع النص / جبرار جينيت
- تاريخ السبينا في العالم / جورج سادول
- الزراعة اللبنانية وتدخلات الدولة في الأرياف / د. أحمد بعلبكي
- المسألة الزراعية في ريف الجزائر / د. أحمد بعلبكي
- سيكولوجية الذكاء / جان بياجه
- المورفولوجيا الاجتماعية / موريس هالبواك
- سوسيولوجيا العمل ج 1 / فريدمان ونافيل
- سوسيولوجيا العمل ج 2 / فريدمان ونافيل
- مدخل إلى الإحصاء / د. عبد القادر حليمي
- التفاعل الكيميائي / ترجمة صلاح يحيوي
- الكيمياء العضوية / ترجمة صلاح يحيوي
- طرق الاحتياط والتنفيذ / يوسف جبران
- القانون والجرم وشبه الجرم / يوسف جبران
- النظرية العامة للمسؤولية الناشئة عن الفعل الشخصي / د. عاطف النقيب
- النظرية العامة للمسؤولية الناشئة عن فعل الأشياء / د. عاطف النقيب
- أصول المحاكمات الجزائية / د. عاطف النقيب
- الوظيفة القضائية والدبلوماسية / د. عاصم سلمان جابر
- مذكرات الجنرال ديغول : أربعة مجلدات
- ١ - النفي
- ٢ - الوحدة
- ٣ - الخلاص
- ٤ - الأمل
- الكامل في قانون التجارة للأستاذ الياس ناصيف : أربعة مجلدات
- ١ - المؤسسة التجارية
- ٢ - الشركات التجارية
- ٣ - عمليات المصارف
- ٤ - الإفلاس
- تاريخ الحضارات العام : بإشراف موريس كروزيه
- ١ - الشرق واليونان القديمة / أندريه إماروجانين أوبوايه
- ٢ - روما وإمبراطوريتها / أندريه إماروجانين أوبوايه
- ٣ - القرون الوسطى / أدوار بروي
- ٤ - القرنان السادس عشر والسابع عشر / رولان موسنييه
- ٥ - القرن الثامن عشر / رولان موسنييه وارنست لا بروس
- ٦ - القرن التاسع عشر / روبرت شنيوب
- ٧ - العهد المعاصر / موريس كروزيه

HISTOIRE GENERALE DES CIVILISATIONS

publiée sous la direction de
MAURICE CROUZET
Inspecteur général de l'Instruction publique

TOME V

LE XVIII^e SIÈCLE

L'ÉPOQUE DES « LUMIÈRES »
(1715-1815)

par

Roland MOUSNIER et **Ernest LABROUSSE**
Professeur à la Sorbonne *Professeur à la Sorbonne*

avec la collaboration de
Marc BOULOISEAU
Docteur ès Lettres

QUATRIÈME ÉDITION REVUE

Texte traduit en arabe

par

Youssef A. DAGHER & Farid M. DAGHER

EDITIONS OUEIDAT

Beyrouth — Paris

